

الجاحظ

رسائل الجاحظ



دار ومكتبة الهلال

الجاحظ

رسائل الجاحظ

الرسائل السياسية

قدّم لها وبيّنها وشرحها
الدكتور علي أبو ملحم

منشورات

دار ومكتبة الهلال

بيروت

سَنَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ

جميع الحقوق محفوظة للناشر
الطبعة الأخيرة

م 2002

مركز تحقيقات الكمبيوتر علوم إرسودي

تطلب منشوراتنا من :

دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر

بنر الصية - شارع مكربل - بناهية برج الغامبية - ملكة حار ومكتبة الهلال

تلفون: ٨٣٦٨٨١ / ٨٢٠٦٧٧ - فاكس: ٦٠٢٢٨٦ (٩١١) - ص.ب. ٥٠٠٣١٠ / ١٤ - بيروت لبنان

٦١٦ / ٦٠١٠٢ / ٦٠١٠٢ - ٨٣٢٩٦٠ - قسم ٦١٦



مقدمة عامة

هذه عشر رسائل انتهت إلنا من مؤلفات الجاحظ السياسية العديدة . وقد ضاعت سائر الكتب التي عالجت موضوع السياسة ولا يعرف سوى عناوينها الواردة في لائحة كتبه . (انظر « كشاف آثار الجاحظ » الذي نشرناه) .

وتدور الرسائل حول ست مسائل أساسية . المسألة الأولى هي مفهوم السياسة وأصولها وطريقة إقامة الرئيس . لقد فهم الجاحظ السياسة بمعنى التدبير ، تدبير شؤون الناس ومعاشهم . وكثيراً ما يستعمل لفظة السياسة مقترنة بلفظة التدبير . وترجع السياسة إلى أصلين هما الترغيب والترهيب . وفي ذلك تتفق السياسة الدنيوية مع السياسة الدينية : فكما رغب الله عباده بالجنة وخوفهم من النار ، هكذا ينبغي أن يفعل الحاكم مع الرعية لكسب طاعتهم ، عليه أن يرغبهم بما يحبونه ، ويوفره لهم ، كما عليه أن يحذرهم مما يكرهونه وينفذ ما حذر منه . وهذان الأصلان يقابلان أحد مبادئ المعتزلة الخمسة وهو الوعد والوعيد . وقد أوضح الجاحظ مفهوم السياسة وأصولها في رسالة المعاش والمعاد التي وجهها إلى أحد أولي الأمر ، وهو قاضي القضاة محمد بن أحمد بن أبي دؤاد الذي يشرف على الولاية والقضاة في الدولة العباسية .

ويصدد إقامة الرئيس ، رئيس الدولة ، جاء الجاحظ بنظرية جديدة تقول

ان العامة لا تصلح لاختيار الامام لجهلها وغلبة الاهواء عليها . وهذه المهمة ملقاة على عاتق الخاصة التي بوسعها معرفة من يستحق الامامة دون سواء . والامام يفرض نفسه على الناس بسيرته واعماله ومواقفه واقواله ، بحيث يدفعهم للاقرار بفضله وتقديمه على نحو ما قدم عمرو بن عبيد عند المعتزلة ، ومرداس بن ادية عند الخوارج . وقد وردت هذه الآراء مفصلة في رسالة العثمانية ورسالة الحكمين .

المسألة الثانية هي الوطنية . وهي تعني تعلق الانسان بالارض التي يعيش عليها ، بحيث يفضلها على غيرها من البلدان ، ويتعصب لها ويدافع عنها ضد الاعداء او المعتصين . عالج ابو عثمان هذه المسألة في رسالة الاوطان والبلدان ، وعاد الى الحديث عليها في رسالة الترك وعامة جند الخلافة . ويمكن اعتبار الجاحظ رائداً في هذه القضية التي اكتسبت أهمية عظيمة في العصر الحديث .

والمسألة الثالثة هي الصراع الحزبي الذي شغل ثلاث رسائل : العثمانية ، والحكمين ، والعباسية . كان يوجد ثلاثة احزاب هامة تصطرع على السلطة هي : الشيعة والعباسية والعثمانية . وقد شرح الجاحظ نظرية الشيعة في الامامة في رسالة استحقاق الامامة التي نشرناها ضمن رسائل الجاحظ الكلامية لانه يعالجها هناك من منطلق كلامي . وعاد الى معالجة النظرية من منطلق سياسي في رسالة الحكمين ورسالة العثمانية . وشرح نظرية العباسية او حزب بني العباس في رسالة العباسية ، كما شرح نظرية العثمانية او حزب ابي بكر وعمر وعثمان واتباعهم في رسالة العثمانية ورسالة العباسية . وهناك فئة من العثمانية سماهم الجاحظ بالسفيانية والغيلانية والمروانية والناطقة ايدوا خلافة معاوية ، سرد آراءهم في رسالة الحكمين ورسالة الناطقة التي نشرناها ضمن رسائل الجاحظ الكلامية لأنها تنطوي على قضايا تخص علم الكلام .

والمسألة الرابعة هي الصراع القبلي المتمثل بالمنافسة القديمة التي ترقى الى العصر الجاهلي بين بطنين من بطون قريش على الحكم هما عبد شمس وهاشم .

وقد عرض الجاحظ صورة عن هذا الصراع في رسالة فضل هاشم على عبد شمس .

والمسألة الخامسة هي الشعبية . ويبدو أنها استفحلت في عصر الجاحظ فحاول أن يكبح جماحها فخصص لها رسالة مناقب الترك ، ورسالة فخر السودان على البيضان . كما تطرق إليها في كتاب البيان والتبيين . ونجد في هذه الكتب عرضاً مفصلاً لدعاوى الشعوب الاعجمية في تفوقهم على العرب والاشادة بماضيهم وخصالهم وافعالم .

والمسألة السادسة والاخيرة تعتبر ملحقه بالسياسة لانها تدور حول عمل الموظفين الذين يساعدون الخليفة في ادارة الدولة وهم الحجاب والكتاب . ولا نجد للجاحظ آراء اصيلة حول هذه المسألة .

لم نحقق الرسائل السياسية ، اذ سبقنا الى أداء هذا العمل العديد من الباحثين (انظر كتابنا كشاف آثار الجاحظ ، الذي يتحدث على الطبقات المختلفة واصولها) . ولكننا قمنا بكتابة مقدمات لها تحللها وتلقي الضوء على فكر الجاحظ المتشعب المرامي والانحاء . كما وضعنا عناوين لفقرها تسهل القاء نظرة شاملة عليها وتبرز مطالبها ، وشرحنا افكار الجاحظ وعلقنا عليها وربطناها فيما بينها ، وغايتنا هي اماطة اللثام عن الجاحظ المتفلسف والمتكلم المتبحر ، وهي الناحية التي اهملها الباحثون المحدثون .

وقد اعتمدنا في رسائل المعاش والمعاد ، والاطوان والبلدان ، ومناقب الترك ، وفخر السودان على البيضان ، والحجاب ، وذم اخلاق الكتاب ، على طبعة عبد السلام هارون الصادرة في القاهرة عن مكتبة الخانجي سنة ١٩٦٤ و ١٩٧٩ م ، في اربعة اجزاء ، بعنوان « رسائل الجاحظ » ، وقد اعتمد بدوره على مخطوطة مكتبة داماد ابراهيم بتركيا ، رقم ٩٤٩ ، وعلى مخطوطة المتحف البريطاني رقم ١١٢٩ ، وعلى مخطوطة المكتبة التيمورية المودعة بدار الكتب المصرية رقم ١٩ .

وفي رسالة العثمانية اعتمدنا على طبعة عبد السلام هارون الصادرة في

القاهرة عن مطابع دار الكتاب العربي سنة ١٩٥٥ م ، وقد عول فيها على مخطوطة
كويريلي بتركيا ، رقم ٨١٥ .

وفي رسالة الحكمين عدنا الى طبعة المستشرق الفرنسي شارل بلا المنشورة
في مجلة المشرق ، عدد تموز - تشرين الاول ، سنة ١٩٥٨ . وقد عاد فيها الى
مخطوطة ميلان رقم ١٢٩ . H .

اما في رسالة فضل هاشم على عبد شمس ورسالة العباسية فقد اعتمدنا
على طبعة حسن السندوي الصادرة عن المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٩٣٣ م .



مركز تحقيقات كويتية لدراسات إسلامية

١ - مقدمة رسالة المعاش والمعاد

الرسالة موجهة الى محمد بن احمد بن ابي دؤاد قاضي بغداد بعد والده احمد بين سنتي ٢٣٣ و ٢٣٧ هـ . ولي وعزل من قبل المتوكل . وقد توثقت صلة الجاحظ بابيه وبه . وقد حاول الجاحظ أن يرشده ويوجهه نظراً لحدائته سنة فكتب اليه عدة رسائل منها رسالة المعاش والمعاد .

يستهل الرسالة بمقدمة اضافية يتدحج بها رجاجة عقل القاضي وكرم خلقه ويتزلف اليه قائلاً « وخرجت نسيج وحدك أوحدياً في عصرك ، حكمت وكيل الله عندك - وهو عقلك - على هواك - . . . » . ويشكره على النعمة : « وكان من تمام شكري لربي ولي كل نعمة ، والمبتدئ بكل احسان الشكر لك والقيام بمكافأتك بما امكن من قول او فعل » . ويهديه كتاباً في الأدب جامعاً لعلم كثير من المعاد والمعاش وعلل الاشياء .

ثم يحدد موضوع الكتاب بانه وصف للطبائع التي ركب عليها الخلق واسباب شهواتهم وكيف تُستَمَالُ قلوبهم ، وكيف يصرفون الطبائع المدمومة الى الشيم المحمودة .

ويعلن قاعدة عامة ينبغي مراعاتها هي الوحدة بين آداب الدين والدنيا لأن الآداب آلات تصلح ان تستعمل في الدين كما تصلح ان تستعمل في الدنيا . فما

صح من اصول التدبير في الدين صح في الدنيا وما فسد هنا فسد هناك « وانما الفرق بين الدين والدنيا اختلاف الدارين من الدنيا والآخرة فقط ، والحكم ها هنا الحكم هناك ، ولولا ذلك ما قامت مملكة ولا ثبتت دولة ولا استقامت سياسة » .

والآداب وضعت على اساس الطبائع ، واهم الطبائع اثنان هما حب المنافع وكره المضار . ويدخل في حب المنافع حب الراحة والدعة والازدياد والعلو والعز والغلبة وما تستلذ الحواس من المناظر والروائح والطعوم والاصوات والملامس . ويدخل في المكاره اضداد هذه .

وإذا ترك الناس وطبائعهم انساقوا مع الهوى وابتعدوا عن الفضائل نظراً للانانية المستولية عليهم ، فكان لا بد من وازع او رادع ، ومن تربية وتاديب . والتاديب يقوم على اصلين هما الترغيب والترهيب . وهذا الاصلان يصلحان في الدين والدنيا لأنهما اصلا كل تدبير وعليهما مدار كل سياسة كما يقول الجاحظ « فإذا كانوا لم يصلحوا لخالقهم ولم ينقادوا لأمره الا بما وصفت لك من الرغبة (بالجنة) والرغبة (من النار) ، فاعجز الناس رأياً وأخطأهم تدبيراً ، واجهلهم بمراد الأمور ومصاويرها ، من أمل أو ظن أو رجا ان احداً من الخلق - فوقه او دونه او من نظرائه - يصلح له ضميره ، او يصح له بخلاف ما دبرهم الله عليه ، فيما بينه وبينهم ، فالرغبة والرغبة اصلا كل تدبير وعليهما مدار كل سياسة عظمت او صغرت » .

بيد ان الرهبة والرغبة لا تصلحان الا اذا قرنتا بالعدل . فالعدل هو الاصل الثالث للسياسة . وهو يعني الانصاف والمساواة .

يضاف الى العدل الوعد والوعيد وهو الاصل الرابع في السياسة . وهذا يعني التنفيذ والاثابة على العمل الصالح والعقوبة على العمل الطالح « ليعمل كل عامل على ثقة مما وعده واعده » وتعلق قلوب العباد بالرغبة والرهبة ، ويترد التدبير وتستقيم السياسة لموافقتها ما في الفطرة ، وأخذها بمجامع المصلحة . ولهذا نرى الجاحظ القاضي بالتزام العدل في معاملة الناس . كما يوصيه بالحدود مع

تثمير المال وتجنب الفقر « لأن تثمير المال آلة للمكارم وعون على الدين والدنيا
ومتألف للاخوان ، ولأن من فقد المال قلت الرغبة منه ومن لم يكن بموضع رغبة
اورهبة استهان الناس بقدره » .

اما في معاملة العدو فينصح ابو عثمان بثلاث خلال : ان يتدبىء عدوه
بالحسنى عله يحول له عن عداوته لأن كثرة الاعداء كرهية . وأن يكتم اسراره عنه
ولا يطلعه على تدبيره ، وان يستعد لمواجهة .

وفي معاملة الصديق ينصحه كما نصح ابن المقفع قبله بالاكثار من
الاصدقاء لانهم جند معدون له وعون في الشدائد . ثم ان يحافظ عليهم .

ويحذره من ثلاث خلال هي الكذب الذي هو جماع كل شر ، ثم الغضب
لانه لؤم وسوء مقدره ، ثم الجزع عند المصيبة التي لا ارتجاع لها .

كما يحذره من المفاخرة بالانساب لانها تثير العداوة بين الاخوان . ومن
العتاب لانه سبب للقطيعة ، ومن المزاح لأن الافراط فيه يذهب بالبهاء . ثم
الاعتداد بالنفس لان نشر المحاسن من صاحبها لا يليق به ولا يقبل . ثم حذره من ان
يولي اموره الجسيمة امراً لا يكون صلاحه متعلقاً بصلاح الحاكم .

وفي النهاية يحث الجاحظ القاضي على استعمال الأدب والنصح في معاملة
السلطان العادل ، وعلى استعمال الخيلة والرفق في معاملة السلطان الاخرق .

١٣١٩٤

٢ - مقدمة الاوطان والبلدان (١)

يزعم الجاحظ في مقدمة الكتاب انه وضعه نزولاً عند رغبة شخص سأله ان يكتب له كتاباً في تفاضل البلدان وقناعة النفس بالاطوان ، وأثر ملازمتها في الفشل والنقص ، وأثر مبارحتها في التجارب والعقل .

ولكن الجاحظ يرى ان تأثير البلدان لا يقتصر على الفقر والغنى والمكاسب واغناء العلم بالتجارب ، بل يتعداه الى الاخلاق والآداب واللغات والهيئات والصور لأنه يعتقد ان للبيئة دوراً هاماً في الانسان بمختلف قواه الجسمية والعاطفية والعقلية ، وقد أوضح ذلك في اماكن عديدة من كتبه لأنه كان فيلسوفاً طبيعياً . (١)

ان حب الاوطان طبيعة فطرها الله في الانسان ليعمر البلدان ، فلولاها لما سكن الناس الفيافي والادغال وقلل الجبال والقفار الموحشة والبلدان المجذبة القاحلة ، والاصمق الباردة او الحارة . ولطلبوا جميعاً السكن في البلاد المعتدلة المناخ ، الخصبة التربة .

(١) انظر حول هذا الموضوع كتابنا « المناسخ الفلسفية عند الجاحظ » المنسى الطيبي ، ص

ولو راموا جميعاً « اختيار ما هو ارفع ورفض ما هو اوضع من اسم او كنية
وفي تجارة وصناعة ، ومن شهوة وهمة ، لذهبت المعاملات وبطل التمييز ، ولوقع
التجاذب والتغالب ، ثم التحارب ، ولصاروا عرضاً للفقان واكله للبور » .

فالجاحظ يربط حب الاوطان مهما كانت خصائصها من الرفعة او الضعة
ومن الجمال او القبح ومن الصلاح او الطلاح بمبدأ عام يرجع الى حكمة الله في
خلقه ، هو الطبائع التي فطر عليها الناس . وفي هذا الرأي يعبر عن فلسفة
الطبيعة احسن تعبير .

وحب الاوطان هو الذي يحفز الناس على الذود عنها والقتال في سبيل
استرجاعها اذا اغتصبت . والى ذلك اشارت الآية الكريمة ﴿ وما لنا ألا نقاتل في
سبيل الله وقد اخرجنا من ديارنا وابنائنا ﴾ (البقرة ٢٤٦) .

وبما ان حب الاوطان فطرة طبيعية لذا يستوي فيها الانسان والحيوان .
ويلاحظ الجاحظ ان صاحب المنزل اذا هجر منزله واختار غيره لم يتبعه فرس ولا
بغل ولا حمار ولا ديك ولا دجاجة ولا حمامة ولا هر ولا شاة ولا عصفور .

ويخصص الجاحظ قسماً كبيراً من الرسالة للحديث عن مكة ولكنه يستطرد
من ذكر مكة الى الكلام عن خصال قريش فخصال هاشم وهو يعترف بهذا
لاستطراد المخل بالتأليف - والاستطراد سمة من سمات أسلوب الجاحظ في جميع
كتبه - ويقول : « ولم يكن قصدنا في اول هذا الكتاب الى ذكر هاشم ، وقد كان
صدنا الاخبار عن مكة بما قد كتبناه في صدر هذا الكتاب ، ولكن خصال مكة
هر ذكر خصال قريش ، وذكر خصال قريش جر ذكر خصال هاشم » . كما
يقول انه عالج هذا الموضوع اي خصال هاشم في كتاب آخر ، ذلك الكتاب هو
على الأرجح « فضل هاشم على عبد شمس » .

ان الخصال التي امتازت بها قريش عن سائر العرب هي رغبة جميع القبائل
لانتساب اليها في حين لا نجد قرشياً انتسب الى قبيلة من قبائل العرب .

ومن صفات قريش انها اعز العرب واقواها لذلك لا نجد سبية من قريش ، ولم تنهزم قريش في المعارك التي خاضتها مثل معركة الفجار وذات كهف .

ومن صفات قريش انهم تركوا الغزو وعملوا بالتجارة ومع ذلك لم يعترهم البخل الذي عرف به التجار لأن البخل خلقة في الطباع . وفي هذا القول يطبق الجاحظ فلسفة الطبيعة القائلة بان الاخلاق طباع .

من صفات قريش سمو الخلق ورجاحة العقل والحلم والوداعة والبعد عن الجفاء والغلظة ، وطيب المآكل .

ومن صفاتها ايضاً جمعها بين التدين والفروسية على عكس ما نرى في الروم والترك ، فان هؤلاء عندما اعتنقوا النصرانية التي تنهى عن القتل والقتال والشار صارت حالهم الى الجبن والقعود عن القتال . اما قريش فقد ظلوا رغم تشددهم في التدين وعزوفهم عن الغزو واشتغالهم بالتجارة على بسالتهم وفروسياتهم .

ويحاول الجاحظ أن يستخرج قانوناً يحكم العلاقة بين التدين والبسالة ويطبقه على الخوارج الذين اشتهروا ببسالتهم في القتال فيقول ان سبب ذلك هو عقيدتهم الدينية التي تدعو الى الجهاد ويذل الروح للتخلص من الحاكم الظالم . وهذا ما يفسر لنا استواءهم في النجدة والفروسية رغم اختلاف بلدانهم واعراقهم

ولم يتوقف الجاحظ طويلاً عند خصال هاشم لانه افاض بها في كتاب فضل هاشم على عبد 'مس . وهو يختصر هنا ما اسهب به هناك . ان اهم خصال هاشم « النبوة التي هي جماع خصال الخير واعلاها وافضلها واجلها واسناها » .

ومن خصالهم الملك ، وملكهم من مغرس النبوة لأن العباسيين استمدوا ملكهم من جددهم العباس ، والعباس هو عم النبي ، والعم وارث كالأب .

ومن خصال هاشم طول سني ملكهم الذي يناهز ، عدا حكم علي بن ابي

طالب حتى ايام الجاحظ ، مائة وست عشرة سنة .

ومن خصال هاشم ان الأذكار فيهم غالب ، مع كثرة الولد وقد احصي آل ابي طالب فكانوا نحو الفين وثلاثماية . أما في سائر البلدان عدا خرمان فلا نجد الا مثناتاً . ولذا كان عدد الاناث اكثر من عدد الذكور ولهذا السبب احل الله للرجل ان يتزوج اربع حرائر وما ملكت يمينه من الاماء لكي لا تبقى امرأة دون زوج .

ومن خصال هاشم الشجاعة ومنازلة الاقران والتقى . فكان علي بن ابي طالب اشجع الناس واكثرهم فتكاً بالرؤساء والسادة والقادة . وكان اسبقهم الى الاسلام وازهدهم في الاموال .

أما مكة فهي المدينة المقدسة ، وفيها بيت الله الحرام الذي يضم الحجر الاسود . وفيها ايضاً بئر زمزم الذي يشرب منها البدو والحضر .

وبسبب قدسيته لم يظأها عبدو ظالم الا قهره الله . فصاحب الحبشة رام تدنيسها فارسل الله على جيشه جماعات الطير ترميهم بالحجارة . ولذا عاش اهلها احراراً لم يخضعوا لطاغية او غاز ولا يؤذون الاثاوة لأحد .

واذا دخلها ملك فلاجل تأدية فريضة الحج او التبرك والتعظيم كما فعل تبع ملك اليمن وبعض ملوك غسان ولخم .

ان الجاحظ يكتب صفحة من تاريخ مكة يحاول ان يظهر فيها ان تلك المدينة المحرمة لم تقهر ولم تغلب ولم تدسها اقدام الطغاة منذ القدم . وأن اهلها من قريش اعز الناس وأفضلهم أخلاقاً .

بعد مكة يتحدث ابو عثمان عن المدينة ، فيلاحظ انها تختص بخاصة فريدة هي طيب تربتها وهوائها . فان من يمر بها يشم رائحة زكية تفوح من حيطانها وارضها لا تشبهها رائحة في الدنيا . ولذا صنعوا الخرز والعقود من بلحها وارجها تحملها الصبيان والنساء في اعناقها . ولذا سُميت طيبة .

وثمة ميزة اخرى للمدينة هي خلوها من الطاعون والجذام وهذا راجع الى طيب هربها .

والميزة الثالثة التي نقع عليها في المدينة هي شهرتها في الفقه حتى قال عبد الملك بن مروان يمدح روح بن زنباع : « جمع ابو زرعة فقه الحجاز ، ودهاء العراق ، وطاعة اهل الشام » .

والبلد الثالث الذي تكلم عليه ابو عثمان هو مصر التي ورد ذكرها في القرآن . . وكان ملكها القديم يدعى فرعوناً . وتشتهر مصر بمنف او قصر الرعون المصنوع من الحجر الصلد . كما تشتهر بمهارة اهلها في السحر . ويشير الجاحظ الى خراجها الضخم الذي يدل على خصبها والبالغ اربعة آلاف دينار .

وبعد مصر تحدث ابو عثمان على الكوفة والبصرة في العراق . واورد قول زياد الجامع في صفاتها: « الكوفة جارية جميلة لا مال لها ، فهي تخطب لجمالها ، والبصرة عجوز شوهاء ذات مال فهي تخطب لمالها » . والبصرة خير من الكوفة لأنها اوسع ارضاً واكثر عدداً وادق الى البحر وانقى هواء واخصب تربة واكثر عمراناً .

مركز تحقيق كويت مركز علوم إسلامي

وماء البصرة عذب صاف عندما يبيت في القلى . والأجر الذي تصنع منه البيوت اصفر ، وبين الأجر يوضع الجص الأبيض فتبدو المنازل اقرب الى الفضة بين تضاعيف الذهب .

وماء الكوفة أسرع الى الجفاف . ومعظم الكوفة خراب يباب تشبه قرية من القرى يسمع قريبا ضباح الثعالب واصوات السباع .

ونخيل البصرة اكثف واجمل ولا تجدد نخلة في الكوفة الا واعوجت كالمنجل .

واسواق الكوفة تدل على فقر اهلها ، وهم يكرهون اهل البصرة اكثر مما يكرههم هؤلاء . واهل البصرة احسن جواراً واقل بذخاً واقل فخراً .

ويتحدث الجاحظ على الأوضاع الاقتصادية في البصرة والكوفة ويقارنها بأوضاع الشام ومصر وبغداد وغيرها . فيجد الأموال غزيرة في الشامات والأشياء رخيصة لبعث المنقل وقلة عدد السكان ، ولأن ما تنتجه أرضهم يفضل عن حاجتهم أما الأهواز وبغداد والعسكر فكثيرة الدراهم والمبيع لكثرة عدد السكان . وأما في البصرة فالأثمان مقبولة ويكلف بناء الدور نصف ما يكلف بناء مثلها في بغداد . ويدخل ميناءها كل يوم نحو ألفي سفينة . ويوجز خصائص البصرة بقوله : « ولم نر بلدة قط تكون أسعارها ممكنة مع كثرة الجماجم بها إلا البصرة : طعامهم أجود الطعام ، وسعرهم أرخص الأسعار ، وتمرهم أكثر التمور ، وريع دبسهم أكثر ، وعلى طول الزمان أصبر ، يبقى تمرهم الشهرين عشرين سنة . . . » .

وفي آخر الرسالة شيء عن الحرّة في العراق ، وهي لا تحظى برضا الجاحظ ، إنها بيضاء اللون ، وترتبتها نجساً مشربة سواداً ، وهي باردة الطقس شتاء ، حارة صيفاً . ولا يرى فيها داراً تذكر سوى دار عون النصراني العبادي .

وللجاحظ رسالة أخرى عنتوانها « الحنين إلى الأوطان » . وقد شك السنديوني في نسبتها إلى الجاحظ بينما أكد عبد السلام هارون تلك النسبة ولم يقطع بروكلمان في الأمر . ويبدو لي أنها منحولة لأن موضوعها أي تعلق الإنسان بوطنه قد طرّفه الجاحظ في كتاب : الأوطان والبلدان ، وتناوله في القسم الأول منه . وليس من الحكمة في شيء إعادة معالجته مجدداً . وهذه الرسالة اعني الحنين إلى الأوطان تخلو من الأصالة الفكرية التي نلّفها في كتاب « الأوطان والبلدان » حيث نجد الجاحظ ينم عن عمق في التفكير وحرص على ربط الظواهر بأسبابها . أما في الرسالة فلا شيء سوى جمع أقوال وأشعار وأحاديث تتعلق بحب الإنسان وطنه .

وفي الرسالة نعمة شعوبية ، والجاحظ كان خصماً عنيداً للشعوبية . وهذه النعمة تبدو من قول منسوب إلى اعرابي موجه للجاحظ ظاهر الاضطراب

والتناقض . فهو يقول للجاحظ : « لعن الله ارضا ليس بها عرب » ثم يقول : « ان هذه العريب في جميع الناس كمقدار القرحة في جلد الفرس ، فلولا ان الله رق عليهم فجعلهم في حشاة لطمست هذه العجم آثارهم . أتري الاعيار اذا رأت العتاق لا ترى لها فضلاً والله ما امر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بقتلهم ، اذ لا يدينون بدين ، الا لظنه بهم ، ولا ترك قبول الجزية منهم الا تنزيهاً لهم » . وهو يتهمهم بالضعف : ولولا الفلاة التي تحميهم لقضى عليهم العجم ، كما يتهمهم بالكفر . ولو كان الكتاب للجاحظ لرد على هذا الاعرابي . او اعترض على مزاعمه .

وتبدو الشعوبية في ناحية أخرى من الرسالة هي تمجيد الفرس واليهود وذكر مآثرهم واخبارهم وحبهم لاوطانهم رغم استيلائهم على بلدان كثيرة غريبة .

وثمة دليل آخر على نحل الكتاب هو كلف صاحبه بالالفاظ الغريبة المتكلفة التي يكرها الجاحظ ويدعو الى الفصاحة في اللفظ ، والابتعاد عن الاغراب والوحشية والتكلف البياني ، مثل الجناس والطباق . وهذا التكلف يبدو في كلام الاعرابي « اني والله غاوي إعجاب ، لاصق القلب بالحجاب ، مالي عهد بمضاعغ الاشلو يربوع وجد معمعة مني ، فانسلت ، فاخذت منه بنافقائه وقاصعائه ودامائه وراهطائه . . . » .

٣ - مقدمة العثمانية

وضع الجاحظ هذه الرسالة الطويلة لتبيان حجج العثمانية في تأييد خلافة أبي بكر الصديق . وهذا التأييد يقوم على تفضيل أبي بكر على علي بن أبي طالب فمن ثبت انه افضل من علي كان احق منه بالخلافة . والعثمانية فرقة من الفرق الاسلامية نشطت في عصر الجاحظ وكانت تقف في وجه الحركة الشيعية التي اشتد ساعدها في ذلك العصر ايضاً وراحت تبث دعواتها وتروج لمبادئها التي تدور حول الامامة واحقية علي وابنائه فيها . فكان لا بد للحركة المناوئة لها التي اتخذت اسم العثمانية - أي أتباع عثمان - أن تنهض للرد على الشيعة والوقوف في وجههم ودحض حججهم المؤيدة لعلي وابنائه بالخلافة بعد النبي .

ان افضلية أبي بكر على علي ترتكز الى الحجج التالية :

١ - انه افضل الناس اسلاماً بشهادة النبي وعلي وابن عباس . واذا كان علي قد اسلم قبل أبي بكر كما يقول شيعة فأنما اسلم وهو ابن سبع سنين عندما كان حدثاً غريباً ، واسلامه لا يلحق باسلام البالغين ، بل كان اسلام تقليد لا اسلام تمييز ومعرفة . ولو سلمنا انه اسلم وهو بالغ في الرابعة عشرة او الخامسة عشرة كما يدعي الشيعة فان اسلامه يظل ادنى من اسلام أبي بكر وزيد بن عارثة ونجيب بن الأرت لأن اسلام هؤلاء لم يكن عن عادة ومحاكاة مثل

اسلام علي . واسلام هؤلاء يفضل اسلام علي من وجه آخر ، وهو ان علياً اسلم وهو يعلم ان له ظهراً يقيه كأي طالب وبني هاشم ، بينما اسلم هؤلاء وهم ضعفاء لا نصير لهم .

٢ - كان ابو بكر قبل إسلامه عريض الجاه غنياً سيداً ، فلما اسلم فقد جابه وثروته وتعرض للاهانة والضرب والتكيل . اما علي فلم يكن صاحب ثراء يخشى عليه ، ولم يتعرض للعت والاذى من المشركين .

٣ - كان أبو بكر صاحب النبي الاوحد عندما هاجر من مكة الى المدينة فراراً من اذى المشركين الذين قرروا قتله . وقد ذكر له القرآن هذه المكرمة . ولا يضارع هذه المكرمة نوم علي في فراش النبي في تلك الليلة لأن النبي قال له : نم فلن يخلص اليك شيء تكرمه .

٤ - بذل أبو بكر في سبيل الاسلام اكثر مما بذل علي . لقد بنى مسجداً قرب بيته يصلي فيه ويدعو الناس الى الاسلام بصوته الرقيق المؤثر ويقرأ القرآن ويكي فيتوقف المارة يصغون اليه . وقد اسلم على يديه عدد غفير من الناس منهم طلحة والزبير وسعد وعثمان وعبد الرحمن ، خمسة من اهل الشورى . وقد انفق ماله البالغ أربعين الف درهم في سبيل نصره الاسلام .

٥ - ان حجة الشيعة في تفضيل علي شجاعته وفروسيته وفتكه بالأعداء أثناء المعارك . ولكن كثرة القتل ليست فضيلة بالضرورة ، لأن النبي لم يشتهر بالفروسية ولم يقتل سوى رجل واحد . وقد بيعت على الاقدام الفرارة والهوج والحمية والشهرة . وقد بالغ الشيعة في التحدث عن قوة من فتك بهم علي امثال عمرو بن ود يوم الخندق والوليد بن عتبة بن ربيعة يوم بدر . فلم يكن هؤلاء اشجع من غيرهم . أضف الى ذلك ان ابا بكر ثبت يوم احد الى جانب النبي كما ثبت علي فلا فخر لاحدهما على الآخر في الشجاعة .

وقد الف ابو جعفر الاسكافي (٨٥٥ م) المعتزلي رسالة ينقض فيها العثمانية وينتصر لعلي سماها : نقض كتاب العثمانية . وهو يعرض لآراء

العثمانية واحداً تلو الآخر وينقضها . وبين في مقدمة رسالته الحملات التي شنت على علي من قبل جميع الفرق « من خارجي مارق ، وناصي حتى ، وفابني مستبهم ، وناشيء معاند ، ومنافق مكذب ، وعثماني حسود يعترض فيها ويطعن ، ومعتزلي قد نظر في الكلام وابصر علم الاختلاف وعرف الشبه ومواضع الطعن وضروب التأويل ، قد التمس الحيل في ابطال مناقبه وتأويل مشهور فضائله . . . » .

ان حجة العثمانية التي تقول ان ابا بكر اقدم الناس اسلاماً باطلة ، ولو كانت صحيحة لاحتج بها ابو بكر يوم السقيفة . ورواية ابن عباس ان ابا بكر اولهم اسلاماً تنقضها رواية صادرة عنه ايضاً . وقد روي عن النبي انه قال لابنته فاطمة : لقد زوجتك اقدم الأمة اسلاماً . رواه ابن عباس وغيره .

وقد كثرت الروايات في السن التي اسلم فيها علي وتراوحت بين تسع سنين وخمس عشرة سنة . والصحيح انه اسلم وهو بالغ قد ناهز الرابعة عشرة او الخامسة عشرة . وفي هذه السن يكون قد اكمل عقله وقدرته على التمييز بين الحق والباطل والخير والشر . ويسقط قول العثمانية بانه اسلم عن تلقين وتقليد . ولم يسبقه احد الى الاسلام اذ استنبيء النبي يوم الاثنين واسلم علي يوم الثلاثاء . وقد قال في ذلك : صليت قبل الناس سبع سنين .

اما حجة العثمانية بان ابا بكر احتمل من الأذى في سبيل الدين اكثر مما احتمل علي لان علياً كان ذا ظهر يحميه من بني قومه فغير صحيح ايضاً . لان قوم علي كانوا اكثر الناس عداً للنبي وعلي وسائر المسلمين أمثال عمه ابي لهب وامراته ، وعقبة بن ابي معيط ابن عمه الخ . ولم يكن لابي بكر قرابة تؤذي به ، مثل علي ، ولا نعلم انه تعرض للأذى الشديد ، لان العذاب كان ينصب على عبد او عسيف او علي من لا عشيرة تمنعه .

واما حجة العثمانية في صحبة ابي بكر للنبي ليلة الهجرة وانها افضل من نوم علي في فراش الرسول في تلك الليلة لانها مذكورة في القرآن فباطلة ايضاً ،

لان القرآن اشار اليها ﴿ واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك او يقتلوك او يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ والحديث الذي نسبة العثمانية الى النبي يأمر علياً بالاصطجاج محرف . والآية التي استشهد بها العثمانية على فضل ابي بكر ﴿ اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا ﴾ هي ضدهم لانها تفيد ان ابا بكر خاف وحزن ، وهما صفتان خسيستان .

اما حجبتهم في فضل ابي بكر على الاسلام من حيث دعوة الناس اليه واسلامهم على يديه فغير صحيحة لانه عجز عن اقناع ابنه عبد الرحمن الذي ظل على كفره حتى يوم الفتح . وكذلك امراته . ومن عجز عن ابنه وامراته فهو عن غيرهما أعجز . وقل الشيء ذاته في انفاق ماله على نوابي الاسلام وهو الذي باع من رسول الله بعيرين عند خروجه الى يثرب واخذ منه الثمن .

واخيرا احتج العثمانية بان شجاعة علي لا تعد فضيلة لان الشجاعة ليست فضيلة ولان النبي لم يكن فارساً شجاعاً ولم يشترك في المعارك . وهذه قرينة عظيمة على النبي وعلي ، لان النبي أشجع البشر وقد خاض الحروب وثبت في المعارك . وكيف لا تكون الشجاعة فضيلة وقد نهضت عمدة الاسلام على القتال والاقدام . والفرسان الذين قتلهم علي اشهر من ان يعرفوا ، وقد حفلت كتب السير باخبارهم . فابن اسحق يروي القصائد الطوال التي انشئت في اقدام عمرو بن ود العامري وشجاعته . وكذا القول في الوليد البطل الشجاع . وادعاء العثمانية بان ابا بكر ثبت مع النبي كعلي يوم أحد فباطل لانه لم يبق معه سوى علي وطلحة والزبير وابودجانة .

وابو جعفر الاسكافي عندما يقدم هذا الدفاع الجذلي عن علي بن ابي طالب يحدد موقفه بقوله : « اننا لا ننكر فضل الصحابة وسوابقهم ، ولسنا كالامامية الذين يحملهم الهوى على جحد الامور المعلومه ، ولكننا ننكر تفضيل احد من الصحابة على علي ابن ابي طالب ، ولسنا ننكر غير ذلك ، وننكر تعصب الجاحظ للعثمانية وقصده الى فضائل هذا الرجل ومناقبه بالرد والابطال » .

فالاسكافي اذاً ليس من الشيعة الامامية الذين يتحدثون فضائل أبي بكر وعمر وعثمان ، وإنما هو معتزلي زيدي المذهب يعترف بفضائل الخلفاء الراشدين المذكورين مع تفضيل علي عليهم ويقول مثل الزيدية بجواز خلافة المفضول مع وجود الافضل .

بعد الاسكافي بثلاثة قرون نهض أحمد بن موسى بن جعفر بن طاووس احد فقهاء الشيعة الامامية ومحدثيهم لنقض رسالة الجاحظ برسالة اسماها « بناء المقالة الفاطمية في نقض الرسالة العثمانية » (١) وفيها يرد على الجاحظ بكلام مقلد ، فيرميه بالنصب والكذب والجهل والفسق الخ . . . ويقول مثلاً « انك اذا تأملت تقرير قواعد كتاب الجاحظ رأيت مبنياً على الباطل ، اذ سمى فرقة بالعثمانية ، ثم جعل ينطق بغير الصواب عنها ملقحاً الفتن بينها وبين الفرقة الامامية ، متعدياً قواعد الحرورية » (٢) . .

وهو يرفض ما جاء في رسالة العثمانية للجاحظ من ان اسلام ابي بكر افضل من اسلام علي لانه اسلم وهو صغير ، ويقول هذا غير صحيح ، لانه اسلم وهو عاقل يميز ناهز الخامسة عشرة من عمره او السادسة عشرة (٣) .

ولا يرى في توضيحات أبي بكر في سبيل الاسلام من انفاق المال وتحمل الأذى والضرب والتهجير ما يجعل اسلام ابي بكر افضل من اسلام علي « لأن هذا شيء لا تعلق له بتقدم الاسلام ، ولا يشرف اسلام هذا من اسلام ذاك ، اذ الذي يدعي وقوعه من الضرب كان بعد الاسلام لا معه » (٤) . ثم ان ما بذله أبو بكر من ماله وما اعتقه من المعذيين « فمما لا يثبت برهانه » (٥) . اذ لم

(١) حققها ونشرها الدكتور ابراهيم السامرائي (دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، ١٩٨٥) .

(٢) المصدر ذاته ، ص ٢٦ .

(٣) المصدر عينه ، ص ٢٧ .

(٤) المصدر عينه ، ص ٣٦ .

(٥) المصدر عينه ، ص ٣٨ - ٣٩ ، ٤٤ .

ينفق درهماً واحداً .

أما صحبة أبي بكر للنبي واللجوء إلى الغار فليست فضيلة له لأنه كان خائفاً جباناً . ومجرد الصحبة لا يقارنها مدح ولا ذم . وميت علي في فراش النبي دليل على الشجاعة والتضحية بالنفس في سبيل الدين . وينكر ما روي عن النبي من أنه قال لعلي : ليس يصل إليك شيء تكرهه (١) .

ويؤكد ابن طاووس أن الشجاعة والاقدام في الحرب فضيلة لا بد منها للرئيس . ويرفض ادعاء العثمانية أنها ليست فضيلة وحجتهم أن النبي لم يشتهر بها ولم يقتل سوى واحد (٢) . ويذكر في هذا الصدد حديثاً عن أبي جعفر محمد بن علي يقول : « نادى مناد من السماء يوم بدر يقال له رضوان : لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي » (٣) .

وحجة ابن طاووس في تقديم علي على أبي بكر وسائر الصحابة تعتمد على حديث رواه عن النبي أبو اسحق الثعلبي عن الحسن بن محمد وهذا نصه : « لما نزلت الآية ﴿ وانذر عشيرتک الأقربين ﴾ ، انذرهم رسول الله فقال : يا بني عبد المطلب ، انا النذير اليكم من الله ، والبشير لما يجيء به أحد ، جنتكم بالدنيا والآخرة ، فاسلموا واطيعوا تهتدوا . ومن يؤاخيني ويؤازرني يكن وليي ووصيي بعدي ، وخليفتي في أهلي ، فسكت القوم ، واعد ذلك ثلاث مرات ، وفي كل ذلك يسكت القوم ويقول علي انا ، فقال : انت » (٤) .

لقد اتهم كل من أبي جعفر الاسكافي وابن طاووس الجاحظ بالنصب والتعصب للعثمانية وابطال فضائل علي . وقد اشار الجاحظ في مقدمة كتاب

(١) المصدر ذاته ، ص ٤٨ - ٤٩ .

(٢) المصدر ذاته ، ص ٥٠ - ٥١ .

(٣) المصدر ذاته ، ص ٥٤ .

(٤) المصدر ذاته ، ص ٥٦ - ٥٧ .

الحيوان الى هذه التهمة التي رمي بها لأنه قرأ دون شك رسالة الاسكافي التي تنقض العثمانية ، ونفاها بقوله انه عرض اقوال العثمانية وردودهم على الشيعة ، وهذا العرض لا يجعله عثمانياً ، كما لا يجعله زيدياً عرضه لآراء الزيدية ، وخارجياً عرضه لاقوال الخوارج الخ . .

والحق ما قاله الجاحظ لا ما قاله الاسكافي وابن طاووس . فهو ليس عثمانياً وإنما هو معتزلي . وقد ظهر موقفه المحايد ، في رسالة العثمانية ، من المفاضلة بين ابي بكر وعلي ، في قوله : « فان كان ما رويتم (الضمير عائد على الشيعة) في فضيلة علي حقاً ، وما رووا (العثمانية) في فضيلة ابي بكر حقاً ، فابو بكر خير من علي ، وعلي خير من ابي بكر ، وهذا هو التناقض ، والحق لا يتناقض » . فهو يشك في اقوال العثمانية والشيعة ، لأنها اذا كانت جميعها صحيحة وقعنا في التناقض والحق لا يتناقض . وضرب امثلة على الاحاديث المتناقضة لدى الفريقين .



وبما ان موضوع الخلاف بين الشيعة والعثمانية هو الامامة ومن هو الشخص الذي يصلح لها ومن يقيم الامام فقد اوضح الجاحظ نظريته الاصلية في الامامة في آخر الرسالة ، بعد ان فرغ من سرد حجج الشيعة والعثمانية بصددتها . وملخصها انه يجب على الناس ان يقيموا اماماً لأنه لا بد من وجود الامام ليحق الحق ويفصل بين الناس ويرشدهم . وان العامة لا تصلح لاقامة الامام لانها لا تعرف معنى الامامة وتأويل الخلافة وضرورتها وسبيلها ، ولأنها تنقاد لاهوائها ولا تميز بين من يصلح لها ومن لا يصلح . وان الخاصة مكلفة باقامة الامام اذا لم يمنعها مانع من ذلك كبغي المتغلب ، وغموض امر المستحق ، واختلافهم فيما بينهم . وان المستحق للامامة لا بد أن يعرف لأنه اكمل الناس واكمل الناس لا يخفى علمه وفضله كما بان عمرو بن عبيد عند المعتزلة ، ومرداس بن ادية عند الخوارج الخ . . وهذا الوجه في اقامة الامام يختلف عن الوجه الذي تمت فيه اقامة الناس لابي بكر ، والوجه الذي تمت فيه الشورى

لاقامة عثمان . وكذلك يخلف عن اقامة الامام بالوصية والقراة كما يذهب
الشيعة . وقد التقى الجاحظ مع العثمانية في القول بعدم اقامة الامامة على
القراة .



مركز تحقيقات كالمبيوتر علوم ارسودي

٤ - مقدمة رسالة الحكمين وتصويب أمير المؤمنين

علي بن ابي طالب في حكمه .

موضوع الرسالة سياسي ، وهو الخلاف الذي نشب بين الامام علي بن ابي طالب ومعاوية بن ابي سفيان حول الخلافة بعد مقتل عثمان بن عفان الخليفة الثالث ، والذي بلغ ذروته في معركة صفين وما آلت اليه من التحكيم الفاشل .

ويسارع الجاحظ الى التأكيد على انه لا يريد ان يبغض معاوية خصاله من العقل والحلم والدهاء والفهم والجزم والبيان وكتابة الوحي وتولية عمر اياه ارباع الشام وتثبيت عثمان ذلك له وتزكيته في حسن تدبيره الامور . ولكن هذه الخصال لا تكفي لاستحقاق الامامة . فالامامة لا تستوجب الا بالتقدم في الفضل والسوابق ، على ان يكون ذلك الفضل ظاهراً ومشهوراً عند الناس ، او بالشورى ، او بالميراث ، او بالوصية ، او باجتماع القرابة وحرمة العترة بالاضافة الى الخصال الكريمة . هذه الوجوه الخمسة لاقامة الامام عندها الجاحظ لانها تمثل آراء اهم الفرق في عصره . فالمعتزلة قالوا بالوجه الاول وقد عرضه الجاحظ في رسالة العثمانية ، والعباسيون قالوا بالوجه الثالث وقد بسطه الجاحظ في رسالة العباسية ، والشيعة الامامية قالوا بالوجه الرابع ، والزيدية قالوا بالوجه الخامس . اما الوجه الثاني او الشورى فقد نادى به اهل السنة والجماعة .

ومعاوية لا ينطبق عليه وجه من هذه الوجوه الخمسة ، فهو لم يتقدم في الاسلام وليس من اصحاب السوابق وانما هو رجل من عرض المسلمين ومن الطلقاء ، واذا كتب الوحي فقد شاركه فيه وسبقه اليه العديدون امثال ابن ابي سرح وزيد بن ثابت وحنظلة الاسدي وعلي ابن ابي طالب ولم يدع احدهم الامامة بسبب الكتابة . وليس من اهل الشورى ولا الميراث ولم يوص له بها .

وقد ادعى معاوية الخلافة زاعماً انه اولى الناس بالمطالبة بدم عثمان ومر يطالب بدم الخليفة أحق الناس بالخلافة . وليس هذا سبباً كافياً للامامة . وقد اعتمد معاوية على القوة والبطش للوصول الى الخلافة ، كما استند الى موقف سعد بن ابي وقاص وعبد الله بن عمر بن الخطاب . واستغل للوصول الى غايته انتشار جند علي وعدم تماسك جنده ؛ ولجأ الى الترغيب بالمال والمناصب ليستميل الناس اليه . واحتال برفع المصاحف على رؤوس الرماح ليخدع جند علي ويشق صفوفهم ، واستفاد من دهاء عمرو بن العاص ومواقف ابي موسى الاشعري في التحكيم او انقلابه على علي .

ويتوقف الجاحظ عند دور ابي موسى في التحكيم ، ويرى كما رأى النظام قبله ان ابا موسى لم يكن غيباً كما يقول الشيعة بل كان عاقلاً صحيح التدبير شديد الكيد متفهماً في الدين عالماً بالقياس والحجج مشهوراً بالحلم وكان والياً ناجحاً للخلفاء السابقين وقائداً للفتوح . كما يرى انه خلع علياً في التحكيم لانه انقلب عليه ومال الى موقف سعد بن ابي وقاص وعبد الله بن عمر وزيد بن ثابت ومحمد بن مسلمة وصهيب بن سنان وأسامة بن زيد من النهي عن القتال وتحريمه ، واسر ان تصير الخلافة الى عبد الله بن عمر بن الخطاب . وفضل قحطان على عدنان .

واذا كان ابو موسى على هذه الحال فلم اختاره علي ليمثله في التحكيم ؟ . وهنا يرفض الجاحظ كما رفض النظام استاذة دعوى الشيعة بانه حمل على القبول به حملاً لا خيار له فيه نزولاً عند رغبة اليمانية المؤيدين لابي موسى ، لان ابا موسى لم يكن له أنصار اقوياء يفرضونه فرضاً على الخليفة ، ولم يكن علي ضعيف

الرأي ليقبل ان يمثله في التحكيم عدو مرصد . وانما قبل علي بالتحكيم تلافياً للشقاق يدب في صفوف عسكره بسبب رفع المصاحف ويوم نادى منادي معاوية : « اخرجوا الينا قتلة عثمان » ، فابتلي علي « بعقد لا سبيل الى حله ويقفل لا حيلة في فتحه » فلو سلمهم قتلة عثمان لامتنعوا بعشائهم الذين قالوا « كلنا قتال عثمان » ولتواجب بعض عسكره على بعض ، ولانقض عليهم معاوية وفتك بهم . ولو قال كذبوا لم يكن ذلك تدييراً لأن السواد الأعظم ومنهم اصحاب الحديث والقضاة والنواب استنكروا قتل عثمان وطالبوا بالاقتصاص من قتله . وان قال صدقوا خلعه من يرى الوقوف في عثمان وعلي ، ومن يرى تبرئة علي ويدعي ان قتل عثمان من طاعات الله وهم أشد أنصاره . فكان قبول التحكيم هو المخرج الوحيد المفتوح امامه .

والمسألة الثانية بعد التحكيم التي وقف عندها الجاحظ هي ترك علي للقتال . وقد اتهمه خصومه بانه ترك القتال اما جبناً واما طمعاً في توبة معاوية وعمرو واما ندماً على ما اراق من دماء . وكل هذا من سوء التدبير والعجز .

بيد ان الجاحظ يرد جميع هذه التهم لأن علياً « أشد الناس قلباً واشراً واكثرهم للاقران قتلاً » . ولأنه كان يدرك خدعة معاوية وعمرو وقد حذر اتباعه في خطبه منها ودعاهم الى مواصلة القتال . ويرى ان عليا ترك القتال عندما تحقق من تفكك عسكره ومللهم الحرب ، وسأمهم مقارعة الشر ، وبعدهم عن اوطانهم وعبائهم ، بعدما قال كبراًؤهم : « لا نعود حتى نשמركم الكراع ونحصد السلاح ونجبي المال » .

والمسألة الثالثة التي عاجلها الجاحظ هي « كتاب القضية » وهو الاتفاق الذي زعم خصوم علي انه تم بين علي ومعاوية على تحكيم عمرو بن العاص وابي موسى الاشعري في ما شجر بينهما . وقد أثبت الجاحظ هذا النص وحلله فوجد انه مدخول وغير صحيح . فالفاظه تخلو من الفصاحة والبلاغة ويشيع فيها اللحن مما يدل على انها من كلام المولدين . والشهود مشكوك في نسبهم ومختلف في

إسمائهم ، والسنة التي ارادوا الرجوع اليها لم يردنا ان الحكمين تذاكرا فيها
أبدأ.

والمسألة الرابعة التي توسع فيها الجاحظ هي احتجاجات السفينانية ، اتباع
معاوية ، لحقه بالخلافة . لقد ذهبوا الى ان الخلافة شورى كما ارتأى عمر بن
الخطاب عندما اختار ستة رجال وامرهم باختيار الخليفة بعده ، منهم . ولم يبق
منهم سوى اربعة وكلهم لا يصلحون للخلافة . فسمعت بن ابي وقاص لا
يستحقها لأنه « جليس لا يرى ان يدفع ضيماً ولا يمنع حريماً » . وطلحة والزبير
لا يصلحان لها لأنها بايعا علياً ثم نكثا البيعة . واما علي بن ابي طالب فقد سقط
حقه فيها لاشترائه بدم عثمان وحميته قتله ولأنه لم يعمل بالشورى ولم تجمع عليه .
الناس .

ومعاوية برأي اتباعه اولى بالخلافة من بقية الشورى لأنه ابراهم ساحة من
العيوب التي رموا بها ولأنه اولى من انتدب لحسم الخلاف وتسلم مقاليد الملك
وتفريج الكرب عن الناس ، ولأن عمر ولاء وعثمان زكاه ، ولأنه اولى الناس
بالمطالبة بدم عثمان الخ . *مركز تحقيقات كويتيون سعوديون*

وقد رد الجاحظ على هذه الحجج بقوله ان معاوية لم يدل بهذه الحجج التي
تلهج بها السفينانية . ولو احتج بها معاوية لرواها اصحاب الاخبار والسير امثال
الزهري ومحمد بن اسحق وقتادة وغيرهم . ويرى ان هذه الاحتجاجات من عمل
المتكلمين المتأخرين .

ثم ان حجة السفينانية بان خلافة علي باطلة بسبب عدم توافر الاجماع عليها
لا قيمة لها . لان الاصل في القضية هو توافر الفضيلة ، فاذا وجدت فعل الناس
الاجماع على صاحبها ، فان اختلفوا فالحق لا يزول وعلى صاحبه الصبر . وقد
كان فضل علي ظاهراً ، واذا كانوا اختلفوا فيه فقد أصاب الموافق واخطأ المخالف
ولم يضم ذلك علياً .

وكذلك حجة السفينانية بان خلافة علي باطلة لانها لم تنل بالشورى لأن

علياً لم يجمع بقية الشورى ليختاروه ، ساقطة ايضاً ، لأن تلك الشورى ارتأها عمر
وليس علي ملزماً بالعمل بها .

وإما حجة السفينانية بان حق علي بالخلافة قد سقط لاشتراكه بدم عثمان
فتجن مطلق ، لأن علياً لم يشترك بدم عثمان ولم يمرض علي قتله ولم يعن عليه .

بقي الاعتراف بحق علي بالخلافة للقدم في الاسلام والفضائل التي انماز بها
من زهد وفقه وشجاعة وتضحية في سبيل الدين اصف الى ذلك الرواية
والقراءة .

وإذا كان السفينانية قد ضلوا السبيل في موقعهم من علي ومناصبتهم إياه ،
فإن الشيعة والخوارج قد غفلوا بدورهم عن تدبيره . فالشيعة اخطأوا في تأويلهم
لتدبيره في قضية الحكمين وحرب صفين كما مر معنا ، والخوارج جهلوا بتدبيره
ايضاً مرتين الاولى عندما دعاهم الى مواصلة القتال إثر رفع المصاحف فاحجموا
وقالوا لنحكم كتاب الله بيتنا ، والثانية عندما دعوه بعد التحكيم الى استئناف
القتال فرفض لتشتت جيشه ، فكفروه وحاربوه .

أما موقف الجاحظ الخاص فقد تحلده بقوله انه ينطلق من مبدأ المعتزلة في
المنزلة بين المنزلتين ، أي التوسط في الاحكام بين الافراط والتضييق ، وبين الايمان
والكفر في حق مرتكب الكبيرة . فالمعتزلة لا يغفلون كالخوارج فيكفرون علياً ، ولا
يقصرون كالمرجئة فيعلقون الحكم ويتركون الامر لله . وإنما يقتصدون ويتوسطون
« وهذا الاشتقاق ، وهو التوسط والاقتصاد هو الاعتزال لغلو من غلا وتقصير من
قصر ؛ والاصل الذي نبي عليه امرنا فيمن ليس عندنا كعلي وسابقته وأرومته
وكامل خصاله بل في ادنى رجل من اوليائنا ، انا متى وجدنا له عملاً يحتمل الخطأ
والصواب لم يكن لنا ان نجعل عمله خطأ حتى يعيننا فيه وجه الصواب ، وليس
لنا بعد ان قضينا بانه خطأ ان نقضي بانه خطيئة حتى يعيننا القدر بانه سليم من
طريق المآثم ، فان قضينا بانه اثم فليس لنا ان نقضي بانه ضلال ونحن نجد
لصرف الدفع عنه انه ضلال الى الاثم متحماً ، وان قضينا بانه ضلال فليس لنا

ان نقضي بانه كفر الا بعد ان نجد من ذلك بدأ فيكون الحق احق ما قضي به
وصبر عليه . فمن كانت - حفظك الله - هذه سيرته وطريقته في ادق اولياته ،
فكيف تظنه في ارفع اولياته ؟ فهذا ما لا يحل لي ان اظنه بعلي بن ابي طالب ،
فان كان عندك برهان واضح ودليل بين يكشف لنا عن الحال حتى يتبين به ان
كان سبياً في اراقة دمه ، فعلينا السمع واليقين والاقرار ، وعليك البيان والافهام
بالدليل والحرص .

لقد اوضح الجاحظ في هذا المقطع طريقة المعتزلة في الحكم على الناس بمن
فيهم علي . وهي طريقة تتسم بالاعتدال وتتجنب الغلو والتقصير ، وتضع
درجات في سلم الأعمال تتوسط بين الكفر والايان وهذه الدرجات هي الصواب
والخطأ والخطيئة والاثم والضلال . ثم تلتزم بعدم اصدار الحكم الا بعد توافر
الادلة التي تفضي الى اليقين .

وبناء على هذه القاعدة لا يجد الجاحظ دليلاً كافياً يتبين منه ان علياً كان
سبياً في اراقة دم عثمان ، فيصدر عليه حكماً بالكفر . اما معاوية فلا يستحق
الامامة لعدم توافر اسبابها فيه ، وقد اغتصبها بالقوة والخديعة ومختلف الوسائل
التي توافق الكتاب والسنة وتخالفهما على عكس علي الذي كان يلتزم الكتاب
والسنة ولا يلجأ الى المكائد . واذا كان الجاحظ لم يجهر باكفار معاوية في رسالة
الحكمين فانه كفره صراحة في رسالة النابتة . لقد فسق وضل لاغتصابه الخلافة
وكفر حين جحد حكم الرسول في ولد الفراش وادعى ان زياد بن سمية أخوه
(انظر رسالة النابتة ، ضمن رسائل الجاحظ الكلامية ، التي نشرناها) .

والجاحظ يؤكد انه يلزم الحياد بين العلويين والعثمانيين وانه ليس ممن « يعيل
في شق عن شق ، ويتعصب لبعض على بعض ، ومن يبغض حق الدون ،
فكانك به قد تبغض حق من فوقه حتى تصير الى أئمتهم المهتدين وخلفائهم
الراشدين ، لست عمرياً دون ان اكون علويّاً ، ولا علويّاً دون ان اكون
عثمانيّاً ، اللهم الا بما اخص به العثرة بسبب القرابة ، واما في غير ذلك فليس

شأنى الا محبة الجميع والتوفير على الكل ودفع الظلامه عن الكبير والضعيف على قدر ما شاهدنا عليه من الحالات . . . » .

وهو يعلن ان كتابه هذا ليس من كتب اصحاب الاهواء او المتكسبين او المتقربين ، او من كتب المنافقين والمموهين للباطل . وان غايته هي تبيان الحق والدعوة اليه .



مركز تحقيقات كميوتير علوم سعودي

٥ و ٦ - مقدمة رسالة فضل هاشم على عبد شمس

ورسالة العباسية

في هاتين الرسالتين يصور الجاحظ الصراع المستحكم بين فخذين من افخاذ قريش. على الخلافة . هذان الفخذان هما بنو هاشم وبنو عبد شمس . ويسلو الخلاف بينها واضحاً منذ العصر الجاهلي في تنافسها على مقاليد السلطة في مكة الممثلة باللواء والندوة والسقاية والرفادة وزمزم والحجاجة . . وحسم هذا الخلاف لصالح بني هاشم عندما ظهر النبي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي بحمل رسالة الاسلام ويشر بها وينشرها . ويانتصاره على المشركين الذين كان يتزعمهم ابو سفيان بن حرب بن امية بن عبد شمس القرشي . والذي توج بفتح مكة وتسلم النبي محمد مفتاحها . بيد أن الامويين سكتوا على مضض حتى اذا خلف عثمان بن عفان قبضوا على مقاليد السلطة وتوزعوها فيما بينهم لأن عثمان ولي اقرباءه الامويين على الامصار واعتمد عليهم في الحكم . وعندما قتل عثمان على ايدي الثوار وسويح علي أعلن معاوية بن أبي سفيان الأموي العصيان وتمرد على سلطة الخليفة الهاشمي ، وبعد حروب طويلة استتب الأمر لمعاوية على اثر مصرع علي على يد عبد الرحمن بن ملجم الخارجي . ولم يياس بنو هاشم وراحو ييثون دعوتهم سراً سحابة حكم بني أمية الذي دام زهاء قرن من الزمان

واستطاعوا أخيراً ان يعلنوا الثورة على الامويين ويقوضوا الحكمهم سنة ٧٥٠ م ويطشوا ببني امية بطشاً شديداً . وقد انقسم الهاشميون فرعين : ابناء علي بن ابي طالب ، وابناء العباس عم النبي وكل منهما كان يدعوا لنفسه ويدعي انه احق بالخلافة من الآخر . وقد اطلق على ابناء علي اسم العلويين وسمى انصارهم بالشيعة . واطلق على ابناء العباس اسم العباسيين . وقد استطاع العباسيون الاستئثار بالسلطة دون العلويين وتأسيس دولتهم الشاخنة القوية التي عاشت نحو خمسة قرون من الزمان وانتهت على يد المغول سنة ١٢٥٦ م .

وابان الحكم العباسي لم يكف انصار الامويين عن النضال في سبيل السلطة والقضاء على الدولة العباسية . وكان هذا النضال يتخذ شكل الدعاية الفكرية السرية ، او شكل الثورات العلنية الدموية . ويبدو من رسائل الجاحظ أن انصار الامويين نشطوا في القرن التاسع الذي عاش فيه الجاحظ فكان يطلق عليهم اسم النابتة او العثمانية او العمرية او البكرية . فبادر العباسيون للرد عليهم ونقض حججهم ، ولا سيما المأمون والمعتمد وتطوع الجاحظ للاضطلاع بمهمة الرد . فكتب عدة رسائل حول هذا الموضوع ، منها رسالة النابتة ، ومنها رسالة العباسية ، ومنها رسالة فضل هاشم على عبد شمس . وقد فعل ذلك تقرباً من العباسيين اصحاب السلطان .

وقد تكلمنا على رسالة النابتة في مقدمة رسائل الجاحظ الكلامية وقلنا ان النابتة ينتصرون لبني امية ويحنون الى دولتهم ، ويزينون أعمالهم ويدعون لهم . فرد عليهم الجاحظ مبينا سيئاتهم وتهافت حجج انصارهم النابتة .

اما رسالة العباسية فقد وضعها الجاحظ ليبين ان العباسيين احق بالخلافة من سواهم . وبما أنهم أسندوا هذا الحق الى الوراثية ، لذا يركز الجاحظ على هذا المبدأ ليوضح صحته . لقد اعتبر العباسيون الخلافة ارثاً تهمدر اليهم عن النبي ، وهم احق بذلك الارث من ابناء فاطمة بنت النبي لان البنات لا يرثن الأباء ، بينما الأعمام واولاد الأعمام يرثون .

وقد أنكر العثمانية او البكرية مبدأ الارث في الخلافة وقالوا إنها شورى ،
وان النبي لا يورث . واعتمدوا على موقف ابي بكر من فاطمة عندما منعها
الأرث إثر موت والدها وقال لها عندما المحت بالطلب واحتجت وتظلمت إنه سمع
رسول الله يقول « انا معاشر الانبياء لا نورث ما تركناه ، فهو صدقة » .

وهم يرون موقف ابي بكر من الأرث صحيحاً والدليل على صحته ان
الصحابة لم يستنكروه . فتجيب العباسية انه اذا كان ترك النكير دليلاً على صدق
دعوى ابي بكر وعمر ، فان ترك النكير على المتظلمين والمحتجين والمطالبين دليل
على صحة دعواهم او استحقاقها . وقد طالبت فاطمة ابا بكر بميراث والدها
فمنعها إياه ، فاحتجت والمحت وشكت ووجدت ودعت على ابي بكر فلم يردعها
احد من الصحابة ولم يصرفها عن الخطأ اذا كانت على خطأ .

وثمة دليل آخر على ان ترك النكير ليس حجة على صدق الدعوى ، موقف
عمر من المتعة وحصر الخلافة في قريش . لقد قال عمر من على المنبر : متعتان
كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، متعة النساء ومتعة الحج ، انا
انهى عنهما ، واعاقب عليهما . فلم ينكر عليه أحد قوله ولا خطاه . وقال يوم
السقيفة ان الخلافة في قريش لأن النبي قال : « الائمة في قريش » . ولكنه خالف
هذا المبدأ عندما قال شاكياً من الستة الذين حصر فيهم الشورى بعده « لو كان
سالم حياً ما تخالجنى فيه شك » وسالم ليس قرشياً ، بل هو عبد لامرأة من
الانصار . ومع ذلك لم ينكر عليه أحد موقفه او دعواه .

وثمة دليل على صدق دعوى ابي بكر بمنع الأرث عن فاطمة أورده البكرية
خصوم العباسيين هو احجام الصحابة عن خلعهم والشورى عليه . ولو كان على
خطأ لفعلوا به كما فعلوا بعثمان عندما وثبوا عليه وقتلوه .

هذا الدليل باطل ينظر العباسيين لأن ابا بكر عندما منع الارث عن فاطمة
لم يحدد التنزيل ولكنه ادعى حديثاً نسبه الى النبي ليس محالاً في العقل ولم يثر به
الناس لأنهم صدقوه في حديثه لحسن ظنهم به . وقد ثاروا على عثمان ولم يشوروا

على ابي بكر لأن العامة والسفلة لم تهيب عثمان كما هابت ابا بكر وعمر ، ولم يستأثر ابو بكر وعمر بالفيء كما استأثر عثمان .

هذه حفنة من الآراء التي أدلى بها كل من العباسية والبكرية أو العثمانية حول أحقية الخلافة . ولم يصلنا من رسالة العباسية سوى بضعة صفحات ، ولكنها كافية لاعطائنا فكرة عن الرسالة كلها . إنها تدور حول موضوع واحد هو حق العباسيين في الخلافة دون سواهم ، وان سيالها واحد هو الجدل وقرع الحججة بالحجة بين خصمين هما العباسيون من جهة وخصومهم العثمانية من جهة ثانية .

اما رسالة فضل هاشم على عبد شمس فمناظرة بين الهاشميين والامويين ، كل منهم يفتخر بالرجال الذين انجبهم ويعد مآثرهم . فهاشم هو الجد المشترك للعلويين والعباسيين . وكان اسمه عمراً وهاشم (لقب كريم لقب به لأنه كان يحشم الشريد لقومه في السنين العجاف .

وابنه عبد المطلب سيد الوادي واجمل الناس واجودهم ، وصاحب الفيل وزمزم وساقى الحجيج ، وقد ظهرت على يديه كرامات ككرامات الانبياء . فقد دعا الله ان ينصره على الاحباش الذين غزوا مكة فارسل الله عليهم طيراً ابايل ترميهم بحجارة من سجيل واستجاب الله لدعائه .

وانجبت هاشم محمداً النبي المصطفى . والنبوة اعظم هبة واقدسها . ولا يضارعها شيء . كما انجبت عبد الله بن عباس وعلياً ابن ابي طالب ، والمنصور والرشيد والمأمون والمعتصم وغيرهم من الخلفاء العظام .

واذا افتخر بنو أمية بانه خرج منهم ملوك كبار امثال معاوية ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان ويزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز . اجاب بنو هاشم بأن سني ملكهم اطول لأن دولة امية لم تعمر سوى اربع وتسعين سنة . وان اساس ملكهم امتن لانهم بنوه على الميراث وحق العصبة والعمومة ، وبناه الامويون على النسب القرشي .

ويلخص الجاحظ أسباب الخلافة التي نادى بها طلابها في عصره :
فالمملوكيون جعلوا الوصية والقربة والسابقة سبباً في الخلافة ، والعباسيون جعلوا
الوراثة سبباً في الخلافة ، والخوارج جعلوا السوابق والاعمال والجهاد سبباً في
الخلافة .

وفي جميع هذه الاحوال ليس للامويين فيها نصيب اذ ليس لهم قدم مذكور
ولا يوم مشهور .

اضف الى ذلك أن ملوك بني امية اتوا من الشرور والآثام والظلم الشيء
الكثير . لقد حاربوا علياً وسموا الحسن وقتلوا الحسين وحملوا النساء على الجمال
حواسر وكشفوا عن عورة علي بن الحسين وضربوا علي بن عبد الله بن عباس
بالسياط الخ . وهدموا الكعبة وحولوها وغيروا اوقات الصلاة .

وبسبب ما ارتكب بنو امية من مخاز وفجور دالت دولتهم بسرعة وانتزع
العباسيون الملك من ايديهم بالبطش والحيلة .

اما المفخر التي يفتخر بها بنو هاشم فهي كثيرة العدد فان عدد اولاد علي بن
عبد الله بن العباس يناهز عدد جميع ابناء امية وكذلك عدد ابناء الحسين بن علي
ابن ابي طالب .

ويفخر بنو هاشم ايضاً بالرأي السديد والعلم والفقہ والتأويل والخطابة وقد
نبغ منهم في ذلك كثيرون امثال عبد الله بن عباس وعلي بن ابي طالب .

ويفخرون بالفروسية والشجاعة وقد اطلعوا امثال حمزة بن عبد المطلب
وعلي بن ابي طالب .

ويفخرون بالكرم والسماح وقد اشتهر منهم فيهما امثال عبد الله بن جعفر
ابن ابي طالب ، وعبيد الله بن العباس بن عبد المطلب .

ولم يكف الجاحظ بايراد مفاخر الهاشميين بل اورد ايضاً مفاخر الامويين
المقابلة ؛ لقد افتخر هؤلاء بانهم انجبوا نواذر الرجال في العقل والدهاء امثال

معاوية بن ابي سفيان وزبياد ابن ابيه . وعبد الملك بن مروان .

وفخر الامويون برجال أجواد كانوا مضرب المثل امثال سعيد ابن العاص
وعبد الله بن عامر .

وفخر الامويون بالفتوح التي تمت في دولتهم والحروب التي خاضوها في
ارمنية وافريقيا والسند والهند .

كما افتخروا بنبوغهم في الشعر واهتمامهم بالعلوم . فكان يزيد بن معاوية
شاعراً ، والوليد بن يزيد شاعراً ، ومروان بن الحكم وعبد الرحمن بن الحكم
شاعرين . اما خالد بن يزيد بن معاوية فكان حكيماً وهو اول من أجاز الترجمة
والفلاسة ليرجموا له الطب والكيمياء والآلات .

وفاخرا الامويون بخطبائهم أمثال معاوية بن ابي سفيان وعبد الملك بن
مروان وزبياد ابن ابيه وسليمان بن عبد الملك والوليد بن يزيد بن عبد الملك بن
معاوية ، وعمر بن عبد العزيز .

وافتخر الامويون بالملك ولا سيما بمعاوية الذي حكم اربعين سنة منها
عشرون واليا وعشرون خليفة . وعبد الملك بن مروان الذي انجب اربعة خلفاء
هم الوليد وسليمان ويزيد وهشام .

وفاخرا الامويون بالحسن الذي عرف به عبد الله بن عمرو بن عثمان الذي
لقب بالمطرف لجمانه . والمؤمل بن العباس بن الوليد بن عبد الملك .

لم يقتصر الهاشميون على تعداد مفاخرهم بل عمدوا الى تسفيه مفاخر
خصومهم الامويين . فالدهاء الذي عرف به بنو أمية هو من اساء فجار
العقلاء . والذين عدوهم من الدهاة ابعد الناس عن التقى . ولم تكن حيل
معاوية لتخفى على بن ابي طالب « ولكن الرجل الذي يجارب ولا يستعمل
الا ما يحل له اقل مذاهب في وجوه الحيل والتدبير من الرجل الذي يستعمل ما
يحل وما لا يحل » .

وإذا ذكر الأمويون في الجود سعيد بن العاص وعبد الله بن عامر فابن
جودهما من جود عبد الله بن جعفر وعبيد الله بن العباس والحسن بن علي وجود
خلفاء بني العباس كالمهدي والرشيدي والمأمون .

وفي الخطابة لم ينبغ أحد من اولاد أمية بن عبد شمس ولا يضارع أحد
فيها علي بن أبي طالب وعبد الله بن العباس .

وفي الورع لا أحد يضاهي علي بن أبي طالب في زهده ودينه . وفي النسك
ليس من شبيه لزين العابدين علي بن الحسين .

وفي الفقه والتفسير والتأويل ليس لأحد فيه أن ينافس علي بن أبي طالب
وعبد الله بن عباس وجعفر الصادق .

وفي الشجاعة ليس من ند لعلي بن أبي طالب وحمزة ابن عبد المطلب ،
والحسين بن علي وزيد بن علي بن الحسين بن أبي طالب والمعتصم وعبد الله بن
علي عم المنصور .

وفي الحسن لم يكن أحد أجمل من العباس بن عبد المطلب من بسطة جسمه
وتمام قوامه .

وإذا فاخرت أمية بعاتكة بنت يزيد بن معاوية ، فاخرت هاشم بفاطمة
بنت رسول الله سيدة نساء العالمين وبامها خديجة .

ويبدو ان الأمويين ارادوا إظهار الاعتدال فدعوا الى التسوية وقالوا ليس من
أحد أفضل من الآخر ، ونحن لا ننكر فضل هاشم في الاسلام ، ولا فرق بيننا
في الجاهلية فنحن وهاشم أبناء أب واحد وام واحدة . . ان عبد مناف هو جدنا
المشترك ، ولم يفرق الرسول بين هاشم وعبد شمس .

ولكن هاشم أبت التسوية وقالت ان أمية ليسوا اكفاءنا من كل وجه وان
جمعنا جد واحد . وقد ميز الرسول بين هاشم عشيرته وسائر العشائر وقال الله في
ذلك ﴿ وانذر عشيرتك الاقربين ﴾ .

٧ - مقدمة مناقب الترك وعامة جند الخلافة

وضع الجاحظ قسماً من هذا الكتاب في خلافة المعتصم ووضع القسم الثاني في خلافة المتوكل . والقسم الاول وجهه الى المعتصم فلم يصل اليه لاسباب لم يفصح عنها الجاحظ . اما القسم الثاني فوجهه الى وزير المتوكل الفتح بن خاقان التركي الاصل والذي عرف باده وشاعريته ، وذكرت له بعض الكتب مثل كتاب اخلاق الملوك ، وكتاب الروضة والزهر وكتاب الصيد والجراح . وقد قتل مع المتوكل سنة ٢٤٧ هـ . ويصفه الجاحظ في مقدمة الرسالة بحسن اطاعته الخليفة ، والدراية بالتدبير ، والحرص من الوقوع في الهفوات التي يعاب بها .

والغرض الذي رمى اليه الجاحظ من الكتاب هو (الألفة بين قلوب ابناء الشعوب التي تشكل الدولة العباسية . كانت تلك الدولة المترامية الاطراف تضم عدة شعوب مختلفة الاصل واللغة والاخلاق ولم يستطع الاسلام الذي اجتمعت عليه أن يصورها صهراً كاملاً في بوتقته ، فظل كل شعب منها متعلقاً بتراثه وماضيه ولغته وطباعه ، ونشأت الخصومات بينهم على الصعيدين الفكري والعسكري .

واهم تلك الشعوب التي كونت الدولة العباسية العرب والفرس والأتراك والسودان اضيف الى ذلك شعبين مولدين هما الموالي (والأبناء . وكل من تلك

الشعوب يعتر بخصائصه ويتمسك بها ويدل فيها على الشعوب الأخرى . وقد تمثل ذلك في الجيش الذي كان يضم الخراساني والتركي والمولى والعربي والبنوي .

ويمكن ان نقسم الكتاب قسمين : قسماً يتناول مفاخر كل شعب من هذه الشعوب ، وقسماً يحدد السياسة التي ينبغي أن تتبع للتقريب بينهم وتوحيد كلمتهم .

وفي القسم الاول نجد الخراسانيين يفخرون بانهم اصحاب الدعوة العباسية لأنها انطلقت من خراسان وقضت على دولة الامويين . فهم شيعة العباسيين وجنودهم وحملة راياتهم السوداء . كما يفخرون بعظم اجسامهم وطول سواعدهم وكثرة نسلهم وعددهم . ويعتزون بشجاعتهم وبلائهم في الحروب وانتصاراتهم وقدرتهم على قلب الدول . ولا ينسون براعتهم في الصناعات والعلوم والحكمة والأدب والحساب والهندسة والموسيقى والفقه والرواية .

اما العرب فيفخرون بانهم اهل الدولة واقدم الشعوب اسلاماً . وهم اقدر الناس على نظم الشعر المتوزون المقفى الذي لا يفنى ويخلد المآثر والاحبار ، واحفظهم للانساب ، واخطبهم على منبر بلسان امضى من السنان وارهف من السيف .

ويفتخرون ايضاً بانهم قواد الدعوة العباسية لأنهم قدموا النقباء « وهل اكثر النقباء الا من صميم العرب ومن صلبية هذا النسب » ولم يقض على عمال الامويين وخليفتهم الأخير مروان بن محمد الا عرب الدعوة . ولم يفتح الهند الا موسى بن كعب ، ولم يفتح افريقية الا محمد بن الأشعث وكلهم عرب أقحاح . وبدا تسقط دعوى الفرس بانهم اصحاب الدعوة .

فاذا استمعنا الى الموالي نراهم يمتدحون انفسهم بالنصيحة والاخلاص في الخدمة وعدم افشاء السر والطاعة . وبانهم اطلعوا العديد من النقباء امثال ابي منصور مولى خزاعة . ولا يعابون من جهة النسب لأن الولاء لحمة كلحمة

النسب وبذا جمعوا بين النسب العربي والاصل الاعجمي .

اما الأبناء فيقولون أن أصلهم خراسان وفرعهم بغداد . وخراسان هي منبع الدعوة وبغداد مستقر الخلافة . ولذا فهم اعرق من الموالي والعرب . وهم قوام السلطة القائمة في بغداد وقد اجتمع لهم الاقدام في الحروب ، الاحتجاج والعقل والصبر على الزمان . ويبدو من كلام الجاحظ ان الابناء كانوا يسيطرون على بغداد وكان الخليفة يعتمد عليهم في فرض سلطته ونسمة يقول « ولنا بغداد باسرها ، تسكن ما سكننا ، وتتحرك ما تحركنا ، والدنيا كلها معلقة بها . . . ونحن بعد تربية الخلفاء وجيران الوزراء ، ولدنا في افنية ملوكنا ، ونحن اجنحة خلفائنا . . . » . والابناء مولدون من آباء فرس وامهات عربيات .

ونتهي اخيراً الى الاتراك الذين ذكر خصالهم في القسم الأخير من الكتاب واطال الحديث عنهم . والصفة الرئيسة التي يفتخرون بها هي البسالة في الحروب والبلاء في المعارك وهم يتفوقون بها على الخوارج الاعراب وعلى جميع الأمم . واذا عرف الخارجي بصدق الشدة عند الهجوم ، والصبر على السير ، وادراك ما يطلب ، وقلة الامتعة فان التركي احمد شدة ، واسرع حركة ، واصعب مراماً . واذا كان الخوارج يقاتلون عن عقيدة دينية فان الاتراك لا يقاتلون على دين او تأويل او ملك او خراج او عصبية او وطن . بل يقاتلون على السلب .

ويعرف التركي بحب وطنه والحنين اليه . وهذا طبع في جميع الناس ولكنه في الترك اغلب .

وبعد عرض مفاخر الشعوب المختلفة يبدي الجاحظ رأيه الشخصي . إن سبب اختلاف الأمم في الخصال عائد الى طباع خصهم الله بها دون غيرهم . وهذا ما يفسر لنا خلق اهل الصين في الصناعة ، واليونانيين في الحكمة والعلم ، والعرب في الأدب ، والفرس بالملك ، والاتراك في الحروب . فاليونانيون لم يكونوا تجاراً ولا صناعاً ولا فلاحين ، فصرفوا همهم الى التفكير والتأمل فتوصلوا الى الطب والحساب والهندسة والموسيقى وآلات الحرب والساعات الخ كما انتجوا

اما سكان الصين فقد مهروا بالسبك والصياغة والأصباغ العجيبة .

وكذلك العرب لم يكونوا تجاراً ولا صناعاً ولا اطباء ولا حساباً ولا اصحاب
فلاحة وزرع لخوفهم من صغار الجزية ، وانما اتجهوا نحو قرص الشعر وبلاغة
القول ، كما اهتموا بقيافة الأثر وحفظ النسب والبصر بالخيال فبلغوا شأواً عظيماً .
والترك مثل العرب سكان فياف وقفار لذا دعوا باعراب المعجم فلم يهتموا
بصناعة او تجارة او هندسة او بنيان او زراعة ، وصرفوا همهم الى ركوب الخيل
ومقارعة الاعداء وطلب الغنائم فاشتهروا بالفروسية والحرب .

ان لكل امة حظاً من الكمال ومقداراً من النقص ، ولا تخلو امة من
النقص فتبلغ الكمال كله ، « وانما يتفاضل الناس بكثرة المحاسن وقلة
المساوىء » .

ثم ان السياسة تقضي بالامتناع عن التفاضل والتناهد لان الاسراف فيها يؤدي
الى التناحر والتباغض بين جند الخلافة وبين ابناء مختلف الشعوب التي تتكون منها
الخلافة .

ويرى الجاحظ أن الناس - وان تباينت اعراقهم وصورهم - متفقون في
حقيقتهم . فالمولى الاعجمي يصبح عربياً بالولاء وليس هذا بمجيب لانهم جعلوا
الحال والبدأ « والحليف من الصميم » كما جعلوا « ابن الاخت من القوم »
واسماعيل الاعجمي الوالدين عربياً .

ثم ان الجميع من خلق الله ، فله « ان يجعل من عباده من شاء عربياً ومن
شاء عجمياً ومن شاء قرشياً ومن شاء زنجياً ، كما له ان يجعل من شاء ذكراً ومن
شاء انثى ومن شاء خنثى .

وقد قسم الله الطبائع والخصال والصفات والقدرات بين الناس كما قسم
طينة الأرض فجعل بعضها حجراً وبعضها ياقوتاً وبعضها ذهباً وبعضها نحاساً
الخ ..

ويتهيء الجاحظ الى التسوية والتوحيد بين الخراساني والبنوي والمولى والعربي
قائلاً : « واذا كان الأمر على ما وصفنا فالبنوي خراساني ، واذا كان الخراساني
مولى ، والمولى عربي ، فقد صار الخراساني والبنوي والمولى والعربي واحداً » .

وعلى هذا الاساس تصبح اسباب القرى والوفاق بين هذه الشعوب اكثر من
اسباب الخلاف . « بل هم في معظم الأمر وفي كبر الشأن وعمود النسب
متفقون . والاتراك خراسانية ، وموالي الخلفاء قصرة ، فقد صار التركي الى
الجميع راجعاً ، وصار شرفه الى شرفهم زائداً » .

ويترتب على ذلك انتفاء الخلاف ، وغلبة التسامح ، وازالة الأضغان .



مركز تحقيقات كميپوز علوم اسلامی

٨ - مقدمة فخر السودان على البيضان

هذا الكتاب يشبه كتاب مناقب الترك وعمامة جند الخلافة في الموضوع والنوع . فهو يعدد مفاخر العرق الاسود كما عدد كتاب مناقب الترك وعمامة جند الخلافة مفاخر البيضان من خراسانيين وعرب واتراك وابناء وموال . وهو ينطوي مع كتاب مناقب الترك في الغاية التي يرمي اليها الجاحظ وهي التسوية بين العرب وسائر الشعوب التي تشمل عليها الدولة العباسية والتقريب بينها واستئصال الاحقاد من قلوب ابنائها ، لتستطيع العيش بوثام وسلام . وهذه هي القاعدة التي تقوم عليها سياسة بني العباس والتي يؤيدها الجاحظ .

غير ان رسالة فخر السودان على البيضان كرسالة الترك تصور لنا الحركة الشعبية تصوراً واضحاً . ان هذه الشعوب تحاول ان تثبت وجودها وتمايزها وفضائلها ومآثرها وتفوقها على العرب .

ويوجه الجاحظ الكلام في مقدمة الرسالة الى شخص لم يذكر اسمه سأل ان يكتب كتاباً في مفاخر السودان فيلبي الجاحظ طلبه ويؤلف هذه الرسالة التي يبدي فيها عطفاً ظاهراً على السودان لانه كان اسود اللون يمت اليهم بصلة القرابة .

وهو يعدد اولاً الرجال العظام الذين انجبهم السودان ، منهم لقمان الحكيم ، وسعيد بن جبير المحدث الذي عاش في العصر الاموي وقتله الحجاج

في السنة التي مات بها . ومنهم بلال الحبشي مؤذن الرسول ، ومنهم المقداد الذي عاش في عصر الرسول ، ووحشي الذي قتل مسيلمة الكذاب . ومنهم مكحول الفقيه المتوفي سنة ١١٢ هـ . ومنهم الحيقطان الشاعر والخطيب الذي عاش في العصر الاموي . ومنهم جليبيب الفارس الذي عاش في عصر الرسول ، ومنهم عكيم الحبشي الشاعر .

ويذكر اسماء السودان الذين اشتهروا بالفروسية امثال خفاف بن ندبة ، وعباس بن مرداس ، وعنترة بن شداد ، وسيلك بن السلكة ، وعمير بن الحباب والحجاف بن حكيم وعامر بن فهيرة ، والفداف ومريح الاشرم والمغلول وافلح الخ .

ثم يذكر ثانياً خصال السودان واهمها السخاء الذي يغلب عليهم ولا تنافسهم فيها أمة أخرى .

ومن خصالهم الرقص الموقع الموزون ، فهم اطلع الناس على الايقاع والضرب بالطبل .

ومن خصالهم خفة لغتهم وذرابة السنتهم وخلوهم من الفأفة والعي . وهم اخطب الشعوب ، يقف الخطيب طوال النهار يتكلم دون تعب .

ومن خصال السودان قوة الابدان حتى ليستطيع الواحد منهم رفع الاثقال التي يعجز عنها جماعة الاعراب .

ومن خصالهم دماثة الخلق وطيب النفس وحسن الظن والنأي عن الأذى . واجادة الطبخ ، والامانة في الاعمال المصرفية .

وقد اعترض قوم على سخائهم فقالوا انه نتيجة ضعف عقولهم . فرد السودان قائلين لو كان الأمر كذلك لكان الصبيان والنساء اكرم من الرجال لانهم اضعف منهم عقولاً . والعكس هو الصحيح .

ويرى الزنج وهم عرق من السودان انهم كانوا اكفاء العرب في الجاهلية

ولذا اكثروا من التزوج منهم ، وفي الاسلام انكر العرب فضل السودان عليهم على الرغم من ضرب الامثال بملوك السودان وتقدمهم على ملوك العرب امثال ابرهة واهي يكسوم .

ثم انتقل الجاحظ الى الحديث عن اللون الاسود وقيمته ومنشئه وجماله ، وأق باراء اجتماعية ونفسية طريفة . فهو يرى ان اللون الأسود اشد مهابة من اللون الابيض . والحيوانات والاشياء السوداء تتصف بالقوة والبهاء ، فالخيل الدهم ابيض واقوى ، والبقر السود احسن وجلودها اتمن وابقى وادسم لبناً . وكل حجر اسود يكون اصلب ، واشهى التمور واحلاها الاسود . واعلى العيدان واسلمها الأبنوس الاسود . واجمل الشعر الاسود ، وحادقة العين السوداء احسن ما في العين ، والكحل الذي يكتحل به للترزيب اسود اللون ، وسويداء القلب اعز ما فيه ، واطيب ما في المرأة شفتاها السوداءوان . وقد قال الرسول : « بعثت الى الاحمر والاسود » ومعنى ذلك انه بعث الى السودان . والحجر الاسود اشرف ما في الكعبة . وام اسماعيل قبطية سوداء .

وعالج الجاحظ ناحية اخرى اجتماعية هي كثرة عدد السودان واتساع بلادهم في افريقيا وما وراء بلاد الحبشة . ويعزو الجاحظ ذلك الى قوة خصوبتهم وكثرة تناسلهم . « فالزنجية تلد نحواً من خمسين بطناً في نحو من خمسين عاماً ، في كل بطن اثنان فيكون ذلك اكثر من تسعين » .

ويلاحظ الجاحظ قلة الاقبال على الزواج من الزنجيات في المجتمع العباسي لان الزنجية لا تكاد تنشط لغير الزنجي ولأن الابيض لا ينشط للزنجية . ويعلل الجاحظ هذه الظاهرة بالعادة والتقليد . ولذا نرى اهل البصرة يحبون من النساء الهنديات ، واهل اليمن يحبون منهن الحبشيات ، واهل الشام يؤثرون الروميات . فكل قوم يشتهون جلبهم وسبيهم .

وثمة سبب آخر لكثرة السودان هو ترامي اصقاعهم . فاذا كان البيضان يسكنون بلاد فارس وخراسان والروم وفرنجة ، فالسودان يملأون بلاد الزنج

والحبشة وفزان وبربر والقبط والنوبة والسند والهند والصين . ثم ان العرب يعدون من السودان لأن لوتهم اقرب اليهم من البيضان .

ويبحث الجاحظ اخيراً مسألة فلسفية خطيرة هي علة اختلاف الناس في الوانهم . ويذهب الى ان الله لم يجعل السودان سوداً والبيضان بيضاً وانما البيضة الطبيعية التي يعيشون فيها هي التي تحمّل الوانهم او تصبغ جلودهم بالسوان مختلفة . ويقول على لسان السودان « ان الله تعالى لم يجعلنا سوداً تشويهاً بخلقنا ، ولكن البلد فعل ذلك بنا . والحجة في ذلك ان في العرب قبائل سوداً كبنو سليم ابن منصور . وكل من نزل الحرة من غير بني سليم كلهم سود » . وقد يأتي بنو سليم برعاة من الروم البيض فلا يمضي ثلاثة أجيال حتى يصبحون سوداً ، ثم ان جميع الحيوانات التي تعيش في الحرة من نعام وهوام وذباب وثعالب وشاء وحمير ونخيل وطير ، سود . وثمة دليل آخر على اثر البيضة في تشكيل الالوان هو اننا نرى جراد البقل وديدانه خضراً ، كما نرى قمل الرأس الاسود سوداء ، وقمل الرأس الاشيب بيضاء . وينتهي الجاحظ الى القول : « والسواد والبياض انما هما من قبل اخلافة البلد وما طبع الله عليه الماء والتربة ، ومن قبل قرب الشمس وبعدها وشدة حرها وليتها ، وليس ذلك من قبل مسخ او عقوبة ، ولا تشويه ولا تقصير » .

٩ - مقدمة كتاب الحجاب

يستهل الجاحظ الكتاب بمقدمة تقليدية يدعو فيها لمن يوجه اليه الكلام - وهو شخص لا يسميه - بطول البقاء والسعادة والهداية . ويحدد موضوع الكتاب وهو جمع « ما جاء في الحجاب من خير وشرر ومعاتبه وعذر وتصريح وتعريض . . . » . والغاية التي يرمي اليها الارشاد والتبیه الى مساویء الحجاب .

الكتاب إذن عبارة عن مجموعة اخبار وأشعار حول الحجاب ، ولا ينطوي على افكار أصيلة ذات شأن ادى اليها تفكير الجاحظ . ولكنه يطلعنا على نظرة العرب الى هذا الموضوع السياسي . فنحن نستشف من خلال الاخبار والاقوال والأشعار التي ساقها الجاحظ كره العرب للحواجز التي توضع بين الحاكم والشعب - ومنها الحجاب - ورغبتهم في تمكين الصلة بينهما ، وفي ذلك دلالة واضحة على الروح الديمقراطية التي يصدرون عنها . تلك الروح التي تتجلى في اعتبار الحاكم ذا سلطة مستمدة من الشعب بموجب البيعة التي هي ضرب من الاقتراع . وقد عبر هانئ بن قبيصة عن هذه الروح في قوله ليزيد بن معاوية الذي احتجب عنه اياماً ثم لقيه وهو راكب للصيد: « يا يزيد ، ان الخليفة ليس بالمحتجب المتخفي ، ولا المتسرف المتعني ، ولا الذي ينزل على الغدران والفلوات ، ويخلو للذات والشهوات . وقد وليت امرنا فتاتم بين اظهرنا ، وسهل

اذننا ، واعمل بكتاب الله فينا ، فان كنت قد عجزت عما هنا فاردد بيعتنا نبايع
من يعمل فينا ويقيمنا لنا ثم عليك بخلوأتك وصيدك وكلابك »

فالخليفة واحد من ابناء الشعب بايعة الناس ليدبر امورهم فاذا عجز عن
ذلك او احجم او انصرف الى اللهو والملذات او ابتعد عنهم واحتجب دونهم ،
وجب خلعه واقامة آخر مكانه .

وقد لخص النبي واجبات الحاكم بقوله « ثلاث من كن فيه من الولاة
اضطلع بامانته وامره : اذا عدل في حكمه ، ولم يحتجب دون غيره ، واقام كتاب
الله في القريب والبعيد » .

فعل الحاكم أن يعدل ويقيم احكام القرآن ولا يستكبر على الناس .

وشدد عمر بن الخطاب على ضرورة بقاء الحاكم قريباً من الشعب ، بعيداً
عن الابهة والبدخ قائلاً لعماله : ايناكم والاحتجاب وركوب البرفون واتخاذ
الحاجب ولبس الكتان واكل الدرهم .

وقد راعى خلفاء الامويين والعباسيين هذا الأمر ولم يتشبهوا فيه بملوك الروم
والفرس الذين احاطوا الملك بمظاهر الابهة والعظمة . فقال الخليفة العباسي موسى
المهادي لحاجبه : « لا تحجب الناس عني فان ذلك يزيل التزكية . . . ويهلك
المملكة » .

وتحدث الجاحظ على واجبات الحاجب ، فقال انه العين الذي ينظر فيها
الحاكم ، فعليه بالنظر الى الناس وابلاغهم عن الحاكم وابلاغ الحاكم عنهم ، اي
يكون صلة الوصل بين الحاكم والشعب .

ومن واجبات الحاجب احترام الناس ومعرفة اقدارهم وعدم احتقار احد
لرئاسة ثوبه او دمامة وجهه .

وعليه ان يقابل الناس بوجه بشوش ولسان طلق ولا يميز بين الناس فيأذن
لبعضهم ويمنع البعض الآخر ، لأن المنوع ينكسر خاطره ويضم الحقد .

ثم تكلم على شروط الحاجب وقد لخصها المنصور في خطاب وجهه الى المهدي: ولا ينبغي ان يكون الحاجب جهولاً ، ولا غيباً ، ولا عيباً ، ولا ذهولاً ، ولا متشافلاً ، ولا خاملاً ، ولا محتقراً ، ولا جهماً ولا عبوساً . . .

والى هذا المعنى ذهب عبد الملك بن مروان عندما قال لآخيه عبد العزيز « انظر من تجعل حاجبك ، ولا تجعله الا عاقلاً فهماً مفهياً ، صدوقاً لا يورد عليك كذباً ، يحسن الاداء اليك والاداء عنك . ومرة الا يقف بينك أحد من الاحرار الا اخبرك حتى تكون انت الأذن له او المانع ، فانه ان لم يفعل كان هو الأمير وانت الحاجب . واذا خرجت الى اصحابك فسلم عليهم يأنسوا بك . واذا هممت بعقوبة فتان بها فانك على استدراكها قبل فوتها اقلر منك على انتزاعها بعد فوتها . »

ويخصص الجاحظ القسم الأخير من كتابه لسرد اخبار واشعار كثيرة في العتاب والهجاء والمديح بسبب الحجاب . منها عنده قصائد للشاعر والكاتب العباسي ابي علي البصير ، الفضل بن جعفر النخعي الذي عاش في عهد المتوكل وادرك المعز . ومنها ابيات للبحثري ، ودعبل واي تمام واي العتاهية وحماد عجر وغيرهم من الشعراء المغمورين .

١٠ - مقدمة كتاب ذم اخلاق الكتاب

لم يذكر الجاحظ اسم صاحب الرسالة التي الف كتابه الذي نحن بصدده اي « ذم اخلاق الكتاب » للرد عليها . ولكنه يذكر انه قرأ تلك الرسالة في مدح اخلاق الكتاب وفعالهم واخبارهم ، فلم يعجبه تقريظ الكتاب والاطناب بمدحهم لما ينطوي عليه من زلل في الاحتجاج وغلط في الاعتلال وبمد عن الحقيقة . فعزم على تبيان « رداءة مذاهب الكتاب وفعالهم ، ولؤم طبائعهم واخلاقهم » . وهذا هو غرض كتاب الجاحظ وموضوعه .

ولكن ثمة باعثاً آخر حمل الجاحظ على وضع هذا الكتاب هو بغضه إياهم - اي الكتاب - والذين ترجموا له بخبروتنا أن المأمون جعله كاتباً في ديوانه وهو في سن الشباب ، فمكث في عمله ثلاثة أيام وامتنعنى لأنه لم يطق ذلك العمل .

ويمكن ان نضيف عاملاً آخر يفسر حملة الجاحظ على الكتاب هو تأثيره بالمعتزلة . فقد ذكر لنا في الكتاب عدداً من رؤسائهم الذين يشاطرونه موقفه من الكتاب امثال ثمامة بن اشرس ، وابي بكر الاصم وبشر بن المعتز ، وابي الهذيل العلاف .

ويقدم في مطلع الرسالة نماذج من الكتاب منهم عبد الله بن سعد بن ابي سرح كاتب رسول الله ، وكان نول مرتد في الاسلام و« خالف في كتابه املاءه »

فانزل الله آيات تنهي عن استكتابه . ومنهم معاوية بن ابي سفيان الذي استكتبه رسول الله ايضاً فكان « اول من غدر في الاسلام بامامه ، وحاول نقض عري الايمان بأثامه » . ومنهم زياد ابن ابيه الذي كتب لعمر بن الخطاب فكان شر ناشيء في الاسلام لانه نقض السنة . ومنهم مروان بن الحكم الذي كتب لعثمان ابن عفان فخانه في خاتمه واهاج الرعية عليه .

والدليل على ان الكتابة ليست فضيلة هو عدم معرفة رسول الله بها ، ولذا منع الله رسوله عنها « وجعل الحظ فيه دنياه » .

ويرى الجاحظ ان الكتاب في معظمهم من التابعين او الخدم : « ولم نر عظيماً قط تولى كفاية نفسه ، او شارك كاتبه في عمله » .

ثم ينتقل ابو عثمان الى الحديث على اخلاق الكتاب فينتهم بالصلف والتهيه والاعتداد بالنفس حتى ليظن الواحد منهم انه عمر بن الخطاب في حسن السياسة والتدبير ، وابن عباس في العلم والتأويل ، وعلي بن ابي طالب في القضاء والاحكام ، وابو الهذيل العلاف في علم الكلام ، والاصمعي في اللغة والانساب

وهذا الغرور في التحصيل والعلم يدفع هؤلاء الكتاب الى انتقاد كل ذي علم ومعرفة ، واحتقاره ، حتى انهم يطعنون على القرآن ويدعون تناقضه ، ويكذبون الاخبار والاحاديث ، ويحتقرون شريفاً القاضي وابن جبير الفقيه العابد الخ ..

وثمة رذيلة اخرى في الكتاب هي جهلهم بالقرآن وتفسيره ، وعدم المامهم بالفقه في الدين ، وعدم اقبالهم على حفظ السنة والآثار .

ويذكر الجاحظ عيباً اخر في الكتاب هو قلة تعاطفهم فيما بينهم وزهدهم في المواصلة مما لا نعهده في جميع المهن وكانهم في تباضهم « اولاد علات وضرائر امهات » في عداوة بعضهم البعض وحقن بعضهم على بعض .

وتشدد حملة الجاحظ على الكتاب حتى يرميهم بالشؤم : فهذا عبد الحميد
الكاتب الذي كتب لبني امية فانتفضت خراسان عليهم وزال ملكهم ، وكتب
عبد الله بن المقفع لبني العباس فاغرى بهم عبد الله بن علي فقتل وهدم البيت
على صاحبه ، وكتب زيد بن ايوب للمأمون وعمل في ديوان الجند اربعين سنة
ثم « صار في آخر عمره قواداً ليحيى بن ابيهم القاضي » .



مركز تحقيقات كميوتير علوم رسدي



[١ - تقریظ محمد بن ابی ذؤاد]

حَفِظَكَ اللهُ وَامْتَعَ بِكَ .

أما بعدُ فإنَّ جماعاتِ أهلِ الحكمة قالوا : واجبٌ على كلِّ حكيمٍ أن يُحسِّنَ الارتياذَ لموضعِ البُغيةِ ، وأن يبيِّنَ أسبابَ الأمورِ ويُهَيِّدَ لعواقبِها . فلئنما جُمِدَتِ العلماءُ بحسنِ التثبُّتِ في أوائلِ الأمورِ ، واستشفايهم بعقوبهم ما تحيىء به العواقبُ ، فيعلمون عند استنبالها ما تؤولُ به الحالاتُ في استدبارها . وبقدر تفاوتهم في ذلك تستبين فضائلهم . فأما معرفةُ الأمورِ عند تكشُّفها وما يظهر من خفيَّاتها فذاك أمرٌ يعتدل فيه الفاضل والمفضول ، والعالمون والجاهلون .

وإني عرَفْتُكَ - أكرمَكَ اللهُ - في أيامِ الحدائِةِ ، وحيث سُلطانُ اللُّهُوِ المُخلِقِ للأعراضِ أغلبٌ على نظرائك ، وسُكرُ الشبابِ والجِدَّةِ المتَحَيِّقِينَ للذُّيْنِ والمُرُوءَةِ مستولٍ على لِدَاتِكَ فاخْتَبِرْتَ أنتَ وهم [ففقتهم] بِنِسْطَةِ المَقْدِرَةِ وَحَمِيَا الحدائِةِ ، وطَوَّلِ الجِدَّةِ ، مع ما تقدَّمَتهم فيه من الوسامةِ في الصُّورَةِ ، والجمالِ في الهيئَةِ . وهذه كُلُّها أسبابٌ [تكاد أن] توجب الانقيادَ للهوى ، ولجُحْجُجٍ من المهالكِ لا يَسْلُمُ منها إلاَّ المنقطعُ القرينِ في صِحَّةِ الفِطْرَةِ ، وكمالِ العَقْلِ . فاستعبدتُمُ الشَّهواتِ حتى أعطوها أزيمةَ أديانهم ، وسلطوها على مُرُوءاتهم وأباحوها أعراضهم ، قالت بأكثرهم الحالُ إلى ذُلِّ العُدْمِ وفقد عِزِّ الغنى في العاجلِ ،

والندامة الطويلة والحسرة في الأجل .

وخرجت نسيجَ وحديك ، أوحدياً في عصرك ، حكمت وكيل الله عندك - وهو عقلك - على هواك ، وألقيت إليه أزمّة أمرك ، فسلك بك طريق السلامة ، وأسلمك إلى العاقبة المحمودة ، وبلغ بك من نيل اللذات أكثر مما بلغوا ، ونال بك من الشهوات أكثر مما نالوا ، وصرفك من صنوف النعم أكثر مما تصرفوا ، وربط عليك من نعم الله التي حولك ما أطلقه من أيديهم إشاراً للهو وتسليطهم الهوى [على أنفسهم] ، فخاص بهم سبيل تلك اللجج ، واستنقذك من تلك المعاطب ، فأخرجك سليم الدين ، وافر المروءة ، نقي العرض ، كثير الثراء ، بين الجدة . وذلك سبيل من كان ميله إلى الله تعالى أكثر من ميله إلى هواه .

فلم أزل [أبقاك الله] في أحوالك تلك كلها بفضيلتك عارفاً ، ولك بنعم الله عندك غابطاً ، أرى ظواهر أمورك المحمودة فتدعوني إلى الانقطاع إليك ، وأسأل عن بواطن أحوالك فتزيدني رغبة في الاتصال بك ، ارتياداً مني لموضع الخير في الأخوة ، والتماساً لإصابة الاصطفاء في المودة ، وتخيراً لمستودع الرجاء في النائة .

فلما محضتكم الخبرة ، وكشفتكم الابتلاء عن المحمودة ، وقضت لك التجارب بالتقدمة ، وشهدت لك قلوب العامة بالقبول والمحبة ، وقطع الله عذر كل من كان يطلب الاتصال بك ، طلبت الوسيلة إليك والاتصال بحبلك ، ومئت بحرمه الأدب وذيما كرمك . وكان من نعمة الله عندي أن جعل أبا عبد الله - حفظه الله - وسيلتي إليك ، فوجدت المطلب سهلاً والمراد محموداً ، وأفضيت إلى ما يجوز الأمانة ويفوت الأمل ، فوصلت إحصائي بمودتك ، وخلطتني بنفسك ، وأسمتني في مراعي ذوي الخاصة بك ، تفضلاً لا مجازاة ، وتطوُّلاً لا مكافأة ، فأمنت الخطوب ، واعتليت على الزمان ، واتخذتكم للأحداث عُدَّة ، ومن نواب الدهر حصناً منيعاً .

فلما حُزَّتْ المُؤانسة ، وتقلَّبتْ من فضلك في صنُوف النُّعمة ، وزاد بصري
من مَواهبك في السُّرور والحِبرة ، أردتُ خِبرة المشاهدة ، فبلوتُ أخلاقك ،
وامتحننتُ شيمَكَ ، وعجمتُ مذاهبَكَ على حينِ غَفلاتك ، وفي الأوقات التي يقلُّ
فيها تحمُّقُك ، أراعي حركاتِكَ ، وأراقبُ مخارجَ أمرِكَ ونهْيِكَ ، فأرى [من]
استصغارِكَ لعظيمِ النُّعم التي تُنعمُ بها ، واستكثارِكَ لقليلِ الشُّكر من شاكرِكَ ،
ما أعرفُ به [و] بما قد بلوت من غيرِكَ ، وما قد شهدت لي به التجاربُ ، أن
ذلك منك طبعٌ غير تكلف .

هيهات ! ما يكاد ذو التكلف أن ينجى على أهل الغباوة ، فكيف على مثلي
من المتصفحين . فزادتنى المؤانسة فيك رغبةً ، وطول العشرة لك محبةً ، وامتحاني
أفاعيلك لك تفضيلاً ، ويطاعتك دينونةً .

وكان من تمام شكري لربي ولي كلِّ نعمة ، والمبتدئ بكلِّ إحسان ، الشكر لك
والقيام بمكافأتك بما أمكن من قولٍ وفعلٍ ، لأنَّ الله تبارك وتعالى نظم الشُّكر له بالشُّكر
لبي النُّعمة من خلقه ، وأبى أن يقبلها إلا معاً ، لأنَّ أحدهما دليل على الآخر ،
وموصول به . فمن ضيع شُكر ذي نعمة من الخلق فأمر الله ضيع ، وبشاهدته
استخفت .

ولقد جاء بذلك الخبرُ عن الطاهر الصادق صلى الله عليه وسلم ، فقال
صلى الله عليه وسلم « من لم يشكر للناس لم يشكر الله » .

ولعمري إنَّ ذلك لموجودٌ في الفطرة ، قائم في العقل : أن من كفر نِعَم
الخلق كان لنعم الله أكفر ، لأنَّ الخلق يُعطى بعضهم بعضاً بالكلفة والمشقة ،
وثقل العطيَّة على القلوب ، والله يعطي بلا كلفة . ولهذا العلة جمع بين الشُّكر له
والشُّكر لذوي النُّعم من خلقه .

فلما وجبت عليَّ الحجَّة بشُكرِكَ ، ! وقُطع عُذري في مكافأتِكَ ، اعترفتُ
بالتقصير عن تفصيِّ ذلك ، إلا أني بسطتُ لساني بتقريظك ونشر محاسنك .
موصول ذلك مني عند السامعين بالاعتراف بالعجز عن إحصائها .

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أودع عُرفاً فليشكره ، فإن لم يمكنه فليشره ، فإذا نشره فقد شكره ، وإن كتبه فقد كفره » .

ثم رأيت أن قد بقي عليّ أمرٌ من الأمور يمكنني فيه برك ، وهو عندي عتيد ، وأنت عنه غير مستغنٍ ، والمنفعة لك فيه عظيمة عاجلة وآجلة إن شاء الله .

ولم أزل أبقاك الله بالموضع الذي قد عرفت ، من جمع الكتب ودراسيتها والنظر فيها ، ومعلومٌ أن طول دراستها إنما هو تصفُّح عقول العالمين ، والعلمُ بأخلاق النبيين ، وذوي الحكمة من الماضين والباقيين من جميع الأمم ، وكتب أهل الملل .

فرايتُ أن أجمع لك كتاباً من الأدب ، جامعاً لعلمٍ كثيرٍ من المعاد والمعاش ، أصفُّ لك فيه عللَ الأشياء ، وأخبرك بأسبابها وما اتفقت اليه محاسنُ الأمم .

وعلمتُ أن ذلك من أعظم ما أبرك به ، وأرجح ما أتقربُ به إليك . وكان الذي حداني على ذلك ما رأيتُ الله قسم لك من الفهم والعقل ، وركب فيك من الطبع الكريم .

وقد أجمعت الحكماء أن العقل المطبوع والكرم الغريزي لا يبلغان غاية الكمال إلا بمعاونة العفل المكتسب . ومثلوا ذلك بالنار والخطب ، والمصباح والدُّهن . وذلك أن العقل الغريزي آلة والمكتسب مادة ، وإنما الأدب عقلٌ غيرك تزيده في عقلك .

ورأيتُ كثيراً من واضعي الآداب قبلي قد عهدوا إلى الغابرين بمذمهم في الآداب عُهوداً قاربوا فيها الحق ، وأحسنوا فيها الدلالة ، إلا أنني رأيتُ أكثر ما رَسَموا من ذلك فروعاً لم يبينوا عللها ، وصفاتٍ حسنة لم يكشفوا أسبابها ، وأموراً محمودة لم يدلُّوا على أصولها .

فإن كان ما فعلوا من ذلك [رواياتٍ رَوَوْها عن أسلافهم ، و [وراثاتٍ ورثوها عن أكابرهم ، فقد قاموا بأداء الأمانة ، ولم يبلغوا فضيلةً من استنبط . وإن كانوا تركوا الدلالة على عِلل الأمور التي بمعرفة عللها يُوصل إلى مباشرة اليقين فيها ، وبتَّهى إلى غاية الاستبصار منها ، فلم يَعُدوا في ذلك منزلة الظن بها . ولن تجدوا وصايا انبياء الله أبداً إلا مبيّنة الأسباب ، مكشوفة العِلل ، مضروبةً معها الأمثال .

[٢ موضوع الكتاب]

فألفت لك كتابي هذا إليك ، وأنا واصفٌ لك فيه الطباع التي رُكب عليها الخلق ، وفطرت عليها البرايا كلهم ، فهم فيها مستوون ، وإلى وجودها في أنفسهم مضطرون ، وفي المعرفة بما يتولد عنها متفقون .

ثم مبيّن لك كيف تفترق بهم الحالات ، وتفاوت بهم المنازل ، وما العِلل التي يُوجب بعضها بعضاً ، وما الشيء الذي يكون سبباً لغيره ، متى كان الأول كان أما بعده ، وما السبب الذي لا يكون الثاني فيه إلا بالأول ، وربما كان الأول ولم يكن الثاني . وفرق ما بين الطبع الأول وبين الاكتساب والمادة التي تصير طبعاً ثانياً . ولم اختلف ذلك ؟ وكيف دواعي قلوب الناس ، وما منها يمتنعون عنه ، وما منها لا يمتنعون منه . وحتى تؤنس بعد الوحشة ، وتسكن بعد النُفار ؟ وكيف يتأتى لِنَقْض ما فيهم من الطباع المذمومة حتى تُصرف إلى الشيم المحمودة ؟ وراسمٌ لك في ذلك أصولاً ، ومبينٌ لك مع كل أصل منها علته وسببه .

وقد علمت أن في كثيرٍ من الحقِّ مشبهات لا تُستبان إلا بعد النظر ، وهناك يجتبل الشيطان أهل الغفلة ، وذاك أنه لا يجد سبيلاً إلى اختداعهم عن الأمور الظاهرة .

فلم أدع من تلك المواضع الخفية موضعاً إلا أقممت لك بازاء كل شبهة منه

دليلاً ، ومع كل خفي من الحق حجة ظاهرة ، تستنبط لها غوامض البرهان وتستبين بها دقايق الصواب ، وتستثيف بها سرار القلوب ، فتأتي ما تأتي عن بيّنة ، وتدع ما تدع عن خبرة ، ولا يكون بك وحشة إلى معرفة كثير مما يغيب عنك ، إذا عرفت العلل والأسباب ، حتى كأنك مشاهدٌ لضمير كل أمرٍ لمعرفتك بطبعه وما ركّب عليه ، وعوارض الأمور الداخلة عليه ثم ، غير راضٍ لك بالأصول حتى أتقصي لك ما بلغه علمي من الفروع . ثم لا أرسم لك من ذلك [إلا] الأمر المعقول في كل طبيعة ، والموجود في فطر البرايا كلها . فإن أحسنت [رعاية] ذلك وأقمته على حدوده ، ونزلته منازل ، كان عمرك - وإن قصرت أيامه - طويلاً ، وفارقت ما لا بدُّ لك من فراقه محموداً ، إن شاء الله .

[٣ - آداب الدين والدنيا واحدة]

واعلم أن الآداب إنما هي آلات تصلح أن تستعمل في الدين وتستعمل في الدنيا ، وإنما وضعت الآداب على أصول الطباع . وإنما أصول أمور التدبير في الدين والدنيا واحدة ، فما فسدت فيه المعاملة في الدين فسدت فيه المعاملة في الدنيا ، وكل أمر لم يصح في معاملات الدنيا لم يصح في الدين . وإنما الفرق بين الدين والدنيا اختلاف الدارين من الدنيا والآخرة فقط ، والحكم ها هنا الحكم هناك ، ولولا ذلك ما قامت مملكة ، ولا ثبتت دولة ، ولا استقامت سياسة . ولذلك قال الله عز وجل : ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هُنَا أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ ، قال ابن عباس في تفسيرها : من كان ليس له من العقل ما يعرف به كيف دُبرت أمور الدنيا ، فكذلك هو إذا انتقل إلى الدين ، فإنما يتقل بذلك العقل . فبقدر جهله بالدنيا يكون جهله بالآخرة أكثر ، لأن هذه شاهدة وتلك غيب ، فإذا جهل ما شاهد فهو بما غاب عنه أجهل .

فلو ما أوصيك به ونفسي تقوى الله ، فإنها جِماع كل خير ، وسبب كل نجاة ، ولقاح كل رشد . هي أحرزُ حرز ، وأقوى معين ، وأمنع جنة . هي

الجسامعة محبة قلوب العباد ، والمستقبلة بسك محبة قلوب من لا تجري عليهم
نعمك . فاجعلها عدتكَ وسلاحك ، واجعل أمر الله ونهيه نصب عينيك .

وأحذرِك ونفسي الله والاعتزاز به ، والإدهان في أمره ، والاستهانة بعزاه ،
والأمن لمكره ، فقد رأيت آثاره في أهل ولايته وعداوته ، كيف جعلهم للماضين
عبرة ، وللغابرين مثلاً .

واعلم أن خلقه كلهم بريته ، ولا وُصلة بينه وبين أحدٍ منهم إلا بالطاعة ،
فأولاهم به أكثرهم تزيُّداً في طاعته ، وما خالف هذا فإنه أمانٌ وغرور .

وقد مكن الله لك من أسباب المقدرة ، ومهد لك في تمكين الغنى والبسطة
ما لم تتخله بحيلة ، ولا بلغت بقرّة ، لولا فضله وطوُّه . ولكنّه مكنك ليلو
خُبرك ، ويختبر شُكرك ، ويحصي سعيك ، ويكتب أثرك ، ثم يوقيك أجرَك ،
ويأخذك بما اجتريحتُ يدك أو يعفو ، فأهل العفو هو .

والله ابتلاء ان في خلقه - والابتلاء هو الاختبار - ابتلاء بنعمة ، وابتلاء بمصيبة .
ويقدر عظمها يجب التكليف من الله عليها ، فيقدر ما خولك من النعمة يستأديك
الشُكر .

ولو تقصى الله على خلقه لعذبهم ، ولذلك قال : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ
بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ . ولكنّه قبل التوبة ، وأقال العثرة ،
وجعل بالحسنة أضعافها .

واعلم أن الحكم في الآخرة هو الحكم في الدنيا : ميزان قسط ، وحكم
عدل . وقد قال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ
خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ .

وهذا مثل ضربته الله ، لأن الناس يعلمون أن لو وضع في إحدى كفتي
الميزان شيء ولم يك في الأخرى قليل ولا كثير ، لم يكن للوزن معنى يُعقل . وذلك
أن أحداً من الخلق لا يخلو من هفوة زلة أو غفلة ، فأخبر أن من كان حسنة

الراجعة على سيئاته، مع النَّدَم على السيِّئات ، كان على سبيل النجاة ، وطريق الفوز بالإفلاح . ومن مالت سيئاته بحسناته كان العطبُ والعذاب أولى به .

وكذلك حكمه في الدنيا ، لأنه قد تولى أولياء من خلقه وشهد لهم بالعدالة ، وقد عاتبهم في بعض الأمور لغلبة الصُّلاح [في أفعالهم وإن هفوا ، وتبرأ من آخرين وعاداهم لغلبة الجور] على أفاعيلهم ، وإن أحسنوا في بعض الأمور .

وكذلك جرت معاملات الخلق بينهم ، يُعدّلون العادل بالغالب من فعله وربما أساء ، ويفسِّقون الفاسق وربما أحسن . وإنما الأمور بعواقبها ، وإنما يُقضى على كلِّ امرٍ بما شاكل أحواله .

فهذه الأمور قائمة في العقول ، جرت عليها المعاملة ، واستقامت بها السياسة ، لا اختلاف بين الأمة فيها . فلا تُغَبَّنُ حَظُّكَ من دينك ، وإن استطعت أن تبلغ من الطَّاعة غاياتها فلنفسك تُمهِّد ، وإلا فاجهد أن يكون أغلب أفعالك عليك الطَّاعة ، مع الندامة عند الإساءة ويكون ميراثك عند الإساءة ، إلى الله أكثر . والله يوفقك .

[٤ - طبع الناس على حب المنفعة ودفع الضرر]

اعلم أن الله جل ثناؤه خلق خلقه ، ثم طبعهم على حبِّ اجترار المنافع ، ودفع المضار ، وبغض ما كان بخلاف ذلك . هذا فيهم طبع مركب ، وجبلة مفسطورة ، لا خلاف بين الخلق فيه ، موجود في الإنس والحيوان ، لم يدع غيره مدع من الأولين والآخرين . وبقدر زيادة ذلك ونقصانه تزيد المحبة والبغضاء ، [فنقصانه] كزيادته تميل الطبيعة معها كميل كفتي الميزان ، قل ذلك أو أكثر .

وهاتان جملتان داخل فيهما جميع محابِّ العباد ومكارمهم . والنفس في طبعها حبُّ الرِّاحة والدُّعة ، والازدياد والعلو ، والعز والغلبة ، والاستطراف والتشوق

وجميع ما تستلذ الحواس من المناظر الحسنة ، والروائح العبقة ، والطعوم الطيبة ، والأصوات المونقة ، والملابس اللذيذة . وما كراهيته في طباعهم أضداد ما وصفت لك وخلافه .

فهذه الخلال التي تجمعها خلتان غراز في الفطر ، وكوامن في الطبع ، جبلة ثابتة ، وشيمة مخلوقة . على أنها في بعض أكثر منها في بعض ، ولا يعلم قدر القلة فيه والكثرة إلا الذي دبرهم .

فلما كانت هذه طباعهم ، أنشأ لهم من الأرض أرزاقهم ، وجعل في ذلك ملاءمة لجميع حواسهم ، فتعلقت به قلوبهم ، وتطلعت إليه أنفسهم . فلو تركهم وأصل الطبيعة ، مع ما مكن لهم من الأرزاق المشتهة في طباعهم ، صاروا إلى طاعة الهوى ، وذهب التعاطف والتبار . وإذا ذهب كان ذلك سبباً للفساد ، وانقطاع التنازل ، وفناء الدنيا وأهلها ، لأن طبع النفس لا يسلس بعطية قليل ولا كثير مما حوته ، حتى تعوض أكثر مما تعطي ، إما عاجلاً وإما أجلاً مما تستلذه حواسها .

مركز تحقيقات كويت علوم إسلامي

[٥ - الرغبة والرغبة اساس السياسة]

فعلم الله أنهم لا يتعاطفون ولا يتواصلون ولا ينقادون إلا بالتأديب ، وأن التأديب ليس إلا بالأمر والنهي ، [وأن الأمر والنهي] غير ناجعين فيهم إلا بالترغيب والترهيب اللذين في طباعهم . فدعاهم بالترغيب إلى جنته ، وجعلها عوضاً عما تركوا في جنب طاعته ، وزجرهم بالترهيب بالنار عن معصيته ، وخوفهم بعقابها على ترك أمره . ولو تركهم جل ثناؤه والطباع الأول تجروا على سنن الفطرة ، وعادة الشيمة .

ثم أقام الرغبة والرغبة على حدود العدل ، وموازين النصفة ، وعدلهم تعديلاً متفقاً ، فقال : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ .

ثم أخبر الله تبارك وتعالى أنه غير داخل في تدبيره الخلل ، ولا جائز عنده المحاباة ، ليعمل كل عامل على ثقة بما وعده وأوعده ، فتعلقت قلوب العباد بالرغبة والرغبة ، فاطرد التدبير ، واستقامت السياسة ، لموافقتها ما في الفطرة ، وأخذها بمجامع المصلحة .

ثم جعل أكثر طاعته فيما تستثقل النفوس ، وأكثر معصيته فيما تلتذ . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « حُفَّتِ الجَنَّةُ بالمكَّارِ ، والنَّارُ بالشَّهَوَاتِ » . [يخبر أن الطريق إلى الجنة احتمال المكاره ، والطريق إلى النار اتباع الشهوات] .

فإذا كانوا لم يصلحوا لخالقهم ولم ينقادوا لأمره إلا بما وصفت لك من الرغبة والرغبة ، فاعجز الناس رأياً وأخطوهم تدبيراً ، وأجهلهم بموارد الأمور ومصادرها ، من أمل أو ظن أو رجا أن أحداً من الخلق - فوقه أو دونه أو من نظرائه - يصلح له ضميره ، أو يصح له بخلاف ما دبرهم الله عليه ، فيما بينه وبينهم .

فالرغبة والرغبة أصلاً كل تدبير ، وعليها مدار كل سياسة ، عظمت أو صغرت . فاجعلها مثالك الذي تحتذي عليه ، وركنك الذي تستند إليه . واعلم أنك إن أهملت ما وصفت لك عرضت تدبيرك للاختلاط وإن آثرت الهوينا واتكلت على الكفاية في الأمر الذي لا يجوز فيه إلا نظرك ، وزجيت أمورك على رأي مدخول ، وأصل غير محكم ، رجعت ذلك عليك بما لو حُكِمَ فيك عدوك كان ذلك غاية أمنيته ، وشفاء غيظه .

[٦ - العدل اساس السياسة]

واعلم أن اجراءك الأمور بمجارتها واستعمالك الأشياء على وجوها ، يجمع لك ألفة القلوب ، فيعاملك كل من عاملك بمودة ، أو أخذ أو إعطاء ، وهو على ثقة من بصرك بمواضع الإنصاف ، وعلمك بموارد الأمور .

واعلم أن أثرتك على غير النصيحة والشفقة ، والحُرمة والكفاية ، يوجب [لك] المباعدة وقلة الثقة من أثرته أو أثرت عليه .

فاعرف لأهل البلاء - ممن جرت بينك وبينه مودة أو حرمة ، ممن فوقك أو دونك أو نظرائك - أقدارهم ومنازلهم . ثم لتكن أمورهم معهم على قدر البلاء والاستحقاق ، ولا تؤثر في ذلك أحداً لهوى ، فإن الأثرة على الهوى توجب السخط ، وتوجب استصغار عظيم النعمة ، ويُحق بها الإفضال ، وتفسد عليها الطائفتان : من أثرت ومن أثرت عليه .

أما من أثرت فإنه يعلم أنك لم تؤثره باستحقاق بل لهوى ، فهو مترقب أن ينتقل هواك إلى غيره ، فتحول أثرتك حيث مال هواك . فهو مدخول القلب في مودتك ، غير أمين لتغيرك .

وأما من أثرت عليه بعد الاستحقاق منه فقد جعلت له السبيل إلى الطعن عليك ، وأعطيت الحجة على نفسك . فكل من يعمل على غير ثقة عاد ما أراد به النفع ضرراً والإصلاح [فيه] فساداً .

وربما أثر الرجل المرء من إخوانه بالعطية السيئة على بلاء أبلاه ، فيعظم قدرها عنده حتى لعله تطيب نفسه ببذل ماله ودمه دونه . فإن أعطى من أبي كبلاته وكانت له مثل دالته ، أكثر مما أعطاه ، انتقل كل محمودٍ من ذلك مذموماً ، وكل مستحسنٍ مستقبحاً . وكذلك الأمر في العقوبة ، يجريان مجرى واحداً .

فاجعل العدل والنصفة في الثواب والعقاب حاكماً بينك وبين إخوانك ، فمن قدمت منهم فقدّمته على الاستحقاق ، وبصحة النية في مودته ، وخلوص نهيته لك مما قد بلوت من أخلاقه وشيمه ، وعلمت بتجربتك له ، أنه يعلم أن صلاحه موصولٌ بصلاحك ، وعطبه كائن مع عطبك ، ففوض الأمر إليه ، وأشركه في خواص أمورك وخفي أسرارك ، ثم أعرف قدره في مجلسك ومحاورتك ومعاملتك ، في كل حالاتك ومزاوماتك في خلواتك معه ، وبحضرة جلسائك ، فإن ذلك زيادة في نيته ، وداعية لمن دونه إلى التقرب إليك بمثل نهيته .

فإن ابتليت في بعض الأوقات بمن يضرب بحرمة ويمت بدالة ، يطلب
المكافأة بأكثر مما يستوجب ، فدعك الكرم والحيا إلى تفضيله على من [هو] أحق
منه ، إما تخوفاً من لسانه ، أو مداراةً لغيره ، فلا تدع الاعتذار إلى من فوقه من
أهل البلاء والنصيحة وإظهار ما أردت من ذلك لهم ، فإن أهل خاصتك والمؤمنين
على أسرارك ، هم شركاؤك في العيش ، فلا تستهين بشيء من أمورهم ، فإن
الرجل قد يترك الشيء من ذلك اتكالا على حسن رأي أخيه ، فلا يزال ذلك
يجرح في القلب وينمو ، حتى يولد ضغناً ويحول عداوة .

فتحفظ من هذا الباب ، واحمل إخوانك عليه بجهدك .

وستجد في من يتصل بك من يغلبه إفراط الحرص وحميا الشره ، ولين
جانبك له ، على أن ينقم العافية ، ويطلب اللئيم بمنزلة من ليس هو مثله ،
ولا له مثل دأته ، فتلقاه لما تصنع به مستقبلاً ، ولمعروفك مستصغراً . وصلاح من
كانت هذه حاله بخلاف ما فسد عليه أمره . فاعرف طرائقهم وشيمهم ، وداو
كل من لا بد لك من معاشرته بالدواء الذي هو أنجع فيه ، إن ليناً فليناً ، وإن
شدة فشدة ، فقد قيل في المثل *نزلت كقطير طوم سوي*

من لا يؤدبه الجميل . . . ل ففني عقوبته صلاحه
وقد قال بعض الحكماء :

« ليس بحكيم من لم يعاشر من لا يجد من معاشرته بدأ ، بالعدل
والنصفة ، حتى يجعل الله له من أمره قرجا ومخرجا . »

[٧ - لائحة الاسباب والمواقب]

فاحفظ هذه الأبواب التي يوجب بعضها بعضاً ، وقد ضمنت لك أوائلها
كون أواخرها . فاعرفها واقتبسها ، واعلم أنه متى كان الأول منها وجب ما بعده
لا بد منه . فاحذر المقدمات اللاتي يعقبها المكروه ، واحرص على توطيد الأمور

التي على أثرها السلامة ، وألقح في الهدى الأمور التي نتاجها العافية .

فمن الأمور التي يُوجب بعضها بعضاً : المنفعة تُوجب المحبة ، والمضرة تُوجب البغضاء ، والمضادة تُوجب العداوة ، وخلاف الهوى يُوجب الاستئصال ، ومتابعته تُوجب اللفة ، والصدق يُوجب الثقة ، والكذب يُورث التهمة ، والأمانة تُوجب الطمأنينة ، والعدل يُوجب اجتماع القلوب ، والجور يُوجب الفرقة ، وحسن الخلق يُوجب المودة ، وسوء الخلق يُوجب المباعدة ، والانبساط يُوجب المؤانسة ، والانقباض يُوجب الوحشة ، والتكبر يُوجب المقت ، والتواضع يُوجب المقة ، والجود بالقصد يُوجب الحمد ، والبخل يُوجب المذمة ، والتواني يُوجب التضييع ، والجِدُّ يُوجب رخاء الأعمال ، والهَوْنُ يُورث الخسرة ، والحزم يُورث السرور ، والتغريب يُوجب الندامة ، والحذر يُوجب العُذر ، [وإصابة التدبير تُوجب بقاء النعمة] والاستهانة تُوجب التباهي ، والتباهي مقدمة الشرِّ وسبب البوار .

ولكل شيء من هذا إفراط وتقصير ، وإنما تصحُّ نتائجها إذا أُقيمت على حدودها ، وبقدر ما يدخل من الخلل فيها يدخل فيما يتولد منها ، لا بد منه ولا مَرَحَلٌ عنه ، عليه عادة الخلق ، وبه جرت طباعهم ، وتمام المنفعة بها إصابة مواضعها :

فالإفراط في الجود يُوجب التبذير ، والإفراط في التواضع يُوجب المذلة ، والإفراط في الكبر يُدعو إلى مقت الخاصة ، والإفراط في المؤانسة يُدعو خلطاء السوء ، والإفراط في الانقباض يُوحش ذا النصيحة . وآفة الأمانة ائتمان الخانة ، وآفة الصدق تصديق الكذبة ، والإفراط في الحذر يُدعو إلى الأيُّوثق بأحد ، وذلك ما لا سبيل إليه . [والإفراط في المضرة مُبعثٌ على حربك] ، والإفراط في جرُّ المنفعة غناء لمن أفرطت في نفعه عنك .

واحذر كل الحذر أن يخذلك الشيطان عن الحزم فيمثل لك التواني في صورة التوكل ، ويسلبك الحذر ، ويورثك الهوينا بإحالتك على الأقدار ، فإن الله

إثما أمر بالتوكل عند انقطاع الحيل ، والتسليم للقضاء بعد الإعداء ، بذلك أنزل كتابه ، ، وأمضى سنته فقال : ﴿ خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ ، ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ . وقول النبي صلى الله عليه وسلم : « اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ » . وسئل ما الحزم ؟ فقال : الحذر .

فتحفظ من هذا الباب وأحكي معرفته إن شاء الله تعالى .
واعلم أن أكثر الأمور إنما هو على العادة وما تضرى عليه النفوس ، ولذلك قالت الحكماء : « العادة أمك بالأدب » .
فرض نفسك على كل أمر محمود العاقبة ، وضرها بكل ما لا يندم من الأخلاق يصير ذلك طباعا ، وينسب إليك منه أكثر مما أنت عليه .

[٨ - الجود والبخل]

واعلم أن الذي يُوجب لك اسم الجود القيام بواجب الحقوق عند النوائب ، مع بعض التفضل على الراغبين . وإذا أوجب لك اسم الجود زال عنك اسم البخل .

واعلم أن تدمير المال آلة للمكارم ، وعاون على الدين ، ومُتَأَلَّفٌ لِلإِخْوَانِ ، وأن من قد فقد المال قلت الرغبة إليه ، والرغبة منه ، ومن لم يكن بموضع رغبة ولا رهبة استهان الناس بقدره .

فاجهد الجهد كله ألا تزال القلوب معلقة منك برغبة أو رهبة ، في دين أو دنيا .

واعلم أن السرف لا بقاء معه لكثير ، ولا تدمير معه لإقليل ، ولا تصلح عليه دنيا ولا دين . وتأدب بما أدب الله تعالى به نبيه فقال : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴾ .

وقالت الحكماء : « القصد أبقى للجَمَامِ » .

فداومِ حالَكَ وبقَاءِ النُّعْمَةِ عَلَيْكَ ، بتقديرِكَ أمورَكَ على قَدْرِ الزَّمانِ ، وبقدرِ
الإمكانِ ، فقد قال الشاعر :

مَنْ سَابَقَ الدُّهْرَ كَبَا كَبْوَةً لَمْ يَسْتَقِلْهَا مِنْ خُطَى الدُّهْرِ
فَاخْطُ مَعَ الدُّهْرِ عَلَى مَا خَطَا وَاجِرٍ مَعَ الدُّهْرِ كَمَا يَجْرِي

[٩ - الصمت والمنطق]

واعلم أنَّ الصمتَ في موضعه رُبَّمَا كانَ أنفعَ من الإبلاغِ بالمنطقِ في
موضعه ، وعند إصابَةِ فرصته . وذاك صَمْتُكَ عند من يعلمُ أنَّكَ لم تصمتِ عنه
عِيًّا ولا رَهْبَةً . فليزدك في الصُّمْتِ رغبةٌ ما ترى من كثرةِ فضائحِ المتكلمين في غير
الفرص ، وهذِرٍ مَنْ أطلقَ لسانه بغيرِ حاجة .

[١٠ - الشجاعة]

واعلم أنَّ الجبنَ جبنانٍ ، والشُّجَاعَةَ شجاعتان ، وليست تكون الشجاعةُ
إلا في كلِّ أمرٍ لا يُدْرِي ما عاقبته ، يُخاطِرُ فيه بالأنفُسِ والأموالِ . فإذا أردتَ
الحزمَ في ذلك فلا تشجعنْ نفسك على أمرٍ أبداً إلا والذي ترجو من نفعه في
العاقبةِ أعظمُ مما تبذلُ فيه في المستقبلِ ، ثم يكون الرجاءُ في ذلك أغلبَ عليك
من الخوفِ .

وها هنا موضعٌ يُحتاجُ فيه إلى النظرِ : فإن كان ذلك أمراً واجباً في الدينِ ،
أو خوفاً لعارٍ سبَّ به الأعدابُ فانت معذورٌ بالمخاطرةِ فيه بنفسك ومالك . وإن
كان أمراً تعظمُ منفعتُهُ في الدنيا إلا أنَّكَ لا تناله إلا بالمخاطرةِ بمهجةِ نفيك أو
بتعريضِ كلِّ مالكٍ للتلفِ ، فالإقدامُ على مثلِ هذا ليسَ بشجاعةٍ ، ولكنَّ حماقةً
بيّنةً عند الحكماء .

وقد قالت علماء أوائلِ الناس :

• لا يرسل السَّاقُ إلا ممسكاً ساقاً •

وقالوا : « لا تُخرج الأمر كله من يدك ونخذ بأحد جانبيه » . ثم الشجاعة
والجبن في ذلك بقدر الحالات والأوقات .

[١١ - معاملة العدو]

واعلم أن أصل ما أنت مستظهر به على عدوك ثلاثٌ خلال :

أشرفها : أن تأخذ عليه بالفضل وتبتدئه بالحسنى ، فتكون عليه رحمةً
ولنفسك ناظراً ، فإن كثرة الأعداء تنغيصُ للسُرور ، وقد قال الله تبارك وتعالى :
﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ .

فإن كان عدوك مما لا يصلح على ذلك فحصن عنه أسرارك ، وعم عليه
آثار تدبيرك ، ولا يطلعن على شيء من مكائيدتك له بقولٍ ولا فعل ، فياخذ
جذره ، ويعرف مواضع عوارك ، فإن تحصين الأسرار أخذ بأزمة التدبير ،
والإكثار من الوعيد للأعداء فشل . ولكن داج عدوك ما داجك ، وأحص
معاينه ما لاحاك .

مركز تحقيقات الكمبيوتر علوم رسدي

وقال الشاعر :

كلُّ يداجي على البغضاء صاحبه زُكِنْتُ منهم على مثل الذي زُكِنُوا

واعلم أن أعظم أعوانك عليه الحُجج [ثم الفرصة] ، ثم لا تظهرن عليه
حُجَّةٌ ، ولا تهتبل منه غرّةٌ ، ولا تطلبن له عشرة ، ولا تهتكن له سترًا [إلا] عند
الفرصة في ذلك كله ، وفي المواضع التي يجب لك فيها العُدْر ويعظم فيها
ضرره ، إن كان العفوعه شرًّا له .

وإن كان ممن يُظهر لك العداوة ويكشف لك قناع المحاربة ، وكان ممن
أعياك استصلاحه بالحلم والأناة ، فلتكن في أمره بين حالين : استيطان الحذر
منه ، والاستعداد له وإظهار الاستهانة [به] . ولست مستظهِراً عليه نفسك
من الأذناس ، وبراءتك من المعايب .

فلتكن هذه سيرتك في أعدائك .

واعلم أن إشاعة الأسرار فسادٌ في كل وجهٍ من الوجوه ، من العدو والصديق . وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « استعينوا على الحوائج بسئرها ؛ فإن كل ذي نعمة محسود » .

وإذا أفشيت سرك فجاءت الأمور على غير ما تقدّر كان ذلك منك فضلاً من قولك على فعلك . وقد قيل في الأمثال : « من أفشى سرّاً كثّر المتأمرون عليه » . فلا تضحّ سرك إلا عند من يضره نشره كما يضرُّك ، وينفعه ستره بحسب ما ينفعك .

[١٢ - أجناس الناس]

واعلم أنك ستصحب من الناس أجناساً متفرقةً حالاتهم ، متفاوتةً منازلهم ، وكلهم بك إليه حاجة ، وكل طائفة تسدُّ عنك كثيراً من المنافع لا يقوم به من فوقها ، ولعلهم مجتمعون على نصيحتك والشفقة عليك . فمنهم من تريد منه الرأي والمشورة ، [ومنهم من تريده للحفظ والأمانة] ، ومنهم من تريده للشدة والغلظة ، ومنهم من تريده للبهنة . وكل يسدُّ مسدّه على حياله . وقد قيل في الحكمة : « إن الخلال تنفع حيث لا ينفع السيف » .

ولا تخلّين أحداً منهم - عظم قدره أو صغرت منزلته - من عنايتك وتعهدك بالجزاء على الحسنة ، والمعاتبة عند العثرة ؛ ليعلموا أنهم منك بمرأى ومسمع . ثم لا تجوزن بأحدٍ منهم خدّه ، ولا تدخله فيما لا يصلح له ، تستقم لك حاله ، ويتيقن لك أمره .

واعلم أنه سيمرُّ بك في معاملات الناس حالاتٌ تحتاج فيها إلى مداراة أصناف الناس وطبقاتهم ، يتلغ بك غاية الفضيلة فيها ، وكمال العقل والأدب منها ، أن تسالم أهلها وتملك نفسك عن هواها ، وتكف من جاحها ، بالأمر

الذي لا يُخرجك في دينك ولا عرضك ولا بدنك ، بل يُفيدك عزّ الحلم ، وهيبة الوقار . وهي أمور مختلفة ، تجمعها حال واحدة .

منها : أن تأتي محفلاً فيه جمع من الناس ، فتجلس منه دون الموضع الذي تستحقه حتى يكون أهله [الدين] يرفعونك ، فتظهر جلالتك وعظمتك قدرتك .

ومنها : أن يُفيض القوم في حديث ، عندك منه مثل ما عندهم أو أفضل ، فيتنافسون في إظهار ما عندهم ، فإن نافستهم كنت واحداً منهم ، وإن أمسكت اقتضوك ذلك ، فصرت كأنك ممتن عليهم بحديثك ، وأنصتوا لك ما لم ينصتوا لغيرك .

ومنها : أن يتمارى جلسائك - والمراء ينتاج اللجاجة وثمرة أصلها الحمية - فإن ضبطت نفسك كان تحاكمهم إليك ، ومعولهم عليك .

واعلم أن طبع النفوس - إذ كان على حسب العلو والغلبة - أن في تركيبها بغض من استطال عليها . فاستدع بحبة العائمة بالتواضع ، ومودة الأجلء بالموانسة والاستشارة ، والثقة والطمأنينة .

واعلم أن الذي تعامل به صديقك هو ضد ما تعامل به عدوك . فالصديق وجه معاملته المسالمة ، والعدو وجه معاملته المداراة والموازبة ، هما ضدان يتنافيان ، يُفسد هذا ما أصلح هذا ، وكلما نقصت من أحد البابين زاد في صاحبه ، إن قليل فقليل ، وإن كثير فكثير . فلا تسلّم بالموازبة صداقة ، ولا تظفر بالعدو مع الاستسلام إليه . فضع الثقة موضعها ، وأقم الخنز مقامه ، وأسرع إلى التفهم بالثقة ، ولا تبادر إلى التصديق ، ولا سيما بالمحال من الأمور .

[١٣ - معرفة الأمور الغائبة]

واعلم أن كل علم بغائب ، كائن ما كان ، إنما يُصاب من وجوه ثلاثة لا

رابع لها ، ولا سبيل لك ولا لغيرك إلى غاية الإحاطات ؛ لاستئثار الله بها . ولن
تتناً بعيشٍ مع شدة التحرُّز ، ولن يتسبَّق لك أمرٌ مع التضييع . فاعرف أقدارَ
ذلك .

فما غابَ عنك مما قد رآه غيرُك مما يُدرك بالعيان ، فسيبِلُ العلم به الأخبَار
المتواترة ، التي يحملها الوليُّ والعدوُّ ، والصالح والطالح ، المستفيضة في الناس ،
فتلك لا كلفة على سماعها من العلم بتصديقها . فهذا الوجهُ يستوي فيه العالم
والجاهل .

وقد يجيء خبرٌ أخصُّ من هذا إلا أنه لا يُعرف إلا بالسؤال عنه ، والمفاجأة
لأهله ، كقوم نقلوا خبراً ، ومثلُك يحيط علمه أن مثلهم في تفاوت أحوالهم ،
وتباغدهم من التعارف ، لا يُمكن في مثله التواطؤ وإن جهل ذلك أكثر الناس .
وفي مثل هذا الخبر يمتنع الكذب ، ولا يتهيأ الاتفاق فيه على الباطل .

وقد يجيء خبرٌ أخصُّ من هذا ، يحمله الرجلُ والرجلانِ ممن يجوز أن
يصدق ويجوز أن يكذب ، فصدق هذا الخبر في قلبك إنما هو بحسن الظنِّ
بالمخبر ، والثقة بعدائه . ولن يقوم هذا [الخبر] من قلبك ولا قلب غيرك مقام
الخبرين الأولين [أبدأ] . ولو كان ذلك كذلك بطل التصنع بالدين واستوى
الظاهر والباطن من العالمين .

ولما أن كان موجوداً في العقول أنه قد يفتش بعض الأمناء عن خيانية ،
وبعض الصادقين عن كذب ، وأن مثل الخبرين الأولين لم يتعقب الناس في مثلها
كذباً قط ، علم أن الخبر إذا جاء من مثلها جاء مجيء اليقين ، وأن ما علم من
خير الواحد فلأنما هو بحسن الظنِّ والائتمان .

فهذه الأخبار عن الأمور التي تدركها الأبصار .

فإنما العلم بما غابَ مما لا يُدركه أحدٌ بعيان ، مثلُ سرائر القلوب وما
أشبهها ، فلأنما يُدرك علمها بآثار أفعالها وبالغالب من أمورها ، على غير إحاطة
كإحاطة الله بها .

وأول العلم بكل غائب الظنون ، والمظنون إنما تقع في القلوب بالدلائل ،
فكلما زاد الدليل قوياً الظن حتى ينتهي إلى غاية تزول معها الشكوك عن
القلوب ؛ وذلك لكثرة الدلائل ، [ولترادفها] .

فهذا غاية علم العبادة بالأمور الغائبة (١) .

فمن عرف ما طبع عليه الخلق وجرت به عاداتهم ، وعرف أسباب اتصالهم
واتصاله بهم ، وتقصى علل ذلك ، كان خليقاً - إن لم يحط بعلم ما في قلوبهم -
أن يقع من الإحاطة قريباً .

واعلم أن المقادير ربما جرت بخلاف ما تقدر الحكماء ، فنال [بها] الجاهل
في نفسه ، المختلط في تدبيره ، ما لا ينال الحازم الأريب الحذير . فلا يدعونك ما
ترى من ذلك إلى التضييع والأتكال على مثل تلك الحال ؛ فإن الحكماء قد
أجمعت أن من أخذ بالحزم وقدم الحذر ، فجاءت المقادير بخلاف ما قدر ، كان
عندهم أحمد رأياً وأوجب عذراً ، ممن عمل بالتفريط وإن انفقت له الأمور على ما
أراد .

مركز تحقيقات كويت علوم إسلامية

[١٤ - الصداقة]

ولعمري ما يكاد ذلك يجيء إلا في أقل الأمور ، [وما كثر مجيء السُّلامات
إلا لمن أتى الأمور] من وجوهها وإنما الأشياء بعوامها . فلا تكونن لشيء مما في
يدك أشد ضناً ، ولا عليه أشد حذباً ، منك بالأخ الذي قد بلوته في السُّراء
والضُّراء ، [فعرفت مذاهبه] وخبرت شيمه ، وصح لك غيبه ، وسلمت لك
ناحيته ؛ فإنما هو شقيقٌ روحك وباب الروح إلى حياتك ، ومستمد رأيك وتوأم
عقلك . ولست متفعلاً بعيش مع الوحدة . ولا بسد من المؤانسة ، وكثرة
الاستبدال تهجم بصاحبه على المكروه . فإذا صفا لك أخ فكن به أشد ضناً منك
بنفائس أموالك ، ثم لا يزهدنك فيه أن ترى منه خلقاً أو خلقين تكرههما ؛ فإن
نفسك التي هي أخص النفوس بك لا تعطيك المقادة في كل ما تريد ، فكيف

بِنَفْسٍ غَيْرِكَ ۱

وَبِحَسَبِكَ أَنْ يَكُونَ لَكَ مِنْ أَخِيكَ أَكْثَرُهُ ، وَقَدْ قَالَتِ الْحِكْمَاءُ : « مَنْ لَكَ بِأَخِيكَ كُلَّهُ » ، وَ « أَيُّ الرَّجَالِ الْمَهْدَبِ » .

ثُمَّ لَا يَمْنَعُكَ ذَلِكَ مِنَ الْاِسْتِكْثَارِ مِنَ الْأَصْدِقَاءِ فَإِنَّهُمْ جُنْدٌ مُعْتَدُونَ [لَكَ] يَنْشُرُونَ مَحَاسِنَكَ ، وَيَحَاجُّونَ عَنكَ . وَلَا يَحْمِلُنَّكَ اسْتِطْرَافُ صَدِيقٍ ثَانٍ عَلَى مَلَالَةٍ لِلصَّدِيقِ الْأَوَّلِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ سَبِيلُ أَهْلِ الْجَهَالَةِ ، مَعَ مَا فِيهَا مِنَ الدَّنَاءَةِ وَسُوءِ التَّدْبِيرِ ، وَزَهْدِ الْأَصْدِقَاءِ جَمِيعاً فِي إِخَائِكَ . وَاللَّهُ يُوَفِّقُكَ .

وَسَتَجِدُ فِي النَّاسِ مَنْ قَدْ جَرَّبْتَهُ الرَّجَالُ قَبْلَكَ ، وَمَحَّضَهُ اخْتِبَارَهُمْ لَكَ . فَمَنْ كَانَ مَعْرُوفاً بِالْوَفَاءِ فِي أَوْقَاتِ الشَّدَّةِ وَحَالَاتِ الضَّرُورَةِ ، فَنَافِسٌ فِيهِ وَاسْبِقُ إِلَيْهِ ؛ فَإِنَّ اعْتِقَادَهُ أَنْفُسَ الْعُقَدِ . وَمَنْ بَلَاهُ غَيْرِكَ فَكَشَفَ عَنْ كُفْرِ النُّعْمَةِ وَالْعَدْرِ؛ لَا يَفِي لِأَحَدٍ ، وَإِنَّمَا يَمِيلُ مَعَ الرَّجْحَانِ : يَذُلُّ عِنْدَ الْحَاجَةِ وَيَشْمَخُ مَعَ الْاِسْتِغْنَاءِ .



مركز تحقيقات كميوتير علوم إسلامي

[١٥ - الخلال المذمومة]

فَاحْذَرِ ذَلِكَ أَشَدَّ الْحَذَرِ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْحِكْمَاءَ لَمْ تَذَمَّ شَيْئاً ذَمُّهَا أَرْبَعٌ خِلَالَ :
الْكَذِبُ فَإِنَّهُ جَمَاعٌ كُلُّ شَرٍّ . وَقَدْ قَالُوا : لَمْ يَكْذِبْ أَحَدٌ قَطُّ إِلَّا لَصَغِيرٍ قَدَرِ
نَفْسِهِ عِنْدَهُ .

وَالغَضَبُ فَإِنَّهُ لَوْمٌ وَسُوءٌ مَقْدِيرَةٌ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الغَضَبَ ثَمَرَةٌ لِخِلَافِ مَا يَهْوَى
النَّفْسَ ، فَإِنَّ جَاءَ الْإِنْسَانَ خِلَافَ مَا يَهْوَى مِمَّنْ فَوْقَهُ أَغْضَى وَسُمِّيَ ذَلِكَ حُزْناً ،
وَإِنْ جَاءَهُ ذَلِكَ مِمَّنْ دُونَهُ لَوْمٌ النَّفْسِ وَسُوءُ الطَّبَاعِ عَلَى الْاِسْتِطَالَةِ بِالغَضَبِ ،
وَالْمَقْدَرَةِ وَالْبَسْطَةِ عَلَى الْبَطْشِ .

وَالجُزَعُ عِنْدَ الْمَصِيبَةِ الَّتِي لَا ارْتِمَاجَ لَهَا ؛ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَجْعَلُوا لِصَاحِبِ الْجُزَعِ فِي
مِثْلِ هَذَا عُذْراً ، لَمَّا يَتَعَجَّلُ مِنْ غَمِّ الْجُزَعِ مَعَ عِلْمِهِ بِقُوتِ الْمَجْزُوعِ عَلَيْهِ .

وزعموا أن ذلك من إفراط الشره ، وأن أصل الشره والحسد واحد وإن افترق فرعاهما .

وذموا الحسد كذمهم الجزع ، لما يتعجل صاحبه من ثقل الاغتمام ، وكلفة بمقاساة الاهتمام ، من غير أن يجدي عليه شيئاً . فالحسد اغتمام ، والغدر لؤم . وقال بعض الحكماء : « الحسد خلق دنيء ، ومن دنائه أنه يبدأ بالأقرب فالأقرب » . وزعموا أنه لم يغير غادر قط إلا لصغر همته عن الوفاء ، وخمول قدره عن احتمال المكاره في جنب نيل المكارم .

وبقدر ما ذمّت الحكماء هذه الأخلاق الأربعة ، فكذلك حمّدت أصدادها من الأخلاق ، فأكثرت في تفضيلها الأقاويل ، وضربت فيها الأمثال ، وزعمت أنها أصل لكل كرم ، وجماع لكل خير ، وأن بها تنال جسام الأمور في الدنيا والدين .

فاجعل هذه الأخلاق إماماً لك ، ومثلاً بين عينيك ، ورُضً عليها نفسك ، وحكماً في أمرك ، تنفّز بالراحة في العاجل ، والكرامة في الأجل .

والصبر صبران : فأعلامهما أن تصبر على ما ترجو فيه العُثم في العاقبة . والحلم حلمان : فأشرفهما حلمك عمّن هو دونك . والصدق صدقان : أعظمهما صدقك فيما يضرّك . والوفاء وفاءان : أسنهما وفاؤك لمن لا ترجوه ولا تخافه . فإن من عرف بالصدق صار الناس له أتباعاً ، ومن نُسب إلى الحلم ألبس ثوب الوقار والهيبة وأبهة الجلالة ، ومن عرف بالوفاء استنامت بالثقة به الجماعات ومن استعز بالصبر نال جسيمات الأمور .

ولعمري ما غلّطت الحكماء حين سمّتها أركان الدين والدنيا .

فالصدق والوفاء توأمان ، والصبر والحلم توأمان ، فهنّ تمام كل دين ، وصلاح كل دنيا . وأصدادهنّ سبب كل فرقة ، وأصل كل فساد .

واحدٌ خصلة رأيت الناس قد استهانوا بها ، وضيعوا النظر فيها ، مع

اشتمالها على الفساد ، وقذحها البغضاء في القلوب ، والعداوة بين الأوداء :
المفاخرة بالأنساب ؛ فإنه لم يغلط فيها عاقل قط ، ا مع اجتماع الإنس جميعاً على
الصورة وإقرارهم جميعاً بتفرق الأمور المحمودة والمذمومة من الجمال والذمامة ،
واللؤم والكرم ، والجبن والشجاعة ، في كل حين ، وانتقالها من أمة إلى أمة ،
ووجود كل محمود ومذموم في أهل كل جنس من الأدميين . وهذا غير مدفوع
عند الجميع .

فلا تجعلن له من عقلك نصيباً ، ولا من لسانك حظاً ، تسلّم بذلك على
الناس أجمعين ، مع السلامة في الدين .

واعلم أنك موسومٌ بسيما من قارنت ، ومنسوبٌ إليك أفاعيلٌ من
صاحبت . فتحرّز من دخلاء السوء ، ومجالسة أهل الرّيب ، وقد جرت لك في
ذلك الأمثال ، وسطرت لك فيه الأقاويل ، فقالوا : « المرء حيث يجعل نفسه » ،
وقالوا : « يُظنُّ بالمرء ما ظنُّ بقربنه » ، وقالوا : « امرءٌ بشكليه ، والمرء بأليفه » .

ولن تقدر على التحرّز من جماعة الناس ، ولكن أقبل الموائسة إلا بأهل
البراءة من كل دنس . واعلم أن المرء بقدر ما يسبق إليه يُعرف ، وبالمستفيض
من أفعاله يُوصف ، وإن كان بين ذلك كثيرٌ من أفعاله الغاه الناس وحكموا عليه
بالغالب من أمره .

فاجهد أن يكون أغلب الأشياء على أفاعيلك كل ما تحمده العوام ولا تنمّه
الجماعات ، فإن ذلك يعفي على كل خلل إن كان .

فباير السنة الناس فاشغلها بحاسنك ، فإنهم إلى كل سيء يسراع ،
واستظهر على من دونك بالتفضل ، [وعلى نظرائك] بالإنصاف ، وعلى من
فوقك بالإجلال . تأخذ بوثائق الأمور ، وأزمة التدبير .

واعلم أن كثرة العتاب سببٌ للقسيمة ، وأطراحه كله دليلٌ على قلّة
الاكتراث لأمر الصديق . فكن فيه بين أمرين : عاتبه فيها تشركان في نفعه وضرره

وذلك في الهيئات ، ونجاف له عن بعض غفلاته تسلّم لك ناحيته . وبحسب ذلك فكن في زيارته ، فإن الإلحاح في الزيارة يذهب بالبهاء ، وربما أورت الملالة ؛ وطول الهجران يعقب الجفوة ، ويحل عقدة الإخاء ، ويجعل صاحبه مدرجة للقطيعة وقد قال الشاعر :

إذا ما شئت أن تسلي حبيباً فأكثر دونه عدد الليالي
فما يسلي حبيبك مثل ناي ولا يسلي جديك كابتدال
[وزر غيباً إذا أحببت خلاً فتحظى بالوداد مع اتصال]

واقصد في مزاحك ؛ فإن الإفراط فيه يذهب بالبهاء ، ويجريء عليك أهل الذنائة . وإن التقصير فيه يقبض عنك المؤانسين . فإن مزحت فلا تمزح بالذي يسوء معاشرتك .

وأنا أوصيك بخلق قلب من وأنته يتخلق به ، وذاك أن تحمله شديد ، ومرتقاه صعب ، وبسبب ذلك سورت الشرف وحميد الذكر : ألا يحدث لك انحطاط من خطت الدنيا من إخوانك استهانة به ، ولا لحقه إضاعة ، ولما كنت تعلم من قدره استصغاراً ؛ بل إن زرته قليلاً كان أشرف لك ، وأعطت للقلوب عليك . ولا يحدث لك ارتفاع من رفعت الدنيا منهم تذلاً وإشاراً له على نظرائه في الحفظ والإكرام ؛ بل لو انقبضت عنه كان مادحك أكثر من ذامك ، وكان هو أولى بالتعطف عليك ، إلا أن يكون مسلطاً تخاف شذاه ومعرته ، وترجو عنده جر منفعه لصديق ، أو دفع مضره عنه ، أو كتباً لعدو وإنزال هوان به ؛ فإن السلطان وخيلاءه وزهوه يحتمل فيه ما لا يجوز في غيره ، ويُعذر فيه ما لا يُعذر في سواه .

[١٦ - امتداح الذات]

واعلم أن نشر محاسنك لا يليق بك ، ولا يقبل منك إلا إذا كان القول لها على ألسن أهل المروءات ، وذوي الصدق والوفاء ، ومن ينجع قوله في القلوب

مَنْ يُسْتَنَامَ إِلَى قَوْلِهِ ، وَيُصَدِّقُ خَبْرَهُ ، وَمَنْ إِنْ قَالَ صَدَقَ ، أَوْ مَدَّحَ اقْتَصَدَ ،
يُثْنِي بِقَدْرِ الْبَلَاءِ ، فَإِنْ إِشْرَافُ^(٣) الثَّنَاءِ عَلَى قَدْرِ النُّعْمَةِ يُولِّدُ فِي الْقُلُوبِ التَّكْذِيبَ ،
وَيَدُلُّ عَلَى طَلَبِ الْمَزَايِدِ .

فَأَمَّا ثَنَاءُ الْمَادِحِينَ لَكَ فِي وَجْهِكَ ، فَإِنَّمَا تِلْكَ أَسْوَاقُ أَقَامُوهَا لِلْأَرْبَاحِ ،
وَسَاءَ هَلُوكَ فِي الْمَبَايَعَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ كُلْفَةٌ ، لِكَسَادِ أَقَاوِيلِهِمْ عِنْدَ
النَّاسِ . أَوْلَيْكَ الصَّادُونَ عَنْ طَرِيقِ الْمَكَارِمِ ، وَالْمُثَبِّطُونَ عَنِ ابْتِنَاءِ الْمَعَالِي .

فَارْتَدَّ لِنِعْمِكَ مَغْرِبًا تَنْمُو فِيهِ فُرُوعُهَا ، وَتَزْكُو ثَمَرَتُهَا ، لَا تَذْهَبُ نَفَقَتُكَ
ضَيَاعًا ، إِمَّا لِعَاجِلٍ تَقَدَّمَهُ ، أَوْ لِأَجَلٍ ثَنَاءٍ تَنْتَفِعُ بِهِ .

وَلَنْ تَعْدَمَ أَنْ يَفْجَأَكَ فِي بَعْضِ أَحْوَالِكَ حَقُوقٌ تَبْهُظُكَ ، وَأَحْوَالٌ
تَفْدَحُكَ ، وَأُمُورٌ كُلُّهَا تَنْقَسِمُ عِنَايَتِكَ ، وَفِي الثَّبُتِ فِي مِثْلِهَا تُعْرِفُ فَضِيلَتُكَ ،
فَلَا تَسْتَقْبِلُهَا بِالتَّضَجُّعِ وَتَفْتِيرِ الرَّأْيِ ، وَابْتِدَاءِ مِنْهَا بِأَعْظَمِهَا مَنَفَعَةً ، وَأَشَدِّهَا خَوْفَ
ضُرَرٍ . وَكُلُّ مَا أَعْجَزَكَ إِلَى الْكُفَاةِ ، وَاعْتَدِرَ مِنْ تَقْصِيرٍ إِنْ كَانَ ؛ فَإِنَّ الْإِعْتِذَارَ
يَكْسِرُ حُمِيًّا اللَّائِمَةَ ، وَيُرَدِّعُ شِدَاةَ الشُّرَّةِ .

ثُمَّ تَلَاَفَ بَعْدَ انْكِشَافِ ذَلِكَ عِنْدَكَ مَا قَاتَكَ ، وَاجْهَدِ الْجَهْدَ كُلَّهُ أَنْ تَكُونَ
مَخَارِجَ الْحَقُوقِ اللَّازِمَةَ لَكَ مِنْ عِنْدِكَ سَهْلَةً ، مَوْصُولَةً لِأَصْحَابِهَا بِبَشْرِكَ وَطَلَاةَ
وَجْهِكَ ؛ فَقَدْ زَعِمَتِ الْحِكْمَاءُ أَنَّ الْقَلِيلَ مَعَ طَلَاةِ الْوَجْهِ أَوْقِعَ بِقُلُوبِ ذَوِي
الْمُرُوءَاتِ مِنَ الْكَثِيرِ مَعَ الْعُبُوسِ وَالْإِنْقِبَاضِ .

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْحِكْمَاءِ : « غَايَةُ الْأَحْرَارِ أَنْ يَلْقَوْا مَا يُحِبُّونَ وَيُحْرَمُوا ، أَحَبُّ
إِلَيْهِمْ مِنْ أَنْ يَلْقَوْا مَا يَكْرَهُونَ وَيُعْطَوْا » .

[وَمَا أَبْعَدُوا عَنِ الْحَقِّ] .

وَلَا يَدْعُونَكَ كَفْرًا كَافِرًا لِبَعْضِ نِعْمِكَ مِمَّنْ آثَرَ هَوَاهُ عَلَى دِينِهِ وَمُرُوءَتِهِ ، أَوْ
عُدْرَةً غَادِرًا تَصْنَعُ لَكَ وَخَتَلَكَ عَنْ مَالِكَ ، أَنْ تَزْهَدَ فِي الْإِنْعَامِ ، وَتَسِيءَ بِثِقَاتِكَ
الظُّنُونِ ، فَإِنَّ هَذَا مَوْضِعَ يَجِدُ الشَّيْطَانَ فِي مِثْلِهِ الدَّرْبِيعَ إِلَى اسْتِفْسَادِ الصَّنَائِعِ ،

وتعطيل المكارم .

واعلم أن استصغارك نَعْمَكَ يكبرها عند ذوي العقول ، وسترك لها نشر لها عندهم ، فانشرها بسترها ، وكبرها باستصغارها .

واعلم أن من الفعل أفاعيل وإن عظمت منافعها . ومنافع أصدادها فلا يثارها فضيلة على كل حال . فاجعل صمتك أكثر من كلامك ؛ فإنه أدل على حكمتك . واجعل غشوك أكثر من عشوبتك ، فإن ذلك أدل على كرمك . ولا تفرطن فيه كل الإفراط حتى تطرح الكلام في موضعه ، والتأديب في أوانه .

واعلم أن لكل امرئ سيءاً من عمله ، قد ساهلته فيه نفسه وسلس له فيه هواه ، فتحفظ ذلك من نفسك ، وتقاضها الزيادة فيه ، ورضها على تشميره والمواظبة عليه .

واحذر الحذر كله الاغترار بأمور ثلاثة ؛ فإن من عطب بها كثير ، وتلافيتها صعب شديد .

أحدها : ألا تولي جِئِمَ تصرفك وتقلد مهم أمورك ووثائق تدبيرك إلا امرأ صلاحه موصول بصلاحك ، وبقاء النعمة عليك هو بقاء النعمة عليه .

أو أن نأس أو تفتربن تعلم أن بصلاحك فساده ، وبارتفاعك انحطاطه ، وبسلامتك عطبه ؛ فإن من كان هكذا فانت ملك موته . فحسب ذلك فليكن عندك .

أو أن تجعل مالك كله في عقدة واحدة ، أو حيز واحد ، [أو وجه منفرد] ، إن اجتاحتها جائحة أو نابتة نائبة بقيت حسيراً . وقد قال بعض الحكماء : « فرقوا المنية » ، و « اطلبوا الأرباح بكل شعب » .

واعلم أنه ليس من الأخلاق التي ذمها الحكماء خلق إلا وقيد ينفع في بعض الحالات ، ويرد به شكله ، ويقام بإزاء مثله ، ويدافع به نظيره .

إنك ستُمنَى بِصُحبة السُلطان الحازم العادل ، وبصحبة السُلطان الأخرق
الجهول الغشوم . فالحازم العادل يَسُوسه لك الأدبُ والنُصح ، والأخرق تسوسه
لك الحيلة والرُفق . العادل يَعُضدك منه ثلاث ، وتَصبرُ نفسُه لك على ثلاث :

فاللواتي يعُضدنك : تسليط العدل وإنفاذ الحكومة - وفي ذلك صلاح
الرعيّة - وإثابة المحسنين الذين إثابتهم تحصيلُ البيضة والسُبل ، والعفو ما يُبلغ به
الإستصلاح ، واكتفي به من البسط . واللواتي تصبرُ نفسُه لك عليهن : الهوى
إلى ما وافق الرأي ، وأمضى الرأي الأبعد التثبت حتى تعاونه عليه النصحاء .

ولكني أوصيك برياضة نفسك حتى تذلّها على الأمور المحمودة ؛ فإن كل
أمرٍ ممدوحٍ هو ممّا تستثقل النفوس . [ومما تسرُّ به وتنقلب إليه الأخلاق
المذمومة] . فإن أهملتها وإياها غلبت عليك ، لأنها فيها طبيعة [مركبة] ، وجيلة
مفطورة .

فلتكن المساهلة في أخلاقك أغلب عليك من المعاصرة ، والحلم أولى بك
من العجلة ، والصبرُ الحاكم عليك دون الجزع ، والعفو أسبق إليك من المجازاة
بالذنوب ، والمكافأة بالسوء .

[وكذلك سائر الأخلاق المحمودة والمذمومة ، فتكن محموداتها غالبية على
أفعالك ، محكّمة في أمورك] . فإنك إن ضبّطت [ذلك ، وقومت عليه]
نفسك ، عشت رخيّ البال ، قليل الموم ، كثير الصديق قليل العدو ، [سليم
الدين ، نقيّ العرض ، محمود الفِعال] ، جميل الأحداث في حياتك وبعد
وفاتك ، وكنت بموضع الرجاء أن يصلّ الله لك السلامة الأجلّة بالنعمة العاجلة
[إن شاء الله عزّ وجلّ] .

أسأل الله المبتدئ بكلّ نعمة ، والمتوحيّ لكلّ إحسان ، أن يصلّي على محمد
خيرته من خلقه ، وصفوته من بريته ، وأن يتمّ عليك نعمته ، ويشفع لك ما

نَحْوِكَ مِنْ نِعْمَتِهِ بِالنُّعْمَةِ الَّتِي يُؤْمَنُ مَعَهَا الزُّوَالُ ، فِي جَوَارِهِ وَمُرَافِقَةِ أَنْبِيَائِهِ .
وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ .

* * *

تمت الرسالة في الأخلاق المحمودة والمذمومة بعون الله ومُنَّه . والله الموفق
للصواب ، والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه
وسلامه .

يتلو هذه الرسالة :

كتاب كتمان السر وحفظ اللسان من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر
الجاحظ أيضاً . والله سبحانه المستعان على ذلك برحمته .



مركز تحقيقات كبيوتر علوم إرسودي

هامش رسالة المعاش والمعاد

- (١) على الحكيم تبيان اسباب الامور وعواقبها . بهذا المعنى يقترب الجاحظ من ارسطو الذي حدد الحكيم بأنه الذي يعرف علل الاشياء .
- العقل هو الذي يكبح الهوى ويسير بالانسان في الطريق المستقيم . فالجاحظ كبير الثقة بالعقل كالمعتزلة .
- ظواهر الامور وبواطنها . هذا التمييز الذي بدأه الجاحظ بلغ ذروته عند كانط وهيوم .
- ابو عبد الله ، هو على الأرجح احمد بن ابي داود والدة القاضي محمد الذي بوجه اليه الجاحظ الكلام . وقد كانت صلة الجاحظ به وطيدة قبل ان يضاب بالفالج ويحل ابنه مكانه في القضاء .
- ان ذلك طبع غير تكلف : فالطبع هنا معناه عدم التكلف او التصنع . يعني ما هو تلقائي أو مباشر .
- يشير الجاحظ هنا الى شغفه بالكتب مجتمعا وينظر فيها لأن تصفحها يطلعنا على عقول العالمين . وقد عبر عن هذا الميل عنده في مقدمة كتاب الحيوان حيث كتب أجهل وصف للكتاب .
- يميز الجاحظ هنا بين نوعين من العقل : العقل المطبوع والعقل المكتسب . على نحو ما ميز ارسطو والفلاسفة العرب امثال الكندي والفارابي وابن سينا بين العقل الهولاني او بالقوة ، والعقل بالملكة او المستفاد او بالفعل . وقد اعترف الجاحظ بأن الحكماء هم الذين ذهبوا الى هذا التفريق بين انواع العقل ، مما يدل على تأثره

- استنبط تعني استخراج علل الاشياء ولم يقتصر على وصفها او عرضها .
والجاحظ يذهب الى ان معرفة الاسباب تفضي الى اليقين . أما مجرد العرض
والوصف فيقف بصاحبه عند الظن . ويقول ايضاً ان احكام الدين مينة الاسباب
مكتشفة العلل . وبذلك يكون قد وحد بين الفلسفة والدين . وهذا ما اعتقده
فعلاً وصرح به في تعريفه لعلم الكلام .

(٢) الطبائع جمع طبيعة وهي ما ركب عليه الخلق وفطرت عليه البرايا كلهم ، فهم
فيها مستوون والى وجودها في انفسهم مضطرون ، وفي المعرفة بما يتولد عنها
متفقون . بهذا يلخص الجاحظ مذهب الطبيعي . فهو يؤمن بوجود طبائع فطرية
في الخلق سواء كانوا بشراً او حيوانات او جمادات . وهم مضطرون للخضوع الى
هذه الطبائع وليسوا احراراً في مخالفتها . والقول في الطبائع يؤدي الى القول بالتولد
أي صدور افعال عن الطبائع لا دخل لله فيها .

(٣) يحدد الآداب بانها آلات او وسائل تستعمل لتدبير امور الانسان في الدنيا والآخرة وفي
الدين والدنيا . هذه الآداب وضعت على اساس الطبائع .

- الفرق بين الدين والدنيا هو اختلاف الدارين فقط والآداب واحدة والحكم
واحد . وبهذا وحد الجاحظ بين الدين والسياسة وخلط بينها خلطاً قوياً .

- التكليف مرتبط بالابتلاء او الاختيار وهو مبدأ قال به معظم المعتزلة ومنهم الجاحظ .

(٤) من طباع الناس الامامية حيب المنافع ودفع المضار ويؤكد الجاحظ على انها فطرة في
الانسان والحيوان .

- النفس طبعت على ميول اهمها حب الراحة ، والعلو والغلبة والاستطراف ،
واللذة الحسية المتنوعة .

(٥) السياسة تقوم على الترغيب والترهيب وهما غريزتان فطريتان في الانسان سبقت
الاشارة اليهما (رقم ٤) . وقد لجأ إليها الدين عندما ذكر الجنة والنار ، الجنة
لترغيب والنار للترهيب .

- وارفق الترغيب والترهيب بمبدأ ثالث هو العدل .

- يقابل الترغيب والترهيب بمبدأ رابع هو الوعد والوعيد .

- السياسة تعني التدبير أي تدبير شؤون الناس . هذا ما يفهم من كلامه « فالرغبة
والرهبة اصلا كل تدبير وعليها مدار كل سياسة ، عظمت او صغرت » .

(٦) يحدد معنى العدل في الدنيا او في السياسة : وهو يعني الاثابة او الجزاء حسب
الاستحقاق .

(٧) لكل شيء افراط وتفصير ، والفضيلة في ملازمة الحدود او في التوسط . وهذا مبدأ

من مبادئ المعتزلة عبر عنه بالمتزلة بين المتزنتين .
وفي هذا النص تطبيق صريح لمبدأ السببية الذي آمن به الجاحظ . وفي السببية
والتولد والتوسط يلتقي الجاحظ مع ارسطو .
- التوكل لا يعني التواني والاعتماد على قوة أخرى ولا يعني الإحالة على الاقدار .
لقد امر الله بالتوكل عند انقطاع الحبل وسذل ما في الوسع . وبهذا يخالف الجاحظ
الاشاعرة والمتصوفة .

(٨) يحدد الجاحظ معنى الجود بأنه مساعدة المحتاجين عند النوائب ، والتفضل على
الراغبين مع تجنب السرف . وينصح بشمير المال لأن المال « آلة المكارم ومتألف
للاخوان وعون على الدين » . وهو يردد ما سبق اليه ابن المقفع في الأدب الكبير
والأدب الصغير وفي كليلة ودمنة .

(٩) المنطق استعمل هنا بمعنى النطق وهو ضد الصمت . ولم يستعمل بمعنى العلم الذي
ابتدعه ارسطو . والجاحظ ينصح بالاعتدال في الكلام والصمت اخذاً بمذهبه
الاعتزالي : التوسط .

(١٠) الشجاعة تعني المخاطرة في النفس والمال في كل أمر تجهل عاقبته . ولا تحمد الا
إذا وجبت في الدين أو في سبيل دره العار . ولا تحمد اذا كانت في سبيل منفعة في
الدنيا لأنها تكون ضرباً من الحماسة .

(١١) في معاملة العدو يضع قواعد من الخير ويقارنها بقواعد او نصائح ابن المقفع . من
مداراة ، وحفظ سر الخ .

(١٢) يجعل الناس من حيث الخدمات التي يؤدونها للحاكم ثلاثة اجناس : اصحاب
الرأي والمشورة ، اهل الشدة والغلظة ، اصحاب المهن المختلفة . وينبغي على
الحاكم العناية بهم جميعاً وتعهدهم بالثواب والجزاء .

(١٣) العلم بما غاب نحصل عليه بطرق ثلاث : « الاخبار المتواترة التي يحملها السوي
والعدو والصالح والطالح . اي جميع الناس تقريباً .

٢) الاخبار المتواطئة : التي يتفق عليها العدد الكبير من الناس وان جهلها
معظمهم . وينبغي السؤال عن هذه الاخبار وتوجيهه الى عدة اقوام نقلوها . فاذا
تواطوا عليها على الرغم من تفاوت احوالهم اعتبرت صحيحة . وقد اعتمد
الجاحظ هذه الطريقة في اثبات حجج النبوة (راجع رسالة حجج النبوة) .

٣) الخبر المفرد الذي يحمي به الرجل او الرجلان ، لا يصح تصديقه الا اذا كان
المخبر عدلاً وثقة .

هذا مما يدرك بالعيان . الغائب الذي لا يدرك بالعيان مثل سرائر القلب وما

اشبه فيدرك بوسيلة اخرى غير الخبر هي آثار افاعيلها الغالبة .
درجات العلم ثلاثة هي الشك فالظن فالعلم . اول العلم بالامور الشك فاذا
ظهرت بعض الادلة زال الشك وحل مكانه الظن ، فاذا قويت الادلة زال الظن
وحل العلم اليقيني . وقد ردد الجاحظ هذه المراتب في عدة اماكن من كتبه مثل
الحيوان وبعض الرسائل .

(١٤) الصداقة ضرورية للانسان لان الصديق أخ ثان ، « وشقيق الروح وتوأم العقل »
وانيس العيش . وينبغي الحرص عليه والاكثار منه . وتجدر مقارنة اقوال الجاحظ
حول الصداقة باقوال الامام علي بن ابي طالب ، وابن المقفع .

(١٥) يمقت الجاحظ المفاخرة بالانساب التي اعتد بها العرب . وعلى هذا الاساس يمكن
معرفة الغرض الذي رمى اليه الجاحظ في رسالة « فضل هاشم على عبد شمس »
ومثيلاتها من رسائل التفاخر بالانساب .

(١٦) يمقت المداحين ، وبالتالي الشعراء والكتاب الذين اكثروا من المديح . انه موقف
خلقي وسياسي وفني يسجل للجاحظ « تلك اسواق اقاموها للارباح » .

(١٧) كيف تعامل السلطان العادل والسلطان الجاهل : نصائح قيمة يسديها للقاضي .



مركز تحقيقات كبيوتر علوم رسدي



[١ - موضوع الكتاب : تفاضل البلدان وحب الاوطان]

فصل : زَيْنَكَ اللَّهُ بِالتَّقْوَى ، وَكَفَاكَ الْمَهْمُ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ، وَأَنْلِجَ صَدْرَكَ بِالْيَقِينِ ، وَأَعَزُّكَ بِالقِنَاعَةِ ، وَخَتَمَ لَكَ بِالسَّعَادَةِ ، وَجَعَلَكَ مِنَ الشَّاكِرِينَ .

سألت - أبقاك الله - أن أكتب لك كتاباً في تفاضل البلدان ، وكيف قناعة النفس بالأوطان ، وما في لزومها من الفضل والنقص ، وما في الطلب من علم التجارب والعقل .

وذكرت أن طول المقام من أسباب الفقر ، كما أن الحركة من أسباب اليسر ، وذكرت قول القائل : « الناس بأزمانهم أشبه منهم بأبائهم » .

ونسيت - أبقاك الله - عمل البلدان ، وتصرف الأزمان ، وآثارها في الصور والأخلاق ، وفي الشمائل والآداب ، وفي اللغات والشهوات ، وفي الهمم والهيئات ، وفي المكاسب والصناعات ، على ما ذُبرَ اللهُ تعالى من ذلك بالحكمة اللطيفة ، والتدابير العجيبة .

فسبحان من جعل بعض الاختلاف سبباً للائتلاف ، وجعل الشك داعية إلى اليقين ، وسبحان من عرفنا ما في الحيرة من الدلة ، وما في الشك من الوخشة ، وما في اليقين من العز ، وما في الإخلاص من الأنا .

وقلت : ابدأ لي بالشام ومصر ، وفضل ما بينهما ، وتحصيل جمالهما ،
وذكرت أن ذلك سيجر العراق والحجاز ، والنجود والأغوار ، وذكر القرى
والأمصار ، والبراري والبحار .

واعلم - أبقاك الله - أنا متى قدمنا ذكر المؤخر وأخرنا ذكر المقدم ، فسَدَّ
النظام وذهبت المراتب . ولست أرى أن أقدم شيئاً من ذكر القرى على ذكر أم
جميع القرى . وأولى الأمور بنا ذكر خصال مكة ، ثم خصال المدينة .

ولولا ما يجب من تقديم ما قدم الله وتأخير ما أخر ، لكان الغالب على
النفوس ذكر الأوطان وموقعها من قلب الإنسان .

[٢ - حب الوطن طبع في الناس]

وقد قال الأول : « عَمَرَ اللَّهُ الْبِلْدَانَ بِحُبِّ الْأَوْطَانِ » ، وقال ابن الزبير :
« ليس الناس بشيء من أقسامهم أفنع منهم بأوطانهم » .

[و] لولا ما من الله به على كل جليل منهم من الترغيب في كل ما تحت
أيديهم ، وتزيين كل ما اشتملت عليه قدرتهم ، وكان ذلك مفوضاً إلى العقول ،
وإلى اختيارات النفوس - ما سكن أهل الغياض والأدغال في الغمق والثق ، ولما
سكنوا مع البعوض والهمج ، ولما سكن سكان القلاع في قلل الجبال ، ولما أقام
أصحاب البراري مع الذئب والأفاعي وحيث من عز بز ، ولا أقام أهل
الأطراف في المخاوف والتغريير ، ولما رضي أهل الغيران وبطون الأودية بتلك
المساكن ، ولالتمس الجميع السكنى في الواسطة ، وفي بيضة العرب ، وفي
دار الأمن والمنعة . وكذلك كانت تكون أحوالهم في اختيار المكاسب والصناعات
وفي اختيار الأسماء والشهوات . ولاختاروا الخطير على الحقير ، والكبير على
الصغير .

ألا تراهم قد اختاروا ما هو أقبح على ما هو أحسن من الأسماء والصناعات ،

ومن المنازل والديارات ، من غير أن يكونوا خدعوا أو استكبروا .

ولو اجتمعوا على اختيار ما هو أرفع ، ورَفُضَ ما هو أَوْضَعُ من اسمٍ أو كُنْيَةٍ ، وفي تجارة وصناعة ، ومن شهوة وهمة ، لذهبت المعاملات ، وبطل التمييز ، ولوقع التجاذب والتغالب ، ثم التحارب ، ولصاروا غرضاً للتفاني ، وأكلة للبوار .

فالحمد لله أكثر الحمد وأطيبه على نعمه ، ما ظهر منها وما بطن ، وما جهل منها وما علم !

ذكر الله تعالى الديار فخبّر عن موقعها من قلوب عباده ، فقال : ﴿ولو أنا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ . فسوى بين موقع قتل أنفسهم وبين الخروج من ديارهم . وقال : ﴿وَمَا لَنَا الْأُنْقَابُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَانِنَا﴾ . فسوى بين موقع الخروج من ديارهم وبين موقع هلاك أبنائهم .

فصل منه : - فقسم الله تعالى المصالح بين المقام والظعن ، وبين الغربة والحب الوطن ، وبين ما هو أرفع وأرفع ، حين جعل مجاري الأرزاق مع الحركة والطلب . وأكثر ذلك ما كان مع طول الاغتراب ، والبعد في المسافة ، ليُفيدك الأمور ، فيمكن الاختبار ويحسن الاختيار .

والعقل المولود متناهي الحدود ، وعقل التجارب لا يُوقف منه على حد . ألا ترى أن الله لم يجعل إلف الوطن عليهم مفترضاً ، وقيداً مُضْمَتاً ، ولم يجعل كفاياتهم مقصورة عليهم ، محتسبة لهم في أوطانهم ؟ ألا تراه يقول : ﴿فأقرءوا مَا نَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ ، عَلِيمٌ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضِيٌّ وَأخْرُونَ يُظْهِرُونَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأخْرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ . فقسم الحاجات فجعل أكثرها في البعد . وقال عز ذكره : ﴿فإذا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ فأخرج الكلام والإطلاق على تخرج العموم ، فلم يخص أرضاً دون أرض ، ولا قرناً دون بعد .

فصل منه : - ونحن ، وإن أطيننا في ذكر جملة القول في الوطن ، وما يعمل في الطبائع ، فإننا لم نذكر خصال بلدة بعينها ، فنكون قد خالفنا إلى تقديم المؤخر وتأخير المقدم .

قالوا : ولم نجعل ولم نتكر أن نفس الإلف يكون من صلاح الطبيعة ، حتى إن أصحاب الكلاب يجعلون هذا من مفاخرها على جميع ما يُعاشِر الناس في دورهم من أصناف الطير وذوات الأربع : وذلك أن صاحب المنزل إذا هجر منزله واختار غيره ، لم يتبعه فرس ولا بغل ولا جمار ، ولا ديك ولا دجاجة ، ولا حمامة ولا حمام ، ولا هر ولا هرة ، ولا شاة ، ولا عُصفور ؛ فإن العصافير تألف دور الناس ، ولا تكاد تقيم فيها إذا خرجوا منها . والخطاطيف تقطع إليهم لتقيم فيها إلى أوان حاجتها إلى الرجوع إلى أوطانها ، وليس شيء من هذه الأنواع مما تبول في الدور باجتلابهم لها ، ولا ما تبول في دورهم مما ينزع إليهم أحن من الكلب ، فإنه يؤثره على وطنه ، ويحميه من يغشاه .

فذكروا الكلب هذا الخلق الذي تفرّد به دون جميع الحيوان .

وقالوا في وجه آخر : أكرم الصغايا أشدها ونمأ إلى اولادها ، وأكرم الإبل أحنها إلى أعطانها . وأكرم الأفلاء أشدها ملازمة لأمتها ، وخير الناس ألفهم للناس .

[٣ - خصال قريش]

فصل منه : وقتلتم : خبرونا عن الخصال التي بانّت بها قريش عن جميع الناس . وأنا أعلم أنك لم ترد هذا . وإنما أردت الخصال التي بانّت بها قريش من سائر العرب ، كما ذكرنا في الكتاب الأول الخصال التي بانّت بها العرب عن المعجم ؛ لأن قريشاً والعرب قد يستوون في مناقب كثيرة . قد يُلْفَى في العرب الجواد المبر وكذلك الحليم والشجاع ، حتى يأتي على خصال حميدة ؛ ولكننا نريد الخصائص التي في قريش دون العرب .

فمن ذلك أنا لم نر قريشياً انتسب إلى قبيلة من قبائل العرب ، وقد رأينا في قبائل

العرب الأشراف رجالاً - إلى الساعة - يتسبون في قريش ، كنعو الذي وجدنا في بني مُرة بن عوف ، والذي وجدنا من ذلك في بني سليم ، وفي خزاعة ، وفي قبائل شريفة .

ومما بانّت قريش أنها لم تلد في الجاهلية ولداً قط [لغيرها] ولقد أخذ ذلك منهم سُكّان الطائف ، لقرب الجوار وبعض المصاهرة ، ولأنهم كانوا حمساً ، وقريش حمستهم .

ومما بانّت به قريش من سائر العرب أن الله تعالى جاء بالإسلام وليس في أيدي جميع العرب سبيّة من جميع نساء قريش ، ولا وجدوا في جميع أيدي العرب ولداً من امرأة من قريش .

ومما بانّت به قريش من سائر العرب أنها لم تكن تزوج أحداً من أشراف العرب إلا على أن يتحمس ، وكانوا يُزوّجون من غير أن يُشترط عليهم ، وهي عامر بن صعصعة ، وثقيف . وخزاعة ، والحارث ابن كعب ، وكانوا ديانين ، ولذلك تركوا الغزو لما فيه من الغضب والقشم ، واستحلال الأموال والفروج .

ومن العجب أنهم مع تركهم الغزو كانوا أعز وأمثل ؛ مثل أيام الفجار وذات كهف .

ألا ترى أنهم عند بنيان الكعبة قال رؤسائهم : لا تُخرجوا في نفقاتكم على هذا البيت إلا من صدقات نساءكم ، وموارث آبائكم ا أرادوا مالاً لم يكسبوه ولا يشكّون أنه لم يدخله من الحرام شيء .

ومن العجب أن كسبهم لما قل من قبل تركهم الغزو . ومالوا إلى الإيلاف والجهاد ، لم يفتريهم من بخل التجار قليل ولا كثير ، والبخل خِلقة في الطباع ، فأعطوا الشعراء كما يعطي الملوك ، وقرّوا الأضياف ، ووصلوا الأرحام قاموا بنوائب زوار البيت ، فكان أحدهم يحمس الحية في الأنطاع فيأكل منها القائم والقاعد ، والراجل والراكب وأطعموا بدل الحيس الفالودج . ألا ترى أمية بن أبي

الصلت يقول ، ويذكرُ عبدَ الله بن (جدعان) :
له داعٍ بمكَّة مشمعلٌ وحفصٌ فوق دارته ينادي
إلى رُح من الشيزى ملاء لباب البرُّ يلبك بالشهاد

فلباب البرُّ هو هذا النشا ، والشهاد يعني به العسل .

ألا ترى أن عمر بن الخطاب يقول : « أتروني لا أعرف طيب الطعام ؟
لباب البرُّ بصغار المعزى » ، يعني خبز الحواري بصغار الجداء .

ولقد مدحتهم الشعراء كما يمدح الملوك ، ومدحتهم الفرسان والأشراف
وأخذوا جوائزهم ؛ منهم : دريد بن الصُّمة ، وأمّية بن أبي الصلت .

ومن خصالهم أنهم لم يُشاركوا العرب والأعراب في شيء من جفائهم ،
وغلظ شهواتهم ؛ وكانوا لا يأكلون الضباب ، ولا شيئاً من الحشرات ، ألا ترى
أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أتوا جوائنه بضب فقال : « ليس من طعام
قومي » ، لأنهم لم يكونوا يجرشون الضباب ، ويصيدون اليرابيع ، ويملئون
القنفاذ ، أصحاب الخمر والخمر ، وخبز التناير .

وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أنا أفصح العرب بيد أي من

قريش ، ونشأت في بني سعد بن بكر » .

وذلك أن جميع قبائل العرب إنما كانت القبيلة لا تكاد ترى وتسمع إلا من
قبيلتها ورجالها ، فليس عندهم ، إلا عند قبيل واحد ، من البيان والأدب والرأي
والأخلاق ، والشمايل ، والحلم والنجدة والمعرفة ، إلا في الفرط .

وكانت العرب قاطبة ترد مكة في أيام الموسم ، وترد أسواق عكاظ وذا
المجاز ؛ وتقيم هناك الأيام الطوال ، فتعرف قريش ، لاجتماع الأخلاق لهم [و]
الشمايل والألفاظ ، والعقول والأحلام ، وهي وادعة وذلك قائم لها ، رهن
عندها في كل عام ، تتملك عليهم فيقتسمونهم ، فتكون غطفان للميرة ، وبنو
عامر لكذا ، وتميم لكذا ، تغلبها المناسك وتقوم بجميع شأنها .

فصل منه : وفتح مكة يسمى فتح الفتوح ؛ وفيها بيتُ الله ، وأهله وحُجَّاجُه زوارُ الله ؛ وهو البيت العتيق والبيت الحرام ؛ وفيه الحجر ، والحجر الأسود .

وله زمزم ، وهي هزيمة جبريل - صلوات الله عليه - ومقام إبراهيم ، وماء زمزم لما شرب له ، العاكف فيه والباقي سواء .

وبسبب كرامته أرسل الله طير الأبايل وحجارة السجيل . وأهله خمس ولقاح لا يؤدون إتاوة ، ولهم السقاية ، ودار الندوة ، والرفادة ، والسدانة .

قال : وأقسم الله تعالى بها ، قال : ﴿ لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ . وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ . وقوله جل ذكره : ﴿ لَا أَقْسِمُ ﴾ . أي : أقسم ، وإنما قوله « لا » في هذا الموضع صلة ، ليس على معنى « لا » الذي هو خلاف « نعم » .

وقالوا : ولو كان قوله : ﴿ وَلَيَطُوفُنَّ بِهِ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ يراد به تقادم البنيان ، وما تعاوره من كُرُورِ الزَّمان ، لم يكن فضله على سائر البلدان ، لأن الدنيا لم تخلُ من بيتٍ ودار ، وسُكَّانٍ وبُنيانٍ . وقد مرَّت الأيام على مصر ، وحرَّان ، والحيرة ، والشوس الأقصى ، وأشباه ذلك ، فجعل البيت العتيق صفةً له ، ولو كان ذهب إلى ما يعنون ، كان من قبل أن يعتق وتمر عليه الأزمنة ليس بعتيق . وهذا الاسم قد أُطلق له إطلاقاً ، فاسمه البيت العتيق ، كما أن اسمه بيتُ الله .

ومن زعم أن الله تعالى حرمه يوم خلق السموات والأرض ، فقولنا هذا مصداق له .

ومن زعم أنه إنما صار حراماً منذ حرمه إبراهيم ، كان قد زعم أنه قد كان ولا يقال له عتيق ولا حرام .

قالوا : ومما يصدق تأويلنا أنه لم يُعرف إلا وهو لقاح ، ولا أدى أهله إتاوة

قُط ، ولا وِطْثَه الملوِكُ بالتَّمليِك : أنْ سابورِذا الأكتافِ ، وبُخْت نصرٌ وأبَا
يكسوم وغيرهم ، قد أرادوه فحال الله تعالى دونه ، فتلك عادةٌ فيه ، وسُنَّةٌ جارِيَةٌ
له .

ولولا أنْ تُبِعَ أَنَاهُ حاجاً ، على جهة التعظيم والتدئين بالطواف ، فحجَّه
وطاف به ، وكَسَاه الوصائلِ ، لأخرجه الله منه .

وحجَّه بعضُ ملوكِ عَسَانِ وخم ، وهم نصارى ، تعظيماً له ، ولما جعل
اللَّهُ له في القلوب .

والعتيق يكون من رِقِّ العبودِيَّة ، كالعبد يَعْتقه مولاه . ويكون عتيقاً من
النار ، كالتائب من الكبائر ، وكالرجل يدعو إلى الإيمان فيستجاب له ، ويتعلم
ناسٌ على يده ، فهم أيضاً عتقاء .

ويكون الرجلُ عتيقاً من عتق الوجه .
وربما كان عتيقاً كما يقال للفرس عتيق وليس بهجين ولا مُقْرِف . وقد
سُمِّي أبو بكر بن أبي قحافة - رضوان الله عليه - عتيقاً ، من طريق عتق الوجه ،
ومن طريق أنهم طلبوا المشالب والعيوب التي كانت تكون في الأمهات والأباء فلم
يجدوها ، قالوا : ما هذا إلا عتيق .

[٥ - خصال هاشم]

فصل منه : - قد قلنا في الخصال التي بانَّت بها قريش دون العرب ، ونحن
ذاكرون - وبالله التوفيق - الخصال التي بانَّت بها بنو هاشم دون قريش .

فأولُ ذلك النبوة ، التي هي جماعُ خصالِ الخيرِ ، وأعلاها وأفضلها ،
وأجلها وأسانها .

ثم وجدنا فيهم ثلاثة رجالٍ بنِي أعمامٍ في زمانٍ واحد ، كلُّهم يسمَّى
عليّاً ، وكلُّ واحدٍ من الثلاثة سيِّدٌ فقيه ، عالمٌ عابد ، يصلح للرئاسة والإمامة ،

مثل علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم ، وعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم ، وعلي ابن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم .

ثم وجدنا ثلاثة رجال بني أعمام ، في زمان واحد ، كلهم يسمى محمداً ، وكلهم سيد وفقية عابد ، يصلح للرياسة والإمامة ، مثل محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم ، ومحمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم ، ومثل محمد بن عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم .

وهذا من أغرب ما يتهيا في العالم ، ويتفق في الأزمنة ، وهذه لا يشركهم فيها أحد ، ولا يستطيع أن يدعي مثلها أحد .

ولبني هاشم واحد رزة ، وثانية نادرة ، يتقدمون بها على جميع الناس . وذلك أنا لا نعرف في جميع مملكة العرب ، وفي جميع مملكة العجم ، وفي جميع الأقاليم السبعة ، ملكاً واحداً ملكه من نصاب واحد ، وفي مفرس رسالة ، إلا من بني هاشم ، فإن ملكهم العباس بن عبد المطلب ، عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، والعم وارث ، والعم أب ، ولا نعلم أمة تدعي مثل هذا لملكها .

وهذا شيء سمعته من أبي عبيدة ، ومنه استعملت هذا المعنى .

ولبني هاشم - مئذ ملكوا هذه الدفعة - دون أيام علي بن أبي طالب والحسين ابن علي إلى يومنا هذا مائة وست عشرة سنة ، كان أول بركتهم أن الله - تعالى - رفع الطواعين والموتان الجارف ، فإنهم كانوا يحصدون حصداً بعد حصد .

ثم الذي تهباً واتفق ، وخص به آل أبي طالب من الغرائب والمعائب والفضائل ، ما لم نجده في أحد سواهم : وذلك أن أول هاشمي هاشمي الأبوين كان في الدنيا ولد لأبي طالب ، لأن أباهم عبد مناف . وهو أبو طالب ابن شيبه - وهو عبد المطلب - بن هاشم - وهو عمرو - وهو أبو شيبه . وشيبه هو عبد المطلب . وهو أبو الحارث وسيد الوادي غير مدافع ، بن عمرو ، وهو هاشم

إبن المغيرة ، وهو عبد مناف .

ثم الذي تهباً لبني أبي طالب الأربعة : أن أربعة إخوة كان بين كل واحد منهم وبين أخيه في الميلاد عشر سنين سواء ، وهذا عجب .

ومن الغرائب التي خُصوا بها ، أعني ولد أبي طالب ، أنا لا نعلم الإذكار في بلد من البلدان ، وفي جيل من الأجيال ، [إلا] أهل خراسان فمن دونهم ، فإن الإذكار فيهم فاش ؛ كما أنك لا تجد من وراء بلاد مصر إلا مثناً ، ثم لا ترى فيهن مفذاً ، بل لا ترى إلا الثؤام ومن البنات .

فتهباً في آل أبي طالب من الإذكار ما لم نعرفه في قديم الدهر وحديثه ، ولا فيما قرب من البلدان ولا فيما بعد .

وذلك أن آل أبي طالب أخصوا منذ أعوام وحصلوا ، فكانوا قريباً من ألفين وثلاثمائة ، ثم لا يزيد عدد نسائهم على رجالهم إلا دون العشر . وهذا عجب .

وإن كنت تريد أن تتعرف فضل البنات على البنين ، وفضل إناث الحيوانات على ذكورها ، فابدأ فخذ أربعين ذراعاً عن يمينك ، وأربعين ذراعاً عن يسارك ، وأربعين خلفك ، وأربعين أمامك ، ثم عد الرجال والنساء حتى تعرف ما قلنا ، فتعلم أن الله تعالى لم يجعل للرجل الواحد من النساء أربعاً ، ثم أربعاً ، متى وقع بهن موت أو طلاق ، ثم كذلك للواحد ما بين الواحدة من الإماء إلى ما يشاء من العدد ، مجموعات ومفترقات ، لكلا يتقين إلا ذوات أزواج .

ثم انظر في شأن ذوات البيض وذوات الأولاد فإنك ستري في دار خمسين دجاجة وديكاً واحداً ، ومن الإبل الهجمة وفحلاً واحداً ، ومن الحمير العانة وعميراً واحداً . فلما حصلوا كل مثنا وكل مذكور ، فوجدوا آل أبي طالب قد برعوا على الناس وفضلوهم ، عرف الناس موضع الفضيلة له والخصوصية .

وفي ولد أبي طالب - أيضاً - أعجوبة أخرى ، وذلك أنه لم يوجد قط في

أطفالهم طفلٌ يجبو ، بل يزحف زحفاً لثلاً ينكشف منه عن شيءٍ يسوءه . ليكون أوفر لبهائه ، وأدل على ما خُصوا به .

ولهم من الأعاجيب خصلةٌ أخرى : وذلك أن عبيد الله بن زياد قتل الحسين في يوم عاشوراء ، وقتله الله يوم عاشوراء في السنة الأخرى .

وقالوا : لا نعلم موضع رجلٍ من شجعان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان له من عدد القتلى ما كان لعلي رضوان الله عليه ، ولا كان لأحدٍ مع ذلك من قتل الرؤساء والسادة ، والمتبوعين والقادة ، ما كان لعلي بن أبي طالب . وقتل رئيس واحد ، وإن كان دون بعض الفرسان في الشدة ، أشد ؛ فإن قتل الرئيس أزد على المسلمين وأقوى لهم من قتل الفارس الذي هو أشد من ذلك السيد .

وأيضاً - أنه قد جمع بين قتل الرؤساء وبين قتل الشجعان .

وله أعجوبةٌ أخرى ؛ وذلك أنه مع كثرة ما قتل وما بارز ، وما مشى بالسيف إلى السيف ، لم يجرح قط ولا جرح إنساناً إلا قتله ، ولا نعلم في الأرض متى ذُكر السبق في الإسلام والتقدم فيه ، ومتى ذُكر الفقه في الدين ، ومتى ذُكر الزهد في الأموال التي تشاجر الناس عليها ، ومتى ذُكر الإعطاء في الماعون ، كان مذكوراً في هذه الحالات كلها - إلا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

قالوا : وكان الحسن يقول : قد يكون الرجل عالماً وليس بعابد ، وعابداً وليس بعالم ، وعابداً وليس بعاقل ، وعاقلاً وليس بعابد . وسليمان ابن يسار عالم عاقل عابد ، فانظر أين تقع خصال سليمان من خصال علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

ولم يكن قصدنا في أول هذا الكتاب إلى ذكر هاشم ، وقد كان قصدنا الإخبار عن مكة بما قد كتبناه في صدر هذا الكتاب ، ولكن ذكر خصال مكة جر

ذكر خصال قريش ، وذكر خصال قريش جر ذكر خصال بني هاشم .

فإن أحييت أن تعرف جملة القول في خصال بني هاشم فانظر في كتابي هذا الذي فرقت فيه بين خصال بني عبد مناف وبين بني مخزوم ، وفرقت ما بين عبد شمس ؛ فإنه هناك أوفر وأجمع ، إن شاء الله تعالى .

[٦ - عودة الى خصال قريش]

فصل منه : قالوا : وقد تعجب الناس من ثبات قريش ، وجزالة عطاياهم ، واحتمالهم المؤن الغلاظ في دوام كسبهم من التجارة ، وقد علموا أن البخل والبصر في الطفيف مقرون في التجارة ؛ وذلك خلق من أخلاقهم . وعلى ذلك شاهد أهل الترفيع والتكسب والتدينق .

فكان في ثبات جودهم العالي على جود الأجواد ، وهم قوم لا كسب لهم إلا من التجارة ، عجب من العجب .

ثم جاء ما هو أعجب من هذا وأطم ، وذلك أنا قد علمنا أن الروم قبل التدين بالنصرانية ، كانت تتصف من ملوك فارس ، وكانت الحروب بينهم سجالاً ، فلما صارت لا تدين بالقتل والقتال ، والقود والقصاص . اعتراهم مثل ما يعترى الجبناء حتى صاروا يتكلفون القتال تكلفاً . ولما خامرت طبائعهم تلك الديانة ، وسرت في لحومهم ودمائهم فصارت تلك الديانة تعترض عليهم . خربوا من حدود الغالبية إلى أن صاروا مغلوبين .

وإلى مثل ذلك صارت حال الغزغز من الترك . بعد أن كانوا أنجادهم ومحائهم ، وكانوا يتقدمون الخرجية ، وإن كانوا في العدى أضعافهم ، فلما دانوا بالزندقة - ودين الزندقة في الكف والسلم أسوأ من دين النصارى - نقصت تلك الشجاعة ، وذهبت تلك الشهامة .

وقريش من بين جميع العرب دانوا بالتحمس . وتشددوا في الدين ، فتركوا

الغزوة ولم تبق مكسبة سوى التجارة ، فضربوا في البلاد إلى قيصر بالروم ، وإلى النجاشي بالحبشة . وإلى المقوقس بمصر ، وصاروا يجمعهم تجاراً خلطاء . وبنوا بالديانة والتحمس ، فحمسوا بني عامر ابن صعصعة . وهموا الحارث بن كعب ، فكانوا - وإن كانوا حمساً - لا يتركون الغزوة والسبي ووطء النساء ، وأخذ الأموال ، فكانت نجدتهم - وإن كان أنقص - فإنها على حال النجدة ، ولهم في ذلك بقية .

وتركت قريش الغزوة . فكانوا - مع طول ترك الغزوة - إذا غزوا كالأسود على برائتها ، مع الرأي الأصيل ، والبصيرة النافذة .

أفليس من العجيب أن تبقى نجدتهم ، وثبتت بسالتهم ، ثم يعلن الأنجاد والأجواد ، ويفرعون الشجعان ؟ وهاتان الأعجوبتان بيتان .

وقد عليم أن سبب استفاضة النجدة في جميع أصناف الخوارج وتقدمهم في ذلك ، إنما هو بسبب الديانة ! لأننا نجد عبيدهم ومواليهم ونساءهم ، يقاتلون مثل قتالهم ، ونجد السجستاني وهو عجمي ، ونجد اليمامي والبحراني والخوزي [وهم غير] عرب ، ونجد إباضية عمان وهي بلاد عرب ، وإباضية تاهرت وهي بلاد عجم ، كلهم في القتال والنجدة ، وثبات العزيمة ، والشدة في البأس سواء . فاستوت حالاتهم في النجدة مع اختلاف أنسابهم وبلدانهم . أفما في هذا دليل على أن الذي سوى بينهم التدين بالقتال ، وضروب كثيرة من هذا الفن ؟

وذلك كله موصور في كتبي ، والحمد لله .

وقد نجدون عموم السخف والجهل والكذب في المواعيد ، والغش في الصناعة ، في الحاكة ، فدل استواء حالاتهم في ذلك على استواء عملهم . ليست هناك علة إلا الصناعة ؛ لأن الحاكة في كل بلد شيء واحد . وكذلك النحاس وصاحب الخلقان ، وياع السمك . وكذلك الملاحون وأصحاب السماد ، أولهم كآخرهم ، وكهولهم كشبانهم ، ولكن قل في استواء الحجامين في حث النبيذ !

فصل منه : - وأمر المدينة عَجَب وفي تربها وترابها وهوائها دليل وشاهد وبرهان على قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنَّهَا طَيِّبَةٌ تَنْفِي خَبَثَهَا وَتَنْصَعُ طَيِّبَهَا » لَأَنَّ مِنْ دَخَلَهَا أَوْ أَقَامَ فِيهَا ، كَانَتْ مِنْهَا مِنَ النَّاسِ ، فَإِنَّهُ يَجِدُ مِنْ تُرْبَتِهَا وَحَيْطَانِهَا رَائِحَةً طَيِّبَةً ، لَيْسَ لَهَا اسْمٌ فِي الْأَرَابِيحِ ، وَبِذَلِكَ السَّبَبِ طَابَ طَيِّبُهَا وَالْمَعْجُونَاتُ مِنَ الطُّيْبِ فِيهَا . وَكَذَلِكَ الْعُودُ وَجَمِيعُ الْبَهْخُورِ ، يَضَاعَفُ طَيِّبُهَا فِي تِلْكَ الْبَلَدَةِ عَلَى كُلِّ بَلَدٍ اسْتَعْمَلَ ذَلِكَ الطُّيْبَ بَعِيْنَهُ فِيهَا .

وكذلك صَيَّاحُهَا وَالْبَلْعُ وَالْأَتْرُجُ وَالسَّفَرَجَلُ ، أَعْنِي الْمَجْعُولُ مِنْهَا سُخْبًا لِلصَّبِيَّانِ وَالنِّسَاءِ .

فإن ذكروا طيب سابور فلأنا طيب سابور بطيب أرياح الرياحين ، وذلك من ريح رياحينها وبساتينها وأنوارها ، ولذلك يقوى في زمان ، ويضعف في زمان .

ونحن قد ندخل دجلة في نهر الأبله بالأسحار ، فنجد من تلك الحدائق ، ونحن في وسط النهر ، مثل ما يجد أهل سابور من تلك الرائحة .

وطيبة التي يسمونها المدينة ، هذا الطيب خلقة فيها ، وجوهريئة منها ، وموجود في جميع أحوالها . وإن الطيب والمعجونات لتحمل إليها فتزداد فيها طيباً ، وهو ضد قصبه الأهواز وأنطاكية ، فإن الغوالي تستحيل الاستحالة الشديدة .

ولسنا نشك أن ناساً يتسابون المواضع التي يباع فيها النوى المنقع ، فيستنشقون تلك الرائحة ، يعجبون بها ويلتمسونها ، بقدر فرارنا نحن من مواقع النوى عندنا بالعراق ، ولو كان من النوى المعجوم ومن نوى الأفواه .

ونحن لا نشك أن الرجل الذي يأكل بالعراق أربع جرادق في مقعد واحد من الميسان والموصل ، أنه لا يأكل من أقراص المدينة قرصين ؛ ولو كان ذلك

لغلفظ فيه أو لفسادِ كان في حبه وطحيته لظهر ذلك في التخم وسوء الاستمراء ،
ولتولد على طول الأيام من ذلك أوجاع وفساد كثير .

ولم يكن بها طاعون قط ولا جدام .

وليس لبلدة من البلدان من الشهرة في الفقه ما لهم ولرجالهم ، وذكر عبد الملك
ابن مروان رُوح بن زنباع فمدحه فقال : جمع أبو زُرعة فقه الحجاز ، ودهاء
العراق ، وطاعة أهل الشام .

[٨ - مضر]

فصل منه : قال أبو الخطاب : لم يذكر الله جل وعز شيئاً من البلدان باسمه
في القرآن كما ذكر مضر ، حيث يقول : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِمِثْرَةٍ
أُكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ . وقال : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ
شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ وقال : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا
وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ وقال تعالى : ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ فِيهَا مَا سَأَلْتُمْ ﴾ وقال
في آية : ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾ .

وذكر مصر في القرآن بالكناية عن خاصة اسمها ، فمن ذلك : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي
الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ قالوا : هي مدينة منف ، وهو
موضع منزل فرعون .

وأخبرني شيخ من آل أبي طالب من ولد علي صحيح الخبر : منف دار
فرعون ، ودُرَّتْ في مجالسه ومثاويه وغرفته وصفافه ، فإذا كَلَهُ حجراً واحداً منقور ؛
فإن كانوا هَنَمَوْهُ وأحكموا بناؤه حتى صار في الملاسة واحداً لا يُسْتَبَانُ فيه تجمع
حجرين ، ولا مُلتقى صخرتين فهذا عَجَبٌ . ولئن كان جبلاً واحداً ، وَقَكَا
واحداً ، فنقرته الرجال بالمنافير حتى خرقت فيه تلك المخاريق ، إن هذا
لأعجب .

وفي القرآن : ﴿ قُلْنَا أَسْرَحِ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْتِيَ فِيهَا جَنُودٌ لِّمَلِكِكُمْ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خَيْرٌ لِّلْمَلَائِكَةِ ﴾ .

قال : والأرضُ ها هنا مصر . وفي هذا الموضع كلامٌ حسنٌ . ولكننا ندعُه مخافةً أن نخرج إلى غير الباب الذي ألقنا له هذا الكتاب .

قالوا : وسُمِّي اللهُ تعالى مَلِكُ مِصْرَ « العَزِيزُ » ، وهو صاحبُ يوسف ، وسُمِّيَ صاحبُ موسى « فِرْعَوْنُ » .

قالوا : وكان أصلُ عُتُوِّ فِرْعَوْنَ مُلْكُهُ الْعَظِيمَ ، ومملكتُه التي لا تُشبهها مملكة .

قالوا : ومنهم مريم بنت عمران وآسية بنت مُزاحم .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « سَيِّدَةُ نِسَاءِ الْعَالَمِ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ، وفاطمة بنتُ مُحَمَّدٍ ، ومريمُ بنتُ عمران ، وآسية بنتُ مُزاحم » .

قال : ولما هُمُ فِرْعَوْنُ بِقَتْلِ مُوسَى قَالَتْ آسِيَةُ : ﴿ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ وَقَالَتْ : وَكَيْفَ تَقْتُلُهُ ، وَاللَّهِ مَا يَعْرِفُ الْجَمْرَةَ مِنَ التَّمْرَةِ .

ومنهم الشُّحْرَةُ الَّذِينَ كَانُوا قَدْ أَبْرَأُوا عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ ، فَلَمَّا أَبْصَرُوا بِالْأَعْلَامِ ، وَأَيَقَنُوا بِالْبُرْهَانِ ، اسْتَبْصَرُوا وَتَابُوا تَوْبَةً مَا تَابَهَا مَاعِزُ بْنُ مَالِكٍ ، وَلَا أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ ، حَتَّى قَالُوا لِفِرْعَوْنَ : ﴿ اقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ، إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ﴾ .

وجاء في الحديث : « من أُخْرِبَ خَزَائِنَ اللَّهِ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ » . قالوا : خَزَائِنُ اللَّهِ هِيَ مِصْرُ ، أَمَا سَمِعْتُمْ قَوْلَ يَسُوفَ : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ﴾ ؟ .

وقال عبد الله بن عمرو : « البركة عَشْرُ بَرَكَاتٍ : تَسْعُ بِمِصْرَ وَالْوَاحِدَةُ فِي جَمِيعِ الْأَرْضِ » .

فصل منه : وقال أهل العراق : سألتنا بطريق خَرَشْنَةَ عن خُراجِ الرُّومِ ، فذكر مقداراً من المال ، وقال . هو كذا وكذا قِنْطَاراً . فنظر بعضُ الوزراءِ فإذا خراجُ مصرَ وَحَدَه يُضْعِفُ على خراجِ بلادِ الرومِ إذا جُمعتِ أبوابُ المالِ من البلادِ جميعاً .

فصل منه : ولا أعلمُ الفُرقةَ في المغربِ إلا أكثرَ من الفُرقةِ في المشرقِ ، إلا أنَّ أهلَ المغربِ إذا خرجوا لم يزيدوا على البِدعةِ والضَّلالةِ ، والخارجيُّ في المشرقِ لا يرضى بذلكَ حتَّى يجوزهَ إلى الكفرِ ، مثلُ المقتنعِ وشيخانِ والإصبهنيِّ وبابك ، وهذا الضُّربُ .

فصل منه : وقد علمنا لجماعةِ بني هاشمٍ طابعاً في وجوههم يستبينُ به كرمُ العتقِ وَكَرَمُ النُّجارِ ، وليس ذلكَ لغيرهم .

ولقد كادت الأهوازُ تُفسدُ هذا المعنى على هاشمِيَةِ الأهوازِ ، ولولا أنَّ اللهَ غالبٌ على أمره لقد كادت طمست على ذلكِ العتقِ ومَحَّتْ فتربُّتها خلافُ تربيةِ الرسولِ صلى الله عليه وسلم : وذلكَ أنَّ كلَّ من تخرَّقَ طُرُقَ المدينةِ وجدَّ رائحةً طيبةً ليست من الأراييحِ المعروفةِ الأسماءِ .

[٩ - الكوفة والبصرة]

فصل منه : قال زياد : الكوفةُ جاريةٌ جميلةٌ لا مالَ لها ، فهي تُحطَّبُ لجمالها ، والبصرةُ عَجوزٌ شوهاءٌ ذاتُ مالٍ فهي تُحطَّبُ لمالها .

فصل منه : والفراتُ خيرٌ من ماءِ النُّيلِ . وأما دجلةٌ فإنَّ ماءها يقطعُ شهوةَ الرُّجالِ . ويذهبُ بصهيلِ الخيلِ ، ولا يذهبُ بصهيلها إلا مع ذهابِ نشاطها ، ونقصانِ قواها ؛ وإن لم يتنَّسَّمِ النازلونَ عليها أصابهم قحورٌ في عظامهم ، وبسٌ في جلودهم .

وجميعُ العَرَبِ النَّازلينَ على شاطئِ دجلةٍ من بغدادِ إلى بلدِ لا يرعونُ الخيلَ

في الصيف على أواربها على شاطئ دجلة ، ولا يسقونها من مائها ، لما يخاف عليها من الصدام ، وغير ذلك من الآفات .

وأصحاب الخيل من العتاق والبراذين إنما يسقونها بسر من رأى ، مما احتضروها من كرابهم ، ولا يسقونها من ماء دجلة ؛ وذلك أن ماء دجلة مختلط . وليس هو ماء واحداً ، ينصب فيها من الزابن والنهروانات وماء الفرات ، وغير ذلك من المياه .

واختلاف الطعام إذا دخل جوف الانسان من ألوان الطبخ والإدام غير ضار ، وإن دخل جوف الإنسان من شراب مختلف كخمر الخمر والسكر ونبذ التمر والداذي كان ضاراً . وكذلك الماء ، لأنه متى أراد أن يتجرع جرعا من الماء الحار لصدره أو لغير ذلك ، فإن أعجله أمر فبرده بماء بارد ثم حساه ضره ذلك ، وإن تركه حتى يفترببرد الهواء لم يضره . وسبيل المشروب غير سبيل المأكول .

فإن كان هذا فضيلة ماثنا على ماء دجلة فما ظنك بفضله على ماء البصرة ، وهو ماء مختلط من ماء البحر ومن الماء المستقيم في أصول القصب والبردي ؟ قال الله تعالى : ﴿ هَذَا عَذْبٌ فَرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾

والفرات أعذبها عذوبةً ، وإنما اشتق الفرات لكل ماء عذب ، من فرات الكوفة .

فصل منه : كان يقال : الدنيا البصرة .

وقال الأحنف لأهل الكوفة : « نحن أغذى منكم بريئة ، وأكثر منكم بحرية ، وأبعد منكم سرية ، وأكثر منكم ذرية » .

وقال الخليل بن أحمد في وصف القصر المذكور بالبصرة :

رُزُّ وادي القصر نعم القصر والوادي لا بد من زورة عن غير ميعاد
تري بها السفن والظلمان واقفة والضب والنون والمسالخ والحادي

ومن أتى هذا القصر وأتى قصر أنس رأى أرضاً كالكاפור، وتربة ثرية، ورأى
ضباباً يُحترش ، وغزلاً يُقتنص ، وسمكاً يُصاد ، ما بين صاحب شيص وصاحب
شبكة ، ويسمع غناء ملاح على سُكايه ، وحداء جمالٍ على بعيره .

قالوا : وفي أعلى جبانة البصرة موضع يقال له الحزيز يذكر الناس أنهم لم
يرَوْا قطُّ هواءَ أعدل ، ولا نسيماً أرق ، ولا ماءً أطيب منها في ذلك الموضع .

وقال جعفر بن سليمان : « العراق عين الدنيا ، والبصرة عين العراق ،
والميربد عين البصرة ، وذاري عين الميربد » .

وقال أبو الحسن وأبو عبيدة : « بُصرت البصرة سنة أربع عشرة ، وكُوِّفت
الكوفة سنة سبع عشرة » .

فصل منه : زعم أهل الكوفة أن البصرة أسرع الأرض خراباً ، وأخبثها
ترباً ، وأبعدها من السماء وأسرعها غرقاً ، وتفيض مائها البحر ، ثم يخرج ذلك
إلى البحر الأعظم .

وكيف تغرق ، وهم لا يستطيعون أن يوصلوا ماء الفيض إلى جياضهم إلا
بعد أن يرتفع ذلك الماء في الهواء ثلاثين ذراعاً ، في كل سقاية بعينها ، لا
لحوض بعينه .

وهذه أرض بغداد في كل زيادة ماء ينبع الماء في أجواف قصورهم الشارعة
بعد إحكام المستنبات التي لا يقوى عليها إلا الملوك ، ثم يهدمون الدار التي على
دجلة فيكسّون بها تلك السكك ، ويتوقعون الغرق في كل ساعة .

قال : وهم يعيبون ماء البصرة ، وماء البصرة رقيق قد ذهب عنه الطين والرمل
المشوب بماء بغداد والكوفة ، لطول مقامه بالبطيحة ، وقد لآن وصفا ورق .

وإن قلت : إن الماء الجاري أمراً من الساكن ، فكيف يكون ساكناً مع
تلك الأمواج العظام والرياح العواصف ، والماء المنقلب من العلو إلى السفلى ؟
ومع هذا إنه إذا سار من تخرجه إلى ناحية المذار ونهر أبي الأسد وصائر الأتهار ،

وإذا بُعِدَ من مدخله إلى البصرة من الشَّقِّ القصير ، جَرَى منقُضاً إلى الصُّخُور
والحجارة ، فراسخ و فراسخ ، حتى ينتهي إلينا .

ويدلُّ على صلاح مائهم كثرة ثورهم ، وطولُ أعمارهم ، وحُسْنُ
عقولهم ، ورفقُ أكفهم ، وخذقهم لجميع الصناعات ، وتقدُّمهم في ذلك لجميع
الناس .

ويُستدلُّ على كرم طينهم ببياض كيزانهم وعذوبة الماء البائت في قلاهم ، وفي لون
أجرهم ، كأنما سُبِكَ من مَحِّ بيض . وإذا رأيت بناءهم وبياض الجص الأبيض
بين الأجر والأصفر لم تجد لذلك شبيهاً أقرب من الفضة بين تضاعيف الذهب .

فإذا كان زمان غلبية ماء البحر فإن مُستقاهم من العذب الزلال الصافي ،
النمير في الأبدان ، على أقل من فرسخ ، وربما كان أقل من ميل .

ونهر الكوفة الذي يسمونه إنما هو شعبة من أنهار الفرات ، وربما جفَّ حتى
لا يكون لهم مستقى إلا على رأس فرسخ ، وأكثر من ذلك ، حتى يحضروا الأبار
في بطون نهرهم ، وحتى يضر ذلك يحضروهم وأشجارهم . فلينظروا أيما أضره
وأيما أعيب .

وليس نهر من الأنهار التي تصبُّ في دجلة إلا هو أعظم وأكبر وأعرض من
موضع الجسر من نهر الكوفة ، وإنما جسره سبع سفائن ، لا تمرُّ عليه دابةً لأنها
جذوعٌ مقيدةٌ بلا طين ، وما يمشي عليه الماشي إلا بالجهد ، فما ظنك بالحوافر
والخفاف والأظلاف ؟ !

وعامة الكوفة خرابٌ يباب ، ومن بات فيها علم أنه في قرية من القرى .
ورُستاق من الرُستاق ، بما يسمُّ من صياح بنات آوى ، وضباح الثعالب ،
وأصوات السباع . وإنما الفرات دما إلى ما اتصل به إلى بلاد الرقة ، وفوق
ذلك .

فإنما نهرهم فالنيل أكبر منه ، وأكثر ماء ، وأدوم جرية

وقد تعلمون كثرة عديد أنهار البصرة ، وغلبة الماء ، وتطغى الأنهار .
وتبقى النخلة عشرين ومائة سنة وكثافتها قدح . وليس يُرى من قُرب القرية
التي يقال لها « النيل » إلى أقصى أنهار الكوفة نخلة طالت شيئاً إلا وهي معوجة
كالمنجل . ثم لم نر غارس نخيل قط في أطراف الأرض يرغب في فسيل كوفي ،
لعلمه بخبث مغرسه ، وسوء نشوه ، وفساد تربته ، ولؤم طبعه .

وليس للبيالي شهر رمضان في مسجدهم غصارة ولا بهاء ، وليس منار مساجدهم
على صور منار البصرة ، ولكن على صور منار الملكانية واليعقوبية .

ورأينا بها مسجداً خراباً تأويه الكلاب والسباع ، وهو يضاف إلى علي بن
أبي طالب ، رضوان الله عليه .

ولو كان بالبصرة بيت دخله علي بن أبي طالب ماراً لتمسحوا به وعمروه
بأنفسهم وأموالهم .

وخبرني من بات أنه لم ير كواكبها زاهرة قط ، وأنه لم يرها إلا ودونها
هبوة ، وكأن في مائهم مزاج دهن . وأسواقهم تشهد على أهلها بالفقر . وهم
أشد بغضاً لأهل البصرة من أهل البصرة لهم ، وأهل البصرة هم أحسن جواراً ،
وأقل بذخاً ، وأقل فخراً .

ثم العجب من أهل بغداد وميلهم معهم . وعيهم إيانا في استعمال
السماد في أرضنا ولنخلنا ، ونحن نراهم يُسمدون بقوهم بالعذرة اليابسة صرفاً ،
فإذا طلع وصار له ورق ذروا عليه من تلك العذرة اليابسة حتى يسكن في خلال
ذلك الورق .

ويسريد أحدهم أن يبني داراً فيجيء إلى مزبلة ، فيضرب منها لبناً ، فإن
كانت داره مطيئة ذات قعر حشا من تلك المزبلة التي لو وجدها أصحاب السماد
عندنا لباعوها بالأموال النفيسة .

ثم يسجرون تنانيرهم بالكساحات التي فيها من كل شيء ، وبالأبعار

والأختاء ، وكذلك مواقد الكيران .

وتمتلىء ركايا دورهم علبرة فلا يصيرون لها مكاناً ، فيحضرون لذلك في بيوتهم آباراً ، حتى ربما حفر أحدهم في مجلسه ، وفي أنبل موضع من داره . فليس ينبغي لمن كان كذلك أن يعيب البصريين بالتسميد .

فصل منه : وليس في الأرض بلدة أرفق بأهلها من بلدة لا يعز بها النقد ، وكل مبيع بها يمكن .

فالشامات وأشباهها الدينار والدرهم بها عزيزان ، والأشياء بها رخيصة لبعده المنقل ، وقلة عدد من يتتاع . ففي ما يخرج من أرضهم أبداً فضل عن حاجاتهم .

والأهواز ، وبغداد ، والعسكر ، يكثر فيها الدراهم ويعز فيها المبيع لكثرة عدد الناس وعدد الدراهم .

وبالبصرة الأثمان ممكنة والمتمنات ممكنة ، وكذلك الصناعات ، وأجور أصحاب الصناعات . وما ظنك ببلدة يدخلها في البادي من أيام الصرام إلى بعد ذلك بأشهر ، ما بين ألفي سفينة تمر أو أكثر في كل يوم ، لا بيت فيها سفينة واحدة ، فإن باتت فإنما صاحبها هو الذي يبيتها . لأنه لو كان حط في كل ألف رطل قيراطاً لانتسفت انتسافاً .

ولو أن رجلاً ابني داراً يتممها ويكملها ببغداد ، أو بالكوفة ، أو بالأهواز ، وفي موضع من هذه المواضع ، فبلغت نفقتها مائة ألف درهم ، فإن البصري إذا بنى مثلها بالبصرة لم ينفق خمسين ألفاً ، لأن الدار إنما يتم بناؤها بالطين واللبن ، وبالآجر والجص ، والأجذاع والساج والخشب ، والحديد والصناعات ، وكل هذا يمكن بالبصرة على الشطر مما يمكن في غيرها . وهذا معروف .

ولم نر بلدة قط تكون أسعارها ممكنة مع كثرة الجماعم بها إلا البصرة :

طعامهم أجود الطعام ، وسعرهم أرخص الأسعار ، وتمرهم أكثر التمور ، وزرع
ديبهم أكثر ، وعلى طول الزمان أضبر ، يبقى تمرهم الشهرين عشرين سنة ، ثم
بعد ذلك يخلط بغيره فيجيء له الدهس الكثير ، والعذب الحلو ، والخائر
القوي .

ومن يطعم من جميع أهل النخل أن يبيع فسيلة بسبعين ديناراً ، أو بثوثة
بمائة دينار ، أو جريباً بألف دينار غير أهل البصرة ؟

فصل منه : ولأهل البصرة المد والجزر على حساب منازل القمر لا يغادران من
ذلك شيئاً . يأتيهم الماء حتى يقف على أبوابهم ، فإن شاقوا أذنوا ، وإن شاقوا
حجبه .

ومن العجب لقوم يميون البصرة لقرب البحر والبطيحة ولو اجتهد أعلم
الناس وأنطق الناس أن يجمع في كتاب واحد منافع هذه البطيحة ، وهذه
الآجة ، لما قدر عليها .

قال زياد : قصة خير من نخلة .

ويحق أقول : لقد جهدت جهدي أن أجمع منافع القصب ومرافقه
وأجناسه ، وجميع تصرفه وما يجيء منه ، فما قدرت عليه حتى قطعتة وأنا معترف
بالعجز ، مستسلم له .

فأما بحرنا هذا فقد طم على كل بحر وأوفى عليه ، لأن كل بحر في
الأرض لم يجعل الله فيه من الخيرات شيئاً . إلا بحرنا هذا . الموصول ببحر الهند
إلى ما لا تذكر .

وأنت تسمع بملوحة ماء البحر ، وتستقطه وتزري عليه . والبحر هو
الذي يخلق الله تعالى منه الدر الذي بيعت الواحدة منه بخمسين ألف دينار ،
ويخلق في جوفه العنبر ، وقد تعرفون قدر العنبر . فشيء يولد هذين الجوهريين
كيف يحقر ؟ .

ولو أننا أخذنا خصال هذه الأجمة وما عظمنا من شأنها . فقدفنا بها في زاوية
من زوايا بحرنا هذا لفضلت حتى لا نجد لها جساً ، وهما لنا خالصان دونكم .
وليس يصل إليكم منها شيء إلا بسبينا وبعد أن فضل عنا .

وقال بعض خطبائنا : نحن أكرم بلاداً ، وأوسع سواداً ، وأكثر مساجاً
وعاجاً وديباجاً ، وأكثر خراجاً .

لأن خراج العراق مائة ألف ألف واثنا عشر ألف ألف ، وخراج البصرة
من ذلك ستون ألف ألف ، وخراج الكوفة خمسون ألف ألف .

[١٠ - الحيرة]

فصل منه : ورأيت الحيرة البيضاء وما جعلها الله بيضاء ، وما رأيت فيها
داراً يُذكر إلا دار عون النصرائي العباداني .

ورأيت التربة التي بينها وبين قصبة الكوفة ، ورأيت لون الأرض فإذا هو
أكهب كثير الحصى ، خشن المسن تقيت كقوتير طويج سوي

والحيرة أرض باردة في الشتاء ، وفي الصيف ينزعون ستور بيوتهم مخافة
إحراق السمائم لها .

هامش كتاب الاوطان والبلدان

(١) لاحظ اهتمام الجاحظ بتأثير البيئة على خلق الناس واخلاقهم ولفاتهم وعواطفهم وصناعاتهم . وهذا الاهتمام برره في اماكن عديدة من كتبه ورسائله ، مما يبين لنا منحاه الطبيعي في فلسفته .

- ام القرى هي مكة المكرمة . وقد اوضح معناها في الجملة التالية .

(٢) قال الاول : من الافضل قرامتها الاوائل . وقد ابدله في رسالة مناقب الترك بالعبدى حيث ورد : العبدى يقول وعمر الله البلدان بحب الاوطان . . . وابدله في رسالة الحنين الى الاوطان بعمر بن الخطاب .

- الغمق واللتق : الندى الذي يؤدي الى فساد الريح والايوثة .

- لاحظ كيف يفسر الجاحظ الحكمة من اختلاف الناس في ميولهم واعمالهم : لو اجمعوا كلهم على اختيار الشيء الواحد لوقع التغالب والتحارب بينهم . وقد اورد هذه الفكرة في اماكن أخرى من كتبه مثل حجج النبوة .

- العقل المولود وعقل التجارب اي العقل الغريزي الفطري الذي سماه الفلاسفة العقل الهولاني او بالقوة ؛ والعقل بالفعل المكتسب بالتجارب .

- ان حب الاوطان لا يقتصر بنظر الجاحظ على الانسان بل يتعداه الى الحيوانات ، فهي تألف المكان الذي تقيم به اكثر من الانسان .

(٣) الديانيين : القضاة الذين يحاسبون أنفسهم ، ولهذا انصرفوا عن الغزولما فيه من ظلم واغتصاب اموال وفروج . وقد فسرت خطأ في نسخة عبد السلام هارون اذ جعلت الديانيين نسبة الى الديانة .

- الفجار : موقعة جرت بين قريش وكنانة وهوازن قبيل البعثة . ذات الكهف :

معركة أخرى بين قريش وبعض القبائل قبل البعثة أيضاً .
 - البخيل طبع في بعض الناس لا يكتسب اكتساباً . وقد حاول اثبات هذه الفكرة
 في كتاب البخلاء ، عملاً بمذهبه الطبيعي القائل ان الاخلاق طباع .
 - يحبس الحيسة بالانطاع : يعجن التمر والسمن في الجلود .
 - دريد بن الصمة (٦٣٠م) وامية بن ابي الصلت (٦٢٦م) : شاعران جاهليان
 ادركا الاسلام ولم يسلمها ، كان دريد فارساً وكان امية تقياً اكثر من ذكر الأخرة .
 - عكاظ وذو المجاز سوقان كانا يقامان في الجاهلية فيقصدهما الناس من الانحاء
 للتجارة وانشاد الشعر .

- تعرف قريش : تسود اي تكون سيدة على العرب .
 (٤) الصواب ان نقرأ : وفتح مكة يسمى فتح الفتوح ، وفيها بيت الله . الخ لا كما
 ورد في طبعة عبد السلام هارون : وهو بيت الله .
 - هزيمة جبريل : اي ضربة رجل جبريل التي ادت الى شق الارض وتفجر الماء ،
 ماء زمزم في مكة .

- الطير الابابيل : كما ورد في القرآن ، التي تأتي جماعات .
 - اهله حمس ولقاح : أي اشداء لم يخضعوا للملوك .
 - لاحظ التفسير الطريف الذي اعطاه الجاحظ لكلمة عتيق من الآية ﴿ وليطوفوا
 بالبيت العتيق ﴾ .

(٥) قوله : « وهذا الشيء سمعته من ابي عبيدة ومنه استملت هذا المعنى » . دليل على
 ان الجاحظ أخذ عن ابي عبيدة الاخبار واللغة مباشرة . و ابو عبيدة معمر بن المثنى
 التيمي بالولاء (١١٠ - ٢١٠ هـ) عالم باخبار العرب وأيامها ولغتها .
 - لاحظ اعجاب الجاحظ بعلي بن ابي طالب وذكر مآثره في الشجاعة والفقه والزهد
 والكرم .

- وكان الحسن يقول : يعني علي الارجح الحسن البصري .
 - سليمان بن يسار من المدينة ، مولى ميمونة ، وكتب لام سلمة ، كان عابداً زاهداً
 ثقة في الحديث والفقہ ، توفي سنة ١٠٧ هـ .
 - اشارة الى كتابه « فضل هاشم على عبد شمس » .

(٦) الخوارج : فرقة من المسلمين خرجوا على علي بن ابي طالب بعد ان كانوا من شيعته
 فدعوا بهذا الاسم . وكفروه لأنه قبل بالتحكيم . وقاصوا بثورات عديدة في عهد
 علي وفي عهد الدولة الاموية وبعدها . وانقسموا فرقاً عديدة . وقد تحدث عنهم
 الجاحظ في اماكن عديدة من كتبه ، وعرفوا بشدتهم في الحروب وجوئهم الى العنف

على مدى تاريخهم .

- « وذلك كله مصور في كتيبي ، والحمد لله » . يشير الجاحظ الى كلامه على فروسية الخوارج وسيبها الذي هو العقيدة الدينية في كتبه ولا سيما في رسالة « مناقب الترك » .

(٧) المدينة تدعى ايضاً طيبة لطيب هوائها وروائحها .

(٨) ابو الخطاب : هو قتادة بن دعامة السدوسي البصري الاعمى (٦١ - ١١٧ هـ) كان نسابه وعالماً بالحديث والفقه .

- مسعر بن مالك : احد الصحابة ، زنى فاقر على نفسه لرسول الله وطلب حده فامر الرسول برجمه حتى مات .

- يشير الجاحظ الى انتشار البدع والفرق كما في المشرق ولكنهم في المغرب لا يلجأون الى العنف والثورة كما يفعلون في المشرق ويذكر امثلة على الذين يلجأون الى الثورات كالخوارج ، والمقنع الخراساني الذي ثار ايام المهدي واستمرت ثورته ١٤ عاماً حتى قتل سنة ١٦٣ هـ . وقد ذكره الجاحظ في كتاب البيان والتبين وغيره .

- وشيبان الخارجي الشكري الذي خرج ايام مروان بن محمد في عمان حتى قتل سنة ١٢٩ هـ .

- والاصهبذ الخراساني .

- بابك الخرمي ، ثار ايام المعتصم فخاربه وقبض عليه وصلبه سنة ٢٢٣ هـ .

(٩) الخليل بن احمد الفراهيدي عالم باللغة والموسيقى وهو الذي وضع علم العروض

وعلم الموسيقى ، وعلم المعاجم . وهو يصف قصر اوس بن ثعلبة بن زفر بن ربيعة والي خراسان من قبل الامويين .

- الملكانية : فرقة نصرانية ظهرت اثر مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ هـ . وسموا بذلك لانهم تبعوا مذهب ملك الروم وقالوا بطبيعة المسيح البشرية او الناسوت .

- اليعقوبية : فرقة نصرانية ثانية نسبوا الى رئيسهم مار يعقوب راهب القسطنطينية الذي قال بطبيعة المسيح الالهية . (انظر الشهرستاني ، الملل والنحل ، الجزء الثاني ، ص ٢٧ - ٣٣) .

(١٠) الخيرة : الخيرة موطن عون النصراني العبادي . اشارة الى تنصر العديد من اهلها .



[١ - مقدمة]

ثم إنا نُخبرون عن مقالة العُثمانية ، وبالله نستهدي وإياه نستعين ، وعليه نتوكل ، وما توفيقنا إلا به .

﴿ ٢ - اسلام أبي بكر أفضل من اسلام علي لأنه أتى عن تكليف

وامتحان]

قالت العثمانية أن أفضل هذه الأمة وأولها بالإمامة أبو بكر بن أبي قحافة ، وكان أول ما دهم عند أنفسهم على فضيلته وخاصّة منزلته وشيئة استحقاقه ، إسلامه على الوجه الذي لم يُسلم عليه أحد من عائله وفي عصره . وذلك أن الناس اختلفوا في أول الناس إسلاماً ، فقال قوم : أبو بكر بن أبي قحافة ، وقال آخرون : زيد بن حارثة ، وقال نفرٌ : خباب بن الارت .

على أنه إذا تفقدنا أخبارهم ، وأحصينا أحاديثهم وعدد رجالهم ، وانظرنا في صحّة أسانيدهم ، كان الخبر في تقديم أبي بكرٍ أعمّ ، ورجاله أكثر ، وإسناده أصحّ ، وهم بذلك أشهر ، واللفظ به أظهر ، مع الأشعار الصحيحة والأخبار المستفيضة في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته . وليس بين الأشعار وبين الأخبار فرقٌ إذا امتنع في جيئها وأصل مخرجها التباعد والانفلاق والتواطؤ ، ولكننا ندع هذا المذهب [جانباً] ، ونضرب عنه صفحاً ، اقتداراً على

الحجة ، وثقة بالفألج والقوة ، ونقتصر على أدق منازل أبي بكر ، وننزل على حكم الخصم مع سرفه وميطة فنقول :

لما وجدنا من يزعم أن خباباً وزيداً أسلما قبله فأوسط الأمور وأعدتها وأقربها من حجة الجميع ورضا المجادل أن نجعل إسلامهم كان معاً ، إذ ادَّعوا أن الأخبار في ذلك متكافئة ، والآثار متدافعة ، [وليس في الأشعار دلالة ، ولا في الأمثال حجة] ، ولم يجدوا إحدى القضيتين أولى في حجة العقل من الأخرى .

[٣ - اسلام علي أتى عن تربية وتأديب لأنه أسلم وهو صغير]

فصل : وقالوا : فإن قال قائل : فما بالكم لم تذكروا علياً في هذه الطبقة وقد تعلمون كثرة مقدميه والرواية فيه ؟

قلنا : لأننا قد علمنا بالوجه الصحيح ؛ والشهادة القائمة أنه أسلم وهو حدثٌ غريير ، وغلام صغير ، فلم نكذب الناقلين ، ولم نستطع أن ننزل أن إسلامه كان لاحقاً بإسلام البالغين ؛ لأن المقلل زعم أنه أسلم وهو ابن خمس سنين ، والمكثّر زعم أنه أسلم وهو ابن تسع سنين ، والقياس أن يؤخذ بأوسط الروايتين ، وبالأمر بين الأمرين ، وإنما تعرف [حق] ذلك من باطله بأن تُحصي سنيته التي ولي فيها ، وسني عثمان ، وسني عمر وسني أبي بكر ، وسني الهجرة ، ومقام النبي صلى الله عليه بمكة بعد أن دعا إلى الله وإلى رسالته إلى أن هاجر إلى المدينة ، ثم تنظر في أقاويل الناس في عمره ، وفي قول المقلل والمكثّر ، فتأخذ أوسطها وهو أعدلها ، وتطرح قول المقصر والغالي ، ثم تطرح ما حصل في يديك من أوسط ما روى من عمره [و] سنيته ، وسني عثمان وسني عمر وسني أبي بكر ، والهجرة ومقام النبي صلى الله عليه وسلم بمكة إلى وقت إسلامه ، فإذا فعلت ذلك وجدت الأمر على ما قلنا وعلى ما فسرنا .

وهذه التواريخ والأعمار معروفة لا يستطيع أحد جهلها والخلاف عليها ؛ لأن الذين نقلوا التاريخ لم يعتمدوا تفضيل بعض على بعض ، وليس يمكن ذلك

مع اختلاف عللهم وأسبابهم ، فإذا ثبت عندك بالذي أوضحنا وشرحنَا أنه كان يومئذ ابن سبع سنين أقل سنة أو أكثر سنة ، علمت بذلك أنه لو كان ايهاً ابن أكثر من ذلك بستين وثلاث وأربع لا يكون إسلامه إسلام المكلف العارف بفضيلة ما دخل فيه ، ونقصان ما خرج منه .

والتاريخُ المجتمع عليه أن علياً قُتِلَ سنة أربعين في شهر رمضان .

وقالوا : فإن قالوا فلعله وهو ابن سبع سنين وثمان سنين قد بلغ من فطنته وذكائه وصحة لُبِّه وصدق حسِّه وانكشاف العواقب له وإن لم يكن جربَ الأمور ، ولا فاتح الرجال ، ولا نازع الخصوم ، ما يعرف جميع ما يجب على البالغ معرفته والإقرار به .

[٤ - حكم الطباع هو الصحيح]

قلنا : إنما نتكلم على ظاهر الأحكام وما شاهدنا عليه طباع الأطفال .
وجدنا حكم ابن سبع سنين ، وثمان سنين وتسع سنين ، حيث قرأناه وبلغنا خبره - ما لم يُعلم مغيب أمره ، وخاصةً طباعه - حكم الأطفال ، وليس لنا أن نُزيلَ ظاهر حكمه والذي نعرف من شكله بلعل وعسى ؛ لأننا كنا لا ندري لعله قد كان ذا فضيلة في الفطنة ، فلعله أن يكون ذا نقص فيها . أجاب منهم بهذا الجواب من يجوز أن يكون عليٌّ في المغيب قد أسلم إسلام البالغ المختار ، غير أن الحكم فيه عنده على تجرئ أمثاله وأشكاله الذين إذا أسلموا وهم في مثل سنه كان إسلامهم على تربية الحاضن ، وتلقين القيم ، ورياضة السائس .

[• - لو عرف علي هذا التمييز لكان آية من آيات الله كعيسى وذكربا]

لصل : فأما علماء (العثمانية) ومتكلموهم ، وأهل القديم والرياسة منهم ، فإنهم قالوا : إن علياً لو كان وهو ابن ست سنين وسبع سنين ، وثمان سنين وتسع

سنين ، يعرف فضل ما بين الأنبياء والكهنة ، وفَرَّق ما بين الرسل والسحرة وفرق ما بين خبر المنجم والنبي ، وحتى يعرف الحجة من الخيلة ، وقهر الغلبة من قهر المعرفة، ويعرف كيد المريب وبعث غور المتنبئ ، وكيف يلبس على العقلاء ، ويستميل عقول الذمماء ، ويعرف الممكن في الطبائع من الممتنع فيها ، وما يحدث بالاتفاق وما يحدث بالأسباب ، ويعرف أقدار القوى في مبلغ الخيلة ومُنتهى البطش ، وما لا يحتمل إحداؤه إلا الخالق ، وما يجوز على الله مما لا يجوز في توحيدِه وعدله ، وكيف التحفظ من الهوى ، وكيف الاحتراس من تقدم الخادع في الخيلة - كان كونه بهذه الحال وعلى هذه الصفة مع فرط الصبا والحدائث ، وقلة التجارب والممارسة ، خروجاً من نشوء العادة ، والمعروف مما عليه تركيب الأمة . ولو كان على هذه الصفة ومعه هذه الخاصية ، كان حجة على العامة ، وآية تدل على المبانيئة . ولم يكن الله ليخصه بمثل هذه الآية ويمثل هذه الأعجوبة إلا وهو يريد أن يجتج بها له ، ويجبر بها عنه ، ويجعلها قاطعة لعذر الشاهد ، وحجة على الغائب ، ولا يضيعها هدرًا ، ولا يكتُمها باطلاً .

[٦ - لو عرف علي التميز المبكر لاحتج هو بهذه الآية ولذكرها القرآن

والأخبار]

ولو أراد الاحتجاج بها شهر أمرها وكشف قناعها، وحمل النفوس على معرفتها، وسخر اللسان لنقلها ، والأسماع لإدراكها ، لثلاً يكون لغواً ساقطاً ، ونسياً منسياً ، لأن الله لا يبتدع أعجوبة ولا يبتدع آية ولا ينقض العادة إلا للتعريف والإعذار ، والمصلحة والاستبصار . ولولا ذلك لم يكن لفعالها معنى ، ولا لرسالته حجة . والله يتعالى أن يترك الأمور سُدى ، والتدبير نَشراً . ولا يصل أحد إلى معرفة صدق نبي وكذب متنبئ حتى تجتمع له هذه المعارف التي ذكرنا ، وهذه الأسباب التي فصلنا .

ولولا أن الله سبحانه أخبر عن يحيى بن زكريا أنه آتاه الحكم صبياً ، وأنه أنطق عيسى في المهدي رضيعاً ، ما كانا في الحكم ولا في المغيب إلا كسائر الرسل ،

وما عليه طبع البشر

فإذ لم ينطق لعليّ بذلك قرآن ، ولا جاء الخبر به عجيء الحجّة القاطعة ،
والشهادة الصادقة ، فالمعلوم عندنا في الحكم وفي المغيّب جميعاً أن طباعه كطباع
عميه حمزة والعباس وهما أمس بمعدن جماع الخير منه ، وكطباع جعفر وعقيل
أخويه ، وكطباع أبويه ورجال عصره وسادة رهطه . ولو أن إنساناً ادّعى مثل
ذلك لأخيه جعفر أو لعمة حمزة أو لعمة العباس - وهو حلیم قريش - ما كان
عندنا في أمره إلاّ بمثل ما عندنا فيه .

فصل : ولو لم تعرف الروافض ومن ذهب مذهبها في هذا باطل هذه
الدعوى ، وفساد هذا المعنى إذا صدقت أنفسها ولم تقلد رجالها ، وتحفظت من
الموى وآثرت التقوى ، [إلاّ بترك] عليّ ذكر ذلك لنفسه والاحتجاج به على
خصمه وأهل دهره ، منذ نازع الرجال ، وخاصم الأكفاء ، وجامع أهل
الشورى ووليّ ووليّ عليه ، والناس بين معانيد يحتاج إلى التقرّيع ، ومُرَادٌ يحتاج
إلى الإرشاد ، ووليّ يحتاج إلى المسادة ، وغفل يحتاج إلى أن يُكثّر له من الحجّة ،
ويُتابع له بين الأمارات والدلالات مع حاجة القرن الثاني إلى معرفة الحق ومعدن
الأمر ، لأنّ الحجّة إذا لم تصحّ لعليّ في نفسه ، ولم يقو على أهل دهره ، فهي عن
ولده أعجز ، وعنهم أضعف .

ثم لم ينقل ناقل واحد أن علياً احتجّ بذلك في موقف ، ولا ذكره في
مجلس ، ولا قام به خطيباً ، ولا أدلى به واثقاً ، ولا همس به إلى موافق ، ولا
احتجّ به على مخالف .

فصل : وقد ذكر فضائله وفخر بقرابته وسابقته ، وكأثر بحاسنه ومواقفه ،
منذ جامع الشورى وناضلهم ، إلى أن ابتلي بمساورة معاوية له ، وطمعه فيه ،
وجلوس أكثر أصحاب رسول الله عن عونه ، والشّد على عضده ، كما قال عامر
الشّعبي : لقد وقعت الفتنة وبالمدينة عشرون ألفاً من أصحاب رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، ما خفّ فيها منهم عشرون . ومن زعم أنه شهد الجمل من

شهد بدماء أكثر من أربعة فقد كذب . كان علي وعُمارة في شِقِّ ، وطلحة والزبير في شِقِّ .

وكيف يجوز عليه ترك الاحتجاج على المخالف وتشجيع الموافق وقد نصب نفسه للخاصة والعمامة ، وللخاذل والعاذي ، ومن لا يحل له في دينه ترك الإعداء إليهم ، إذ اكان يرى أن قتلهم كان واجباً ، وقد نصبه الرسول مفرعاً ومعلماً ، ونص عليه قائماً ، وجعله للناس إماماً ، وأوجب طاعته ، وجعله حجة في الناس يقوم مقامه .

فصل : وأعجب من ذلك أنه لم يدع هذا له أحد في دهره كما لم يدعه لنفسه ، مع عظيم ما قالوا فيه في عسكره وبعد وفاته ، حتى يقول إنسان واحد إن الدليل على إمامته أن النبي صلى الله عليه وسلم دعاه إلى الإسلام ، فكلف التصديق قبل بلوغه وإدراكه ، ليكون ذلك آية له في عصره ، وحجة له ولولده على من بعده . وقد كان علي أعلم بالأمور من أن يدع ذكر أكبر حججه والذي بان به من شكله ، ويذكر أصغر حججه والذي يشاركه فيه غيره ، وقد كان في عسكره من لا يألو في الإفراط ، ومن يحسب أن الإفراط زيادة في القدر .

والعجب له ، إن كان الأمر كما ذكرتم ، كيف لم يقف يوم الجمل ويوم صفين أو يوم النهروان في موقف يكون من عدوه بمرأى ومسمع فيقول : « تبا لكم وتغساً ، كيف تقاتلونني وتبحدون فضلي وقد خصصتُ بآية حتى كنتُ كبحي بن زكريا وعيسى بن مريم ، ولا يمتنع الناس من أن يقولوا ويموجوا ؛ فإذا ماجوا تكلموا على أقدارِ عيولهم ، وعيولهم مختلفة ، ولا ينسب أمرهم أن يعود إلى فرقة ، فمن ذاكر قد كان ناسياً ، ومن نازع قد كان مُصيراً ، وكم مترنح قد كان غالطاً ، مع ما كان يشيع من الحجة في الأفاق ، ويستفيض في الأطراف ، ويمتله الركبان ويُتهادى في المجالس .

فهذا كان أشد على طلحة والزبير ، وعائشة ومعاوية ، وعبد الله بن وهب ، من مائة ألف سنانٍ طرير ، وسيف مشهور .

فصل : ومعلوم عند ذوي التجربة والعارفين بطبائع الأتباع ، وعمل الأجناد ، أن
المساكر تنتفض مرائرهما ويتشر أمرها ، وتنقلب على قاداتها بأيسر من هذه
الحجة ، وأخفى من هذه الشهادة .

فصل : وقد علمتم ما صنعت المصاحف في طبائع أصحاب علي ، حين
رفعها عمرو بن العاص أشد ما كان أصحاب علي استبصاراً في قتالهم ، ثم لم
يتنفض على علي من أصحابه إلا أهل الجِدِّ والنَّجْدَةِ ، وأصحاب البرانس
والبصيرة .

وكما علمتم من تحول شطر عسكر عبد الله بن وهب حين اعتزلوا مع فروة بن
نوفل ، لكلمة سمعوها من عبد الله بن وهب كانت تدلُّ عندهم على ضعف
الاستبصار والوهن في اليقين .

وهذا الباب أكثر من أن يحتاج مع ظهوره ومعرفة الناس به إلى أن نحسّوه
كتابنا .

فصل : فأما إسلامه وهو حديث غريب وغلّام صغير ، فهذا ما لا ندفعه ،
غير أنه إسلام تلقين وتأديب وتربية . وبين إسلام التكليف والامتحان وبين
التلقين والتربية فرق عظيم ، وعمجة واضحة .

وقالت (العثمانية) : إن قالت الشيع : إن الأمور ليس كما حكيتم ، ولا
كما هيأتموه لأنفسكم ، بل نزع أنه قد كانت هناك في أيام صباه وحدثته فضيلة
فطنة ، ومزية ذكاء ، ولم يبلغ الأمر قدر الأعجوبة والآية .

قلنا : إن الذي ذهبتم إليه أيضاً لا بد فيه من أحد وجهين :

إما أن يكون قد كان لا يزال يُوجد في الصبيان مثله في الفطنة والذكاء وإن
كان ذلك عزيزاً قليلاً ، أو كان وجود ذلك ممتنعاً ، ومن العادة خارجاً . فإذا كان
قد كان يُوجد مثله على عزته وقلته فما كان إلا كبعض من نرى اليوم ممن يُتعجب
من حسه وفطنته ، وحفظه وحكايته وسُرعة قبوله على صغر سنه وقلة تجريبه .

وإن كانت حاله هذه الحال ، وطبيعته على هذا المثال ، فإننا لم نجد صبيياً قط وإن أفرط كَيْسَه وحسنت فطنته وأعجب [به] أهله يحتمل ولاية الله سبحانه وعبادته ، والتَّمييز بين الأمور التي ذكرنا . مع أنه ما جاءنا ولا صحح عند أحد منا بخبر صادق ، ولا كتاب ناطق ، أنه كان لعلّ خاصةً دون قریش عامةً في صباه من إتقان الأمور وصحة المعارف وجودة المخارج ، ما لم يكن لأحد من إخوته وأعمامه وآبائه .

وإن كان القدر الذي كان عليه عليّ من الذكاء والمعرفة القدر الذي لم نجد له [فيه] مثلاً ، ولا رأينا له شِكْلاً - وهذا هو البديع الذي به يُحتج على المنكرين ، ويُفلج على المعارضين ، ويُبَيِّن للمسترشدين - فهذا باب قد فرغنا منه مرّة .

فصل : ولو كان الأمر في عليّ ما يقولون لكأن في ذلك حُجَّةً للرسول في رسالته ، ولعليّ في إمامته . والآية إذا كانت للرسول وخليفة الرسول كان أشهر لها ؛ لأن وضوح أمر الرسول يزيد على ما للإمام ويزيده إشراقاً واستنارة وبياناً . ولا يجوز أن يكون الله قد عرف أهل عصرهما ذلك ، وهم الشهداء على من بعدهم من القرون ثم يسقط حجته ؛ فلا تخلو تلك الحجة وتلك الشهادة من ضربين : إما أن تكون ضاعت وضلت ، وإما أن تكون قد قامت وظهرت .

فإن كانت قد ضاعت فعمل كثيراً من حُجَج الرسول صلى الله عليه وسلم قد ضاع معها ، وما جعل الباقي منها أولى بالتَّمام من السَّاقط ، والساقط من شكل الثابت . على أن مع الساقط خاصةً ليست مع الثابت ، لأنه حجة على شيئين ، والثابت حجة على شيء . ولا يخلو أمر السَّاقط من ضربين : إما أن يكون الله لم يُردِّ تمامه ، أو يكون قد أَرادَه .

وأبيّ ذبّ [كان] ففساده واضح عند قارىء الكتاب .

وإن كانت الآية قد نمت إذ كانت الشهادة قد قامت علينا بها كما كانت شهادة العيان قائمة عليهم [فيها] فليس في الأرض عثمانياً إلا وهو يكابر عدته

ولعمري إنا لنجد في الصبيان من لو لقتته وسدته أو كتبت له أغمض المعاني والطفها ، وأغوص الحجج وأبعدها ، وأكثرها لفظاً والطفها ، وأطولها ، ثم أخذته بدرسه وجفظه لحفظه جفظة عجبياً ، ولهذه هذاً ذليلاً . فأما معرفته صحيحة من سقيمه ، وحقه من باطله ، وفصل ما بين المقرب والدليل ، والاحتراس من حيث يؤق المخدوعون ، والتحفظ من مكر الخادعين ، وتأنى المجرب ، ورفق الساحر ، وخلافة المتنبي ، وزجر الكاهن ، وإخبار المنجمين ، وفرق ما بين نظم القرآن وتأليفه ونظم سائر الكلام وتأليفه - فليس يعرف فروق النظر واختلاف البحث ، إلا من عرف القصيدة من الراجز ، والمخمس من الأسجاع ، والمزاج من المشور ، والخطب من الرسائل ، وحتى يعرف العجز العارض الذي يجوز ارتفاعه من العجز الذي هو صفة في الذات .

فإذا عرف صنوف التأليف عرف مبادئ نظم القرآن لسائر الكلام ، ثم لم يكتب بذلك حتى يعرف عجزه وعجز أمثاله عن مثله ، وأن حكم البشر حكم واحد في العجز الطبيعي وإن تفاوتوا في العجز العارض . وهذا ما لا يوجد عند صبي ابن سبع سنين وثمان سنين وتسع سنين أبداً ، عرف ذلك عارف أو جهله جاهل . ولا يجوز أن يعرف عارف معنى الرسالة إلا بعد الفراغ من هذه الوجوه ، إلا أن يجعل جاعل التقليد والنشر والإلف لما عليه الأباء وتعظيم الكبراء ، معرفةً وقيناً . وليس يفتن ما اضطرب ودخله الخلاج عند ورود معاني لعل وعسى ، وما لا يمكن في العقول إلا بحجة تُخرج القلب إلى اليقين عن التجويز .

ولقد أعيانا أن نجد هذه المعرفة إلا في الخاص من الرجال وأهل الكمال في الأدب ، فكيف بالطفل الصغير والحديث الغرير ؟ ! مع أنك لو أدت معاني بعض ما وصفت لك على أذكي صبي في الأرض وأسرعه قبولاً وأحسبه حكايةً وبياناً ، وقد سويته [له] ودلته ، وقربته [منه] وكففته مؤونة الرؤية ووحشة

الفكرة ، لم يعرف قدره ولا فصل بين حقه وبساطه ، ولا فرق بين الدلالة وشيبه الدلالة ، فكيف له بأن يكون هو المتوحي لتجربته وحل عقده ، وتخليص متشابهه ، واستنارته من معدنه ؟

وكل كلام خرج من التعارف فهو رجيح بهرج ، ولغو ساقط .

فصل : وقد نجد الصبي الذكي يعرف من العروض وجهاً ، ومن النحو صدرأ ، ومن الفرائض أبواباً ، ومن الغناء أصواتاً ، فأما العلم بأصول الأديان ومخارج الملل ، وتأويل الدين ، والتحفظ من البدع ، وقيل ذلك الكلام في حجاج العقول ، والتعديل والتجويز ، والعلم بالأخبار وتقدير الأشكال فليس هذا موجوداً إلا عند العلماء . فأما الحشوة والطفام فلما هم أداة للقادة ، وجوارح للسادة . وإنما يعرف شدة الكلام في أصول الأديان من قد صلي به وعجمه ، وسلك في مضايقه ، وجائى الأضداد ، ونازع الأتقاء .

[٧ - أدلة الشيعة على قدم اسلام علي وفضله ورد العثمانية عليهم]

فإن قالت (الشيع) : الدليل على أن إسلام علي كان اختياراً ولم يكن تلقيناً ، أن علياً أسلم بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم له ، وفي ذكر الدعاء والإقرار به دليل على أن الإجابة اختيار ، لأن المسلم بالدعاء مجيب للدعاء . ولا نعلم الدعاء يكون من حكيم مدعو ولا يختار ولا تحتل فطرته تميز الأمور وفصل ما بين ما دعا إليه وبين ما دعا إليه غيره . وليس بين قول القائل : دعا النبي صلى الله عليه فلاناً إلى الإسلام وبين قوله : كلف النبي صلى الله عليه وسلم فلاناً الإسلام فرق . وقول المسلمين : دعا النبي صلى الله عليه وسلم علياً كقولهم : دعا جميع العرب فيمن مجيب طائع كعلي ، ومن ممنع عاص كفلان وفلان .

قالت (العثمانية) عند ذلك : قد عرفنا أن بعضهم قد نقل أن علياً كان أول من أسلم ، وقد نقلوا بأجمعهم أنه كان أول من أسلم . وبين قول القائل أسلم

فلان أول الناس وبين أن يقول أسلم في أوائل الناس فرق . فأمّا أن يكون واحداً من جميع الصنفين من البعض والجميع فسر مع روايته ومخرج خبره كيف كان إسلامه ، أعلى وجه الدعاء والتكليف أم على وجه التلقين والتربية ، فلم نر أحداً منهم ميز ذلك ولا فرقه في مخرج الخبر . ونحن لم ندع أن إسلامه كان إسلام تلقين من قبل تفسير الناقلين وتمييز المحدثين ، ولكننا نظرنا في التاريخ فعرفنا عمره وابن كم كان يوم توفى ، وعرفنا موضع اختلافهم واجتماعهم ، فأخذنا أوسطه إذ كان أعدل ما فيه ، وأسقطنا قول من كثر وقل ، ثم ألقينا منه سببه إلى عام إسلامه فوجدنا ذلك يوجب أنه كان ابن سبع . ولو أخذنا أيضاً بقول المكثّر فجعلناه ابن تسع ، وتركتنا قول من قل وقول المقتصد ، علمنا بذلك أيضاً أن إسلامه كان إسلام تربية وتاديب وتلقين ، كما أخذ الله على المسلمين أن يأخذوا به أولادهم .

وقالت (العثمانية) للعلوية : إنما لم ندرع أنه أسلم وهو ابن سبع وجدنا ذلك قائماً في خبرهم مقلداً في شهادتهم ، ولكنه علم مستنبط من أخبارهم ، ومستخرج من آثارهم عند المقابلة والموازنة . ومثل ذلك لو أن رجلاً قال لرجل : أخذ عشرة في عشرة ، كان ذلك في المعنى كقوله : « أخذ مائة » ، وإن لم يكن سماها له ولا ذكرها بلسانه .

وقالوا : ولولا أن من شأننا الأخذ بالقسط ، والحكم بالعدل لأخذنا الشيع بقولهم في عمره ويقول ولده ، فإن أحدهما يزعم أن علياً توفى وهو ابن سبع وخمسين . وقال الآخرون : بل توفى وهو ابن ثمان وخمسين . ولو كان كما تقول الرافضة وولده ما كان أسلم إلا وهو ابن خمس أو ابن ست ، وهم لا يألون ، ما نقصوا من عمره وصغروا من سنه لكي يجعلوا إسلامه آية له وحجة على إمامته .

ولعمري لو كان الذين نقلوا أنه كان أول من أسلم نقلوا مع خبرهم أنه أسلم بالدعاء والتكليف ، لقد كان ما ذهبتم إليه مذهباً ، وما اعتصمتم به

متعلقاً ، ولكن ما في الأرض كلها حامل خبر ولا صاحب أثر كان في خبره أنه أسلم بدعاء ، ولا أنه أسلم بتلقين ، وإنما هذا مستخرج من الأخبار .

فإن قالت (الروافض) : بل الدليل على أن إسلامه كان طاعة ولم يكن تلقيناً قول جميع الأمة إن علياً كان من أول من أسلم ، فنفس قولهم أسلم هو كقولهم أطاع واختار ، وكذلك قولهم إذا قالوا : كفر فلان ، فهو كقولهم : عصا واختار ، وإن لم يفسروا . وليس بين قولهم أسلم فلان وكفر فلان فرق ، لأن المخبر الصادق إذا قال كفر فلان فحكمه عند السامع العداوة والبراءة . ولو قال أسلم فلان كان حكمه المحبة والولاية : فإذا كانوا كلهم قد قالوا : أسلم علي ، وحكم « أسلم » يثبت الاختيار وإجابة الولاية ، قبل أن يجمعوا على أنه كان على التلقين والتربية ، فعلياً على هذا القياس مطيع في إسلامه ، مختار له على غيره . وكذلك لو قالوا : كفر فلان ، كان حكمه حكم العاصي المختار حتى يجمعوا أن كفره كان عن إكراه أو غلط أو هيج بيرة ، أو هجر النائم ، أو تلقين المؤذب . فلما كان هذا قياساً موجباً صحيحاً ، لم يكن لأحد أن يجعل إسلام علي إسلام تلقين إلا بمثل الحجة التي جعله بها مسلماً ، لأنهم قد أطبقوا بأجمعهم على إسلامه واختلفوا في السنة . فيجب ألا نزيل حكم « أسلم » إلا بإجماع منهم أنه كان عن تلقين وتربية .

قلنا لهم : لعمرى لو لم يكن ها هنا إجماع يُخبر أن إسلامه كان إسلام تلقين ونشو ، كان حكم قولهم أسلم علي على ما قلتم ، لا يُجحدون حكمه ولا تُظلمون معناكم فيه ، ولكن الذين قالوا إنه توفي وهو ابن كذا وكذا فأخذنا بأوسطها نقصوا من سنينه فإذا هو قد أسلم وهو ابن سبع سنين . ولو أخذنا بقول المكثرب بخسنا القياس حظه كان أيضاً إسلامه وهو ابن تسع سنين إسلام تلقين . فيهم عرفنا تقدمه في الإسلام ، وبهم عرفنا صغر سنه وحدائته ، إذ كان الصبي إذا كان ابن خمس سنين إلى عشر سنين لا يُستتاب إن كفر ، ولا يُلام إن جهل ، ولا يعذب إن ضيع . فإذا كانوا بأجمعهم قد قالوا إنه أسلم وهو ابن

خمسٍ أو ستٍ أو ثمانٍ أو سبعٍ ، فقد قالوا بأجمعهم إنه أسلمَ إسلامَ تلقينٍ وإن لم يقولوا بأفواههم ، كما قلتُم إن قول القائل كفر فلانٌ وأسلم فلان - وإن لم يذكره - [حكمٌ] بالطاعة والمعصية .

قلنا : فكذلك إذا قال رجلٌ أسلم فلانٌ وهو ابن سبع سنين أو ثمانٍ أو تسع ، فقد قال إن إسلامه كان إسلام تلقين وإن لم يذكره ولم يتفوه به كما قلتُم ، حَدُّو القُدَّةَ بالقُدَّةِ ، والنَّعلِ بالنَّعلِ . فإذا ثبت أن إسلامَ عليٍّ إسلامُ تلقينٍ في ذلك الدهر فإسلام زيدٍ وخبَّابٍ أفضلٌ من إسلامه . ولو أن علياً كان أيضاً بالغاً كان إسلامُ زيدٍ وخبَّابٍ أفضلٌ من إسلامه ، لأن إسلامَ المقتضِبِ الذي لم يُغذَّ به ولم يُعوِّده ولم يُمرَّنْ عليه ، أفضلٌ من إسلامِ الناشئِ الذي قد رَبَّى فيه ونشأ عليه وخبَّبَ إليه ؛ لأنَّ خبَّاباً وزيداً يعانِيان من الفكرِ ويتخلَّصان إلى أمور ، وصاحب التَّربية يبلغ حين يبلغ وقد أسقطَ إلفه عنه مؤونة الرويَّةِ ، والخِطَّارَ بالجهالةِ ، وقد أورثه الإلفُ السُّكونَ ، وكفاهُ اختلاجُ الشُّكِّ ، واضطرابُ النَّفسِ وجَوْلانُ القلبِ .

فصل : ولو كان عليٌّ أيضاً بالغاً وكان مقتضِباً كزيدٍ وخبَّابٍ لم يكن إسلامه ليبلغ قدر إسلامهما ، لأنَّ إسلام التَّربية يكفي مؤونتين : إحداهما الخِطَّار والتَّغْيِيرُ ، والأخرى شِدَّةُ فراقِ الإلفِ ومكابدة العادة ، ونزاع الطَّبِيعَةِ ، مع أن من كان بِحَضْرَةِ الأعلامِ وفي منزلِ الوحي ، وفي رحالِ الرُّسُلِ فالأعلامُ له أشدُّ انكشافاً ، والخواطرُ على قلبه أقلُّ اعتلاجاً . وعلى قَدْرِ الكُلْفَةِ في دَفْعِ الشُّبْهَةِ والإقرارِ بخلافِ الإلفِ والعادة ، والمخاطرةِ باعتقادِ الجهالةِ ، يعظُمُ الفُضْلُ ، ويكثُرُ الأجرُ .

[٨ - أسلم علي وهو يعلم أن له ظهراً بحميه]

ولو كان أيضاً عليٌّ أسلمَ بالغاً مدبركاً ، وكان مع إدراكه وبلوغه كهلاً ، وكان مع كهولته مُقتَضِباً كان إسلامُ زيدٍ وخبَّابٍ أفضلٌ من إسلامه ، لأنَّ مَنْ

أسلم وهو يعلم أن له ظهراً كابي طالب ، وردةا كيني هاشم ، وموضِعاً في بني عبد المطّاب ، ليس كالحليف ولا المولى ، والنزِيل والتّابع والعَسيْف ، وكالرّجل من عُرْطُض قريش وقاطِني مكة . [أ] وما علمت أن قريشاً خاصّة وأهل مكة عامّة لم يقدرُوا على أدّى النبي صلى الله عليه ما كان أبو طالب حياً قائماً ؟ ! ولقد منع أبو طالب أبا سلمة بن عبد الأسد المخزوميّ لأنه كان ابن أخيه ، فما قدّرت بنو مخزومٍ مع خيلائها وعُرامِ شبابها ، ومع عِزّها وشدة عداوتها أن تُخصّص منه شعرة ولا تُسمعه كلمة حتى مشت إليه بأجمعها ، لِلذّي ترى له في أنفسها ، فكان من قولهم له : هذا ابنُ أخيك قد فرّق جماعتنا وسفّه أحلامنا وشتم أهلتنا وقد منعتنا منا ، فما بال صاحبنا ؟ قال : من لم يمنع ابن أخته لم يمنع ابن أخيه !

فإذا كانت قريش وأهل مكة لا يقدرُونَ على ابن أخيه وابن أخته معه فهم عن ابنه أعجز ، وعنه أقعد ، وله أعمى ، وهو لا يينه أحضرٌ نصراً وأشدُّ غضباً ، وأحمى أنفياً ، وليس الممنوع كالمخدول ، ولا الضعيف كالقويّ ، ولا الأيمن كالحائف . فإذا كان إسلام زيد وخبّاب أفضل من إسلامه في ذلك الدهر كما عدّدنا من الطبّقات ، ورتبنا من المنازل ، ونزلنا من الحالات ، فإسلام أبي بكر أفضل من إسلامها ، فقد سقطت المنازعة ، وارتفعت الخصومة عند مَنْ فهم كتابنا ولم يمنع نفسه الحظّ بصحبتنا ، لفرط التّبائن وعظم الفرق .

[٩ - كان أبو بكر ذا ثراء وجاه فلم يخش عليها بينما لم يكن عليّ ذا مال

فيخشي عليه]

فصل : والدليل على أن إسلام أبي بكر كان أفضل من إسلام زيد وخبّاب أن زيدا كان رجلاً غير مذكور بعلم ، ولا مُزناً بمال ، ولا مغشي المجلس ، ولا مَرُور الرّحل ، وكذلك كان خبّاب . وكان أبو بكر رضي الله عنه أعلم العرب بالعرب كلّهم ، وأرواها لمناقبها ومثالبها ، وأعرفها بخيرها وشرّها ، ولذلك قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لحسان مع بنّ حسانٍ وعلمه وتحاكم الشعراء إليه ،

حيث أمره النبي عليه السلام أن يهجو أبا سفيان بن الحارث ، وحيث قال له :
« أَمْجُهُمْ وَمَعَكَ رُوحُ الْقُدْسِ » . وحيث قال له : هَيْجِ الْفَطَارِيفَ عَلَى بَنِي عَبْدِ
مَنَافٍ - فِي قَتْلِ أَبِي أَرْيَيْرٍ - وَالْقَى أَبَا بَكْرٍ فَإِنَّهُ أَعْلَمُ النَّاسَ بِهِمْ .

فصل : ولذلك كان جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ أَعْلَمَ قُرَيْشٍ بِالْعَرَبِ بَعْدَ أَبِي بَكْرٍ ،
لأنه كان المتولي لتأديبه وتثقيفه ، وقد كان أبو بكر قد سُمِّيَ عَائِشَةً ، للذي رأى
من حُسْنِ أثره عليه .

وكان أبو بكر ، مع علمه بالناس وحسن معرفته ، ذا مالٍ كثير ووجه
عريض ، وتجارة واسعة ، وكان جميلاً عتيقاً ، ومزوراً مغشياً ، ومحياً أديباً ،
صاحب ضيافات ، ويُعِينُ فِي الْحَمَالَاتِ ، ويجتمع إلى مجلسه كبراء أهل مكة ، لما
يُجِدُونَ عنده من طريف الحديث وغريب الشعر ، حتى كان مثل عُتْبَةَ وَمُشَيْبَةَ
يُجْلِسَانِ إِلَيْهِ ، وَيُعْجَبَانِ بِحَدِيثِهِ ، ثم يتخذ لهم ما يتحدثون عليه ويطول مجلسهم
به ، من شراب العسل والزبيب واللبن ، فكانت قريش بعد إسلام أبي بكر
وكثرة مستجبيه بمكة تريد تنفير عتبة بن ربيعة من مجلسه وإيجاشه منه ، مخافة أن
يستميله بحسن دعائه ، وتأثيره ورقيقته ، ورقة دموعه وشدة خشوعه فتقول له : أما
إنك ما تأتي ابنَ أبي قحافة إلا لطيب عسله ولألمذقته ، وإنما نفره بهذا وشبهه
لأنه كان ذا عيالٍ ثَمَلِقاً ثَقِيلَ الْمُؤُونَةَ ، خفيف ذات اليد ، مع بسنه وسؤدده وجليله
ورأيه .

ولا سواء إسلام ذِي الْبِرِّ وَالْمَالِ الدُّنْثَرِ ، المنفقِ حَرِيرَةَ كَسْبِهِ وَعَقِيلَةَ
بُلْكَهِ ، والمفرقِ عنه جمعُه والموجش منه أنيسه ، الخارج من عز الغنى وكثرة
الصديق ، إلى ذل القلة وعجز الفاقة ، وإسلام مَنْ لَا حَرَكَاتَ بِهِ وَلَا جَدَا عِنْدَهُ ،
تابع غير متبوع ، ومستجد غير مجتد ؛ لأن من أشد ما يُبْتَلَى بِهِ الْكَرِيمُ السُّبُّ بَعْدَ
التَّحِيَّةِ ، والضرب بعد الهية ، والعز بعد البر .

ولا سواء إسلام العالم الأديب الأريب ، ذِي الرَّأْيِ السَّدِيدِ ، وإسلام

غيره .

ثم كَانَ دَاعِيَةً من دَعَاةِ الرَّسُولِ مَقْبُولِ الْقَوْلِ ، مَتَّبِعِ الرَّأْيِ . وَمَنْ كَانَ فِي صِفَةِ أَبِي بَكْرٍ فَالْخَوْفُ عَلَيْهِ أَشَدَّ ، وَالْمَكْرَهُ إِلَيْهِ أَسْرَعُ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَلَى ظَهْرهَا عَدُوًّا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا وَأَبُو بَكْرٍ يَتْلُوهُ عِنْدَهُ فِي الْعِدَاوَةِ .

وَلَا سِوَاةَ إِسْلَامٍ مِنْ أَسْلَمَ عَلَى أَنْ يَمُوتَ وَيَكْلَفُ ، وَإِسْلَامٌ مِنْ كَانَ يُمَانٌ قَبْلَ إِسْلَامِهِ وَيَكْلَفُ بَعْدَ إِسْلَامِهِ .

وَلَا سِوَاةَ إِسْلَامِ الْكَهْلِ النَّبِيهِ الَّذِي يَحْسُنُ عِنْدَ قَرِيشٍ مَطَالِبَتَهُ ، وَلَا يَسْتَحْيُ مِنْ طَلَبِ الشَّارِ عِنْدَهُ ، وَإِسْلَامٌ الْحَدِيثِ الَّذِي لَا يَبْقَى بَعْدَاوَةَ الْجِلَّةِ ، وَلَا تَسْتَجِيزَ مَجَازَاتِهِ الْعَلِيَّةِ .

[١٠ - أَبُو بَكْرٍ تَحْمَلُ التَّنْكِيلَ فِي سَبِيلِ الْإِسْلَامِ بَيْنَمَا عَلِيٌّ وَادِعُ الْبَالِ]

ثُمَّ كَانَ الَّذِي يَلْقَى أَبُو بَكْرٍ فِي اللَّهِ وَرَسُولَهُ بِيَسْطَنَ مَكَّةَ ، وَعَلِيٌّ حَلِيَّ الرَّوْعِ ، آمِنَ السَّرْبِ رِخِيَّ الْبَالِ ، كَمَا لَقِيَ يَوْمَ دَعَا طَلْحَةَ إِلَى الْإِسْلَامِ فَأَسْلَمَ وَمَضَى بِهِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخَذَهَا تَمِيمٌ ، وَأَخَذَهَا نَوْفَلُ بْنُ خُوَيْلِدِ بْنِ أَسَدٍ - فَأَمَّا ابْنُ إِسْحَاقَ فَرَزَعَمَ أَنَّهُ كَانَ مِنْ شَيَاطِينِ قَرِيشٍ . وَأَمَّا الْوَاقِدِيُّ وَغَيْرُهُ فَرَزَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ يَلْقَبُ أَسَدَ قَرِيشٍ ، وَهُوَ الَّذِي يَقَالُ لَهُ ابْنُ الْعَدْوِيَّةِ - فَقَرَنُهَا فِي حَبْلِ ، وَفَتَنُهَا عَنْ دِينِهَا وَعَدُّبُهَا ، فَلِذَلِكَ سَمِيَ أَبُو بَكْرٍ وَطَلْحَةَ « الْقَرِينَيْنِ » .

وَأَبُو بَكْرٍ الَّذِي قَامَ دُونَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ وَقَدْ اعْتَوَرَهُ الْمُشْرِكُونَ حِينَ قَالَ : « أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالذُّبْحِ !! » قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَيَلَكُمْ ، أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ! فَصَدَعُوا فُودِي رَأْسِهِ .

ثُمَّ الَّذِي لَقِيَ فِي مَسْجِدِهِ الَّذِي كَانَ بِنَاءَ عَلَى بَابِهِ فِي بَنِي جَمَحٍ ، وَحَيْثُ رَدُّ الْجَوَارِ وَقَالَ : لَا أُرِيدُ جَارًا سِوَى اللَّهِ . وَقَدْ كَانَ بَنَى مَسْجِدًا يَصَلِّي فِيهِ وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَلَهُ صَوْتُ رَقِيقٍ وَوَجْهٌ عَتِيقٌ ، فَكَانَ إِذَا قَرَأَ

وبكى ، وقعت عليه المارة والنساء والصبيان والمبيد ، فلما أُوذِيَ في الله حتى بلغ
جُهدِه استأذَن النبي صلى الله عليه في الهجرة ، فأذن له ، فأقبل يريده المدينة
فتلقاه الكِنَانِيُّ سَيِّدَ الأحابيش ، فعقد له جواراً وقال : والله لا أدع مثلك يخرج
من بين أخشبي مكة . فرجع وقد عقد له الكِنَانِيُّ جواراً ، كل ذلك رغبة في
قُرب النبي صلى الله عليه ، فلما رجع إلى مكة عاد إلى مسجده وصنيعه ، فمشت
قريش إلى جاره وعظّموا الأمر عنده وأجلبوا عليه فقالوا : قد أفسد أحداثنا ،
وعبيدنا وإماءنا ونساءنا ، في منازلنا ! فمضى إليه الكِنَانِيُّ وقال : ليس على هذا
أعطيتك الجوار ، ادخل بيتك واصنع فيه ما بدا لك ا قال له أبو بكر : أو أريدُ
عليك جوارك وأرضي بجوار الله ؟ فلما قطع الجوار وتراذوا العهد وتباريا لقي أبو
بكر رضي الله عنه من الأذى والذُّل والضرب والاستخفاف ما بلفك ، وهو أمرٌ
موجود في جميع السِّير . وليس المفتون كالوادع ، قال الله سبحانه : ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ
من القتل ﴾ . وذلك أن المشركين كانوا قد صاروا إلى أن يفتنوا الناس عن دينهم
بالتعذيب ، والمسلمون نفر يسير ، قد خذلتهم عشائرتهم ، وأسلمتهم أهلهم ،
فألقوا خبأياً على الرُّضف حتى ذهب ماء منته . وكان أبو ذر حليفاً مستضعفاً
فكان يدخل بالنهار في خلال أشجار الكهبة ويخرج بالليل مستخفياً ، وكانت بنو
مخزوم تعذب عماراً وأباه وأمه برمضاء مكة ، فيمر بهم النبي صلى الله عليه
وسلم فيقول : « صبراً آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة ! » فذكر عمار عند ذلك
جياذ أبي بكر لبلال حين اعتقه من العذاب فيمن أعتق ، فقال :

جزى الله خيراً عن بلال ودينه . عتيقاً وأخزى فأكها وأبا جهل

وقال سعيد بن جبير: قلت لعبد الله بن عباس: أكان المشركون يبلغون من
أصحاب رسول الله صلى الله عليه من العذاب ما يُعذرون به في ترك دينهم ؟
قال : والله إن كانوا ليضربون أحدهم ويعطشونه حتى لا يقدر أن يستوي جالساً
من الجهد ، حتى إن كان أحدهم ليعطيهم الذي سألوه ، من الفتنة ، وحتى يقال
له : اللات والعزى إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم . وحتى إن جعل ليمرُّ

بهم فيقال له : هذا إهلك ؟ فيقول : نعم .

فلو كان عليُّ بن أبي طالبٍ قد ساوى أبا بكرٍ في الإسلام لقد كان فضله أبو بكرٍ بأن أعتق من المفدّين المفتونين بمكّة ، وحقّ [و] لم يكن غير ذلك لكان لحاقه عسيراً ، ولو كان ذلك يوماً واحداً لكان عظيماً ، فكيف وكان بين ظهور النبي عليه السلام ودعائه إلى أن هاجر إلى المدينة ثلاث عشرة سنة ، في كل ذلك أبو بكرٍ وخيَّابٌ وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يتجرعون المرارَ وعليٌّ وادعُ رافه ، غير طالبٍ ولا مطلوبٍ وليس أنه لم يكن في طباعه النجدة والشهامة ، وفي غريزته الدفّع والحماية ، ومن أكرم عنصرٍ وأطيب مغرِس ، ولكن لم تكن تُمت له أداته ، ولم تستجمع له قواه ولم تتكامل آدابه ، لأنّ العقل وإن اشتدَّ مغرزه وثبت أواخيه وجاد نحته فإنه لا يبلغ بنفسه ذرّك الغاية ، دون كثرة السماع والتجربة ، ولأنّ رجال الطلّب وأصحاب الشار وأهل السنّ والقدر يغمطون ذا الخدائنة ، ويؤزرون علي [ذي] الصبَا والغرارة إلى أن يلحق بالرجال ويصير من الأكفاء . حقّ كان آخر ما لقي هو وأهله في أمر النار ، وقد طلبته قريشٌ وجعلت فيه مائة بعير كما جعلت في النبي صلى الله عليه وسلم ، فلقي أبو جهل أسماء بنت أبي بكر - وهي ذات النطاقين - منصرّفاً من الغار ، فسألها فكتمه فلطمها ، فقالت أسماء : لقد لطمني لطمَةً أنذرتُ منها قرطاً كان في أذني .

[١١ - أبو بكر يدعو الناس إلى الإسلام فيستجاب له ويعتق العبيد]

فصل : ثم الذي كان من دعائه إلى الإسلام وحسن احتجاجه حتى أسلم على يديه طلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن وعثمان ، لأنه ساعة ما أسلم دعا إلى الله ورسوله ، وكان مألُفاً ، لأدبِهِ وعِلْمِهِ ورُحْبِ عَطْنِهِ .

وقالت أسماء : وما عرفتُ أبي إلا وهو يدين بالدين ، ولقد رجع إلينا يوم أسلم فدعانا إلى الإسلام فما رمنا حتى أسلمنا وأسلم أكثر جلسائه ، ولذلك قالوا : لئن أسلم بدعاء أبي بكرٍ أكثرُ ممن أسلم بالسيف . ولم يذهبوا من قولهم إلى العدد

بل عنوا الكثرة في القدر ، لأن من أسلم على يده خمسة من الشورى ، كلهم يفي بالخلافة ، وهم أكفاء علي ومنازعوه الرياسة والإمامة ، فقد أسلم على يده أكثر من أسلم بالسيف ، لأن هؤلاء أكثر من جميع الناس .

فصل : وممن أسلم على يده بلال ، وهو الذي يقول فيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « بلال سيدنا ومولى سيدنا » . ورووا أنه قال : « أبو بكر سيدنا واعتق سيدنا » وقال النبي صلى الله عليه وسلم : بلال سابق الحبش ، وبلال « مولى أبي بكر » ثلاث مرات . أسلم على يده فاعتقه من رِق الكفر ، واعتقه من رِق العذاب حيث كان يُفتن في الله ورسوله ، واعتقه من رِق العبودية .

وكان من قصة بلال أنه كان عبداً لبني جُمح وكانت دارُ أبي بكر ومسجده في حيِّ جُمح ، ولم يكن يبطن مكة مسجداً سواه ، فلما سمع دُعاء أبي بكر أسلم وحده فلما سمع أمية بن خلف فكان يخرجهم إذا حيت الظهيرة فيطرخه على ظهره ببطحاء مكة ، ثم يضع صخرة على صدره ، ثم يحلف بالله لا ينزعها عن صدره أو يكفر بمحمد وإلهه ويؤمن بالثلاث والعزى ! وبلال يابى وهو يقول : أحد أحد ! وكان يمرُّ به ورقة بن نوفل فيقول : نعم يا بلال ، أحد أحد ! فمرُّ به أبو بكر وهو يريد داره في بني جُمح ، فرأى أمية وما يصنع ببلال ، فقال : ألا تتقي الله ؟ إلى متى تعذب هذا المسكين ؟ ! قال : أنت أفسدته ! يعني أنت دعوته حتى أسلم - فأنقذه ! قال أبو بكر : عندي غلام أسود جلد ، على دينك ، أعطيكه وأخذه . فاعتقه . فهو عتيقه ثلاث مرات .

ثم اعتق بعد ذلك من المعتدين في الله ستُّ رقاب ، منهم عامر بن فهيرة ، شهد بدرًا وهاجر مع رسول الله عليه السلام وأبي بكر ، لأنه كان في موضع الثقة ، حيث خرجا إلى الغار هاربين من المشركين متوجهين إلى المدينة . واستشهد يوم بئر معونة .

واعتق زُبيرة ثلاث مرات ، فلما اشتراها واعتقها ذهب بصرها ، وكانت

تُعَذَّبُ فِي اللَّهِ فَيَمْنُ يُعَذَّبُ بِمَكَّةَ ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ : مَا أَذْهَبَ بَصَرَهَا إِلَّا اللَّاتُ
وَالْعُزَّىٰ ! قَالَتْ : كَذَبُوا مَا يُضْرَانِ وَلَا يَنْفَعَانِ ! فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهَا بَصَرَهَا . فَرَزَعَمَ
الزُّهْرِيُّ أَنَّ مَوْلَيْنِ لَابْنِ الْغَيْطَلَةِ أَسْلَمَا حِينَ رَدَّ اللَّهُ عَلَيْهَا بَصَرَهَا . وَقَالَا : هَذَا
بَلَاءُ شَلِكٍ مِنْ إِلَهٍ مُحَمَّدٍ وَابْنِ أَبِي قُحَافَةَ !

ثم أعتق النهدية وابتنتها وقد كانتا تعذبان في الله ، وكانتا لامرأة من بني
عبد الدار ، ومرَّ بهما أبو بكر وقد بعثت العبدية معها بطحين وهي تقول : والله
لا أعتقكما أبداً . قال أبو بكر : جلاً يا أم فلانٍ ؟ قالت : جلاً ! أنت أفسدتها
فأعتقها . قال : فبكأين هما يا أم فلانٍ ؟ قالت : بكذا وكذا . قال : فقد
أخذتُهما ، وهما حُرَّتَانِ ، أرجعا إليهما طحينها . قالت : أو تُفْرِغُ مِنْهُ يَا أبا بكرٍ ؟
قال : وذاك إن شئتُما .

ومرَّ بجارية بني مؤمل - حيٍّ من بني عدي بن كعب - وعمرُ بن الخطاب
يعذبها لترك الإسلام ، وهو يضربها فإذا ملَّ قال : اعتذر إليك إنِّي لم أتركك إلا
ملاة ! فابتاعها فأعتقها .

وأعتق أم عبيس .

فقال له أبو قحافة : أي بُنيُّ ، أراك تعيق رقاباً ضعافاً ، فلو أنك إذ فعلت
أعتقت رجلاً جُلداً منموك وقاموا دونك ؟ قال : يا أبتِ إنما أعتق المعدبين !
فأنزل الله : ﴿ أَمَا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى . وَصَلَّى بِالْحُسْنَى ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَا
لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى . إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى . وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ .
فتفهَّم معنى قوله : ﴿ وَمَا لَأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى . إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ
الْأَعْلَى ﴾ وتفهم معنى قوله : ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ .

[١٢ - أبو بكر أنفق ماله في سبيل الإسلام بينما لم يكن لعل مأل فينفقه]

وقد سمعت قول الله سبحانه حيث خاطب جماعة المسلمين وذكر الأموال
وعظم قدرها في عُيونهم ، وشدة إخراجها عليهم ، وأنه لو كلفهم ذلك لأخرجهم

يُثَقِّلُ التَّكْلِيفَ إِلَى غَايَةِ الْبُخْلِ بِهَا وَالشُّعْ عَلَيْهِمَا ، وَالْإِيثَارَ لِحِسْبِهَا فَقَالَ : ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَذَعُوا إِلَى السُّلْمِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرُكَكُمْ أَعْمَالَكُمْ . إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ ، وَإِنْ تُوْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ ﴾ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ . إِنْ يَسْأَلُكُمْ فِيهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَبُخْرَجَ أَصْفَانَكُمْ ﴾ . فَتَفَهُمُ مَعْنَى هَذَا الْكَلَامِ وَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يُنْزِلْهُ عَبَثًا . ثُمَّ قَالَ : ﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتَتَّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَتَّخِلُ وَمَنْ يَتَّخِلُ فَلِئِمَّا يَتَّخِلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ . أَلَا تَرَاهُ خَاطَبَ جَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ : ﴿ وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ إِنْ يَسْأَلُكُمْ فِيهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَبُخْرَجَ أَصْفَانَكُمْ ﴾ .

ثُمَّ قَدْ عَلِمْتُمْ مَا قَدْ صَنَعَ أَبُو بَكْرٍ بِمَالِهِ ، وَكَانَ الْمَالُ أَرْبَعِينَ أَلْفًا فَأَنْفَقَهُ عَلَى نَوَائِبِ الْإِسْلَامِ وَحَقُوقِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ مَالُهُ مِيرَاثًا لَمْ يَكُدْ فِيهِ فَهُوَ غَزِيرٌ لَا يَشْعُرُ بِعُسْرِ اجْتِمَاعِهِ وَامْتِنَاعِ رَجُوعِهِ ، وَلَا كَانَ هِبَةً مِلْكٍ فَيَكُونُ أَسْمَحَ لَطِيبَعَتِهِ وَأَخْرَقَ فِي إِنْفَاقِهِ ، بَلْ كَانَ ثَمَرَةً كَدَّهُ وَكَسَبَ جَوْلَاتِهِ وَتَعَرَّضَهُ . ثُمَّ لَمْ يَكُنْ خَفِيفَ الظُّهْرِ قَلِيلَ النُّسْلِ قَلِيلَ الْعِيَالِ ، فَيَكُونُ قَدْ جَمَعَ الْيَسَارِينَ ؛ [لِأَنَّ الْمَثَلَ الصَّحِيحَ السَّائِرَ : قَلَّةَ الْعِيَالِ أَحَدَ الْيَسَارِينَ] بَلْ كَانَ ذَلِ بْنِ وَبَنَاتٍ وَزَوْجَةٍ وَخَدَمٍ وَأَحْشَامٍ ، يَعُولُ مَعَ ذَلِكَ أَبَوَيْهِ وَمَا وَلَدًا ، وَلَمْ يَكُنْ فَتَى حَدَثًا فَتَهَزَّهُ أَرْبَعِيَّةُ الشُّبَابِ وَغَرَارَةُ الْحَدَاثَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ بِحَدَاثٍ إِنْفَاقَهُ طَمَعٌ يَدْعُوهُ ، وَلَا رَغْبَةٌ تَحْدُوهُ ، وَلَمْ يَكُنْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ ذَلِكَ عِنْدَهُ يَدٌ مَشْهُورَةٌ فَيَخَافُ الْعَارَ فِي تَرْكِ مَوَاسَاتِهِ وَإِنْفَاقِهِ عَلَيْهِ ، وَلَا كَانَ مِنْ رَهْطِهِ دُنْيَا فَيَسِبُّ بِتَرْكِ مَكَانَفَتِهِ وَمَعَاوَنَتِهِ وَإِرْفَاقِهِ . فَكَانَ [إِنْفَاقُهُ] عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي لَا نَجْدَ أَيْلَافَ فِي غَايَةِ الْفَضْلِ مِنْهُ ، وَلَا أَدْلُ عَلَى غَايَةِ الصُّدُقِ وَالْبَصِيرَةِ مِنْهُ .

وَقَدْ تَعْلَمُونَ مَا كَانَ يَلْقَى أَصْحَابُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِيَطْنِ مَكَّةَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وَقَدْ تَعْلَمُونَ حُسْنَ صَنِيعِ كَثِيرٍ مِنْهُمْ ، كَصَنِيعِ حَمْزَةَ حِينَ ضَرَبَ أَبَا جَهْلٍ بِقَوْسِهِ ، فَبَلَغَ فِي هَامَتِهِ ، فِي نَصْرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَبُو جَهْلٍ يَوْمَئِذٍ أَمْنَعُ الْبَطْحَاءِ ، وَهُوَ رَأْسُ الْكُفْرِ .

ثم صنيع عمر حيث يقول يوم أسلم : « والله لا يُعبَد الله سراً بعد اليوم ! » حتى قال بعد موته عبدُ الله بن مسعود : « ما صلينا ظاهرين حتى أسلم عمر » .

ثم كان الذي لقي في ذلك اليوم بعينه من المشركين ، ثم مضيه من فوره حتى يقرع على أبي جهل الباب ، فلما حَسَّ به أبو جهل خرج إليه وهو يقول : مرحباً بابن أختنا - وكانت أمه خنثمة بنت هاشم ذي الرُحَين ابن المغيرة - قال : أتدري ما صرتُ بعدك يا أبا الحكم ! قال : خير ، فليكن . قال : إنه خير ، إني آمنت بالله وبرسوله وخلعت الأنداد ، وجعلت اللات والعزى ، وصدقت محمداً . قال : فلا قُرب الله قرابتك !!

الأ ترى إلى قوة سهامته وجلده ، وصدق نيته في كشف القناع ، والمبادأة لرأس الكفر وسيد البطحاء عند نفسه ورهطه .

وقوله بعد ذلك لجميع المشركين : أما والله لو قد صرنا مائة لتركتموها لنا أو تركناها لكم - يعني مكة .

ثم صنيع [الزبير] في سلته السيف شاداً به مستقبل المشركين ، يريد خبط من لقيه منهم ، فتلقاء النبي صلى الله عليه مقبلاً فقال : مالك يا زبير ؟ ! قال : بآبي أنت وأمي ، سمعت قائلاً يقول : قد أخذ محمدٌ وأوذني ! فكان أول من شَهَرَ سيفاً في الإسلام .

ثم صنيع سعدٍ وضربه عظيماً من عظمائهم على أمِّ ربيعة بلحى بعير ، فكان أول من أراق دماً في الإسلام . وهو الذي يقول لرُسلِ عليٍّ حين أتوه يدعونه إلى بيعته : ثكلتني أمي ، لئن كنت مع رسول الله صلى الله عليه سادس ستة ما لنا طعامٌ إلا ورق البشام ، ثم جاءني أعرابُ الأوس تعلمني دين الله ؟ !

والنما ذكرت لك هذا لتعلم أقدارَ القوم والذي لُقوا من الجهد والخوف . والذل والتطراد والضرب . ولم نسمع لعليٍّ في جميع ذلك ذكراً .

ولم يكن ذلك المكروه سنة ولا ستين ، ولكن ثلاث عشرة سنة ، وهذا أمر لا يُلحق ولا يُدرِك الفاتت منه ، كما قال الله : ﴿ لا يَسْتَوِي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعدَّ الله الحسنى ﴾ .

فإذا كانَ مَنْ أنفقَ وقاتلَ قبلَ الفتحِ أعظمَ درجةً ، لأنَ النبيَ صلى اللهُ عليه وسلم قال : « لا هجرةَ بعدَ الفتحِ » ، فما ظنُّكَ بمن قاتلَ وأنفقَ قبلَ الهجرة . ومن لادن مبعثَ النبيِ صلى اللهُ عليه إلى الهجرةِ أعظمُ من القيامِ بأمرِ الإسلامِ بعدَ الهجرةِ ، [و] أفضلُ من القيامِ بأمرِ الإسلامِ بعدَ الفتحِ .

[١٣ - قتال علي في سبيل الإسلام لا يضارع احتمال أبي بكر]

فإن قالوا : قد عرفنا أن أبا بكرٍ قد أنفقَ قبلَ الهجرةِ ولا نعرفه قاتلَ قبلَ الهجرةِ ، فقتالُ عليٍّ بعدَ الهجرةِ أفضلُ من إنفاقِ أبي بكرٍ قبلَ الهجرةِ . قلنا : إن أبا بكرٍ وإن لم يقاتلَ قبلَ الهجرةِ فقد قُتِلَ مراراً وإن لم يمِتَ قبلَ الهجرةِ ، ولأنه لو جُمعَ جميعُ المكروهِ الذي لقيَ أبو بكرٍ ثلاثَ عشرةَ سنةً لكانَ أكثرَ من عشرينَ قتلةً .

ولو كانَ في ذلكَ الزمانِ القتالُ ممكناً والثوبُ مُطعماً لقاتلَ أبو بكرٍ ونهضَ كما نهضَ في الرِّدةِ . وإنما قاتلَ عليٌّ في الزمانِ الذي [قد] أقرنَ [فيه] أهلُ الإسلامِ لأهلَ الشركِ ، فطمعوا أن تكونَ الحربُ سجالاً ، وقد أعلمهم اللهُ أن العاقبةَ للمتقينَ ، وأبو بكرٍ مفتونٌ مفردٌ [ومطرودٌ مشردٌ ، ومضروبٌ معذبٌ] ، في الزمانِ الذي ليسَ بالإسلامِ وأهلهِ نهوضٌ ولا حركةٌ . ولذلك قال أبو بكرٍ بعدَ أن استفاضَ الإسلامَ وضربَ بجرانه وظهَرَ أمرُهُ : « طوبى لمن ماتَ في نأناةِ الإسلامِ » ، يقولُ : في أيامِ ضعفِهِ وقلتهِ ، حيثَ كانتِ الطاعةُ أعظمَ ، لفرطِ الاحتمالِ ، والبلاءُ أغلظَ ، لشدةِ الجهدِ ، لأنَّ الاحتمالَ كلما كانَ أشدَّ وأدومَ

كانت الطاعة أفضل ، والعمل فيه أقوى .

ولا سواء مفتونٌ مشردٌ لا حيلةٌ عنده ، ومضروبٌ معذبٌ لا انتصارَ به ولا دفعٌ عنده ، ومباطشٌ مقرنٌ [يشفي غيظه ويروي غليله ، وله مقدم يكتفه ويشجعه .

ولا سواءٌ مقهورٌ لا يُغاث ، ولم ينزل القرآنُ بعدُ بظفره ، وقد هتك اليأسُ لطلول ما لقيَ حجابَ قلبه ، ونقضَ قوى طمعه حتى بقي وليس معه إلا احتسابه ، ومقاتلٌ في عسكرٍ معه عزُّ الرجاء وقوةُ الطمع ، وطيبٌ نفس الأمل .

فليس لعلِّي موقفٌ من المواقف إلا ولاي بكرٍ أفضلُ منه إما في ذلك الموقف وإما في غيره . ولاي بكرٍ مواقفٌ لا يشركه فيها عليٌ ولا غيره .

وإنما محص عليٌ وامتحن من لدن يوم بدر إلى آخر غزوات النبي صلى الله عليه وسلم وبين المحنة في الدهر الذي كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيه مقرنين لأهل مكة ومشركي العرب ومعهم أهل يثرب أصحاب النخيل والأطام ، والإزب والإقدام ، والصبر والمواساة ، والإيثار والمحاماة ، والعدد الدثر والفعل الجزل ، وبين الدهر الذي كانوا فيه بمكة يفتنون ويشتمون ويضربون ويشردون ، ويجموعون ويعطشون ، مقهورين لا حراكَ بهم ، وإذلاء لا دفعٌ عندهم ، وفقراء لا مال لهم ، ومغيظين لا يمكنهم السفهاء ، ومستخفين لا يمكنهم اللقاء - فرقٌ بين .

ولقد كانوا في حالٍ أخرجت لوطاً - وهو نبيٌ ، والنبيُّ خيرٌ من جميع الناس - إلى أن قال لقومه حين لقي منهم ما لقي : **ذلو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركنٍ شديد** . [وقال النبي صلى الله عليه وآله : **عجبت من أخي لوط كيف قال : أو آوي إلى ركنٍ شديد**] وهو آوي إلى الله سبحانه !

ثم لم يكن ذلك يوماً ولا يومين ، ولا شهراً ولا شهرين ، ولا عاماً ولا عامين ، ولكن السنين بعد السنين .

وكان أغلظ القوم بحجة وأشدهم احتمالاً بعد رسول الله صلى الله عليه أبو بكر الصديق ، لأنه أقام ما أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجة ، وذلك ثلاث عشرة سنة . وإنما قلنا ذلك من أجل أن الناس اختلفوا في مقدار مبعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى هجرته ، فقال قائل : خمس عشرة سنة ، وقال آخرون : ثلاث عشرة سنة ، وقال قوم : عشر سنين ، فكان أعدل الأمور وأقسطها طرح الطرفين ، والأخذ بأوسط الروايات ، كما صنعنا في عمر علي بن أبي طالب ، حيث وجدنا ولده جعفر بن عميد [و] هو دونه ، يخبر أن علياً استشهد وهو ابن سبع وخمسين . وقالت (علماء الرافضة) : نحن أعلم به من ولده إلا الأئمة منهم . ولم يقل هذا القول إمام منهم قط ، ولكن علياً استشهد وهو ابن ثمان وخمسين سنة ، ثم روى الناس بعد أنه استشهد وهو ابن ثمان وخمسين سنة ، ثم روى الناس بعد أنه استشهد وهو ابن ستين وابن ثلاث وستين وابن أربع وستين ، أخذنا بأوسط ما قالوا فطرحنا سنيه وسني عمر وعثمان وأبي بكر والهجرة ومقام النبي صلى الله عليه وسلم بحجة ؛ فحصل العدد الذي أثبتناه في صدر ذكرنا القضية .

مركز تحقيقات كويت علوم إسلامي

[١٤ - صحبة أبي بكر في الغار ونوم علي في الفراش]

فإن قالوا: قد صنع علي بن أبي طالب رضي الله عنه بحجة أفضل من جميع ما ذكرتم ، ولقى أشد مما لقي أفضلهم ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم آتاه في مضجعه وعلى فراشه والمشركون يرصدونه ، وقد سقط إليهم أن النبي صلى الله عليه وسلم يريد المدينة ، فقد تحزموا واجتمعوا وقلبوا الرأي فرأوا أن يبيتوه على فراشه إن لم يظهر لهم . فقال لعلي : « تم على فراشي وتغش ببرد الحضرمي ، فإنهم إن رأوا حجتك فوق الفراش ودون البرد لم يستريحوا ، وخفي لهم أمري ، ولم يتبعوا أثري » . فنام علي على فراشه ينتظر وقع السيف ، ويتوقع رضخ الحجارة ، باذلاً نفسه مصطبراً . وليس فوق بذل النفس درجة يلتمسها

صابر ، ولا يبلغها طالب .

وإن كان أبو بكر قد أحسن في خروجه وهجرته وصحبته ، وهربه مع النبي صلى الله عليه وسلم ، واستخفائه في الغار ، فإن ذلك لن يبلغ من الاحتمال والخطار والخوف ، قدر ما كان فيه علي رضي الله عنه ، لأن طمع النجاة في أحدهما أقوى ، والنفس له أرجى .

قيل لهم : لو كان الأمر كما تقولون في هذين الخوفين لم يقم صرف ما بينهما بقدر عشر ما لقي أبو بكر من جميع ما وصفنا وما صنع أبو بكر في ثلاث عشرة سنة ، من كثرة الإنفاق ، وإيثار الفقر على الغنى ، والوحدة على الأنسة ، والهوان بعد الكرامة ، والخوف بعد الأمن ، والضرب والافتتان بعد الإكرام والتعظيم ، مع عتق المعتذبين وكثرة المستجيبين ، ومع صرف وزن ما بين الطاعتين ؛ لأن طاعة الشاب الغرير أو الحدث الصغير ، الذي في عجز صاحبه عزه ، ليس كطاعة الحكيم المحتك الأريب ، الذي لا يرجع تسويله لمن سوده [و] إلى رهطه .

وفرق آخر : أن أمر الغار وقصة أبي بكر وصحبته مع النبي صلى الله عليه وسلم وكونه معه فيه ، نطق [به] القرآن وضح به الإجماع ، كالصلوات الخمس ، والزكاة المفروضة ، والغسل من الجنابة ، حتى إن من أنكر ذلك عند الأمة مجنون أو كافر . وأمر علي ونومه على الفراش إنما جاء مجيء الحديث ، وكما تجمي روايات السير وأشعارها . وهذا لا يوازن ذا ولا يكايله .

وأول مراتب العالم أن يعرف المعارضة والمقابلة ، والمنقوص والمتساوي .

ولو أن رجلاً من أوساط الناس أظهر شكاً في قصة علي ومبيته ، وقال : قد سمعت ذلك ولعلّه ، ولكنني مشفقٌ للذي أعرف من أكاذيب الشيع ، وتوليدهم لعلّ السير ، لم يكن عليه بأس من الإمام .

ولو قال رجلٌ لك ، وهو رجلٌ من أوساط الناس : والله ما أدري والله ، لعلّ الله إنما عني بقوله : « ثاني اثنين إذ هما في الغار » علي بن أبي طالب ، لوجد

عند الإمام غاية النكير .

و فرق آخر : أنه لو كان مبيت عليّ على فراش النبي صلى الله عليه وسلم جاء مجيء كوني أبي بكر في الغار مع النبي ، لم يكن في ذلك كبير طاعة ، فضلاً عن أن يساوي أبا بكر أو يبرز عليه ، لأن الذين نقلوا - كاذبين كانوا أو صادقين - أن النبي صلى الله عليه وسلم أبات علياً على فراشه ، هم الذين نقلوا أن النبي عليه السلام قال : « تَغشُّ بُردي ، ونم في مضجعي ، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه » ؛ وهكذا لفظ هذا الحديث ، لا يشك في ذلك أحد . ولم يُنقل إلينا أن النبي صلى الله عليه قال لأبي بكر : أنفق واحتمل ، ولن تعطب ولن يصل إليك مكروه .

[١٥ - فروسية علي ليست أفضل من رباطة جأش أبي بكر وحزمه في مواجهة المعضلات]

فإن قالوا : إن علياً وإن كان حدثاً - كما تزعمون - أيام مكة فإنه قد لحق السابق له ثم برز عليه بصنيعه يوم بدرٍ وأحد والخندق ، ويوم خيبر ، وفي حروب النبي صلى الله عليه وسلم ، إلى أن قبضه الله سبحانه إلى جنبه ، فجمع أمرين : كثرة التعرض للمنايا ، وعظم الغناء بقتل الأقران والفرسان ، والقادة والسادة ، لأن من له من قتل الأنجاد والأجناد ما ليس لغيره ، فله من التعرض والاحتمال والصبر والاحتساب ما ليس لغيره .

قلنا : إن كثرة القتل وكثرة المشي بالسيف لو كان أشد المحن وأعظم الغناء ، وأدل على الرياسة ، كان ينبغي أن يكون لعليّ والزبير ، وأبي دجانة ، ومحمد بن مسلمة ، وابن عقرء ، والبراء بن مالك من عظم الغناء واحتمال المكروه بالقدر العظيم ما ليس للنبي صلى الله عليه وسلم ، لأن النبي لم يقتل بيده إلا رجلاً واحداً ، وقد علمنا أنه لس أحد أشد احتمالاً ولا أعظم غناء ، ولا أظهر فضلاً منه صلى الله عليه .

وقد نجد الرجل يقتل الأقران والفرسان وهو لا يستطيع أن يرفع طرفه في ذلك العسكر إلى رجلٍ آخر ليس فيه من قتل الأقران قليلٌ ولا كثيرٌ ، لمعانٍ هي عندهم أكثر من مشي ذلك المقاتل بسيفه ، وقتله لقرنه .

وإذا ثبت أن رئيس العسكر وأشباهه قد نبتت لهم الرياسة واستحقوا التقديم بغير التقدم والمباشرة ، ثبت أن قتل الأقران ليس بدليلٍ على الفضيلة والرياسة . أو ما تعلم أن مع الرئيس من الاكتراث والاهتمام وشغل البال ، والعناية والتفقد ، ما ليس لغيره ، لأنه المخصوص بالمطالبة ، وعليه مدار الأمر ، وبه يستنصر المقاتل وباسمه ينهزم العدو ، وبتبعيته ورايته ومعرفته يُقل الحُد ، ولأن اختيار الحكيم دليل على احتمال طبيعته واستقلال نفسه ، ولأن فرته أو هودته أعظم في المائم والعار من عودة غيره وفرة غيره . [و] لو لم يكن من بليته وشدة ما محص به إلا أن القوم لو ضيعوا جميعاً وحفظ ما أضيفت الهزيمة إلا إليه ، ولا كان المطلوب غيره ، ولا كان الدليل المهان غيره . ولهذا وأشباهه يكون الرئيس أعظم عناء ، وأشد احتمالاً ، لأنك [لو] قذفت فضل صبر المقاتل الواحد في حصاله لم تجد له الثأر ولم تحس له حدكناً .

واعلم أن المشي إلى القرن بالسيف ليس هو على ما يتوهمه الغمر من الشدة والفضل وإن كان شديداً فاضلاً . ولو كان كما يظنون ويتوهمون ما انقادت النفس ولا استصحبت للقتال ، لأن النفس المستطيمة المختارة التي قتالها طاعة وفرارها معصية قد عدلت كالميزان في استقامة لسانه وكفتيه ، فإذا لم يكن بحذاء سيفه إلى السيف ومكروه ما يأتي به ، ما يُعادله ويُوازنه لم يمكن النفس أن تختار الإقدام على الكف ، ولكن معاً في وقت مشيه إلى القرن أمور تنفحه مشجعة ، وإن لم يُبصرها الناس وقصوا على ظاهر ما أبصروا من إقدام . والسبب المشجع ربما كان الغضب ، وربما كان الشراب ، وربما كان الفرارة والحداثة ، وربما كان الإحراج ، وربما كان الغيرة ، وربما كان الحميدة وحب الأحدوثة ، وربما كان طباعاً كطباع القاسي والرحيم ، والسخي والبخيل ، والجزوع من وقع السوط

والصُّبور ، وربما كان السَّببُ الدِّين ، ولكن لا يُبلغُ الرَّجُلُ بِقُوَّةِ الدِّينِ في قلبه ما لم يشيِّعه بعضُ ما ذكرناه أن يمضي إلى السَّيفِ ؛ لأنَّ الدِّينَ مكتسبٌ مجتَلَبٌ ، وليس بأصليٍّ ولا طبعيٍّ ، ولأنَّ ثوابه مؤجَّلٌ ، والخصال التي ذكرناها طبعيةٌ أصليَّةٌ ، وثوابها معجَّلٌ .

وقد يكون مع الإنسان أسبابٌ محدِّرةٌ مجبئةٌ ، فيكون رُكُونُهُ وجُلُوسُهُ طبعاً لا يمتنع منه . وربما كانت الأسبابُ من المشجِّعات والمجبناتِ سواءً ، فيكون جلُوسُهُ عن الحربِ وقتالِهِ فيها اختياراً . وربما فضلتُ قُوَّةُ مشجِّعاته حتَّى يكون إقدامُهُ أشراً ومرحاً ، واهتزازاً وطبعاً ، ولا يكون ذلك طاعةً وإن كان في الحكم طاعةً . وكذلك الجبن إذا أفرط على صاحبه حتَّى يكون فراره طبعاً لا يكون معصيةً وإن كان في الحكم معصيةً .

ولم نردِّ بهذا الكلام تنقُصَ عليَّ رحمه الله ولا إخراجَهُ من الغناء واحتمالِ المكروه ، كما لم نردِّ تنقُصَ الزُّبيرَ وأبي ذُجَّانَةَ وابنَ عَفْرَاءَ ومحمدَ بنَ مسلمة ، ولكن هكذا صفةُ المستطيعِ المكلفِ ، والمطيعِ والعاصي .

وإذا كان مع صاحبِ الإقدامِ من الأمورِ المشجِّعةِ أمورٌ فاضلةٌ على أسبابِ جُبْنِهِ وجُلُوسِهِ ، كان عندَ الله غيرَ مأجورٍ وإن كان في الحكم الظاهرِ مأجوراً .

وإن كانت الأسبابُ المشجِّعةُ في وزنِ الأسبابِ المَجْبِئَةِ كان مطيعاً ولم يكن حيثُ وضعه القومُ ، لأنهم توهموا مع مشيِّه بالسَّيفِ إلى القرنِ احتمالِ المكروهِ كُلِّهِ ، ورَفَعُوا من أوهامهم الأسبابَ التي لولاها لم يمكنه المشيُّ إلى القرنِ بالسَّيفِ .

121
ووجه آخر : أن علياً لو كان كما يقول شيعته ، ما كان له بكثرة المشيِّ إلى القرنِ بالسَّيفِ وبقتله له كثيرٌ طاعةً ، ولا احتمالِ مشقةً ؛ لأنَّ الشَّيعةَ [تزعم] أن رسولَ الله صلى الله عليه قال لعليٍّ : « إنك ستقاتل من بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين » . والناكثون : طلحة والزُّبيرُ وأصحابهما ، والقاسطون معاوية وأصحابه ، والمارقون : عبد الله بن وهب وأصحابه .

فإن كانوا قد [صدقوا وما] كذبوا فما عسى أن يبلغ من احتمال من هو من البقاء والسلامة على ثقة . فالزبير وطلحة وأبو دجانة لأنهم يقدمون والمنايا شائعة وهم يرجون ويخافون ، وعليّ على ثقة من أمره ، ويقين من بقاءه وسلامته . إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقل هذا القول إلا قبيل وفاته . ولا سبيل لهم إلى علم ذلك . فيقال لهم : فكذلك خصومكم يمكنهم أن يقولوا لكم : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال هذه الكلمة بغير إسلامه ، وإذا لم يكن في قولكم إن النبي صلى الله عليه وسلم قالها له قبيل وفاته دليل ، ولا في قول خصومكم إن النبي صلى الله عليه وسلم قالها بغير إسلامه دليل ، فأعدل الأمور وأنصفها بينكم وبينهم أن تجعلوا الخبر في النصف مما بين إسلامه إلى وفاة النبي صلى الله عليه وسلم . فإذا كان ذلك كذلك فقد صار الزبير وطلحة وأبو دجانة ومحمد بن مسلمة وابن عفرأ أفضل منه ، لأن الفضل في احتمال المكروه .

وقد لزمكم أن تزعموا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال هذا الكلام لعليّ قبل وقعة بدر ، وأنتم إنما تفخرون بوقعة بدر وقتاله بعد ذلك ، فما عسى يبلغ من قتال رجل قد وثق بالسلامة والبقاء إلى أن يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بدهر .

فإذا كان رئيس الجيش أعظم غناءً وأشدُّ احتمالاً ، للذي وصفنا ، فأشبهه القوم حالاً به أعظم غناءً وأشدُّهم احتمالاً ، على قياس في الرئيس والكثير المشي بالسيف ولا أحد أشبه بالرئيس ممن اختاره الرئيس وزيراً وصاحباً ، ومكانياً ومعيّناً ، لأن الرجل إذا كان في رأي العين صاحب أمر الرئيس والمتولي على الخاصة والقربة منه في ظعنه ومقامه ، وخلواته ، وهربه واستخفائه ، وكان هو المبتدئ بالكلام عنده ، والمفرغ في الحوائج بعده والثاني في الدعاء إلى الله ودينه ، ولا نعلم هذه الخصال اجتمعت في غير أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، لأنه صاحب في كتاب الله سبحانه ، قال الله عز وجل : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ ؛ فسماه الله صاحبياً في كتابه ثم سماه النبي صلى الله عليه وسلم صديقاً

من بين خلق الله ، حتى غلب على اسمه واسم أبيه ولقبه ونسبه ، حتى كان
الناس أيام رسول الله وبعد وفاته يقولون : قال عليُّ وفعل عليُّ ، وقال عثمانُ
وفعل عثمان ، وقال عمرُ وفعل عمر ، وقال طلحةُ وفعل طلحة ، وقال الزبيرُ
وفعل ، وجميع العشرة الذين هم في الجنة ، حتى إذا صاروا إليه قالوا : قال
الصديق وقال أبو بكر الصديق ، وفعل أبو بكر الصديق . ثم قول النبي صلى
الله عليه وسلم فيه ، وهو القول الذي كان يُعيده في كل دارٍ ومنزل : « ما أحدٌ
أمنٌ علينا بصحبته وماله من أبي بكر » وفي قوله : « ما أحدٌ أمنٌ علينا بصحبته
وماله من أبي بكر » معانٍ كثيرة ، فهمه الناس أم ذهبوا عنه . فهذا هذا .

ثم كان النبي عليه السلام بمكة ثلاث عشرة سنة ، في كل يوم ذرُّ شارقه
يأتي منزل أبي بكر إما صباحاً وإما مساءً ، حتى كان اليوم الذي أذن الله سبحانه
له في الهجرة . وإنه أتاه مهجراً فقال له أبو بكر : بأبي أنت وأمي ، كيف جئت
اليوم في هذا الوقت ؟ ! ونزل عن سريره وجلس النبي صلى الله عليه وسلم
وجلس أبو بكر بين يديه ، قال النبي : هل عندك أحد ؟ قال : لا ، يا
رسول الله ، إلا أسماء وعائشة . قال : فإن ربي قد أذن لي في الهجرة . فسان
صحبته من خلق الله غيره . ثم لم يعلم بخروجه غير ابنته أسماء وعائشة ، وغير
ابنه عبد الله ابن أبي بكر قتيل يوم الطائف ، وكان هو الذي يتجسس لها الأخبار
ويأتي بها إليهما في الغار ، لأنها استخفيا في الغار ثلاثاً ولم يُطليعا على أمرهما غير
عامر بن فهيرة مولى أبي بكر ، بدرى استشهد يوم بدر معونة ، فإنه كان يؤنسهما
ويحدثهما ويخدمهما في تلك السفرة كلها . وكانت أسماء هي التي تأتيهم بأقواتهم في
الغار ، فكان صاحبه في الغار ، وبمكة في طريقه إلى المدينة ، وعلى ظهره ركب
النبي صلى الله عليه وسلم ، والنقائي أجيره ، وعمار بن فهيرة خادم النبي صلى
الله عليه ومؤنسه عتيقه ثلاث مرات ومولاه ، والظهر ظهرة ، والمؤونة مؤونته ،
وصحبة النبي صلى الله عليه وسلم مقصورة عليه ، محبوسة له ، مصونة عن
سواه ، يُطلبان معاً ، وتجعل فيهما قريش شيئاً سواً .

وقالت الأنصار : لما سمعنا بمخرج النبي صلى الله عليه وسلم وقدمه كنا نخرج

إلى ظاهر حَرَّتْنَا ننتظره ، حتى إذا لم نجد ظلاً دخلنا ، وذلك في أيام حارة ، حتى إذا كان في اليوم الذي قدم فيه النبي صلى الله عليه وسلم فعزلنا ذلك ثم دخلنا منازلنا ، فكان أول من أبصره رجل من يهود ، فصاح : يا بني قيلة !! فخرجنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو في ظل نخلة ، ومعه أبو بكر ، في مثل بيته وهيبته ، وأكثرنا لم يكن رآه ، وركبته الناس وما نعرفه من أبي بكر حتى زال الظل عن النبي عليه السلام ، فقام أبو بكر فأظله بردائه ، فعرفناه عند ذلك . فهذا هذا .

ثم لما كان بعد ذلك في يوم بدر . وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما عزم على محاربة قريش قال له سعد : يا نبي الله ، لتبين لك عريشاً فتكون فيه ونقاتل بين يديك . فأذن لهم فبنوه له ، فعَدَلْ إليه بعد أن عبأهم وأقامهم على مصافهم وعلى مراتبهم ، فدخله وأدخل معه أبا بكر وحده ، فلما استقر في العريش قال له أبو بكر : بعض مناسدتك يا رسول الله فإن الله منجز لك ما وعدك . فحَفَقَ النبي صلى الله عليه وسلم عليه خفقة في العريش فانتبه وهو يقول : أبشيراً يا أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل أخذ بعنان فرسه يقوده ، على ثناباء النقع ا

فكان النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر من بين يديه خَلَقَ اللهُ في العريش ، والناس موقوفون على مراتبهم ، فكانت هذه مرتبة أبي بكر . ورتب لسعد بن معاذ بعد أن كان قائماً على رايه على باب العريش متوشحاً بالسيف في نفر من الأنصار يحرسون العريش ومن فيه مخافة كُرِّ العدو والجولة .

فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك اليوم في العريش ، وغير ماشٍ إلى السيف ومعه صاحبه وصديقه ، وسيد الأنصار وأفضلهم على باب العريش ، عَرِفَ أَنْ عِظَمَ العَنَاءِ وشدة الاحتمال والسبب الدال على الرياسة غير الذي خصه القوم وجعلوه دليلاً . فمن أولى أن يكون أشبههم برسول الله صلى الله عليه وسلم في عِظَمِ العَنَاءِ واحتمال المكروه ، والحال الرفيعة ، ممن كان ثاني اثنين في التقدّم في الإسلام ، وثاني اثنين في الدُعاء إلى الله ورسوله ، وثاني اثنين في كثرة

المستجيبين والأتباع ، وثاني اثنين في الغار ، وثاني اثنين في الهجرة ، وثاني اثنين في العريش ، وفي أشباه هذا كثيرة .

وأما ما ذكرتم من يوم بدر وقتل علي الأقران وفضله على من سواه بذلك ، فقد قلنا في ذلك بما قد سمعتم .

ونحن ذاكرون وجهاً آخر ليزيد في الحجّة وتكثيف من الدلالة . نزع من أنه لم يشهد بدرأ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم [من له] مثل غناء أبي بكر ونبأته وكرمه موضعه ، لأن من شهد بدرأ مثل الزبير ، وطلحة ، وسعد ، وعبد الرحمن ، وعثمان ، وبلال ، ومسطح ابن أثانة ، وعامر بن فهيرة ، وكان في العريش ، فلا أحد يعدّله في النبأته ، ولا في الغناء والرّفعة ، والاحتمال لقدّر الخلافة ؛ لأن الذين عدّدنا على ثلاثة أصناف : رجل أسلم على يده وبدعائه وشرّحه فهو سبب حضوره وحسن بلائه ، ورجل أسلم على يده واعتقه بعد ذلك من رِقّ العذاب ورقّ العبودية وشهد بدرأ وقيل ذلك بمؤنّته وكلفته ، وأما ربيب ونسيب وابن خالة كمسطح بن أثانة ، فقد كان ربيّه وابن خالته وعلى يده أسلم ، وبه استبصر ، ولم يزل في مؤنّته قبل بدر وبعد ذلك وفي أيامه ، إلا ما كان من يمينه أيام حلف ألا يقربه ولا ينفق عليه ولا يبطأ رحله ، للذي كان كبير على عائشة مع حسان بن ثابت ، حتى أنزل الله سبحانه على رسوله براءة عائشة ، وأمر أبا بكر بالانفاق على مسطح وعياله ، وبالعفو عنه ، وأن يعيده إلى رحله وتحت جناحه ، فأنزل الله في محكم كتابه على نبيّه يريد أبا بكر - وبين أن يفرد الله الأبي ويخصّه بمخاطبته وبين أن يريدّه في الجمهور فرقاً عظيماً ، كما أثنى على جملة المهاجرين والأنصار - فقال الله وهو يريد أبا بكر : ﴿ ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليتفقوا وليصفتحوا ألا يحبون أن يغفر الله لكم ﴾ . قال أبو بكر : بلى يا رب . فرده إلى رحله وعفا عنه كما أمره الله ، وأجرى عليه وعلى عياله مثل الذي كان يجريه .

وإنما ذكر الله في هذه الآية القُرْبَى لأنه كان ابن خالته ، وجعل أهله وعياله
مساكين أبي بكر ، وهو أحد بني المطلب بن عبد مناف ، وشأنه عظيم .

وكان أول من حث على قتال المشركين بيدٍ وتكلم فيه عند رسول الله صلى
الله عليه وسلم أبو بكر .

فاذا شهد بنفسه ورأيه وماله ومستجيبه وأتباعه الذين هم أكفأ ضده
عندكم ، مع أن بعضهم قد اختير عليه وهو عثمان ، والباقيون لم يخايرهم
ويواز [نهم] فيعرف موضع أفضلهم ، وقد فخر عليه سعد فلم يعارضه ، فأين
مبلغ ما ذكرتم مما ذكرنا ، إذا كان مثل سعد من مستجيبه - وهو المستجاب
الدعوة ، وأول من أراق دماً في الإسلام ، وأول من رمى بسهم يوم بدر ، وله
يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « ارمِ فداك أبي وأمي » ، فجمع له أبويه ولم
يجمعهما لأحد قبله . وفيه يقول النبي صلى الله عليه : « هذا خالي أباهي فيه
فليات كل امرئ بخاله » . وهو أزال كسرى عن قصره ومملكه وعن
مستقره - ومثل حوارِي رسول الله صلى الله عليه وابن عمته ، مع فروسيته وشدة
باسه والذي عظم الله من شأنه بيدٍ حين نزلت الملائكة في زيّه ، عليها عمائم
صُفْر .

ثم الذي كان منه بيدٍ حين أتى الخبرُ النبي صلى الله عليه عن قريش
بمسيرهم ، فاستشار النبي صلى الله عليه ، فكان أول من قام أبو بكر ، فتكلم
وحث على الجهاد والنصرة ، ثم قام عمر ، ثم قام المقداد فقال : يا رسول الله ،
امض لما أراك الله ، فوالله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ اذهب
أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون . فوالذي بعثك بالحق أن لو سرت بنا إلى برك ذات العِماد
لجالدنا من دونه حتى نبلغه .

فإن قالوا : إن أبا بكر لم يشهد [له] احتمال كاحتمال علي ، لأن علياً
كان يمشي إلى السيف وأبو بكرٍ وادع رافه في العريش ، ودونه الحرس سعد بن

مُعَاذُ وَأَصْحَابُهُ ، وَالرُّكَّابُ لَهُ مُنَاحَةٌ .

قلنا : قد طعتم على النبي صلى الله عليه ، لأنَّ الشُّانَ لو كان كما تقولون
لكان النبي صلى الله عليه وادعاً وكان عليٍّ محتِماً صابراً . وهذا كلامٌ قد فرغنا
منه مرّة .

أو ما علمت أن صاحب اللّواء وإن كان لا يُبارز ولا يمشي بالسيف أنه
يحتاج من المعرفة بالحرب وعورتها ، وإقبال أمرها وإدباره ، ويحتاج مع اجتماع
القلب واليقظة وقلة الخيرة ، والثبات عند الجولة ، والعلم بموضع الشدة
والانحياز إلى أكثرهما يحتاج إليه المبارز ، لأن حفظ الجميع أشد من حفظ
الواحد ، ولأن كل العدو يطالبه ويريد ختله ، وكل ذلك يعلمه وعينه ؛ لأن
خطئه وضعفه أقرب إلى هلكة الجميع من ضعف المبارز وخطئه .

ولو كان الأمر كما تقولون ما كان أحدٌ أسقط في الحرب ولا أصغر خطأ ولا
أقل أجراً ومكاناً من الإمام الأكبر والزَّبير الأعظم لبعدهما بين بلاد عدوه من
بلاده ، ولكان عامله أفضل منه .

مع أنكم تزيدون في كثرة القتل وتعظمون شأنهم لتعظموا به من شأن
عليٍّ ، كصنيعكم في أمر عليٍّ ومرحّب ، حيث فحتموه بالأشعار ونفختموه
بالبلاغات ، وسكتم عن قتل الزبير في ذلك اليوم . ومرحّب وياسرٌ أخوان شهدا
الوقعة ، والنباهة لياسر . فقصدتم إلى الأهل فرفعتموه وشهزتموه إذ كان قتيلاً
عليٍّ ، وقصدتم إلى الأرفع فأخلمتموه وأخفيتموه ، إذ كان قتيلاً الزبير . أو ما
علمت أن الزبير وياسراً التقيا فاضطربا بأسياهما فلم يُغنيا شيئاً مراراً ، حتى
لجبا في موضعٍ واعترضت بينهما شجرة ، فجذباها ضرباً وخبطاً ، ثم جمع الزبير
نفسه ومكن سيفه فضرب رأس ياسر ضربةً قد منها البيضة ومر السيف حتى
عصر ثيبيه ، فقيل له : يا أبا عبد الله ، ما أجود سيفك ! فغضب .

وقصدتم إلى عمرو بن عبد ود ، فتركتموه أشد من عامر بن الطفيل ،
وعتبية بن الحارث ، وبسطام بن قيس .

وقد سمعنا بأحداث حروب الفجار ، والذي كان بين المطيبين والأحلاف ، وما كان بين قريش ودوس وأمر خزاعة وحلف الفضول ، وجميع أمر قريش من خيرٍ وشرٍ ، فما سمعنا لعمر بن عبد ود في شيء من ذلك ذكراً .

وكذا قتل عليّ الوليد بن عتبة يوم بدر ، وما علمنا الوليد حضر حرباً قط قبلها ولا بعدها ، ولا ذكر فيها بطائل .

فلو ذهبتم إلى أن علياً قد بارز وقتل ، وأبلى واحتمل ، كان ذلك جميلاً ، وكان قصداً مقبولاً ، ولكنكم اخرجتموه من حد الشجاعة ، وظننتم أن السرف أمثل وأجل .

وزعمتم أن الذي منع العرب وقريشاً أن تجعله الخليفة بعد النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان قتل أبناءها وإخوتها وأعمامها ، وما يُعلم موضع رجل واحد يوم توفي النبي صلى الله عليه وسلم تسمع له الخاصة والعامة وترى له طاعة ، قتل عليّ أباه أو ابنه أو أخاه ، غير أبي سفيان بن حرب ، فقد كان عليّ قتل ابنه حنظلة وما كان أحد من عليّة قريش والعرب أقرب إلى أن يُخالفه في الحق والباطل في ذلك الدهر من أبي سفيان ، وقد كان أكره الناس لأبي بكر حين قال لبني هاشم وبني أمية : « رضيتم معشر بني عبد مناف أن يلبى أموركم رجل من بني تيم » . فإذا كان الذي قتل عليّ ابنه هو الذي أظهر كراهية أبي بكر من بين الناس فكيف حولتم القضية وقلبت المعنى ؟ !

فإن ذكروا أبا حذيفة بن عتبة لأن علياً قتل أخاه ، قيل : أيكون أبو حذيفة ممن أن علياً بهذه العلة ، وأبو حذيفة شهد بدرًا فقاتل أباه وأخاه وعمه ، واحتملت نفسه وعزمه وصحة إسلامه هذا الصنيع ثم يجرع من أقل منه بعد الزيادة في الاستبصار ، وبعد طول الدهر وموت الأحقاد ؟ ! وهذا ما لا يُشبه ولا يجوز . وكيف يجوز ذلك عليه وهو من المهاجرين الأولين ، والسابقين الأولين ، وشهد بدرًا والمشاهد كلها ، وقبض النبي صلى الله عليه وسلم وهو عنه راضٍ ، واستشهد يوم اليمامة ولواء المهاجرين في يده .

وكيف يُظنُّ هذا بأبي حذيفة ولم يُرو عنه في كراهية عليٍّ حرفاً قطُّ ، ولا قبضَ لذلك وجهاً ولا أظهرَ تعجباً ؟ ١٩

وكيف يُظنُّ هذا بالبدريين والمهاجرين الأولين ومنع عليٍّ القيامَ بأمر الناس على هذا الوجه وعلى هذا المعنى كُفِّرَ بالله ورسوله . وكيف يَضْطَغِينُ امرؤُ على عليٍّ ويُسلمَ قلبه لرسول الله صلى الله عليه ؟ لأنه إن كان يعتدُّ صنيعَ عليٍّ ذنباً حتى يولد له حقداً والذي تفرد عليٌّ بذلك أعظم ذنباً وأجدر أن يولد حقداً . وهذا أفحشُ قبحاً ، وأبينُ خطأً من أن يُهجِّنا إلى كشفه وتبيينه .

وكيف يجوز هذا على أبي حذيفة ولا نعلم رجلاً في الأرض أبعدَ من حمية الجاهلية منه ، ولا أسمحَ نفساً بما وافق كتابَ الله منه . ولقد بلغ من إخلاصه ورسوخ الإسلام في قلبه ، وحبِّه عليه وبغضته فيه أن طرح كلَّ ما سواه ، وأخرجه ذلك إلى أن زوَّجَ اخته فاطمة بنتَ عتبة بن عبد شمس ، من سالم مولى أبي حذيفة ، وقال له : والله إنِّي لأزوجهما وأعلم أنك خيرٌ منها !! فعاتبه على ذلك بعضُ من نكَّره ذكره فقال : أفي سالمٍ تعاتبني وقد سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : من أراد أن ينظر إلى رجلٍ يحبُّ الله بكلِّ قلبه فلينظر إلى سالم .

مع أن لأبي بكرٍ من حُسن الأثر في حروب النبي صلى الله عليه وسلم ومن احتمال المكروه وتجرُّع المرار ما ليس لأحدٍ .

ومن ذلك أن أبا بكرٍ خرجَ إلى ابنه عبد الرحمن بن أبي بكرٍ ليبارزه يوم أحد ، لأنَّ عبد الرحمن طلعَ يومَ أحدٍ على فرسٍ وهو مُكفِّرٌ في السُّلاح لا يُرى منه إلا عيناه وهو يقول : [هل] من مبارز !! ثلاثاً ، كلُّ ذلك يقولُ : أنا عبد الرحمن بن عتيق . فنهض أبو بكرٍ يسعَى إليه بسيفه ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم حين رأى غضبه وجِدته ، وعرف الذي عليه من الشدة في قتل ابنه : « شِمَّ سيفك وارجع إلى مكانك ومتعنا بنفسك » .

وإنما يمكن أبا بكرٍ بذلَّ الجهد ، فإذا فعل ذلك فلا حال أفضل من حاله .

فاجتمع له في ذلك أمران : أحدهما الثواب على شدة الاحتمال ، والثاني
صيانة النبي صلى الله عليه وإشفاقه عليه .

وقوله « ارجع إلى مكانك ومتعنا بنفسك » ، فليس في الأرض معنى شريف
فاضل من معاني الدين والدنيا إلا وهو في هذه الكلمة .

وأبو بكر الذي لما رُمِيَ النبي صلى الله عليه وسلم في يوم أحد أقبل
يسعى وإذا إنسان قبَّل المشرق يطير طيراناً ، فلما رآه أبو بكر قال : اللهم اجعله
طلحة ! فلما توافياً عند النبي صلى الله عليه وسلم إذا هو أبو عبيدة بن الجراح ،
فبدره أبو عبيدة وقال : أسألك بالله يا أبا بكر إلا تركتني فوليتني نزعها - يعني
حدائد الزرد اللواتي تشين في وجهه [و] جبينه من المغفر - فقال النبي صلى الله
عليه وسلم : عليكم صاحبكم ! يعني طلحة .

وثرم أبو عبيدة يومئذ من نزع حلقة امتنعت عليه .

ولصنيع طلحة وأبي بكر وموقفهما قالوا : « يوم أحد لبني تيم ! » لأن
الذين صبروا مع النبي صلى الله عليه من المهاجرين والأنصار سبعة : أبو بكر
وطلحة من تيم ، وعبد الرحمن بن عوف من بني زهرة ، وعلي من بني هاشم ،
والزبير من بني أسد ، وأبو عبيدة من بني عامر . وإنما قالوا « يوم أحد لبني تيم »
لأنه لم يكن من كل قبيلة إلا رجل واحد من المهاجرين ، وكان فيه رجلان من
بني تيم كما ذكرنا .

وكان من الأنصار سبعة : الحباب بن المنذر بن الجموح ، وأبو دجانة ،
وعاصم بن ثابت بن أبي الأفلح ، والحارث بن الصمة ، وسهل بن حنيف وأسيد
ابن حضير ، وسعد بن معاذ .

وأبو بكر أول من تكلم يوم بدر وحث الناس على الجهاد .

وأبو بكر الذي لما قال النبي صلى الله عليه يوم الحديبية : « كيف ترون يا
معشر المسلمين في هؤلاء الذين قد [حشدوا] إلينا من أطاعهم ليصدونا عن المسجد

الحرام ، قام أول الناس فقال : نرى - والله ورسوله أعلم - أن غضي لوجهنا ،
فمن صدنا عن البيت الحرام قتلناه .

وأبو بكر الذي لما أتى بُذَيْل بن ورقاء الخزاعي يوم الحديبية في نفر من
أصحابه ، فأقبل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد ، لقد اغتررت
بقتال قومك وإن قريشاً ستقاتلكم عن ذرارهم وأموالهم ، قد استنفروا الأحابيش
وخرجوا إلى بلذح ، معهم العوذ المطافيل ، والله ما أرى معك أحداً له وجه ،
مع أبي أراكم قوماً لا سلاح لكم ، ولو قد غص هؤلاء الحديد لقد أسلموكم .
قال أبو بكر : عضضت يبظر اللات ، أنحن نسلمه ؟ ! قال له بُذَيْل : أما والله
لولا يدك عندي لأجبتك ، والله إنى وقومي لنحب أن يظهر محمد !

وأقبل عروة بن مسعود في نفر من قومه حتى أناخ راحلته عند النبي صلى
الله عليه وسلم وقال : إنى تركت كعباً وعامراً على أعداد الحديبية معهم العوذ
المطافيل ، وما أرى معك أحداً أعرف وجهه ونسبه ، وإنهم لخلقاء أن
يخذلوك - والقوم سُكوت - فغضب أبو بكر وقال : امض يبظر اللات ، أنحن
نخذله ؟ ! قال عروة : أما والله لولا يدك عندي لأجبتك ! وكان عروة قد
استعان في حمالة ، فكان الرجل يعينه بالفريضتين والثلاث ، فمشى إلى أبي بكر
فأعطاه عشر فرائض .

ألا ترى كثرة أياديه ونبله [ومنه] ، وحده وشهامته ورياسته ؟ ! فهذا
وأشباهه يعرف قدر الرجل بمكة وفي قومه ، وعند النبي صلى الله عليه وسلم
وجاعة أصحابه .

ولو لم يعلم من شدة قلبه وصواب رأيه وقوة عزمه وقلة وحشيتة وثمن برئته
إلا أن كبار المهاجرين دخلوا عليه ، منهم عمر وعثمان وأبو عبيدة ، وسعد بن
أبي وقاص ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل في جمع كثيف من المهاجرين ،
فقالوا بأجمعهم : يا خليفة رسول الله ، إن العرب قد انتقضت عليك ، وإنك لن
تصنع بتفريق هذا الجيش المنتشر شيئاً ، اجعلهم عُدَّة لاهل الردة ترمي بهم

نُحَوِّزُهُمْ ، وَأُخْرَى أَنَا لَا نَأْمَنُ عَلَى الْمَدِينَةِ أَنْ يُغَارَ عَلَيْهَا وَفِيهَا الدُّرَارِيُّ وَالنِّسَاءُ ،
فَلَوْ اسْتَأْنَيْتَ بَغْزِو الرُّومَ حَتَّى يَضْرِبَ الْإِسْلَامُ بِجِرَانِهِ وَيَعُودَ أَهْلُ الرُّدَّةِ إِلَى مَا
خَرَجُوا مِنْهُ [أ] وَيُفْنِيَهُمُ السَّيْفُ ، ثُمَّ تَبِعَتْ أُسَامَةُ حَيْتَبُ ، فَتَكُونُ قَدْ أَنْفَذْتَ
الْجَيْشَ كَمَا أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ دَفَعْتَ بِهِمْ أَهْلَ الرُّدَّةِ ، وَلَنَا
نَخَافُ الرُّومَ أَنْ تَزْحَفَ إِلَيْنَا يَوْمَنَا هَذَا .

فلما استوعب أبو بكرٍ كلامهم قال : هل منكم أحدٌ يريد أن يقول شيئاً ؟
قالوا : قد سمعتَ مقاتلتنا . قال : والذي نفسي بيده لو ظننتُ أن السُّباعَ تأكلني
لأنفذتُ هذا البعثَ ، ولا بدأتُ بأولى منه ، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم ينزلُ
عليه الوحيُّ من السماء وهو يقول : أنفذوا جيشَ أسامة .

فلما رأى إبطاءهم عن ذلك وتلكؤهم خرجَ وحده مغضباً نحو أهلِ الرُّدَّةِ حتى
لحقه المهاجرون والأنصارُ في المسلمين ، فقالوا : تكفى يا خليفة رسولِ الله ،
وننقذُ لأمرِكَ ، والصوابُ ما رأيتَ .

فلو لم تعلم من شدة قلبه واجتماعِ رايه وقلةِ وحشته إلا هذا كان كافياً .
وأبو بكرٍ الذي ولَّاه النبيُّ صلى الله عليه وسلم يومَ حُنَيْنٍ ميمته ، وولَّى عُمرَ
ميسرته . فلم يكن النبيُّ صلى الله عليه وسلم ليستكفيهما أهمَّ المواضعِ إليه وهما لا
يكفيانه .

ولقد انكشفَ الناسُ وثبتا في مواضعهما ، وكان أقربَ القومِ إلى النبيِّ صلى
الله عليه وسلم يومئذٍ - إذ كان لا بدَّ لصاحبِ الميمنة والميسرة من أن يكون أبعدَ
عَنْ يَكُونُ فِي الْقَلْبِ - أبو سفيان بن الحارث ، والعباس بن عبد المطلب ،
والفضل بن عباس ، وربيع بن الحارث ، وأيمن بن عبيد أخو أسامة بن زيد
لأمه . وصبرَ مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم بعد هؤلاء مائة وثلاثة وثلاثون من
المهاجرين ، وسبعة وستون من الأنصار .

ومما نعرف به شدة شكيمته وصدق وصرامة رايه قوله للمسلمين يومَ توفِّي

النبي صلى الله عليه وسلم حيث قام خطيباً وبالمدينة منافقون لا يألونهم خبالاً
يَعْضُونَ عَلَيْهِمُ الْأَنْامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ، وقد انتقض ما حول المدينة ، فكان مما قال
في خطبته :

مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ ، فليعبده . وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا
أَوْ يَرَاهُ إِهَاءً فَقَدْ هَلَكَ إِلَهُهُ . فَاتَّقُوا اللَّهَ أَيُّهَا النَّاسُ ، وَاعْتَصِمُوا بِدِينِكُمْ ، وَتَوَكَّلُوا
عَلَىٰ رَبِّكُمْ ، فَإِنَّ دِينَ اللَّهِ قَائِمٌ ، وَكَلِمَةُ اللَّهِ قَائِمَةٌ ، وَاللَّهُ نَاصِرٌ مَّنْ نَّصَرَهُ ، وَمَعَزٌ
دِينَهُ . وَإِنَّ كِتَابَ اللَّهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ ، وَهُوَ النُّورُ وَالشِّفَاءُ ، وَبِهِ هَدَىٰ اللَّهُ مُحَمَّدًا ،
وَفِيهِ حَلَالُ اللَّهِ وَحَرَامُهُ .

ثم قال : وَاللَّهِ مَا نُبَالِي مَن أَجَلَبَ عَلَيْنَا مِنْ خَلْقِ اللَّهِ . إِنَّ سَيْفَ اللَّهِ
الْمَسْلُوكَةَ مَا وَضَعْنَاهَا عَنْ عَوَاتِقِنَا ، وَلُنَجَاهِدَنَّ مَنُ خَالَفَنَا ، فَقَدْ جَاهَدْنَا مَعَ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ، فَلَا يُبْقِينَ مَبْقَىٰ إِلَّا عَلَىٰ نَفْسِهِ .

وإنما قال : « مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا أَوْ يَرَاهُ إِهَاءً فَقَدْ هَلَكَ إِلَهُهُ » ، لأنه كان
سَمِعَ مِنْ عِثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ وَعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي ذَلِكَ كَلِمَاتٍ قَبِيحًا حَقٌّ مَا جَاحَ
النَّاسُ فِي ذَلِكَ وَقَالُوا : وَاللَّهِ مَا مَاتَ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ رَفَعَهُ كَمَا رَفَعَ عِيسَىٰ بْنَ مَرْيَمَ ،
فِي كَلَامٍ سَنَذْكُرُهُ بَعْدَ هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وما يدلُّ على خاصَّةِ مكانِهِ وتقدِيمِ النَّاسِ لَهُ ، ومعرفةِ الجميع لفضله ،
الذي كان مِنْ صَنِيعِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمِنْ صَنِيعِ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ ،
وَمِنْ صَنِيعِ كُفَّارِ قَرِيشٍ بِهِ ، حَيْثُ فَرِزَعَتْ إِلَيْهِ فِي أَمْرِ أُسَارَىٰ بَدْرٍ دُونَ غَيْرِهِ ،
لأنهم لما حُبِسُوا ببدر واقترع المسلمون عليهم طمِعُوا فِي الْحَيَاةِ ؛ فَقَالُوا بِأَجْمَعِهِمْ :
لَوْ بَعَثْنَا إِلَىٰ أَبِي بَكْرٍ فَإِنَّهُ أَوْصَلُ قَرِيشٍ لِأَرْحَامِنَا ، وَلَا نَعْلَمُ أَحَدًا آتَرَ عِنْدَ مُحَمَّدٍ
مِنْهُ ! فَبَعَثُوا إِلَىٰ أَبِي بَكْرٍ فَاتَاهُمْ فَقَالُوا : يَا أَبَا بَكْرٍ ، إِنَّ فِينَا الْأَبَاءَ وَالْأَبْنَاءَ ،
وَالْإِخْوَانَ وَالْعَمُومَةَ ، وَبَنِي الْعَمِّ ، وَأَبْعَدُنَا قَرِيبٌ ، فَكَلِّمْ صَاحِبَكَ يَمُنْ عَلَيْنَا أَوْ
يُفَادِينَا . قَالَ : نَعَمْ لَا أَلُوكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ خَيْرًا ! ثُمَّ انصرفت إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَعَلَيْهِ . فَقَالُوا : وَلَوْ بَعَثْنَا إِلَىٰ عُمَرَ ، فَإِنَّا لَا نَأْمَنُ أَنْ يُفْسِدَ عَلَيْنَا ، فَلَعَلَّهُ أَنْ

يُكْفُ عَنَا شَرَّهُ ! فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ فَجَاءَهُمْ ، فَقَالُوا مِثْلَ قَوْلِهِمْ لِأَبِي بَكْرٍ ، فَقَالَ : لَا أَلُوكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ شَرًّا ! ثُمَّ انصَرَفَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَإِذَا النَّاسُ حَوْلَ النَّبِيِّ ، وَأَبُو بَكْرٍ يَفْتُوهُ وَيَلِينُهُ وَهُوَ يَقُولُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ، قَوْمُكَ فِيهِمُ الْأَبَاءُ وَالْأَبْنَاؤُ ، وَالْعَمُومَةُ وَالْإِخْوَانُ وَبَنُو الْعَمِّ ، وَأَبْعَدُهُمْ مِنْكَ قَرِيبٌ ، فَاْمَنْ عَلَيْهِمْ مَنْ اللَّهُ عَلَيْكَ ، أَوْ فَادِهِمْ يَسْتَنْقِذُهُمُ اللَّهُ بِكَ مِنَ النَّارِ ، فَمَا أَخَذَتْ مِنْهُمْ فَهِيَ قُوَّةٌ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُقْبَلَ بِقُلُوبِهِمْ !! ثُمَّ قَامَ فَتَنَحَّى نَاحِيَةً وَسَكَتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَجَاءَ عَمْرٌ فَجَلَسَ مَجْلِسَ أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، هُمْ أَعْدَاءُ اللَّهِ كَذَّبُوكَ وَقَاتَلُوكَ وَأَخْرَجُوكَ ، أَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ فَإِنَّهُمْ رُؤُوسُ الْكُفْرِ ، وَأَنْمَةِ الضَّلَالَةِ ، يَعْزُّ اللَّهُ بِذَلِكَ الْإِسْلَامَ وَيَذُلُّ الشُّرْكَ !! فَسَكَتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَمَادُ أَبُو بَكْرٍ إِلَى مَجْلِسِهِ وَإِلَى مِثْلِ ذَلِكَ الْكَلَامِ ، ثُمَّ تَنَحَّى وَقَامَ عَمْرٌ فَجَلَسَ مَجْلِسَهُ وَأَعَادَ مِثْلَ الْكَلَامِ الْأَوَّلِ ، ثُمَّ تَنَحَّى عَمْرٌ وَجَلَسَ أَبُو بَكْرٍ ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ . فَسَكَتَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ثُمَّ قَامَ فَدَخَلَ قُبَّتَهُ فَمَكَثَ سَاعَةً وَخَرَجَ وَالنَّاسُ مَجْهُوسُونَ ، يَقُولُ بَعْضُهُمْ : الْقَوْلُ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ ، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ : الْقَوْلُ مَا قَالَ عَمْرٌ . فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : مَا تَقُولُونَ فِي صَاحِبَيْكُمْ ؟ دَعُوهُمَا فَإِنَّ لِهَآ مِثْلًا : مِثْلُ أَبِي بَكْرٍ فِي الْمَلَائِكَةِ مِثْلُ مِيكَائِيلَ يَنْزِلُ بِالرَّضَا وَالْعَفْوِ ، وَمِثْلُهُ فِي الْأَنْبِيَاءِ مِثْلُ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أَلَيْنَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْعَسَلِ ، أَوْ قَدْ لَهُ قَوْمُهُ النَّارَ فَطَرَحُوهُ فِيهَا ، فَمَا زَادَ عَلَى أَنْ قَالَ : ﴿ أَفْ لَكُمْ وَلَمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ . وَقَالَ : ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . وَمِثْلُهُ كَمِثْلِ عِيسَى إِذْ يَقُولُ : ﴿ إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكُمْ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ . وَمِثْلُ عَمْرٍ فِي الْمَلَائِكَةِ مِثْلُ جِبْرِيلَ يَنْزِلُ بِالسُّخْطِ مِنَ اللَّهِ وَالنَّقْمَةِ . وَمِثْلُهُ فِي الْأَنْبِيَاءِ مِثْلُ نُوحٍ كَانَ أَشَدُّ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ إِذْ يَقُولُ : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ . فَذَعَا عَلَيْهِمْ دَعْوَةً أَغْرَقَ اللَّهُ بِهَا الْأَرْضَ جَمِيعًا . وَمِثْلُهُ مِثْلُ مُوسَى إِذْ يَقُولُ : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَسْرُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ . فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ الْمَقْرَعُ وَالشَّفِيعُ ، وَالْخَاصَّةُ وَالثَّقَّةُ رَسُوْسُ الْفَضِيلَةِ .

وقبل ذلك لما قص النبي صلى الله عليه وسلم على أهل مكة كيف أمرني به ، قالت قريش على التكذيب له صلى الله عليه : والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام ثم يكون إقبالها شهراً ، وزعم محمد أنه مضى إلى بيت المقدس ورجع من ليلته ! فأتوا بأجمعهم أبا بكر ليحتجوا بذلك عليه وليعرفوه خطأه في أتباعه عند أنفسهم ، وظنوا أن الجواب في ذلك يمتنع إذ كان قد امتنع عليهم . فأتوا أبا بكر فقالوا : هلك صاحبك ! - ألا ترى أنه المذكور بالصحبة ، وموضع الحاجة ، وأنه المبتدأ والمفزع - زعم أنه أتى بيت المقدس في ليلة وغدا علينا ! قال أبو بكر : إنكم تكذبون عليه ، ولئن كان قاله لقد صدق ، فما تعجبون من ذلك ؟ ! فوالله إنه ليخبرنا أن الخبر يأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه . فهذا أبعد من مصر . ثم نهض أبو بكر إلى النبي صلى الله عليه ليسأله عن القضية ، فاقبل النبي صلى الله عليه وسلم يصف له وهو يقول : صدقت صدقت ! أشهد أنك رسول الله ! قال النبي صلى الله عليه وسلم : وأنت الصديق ! وقد كان أبو بكر الصديق أتى الشام وعرف طرقها وأمورها ، وقلبها وعرف جميع ما فيها .

ثم الذي كان من تقديم النبي صلى الله عليه له والمسلمين في قضية الحديبية . وذلك أنهم كتبوا كتاباً .

هذا ما اصطليح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو . اصطليحا على وضع الحرب عشر حجج يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض . على أنه لا إسلال ولا إغلال ، وعلى أن من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده فعل ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدها فعل ، وعلى أنه من أتى منهم محمداً بغير إذن رده ، ومن أتى قريشاً من أصحاب محمد لم ترده ، وعلى أن محمداً يرجع عامة هذا بأصحابه ، ويدخل عليهم قابلاً في أصحابه فيقيم ثلاثاً ، لا يدخل علينا السلاح إلا سلاح المسافر ، السيف في القرب . شهد أبو بكر بن أبي قحافة ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وأبو عبيدة بن الجراح ، ومحمد بن مسلمة . وشهد حويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص بن الأخيف .

ألا ترى أنه كان أول شاهدٍ من المسلمين في صدر الكتاب ، والناس كلهم بعده .

ونَحَرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم الجَمَل عن سَبْعَةٍ . فأول خلق الله سُمي أبو بكر ، ثم عمر ، ثم فلان ثم فلان . فهذا هذا .

ثم لما تَحَاجَزَ النَّاسُ يوم أحدٍ وأراد أبو سفيان الانصرافَ أقبل يسير على فرسٍ له أنشَى قد أشرف على أصحاب النبي صلى الله عليه في عَرْضِ الجبل يُنَادِي بأعلى صوته : أين ابنُ أبي كبشة ؟ يعني النبي صلى الله عليه وسلم . أين ابنُ أبي قحافة ؟ أين ابنُ الخطَّاب ؟ يوم بيوم بدر . ألا إن الأيام دُولٌ والحرب سِجال ، وحنظلةٌ بحنظلة !! قال عمر : ألا أجيئه يا رسول الله ؟ قال : بلى . قال أبو سفيان : أعلِّ هُبَل ! قال عمر : الله أعلى وأجل . قال أبو سفيان : لنا عُزَى ولا عُزَى لكم ! قال عمر : الله مولانا ولا مولَى لكم .

فلو لم يكن أبو بكرٍ أفضلَ من شهد أحداً وأنبه ، ، أو أغيظَ لأبي سفيانَ والمُشركين ، ما جعله أبو سفيانَ - وهو رئيس القوم - ثانياً ، والذي يتلو النبي صلى الله عليه في النداء والمخاطبة ، حين يقول : أين ابنُ أبي كبشة ؟ ثم يقول : أين ابنُ أبي قحافة . فهذا هذا .

وفي نزول أبي بكرٍ قبر حمزة قبل كل نازلٍ بأمر رسول الله صلى الله عليه ، دليلٌ على الفضيلة والنباهة ، والقدر والوزارة .

ولما دخل أبو سفيان المدينة أتى النبي صلى الله عليه وقال : يا محمد ، إني كنتُ غائباً في صلح الحديبية فاشدد العَهْدَ وزِدْنَا في المَدَّة ، قال . أو لذلك قدمتُ يا أبا سفيان ؟ قال : نعم . قال : فهل كان فيكم من حَدَثٍ ؟ قال : معاذ الله . قال النبي صلى الله عليه وسلم : فنحن على مُدَّتِنَا وصُلْحِنَا ، لا نبدلُ ولا نُغَيِّرُ . فلما خرج من عنده بدأ بأبي بكرٍ فقال له : هل لك إلى أن تُجِيرَ بين الناس ؟ قال أبو بكر : جوارِي في جوار رسول الله . ثم خرج من عنده فسأى عُمَرَ فكلَّمه بمثل ذلك ، قال عمر : إني لو وجدتُ الذُّرَّ تُقَاتِلُكُمْ لأغثتها عليكم !

قال أبو سفيان : جُزيتَ مِن فَي رَحِمٍ شَرًّا ! ثم أتى عثمان ، ثم أتى فاطمة ،
ثم أتى علياً .

الآ ترى كيف جعلوه المقصد والمعتمد قبل الناس وبعد رسول الله صلى الله عليه . ولو لم يكن حال عند أبي سفيان من النبي صلى الله عليه فرق كل حال ما بدأ به قبل جميع من نزع إليه . فهذا هذا .

ثم الذي كان من تقرب النبي عليه السلام ، وإكرامه له يوم فتح مكة ، وهي الدار التي خرجا منها هارين معاً ثم رجعا إليها آمنين معاً ، يتسايران ويتحدثان ، حيث طلع النبي صلى الله عليه وسلم على العباس وأبي سفيان ، والنبي عليه السلام بين أبي بكرٍ وأسمد بن حُضَيْرٍ ، أبو بكر عن يمينه . وقبل ذلك في الطريق كان بين أبي بكر وعمر ، أبو بكر عن يمينه وعمر عن يساره . فلما صارت الخيل بذي طوى بين الخندمة إلى الحجون ، مر النبي صلى الله عليه وأبو بكر يسايره وخذاه ، وإذا بنات أبي أحيحة قد نشرن شعورهن يُلطمن وجوه الخيل بالخمر ، فنظر النبي صلى الله عليه إلى أبي بكر وتبسم وقال : كيف كان قول حسان :

يُلَطْمُهُنَّ بِالْخُمُرِ النِّسَاءُ

قال أبو بكر :

تَظَلُّ جِيادُنَا مَتَمَطِّراتِ

فهذه حاله وخاصته ومكانه وارتفاع قدره . إلا تراهما خرجا من مكة هارين مستخفيين مصطحبين ، ثم رجعا آمنين ظافرين مُعلنين مصطحبين .

وصعد أبو قحافة الجبل بصغرى بناته وهو يومئذ مكفوف ، فبكت بنته فقال لها : لا تخافي فإن أهلك عتيقاً أكبر الناس عنده ! فلما دخلوا مكة أقبل أبو بكر بأبيه وهو يومئذ شيخ مكفوف له غديرتان ، كأن رأسه ثغامة حتى هجم به على النبي صلى الله عليه وقال : أتيتك بأبي يا رسول الله ليُسَلِّمَ . قال النبي صلى

الله عليه : هلاً تركت الشيخ في رحله حتى آتته . فمسح النبي صلى الله عليه يده
على صدره ، ودعاه إلى الإسلام فأسلم .

وهذا كله يدل على تقديم النبي صلى الله عليه له .

كما نقل الفقهاء أن النبي صلى الله عليه أبي بعمس من لبن وهو في
أصحابه ، وأبو بكر عن يساره ورجل من الأعراب عن يمينه ، وأصحابه قد أحبوا
سوره ، فشرب النبي وأهوى بالقدح - نحو الأعرابي . قال عمر : أبو بكر يا
رسول الله ! قال النبي صلى الله عليه : الأيمن فالأيمن .

ولم ينقلوا هذا الحديث ليخبروا عن فضيلة أبي بكر ولا عن قرب مقعده ولا
عن تقديم عمر له ، ولا أن عادة النبي صلى الله عليه وسلم كانت التقديم له ،
ولا قال عمر ذلك على التذكير له ، وإنما أرادوا أن يخبروا عن سنة النبي صلى الله
عليه وسلم في الشرب ، وعن فضيلة اليمين على اليسار ، وعن التعريف لحرمة
المجلس .

ولو كان هذا الخبر في علي وعثمان ما كان الأمر إلا كما أخبروا أنهم لم
يقصدوا في الحديث إلا تفضيل اليمين على اليسار .

[١٦ - حكمة أبي بكر افضل من فقه علي]

فإن قالوا : فإن علياً كان أفقه من أبي بكر وأعلم بالحرام والحلال منه . والدليل
على ذلك أن كثرة ما نقلوا إلينا من اختياراته وأقواله في الحوادث ، من الحلال
والحرام ، وأبواب الفقه والفتيا والتأويل ، مع كثرة الرواية المسندة ، وكان يسأل
ولا يسأل ، ولم يرجع عن شيء قط وليس أحد من أصحاب النبي صلى الله
عليه وسلم إلا وله رجعة وأكثر من ذلك ، ولم يسمع لأبي بكر بفتيا كثير ولا كثير
رواية ، ورأس الدين الفقه فيه والعلم به . فلما كان أبو بكر وعلي بن أبي طالب
على ما وصفنا وذكرنا ، علمنا أن أفقهما أفضل فضلاً وأولى بالإمامة ، لأن عمل

الفقهاء أفضل من غيره ، لأن أولى الناس بالمسلمين أعلمهم بدينهم ، لأن من علم الدين لم يجهل أمر الدنيا ، لأن أمور الدنيا مياسرة أو شبيهة يعلم المياسرة ، وعلم الدين مستنبط ، وتأويله غامض .

قالت (العثمانية) عند ذلك : أما العدل والقسط فإن ننظر يوم توفى النبي صلى عليه وسلم ، وأبو بكر وعلي حيان ظاهر أمرهما ، معروف قدرهما واحتمالهما للعلم والعمل . فلعمري لئن كان لعلي من طول الصحبة وكثرة السماع ومفاوضة الرسول الأ [مر] ، والمعرفة ، وكثرة الإرشاد للأمة وصحة الرأي وكثرة الصواب ، وكان الناس إليه أشد فزعا ، [و] ظهر من روايته وحاجة الناس إلى فقهه في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأيام وفاته وأيام أبي بكر ، أكثر مما ظهر من أبي بكر في ذلك الدهر ، إنه لأفقه منه في الدين وأعلم بأبواب الدنيا .

[و] لئن كان إنما كثر مما نقل الناس عنه لأنه عاش والحادثات تحدث ، وبقي حتى كان يستفتى ويفتي ويسأل ويحيب ، ويروي عنه في الزمان الذي كان يستفتى فيه مثل أبي هريرة ، وأنس بن مالك ، وابن عمر ، وابن الزبير ، وعبد الله بن عمرو ، فكان ذلك منه أيام أبي بكر وهي ستان ، وأيام عمر وهي عشر سنين ، وأيام عثمان وهي اثنتا عشرة سنة ، وأيام نفسه وهي خمس سنين ، فليس في ذلك حجة ولا دليل ؛ لأنك تُحصي ما يقول الرجل في الدهر الطويل مع كثرة الحادثات ، وما يقول الرجل في الدهر القصير مع قلة الحادثات ؛ وإنما ينبغي أن ننظر يوم توفى النبي صلى الله عليه من كان أفضل المسلمين وأفقه في الدين ، وأعرف بالأمور ، وأصوب رأياً وأشد احتمالاً ، في ذلك الوقت الذي اختير فيه للخلافة . ونحن نعلم أن علياً لو عاش إلى دهر الحسن وابن سيرين لكان قد ازداد فقهاً وعلماً وتجربة على قدره يوم استشهد رضي الله عنه .

ولا يجوز أن نقدر الرجل بقدر طول الزمان وكثرة الحادثات ، وبقدر قصر الزمان وقلة الحادثات . فليكن صبح عندنا وعندكم أن أموراً حدثت ، وبلايا نزلت في زمن أبي بكر وأيام وفاة النبي صلى الله عليه ، من حلالٍ وحرامٍ أو سياسةٍ

جندٍ أو سدَّ ثغراً أو تدبير حرب ، أو استصلاح عوام ، أو ترتيب خواص ، فظهر فيه من رأي علي وصوابه وحسن نظره وإرشاده ما لم يظهر من أبي بكر - فقد أفلح من زعم أن علياً كان أفقه منه فقهاً ، وأصوب رأياً ، وأشدُّ للأمور احتمالاً ! مع أنا قد نجد عنده من دقائق الفتيا وغامضه وعويصه ما لم يتل به أحد ولا يتلى به أحد أبداً . ولعل ذلك لا يُصاب عند الإمام إلا في جملة الأمور وأصولها ، ثم لو دهم الناس عدو ، أو حزبه أمر ، أو أعصل بهم مالم من فاتق يختطب الملك بتأويل قد زخرقه ، ومن انتشار جند أو اضطراب عوام ، أو بدعة شاملة ، لم يكن عنده من الغناء والاحتمال والمعرفة بعلاج أدوائها والتأني لاستصلاحها قليل وكثير . وإنما مدار الأمور على أصالة الرأي ، واتساع الصدر ، وقوة العزم .

[١٧ - حكمة أبي بكر يوم صلح الحديبية]

فإن كنا لم نجد لعلي ما ذكرنا شيئاً يفضل به أبا بكر في ذلك الدهر فإننا نستدل على صواب رأيه واتساع صدره ، وأنه كان المقزع والمرشد بعد رسول الله في المعضلات وعند الشبهات والحادثات ، والناس في ذلك الدهر بين مستمع مرشد وبين مستمع مسلم ، وبين مطرقي واجم وبين خائف قد رنحه الحادثات ، واستبهم عليه وجه الصواب ، كالذي كان من المسلمين لما اصطلحوا على القضية يوم الحديبية ، لأنهم لما صاروا إلى الكتاب وتراضى النبي صلى الله عليه وسلم وسهيل بن عمرو على أن يكتب في الكتاب : « وعلى [أن] من أن قريشاً ممن كان على دين محمد بغير إذن لم تردّه إليه » ، فبلغ من أمر الناس والذي دخل عليهم أن اضطربت قلوبهم ، حتى إن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه بعد انصراف سهيل بن عمرو : « قوموا فأنحروا وأجلوا واحلقوا » ، يقولها ثلاثاً ، كل ذلك ينظرون في وجهه ويسمعون قوله ولا يُطيعون أمره ، حتى غضب النبي صلى الله عليه وسلم فدخل على أم سلمة فأخبرها بذلك متعجباً ، وكانت معه في تلك السفرة ، قالت أم سلمة : « انطلق أنت يا رسول الله إلى الهدي فأنحروه ، فإنهم

سَيَقْتَدُونَ بِكَ . فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ وَثَبَ عِنْدَ الْكِتَابِ عُمَرُ وَهُوَ يَقُولُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَلَسْنَا بِالْمُسْلِمِينَ ؟ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ : بَلَى . قَالَ : فَعَلَامَ نُعْطِي الدُّنْيَةَ فِي دِينِنَا ؟ قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ، وَلَنْ أَخَالَفَ أَمْرَهُ . فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى عَمْرٍ فَقَالَ : يَا عُمَرُ ، الزَّمْ غَرَزَهُ فَإِنِّي أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ، وَأَنَّ الْحَقُّ مَا أَمَرَ [به] ، وَلَنْ يَضِيعَهُ اللَّهُ !

ثُمَّ إِنَّ عَمْرَ بْنَ الْخَطَّابِ عَادَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَسَأَلَهُ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : سَلِمَ اللَّهُ وَلِرَسُولِهِ وَآتِهِمْ رَأْيِكَ .

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : لَا نُعْطِي الدُّنْيَةَ أَبَدًا ! فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ، يَا عَمُّ إِنَّمَا لَيْسَتْ بِدُنْيَةٍ ، وَلَوْ كَانَتْ دُنْيَةً مَا أَعْطَاهَا النَّبِيُّ صَلَّى عَلَيْهِ وَتَابَاهَا أَنْتَ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَرْضَى بِذَلِكَ .

أَوْ مَا عَلِمْتَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الْجَمِيعِ أَشَدُّ فِي ذَلِكَ مِنْ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَعَمْرَ بْنَ الْخَطَّابِ ؟ ! وَذَلِكَ أَنَّ عَلِيًّا هُوَ كَانَ كَاتِبَ كِتَابِ الْقَضِيَّةِ ، فَلَمَّا كَتَبَ : « هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ عَمَدُ رَسُولِ اللَّهِ » قَالَ الْمُشْرِكُونَ : لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُهُ مَا حَارَبْنَاكَ ، وَلَكِنْ أَكْتَبَ : « مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ » ، فَقَالَ النَّبِيُّ لِعَلِيِّ : أَتُحِبُّهَا يَا عَلِيٌّ . فَقَالَ عَلِيٌّ : وَاللَّهِ لَا نَعُوْثُهَا أَبَدًا ! قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَرِنِي مَكَانَهَا . فَأَرَاهَا فَمَحَاهَا وَكَتَبَ « مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ » . قَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَا أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ هَذَا كُلَّهُ حَدَبٌ عَلَى الْإِسْلَامِ وَغَضَبٌ لَهُ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَطَّلِعُوا مِنَ الْأُمُورِ مَا تَطَّلَعُهُ الرَّسُلُ . فَهَذَا مَوْقِفُ أَبِي بَكْرٍ مَشْهُورٌ .

وَإِنَّمَا عَظُمَتِ الْفِتْنَةُ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ لِأَنَّهُمْ خَرَجُوا لَا يَشْكُونَ فِي الْفَتْحِ ، لَرُؤْيَا النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ أَنَّهُ حَلَقَ رَأْسَهُ وَدَخَلَ الْبَيْتَ وَأَخَذَ مِفْتَاحَ الْكَعْبَةِ وَعَرَّفَ مَعَ الْمَعْرُوفِينَ ، ثُمَّ تَجَهَّزَ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ وَهُوَ يَرِيدُ مَكَّةَ عِنْدَهُمْ وَقَدْ كَانَ تَلَا عَلَيْهِمْ : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ ﴾ الْآيَةَ . فَلَمَّا رَأَوْا الصُّلْحَ وَالشَّرْطَ ، وَعَايَنُوا الرَّجُوعَ اضْطَرَبُوا لِذَلِكَ ، مَعَ الَّذِي كَانَ فِي نَفْسِهِمْ مِنْ قَوْلِهِ : « إِنْ أَتَى قَرِيْشًا أَحَدٌ مِّنْ كَانَ عَلَى دِينِ مُحَمَّدٍ لَمْ تَرُدَّهُ ،

وَمَنْ أُنِيَ مُحَمَّدًا مِنْ هُوَ عَلَى دِينِ قُرَيْشٍ رَدُّهُ . فَأَخْرَجَهُمْ مَا ذَكَرْتُ لَكَ إِلَى مَا ذَكَرْتُ قَبْلَ .

وأقبل عمر على أبي بكر فقال : يا أبا بكر ، أليس قد أخبرنا النبي صلى الله عليه عن الله وتلا علينا القرآن : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ ؟ قال أبو بكر : نعم . قال عمر : فما بأله رجعت بنا ولم ندخلها ؟ قال له أبو بكر : وهل قال لك متى ؟ إنما قال : لتدخلن ، وأنتم داخلوها لا تحالة . وإنما كان لك مقالاً لو ضرب لك أجلاً فرأيت خلافه . واعلم أن الحق ما قال وصنع .

فلم يبق في قلب مخلص جهلاً بموضع الحجبة في ذلك ، ولا في قلب مستريب دخله الشك شيئاً إلا أصلحه . فهذا وشبهه نعرف إخلاص الرجل وقدره ، وسعة صدره ، وكثرة علمه .



[١٨ - حكمة أبي بكر عند موت النبي]

ثم أخرى ، أنقذ الله به من الضلالة ، والناس بين ساكت لا غناء عنده ، أو خائف مستريب يحتاج إلى التعريف ، أو موقن يحتاج إلى المائدة وتلقين الحجبة .

من ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما توفى اقتحم الناس عليه في منزل عائشة ، فلما نظروا إليه مسجى دخلهم أمر عظيم أذهلهم وحير عاينهم ، حتى قالوا : لم يموت ، وكيف يموت وهو شهيد علينا ونحن شهداء على الناس ؟ وكيف يموت وقد قال الله : ﴿ لِيُظْهَرَ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ ولم يظهر بعد ؟ !

وكان عثمان بن عفان وعمر بن الخطاب يرددان هذه الآيات ، وتوعدا أصحاب النبي صلى الله عليه : من قال إنه مات . وثاروا في حجرة عائشة وعلى الباب : لم يموت !

وكان أول من رآه مسجياً فانكسر موته عثمان ، وقال : إنه والله ما مات ، ولكن الله رفعه إليه كما رفع عيسى بن مريم ! والله لا نسمع أحداً يقول مات إلا قطعنا لسانه !

واضطرب الناس وماجوا وقام عمر في الناس خطيباً فقال : لا اسمعن أحداً يقول إن محمداً مات ! وإن محمداً لم يموت ، ولكن الله رفعه . أرسل إليه كما أرسل إلى موسى عليه السلام فلبث عند قومه أربعين ليلة . وإني لأرجو أن يقطع الله أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أن محمداً مات !

فبينما الناس هكذا إذ أقبل أبو بكر ، على فرس له ، من الشح فسمع مقالة عمر وما يقوله الناس وما خاضوا فيه ، فبدأ بالنبي صلى الله عليه وسلم فدخل عليه وهو مسجى ، فكشفت عن وجهه فقبله ، ثم أقبل نحو المنبر وقال : أيها [ذا] الخالف على رسلك ! فلما رآه عمر قعد ، وقام أبو بكر خطيباً ثم قال : أيها الناس اجلسوا وأنصتوا ، ثم حمد الله وأثنى عليه وصل على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :

أيها الناس ، إن الله قد نعى نبيكم إلى نفسه وهو حي بين أظهركم ونعاكم إلى أنفسكم ، فهو الموت حتى لا يبقى أحد . ألم تعلموا أن الله قال ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ .

قال عمر : بأبي أنت وأمي ! فسكت الناس وأظهروا التسليم ، وعرفوا الحق وبكروا ، كأنهم لم يكونوا سمعوا بهذه الآية قط .

ثم تلا : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾ ثم تلا : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ ثم تلا : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ ، ثم مر في خطبته المشهورة المعروفة . فهذا هذا .

ثم أقبل على عمر وعثمان فقال : قال الله : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ ، يقول : إنكم

شهداء على مَنْ تَلَقَّوْنَ مِنْ لَمْ يَلِقِ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ ، كما كمان النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه عليكم شهداء . وقال الله : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ ، وإنما أراد دينه ، واللهُ مُتِمُّ نُورِهِ ومُظْهِرُ دِينِهِ . فإذا أظهر دينه فقد أظهره .

فهذا علمه وقدره وفهمه وحاجة الناس إليه .

[١٩ - حكمة أبي بكر في الزكاة]

ثم الذي كان مِنْ مَشِيِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ إِلَيْهِ وَكَلَامِهِمْ لَهُ ، لِيَقْبَلَ الصَّلَاةَ مِنَ الْعَرَبِ وَيَتْرَكَ الزُّكَاةَ ، وَقَالُوا : إِنَّهُمْ لَوْ قَدْ صَلَّوْا لَقَدْ زَكُّوْا ، قَالَ : وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عَقَالاً مِمَّا أَعْطَوهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ لَجَاهَدْتُهُمْ عَلَيْهِ ! فَقَالَ لَهُ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ : أَوْلَيْسَ قَدْ قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « أَمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، فَإِذَا قَالُوا حَبَسْنَا بِهَا دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ » . قَالَ أَبُو بَكْرٍ : إِنَّ فِيهَا « إِلَّا بِحَقِّهَا » . قَالُوا : صَدَقْتَ . أَلَا تَرَى إِلَى أَنَّهُ قَدْ عَلَّمَ الْجَمِيعَ مَا لَمْ يَعْلَمُوا ، أَوْ صَيَّرَهُمْ إِلَى رَأْيِهِ بِقَدْرِ الْمُخَالَفَةِ لَهُ .

ونقلوا إلينا أن الأنصار قالت : يا خليفة رسول الله ، أليس قد قال النبي صلى الله عليه : « أَمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، فَإِذَا قَالُوا حَبَسُوا بِهَا دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحَسَابِهِمْ عَلَى اللهِ » قال أبو بكر : فهذا من حقها ، والله لو كنت وحدي لجاهدتهم حتى أقتل أو يُظْهِرَ اللهُ الْحَقَّ وَيُزْهِقَ الْبَاطِلَ ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زُهوقاً .

ثم مضى نحو أهل الردة يريددهم مُغْضَباً حَتَّى لَحِقَهُ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ ، فَمَنَعُوهُ وَكَفُّوهُ وَتَقَدَّمُوا أَمَامَهُ .

وهذا خبر نقله أصحاب الأخبار مُرَجِّعِيهِمْ وَشَيْعِيهِمْ إِلَّا الرَّوَافِضَ ، فَإِنَّهُمْ لَا يَطَاقُونَ ؛ لِأَنَّ مِنْ يَجْحَدُ الْمُسْتَفِيزَ الشَّائِعَ بِالْأَسَانِيدِ الْمُخْتَلِفَةِ فِي الدَّهْرِ الْمُتَفَاوِتِ ، وَيُوجِبُ عَلَى خَصْمِهِ لَهُ تَصْدِيقَ الشَّاذِّ الَّذِي لَا يُعْرَفُ وَلَا يُدَّعِيهِ إِلَّا

أهل الغلو من الروافض ، ممتنع الجانب ، عسير المطلب ، لا يُطاق ولا يُجَارَى .

ثم رأينا علياً يروي عنه ، ويزكّيه ويفضّله ، ولم نسمعه روى عن عليٍّ شيئاً ولا زكاه ولا فضله . على أن علياً قد كان عنده فاضلاً عالياً ، علماً وجيهاً .

ثم الذي كان من قول عثمان بن عفان له . وذلك أن عثمان حزن على النبي صلى الله عليه حزناً لم يحزنه أحدٌ ، فأقبل أبو بكرٍ يُعزّيه للنبي يرى به من عظيم ما قدحَه وغمّره ، فقال عثمان : ما آسى على شيء ، إنما آسى على أنني لم أسأل النبي صلى الله عليه عما فيه نجاة هذه الأمة ! قال أبو بكر : قد سألت النبي صلى الله عليه عن ذلك : فقال : « مَنْ قِيلَ الكَلِمَةُ الَّتِي عَرَضْتُهَا عَلَى عَمِّي فَأَبَاهَا » .

ألا ترى إلى حاجة الجميع إليه واستغنائه عنهم .

ولو لم يُعلّم من سعة علمه إلا قوله للمهاجرين والأنصار حين أشاروا عليه بأن يقبل الصلاة وقالوا إنهم لو قد أقاموا الصلاة لآتوا الزكاة . قال أبو بكر : إن تميماً إن أذن لها من الإسلام في نقض عُرْوَةٍ لم تُرَضْ بمثلها بكر بن وائل ، ولو أعطيت كنانة وألفافها وأحابيشها أمراً لم تُرَضْ قيسٌ حتى تزداد ، ولئن سمعت قولكم لانقضن الإسلام عُرْوَةَ عُرْوَةٍ .

[٢٠ - حكمة أبي بكر في انفاذ جيش أسامة]

وفي مشيهم إليه في تأخير جيش أسامة يشيرون عليه ويقولون ما كتبنا في صدر الكتاب ، وفي قوله : « لو بقيت وحدي حتى تأكلني الكلاب ما أخرت جيشاً أمر رسول الله صلى الله عليه بإنفاذه والوحي ينزل عليه » ، فلئن كان ما وصفنا لا يدل على جودة الرأي وصحة العزم وكثرة العلم ، وعلى الشهامة والصرامة ، واليمن والبركة ، فما في الأرض دليل على فضيلة رجلٍ ونقصه .

[٢١ - حكمة أبي بكر في مكان قبر النبي]

ومما يدلُّ على سعة علمه وأنه كان المَفْرَعُ دون غيره أن المهاجرين عامَّةً وبني هاشمٍ خاصَّةً اختلفوا في موضعِ دَفْنِ رسولِ الله صلى الله عليه ، فقال قائل : خير المدافن البقيع ، لأنه كان كثيراً ما يستغفر لأهله . وقال آخرون : خير المواضع موضعُ مصلاه . وقال آخرون : عند المنبر . قال لهم أبو بكر : إنَّ عندي فيما تختلفون فيه علماً . قالوا : فقلْ يا أبا بكر . قال : سمعت رسولَ الله صلى الله عليه يقول : « ما مات نبيُّ قطُّ إلا دُفِنَ حيث يُقبَضُ » . فخطبوا حول فراشه ثم حولوا رأس رسولِ الله صلى الله عليه وسلم بالفراش في ناحية البيت . فلم نجد النَّاسَ احتاجوا مع خبره إلى شاهد ، ولم يختلف عليه في ذلك رجلان ، ولا أظهر الشُّكَّ في خبره إنسان واجدٌ قريب ولا بعيد . هذا والمنزل منزل ابنته ، وهو في موضعٍ جَرَّ منفعةً وكما تكون المنفعة ، وهي المأثرة العظمى والشرف الأعلى .

فمن لم يُتهم في خبره على هذه الحال ومع هذه العلة حتى قُبلت شهادته وخذته ، لجدير ألا يتقدَّمه أحدٌ في القدر والعلم ، والأمانة والصدق .

[٢٢ - شهادة علي في أبي بكر]

ومما يدلُّ على أنه كان ثابتاً عندهم قولُ علي بن أبي طالب رضي الله عنه وروايته عنه ، وذلك أن علياً قال : كنتُ إذا سمعتُ من النبي عليه السلام حديثاً يتفني الله بما شاء منه ، فإذا حدَّثني غيره استحلقتُّه ، فما حَلَفَ لي صدقته ، وإنَّ أبا بكر حدَّثني - وصدق أبو بكر - أن النبي صلى الله عليه قال : « ما من رجلٍ يُذنب ذنباً فيتوضأ فيحسن الوضوء ثم يصلِّي كعتين ويستغفر الله إلا غُفِرَ له » .

وهذا حديثٌ ما سمعت له برادٌ إلا أهل الغلو من الروافض . وقد قال

قوم منهم : إنما كان هذا من عليّ التقيّة للعوام ، لطاعة العوام لأبي بكر وعمر . وما في هذا من التقيّة ؟ أن يصلّق رجلاً على خبره وأن يكذب غيره أو يؤمن غيره . وإن هذا من أخلاق الناس لموجود : أن يزكّي بعض بعضاً ويفضل . فنرى عليّاً يحمل عنه ويروي عنه ويزكّيه ويفضله ، ولم نره صنع بعليّ من ذلك شيئاً .

ولقد بلغ من تبطنه لأمر النبي صلى الله عليه أن النبي صلى الله عليه لما حاصر أهل الطائف قال عمر لأبي محجن : إنما أنت ثعلب في جحر يوشك أن يخرج ! قال أبو محجن : هل هو إلا أن قطعتم حبال عنب ، وفي الماء والتراب ما يعيده . قال عمر : لا تقدر أن تخرج إلى ماء وتراب ، ولا تبرح باب جحرك حتى تموت جوعاً . قال أبو بكر : يا عمر لا تقل هذا فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يؤذن له في فتح الطائف . فسأل عمر النبي صلى الله عليه فقال : نعم لم يؤذن لي .

قالوا : ولم يكن علم ذلك من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم غير أبي بكر . ولو علمه أحد غيره لكان عمر *مراحمه في تزيين علوم رسول*

قالوا : في خطبة النبي صلى الله عليه في شكاته التي توفي فيها والمسلمون شهود ، وفي معرفته بالذي أراد النبي صلى الله عليه وسلم بكلامه دون جميع الناس ، دليل على أنه المخصوص بحسن المعرفة ، وفضيلة الدراية .

وذلك أن أول ما تكلم به النبي صلى الله عليه على المنبر أن قال : « والذي نفسي بيده ، إني لقائم على الحوض الساعة » . ثم تشهد فلما قضى شهادته كان أول ما تكلم به أن استغفر للشهداء الذين قتلوا بأحد ، ثم قال « إن عبداً من عباد الله خير بين الدنيا والآخرة فاختار ما عند الله » . فبكى أبو بكر . قالوا : فتعجبنا من بكائه . وقال : بأبي أنت وأمي وبآبائنا وأمّهاتنا وأنفسنا وأموالنا . قالوا : فتعجب الناس من كلام أبي بكر وبكائه وقالوا : أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن رجل !

قلنا : إنا لم نكن في عُمر وعلي ، ولو قد صرنا إلى الإخبار عنها تقدّمنا
بالذي يُعرفكم فضيلة عمر ، كما حكينا ووصفنا وتقدّمنا في الإخبار عن فضيلة
أبي بكر .

ولقد بلغ من صحّة فكره وصدق ظنه وقوّة جسّه أنه كان يظنّ الأمر فيقع
به أو قريباً منه . ولذلك قال عمر : إنك لن تنتفع بعقل المرء حتى تنتفع بظنه .

[٢٣ - صدق ظن أبي بكر]

فمما يدلّ على صدق ظنّ أبي بكر وجسّ نفسه أن عائشة لما دخلت عليه في
شكاته التي قبضه الله إليه فيها ، أنشدت عنده شعراً تذكر فيه ما رأته في أبيها .
قال أبو بكر : لا تقولي هذا يا بنية ، ولكن قولي : ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق
ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ ، أي بنية إنّي كنت نحلّتك جِدادَ عشرين وسقاً من مالي
بالعالية ، وإنك لم تحوزيه ولم تقبضيه ، وإنما هو مال الوارث ، وإنما هما أخواك
وأختاك . قالت عائشة : إنما هي أسماء ! قال : إنه ألقيني في روعي أن ذا بطن
بنتِ خارجة [جارية] . فوضعت جارية فسُميت أم كلثوم .

وله مما كان يقع في خَلده ويصدق فيه ظنه وتصحّ فيه فراسته أمورٌ عجيبة .

[٢٤ - فقهاء الاسلام . عودة الى فقه علي]

ولو قالوا : إن علياً كان من فقهاء أصحاب النبي صلى الله عليه لقد كان ذلك
عدلاً وقصداً ، وحسناً جميلاً ، كما قال إبراهيم والشعبي : الفقه من أصحاب
النبي صلى الله عليه في ستة : في عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ،
وعبد الله بن مسعود ، وأبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت .

وقد زاد قومُ أبا الدرداء ، وأبا موسى . وقد قال مسروق : انتهى علمُ
أصحاب رسول الله إلى هؤلاء الستة : عمر ، وعلي ، وعبد الله ، وأبي ، ومعاذ ،

وزيد .

وقال الشعبي : كانت القضاة أربعة : عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعري .

فلو أنهم كانوا يرضون بقول الفقهاء وراي التابعين ، ولم يُسرفوا وقصدوا ، كان ذلك قِصداً . ولقد تعدوا فيه الحق حتى قالوا : لم يقل قط قولاً يُمكن أحسن منه ، ولا قال قولاً قط فرجع عنه . وقد علمنا أن له غير رجعة ، لا اثنتين ولا ثلاثاً ، وأقارب لا يجوزها أصحاب الفتيا . وما كان إلا كبعض فقهاءهم الذين يكثر صوابهم ويقل خطأؤهم . ولم تكن لتجمع جميع هفوات إنسان وأخطائه حتى تقرأه مجموعاً إلا ظننت به العجز . وليس ذلك كذلك ، لأنك لو قذفت بجميع ذلك في محاسنه لخبني عليك موضعه ، ولصغر خطره وقدره .

وإنما حكينا هذا لأنهم جمعوا العسر وعثمان أموراً أرادوا بها عيبهم ونقصهم ، ولعمري إن الخطأ خطأ حيث وقع ، ولكن ربما كان خطأ لا يخرج صاحبه من الحكمة . والخطأ أمر لكل بني آدم فيه حظ ونصيب ، وهو أمر لم يسلم منه نبي ولا صديق ولا شهيد ولا أحد من العالمين .

ومما تقرّره به مما رواه جمال الآثار من رجوعه وما لا يجوز من فتياه ، قوله : أجمع رأيي ورأي عمر على عتق أمهات الأولاد ، ثم رأيت أن أربهن .

ونقلوا جميعاً أن عمر وعلياً اختلفوا في الجحد ، فقال علي بقول ، وقال عمر بقول ، ثم رجع عمر إلى قول علي ورجع علي إلى قول عمر .

ونقلوا جميعاً أن زيد بن ثابت قال لعلي وهو يحاجه في المكاتب : أرايت إن زنى أنت راجه ، قال : لا . قال : أرايت إن شهد أتقبل شهادته ؟ قال : لا . قال زيد : فهو إذا عبد ما بقي عليه درهم . فسكت علي .

وزعم أصحاب داود بن أبي هند ، عن داود عن الشعبي ، أن علياً رجع

عن قوله : « في الحرام ثلاث » .

وكلم عليّ عثمان أن يحجز عليّ عبد الله بن جعفر في شيء كان اشتراه ،
وقد كان الزبير قال لعبد الله : خذهُ فأنا شريكك . فقال له عثمان : كيف أحجز
على إنسانٍ شريكه الزبير ! فسكت عليّ .

وقال في المكاتب ، إذا أدى من ثمنه شيئاً ، إنه يُسْتَرَقُّ بحسابٍ ويُعتَق
بحساب .

وقال في النصرانية تُسَلِّمُ وهي تحت النصرانية قال : هو أحقُّ بها ما لم
يُخْرِجْها من دار الهجرة .

وقال في رجلٍ قال لامرأته : « اختاري » واختارته ، ثم قال : « اختاري »
فاختارته ، ثم قال الثالثة : « اختاري » فاختارته ؟ قال : أفرق بينهما ، فإن أنا
فعلت كذا وكذا .

وقال في أعورٍ فقأ عين صحيح ، فأراد الصحيح أن يفقأ عين الأعور الذي
فقأ ؟ قال : لا يفقؤها إلا أن يؤدي نصف الدية .

وقال في الجَدِّ : إنه سادس سنة ، وسابع سبعة . وكتب إلى عبد الله
بذلك ، وقال : قَطَعَ الكتابَ واجعله سابعاً .

وقال في جارية وثبت عليها امرأة رجلٍ غائب فافتضت عُذرتها بإصبعها ،
ثم قذفتها لتسقطها من عين بعلمها ، وكانت خافت أن يتزوجها ، فرُفِعَ ذلك إليه
فقال لبعض بنيه : قل في هذه المسألة . قال : عليها صدق مثلها . قال : لو
كلفنا الإبل الطحن طحنت ! فاشتدَّ تعجب أصحاب عبد الله من هذه المقالة .

وكان يرى حكَّ أصابع الصبيان إذا سرقوا .

وكان إذا قَطَعَ الرجلُ قَطَعَ القدمَ وترك العقبَ ليمشي عليه المقطوع ،
وليَعْتَمِدَ به . وكان يَقَطِعُ اليَدَ من أصول الأصابع ويدع الكفَّ .

وزعم عبد الله بن سلمة وغيره ، عن الأعمش ، عن الشعبي أو عن غيره ، أنه سُئل عن رجل قال لامرأته : أنت طالق ألف تطلقه ، وله أربع نسوة ؟ قال : تَينُ بثلاثٍ وتُقَسَّمُ الباقيةُ على نساته .

ويقال لهم : هل تعلمون أن الله ذَكَرَ آدَمَ وهو أوَّلُ النَّبِيِّينَ فقال : ﴿ فَتَسَى وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ .

وذكر موسى وقتله النفس . وذكر يونس بن متى فقال : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ . فالمدليل على أن يونس قد كان ضيَعَ وأساء قوله : ﴿ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ وقول الله : ﴿ فَالتَقَمَهُ الحُوتُ وهو مُلِيمٌ ﴾ .

وذكروا داود وسليمان في قضية واحدة ذهب عنها داود وأصابها سليمان ، حيث يقول الله : ﴿ وَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ فلم يكن ذهاب داود بمُخْرِجِهِ من قول الله : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ وَفَضَّلْنَا الحِطَابَ ﴾ . وقد كان منه ما قد علمت ، حتى أنزل الله عليه الملكين يَكْتَبِيَانِ عن قِصَّتِهِ ، وَيَزِيدَانِ وَعِظَهُ فِي قِصَّةِ : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الحِطْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا المِحْرَابَ ﴾ .

وقد عاتب الله جل ثناؤه نبيه في غير موضع فقال : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ وقال : ﴿ لَقَدْ كَذَبْتَ تَرَكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ﴾ وقال : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ .

وعاتبه في الأسرى وأخبره أنه قد تقدم أمره في إطلاقهم حتى قال : ﴿ لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمُسُكُمْ فِيهَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وقال الله وهو يريد جمع المأمورين والمنهيين : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ .

فإذا كان الله قد أخبر بما ترى عن المعصومين فلم يتبع قوم على عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان خطاياهم وهفواتهم ، وللمعمرية، والعثمانية أن

يعودوا عليهم بمثل ذلك وأكثر منه ؟

وَمَنْ أَجْهَلُ مِنْ رَجُلٍ زَعَمَ أَنْ عَلِيًّا لَمْ يُحْطَىءَ قَطُّ وَلَمْ يَعْصِرَ قَطُّ ، وَلَمْ يَضِيْعَ شَيْئاً قَطُّ ، وَقَدْ سَمِعَ اللّٰهَ يَحْكِي أَمْوَرَ أَنْبِيَائِهِ ، وَيَذْكَرُ أَحْوَالَ رُسُلِهِ ؟ !
ولسنا نحتاج في هذا الباب إلى أكثر من هذا .

[٢٥ - علي ليس أفقه الناس]

وكيف يقولون : عليُّ فوق الناس كلهم في صواب السراي ، والفقه في الدين ، ولا يكون كالرجل من عظام السلف لضرب يخصه فيهما ، ونحن إذا سألنا الفقهاء وأصحاب الآثار والعلماء ، عن أصحاب القرآن الذين كانوا مخصوصين بحفظه على عهد رسول الله صلى الله عليه ، قالوا : زيد بن ثابت وأبو زيد ، وفلان وفلان . ولم يذكروه في باب المخصوصين بحفظ القرآن أيام حياة رسول الله صلى الله عليه .



فإن سألناهم عن أصحاب الحروف والقراءات والوجوه ، الذين بقراءتهم يقرأ الناس ، وبقدر اختلافهم اختلف الناس ، قالوا : زيد بن ثابت ، وأبي بن كعب ، وعبد الله بن مسعود . ولم يُذكر منهم ، لأننا شاهدنا الناس يقولون : هذا في قراءة عبد الله بن مسعود ، وهكذا هو في مصحف عبد الله . وهذا في قراءة أبي ، وهكذا هو في مصحف أبي . وهذا في قراءة زيد ، وهكذا هو في مصحف زيد . ولم نرهم يقولون : هذا في قراءة علي ، وهكذا هو في مصحف علي .

وإن سألناهم عن أصحاب التأويل والتفسير قالوا : عبد الله بن عباس ، والحسن ، وفلان وفلان ، ولم يذكروه في هذا الباب .

وإن سألناهم عن أصحاب الرواية ، والمشهورين بكثرة الإسناد عن رسول الله صلى الله عليه قالوا : ابن عمر ، وعبد الله بن عمرو ، وجابر بن

عبد الله ، وعائشة ، وأبو هريرة . ولم يُذكر معهم في هذا الباب .

وإن كان الدليل على فقه المتبوع فقه أتباعه فعبدُ الله بن مسعود وعائشة أفقه منه ، لأن أصحاب عبد الله وعائشة أفقه من أصحابه ، فكيف صار أفقه خلق الله كلهم والقصة على ما أنبأناكم ووصفنا لكم .

على أنه كان فقيهاً عالماً ، قد أخذ من كل بابٍ بنصيب ، ولا نقول فيه - إذ كنا عثمانيةً وعمريّةً - قولكم في عمر وعثمان . أو ما تعلم أن الخبير مستفيض بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أقرؤكم أبي » ١٩ فتري أيّاً . كان أقرأ منه . وقال : « أفرضكم زيد » فتري زيدا كان أفرض منه . وقال : « وأعلمكم بالحلال والحرام معاذ » فتري معاذاً كان عند النبي صلى الله عليه أعلم منه . وقال : « وأفضاكم عليّ » فينبغي أن يكون عليّ أفضى منهم . وأنتم لا ترضون أن يكون زيد أفرض منه ، ولا أبي أقرأ منه ، مع أن « أفضاكم عليّ » ليس هوي حديث البصريين ، فإن كان كما رواه البصريون فهو لاء النفر أعلم منه . وإن كان كما رواه غيرهم فكل واحد أفقه من الآخرين فيما ذكرته ، فهذا هذا .

مركز تحقيقات كويتيون علوم إسلامية

[٢٦ - تصور علي في التدبير والياسة]

فإن صرت إلى أن تسأل الناس عن الاختيار، وجودة الرأي ، والقوة في السلطان ، والضبط للمدد والعوام قالوا : أبو بكر وعمر .

وإن سألت عن الفتوح قالوا : أبو بكر وعمر وعثمان ، لأن أبا بكر رد الإسلام في نصابه برد أهل الردة ، وهو الفتح الأكبر ، وقتل مسيلمة ، وأسر طليحة ، وغزا العدو ومنع الحوزة .

ولأن عمر دون الدواوين ، وفرّض الاعطية وجند الأجناد ، ومصر الأمصار ، وجبى الفياء ، وبلغت خيله إفريقية ، وأوطأ خيله خراسان وأقصى كرمان ، وأزال ملك بني ساسان .

ولأن عثمان هو الذي افتتح الثغور كلها : افتتح إربينية ، افتتحها حبيب
ابن مسلمة الفهري وافتتح أذربيجان ، افتتحها المفيرة بن شعبة ، وقد كان
الاشعث معه فيها . وافتتح إفريقية ، افتتحها له عبد الله بن سعد بن أبي سرح .
وافتح سجستان ، افتتحها له عبد الله بن سمره .

فهذا باب المخصوصين بالفتح .

وإن سألت عن الذهاة وأصحاب الإزب والمكايد قالوا : عمرو بن
العاصر ، والمغيرة بن شعبة ، ومعاوية بن أبي سفيان . ولم نذكر فيهم زياداً لأن
زياداً لا صحبة له . فهذا باب الذهاة .

وروى الناس عن قبيصة بن جابر الأسدي وكان علامة داهية حكماً ، أنه
قال : « ما رأيت رجلاً قط أخوف لله من أبي بكر ، ولا أقوى في دين الله من
عمر ، ولا أصدق حياة من عثمان ، ولا أواصل لرحم ولا أعطى من تلاد مال
من طلحة ، ولا أكثر مخارج في الأمور من معاوية ولا أخضر جواباً ، ولا أكثر
صواباً من عمرو . » ولم نره ذكره .

ثم الذي كان من أسماء بنت عميس ، ومن قولها - وعلي بن أبي طالب
شاهد ، لما تفاخر عندها بنوها من جعفر وأبي بكر وعلي ، قال لها علي : اقضي
بينهم - قالت : ما رأيت شاباً أظهر من جعفر ، ولا رأيت شيخاً أفضل من أبي
بكر ، وإن ثلاثة أنت أحسبهم لفضلاء .

فهذه قضيتها ؛ ولم يرو عن علي في ذلك إنكار .

فإن قلتم : إن قولها ليس بحجة . قلنا : قد صدقتم لو كان ليس بحجة
إلا قولها فقط ، ولكن الأمور إذا جاءت من ها هنا وها هنا كان اجتماعها دليلاً
على أنه لم يكن عندها مع فضلها وصلاحيته وسابقته وقرابته ذا رأي .

ولقد بلغه ذلك عن قريش حتى قام خطيباً معتذراً فقال في خطبته : « حتى قالت
قريش : ابن أبي طالب شجاع ولكن لا علم له بالحرب ، لله أبوهم أهل منهم

أحد أشدّ مراساً لها ولا أطولُ تمجربة مني . لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين ،
فها أنا الآن قد ذرقت على السنين ، ولكنه لا رأي لمن لا يطاع .

وقال الأحنف بن قيس لما قديم عبيد الله بن علي بن أبي طالب - وهو قتيل
المختار بن أبي عبيد في أيام فتنة ابن عُمرية العبدي : ما هذا الذي أنتم فيه ؟
قالوا : قديم عبيد الله بن علي يدعو الناس . قال : إن كان لا بُدَّ فجنّبوها حسناً
وأبا حسن ، فإننا لم نجد عندهم علماً بالحرب ، ولا إنالة للمال .

وقيل لأبي بَرزّة الأسلمي : لم آثرت صاحب الشام على صاحب العراق ؟
قال : وجدته أطوى لسره ، وأملك لعنان جيشه ، وأنظر لما في نفسه .

وفي قول العباس بن عبد المطلب ، وهو حلیم قريش - وإذا كان حلیم
قريش فهو حلیم العرب ، والحلم اسم جامع للعلم والخزم - وذلك أنه لما قبض
عمر وصلّ صهيباً بالناس دعا العباس علياً فقال : هل أحدثتم شيئاً ؟ فقال :
فاحفظ عني ، فإنني لم أقدمك في شيء إلا رأيتك مستأخراً . من ذلك أني قلت
لك ورسول الله صلى الله عليه وسلم تقبل : ادخل عليه فسأله ، فإن يكن هذا
الامر فينا أعلمه الناس ، وإن يكن في غيرنا أوصني بنا . فتركت ذلك وقد منيت
بدهاة قريش ، وقد جيل دوني ، فلا يعرضن عليك شيء إلا قلت : لا لا ، ولا
يا أبتى ، تقصر عينيك وتحك قفاك ، بعد فوت الأمر .

ففيما ذكرنا دليل أنه كان لا يساوي أبا بكر ولا يجاربه ، ولا يدانيه ولا
يقاربه ، وأنه في طبقة أمثاله طلحة والزبير ، وعبد الرحمن وسعد .

[٢٧ - أبو بكر ازهد من علي]

فإن قالوا : فإن علياً كان ازهد فيما تناسخ الناس عليه ، ولأن ازهد الناس
في الدنيا أرغبهم في الآخرة ، ولأن أرغبهم في الآخرة أعلمهم بأحوال الآخرة .

قلنا : قد صدقتم في صفة الزهد ، ولكن أبا بكر كان ازهد منه .

وسندلکم علی ذلك .

فمن ذلك أن أبا بكر كان ذا مال كثير، ووجه عريض، وتجارة واسعة، فأنفق ذلك في سبيل الخير وعلى أهله، إشاراً لله ولرسوله، وطلب ما عنده، حتى لقي [الله]، وما كانت تركته يوم مات غير بعير ناضح، وعبيد صيقل، مع الخلافية وكثرة الفتوح والغنائم والمخرج والصدقة .

وكان علي بن أبي طالب مقلداً مخفياً يعال ولا يعول، فاستفاد الرباع والمزارع، والعيون والنخيل، ومات ذا مال وأوقاف، وما يحسب ماله ووقفه يتبع إلا مثل كل شيء ملكه أبو بكر منذ كان في الدنيا إلى أن فارقتها

[٢٨ - اهلي مزواج علی خلاف ابي بكر]

وتزوج [علي] فآثر، وطلق فآثر، حتى عابه بذلك معاوية، وجعله طريقاً إلى تنقصه، وسبيلاً إلى الطعن عليه، فقال وهو يكتفي عن ذكره ويُرَبِّدُه ؛ لِيَكُونَ أَسَدٌ لِسَهْمِهِ ، وَأَوْقِعَ فِي قَلْبِ مَنْ سَمِعَهُ : « إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَنَا بِنُكْحَةٍ وَلَا طَلْقَةٍ » .
وَالْأَثَارُ أَنَّ عَلِيًّا رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، اسْتَشْهَدَ وَعِنْدَهُ تِسْعَ عَشْرَةَ سُرِّيَّةً مَطْهُمَةً وَأَرْبَعًا نَسُوءَ عَقَائِلَ .

ولا سواء من كان ذا مال فأنفق، ومن كان مقلداً فكسبه .
ولم يتزوج أبو بكر في خلافته امرأة ولا اتخذ سُرِّيَّةً ، ولا تفكه بشيء ، ولا آثر لده إن كان له طلقاً مباحاً .

[٢٩ - تقاضى علي عمالته من الخزينة على عكس أبي بكر]

ثم الذي كان من أبي بكر في عمالته : أنه كلف بني تميم ومن عنده أياديه وميته أن يردوا ما أخذ من بيت المال فيه ، لكي يجعل عمالته لله . وعلى ذلك

احتلدى عمر . وقد كان عليُّ يأخذ عمالته ، ولم يُخبرنا أصحاب الأثار أنه ردها في بيت المال ، ولا كلف ذلك بني هاشم في وصية . وهذا ما لا يختلف فيه رجلا من أصحاب الأثار ، ومحال الأخبار .

وقد كان أخذ لقوحاً وحبشيّة لرضاع بعض ولده فرد ذلك في بيت المال .

ولما بايع الناس أبا بكر غدا على سؤقه كما كان يفعل ، فقالوا : فلا بد أن نجعل لخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً يقيمه . قالوا : برديّه إذا أخلقها وضخمها وأخذ مكانها ، وظهره إذا سافر ، ونفقته على أهله كما كان يُنفق قبل خلافته . قال : رضيت . فجمع ذلك كله وحفظه ، ثم أمر بني تميم فردوه في بيت المال . فخرج من الدنيا خفيف الظهر ، خميص البطن . فلما فعل ذلك قال عمر : رحم الله أبا بكر ، لقد شقّ على من بعده !

فإن قالوا : أوليس قد كان عليُّ يتضح بيت المال في كل جمعة ويصلي فيه ركعتين ؟

قلنا : إننا لم نكن في ذكر الأمانة والحيانة ، لأن أبا بكر وعلياً يرتفعان عن هذا الضرب من المديح ، وعن هذا الضرب من النشأ ، وإنما كنا في ذكر الزهد في المباح ، وفي الإيثار والرّفص للفضول ، لأن بين الرجل يعطى ماله وعليه ، وبين من يعطى ما عليه ولا يعطى ما له فرق .

[٣٠ - أنزلت الآي في أبي بكر تكريماً له]

ومما يدل على فضله أن الله أنزل فيه من القرآن ما لم يُنزل في أحد من المهاجرين والأنصار . كل ذلك يخبر عن فضله ، ويدل فيه على مكانه منه ، ويثنى عليه ويزكّيه ويعظمه . وليس من أفرد الله فيه الآي ، وأفرده بالذكر كمن ذكره في جملة المؤمنين ، وجهور الأنصار والمهاجرين .

ولا سبيل إلى المعرفة بأن الله عفى بآية كذا وآية كذا فلاناً دون غيره إلا

بضريين : إما أن يكون اسمه وخاصةً نسبة ونعته مسطوراً في الآية ، كما ذكر فرعونَ وأبا لهب ، وفلاناً وفلاناً ، وكما ذكر آدمَ ونوحاً وإبراهيمَ وموسى وعيسى ومحمداً صلى الله عليه وعليهم .

أو يكون المراد بالآية وإن لم يذكر اسمه ، كما ذكر لقمان ، وزيدٌ . [زيدٌ] مشهور النسب معروف القصة أنه المراد بالآية ، وبشهرة القصة والنسبة حتى لا يكون بين أهل ذلك الدهر في ذلك تنازع ، ولا بين أصحاب التأويل والأخبار في دهرنا هذا ، فيكون كأنه مسمى وإن لم يُسم .

وقد كانت تحدث بين الناس أمورٌ فينزل القرآنُ عقب ذلك ، فيعلم المهاجرون والأنصار من المراد بهذا التنزيل . كالذي كان من شأن عائشة وما قُرفت به ، حتى أنزل الله لذلك السبب آياً كثيراً ، وإن لم يكن الله سُمى عائشة ولا من قرفها . وكالذي نزل من القرآن في قصة الغار وهجرة النبي صلى الله عليه وأبي بكر ، وهربهما من قريش ، ونصرة الله لهما .



مركز تحققات كويتيون علوم إسلامية

[٣١ - آية الغار]

فكان مما أنزل الله في أبي بكر من تفضيله وتزكيته وإن لم يُسمه قوله لجميع المؤمنين : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

فلا يخلو قوله : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ ﴾ من أحد وجوه : إما أن يكون مخاطب به المشركين عامةً ، أو خصص به الخاذلين العادين والباغين ، أو يكون مخاطب به المؤمنين .

ولا يجوز أن يكون عنى به المشركين ، لأنه لا يجوز في الحكمة وفي المعروف

من البيان أن يقول الرجل الحكيم المبين ، للعدو المكاشف بعداوته ، المظهر
لضعفه ، الباذل لرأيه وماله ، المعاند في فعله : إلا تنصروني فقد نصرني فلان !
لأن النصر لا يُلْتَمَس من العدو المكاشف، وإنما يُلْتَمَس من الولي أو من الخاذل .

وكيف يقول هذا وإنما غاية الانتصار منه بغيره .

وفي قول الله عز وجل : ﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ دليل أن المخاطب
بالكلام غير الذين كفروا به وجحدوه وأخرجوه . ولا يجوز أن يكون عن الخاذلين
له من قريش ومشركي مكة إلا والخاذلون قد كانوا هناك معروفين ، باثنين من
العادين المتوثبين المباديين بالعداوة ، المظهرين للمحاربة . ولا نعلمهم كانوا يبطن
مكة صنفين متميزين ، [و] فريقين متباينين ، حتى يكون كل حزب مشهوراً
بالذي هو عليه من الخذلان والعداوة . وليس بطن من بطون قريش إلا وقد لقي
النبي صلى الله عليه وسلم منه أعظم المكره وإن كانوا في ذلك على طبقات :
من مجتهد لا يبيح ، ولا يفتر ولا يسام ، ومن رجل مائل معهم بضلعه مبد
معهم لضره وإن كان لا يبلغ غلو الآخر وتصميمه وقلة إغفاله .

ولقد كانت خزاعة وثقيف على بعد أنسابها وأرحامها أحسن تقيّة من قريش
في إظهار العداوة ، والإرصاد بالمكروه ، والثبات على البقي ، كالذي بلغك عن
الأخنس بن شريق وحرورة بن مسعود ، ويذيل بن ورقاء ، من ركونهم إلى الصلح
وحبهم للسلامة ، مع قلة التسرع والتوثب . على أنهم قد أجلبوا وطعنوا ،
وكفروا وكذبوا ، بعد الإفصاح لهم بالحجة ، والإبانة لهم عن المحجة .

ولقد كان أبو لهب على قربه وقربته ، شبيهاً بأبي جهل في الغلظة
والقسوة والجفاء ، وكثرة التدرّي ، وقلة السامة .

ولم يكن أبو طالب يوم نزلت هذه الآية حياً مقيماً فيكون الله جل ذكره عنه
فيمن أطاعه من رهطه بهذا الكلام . على أنه لو كان حياً لقد كان معلوماً أنه لم
يكن هناك أحد أحسن ذباً ، ولا أشد نصراً ، ولا أظهر معونة ، ولا أشد حامية
منه .

ولم يكن الله ليُعرف قوماً موضع الخلة في النصرة ، والتقصير في المدافعة ،
إلا وأدنى منازلهم أن يكونوا مُقرنين لمن ناوَاهم ، مضطلعين بدفع من شاقهم .

ولا نعلم يومَ كانت هذه القصة ، ونزلت هذه الآية ، وبمكة رجلٌ من بني
هاشمٍ مطاعٌ متبوعٌ غير العباس بن عبد المطلب . ولا يجوز أن يقول الله للعباس
وَمَنْ كَانَ فِي ذَرَاهِ مِمَّنْ يَسْمَعُ لَهُ وَيَنْفَعُ لَأَمْرِهِ : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾ ،
وقد علم أن العباس وأشباهه من مشيخة بني عبد مناف لا أعوان لهم يومئذ من
بني عبد مناف ، لأن بني عبد مناف دنيا على قريهم وقرابتهم ، كانوا أشدَّ الخلق
على رسول الله ، كأبي سفيان بن حرب ، وعقبة بن أبي معيط ، والحكم بن أبي
العاص ، وأبي أحيحة ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة ،
وفلان وفلان . ولم تكن أميةً انمازت في ذلك الدهر من هاشم ، وكان يقال
للحيين : عبد مناف . [و] كان من أمر عثمان الذي بلغك .

فقد دلَّ الكلامُ على أن الله إنما عني بالآية المؤمنينَ دون الكافرين ؛ إذ
كانت مخاطبة العادي والخاذل على ما وصفنا . وليس أنه أراد تأنيب المؤمنين
وتقريع المهاجرين ، ولكنه أختير عن تفصيرهم عن فضيلة أبي بكر إذ ظعنوا
وأقام . وليس النقص في الفضل كالنقص في الفرض . فكأنه تعالى وعزَّ قال : لو
كنتم صبرتم مع نبيكم ، ما أقام ، إلى وقت الإذن كصبر أبي بكر معه ، ولم
تخرجوا هاربين جازعين ، ولدار نبيكم مهاجرين ، كان أشدَّ لصبركم ، وأكمل
لرغبتكم ، وأنتم لتقيتكم . وليس أنكم عصيتهم في خسروكم ، ولكن بعض
الصبر والاحتمال أفضل من بعض ، وكذلك الطاعة تطوعها وفرضها . كما قد
علمتم أن بلالاً وخباباً وعماراً حين فضهم المشركون عن دينهم جزعَ عمارُ
وأعطاهم الرضا ، مع انطواء قلبه على الإخلاص ، وتلج صدره بالإيمان ، ولكن
عزمه كان منقوصاً عن التمام ، من غير أن يكون ذلك عصياناً ولا خلافاً .
ويدلك على ذلك قول الله : ﴿ إِلَّا مَنْ أَكْرَمَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ . ولذلك قال
النبي صلى الله عليه لعمار : ﴿ إِنَّ عَادُوا فَعُدْ ﴾ يريد به التوسعة والرخصة
والإطلاق ، وليس على الأمر والترغيب .

وكما بلغك عن الرجلين الواردين على مُسَيْلِمة ، حين قال لأحدهما : أتعلم
 أي رسول الله ؟ قال : نعم . قال : أتعلم أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم .
 قال : فأمر به فقتل . وقال للآخر : أتعلم أي رسول الله ؟ قال : نعم . قال :
 فتعلم أن محمداً رسول الله ؟ قال : [لا] فأمر بتخليفة سبيله . فلما بلغ ذلك
 النبي صلى الله عليه قال : أما الأول فمضى على عزمه ويقينه فنهياً له ، وأما
 الثاني فأخذ برخصة الله فلا تبعه عليه .

فعل هذا المثال كان تقصير القوم ، لا على وجه الخلاف والمعصية .

وذلك أن أبا بكرٍ أقام بمكة ما أقام النبي صلى الله عليه وسلم ، وهاجر
 الناس الأول فالأول ، فبعض أتى المدينة ، وبعض أتى الحبشة ، حين اشتد
 عليهم البلاء وطال الذلُّ وقلَّ الناصر ، وقويت الضغائن ، فكان النفر بعد
 النفر ، والرجل بعد الرجل ، يستأذن النبي صلى الله عليه وسلم في الهجرة فيأذن
 له . وأقام أبو بكرٍ وحيداً لا أنيس له ، وذليلاً لا ناصر له ، وخائفاً لا أمان
 معه ، في كل يوم يزدادون عليه قوة ويزداد عنهم ضعفاً فإذا بلغ المجهود ،
 ولم يبق في قواه فضل يستعين به على الصبر ، استأذن النبي صلى الله عليه وسلم
 في المضي إلى إخوانه واللحاق بهم ، فيقول له : « لعل أن يجعل لك صاحباً »
 فيزداد بها أبو بكرٍ قوةً ، وتحدث له بها همة . وهذه كلمة ما قالها النبي صلى الله
 عليه لمستأذن قبله ، فيعلم أبو بكر عند ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما
 عناه ؛ فيشجع من نفسه ، ويشد من منته ، طمعه في شرف الصُحبة ، وإكرامه
 إياه بفضيلة المرافقة .

وقد استأذن النبي صلى الله عليه الناس [قبله] بسنين ، فكان أولهم أبو
 سلمة بن عبد الأسد ، وآخرهم عمر بن الخطاب ، لقرب حال عمر في الفضل
 والصبر من حال أبي بكر . فكأنه خاطب المهاجرين ، على التعريف لهم بفضيلة
 صبر أبي بكر على صبرهم ، مشحذة لهم على إعطاء الجهد ، وترغيباً لهم في غاية
 الصبر في مستقبل الأمور وحوادث الامتحان . فكأنه قال : إذا لم تستموا

الصبر ، ولم تبلغوا غاية الجهد ، ولم تصبروا ما أقام ، فقد نصرته أنا إذ أخرجته
ثاني اثنين .

والدليل على ما قلنا قولُ عمر لقريش حين بادأهم العداوة ، ونَصَب لهم
الحرب ، وأحس من نفسه بالجلدِ وشدة الشكيمة ، وقوة العزيمة : « أما والله أن
لو قد صبرنا مائة لتركتموها لنا إن تركناها لكم ، يعني مكة .

فلو كان جميع من هاجر إلى الحبشة وأن المدينة على مثل هذا العزم
والاحتمال والدفع ، وهم جميع ، لكان ذلك من أقام ووحشته أقل ، ونفوسهم
أطيب .

والدليل على فضيلة مقام أبي بكرٍ على ظعنهم أنهم حيث هاجروا ونزلوا
بالنجاشي والأنصار فنزلوا بأكرم منزلٍ به ، فكانوا في ذراه آمنين ، رافهين
وادعين ، إلا ما كان من قصة جعفر ، وسعاية عمرو ، وإحماس النجاشي
وتهيجه . فما كان ذلك إلا صذرَ نهارٍ حتى جعل الله العاقبة للمتقين . وأبو بكر
والنبي من الوحدة والقلة ، والجفوة والوحشة ، وخفة ذات اليد ، والسب
والإهانة ، والخوف بالقدر الذي لا يأتي عليه قولٌ وإن كثر ، ولا يبلغه وهم وإن
أُتسع .

وهكذا روينا عن الضحَّاك وقتادة وأبي بكر الهذلي في تأويل هذه الآية : أن
الله عاتب جميع المؤمنين بها غير أبي بكر . ولو لم يكن [رآويه] ولم يفسر ذلك
صاحبُ تأويل ، لم يجوز أن يكون تأويله غير الذي قلنا ؛ للذي شرحنا وقصنا .

ولو كانت هذه المخاطبة وقعت على الخاذلين والعادين ، أو على الخاذلين
دون العادين والمؤمنين ، لقد كان لأبي بكر في الآية ما ليس لأحد ، فكيف بها إن
كانت في المهاجرين ؛ لأن في قوله « ثاني اثنين » معنى عظيمًا ، وفي قوله :
﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ ﴾ معنى عظيم .

فإن قالوا : كل ما عظمتهم فعظيم ، ولكن بعضه لا يجوز إلا للنبي صلى

الله عليه دون أبي بكر ، وهو قوله : ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ﴾ .

قيل لهم : استكرهتم التأويل ، وصرفتم الكلام عن سنيته ، وغير تأويلكم أشبه بكلام العرب ، وأظهر في بيان الخطباء ، ومراجعة الحكماء . وذلك أن النبي صلى الله عليه كان هو الرابطة الجاش ، والثابت الجنان ، الساكن النفس ، وهو المعزى لأبي بكر ، والمسهل عليه شدة حزنه ، والمطيب لنفسه ، والمسكن لحركة قلبه ، للذي رأى وعان من أكرائه ومن اضطرابه ، وقلة سكينته . وهذه الحال التي فيها قلب النبي صلى الله عليه وخليفته ، وأبو بكر على ما وصفنا وفرقنا ، هي الفاصلة بين النبي صلى الله عليه وبين خليفته ، إذ كان الخليفة قد شارك النبي صلى الله عليه في حضوره واحتماله ، وبان منه النبي صلى الله عليه بشدة عزمه وسعة صدره ، وسكون قلبه ، كالفصل الذي بين الخليفة ووليّ عهده .

وكذلك تعجل عمر الهجرة قبل أبي بكر ، فكان بذلك أنقص فضلاً منه . وتأخر بعد المهاجرين ، فكان بذلك أتم فضلاً منهم .

وفي قول الله : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ﴾ دليل على أن السكينة نزلت على صاحبه ، وأن الهاء التي في « عليه » مضمرة فيها صاحبه . ولا يشبه أن تكون السكينة نزلت على من لم يخل من السكينة وقلة الاضطراب ، وعلى المسهل على صاحبه والمطيب لنفسه والمبشر له بالنصر ، حين يقول : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ . وهو كما أخبر أبو معاوية الضري ، عن عبد العزيز بن سبابة ، عن حبيب بن أبي ثابت : في قول الله : ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ﴾ قال : على أبي بكر ؛ فأما النبي صلى الله عليه فقد كانت السكينة عليه من قبل ذلك .

فإن قالوا : فكيف وقد قال الله على نسق الكلام : ﴿ وَأَيْدِيَهُمْ يُجْنَدُونَ لَمْ تَعْرِوْهَا ﴾ ، والمؤيد بالجنود في هذا الموضع لا يجوز أن يكون إلا النبي صلى الله عليه ، لأن الجنود الذين عنى الله ملائكته .

قيل لهم : وما تنكرون أن يكون الله أيدي رجلاً بالملائكة ، بشفاعة النبي

صلى الله عليه وبشارته وبحقُّ صحبته ، كما أيد الله جميع أهل بدرٍ بالملائكة ، وكما زعموا أن الملائكة نزلت في زِيِّ الزُّبير ، وليس أن الله حين أيد أبا بكرٍ بالملائكة أنه أراه جبريلَ وميكائيل ، ولكن ليعلمه النبي صلى الله عليه أن بحضرتيه ملائكة قد أرسلهم الله ليمنعوه من المشركين ، ليسكن بذلك روعه ، وتهداً نفسه ، وليثق بحضور النصر وتمجيل الدِّفع .

وقد علمنا أن الله لم يجعل مع كلِّ مؤمنٍ ملكين يكتبان خيرهَ وشُرَّه استذكاراً ، ولكنَّ المؤمن إذا شَمَرَ بمكانها كان أقطع له عن ركوب الأدناس ، وأدعى له إلى الاستحياء ، وليعلم أن الأمر جدُّ وليس بهزل .

فكذلك إحضار الملائكة لأبي بكرٍ ، ليكون إشارةً النبي صلى الله عليه له بذلك تسكيناً لنفسه ، وتمجيلاً لبعض ما استحق بالاحتمال والمواساة والصبر ، من الثواب المعجل دون المؤجل .

ولقد بلغ من ظهور قصة أبي بكرٍ وصحبته ومرافقته وكونه مع النبي صلى الله عليه في الغار ، أن الروافض مع شدة الإقدام ، والجُرأة على تكذيب الناقلين ، لم تقدر على دفعه وردِّه ، حتى قال منهم قائلون : إنما أخرجَه النبي صلى الله عليه خوفاً من أن يبدلَ عليه ويسمى بأمره إلى أعدائه ، لأنه كان حسُّ من النبي بالهجرة ، وعَرَف مبيقاته الذي عزم عليه .

وكيف يجوزُ أن يخاطبَ الله النَّاسَ فيقول : ﴿ إِنْ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ ﴾ والذي به كان النبي صلى الله عليه بائناً قد أبرَّ على الأعداء وأربى على الكُفَّار ، لأنَّ النُّفاق أعظم من التصريح .

وهذا ما لا يجوز في عقل ، ولا يَسْتَح في فكر ، ولا يجوز في التعارف ، ولا يليق بالبيان .

وكيف والله يقول على اتصال اللفظ باللفظ والمعنى بالمعنى ، وتركيب الآية الأخرى على الأولى : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ

العُليا .

ولا كافر أعظمُ كُفراً ، ولا أشدُّ عنوداً من ثاينيه وصاحبه في الغار ، ورفيقه في الطريق ، والمعزى لشدة حُزنه ، إن كان الشأن على ما قالوا وكما وصفوا .

وإنما المناقفة أن يكون الرجل معتقداً بلحد الرسول وعداوته ولكن الرسول هو الغالب على داره القاطع لمن باداه بالعداوة ، وناواه في الفضيلة ، فلنما يستبقي نفسه بنفاقه ، ويتزميل حقه ، وإخفاء ضيقه . فأما رجلٌ مقيم بمكة قليلاً مفرد ، وذليل مطرد ، وخائف مشرد ، بين استخفاء يُعَدِّل الموت ، أو هرب يقطع الأحشاء ، والذي هرب معه مقهور مخذول ، والغالب على داره عدوه ، فكيف كان أبو بكر منافقاً والحال على ما وصفنا ؟ !

ولولا كثرة الفساد وما عمَّ النَّاسَ من العَلَطِ وفُحْشِ الخَطِّ ما كان لذكر هذا وشبهه معنى .

والأثر المجتمع عليه من أصحاب السير والأشعار والأخبار ، أن النبي صلى الله عليه قال لحسان : أما قلتَ في أبي بكر شيئاً ؟ فأنشأ يقول :

إذا تذكرت شجواً من أخي ثقةً فاذكر أخاك أبا بكرٍ بما فعلا
التالي الثاني المحمود مشهده وأول الناس منهم صدق الرُسل
وثاني اثنين في الغار المنيف وقد طاف العداة به إذ صعد الجبلا
خير البرية أنفاسها وأطهرها إلا النبي وأوفاهما بما حملا
فجعله تالياً ، وثانياً ، وصاحباً .

وقال أبو بحدن :

وسميت صديقاً وكلُّ مهاجر
سبقت إلى الإسلام واللَّهُ شاهدُ
وبالغار إذ سميت بالغارِ صاحباً
سواك يسمي باسمه غير منكر
وكنت جليساً بالعريش المشهر
وكنت رفيقاً للنبي المطهر

فجعله سابقاً وصديقاً ، وجليساً وصاحباً .

وقال كعب بن مالك :

سبقت ، أخا تميم ، إلى دين أحمد وكنت لدى الغيران في الكهف صاحباً
فجعله سابقاً ، وجعله صاحباً .

وقال النجاشي :

غداة أتى بدرأ وحراً جلاذهم وكان جليساً بالعريش مؤازراً

فلو لم تكن له مائرة إلا ما دلت عليه هذه الآية ، وإلا شرف هذه
الصحبة ، وموقع هذه الخاصة ، ونبل هذه المرافقة ، ومشاهد الثقة ، لكان فوق
الجميع في المكانة والفضيلة ، وفي مرافقة النبي صلى الله عليه .

سمع أهل مكة الهاتف بالليل على قرن الجبل وهو رافع عقيرته ، يقول :

جَزَى اللهُ رَبُّ النَّاسِ خَيْرَ جَرَائِهِ خَلِيلٌ صَفَاءٍ طُرْدًا كُلُّ اسْطَرْدٍ
هُمَا نَزَلَا فِي الصُّبْحِ نُمْتُ هَجْرًا وَأَفْلَحَ مَنْ أَمَى رَفِيقٌ شَمْدٍ
لِيَهْنَأَ بَنِي كَعْبٍ مَكَانُ فَتَاتِهِمْ وَمَقْعَدُهَا لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَرْصِدٍ

وقال الحارث بن هشام :

رفيقان في المحيَا وفي الموت ضَمْنَا بأكرم مَشْوَى منزل ومكانٍ
فهذا هذا .

[٣٢ - آية الصفع عن مسطح بسبب قرف عائشة]

ثم الذي كان من قصة مسطح بن أثاثة وقضيته ، وكان ربيبه وابن خالته ،
وفي مؤونته وتمت جناحه ، فلما قُرِفَت عائشة بالذي قُرِفَت به وبلفك ، آلى أبو
بكر ألا ينظر في وجهه ، ولا يُنفق عليه ولا يكفله ولا يُؤمن عياله ، فلما أنزل الله

عذر عائشة وبراءتها ، ولم يرض لها بالطهارة والعفة حتى جعلها غافلة ، فضلاً على أن يكون خطراً ذلك على بالها فتنتيه ، إشاراً للحلال على الحرام . وأنزل الله على رسوله صلى الله عليه في آية يأمر أبا بكر بالصفح عن مسطح ، والتجاوز عن ذنبه ، وتغمّد ما كان منه ، وأن يعيده في كتفه وعياله ، فقال : ﴿ ولا ياتل أولو الفضل منكم والسعة ﴾ . فما ظنك بأمرى يقول الله له وفيه هذا القول ، ويصفه بهذه الصفة حتى يقول : ﴿ ولا ياتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمسكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾ ، فتلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي بكر ، فتمّ انتهى إلى قوله : ﴿ ألا تحبون أن يغفر الله لكم ﴾ قال أبو بكر : بلى يا رب ! فعفا عنه ، فوجبت له المغفرة ، وأعادته إلى نعمته ، وجعل عياله في حشاه ونحت ظلّه .

فمن أعظم قدراً من رجل يفرد الله له الآي في معظماً لشأنه ، ذاكراً لفضله على لسان جبريل ومحمد عليهما السلام . فهذا هذا .

مركز تحقيقات كويت علوم إسلامية

[٣٣ - آيات أخرى في أبي بكر]

وقد أجمع أهل التأويل على أن الله عنى بقوله : ﴿ والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين ﴾ أبا بكر ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وأمه .

وكان أبو بكر وأهل بيته أهل بيت إسلام : كان هو مسلماً ، وامراته مسلمة ، وأبواه مسلمان ، وبناته مسلمات . وليس في العشرة الذين قال لهم النبي صلى الله عليه إنهم في الجنة ، ولا في قریش قاطبة رجل مؤمن مؤمن الأبوين غير أبي بكر الصديق ، ولا في قریش خاصة والمهاجرين عامة صاحب ابن صاحب ابن صاحب غير عبد الله قتيل الطائفة ابن أبي بكر الصديق ، ابن

أبي قحافة المسلم يوم مكة ، والقائل فيه رسول الله صلى الله عليه لأبي بكر :
« فهلا تركت الشيخ في منزله فأتيناه ! » . وله صحبة .

واجتمع أهل التأويل على أن قوله : ﴿ أَفَمَنْ يَمِشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى
أَمْ مَنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ نزلت في أبي بكر وأبي جهل . إلا ترى
أن أبا جهل رأس الكفر فلم يُقرَّن به ولم يُوضَّح بإزائه من المسلمين إلا رأس
مثله .

وقال الله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴾ الآية ، يعني أبا
بكر في إنفاقه المال وعتقه الرقاب والمعذبين وقوله : ﴿ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ يعني أبا
جهل . وليس في الأرض صاحب تأويل خالف تأويلنا ولا رد قولنا أن هذه الآية
نزلت في أبي بكر .

وأما قوله : ﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُغُونَ إِلَى قَوْمِ آبَائِهِمْ
شَدِيدًا فَقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُوا فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا
تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلِ يَعْذِبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ . فزعم ابن عباس أن القوم الذين ذكرهم
بنو حنيفة ، وأبو بكر استنفر إليهم العرب ، وضمهم إلى المهاجرين والأنصار ،
حتى أظفر الله يده وأظهر حكمه .

وأما غير ابن عباس فزعم أنهم فارس والروم .

فإن كان [ذلك] كذلك فإن أبا بكر هو المستنفر إلى قتال الروم . وإن كان
عمر هو المقاتل لكسرى فإن ذلك راجع إلى أبي بكر بتأسيه لعمر واختياره له .

وقد زعم جويبر عن الضحاك في قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ . قال : أبو بكر وعمر .

وقد زعم وكيع عن الفضل بن ذهم ، عن الحسن في قوله : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي
اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ ، قال : هم والله أبو بكر وأصحابه .

ومثل هذا كثير ، ولم يجيء المجيء الذي يحتج به المنصف والمرشد ، ولكن

الحجة القاطعة في إجماع المفسرين في الآيات التي ذكرناها قبل في قصة الغار ،
والنصرة ، وفي قصة مسطح ، والعمد عنه والإنفاق عليه ، وفي قصة عبد الرحمن
ابن أبي بكر وأبويه ودعائهما له إلى الإسلام وردّه عليهما ، وقصة أبي بكر وأبي
جهل .

[٣٤ - آية طاعة الرسول وأولي الأمر ليست في علي وحده]

وقالت (العثمانية) : فان زعمت الرافضة أن الله أنزل في علي آياً كثيراً ، فكان
مما أنزل فيه وفي ولده قوله : ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ .
فاولي الأمر عليٌّ وولده . فلعمري لئن كان أصحاب الأخبار قد أطبقوا على أنها
نزلت في عليٍّ وولده إن طاعتهم لواجبة . وإن كان هذا شيئاً نقوله متقول ، أو
جاء من وجه ضعيف ، فهو مع ضعفه شاذ ، وليس في ذلك لكم حجة ؛ لأن
الحديث قد يحتمله الرجل الواحد الثقة عن مثله ، فيكون شاذاً ، ما لم يكن
مستفيضاً شائعاً قد نقل عن المستفيض الشائع . وقد يكون الحديث يحتمله
الرجلان والثلاثة وهم ضعفاء عند أهل الأثر فيكون الحديث ضعيفاً لضعف
ناقله ، ولا يسمونه شاذاً ، إذا كان قد جاء من ثلاثة أوجه . وإنما الحجة في
المجيء الذي يمتنع فيه العمد والاتفاق . وهذا الجنس من الخبر هو الإجماع .

وليس يكون الخبر إجماعاً من قبل كثرة عدد الناقلين ، ولا من قبل عدالة
المحدثين ، وإنما هو العدد الذي نعلم أنهم لم يتلاقوا ولم يتراسلوا ولا تتفق
السننهم على خبر موضوع ، مع اختلاف عللهم وأسبابهم ، ثم يكون معلوماً عند
سامع ذلك الخبر من ذلك العدد ، أنهم قد نقلوه عن مثلهم في مثل أسبابهم
وعللهم .

فإذا كان معلوماً أن فرعه كأصله كان ذلك موجباً لليقين ، وناقياً لغير الشك
واستبرابة التقليد .

وهو كنجوماً نقلوا من قصة الغار ، وقصة مسطح .

فأما ما قالوا وأدعوا أن الله عنى بقوله : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ علياً وولده دون جميع المهاجرين ، فليس من شكل ما اشترطنا ، ولا من فن ما بيننا ؛ لأن أصحاب التأويل زعموا أنها نزلت في عمال النبي صلى عليه وسلم وولاته ، وفي المسلمين ، وفي أصحاب سراياه وأجنادهم كالعلاء بن الحضرمي ، وأبي موسى الأشعري ، وعتاب بن أبي سعيد ، وخالد بن الوليد ، ومعاذ بن جبل ، يأمر الناس بطاعة الأمراء والتسليم لولاية أمورهم .

[حدث] عيسى بن يونس بن أبي إسحاق السبيعي قال : حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان قال : سألت أبا جعفر محمد بن علي عن تأويل قول الله : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ فقلت : من أولو الأمر؟ فقال : هم أصحاب محمد . قلت : إنهم يزعمون أنه علي . فقال : علي منهم .

وهذا من أثبت وأحسن ما يروون في تأويل هذه الآية ، ومن أحرى ما جمع الفريقين على تقبله والرضا به ، إذ قائله العالم المقبول عند الفريقين ، والرئيس الذي لا أحد فوقه في عصره عند الروافض .

وزعم محمد بن السائب الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس ، أن الله أنزلها في عبد الله بن حذافة السهمي .

فإذا كان تأويلها مشهوراً بما ذكرنا من الاختلاف ، فليس فيها للمتشیع حجة .

[٣٥ - آية الدخول في السلم ليست في علي]

وزعموا أيضاً أن الله أنزل في علي : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلْمِ كَأَنَّهُ ﴾ يقول : في طاعة علي .

والكلام في هذا كالكلام فيما قبله : لأن أصحاب الأخبار والتأويل لا يعرفون ذلك .

والخبير المشهور عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس وغيره أن الله أنزلها في ناسٍ من مسلمي أهل الكتاب ، كانوا بعد إسلامهم يُقيمون السبت ، ويعافون الذبيحة ، لرسوخ العادة ، وغلبة الإلْف ، فأنزل الله فيهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَمَا قَدْ قَدْ يَقُولُ : ادْخُلُوا فِي جَمْعِ الشَّرِيعَةِ ، ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ وَزَيَّنَهُ لَكُمْ الْحُكْمَ بِالْفِكْمِ لَهُ ، وَنَشُوكُمْ كَانَ فِيهِ .

وزعموا أن الله أنزل : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ .

قيل لهم : أما ظاهر الكلام فيدل على ما قال أصحاب التاويل ، كابن عباس وغيره ، حين زعموا أنها نزلت في عبد الله بن سلام ، ورهطٍ من مشركي أهل الكتاب ، وذلك أنهم أتوا النبي صلى الله عليه عند الظهر فقالوا : يا رسول الله ، إن بيوتنا قاصية ولا نجد مسجداً دون هذا المسجد ، وإن قومنا لما صدقنا الله ورسوله عادونا وتركوا مخالفتنا ، وأقسموا ألا يكلمونا .

فبينما هم يشكون عداوة قومهم لهم إذ نزلت : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ . فلما قرأها النبي صلى الله عليه قالوا : رضينا بولاية الله ورسوله والمؤمنين . وأذن بلالٌ للصلاة ، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى المسجد وهم معه ، والناس بين راعٍ وساجدٍ ، وقائمٍ وقاعدٍ ، فتلا النبي صلى الله عليه : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ الآية . فإن تكن هذه الآية كما قال ابن عباسٍ فليس تأويل الرافضة بأقرب التاويل .

[٣٦ - تأويل آية يقيمون الصلاة ويأتون الزكاة وهم راععون]

وقد عرفنا أن تأويل ظاهر هذا الكلام يشبه غير الذي قالوا ، وليس لنا أن نجعله كما قالوا إلا بخبرٍ عن النبي صلى الله عليه ، أو بإجماعٍ من أصحاب التاويل على تفسيره . وذلك أن قوله : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا

الذين يُقيمون الصلوة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴿ يدلُّ على العدد الكبير وأنتم تزعمون أنه عني علياً وحده ، وليس لأحد أن يجعل « الدين » لواحد إلا بخبرٍ يُجمَع عليه ، فإن لم يُقدر على ذلك فليس له أن يحوّل معنى الكلام عن ظاهر لفظه ، والذي عليه التعمُّل والتعارُف . ولفظ الجميع معروف من لفظ المفرد . لأن الرافضة تزعمُ أن سائلاً دخل المسجد فسأل الناسَ وعليّ راعٍ ، فلم يُعط شيئاً ، فنزعَ عليّ خاتمَه فأعطاه ، فأنزل الله فيه : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ . وأنت إذا سمعتَ بتأويل ابن عباسٍ وتأويلهم علمتَ أن تأويلهم بعيدٌ من لفظ التنزيل ، قُرب تأويل ابن عباسٍ منه .

ولو كان الأمر كما قالوا ما كان أحدٌ أعلم به من ابن عباسٍ ولا أشعرَ به منه .

وأنتم تزعمون أن علياً كان أزهدي من أن يحوّل عليه الحوّل وعنده مالٌ راهنٌ يجبُ عليه فيه الزكاة .

ولو كان ذلك كذلك ما كان بلغ من قدر صنيع رجلٍ في إعطاء درهمٍ ودرهمين من زكاته الواجبة ما إن يبلغ به إلى هذا القدر الذي ليس فوقه قدر ، أو يكون كان عليٌّ مشهوراً بإعطاء الزكاة وهو بصليٌّ .

ولو كان هذا هكذا لكان مشهوراً مستفيضاً . وكيف اتفق له ألا يزكّي إلا وهو بصليٌّ ؟ !

وإن تطوّرَ بإعطاء الخاتم على جهة الإيثار والمواساة فليس بمعروفٍ في الكلام أن يكون الرجلُ إن تصدّق بالدرهم والدرهمين مُتَنَقِّلاً ومتطوِّعاً أنه معطٍ زكاة ، لأن الزكاة عندنا ما وَجِبَ إخراجه وكان تطهيراً لسائر ماله ، وسبباً للنساء والبقاء . إلا أن يُحمَل الكلامُ الشاذ ، وعلى أبعده المجاز . وليس هكذا كلام الحكميم يريد أن يدلُّ الأمة على إمامته ، ويوجبُ عليهم طاعته .

ولا بد في هذه الآية من أحدٍ ضريين : إما أن يكون لفظها يدلُّ على ما

قالوا دون ما قال غيرهم ، وإما أن تكون قد نزلت في قصة مشهورة لعل كقصة الغار حين كانت لأبي بكر .

فإن لم تجدوا إلى واحد من هذين سبيلاً فلم يبق إلا أن تزعموا أن الرسول صلى الله عليه قال للناس : إن هذه في علي فاعرفوا له حقه وفضيلته . ولو كان ذلك كذلك ما اختلف فيه أصحاب التأويل ، ولا قال فيه ابن عباس الذي قال .

قالت (العثمانية) : قد زعمت الروافض أن الله أنزل هذه الآية في علي فاعرفوا له حقه وفضيلته .

ولو كان ذلك كذلك ما اختلف فيه أصحاب التأويل ، ولا قال فيه ابن عباس الذي قال .

[٣٧ - تأويل آية وكفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب]

قالت العثمانية : وقد زعمت الروافض أن الله أنزل فيه : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ .

ولا يجوز أن يقول : ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ وهو يعني علياً إلا وعليه قد كان أشهر من هناك بعلم الكتاب .

وكيف يكون ذلك وقد توفى النبي صلى الله عليه وهو لم يجمع الكتاب بعد ؟ ! وقد زعم الشعبي أنه لم يجمعه إلى أن مات .

وكيف يكون من المشتهرين بعلم الكتاب وأنت إذا سألت أصحاب الأخبار والتأويل عن أسماء أصحاب التأويل ذكروا ابن عباس ومن دون ابن عباس بطبقات كالحسن البصري ، ومجاهد ، والضحاك ، وعكرمة ، وفلان وفلان وفلان ، ولا يذكرونه في هذا الصنف ، كما لا يذكرون فيه أبا بكر وعمر وعثمان ؛ لأنهم لم يكونوا بالمشتهرين بالتأويل وحفظ القرآن ومعرفة معانيه ؛ لأن

غير ذلك كان أغلب عليهم منه ، وقد أخذوا منه بنصيب . ولم يكونوا كمن تجرد لمعرفة التأويل حتى غلب عليه كما غلب على زيد بن ثابت الفرائض ، وكما غلب علم التأويل على ابن عباس ، وكما غلب كثرة الأسانيد وعدد الآثار على ابن عمر وجابر وعائشة ، وكما غلب على أبي وعلى عبد الله القراءات .

ولو كان للناس أن يقولوا في هذه الآية على الظن وما هو أشبه لكان أولى الناس بها عبد الله بن عباس ، لأنه كان أعلم الناس بالقرآن . ولو لم يكن عرفنا فضله فيه بالذي ظهر منه ، لعرفنا فضله وإن بطن وغاب عن العيان لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » . فكيف وقد ظهر من علمه بمعانيه وغريبه ، وإعرابه وقصصه ومحكمه ومتشابهه ، وخاصه وعمامه ، وناسخه ومنسوخه ، ومكيه ومدنيه ، ما لم تجد عند أحد شطره ولا قريباً منه .

وقالت (العثمانية) : إنه لا يعجز أحد أن يعيد إلى كل آية في القرآن فيدعى أنها في أبي بكر وعمر كما ادعيتم ذلك في علي ، وإنما الشفاء والبيان في صحة الشهادة ، وظهور الحجّة .

مركز تحقيقات كويتيون سعوديون

[٣٨ - تسمية أبي بكر بالصدّيق دليل على فضله]

وزعمت العثمانية أن من الدليل على فضيلة أبي بكر على علي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سماه « الصدّيق » ، وأنه ، وليس بعد اسم النبي اسم أنبى من الصدّيق ، حتى كان لا يقال قال أبو بكر وفعل أبو بكر إلا والصدّيق متصل به ، وحتى ربما قالوا قال الصدّيق وفعل الصدّيق ، استغناء عن اسمه وكنيته .

ولقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « الزبير حواري وابن عمي ، وطلحة حواري » ، وقال : « عثمان ذو النورين » ، فلم يقل المسلمون : قال عثمان ذو النورين ، وقال الزبير الحواري ، وقال ذو النورين ؛ استغناء عن اسمائها وكناهما .

فإن كان المسلمون أشاعوا اسم أبي بكر وتركوا أن يشيعوا اسم غير أبي بكر ،

لفضلِ رأوه في أبي بكر ، فهو الذي قلنا وأدعينا . وإن كان ذلك منهم لشيء
رأوه في وجه رسول الله صلى الله عليه وفي صنيعه بأبي بكر ، فلا شيء أدل على
الفضيلة والمباينة منه .

ولم يسمه النبي صلى الله عليه علياً باسم ينسب به ، لأن ذلك لو كان لظهر
كما ظهر اسم من ذكرنا . ولا سماء أحد من أصحاب رسول الله باسم بان به
كما سُمي أصحاب رسول الله أبا بكر خليفة رسول الله .

ولأبي بكر اسمان يدلان على الفضيلة والمباينة : أحدهما لم يسم به قط إلا
نبي أو من يتلوه ، والآخر لم يسم به أحد من الناس .

فأما الاسم الذي لم يسم به إلا نبي فقول « الصديق » بإجماع من المسلمين
على هذا الاسم أنه لا يكره دون غيره . وأما الاسم الذي لم يسم به مؤمن
قط ، ولا بعده ، فقول جميع الأمة : يا خليفة رسول الله .

فإن كان الذي نُقِل إلينا أنه [كان] يكتب في دهر النبي صلى الله عليه :
« من خليفة رسول الله » ويكتب إليه « إلى خليفة رسول الله » وكما كان الحسن
يخلف بالله أن النبي صلى الله عليه [عليه] هو تولى استخلافه ، فلا منزلة أعظم منها
قدراً ، ولا أرفع منها شأنًا .

وإن كان المسلمون أجمعوا له على ذلك لخاصة رأوها فيه ، فكفى به شرفاً
وقدراً ، ومزيةً وذكراً .

وإن زعم قوم أن الأسماء التي ارتضاها الرسول صلى الله عليه وحباها
أصحابه لا تدل على فضيلة ولا على خاصة كرامة ، وجسروا على أن يقولوا إنه
ليس في قول النبي صلى الله عليه لحمزة إنه أسد الله ، وأسد رسوله ، فضيلة ؛
وليس في قوله « الزبير حواري » فضيلة - فليس عندنا في ذلك إلا مثل ما لهم في
صدور أهل القبلة من الإسقاط والإهانة .

فإن قالوا : إن اسم الصديق مؤلّد موضوع مُحدث ، أحدثه العثمانية

والْحَشْوِيَّة .

قيل لهم ، ففعل قولهم : إن حمزة أسد الله ، وأسد رسول الله ، وإن جعفر الطيار في الجنة ، وإن الزبير حواري رسول الله ، مولد موضوع صنعة الشيعة ، وأحدته أتباع الزبير يوم الجمل ، لا فرق بين ذلك .

وكيف يكون اسم الصديق مولداً محدثاً ، وأكثر من تكلم به ليسوا بذوي نحلة فيتقدروا له ، ولا بذوي معرفة فيعرفوا فضله ، ولا ذوي قرابة فيطلبوا السبق به ، مع الذي نجده في الأشعار الصحيحة القديمة . وليس بين الأشعار والأخبار فرق إذا جاءت بحجج الحجج .

وإنما ذكرنا الأشعار مع الأخبار ليعرفوا ظهور أمره ، ووجوه دلائله وقهر أسبابه ، وليكون آنس للقلوب ، وأسكن للنفوس ، وأقطع لشغب الخصم ، ولجهد المنازع .

فمما جاء من الأشعار في ذلك قول شريح بن هانئ الحارثي ، وكان معمرًا وكان شيعيًا ، وهو يرتجز في بعض حروبه :

أصبحت ذا بث أقاسي الكبرياء قد عشت بين المشركين أغصبرا
ثمت أدركت الرسول المنذرا وبسعدته صديقه وعمررا
ويوم مهران ويوم تسترا وبساجمثيراوات والمشقرا
والجمع من صفيينهم والنهرا فيها ما أطول هذا عمرا

ألا ترى أن هذا شريح بن هانئ؛ سمي أبا بكر صديقاً على ما لم يزل يسمى به .

وقال العجاج بن رؤبة ، وهو أعرابي ليس بذوي نحلة ولا صاحب خصومة ، وقد أدرك الجاهلية .

عهد نبي ما عفا وما دثر وعهد عثمان وعهداً من همر
وعهد صديقي رأى برأ قبر وعهد إخوان هم كانوا السورد

وقال الحارث بن هشام بن المغيرة ، حين بلغه وهو بمكة أن الأنصار قد كانوا
اجتمعوا وقالوا لقريش في سقيفة بني ساعدة : منّا أمير ومنكم أمير :
فَبِضِّ النَّبِيِّ وَيُوسِعِ الصَّدِيقُ

في قصيدة له طويلة ، وهي التي يقول فيها :
وأراد أمراً دونه الغيوق

ولما أردنا منها المعنى .

وقال أبو محجن في ذلك :

سُميت صديقاً وكل مهاجر
مواك يُسمى باسمه غير منكر

وقال طريف بن عدي بن حاتم :

أبىدوا قريشاً بالسيف ليظهروا
معاهد دين الله بعد محمد
وصديقه التالي المعين بماله
طوي البطن الضريبة بذود
وأول من صلى وصاحب جنكة
أصاخ لقول الصادق المتطرد
وبعد قتيل الهرمزان ، وباركت
بذ الله في ذلك الأديم المقسد
أقاموا طغاة حائرين عن الهدى
وليس يقوم الذين إلا بمهند
فلما تولوا طامن الحق جائسه
وثاب إليهم كل غاو مطرد

أما قوله : « وثاب إليهم كل غاو مطرد » فإن « الغاوي » مروان بن
الحكم ، « والمطرد » : أراد أباه الحكم بن أبي العاص طريد رسول الله صلى الله
عليه .

وقال حسان بن ثابت في ذلك أيضاً ، وهو يهجو بعض الشعراء :

لو كنت من هاشم أو من بني أسد
أو في الدوابية من تيم وقعت بهم
أو من بني جهم الخضر الجلاعيد
لم تُصبح اليوم نكساً مائل العود
أو عبد شمس أو أصحاب اللوا الصيد
أو من بني جهم الخضر الجلاعيد
لم تُصبح اليوم نكساً مائل العود

وأمر ربك حنم غير مردود
وطلحة بن عبيد الله ذا الجود
تطوى السباب بالسلم المتاجد
وكل مختطف الأقراب كالسيد

لولا الرسول وروح القدس يحفظه
وأني أحفظ الصديق مجتهداً
أتكم خيلنا كاللؤذ كالحة
من كل خيفانة طال اللجام بها

وقال طليحة الأسدي في ذلك :

وعكاشة الغنمي يا أم معبد
رجوعي عن الإسلام رأيت المقيد
طريداً وقدماً كنت غير مسطرود
ومعط بما أحدثت من حدث يدي

ندمت على ما كان من قتل ثابت
وأعظم من هذين عندي مصيبة
وتركي بلادي والمطوب كثيرة
فهل يقبل الصديق أبي ثابت

وقال البارقي في ذلك أيضاً :

بكر النعمي بخير كندة كلها
سبا بن الأشج وخاله الصديق !

هؤلاء الذين ذكرنا : شريح بن هانئ ، والمعجاج بن رؤبة ، والحارث بن هشام بن المغيرة ، وطريف بن عدي بن حاتم ، وحسان بن ثابت ، وطليحة الأسدي ، ومن أشبههم ، ليسوا بأصحاب خصومات ولا نظير في الفاضل والمفضول .

وإنما قدموه وسموه صديقاً على ما لم يزل يُسمى به . وهذا أكثر من أن نأتي عليه في كتابنا ونستقصيه .

والعجب من الروافض حين ترى ما قال رشيد الهجري والسيد الحميري ، ومنصور النعمري حجة في أشعارها إذا كان ذلك القول في علي بن أبي طالب . وإذا قال حسان بن ثابت ، والمعجاج ، والحارث بن هشام ، وأشباههم ممن ذكرنا في القدم والقدر ، في أبي بكر وعثمان وعمر وتقديمهم ، لم يكن حجة .

وفي قول عبد الله بن عباس لعائشة بعد الجمل في دار بني خلف الخزاعي

حين أرسله علي بن أبي طالب إليها : ولم تقولين إنه ليس في الأرض موضع
أبغض إلي من موضع أنتم به ، ونحن جعلنا أباك صديقاً وجعلناك أم للمؤمنين ،
حجة في أن تسميته بالصديق قد كان مستعملاً في ذلك الدهر .

وإذا أحببت أن تعلم قدر هذا الاسم الذي سمي به النبي صلى الله عليه
أبا بكر فانظر في كتاب الله . قال الله جل ثناؤه : ﴿ واذكر في الكتاب إفريس إنه
كان صديقاً نبياً . ورفعه مكاناً هلياً ﴾ وقال : ﴿ واذكر في الكتاب إسماعيل إنه
كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً ﴾ ، فذكر صديقته قبل أن يذكر نبوته .

وقال في كتابه : ﴿ ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه
صديقة كنانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أن يؤفكون ﴾ .

ولكن انظر كيف نبين للروافض الحجج بالآيات والإجماع ثم انظر أن
يؤفكون ، أي يسخرون بهذه الفضيلة له علي بن علي .



[٣٩ - تأمير أبي بكر الحجج دون علي]

ثم الذي كان من تأمير النبي صلى الله عليه وآله عليه أبا بكر عليه حين ولّاه الموسم
وبعثه أميراً على الحاج سنة تسع ، وبعث علياً يقرأ على الناس آيات من سورة
براءة ، وكان أبو بكر الإمام وعلي المأموم ، وكان أبو بكر الدافع بالموسم ، ولم
يكن لعلي أن يندفع حتى يدفع أبو بكر ، ولا يستطيع خلق من الناس أن يزعم
أن سنة تسع دفع بالناس غير أبي بكر ، ولا يستطيع أحد أن يزعم أن سنة تسع
لم يبعث النبي صلى الله عليه وآله عليه بصدر سورة براءة مع علي بن أبي طالب ليقرأه على
الناس إذا فرغ أبو بكر .

فلن قال قائل : ألا ترى أنه كان لعلي بن أبي طالب في ذلك الموقف من
الفضل ما ليس له لخصمتين : إحداهما أن النبي صلى الله عليه وآله بعث معه بصدر
براءة ، وقال : « لا يبلغ عني إلا رجل مني » . والأخرى فرط الاحتمال وشدة
الخطار الذي احتمله علي حين يقوم بالبراءة وقطع العهد وقد وافى الموسم من

فبئال العرب ومن المتورين والناقمين والحنقين ، العمد الذي لا يحصى ، والقوة التي لا تدفع ، فشر عن ساقه وأبدى صفحته . ففي هاتين الخصلتين دليل على أن له في ذلك ما ليس لأبي بكر ، والمحنة عليه أشد .

قيل له : إن كان الشأن في شدة الخطار والتضير والتعرض على ما قلتم ، فنصيب أبي بكر في ذلك أوفر ، والأمر عليه أخوف ، وهو إليه أسرع ، لأن أبا بكر كان هو الأمير والوالي والمتبوع ، وعلي هو المؤتم والرعية والسامع والطبع . وبين التابع والمتبوع والأمر والمأمور فرق .

وأما قولكم : إن النبي صلى الله عليه قال حين بعث بصدر سورة براءة مع علي بن أبي طالب : « إنه لا يبلغ عني إلا رجل مني » فلإنما قال هذا وليس بحضرته أبو بكر ليكون علي قد قدم عليه ، لأن النبي صلى الله عليه قد كان وجهه أبا بكر قبل ذلك ، ثم بعث علياً بعده فلحقه في الطريق .

وقد زعم ناس من (العثمانيين) أن النبي صلى الله عليه لم يقل ذلك لعلي تفضيلاً منه له على غيره في الدين ، ولكن النبي صلى الله عليه عامل الحرب على مثل ما كان بعضهم يتعرفه من بعض ، وكعادتهم في عقد الحلف وحل العقد ، فكان السيد منهم إذا عقد لقوم حلفاً أو عاهد عهداً لم يحل ذلك العتد غيره ، أو رجل من رهطه دنياً كاخ أو ابن ، أو عم ، أو ابن عم ، فلذلك قال النبي صلى الله عليه ذلك القول .

[٤٠ - النبي يعهد إلى أبي بكر بأمر الناس في الصلاة يوم شكاته]

ثم الذي كان من تفضيله عليه وعلى الناس جميعاً أيام شكاته ، حيث أمره أن يؤم الناس ويقوم مقامه في صلاته وعلى منبره ، حتى أن عائشة وحفصة أرادتا صرف ذلك عنه لعل سنذكرها في موضعها إن شاء الله ، فقال النبي صلى الله عليه : « إلكن عني صواحب يوسف ، أي الله ورسوله إلا أن يصلي أبو بكر » .

ولم يستطع أحد من الناس أن يقول إنه صلى بالناس في تلك الأيام غيره ،

ولا استطاع أحد أن يقول إن المأمور بالصلاة كان غيره ، حتى قالوا بإجماعهم :
اختارهُ رسولُ الله لديننا فاخترناه لدُنْيَانَا . وحتى قالوا : ولأه رسول الله صلواتنا ،
وزكأتنا تبع لصلواتنا وما معظمها أمر الدين .

ولا يستطيع أحد أن يقول : إنه لما تقدم أبو بكر بالناس ليصلي بهم والنبى
صلى الله عليه مُسَجِيًّا قال له رجلٌ واحد : وما لك تصلي بنا على غير عهد ولا
سبب . ولا قال رجلٌ من خلفه مثل ذلك ، ولا قال رجلٌ من الأنصار : مِنَّا
مصلٌ ومنكم مصلٌ ، كما قالوا : مِنَّا أميرٌ ومنكم أميرٌ .

فإن كان الناس مع كثرة الخير والشر فيهم تركوا مجاراته ومدافعته في قيامه
في مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لتبريزه ، كان ، عليهم عند أنفسهم
فكفى بذلك دليلاً على الفضل ، وحجة على الاستحقاق .

وإن كان رضاهم بذلك وتسليمهم ، للذي ثبت عندهم من أمر رسول الله
صلى الله عليه وتقديمه إياه ، فليس لأحد في ذلك متكلم ، ولا لشاغب فيه
متعلق ، ولا لواقف فيه عُذر ، والقوم جميع ، ومصلاتهم واحد ، وتقدمه ظاهر .

ولم تكن صلاة واحدة فيكون جليسة ، والقوم كانوا أشد تقدماً لذلك المقام من أن
يَدْعُوا رجلاً لم يقهرهم بسيف ، ولم يمتنع عليهم بعشيرة ، ولم يفيض فيهم
الأموال ، وليس معه فضل بائن ، ولا سبب من قرابة ، ولا أمر من النبى صلى
الله عليه .

فإن صاروا إلى الاعتلال بالأحاديث وذكر الآثار قالوا : إنما نحتاج إلى
المقابلة بين أفعال علي وأفعال غيره ، لو كنا لا نجد له غير الأفعال فإذا كنا قد
وجدنا له من غير الأفعال ما هو أدل على الفضيلة من الأفعال ، لم يكن لنا أن
نتخطى الأفضل إلى الأنقص في دفع التغلب ، وإقامة المستجق عند ظهوره
وزوال التقيّة فيه . لا أنهم قابلوا بين جميع المهاجرين في القرب والبعد ، ولا
أنهم صنعوا العلم بفضله بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم قوم قد
كانوا من قبل ذلك بثلاثٍ وعشرين سنة يرى بعضهم بعضاً ويعرف بعضهم أمر

بعض ، يَتَزَوَّنَ مَعاً وَيُقِيمُونَ مَعاً ، وَيَسْمَعُونَ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ الْقَوْلَ بِمَعَدِ الْقَوْلِ ، وَيَرَوْنَ أَحْوَالَ الرُّجَالِ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَفِي الْمُسْلِمِينَ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ، فَعَلِمُوا بِذَلِكَ فَضَّلَ أَبِي بَكْرٍ ، فَلَمَّا تَوَفَّى النَّبِيَّ لَمْ يَحْتَاجُوا مَعَ عِلْمِهِمُ الْأَوَّلِ إِلَى أَنْ يَضَعُوا عَلِمًا ثَانِيًا .

ولو أن رجلاً منا شاهد النبي صلى الله عليه وأصحابه سنة واحدة ما خفي عليه من المقدم عنده وعند المسلمين ، ومن أشبههم به هدياً وعملاً ، وطريقة وعزماً . فما ظنك بالسلف الطيب ، والخيار المتتخين ، وأسس الإسلام ومُرسى قواعده .

وذلك أن أبا بكر لا يخلو حيث أسلم أن يكون أسلم قبل الناس ، أو ثانياً ، أو ثالثاً . فإن كان إسلامه قبل الناس فقد تين للشاني تقدمه ، ، ولثالث تقدمها عليه . فإذا كانوا ثلاثة لم يخف عليهم أيهم أفضل . ثم إن أسلم بعدهم نفر لم يخف أيضاً قصة الثلاثة المتقدمين . وكلما أسلم قوم لم يخف عليهم حال الأفضل بالذي يرون عند من أسلم قبلهم . فكانوا كذلك ثلاثاً وعشرين سنة .

فقد أيقنا أن القوم لم يوتوا في تقديم أبي بكر من الجهل بموضع الفضل ، أطاعوا الله في إقامته أم عصوه . وكذلك لو كانوا قدّموا غيره ما كانوا إلا متعمدين . وذلك أن الأفعال إنما تدل على ظاهر عدالة الرجل وفضيلته ، ولا تدل على باطن طهارته وإخلاصه .

وقول الرسول صلى الله عليه في الرجل ومدبج له وإخباره عن فضله ومنزله ، والوحي ينزل عليه صباح مساء ، أدل على طهارته وإخلاصه .

وإذا كان العبد كذلك كانت النفوس إليه أسكن ، وكان من التبذل أبعد ، مع السلامة من التفاق ، والدخل في الاعتقاد ؛ لأن الغلط في خير الرسول صلى الله عليه ونصه وتبيينه وإقراره للرجل بالفضيلة والاستحقاق ، أقل من الغلط فيما بين أقدار الناس ، من الموازنة بين أفعالهم وعقولهم ، وعلومهم وتجاربهم ، وصلاح الناس عليهم ، مع كثرة عدد الأفعال المتساوية والمتقاربة ، ومع كثرة عدد

[٤١ - حجج الشيعة في تفضيل علي من الأحاديث]

فما يدلُّ على تفضيل النبي صلى الله عليه له قوله يوم غدِير خُمٍّ ، وهو قابضُ
 على يده وقد أشخَّصَهُ قائلاً لمن بحضرتِهِ : « من كنتُ مولاً فعليُّ مولاه . اللهمَّ
 عادِ مَنْ عاداه ، ووالِ مَنْ والاه . » . وقوله : « أنتُ مِنِّي بمنزلةِ هارونَ من
 موسى ، إلاَّ أَنَّهُ لا نبيُّ مِن بَعْدِي . » . وقوله : « اللهمَّ آتني بِأحبِّ النَّاسِ إِلَيْكَ
 يَأْكُلُ مِنِّي مِنْ هَذَا الطَّيْرِ ، ثلاثاً ، كُلُّ ذَلِكَ يَجُوبُ أَنَسٌ ، طمَعاً أَنْ يَكُونَ
 انصاريّاً ، فإني الله إلاَّ أَنْ يَجْعَلَهُ الْآكِلُ ، وَالْآتِي ، وَالْأَحَبُّ . »

ومن ذلك أنَّ النبيَّ صلى الله عليه حين آخَى بين أصحابِهِ فَفَرَّقَ بَيْنَ
 الأشكالِ ، وفرد بين الأمثالِ ، جعله أخصاً من بين جميع أمته وعِليَّةِ أصحابِهِ .

فيلهم : إنَّ الأخبارَ لا يَبْدُ فيها من التَّصَدُّقِ كما لا يَبْدُ في ذِكْرِ العُقُولِ
 من التَّعَارُفِ ، فإنَّ في عَدَمِ التَّعَارُفِ في حججِ العُقُولِ ، والتَّصَدُّقِ في حُججِ
 السَّمْعِ ، عَدَمُ الإِنصافِ ، وبُطْلانُ الكلامِ .

وليس لكم أن ترفعوا خبراً له ضرب من الإسناد وتوجبون تصديق مثله ؛
 لأنَّ كُلَّ واحدٍ من الخصمين لا يُعجزه دفعُ المستفيض بلسانه ، فضلاً عن دفعِ
 الشَّاذِّ وإنَّ كان ناقله عدلاً في ظاهره . فإذا كان ناقله ذلك كذلك فالوحي الأمور
 بكم وبهم الصُّدق . وليس كلُّ مَنْ أراد الصُّدق في مثل هذا قنَّزَ عليه إلاَّ بالتَّسَدُّمِ
 في كثرةِ السَّماعِ واتِّساعِ الرِّوايةِ . وليس لأحدٍ ، وإنَّ حَسَنَ عقله وصحَّ فكره ،
 أن يقول فيما لا يضاف علمه إلا من طريق الخبر حتى يكون صاحبَ خبرٍ ،
 وطالبِ أثرٍ . فإذا صحَّ عقله وكثُرَ سماعه ، خُفَّتْ مؤونته على نفسه وعمل
 خصمه .

[٤٢ - حجج العثمانية في تفضيل ابي بكر من الأحاديث]

أوما علمتم أن خصومتكم وهم أكثر منكم عدداً، وأكثر فقيهاً ومحدثاً، يروون أن النبي صلى الله عليه قال : « لَيْسَ أَحَدٌ أَمَّنْ عَلَيْنَا بِصَحْبَتِهِ وَذَاتِ يَدِهِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ خَلِيلاً لَأَتَّخِذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً ، لَكِنْ وَدَّاءُ وَإِحَاءَةُ إِيْمَانٍ » فَإِنْ كَانَ هَذَا الْحَدِيثُ كَمَا نَقَلُوا لَمْ يُجْزَ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَدًا إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْأَخَ غَيْرَ الْخَلِيلِ ، وَلَا نَعْلَمُ الْخَلِيلَ إِلَّا أَحْصَى مَنْزِلَةَ وَأَقْرَبَ مَوْدَّةً . مَعَ أَنَّ قَوْلَهُ « وَلَكِنْ » دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ قَدْ كَانَ إِخَاهُ .

يَرَوْنَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي شِكَايَتِهِ وَقَبِيلَ وَفَاتِهِ : « إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا قَبْلِي فَيَمُوتُ حَتَّى يَتَّخِذَ مِنْ أُمَّتِهِ خَلِيلاً ، وَإِنْ خَلِيلِي مِنْكُمْ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ » .

وَيَرَوْنَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « اقْتَدُوا بِاللَّذِينَ مِنْ بَعْدِي : أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ » .

وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْنَادَهُ عِنْدَ الْمَلِكِ ، عَنْ رَبِيعِي عَنْ حَذِيفَةَ ، وَالْآخِرُ مَسْلُومَةٌ ابْنِ كَهَيْلٍ ، عَنْ أَبِي الزُّعْرَاءِ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ .

وَيَرَوْنَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، نَظَرَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ مُقْبِلَيْنِ . فَقَالَ : « هَذَانِ سَيِّدَا كَهَوْلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، إِلَّا الْأَنْبِيَاءَ وَالْمُرْسَلِينَ . يَا عَلِيُّ لَا تُخْبِرُهُمَا » .

فَزَعَمُوا جَمِيعاً أَنَّ عَلِيًّا قَالَ : وَلَوْ كَانَا حَيِّينِ مَا حَدَّثْتِكُمْ . وَيَرَوْنَ جَمِيعاً أَنَّ عَلِيًّا قَامَ فِي النَّاسِ خَطِيباً فَقَالَ : « الْآ إِنَّ خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكْرٍ ، وَالثَّانِي عُمَرُ ، وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَخْبِرَكُمْ بِالثَّلَاثِ فَعَلْتُ » . فَكَفَى عَنْ ذِكْرِ عُثْمَانَ .

وَيَرَوْنَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا أُسِّسَ مَسْجِدُ الْمَدِينَةِ جَاءَ بِحَجَرٍ لَوْضَعَهُ ، ثُمَّ جَاءَ أَبُو بَكْرٍ بِحَجَرٍ فَوَضَعَهُ ، ثُمَّ جَاءَ عُمَرُ بِحَجَرٍ فَوَضَعَهُ ، ثُمَّ جَاءَ

عثمانٌ بحجرٍ فوضعه ، فسئل النبيُّ صلى الله عليه عن ذلك فقال : « هم أمراء الخلافة من بعدي » .

وقالوا : لما قدم المدينة رسولُ الله صلى الله عليه خطُّ لأهل قُبَاءِ مسجدهم بعنزة ، فوضع النبي صلى الله عليه حجراً ، ثم قال : يا أبا بكرٍ ضَع حجراً إلى جنبِ حجري ثم قال : يا عثمان خذ حجراً فضعه إلى جنبِ عُمر . ثم التفت إلى سائر الناس فقال : وَضَع رجلٌ حجْرَه حيثُ أحب .

ويروون أن النبي صلى الله عليه قال يومَ الحُدَيْبية : « مثلُ أبي بكرٍ في الملائكة مثلُ ميكَائيلَ ينزلُ بالرحمة ، ومثلُه في الأنبياء مثلُ إبراهيم ، ومثل عمر في الملائكة مثلُ جبريل ينزلُ بالسُّخط ، وفي الأنبياء مثل موسى » . والحديث طويلٌ ولكنني اختصرته .

ويُروى أن النبي صلى الله عليه وَضَع في كِفَّةِ المِيزانِ والأُمَّةَ في الكِفَّةِ الأخرى ، فرجَحَ بهم ، ثم أُخْرِجَ النبيُّ صلى الله عليه وَوَضَع أبو بكرٍ مكانه فرجَحَ بالأُمَّة ، ثم أُخْرِجَ أبو بكرٍ ووضَع عمرُ مكانه فرجَحَ بالأُمَّة ، ثم أُخْرِجَ فرجَحَ المِيزان .

مركز تحقيقات كويتيون علوم إسلامية

وقالوا : إن النبي صلى الله عليه قال : « أيها الناس ، إن الله بعثني إليكم جميعاً فقلتم : كذبت ، وقال لي صاحبي : صدقت ، فهل أنتم تاركي وصاحبي ؟ » .

ومما يؤكد هذا قولُ النبي صلى الله عليه : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا وقد كان له ترُدُّ وكبوة ، إلا ما كان من أبي بكر فإنه لم يتلعثم » .

وقالوا : إن النبي صلى الله عليه قال : « إن أبا بكرٍ لم يَسْؤُرِي قط ، فاعرفوا ذلك له » ، في كلامٍ طويل .

[٤٣ - موقف الجاحظ من التفضيل]

فإن كان ما رويتم في فضيلة عليٍّ حقاً ، وما رووا في فضيلة أبي بكرٍ حقاً

فأبو بكرٍ خيرٌ من عليٍّ ، وعليٌّ خيرٌ من أبي بكرٍ . وهذا هو التناقض ، والحقُّ لا يتناقض . وفي هذا دليلٌ أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتكلَّم بذلك ولا قاله ، لأن الخبر إذا خَرَجَ مخرج العامِّ في تفضيل أبي بكرٍ ، وكذلك في تفضيل عليٍّ ، فليس له وجهٌ إلا ما قلنا ، إلا أن يكونَ النبيُّ صلى الله عليه قد قال أحدَ القولين وصحَّتْ به الشهادة ، ولم يُقل الأخرُ وإنما ولَّدته الرجال ، وصنَّعتَه حملةُ السَّيرِ . ولا سبيل لنا إلى معرفة ذلك إذا كان الإسناد متساوياً ، وعند الرجال مُتقارباً . وليس في هذه الأحاديث كلها حديثٌ يضطرُّ خصمه إلى معرفة صحته ، أو يكون النبي صلى الله عليه قد تكلم بكثيرٍ من هاتين الروايتين وكان معناه وقصده فيها معروفاً عند من كان بحضرته ، حتى كان الجميع يعرفون خاصته من عامه . ولكن الناقلين احتملوا عن السلف مجردةً بغير تأويل معانيها ، فأدوها على اللفظ العامِّ ، فصار السامع يتناقض عنده إذا قَابَلَ بعضها ببعض ، لجهله بأصول مخرجها ، وكيف كان موقعها .

والذي فسرتُ لك مثل تعرف به سَمَّتِ الحُجَّة ، وَقَصَدَ السَّبِيل . وهو كما نقلوا أن النبي صلى الله عليه قال : « ما أَقَلَّتِ الغَبْرَاءُ ولا أَظَلَّتِ الحَضْرَاءُ على ذِي لهجَةٍ أَصْدَقُ من أبي ذرٍّ » . ولم يكن بالنبي صلى الله عليه إلى استثناء نفسه حاجةً ؛ لمعرفته باستغناء الناس عن ذلك .

وقد عرفنا بوجهٍ آخر أن حديث أبي ذرٍّ كان مخرجه مخرج العامِّ وأنه خاصٌّ وإن لم تكن خصوصيته موجودةً في لفظ الحديث ؛ لأنك إذا سألت الشَّيخَ فقلت : أيُّ الرجلين كان أصدقَ عند النبي صلى الله عليه أبو ذرٍّ أو عليٌّ ؟ قالوا بأجمعهم : عليٌّ ، وإنما ترك النبيُّ صلى الله عليه لعلمه بمعرفة المسلم بذلك من رأيه .

وكذلك لو سألت العثمانية فقلت : أيُّ الرجلين كان أصدقَ عند النبي صلى الله عليه : أبو بكرٍ أو أبو ذرٍّ ؟ قالوا : أبو بكرٍ ، كقول الشَّيخِ في عليٍّ . فقد أجمَعَ الصَّنْفَانِ جميعاً أن غير أبي ذرٍّ أصدقُ من أبي ذرٍّ .

ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه : «منا خير فارس في العرب» قالوا : من هو؟ قال : عكاشة بن محصن .

وليس بين الأمة تنازع أن زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب الطيار ، والزبير ، خير من عكاشة .

ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه : «يأتيكم خير ذي يمن ، [عليه] مسحة ملك » . فاتاهم جرير بن عبد الله .

فلو كان هذا اللفظ العام عاماً في معناه ، ولم يكن النبي صلى الله عليه أتكل فيه على معرفة القوم ، فترك لذلك الاستثناء والتفسير ، لكان واجباً أن يكون جريراً خيراً من سعد بن معاذ ، ومن حمي الذئب ، ومن غسيل الملائكة ، ومكلم الذئب . وهذا ما لا يقوله مسلم .

ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه لأبي سفيان بن الحارث : «أبو سفيان خير أهلي» . وقد علمنا أن حمزة والعباس وعلياً وجعفرأ خيراً من أبي سفيان .

ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه : «خير أهل الله عمر بن الخطاب» وقد أجمع المسلمون أن غيره خير منه ، لأن الناس إما عمرى وإما علوى ، فالعلوى يقدم علياً ، والعمرى يقدم أبا بكر .

والجملة أنه لم يقل أحد قط : إن عمر خير الناس . فهذا باب قد فرغت [منه] ، تعرف به أن النبي صلى الله عليه قد يتكلم بالكلام المعروف المعنى عند من حضره ، فإذا نقلوا الكلام وتركوا المعنى التبس على العابرين وجه المعنى فيه .

فمن ذلك ما يُعرف ، كالذي حكينا من حديث أبي ذر ، وعكاشة ابن محصن ، وجرير ، ومنه ما يُجهل كحديث علي ، وأبي بكر .

وقد نقلوا عن النبي صلى الله عليه في رجال كلاماً وتفضيلاً ما نقل مثله في أبي بكر وعلي ، اللذين فيها التنازع .

من ذلك أنهم نقلوا عن النبي صلى الله عليه أنه قال : « كم من ذي طمرين لا يؤتة له لو أقسم على الله لأبره ، منهم البراء بن مالك » . وهذا كلام عظيم إن كان حقاً ، وليس عندنا فيه إلا أن نرده إلى الله ورسوله .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في رجال كلاماً لو كان قاله في أبي بكر وعلي لكان أصحابها سيجعلونه في أول ما يحتجون به في الإمامة والتفضيل مثل قول النبي صلى الله عليه : « رضيت لأمتي ما رضيت لها ابن أم عبد ، وكبرهت لها ما كرهه » .

ومن ذلك قوله : « لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة » .

وقوله في طلحة يوم أحد ، حين واتاه السهم فوق النبي صلى الله عليه فقال ، حين أصابه السهم : حس ! فقال النبي صلى الله عليه : « لو قال باسم الله لرفعت الملائكة » .

ومن ذلك دخول عثمان عليه وهو مكشوف الفخذ ، فغطاها ، فقيل له : يا رسول الله ، لم تغطها من أبي بكر وعمر وغطيتها عند دخول عثمان . فقال : « كيف لا أستحي ممن تستحي منه الملائكة » .

وقال : « اهتز العرش لموت سعد بن معاذ » .

فهذا أيضاً بابٌ يُعرف به أن الرجل ليس يستحق التقديم بالرواية والحديث ، إذ كان هؤلاء دون أبي بكر وعلي في الفضل ، وقد جاء فيهم ما لم يجرى فيهما .

ولقد رَووا في رجل لم يُهاجر ، ولم يُصحب ، ولم يشهد المشاهد ، ولم يُنق ، ولم يتعرض ، ولم يدع إلى الله ورسوله ، إلا أنهم زعموا أنه كان يطلب الخليفة قبل مبعث النبي صلى الله عليه ، وهو زيد بن عمرو بن نفيل . فزعموا أن النبي قال : « يبعث يوم القيامة أمةً وخذة » .

وأني شيء أدل على كل فضيلة من قول النبي صلى الله عليه لعمار : « لا

تُؤَدُّوا عَمَارًا فَإِنَّمَا عَمَارٌ جِلْدَةٌ مَا بَيْنَ عَيْفَى .

ما أعطت الرافضة الطاعة أبداً ، ولا رضوا من الناس بالإنصاف !
وقد علمنا أن حمزة وجعفرًا وعليًا ، كانوا أفضل من سعد بن معاذ ، ولم
يبتز ملوتهم عرش الرحمن ، وقتلوا شهداء ، ولم تحم لحومهم الدبر ، ولا غسلتها
الملائكة .

فإن الله أعلم بمعاني هذه الأحاديث . ولعل النبي صلى الله عليه قال في كل
رجلٍ قولاً عدلاً ، وكان ذلك قولاً معروفاً مفهوماً عند الحاضر ، ولكنه أدى
اللفظ وترك المعنى .

فإذا كانت الأحاديث في أسلافنا وأئمتنا على ما حكيت لك لا تمنع من
معرفة وتدافع ما وصل إلينا منه ، كان واجباً أن يكون المنزع في أمرهم إلى الخبر
الذي يجيء بحجة الحجج ، وترك ما سوى ذلك مما لا يُبرىء من سقم ولا يُبرِد
من حيرة . وإنما الخبر الصحيح الذي لا يعتمد بضعف الإسناد ، ولا يُترك
لضعف الأصل ، ولا يُوقف فيه لكثرة المعارض والمناوئء ؛ كنهج ما روينا من
مآثرهم في مقاماتهم ومشاهدتهم ، وكصنيع عليٍّ ومؤازرته ببدر ، وككون أبي بكرٍ
في العريش . وهذا ما لا يتدافع ولا يتناقض ؛ لأن قتل عليٍّ الأقران ببدر ليس
بناقض لكون أبي بكرٍ في العريش ، ولأن موقف عليٍّ بأحدٍ لا يدفع كون أبي بكرٍ
في الغار ، ولأن صنيع عليٍّ بخيبر لا يدفع إنفاق أبي بكرٍ الأموال ، وعنته
الرقاب .

فهذا وما أشبهه مما لا نجد له راداً ودافعاً ، وليس هذا من شكل ما قالوا :
أن النبي صلى الله عليه قال : « اقتدوا باللذين من بعدي بأبي بكرٍ وعمر » ونقلهم
أن النبي صلى الله عليه قال لعليٍّ : « أنت مني بمنزلة هارون من موسى » ، وكما
نقلوا أن النبي صلى الله عليه أخى بين نفسه وبين عليٍّ ، وأن النبي قال : « لو
كنت متخذاً خليلاً لأتخذت أبا بكرٍ خليلاً ، في أشباه لهذا قد حكيت لك في صدر
الكتاب ، لتعرف مجرى الكلام في السلف .

فإن قالوا : فلعَلَّ النبي قال : « اقتدوا باللذين من بعدي » وقد كان معلوماً في [ذلك] الوقت أن علياً كان مستثنىً في هذا القول .

قيل لهم : ولعله قال : « من كنت مولاه فعلي مولاه » [وقد كان معلوماً في ذلك الوقت أن أبا بكر كان مستثنىً .

فإن قالوا : الفرق في ذلك أنكم لا تُتكررون روايتنا في عليٍّ ، ونحن ننكر روايتكم في أبي بكر .

قيل لهم : إن العجزَ كلَّ العجز أن تعيدَ على خصمك بشيء لا يُعجزه . فإن أبوا إلا جحدَ الأخبار وتكذيبَ الآثار والإيجابَ على الناس ما لا يُوجبون لهم مثله فإن الذين نقلوا أن النبي صلى الله عليه قال : « مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ » لم ينقلوا معه في الحديث : « اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ » .

وإنما سمعنا هذه البُادة من الشيعة ، ولم نجد له أصلاً في الحديث المحمول .



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

[٤٤ - تأويل العثمانية لحديث : من كنت مولاه فعلي مولاه]

روى الأعمش - وكان رافضياً - عن سعد بن عبيدة ، عن ابن بريدة ، عن أبيه قال : بعث النبي صلى الله عليه علياً في سرية واستعمله عليهم ، فلما جاء قال : كيف رأيتم صاحبكم ؟ قال : فيما شكوتُه وإما شكاه غيري ، وكنت رجلاً مكباباً ، فرفعت رأسي فإذا النبي صلى الله عليه قد احمرَّ وجهه وهو يقول : « مَنْ كُنْتُ وَلِيَهُ فَعَلِيٌّ وَلِيَهُ » .

فواحدة أن الذي روى هذا الأعمش ، وهو ظنين في عليٍّ مضعفت عند أهل الحجاز . وسعد بن عبيدة ليس هناك .

وثانية أنه لم يقل من كنت مولاه ، وقال : « من كنت وليه » فإذا اختلفت الالفاظ دل ذلك على الوهن . ولم يقل : « اللهم عاد من عاداه ووار من

والاه . ونحن نشهد أن من كان النبي صلى الله عليه ولبيه فسعد بن معاذ وليه .
وعلى أنهم قد رَووا في شكايه أقوام في تلك الغزاة لعلّ كلاماً قبيحاً .

ووجه آخر مما يدل في هذا الحديث على الاختلاف والوهن : أنهم نقلوا أن
هذا القول في عليّ كان أن علياً جازى زيد بن حارثة في بعض الأمر، ولاحاه
فيه ، لأنه أغلظ له ، فردّ عليه زيدٌ مثل مقالته ، فقال له عليّ : تقول هذا القول
لمولاك ؟ فقال زيد : إنما ولاني لرسول الله صلى الله عليه ، ولست لي بمولى .
فأتى عليّ النبي صلى الله عليه ، فشكا إليه زيدا ، فقال النبي صلى الله عليه
وسلم : « من كنت مولاه فعليّ مولاه » . وصدق النبي صلى الله عليه أن علياً
مولى زيد ، إذ كان النبي صلى الله عليه مولاه ، وكذلك العباس والفضل ،
وعبد الله ، وقثم ، وثمام ، ومعبد .

وإذا كان هؤلاء موالى زيد لأن النبي صلى الله عليه مولاه ، فلعلم النبي
صلى الله عليه من ذلك ما ليس لهم جميعاً فإنما أراد النبي صلى الله عليه أن يعلم
زيداً غلظه في ذلك القول ، حين ظن أن ابن عم النبي صلى الله عليه ليس
مولاه .

مركز تحقيقات كويتيون علوم إسلامية

فإذا كان أمرُ عليّ وزيدٍ مشهوراً عند أصحاب الآثار ، فإنما عني مولى
النعمة ، وليس في هذا إخبار عن فضل عليّ في الدين .

ولو كان النبي صلى الله عليه قال كما زعمت الروافض : « اللهم عادٍ من
عاداه ووالٍ من والاه » ، كان هذا القول يدل على أن زيدا قد أتى جُرمًا عظيمًا ؛
فلم يكن ليتخطى دعاء النبي صلى الله عليه على من عادى علياً إلى غيره إلا بعد
وقوعه به ، لأن زيدا هو المشتكى ، ومن أجل صنيعه خرج النبي صلى الله عليه
إلى مثل هذا القول الشديد ، وهذا الدعاء القاصم ، ومن قوله ومذهبه غضب
عليه ، وعليه نص وإياه عني .

وإنما يقول هذا ويجوزه من لا علم له بقدر زيد عند النبي صلى الله عليه .
أوما علمت أن زيدا أحد من روى الناس عنه ونقلوا أنه كان أقدم الناس

إسلاماً . وقد دَلَّلنا على فضيلة إسلامه على إسلام عليّ في صدر كتابنا ، في كلام
العثمانية .

وقد بلغ من قدره عند النبي صلى الله عليه وتفضيله إياه أنه لم يكن في
سرية قط إلا كان أميرها ، ولا أقام ببلادٍ إلا وهو أميرها .

ويدلُّك على ذلك أن النبي صلى الله عليه أمره على جعفر الطيار ، وعقد له
يوم مؤتة ، ثم عقد لابنه أسامة على كبار المهاجرين والأنصار ، منهم عمر بن
الخطَّاب ، وسعيد بن زيد ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وسعد ابن أبي وقاص .
حتى قال رجال من المهاجرين . وكان أشدهم في ذلك عياش بن أبي ربيعة - :
يولي علينا هذا الغلام ! فغضب عمر وردَّ عليهم ، ثم أتى النبي صلى الله عليه
فقال : ألا أعجبك يا رسول الله من رجال يقولون كذا وكذا ؟ ! فمشى النبي
صلى الله عليه إلى المنبر في شكاته التي توفِّي فيها فقال :

ما مقالة بلغتني عن بعضكم في أسامة وتأميره ؟ ! ولئن طعنتم في إمارته
لقد طعنتم في إماره أبيه . وأيم الله إن كان خليفاً للإمارة ، وإن ابنه لخليق لها ،
وإن كان لمن أحب الناس إلي ، وابنه لمن أحب الناس إلي .

فهو الحُبُّ وأبو الحُبِّ ، وهكذا يقال بالمدينة : أسامة الحُبُّ .

ولذلك قال عمر لابنه عبد الله حين زاد في فريضة أسامة على فريضته ،
فقال له عبد الله : لم فضلته عليّ ونحن سيان ؟ فقال عمر : إن أباه كان أحبُّ
إلى النبي صلى الله عليه من أبيك ، وكان هو أحبُّ إلى النبي صلى الله عليه
منك .

وقالت عائشة عند وفاة النبي صلى الله عليه : لو كان زيد حياً لاستخلفه
النبي صلى الله عليه عليكم .

هذا وأبوها الخليفة والمجبول إليه الإمامة .

ومما يدلُّك على فضيلة أبي بكر ومكانته وخاصته من النبي صلى الله عليه

وسلم وعِظَم شأنه عنده ، أن النبي صلى الله عليه [لما] آخى بين المهاجرين والانصار آخى بينه وبين حمزة ، وإليه أوصى حمزة يوم أحد . وقد تعلمون أن حمزة استشهد وهو أجل الناس في صدور المؤمنين ، وأعظم في أنفس المهاجرين . وإن امراً يكون كفوّاً لحمزة في الإحياء ، وحمزة على ما وصفنا ، لعظيم الشأن ، رفيع المكان .

ولو لم يُعرَف من قدره إلا أن ذكره الله باسمه في كتابه ، كما ذكر لقمان ، ولم يفعل هذا لغيره من هذه الأمة ، لقد كان ذلك دليلاً على المنزلة والقربة ، فكيف يجوز أن يكون في الحديث : « اللهم عادٍ من عاداه ووالٍ من والاه » وحال زيدٍ وصفته على ما ذكرنا وقسّرنا ؟ ! مع أن اللفظ في الحديث لو كان : اللهم عادٍ من عاداه ووالٍ من والاه ، لم يكن فيه دلالة تضطرُّ إلى إمامته ، وحُجَّة تقهر العقول وتحملها على معرفة خاصته ، ولكنته لفظٌ يدلُّ على الفضل والقدر ، وليس بالفضل الذي لا بعده ، والتقديم الذي لا فوقه .

وإنما الكلام الذي لا بعده قول النبي صلى الله عليه : « ما أحدٌ آمنَ علينا بصحبته من أبي بكر » ، وقوله : « لو كنتُ متخذاً خليلاً لا أتخذتُ أبا بكر خليلاً » ، وقوله : « أبو بكرٍ وعمرٌ سيِّدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين ، إلا النبيين والمرسلين » .

فإذا كان هذا الحديث مختلفاً في أصله وفي صحّة مخرجه ، ومختلفاً في تأويله وفرعه ، والحجّة في أصله متداذعة ، والحجّة في فرعه متكافئة ، فكيف يكون جحد عليّ إمامته واستحقاقه وفضيلته على نظرائه .

ولو كان هذا الحديث مجتمعاً على أصله وصحّة مخرجه ، ثم كان لفظه محتملاً لضروب التأويل ، ما كان للروافض فيه حُجَّة تقطع الخصم ، وتظهر المبانيّة .

ولو كان هذا الحديث مجتمعاً على أصله وصحّة مخرجه وكان لا يحتمل من التأويل إلا معنى واحداً ما اختلفت في تأويله العلماء ، ولا اضطربت فيه

الفقهاء ، ولكان ذلك ظاهراً لكل من صحَّحْهُ ، وحسُنْ بيانهُ ، ولا سيَّما إذا كان الحديثُ ليس مُفصِّحاً عن نفسه ، ومعرباً عن تأويله ، إلا عن قصد الرسول وإرادته لأنَّ يكفِيهِمْ مَوْنَةُ الرّواية والأسباب المشكّكة فينبغي على هذا القياس أن يكون علماء العثمانية وفقهاء المُرجئة تُعرِف من ذلك ما تُعرف الرّوافض ، ولكنّها تُجحد ما تُعرف ، وتُنكر ما تُعلِّم .

ولو كان هذا الحديثُ مجتمِعاً على أصله ولكنّه غامضُ التّأويل ، وعويصُ المعنى ، لا يكاد يُدرِكهُ إلا الرّاسخُ في العلم ، البارِعُ في حُسن الاستخراج ، كان العُدْر في جهل إمامته وفضيلته على غيره واسعاً مبسوطاً. لأكثر المسلمين ، وجُلُّ النّاقلين ، ولِكبراء المتكلِّمين .

وإنّما صارت الرّوافض إلى إكفار الأنصار والمهاجرين ، بِرِزْعِهِمْ أن النبي صلى الله عليه نصُّ على إمامته ، ودلُّ على فضيلته ، فإنّه لا بدُّ للناس في كلِّ عصرٍ من إمام من ولده ، لأنَّ ذلك الموضع إذا كان مَقْنَعاً ومَعْلِماً كان أخفَّ على الناس في المحنة ، وأبعَدَ من الخطأ والنزّل ، ولأنَّ اختيارَ الله لهم لأنفسهم ، لأنّه لو كان ذلك لا يكون إلا بالنظر دون النصِّ لم يصلوا إلى إقامته ، لكثرة عدد الناس ، ولكثرة عدد الفضل ، ولما في ذلك من الإشكال عند الموازنة ، والشغل عن العدو .

فإذا كان السَّببُ في الإمامة هو الذي قالوا ، فلا بدُّ من حديثٍ لا يجتمَل التّأويل ، ولا يَمْنَع من معرفة صحّة أصله وصدق نَحْرجه .

فإن قالوا : فإننا سنأتيكم بمثل اللفظ الذي أتيتمونا به حتى لا يكون لفظٌ أدلُّ على الغاية منه . من ذلك قولُ النبي صلى الله عليه عند طائرٍ أتى به فأراد أكله فأحبُّ أن يَشْرَكَه في أكله أحبُّ الناس إلى الله فقال : « اللّهم آتني بأحبِّ عِبَادك إليك يأكلُ معي هذا الطائر » ثم قال لأنس : اخرجْ فانظرَ مَنْ ترى بالبَاب ؟ فخرج فوجدَ عليّاً فلم يَأْذَنْ له ، ولم يُعلم النبي صلى الله عليه مكانه طمعاً أن يكون أنصارياً . ففعل النبي صلى الله عليه ذلك ثلاثاً ، كلُّ ذلك

يُحِبُّهُ أَنَسٌ ، ثُمَّ أَدْخَلَهُ ، فَلَمَّا طَلَعَ قَالَ : « اللَّهُمَّ وَالِ » .

قِيلَ لَهُمْ : أَمَا وَاحِدَةٌ فَإِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ سَاقِطٌ عِنْدَ أَهْلِ الْحَدِيثِ ، وَلَوْ كَانَ صَحِيحاً عِنْدَهُمْ فَلَمْ يَجِيءَ إِلَّا مِنْ قِبَلِ أَنَسٍ فَقَطْ ، وَأَنَسٌ وَحْدَهُ لَيْسَ بِحُجَّةٍ ، فَلَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ مَقَالٌ وَلَا مِتْكَأَمٌ .

وِثَانِيَةٌ : إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ الْأَمْتَجَجَ بِخَبْرِ أَنَسٍ لِأَنَّهُمْ مَعْشَرَ الشَّيْعِ ، لِأَنَّ أَنَساً عِنْدَكُمْ كَافِرٌ كَذَّابٌ .

وَلَقَدْ بَلَغَ مِنْ سُوءِ قَوْلِكُمْ فِيهِ أَنَّكُمْ زَعَمْتُمْ أَنَّهُ كَذَّبَ عَلِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، كَذَبَهُ وَبَهَّتَهُ بِأَمْرِ ، فَدَعَا اللَّهَ عَلَيْهِ ثُمَّ بَصَقَ فِي وَجْهِهِ فَبَرِضَ مِنْ قَرْنِهِ إِلَى قَدَمِهِ . وَأَنْتُمْ تَكْفُرُونَ بِعَمَلِهِ لِلْحُجَّاجِ ، وَتَزْعُمُونَ أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ أَكْفَرُ بِاللَّهِ وَلَا أَجْحَدُ لِإِمَامَةِ عَلِيٍّ وَلَا أَنْقَضَ لِأَمْرِهِ ، وَلَا أَقْتُلُ لِشِيعَتِهِ مِنَ الْحُجَّاجِ وَلَا مَنْ وُلَّاهُ ، وَأَنْ مَنْ وُلِّيَ لَهَا فِي طَرِيقِهَا وَحَكْمِهَا .

وَأُخْرَى أَنَّهُ إِذَا كَانَ هَذَا الْحَدِيثُ كَمَا تَقُولُونَ وَقَدْ صَدَقْتُمْ عَلَى أَنَسٍ ، فَقَدْ زَعَمَ أَنَسٌ بِزَعْمِكُمْ أَنَّهُ كَذَّبَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ فِي مَوْقِفٍ وَاحِدٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ . وَقَدْ أَمْسَكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَنِ الطَّعَامِ وَهُوَ يَشْتَهِيهِ ، فَاحْبَبَ لَشَهْوَتِهِ لَه أَنْ يَشْرَكَ فِيهِ أَشْبَهُ النَّاسِ بِهِ فَدَعَا رَبَّهُ ؛ وَأَنَّهُ إِذْ دَعَا رَبَّهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ كُلُّ ذَلِكَ يَسْتَجِيبُ لَهُ ، وَكُلُّ ذَلِكَ يَرَاهُ أَنَسٌ وَيَكْذِبُ لَهُ وَيَصُدُّهُ عَنِ حَاجَتِهِ ؛ وَمِنْغُهُ سُرْعَةَ الْاسْتِجَابَةِ ، وَتَعْجِيلَ قَضَاءِ الْحَاجَةِ ، وَتَسْوِيفَهُ أَكْلَ الْمُشْتَهَى مِنْ طَعَامِهِ . كُلَّمَا دَعَا دَعْوَةً قَالَ اخْرُجْ يَا أَنَسُ فَانظُرْ مَنْ بِالْبَابِ ، ثِقَةٌ مِنْ رَبِّي ، وَاتَّكِلْ عَلَى الَّذِي عِنْدَهُ لَهُ ، وَيَرْجِعُ وَقَدْ كَتَمَهُ وَحَجَبَهُ عَنْهُ ، وَمِنْغُهُ سُرُورَ تَعْجِيلِ الدُّعَاءِ ، وَأَكْلَ شَهْوَى الْبِغَاءِ .

فَإِنَّ كَانَ أَنَسٌ كَمَا تَقُولُونَ فَقَدْ رَكِبَ أَمراً عَظِيماً ، وَذَهَبَ مَذْهَباً قَبِيحاً . وَكَيْفَ يَصْدُقُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ مَنْ خُلِفَهُ بِهَذَا ، وَكَذَّبَهُ فِي وَجْهِهِ ثُمَّ لَا تَمْنَعُهُ الْأَوَّلَى مِنَ الثَّانِيَةِ ، وَالثَّانِيَةُ مِنَ الثَّلَاثَةِ . هَذَا وَالْوَسْطِيُّ يَنْزِلُ بِأَسْرَعٍ مِنَ الطَّرْفِ بَلْعَنِ قَوْمٍ وَمَذْحِ آخَرِينَ .

وإن امرأً احتملت نفسهُ وشاع في طبعه أن يواجهَ النبيَّ صلى الله عليه
بالكذب ثلاثَ مراتٍ في أحبِّ الناسِ وأوجبهم حقاً عليه ، لحريِّ الأ يصدق عليه
في مُعظم أمر الدين ، مع أن الحديثَ نفسهُ هو أضعفُ حديثٍ عند أصحابِ
الأثر من أن يهوجنا إلى الإطئاب فيه ، والإخبار عنه .

ومنى ادعينا ضعفَ حديثٍ وفساده فاثمتم رأينا ، وخفتم ميلنا أو غلطنا
فاعترضوا هُمالَ الحديثِ وأصحابِ الأثر ، فإن عندهم الشفاء فيما تنازعنا فيه ،
والعلم بما التبس علينا منه .

ولقد أنصفَ كلَّ الإنصافِ من دعاكم إلى المقتنع مع قُرب داره وقلَّة جوره
وأصحابِ الأثر من شأنهم رواية كلِّ ما صحَّ عندهم ، عليه كان أولهم . مع
أن هذا الأمر ليس يُعرَف من قبيل الحديث ، وإنما يُعرف من الوجه الذي به
يُنقضى على جميع الدِّين .

وإنما احتججنا عليكم في أنسِ بالذي سمعتم ، لانا وجذناكم تكفرونه
حتى إذا جرى سببٌ يؤكد ما تقولون جعلتم كفره إيماناً ، وكذبه تصديقاً ،
وعداوته ولاية . ثم لم ترفضوا بأن الحقتموه بالأولياء وأخرجتموه من حدود
الأعداء ، حتى أقمتم خبره وحده مقامَ خبرٍ من يكذب آياً به ، أو مقامِ خبرٍ
يُمتنع الكذب في مجيئه لاختلاف عللِ أهله .

فأما نحنُ فإننا نرى أنه رجلٌ عظيمُ الحرمةِ واجبُ الحق ، إذ كان قد خدم
النبيَّ صلى الله عليه صغيراً واعتصم به كبيراً ، وكان من رهطِ صدق .

وأما ما حكيتم من ولايته للحجاج فقد ولى للحجاج وصلى خلفه من كان
يرى إكفاره فضلاً عن من يرى تفسيقه ، وفي البراءة منه وفي التقيَّة سعة ، وفي
الخوف عذر .

فأما الذي حكيتم من البياض الذي أصابه فإن المؤمنَ بعرضِ مصائب ما كان في
دار الدنيا . وما كان الذي أصابه في جنبِ الذي كان فيه أيوبُ النبيَّ صلى الله

عليه ؟ ! وقد كان شُعبياً مكفوفاً !

ولو كان عليٌّ كما يقولون فأرادَ أنه كان إذا بصق على إنسانٍ فأراد أن يبرصَ
بِرص ، لما كان بينه وبين عيسى بن مريم صلى الله عليه فرق .

والعجبُ إن كان كما تزعمون ، كيف لم يبصق على أبي موسى فيجذبه ، أو
على جيش صفين فيهزمه ؟ ! بل كان عليٌّ أظهر سلباً ، وأرجح جليماً وأشدُّ ورعاً ،
وأكثرَ فقهاً ، وأبينَ فضلاً ، من أن يدعى هذا وشبهه .

[٤٥ - تاويل العثمانية لحديث « أنت مني كهارون من موسى »]

وأما قولكم إن النبي صلى الله عليه قال : « أنت مني كهارون من موسى
إلا أنه لا نبيَّ بعدي » ، وإن النبي صلى الله عليه أراد بهذا أن يعلم الناس أن
عليّاً وصيه وخليفته ، فإننا سنقول في ذلك ، وبالله وحده نستعين .

نقول : إن خلافة الرجل لا تكون إلا في إحدى منزلتين : إما في حياة
المستخلف وإما بعد موته . ولم يقل أحدٌ أن النبي صلى الله عليه استخلف عليّاً
في غزوة من غزواته ، في كثرة ما غزا ، وكثرة ما ولى .

قالوا بأجمعهم : إن النبي صلى الله عليه خلفه في غزوة تبوك ، واستخلف
على المدينة محمد بن مسلمة . وقال قوم : المستخلف ابن أم مكتوم . وهم إن
اختلفوا فلم يختلفوا أن عليّاً كان مقيماً بالمدينة والامير غيره ، والإمام سيواه .

ولولا أن خلفاء النبي صلى الله عليه في غزواته يُصاب عليهم بكل مكان ،
وفي كل سيرة ، لقد كتبه لك في كتاب الذي رددت فيه على من صغر قدر
الإمامة وزعم أنها غير واجبة ، وأنها تصلح في العدد الكثير . وأما غير ذلك من
كتبي فلم أنتحل فيه قولي ، وجعلت الكتاب هو الذي عبّر عن نفسه ، وقمتُ
مقام جميع الخصوم وجعلت نفسي عدلاً بينهم . ولو لم أكن على ثقة من ظهور
الحق على الباطل لم أستحل كتمانته مع زوال الثقة ، وصلاح الدهر ، وإنصاف
القيم .

ثم رجعنا إلى كلامنا الأول فقلنا : لا بد لخلافة الرجل من إحدى منزلتين : إما في الحياة أو بعد الموت : فأما في الحياة فلا يستطيع أحد أن يقول : إن النبي صلى الله عليه استخلف علياً في حياته . وليس يضع ذلك من علي ، لأن أبا بكر وعمر اللذين هما عندنا أولى بالأمر منه لم يستخلفهما النبي صلى الله عليه قط في حياته . أو تكون الخلافة بعد الموت فلا يجوز أيضاً أن يكون النبي صلى الله عليه عنى بقوله « أنت مني بمنزلة هارون من موسى » الخلافة لعلي بعده والذي قد علم أن هارون قد مات قبل موسى : لأن هارون وموسى وأمهما ماتوا جميعاً في شهر واحد ، وكان موسى صلى الله عليه أجرحهم موتاً . ولذلك قالت بنو إسرائيل لموسى : أنت قتلت هارون .

فإن قالوا : ومن يقول : إن هارون مات قبل موسى ؟

قيل لهم : إن شتم فاعترضوا أصحاب التفسير والسيرة ، والتمسوا علم ذلك من قبل أصحاب ابن عباس ، وإن شتم فاهل الكتاب يهودهم ونصاراهم الذين ليس لهم في ذلك دفع مضرة ولا اجتلاب منفعة ، ولو آثروا أن يجحدوا ما عرفوا ، وأن يطبقوا على إنكار ما علموا ، وكان ذلك ممكناً في القدرة ، سائغاً جائزاً ، لجحدوا أن بني إسرائيل أخذت موسى بقتل هارون تعتاً وبغياً ، أو غلطاً أو جهلاً .

وهذا مشهور عند أهل الكتاب وأهل التفسير .

وليس أحد أحق بأن يُصيب في الأمثال إذا ضربها ، ولا أولى بحسن التشبيه إذا شبه ، من خيرة الله وصفوته من رسله ، فكيف يجوز أن يقول النبي صلى الله عليه لعلي : « أنت مني بمنزلة هارون من موسى » وهو يريد الخلافة ، وهارون لم يكن من موسى خليفة من بعد موته ، ولم يكن علي خليفة النبي صلى الله عليه في حياته . ففي أي المنزلتين وعلى أية الحالين يكون علي خليفة إذ لم يكن استخلفه النبي أيام حياته . بل كيف يجعله من نفسه بمنزلة هارون من موسى وهو يريد الخلافة من بعده ، وهارون لم يكن خليفة موسى بعده .

ولا بدُّ للحديث مع سوء تأويلكم واضطراب حُجَّتكم من ضريين :
إمّا أن يكون باطلاً لم يتكلّم به النبي صلى الله عليه . وإمّا أن يكون حقاً
ومعناه غير فلتم ، وتفسيره غير ما ادّعيتم .

ولو أن النبي صلى الله عليه أراد أن يجعل علياً خليفةً من بعده إذ لم يكن
جعله خليفةً أيام حياته ، لقال : « أنت مني بمنزلة يوشع بن نونٍ إلا أنه لا نبيُّ
بعدي » ، لأن يوشع كان خليفةً موسى في بني إسرائيل بعده ، وكان نبياً قبل موت
موسى وبعده .

فإن قالوا : إن النبي صلى الله عليه لم يقصد إلى الخلافة ولم يُرد الإمامة ،
ولكنه عنى الوزارة .

قلنا : إن وزارة هارون من موسى لا بدُّ فيها من أحد أمرين :

إمّا أن يكون موسى هو جعل له ذلك وهو وزيره على جهة ما يتخذ الإمام
وزيراً والملك وزيراً على معنى الاختيار والاستكفاء والثقة .

أو يكون وزيره على جهة المؤازرة والمكائفة والتعاون ، على أن كل واحدٍ
منها وزيرٌ صاحبه ومعاونُه ومكائفه ، إذا غابَ عن قومه كان الآخر خليفةً ، لا
على أن موسى الجاعلُ ذلك له .

ولا منزلة هارون من موسى إلا هاتين المنزلتين في جهة الخلافة والوزارة ،
لأن نبوة هارون لا تكون من قبل موسى ، والنبوة لا تكون إلا من قبل الله .

وليس يخلو قول موسى لهارون : « اخلّفني في قومي » عن ضريين : إمّا أن
يكون هو جعله خليفةً على جهة الاختيار والاستكفاء والثقة به ، وإمّا أن يكون
خليفةً على أن يكون كل واحدٍ منهما إذا غاب عن قومه كان الآخر خليفةً .

فإن كانت وزارة هارون أو خلافته لموسى إمّا كانت منزلتين أنزله فيهما
موسى ، وليست لهارون من موسى منزلةٌ غيرهما ، فقال النبي صلى الله عليه :

« أنت مني بمنزلة هارون من موسى » فكأنما قال : لك خلاتي ووزارتي ، فكيف يقول : إلا أنه لا نبي بعدي . والنبوة منزلة من الله لهارون وليست منزلة لهارون من موسى . فإذا كان ذلك كذلك فكيف يستثنى الحكيم المرشد الشيء من [غير] شكله ؟ ! وهل يكون بعض من غير كله ؟ !

وكيف يقول : قد جعلتك خليفتي ووزيراً ، إلا أني لم أجعلك نبياً مثلي ، ومنزلة النبوة ليست إليه كما كانت منزلة الخلافة والوزارة إليه . وإنما قوله : « أنت مني بمنزلة هارون من موسى » يريد به : إن لك مني مثل الذي كان لهارون من موسى ، وهو الخلافة والوزارة . فكيف يقول : « إلا أنه لا نبي بعدي » فيستثنى ما لا يملكه ولا يجوز أن يملكه ، مما قد ملكه ويجوز أن يملكه من هو دونه من خلفائه ومن خلفاء خلفائه .

أو يكون هارون كان وزيراً صاحبه وخليفته عند الغيبة وحضور الآخر ، ليس أنه قد كان خليفة ووزيراً . وإن كان ذلك كذلك فليست لهارون من موسى منزلة من الوزارة والخلافة إلا ولموسى من هارون مثلها . وإذا كان ذلك كذلك فقد صارت خلاتها ووزارتها كنسبتهما أو رسالتهما . وإذا كان ذلك كذلك فكيف يجوز أن يقول النبي صلى الله عليه لعلي : أنت مني بمنزلة هارون من موسى ، وليست لهارون من موسى منزلة إلا ولموسى مثلها من هارون ؟ ! . . وكيف يجوز أن يقول النبي صلى الله عليه ذلك لعلي ومنزلة هارون من موسى منزلة النبي من النبي ، والشكل من الشكل ، والمثل من المثل ، وهي منزلة من الله كما أن نبوة موسى منزلة من الله ؟ !

وكيف يقول : إلا أنه لا نبي بعدي ، وسبيل النبوة سبيل منزلة هارون من موسى على ما حكيناه من التعاون والتأزر ؟ !

وإذا كان هذا الحديث لو صح في أصله وأول مخرجه ، وسليم من الزيادة والنقصان وجاء مجيء الحجّة ، لم يقدر القوم على أن يجعلوه دليلاً موجباً وشاهداً صادقاً على خلافته وإمامته دون غيره ؛ فما ظنك به إن كان قد دخله من الخلل

والضعف والاحتمال في الفساد ما يوجب تكذيبه ورثه .

وأقل ما للعثمانية في هذا الحديث أن يسأؤوكم في تأويلكم ، وفي ذلك الخلاف بطلان حججتكم .

وقد زعم ناس من العثمانية أن هذا الحديث باطل من أجل أنه لا يمتثل من التأويل إلا ما حكيث لك ، وأن النبي صلى الله عليه لا يعلن ولا يظهر غير ما يضمن ، ولا يتكلم بالفساد ، ولا يستكره المعاني ، ولا يتكلم بالمتعقد ، ولا يضرب مثلاً ولا يشبه شيئاً بشيء إلا وذلك الشيء وفق ما قال ، لا يزيد عليه ولا ينقص عنه .

ووجه آخر : أن هذا الحديث لم يُرو إلا عن عامر بن سعد . فواحدة إن عامر بن سعد هذا لو كان بالفقه والحديث والفضل معروفاً وكان كأمثاله من بني الصحابة كعبد الله بن عباس ، وابن عمر ، وابن الزبير ، وأبي سلمة بن عبد الرحمن وغيرهم ، ما كان ليكون وحده حجة في تأخير أبي بكر عن مقامه ، فكيف وهو في غير سبيلهم وطريقهم .

ولو سمعنا هذا الخبر من سعدٍ وحده ما كان إلا حجة على نفسه كالحجج على علي في روايته أن النبي صلى الله عليه قال في أبي بكر وعمر : « هذان سيّد كهول أهل الجنة » .

وكيف يروى هذا سعد مع قوله في الإمامة : « ما أنا بقميبي هذا أحو مني بها » وهو يدعو علياً إلى الشورى والمخايرة والمكاثرة بالمحاسن ، ويقول « أعيدوها شورى كما كانت » ، ويعيب علياً بالاستبداد ، ويقول : « كنت سابع سبعة مع النبي صلى الله عليه ، ما لنا طعام إلا ورق الشجر ، ثم جاءني أعرا يعلمني دين الله ، ما أنا بقميبي هذا بأحق مني بها » .

ولأنما فخر بأنه كان سابع سبعة على علي لأن علياً لم يكن فيهم عنده وكان إما حدثاً صغيراً وإما على أمر غير ذلك .

وسعدُ من العَشْرَةِ ، ومن السُّتَّةِ ، ومن السَّبْعَةِ ، والمستجابُ الدُّعْوَةِ . وقال له النبي صلى الله عليه : « ارمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي » . ومن كان لهذه الأمور مستحقاً لم يجمع بين طلبِ مَخَايِرَةِ رَجُلٍ ومكائِرَتِهِ بالمحاسن وهو مُقَرُّ أَنَّ النبي صلى الله عليه جعلَ خصمه منه بمنزلة هارون من موسى ، إلا أن يكون تأويلُ الحديث عند سعدٍ وعند من شهد سعداً على غير معنائكم .

وحديثُ عامرٍ على غير ما يروون ، وإنما قال : « أنت مني بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه ليس معي نبيٌّ » ، هكذا رَوَاهُ عن عامر بن سعدٍ على غير معنائكم .

وفي قول النبي صلى الله عليه : « هذا خالي أباهي به فليات كل امرئ بهخاله » تفضيل له على كل خالٍ في الأرض ، وقد كان عليٌّ خالَ جعدة بن هُبيرة ، ولم يستثن أحداً .

فإن قالوا : الدليل على ما قلنا أن النبي صلى الله عليه لما آخى بين المهاجرين والأنصار آخى بينه وبينه ، فلولا أنه كان أشبه الناس به هدياً ، وعلماً وفضلاً ، لم يجعله عدلاً نفسه دون غيره .

قيل لهم : أنتم ليس لكم علمٌ بالأثر ولا بالخبر . وكيف يعرف الأثر والأخبار من يكفر الأسلاف ، ويبرأ من التابعين ، ويحمد كل ما لم يوافق هواه ، ويدعي ما وافق هواه وإن كان باطلاً ، بل لا يرضى حتى يتناول الزور ويؤلد الباطل .

وليس شيءٌ أيسرَ من أن يقول قائل : إن النبي صلى الله عليه لما آخى بين أصحابه آخى بين نفسه وبين أبي بكر . ولكن الحقُّ أحقُّ ما خُضِعَ له واحتُجِلَ ما فيه . وهذه الفقهاء وأصحاب الأثر عُرْضَةٌ لكم ، فإن لم يقولوا إن النبي صلى الله عليه لما آخى بين المهاجرين والأنصار آخى بين عليٍّ وسهل بن حنيف فنحن أولى بجمد المعروف منكم . وقد قال الله : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

وأنتم لستم أصحاب آثارٍ ، فاسألوا أصحاب الآثار إن كنتم لا تعلمون ،
فإن ذلك أمرٌ مشهور لا خفاة به ، ولا دافع له ، أعني المؤاخاة بين عليٍّ وسهل
ابن حنيفة .

ولثقة عليٍّ به استعمله على المدينة حين خرج عنها . ومن أجل سهل بن
حنيفة امتنع الزبير وطلحة أن يركبا عثمان بن حنيفة والي عليٍّ على البصرة
بأكثر مما كانا ركبا به . ولذلك السبب صلى أبو أمامة بن سهل بن حنيفة
بالناس في مسجد الرسول صلى الله عليه وعثمان محاصر ، لرأي عليٍّ كان في
ذلك ، ولغلبته على الدار ، وأنه كان يطاع بأكثر من طاعة الزبير وطلحة وسعد .

وإنما أخى النبي صلى الله عليه بينه وبين سهل بن حنيفة الأنصاري كما
كان أخى بين عثمان بن عفان وأوس بن ثابت . ولذلك قال حسان بحامي دونه
وَيَنْصُرُهُ بِالْكَلَامِ وَالشُّعْر ، وَيُظْهِرُ الْمِيلَ عَلَى عَلِيٍّ حِينَ قَالَ :

يا ليت شعري وليت الطير تخبرني ما كان شأن عليٍّ وابنِ عفانا
لنسمعن وشيكاً في دياركم الله أكبر يا ثاراتِ عثماننا
ولذلك قال في كلام له وهو يعتمد رأي عليٍّ واختياره : ثكلت أم نزال
حرب لقي ابن أبي طالب كفاحاً ، وسعدت أم نزال رأي لقي ابن أبي طالب
سهواً . في كلام كثير ، وشعر كثير .

وكسها أخى النبي صلى الله عليه بين أبي الدرداء ، وسلمان ، وبين
عبد الرحمن ابن عوف وسعد بن الربيع ، وبين حذيفة وعمار ، وبين حمزة
وزيد ، وبين أبي بكر وعمر .

فإن قالوا : فلعل النبي صلى الله عليه أخى بين عليٍّ وبين نفسه ، وبين
عليٍّ وبين سهل بن حنيفة ، وهذا ما لا يتدافع ، كما كان يواخي بين الرجل
المهاجري وبين الأنصاري ، وقبل ذلك ما آخى بين المهاجرين بعضهم في
بعض ، فكان الرجل منهم تصير المؤاخاة بينه وبين اثنين : مهاجري وأنصاري .

قلنا لهم : أما واحدة فإننا لم نجد لقولكم إن النبي صلى الله عليه أخى علياً

إسناداً يثقُ به أصحابُ الحديثِ فضلاً عن أن يكونَ جاءَ مجيءُ الحديثِ . ولو كانَ النبيُّ عليه السلامُ حيثُ آخى بينَ المهاجرينَ ولم يرضَ لعليٍّ إلا بنفسه لفضَّلَ عليٌّ على غيرهِ وأنه أشبهُ الأُمَّةِ به وأقربُهم حالاً من حاله . ثم آثرَ أن يُؤاخِيَه بينه وبين رجلٍ من الأنصارِ كفعله بغيره من المهاجرينَ . وكان ينبغي له أن يُؤاخِيَه بينه وبين أفضلِ الأنصارِ ، إذ كان الذي يمنعهُ من أن يُؤاخِيَه بينه وبين بعضِ المهاجرينَ طلبَ أفضليهم ، وكان ينبغي على هذا المذهبِ أن يُؤاخِيَه بينه وبين سعدِ بنِ معاذٍ .

فإن قالوا : سهل بن حنيف أفضل من سعدٍ ومن حمي الدبَّير ومن غسيل الملائكة ، ومن مكلم الذئب ومن غيره ، لم يكن هذا منكراً من مكابرتهم وجهلهم .

فإن قالوا : إنه جائز أن يُؤاخِيَه بين غير الأشكال في الفضل ، وجائزُ ألا يُؤاخِيَه بين المتساويين والمتقارِبين .

قيل لهم : ففعل أيضاً النبيُّ صلى الله عليه لم يُؤاخِ بين نفسه وبين عليٍّ - إن كان أخاه كما زعمتم - من قبيل تقاربِ الحال والمشاكلة في الأفعال . ولعل النبيُّ صلى الله عليه لم يُؤاخِ عليّاً رأساً إذا أجازَ ألا يُؤاخِيَه بين الأشكال ، ولا يقارب بين الأمثال . وأدنى ما فيه أن يكون ذلك قد كان جائزاً .

[٤٦ - تأويل الشيعة لحديث امرة ابي بكر في الصلاة والرد عليه من

العثمانية]

فإن تركوا هذا أجمع وقالوا : كيف يجوز أن يكون أبو بكر هو الإمام وقد كان النبي صلى الله عليه جعله في جيش أسامة ، وما زال يقول في شكائِهِ : « أنفلوا جيشَ أسامة » يُعيد ذلك ويكرره ، إلى أن قبضه الله إلى جنته .

قيل لهم : إن في أمر النبي صلى الله عليه له أن يقوم مقامه في الصلاة

بالمسلمين . وعائشة وحفصة قد اعتونتنا لبصرِفا ذلك إلى عمر ، ويقولان : إن أبا بكر رجل رقيق لا يستطيع أن يقوم مقامك .

وهو قد ودّع المسلمين في خطبته التي خطبها في شكاته حين قال : « إن عبداً من عباد الله خيرهُ الله بين الدنيا والآخرة فاختر الآخرة » فبكى أبو بكر ، فعجب الناس منه وقالوا : قال رسول الله صلى الله عليه : إن عبداً من عباد الله !! قالوا : وكان أبو بكر أعلمنا برسول الله صلى الله عليه . هكذا أخبر ثم جاء جبريل في شكاته فقال : يا محمد ، هذا ملك الموت يستأذن عليك ولم يستأذن على آدمي قبلك . قال : ائذن له . فأذن له جبريل حتى وقف بين يدي النبي صلى الله عليه ثم قال : يا محمد ، إن الله أرسلني إليك وأمرني أن أطيعك فيما أمرتني به ، فإن أمرتني قبضَ نفسك قبضتها ، وإن كرهت ذلك تركتها قالوا : فسمع النبي صلى الله عليه يقول : « الرفيق الأعلى » . فعلم أنه قد خيّر صلى الله عليه .

ثم كان عند كل صلاة لا يجد عندها إفاقة يقول : « مروا أبا بكر يصلي بالناس » ويقول : « أبا الله إلا أبا بكر » ، وفي قوله أبا الله أن يصلي إلا أبو بكر ، دليل أن ذلك من قبل الوحي مع قوله لعائشة وحفصة حين أرادت أن تصلي ذلك إلى عمر : « أنتن صواحبات يوسف ، أبا الله ورسوله أن يصلي إلا أبو بكر » بالغلظ . فلو كان الخطب في ذلك صغيراً ما أغلظ النبي صلى الله عليه لهما ، ولا اشتد عليهما .

فإن قالوا : وما دعا عائشة إلى صرف هذا الأمر العظيم والمقام الشريف إلى عمر ؟ .

قيل : فإنه ليس عندنا في ذلك إلا ما اعتذرت هي به لنفسها ؛ فإنها قالت : إني والله ما أردتُ صرف ذلك على أبي لم أعرف شرفه وخطره ، واكتفى خفت أن يتشاهم المسلمون به ، وألا يحبوا رجلاً قام مقامه أبداً .

فأما حديث الربيع بين صبيح عن الحسن فإنه زعم أنها قالت : خفت

الأ يطبق حمل الخلافة ، وظننتُ أن الناس سيُريدون منه مثل ما تعودوا من النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلمتُ أن أحداً لا يكون كالنبي . فإن كان النبي صلى الله عليه وسلم جعله في جيش أسامة فقد استثناء حين اشتكى ، من جميع الجيش ، إذا استخلفه في مقامه ، وأمره بالصلاة لأُمَّته ، لأن من صلى في مقام النبي صلى الله عليه وسلم وفي مسجده ومُصلاه ، في أعياده وسائر أيامه ، فقد صلى بجميع الأمة ، وتأمر على جميع البرية .

وإنما أدخلنا فيها صلاة الجمعة والعيد لأن النبي صلى الله عليه وسلم حين قال : « أبا الله ورسوله إلا أن يصلي أبو بكر » لم يستثن صلاة دون صلاة . فإذا كان الكلام عاماً والنبي صلى الله عليه وسلم على يقين من فراق الدنيا ، والوحي ينزل عليه ، فقد دخل في ذلك صلاة العيد والجمعة ؛ لأن النبي يتكلم كلاماً عاماً .

وقد علم الله ورسوله أن الكلام العام يتخذه الناس حجة فيما يدل عليه العام .

وقد علم الله أن أبا بكر يصلي بالناس في أعيادهم وسائر صلواتهم وأنه سيُحتج في استحقاق أبي بكر بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « أبا الله ورسوله أن يصلي إلا أبو بكر » ؛ فكان ذلك دليلاً على أن الله قد أراد ذلك وأوجبه ، وعناه وأحبه .

فهذا دليل على أن أبا بكر لم يُخالف أمر الله بتخلفه عن جيش أسامة إن كان أبو بكر ممن كان في ذلك الجيش قبل شكاة النبي صلى الله عليه وسلم وأمره له بالصلاة .

وهناك دليل آخر يدل على ما قلناه . وهو أننا لم نجد أحداً من المسلمين ولا من الأنصار والمهاجرين ذكروا عنه في ذلك الدهر حرفاً واحداً من ذكر تخلف أبي بكر ، لا عاتباً زارياً ، ولا مستغنياً مسترشداً ، ولا متعجباً ناقماً ، ولا مصوباً عاذراً ؛ ولم يذكر أحد حديثاً - ضعف إسناده أم قوتي - أن أحداً احتج لأبي بكر

ولا عليه .

ولا يكون رجلٌ في مثل نباهة أبي بكر وقدره ، وفي مثل نباهة ما صار إليه ، لأنه لا موضع أولى بشدة الحسد وكثرة الطعن منه ، وقد كان منه التخلف الذي لا يخفى موضعه ، مع توكيد النبي صلى الله عليه وسلم وشِدته على ذلك ، ثم لا يلجأ في تخلفه إلى حجة ولا أمر من النبي صلى الله عليه وسلم ثم يُطبق جميع الخلق في ذلك على السكوت والرضا والاستحسان أكثر مما صاروا إليه .

هذا وبنو عبد منافٍ شهودٌ ، وخالد بن سعيد قد ترك بيعته ستة أشهر ، وقال : أرضيتُم معشرَ بني عبد مناف أن يلي عليكم رجلٌ من تيم ؟ ! وقال أبو سفيان بن حربٍ مثل ذلك . وقالت الأنصار : منّا أميرٌ ومنكم أمير . وقد سمع أبو قحافة رجّةً وهو بمكة ، وهو مكفوف ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : مات النبي صلى الله عليه وسلم قال : فما صنع الناس ؟ قالوا : أقاموا ابنك . قال : فرضيتُ بنو عبد منافٍ بذلك ؟ قالوا : نعم . قال : وبنو المغيرة ؟ قالوا : نعم . قال : فلا مانعٌ لما أعطى الله ، ولا معطيٌ لما منع .

وفي إطباق الجميع على السكوت عن التخلف بعينه ، مع قول خالدٍ وأبي سفيان ، دليلٌ على أنهم لو وجدوا غميرةً أو خلافاً أو معصيةً لم يدعوا الاحتجاج به ، والخوض فيه . ولو كانت البقية قطعتهم عن ذلك لقطعتهم عن ذكر الطعن في إمامته ، كما قطعتهم عن ذكر الطعن في تخلفه .

وفي رضا أسامة وتسليمه وسكوته وقناعته حتى لا يحكى عنه في ذلك كلمةً واحدة ، دليلٌ على ما قلنا .

فإن قالوا : إن أسامة قد عرف صنيعه في تخلفه ولكنه كان في تقيّة منه ، لأنّ أبا بكرٍ لو لم يكن هو المطاع في العوام ، والمقتنع في الدماء ، ما تقدّم بني عبد مناف وكان أسامة لا يستطيع أن يُبيد في دهرٍ عمرٍ من ذلك شيئاً ، لشدة عمُر في تعظيم أبي بكر ؛ لأنّ الطعن في أبي بكرٍ راجعٌ على عمر ، وأن رعيّة عمر هم رعيّة أبي بكر وكذلك كان أسامة في دهر عثمان ، لأنه نسقٌ واحدٌ ومبيلٌ

قيل لهم : فما منعه أن يتكلم في دهر عليّ ومع عليّ يومئذ مائة ألف سيف يُطيعه . وهل عندكم في أسامة أكثر من أن تدعوا على ضميره غير ما يدل عليه ظاهر عمله ؟ وإن أولى الناس ألا يجتج بأسامة لأنتم ؛ لأن أسامة هو الشاهد لطلحة على عليّ ، حين قال عليّ : **بَايَعْتَنِي وَنَكَثْتَ بَيْعَتِي** . قال طلحة : **« بَايَعْتُكَ وَاللُّجَّ عَلَى قَفِّي »** . فقال أسامة : **أَمَّا السَّيْفُ عَلَى قَفَاهُ فَلَمْ أَرَهُ وَلَكِنْ بَايَعَ وَهُوَ كَارِهِ** . في أمور كثيرة تدل على أن أسامة كان عمرياً ، ليس هذا موضع ذكرها . فهذا هذا .

وفي إطباقهم جميعاً يدعونته خليفة رسول الله من تلقاء أنفسهم ، لا مكرهين ولا مقهورين ، لم يُرفع عليهم سوط ولا شهر سيف ، ولا سمعوا وعيداً ، ولا رأوا لذلك أثراً ، ولا رأوا منه إمرة لبعض العشائر ، فيخافون أن يتقوى بهم عليهم ، مع كثرة العدد واختلاف الأنساب وتفرق الأهواء ، و [في] الذي قبله ، دليل على ما قلنا ، وحجة على الذي ادعينا .

ومما يُقرب من قولنا قول النبي صلى الله عليه : **« أَنْفِذُوا جَيْشَ أَسَامَةَ »** . فقد يعلم المستدل أن النبي صلى الله عليه إنما قصد بذلك الأمر في خاصته والمطاعين ، لأن قوله : **« أَنْفِذُوا »** دليل أنه قد كان هناك من ينفذ أمره ، وإليه قصد بالأمر مفعلين غير ساخطين .

ولو كان الأمر إنما كان لأسامة وأصحابه كان اللفظ على غير هذا .

فإذا كان ذلك كذلك فمن أولى بأن يكون من المخاطبين المطاعين من أبي بكر وخليفه وصفيّه ، على ما كتبت لك في كتابي هذا ، مع أننا لم نيلّه ولم نستقصيه ، إنما بالخوف منا والكراهية لإطالة الكتاب ، وإما بالتقصير منا في معرفة جميع محاسنه .

ووجه آخر : أنك لو جهدت أن تجد لحديث من زعم أن أبا بكر كان في

جيش أسامة أصلاً لم يُجَدِّ ، وإنما أتى عامَّةً ذلك من قِبَل كَوْنِ عُمَرَ فِي ذَلِكَ الْجَيْشِ ، لِأَنَّ عُمَرَ وَأَبَا عُبَيْدَةَ كَانَا مِنْ أَوَّلِ مَنْ انْتَدَبَ فِي ذَلِكَ الْجَيْشِ .

ولَمَّا كَانَ النَّاسُ كَثِيراً مَا يَرُونَ عُمَرَ يَجْرِي مَعَ أَبِي بَكْرٍ غَلِطُوا فِي ذَلِكَ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ ، حَتَّى جَرَّ ذَلِكَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ فِرَارَ عُمَرَ يَوْمَ أَحَدٍ ، فَقَالَ مَنْ لَا عِلْمَ لَهُ : وَفَرَّ يَوْمَ أَحَدٍ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرَ . وَمَوْقِفَ أَبِي بَكْرٍ وَالنُّفْرَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فِي يَوْمِ أَحَدٍ أَشْهَرُ مِنْ أَنْ يَطْمَسَ عَلَيْهِ جَاهِدٌ .

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ عُمَرَ كَانَ فِي جَيْشِ ذَاتِ السُّلَاسِلِ ، فَالْحَقُّوْا بِهِ أَبِي بَكْرٍ .

فَإِنْ أَبَوْا إِلَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ كَانَ فِي ذَلِكَ الْجَيْشِ فَالْجَوَابُ عَلَى مَا قُلْنَا .

فَإِنْ قَالُوا : قَدْ سَمِعْنَا مَقَالَتَكُمْ ، وَلَكِنْ مَا الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ أَمَرَ أَبِي بَكْرٍ بِالصَّلَاةِ بِالنَّاسِ ؟ .

قُلْنَا لَهُمْ : إِنَّهُ لَيْسَ لِأَنَّهُ كَانَ مَأْمُوراً بِالصَّلَاةِ فَقَطْ ، وَلَكِنَّهُ صَلَّى بِالنَّاسِ سَبْعَ عَشْرَةَ صَلَاةً إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَدَأَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ لِلْمِائَتَيْنِ بَقِيَّةً مِنْ صَفَرٍ ، وَيَوْمَ الْاِثْنَيْنِ لِاِثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَضَتْ مِنْ رَجَبِ الْأَوَّلِ . وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ عِنْدَهُمْ .

وَزَعَمَ أَصْحَابُ السَّيْرِ وَالْأَخْبَارِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ كَانَ يَأْمُرُ بِبَلَاءٍ بِالْأَذَانِ ، فَإِذَا وَجَدَ إِفَاقَةَ خَرَجَ يَصَلِّيُ بِالنَّاسِ ، وَإِنْ اشْتَدَّ مَا بِهِ قَالَ : « مُرُوا أَبِي بَكْرٍ يَصَلِّيُ بِالنَّاسِ » ؛ فَكَانَ النَّبِيُّ وَأَبُو بَكْرٍ يَصَلِّيَانِ عَلَى [التَّنَاوُبِ] ؟

فَإِنْ أَنْكَرُوا أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ أَمَرَ أَبِي بَكْرٍ أَنْ يَصَلِّيَ [وَأَدْعُوا] أَنْ هَذِهِ الْأَخْبَارُ كُلُّهَا بَاطِلٌ ، وَأَنَّ الْعِلَّةَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ كُلِّهَا لَمْ تَمْنَعِ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ مِنَ الصَّلَاةِ حَتَّى مَاتَ .

قِيلَ لَهُمْ : أَرَأَيْتُمْ هَذَا الَّذِي قُلْتُمُوهُ وَأَدْعَيْتُمُوهُ ، أَشَيْءٌ اسْتَخْرَجْتُمُوهُ أَوْ سَمِعْتُمُوهُ ؟

فَإِنْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ سَمِعُوا قُلْنَا لَهُمْ : فَاتُّوا بِفَقِيهِهِ وَاحِدٍ أَوْ مَعْدُودٍ يَقُولُ كَمَا

تقولون ، ويحدث كما تزعمون ، وجميع ما يُدعى باطل .

وإن كانَ إذا اعترضوا المحدثين والناقلين لم يجهدوا أحداً إلا وهو يُجبر بما قلنا
فالحقُّ أحقُّ أن يتبع . ولا يجوز أن يقولوا : إنا استخرجنا معرفة هذا المعنى ؛
لأن الاستخراج لا يكون إلا من بيانٍ أو خبر .

أوليس قد كان النبي موضوعاً على سريه حين زاغت الشمس يوم الاثنين
إلى حين زاغت من يوم الثلاثاء ، يصلي الناس عليه وهو على شفير قبره وأبو
بكر يصلي بالناس ؟ !

فإن أتوا بحديث واحد أنه صلى بالناس في غير ذلك الوقت غير أبي بكر
فالقول كما قالوا . وإن أتوا بحديث واحد أنه صلى بالناس غير أبي بكر أول
صلاة صلاها المسلمون [حين] اختلفوا في تأمير الأمراء واستخلاف الخلفاء
عليهم ، كما قالت الأنصار : منا أمير ومنكم أمير فالقول كما قالوا

وهل يستطيعون أن يزعموا أنهم قالوا : منا مصل ومنكم مصل .

والعجب كيف لم يقولوا : إن علينا مزل هو المصل بالناس ، والمأمور
بالصلاة ، فعصّب حقه وظلم مقامه ؟ !

وكيف يجوز أن يجيء رجل من أرضه وسمائه من غير نسب ولا سبب ،
حتى ينفذ من أشرف المقامات ، بحضرة القرابية والعشيرة ، من عم وابن عم ،
وقريب ونسب ، وجلة المهاجرين والأنصار ، والعظماء وعلية قريش ، وذمماء
العرب ، ثم لا يتكلم في ذلك رجل واحد ؟ ! فلنما يقول هذا من لا يعرف قدر
ذلك المقام في الصدور ، وكيف طبائع قريش وأنفة العرب .

[٤٧ - الرد على احتجاج الشيعة بان الناس لم يجمعوا على امامة أبي بكر]

فإن قالوا : كيف يكون أبو بكر إماماً ولم يجتمع المسلمون على إمامته والرضا
به ؟ ! وقد قالت الأنصار : منا أمير ومنكم أمير ، وقال سلمان : « كَرْدَاذُ

وَنَكَرْدَاذٌ . وقال خالد بن سعيد : أرضيتهم معشر بني عبد منافٍ هذا . وقال أبو سفيان بن حربٍ مثل مقالته ، وخرج الزبير بسيفه شاداً ، فلما رآه عمر قال : دونكم الكلب . وجلس عليّ [في] منزله واعتلّ بأنه آلى ألا يبرح حتى يجمع القرآن .

قيل لهم : ليس الأمر على ما تقولون . ولو كان الأمر على ما تقولون ما كان خلافتُ هؤلاء ناقضاً لأمره ، لأن الرجل إذا كان أفضل الناس وأكمله وأنفعه للمسلمين وأردّه عليهم ، فعليهم إقامته والتسليم له ، والرّضا به ؛ لأن كل ما عدتُ لك من فضله هم كانوا أعلم به ، إذ كانوا يسافرون معاً ويقومون معاً ، وكانوا أعمى بمعرفة الخير ، وأسرع إلى العلم به منا ومن أهل دهرنا .

ولو كان أبو بكرٍ تتقضى إمامته ، وكان عليه اعتزال ذلك المقام ، بخلاف رجلٍ أو رجلين أو ثلاثة ، كان أولى الناس بأن يكون له في الإمامة سببٌ ولا حقٌ ومتعلّقٌ عليّ بن أبي طالب ، لأن سعد بن أبي وقاص كان أحد الشورى وأحد الأتقاء ، وقد أباه وقال قولاً أبين من قول خالدٍ وأبي سفيان وسلمان ، قال : « ما أنا بقميحي هذا الحقّ مني بها ، أعيئوها سُورِي ، أما بالسيف فلا أريدُها » ، وقال لرسول عليّ حين أرائوه على بيعته : نكلتُ أمّ لم تلدني ، لئن كنتُ سادسَ بيتةٍ ما لنا طعامٌ إلا وِزْقُ البشام ، وقد جاني أعرابُ الأوس تعلمني دينَ الله ؟ ! في كلام كثير .

وخالفه طلحةٌ والزبير وهما شريكاه ، وأحدُهما فارس النبي صلى الله عليه ، والآخر وقايته ، فقال عليّ : بايعتُماني ؟ قال : الزبير : ما بايعتكَ قط ، إن كنتُ على يقين أنك أولى بها فاجعلها سُورِي ، بيعه وحقّ دهاوك من باطله .

وقال طلحة : « بايعت واللّج على قتيّ » حين رقى إليه العساكر وطعنت عليه عائشةٌ واستحلّت محاربتَه . ثم اجتمع على حربهِ أهل الشام قاطبة فوهم عبد الله بن عمر ، وكعب بن مرة البهزي ، وكان من فضلاء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي قال حيث قال النبي صلى الله عليه : « ستكونون

فتنة هذا فيها يومئذ على الحق ، ، وأومأ إلى رجل مقنّع ، فكشف عن رأسه فإذا هو عثمان ، فلما قُتِل عثمان وهو يكفّ عن القتال استنصر ، فكان يحدث هذا الحديث .

ومنهم واثلة بن الأسقع الليثي ، وله صحبة ونُسك ، والنعمان بن بشير ، ومُسلمة بن مخلد ، وحبيب بن مسلمة ، وفو الكلاع ، ومعاوية بن حُديج .

ومن التابعين أبو مسلم الخولاني ، وشُرَحْبِيل بن السَّمْط ، وعمرو بن وafd الغامدي الذي قال [فيه] مكحول : كأنه قد مات ودخَلَ النار وحُوسِب ثم رُدَّ إلى الدنيا ، فمعه خوف المجرب .

ثم خالف عليه خاصة إخوانه ونُساك أصحابه ، وأهل البصائر من جُنده وحمدت حتى أكفروه واخلعوا إمامته وولايته .

وفيهم مع نسكهم وجِدِّهم نفرٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منهم فروة بن نوفل الأشجعي ، وحرقوص بن زهير . وفيهم عبد الله بن وهب الراسبي ، وزيد بن حُصَيْن الطائي .

ولقد دعا محمد بن مسلمة إلى عونه ، واعترض آخذاً بسيفه ، ثم كسره وقال : أضربُ المسلمين بسيفٍ ضربتُ به الكافرين ؟

فدعا زيد بن ثابتٍ إلى عونه فأبى وقال : أنت والله تعلم أن لو شحاً أسدٌ فاهُ لألقمته كُفْي ثونك ؛ فأما أن أضرب بسيفي لأؤكد لك مُلكاً فلا .

ودعا عبد الله بن عمر فقال حين أراد على بيعته : إني لن أنزع يدي من جماعةٍ وأضعها في فرقة . وكذلك قال حين قيل له بعد ذلك : لو بايعت أخاك عبد الله بن الزبير . قال : إن أخي وضع يده في فرقة ، وإني لن أنزع يدي من جماعةٍ وأضعها في فرقة .

وطمن عليه سعد بن زيد بن عمرو بن نُفَيْل وعلى طلحة وقال : « فتنة عَمِيَاءُ يَنْبِطُ أَهْلُهَا » . قال طلحة : ابن عمك كان أعلم بي وبك حين جعلني في

الشورى وأخرجك منها . قال : إن ابن عمي خانك وأمنني .

ودعا إلى بيعته وعونه أسامة بن زيد فقال : إني إذا لمقتون ! وأسامة هو الذي كان طلحة استشهده على قوله : « قد بايعت واللجج على قفي » فمثل أسامة عن ذلك ، فكلمه طلحة بكلام غليظ .

وقول صهيب أيضاً ، وسلمة بن سلامة بن وقش ، كل هؤلاء السبعة [ما منهم] إلا من شهد بدرأ .

وزعم ابن سيرين والشعبي أنها قالا : وقعت الفتنة بالمدينة وأصحاب النبي صلى الله عليه أكثر من عشرة آلاف ، فقال : فما يعدون من خف فيها عشرين رجلاً . فسميا حرب علي وطلحة والزبير وصيفين فتنة .

وكما قال الشعبي : من حدثك أنه شهد الجمل عن شهد بدرأ أكثر من أربعة نفر فكذب . كان علي وعمار في ناحية ، وطلحة والزبير في ناحية .

وقد تعلمون أنه لم يكن في الأرض عثمان إلا تعلمون أنه منكر لإمامته . وهم أكثر عدداً وأكثرهم فقيهاً وعبدنا . ولقد كان الرجل من أصحاب الآثار يُظنُّ به التشيع فيترك ويضعف ويؤثم عند أهل العلم ، حتى أنه كان يطويه ويُسْثَره أكثر مما يَسْثَرُ السوء يكون بجلده .

فلو كان الفاضل الكامل تتقضى إمامته وتفسد عدالته من قبل خلاف لربعية أو خمسة ، لما كان في الأرض أشد انتقاصاً من إمامة علي .

[٤٨ - تأويل قول أبي بكر : منا أمير ومنكم أمير]

أما قولكم : إن الأنصار قالت لقريش والمهاجرين : منا أمير ومنكم أمير ، فهذا إلى أن يكون حجة عليكم أقرب ، لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله لو كان قائماً علياً وجعله خليفة ووصياً ونص على ذلك بغدير خم ، أو في بعض المغازي ، ما كان بلغ من حرهم وعنودهم أن يقولوا هذا الكلام والإمام قائم

الحجة ، معروف المكان .

وكيف حاز أن يُلغوا ذكره حتى لا يذكرونه في شيء من مخاطباتهم
ومنازعاتهم ، إلا والقوم لم يكن عندهم فيه عهد ولا سب . فهذه حجة قاطعة .

وأخرى : الذي رأينا من قلة مبالاتهم من أقامه المهاجرون كائناً من كان ؛
لأن قولهم : منا أمير ومنكم أمير ، قول قوم كأنهم قالوا : لا بد لنا معشر
الانصار من أمير على حال ، وأنتم بعد أعلم بشأنكم فأمرؤا عليكم من بدا
لكم . وليس في هذا طعن على خاصة أبي بكر ، كما أنه ليس فيه تأكيد لإمامته
دون غيره .

وهذا قول كان من نفر من الانصار في سقيفة بني ساعدة ، قبل أن يقوم
فيهم أبو بكر خطيباً وواعظاً ، ومبيناً ومعتجاً . فلا يستطيع أحد أن يقول : إن
أحداً منهم رد على أبي بكر خاصة كلمة واحدة . فليس في قولهم : منا أمير
ومنكم أمير ، خلاف على أبي بكر ؛ وإن كان خلافاً فإنما هو على الجميع .

وإن كان هذا الكلام منهم حجة ما كان إلا على من زعم أن الإمامة غير
واجبة ، أما على من زعم أنها لأبي بكر دون علي فإنها غير لازمة .

ولعمري لو كان القوم حيث قالوا : منا أمير ومنكم أمير قالوا : ولا يكون
أميركم إلا علي أو فلان أو فلان ، أو قالوا : الرأي لكم أن تجعلوا أميركم علياً
أو فلاناً أو فلاناً ، كان في ذلك ما يتعلق به متعلق ، ويشغب به شاغب . وهذا
ما لا يحتاج به عالم ، لأن الحجة فيها للرافضة الزم ، وعليها أوكد .

[٤٩ - تأويل قول سلمان : كرادذ ونكرادذ]

أما قولهم أن سلمان قال ما قال ، فإنما سلمان رجل من عرض المسلمين ،
لا يصلح أن يكون خليفة ، ولا يجوز أن يكون في السورى ومع الأنكفاء ،
فتكفّر به مريّة أو تبرّم به ؛ لأسباب :

منها أنه ليس من المهاجرين ، ولا من شهد بدمراً ولا أحداً ، ولا لقي في الله ما لقي نظراؤه عند الناس كبلالٍ وصُهيب ، ونَجَّابٍ وعمار ، ولا كان من الذين آووا ونصروا ، وذكروا في القرآن وقدموا .

وكان حديث الإسلام قليل المشاهد ، وإنما أسلم حين انحسرت الشدة وانكشف عنهم معظم الكربة ، ولكنه كان من الصالحين ومن الفضلاء المخلصين ؛ وكان عند النبي صلى الله عليه وسلم وجيهاً ، وعند خلفائه مقرباً . وقد قال النبي فيه قولاً حسناً ، ولكنه ليس من الأكفاء في الإمامة وموضع الشورى والخلافة ، فيكون قوله حجةً تتقضى به الإمامة ، وطمعته عليه يصرف الخلافة .

ثم آخر : أنا قد وجدناه وليً لعمر بن الخطاب على المدائن ، يُقيم له الصلاة ويحيي له الخراج ، ويدعوه على المنبر ، ويؤكد له خلافته ، وينفذ أمره ، مطيعاً غير مكره ، ومخلى غير مقصور ، فولايته لعمر دليلٌ على تصويب أبي بكر ، ومطيع عمر أذعنٌ لأبي بكر ، ومعظم عمر أشد تعظيماً لأبي بكر .

ولقد كان يخرج آذن عمر والناس بياب فيجعلهُ في الفوج الأول . حتى روي عن أبي سفيان بن حربٍ وسُهَيْل بن عمرو في ذلك كلامٌ مشهور : من ذلك أنهم كانوا بياب عمر في جلةٍ من قريش والعرب ، مثل عيينة بن حصن وغيره ، إذ خرج آذن عمر فقال : أين بلال ؟ أين سلمان ؟ أين صُهيب ؟ أين عمار ؟ ادخلوا . فتغيرت وجوههم واستبان الجزعُ فيهم ، فأقبل عليهم سهيل بن عمرو واعظلاً ، ومُعرباً ومذكراً ، فقال : دُعوا ودعينا ، فأسرعوا وأبطأنا ، ولئن حسدتموهم على باب عمر لما أعد الله لهم في الجنة أعظم .

فما في الأرض عاقلٌ يظنُّ أنه يأذن لسلمان قبل أبي سفيان بن حرب وسُهَيْل بن عمرو ، ويوليهِ بلاد كسرى وآل كسرى ، وسلمانٌ عنده ظنينٌ في بيعة أبي بكر وناقمٌ عليه .

وقد بارك عمر أبا بكر ، في خالد بن سعيد بن العاص ، حين عقد له على

أجناد الشام ، لكلمته التي كانت في بيعة أبي بكرٍ حتى عزله .

فكيف يَحمِلُ لسلمانَ الطُّمن والخِلاف ثم لا يَرْضَى له إلا بالولاية على بلاد كسرى ، وسلمانٌ لا يجري عند عُمرٍ مجرى خالدٍ ولا قريباً ۱؟ ففي هذا دليل على أن سلمانَ لم يُقل : « كَرْدَاذٌ وَنَكَرْدَاذٌ » . وإن كانت هذه الكلمة حقاً كانت ترجمتها بالعربية : صَنَعْتُمْ ولم تصنعوا . يقول : قد أقمتم فاضلاً مجزياً ولو كان غيره كان أفضل منه .

وأخرى فلو كان سلمانُ كان عنده أن النبي صلى الله عليه كان قد استخلف علياً ونصبه إماماً وجعله وصياً لم يقل : صنعتم ولم تصنعوا ، إلا أن قوله « صنعتم » تثبت لإمامته ، فكأنه قال : هو إمامٌ ، لو كان غيره كان خيراً لكم منه . وليس على هذا بُني القول .

ولو احتج بهذا القول الزيدية كان أشبه من أن يحتج به الطاعن في إمامة أبي بكرٍ حين قال : ارتدَّ الناسُ كلُّهم عن الإسلام بإنكارهم إمامة عليٍّ ، والتسليم لمن أنكر ، ما خلا أربعة نفر : سلمان ، والمقداد ، وأبو ذر ، وبلال . ثم زعموا أن حذيفة وعماراً تابا بعد عمرٍ بن الخطاب .

[٥٠ - موقف بلال من بيعة أبي بكر]

ولئن كان بلالٌ كما قالوا من الطُّمن والخِلاف على أبي بكرٍ وعمر ، لقد شاركهما حيث وليَ لهما دمشق ، لأن عمر كان وليَ بلالاً دمشق ، فكان أنفذَ لأمره من أبي عبيدة .

وكيف يكون بلالٌ طاعناً على أبي بكرٍ وعمر حتى قد شُهرَ بذلك من بين الخلقِ وعمرٌ يوليهِ ، ويقربه ويُدنيه ، ويقدمُ إذنه ، ويلحق عطاءه بعطاء عثمانٍ وهليٍّ وطلحةٍ والزبيرِ وسعد ، ويقول : « بلالٌ سيِّدنا ومولى سيِّدنا » ، ومرةً يُلول : « أبو بكرٍ سيِّدنا واعتق سيِّدنا » .

ولا يجوزُ هذا القول من عمر من يجوزُ طعن بلالٍ على أبي بكرٍ ، إلا
جاهلٌ بعمر ، جاهلٌ بأمر السلطان ، وعجزُ الخلافة .

[٥١ - موقف المقداد من خلافة أبي بكر]

فأما ذكْرُهُم المِقْدَادَ فما عَلِمْنَا ولا عَلِمَ أصحابُ الأثَارِ أَنَّهُ نَطَقَ فِي خِلافةِ
أبي بكرٍ وفي نَقْضِهَا ، وفي خِلافةِ عَلِيٍّ وتوكِيدِهَا ، بحرفٍ فَطًى ، ولا وَقَفَ فِي ذلكِ
موقفاً ، ولا قامَ فِي إنكارِهِ [أ] وتثْبِيتهِ مَقاماً . وما نَدْرِي : بأيِّ سببٍ ادَّعَوْهُ ؛
إلا أَن يَكُونُوا ذَهَبُوا إِلَى أَن عَلِيًّا رَحِمَهُ اللهُ عَلَيْهِ رَجْمًا كَانَتْ لَهُ الْحَاجَةُ إِلَى النَّبِيِّ
عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَيُكْبِرُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَيَعْظُمُهُ عن مَواجَهَةِهَا ، فيكْلِفُ
ذلكَ المِقْدَادَ .

من ذلك حديث هشام بن عروة ، عن أبيه في الرجل إذا دنا من المرأة
فأمذى ولم يمسها ، فاستحيا علياً أن يسأل النبي صلى الله عليه عن هذا من أجل
ابنته ، فقدم المقداد فسأله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « يغسل ذكره وأنثيته
ويتوضأ » . وغير ذلك .

والأغلب علينا أن المقداد لم يزل مُتَنَكِّراً لعليٍّ ، لأنَّ المقداد حين خطب
ضُبَّاعَةَ بِنْتَ الزُّبَيْرِ بن عبد المطلب إلى النبي صلى الله عليه ، بعث النبي إليها
عليًّا بذلك يخبرها ، وأنه قد رَضِيَها لها ، فكَرِهَ عَلِيُّ ذلكَ فَرَجَعَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ
عَلَيْهِ ، وقال : رأيتها كارهةً . فأرسل النبي إليها رسولاً فقالت : أولم أخبر عليًّا
أنني قد رَضِيتُ لِنَفْسِي بما رَضِيَ بِهِ النَّبِيُّ ؟ ! فقام النبي صلى الله عليه خطيباً
فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « يا عليُّ قُمْ فَانظُرْ مَنْ عن يمينك وعن شمالك ،
واعلم أَنَّهُ ليس لك فضلٌ على أسودهم وأحمرهم إلا بالدين » . فهذا قد رُوِيَ ،
والله أعلم .

ولم يُرَوَ عن المِقْدَادِ الطَّعْنَ على أبي بكرٍ فِي خِلافتِهِ لِيُؤَكِّدَ بِذلكِ لِعَلِيٍّ شَيْئاً .

وأقل ما ينبغي للمتكلّم أن يَعْرِفَ فُرُوقَ الْأُمُور ، فَإِنَّهُ إِذَا عَرَفَ ذَلِكَ لَمْ يَتَعَلَّقْ مِنَ الْأَسْبَابِ إِلَّا بِأَمْتِنِهَا . فَأَمَّا تَجْرِيدُ الْبَاطِلِ وَكَثْرَةُ الدَّعْوَى بِسَبَبٍ ، فَهَذَا جَهْدُ الْعَاجِزِ .

[٥٢ - موقف عمار بن ياسر من أبي بكر]

[وَلَرُبَّمَا تَعَلَّقُوا بِالسَّبَبِ الضَّعِيفِ ، كَالَّذِي وَجَدُوا لِعَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ مِنْ عِدَاوَةِ عِثْمَانَ ، وَصَنِيْعِ عِثْمَانَ بِهِ ، فَلَمَّا كَانَ عِثْمَانُ عِنْدَهُمْ فِي طَرِيقِ عُمَرَ وَأَبِي بَكْرٍ وَفِي حَيْزِهِمَا جَعَلُوا طَعْنَ عَمَّارَ عَلَيْهِ طَعْنًا عَلَيْهِمَا ، وَاحْتِجَاجَ عَمَّارٍ لِعَلِيٍّ احْتِجَاجًا عَلَيْهَا .

ولو اجتهدت أن تصيب لعمار موقفاً واحداً أو كلمة طاعنة على أبي بكر وعمر وعثمان ، فضلاً عليها قبل إحدائه ، وقبل أن يجري بينهما ما جرى ، ما قدرت عليه .

وهل كان لعمر وال أنفذ لطاعته من عمار ١٢ ولقد رقع عليه جرير بن عبد الله ، فجمع بينهما طمعاً في ظهور حُبِّه ، والصرح عن نفسه ، فلما لم يجد ذلك عنده قال : ما عندنا خير لك يا أبا اليقظان .

ومن أجل ضعف عمار في الولاية وقوة المغيرة حين شكاهما أهل الكوفة قال عمر : « أَعْضَلَ بِي أَهْلُ الْكُوفَةِ ، إِنْ وُلِّيتْ عَلَيْهِمْ تَقِيًّا ضَعُفُوه ، وَإِنْ وُلِّيتْ عَلَيْهِمْ قَوِيًّا فَجَرَّوه » .

فإذا كان عمار يُخطب على منبر الكوفة بشوكيد إمامة عمر ، ويأمر الناس بطاعته ، ويقيم الحدود والأحكام بأمره ، ويفتح الفتوح بتأميمه ، فيرى القتل والسبي وإحلال الفروج ، غير مكره بوعيد ولا مقصور بإيقاع ، فأي دليل أدل مما حكيناه .

ولو أن طاعناً طعن في طاعة سهل بن حنيف ، وعثمان بن حنيف ، وأبي

أيوب الأنصاري ، وأبي مسعود البدري ، لعليّ ، هل كان عندكم في دفع ذلك إلا مثل ما عندنا من الدُّفَع عن طاعة سلمان وبلالٍ وعَدَارٍ وأقلّ منه .

[٥٣ - موقف أبي ذر من عمر]

فأما أبو ذرّ فزعم أصحاب الآثار أنه كان يعظم عمر بن الخطاب تعظيماً ما عظّمه أحدٌ قطّ . فمن ذلك أن عمر صافحه يوماً فعصر يده وكان أيداً ، فصاح : يا قُفْلَ الْفِتْنَةِ ! وَمَسَحَ مِنْ وَجْهِهِ الْمَرْقَ بِيَاطِنِ رَاحَتِهِ ، وعمر موعوك وهو يقول : بأبي رَحْضَاؤُكَ لَوْ قَدِمْتُ صَرْنَا هَكَذَا - وَثَبُّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ - أَوْجَعْتَنِي ! فَخَلَّاهُ وَقَالَ : مَا هَذَا ؟ فَقَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ : « لَنْ تَزَالُوا بِخَيْرٍ مَا كَانَ هَذَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ » .

وقال عمرٌ لشابٍّ : غَفَرَ اللَّهُ لَكَ ! فَقَامَ إِلَيْهِ أَبُو ذَرٍّ فَقَالَ : اسْتَغْفِرْ لِي ! وَهُوَ حَدِيثٌ فِيهِ أُمُورٌ كَثِيرَةٌ .

ولو لم يجيء عن أبي ذرٍّ من هذا قليل ولا كثير لكان حكمه الرُّضَا والتسليم ، إذ لم نُرَ مِنْهُ طَعْنٌ ، وَلَا رَأْيًا لَهُ مَتَوَعَّدًا .

ولو اعترضتم مائة من أصحاب النبي صلى الله عليه فقلتم : إنهم كانوا طعانين على أبي بكرٍ مؤكدين لخلافة عليّ ، ما كان عندنا في أمرهم حديثٌ قائم ، ولا خبرٌ شاهد ، أكثر من أن يحكم الممسيك عن الطعن والخلاف هو الرُّضَا والتسليم .

[٥٤ - عودة الى اسلام سلمان]

ولقد ينبغي لنا ولكم أن نتفكر في معنى كلمة سلمان ، فقد أكثرتم فيها ، حيث قال صنعتم ولم تصنعوا ، ومعنى هذا الكلام : إنكم قد أقمتهم مجزياً وتركتم من هو أجزاء منه ، فيجب أن نعرف الخلل الذي لم يسُدّه أبو بكرٍ . . . التي لم

يبلغها ، والموضع الذي عجز عنه ، ما هو ؟ وأي ضرب هو ؟ إلا أن امتحن بما لم يُمتحن به أحد قبله ، ولا يمتحن به أحد بعده ، من قيامه في مقام رسول الله صلى الله عليه ، في عقب الذي تعود المسلمون من طريقته ، وتعرفوا من سيرته في نفسه وفي أمته ، ثلاثاً وعشرين سنة - وهي السيرة التي لا تحتاج إلى الإخبار عن فضلها ، والإطنا ب في تشريفها - فلم يُغادر ولم ينحرف ولم يتغير ، ولم يؤثر ولم يضعف :

وقد علمنا أن الذي عظم صغير ما كان من أمر عثمان ، وشنع عظيم ما كان منه من الضعف وغير ذلك ، الذي كان من إفراط جلد عمر ، وشدة رأيه وشكيمته ، ويقظته وخشونته ، وثبات عزمه ، وحمليه نفسه على ملهب صاحبيه قبله . ولذلك قال عن بلال : « ما قتل عثمان غير عمر » . فالفضل الذي بين النبي صلى الله عليه وأبي بكر أكبر وأظهر من فضل ما بين عمر وعثمان . ولذلك قال عمر بن عبد العزيز : « ليس لله ستر أكشف ولا أسبغ من ستره على الصديق حين لم يتكشفت إذ قام يعقب النبي صلى الله عليه » .

وقد تعلمون أن لو كان النبي غائباً عن المدينة في غزاة ، أو حجّة وارتدت العرب وانتقضت العهود ، وظهر النفاق وماج الناس ، فوثب رجل من عرض أصحابه ، فلم يزل باللين والشدة ، والكف والإقدام ، والبطش والحيلة ، حتى رده في نصابه ، وأعادته كاحسن عادته يبدل النفس فيما دونها ، لقد كان صنع صنيعاً عظيماً ، وفعل فعلاً كبيراً . فكيف برجل قام بأمر الإسلام وقد هتكت أستاره ، وتقطعت أطنا به ، ومرجت عهوده ، منفرد بالرأي غير مستعين عليه ، ولا مستوحش إلى غيره ، بل خالفه الجميع في صوابه وما أوجده الرأي ، ودل عليه النظر من عزمه ، وقد أهي إلا صرامة وبصيرة وثقة ، والنبي صلى الله عليه وسلم قد مات غير مخوف ولا متوقع قدومه ، فرد أهل الردة قاطبة ما بين أهل الحيرة ، إلى شحر عمان إلى أقاصي اليمن ، وقمع النفاق بالمدينة وما حولها ، وقتل مسيلمة واستفتح اليمامة ، وأمر طليحة ، ثم أوطأ خيله الشام ، وجند الأجناد ، ومنع الحوزة ، ووطأ الأمر ، وقتل العدو بكل مكان . ثم لم يستأثر

بدرهم ، ولم يكثر ديناراً ، ولم يخلف درهماً ، ولم يتفككه بغنيمة ، وجعل عمالته مردودة على بيت مال المسلمين . ولذلك قال عمر : « رحم الله أبا بكر لقد شق على من بعده » .

فما الشيء الذي لو كان علي هو القيم به كان اجزأ منه ، وبلغ منه ما لم يبلغه . وكيف يكون علي اجزأ منه ولم تغلق الفتوح إلا في زمانه ، ولم تكن الفتوح إلا على رأسه ، ولم تخرج الخوارج إلا عليه . وهذا باب الكلام فيه على علي ، ولكننا إذا فعلنا ذلك فقد دخلنا في الذي عننا .

مع أنك لو طفت في الافاق تطلب لكرداذ ونكرداذ إسناداً ولكننا قد رأينا أن سلمان قال : « أصبتم الحق وأخطأتم المعدين » فترى أنه إن كان قال هذا القول فلأنما ذهب إلى أن الأمر لو كان في بيت النبي صلى الله عليه وعلى التوارث الأقرب فالأقرب ، كان أجدر ألا يطمع فيه ذووان العرب وذهاة العجم ، على غابر الأيام ، وتطاول الدهور .

وسلمان رجل فارسي ، وهذا كان شاهداً كسري ، فتوهم أن حكم الكتاب والسنة كحكم تدبير السر والقائمين بالملك ، فلأنما تكلم على عادته وتربيته .

ولعمري لقد كان في قوم قد ساسوا الناس سياسة ورتبوهم ترتيباً ، يقطع عن الطمع في الملك بآين : لم يجعلوا للصانع أن ينتقل عن صناعته إلى الكتابة ، ولم يجعلوا للكاتب أن ينتقل من كتابته إلى القيادة ، ولم يجعلوا لأبنائهم إلا مثل ما كان لأبائهم ، ليعودوا الناس عادة يستوحشون معها إلى الخروج منها .

وأما حسن هذا في ملكهم إذ كان بالرأي والغلبة ، ولم يكن لأهله أمثل من التدبير والحكم ، لم يكن شأنهم الأخذ بالكتاب والسنة ، وسبيل الإمامة غير سبيل الملك .

فإن كان سلمان إلى هذا المعنى ذهب ، وإسائه عني ، فلأنما قوله حجة للعباسية لا للعلوية .

وسنخبر عن مقالة العباسية ووجوه احتجاجهم بعد فراغنا من مقالة
العثمانية ، بغاية ما يمكن من الاستقصاء ، وإنصاف البعض من بعض ، لتكون
انتَ المختارَ لنفك بعقلك ، والأقوالُ ظاهرةً مجلِّيةً لذهنك ؛ فلئن أعجزك
الاختيار الأرجح بعد الكفاية إنك عن استنباطه وتخليصه أعجز .

وقد ذكر هشيم ، عن العوام بن حوشب عن إبراهيم التيمي قال : قال
سلمان حين بُويع : « أصبتم حين بايعتم وحيد الناس ، وأخطأتم حين عزلتموها
عن أهل بيت نبيكم ، ولو وضعتموها فيهم لأكلتم رعداً » .

وهذا حكم من سلمان أن أبا بكر خير من عليٍّ ومن جميع الناس ، والناس
علي خير الناس أصلح منهم علي من دونهم .

وأخرى : أن سلمان حين قال : « كَرْدَاذ » كما زعمتم ، لو لم يكن عندكم
عظيم القدر نبيل الرأي ، قدوة عند الاختلاف ، لم تسمعوا قوله بهذا المكان ،
حتى صار مثل طعنه وخلافه ، ينقض إمامة الأئمة ، وتتخذونه على خصمائكم
حجة .

مركز تحقيقات كويت علوم إسلامية

وإن كان سلمان على ما قد وصفتم ، وبالمكان الذي وصفتم ، من الحكمة
والبيان ، فما دعاه إلى أن يكلم العرب والأعراب بالفارسية ، وهو عربي اللسان
فصيح الكلام ، وهو يعلم أنه لم يكن بحاضرة المدينة فرس ولا من يتكلم
بالفارسية ولا من يفهمها . وهو إنما أراد الاحتجاج عليهم والإعداد إليهم ، وأن
يقضي حق إمامة عليٍّ ويقوم بشأنه .

وقد ينبغي لمن بلغ من صدق نيته وفرط اجتماع لبه وشدة عزمته أن يتكلم
في دار التقية لا في دار العلانية ، حتى خاطر بنفسه وبكل شيء يهوله ، ومن شأنه
أن يفهم الحجة ، ويوضح الموعظة ، ويبين عن موضع المظلمة ، وإلا فسكوته
أحسن من الفارسية .

وكيف فهمت معناه العرب وهي لا تعرف من الفارسية قليلاً ولا كثيراً ،

ولم يكن للنبي صلى الله عليه تَرْجَمَانٌ يعْبُرُ عنه للْفُرْسِ فيكونَ ذلك التَرْجَمَانُ كانَ حاضراً لكلامه ، فيفسرُ للناس معناه .

وكيف نقلت عنه الصحابة إلى التابعين وكل من كان بحضرة القوم حين بايعوا أبا بكر لا يفهمون الفارسية ، ويكون سلمان حين تكلم بها استرابوا عندها فسألوه عنها ففسرها . ولو كان ذلك كذلك لحكاه الذين نقلوا الحديث ، فكان ذلك أحب إلى الروافض ، لأنهم إنما نقلوه ليعرفوا من كان الطاعن على أبي بكر . والطعن كلما كثرت فيه المراجعة والمناقضة ، وطال سببه ، وعرف علمه ، كان أدل على الشهرة والاستفاضة ، وأن الأمر كان حقاً معروفاً .

فواحدة أن الأمر لو كان كذلك لكانت الروافض أسرع الناس إلى حكايته ، لتستشهد على الدعوى ، ولتقوي به الحديث ، وتشدد به الحجة .

وثانية : أن الناقلين أنفسهم كانوا سيحكونه ، إذ كانوا إنما حكوا نفس الكلمة ليعرفوا أنه قد كان هناك خلاف ، ويدلونا على أن سلمان كان ممن خالف ، ومن له هذا القدر الرفيع الذي يجتج بخلافه .

وأخرى : أن ذلك لو كان قاله سلمان ، وهو طعن على أبي بكر ، كان مشهوراً عند عمر وعثمان ، وأبي عبيدة وسعد وعبد الرحمن ، وهؤلاء عندهم شيع أبي بكر . فكيف أطبقوا على ترك التكلم على سلمان والدار دارهم والحكم حكمهم ، ومعهم الرغبة والرغبة ، مع أن الجراءة على سلمان أيسر وأسلم فغبة من الجراءة على أبي بكر . وقد أطبقت على طاعته الأمة خلا أربعة نفر : أحدهم سلمان . وليس سلمان معروفاً بالنجدة وشدة الشكيمة ، ولا وراءه ظهر يمنعه ، فكيف لم يزجره عن ذلك زاجر ، ولم يدفعه عن ذلك دافع . ولم يناظره مناظر ، ولم يتعجب منه متعجب ، ولم يرفع ذلك رجل إلى أبي بكر كما رفعوا إليه قول خالد بن سعيد .

فإن قلت : إن أبا بكر كان مدارياً يتسع صدره لأكثر من هذا كما اتسع صدره فلم يعاتب خالداً ولا أرادته على بيعته . كيف سلم على حدة حكم فأين

جُدُّ عُمَرَ وَخَلْدُهُ ، وَقَلَّةُ احْتِمَالِهِ ، وَاَعْتِقَانُهُ لِمِثْلِ هَذَا ؟ ! وَكَيْفَ [سَلِمَ] طَلْحَةُ مَعَ شِدَّةِ بَأْوِهِ وَصِرَامَتِهِ .

وَلَا نَعْلَمُ شَيْئاً مِمَّا ادَّعَوْهُ أَظْهَرَ بِاطِّلَاءٍ ، وَلَا أَفْسَدَ مَعْنَى مِنْ قَوْلِهِ « كَرَدَاذٌ وَنَكْرَدَاذٌ » .

[٥٥ - مَوْقِفُ خَالِدٍ مِنْ بَيْعَةِ أَبِي بَكْرٍ]

وَأَمَّا مَا ذَكَرْتُمْ مِنْ تَرْكِ خَالِدٍ بَيْعَةَ أَبِي بَكْرٍ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ فَإِنَّ الَّذِينَ نَقَلُوا هَذَا هُمْ الَّذِينَ نَقَلُوا أَنَّ خَالِدًا يَوْمَ تُوُفِّيَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ كَانَ عَلَى صَدَقَاتِ الْيَمَنِ ، فَقَدِمَ بَعْدَ أَنْ بَايَعَ النَّاسُ أَبَا بَكْرٍ ، فَلَمَّا دَخَلَ الْمَدِينَةَ اسْتَقْبَلَهُ عِثْمَانُ وَعَلِيٌّ فَقَالَ لَهَا : أَرْضَيْتُمْ مَعْشَرَ بَنِي عَبْدِ مَنْفَى أَنْ يَلِيَّ هَذَا الْأَمْرَ عَلَيْكُمْ غَيْرُكُمْ ؟ فَلَمْ يَذْكُرْ لَنَا أَنَّهَا رَدَّتْ عَلَيْهِ قَوْلًا ، وَلَا أَظْهَرَ قَبُولَهُ . ثُمَّ جَلَسَ عَنْ بَيْعَتِهِ لَا يَسْأَلُهُ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ وَلَا يَدْعُو إِلَيْهِ ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ مَرَّ أَبُو بَكْرٍ بِدَارِ خَالِدٍ مُظْهِراً لِبَعْضِ الْأَمْرِ ، وَخَالِدٌ فِي دَارِهِ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ لَهُ خَالِدٌ : أَتُحِبُّ أَنْ أَبَايَعَكَ ؟ قَالَ : أَحَبُّ أَنْ تَدْخُلَ فِي صَالِحٍ مَا دَخَلَ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ . قَالَ لَهُ : مَوْعِدُكَ الْعِشْيَةِ . فَأَتَاهُ وَهُوَ عَلَى الْمَنْبَرِ فَبَايَعَهُ .

فَفِي هَذَا وَجْوهٌ مِنَ الْكَلَامِ :

مَنْهُ أَنَّ خَالِدًا لَمْ يَطْعَنَ فِي إِمَامَةِ أَبِي بَكْرٍ مِنْ جِهَةِ الْجُزْءِ وَالْكَفَايَةِ وَالْكَمَالِ وَالْفَضْلِ ، وَلَا مِنْ طَرِيقِ مَا تَفْسُدُ بِهِ الْإِمَامَةُ وَتَنْتَقِضُ بِهِ الْخِلَافَةُ وَإِنَّمَا ذَكَرَ الْحَسْبَ وَطَرَاتِقِ الْجَاهِلِيَّةِ . وَهَذَا الْأَمْرُ إِنْ كَانَ مَقْصُوراً فِي قَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ ، فَلَيْسَ هُوَ فِي بَنِي عَبْدِ مَنْفَى عَامَةً . وَإِنْ كَانَ لَيْسَ [مَقْصُوراً] فِي قَوْمٍ ، وَلَيْسَ لِقَوْلِ خَالِدٍ مَعْنَى ، فَإِنَّ كَانَ مَقْصُوراً فِي عَبْدِ مَنْفَى لِلشَّرَفِ أَوْ لِلْقَرَابَةِ ، فَالْعَبَّاسُ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنْ عَلِيٍّ وَجَمِيعِ عَبْدِ مَنْفَى .

وَلَوْ ارَادَ عَلِيٌّ لَمْ يَقُلْ : أَرْضَيْتُمْ بَنِي عَبْدِ مَنْفَى ؟ ! لِأَنَّ عِثْمَانَ وَعَلِيَّ

مَنافِيان ، بل كان يقول : أرضيتُم مَعَشَرَ العِترَةِ ، أو مَعَشَرَ بني هاشم ومَعَشَرَ بني عبد المطلب . مع أنه لو قال ذلك لكان للعباس في ذلك القول من السَّبب ما ليس لعليّ ؛ لأنّ هذا الأمر إن صلح أن يخرج من رَهط النبي صلى الله عليه و آله و سلم ، ومن أقرب الناس إليه ، إلى أقصَى بني عبد مناف ، لصلح أن يخرج إلى أقصَى بني كلاب . فإذا كان ذلك كذلك فتيّم وعبد منافٍ سواء .

ومما يدلُّك على أن خالداً لم يقل شيئاً ، أن هذا الأمر إن كان إنما يُستحقُّ بالعلم والعمل والجزء والغناء فليس لذكر عبد منافٍ معنى .

وإن كان هذا الأمر لأفضل قريش كائناً من كان فلم يقل خالد شيئاً ، وليس لذكر عبد منافٍ معنى .

وإن يكن هذا الأمر في أقرب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فلم يصنع خالد شيئاً .

وإن يكن هذا الأمر لرجل بعينه قد نصبه النبي صلى الله عليه و آله و سلم فلم يصنع خالد شيئاً ؛ لأنه كان ينبغي له أن يسير بالمنصوص أو بالمدلول عليه .

أو يكون هذا الأمر لا يُصائب إلا من طريق الوراثَةِ . فإن كان ذلك كذلك فلم يصنع خالد شيئاً ؛ لأنّ صاحب الوراثَةِ أظهر أمراً وأشهر موضعاً من أن يحتاج إلى كلمة ليست بأن تدلُّ عليه بأقرب منها من أن تدلُّ على خالد نفسه .

ووجه آخر : أنه قصد بكلامه إلى عثمان وعليّ جميعاً ، ليهزّهما معاً ؛ لأنّ هذا اللفظ الأغلب على ظاهره حُبّ العصبية ، والمحاماة على الأحساب ، وترك التّخاير بالأفعال ، والتفاضل بالجزء والكمال .

ولعله أراد عثمانَ دون عليّ ، أو لعله أراد نفسه والتذكير بها والتنبية عليها ؛ فإنه كان أشرف من عثمان وأقدم إسلاماً منه ، وكان من مهاجرة الحبشة ، وكان ذا قدرٍ عظيم . وهو ابنُ أبي أحيحة ، وكان أبو أحيحة إذا اعتم بمكة لم يعتم لها أحد ؛ إكباراً لقدره ، وتفضيلاً لحاله .

وكان عثمان لا يجابي سعيد بن العاص .

وظاهر كلام خالد وقع على عبد مناف بجملة ، وهو يرى أنه في السر منهم .
فإن كنتم أردتم أن تُخبروا عن خلاف خالد على أبي بكر وجلوسه عنه ، فلقد كان ذلك حقاً راجعاً من تلقاء نفسه ، وثاب إليه عازباً رايه ، فأناب إلى خطته ، ودخل في صالح ما دخل فيه غيره . وما كان تخلفه عن بيعته إلا ريشاً ذهبت عنه حميته ، وإنجاب عن . . . وتيقظ من نومه .

وما ذلك بأعجب من اجتماع الأنصار وقوله للمهاجرين الأولين : « منّا أميرٌ ومنكم أمير ! » والدار دارهم ، والمهاجرون ضيفائهم ونزولٌ فيهم ، وهم أولُ الناسِ والعدو والصُّلح والرأي ، فكانوا مجلبين جادين مجدين ، فما هو إلا أن هجم عليه الصديق وقام فيهم مُرشداً ومحتجاً [حتى] استبدلوا بالخلاف طاعة ، وبالضجة إطراقاً ، وبالأنفة خضوعاً ، وبالطيش حلياً ، وأنصتوا معاً واستمعوا معاً .

وكان السائل إنما أراد تعريفاً أنه كان من خالد خلافاً . فقد كان ذلك ثم رجع إلى نفسه وعرف موضع خطته ، غير مرغوب ولا مرهوب .

وإن كان إنما أراد أن يجعل هذا وشبهه حجةً في إمامة علي فليس لعلي رحمة الله عليه في ذلك من الحججة على إمامته قليل ولا كثير ، إذ لم يذكره في شيء من أمورهم ، لا في سير أمرهم ولا عسيره . ولو ذكروه ما كان لذكرهم دليل على أنه أولى بالإمامة من أبي بكر ، مهما عددنا عليك من خصاله التي لا يفي بها علي ولا غيره .

وإنما كان يكون هذا الإدخال حجة لو قلنا : إن أحداً لم يخالف أبا بكر .

ورضى الجميع وسكونهم وصوابهم لم يكن ليتهاً أبداً ، حتى لا ينطق أحد بحرف واحد لا جاهل ولا عالم ، ولا عصي ولا حاسد .

[٥٦ - يستحيل اجماع الناس على الخلافة وهي كان اقل الخلفاء اجماعاً]

وكيف يُتفق إطباقهم على سكوت واحد والناس من بين حاسد وراضٍ ،
وعصبي وتقي ، وحليم وسخيف ، وغالط ومصيب ، وعاقل وأحمق ١٢

وإذا كان النبي صلى الله عليه مع رجاحته على جميع الخلق لم يسلم على
أمته [من] المستجيبين له ، فضلاً على جاحديه والمنكرين له ، كان أبو بكر أجدر
الآيسلم من رعيته .

ولقد قام رجل إلى النبي صلى الله عليه فقال : والله يا محمد ما عدلت في
الرهيّة ، ولا قسمت بالسوية . وقال الله : ﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات ﴾
قال : ﴿ إن الدين ينادونك من وراء الحجرات ﴾ .

وقال عباس بن مرداس :

أتممّل نهبى ونهب النجيب يد بين عيبنة والأقرع
فما كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس في المجمع
في شعر له طويل .

وقال أبو حذيفة بن عتبة يوم بدر : يقتل أبناءنا وأعمامنا وبنهانا عن
عشيرته ، والله لئن أدركته لأجمنه بالسيف !

وخالفوا عليه في يوم الحديبية في نحر المهدي ، وحيث قالوا : « لا تعطى
الدنية مرة بعد مرة » ، في أمور كثيرة .

فليس في طعن الطاعن دلالة إذا كان المطعون عليه كاملاً باضلاً . وإجماع الناس
كلهم على الصواب أمر لا ينال ، ولكن إذا كانت الأمة قد أطبقت على طاعة رجل على
غير الرغبة والرهيبة ، ثم لم يكن اختاراً ولا إغفالاً ؛ فليس في شذوذ رجل ولا
رجلين دلالة على انتقاض أمره ، وفساد شأنه .

وليس يحتج بهذا وشبهه إلا رجل جاهل بطبائع الناس وعللهم . ولو كان

هذا وشبهه ناقضاً لإمامة أبي بكر ، كانت إمامة علي أنقض وأفسد ، لأن الدنيا انكفت بأهلها عليه وماجت بساكنيتها . . . من ولايته ، وتداعت من أقطارها ، تريد محاربتة ، حتى لقد نازعه فيها من ليس في مثل حاله ولا شرف موضع ، ولا في فضيلة دينه فتاهضه الحرب ، ونازله القتال . . . بيعته ، والتج عليه الخلف من أهل طاعته ، وموضع الجحْد في عسكره ، فرداً بآته في أصحابه ، ومصرف كيدته إلى جنده ، وجلس على اللُزج ، رضي البال ، [في] عجب الفاتن وسرور المخادع ، وعزّ المصيب ، وبأو الأريب . ثم بعث رسولاً قد اختاره بالحكم عليه وله ؛ وبعث خصمه رسولاً قد اختاره بالحكم عليه وله ؛ فكان رسولُه المخدوعُ ورسولُ خصمه المخادع ؛ ثم رجعت الأمور إلى خصمه ، وانتزعت منه ومن ولده مرةً بالبطش ، ومرةً بالهيلة .

ثم كان يرى من خلاف أصحابه واضطراب جنده وتبديل أصحابه مثل ما يرى خصمه من طاعة خاصته ، ونصرة جنده ، وثبات عهد أصحابه ؛ فلم يكن ذلك عاراً عندنا ولا عندكم على عليّ ، ولا دليلاً على نقص رأيه ، وضعف حزمه ، وسعة علمه وكثرة فضله . وقد أصابه من الخلف والتعذر وانتشار الأمر ، واضطراب الحبل ، وظفر الأعداء وشماتة الحساد ، ما قد رأيتم ؛ ثم قد جثتم تشبثون بطن سلمان ، وقول أبي سفيان ، وقعود خالد ، كأنكم لم تعرفوا ما عند خصومكم : غرارة ونقصاً .

وأعجب من هذا أنكم مرةً تزعمون أن الذي حمل بني أمية على صرف الإمامة عن عليّ الضغن الذي في نفوسها ، والأحقاد التي في صدورها ، لقتل عليّ أبناءها وإخوتها وأصنامها . ومرةً تعتلون ولحتجون في نقض إمامة أبي بكر بطن عظيمي بني أمية في إمامته كعلي ، كخالد بن سعيد ، وأبي سفيان بن حرب ، وإذا شتم كانا لكم ، وإذا شتم كانا عليكم .

[٥٧ - تأويل قول أبي بكر : « كانت يعني فلانة »]

وأما ما ذكرتم من قول أبي بكر : « ما كانت يعني إلا فلانة » ، وقول عمر :

« ما كانت بيعة أبي بكر إلا فلتةً وقى الله شرّها ، فإن الأمر على هذا واضح ،
والحجة فيه قائمة .

وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم لما تُوفّي كان الناس على طبقات : من
رجل مؤمن عالم ، ناصح لله ورسوله .

ومن رجل مطاع ليس له علمٌ بالإمامة ، وما السبب الذي به تنعقد من
السبب الذي به تنحل .

ومن رجل مكانه في قريش أشرف من مكان أبي بكر ، وليست غايته
صلاح المسلمين إنما غايته أن يكون الإمام من أقرب القبائل إليه ، ليزداد هو
وقومه بذلك شرفاً وفخراً .

ومن رجل له قرابة فهو يرى أنها تغنيه عن العلم والعمل .

ومن رجل شديد في بأسه ، ضعيف في دينه ، مُخَفٌّ في ذات يده بعيد
الهمة حامل في هدوء الناس وأمنهم ، فهو لا يألو إضرار الفتنه ، وتبيح
السفلة ، يرى أن في الهيج ظهورٌ لجدته ، وخروجُه من الخمول إلى النباهة ،
ومن الإقلال إلى الإكثار .

ومن رجل دخل في الإسلام مع من دخل في دين الله ، دخل من
الأفواج ، لا يعرف حقيقته ، ولا يستريح به إلى الثقة .

ومن رجل أخافه السيف ، وأتقى الدلّ والقتل بإسلامه ونفاقه ، كمنافقي
المدينة ومن حولها من أهل القرى والبادية ، يعضون على المسلمين الأنامل
بالقوِّظ ، وهم البطانة لا يألون خيالاً ، يترقبون الدوائر ، وينفرجون إلى
الأراجيف ، ويستريحون إلى الأمان .

ومن رجل صاحب سلم ، يدين لمن غلب ، لا يدفع مبتطلاً ولا يعين
محقاً ، يرى أن صلاح خاصته هو صلاح العامة .

ثم الذي كان من وثوب الأنصار ، وهم أهل العدد وأصحاب الدار

والأموال ، على أمير لو تابعهم المهاجرون عليه حتى يكون من كل فرقة أمير ،
لفتحت بذلك باباً من الفساد لا يقوى أحدٌ على سدِّه ، ولكان الذي يقع بين
الأوس والخزرج في الأمر أشدَّ مما كان يُخاف منها ومن قريش ، لأنَّ القرابة كلُّها
كانت أمس ، والجوار أقرب ، كانت العداوة على قدر ذلك .

ولو أنَّ الأنصار حين أتاهم أبو بكر فأظهروا الشقاق والخلاف . . . عن
الحقِّ وجَهلوه ، ما كان لهم دون البوار مانع ، ولكان غير مأمون وثوبٌ من
بالمدينة ومن حولها من ائناقين وأشباههم ، من الحشور والطعام ، ولكان غير
مأمون أن ينضمَّ إليهم من حول المدينة من المرتدِّين ، ممن بدَّل إسلامه ساعةً
بلغته وفاةُ النبي صلى الله عليه . ولو صاروا إلى ذلك لكانوا أقوى من المهاجرين
والأنصار ، إذ كانوا جميعاً نَشراً وقلوبهم شتى ، وبأسهم بينهم ، ولكان غير مأمون
عند ذلك أن يفزروهم مُسيلمةُ في أهل اليمامة قاطبة مع من حولها من أهل
البادية . ثم كان غير مأمون أن يستمدَّ بجميع أهل الردَّة ممن نكث ونصب
العداوة .

وجميع ما قلنا إنَّه كان غير مأمون ، لم نقله إلا بأسباب قد كانت هناك
قائمة معروفة ، فما عسى نعتة المهاجرون والأنصار على ما وصفنا ونزلنا .

فقد صدق أبو بكر وصدق عمرُ أن تلك البيعة كانت فلتةً وأعجوبةً
وغريبةً ، إذا سلمت على كلِّ ما وصفنا من أسباب الهلكة ، وهي سرَّيبٌ ، وليس
دونها سبٌّ ولا ردٌّ ، فكانت بيعته يُمنأ وبركة أنقذ الله بها من الهلكة ، وجمع بها من
الشتات ، وردَّ بها الإسلام في نصابه ، بعد تخلُّفه واضطرابه . فأما
السُّخيمةُ ، وأودعت القلوب السُّلامةً ، وجمعتها على الألفة .

وهذه مكرمةٌ وعظيمةٌ ، ولا يجوز أن يجوبها خالقُ العباد إلا نبياً أو خليفةً
نبي .

فأما قوله : « ما كانت بيعتي إلا فلتةً وفي الله شرها » ، فقولٌ امرئٍ عالم
بالعواقب ، عالمٌ بأسباب الفتن ، شديد الشفقة منها ، حامدٌ لربه على السلامة

أوما علمت أن أبا بكر بينا هو يخطب على المهاجرين في مسجد النبي صلى الله عليه ، والنبي مسجى ، وهو محتج عليهم ويعرفهم سرفهم ، واعتداءهم في قولهم : إن النبي صلى الله عليه لم يميت . وقد خاف أن يصير بهم الإفراط في التعظيم ، والغلو في الحب ، أن يضارعوا مذهب النصارى وخاف أن يكون آخر أمرهم أشد من أوله . وكان أشد الأمور عليه في ذلك أن مثل عمر ، وعبد الرحمن ، وعثمان ، هم الذين كانوا خرجوا إلى ما لا ينبغي من القول ، فبدرهم بالخطبة محتجاً عليهم ومعرفاً لهم مواضع غلطهم ، ونحس إفراطهم ، فحين تبين لهم خطوهم وسلموا لاحتجاجه عليهم ، أتاه آت فقال : إن الأنصار قد اجتمعت إلى سعد بن عبيدة في سقيفة بني ساعدة ، يقولون : منا أمير ومنكم أمير . فراعته ذلك ، وصور له الخزم كل تخوف ، فعلم أن الداء الذي عنه نطقوا أشد علاجاً من الداء الذي نطق عنه عمر وعثمان وعبد الرحمن ، والنفر من المهاجرين الذين قالوا : إن النبي صلى الله عليه وعلى آله لم يميت ؛ وعلم أن إبراء كل سقم أهون من إبراء سقم الحمية والطمع في الملك ، ولا سيما إذا شابهها سوء تأويل ، وضافرها الحس بالقوة . وهذا هو الداء العضال ، والداهية العقام .

فلما انتهى إليه أمرهم ، وعرف جميع ما عليه طبائعهم وعللهم ، وطبائع أتباعهم ، لم يكن شيء أهم إليه من البدار إليهم قبل أن يستفحل الشر ، ويتمكن العزم ، فمر حثياً وتبعه عمر ، ولحقه أبو عبيدة في نفر من قريش ، فيمر بالناس خلقاً عزيزين وهم يبكون ويتحدثون ، فيقبل عليهم فيقول : أنتم جلوس تفركون أعينكم وفي الإسلام العسا البدار . وقيل البوار .

فلو لم يتداركهم بيحيطه ويقظته وصدق حسه ، وأبطأ عنهم ريشا كانوا يتطارحون الرأي ، ويستثيرون دفين الحسد حتى يتمكن ذلك الحسد ، وتمثل لهم صبرة الظفر ، فلو فجم عليهم أبو بكر في ضعف من بالمدينة من قريش ، لم يكن في طاقتهم دفعهم ، والدار دارهم ، والبلاد بلادهم واليادية باديتهم ،

ومن فيها تبع لهم ، فكان من صنيع الله أن كان هو الذائد والقائم ، والحارس ،
والمعاطف والمداوى ، ولم يكلمهم الله إلى نظرهم واختيارهم ، فيكون ذلك
فسادهم وهلكتهم .

فإن قالوا : فما معنى قول أبي بكر للأتصار حين أتاهم : « إن هذا الأمر
ليس بخلسة . قد علمتم معشر قريش [أنا] أكرم العرب أحساباً ، وأيقنها
أنساباً ، وأنا عترة النبي صلى الله عليه وأصله ، والبيضة التي تفقات عنه ؟ »

فلم يذكر أبو بكر قريشاً وأحسابها وعترة النبي صلى الله عليه والبيضة التي
تفقات عنه ، إلا وهو يرى أن له عليهم بهذا من الفضل ما ليس لهم ، ومن
السبب إلى الخلاف ما ليس لهم . فقد ينبغي أن يكون لبني هاشم على هذا
القياس من الفضل والسبب ما ليس لبني تيم .

قلنا لهم : إن أبا بكر لم يقل هذا القول وهو يريد معنى مذنبكم فيه ، مع
أنكم قد قطعتم الكلام ، لأنه قال : « فإنه لم يكن فينا فكان يوبخ به وأنا نحن
المهاجرون وأنتم الأنصار ، وإن الله لم يذكرنا وإياكم في شيء من القرآن إلا بدأ
بذكرنا قبلكم ، فمننا الأمراء ومنكم الوزراء » *سورة يونس*

فلم يقل أبو بكر : « قد علمتم يا معشر قريش أنا أكرم العرب أحساباً ،
وأيقنها أنساباً ، وأنا عترة النبي وأصله » ، وهو يريد أن يخبر أن الرياسة في الدين
تستحق لغير الدين ، والخلافة أعظم رياسات الدين ، فعلى حسب ذلك تحتاج
إلى العمل الصالح .

ولكن أبا بكر خطب على قوم كانوا يرون للخب قديراً ، وللقرابة سبباً ،
فاتاهم من مآتهم ، وأخذهم من أقرب مأخذهم ، واحتج عليهم بالذي هو
عندهم ، ليكون أقطع للشغب ، وأسرع للقبول . وليس في كل المواضع تفسير
لحجة أمثل من إظهار الجملة ، وتعريف الناس الغاية ، وملههم على أدق الحجج
وأصوبها . ولربما أخفى الإمام كثيراً مما يريد بالناس عنهم ، للذي من
بعضهم عن فضله ، وضيق صدورهم عن سعة فضله ، بل يعلم أنه لو أطلعهم

طَلَعَ إِرَادَتَهُ ، وَالَّذِي عَزَمَ عَلَيْهِ مِنْ صِلَاحِهِمْ ، كَانُوا أَسْرَعَ إِلَى طَلَبِ بُغْضِهِ مِنْ عَدُوِّهِمْ .

وَقَدْ دَلَّ أَبُو بَكْرٍ عَلَى مَذْهَبِهِ فِي الْأَحْسَابِ فِي أَوَّلِ خُطْبَةِ خَطْبِهَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، حِينَ قَالَ فِي كَلَامِهِ :

« وَعَلَيْكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ، فَإِنَّ أَكْبَرَ الْكَيْسِ التَّقْوَى ، وَأَحْمَقُ الْحِمَقِ الْفُجُورُ ، وَإِنِّي مُتَّبِعٌ وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ ، فَإِنِ أَحْسَنْتُمْ فَأَعِينُونِي ، وَأَنْ زَعَمْتُمْ فَقُومُونِي . أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَمْ يَدْعِ الْجِهَادَ قَوْمٌ قَطُّ إِلَّا ضَرَبَهُمُ اللَّهُ بِذَلِكَ ، وَلَمْ تَشِعْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ إِلَّا عَمَّهُمُ بِالْبَلَاءِ . أَيُّهَا النَّاسُ اتَّبِعُوا كِتَابَ اللَّهِ ، وَاقْبَلُوا النَّصِيحَةَ ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ ، وَيَعْفُو عَنِ السَّيْئَةِ . وَاحذَرُوا الْخَطَايَا الَّتِي لِكُلِّ بَنِي آدَمَ مِنْهَا نَصِيبٌ ، وَلَكِنْ خَيْرُهُمْ مَنْ اتَّقَى اللَّهَ . وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا يَنْفَعُ فِيهِ حِمِيمٌ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ . »

أَلَا تَرَاهُ ذَكَرَ جَمِيعَ بَنِي آدَمَ ثُمَّ قَالَ : وَلَكِنْ خَيْرُهُمْ أَنْتَقَاهُمْ كَمَا قَالَ اللَّهُ : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَقَاهُمْ ﴾ ثُمَّ قَالَ : اتَّقُوا يَوْمًا لَا يَنْفَعُ فِيهِ حِمِيمٌ وَلَا شَفِيعٌ ؛ فَقَدْ أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ وَمَذْهَبِهِ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ بِغَايَةِ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ أَصْحَابُ التَّسْوِيَةِ . فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ إِذَا قَالَ : فَإِنَّ كَانَ هَذَا الْأَمْرُ مَعْتَرًا الْأَنْصَارَ إِذَا مَا يُسْتَحَقُّ بِالْحَسَبِ ، وَيُسْتَوْجَبُ بِالْقَرَابَةِ فَفَرِيضٌ أَكْرَمُ مِنْكُمْ حَسَبًا ، وَأَقْرَبُ مِنْكُمْ قَرَابَةً ، وَإِنْ كَانَ إِذَا مَا يُسْتَحَقُّ بِالْفَضْلِ فِي الَّذِينَ فَالسَّابِقُونَ الْأَوْلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ الْمُقَدَّمُونَ عَلَيْكُمْ فِي جَمِيعِ الْقُرْآنِ أَوْلَى بِهِ مِنْكُمْ . لِأَنَّ أَبَا بَكْرٍ ذَكَرَ فِي صَدْرِ كَلَامِهِ الْحَسَبَ وَالْقَرَابَةَ ، وَفِي عَجْزِهِ فَضَلَ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى الْأَنْصَارِ . فَلَمَّا أَبْصَرَ الْقَوْمُ وَجْهَ الْحُجَّةِ ، وَقَرَّرَهُمْ بِمَا لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ طَبَائِعُهُمْ ، لَحِقُوا بِالطَّاعَةِ وَأَعْطَوْا الْمَقَادَةَ .

وَكَيْفَ يَكُونُ كِبَارُ الْأَنْصَارِ أَفْضَلَ مِنْ كِبَارِ الْمُهَاجِرِينَ ، وَقَدْ سَبَقَهُمُ الْمُهَاجِرُونَ وَأَسْلَمُوا قَبْلَهُمْ بِالسَّنِينَ قَبْلَ السَّنِينَ ، وَالْأَنْصَارُ بَعْدُ عَلَى دِينِ آبَائِهِمْ ، وَعِبَادَةِ أَصْنَامِهِمْ . ثُمَّ الَّذِي لَقِيَ الْمُهَاجِرُونَ فِي اللَّهِ بَيْطُنَ مَكَّةَ وَالْأَنْصَارُ وَادَّعَوْنَ

في بيوتهم ، رافهون في ديارهم ، ناصم بأهم ، تحلي سربهم ، لذيد عيشهم . ثم هاجروا إلى دارهم فكانوا معاً في العبادة والجهاد ، إلا ما فضلوا به من وحشة الاغتراب ، وفراق الدار والأحباب . فللمهاجرين مثل ما للأنصار ، وقد بانوا بسابقتهم ، وإنما قُدِّموا في القرآن لتقدمهم في الإسلام .

وكما أن المهاجرين الأولين ليسوا كغيرهم من المهاجرين ، وكما أن من أسلم بعد الفتح ليس كمن أسلم قبله ؛ فكذلك ليس من أسلم والناس كلهم كفار غيره ، كمن أسلم وقد أسلم الناس قبله .

وأنت إذا تأملت قول الصديق للأنصار : « إن هذا الأمر ليس بخلسة » علمت أنه كان ثابت الجنان ، رابط الجأش ، واثق بالحجة ، عارفاً بمواضع الإمامة ، وإنما كانت غايته تقريرهم بفضيلة المهاجرين ، لأنهم إذا صاروا إلى ذلك فلا حاجة به إلى ذكر نفسه وتعريفهم فضله ، لأن تمييزه كان يئناً على المهاجرين ، وفضله كان ظاهراً على السابقين .

والدليل على ذلك أن حوض الأنصار وكلامها لم يكن إلا فيما بين جملة الأنصار وجملة المهاجرين ، قالوا : « منا أمير ومنكم أمير . فما هو إلا أن قرَّروا بفضيلة المهاجرين فلم يكن لهم بعد ذلك متكلم ، حتى أطبقوا جميعاً على بيعته هم والمهاجرون من بين جميع المهاجرين - فلا يستطيع أحد أن يدعى أن إنساناً قال من الأنصار : فإن كان لا بد أن يكون منكم الأمراء فليكن فلان ، فإنه أفضل وأحق بقرابة أو بعمل - فسكتوا معاً سكتة واحدة ، وسلموا معاً تسليماً واحداً .

ولو أن الأنصار كانوا قد سلموا للمهاجرين في البدء فلم يفارقوا ولم يتمادوا ، وكانوا كالمهاجرين في إطباقهم على أن الإمام منهم ما كان ليظهر للناس من شهامة أبي بكر وصرامته واجتماع نفسه وقوة منته ، وجلده رايه ، وقلة خيبرته وتضجعه مثل الذي ظهر لهم . وإنما يعرف العاقل فضل العاقل في مضايق الأمور ، وساعة الجؤلة ، والعجلة والحيرة ، وظهور الفتنه ، وموجان السفلة ،

واضطراب العلية واختلاط الخاصة بالعامه .

فهل أعضل به داء فلم يسد ثغره ، أم هل نجم بلاء فلم يتول قمعه ؟ !

[٥٨ - الرياسة عند العثمانية لا تنال بالقرابة بل بالدين]

وزعمت (العثمانية) أن أحداً لا ينال الرياسة في الدين بغير الدين . ولو جاز أن يعطي الله رجلاً عطية ويفضله على غيره لنسبه ، وعملها سواء في دار الدنيا ، جاز أن يفضله عليه في الآخرة .

وليس ذلك كالمعاقى والمبتلى ؛ لأن العافية والبلاء ، والشكر والصبر ، والثواب على الطاعة بهما والعقاب على المعصية فيهما ، إذا وازنت بين عواجل أمرهما وأوآجلها من كل وجوهها ، رأيتها سواء لا فضل بينهما .

وكذلك شأن المملوك والمالك ، والفقر والغنى ، والمبتلى والمعاقى .

فإن كان القريب القرابة والبعيد القرابة سيلهما في النقص والفضل ، والصبر والشكر ، والثواب والعقاب ، وجميع حالاتهما في العاجل والأجل ، كالمعاقى والمبتلى ، والمالك والمملوك ، والفقر والغنى ، فليس بين القريب والبعيد فرق ، وليس لقرابته فضيلة على غيره ، ولا ينفعه شيء إلا كما نفعت المعاقى والغنى في ظاهر أمرهما ، وما يقع البيان عليه منها ، وهما في الغنى والمصلحة ، والنظر والصنع ، سواء .

وليس على هذا بنى القوم أمرهم في القرابة ؛ لأنهم زعموا أن القرابة سبب للرياسة في الدين . ولو قالوا إنها سبب للقدر والنباهة في الدنيا كان ذلك وجهاً ، كما ترى من فضل حال المنيع الرهط ، الجميل الرواء ، والمعاقى في بدنه الكثير المال ، على الذليل الرهط الدميم في روائه ، المبتلى في بدنه ، القليل ذات اليد ، وهما في مغيب أمرهما ، وفيها لا يقع البيان عليه من شأنها ، سواء في صنع الله وفضله وعائلته .

[وإنما] كان لنا أن نزعم أن القرابة تنفع في الدين والحسب فتكون سبباً

إلى الرِّياسة فيها ، أن لو كنا رأينا من عظم قدر القرابة ونبل من أجله نال
الرِّياسة الكبرى بالحسب . فإذا رأينا النبي صلى الله عليه لم يستحق ذلك الموضع
البائن العالي إلا بالفضل دون المركب كان من متِّ بقرابته أجدر ألا ينال الرِّياسة
إلا بالفضل دون المركب ؛ لأن النبي صلى الله عليه لو كان نال ذلك بالهاشمية
كان هو ورجلٌ من عُرض بني هاشم سواء .

ولو كان ناله بعبد المطلب لكان ولدٌ عبد المطلب لصلبه أقرب إليه .

وقد نعلم أن ذلك لو كان لشخصٍ بالهاشمية أو بالمطلبية لكان لعليٍّ في
ذلك ما ليس لأحدٍ ، لأنه ابنُ أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم ، وأمه فاطمة
ابنة أسد بن هاشم .

فلما وجدنا الأمر كما ذكرنا ، علمنا أن النبي صلى الله عليه لم يصيره
مستحقاً لأعظم الرِّياسات وأشرف المقامات إلا بالعمل ، إذ كنا قد وجدنا من
يساويه في الهاشمية لا يستحق مثل ماله .

[٥٩ - احتجاج العثمانية للتسوية بين الناس]

وزعمت (العثمانية) أن لها في التسوية بين القريب والبعيد حججاً كثيرة ،
قد عرفتها وسمعتها من أهلها .

ولكن كتابي هذا لم يوضع إلا في الإمامة ، ولربما ذكرت من المقالة والملة
والنخلة التي تعرض في الإمامة صدرأ ، طلباً للتمام ، وتعريفاً لوجوه الإمامة
وما دخل فيها .

والكلام في التسوية كلامٌ يدخل في باب التعديل والتجويز ، وهو يشتدُّ
الكلام فيه ويغمض ، فإن أخبرنا عن فرعه ولم نخبر عن أصله لم يتفجع القارىء
به ، وصار وبالاً عليه .

وقد زعم ناسٌ من (العثمانية) أن الله بفضله ومنه كفى أكثر الناس مؤونة

الرؤية ، وتكَلَّفَ غامض الكلام في التَّسْوِية ، فأخبرهم في كتابه بآيِنِ الكلامِ
وأوضحه عن معاني التَّسْوِية ، وما يجوز في حُدُله وحكمته . فقال وهو يريد أن
يُعَلِّمَ النَّاسَ أَنَّهُمْ لَا يَنْتَفِعُونَ بِصَلَاحِ آبَائِهِمْ ، وَلَا يَضُرُّهُمْ فَسَادُ رَهْطِهِمْ فَقَالَ :
﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى . أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى . وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا
سَعَى ﴾ .

فإذا كان كَوْنُ الْإِنْسَانِ ابْنَ نَبِيِّ وَابْنِ خَلِيفَةِ نَبِيِّ ، أَوْ ابْنَ عَمِّ نَبِيِّ لَيْسَ
مِنْ سَعِيهِ ، فَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَا شَيْءَ لَهُ فِي ذَلِكَ حِينَ قَالَ : ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ
إِلَّا مَا سَعَى ﴾ فَالسَّعْيُ مَعْرُوفٌ ، وَالكَوْنُ مِنْ رَهْطِ قَوْمٍ رَهْطٌ لَيْسَ مِنْ سَعْيِ
المرءِ فِي شَيْءٍ ، وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ لِقَرَابَتِهِ حِينَ جَمَعَهُمْ : ﴿ يَا عَبَّاسُ
ابْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَيَا صَفِيَّةَ بِنْتَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَيَا فُلَانُ وَيَا فُلَانُ ، إِنِّي لَا أُغْنِي
عَنكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً ﴾ .

ولو أن إنساناً من القرابة إذا هو عَصِيٌّ وَعَصَى غَيْرَهُ بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ غَفَرَ اللَّهُ
[لَهُ] لِقَرَابَتِهِ ، وَلَمْ يَغْفِرْ لِأَخْرٍ ؛ وَكَانَ إِذَا أَطَاعَ وَأَطَاعَ غَيْرَهُ بِمِثْلِ طَاعَتِهِ أَعْطَاهُ
اللَّهُ أَكْثَرَ مِمَّا يُعْطَى الْآخَرَ ، لَكَانَا إِذَا اسْتَوَيْتَا فَلَمْ يَطِيعَا جَمِيعاً وَلَمْ يَعْصِيَا ، فَكَانَا إِذَا
طِفْلَيْنِ وَإِذَا مَجْنُونَيْنِ وَإِذَا نَائِمَيْنِ ، وَإِذَا سَاهَمَيْنِ ، أَعْطَى الْقَرِيبَ وَفَضَّلَهُ ، وَلَمْ
يُعْطِ الْآخَرَ شَيْئاً وَلَمْ يَسُوِّبْتَهُ وَبَيْنَ مَنْ لَمْ يُطِيعْ وَلَمْ يَعْصِ ، كَمَا لَمْ يُطِيعِ الْقَرِيبُ وَلَمْ
يَعْصِ ، لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ لِيَقُولَ لِعَمَّةٍ وَعَمَّتِهِ : إِنِّي لَا أُغْنِي عَنكُمْ مِنْ
اللَّهِ شَيْئاً .

ولذلك قال النبي صلى الله عليه : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى
بذمتهم أذنهم » .

ولذلك قال النبي صلى الله عليه : النَّاسُ كُلُّهُمْ سِوَاءٌ كَأَسْنَانِ الْمَشْطِ .
والمرءُ كثيرٌ بأخيه . وَلَا خَيْرَ لَكَ فِي صَحْبَةِ مَنْ لَا يَرَى لَكَ مِثْلَ مَا يَرَى لِنَفْسِهِ .

ولذلك قال حين بلغه أن عيينة قال : أنا ابنُ الأشياخ ، أنا عيينة بن
حصن بن حذيفة بن بدر بن عمرو ، قال النبي صلى الله عليه : « أشرف الناس

يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ .

ولذلك أَخَذَ وَبِرَّةَ مَنْ جَنَّبَ بَعِيرٍ يَوْمَ حُنَيْنٍ فَقَالَ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنَا بِهَذَا أَحَقُّ مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ » .

وقد قال الله : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يَنْصَرُونَ ﴾ ؛ فلم يستثن من جميع النفوس نفساً واحدة ، لا ابن نبي ولا ابن عمه .

وقال الله : ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا ﴾ . والمولى كلمة واقعة على جميع ، فمنه ابن عم المرء ، ومنه خليفته ، ومنه مولاة من فوق ، ومنه مولاة من تحت ، ومنه مولاة الذي ملكه قبل عتقه . فإذا قال الله : ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا ﴾ فقد دخل فيه ابن العم وغيره ، ولم يستثن الأنبياء دون المسلمين .

وقال : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ، وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٌ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا ﴾ ثم قال : ﴿ إِنْ وَغَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تُغْرُنْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرُنْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ . فمن اغتر بعد هذا بالقرابة واتكل على غير العمل الصالح فقد رد تأديب الله وتعليمه .

ثم الذي رأينا من قصة ابن آدم حين قرب مع أخيه قرباناً فتقبل من أخيه ولم يتقبل منه ، فقتله حسداً له وبغياً عليه . وكيف لم تنفعه قرابته من آدم حيث لعنه الله وبرىء منه ، وجعله من أصحاب النار ، ثم قال : ﴿ وَذَلِكَ جِزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ .

لكي لا يتكل أحد ظالم بعدة على قرابته ، ولا يغتر بأن يكون ابن نبي . ولذلك أرسل الكلام على تخرج العموم . ولم يخرج ذلك المخرج إلا وذلك إرادته .

فإن قالوا : إنه لم يكن لصلبه ، ولو كان لصلبه لنقمه ذلك عنده .

قلنا : إنه ليس لأحد سمع الله يقول : ﴿ واتل عليهم نبأ ابني آدم ﴾ أن يجعلهما من عرض بني آدم بعد سبعين قرناً إلا بحجة . وإن لم تكن له في ذلك حجة فليس له أن يُزيل معنى ابن عن أصله ، لأن الأصل المستعمل الموضوع أن يكون الابن للصلب ؛ فلما جاز أن يقال لابن الابن على التثنية بالابن ، [و] على الحمل عليه . وكذلك الابن الذي هو على التثنية والتثنية ، لأن رجلاً لو قال : أتاني فلان بن فلان ، لم يكن لأحد أن يقول : إنه لم يكن ابنته وربيته ، إلا بحجة ؛ وإلا للكلام موضوع على أصله وعلى المستعمل المعروف منه .

ثم صنع الله بابن نوح ، وهو كما علمت من أعظم الأنبياء قدراً ومنزلةً ومكاناً ، حين عصى فيمن عصى ، كيف غرقه فيمن غرق ممن لا قرابة له ولا ولادة .

فإن قالوا : إنه لم يكن ابنه ، لأن الله قال : ﴿ إنه ليس من أهلِكَ إنه عمل غير صالح ﴾ ، وذكر امرأة نوح وامرأة لوط فقال : ﴿ كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً ﴾ .

قيل لهم : إنه ليس لنا أن ندع قول الله : ﴿ ونادى نوح ابنه ﴾ إلى تاولٍ مختلف فيه . ولقولة الخيانة مخارج غير تاوليكم . وقد تفجر المرأة بعد أن صح منها لبعلها ولدٌ كبير . وفي قوله : ﴿ فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً ﴾ دليل أن عبتهما كان الصّح عن خيانتها ، وأن عبتهما لم تغن عنهما شيئاً .

ولا يُشبه قولكم [في] نساء الأنبياء الذي نعرف من حسن اختيار الله لهم من طيب المناكح ، وطهارة المداخل . وهذا معنى طبائع الناس . لم يكن الله ليترك امرأة نبي تصير إلى تهجينه والتصغير بقدره ؛ لأن امرأة منظفة مُصفاة ، لا تحمل الأقداء ، ولا تعلق بها الأدناس ، ولا يطوق المبطلين عليها الاعتماد .

وفي قول الله لإبراهيم ، وهو شجرة الرسالة ، وخليل رب العزة حين يقول

له : ﴿ إِنِّي جَاهِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً ﴾ قال إبراهيم إنما مستههاً وإنما طالباً : ﴿ وَمِنْ قُرْبِي ﴾ قال : ﴿ لَا يَبَالُ هَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ . وأخبر أن عهد إمامته وخلافته لا يبال الظالم وإن كان من خير خلق الله .

ففي هذا دليل أن الرياسة في الدين لا تُنال بغير الدين .

وقال الله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي قُرْبَيْهِمَا النَّبِيَّةَ وَالْكِتَابَ فَمَنْهُمْ مَهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَايِسُونَ ﴾ ألا ترى أن الذرية وإن كانت كلها ذرية ومكانها من القرابة سواء ، فمنها ولي ومنها عدو .

[٦٠ - رد العثمانية على إدهاء الشيعة ان عمر لم يأخذ بالتسوية لا في

الاعطيات ولا بين العرب والعجم]

فإن تركوا هذا جانباً وقالوا : كيف تزعمون أن أبا بكر كان يرى التسوية ، وكان لا يرى أن الفروسيّة أصل للإمامة ، والقرابة شعبة عن الخلافة . ولم يكن في الأرض رجل أبعد من هذا المذهب من خاصته وخليفته وصنيعته ، والمحتذى على مثاله ، عمر بن الخطاب ، لأنه فضل القرشيات من نساء النبي صلى الله عليه على غيرهن ، وفضل العرب في العطاء على الموال . وقال : ﴿ زُوْجُوا الْاَكْفَاءَ ﴾ . وكان أشد منه في أمر المناكح .

قيل لهم : إنه لم يكن على ظهر الأرض رجل كان أبعد مما قلتم من عمر ، ولا [ظَهَرَ] منه - خلاف ما ادعيتم - مثل الذي ظَهَرَ منه . والدليل على غلطكم وخطأ قولكم ، أن عمر لما فرض الأعطية ودون النواوين وقام إليه أبو سفيان بن حرب ، وحكيم بن حزام ، فقالا : يا أمير المؤمنين ، أديوان كديوان بني الأصفر ، إنك إن فعلت ذلك أتكل الناس على الديوان وتركوا التجارات والمعاش فقال عمر : فقد كثر الفقيه والمسلمون .

ففرس للمهاجرين ومواليهم ، وللأنصار ومواليهم ، ممن شهد بدرأ في ستة آلاف ستة آلاف فكان عطاء عمر وعلي وعبد الرحمن وطلحة والزبير وأبي هبيلة بن

الجراح ، وعطاء بلال وسالم مولى أبي حذيفة وجميع الموالى سواً .

ثم فَرَضَ عَلَى قَدْرِ الْفَضْلِ وَالْغَنَاءِ وَالسَّابِقَةِ ، عَلَى قَدْرِ بَعْدِ الدَّارِ وَقُرْبِهَا مِنَ الْمُهَاجِرِ ، فَفَرَضَ لِأَهْلِ الْيَمَنِ فِي السَّبْعِمِائَةِ إِلَى الْآلْفِ ، وَهُمْ أَبْعَدُ خَلَقَ اللهُ مِنْهُ وَمَنْ مُضِرٌّ أَرْحَاماً وَنَسَباً . وَإِنَّمَا أَرَادَهُمْ وَزَادَهُمْ لِبَعْدِ دَارِهِمْ مِنَ الْمُهَاجِرِ ، وَكَانُوا أَهْلَ قَرْيٍ وَمَزَارِعَ ، فَتَرَكُوا مُطْنَبَهُمْ رَغْبَةً فِي الْهَجْرَةِ .

وَفَرَضَ لِمُضِرٍّ وَبَلِيٍّ وَكَلْبٍ وَطَيْءٍ فِي الثَّلَاثِمِائَةِ إِلَى الْأَرْبَعِمِائَةِ . فَتَسَوَّيْتَهُ بَيْنَ مُضِرٍّ وَطَيْءٍ دَلِيلٌ عَلَى مَا قُلْنَا .

وَفَرَضَ لِرَبِيعَةٍ فِي خَمْسِينَ وَمِائَتَيْنِ وَقَالَ : إِثْمًا هَاجَرُوا مِنْ أَطْنَابِ بِيوتِهِمْ . وَرَبِيعَةٌ أَمْسُ بِهِ وَعَمَضِرٌّ مِنْ بَلِيٍّ وَطَيْءٍ .

وَفَرَضَ لِأَشْرَافِ الْأَعَاجِمِ : لِدهقان شهر الملك ، وهو فيروز بن يزدجرد ، ولابن النخيران ، ولخالد وجميل ابني بصهري دهقان الفلوجة ، ولبسطام بن نرسی دهقان بابل ، وجفينة العبادي ، ورميل في ألفين ألفين .

وَفَرَضَ لِلْمُوسِحْتَانِ ، وَالْهُرْمِزَانِ ، وَلِسِيَاهِ وَخَشِ وَأَمْقِلَاسِ فِي أَلْفَيْنِ وَخَمْسِمِائَةٍ ، وَهُوَ أَقْصَى شَيْءٍ أَخَذَهُ عَرَبِيٌّ قَطُّ ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ : قَوْمٌ أَعَاجِمُ أَشْرَافُ ، أَحَبُّتُ أَنْ أَتَأَلَّفَ بِهِمْ غَيْرَهُمْ .

وَفَرَضَ لِسُورِ هَوْلَاءِ النَّفَرِ مِنَ الْعَجَمِ مِنَ الْحَاشِيَةِ وَالْعَوَامِ مِمَّنْ سُمِّيَ وَأَسِيرٌ وَخَرَجَ فِي الصُّلْحِ مَعَ رَئِيسِهِ وَقَائِدِهِ ، فِي أَقْلٍ مِمَّا فَرَضَ لِلْأَعْرَابِ وَحَاشِيَةِ الْعَرَبِ وَعَوَامِهِمْ ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ : إِنَّ الْأَعْرَابِيَّ إِلَّا يِقَاتِلُ عَنْ دِينِهِ قَاتِلًا عَنْ رَهْطِهِ وَشَقِهِ وَنَاحِيَتِهِ . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَا بَصِيرَةٍ فِي دِينِهِ قَاتِلًا مَحَامِةً عَنْ حَسْبِهِ وَأَصْحَابِهِ ، وَقَدْ أَمَنْتَ تَحْوِلُهُ إِلَى عَدُوِّهِ فَاقْلُ مَا عِنْدَهُ إِذَا لَمْ يَبِيلْ أَنْ يَكْثُرَ السَّوَادُ وَيَكْشِفَ الْجَيْشُ وَهُوَ عَلَى حَالِ أَفْقِهِ فِي الدِّينِ وَافْهَمِ لِلتَّأْوِيلِ وَالْعَجْمِيِّ لَيْسَ بِذِي نَصْرَةٍ فِي الْإِسْلَامِ وَلَا يِقَاتِلُ عَنْ دَارِهِ وَلَا يَحَامِي عَنْ حَسْبِهِ وَلَا يَدَافِعُ عَنْ رَهْطِهِ وَغَيْرِ مَأْمُونٍ عَلَيْهِ التَّحْوِيلُ إِلَى أَصْحَابِهِ فَيَدُلُّ عَلَى الْقَوْرَةِ ، وَهُوَ أَجْدَرُ الْأَيُّ يَفْهَمُ تَنْزِيلًا وَلَا تَأْوِيلًا .

وَحَمَلَ قَوْمًا فِي الْبَحْرِ وَأَخْرَجَهُمْ فِي الْبَرِّ ، فَفُضِّلَ عَلَى قَدْرِ الْكُرُونَةِ ، وَأُحْطِيَ
عَلَى قَدْرِ الْمَشَقَّةِ .

فهكذا كانت عطاياها ، وهكذا كان تدبيره فيما نقلت العلماء وروى
الفقهاء . ولا يشك في ذلك صاحبُ خير ، ولا يدفعه صاحبُ أثر .

فأما ما ذكروا من تهجينه أمر العجم ، وتمظيمه أمر العرب ، فإنما كان
ذلك لأنه لما نَدَبَ النَّاسَ إِلَى قِتَالِ كَسْرَى وَالْأَسَاوِرَةِ تَشَاوَلَتْ عَنْ ذَلِكَ الْعَرَبُ
وَالْأَعْرَابُ وَجَمِيعُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، هَيْئَةً لِنَاحِيَةِ كَسْرَى وَالْفَرَسِ ، وَخَفُوا لِعَزْوِ
الرُّومِ وَنَشَطُوا لَهُ ، حَتَّى انْتَدَبَ أَبُو عَيْبِدٍ التُّغَيْفِيُّ أَوَّلَ مَنْ انْتَدَبَ ، فَلِذَلِكَ عَقَدَ لَهُ
عَلَى كِبَارِ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ ، وَالْأَنْصَارِ ، وَالْبَدْرِيِّينَ ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُ هُمْ إِلَّا تَصْغِيرُ
أَمْرِهِمْ وَتَهْجِينُ شَأْنِهِمْ وَالْحَطُّ مِنْ أَقْدَارِهِمْ لِيَرُدَّ ذَلِكَ مِنْ نَفُوسِ الْعَرَبِ .

وهكذا ينبغي أن يكون تدبير المدبر .
أَوْ مَا عَلِمَتْ أَنَّ الْمَغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ لَمَّا سَمِعَ قَيْسَ بْنَ مَكْشُوحٍ يَقُولُ حِينَ
عَايَنَ الْفَرَسَ : مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ حَدِيدًا وَلَا عَدِيدًا ! وَهَذَا يَوْمَ الْقَادِسِيَّةِ ، وَقَدْ
كَانَ قَيْسٌ شَهِدَ قَبْلَ الْقَادِسِيَّةِ حُرُوبَ الرُّومِ ، وَقَيْسٌ يَوْمَئِذٍ عَلَى الْخَيْلِ ،
وَالْمَغِيرَةُ عَلَى الرَّجَالِ ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ الْمَغِيرَةُ مَهْرًا لَهُ وَهُوَ يَقُولُ : إِنَّمَا هَذَا زَبْدٌ مِنْ
زَبْدِ الشَّيْطَانِ !

وقد كان المغيرة قد عاين مثل الذي عاين قيس ، ولكن التدبير كان غير
الذي ذهب إليه قيس .

ومن الدليل على ما وصفنا من تدبير عمر ، تركه الاستخفاف بأقدار
العجم وإظهار احتقارهم والإزراء بهم ، بعد جلّولاء .

فمن ذلك أنه لما أتى بسيف كسرى وقبائه ومنطقته ألبسه سراقاة ابن
ممالك بن جعثم ، ثم قال له : أقبر ، ثم قال له : أقبل . أقبل عليه عمر
وعنده الناس فقال : أما والله لرُبُّ يومٍ لو كان هذا من كسرى وآل كسرى

لكان شرفاً لك ولقومك ، في أمور كثيرة من هذا الضرب لم يكن عمر لينطق
بمخبر منها وحرّيم مخوفة ، ونفوس العرب لهم هائلة .

وهكذا تدبير الخفاء ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ولو كانوا إذا لم
يقفوا عن الأئمة لم يعترضوا عليهم ولم يخطئوهم ولم يجهلواهم كان أيسر .

ولا أعلم في الأرض جيلاً أجهل بهذا وشبهه ممن يتحلل اسم الكلام
وينصب نفسه للخصومات . ثم البروافض خاصة ، ليس يعرفون من أمر
الإمام إلا أنه يعلم ما يكون قبل أن يكون .

ومن الدليل على ما وصفنا به عمر ، قوله لسعد بن أبي وقاص حيث
وجهه إلى القادسية وأوصاه ، قال : يا سعد سعد بن وهيب إن الله عز وجل
إذا أحب عبداً حببه إلى الناس ، فاعتبر منزلتك من الله بمنزلك أن يقال خال
رسول الله صلى الله عليه ، فإن الناس في ذات الله سواء

فأي قول أجمع وأدل ، وأي فعل أشبه بالذي حكينا عنه من التسوية ،
من هذه الأقاويل والأفاعيل .

وكان سعد خال النبي ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وقد أخذ
بيده : « هذا خالي أباهي به فليات كل امرئ بخاله » .

وفي قول عمر في المناكح : « ليس شيء من خصال الجاهلية إلا وقد
تركته ، إلا إنني لست أبالي إلى من نكحت ، وإلى من أنكحت » . فإن شئت
أن تقول : وأي أمر هو أوجب على العاقل المسلم الحر من ألا يبالي إلى من
نكح وأنكح ؟

قلت : وإن قلت إن هذا الكلام من عمر يدل على بقية عصبية فيه .
فما تبرأ إليك منه حين جعله من خصال الجاهلية إلا وهو أب له وناه عنه ،
وزار عليه . وفي قوله هذا دليل على أنه قد اكتثر لبقية عادة الجاهلية ، وأنه
راغب عنها كما رغب عن أكبر منها .

وفي قوله لعبد الله بن عمر حين فرض له في الفين وفرض لأسماء في الفين وخمسمائة ، وابنه قُرشي وأسماء مولى ، حين قال له عبد الله : أتفضل عليّ أسماء في المعطاء وأنا وهو سيان ؟ قال : إن أسماء كان أحب إلى رسول الله منك ، وكان أبوه أحب إلى رسول الله من أبيك .

ألا ترى أنه يدور مع الذين حيثما دار ؟ !

وفي قول عبد الله بن عمر لأبيه ؛ تفضل عليّ أسماء في المعطاء وأنا وهو سيان ، دليل على أن القوم كانوا لا يعرفون إلا الذين والسابقة ، والغناء عن المسلمين .

وفي وصيته عند وفاته أن يصلي عليه صهيب ، وفي أمره إياه بالصلاة بالناس في مقامه إلى أن يختار المسلمون رجلاً ، دليل على ما قلنا .
وصهيب مولى لعبد الله بن جُدعان .

والدليل على أن صهيباً رجلاً من العجم قول رسول الله صلى الله عليه : « بلال سابق الحبشة ، وسلمان سابق فارس ، وصهيب سابق الروم » . وهذا حديث لم يختلف فيه فقيهان *مركز تحفة كويت علوم دينية*

وفي خروج آذنه وحاجبه يوماً إلى الناس ، وقريش والعرب جلوس بيابه ينتظرون إذنه ، فيهم أبو سفيان بن حرب ، وشهيل بن عمرو ، وحكيم بن حزام ، والأقرع بن حابس ، وعيينة بن حصن ، فنادى بأعلى صوته : أين عمار ؟ أين بلال ؟ أين صهيب ؟ أين سلمان ؟ فينفضون مكرمين ومفضلين ، وعلى الناس مقدمين ، وتلك الجلئة وتلك السادة جلوس لا ينطقون ولا ينكرون ، فلما كثر ذلك عليهم تمعرت وجوههم ، وامتنعت السواتم ، فأبصرهم شهيل فعرف ما قد أصابهم ونزل بهم ، وكان حليماً خطيباً فقال :

لم تمعرو وجوهكم وتتغير ألوانكم ، ولا ترجعون باللائمة على أنفسكم ؟
دعينا ودعوا ، فأبطانا وأسرعوا ، ولئن حسدتموهم على باب عمر للذي أهد

الله لهم في الجنة أفضل !

ثم الدليل الذي ليس فوقه دليل ، قوله وعندَه أصحابُ الشورى وكبارُ المهاجرين وجملةُ الأنصار ، وعليةُ العرب ، وهو موفٍ على قبره ينتظرُ خروج نفسه : « لو كان سالمَ حياً ما تخالفتني فيه الشك » . وسالمُ مولى امرأةٍ من الأنصار ، وكان حليفاً لأبي حذيفة بن عتبة بمكة ، فلذلك كان يقال : مولى أبي حذيفة ؛ لأن حليفَ الرجل موله .

فإن كان هذا لا يدلُّ على التباعد من الحمية والأعرابية والعصبية ، ولا يدلُّ على التسوية ، فما عندنا ولا عند أحدٍ شيءٌ يدل على شيءٍ ! وإذا كان هذا مذهبه وقوله في الخلافة فما ظنك به فيما دون الخلافة ؟ !

وهذا بابٌ إن استقصيناه كثر وشغل الكتاب . وفيما قلنا مَنعَ لمن كان الحقُّ له مَنعاً ، والصواب له مألفاً .

فهل يقدرُ أحدٌ أن يحكي عن عليٍّ مثل الذي حكينا عن عمرٍ في التسوية ، أو شطره ؟ !

مركز تحقيقات كويتية للدراسات والبحوث الإسلامية

إن أكبر ما رأينا في أيديكم عنه قوله : « إنني قرأت ما بين دفتي المصحف فلم أجد فيه لبني إسماعيلَ على بني إسحاق فضلاً » .

فهذا قولٌ إن قاله عليٌّ فليس فيه دليلٌ أنه أراد به الطعن على عمر وإظهارَ خلافه ، لأنَّ علياً قد ملكَ أكثرَ الأرضِ خمسَ حجج ، فلو كان رأيه في خلاف عمر على ما تصفون ، وكان عمرٌ عنده لا يرى التسوية في العطاء ، لقد كان غيرَ دواوين عمر ، وبدلَ أعطيته وفروضه وحولها إلى الحقِّ عنده ، أو نطقَ فيها بحرف ، أو أظهر ذلك في هيئته إن لم ينطق به خطيباً ومحتجاً .

وكيف يكون ذلك ولا أحدٌ أعلمُ بصواب ما دهرَ عمرُ في ذلك من عليٍّ ؟ ! وكيف يكون عمرٌ لا يرى التسوية وقد صنعَ صنيعاً لو قام مقامه أشدُّ

الناس سعيًا - ما لم يُجر عن الحق وَيَعْدِلْ عن السُّداد - ما كان عنده ولا في طاقته أكثر منه .

[٦١ - الرد على ادعاء الشيعة ان علياً عمل بالتسوية بينا أهلها عمر]

والمعجب أنكم تزعمون أن علياً كان يرى التسوية ، وأن عمر صاحب حمية ، فأنتم تروون أن أكثر احتجاجه إنما كان بذكر قرابته وأمتن أسبابه ومصاهرته ، مع أن القرابة هي التي أخرجتكم إلى هذا الإفراط كله . فأنتم تحبسون بني هاشم وتفضلونهم للقرابة ، وتوجبون لهم الإمامة للقرابة . ثم تزعمون أن علياً كان يرى أن ولد إسماعيل وإسحاق سواء ، وكان يرى أن العرب والعجم سواء .

وكيف غضبتكم على عمر لأنه فضل قريشاً على العرب ، والغريب على العجم ، ولم تغضبوا على أنفسكم حين فصلتم بني عبد المطلب على بني هاشم ، وفصلتم بني هاشم على بني عبد شمس ؟

ففضلوا أيضاً بني عبد شمس على سائر قضيي ، وسائر قضيي على سائر كعب ، وسائر كعب على سائر قريش ، وكذلك سائر قريش على سائر مضر ، وكذلك سائر مضر على ربيعة ، وربيعه على ولد إسحاق ، وولد إسحاق على ولد قحطان .

وإن شتمت ففضلوا ربيعة على اليمن ، واليمن على العجم . وإذا أتتكم قد دخلتم في كل ما عبتكم .

فأما أن تفضلوا من شتمت على من شتمت - وإن كان من لم تفضلوا في القياس كمن فصلتم - فليس ذلك لكم ؛ لأن القياس قد اعترض دون مشيبتكم وقضي عليكم .

ولو أن قائلًا قال : أنا أزعم أن الناس بكلهم يعد بنو عبد المطلب لصلبه

سواء ، كما قلت إن الناس كلهم بعد بني هاشم سواء ، ما كان الذي قال
أمس بالرسول وأولى بالحكم . فإن قلت : فمن أين كان له أن يقف على جد
عبد المطلب وليس بينه وبين هاشم إلا أب ؟ فيقال لكم : وكيف كان لكم أن
تقفوا على جد هاشم وبين هاشم وعبد مناف أب واحد ؟ وكيف كان لكم أن
تقطعوا التفضيل وحق القرابة من لدن هاشم ، وهاشم وعبد شمس أخوان
لام وأب ؟ ! ولذلك قال الشاعر :

عبد شمس كان يتلو هاشماً وهما بعد لام وأب

فاجعلوه يتلو هاشماً في حق القرابة واستحقاق الإمامة . وإذ جاز عندكم أن
تتخطى الإمامة العم إلى ابن العم كان [ذلك] في الأخ للام وللأب .

ثم زعمتم أن الدليل على أن عمر صاحب عصية وحمية ، رده لسلمان
حين خطب إليه ابنته ، وسلمان كان أعقل من أن يخطب إلى عمر ابنته
وعثمان وعلي .

قلنا : جوابنا في هذا في خطبته إلى علي ، وإن كان علي أشرف موضعاً
مع أن القائم عن سلمان أنه كان يقول : قال لي النبي صلى الله عليه : « يا
سلمان لا تبغض العرب فبغضني » . وكان يقول : أمرنا أن ناتم بكم ولا
نؤمكم ، وأمرنا أن نزوجكم ولا نتزوج منكم .

فليس في الأرض متعرب وصاحب عصية إلا وأكبر ما يحتج به في
المنالك حديث سلمان .

وقد تمنع الأشراف عقائل نساها لأسباب غير التحريم ، لا يكون ذلك
عياً عليهم في آدابهم ، ولا نقصاً في أديانهم .

وفي قول علي يوم الجمل حين رأى عبد الرحمن بن عتاب صريعاً :
« شفيت نفسي وجدعت أنفي . قتلت الصناديد من بني عبد مناف والمتني
الاعيان من بني جهم ! » فقال له رجل : لشد ما جزعته عليه يا أمير المؤمنين !

قال : « إنه قد قامت عني وعنه نِسوةٌ لم يُقْمَنَ عنك » دليلٌ أنه قد كان يرى
للأمهات قدراً كثيراً ، وللمناكح خطراً عظيماً .

وفي كراهته أن يتزوج المقدادُ ضبَاعَةَ بنت الزبير ، حتى كان من النبي
إليه الذي كان ، دليلٌ على شدة تدبيره .

وإنما ينبغي أن يقضي بين أصحاب محمدٍ من قد عرف أمورهم في جميع
مُتَقَلِّبِهِمْ ؛ لأنه غير مأمونٍ على المتكلم إذا قل سماعه أن يخرج الجاهل [إلى]
استصغار بعضهم أو تضليله والبراءة منه ، فيهلك الدنيا والآخرة .

وإن أغنى الناس أن يكون أصحاب محمدٍ خصومته لأنتم معشر أصحاب
النظر والمتكلمين .

والذين نَحَلُوا عمرَ العصبيةِ رجلاً : راضيٌ أحبُّ أن يُمَقِّتَهُ إلى العَجَمِ
والموالي ، ومتعربٌ عرف أن عمر عند الناس قُدوةٌ ، فنَحَلَهُ ذلك ليكون له
حجةٌ . فاعرف ذلك .

[٦٢ - رد العثمانية على ادعاء الشيعة أن الزبير سل سيفه انتصاراً

لعلي]

وأما ما ذكروا من أن الزبير خرج شاداً بسيفه يوم السقيفة ، فإن كانوا
صادقين فإن هذا هو الطيش والتسرُّع إلى الفتنة ، وتهيبج الناس على إظهار
السلاح .

وإنما أتى أبو بكر الأنصارَ واعظاً ومحتجاً ، ومسكناً ومصلحاً بألن الكلام
وأحسن الهدى ، لم يحمل سوطاً ولا سيفاً ، ولم يظهر معازة ولا أراد المغالبة
فما وجه خروج الزبير بسيفه شاداً نحوه ؟ ! بل كان أشبه الأمور بالزبير وأولها
به ، والذي يجب علينا أن نظنه به ، أن يقوم محتجاً ومصلحاً ؛ فإذا أبان عن
حُجَّتِهِ وأعدَرَ في موعظته فلم يرَ ذلك ناجعاً ولا مقبولاً ، ورأى شيئاً يجوزُ به
حَمْلُ السيفِ والشُّدُّ به ، كان من وراء ذلك .

وكيف علمتم أن الزبير إنما سئل سيفه ليؤكد لعلي إمامته أو ليوطىء له
 خلافته ؟ ! ولعله إنما أراد الأمر لنفسه دون غيره . ولعله إنما غضب لصرف
 الأمر عن خاله وكبيره وشيخه العباس بن عبد المطلب . فكيف علمتم أنه إنما
 أراد صرفها عن أبي بكر خاصة ؟ ! وكيف يشدُّ علي من لم يقل بايعوني ، ولا
 أظهر الحرس عليها ، وإنما كرهه أن يبقى الناس شراً ، وعلم أن على الأنصار
 أن يسمعوا للمهاجرين ، وقد قال للناس : « بايعوا أي هذين شتم » ، يعني
 أبا عبيدة وعمر . إلا أن يكون الزبير قال : ولم كنت أنت المحتج على الأنصار
 والمعرف لهم فضل المهاجرين عليهم دون علي .

ويقال لهم عند ذلك : أما بإدي الرأي والذي لا تشك فيه نحن ولا
 أحد ممن خالفنا ، فالذي كان من مناصبة الزبير لعلي ومحاربه له دون
 الإمامة ، وزعمه أنه أفضل منه وأولى بها منه ، ولو جعلها سُورَى لقرعته وبرز
 عليه .

ثم الذي لا يشك الناس فيه من طاعته لعمر ، وإنما عمر شعبة من شعب أبي
 بكر . ولقد بلغ من تعظيمه لعمر وطاعته له وإكباره لقدره ، أنه محاً نفسه من
 الديوان لما قُتل عمر تسلياً عليه ، ورفعاً لقدره أن يلي منه من الإعطاء والمنع
 أحد كما كان يليه منه عمر . كما محاً نفسه من الديوان حكيم بن جزام لما تُوفي
 النبي صلى الله عليه . وكذلك محاً نفسه من الديوان عبد الله بن الزبير حين
 قُتل عثمان .

ولقد بلغ من طاعته لعمر أنه بعثه مدداً لعمر بن العاص ، فجعل
 عمر الأمير عليه ينفذ لأمره ويصلي بصلاته .

والذي يدلُّ على انبئانه في هوى أبي بكر ، وانقطاعه إليه بمودته ،
 الخاصة التي كانت بين أبي بكر وبينه . وذلك أن عبد الله بن مسعود أوصى
 إليه حين مات . وعبد الله عمري محض ، وهو القائل في عثمان حين برز على
 السورى : « ما ألونا أن جعلناها [في أعلا] نا ذا فوق » فإذا كان هذا قوله في

عثمان وعليّ فيما ظنك به في أبي بكرٍ وعُمَرَ .

ثم أوصى إليه عثمان بن عفان [و] هو أصل العمرية والعثمانية ،
والمباينة لعليّ وشيعته عندهم . وأوصى إليه عبد الرحمن بن عوف ، وهو المختار
لعثمان عليّ ، وصاحب أبي بكر ، والدافع بالموسم في خلافة أبي بكر من
بين جميع المهاجرين .

هذا مع أسباب الزبير الواشجة بأبي بكر : فمن ذلك إسلامه علي
يديه ، واحتماله مؤونته في مصاهرته ، حيث رغب إليه في تزويج ابته أسماء
ذات النطاقين ، فولدت عبد الله - وعبد الله كنيته أبو خبيب - وعُروة وغيرها .
وكان عبد الله أول مولود ولد في الهجرة ، فسماه الزبير باسم جدّه أبي بكر ،
لأن اسم أبي بكر عبد الله ولقبه عتيق ، وإنما لقب بعتيق لعنق وجهه ودقة
محاسنه . ثم كنى الزبير بأبي بكر بكنية جدّه ، فكان عبد الله بن الزبير يكنى أبا
بكر تيمناً منهم بكنيته .

وقالت عائشة رضي الله عنها : ألا تكفيني يا رسول الله ؟ قال : « بل ،
اكتفي بابنك » يعني عبد الله بن الزبير . فكانت عائشة تكتفي بأبي عبد الله .
ولذلك كانت تقول : قال ابني ، وفعل ابني ، وكادوا يوم الجمل أن يقتلوا
ابني .

فيقال للرافضة : أما العيان والوجود فهو الذي خبرناكم به . وأما ما
ادّعيتم من [أن] الزبير سل سيفاً ليؤكد إمامة عليّ فقد ينبغي أن تأتوا على
ذلك ببرهان . فأما معاداة الزبير له ومحاربتة إياه وفخره عليه ، فهذا ما لا
يُدفع عنه . ولقد فخر عليه حين دعاه إلى الشورى وأبى ذلك عليّ فقال :
أسلمت بالفأ مدركاً وأسلمت ناشئاً طفلاً ، وكنت أول من سل سيفاً في
الإسلام يبطن مكة وانت مستخف في الشعب يكفلك الرجال ويمونك الأقارب
من هاشم ، وكنت فارساً وكنت راجلاً ، وكنت شجاعاً وكنت بطلاً . ولئن
كنت تزعم [أنك ابن عمه] إني لابن عمته . وأنا عابر البحر يوم الحبشة ،

وفي هيتي نزلت الملائكة ، وأنا حَوَارِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَفَارِسُهُ .

خبرني بهذا الكلام أبو زُفَرٍ عن ضراب ، أن الزُّبَيْرَ كَانَ احتجَّ به . وقد سَقَطَ عَنِّي بَعْضُهُ لَطَوِيلُ العَهْدِ بِسْمَاعِهِ .

وقالت (العثمانية) : العجبُ أن الروافضَ رَبَّمَا احتجت علينا بأن الزُّبَيْرَ سَلَّ سَيْفَهُ ومضى قُدَمَاءَ فِي تَأْكِيدِ بَيْعَةِ عَلِيٍّ وَخَلْعِ سِوَاهُ ، ونقص من أبي بكر .

فيقال لهم : فَمَا منعكم أن تقولوا لما مات النبي صلى الله عليه وَجَحَدَ السَّلَفُ إِمَامَةَ عَلِيٍّ : كفر الناس خلا خمسة نفر أولهم الزُّبَيْرُ فِي نَفْسِهِ وَفَضِيلَتِهِ عَلَى غَيْرِهِ . وأكبر ما كَانَ مِنْهُ مِنْ سَلِّ السَّيْفِ وَالشُّدِّ بِهِ ، وهذا موقفٌ لم يَقِفْهُ بِلَالٌ وَلَا أَبُو ذَرٍّ . وأنتم على ثِقَةٍ أن ذلك كَانَ ، وأن السَّيْفَ لم يُجْمَلْ إِلَّا لِنُصْرَةِ عَلِيٍّ دُونَ العَبَّاسِ وَجَمِيعِ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ وَمَا وَلَدَ قُصَيٍّ .

وكيف لم يكن أدنى منازل التدبير أن يكون قد كان مؤمناً ولياً إلى أن جَحَدَ إِمَامَةَ عَلِيٍّ بَعْدَ مَقْتَلِ عِثْمَانَ ، فيكون سبيله شبيهاً بسبيل حذيفة وعُمَارٍ ؛ لأنها كانا عندكم ككافرين حتى تابا في زمن عثمان ، فكان يكون الزُّبَيْرُ مؤمناً إلى أن كَفَرَ عِنْدَ مَقْتَلِ عِثْمَانَ .

ولأنما صار حذيفة وعُمَارٌ عِنْدَ الرَّافِضَةِ وَلِيَّيْنِ لِأَنَّهَا قَالَا بِرِزْوَانِهِمْ : والله ما دخل عثمان حُفْرَتَهُ إِلَّا كَافِرًا ، وَإِنَّهُ لَجَيْفَةٌ عَلَى الصُّرَاطِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يتأذى به أهلُ الجَمْعِ .

فإن كانوا إنما صاروا إلى تَوَلِّيهِمَا بَعْدَ إِكْفَارِهِمَا مِنْ أَجْلِ تَصَدِيقِ هَذَا الْحَدِيثِ فَإِنَّ الَّذِينَ رَوَوْهُ هُمُ الَّذِي رَوَوْا أَنَّهَا قَالَا : والله ما دخل عثمان حُفْرَتَهُ إِلَّا كَافِرًا ، وَإِنَّهُ لَجَيْفَةٌ عَلَى الصُّرَاطِ يَتَأَذَى بِهِ أَهْلُ الْجَمْعِ ، وإنه لا يلي هذا الأمر بعد عُمرَ إِلَّا كُلُّ أَصْفَرٍ أَبْتَرٍ ! فَإِنَّ كَانَا قَدْ تَابَا بِقَوْلِهَا الْأَوَّلِ لَقَدْ ارْتَدَّا بِقَوْلِهَا الثَّانِي حِينَ قَالَا : وَإِنَّهُ لَا يَلِي هَذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِ عُمرَ إِلَّا كُلُّ أَصْفَرٍ أَبْتَرٍ .

ولو لم يكن ذلك كذلك بل كانا مرتدّين فتأبى فتولّيتموهما عند توبتهما وعاديتموهما قبل ذلك على طاعتها لعمر ، فما بالكم لم تقولوا مثل ذلك في الزبير أنه لم يزل مؤمناً حتى جحد إمامة عليّ بعدد ١٩ مع أن سلّ الزبير سيفه ، وعذّوه نحو أبي بكر وأصحابه ، وقول عمر : « دونكم الكلب » حتى أخذ سيفه وخسّطه ، إنما هو حديثٌ وجدناه في بعض السيرة ، وليس من الأخبار المستفيضة ، وليس مما يحقّقه أصحاب الحديث .

[٦٣ - تأويل قول أبي بكر : « وليتكم ولست بخيركم »]

وإن قالوا : فما قول أبي بكر في خطبته التي خطب بها في أول خلافته : « وليتكم ولست بخيركم » ؟ وهل يخلو هذا القول من الصدق والكذب . فإن كان صادقاً فهو خلاف قولكم في تفضيله على جميع أئمتكم ، والرجل كان أعلم بنفسه وبأهل دهره . وإن كان كاذباً فأي كذب أقبح من كذب إمام صلّى منبر جماعة ١٩ ومن أحقّ بالألّا يليهم ويحمل إمامة دينهم ودنياهم بمن يكذب على منبر الرسول من غير أن يكرهه أحدٌ أو يريدّه عليه ، أو يكون في تقيّة كخائف السوط والسيف ؟ بل ما يدعوه إلى الكذب ، والكذب مقبح في العقل مقبح في الدين ، ولم يكن هناك رهبة تسوقه ، ولا رغبة تقوده ؟ على أن كذب الرعية أسخف وأقبح ، وهو لا يخلو من أن يكون صادقاً فلا يسعه أن يتقدم من هو خير منه وقد مكّنه تقدّمه ، أو يكون كاذباً فالقول فيه على ما قلنا .

قلنا : إن (العثمانية) تذكر لذلك وجوهاً ؟ .

فمنها : أن الحسن كان يقول : والله أعلم أنه كان خيرهم ، ولكن المؤمن يهضم نفسه . فزعم الحسن أنه إنما تهضم نفسه ووضع منها لأن الخلف المشفق كثيراً ما يُزري على نفسه ويهيب عليها ويستبطنها ، ويُظهر المقت لها والخوف عليها . فهذا كان مذهب الحسن .

وأما فتادة فزعم أن قوله : « وليتكم ولست بخيركم » إنما أراد في الحسب ، ليعلمهم أنه إذ يليهم بالحسب وإنما وليهم بالسابقة ، لأنهم قد كانوا أكثروا من قولهم : أرضيتم معشر بني عبد مناف أن تلي عليكم تيم ؟ ! وأراد في أول مقام قامه أن يعلمهم [أن] ذلك المقام لا يُنال بأن يكون صاحبه خيراً الناس حسباً ومركباً ، إنما يُنال بأن يكون خيراً الناس علماً وعملاً .

وأما غيرها فزعم أن من عادة الخائفين الوجيلين المشفقين أن يقول الرجل منهم : كل أحد خيراً مني ؟ ثم يبكي على تضييعه ، ويستعظم صغير ذنوبه كأنه ليس في الأرض مُذنبٌ سواه . وأكثر ما يقول ذلك عند ذكر بعض ذنوبه أو عند بعض ما يعارضه به الشيطان والإنسان ، من تزكيتة وتقريبه وإظهار تفضيله لنفسه وإحسانه ، والعجب بحاله . لأنه ليس بعد أن يرى العبد أن ذنبه من قبل ربه مذهب هو أعظم من استكبار الطاعة واستصغار المعصية . فعند ذلك يعارضه المؤمن بتقريب نفسه وتأنيبها ، وتوقيفها على ما فرط منها ، وتذكيرها مساوئها ، واستعظام كل ما كان من تقصيرها وإساءتها ، واستصغار كل ما كان من عظيم إحسانها وطاعتها ، فيقول : كل أحد خيراً مني . وما أشبهه من الكلام .

وهذا الضرب من اللفظ ، إذا كان على هذا الوجه فليس في مجرى الكذب وقول الزور . وإن كان القائل : « كل أحد خيراً مني » خيراً من كل أحد .

فكان أبا بكر لما خطب الناس وقام مقام رسول الله صلى الله عليه ، وسلم عليه المهاجرون والأنصار وعلية قريش وسادة العرب قياماً على أقدامهم ، وصفواً على مراتبهم ، يقولون : السلام عليك يا خليفة رسول الله وألقيت إليه أزيمة الأمور ، وأعطوه المقادة ، وأسمحت نفوسهم له بالطاعة وقد صرفوها عن القرابة وعن أهل الشرف ، رأى بسطة عيشه من جز الخلافة وبأو الامامة ، ما لا يعرف قدره غيره ، ولا تأتي الصفة على كنهه . وللشيطان هناك

مداخل وتحايل ، ودس وتحريك وطمع ، ليس يقوى بشري على دفع تلك
الفتنة ، وتسكين تلك الحركة ، والنهوض بتلك المحنة ، إلا بغاية الزري على
النفس والهضم لها ، والبخس والتخون منها ، وتناسي ذكر جميع محاسنها ،
واجتلاب ذكر جميع مساوئها . فبالحرى إذا صنع ذلك أن يرد من غربه وطوائع
نفسه ، وحركة جمته ، وانتشار عزمه ، وانتفاض مرته .

وهذه حال لا يمتحن بها إلا الخلفاء ، ولا يختبر بها إلا الأئمة الهدى ،
لأن معهم من قوة المئن ومن فضول الأحلام ، وشدة الورع وكثرة العلم ،
وثبات النفس ، والمعرفة بما آداه الطائع ، وإماتة الشهوات ، وقمع . . . ما
يقام به [موربه] مكاييد الشيطان وتعظيم الإنسان ، وعز السلطان ، والنفس لا
تسبح بإعطاء ما عليها حتى تمنعها ماها .

وإن كان قول أبي بكر : « ولئيتكم ولست بخيركم » إنما أراد به مداواة
قلبه ، والزري على نفسه فليس بكذب وإن كان خيره ، إذ كان إنما أراد
إصلاح قلبه ، وعلاج دائه ، والبعد من تقرير القوم بنقصهم عن فضله ،
والفخر عليهم (بتبريزه) . فإما أراد أن يكون سبيله سبيل من يظهر التعلم إذا
علم ، وسبيل من يتواضع إذا عظم . فجمع بذلك حسن الأدب ، والبعد من
التزكية ، والتعجب إلى المستمع ، والتواضع لربه ، والمداواة لقلبه ، والظفر
بعده ، وإحراز دينه .

وقد يكون إخلاص ظاهر لفظه على شيء ومعناه غيره ، فلا يكون ذلك
كذباً ، لمعرفة القائل بقهم المستمع عنه . وهذا باب كثيراً ما يستعمله
العرب .

يقول الرجل لامرأته : ألقىت حبلك على غاربك ! وهو يعني طلاقها
وليس هناك حبيل ألقى على غارب .

ويقول : مالي في هذا الأمر ناقة ولا جمل ! وليس ذلك يُريد . و : لست
منها في غير ولا تغير ! وليس ذلك يُريد .

وقال عُمَرُ في الصُّدَاقِ ما بَلَغَكُمْ ، فلما احتجَّت عليه المرأة بقول الله : ﴿ وَأَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ﴾ قال : كلُّ أحدٍ أفقه من عمر .

وهذا القول ينبغي أن يكون على قياسكم هذا كذباً . ولا نعلم أحداً رواه عن عمر إلا على التفضيل له . ووجهه قائم معروف .

[٦٤ - تاويل قول أبي بكر « بايعوا أي هذين شتم »]

فإن قالوا : ما معنى قول أبي بكر : « بايعوا أي هذين شتم » ، يعني عمر وأبا عبيدة .

قيل لهم : إن أبا بكر إنما قال هذا الكلام للأنصار ومن حضر بعد أن قرَّر الأنصار بفضل المهاجرين عليهم ، وأن الأمراء منهم . فعلم عند ذلك أنه بائن عند الأنصار من جميع المهاجرين كما بان عند المهاجرين ولكنه كان سائساً رفيقاً ، فكبره أن يقول بايعوني ، ليكونوا هم الذين يطلبون منه ذلك ويُريدونه عليه ، ويظهرون حبَّ تقديمه ؛ لتكون النفوس بطاعته أسمع ، وفيها أرغب ، ولذبه أحد ، ولأن ذلك عندهم أبعد من الاستبداد عليهم ، والافتيات بالأمر دونهم ، والحرص على التأمر عليهم . ولذلك مَثَى في الناس بعد بيعته ثلاثاً يقول : هل من مستقيل فيقال ؟

وقد قال في خطبته بعد البيعة :

وقد كانت بيعتي فلتنةً ، وخشيت الفتنة . وإيم الله ما حرَّضتُ عليها يوماً ولا ليلةً ، ولا سألتها الله في سرٍّ ولا علانيةً ، ومالي فيها راحة . وقد قلَّدتُ أمراً عظيماً مالي به طاقة ، ولو ددت أن أقوى الناس عليها مكاني .

ألا ترى زُهده فيها ، وقلة حرصه عليها ، وكيف يُخبر أنه لو لم يتخَشَّ الفتنة ما قبلها ، ولو دد أن أقوى الناس عليها مكانه ؟

وقوله « لوددت أن أقوى الناس عليها مكاني » ، يقول : وددت أنه لو كان في الناس من هو أقوى عليها مني . ليس أنه يرى أن في الأرض يومئذ رجلاً هو أقوى عليها منه .

ومثل هذا في كلام العرب كثير .

وقال الراجز وذكر إبله فقال ، إذا كانت عليها مغارضها :
يشربن حتى تُنقيض المغارض

يقول : يشربن حتى لو [كانت عليها مغارضها] سمعت لها نقيضاً والبحير لا يُورد وعليه غرضه وبطانه .

ثم رجعنا إلى الحديث الأول .

فكان أبو بكر حين قال : « بايعوا أي هذين شتم » علم أن عمر وأبا عبيدة لا يستجيزان تقدمه والتأمر عليه ، كما بلغنا من قول عمر في أبي بكر ، يوم جمع المهاجرين والأنصار يستشيرهم في غزوة الروم حيث خالفوه وأبى أبو بكر إلا إنفاذ ذلك الجيش والتعريف لهم بالحجة فيه ، حين يقول : « الحمد لله الذي يخص بالخير من يشاء من خلقه . والله ما استبقنا إلى شيء من الخير إلا سبقنا إليه ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

وقال أيضاً يوم السقيفة حين قال أبو بكر : بايعوا أي هذين شتم : « والله لأن أقدم فضرب عني أحب إلي من أن أتقدم أبا بكر » . وقال : « والله لأن أضجع فلذبح كما يذبح الجمل أحب إلي من أن أتقدم أبا بكر » .

ولقد بلغ من تعظيمه له وتقدمه إياه ، أنه قال حين سُئل عن الكلالة :

« والله إنني لأستحي من الله أن أرى بخلاف رأي أبي بكر » .

وأنت لم تجد أبا عبيدة تقدمه في موقف قط ، وقد وجدت أبا بكر قد تقدم أبا عبيدة في مواقف كثيرة ، في حياة رسول الله صلى الله عليه وبعد وفاته ، كما

حكينا لك قبل هذا . ولم نجد ذكر أبي بكر وعمر في موضع قط إلا وأبو بكر المقدم عليه ؛ مع مقامات لأبي بكر شريفة ليس لعمر فيها ذكر .

فبين أن يكون أبو بكر يأمرهم بذلك أمراً أو يطلب إليهم طلباً ، وبين أن يجعله إليهم فيكونوا الطالبين له والراغبين إليه ، وليكون ذلك من تلقائهم وطيب أنفسهم ، فرق عظيم .

وأية بيعة أثبت من بيعة عقدها عمر والنبي يقول : « ضرب بالحق على لسانه » و « الشيطان يفرق من حسه » و « اللهم أعز الإسلام بعمر » ؟ ! وأية بيعة أثبت من بيعة عقدها أبو عبيدة والنبي يقول : « لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » .

وأية بيعة أثبت من بيعة عقدها عبد الرحمن بن عوف وقد سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم « الأمين » . فإذا كان أمين رسول الله صلى الله عليه في أمته ، والفاروق الذي فرق الله به بين الحق والباطل ، حيث قال : « لا يعبد الله سراً بعد اليوم » قد عقدا بيعته وأكد أمره ، فما عسى أن يبلغ قول قائل ؟ ! ولو كان ذلك عن مواطاة من أبي بكر لأبي عبيدة كما واطأ معاوية عمرو بن العاص ، ما استعمل عليه خالد بن الوليد أميراً أيام حياته حتى عزله عمرو بن الخطاب ، ولكان كما صنع معاوية بعمر وحين أطعمه مصر .

وأية بيعة أثبت من بيعة عقدها عبد الله بن مسعود ، والنبي صلى الله عليه يقول : « رضيت لأمتي ما رضي لها ابن أم عبد بيعة رجل فقد رضيها النبي عليه السلام ، إذ كان النبي قد قال : « رضيت لأمتي ما رضي لها ابن أم عبد ، وكرهت لها ما كره ابن أم عبد » .

ولقد بلغ من تقديمه لأبي بكر وعمر وعثمان أنه قال عند اختيار الناس لعثمان : « ما ألونا أن جعلناها في إعلاننا ذا فرق » .

ولقد بلغ من تعظيمه لعمر وتقدمه له ، أنه قال : « لقد خشيت الله في

حُبِّ عُمَرَ . وقال : « ما صلينا ظاهرين حتى أسلم عمر » . وقال بعد موت عمر : « إن عمر كان للإسلام حصناً حصيناً يدخل الناس فيه ولا يخرجون منه ، فلما مات انثلم ذلك الحصن فصار الناس يخرجون منه ولا يدخلون فيه » . وقال : « إذا ذكر الصالحون فحيّ هلاً بعمر » .

فإذا كان عمر وعثمان من أتباع أبي بكر وشيعته وأوليائه ، وهذا قوله فيها ، وتفضيله لهما ، فما ظنك به في أبي بكر ؟ !

ولو أن رجلاً واحداً من نحو من ذكرنا عقد لعلي إمامة ، أو نطق فيه بكلمة ، لأكلت الشيعة والروافض هذه الأمة فضلاً عن أن تحتج برضاه واختياره . فهذا هذا .

ثم الذي نقلوا إلينا من تثبيت علي بيعة أبي بكر . وذلك أنهم قالوا : لما بويع أبو بكر وبايعه علي وبنو هاشم ، قام أبو بكر فطاف في الناس ثلاثاً يقول : « أيها الناس ، قد أفلتكم يعني » ! قالوا : يقول علي من بين الناس : « والله لا نُقبلك ولا نَسْتقبلك ، قدّمك رسول الله صلى الله عليه تصلي بالناس فمن ذا يؤخرك ؟ ! » .

مركز تحقيقات كويتية للدراسات الإسلامية

ثم الذي نقله الناس عن علي حين قال على منبره : « ألا إن خير هذه الأمة أبو بكر ، والثاني عمر ، ولو شئت أن أخبركم بالثالث فعلت » .

ونقلوا جميعاً أن علياً قال : بينا أنا يوماً عند رسول الله صلى الله عليه إذ أقبل أبو بكر وعمر فقال النبي : « هذان سيّدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين ، ما خلا النبيين والمرسلين ، لا تخبرهما بالذي قلت يا علي » . قالوا : قال علي : لولا أنها قد ماتا ما حدثتكم .

قال الشعبي : قال علي : إن أبا بكر كان أواهاً مُنبياً ، وإن عمر ناصح الله فنصحه الله .

ونقلوا أن علياً قال - ودخل على عمر وقد مات وهو مسجى - فقال :

رحمك الله يا عمر ! والله ما أحد أحب إليّ أن ألقى الله بمثلِ صحيفته من هذا
المسجى صاحب السرير !

وبلغه أن رجلاً تناولَ أبا بكرٍ وعمر ، فقال للرجل : لو سمعتُ منك
الذي بلغني لالقيتُ أكثرَكَ شعراً .

وقال : لو أتيتُ برجلٍ يشتمها لجلدته حدّ المقرّي .

ثم الذي نقله جميع أصحاب الآثار أنه قال : كنتُ إذا سمعت من النبي
صلى الله عليه حديثاً نَفَعَنِي الله بما شاءَ منه ، فإذا حَدَّثَنِي غيره عنه استحلقتُه ،
فإذا حَلَفَ لي صدقته . وإنْ أبا بكرٍ حَدَّثَنِي - وصدق أبو بكرٍ - حَدَّثَنِي أن النبي
صلى الله عليه قال : « ما من رجلٍ يُذنب ذنباً فيتوضأ فيُحسِن الوضوءَ ثم يصلي
ركعتين ويستغفر الله إلا غُفِرَ له » .

الاترى كيف أوردته بالتصديق وقلة الهمة ، وأقامه مقامَ التقليد ورفع
الاستراحة .

فهذا مذهبُ عليٍّ فيها وتعظيمُها .

ثم الذي كان من تزويجه أم كلثوم بنت فاطمة بنت رسول الله صلى الله
عليه ، من عمر بن الخطاب ، طائعاً راجياً ، وعمر يقول : إنِّي سمعتُ رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول : « إنهُ ليس سبيلٌ ولا نسبٌ إلا مُنقطع ، إلا نسي » .
قال عليٌّ : إنها والله ما بَلَغَتْ يا أمير المؤمنين . قال : إنِّي والله ما أريدُها لذلك !
فأرسلها إليه فنظر إليها قبل أن يتزوجها ؛ ثم زوّجها إياه ، فولدتُ منه زيد بن
عمر ، وهو قاتلُ سُودانِ مروان ، فلما أتى النعميُّ أم كلثوم كَمِدَتْ عليه حُزناً حتى
ماتت ، وقالت : واحربها ! قتل أبوها عليٌّ بن أبي طالب ، وقتل زوجها عمر بن
الخطاب ، وقتل ولدها زيد بن عمر .

ثم تسمية عليٍّ أولاده بأسمائهم ، كما يتبرك الرجلُ بأسماءِ أمته وقادته ،
حين سُمي بعمر وعثمان وأبي بكر ، فأعقب عمر ولم يُعقب أبو بكر وعثمان .

ثم الذي كان من قبوله ولاية عمر حين استخلفه على المدينة ، ومضى عمر
مُعسكراً يريد جيش مهران بعد وقعة قُسر الناطف فاتاه عليٌّ إلى مُعسكره فأشار
عليه فيمن أشار بأن الرأي أن يرجع إلى المدينة ولا يلقاهم بنفسه وحده ، بل
يكون للمسلمين فيته . فرجع عمر .

ولمَّا أراد عمر بذلك تحريك النَّاس ليجُدُّوا ويعزموا .

فإن قالوا : هذا كله باطل ، أو قالوا : إن هذا الذي حكيتموه وإن كان
حقاً فإنما كان على التُّقبة . فقد قلنا في ذلك أجمع بالذي يكتفى به .

[٦٦ - خلاصة آراء الشيعة والعمثانية]

والمعجب أنهم يوجبون على النَّاس تصديقهم أن سلمان قال : « كَرَدَاذ
وَنَكَرَدَاذ » وأنَّ الزُّبَيْرَ خَرَجَ شَادًّا بِسَيْفِهِ لِيُؤَكِّدَ إِمَامَةَ عَلِيٍّ ، وَأَنَّ الْأَنْصَارَ إِنَّمَا خَالَفَتْ
عَلِيَّ الْمُهَاجِرِينَ نَقْضًا مِنْ اسْتِبْدَادِ أَبِي بَكْرٍ ، وَأَنَّ أَبَا سَفِيَانَ بْنَ حَرْبٍ ، وَخَالِدَ بْنَ
سَعِيدٍ ، إِنَّمَا قَالَا : « أَرْضَيْتُمْ مَعْشَرَ بَنِي عَبْدِ مَنْفٍ أَنْ يَلِيَّ عَلَيْكُمْ تَيْمٌ » ، نَصْرَةً
لِعَلِيٍّ دُونَ جَمِيعِ بَنِي عَبْدِ مَنْفٍ ، فَإِنَّ اللَّهَ رَدُّ عَلَيْهِ الشَّمْسُ ، وَإِنَّ النَّبِيَّ قَالَ :
« أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى » ، وَجَعَلَ إِلَيْهِ طَلَاقَ نِسَائِهِ ، وَأَنَّهُ قَسَمَ
النَّارَ ، وَصَاحِبَ الْعَرَضِ ، وَالْقَائِمَ عَلَى الْحَوْضِ ، فَيُوجِبُونَ عَلَيْنَا أَنْ نَصُدِّقَهُمْ فِي
هَذَا وَلَا يُوجِبُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ لِحُمَالِ الْأَثَارِ أَنْ عَلَيْنَا قَالَ فِي الْحَقْلِيَّةِ وَالْبَرِيَّةِ ،
وَالْبَائِنَةِ ، وَالْبَيْتَةِ ، وَطَلَاقِ الْحَرَجِ ؛ وَأَمْرُكَ بِبَيْتِكَ ، وَالْحَرَامِ ، أَنَّهُ كَثَلَاتُ
تَطْلِيقَاتٍ . وَيُوجِبُونَ عَلَى طُلَّابِ الْحَدِيثِ أَنْ عَلَيْنَا كَانَ لَا يَرَى الطَّلَاقَ إِلَّا طَلَاقَ
السُّنَّةِ .

وهذا أمرٌ ما سمعنا به قطُّ عن عليٍّ إلا منهم .

وليس بأعجب من استشهاد خصومهم العيان والإجماع وما عليه الوجود ،
واستشهادهم القصد والضمير والغيب ، وجعلهم له يوازن الظاهر والشائع .

وذلك أنَّ القاتل إذا قال : أسلم أبو بكر كهلاً وأسلم عليٌّ طفلاً .

قالوا : كان عليّ وهو ابن سبع سنين أرجح عقلاً من أبي بكر وهو ابن إحدى وأربعين سنة . فتركوا العيان وعارضوا الشاهد بالغائب .

وإن قتال قائل : إن أبا بكر كان مع النبي في الغار وقد نطق به القرآن وثبتته الإجماع . قالوا : فإن علياً بأنه النبي على فراشه .

وإن قلت : إن النبي سُمي أبا بكر بالصديق تفضيلاً له ولم يجعل له اسماً يفضله به . قالوا : بلى ، قد كان النبي سُمي بالصديق الأكبر ، ولكن الناس منعه ذلك وظلموه ، حين لم يُسَيروهُ ويُشيعوه .

وإن قلت : إن النبي اشتكى أياماً وليالي ، كل ذلك يامر أبا بكر بالصلاة ، وهو حاضر ولا يأمره ، قالوا : لأن علياً كان مشغولاً بتمريضه .

وإن قلت : إن الناس لما افتتنوا بعد موت النبي وعظموا شأنه حتى دعاهم الإفراط إلى أن قالوا : لم يميت ، ولكنه يغيب مثل ما غاب موسى عن قومه . فكان أبو بكر هو المتكلم والمحتج والمحابي حتى عرفهم الحق وتنبهوا من الوسنة . قالوا : لأن علياً قد كان اشتد حزنه حتى قطعه عن الاحتجاج والتعريف .

فإن قلت : حين أظهروا الفرقة والذمار دارهم ، لو تركهم أبو بكر ولم يعرفهم فضل المهاجرين عليهم ، لكان في ذلك أشد الفتن وأكبر الفساد ، فعاجلهم وتجرّد للاحتجاج عليهم ، حين كان كل إنسان همهم نفسه ، وعليّ بمعزل حتى كأنه كان غائباً . قالوا : لأن علياً قد كان عرف حسد قريش وبعيها عليه ، وطاعتها وحبها لأبي بكر ، فلم يكن ليقدر في غير مقدح ، أو ينفخ في غير فحم .

فإن قلنا : إن إظهار عليّ الرضا بالشورى دليل على طاعة عمر . قالوا : إنما ذلك للتقية .

فإن قيل : فلم رضي بعبد الرحمن مختاراً وعبد الرحمن عنده من عدوه ، وأدى منازله أن يكون كان مخوفاً عنده ، وأدى من ذلك أن يكون الغلط غير

مامون عليه .

قلنا : وَهَلَّا أَظْهَرَ مِنَ الْخِلَافِ شَيْئاً يُسِيرُ إِلَيْنَا ، وَهَلَّا نَطَقَ بِحَرْفٍ وَاحِدٍ
بَقَدْرٍ مَا يَتَّخِذُهُ النَّاسُ بَعْدَ حُجَّةٍ ، وَلَمْ يَكُنْ بَلِغَ أَقْصَى خِلَافِهِمْ فُجْرَى وَعَيْدَاً أَوْ
إِبْقَاعاً .

فإن قلت : إن علياً قال لأساء بنتِ حميس - وهي يومئذ امرأته - حين
تفاخر ولدها من أبي بكرٍ وجمعه وعليٍّ عندهما : اقضي بيني وبينك . فقالت : ما
رأيتُ شاباً كان أظهرَ من جعفرٍ ، ولا رأيتُ شيخاً كان أفضلَ من أبي بكرٍ ، وإن
ثلاثة أنت أحسُّهم لفضلاءِ ! فلم يُنكر ولم يمتنع ، ولم يفرق ولم يتمعّب ،
والكلام يُؤثر والقضية تظهر .

قالوا : إن فضله أظهرُ في الناس من أن يحتاج إلى الاحتجاج ، وإنما قالت
ذلك مازحةً ، كما تمزح المرأة مع زوجها وتخرشُ به .

فإن قلت : إن علياً قد بايع أبا بكرٍ وأعطاه صفته طائعاً غير مكره والحكم
السابق من الله ورسوله أن المدعى عليه إذا أقر ولم يُنكر ، ولم ير الوالي أثر جنونٍ
ولا إكراهاً ، أن إقراره جائزٌ عليه ، فكذلك عليٌّ إذا كان قد بايع وليس على
رأسه سيف ولا سوط ، فحكمه حكم الراضي المسلم .

قالوا : قد كان هناك إكراهٌ ظاهر ، ولكن الناس تكاثموا وأخفوه فيما بيئا
وبينهم ، إذ كان الجمهور الأكبر معهم .

فإن قلت : قد صدقناكم في قولكم إنه قد كان في تقيّةٍ من أبي بكرٍ وعمر
وعثمان ، أرايتم أيامَ سلطانِ نفسه ومعه مائة ألفٍ سيفٍ تطيعه وأهلُ الأرضِ
كلُّهم رعيته ما خلا الشام ، لم كان يُظهر تركيبةَ أبي بكرٍ وعمرَ على منبره وفي
مجلسه ؟ .

قالوا : للتقيّة من رعيته ، إذ كان أكثرهم على هواهم وطاعتهم .

قلنا : قد عرّفنا أن تركه لعنهم والبراءة منهم والإخبار عن استبدادهم

وظلمهم ، على التقيّة ، فما حمّله على تزكيتهم والإخبار عن محاسنهم ، والرّواية
الحسنة فيهم ، وقد كان له في السُّكوت سعة ، وعن الكلام مندوحة ؟ ! ولقد
تعدّى في مديح أبي بكرٍ وعمرٍ حتى قال لابن طلحة : إنّي لأرجو أن أكون أنا
وأبوك ممن قال [فيهم] الله : ﴿ إخواناً على سُررٍ متقابلين ﴾ .

وإن قلنا : إن في تسميته بنيه بأسمائهم دليلٌ على تعظيمه لهم .
قالوا : لأنه قد كان علم أن شيعة سيحتاجون في آخر الزمان إلى الترحم
على أبي بكرٍ وعمرٍ وعثمان ، تقيّةً من شيعتهم ، فسُمي بنيه بأسمائهم ، حتى
يكون ذلك الترحم واقعاً عليهم ، ولأنّ ينصبّ لهم من إذا قصدوا إليه بالترحم
أصابوا الحقّ ولم يحتاجوا إلى اللطاط .

وإن قلنا : إنه زوّج عمرَ غير مُكره ، ولا شيء أدلُّ على الخاصّة والصفاء من
المشاركة والمصاهرة .

قالوا : قد كان هناك توعدٌ وتخويفٌ ، وقد قال بعضهم : إن هذا باطلٌ وإن
عليّاً لم يزوّج عمرَ قط . ونبئت عن بعضهم أنه قال : قد كان ذلك على التقيّة ،
ولكن الله صانها فأخفاها ورفعها تحت كفيّتي *كفيّتي كفيّتي* .

فقيل له : فخبّرنا عن التي رأوها في منزل عمرٍ وعلى فراشه ، وولدت منه
زيداً ، ما هي ؟ وأي شيء كانت ؟
قال : شيطانة في صورة امرأة .

وإن قلت لهم : كيف زعمتم أنه كان أشدّ أهل الأرض قلباً ، وأنتم
تزعمون أنه كان يتقي كل شيء ، حتى ليُسلم حرمة إلى كافر من غير أن يُشهر
عليه سيفٌ أو يُضرب بسوط . وقد رأينا من هو في دون حاله في النجدة
والشجاعة ، والحبيّة والبصيرة ، يمتنع حتى يُقتل في دون هذا . وقد تعلمون أنه
لم يُكلم ولم يُحدّث ، فضلاً على أن يُجرّح ويُقتل ، في جميع المقامات التي زعمتم
أنه إنما استجاز واستحل من التقيّة .

وأعجبٌ من جميع هذا أننا رأيناكم تزعمون أن أبا بكرٍ وعثمان كانا من أجبن البرية وأبعده من حمة ، وقد رأينا صنيع أبي بكر في الردة كيف نهض بالقليل في محاربة الكثير ، وكيف أشاروا عليه بأن يستعين بجيش أسامة حتى إذا رَدَّ الردة أعاد الجيش إلى حاله . وكيف قال لهم حين قالوا له : إنا قد أمنا غزوة الروم إيانا في يومنا هذا ، ولسنا نأمن مع ارتداد جميع العرب أن تُغزى في عُقر دارنا ! قال : لو بقيت حتى يأكلني الكلاب وحدي ما أخرت جيشاً أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإنفاذه .

ثم رأينا عثمان ، وهو عندكم أضعف من أبي بكرٍ وأجبن ، قد كان محاصراً معطشاً مخدولاً قد قهره عدوه ، والسيوف تلمع على بابه ، وقد أفضوا إلى داره ، وتسلفوا عليه من نخوته ، وهم يريدون نفسه أو خلع الخلافة من عنقه ، فصبر حتى قُتل كريماً محتسباً وهو يقول : لا أنزع قميصاً قمصنيه الله ! ، وهو يرى الجِدُّ وليس معه أمان من قبله .

وقد يزعمون أن علياً قد كان يعلم أنه لا يُقتل ولا يموت حتى يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين ، ومع ذلك يزعمون أن الله قد كان أسراً إليه علم كل ما يحدث في هذه الأمة من الفتن والمهيج . وهذا لا يُشبه اتخذَه أبا موسى حكماً عليه وله ، مع غباء أبي موسى وعداوته كانت له ، ولا سيما إذا قرئته بعمر وبن العاص ، وما ظنك برأي عمرو وقد كان فيه معونة .

[٦٧ - جدل الشيعة والعثمانية حول صحة اسلام ابي بكر]

ففي جميع ما قلنا دليل على أن القوم لم يكونوا مالكين لاهوائهم ، فإن قالوا : ما اللليل على إسلام أبي بكر فضلاً على تقديمه وتفضيله ومبايئته ؟ ومن أين لكم أن تزعموا أنه قد كان مسلماً وأنتم وخصومكم مجمعون على أنه كان كافراً ، ثم ادعيتم أنه قد أسلم بعد كفره وأنكر ذلك خصومكم ، فليس لكم أن ترجعوا عما اجتمعتم عليه إلا بإجماع منكم يوازنه . وقد ينبغي أن

تطرحوا موضع الفِرقة وتفضوا بموضع الجماعة ، وقد جامعتونا أن علينا لم يزل مؤمناً .

قيل لهم : إنا لو كنا عرفنا أنه قد كان مرةً كافرًا من قبيلِ خبر أصحابنا ومجماعةٍ خصومهم لهم ، وكان علمُ ذلك لا يُصاب إلا بمجامعتهم لأصحابنا ، لقد كان الذي قلتم واجباً وقياساً صحيحاً . ولكننا عَرَفْنَا أنه قد كان كافرًا بقدرٍ من الخبرِ قد يكذب مثله ، وبه ثبت عندنا أنه قد كان في الدنيا ، فضلاً على أن يكون كان له فعلٌ يسمى كفرةً وإيماناً . وإنما الحججة في المجيء الذي لا يكذب مثله ، ثم لا نلتفت بعد ذلك إلى موافق ولا إلى مخالف ، ولا إلى عقل ولا إلى نظر . ثم نظرنا فإذا الوجهُ الذي منه علمنا أنه قد كان في الدنيا ، منه علمنا أنه قد كان مرةً كافرًا ، و [هو] الوجهُ الذي منه علمنا أنه قد أسلم بعد كفره . ولو أنا عرفنا كفره بنا وبخصومنا ، لما عرفنا إيمانه إلا بنا وبهم .

ووجهُ آخرُ من الجواب : أنكم قد جامعتونا على أنه قد كان يشهد الشهادة ، ويأكل الذبيحة ، ويظهر الإسلام ، في حيثُ النفاقُ مستخفٍ وثوبُ الإسلامِ داجٍ ، والكفرُ ذليلٌ والإسلامُ عزيزٌ ؛ [ثم] ادعيتم بعد أن أقرتم أنه قد كان يُظهر الإسلامَ في دار الإسلامِ ، أنه كان مُستسيراً بالكفر ، وأنه كان من المؤلفة قلوبهم .

فالواجب بالقياس أن يُحكَمَ له بالإسلامِ على ظاهر ما اجتمعنا عليه من جلته ، ولا ندعُ موضعَ الإجماعِ إلى قولكم وحدكم : إنه قد كان إسلامه على نفاق ، لأن الجماعة لا تنزل إلى فرقة ، ولأن الحججة لا تُترك إلا بحجة .

فإن قالوا : فإن أبا بكرٍ لم يشهد قطُّ الشهادة ، ولا صلى [إلى] القبلة . قلنا : ما تقولون في رجلٍ رأيناه كافرًا في دار الكفر ، ثم رأيناه بعد ذلك في دار الإسلامِ وفي زِيٍّ أهله ، وحكم الإسلامِ غالٍ ، ومعلومٌ أن من عادة أهله قتلٌ من كفر ، كيف يكون حكمُ ذلك الرجل ؟

فإن قالوا : ولكننا نقف في مغيبه .

قلنا : اجعلوا أبا بكرٍ ذلك الرجل .

فإن قالوا : فإن أبا بكرٍ لم يزل يُظهر الكفر في دار الإسلام ، كما كان يظهر الكفر في دار الكفر .

قلنا : لا بدُّ لكفره من وجهين : إما أن يكون كان يظهره على عهدٍ وذمةٍ فلذلك لم تقتلوه . أو يكون كان على غير عهدٍ وذمةٍ .

فإن ادَّعوا أن كفره كان على عهدٍ وذمةٍ كما جعل الله ورسوله للنصارى وللإهود ، خرَّجوا إلى ما لا نحتاج مع فُحشه إلى الكلام فيه . وإن زعموا أنه كان على غير عهدٍ وذمةٍ وحكم الإسلام ظاهرٌ ، فما أشبه هذا القول بالقول الأول .

ويقال لهم : خبرونا عن أبي بكرٍ ، هل يخلو من أن يكون لم يقل قطُّ في دار الإسلام : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، أو يكون قد قال ذلك مرةً واحدةً ؟

فإن زعموا أنه قد قالها مرةً واحدةً ثم تركها ، قيل لهم : فقد أقررتم وجامعتم خصومكم على أنه قد شهد الشهادة ، فليس لكم أن تخرجوه إلى نفاقٍ أو إلى تركٍ ، إلا لمجامعة خصومكم لكم ، إذ كانت الفرقة لا تنقض الجماعة .

فإن قالوا : فإنه لم يقل لا إله إلا الله محمد رسول الله مرةً قطُّ من دهره ، لا على نفاقٍ ولا على غيره ، بل كان يظهر عبادة الأصنام ، ثم مع ذلك سلم على حكم الكتاب والسنة ، وعمل حكم الدار . فليس عندنا في ذلك إلا إسقاطه ومحريمٌ كلامه وإمضاء حكم مثله فيه .

بل قد ثبت إسلامه بعد الوجوه التي ذكرتها بوجوه :

منها أن الله أثنى على عباده الصالحين ، فخصَّ بتفضيله السابقين والمهاجرين الأولين ، وقد اجتمعت الأمة أنه من المهاجرين الأولين مع فضيلة هجرته ، إذ كانت هجرته وهجرة رسول الله صلى الله عليه معاً ، فهذا وجه .

ثم الذي رأينا من ذكر الله وثناؤه على أهل بدر . وقد أجمع المسلمون أنه كان ممن شهد بدرًا ، مع ما فضل به من الكون في العريش ، ولا موضع أدل على الخاصة من ذلك الموضع في ذلك الموقف ، مع ما شهد به من مستجيبه وعتقائه ومواليه . ولقد بلغ من قدر من شهد بدرًا أن عامة الفقهاء تحدث أن الله « أطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم ، فلذلك كان الحسن يقول : إن طلحة والزبير وعليًا في الجنة معًا وإن لم يكونوا كانوا في الدنيا ، لأنهم عتقوا الله من النار ، ولم يكن الله ليعتق عبداً ثم يعيده في رقه . ولذلك كان الحسن ، وحوشب ، وهاشم الأوقص ، ويكر ابن أخت عبد الواحد ، يقولون إذا ذكروا يوم الجمل : « هلكت الأتباع ونجت القادة » . فهذا هذا .

ثم الذي كان من ذكر الله وحسن ثناؤه على من بايع تحت الشجرة . وأي شيء أعجب من اجتماع السلف مهاجريها وأنصاريها خلا أربعة نفر على تقديم رجل في مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقضي في ابشارهم وأشعارهم وفروجهم وأموالهم ، ويحمل أماناتهم ، ويدعونه خليفة رسول الله ، حتى ترك الشريف المطاع ذا السابقة والقدم وتولى مكانه الخامل القليل المقصر ، فلا يراد ولا يدافع ، ولا يُراجع ولا يستفهم ، وهو المعروف عندهم بجحد الرسول وعبادة الأوثان ، وليس بذي عشيرة منيعة .

ولا يستطيع أحد أن يزعم أنه قد كان واطأ العشائر ليصرفوا إليه عونهم على أن يؤثرهم ويفضلهم . ولو كان ذلك لظهر علمه ولم يخف أثره . ومثل هذا لا يستطيع كتمانته وستره وتزويله .

وكيف وقد سوى بين الرفيع والوضيع ، والدليل [و] المنيع !؟ فلم يؤثر قريباً ولم يول نسيباً .

ولو استعان بطلحة وولاء وفضله لقد كان لذلك موضعاً ، وللولاية والتقديم أهلاً ، بل صنع ضد ما يصنفه أصحاب الميل والأثرة ، والعصبية والمواطاة .

ولو كان قريبَ القرابة لجاز لقاتل أن يقول : إنما قُدِّم لقرابته .

ولو كان عصبيةً لقالوا : إنما استحقَّ بورائه .

ولو كان منيعَ الرهط لقالوا : إنما قُدِّم لكثرة قبيلته .

ولو كان استعانَ بقومٍ على مواطأةٍ وشريطةٍ ، كصنيع معاوية بندي الكَّلَاعِ وعمرو بن العاص ، لقالوا : إنما قُدِّم رهبةً من واطأه ، ورغبةً فيمن أكَّد هواه .

[و] وليُّ بني مخزومٍ أعناقُ العربِ وقِتالُ أهلِ الرِّقَّةِ ، وحربُ مسيلمةَ ومخاريةَ طليحةَ ، دون رهطه ولو وليُّ ذلك طلحةً لكان لذلك أهلاً ، ولكنَّ الطاعن قد كان يهد سبياً .

وكذلك عمرُ بن الخطاب لو كان أدخَلَ في الشورى سَعِيدَ بنِ زَيْدٍ كما كُلمَ في ذلك ، وأدخَلَ في الرُّقْبَاءِ عبدَ اللهِ بنِ عُمَرَ كما كُلمَ في ذلك ، لكان لذلك أهلاً ، ولكنَّ الطاعن قد كان يهد متعلقاً .

ووليُّ خالدِ بن الوليدِ حربُ مسيلمةَ وطليحةَ وبني نعيمٍ وأهل البادية ، ووليُّ عكرمةَ رِدةَ عُثْمَانَ ، ووليُّ المهاجرِ بنِ أَبِي أُمَيَّةَ رِدةَ أهلِ نَجْدٍ واليمنِ . وما زال عمرُ يعاتبُه في خالدٍ فيقول أبو بكر : « لا أَشِيْمُ سيفاً سلَّه اللهُ على الكُفَّارِ » . فهذا هذا .

والعجب لهذه الأمة كيف اختلفت في رجلين أحدهما خير خلق الله ، والآخر شرُّ خلق الله . وكيف اختلفت في رجلين أحدهما لم يزل مؤمناً والآخر لم يزل كافراً ، ثم كان المقدمُ الحسيس الكافر ، على الرفيع المسلم ! [وهم] أصحابُ القرآنِ وخاصةً الرسول من الصُّحابةِ والبَدْرِيِّينَ والأنصارِ والمهاجرين ، وهم الذين قالَ فيهم التَّابعون : خير هذه الأمة أصحابُ محمدٍ صلى اللهُ عليه ! ابْتَلُوا فَصَبِرُوا ، وَأَنْعِمَ عَلَيْهِمْ فَشَكَرُوا .

والعجب كيف رأوا تفضيلَ عليٍّ على أبي بكرٍ وعمرَ مديحاً له . وإنما كان

يكون عليّ عالياً رفيعاً متقدماً زاهداً عالماً سائساً أن لو كان أفضل من فضلاء ،
وأعلم من علماء ، وأعقل من عقلاء ، وأزهد من زهاد ، وأسوس من ساسة .
فأما أن يكون أفضل من أنقص الناس ، وأزهد من أرغب الناس ، وخيراً من
شرّ الناس ، وأعلم من أجهل الناس ، فليس في هذا التفضيل ذرّك فيتكلّفه
متكلّف ، ويقوم به قائم .

والعجب من رجلين بينهما هذا التفاوت والتباين ثم شهد المتكلمين من
سمعهما يتنازعان فيهما ، فيحسب الحاضر أن شرهما خيرهما ، وهو الأريب الأديب
الذاهب مع التعارف عن التناكر . وكيف التبس الأمر وأشكل أن لم يكن الأمر
مشكلاً ملتبساً .

وكيف يجوز أن يكون أبو بكر لم يزل كافراً ، أو يكون كفره بجحده إمامة
علي وكفر معه المهاجرون والأنصار، وقد أجمع أصحاب الأخبار وحمال الآثار أن
النبي صلى الله عليه قال : « إن من أمّتي سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير
حساب » ، فقام عكاشة بن محصن فقال : يا رسول الله ، دع الله يجعلني منهم .
قال : أنت منهم . فقتل مع خالد بن الوليد يوم بُزّاعة في إمرة أبي بكر وطاعته
والإقرار بخلافته ، قتله طليحة بن حويلد الأسدي . فكيف يجوز أن تكون إمامة
أبي بكر معصية فضلاً على أن تكون كفراً والمقتول في طاعته والمنقاد لأمره من أهل
الجنة .

ثم تزعم الروافض أن من الدليل على أن علياً كان المحقّ دون طلحة
والزبير ، أن النبي صلى الله عليه [قال] وذُكر زيد بن صوحان : « زيد وما
زيد ! يسبقه عضوّ منه إلى الجنة » . فقتل يوم الجمل . فجعلوا الدليل على
صواب عليّ في قتاله أن زيداً قُتل في طاعته .

قيل لهم : ففي قول النبي « يسبقه عضوّ منه إلى الجنة » دليل أن ذلك
العضو لم يسبق إلى الجنة إلا وقد قُطع في طاعة الله . وقد اجتمعوا أن يده قُطعت
يوم نهاوند ، في طاعة عمر .

وهذا بابٌ كبيرٌ إن تَبَّعَهُ مَتَّبِعٌ ، وَلَكِنَّا أَرَدْنَا أَنْ نَذُلَّ عَلَى جَمِيعِ الْأَبْوَابِ فِي تَفْضِيلِ الشَّيْخِينَ ، وَتَفْيِ التَّنْقِصِ عَنْهَا .

[٦٨ - العامة لا تصلح لاقامة الامام]

وان سأل سائل : هل على الناس ان يتخذوا اماماً وان يقيموا خليفة ؟

قيل لهم : إن قولكم « الناس » يحتمل الخاصة والعامة . فإن كنتم قصدتم إليهما ، ولم تَفْصِلُوا بَيْنَ حَالِيهِمَا ، فَلِئِنْ نَزَعْنَا أَنَّ الْعَامَّةَ لَا تَعْرِفُ مَعْنَى الْإِمَامَةِ وَتَأْوِيلَ الْخِلَافَةِ ، وَلَا تَفْصِلُ بَيْنَ فَضْلِ وَجُودِهَا وَنَقْصِ عَدَمِهَا وَلَا يُّ شَيْءٍ ارْتَدَّتْ وَلَا يُّ أَمْرٍ أُمِّلَتْ ، وَكَيْفَ مَاتَاهَا وَالسَّبِيلُ إِلَيْهَا . بَلْ هِيَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ تَهَبُّ ، وَنَاشِئَةٌ تَنْجُمُ ، وَلَعَلَّهَا بِالْبَطْلِينَ أَقْرَبَ عَيْنًا [مِنْهَا] بِالْمُحَقِّينَ .

وَإِنَّمَا الْعَامَّةُ أَدَاةٌ لِلْخَاصَّةِ ، تَبْتَدِلُهَا لِلْمُهَنِّ ، وَتَرْجِي بِهَا الْأُمُورَ ، وَتَطُولُ بِهَا عَلَى الْعَدُوِّ ، وَتَسُدُّ بِهَا الثُّغُورَ . وَمَقَامُ الْعَامَّةِ مِنَ الْخَاصَّةِ مَقَامُ جَوَارِحِ الْإِنْسَانِ مِنَ الْإِنْسَانِ ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا فَكَّرَ أَبْصَرَ ، وَإِذَا أَبْصَرَ عَزَمَ ، وَإِذَا عَزَمَ تَحَرَّكَ أَوْ سَكَنَ وَهَدَأَ بِالْجَوَارِحِ [دُونَ الْقَلْبِ] وَكَمَا أَنَّ الْجَوَارِحَ لَا تَعْرِفُ قَصْدَ النَّفْسِ وَلَا تَتَرَوَى فِي الْأُمُورِ ، وَلَمْ يُخْرِجْهَا ذَلِكَ مِنَ الطَّاعَةِ لِلْعَزْمِ ، فَكَذَلِكَ الْعَامَّةُ لَا تَعْرِفُ قَصْدَ الْقَادَةِ وَلَا تَدْبِيرَ الْخَاصَّةِ ، وَلَا تَتَرَوَى مَعَهَا ؛ وَلَيْسَ يُخْرِجُهَا ذَلِكَ مِنَ طَاعَةِ عَزْمِهَا ، وَمَا أَبْرَمَتْ مِنْ تَدْبِيرِهَا .

وَالْجَوَارِحُ وَالْعَوَامُّ وَإِنْ كَانَتْ مَسْخُورَةً وَمَسْخُورَةٌ فَقَدْ تَمْتَنِعُ لِعَلِّ تَدْخُلُهَا ، وَأُمُورٌ تَصْرِفُهَا ، وَأَسْبَابٌ تَنْقُضُهَا ، كَالْيَدِ يَعْزِضُ لَهَا الْفَالِجُ ، وَاللِّسَانُ يَعْثَرِيهِ الْحَرَسُ ، فَلَا تَقْبِرُ النَّفْسُ عَلَى تَسْذِيدِهَا وَتَقْوِيمِهَا ، وَلَوْ اشْتَدَّ عَزْمُهَا وَحَسُنَ نَأْتِيهَا وَرَفَقَتْهَا . وَكَذَلِكَ الْعَامَّةُ عِنْدَ نَفْسِهَا وَتَهْيِيجِهَا وَغَلْبَةِ الْهَوَى وَالسُّخْفِ عَلَيْهَا ، وَإِنْ حَسُنَ تَدْبِيرُ الْخَاصَّةِ وَتَعَهَّدَ السَّاسَةُ . غَيْرَ أَنَّ مَعْصِيَةَ الْجَارِحَةِ أَيْسَرُ ضَرُورًا وَأَهْوَنُ أَمْرًا ، لِأَنَّ الْعَامَّةَ إِذَا انْكَفَتْ بِالْخَاصَّةِ وَتَنَكَّرَتْ لِلْقَادَةِ ، وَتَشَرُّنَتْ عَلَى الرَّاضَةِ كَانَ الْجَوَارِحُ الَّذِي لَا حِيلَةَ لَهُ ، وَالْفَنَاءُ الَّذِي لَا بَقَاةَ مَعَهُ .

وصلاح الدنيا وتمام النعمة ، في تدبير الخاصة وطاعة العامة ، كما أن كمال المنفعة وتمام ذرّك الحاجة بصواب قصد النفس وطاعة الجارحة ، لأنّ النفس لو أدركت كلّ بُغية ، وأوفت على كلّ غاية ، وفتحت كلّ مستغلق ، واستثارت كلّ ذفين ، ثم لم يُطعمها اللسان بحسن العبارة ، واليد بحسن الكتابة ، كان وجود ذلك المستنبت - وإن جُلّ قدره وعظّم خطره - [وعدمه] سواء .

فالخاصة تحتاج إلى العامة كحاجة العامة إلى الخاصة . وكذلك القلب والجارحة . وأما العامة جنة للدفع ، وسلاح للقطع ، وكالترس للرامي ، والفأس للنجار . وليس مضيّ سيفٍ صارمٍ بكفّ امرئٍ صارمٍ بأمضى من شجاع أطاع أميره وقلّد إمامه ! وما كلبٌ أشلاه ربّه واحمسه كلابه ، بأفرط تنزقاً ولا أسرع تقدماً ، ولا أشدّ تهوراً ، من جنديّ أغراه طمعه ، وصاح به قائده .

وليس في الأعمال أقلّ من الاختيار ، ولا في الاختيار أقلّ من الصواب ، فلباب كلّ عمل اختياره ، وصفوة كلّ اختيار صوابه ، ومع كثرة الاختيار يكثر الصواب . فأكثر الناس اختياراً أكثرهم صواباً ، وأكثرهم أسباباً موجبة أقلهم اختياراً ، وأقلهم اختياراً أقلهم صواباً .

فإن قالوا : فقد ينبغي للعوامّ ألا يكونوا مأمورين ولا منهيين ، ولا عاصين ولا مطيعين .

قيل لهم : أمّا فيما يعرفون فقد يطيعون ويعصون .

فإن قالوا : فما الأمر الذي يعرفون من الأمر الذي يجهلون ؟

قيل : أمّا الذي يعرفون فالتنزيل المجرّد بغير تأويله ، وبجملّة الشريعة بغير تفسيرها ، وما جُلّ من الخبر واستفاض ، وكثر تردّده على الأسماع ، وكثروه على الأفهام . وأمّا الذي يجهلون فتأويل المنزّل ، وتفسير المجمال ، وغامض السنن التي حملتها الخواصّ عن الخواصّ من حملة الأثر ، وطُلاب الخبر ، مما يتكلّف معرفته ويتبّع في مواضعه ، ولا يحجم على طالبه ولا يقهر سمع القاعد عنه .

والخبير ، خبيران : خبيرٌ للخاصة فيه فضلٌ على العامة ، كالمصلوات الخمس ، وصوم رمضان ، وغسل الجنابة ، وفي المائتين خمسة . وخبيرٌ تفضل فيه الخاصة العامة ، وهو كما سنَّ الرسول في الحلال والحرام ، وأبواب القضاء والطلاق ، والمناسك ، والبيوع ، والأشربة ، والكفارات وأشباه ذلك .

وبابٌ آخر يجهله العوامٌ ويخبط فيه الحشو ، ولا تشعر بعجزها [لا] موضع دأئها . ومتى جرى سببه أو ظهر شيء منه تسنمت أعلاه ، وركبت حومته ، كالكلام في القدر والتشبيه ، والسعد والوعيد ، لأنها قد تحجم [عن] دعوى الفتيا ، ولا تنهات فيها ، [ولا] تتسكع فيما لا يعرف منها ، ولا تستوحش من الكلام في [التعديل والتجويز ، ولا تفرغ من الكلام في] الاختيار والطباع ، ومجيء الأخبار وكل ما جرى سببه من دقيق الكلام وجليله في الله وفي غيره .

ولو برز عالمٌ على جادة منجٍ وقارعة طريق ، فنازع في النحو واحتج في العروض ، وخاض في الفتيا ، وذكر النجوم والحساب ، والطب والهندسة ، وأبواب الصناعات ، لم يعرض له ولم يفتحه إلا أهل هذه الطبقات .

ولو نطق بحرفٍ في القدر حتى يذكر العلم والمشية ، والاستطاعة والتكليف ، وهل خلق الله الكفر وقدره ؟ أو لم يخلقه ولم يقدره لم يبق حمالٌ أغثر ولا [بطل] غث ، ولا حاملٌ غفل ، ولا غبيٌّ كهام ، ولا جاهلٌ سفيه ، إلا وقف عليه ولاخاء ، وصوبه وخطاه ؛ ثم لم يرض حتى يتولى من أرضاه ، ويكفر من يخالف هواه . فإن جراه محق ، أو أغلظ له واعظ ، وأتفق أن يكون بحضرته أشكاله ، استغوى أمثاله فأشعلوها فتنة ، وأضرموها ناراً .

فليس لمن كانت هذه صفته أن يتخيز مع الخاصة . مع أنه لو حسنت نيته لم تحمله فطرته معرفة الفصول وتمييز الأمور .

فإن قالوا : ولعلمهم لا يعرفون الله ورسوله كما لا يعرفون عدله من جوره ، وتشبيهه بخلقه من نفى ذلك عنه ، وكما لا يعرفون [القرآن و] تفسير جملته ،

وتأويل منزله .

قيل لهم : إن قلوب البالغين مسخرة لمعرفة رب العالمين ، وعمولة على تصديق المرسلين ، بالتنبيه على [مواضع] الأدلة ، وقصر النفوس على الروية ، ومنعها [عن] الجولان والتصرف ، وكل ما ربت عن التفكير وشغل عن التحصيل ، من وسوسة أو نزاع شهوة ؛ لأن الإنسان ما لم يكن معتوهاً أو طفلاً فمحبوج على السنة المرسلين عند جميع المسلمين ، ولا يكون محجوجاً حتى يكون عالماً بما أمر به ، عارفاً بما نهي عنه ، لأن من لم يعلم في أي الضربين سُخط الله وفي أي النوعين رضاه ، ثم ركب السخط أو أتى الرضا ، لم يكن ذلك منه إلا على الاتفاق . وإنما الاستحقاق مع القصد ، والله يتعالى أن يعاقب من لم يرد خلافه ولم يعرف رضاه ، أو يتمد من لم يعتمد رضاه ولم يقصد إليه .

ولم يكن الله ليعدل صنعته ويسوي أداته ، ويفرق بينه وبين المنقوص في بنيته وتركيبه ، إلا ليفرق بين حاله وحال الطفل والمعتوه . وليس للمعرفة وجه إلا لتبصيره وتخييره ، ولولا ذلك لم يكن للذي خص به من الإنابة ، وتعديل الصنعة ، وإحكام البنية معنى . والله يتعالى عن فعل ما لا معنى له .

وفي قول الله : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ دليل على ما قلنا .

وليس لأحد أن يخرج بعض الجن والإنس من أن يكون خلقاً للعبادة إلا بحجة . ولا حجة إلا في عقل ، أو كتاب ، أو خبر .

فإن قالوا : فإن كان الله إنما أبانهم بالتعديل والتسوية للعبادة والاختيار مع الأمة فحكمهم حكم المسلمين المتعبدين . وإنما الإمام إمام المسلمين والمتعبدين .

قلنا : إنما يلزم الناس الأمر فيما عرفوا سبيله ، وليس للعوام خاصة معرفة بسبيل إقامة الأئمة فيلزمها أمر ، أو يجري عليها نهي .

والعامة وإن كانت تعرف جمل الدين بقدر ما معها من العقول فإنه لم يبلغ

من قوّة عقولها وكثرة خواطرها أن ترتفع إلى معرفة العلماء، ولم تبلغ من ضعف عقولها أن تنحط إلى طبقة المجانين والأطفال .

وأقدار طبائع العوامّ والخواصّ ليست مجهولةً فنحتاج إلى الإخبار عنها بأكثر من التنبيه عليها ، لأنكم تعلمون أنّ طبائع الرُسل فوق طبائع الخلفاء ، وطبائع الخلفاء فوق طبائع الوزراء ، وكذلك النّاس على منازلهم من الفضل ، وطبقاتهم من التركيب في البخل والسّخاء ، والبُلدة والذّكاء ، والغدر والوفاء ، والجبن والنّجدة ، والجسّز [والصبر] والسّطيش والحلم ، والكبر والتّيّه ، والحفظ والنسيان ، والعمي والبيان .

ولو كانت العامّة تعرف من الدّين والدّنيا ما تعرف الخاصّة كانت العامّة خاصّة ، وذهب التفاضل في المعرفة ، والتّباین في البنية . ولو لم يُخالف بين طبائعهم لسقط الامتحان وبطل الاختبار ، ولم يكن في الأرض اختيار . وإنما خولف بينهم في الغريزة ليصبر صابر ، ويشكر شاكر ، وليتفقوا على الطّاعة . ولذلك كان الاختلاف هو سبب الائتلاف .

ويقال لهم عند ذلك : إنكم قد أكثرتم في أمر العوامّ ، وخلطتم في الحكم عليهم ، فمرة تزعمون أنا نكذب عليهم حين نزعهم أنهم غير محجوجين ، لأنهم يزعمكم لا يفصلون بين الأمور ، ولا يفرقون بين الكاذب المحتال وبين الصادق المحقّ . وجعلتم الدليل على ذلك أنكم اعترضتموهم بزعمكم فسألتموهم عن الدليل والحجّة ، والفرق والعلة ، فلم تجدوهم يشعرون بما يلزم فيها ولا يعرفون بابها ، وكيف الكلام فيها . وأنا معشر أصحاب المعرفة قد تعمّدنا الكذب عليهم ، حين زعمنا أنهم يعرفون ذلك ، ويفرقون بين معانيه . ومرة تزعمون أنهم يعرفون ما يعرفه الخواصّ والعلماء ، ويعلمون ما يعلمه المتكلمون والفقهاء ، من إقامة الأئمة وعقد الخلافة . فمرة تخرجونهم من جميع المعرفة ، ومرة تجعلونهم في غاية المعرفة وأعدّل الأمور في ذلك وأقسطها أن تزعموا أنهم يعرفون جمل الشرائع الظاهرة الجليّة ، وجمل السنن الواضحة المستفيضة ، ويجهلون تفسير

جملها وتاويل مُترُها ، وكل منصوص لم يظهر كظهور الحج ، ولم يُشهر كشهرة صوم رمضان ، وغسل الجنابة ، وتحريم الخمر والخنزير والميتة والدم .

ولكن دَعُونَا جَانِبًا ، واضربوا عِمَّا نَقُولُ صَفْحًا ، وقربوا جميع القولين لتعاون عليهما ، فأيهما كان أثبت على الامتحان ، وأنفى للقلبي ، وأحسن مَغزَى ، وأجد على الأيام ، وأصع على التقلب ، دِنًا به ، وحامينا عليه ، وتقربنا به ، وأثرناه على ما سواه .

على أنا لا نستملح حَقُّ ذلك وصدقه إلا منكم ، ولا نحتج عليكم إلا بما تقرُّون به على أنفسكم .

خبرنا عن العوام : هل يخلو أمرهم من أن يكونوا محجوجين أو غير محجوجين ؟ فإن كانوا غير محجوجين فقد دخلوا في أكثر مما عابوا . وإن كانوا محجوجين فهل تخلو الحججة التي بها قطع الرسولُ عُذرهم من ضريين : إما أن تكون المعرفة بصدق الرسول وفضل ما بينه وبين المتنبى كما نقول . وإما أن تكون الحججة في الدليل على المعرفة ، وليست بالمعرفة .

فإن زعموا أن الحججة هي المعرفة فقد وافقوا وأصابوا . وإن زعموا أنها الدليل على المعرفة فليخبرونا عن ذلك الدليل ما هو ؟

فإن قالوا : هو كلام الذئب وحنين العود ، وإظلال الغمامة ، وقصة الميضاة ، وحذ الشجرة ، وكلام اللراع ، وعجز الشعراء عن تأليف القرآن ، والبشارات برسالته في الكتب .

قلنا : قد صدقتم فيما ذكرتم من هذه الآيات والأعاجيب ، ولكن [لا] تخلو عقول العوام من أن تكون قد عرفت هذا كله وأقرت به ، أو لم تعرفه ولم تقر به ، ولم تُودع العلم بصحة مجيئه .

فإن زعموا أنها لم تعرف ذلك ولم تُقرر به ، قيل لهم : فمن أين زعمتم أن الحججة لهم قاطعة ، والفريضة لهم لازمة ، ولم يعرفوا الحق ولا الدليل عليه .

وإذا كانت المعرفة لا تُستطاع إلا بالدليل ، والدليل معدوم ، والتكليف لازم ، فقد كُلفوا ما لا يستطيع ، ولم يَضِح الكلام بيننا وبين الجبرية .

وإن كان الله قد قرّر عقولهم بالآيات ، وعرفهم صدقها وصحة مجيئها ، فإنما الفرق بيننا وبينهم أننا نزعم أن العاقل إذا كان قد جرّب بعض التجربة أنه لا يمتنع من تصديق من أحيا الموت ، وأبرأ الأكمه ، وفلق البحر ، وأنطق السباع . وأنتم تزعمون أنه يمتنع ، ويجوز أن يعتقد أنه أكذب العالمين وأبطل المبطلين ، مع ما أراه من عظيم البرهان وعجيب الآيات . ولعل قوم موسى كلما زادهم موسى آية وأردفها بعلامة ، ازدادوا جهلاً بصدقه ، واستبصاراً في تكذيبه .

وكيف يستطيع ذلك من صحت فطرته ، وقد جرّب من أمور الدنيا بعض التجربة ، وعرف ما يحدث في العادة وغير العادة .

وإن كانت العامة قد قرّرت بأعلام الأنبياء ، وعرفت الآيات كما زعمتم ، فقد كان ينبغي لنا إذا سألناهم عن صدقها وصحة مجيئها وإن لم تفصل بينها وبين حيلة المبطل ، أن يجبرونا عنها وينزلوا لنا أمرها . فما بالنا إذا سألناهم لم نرهم يعرفونها ، ولا يحصلون مجيئها ، ولا يجبرونا عن صدقها .

فإن كان لكم أن تقضوا على العامة بالجهل بين النبي والمنتبي ، لأنهم لم تروهم يحسنون الفروق ، ويفصلون بين الأمور ، فقد ينبغي لنا أيضاً أن نقضي عليهم بالجهل ، وأنهم لم يعرفوا الدلالة ، ولم يقرروا بشيء من الآيات والأعاجيب .

فإذا كان القوم عندكم محجوجين قد قرّروا وعرفوا ، ونحن لا نجد عندهم على المسألة من ذلك شيئاً ، وجاز لكم أن تزعموا ما زعمتم ، فلم لا يجوز لنا أن نزعم أنهم [كانوا] عارفين وإن لم نجد ذلك عندهم على المسألة .

ولولا أني قد ذكرت هذا الباب مفسراً في « كتاب المعرفة » لأخبرت من أي جهة جاز أن يكون بعض المارقين لا يجبر عن كل ما في نفسه ومن أين امتنع ذلك عليه .

[٦٩ - تكليف الخاصة باقامة الامام]

فإن قالوا : قد فهمنا قولكم في العامة فيما تقولون في الخاصة ؟ فهل كلفها الله ذلك أم لم يكلفها كما لم يكلف العامة ؟ وفي ذلك سقوط التكليف عن الجميع .

قلنا : بل نقول : إن على الناس إقامة الإمام ، نريد الخاصة ولا نقول أيضاً إن على الخاصة إقامة الإمام إلا على الإمكان .

فإن قالوا : وما سبب عجز الخاصة وإمكانها ؟ .

قلنا : من ذلك أن تكون العامة عليها مع جند الباغي المتغلب .

فإن قالوا : فهل يلزمها فرض الإقامة إذا كانت العامة كافة عن العون عليها .

قلنا : قد يلزمها في ذلك ولا يلزمها في أخرى .

وإن قالوا : ففي أية الحالين يلزمها ؟

قلنا : إذا كان المستحق للإمامة والمستوجب للخلافة معروف الموضع ، مكشوف الأمر ، وكانت التقيّة عنها زائلة .

فإن قالوا : وكيف لا تكون التقيّة عنها زائلة ، وهي على حال أكثر عدداً من جند المتغلب والباغي ، والعامة كافة ممسكة لها ولا عليها .

قلنا : إنه ليس في حال أكثر عدداً . فإذا كانوا أكثر عدداً وكانت التقيّة زائلة ، فعليهم إقامته .

فإن قالوا : فلم جعلتم لهم التقيّة ، وأسقطتم عنهم الفرض في الحال التي هم فيها أكثر عدداً؟

قلنا : لأسباب ، منها أن العدو إذا كان معدداً ، ذا سلاح وعتاد وكراع ،

وكانوا على هيئة وأمرهم جميع ، فقليلٌ مجتمع أكثر من كثيرٍ نثر . مع أن معهم
أنفذ السلاخين ، وأوفر العتادين : الضرا والدربة ، وحسن التدبير والمعرفة ،
بطول الممارسة وكثرة الحاجة .

ومنها أن الخاصة وإن عرفت موضع المستحق ، وظهر لها المستوجب ،
وكانوا أكثر جاحاً ، فكل واحد منهم على ثقة من محل صاحبه به ويخذلانه له .
ولا بد ، ما دامت التقية ، من التواكل والتخاذل ، وإن اتفق رأي الجميع في
الغيب على النصرة . وليس يُتفَعُ باتفاق أهوائهم ما لم يتشاعروا .

فإن قالوا : إن كان الأمر كما تصفون وجب ألا يقيموا إماماً أبداً ؛ لأنهم
كما لا ينفكون من التقية ، كذلك لا ينفكون من التخاذل .

قلنا : ليس الأمر كما تقولون ، لأن تقية بعض الخاصة لبعض قد تزول
بأسباب كثيرة : منها أن تسوء بيرة المتسلط الباغي فيهم ويفحش جورُهُ ، ويكثر
تعذيله واستثارة وقهره ، حتى يكون ذلك إخراجاً لهم وسبباً للكلام والشكاية
والثلاقي ، لأنهم قد عُمُوا بالإخراج معاً ليكون كل واحد من المخرجين يتكل
على رأي صاحبه ، لعلمه بالذي لقي من المكروه الذي هو فيه ، من ثوران
النفس وتهيج الطبيعة . فلا يزال بهم ذلك حتى يتفقوا في الظاهر كاتفقهم في
الباطن ، إذ كان الإخراج قد شملهم وعمهم ، وبلغ أقصاهم بعد أدناهم .
وعند التلاقي تزداد النفوس حيةً وغضباً وبصيرة . فإذا تبأثوا وتكاشفوا وشاع
ذلك من شأنهم ، وشهر من أمرهم ، علموا أن ذلك قد ظهر لعدوهم ،
والتسلط عليهم . فإذا علموا ذلك علموا أنهم قد لججوا في الحرب ، ونشئوا في
المناصبة . فإذا علموا ذلك لم يجدوا بداً من بذل المال ، وإعطاء الجهد . وإنما هي
أسباب ترامي ، وعلل تداعى ، وأمور تهيج أموراً ، وأسباب توجب أفعالاً ،
فعند ذلك تمكن الشدة ، ويحب الفرض . ومدار الأمر على الإمكان ، فمق بطل
بطل الفرض ، ومق وجد وجد الفرض .

وربما كان سبب تكاشفهم ما يعرفون من ضعف جند الباغي عليهم ،

والمستبد عليهم بأمرهم .

ولضعفهم أسباب : فربما كان لاختلاف يقع بينهم ، وربما كان لعدو يدهمهم وينازعهم ملكهم ، وربما كان للخلل يدخل عليهم ، والبرقة تصيبهم ، من موت أعلامهم . أو قتل قوادهم ، وربما كان لضعف رأي مدبرهم وسياسة سائسهم ، أو موت قيمهم .

فيهذا وأشباهه تتكاشف الناس ، وتظهر على ألسنتهم ضمائرهم ، وتبدو أسرارهم ، ونفوسهم من قبل ذلك جنة عليهم ، متدينة بخلعهم والاستبدل بهم ، وإنما أمسكت عن الإنكار وأظهرت التسليم ريثما تجد فرصة وترى خلة ، ويستجمع الأمر ، وتزول الثقة . مع أنا نعلم أن العامة أسخف أحلاماً وأخف حركة ، وأشد طيشاً ، أن تؤثر الكف والعزلة والتسليم والمجانبة ، عند حرب المحققين والمتسلطين . ولو كانت تطبق ذلك ويجوز عليها ما كانت العامة بعامة ، ولكانت العامة خاصة . ولكننا أجبنا على قدر مجرى المسألة .

وإنما البلية العظمى والذاهية الكبرى ، أن تمتاز العامة حتى يصير بعضها مع الخاصة ، وبعضها مع البغاة والظلمة .
والجملة أنهم متى أقرنوا لعدوهم وأمكنهم منهم ، والرجل المستحق ظاهر لهم معروف عندهم ، فعليهم إقامته والدفع عنه .

[٧٠ - معرفة الامام]

فإن قالوا : ومن لهم بمعرفة الرجل الذي لا بعده ؟

قيل : إنه ليس على الناس أن يصنعوا المعرفة ، وإنما عليهم إذا عرفوه واستطاعوا إقامته أن يقيموه . ولا بد للناس أن يقوم فيهم - إذ فرض ذلك عليهم - رجل يصلح لجباية خراجهم ، وإقامة صلاتهم ، وسد ثغورهم وتنفيذ أحكامهم .

فإن قالوا : فكيف تعرفون فضلَه ولم تقابلوا بينه وبين غيره ، وأهل الفضل
كثير ، والفضل ممنون مستفيض ؟

قيل : كما بان عند المعتزلة عمرو بن عُبيد ، وكما بان الحسن بن حَيٍّ عند
الزُّبَيْدِيَّة من بينها وكما بان مِرْدَاس بن أَدِيَّة عند جميع الخوارج من بينهم ، وكما
علمتم من حالِ غَيْلان بدمشق ، وحال عبد اللّٰه بن المبارك بخراسان . وليس أن
المعتزلة اجتمعت من أقطار الأرض فقالت نعم جميعها ، ولا وضعت فيه سُورِي ،
ولا تساوى منهم نفرٌ فاحتاجوا إلى القرعة . وكذلك الزُّبَيْدِيَّة في الحسن بن حَيٍّ ،
والخوارج في مِرْدَاس بن أَدِيَّة . ولكن الأمور تَرِدُ على القلوب ، وتهجم على
العقول على طول الأيام ، [إمَّا بالخبر] الذي يشفي من الشك ويبرئ السقم .
وإمَّا بالعيان الذي يثلج الصدور ويضطرُّ العقول .

وقد علمنا نحن على حداثة أسناننا وتقدم الناس قبلنا ، أن جالينوس قد
كان بائناً في طبه ، وأن الأرسطاطاليس كان البائن في المنطق .

وكذلك علمنا أن قيس بن زهير كان داهية قيس في الجاهلية ، وأن
الحارث بن ظالم كان فاتكها ، وأن هرم بن سنان كان جوادها ، وأن النابغة كان
شاعرها ، وأن الحارث بن كلدة كان أطبها ، وأن عامر بن الطفيل كان أفرسها .
ولم نضع قط في هذا سُورِي ، ولا وضعه من كان قبلنا ، ولا استجمعت قيس
فقابلت بين خصال هؤلاء وبين جميع قيس ، لتعرف الفضيلة بالموازنة والمقابلة ،
ولا احتاجوا في ذلك إلى الإقراع والمساهمة .

وإذا كنا مع تقدم الأخبار نعرف البائن في كل عصر ، والمقدم في كل
أمر ، فعلى شبيه ما وصفنا يعرف الناس فضيلة المستوجب . والخير لا يستطاع
كتمانهُ ، والشَّرُّ لا بدُّ من ظهوره .

واعلم أنه لا يمكن أن يكون رجلٌ أعلم الناس بالدين والدُّنيا ثم لا يُسمع
به ، لأنه لا بصير كذلك إلا بالاختلاف إلى العلماء ، وبطول مجاثاة الفقهاء ،
وكثرة دَرَسِ كتب الله وكتب الناس ، ومنازعة الخصم ومقاولة الأَكْفَاء . وهذا كله

مما يُظهر أمره ، ويَظهر مكانه .

ثم الذي يدخل العالم من خيلاء العلم وعزُّ الحق ، وسرور الغُفْر بما أعيَا
الناس معرفته ، حتى لا يستطيع أن يكتمه وإن اشتدَّ عزمه ، وقلَّ رجاؤه ونفجُه ؛
لأنَّ للعلم سَورة ، ولانفتاحه بعد استغلاقه فَرحة ، لا يضبسطها بشريُّ وإن
اشتدَّت حُنكته ، وقويت مُنته ، وفضلت قوته .

وإنك لتجد كثيراً من العقلاء يُخاطرون بأعناقهم ، لبعض العظمة يجِدونها
في أنفسهم على خصومهم وأكفائهم ، حتى لا يمتنعون من إظهارها والفخر بها ،
فما ظنُّك بالعالم إذا كان بائناً بنفسه ، وكان في دولته . وتعظيمُ الناس مُوكَّل
بصاحبه كيف يستطيع كتمانَه وإماتته ، مع ما أخذ الله على العالم من حُسن
الإرشاد واحتمال المؤونة ، واستنقاذ الناس من الجهالة . ومن القيام بحق العلم
تعليمُ الجاهل . فهذا كلُّه يغني عن لقاء الكلِّ للكلِّ .

ولو أشكل أمره ولم يَبين من أمثاله ، وهو للناس أصلح من غيره ، فقد
أمكن البأس ؛ إذ لو كان ظاهراً لهم إقامته لنبه الله على مواضع فضله ، ولأذكر
الناس ما سقط عنهم من تدبيره ، وليعتدَّ المهيم على حُبه وطلب محاشنه .

وكيف يجوز أن يكون أكملُ الناس خفيُّ العلم ومغيبُ العمل ، وهو لا
يكون كذلك حتى تكثُر تجربته ويكثر صوابه ، ويشتدَّ جلمه ويحسن تدبيره . ولا
بد من كثرة حَجِّ وغزو ، وصلاةٍ وصومٍ وصدقة ، وذكرٍ وقراءة قرآن ، وأمرٍ
بالمعروف ونهيٍ عن المنكر ، وحَدبٍ على الأولياء وغِلظةٍ على الأعداء . إن دام
فقره دامت قناعته وقلَّ إسفافه ، وإن دام غناهُ دامَ بذله وقلَّ طُغيانه . وليس من
هذا شيءٌ إلا وهو يَظهرُ صاحبه ويُظهر للناس مكانه ، ويدعُو إلى محبته
وتعظيمه .

وإن زعموا أنه يجوز أن يكون خيرَ الناس أو أعلمَ الناس ، وإن لم يُعرَف
بشيءٍ مما ذكرنا ، فقد صار خيرَ الناس من لم يعمل خيراً قط .

فإن قالوا : فما تقولون إن وجدوا عشرة سواء ؟

قلنا : قد يكون أن تجدوا عشرة متقاربين ، فإذا صاروا إلى الموازنة بأن الأفضل من الأنقص . وقليلاً ما يكون ذلك ، كما وجدنا السنة الشورى الذين اختارهم عمر والمهاجرون والأنصار معه ، فقد كانوا في طبقة واحدة . ولكن أهل الطبقة قد يتفاضلون بأمر بين لا خفاء به ، كما نظروا فاختاروا عثمان غير مكرهين ولا محمولين .

ولكن لا يجوز بوجه من الوجوه أن يتفق عشرة سواء في الحقيقة ، وعند الموازنة الصحيحة لأن في اتفاق ذلك بطلان الإمامة . ولو جاز أن يتفق عشرة سواء لجاز أن يكون الرقباء والشهود عليهم سواء . ولو جاز أن تستوي حالاتهم وأفعالهم جاز أن يقولوا لما ينبغي أن يقولوا فيه نعم : « لا » معاً ، ولما ينبغي لهم أن يقولوا فيه لا : « نعم » معاً .

وفي هذا فساد الاختيار والإقراع . فإذا فسد الاختيار والإقراع ولم يكن الرجل بائناً فلا سبيل إلى إقامته . ولم يكن الله ليفرض أمراً ولا يجعل إليه سبيلاً ، ولم يكن الله ليكلف الناس أمراً إلا وذلك الأمر مصلحاً لهم . فكيف يمنعهم مصلحتهم ، بل كيف يظهر لهم فرض الإمامة وقد أمكتهم الشدة ، والمعلوم عنده أن العالم سيتهدم فيه ويتفق ما لا يمكن معه أداء الفرض ، ولا بلوغ المصلحة .

ولو جاز أن يتفق عشرة سواء في الحقيقة وعند الموازنة في جميع الخصال ، ما كان لإحياء الموت وإبراء الأكمه أعجب منه ، ولا أخرج من العادة ، وإنما جعل الله ذلك لرسله فقط .

ولو جاز أن يتفق في العالم شيء يكون جاعلاً من الرسالة جاز ذلك في أمور كثيرة . ولو جاز ذلك اختلط الكاذب بالصادق ، والحجة بالشبهة . وهذا ما لا يجوز على الله تبارك اسمه ، وتعالى جلته .

ولو عَرَفُوا مَوْضِعَ الْإِمَامِ بِعَيْنِهِ ثُمَّ قَالَ الشَّامِيُّ : لَا يَكُونُ إِلَّا مِنَّا ، وَقَالَ
 الْعِرَاقِيُّ : لَا يَكُونُ إِلَّا مِنَّا ، وَقَالَ الْحِجَازِيُّ : لَا يَكُونُ إِلَّا مِنَّا ، وَكَذَلِكَ
 التُّهَامِيُّ وَالْجَزْرِيُّ . وَكَذَلِكَ إِذَا قَالَ الْقُرَشِيُّ : لَا يَكُونُ إِلَّا مِنَّا ، وَقَالَ الْحُسَيْنِيُّ :
 لَا يَكُونُ إِلَّا مِنَّا ؛ وَقَالَ الْحَسَنِيُّ : لَا يَكُونُ إِلَّا مِنَّا ، وَكَذَلِكَ الْفُلَانِيُّ وَالْفُلَانِيَّةُ .
 وَكَذَلِكَ أَنْ لَوْ قَالَ الْإِبَاضِيُّ : لَا يَكُونُ إِلَّا مِنَّا ، وَكَذَلِكَ لَوْ قَالَ الصُّفَرِيُّ
 وَالْأَزْرَقِيُّ وَالنُّجْدِيُّ وَالزُّبَيْدِيُّ ، وَالْفُلَانِيُّ وَالْفُلَانِيَّةُ - لَمَّا وَصَلَ أَهْلَ الْحَقِّ إِلَى إِقَامَتِهِ
 إِلَّا بَانَ يَكُونُوا فِي عَدَدِ الْجَمِيعِ فِي عِتَادِهِمْ .

[٧١ - وجوه ثلاثة لإقامة الامام]

والإمام يقام من ثلاثة أوجه :
 فوجه كالذي حكينا ووصفنا .

ووجه آخر مثل ما أقام المسلمون عثمان بن عفان حين اختار عمر ستة
 متقاربين فاختاروا منهم رجلاً ، فلولا أن الستة كانوا بائنين عند الجميع لم يُطبقوا
 ذلك الإطباق ، لأنه لم يقل واحدٌ كان ينبغي أن يكون منا ، ولم يقل واحدٌ من
 الرُّقباء ولا من الفقهاء والخاصة : فينا واحدٌ كان ينبغي أن يكون معهم ، ولا
 قالوا : فيهم واحدٌ كان ينبغي أن يكون معنا . فهذا دليل أن الستة كما كانوا
 بائنين عند عمر كانوا بائنين عند الخاصة .

ووجه آخر ، وهو مثل إقامة الناس لأبي بكر ، ليس على أن النبي صلى الله
 عليه وسلم جعل شورى كما وضعها عمر ، ولا على جهة ما حكينا من أمر
 الخاصة والعامة بإقامة الإمام والنص عليه ؛ لأن ذلك أسلم وأخف في المؤونة ،
 وأبعد من الغلط والفتنة . وقد وجدتم ما هو أغمض معنى وأدق مسلكاً ،
 وأغوص مُستخرجاً ، وأفحش مائناً ، غير مفسر ولا متصوص عليه ، كالكلام في
 التعديل والتجويز ، وفصل ما بين الطباع والاختيار ، والكلام في التشبيه ونفيه ،
 وفي مجيء الأخبار وحجج العقول .

ونحن لم نَرِ أحداً قطُ الحَدِّ ولا تَزَنَدَقُ مِنْ قِبَلِ الغَلَطِ في كلام الإمامة والاختلاف فيها . وَمَنْ وجدناه قد ارتدُّ زنديقاً أو دَهرياً مِنْ قِبَلِ هذه الأبواب أكثر من أن نُحصيَ لهم عدداً ، أو نَقِفَ منهم على حدِّ .

٤٢٧ [٧٢ - رفض نظرية الشيعة في النص على الامام]

فإذ جاز أن يتركنا وأشدُّ الأمرين لتكون نحن الذين نستنبطه ونتكلف معرفته ، ليكون عاجلُ سروره ورِيثه وأجلُ ثوابه وعظيمُ جزائه ، كان الذي هو أظهرُ للعقول ، وأسهلُ على الطالب ، وألينُ كنفاً للواطئ ، وأقربُ ماخذاً للمسترشيد ، أولى بذلك .

ولا بدُّ لهم من أن يقولوا أحد أمرين : إما أن يقولوا : إننا إذ وجدنا نَصَبَ الإمام والنصُّ عليه أسلمٌ لنا من الخطأ ، فالواجبُ علينا أن نزعِم أن الله قد فعلَ ذلك ، وإن لم نجد خبراً نَضَطَّرُّ إليه ، ولا قرآناً ينصُّ عليه ، والإمامة مختلفة في ذلك ، فلئما أوجبنا ذلك من قِبَلِ حُسْنِ الظَّنِّ بالله . وإن لم يكن في القرآن آيةٌ تدلُّ على أن الله لم ينصب إماماً ، ولا في الخبرين *رسولي*

وإما أن تقولوا إن ذلك قد كان وقع منه ، وإنما عرفناه بالأخبار والآثار والكتاب .

فإن كانوا إنما حكموا على الله بفعل ذلك لأنه أسلم لهم من الخطأ ، وأبعد لهم من الغلط ، إلا أنهم قد وجدوا بذلك خبراً قائماً ، وكتاباً دالاً ، فإن كان ذلك كذلك فلم أوجبوا على الله فعل ما هو أيسرُ وأظهر ، وقد وجدوا الله لم يصنع ذلك فيما هو أغمض وأشكل . كالذي وصفنا قبل هذا من الكلام في التعديل والتجوير ، والتشبيه ، ومجيء الأخبار .

وقد علموا مع ذلك أن أكثر الناس لم يؤثروا في هلكتهم إلا من قِبَلِ سَرَفِ شهواتهم ، وغلبة طبائعهم .

وكيف لم يحكموا على الله بغير ما وجدوا من رفع مؤونتها ، وقمع دواعيها ،
حتى لا يلجج الناس طبائعهم ، ولا تورطهم شهواتهم .

ولمّا يحكم بهذا وأشباهه على الله من لا علم له بالله وتدبيره ؛ لأن الله لو
أسقط عن الناس كل ما أثقل ظهورهم ، واستبشعته نفوسهم ، وخالف أهوائهم
لسقط الامتحان ، وبطل الاختبار ، إذ لم يكن هناك حلاوة تُجتنب ومرارة
تركب ، ولذيذ يؤخر ، وكرهه يقدم .

وإن ذهب السائل إلى غير هذا الوجه ، وزعم أنه إنما قال إن الله قد نص
على إمامة عليّ لأن الخبر به جاء المجيء الذي لا يكذب مثله . ولولا أن الخبر
صحيح جاز عنده أن يكون الله يطوقهم النظر ، ويضع لهم الدلالة ، ولا ينصهم
على شيء ولا يفسره لهم ، كفعله فيما هو أدق وأخفى ، وأعظم إثماً وأشد
خطراً .

قيل لهم : إنكم وإن سمعتم فليستم بأعلمم بالأخبار من غيركم ، ولئن
كنتم مجيبين بخبر قد سمعناه معكم فلم يجئنا كما حجكم ، إنه لعجب . وإن
كان الخبر قد حج جميع من خالفكم مع كثيرهم ، واطبقوا على كتمانهم وجحد
وانفقوا عليه ، إن هذا لأعجب .

وكيف تُحجون بخبر لا تستطيعون أن تقيموا حجته على من خالفكم ، فإن
كنتم إثماً حجكم سلفكم فحجوا أهل عصركم ومن معكم ، كما حجكم من
قبلكم من أسلافكم .

وقد نفضنا القرآن من أوله إلى آخره فلم نجد فيه آية تنص على إمامة ،
ولا أنها إذ لم تنص كانت دالة عند النظر والتفكير ، ولا أنها إذ لم تدل بالنظر
والتفكير وكان ظاهراً لفظها غير ذلك على ما قلتم كان أصحاب التأويل والتفسير
مطبقين على أن الله أراد بها إمامة فلان .

فهذا باب لا تقدرّون من قبله على حجة ، وليس لكم في باب الخبر

والإجماع متعلقٌ ولا سبب ، مع قول الأنصار : مِنَّا أميرٌ ومنكم أمير . وقول المهاجرين : بل مِنَّا الأمراء ومنكم الوزراء .

ثم وجدنا أبا بكرٍ وهو متكلمٌ قريشٍ وصاحبُ أمر المهاجرين ، والمنازعُ عنهم يوم السقيفة ، يقول للناس بعد سُكون الأنصار وارتداعهم : بايعوا أيُّ هذين شئتم - يعني عمر وأبا عبيدة - فلم نجدُه أدعاهما لنفسه ، ولا أبى أن تكون لغيره . ولم يقل إنسانٌ من الأنصار ولا من المهاجرين ، ولا من أفساء الناس : إن النبي صلى الله عليه وسلم قد كان جعلها لفلانٍ وحُضِرَ عليها له . ولا أنهم إذا لم يدعوا النَّصَّ قال قائلٌ إن النبي صلى الله عليه قد كان قال قولاً يومَ كذا وكذا يدلُّ على أنها لفلان ، ولم ينطق بذلك أحدٌ بعد تلك الأيام كما لم ينطق أحدٌ فيها .

ثم وجدنا أبا بكرٍ حين أراد أن يجعلها إلى عمر من بعده كيف يشي إليه رجال المهاجرين وعِليُّةُ السابقين ، ليصرفها إلى من هو ألين جانباً وأخفصُ جناحاً ، وأقلُّ هيبةً ، ويقولون : يا خليفة رسول الله ، إن الحاجة للارمل والأرملة ، والضعيف والضعيفة ، وعمر رجلٌ مهيبٌ في صدور الناس والله ما تريد صرفها عنه ألا يكون سبقٌ إلى كل يومٍ خير ! قال أبو بكر : أبرسي تهْدُوني ، أما إذا لقيته فقال لي : من استخلفتَ على عبادي ؟ قلت : استخلفتُ عليهم خيرَ أهلِكَ عندي .

فلم يجر بينهم مما يقولون حرفٌ واحد .

ثم إن عمر بعد ذلك جعلها سُورَى بين ستةٍ وجعل إليهم الخيار ، وسلم بذلك جميعُ المسلمين ، فيهم الزُهري والتيمي والهاشمي والأموي والأسدي ، على أنها إن وقعت للأسدي لم يكن منكراً عند الجميع ، وكذلك الزُهري والأموي .

وأعجبٌ مِن هذا أجمعٌ وأدلُّ على الاختلاف ، وأبعد من النَّصِّ والإجماع ، قولُ عمر في شكاته وهو مُوفٍ على قبره وعنده المهاجرون الأوَّلون : « لو أدركت سالماً مولى أبي حذيفة ما تخالجتني فيه الشكُّ » حين ذكر دُعاية علي ، ويخل الزبير ،

وبأوطلحة ، وحب عثمان لرهطه .

ثم الذي كان من مُنازعة سعد بن أبي وقاص لعليّ ، وتركه بيعته ودعائه له إلى وضع الشورى ، والتخاير بالأعمال والجزء ، فلم تجردوا أحداً من الناس يقول من وراء سعد أو في وجهه : ولم تخايرك وقد اختاره الرسولُ دونك .

وقد كان ينبغي لأصحاب عليّ ومن معه من المهاجرين والبدرين وسائر الصحابة والتابعين ، ألاّ يمسكوا عن ذكر هذه الحجّة وإن أمسك عنها الناس وأضاعوها ، وعاندوا أو غلطوا فيها . ولم نعلم هذا وأشباهه إلاّ دليلاً قاطعاً لمن لم يمنع قلبه معرفة الحقّ ولسانه الإقرار به ، في عارية طلحة والزبير وعائشة وعليّ ، وما أراقوا من الدماء . ولم يقل واحدٌ من الناس : ولم تقاتلون رجلاً أو تطلبون مخايرته وقد نصبه النبي صلى الله عليه وفسر أمره ، وبين شأنه . [وهذا] دليل على ما قلنا ، وبرهان لما ادّعينا .

ولقد قال رجلٌ لعمر بن عليّ : خبرني عن وصية رسول الله صلى الله عليه إلى أبيك . قال : والله إن هذا الكلام ما سمعتُ به قطُّ إلاّ الساعة .

وقد تعلمون أن الأمة كلّها مع اختلاف أهوائها ونحلها ، لا تعرف مما تدعون من أمر النصح والوصية قليلاً ولا كثيراً ، وإنما هذه دعوى مقصورة فيكم ، لا يعرفها سواكم . وإن أشدّ الناس عليكم في الوصية والنصح للزيدية مع تشيئها وإفراطها وشدة إقدامها على عثمان ، وسوء قولها وشدة عداوتها للزبير وطلحة .

فلو كان النبي صلى الله عليه وسلم نصّب للناس وبين أمره واحتج له ، لم يكن هناك اختلاف ولا ارتياب ، ولا تحير ، ولا احتجّ بذلك المحجوجون على شاذٍ إن شذّ ومُفارق . [وفي] هذا وأقلّ منه ما يردع ذا اللبّ ، ويكفّ ذا الحجّا .

وزعمت الرافضة أن النبي صلى الله عليه أوصى إلى رجلٍ بعينه ، وأمر أمته بالوصية في تركاتهم ، لأن ذلك أجمع للشمل ، وأدعى إلى الألفة ، وأمنع

للفساد ، وأقطع للشغب ، وأذهب للضغائن ، وأبعد من الغلط . إلا أن الله قد كان يعلم أن النبي صلى الله عليه وآله منى أوصى إلى ذلك المستحق تكفراً أمة محمد صلى الله عليه وآله إلا ثلاثة أنفس ، وأن الوصي سيضعف عن القيام بالحق وسيترك مع العلم به [إظهاره بلسانه ، وأنه لا يرضى بالكف عن شتم الكافرين حتى يزكيهم على منبره . فسبحان الله ما أعجب هذا القول !

وإن تركوا الكتاب وأضربوا عن الإجماع واحتجوا بالرواية ، فما أحد أجهد لها ولا أرد لمعرفتها منهم . مع أن رواية غيرهم أكثر ، وعلى السنة أصحاب الحديث أظهر .

ولو كانت روايتهم ورواية خصومهم سواء ما كان تأويلهم باقطع لتأويل خصومهم من تأويل خصومهم لتأويلهم . مع أن الحديث إن كان يشمل ضروب التأويل فغلط في حق ذلك من باطله رجل فليس بكافر ولا مكابر ، لأن ذلك الحديث لو كان صحيحاً لم يكن بآيين من القرآن ولا أوضح .

وقد يختلف الناس في تأويله ولا يكفرون ولا يكابرون ، فكيف يكفرون من غلط في تأويل حديث لو كان رده لم يكن عاصياً .

وإن كانت إمامة علي لا تثبت عندهم إلا من قبل الرواية فقد أفلح خصم الرافضة ، واستراخ من كذ المنازعة .

وقد زعم ناس من (العثمانية) أن الله قد اختار للناس إماماً ، ونصب لهم قياً ، على معنى الدلالة والإيضاح عنه بالعلامة ، لا على النص والتسمية ، لأن الله إذا قال : ﴿ وَأَشْهَدُوا قَوْلِي هَذَا مِنْكُمْ ﴾ . وقد عرفنا صفة العدالة . فمضى رأيناها في إنسان علمنا أنه الذي كان عنى الله بالأية وإن لم يسمه فيها . وكذلك قول الرسول : ﴿ لِيُؤْمِكُمْ بِخِيَارِكُمْ ﴾ فقد عرفنا الله الخيار من الشرار ، والفضل من النقص ، فمضى وجدنا الفضيلة في رجل فهو الذي عناه النبي صلى الله عليه وآله وإن لم يذكره باسمه .

ولا يهمل الناس ويتركهم سُدى من وضع لهم الأدلة ، ونبيهم على موضع
البرهان ، وعرفهم أبواب الصلاة .

ولو قلنا إن النبي صلى الله عليه قد اختار للناس إماماً على معنى أنه إذ أمر
أبا بكر بأن يتقدم المسلمين في مُصلّاه ومقامه ومنبره فقد استخلفه ، جاز ذلك في
الكلام . وباب الجواب في هذه المسائل كثير . لأنه لا يجوز أن يكونوا لم يعلموا
ذلك وقد علموا ما هو أخفى وأدق وأيسر خطباً وأقل نفعاً ، وهم القوم الذين لا
يؤتون من نصيحة وحسن معرفة . وكيف يؤتون منها وبهم عرفنا النصيحة
والمعرفة .

فإن قالوا : فإنما كان خيراً للناس أن يختاروا لأنفسهم أو يختار النبي لهم .

قلنا : لو كان النبي قد اختاره لهم لقد كان ذلك خيراً لهم من اختيارهم لأنفسهم .
فإذ لم يختره لهم فترك اختياره خيراً لهم ، لأنه إذا كان أن لو كان اختاره لهم ، فقد دل
تركة الاختيار أن تركه الاختيار لهم خيراً لهم ، إذ كان قد كان اختار الترك دون
الاختيار ، وترك الاختيار ربما كان اختياراً . وهو في هذه المواضع اختيار ، لأن
النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن ليختار لهم ترك النص والتسمية إلا وترك
النص والتسمية خيراً من النص والتسمية .

وإنما هذا مثل قائل لو قال لنا : أرأيتم التأويل الذي قد ضل من أجله
عالم ، والتشبيه ، والوعد والوعيد ، والقدر ، والأسماء ، والأحكام التي قد كفر
من أجلها بشر ، وبسببها تناخر الناس . وإنما كان خيراً لهم أن يعرفوه بأسره ،
وينصوا على حقيقته ، ويكفوا المؤونة فيه ، حتى كان لا يقع خلاف ، ولا يوجد
خطأ ، ولا يثيب فساد ، ولا يتفانى الناس أو يتسركوا ونظرهم ، ويخلوا
واختيارهم .

قلنا : الخيرة فيها صنع الله ، فلو كان الله بين ذلك بالنص والتفسير دون
الدلالة ووضع العلامة ، كان ذلك خيراً ، لأننا نعلم أن الله لا يصنع إلا ما هو

فلو لم يفعل ذلك ولم ينص عليه فتركه الأمر على ما نحن عليه خير لنا
وأفضل . فكيف أوجبتم على الله وحكمتم عليه .



[٧٣ - مخاتمة]

هذا جمل جوابات العثمانية بجمل مسائل الرافضة والزيدية . ولولا أن فيما
قدّمنا غنى عما أخرنا لقد فسّرنا كما أجملنا . وإنما ملاك وضع الكتاب إحكام
أصله ، والأ يشدّ عنه شيء من أركانه . فأما استقصاؤه حتى لا يجري بين
الخصمين منه إلا شيء قد وضع بعينه ، فهذا ما لا يمكن الواضع ولا يجتمل
الكتاب . ولو أمكن الواضع واحتمله الكتاب لكان طوله قاطعاً لنشاط القارئ ،
ومجلبةً لنعاس المستمع ، إلا لمن صحت إرادته ، وافرطت شهوته وقويّ طبعه ،
وحسن احتسابه .

وقد أعيتنا هذه الصفة في المعلمين ، فكيف [في] المتعلمين .

وعلى أن للنحل صوراً كصور الناس ، فكما أن بعض الصور أشدّ مشاكلة
لطبعك ، وآتق في عينك ، وأخفّ على نفسك ، فكذلك النحل في مقابلة
الاهواء ، ومشاكلة الشهوات ، والخفة على النفوس .

فاحذر حوادث الشهوات ، واتصال المشاكلة ؛ فإنه أخفى من الدقيق ،
وأدق من الخفي :

هذا إذا كان المعنى مجرداً والمذهب عارياً ، فكيف إذا مؤهه صاحبه ،
وزخرفة واضعه ، بأعذب الألفاظ وأشهاها ، وأحسن المخارج وأعفاها فشفى كل
واحد منهما صاحبه ، وحبّبه إلى سامعه . فإن وافق ذلك منه تعظيم لسلفه ،
وهوى في قائله ، فقد أسمحت نفسه بالتقليد ، واستسلمت للاعتقاد .

فاحذر في هذه الصفة ، ولا تستخفن بهذه الوصية .
واعلم أن واضع الكتاب لا يكون بين الخصوم عدلاً ، ولا هل النظر مألفاً حتى
يبلغ من شدة الاستقصاء لخصمه مثل الذي يبلغ لنفسه ، حتى لو لم يقرأ القارئ
من كتابه إلا مقالة خصمه لخيّل له أنه الذي اجتباها لنفسه ، واختاره لدينه .
ولولا اتكالي على انقطاع الباطل عن مدى الحق وإن استقصيته وبلغت
غايته ، ما استجزت حكايته ، وقمت مقام صاحبه .
ونحن مهتدون في كتاب المسائل وبالله ذي المن والسطول نستعين ، وعليه
نتوكل .
هذه جمل أقوال العثمانية ، والحمد لله كثيراً دائماً ، وصل الله على سيدنا
محمد نبيه ، وآله الطاهرين وصحبه ، وسلم تسليماً .



مركز بحوث كبيوتر علوم إيس دي

هامش رسالة العثمانية

- (١) المقدمة مجتزأة ومرتملة لا تتجاوز سطراً ونيقاً ، وربما لم تكن من وضع الجاحظ .
- (٢) يضع الجاحظ شرطين لصحة الخبر او الشعر هما امتناع التباعد او الاختلاف في الرواية ، وامتناع التواطؤ والاتفاق بين المخبرين . قارن هذا الرأي برأيه في صحة الاخبار الوارد في كتاب حجج النبوة حيث يستبعد تواطؤ كثرة الناس المختلفي الديار على الكذب .
- المجادل تعني المناظر او الخصم .
- القضية تعني المسألة او الرأي المدافع عنه ولا تعني الحكم المنطقي .
- (٣) القياس ان يؤخذ باوسط الروايتين . يطبق الجاحظ اصل المعتزلة المنزلة بين المنزلتين اي التوسط وعدم التطرف .
- لاحظ الدقة في استعمال التاريخ .
- لاحظ الدقة في استعمال التاريخ .
- (٤) « نتكلم على ظاهر الاحكام وما شاهدنا عليه طباع الاطفال » يصدر الجاحظ عن المبدأ الطبيعي في فلسفته . فهو يحكم الطبيعة في كل شيء .
- (٥) في تمييز علي الحدث آية على مبايئته الناس وخروجه على طبيعة الاشياء .
- (٦) الاعجوبة لا يبتدعها الله ويخرق بها العادة والطبيعة الا للتعريف والاعذار كما فعل عندما انطلق عيسى في المهدي ، وعندما اتى زكريا بالحكم وهو صبي . لاحظ تقيده الاعجوبة او تضييق نطاقها وقارن ما قاله الغزالي بصدد الاعجوبة .
- (٧) يستعمل الجاحظ الشيع بدل الشيعة للاشارة الى كثرة فرقهم ، كما يستعمل احياناً لفظة العلوية بمعنى الشيع .
- (٨) اذا كان اسلام زيد وخباب افضل من اسلام علي لان له ظهراً وهما تابعان لا ظهر لهما ، واذا كان اسلام ابي بكر افضل من اسلامها ، فان اسلام ابي بكر افضل من اسلام علي . هذا القياس الشرطي المتصل مفلوط .
- (٩) لاحظ المقارنة الدقيقة بين ابي بكر وعلي .

- (١٠) لاحظ استعمانة الجاحظ بالمؤرخ محمد بن اسحق (١٥١ هـ) والمؤرخ محمد بن عمر الواقدي معاصر الجاحظ (٢٠٧ هـ) .
- قوله : « لأن العقل وان اشتد مغرزه وثبتت أواخيه وجاد نحته فانه لا يبلغ بنفسه درك الغاية دون كثرة السماع والتجربة » . دليل على اعتقاده بضرورة التجارب في المعرفة وعدم الاكتفاء بالعقل .
- (١١) « اسلم على يد ابي بكر خمسة من الشورى » يعني بهم عثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن ابي وقاص . وهم الذين عينهم عمر بن الخطاب بالإضافة الى علي بن ابي طالب ليختاروا من بينهم الخليفة بعده .
- (١٢) لاحظ التناقض بين ما يزعمه العثمانية من بذل ابي بكر في سبيل الاسلام وما يزعمه الاسكافي من أنه باع من النبي بعيرين وقبض منه ثمنها .
- (١٣) لاحظ خلاف المؤرخين حول المدة التي قضاها النبي في مكة من مبعثه الى هجرته : ١٥ سنة او ١٣ سنة ، او ١٠ سنين .
- (١٤) المقارنة بين نوم علي في فراش النبي ، ومرافقة ابي بكر للنبي عندما هاجر من مكة الى المدينة ، من حيث التضحية في سبيل الاسلام .
- (١٥) ليست الفروسية مقياساً للفضل في الدين . هذا ما تدعيه العثمانية وترفضه الشيعة رفضاً تاماً .
- حروب الفجار ، وحلف الفضول الوارد ذكرهما هنا لمحدث الجاحظ عنها وفسرهما في رسالة فضل هاشم على عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .
- (١٦) الفقه هو العلم بالدين والتأويل والحرام والحلال والفتيا الخ . . واحق الناس بالامامة افقهم بالدين . وعلم الدين اصعب من العلم بامور الدنيا .
- (١٧) صلح الحديبية اتفاق بين النبي وقريش على السماح للمسلمين بدخول مكة .
- (١٨) لاحظ ما جرى لدى موت النبي . والموقف الذي اتخذته عمر وعثمان بعدم تصديق موت النبي . وموقف ابي بكر الحكيم الرصين .
- (١٩) ابوبكر لم يقبل بالغاء الزكاة ، وفي ذلك دليل على بعد نظره وحسن تدبيره .
- يميز الجاحظ بين الشيعة وفرقة الرافضة منهم التي تمجد الاخبار المستقيضة ذات الاسانيد المختلفة ، وتقبل بالشاذ منها .
- (٢٠) يلقي الجاحظ الضوء على تاريخ تجهيز جيش اسامة لغزو بلاد الروم ، انه حصل قبل موت النبي وانفذ بعد موته .
- (٢١) لاحظ كثرة الخلافات بين المسلمين عند موت النبي ، حتى مكان القبر اختلفوا فيه فحسم الأمر ابوبكر بحديث يقول ان النبي يدفن حيث يقبض .

(٢٢) علي يبجل ابا بكر ويقول فيه أقوالاً جميلة ولكن الشيعة تعمل ذلك بانتيمه ،
وارضاء العامة الخ . . وهذا يدعو الى العجب .

(٢٣) صدق الظن فضيلة عند ابي بكر ومثل ابته عائشة دليل عليه .

(٢٤) لأن علياً امتاز بالفقه لذا تقلل العثمانية من شأن الفقه ، لأن الفقيه يحطىء
ويصيب .

عرف بالفقه عدا عليا ، عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود وابي
إبراهيم كعب ، ومعاذ بن جبل .

(٢٥) يحدد الجاحظ هنا موضوعات الفقه وهي : حفظ القرآن ، والقراءة ، والتأويل ،
ورواية الحديث .

- العثمانية ترد مقرونة بالعمرية : « اذا كنا عثمانية وحميرية » .

(٢٦) تصور علي في السياسة - وهي تعني الاختيار وجودة الرأي والقوة في السلطان ،
والضبط للمدو والعوام - عن ابي بكر وعمر .

(٢٧) ما هو مقياس الزهد ؟ الزهد برأي العثمانية هو انفاق المال بحيث لا يبقى منه
شيء . وهذا ينطبق على ابي بكر وليس على علي الذي مات عن ثروة .

(٢٨) عيب علي بكثرة النساء اللاتي تزوجهن وطلقهن .

(٢٩) وعيب بانه أخذ عمالته من بيت المال على عكس ابي بكر .

(٣٠) الدليل على فضل ابي بكر كثرة الآيات التي نزلت فيه .

(٣١) آية الغار ﴿ الا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين ا . هما في
الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا فانزل الله سكينته عليه وايده بجنود لم
تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز
حكيم ﴾ (التوبة ، ٤) .

(٣٢) آية الصفاة عن مسطح بشأن قرف عائشة : ﴿ ولا يأتل أولوا الفضل منكم
والسعة ان يؤتوا اولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليصفوا وليصفحوا
الا تحبون ان يفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾ (النور ، ٢٢) .

(٣٣) آية الوالدين : ﴿ والذي قال لوالديه أف لكما اتعداني ان أخرج وقد خلت
الفرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن ان وعد الله حق فيقول ما هذا الا
اساطير الاولين ﴾ (الاحقاف ، ١٧) .

والآية : ﴿ افمن يمشي مكباً على وجهه اهتدى ام من يمشي سوياً على صراط
مستقيم ﴾ نزلت في ابي بكر وابي جهل .

والآية ﴿ فاما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى ﴾ .

(٣٤) الآيات التي تقول الشيعة انها نزلت في علي كثيرة منها الآية : ﴿ اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم ﴾ (النساء ، ٥٩) .

(٣٥) والآية : ﴿ يا ايها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ﴾ (البقرة ٢٠٨) .
(٣٦) والآية :

﴿ انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلوة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾ .

(٣٧) والآية ﴿ قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾ . (الرعد ، ٤٣) .

(٣٨) أسياء أبي بكر : الصديق ، وخليفة رسول الله . . .
- يقرن العثمانية بالحشوية .

- الروافض تخرج بشعر رشيد المغربي (قتله زياد ابن ابيه) ، والسيد الحميري ، ومنصور التمري . ولا تخرج شعر حسان بن ثابت والعجاج والحارث بن هشام واشباههم .

(٣٩) الامام هو الأمير والرئيس « وكان ابو بكر الامام وعلي المأموم » .

(٤٠) الامام استعملت هنا بمعنى من يتقدم الناس في الصلاة . . . حيث امره ان يؤم الناس ويقوم مقامه في صلاته وعلي منبره .

(٤١) الاحاديث التي يروها الشيعة في تفضيل علي اهمها حديث غدير خم : « من كنت مولاه فعلي مولاه . اللهم عاد من عاداه ووال من والاه » وحديث هارون : « انت مني بمنزلة هارون من موسى ، الا انه لا نبي بعدي » .

وحديث الطير : « اللهم آتني باحب الناس اليك يأكل معي من هذا الطير » .

(٤٢) الاحاديث التي يستند اليها العثمانية في تفضيل ابي بكر اهمها - حديث الخليل : « ليس أحد امن علينا بصحبته وذات يده من ابي بكر ، ولو كنت متخذاً من هذه الأمة خليلاً لا اتخذت ابا بكر خليلاً ، لكن وداً وأخاً ايمان » .

- وحديث الاقتداء : « اقتدوا باللذين من بعدي ، ابي بكر وعمر » .

- وحديث كهول الجنة : « هذان سيدا كهول أهل الجنة من الاولين والآخرين ، الا الانبياء والمرسلين ، يا علي لا تخبرهما » . يعني ابا بكر وعمر .

- وحديث الحجارة : « هم امراء الخلافة من بعدي » يعني بهم ابا بكر وعمر وعثمان وقد وضع كل منهم حجراً في اساس مسجد المدينة متابعين النبي في ذلك .

- وحديث جبريل : « مثل ابي بكر في الملائكة مثل ميكائيل ينزل بالرحمة ، ومثله في

الانبياء مثل ابراهيم ، ومثل عمر في الملايكة مثل جبريل ينزل بالسخط وفي الانبياء مثل موسى . . . » .

- وحديث الصدق « ايها الناس ان الله بعثني اليكم جميعاً فقلتم : كذبت ، وقال صاحبي : صدقت ، فهل انتم تاركي وصاحبي ؟ » .

- وحديث اللعنة « ما دعوت احداً الى الاسلام الا وقد كان له تردد وكبوة ، الا ما كان من ابي بكر ، فانه لا يتلعم » .

- وحديث الاسامة « ان ابا بكر لم يسؤني قط ، فاعرفوا ذلك له » .

(٤٣) موقف الجاحظ من هذه الاحاديث : انه يشك فيها لانها متناقضة . وثمة احاديث

يستشهد بها الجاحظ للدلالة على نعلها مثل « ابو سفيان خير اهلي » . ومثل « خير اهل الله عمر بن الخطاب » .

- انقسم الناس في عصره قسمين : عمري وعلوي . العمري يقدم ابا بكر والعلوي يقدم علياً .

- فالله اعلم بمعاني هذه الاحاديث ، فلعل النبي صلى الله عليه قال في كل رجل قولاً عدلاً ، وكان ذلك قولاً معروفاً مفهوماً عند الحاضر ، ولكنه أدى اللفظ وترك المعنى .

ويقترح الجاحظ . حلاً لهذه المشكلة وهو عدم قبول الخبر الذي لا يجيء بجيء الحجية « وانما الخبر الصحيح الذي لا يعتمد بضعف الاسناد ولا يترك لضعف الاصل ، ولا يوقف فيه لكثرة المعارض والمناوي » . . . » .

(٤٤) نقد الحديث : من كنت مولا فعلي مولا . من حيث الاسناد والنص والمعنى .

- الروايف يقولون ان النبي نص على امامة علي : « ثم لا بد للناس في كل عصر من امام من ولده نص عليه من سلفه لان الناس لا يتقون على اختيار الاسام الصالح » لكثرة عددهم ، ولكثرة عدد الفضل ولما في ذلك من الاشكال عند الموازنة والشغل عن العلوي .

(٤٥) نقد حديث « انت مني كهارون من موسى » . من الناحية التاريخية : موت هارون قبل موسى ، ومن الناحية المعنوية .

(٤٦) تأويل حديث امرة ابي بكر في الصلاة . « مروا ابا بكر يصلي بالناس » . وانظر ما قاله النبي وهو يلفظ انفاسه الاخيرة بشأن ملاك الموت .

- « ان رحمة ابي بكر هم رحمة عمر » .

- الاستخراج لا يكون الا من عيان او خبر . فإرن هذا بما جاء في مقدمة « حجج النبوة » .

- (٤٧) الاجماع على البيعة ، هل تحقق لابي بكر ؟ وهذا الاجماع لم يتحقق لعلي ايضاً .
 - اصحاب الشورى كسعد بن ابي وقاص وطلحة والزبير يطالبون علياً بالعمل بها
 بعد مقتل عثمان ومطالبة علي اياهم بمبايعته .
- (٤٨) تأويل قول ابي بكر : منا امير ومنكم امير . القول ضد الشيعة .
- (٤٩) تأويل قول سلمان « كرادذ ونكرادذ » صنعتهم وما صنعتهم . هل كان العرب يعرفون الفارسية ؟
- (٥٠) موقف بلال من ابي بكر وعمر ، لقد كان مقرباً منها وقد تولى لها دمشق .
- (٥١) موقف المقداد من ابي بكر لا يستند الى اي قول نطق به ، ثم قصة المقداد وعلي بشأن ضباعة بنت الزبير التي خطبها المقداد وارادها علي لنفسه . وموقف النبي المؤيد للمقداد .
- (٥٢) موقف عمار بن ياسر من ابي بكر ربما كان انسحاباً لموقفه من عثمان الذي اذاه .
 وقد خطب عمار على منبر الكوفة تأييداً لعمر .
- (٥٣) موقف ابي ذر من عمر . العثمانية تقول ان ابا ذر كان يحب عمر والشيعة تقول انه كان يحب علياً ويكره عمر .
- (٥٤) معنى كلام سلمان « انكم قد اقمتم مجزياً وتركتم من هو اجزاء منه » لا ينطبق في نظر العثمانية على ابي بكر لأنه لم يترك خلاً لم يسده
- « وسنخبر عن مقالة العباسية ووجوه احتجاجهم بعد فراغنا من مقالة العثمانية ،
 بغاية ما يمكن من الاستقصاء ، وانصاف البعض من بعض ، لتكون انت المختار
 لنفسك بعقلك . . . »
- يستنتج من هذا القول ان الجاحظ وضع رسالة العباسية بعد رسالة العثمانية ، وانه انصافاً لهم يستقصي اقوالهم جميعاً ، وعلى القارىء الحكم . وبذلك يعلن حياده من جميع هذه الفرق والاحزاب .
- (٥٥) موقف خالد بن الوليد من بيعة ابي بكر : بايع بعد تردد . لاحظ اثر ذلك على مستقبل خالد في قيادة الجيوش وعزله .
- (٥٦) الاجماع على الخليفة مستحيل وقد علل الجاحظ ذلك بقوله : « وكيف يتفق اطباقتهم على سكون واحد والناس من بين حاسد وراض ، وعصي وتقي ، وحليم وسخيف ، وغالط ومصيب ، وعاقل واهق ؟ »
- (٥٧) تأويل قول ابي بكر « كانت بيعتي فلتنة » لان اجماع الناس عليه شاذ بسبب اختلافاتهم وتباين آرائهم واهوائهم .
- (٥٨) الرئاسة تستند الى الدين لا القرابة . وهذا يردون نظرية العباسية المستندة الى

القرابة ونظرية الشيعة المستندة الى النص والقرابة .

(٥٩) دعوة العثمانية الى المساواة بين الناس يخالف الحديث الذي استندوا اليه و الائمة من قریش . وهم يفهمون بها ان القرابة لا تغني المرء نفعاً تجاه الله . وان ليس للانسان الا ما سعى ويستشهدون بالآية ﴿ ما ايها الناس اتقوا ربكم واحشوا يوماً لا يجزي والد من ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ﴾ .

(٦٠) موقف عمر من العرب والمعجم يستحق الوقوف عنده . فالشيعة يتهمونه انه فضل العرب على المعجم . والعثمانية نجد لموقفه مبررات عدة .

وانظر قول الجاحظ « والمعجمي ليس بنبي بصيرة في الاسلام . . . وهو اجدر الا يفهم تنزيلاً ولا تأويلًا » .

(٦١) اتهام عمر من قبل الشيعة بانه صاحب حية لقرابته وللعرب . يجابه من قبل العثمانية بقولهم ان مذهب الشيعة قائم على التعصب للقرابة .

- لاحظ دور الشعوبية في الصراع بين ابي بكر وعمر وعلي « والذين نحلوا عمر العصية رجلاً : رافضي أحب ان يمقته الى المعجم والموالي ، ومنعرب عرف ان عمر عند الناس قدوة فنحله ذلك ليكون له حجة ، فأعرف ذلك » .

(٦٢) قصة الزبير الذي سل سيفه عند مبايعة ابي بكر وتأويلها .

(٦٣) تأويل قول ابي بكر « وليتكم ولست بخيركم » . بمعنى انه يضم نفسه تواضعاً . هكذا فسره الحسن البصري .

(٦٤) تأويل قول ابي بكر « بايعوا اي هذين شتم » ، يعني عمر و ابا عبيدة ، بانه كان زاهداً في الخلافة . وهذا ما يفهم من الخطبة التي القاها بعد توليته .

(٦٥) أقوال علي في عمر كما يسوقها العثمانية .

(٦٦) خلاصة آراء الشيعة والعثمانية : موجز لما ورد في الكتاب .

(٦٧) جدل الشيعة والعثمانية حول اسلام ابي بكر : تكرار لما سبق .

(٦٨) ضرورة اقامة الامامة بشكل القسم الأخير من الكتاب . وفي هذا القسم يثلي الجاحظ برأيه الخاص في موضوع الامامة بعدما انتهى من عرض اقوال العثمانية والشيعة .

وهو يرى ان العامة لا تصلح لجهلها لاقامة الامام . وعلى العامة ان تطيع الخاصة وتأتمر باوامرها ، والعامة من الخاصة بمثابة الجوارح من النفس . ودور العامة هو الدفاع عن الخاصة كالسلاح بالنسبة للفارس والفأس بالنسبة للنجار .

- ان العامة يعرفون التنزيل المجرد بغير تأويله ، وجملة الشريعة بغير تفسيرها ، وما انجل من الخبر واستفاض . ويجهلون التأويل والتفسير وضامض السنن التي تحملها

الخصائص . كما يجهلون الكلام في القدر والتشبيه والوعد والوعيد والاستطاعة والتكليف .

- ان طبائع العامة دون طبائع الخاصة وفوق طبائع المجانين والاطفال . والناس مسخرون لطبائعهم ولم منازل من الفضل حسب تلك الطبائع من بخل وسخاء ، وبلاغة وذكاء ، وطيش وحلم الخ . . ان الجاحظ يرجع كل شيء الى الطبائع وفق فلسفته الطبيعية .

- وقد عالج هذه المسألة أي معرفة الاشياء في كتاب المعرفة مما يدل على انه وضعه قبل رسالة العثمانية .

(٦٩) ان الخاصة مكلفة باقامة الامام اذا امكثها ذلك ولم تحمل الموانع دونها .

(٧٠) كيف يعرف الامام ؟ كما عرف عمرو بن عبيد والحسن بن صالح بن حي الهمداني عند الزيدية (١٦٩ هـ) ومرداس بن ادية عند الخوارج . يعني ان الامام هو من يشتهر بعلمه وكماله وفضله .

(٧١) وجوه ثلاثة لاقامة الامام : الوجه الذي تبناه اعلاه ، والوجه الذي تمت به بيعة ابي بكر ، والوجه الذي تمت به بيعة عثمان من قبل اصحاب الشورى الستة .

(٧٢) يرفض الجاحظ نظرية الشيعة في الامة القائمة على النص والقراية .

(٧٣) في الخاتمة يشير الجاحظ الى انه لم يستوف جميع اقوال العثمانية والرافضة - واكتفى بالاصول والاركان - لكي لا يطول الكتاب فيمله القارئ . ويشبه النحل بصور الناس ، فكما ان بعض الصور أشد مشاكلة لطبيعتك وأنف في عينك واخف على نفسك ، فكذلك النحل في مقابلة الاهواء ومشاكلة الشهوات والخفة على النفوس .

هذا تشبيه جميل يشير الى رأي الجاحظ في موقف الناس من الفرق والاحزاب . ان موقف الناس تحدده طبائعهم التي فطروا عليها - وفي ذلك عودة الى مبادئ فلسفته الطبيعية ، ولا تحدده عقولهم .

ومن ثم يحذر الجاحظ من الاهواء ، ويدعو الى اعمال العقل في تفحص الصحيح وكشف المزيف لأن المذاهب يغلب عليها التموه والزخرفة فتخدع وتغوي .

ويعلن أنه استقصى لخصمه بدافع العدالة . وهذا الاستقصاء هو الذي دفع البعض الى الاعتقاد بان ما ورد في كتابه هو الذي اجتبه لنفسه واختاره لدينه . وهذا اعتقاد خاطيء .

رسالة في الحكمين ونصويب أمير المؤمنين
علي بن أبي طالب في فعله



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

[١ - موضوع الرسالة]

وَفَقَّكَ اللهُ لِلسَّلَامَةِ وَالغَنِيمَةِ ، وَأَعَزَّكَ بِالْحَقِّ ، وَخَتَمَ لَكَ بِالسَّعَادَةِ ، وَجَعَلَ لَكَ مِنْ عَليكَ وَاعِظًا وَرَقِيبًا [و] مِنْ نَفْسِكَ سَامِعًا وَمُطِيعًا ؛ وَجَعَلَ لَكَ مَعَ حَزْمِكَ نَصِييًّا مِنَ التَّوَكُّلِ ، وَمَعَ تَوَكُّلِكَ حِظًّا مِنَ التَّحَدُّرِ ، حَتَّى تَقْبَلَ إِذْنَهُ فِي الْحَدَّرِ وَتَطِيعَ أَمْرَهُ فِي التَّوَكُّلِ ؛ قَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ » ، فَجَمَعَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ وَسَوَّى بَيْنَ الْوَصِيَّتَيْنِ ، وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَبْلِ اللهُ مِنْ نَفْسِكَ حُدْرًا ، فَإِذَا أَعْجَزَكَ أَمْرٌ فَقُلْ : اللهُ حَسْبِي » ، قَالَ أَبُو عَيْبَةَ ابْنُ الْجَرَّاحِ لِعَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ حِينَ خَافَ طَوَاعِينَ الشَّامِ فَانكفأ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ : « أَتَفَرَّ مِنْ قَدْرِ اللهِ ؟ » - قَالَ : « نَعَمْ ، إِلَى قَدْرِ اللهِ ! » وَقَالَ لَهُ سَعِيدُ بْنُ جَرِيرٍ : « قُمْ ، أَيَنْفَعُ الْخُدْرَ مِنَ الْقَدْرِ ؟ » - فَقَالَ : « لَسْنَا مِمَّا هُنَاكَ فِي شَيْءٍ ؛ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِمَا لَا يَنْفَعُ وَلَا يَنْهَى عَمَّا لَا يَضُرُّ » .

وَقَدْ كُنْتُ حَذَرْتُكَ ، يَا ابْنَ حَسَّانَ ، أُمُورًا ، فَكَأَنِّي أَخْرِبُتُكَ بِهَا ، وَأَنْسُبُكَ بِأُمُورٍ ، فَكَأَنِّي أَوْحِشْتُكَ مِنْهَا ، وَكُنْتُ لَا أَظُنُّ بِكَ مِنَ النِّقْصَانِ إِلَّا مَا كَانَ عَنْ بُلُوغِ الْكَمَالِ ، وَلَا مِنَ التَّقْصِيرِ إِلَّا مَا كَانَ عَنِ التَّفْضِيلِ ، وَلَا مِنْ تَضْيِيعِ الرَّأْيِ إِلَّا مَا أَمَكَّنَ مِنْ اسْتِدْرَاكِهِ قَبْلَ الْفُتُورِ ، وَلَا مِنْ نَكُوبِ مَا لَا يَبْلُغُ الْكَثِيرَ إِلَّا مَا لَا يَسْبِقُ النَّدَمَ ، وَلَا مِنَ النِّسْيَانِ إِلَّا مَا لَا يَمْنَعُ مِنْ سُرْعَةِ الْإِنْتِبَاهِ ، وَلَا مِنَ السَّامَةِ إِلَّا مَا لَا يَقْرَبُ مِنَ الْمُعْجِزَةِ ، وَلَا مِنَ الْحَمِيَّةِ إِلَّا مَا لَا يَخْلَطُ الْعَصِيَّةَ ،

ولا من التنافس إلا ما باعد عن التحاسُّد ، وكنت عندي ، إن لم تكن مع العلية ، فلم تنحط عن الأوساط إلى السفلة ، وإن رضيت بحال المنفصلين ، لم تعرض إلا أن تكون مع المنصفين ، وإن لم تكن غنياً لمخالفك عند مناظرتهم لك ، ورائداً لموافقك عند استعانتهم بك ، وآلة لمن استعمل منك ، ومفزعاً لمن سمع إليك ، وجرزاً لاسرار خصمك ، وحائطاً من وراء من ذهب من الناس عنك ، لم تكن عندي بمخوف على ما انتهى إلي من خبرك ولا على ما حكاه من لا يُتهم على موذنتك .

• عتبتُ عليك في مجادلة الرافضة ، فأعتبتني بممارسة الغالية ، وأنكرتُ منك مقارنة الخوارج ، فأردفت ذلك بمساحة النوابت ، حين زعمت في جواب مسألة النابيتي أن علياً كان أحق بالإمامة من معاوية ، وزعمت في جواب الخارجي أن رضاه كان هفوةً منه ومكيدةً من عدوه ، إلا أنها الهفوة التي تبلغ الضلال ، والفهمة التي لا تفسد الحكم ، والنقصان الذي لا يكمل معه حل العقد ، والتضييع الذي لا ينقض معه العهد .

ثم قطعت الشهادة وأوجبت الحكومة أن علياً قال عند موته وأقر عند زلله :

إني عشرت عشرة لا تنجيزُ سوف أكيس بعدها وأستبِرُ
وأجمعُ الرأيَ الشثيتَ المنتبِرُ

ثم قضيت بعد قطع الشهادة والحكم على غائب الفعل بأنه لم يعن بذلك القول إلا الرضى بالحكمين ، وجزمت على أنه لا تأويل لذلك القول إلا ما ذهب إليه ولا معنى له إلا ما قضيت به .

فأجمع الآن بالك في الاستماع للحق كما جمعت بالك في الاجترام على الباطل ، وفرغ قلبك لما أنا واصفه لك ومقربه من عقلك ؛ فإن أعجزك الفهم فليس يُعجزك التفهم ، وأول منازل الإنصاف حسنُ الثبوت ، ونعمُ الرائد التفهم ونعمُ العون حبُّ الإنصاف ! وقال يزيد بن المهلب : « هذا ابن

الأشعث غلب على النصر فغلب على الصبر» ؛ فأحذر أن يُقال : « هذا ابن حُسان غلب على العلم فغلب على التعلُّم ! » ، وقد قال عامر بن عبد القيس : « الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب ، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الأذان » .

وقد علّم أني شديد الحبّ إلى رَشادك ، حريصٌ على هدايتك ، وأنا بعد ذلك كله أسأل الله أن يديم لك العصمة وأن يوفّقك للمعرفة ، وقد قال بعض العلماء : « لا تستجب إلا لمخلص أو مظلوم » ؛ فأما نبيّ في تبصرتك بابّ الرشد من العمي فقد تقدّم القول مني فيها بما سمعت ؛ وأما الظلم فمن أظلم لصديقه ممن أفسد نفسه عليه ، ومن أجورٌ على وليّه ممن دان بدين عدوّه ؟ ومن التوفير على حظّ هذا الكتاب من الأفهام وعلى حفظك من التفهّم أن لا يهدّه القارىء هداً ولا ينثر كلامه نشراً ، فلا يكون نصيب السمع منه إلا صدى الصوت ولا حظّ العقل منه إلا استحسان التأليف ؛ فعليك بالتوقّف وحده بالترسُّل والتشبُّت مع تفريغ البال ونفي الاشغال ومع الاحتراز من ديب الهوى وفراغ المشغل .

مركز تحقيقات كميبيوتر علوم إسلامي

[٢ - لا وجه للمقارنة بين علي ومعاوية]

خبّرني أيّ شيء نفيت لعلي بن أبي طالب من الفضل ، وأيّ شيء نفيت على معاوية من النقص حتى وضعت الخيار بينهما وأقررت الشبهة في أمرهما من غير إكراه ولا إحلال عُذر؟ فمن أعجزُ رأياً ممن زعم [أن . . .] أفضل من سمرة وأن سحبان أخطب من بائِل ، وأن زياداً أدهى من هَبْنَقَة ، وأن أبا ذرّ أصدق من مُسيلمة ، وأن الجاهليّينوس أطبّ من أبي دينار! وهل ذلك إلا في مجرى من قال : « أيما أصدق : المسيح بن مريم أو المسيح الدجال ؟ » ، وهل ذلك إلا كقول القائل : « أيما أحلى : العسل أم الخَل ؟ » وليس للخَل حظ في الحلاوة .

قلنا : فكيف تزعم أن عليّاً أولى بالإمامة من معاوية وليس لمعاوية في

الإمامة حفظاً ؟ ولقد عجبْتُ فطال تعجبي وشنعتُ فاشتدَّ تشنيعي على النجاشي
حيث يقول بفخره على معاوية بعليّ :

نِعْمَ الْفَقِي أَنْتَ ، إِلَّا أَنْ بَيْنَكُمَا كَمَا تَفَاضَلَ قَرْنُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ

فمن هذا الذي يقرّ بانه ليس بين عليّ ومعاوية في الفضيلة واستحقاق الإمامة إلا
بقدر ما بين الشمس والقمر ؟ بل تجعل لمعاوية في ذلك حظاً ونصيباً ، إلا أن
نريد مزيد الفرق بين هاشم وعبد شمس ، وبين عبد المطلب وحرب ، وأبي
طالب وأبي سفيان ، ونذهب إلى البيان والفصاحة ، والفصاحة مما قد يتفاضل فيه
البرّ والفاجر ويتساوى فيه الجاهليّ والإسلاميّ ؛ وإن أردتُ معرفة ذلك فانظر في
كتابي الذي فرقتُ فيه بين قبائل قريش وميزتُ فيه بني عبد مناف وبيّنت فيه من
فضل هاشم وأظهرتُ فيه جمال عبد المطلب .

أولست ، يا ابن حسان ، قد أطمعته في التمثيل بينها وأقررت بالحاجة
إلى تمييز حاليتها ، وقد علمنا أن الله - تعالى قدره - قد قال : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ
شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ ﴾ ؛ وقال : ﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ ؛
وليس ذلك في موضع الخيار وتمييز الحال من الحال ولا على الموازنة بين أئمّة
الخيرين ؛ [فلولا] اتقاء الله قلتُ مقالة تسير مع الركبان [أفردها] بعليّ ؛ وإن الربيع
ابن زياد قال :

عُمارة السُّهَابِ خَيْرٌ مِنْ عَلَسٍ وَزُرْعَةُ النَّسَاءِ (٢) شَرٌّ مِنْ أَنْسٍ
وَإِنَّا خَيْرٌ مِنْكَ يَا قَتَبَ الْفَرَسِ

وإنما هذا على معنى قول عليّ لأجناده ، وكخطبته على أصحابه عند
استبطائه إياهم وتأييده لهم : « أبدلني الله بكم من هو خير لي منكم وأبدلكم بي
من هو شرّ لكم مني » ؛ والكلمة تكون جواباً فتدلّ على معنى ، ثم تكون ابتداء
فتدلّ على خلاف ذلك المعنى ، وتدور دلالتها مع ظاهر الحالات على قدر ما
يسبق من المثالات حتى تكون الكلمة كفرة في حال وإيماناً في حال .

فكذلك المجاز والتصحيح ، والتضريب والتبعيد ، والارتجال والتحرير ،
والكناية والإفصاح ، والتعقيد والإسجاج ، والخلط والإيجاز ، والإفهام والإلغاز ،
والمعارضة والكنى والاستكراه والهدأ ، وغير ذلك من أشكال الكلام
وحدوده وصوره وأقسامه ودلائله ؛ وقد قال كثير :

فهلأ فإداك الموت من كل ريبه ومن هو أسوأ منك ذلاً وأقبح

وقال حسان بن ثابت في بعض ما يصرخ وينافح عن النبي صلى الله عليه
وسلم :

أتهجوه ولست له بكفء فشركتما تحيرتكما الفداء ؟

وسمع أعرابي رجلاً يقول : « الشحيح أعذر من الظالم » - فقال : « أخزى
الله أمرين خيرهما الشح !

وعتبت عليك في معاونة إبراهيم بن الحسن على ترك القنوت في مسجد ابن زغبان
ومحلة البصريين وزاد في التعجب منك والإنكار عليك تخذيل خالد الأزلية ،
[. . .] عنه خبرني ، حدثني [عن] غدرك إياه ؛ فأنت معتزلي نظامي ؛
فكانت محابة خالد على نصيبه من مذهب البصريين من القنوت - وليس القنوت
من دينه - أوفر من محاباتك على نصيبك من مذهب المعتزلة في القنوت - وهو من
دينك ؛ وقد علمنا أن الذي بناه من ماله وأوقف عليه الغلات لنوابته بصري ابن
بصري ثم معتزلي ؛ على ذلك اشترى الأرض ووضع الأساس وشيد البنيان
وكتب عليه ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ ، وهو الفضيل بن عبد الرحمن
مولي بني سدوس ؛ ولم يزل المسجد يقنت فيه الجبري كما يقنت فيه المعتزلي
العدلي ، ويقنت فيه النابقي كما يقنت فيه المعتزلي ومن صلى فيه ، حتى عرضت
فيه بما دل خالداً - بزعمه - على رقة دينك وسخافة عقلك وحلمك وانفساخ عقدك
وسوء المحافظة على نحلتهك ، غير مكترث لما نال عرضك وغير محتفل بما نلم
دينك وساء وليك وسر عدوك .

[٣ - فضائل معاوية]

ولم أقل إن معاوية ليس بمذكور بالعقل والحلم وبالدهاء والفهم وبالنكرى والجزم والسودد والعزم ، وبالبيان العجيب والغور البعيد ، وإنه لم يكن كاتب وحي الله وصاحب ديوان بيت مال الله ، وإن أبا بكر لم يولّه مقدّمة أخيه ، وإن عمر لم يجمع له أرباع الشامات وإنه لم يعزله إلى أن توفي ولم يغضب عليه مد رضي عنه ، ولم يكتب له بفضل خصال القضاء وترتيب منازل الحكم ، كما كتب إلى أبي موسى الأشعري وإلى قضاته في الأمصار ورجال الفتيا في الأطراف ، وإن عثمان لم يؤكّد له ما تقدّم منها وثبت له ما جرى له من قبلها وزاد في تثبيت عدالته وتزكية بجماله في سني الجماعة وسني الاختلاف ، وأدنى حالاته أن يكون مؤمناً غير فاسق وولياً غير عدو وعدلاً غير مزور ، مع علمي بأنهم لم يكونوا ليولوا الثغور والاحرام والإمارات العظام إلا القوي الأمين وصاحب الرأي الرصين .



[٤ - أسس استحقاق الإمامة بنظر الجاحظ]

ولكنّ الخلافة ، يا ابن حسان ، لا تُستحق والامامة لا تُستوجب إلا بالتقدّم في الفضل والتقدّم في السوابق ، وإلا بان يكون الفضل إما ظاهراً للعيون ومشهوراً عند جميع المسلمين قد أجمعوا على تقديم رجل وتأمير أمير من تلقاء أنفسهم بغير سيف ولا خوف ولا إكراه ظاهر ولا سبب يوجب سوء الظنّ فضلاً على غير ذلك ؛ وإما بأن يختاروه عن تشاور وتناظر ويظهر فضله بعد طول التخاطر ؛ أو يكون له ذلك [في] مصره دون رهطه بميراث العمومة ويستحقها كما تُستحقّ المقامات الموروثة ؛ أو يكون ذلك من جهة وصية أو وراثة مشهورة ؛ أو يكون ذلك نتيجة خصال كريمة لاقت القرابة وحرمة العترة ، فبلغ صاحبها باجتماع الخصلتين ما لا يبلغه صاحب الواحدة ويكون مقنعاً للإلف لأنه أمس بالمعدن وأقرب من صاحب المقام وأحرى أن لا يخفى مكانه على بعيد

الدار ، كما لا يأنف منه العظيم الكبير ، وإن كان نصيبه من الطاعة دون نصيب كثير ممن لا يجري مجراه في شرفه ولا يشاكله في موضعه ؛ وهذه الأركان لتجتمع على جميع المقالات إلا ما لا يعدّه المتكلمون قولاً وكان عندهم عارضاً بهرجاً .

[٥ - معاوية لا يستحق الإمامة]

ولم نجدهم ادعوا لمعاوية إلا أنه كان رجلاً من عرض المسلمين وصالح الطلقاء وكاتب الوحي ، فقد كتبه قبله من قد علمتم : ابن أبي سرح ثم كان من أمره ما كان ، وكتبه علي بن أبي طالب وكتبه حنظلة الكاتب الأسيدي وكتبه زيد بن ثابت ، فلم نجد أحداً جعل كتابتهم للوحي سبباً إلى ادعاء شيء من مراتب الإمامة وطبقات استحقاق الخلافة .

وأما قولهم « خال المؤمنين » ، فإنه إما يكون خالاً لو كان كون أم حبيبة أمّاً للمؤمنين من طريق النسب لا من طريق تحريم النكاح والتعظيم لحقوق الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ؛ ولو كان قولهم قياساً مقبولاً وتأويلاً معقولاً لكان أبو بكر وعمر وأبو سفيان أجداداً للمسلمين ، ولكان جميع ولد أبي بكر ودمر أخوالاً للمسلمين ، ولكان سالم بن عبد الله ابن خال المسلمين ، وهذا حمل بالاحتجاج به سفه والقاتل به إما ساقط العقل وإما ظاهر العبث .

وإن كان معاوية قد كان سكن إلى هذا القول وكان هذا القول قد قيل في تلك الأيام ، فما كان ذلك منه إلا من خوف شديد وحاجة مفرطة ؛ ولو كان للمسلمات خالاً لما جاز له أن ينكهن ، وهذا رأي ساقط ومذهب فاضح .

[٦ - معاوية يدهي استحقاقه الإمامة لأنه يطالب علياً بدم عثمان]

وليس ينبغي لمعاوية أن يُحمد على ما أتفق له من أسباب القوة وتبهاً له من الملك إلا قتل عثمان والذين صاحوا يوم قالوا : « أخرجوا لنا قتلة عثمان ! » .

- فقالوا : « كلنا قتلة عثمان ! » ، لأن عثمان لو لم يُقتل لم يُمكنه أن يُوهم أعمار الأمة وأغثار أهل الشام والقابليين والمفتونين من الأعراب وأشباه العرب أن علياً هو الذي قتله أو كان السبب [لقت] له عندهم من جهة الشبهة على أهل الغباء والغفلة أو على من يُعميه هواء أو يلي جدّه ، وصار من قتل إمام المسلمين يتبرأ عندهم ممن قتل رجلاً من عرض المسلمين ، وقَاتِلُ المؤمن عندهم ضالٌّ والضالُّ لا يكون شاهداً فكيف يكون عندهم حاكماً ؟ ومن لا يجوز أن يكون عندهم حاكماً فكيف يجوز أن يكون عندهم إماماً ؟

[٧ - معاوية يستغل موقف سعد وابن عمر ويفيد من اختلاف جند علي

واتفاق جنده]

فلما فرغ من تثبيت ذلك عندهم ومهمهم أن من منع الضالَّ من الإمامة أحقُّ منه بالإمامة ، وأن أولى الناس بمقام الإمام من انتدب للطلب بدمه وبذل في ذلك نفسه لأخذ الحقِّ منه لولده ووليِّ دمه ، فلما فرغ من ذلك ومهمهم وثبتت عندهم أن من دان بدين سعد وذهب مذهب ابن عمر ممن لا يرى قتال « الفئة الباغية » ويقول : « كُنْ عبد الله المقتول » لا يرى طلبها ولا الدفع عنها إلا بالكفِّ دون البسط والأب الجهدال دون القتال - وعلى أن عليه إن ظنَّ أن الجهدال يؤدي إلى شيء من القتال أن يكون أترك الناس للدعاء إليها والإحواج لها فضلاً على غير ذلك من الأمور [...] .

هذا مع ما عليه من طبائع الناس من حبِّ المال والعلوِّ في الحال وأنه متى لم يرغهم السوط وينهكهم السيف فالأمر مريع والفساد شامل والحرب أكيدة والفتن شائعة والأمر مضاع والحقُّ مقموع ، ومن عزَّ بزَّ ومن قُلَّ قُلَّ ومن قُلَّ أكلل ومن ظهر قتل ؛ فالإمام ما لم يحم مكانه وثغر سلطانه فمغلوبٌ معزول ومطلوبٌ مقتول ، والرئيس ما لم يندد عن حوضه ويحامي عن عشيرته فمسلوبٌ مغلول أو [م] شلو [ل] مأكول على الدنيا ولم يكن معنى قطُّ على هذه الصفة

ولا صحت يوماً قط إلا على خلاف هذه الحال .

ومما تبيها له من الأسباب وأتفق له من العلل ما كان ظاهراً من رأي سعد
وابن حمر في تحريم البسط والأمر بالكف والنهي عن حمل السلاح والإمكان من
الحربة : فاجتمع له السبب الذي به يؤهم موضع دم عثمان ؛ فإن سعداً ، وإن
كان بقاءة الشورى ، فإن الحق لا يفريه وإن الباطل لا يضل به ؛ وهى هذين
الأصلين دار [.] الطمع منه فيها واستجاز الطلب لها والحرص
عليها .

ثم أتفق أن جنده بمائة إلا القليل ، وجند علي نزارية إلا القليل ؛ وأتفق
أن كان أهل العراق أصحاب الخواطر والنظر والتأويل والقياس ، ومع هذه
الصفة يكون الاختلاف إذ كانوا عرباً وأعراباً وعهدهم بالجاهلية قريب وتمظيم
الرؤساء فيهم غير قديم ؛ وأهل الشام هم في قلة الخواطر والتقدير وفي قلة الفطنة
والتفتيش على خلاف ذلك ؛ وكانوا ملوكاً وأجناد ملوك أو قرابين ملوك ، لا
يعرفون إلا طاعة الملوك والكبراء واتباع الرؤساء ؛ وقد علمت أنه متى أطاع الجنود
الرئيس والرئيس يصيب الرأي ، فكلمهم رئيس وكلهم مصيب ومع الإنصاف
تجتمع القوة ويقوى الضعيف ، ومع الاختلاف يتثر الأمر وتنكبت القوة ؛ وقيل
لرجل من عبس : « كيف نهضتم بالعمائر الكبار على الألو ؟ » - قال : « كان
لنا رئيس يصيب الرأي وكنا له تبعاً فكنا ألف رئيس » .

وجند علي بن أبي طالب من ربيعة ومضّر ، وهم كانوا أصحاب التحارب
في الجاهلية والتجاذب ، وفيهم كان التحالف والتجاور ، وهم كانوا أصحاب الغزو
والغارات والسبي وطلب الطوائل ، وأكثرهم أصحاب وير وعمد وصحار ،
وأقلهم أصحاب المنذر والمحال ، وأكثرهم أصحاب الحذر والنجمة والفقه والمواثبة
[٢] ومع الحاجة يكون الطلب والحركة ومع الغناء والخصب يكون الحلم
والمرؤة والثاقل عن الحركة ؛ حتى كان رؤسائهم يخرجون في الحروب والمغازي
متسارين ، لكل رأس لواء ولكل سيد معسكر ؛ وما زال أصحاب التجارب

والعقول وأهل النظر والتحصيل من كل ملة وأمة وقرن وبلدة يرون أن الشرك في الحرب كالشرك في الملك وأنها كالشرك في الزوجة ، وأن الخطأ في ذلك لا يُستقال والوهن لا يستدرك ، وأن هذه الخصال فاحشة الضرر سيئة الاثر ، لا يثبت معها إلف ولا يصلح عليها تدبير ؛ فاحتملوا ما في التشابه من ضرر التساند لنكود الاخلاق ولشرف الحمية ولما كانوا عليه من حمية الجاهلية .

ألا ترى أن مروان بن محمد لما استبدل قيس عيلان الجند بقيس عيلان الجند ، من أبناء قحطان ، كيف ظهر انتشار أمره واضطرب حبله واختلفت الكلمة وتقطع النظام وانحلت العقد وأدبر الملك وركدت الريح ؟ هذا وقيس عثمانية عند أنفسها جماعية دعامية فيما تذهب إليه سلطانية ، كذلك اصطهرت إليها الملوك ، يعني المصاهرة دون النزارية بالانفس ، ووليت العراق المرار الكثيرة والثغور العظام والمهم من الأمور الجسام ؛ ولم يفعلوا ذلك بتميم ولا بريعة لما كان فيها من النزوح والخارجية ، ولذلك قلت الفسوح في تميم وربيعة ؛ وكانت قيس في جملة أمورها ومعظم تدبيرها زارية على الشيعة ناقمة عليها ، نافرة من الخوارج ناهية عنها ؛ وقد عرفت ما كان من شأن زفر ابن الحارث ومجاشع ابن مسعود وحاتم بن النعمان والخفاف بن حكيم ، وحال كل من سيره علي من البصرة بعد وقعة الجمل الى الجزيرة ؛ ثم مع ذلك ما برحت أن نزعها ذلك العزم وجذبها ذلك الطمع ولم تدعها الرحم من نزار ، وعرف مروان فضل رأي أسلافه على رأيه وتدبيرهم على تدبيره .

ولعل قائلًا يقول : « فأين ربيعة السامعة المطيعة وكانت شطر نزار ومعظم الفرسان ؟ أو ما كانوا في طاعة علي مجتهدين وعلى معاوية مطيعين ، حتى هجروا فيه الإخوان والجيران وفارقوا من أجله الأوطان كصنيع عجل بالبصرة وانتقلهم بعد نصرته يوم الجمل إلى الكوفة حتى نزلت ديارهم وصارت في ربوعهم الازد ، يتقدمها ابن نوح ؟ قال في ذلك الشاعر :

وَسَيَّبَ رَأْمِي قَبْلَ حِينِ مَشِيْبِهِ نَزُولَ الْعَيْبِدِ فِي دِيَارِ بَنِي عَجَلِ

قلنا لهم عند ذلك : قد كانوا كما وصفتم ثم صاروا شراً من قيس وأكثر خلافاً من تميم ، على أنهم بتميم أشبه ؛ ولذلك قال الحجاج : « الكوفة أشبهه بالبصرة من بكر بن وائل بتميم » ؛ بل صارت رجال يمانية أسوأ طاعة وأكثر خلافاً من رجال نزار ، كالذي كان بين الأشتر والأشعث وكالذي كان بين الأشعث وحجر ؛ وما تخفى عليك أمور همدان وكندة في تلك الأيام ، وحال سعيد بن قيس ، وما كان من قول عبد الله بن بُدَيْل ، هذا إن كان بعض ما ذكرنا يعرفها من قبل عليٍّ ومعاوية ابن ملجم ، ومن إمداده الرأي ومن تشجيعه على الاقدام وإفساد يمانيته عليه فضلاً على قيسته ؛ فقال يزيد بن حجة قبل أن يكون إليه من عليٍّ بن أبي طالب ما كان :

عَادَتْ رَبِيعَةَ قَيْساً بَعْدَ طَاعَتِهَا حَقُّ السِّمَانِيِّ لَا يُبْقِي وَلَا يَنْزُرُ

ثم صرف إلى معاوية مع أكثر قومه من تيم اللات بن ثعلبة وقال :

وَقَالُوا: عَلِيٌّ لَيْسَ يُقْتَلُ مُسْلِمًا فَمَنْ ذَا الَّذِي يُحْيِي الرُّفَاتَ وَيُقْتَلُ

ثم لحق بالشام خالد بن المعمر في أكثر بني سدوس ، ولقدره ولقدر ما جلب إلى معاوية من القوة قال قائلهم :

مَعَاوِيَ أُمْرُ خَالِدِ بْنِ مَعْمَرٍ فَإِنَّكَ لَوْلَا خَالِدٌ لَمْ تُعْمَرْ

ثم لحق مصقذ بن هبيرة في عامة بني شيان في رجال كثير ورؤساء لا يُحصون ، معروف سبب هربهم وشهور تنقمهم ؛ وأما مصقلة بن هبيرة فانه طولب بما عليه من مال الله من ثمن من أعتق من بني ناجية ؛ وأما يزيد بن حجة ففر من الجيش لما كان فر من خراج المسلمين إلى ما لا يعرف من هرب النجاشي عند شرب الخمر .

[٨ - معاوية يلجأ الى الترغيب بالمال والتولية على عكس علي]

والجملة أن رجالات العرب ورؤساء الأعراب وكثيراً من أهل البأس والنجدة والرئاسة في المشيرة كان سوء معاوية ومعاملته أحب إليهم من سوء علي ابن أبي طالب ومعاملته ، لأن القوم ، لما ثبت عندهم من إطعام خراج مصر عمرو بن العاص ما ثبت ، ومن ضمانه لذي الكلاع سميفع بن ناكور ما ضمن ، ولحبيب بن مسلمة ما قد علمت ، ورأوا ما صنع علي بيزيد بن حجة وسمعوا رد جوابه على من سأله أن يزيد في عطاء الحسن والحسين وكيف قال ، ورأوا مع ذلك شدته على الخائن وقمعه للظالم وأن الرجال أنما تحظى عنده على قدر الزهد والفقه وعلى قدر الوفاء والنجدة وعلى قدر العلم بالكتاب والسنة ، لم يكن لهم هم إلا التخلص إلى معاوية وإلا أن يصيروا إلى من يرتع ويرتعون معه ويأخذ ويأخذون معه ويذهب مذهب التودد والتحبب والتألف ويدع مذهب الإمامة وإقامة جزاء الحسن والحسين ؛ وقد قال خالد ابن المعمر لعلياء بن المهيم : « أتتني الله في عشيرتك وانظر لنفسك ورحمك ، ما يؤمل عند رجل أردته على أن يزيد في عطاء الحسن والحسين ذريهات يسيرة ريشا يبلان بها من طريف عيشها ، فأبى وغضب ؟ » .

[٩ - حيلة المصاحف تنظلي على الناس]

فكل ما ذكرنا مما اتفق له من غير اكتساب وتبياً له من غير احتيال ، فغير مكره - حفظك الله - معاوية على ما اتفق له ولا ملوم علي ابن أبي طالب على ما امتحن به فيهم ؛ فعلى هذه العقدة دار الكلام ؛ ثم اتفق له الخلاف الذي كان عن رفع المصاحف والانتشار الذي حدث عن ذلك التدبير والحيلة ؛ فانظر هل ألقى علي عندها عاقلاً أو صادف بها عزيزاً ؟ ولقد قال ثم أعاد القول ثم احتج وعرف وزجر وتوعد وقال : « ويحكم ! إنها خدعة ومكيدة ، وإنها بعد دليل على الفشل وعلى انقطاع القوة ؛ فانتهزوا هذه الفرصة فقد دلكم بها على موضع

العورة ، وليس بينكم وبين الظفر إلا صبر ساعة ؛ فكان أشدّ القوم عليه خلافاً وأفحشهم عنوداً الذين صاروا بعدُ إلى إكفاره وإلى البراءة منه بعد إقرارهم بأنه كان المستبصر والمحدود والواعظ والمتوعد ، وأنهم كانوا المخدوعين والمفرورين والمخدولين ؛ فهذا هذا .

[١٠ - دهاء عمرو بن العاص وغباء ابي موسى الأشعري]

وكان ما أمّحن به عليّ واشتدّت البلوى على أصحابه فيه وعلى اصحاب النبيّ وعلى من معه من أجناده ومن خاصة أهله ، أن صار الحَكَم المُوَازي لعمرو بن العاص أبا موسى الأشعري ، فكان من خدعه له ومن غدر عمرو به ما قد علمتم ؛ ولم تجرد الناس اقتصروا من أمرهما على أنه خدعه بفضل أرب وكادّه بعد غور واستنزله بفضل [.....] ؛ فلو لا يزال يكون مثله يبين الرجال من رجال الرأي والدهاء والمادة وجدت العامة والطبقة التي تلي العامة لا يشكون أن أبا موسى كان أغبى العالمين وأعبا الأولين والآخرين ، وأنه فوق جهيزة في سقوط الرأي ، وأسوأ حالاً من دغة في الرقاعة ، وأكثر خطلاً وأعجب خطأ وأغرب غلطاً من جحا وأعبا لساناً من باقل .

[١١ - دوافع ابي موسى الى موقفه في التحكيم]

وليس يقول هذا - رحمك الله - إلا من لا علم له ولا تحصيل عنده ؛ قد عرفنا حال ابي موسى عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعند ابي بكر ومنزله من عمر بن الخطاب ومكانه من عثمان بن عفان في كثرة فتوحه وصحة تدبيره ، ألا وإنما عن مقارعة شديدة ومنافقة [؟] طويلة بالرأي السديد والكيد البعيد والسيوف الحداد وبالعدّة والعتاد وسياسة الأجناد وبمين الفتنة والسلامة العجيبة وحفظ الرعية والقسمة باسوية ، ومع الفقه في الدين والعلم بالقياس والحجج في الفتيا ؛ وكان سادس ستة ممن حصلوا من فقهاء الصحابة وأحد القضاة

وأحد الثلاثة ، ولذلك قالوا : « ثلاثة أخذوا عن ثلاثة : ابن مسعود عن عمر ،
وأبو موسى عن عليّ ، وزيد عن أبي » ؛ ويسدلّ على ذلك قول الشاعر في مدح
بلال ابن أبي بردة بن أبي موسى وكان قاضياً ابن قاض ابن قاض ، قال له :

وأنت يا ابنَ قاضيينِ

وقال آخر في بلال :

قَضَيْتَ عَلَى عِرْقِي بِمَا لَكَ صَاعِداً وَأَوْتَيْتَ بِمِزْمَاراً وَخُطْبَةً فَيُصَلِّ
(ذهب من المزمار الى ما كان أعطي أبو موسى في حنجرته من الصفا
والشحا ؛ وذهب من ذكر الخطبة الى ما كان أعطي في لسانه من البيان) .

- وكان مع ذلك مشهوراً بالحلم ومذكوراً بالفقه ، من المعدودين في
أصحاب الفتوح ومن المذكورين في الولاية والعمال ومن المعروفين بالنزاهة وطيب
الطعمة ومن المعروفين بصحة الرواية ؛ ثم خصلة ما أقل ما تجدها وأكثر ما
تفقدتها وهي قلة التغير مع طول الولاية والثبات على الأمر الأول مع كثرة الفتوح
والفائدة ، ولو كان أبو موسى كما يقولون غيباً منقوص العقل ضعيفاً ، لكان اللوم
على تأميره [على] البلدان والأمصار وعلى الجيوش العظام وتسليطه على
الأحكام ، على مَنْ ولاء دونه ؛ ولو كان ذلك كذلك لكان لعليّ في ذلك أوفر
الأقسام .

كلاً ، ولكننا نقول فيه كما قال أهل العلم من أسلافنا وأهل العدالة من
مشايخنا : نقطع الشهادة على كل ما أجمعوا عليه ونقف عند كل ما اختلفوا فيه ،
وقولي فيه ، إن لم يكن قول أبي إسحق بعينه فيما أقربه من قوله ؛ قال أبو
إسحق : كانت التي خلع بها علي بن أبي طالب دون عمرو وبعد التصادر على
ذلك والتوكيد له نتيجة خمس خصال ، منها انصرافه عن عليّ ، والاخرى ميله الى
رأي سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وزيد بن ثابت ومحمد بن مسلمة
وصهيب بن ميان وأسامة بن زيد من الكفّ وتحريم القتال ، ولذلك روى

بالكوفة ما روى حيث أقعد الناس عن علي بن أبي طالب ونصرته ومعاونته حتى جرى في ذلك بينه وبين الحسن وهنأ ما جرى حيث قال : « سمعتُ النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « تكون فتنة القاهد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي والماشي [فيها] خير من الساعي » .

وخصلة اخرى وهي ميله من عدنان لقحطان ولذلك قال يومئذ : « لو كان هذا الامر لا يُنال إلا بالقدم والشرف لكان رجل من أولاد أبرهة بن الصباح أولى بها منها » ؛ وخصلة اخرى وهي نقصانه لاحتالة عن مقدار عمرو في بُعد الفكر وثبته المكر ، ولكن ليس من خُدع مرة او كان دون أدهى الناس فلا اسْم له إلا الغبي العمي الجاهل المنقوص ؛ وخصلة اخرى وهي ما كان إسرار قلبه من تصييرها الى ابن عمر بكل حيلة وبكل قيد وقوة ، ولذلك وافى ابن عمر دومة الجندل ، والخصلة من هذه الخصال - رحمك الله - تصرف بنصيبها من إدخال الخطأ على العقل ، فما ظنك بها وقد أقبلت معاً ثم صادفت عقلاً مستهدفاً وعرضاً قريباً ؟ .

[١٢ - لماذا قبل علي بابي موسى حكماً]

وكان أبو اسحق يتعجب من قول من زعم أن علياً إنما اجبر على أبي موسى اجباراً ولم يوجه اختياراً لأن اليمانية أبت أن تكون إلا ميزان نزاريين ؛ قال أبو اسحق : قد علمنا أن من شأن طبائع الأزدي وثيم ويكر ويربوع وتغلب وقيس وجملة عدنان وجملة قحطان أن تتفانى في أقل من هذا ، وقد عرفنا سبب حرب البسوس وسبب حرب لبني قيلة وسبب حرب داحس والغبراء ، وهي حرب الإخوة وأطول حرب كانت في الجاهلية وأشدّها ضغينةً وأبعدها غاية في طلب الطائفة ، وما كان بعد ذلك عما كان بين تغلب وقيس وابن أبي الهيثم وقبائل اليمن بالشام وغير ذلك ، وكيف كان صغر الامر في أوائلها وعظمتها في أواخرها ، وكيف طبائع العرب قاطبة والاعراب خاصة ، وكيف نفوس الاجناد ، وكيف حركة الاتباع ، وكيف صبرت نزار كلُّها ، مع ما وصفنا ، عل هذه الذلّة

واغضت على هذا القذى وتعرضت لهذا التغير وكيف استنجدت وأطرقت
وطابت وسامت حتى لم يختلف سيفان ، والسيوف عتيدة ، ولا اجتمعت في
ذلك جماعة والحيام متقابلة .

ثم لم يقل فيه شاعر قصيدة واحدة ولا فخر به فاحر مرة واحدة ، فلا
هؤلاء هجوا ولا هؤلاء مدحوا ؛ وهل يعرف هذا من أخلاقهم وهل يُظن هذا
بهم ؟ بل متى اغضت نزار من اليمن على مثلها ؟ ولو كانت معاودة لذلك منها في
جاهليتها لما صبرت على ذلك بعد تحوّل الملك فيها والنبوة إليها ، وقد رأيناهم
كيف كانوا يوم خزازي ويوم الكلاب والآخر ويوم شويحط ويوم اجتمعت تميم
على زرارة ويوم اجتمعت على غزو اليمن في فك تميم من أيدي العباهلة
والرثسان الاضبط بن قريع والنمر الحصاني ، وكم قتلوا من الملوك عنوة وكم
غزوا ديارهم لا يلتمسون حياً دونهم كعمرو حذيفة بن زيد وجصن بن حذيفة
وفلان وفلان .

واحتسبت كيف لم تتجمد باحتمال ملاحها ولم تتقرب بذلك إلى علي ابن أبي طالب
ولم تجنح بالورع وتدع بغض الطر وكراهة الفتنة إن كان العجز قد قطعها والجبن
قد خلع قلوبها . وكيف حمل على نفسه هذه الدنية وكيف [قبل] بالضغطة وكيف نزل على
هذا الحكم وكيف أمكن من نفسه هذا التمكين وأغرى بها هذا الاغراء ، وفي
دون ذلك مرزية الأعداء وضراوة لأهل العصبية ، وقد علم أن فطم العادة شديد
وأن نزع صاحب الدربة عسير .

وقال أبو إسحق : احسبهم كانوا القاهرين والغالين والمتحكمين المتحكمين
ما خالف إلى أبي موسى وأي جمع كان هنالك من الأشعريين وأي عجز كان في
ذلك العسكر لأهل بلده ؟ وإن كان غيباً عند أصحابه مضموراً قليلاً المعرفة
مخدوعاً ، فماذا الذي اضطّرهم إليه ؟ فأين كان الاشعث بن قيس ؟ وأين كان
سعد بن قيس ؟ وأين كان عبد الله بن بُدَيْل ؟ وأين كان قيس بن سعد ؟ فان
قلت إن القوم لم يرضوا إلا بمن له صحبة ، فما حذب لمعاوية هذا التحديب على

الصحابة ، وهذا التعظيم لمن له هذه الحرمة ، وهذا التقديم لمن له هذه
التقدمة ؟ ولا بأس ، فأين كان أبو أيوب الأنصاري وأبو مسعود البدري ؟ وأين
كان عدي بن حاتم ؟ فإن أقرت قحطان بأنه لم يكن في جماعته رجلٌ
واحدٌ كانت له صحبة يفي موازاة عمرو بن العاص ، فقد أقرّوا بالخسيصة
وسلموا بالفضيلة .

ولعمري أن لو كان المسؤولون من نزار لذكروا رجالاً قد جمعوا مع الصحبة
العقل البارع والتجربة الكثيرة والرأي الاصيل والغور البعيد والحزم والعزم
والعلم والنكرى والدهاء والرأي [.] ، ولو كانت الحال قد بلغت بعلي
إلى أن صار لا يمتنع من قهر تلك اليمانية ومن غلبة بعض ذلك الجند ، وذلك
ظاهراً لمعاوية ولجواسيسه السمية ، ويُزال عنه فرض الجهاد ، فمن كان كذلك
كان عن حلبة أهل الشام وأجناده المتناصرة بالأيدي المثقفة هو أعجز .

كلّا ، ليس الأمر على ما قالوا وذكروا ، فما دعا إذا معاوية إلى المحاكمة
وكيف رضي بالنصفة ؟ كان علي بن أبي طالب أشدّ ورعاً وأثقب نظراً والطف في
الأمور تدخلاً من أن يوجه مع عمرو بن العاص حكماً وهو عنده عبد منقوص أو
عدو مرصد ، بل لا كَرَّر أن يقلده مثل ذلك الأمر وهو عنده ظنين عليه ، وكان
الاقبل من ذلك أن لا يدع الاحتجاج والتبيين والاعتذار الى غيره من رعيته
وأجناده ، فمن أين اتى - يرحمك الله - أمن كلال وجمد وعي لسان ، أم من قلة
معرفة وضعف مخبرة ؟ أو من جبن قلب وشدة هيبة ؟ أم من خور في العرق ؟ أم
من فساد في أصل الطينة ؟ أم من خبث في المنشأ والعادة ؟ أم من قلة ممارسة
للحروب ومقارعة للابطال ومعاودة للقتال ، مع قتل الفرسان والقادة والرؤساء
والسادة ، وهل رُبِّ إلا فيها وهل نبت لحمه إلا عليها وهل يعرف شيئاً سواها ؟
ألا يدور ما يعرف منها على استفاضة علمه واتساع معرفته ؟

ولو لم يكن عليّ امتحن منها بشيء قط ولا اختبر بأمر قط إلا بما امتحن به
يوم نادى مشادي معاوية : « أخرجوا الينا قتلة عثمان اء ، لكان في ذلك أعظم

المحنة وأشدّ البلاء والفتنة ، ولقد ابتلي عليّ بعقد لا سبيل إلى حله وبفضل لا حيلة في فتحه ، ولو كان باب الحيلة فيه مغلقاً ولم يكن [.....] مبهماً ، لكان أحقّ من [.....] ذلك القفل و [.....] لذلك الغلق ؛ ألا ترى أنه لو أخرج إليهم طلبتهم والذين أوقعوا عليهم ظنونهم ومن هو عندهم قاتله إما معيناً وإما متولياً وإما بالهوى والمحبة والنحلة والديانة ، لدفع إليهم محمد بن أبي بكر وكنانة بن بشر وعمرو بن الحمق وسودان بن حمران ومالك الاشر وعبد الله بن عديس وعمرو بن زُرارة وعُمير بن ضاهية وفلاناً وفلاناً ؟

ولو أخرجوهم إليهم لامتنعوا بعشائرههم ولمنعتههم الذين قالوا : « كلنا نصيحة واحدة ، كلنا قتال عثمان ! » ؛ ولو كان كذلك لكان معاوية أول واثب بهم وكان ذلك من أكبر فريضة فيهم . ولو أخرجوهم إليهم وسلموهم في أيديهم ، لقتلوهم خبطاً بالسيوف ورضخاً بالجنادل ، ولاعجلوهم عن حكم الإمام القائم وعن الثبّت والتعرّف وعن تمييز ما بين الأمر والمحبّ والمعين والمتولّي والمتهم والمعترف بالدم .

ولو قام عليّ في كَلِّ عديدهم وعديتههم يردّ عليهم ويكذبهم ، لكان توابب بعضهم إلى بعض بالجدال والقتال أقرب من وثوب معاوية بهم على قرب ذلك منهم ، ولو جرى بينهم بعض ما هو دون السابقة والمتأخرة لكان في تشاغلهم واضطراب حبلهم واختلاف كلمتهم وانتشار أمرهم ما يدعو أهل الشام إلى الوثوب بهم والشدّ عليهم ؛ ولو فعل ذلك والحال كذلك لما كان دون البوار سبتر ولا دون الظفر بهم مانع ولا حائل .

وقد علمت - حفظك الله - أن الناس في قتل عثمان على ثلاث طبقات :
 طبقة تدعي ان قتل علي لعثمان كان من اكبر طاعاته لله ، وهذه الطبقة هم الشيعة والخوارج ؛ وإن الطبقة الأخرى هي الذين يسرون الوقوف فيه وفي عثمان ، وفيه وفي طلحة والزبير، ويتولّوهم على أصولهم ويقفون عند أحداثهم ، والطبقة الثالثة وهم السواد الاعظم والجمهور الاكبر ، منهم أصحاب الحديث

والقضاة والنوابت ومن زعم أن جميع أهل الكلام [.....] وأن الكفت
عن ذلك هو السنة والجماعة .

فلو أن علياً قال يوم ذلك : كذبوا ، لم يكن ذلك تدبيراً ، وقد ذكرنا ذلك
وفسرناه ، ولو قال : صدقوا ، لخلعه جميع من يرى الوقوف وجميع من يرى تبرئته
ونفى تلك الدعوى عنه ؛ ولو كان علي سبيل من قتله لما كان عليه في ذلك اليوم
الإقرار بقتله ، إذ كان الاقرار فيه ليس بفرض واجب ، ولا كان مأخوذاً به ،
وفيه إفساد لقلوب العامة وبعض الخاصة ، وما كان إلا كرجلٍ قال إن السماء
خضراء ، فقد صدق ، وليس عليه أن يقول في كل حين إن هذه سماء ولا إنها
خضراء ، ولكن عليه ، إن أثر أن يخبر ، أن لا ينكر أنها خضراء .

فكذلك كانت حال علي بن أبي طالب إن كان علي سبيل من قتله وان لا يرى أن
عقله في تلك الحال المحل الذي لا يكون أضيّق منه ، إذ كان لا يمكنه في وجه
التدبير أن يقول : صدقوا ، ولا أن يقول : كذبوا ، فهل ترى التدبير إلا ما
صنع علي ؟ ولذلك زعم بعض من يفضل عليه أبا بكر وعمر أن ذلك الفضل
لها إلى أن امتحن علي بما لم يبلغه امتحانها ، فصار أفضل منهما ؛ ولولا أن الله
قد علم أن إرادته في نفسه كانت أتمّ وعلمه أوسع وعزمه أقوى ، لما أخبره
بذلك ولا امتحنه إلا بمثل ما امتحن به الائمة قبله .

ولو كانت هذه الرسالة تحتل [تخريج] القول في الحكمين والاحتجاج في
جميع أبوابه لاستقصيت ذلك ، ولكني سأوميء إليك - إن شاء الله - بجملته يكتفي
بها من كان في دون حالك بعد أن يستصحب الإنصاف ويتحفظ من الهوى
ويتحدّ [ر من] السابق إلى القلوب وهي فارغة .

[١٣ - اسباب ترك علي القتال]

قد تبين للناس كلهم اختلاف أصحاب علي بعد رفع المصاحف وإخلائهم
إلى المقام بعد أن رجعوا إلى أوطانهم ، وكيف ملأوا الحرب وشموا طول مقارعة

الشر ، بعد أن ذاقوا الحفص ووجدوا مس المهاد وشموا ريح الأولاد ، وبعد أن
عليه من عدد الجرحى والصريعى والقتلى ، وبعد أن وجدوا خشونة المس ومنع
الجانب ، وبعد أن قال كبرائهم : « لا نعود حتى نشمر الكراع ونحد السلاح
ونجى المال » .

وأنا واصف لك جملة القول في الحكمين ، إن كان كتابنا هذا يعجز عن
التفسير ، فافهمه واعلم اني وجدت الذين خطبوا علياً في ذلك لم تجاوز نخطتهم
له ثلاثة أوجه : أحدها اختيار أبي موسى بعينه وفي العسكر من هو أدمى منه
وأصح ، وقد قلنا في ذلك جملة كافية إن شاء الله ، والوجه الآخر
إنكارهم حكم الرجال في الأمر الذي قد بينه الكتاب وقطع عليه الشهادة وعرفهم
فيه وجه الحق وهو قوله : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ،
فَإِنْ بَغْت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ ، وأنه
مثل قوله : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ
اللَّهِ ﴾ ، فكما أنه ليس لعلي ولا لغيره أن يحكم الرجال في قطع السارق وفي
الامسك عنه وفي ضرب الاجل له ، لما ظهر في الآية من الدلالة ، فكذلك ليس
له ولا لغيره أن يحكم في قتال الفئة الباغية ويترك ما ظهر في صورة الآية وفي
ظاهر الكتاب .

والوجه الثالث أنهم قالوا : لم يكن يخلو علي في ترك قتالهم ، وقد دعونه إليه ،
من وجهين : إما أن يكون كان عاجزاً معذوراً أو قوياً غير معذور ، فالعذر في
ترك القتال واقع ، بل قد فرض الله عليه أن لا يُعرض قليل من معه لكثير من
مع عدوه من الاعداء ، وعليه أن يعرف ذلك الجاهل ويكف عمن عرف الغمر
المتسرع ، فان قبلوا كان قد بلغ ما أراد من الشفقة والحسنة ، وإن ردوا ما قصده
كان قد أعذر وأنذر ، فظهر في العوام عذره وثبتت على سائر الانام حجته ، وإن
كان قوياً وكان بمثل عدده وعدته يزال الظلم ويدحض الباطل ويقمع العدو ،
فعليه أن يقاتل : فإن ظفر كان مطيعاً منصوراً ، وإن ظفر به كان مطيعاً
معذوراً .

قد قلنا في تنازعهم واختلاف قلوبهم ونكوسهم إلى أوطانهم وفي سآمتهم بما
 قد سمعت ، وقد علمنا أن من جمع بين القلوب المختلفة والقلوب المؤتلفة وإن
 كان عدّة المختلف فوق عدّة المؤتلف ، إنه مدموم التدبير مسخوط التقدير ؛ وإذا
 كانوا كذلك فالرأي ان يكتم الناس داهمهم وعيبهم ولا يفطن لذلك عدوهم بكل
 ما أمكن من الحيلة وبلغه التدبير ، وأن يستأنس بهم ويتلطف لهم ويتنظر أوتهم
 وإفاحتهم من سكرتهم وانتباههم من رقدتهم إلى غاية وإلى نهاية ، ولا يجعل إلى
 تفريقهم ما دام الطمع في تراجع قلوبهم ممكناً وكان الأمل في تعابريهم وتراجزمهم
 مأمولاً .

فان قال قائل : لا نستطيع أن ننكر أنه قد كان هناك خلاف يوم رفع
 المصاحف ، ولكننا قد علمنا أن الذين عصوه يومئذ في قطع القتال هم الذين
 أطاعوه اليوم في معاودة القتال ، نادمين على ما كان وسلف منهم ، مقرين بالخطأ
 على أنفسهم ، مدعين لصواب رأيهم ، وهم كانوا العصاة يوم عصوه ،
 وصار هو العاصي يوم عصاهم ، لأنه دعاهم للقتال فأمسكوا عند رؤية
 المصاحف ، ثم دعوه بعد أن تبينوا المكيدة التي كانت بانت له يومئذ ، فدخل في
 مثل ما دخلوا فيه ؛ إلا أن القوم كانوا أحذر منه لفضل علمه ونقصهم عن كماله
 وأن الشبهة عليهم يوم رفع المصاحف كانت أغمض والنفوس أشغل والرأي أقل
 من الشبهة عليه يوم جاوزوه نادمين سادمين ومقرين متغابرين ومستغفرين نازعين ؛
 قلنا لهؤلاء القوم : إن كان الشأن في اختلاف ألسنتهم وقلوبهم وفي سوء طاعتهم
 وفي تشاقلهم عن قتال عدوهم وركونهم إلى المقام في أهلهم ليس على ما حكينا
 ولا على ما ثبت به الخبر عندنا ، وإنما كان ذلك في قليل من كثير وفي مقدار لا
 ينقص الجمهور الأعظم ولا ينقض قوى السواد الأكبر ، فهل يخلو تركه لقتالهم
 من وجوه أنا ذكروها لكم ؟ فان كان عندكم وجه غير ما ذكرنا أو نحن ذكروه
 فاذكروه .

لا يخلو ترك علي لقتالهم ، إن لم يكن ما قلنا حقاً ، من أن
 يكون صار جباناً أو عاد منخوب القلب هيوباً بعد أن كان أشد الناس أشراً وقلباً

وأثمهم بصيرة وعزماً ؛ وإما أن يكون طمع في نزوع معاوية وتوبة عمرو ، وإما أن يكون ذلك منه على طريق الندم على « ما أراق من الدماء ومن عدد القتلى ، فتاب من ذلك إذ استبدل باليقين الشك وبالاستبصار الشبهة ؛ وإما أن يكون الحرف عجل عليه قبل وقت لِداته وقبل العادة المعروية [قة] في رهطه ، فظهر ذلك في تدبيره وغلبه الاختلاط في قوله وعمله ؛ وما علمنا أن أحداً من المخالفين والموافقين ولا من أهل الوقت ولا مما يُنسب إلى الحشو ادعى ذلك عليه ولا قرره به ؛ وكيف يقول ذلك قائل ويطمع في القبول عنه طامع وهو يعلم أن قوله مر [دود] مكذب ورأيه مسخوط معتل !

فاختاروا خصلةً من خصلتين : إما أن تُوجدوا وجهاً لم يُذكر ، وإما أن تثبتوا عبثاً أن علياً قد كان اعتراه بعض ما ذكرنا من الجبن أو من الحرف أو الطمع في نزوع معاوية أو الندم على ما سلف منه ؛ فعلى أي الخصال تعتمدون وأيها تدعون ؟ إن ادعيتم الجبن على أشد الناس قلباً وأشراً وأكثرهم للاقران قتلاً وأيمينهم نقيبةً وأشدهم بصيرة ، أكذبتم الأمة ويهتّم حكم المعرفة ؛ أما عد [د] قتلاه وجرحاه وصرعاه ومن فرّ منه وترك التعرض له ، فلا أعلم ذكرهم إلا فضلاً من القول ، وما ذلك إلا كمن التمس الزيادة في العامة إذا مد البحر بالفظن ، وإما تتابع الظفر ويمن النقية فقد علمتم الذي تهيأ له من قتل العظماء والسادة والنجباء وأن ذلك أعظم العناء ، وأنه لم يتوجه في جيش قط إلا كان هو المنصور وعدوه المخدول ، كشأنه وشأن بني زيد ، وكشأنه وشأن أصحاب الجمل ، وكشأنه وشأن أصحاب النهروان ، وهل قاومه عدو قط ، إلا ما كان في بعض ساعات أيام صفين ؟ وهل أتى في ذلك من قبل نفسه ومن تدبيره وتصميمه ومن تعبته ؟ وهل أتى إلا من جنسده؟ وهل مُنع من الظفر بهم إلا بما صنعوا بانفسهم ؟

وقد علمتم ان معاوية قد كان القى بيده وأيس من نفسه حين أحذقت به الرماح وقصد له عبد الله بن بُديل في أهل البصائر ومنعه من الفرار بزعمه الذي ذكر في شعر ابن الإطنابة بقوله :

أَبَتْ لِي عِفَّتِي وَأَبَى حَيَاتِي وَأَخَذِي الْمَجْدَ بِالثَّمَنِ الرُّبِيحِ
وَقَوْلِي ، كُلَّمَا جَشَأْتُ ، لِنَفْسِي مَكَانَكَ تُحْمَلِي أَوْ تَسْتَرِيحِي

وهل نفس عن كربه ورفه عن خناقه وردَّ عليه حشاشة روحه وابقى عليه علالة نفسه إلا ما كان من اعتزاً [سهم] برفع المصاحف ومن تركهم القتال وهو يذكرهم بالله ويمظهم بالقرآن ويزجرهم بوعدده ؟ وسنذكر من كلامه الدال على شدة اختلافهم عليه وإبطائهم عن عدوه وركوبهم إلى الراحة ، المعروف من خطبه والمشهور من كلامه والمذكور من مقامه الذي لا تستطيعون أن تقولوا إنه مما رواه أبو مخنف أو صنعه ابن داب أو ألفه شوكر أو حبره العتابي وقبل ذلك رشيد الهجري ، وهو قوله حين انكشف أمر الصحابة وظهر المكتوم من سره وسر عيوب أجناده : « أيها الناس المجتمعمة أبدانهم المتفرقة أهواؤهم ، ما عزت دعوة من دعاكم و [لا] استراح قلب من فاسساكم ، كلامكم يوهي الصم الصلاب وفعلكم يُطمع فيكم عدوكم ، إذا أمرتكم بالمسير قلتم كيت وكيت [.....] أعاليل بأضاليل وأضاليل [أبابا] طيل ، وسألتموني التأخير ، دفاع ذي الدين المطول ، استخفكم الجهل جيدي حيايد ، ولا يمنع الضيم الدليل ولا يُدرك الحق إلا بالجد ، أي دار بعد داركم تمنعون [و] مع أي إمام بعدي تقاتلون ؟ المغرور - والله - من غررتموه ومن فاز بكم فقد فاز [بال] سهم الأخيبي ! أصبحت - والله - لا أصدق قولكم ولا أطمع في نصركم . فرق الله [بين]ي وبينكم وأعقبكم من هو شر لكم مني وأعقبني من هو خير لي منكم .»

فلما نزل [قصد]وه يعتذرون إليه ، فقال : « أما [إنكم] - والله - ستلقون بعدي ثلاثاً : ذلاً شاملاً وسيفاً قاتلاً وأثرة [.....] يتخذها الظالمون عليكم سنة فيضرق جمعكم وتبكي عيونكم ويدخل الفقر [ف] لوبكم فتمنون أنكم رأيتموني فتغنموني فلا يبعد الله إلا من ظلم .»

وقال في مقام [آخر] : « وددت - والله - أن لي بكم ألف فارس من بني فراس

ابن غنم ا ، ، وقال في مقام آخر : « وددت - والله - أن لي بكل عشرة منكم فارساً من بني فراس بن غنم صرف الدينار بالدرهم » [ف] بلغ من تثبتهم لهذا الخبر ان جعلوه حجة في صرف الدينار في ذلك الدهر ؛ [و] قال في مقام آخر : « يا اهل الكوفة المنسبر من مناسر اهل الشام اطلّ عليكم أغلق كل امرئ منكم بابّه وانحجز في بيته انحجاز الضبع في وجارها ولئن رمى بكم لقد رمى بأفوق ناصيل » ؛ ولا بطائهم عن عدوهم قال لهم : « ما قوتل قوم قط في عقر دراهم إلا ذلوا » في كلام كثير مشهور معروف .

قد قلنا في العذر في اختيار أبي موسى وفي العذر في تأخير القتال بعد أن كان هو الداعي [ا] له والحاث عليه ؛ ونحن قائلون في نفس التحكيم وبالله التوفيق ؛ وجواب آخر : زعم أن علياً لو وجه الحسن او الحسين ابتداء او عبد الله بن عباس او عمار بن [يا] سیر أو مالكاً الاشر أو قنبراً مولاه او أنصح الناس جيباً أو أيمنهم رأياً أو أشدهم نبراساً أو أبعدهم غوراً أو أقواهم عزماً ، لما استجاز أن يحكمه بينه وبين معاوية ؛ [و] كيف وهو على يقين أن معاوية لا يصلح للخلافة في حال من الأحوال ، ليس لخوف التبديل به والاشفاق من ذلك الرأي عليهم ، ولكن لأن الدين والبيعة مانع من ذلك لأن الحق عنده أن اهل بدر والحديبية لو أطبقوا كلهم على أن معاوية أولى بها منه أو على أنه يصلح لها في بعض الحالات ، لكانوا ضللاً غير مهتدين ولكانوا [مخ] طشين غير مصيبين ؛ وإذا كان إنكارهم لحقه لا يحل عقدة الخلافة وإقرارهم به لا يثبت عقدة الخلافة ، بل يكون ذلك منهم مؤكداً ومسنداً ومرمياً ومركباً ؛ أما أن يكون رضي رجل أو سخطه تبرماً ناقضاً خلافته ، فلا .

قد علمنا خلاف [ط] لحة والزبير وسعد ومحمد بن مسلمة وصهيب ابن سنان وسلمة بن سلامة بن وقش وهم بدريون ، فلم يكن ذلك بناقض لإمامته ولا ناقص من بصيرته ؛ [ف] القياس أنه لو لم يكن منه سبب تستحق به الإمامة إلا سبب هؤلاء له ، أن إقرارهم غير مثبت كما أن إنكارهم غير ناقض ، ولو بان عند الامام أن رجلاً أكمل أهل محله كمالاً ثم أبى إمامته من أهل ذلك المصل

عشرة من وجوههم لأجبرهم الامام عليه ولما التفت إلى ما كان من
بنيهم عليه وغلطهم فيه .

ولكننا نزعم أن علياً دافع بمعارض الكلام وبالتورية وبما يشبه التوهيم
وأعمل المكيدة عند الحاجة إلى المكيدة حين رأى اختلاف القلوب وانتشار الامور
ونقصان البصائر والركون الى الراحة وطمع أن تكون عظته وتصرفه وتعريفه
وتخويفه مما ينفع فيهم ويسري في طبائعهم وبنبهم من رقدتهم ويحرك مواضع
الأنفة من قلوبهم إلى انقضاء تلك المدّة وفي تلك المهلة والهدنة حين ارتبق فيهم
خبلة ولم يبق غاية ، وبعد ان كتم الداء ودثر الدواء وأرفق العلاج ؛ فلما أعضل
الداء واستفحل البلاء وظهر العيب واستم الفساد وصار ستره عياً وكنمه عجزاً ،
خطب بالموهظة على المناير وقرع بالتأنيب في المحافل وأعدر عنه المقبل والمدبر ،
وكان على يقين من انهزامهم إن مضى بهم مكرهين غير متبصرين ومختلفين غير
متفقين ، هذا أسوأ ما كان [.] فله الجيوش عنه فتظهر له الخلة وتتشنع
به المثلة .



مركز تحقيقات كويتيون علوم إسلامية

[١٤ - العمل عند المعتزلة كالقول]

وأعلم أن لصاحب الفتنة والمكر والمخبر من معارض القول من التورية في
الكلام ومن إضمار المعاني في الالفاظ إلى ما يخرج من الكذب وإن وهم ذلك
القول السامع الطالب والمستحلف الغاصب الموافقة والرضى بحكمه ما ليس
لغيره ، وهذا هو المعنى في الفتنة التي أناخها الله تعالى بعباده ، وقد كان له أن
يتعبدهم بالإفصاح وإن قتلوا عن آخرهم .

ونحن نزعم أن اليمين إذا كانت لازمة لك فهي على ضمير من
استحلفك ، وإذا كانت غير لازمة فهي على ضمير الخالف ؛ وكذلك البيعة وجميع
الكلام ، والعمل عندنا في ذلك كالقول ؛ ولو أن غاصباً أخذ عليك يمناً للبيعة
له ، كان لك أن تقول « نعم » ولست تريد التي هي خلاف « لا » ولكن تر [بد]

النعم من الابل والبقر ؛ وإن كنت تعدّ أنه يظنّ غير ما تعني ، تقول أيضاً عند استخلافه « نعم » وإن وهمت الكلمة معنى « نعم » التي هي خلاف « لا » وأنت تريد الطاعة ؛ ولو قال لي بعض من أخافه على نفسي : « قل : المسيح ابن الله » ، لكان لي أن أقول [ذلك] وأنوي أنه كذلك عند النصارة ، وإن علمت أنه لا يتوهم إلا ما دلّ عليه [اللفظ] ؛ فإن أمكن أن أنوي وأوجه الكلام وأعمل الاضمار والاستثناء ولا عناء عليّ فيه ولا مشقة ولا تفتنة يرتاب بها ، ثم لم اضمر خوفاً من فطنته فقد شرحت بالكفر صدراً ، فإذا جاز أن أقول إن مع الله إلهاً آخر وإن محمداً - عليه السلام - كذاب وإن مسيلمة صدوق إذا خفت على نفسي ، بعد أن أضمر و [.....] وإن كان ظاهراً قولي التكذيب لمحمد صلى الله عليه وسلم ، جاز أن أقول إن أبا موسى حكيم وله أن يحكم وأنا أنوي غير ما أظهر وأضمر غير ما أبدي إذا خفت على الناس الفتنة والمهرج والفساد وتبديل الحكم .

[١٥ - معاوية لم يخدع علياً بل كان هو المخدوع]

فلو لم يظنّ عليّ وطمع أن أصحابه سيعودون إلى بصائرهم وإلى ما يشبه أول حيا [لهم] عند التخابر والتذاكر وعند قضاء الوطر من الزوجات والاطقان وبعض الملل من طول الإقامة وبعض الحياء من النعيم ومعه الأنف من ظهور الأعداء وبعض التوقّع للبلاء إذا جرى عليهم حكم عدوهم ولعلمهم أن يطالبوهم بطوائفهم ولم يأمنوا الوثبة بهم ، لما جاز له ذلك ولما كان لصنيعه ذلك وجه ؛ فالمخدوع في هذا الموضع معاوية والخادع عليّ ، وعليّ صاحب المكيدة ومعاوية المستراب ، لأنه في ذلك ولو ظنّ لانتشار الأمر على عليّ ثم غزاه بالقلوب المجتمعة والأهواء المتفتحة ، لما كان دون الظفر مانع ولما كان بعد تلك الوقعة وقعة ، فرأى عليّ أن التدبير في توهمه وتوهم أصحابه الرضى بالمساواة والافترار بان في أمرهما من الشبهة ما يحتاج فيه إلى نظر الرجال ، وعلم أنه متى أعطاه ما كان لا يطمع فيه ولا يناله طرفه ولا أمنيته ولم يزل يظن ، بل لا يشك ، أنه لا

يُحِبُّ إِلَيْهِ [.] ولم يكن عرف من سر أصحابه مثل الذي عرفه عليّ
فراى أنه قد ربح وأنّ عليّاً قد خسر ؛ فما ينقضي تعجبي من رضى معاوية بتلك
الهدنة والمدة مع ما قد كان ظهر من اختلاف أصحاب عليّ ، وأرى الناس
يتعجبون من رضى عليّ بها مع اختلاف أصحابه ؛ .

[١٦ - معاوية ليس ادهى من علي ولكن كان يستعمل جميع المكاييد حلالها
وحرامها بينما لم يستعمل علي الا ما وافق الكتاب والسنة]

اللهم إلا أن لا يكون عصى عليّ عندهم إلا في تحكيم الرجال دون تأخير
القتال ؛ فان كان ذلك كذلك فما قولهم وإكثارهم ؛ « عصينا أمس حين قطعنا
القتال وعصى عليّ حين رجعنا ندعوه إلى القتال [-] رأى ؛ فقد ينبغي لنا الآن
أن نقصد إلى الجواب في لفظ التحكيم ؛ أيجوز أم لا يجوز ، فنَدَعُ ما سوى ذلك
من الأمور ؛ وإذا لم يبقَ إلا ذلك فقد سقطت ثلاثة أرباع الخلاف ، وليس على
ذلك بنى القوم أمرهم وجرت عليه عادتهم ؛ وربما رأيتُ بعض من يظن أنه من
الخاصة ويزعم ان معاوية كان أبعد غوراً وأصح فكراً وأجود رؤيةً وأبعد غايةً
وأدق مسلكاً ، وليس الأمر كذلك ، وسأومئُ إليك بجملة تعرف بها موضع
غلطه والمكان الذي دخل عليه الخطأ من قبله ، فافهم ذلك .

كان عليّ لا يستعمل في حربه إلا ما عدّله ووافق فيه الكتاب والسنة ،
وكان معاوية يستعمل خلاف الكتاب والسنة ويستعمل جميع المكاييد وجميع الخدع
حلالها وحرامها ، ويسير في الحرب سيرة ملك الهند إذا لاقى كسرى ، وحقاقان
إذا لاقى زُنَيْبِلَ وفنغور إذا لاقى المهراج ؛ وعليّ يقول : « لا تبدؤوهم بقتل حتى
يبدؤوكم ، ولا تبغوا مديراً ولا تجهزوا على جريح ولا تفتحوا باباً مغلقاً ، فهذه
سيرته في ذي الكلاع وأبي الأهور السلمي وعمرو بن العاص وحبيب بن مسلمة
وجميع الرؤساء ، كسيرته في الحاشية والحشو والاتباع والسفلة ؛ وأصحاب
الحروب ان قدروا على البيات بيّتوا ، وأن قدروا على رضخ الجميع بالجندل وهم

نيام فعلوا ، وإن أمكن ذلك في طرفة عين لم يؤخروه ساعة ، وإن كان الحريق بالنار أعجل من الغرق لم يقتصروا على الغرق ولم يؤخروا الحريق إلى وقت الغرق ، وإن أمكن الهدم لم يتكلموا بالحصار ولا يدعون أن ينصبوا العرّادات والمجانيق والثقب والتسرّب والدبّابات والكمين ، ولا يدعون دسّ السموم والتضريب بينهم بالكذب وطرح الكذب في عساكرهم بالسعائيات وتوهم الأمور وإجاش بعضهم من بعض وقتلهم بكل آلة وحيلة وكيف [ما] وقع القتل وكيف [ما] دارت به الحال .

فمن اقتصر - حفظك الله - من التدبير على ما في الكتاب والسنة كان قد منع نفسه الطويل العريض من التدبير وأما الأشاهي من المكاييد ؛ والكذب - حفظك الله - أكثر من الصدق ، والحرام أكثر عدداً من الحلال ؛ ولو سمى إنساناً إنساناً باسم الإنسان كان قد صدق وليس له اسم غيره ؛ ولو قال : هو شيطان ، أو كلب ، أو حمار ، أو شاة ، أو بعير ، لكان كاذباً في كلّ ذلك ؛ فكذلك الإيمان والكفر ، وكذلك الطاعة والمعصية ، وكذلك الحقّ والباطل ، وكذلك السقم والصحة ، وكذلك الصواب والخطأ .

فعليّ كان بالورع مُلجماً عن جميع القول إلا ما هو لله رضيّ ، ولا يرى الرضيّ إلا فيما دلّ عليه الكتاب والسنة ، وممنوع اليد من البطش إلا ما هو لله رضيّ دون ما يعول عليه أصحاب الدهاء والنكرى والمكاييد والآراء ؛ فلما أبصرت العوام - حفظك الله - بوادع معاوية في المكاييد ومثابرة غوايته في الخدع وكثرة ما اتفق له وتمهياً على يده ، ولم يروا مثل ذلك من عليّ ، ظنّوا بقصور رأيهم وقلة عقولهم أنّ ذلك من رجحان عند معاوية ونقصان عند عليّ ؛ فانظروا بعد ذلك هل بقي له إلا رفع المصاحف وهي من خدعه ، ثم انظروا هل خدع بها إلا من عصي عليّاً ومال عن رأيه وخالف إذنه .

فان زعمت أنه نال ما أراد من الاختلاف فقد صدقت ، وليس في هذا اختلافنا ولا عن غرارة أصحاب عليّ وعجلتهم وتسرعهم وتنازُعهم دفعنا ، وإنما

كان القول في التمييز بينهما في الدهاء والنكرى وصحة العقل والرأي البر، لا على أنا لا نصف الصالحين بالدهاء والنكرى ولا نقول : « ما كان أنكر أبا بكر ابن أبي قحافة وما كان أنكر عمر بن الخطاب ا » ، ولا يقول أحد عنده من الخبر شيء : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أدهى العرب والعجم وأنكر قريش وأمكر كنانة » لأن هذه الكلمة إنما وضعت في مديح أصحاب الأرب ومن يتعمق في الرأي في توكيد أمر الدنيا وزبرجدها وتشديد أركانها ؛ فأما أصحاب الآخرة الذين يرون الناس لا يصلحون على تدبير البشر وإنما يصلحون على تدبير الخالق للبشر ، فإن هؤلاء لا يمدحون بالدهاء والنكرى ولم يمنعوا هذا إلا ليعطوا أفضل منه ؛ ألا ترى أن المغيرة بن شعبة ، وكان أحد الدهاة ، [قال] : « أنت كنت توهم شيئاً فتلقبه عنك ، ما رأيتك مستجلباً أحداً إلا رجته كائناً من كان ذلك الرجل ، كان - والله - أعقل من أن يخدع وأفضل من أن يخدع » ، ولم يذكره بالدهاء والنكرى ، هذا مع عجبه باضافة الناس ذلك اليه ؛ ولكن قد علم أنه إن أطلق على الائمة الألفاظ التي [لا] تصلح لأهل الطهارة كان ذلك غير مقبول منه ، فهذا هذا .

وكذلك كان حكم قول معاوية للجمع : « أخرجوا إلينا قتلة عثمان نحن لكم مسلم » ، فاجهد كل جهدك واستعن بمن شايحك إلى ان تتخلص إلى صواب رأي في ذلك الوقت أضله علي حتى تعلم أن معاوية خادع وان علياً كان المخدوع ؛ فإن قلت : وقد بلغ ما أراد ونال ما أحب ، قلنا : وهل رأيت كتاباً وضع لا على علي ، علياً كان قد امتحن في أصحابه في دهره لما لم يمتحن به إمام قبله من الاختلاف والمنازعة والشجاج على الرئاسة والتسرُّع والمجلة ، وهل أتى إلا من هذا المكان ؟ أو لسا قد فرغنا من هذا مرة ؟ وقد علمنا أن ثلاثة نفر تواطؤوا وتتابعوا على قتل ثلاثة : فانفرد ابن ملجم بالتماس ذلك من علي ، وانفرد [عمرو بن بكر التميمي] بالتماس ذلك من عمرو بن العاص وانفرد [البرك بن عبد الله الصرمي] بالتماس ذلك من معاوية ؛ فكان من الاتفاق او من الامتحان أن كان علي المقتول من بينهم ، وفي قياس مذهبكم أن

تزعّموا أنّ سلامة معاوية وعمرو إنما كانت بحزم كان منها ، وان قبل عليّ إنما كان من تضييع كان منه ، إذ قد تبين لكم من الابتلاء والامتحان في نفسه خلاف الذي قد شاهدتموه في عدوّه وكلّ شيء سوى ذلك فإنما هو تبع للنفس ، فهذا باب :

[١٧ - كفر معاوية في ادعاء أخوة زياد بن أبيه]

والباب الآخر الذي عتبتُ عليك فيه ، وهو زعمك ان معاوية قد ضلّ من وجوه وكفر من وجوه ، فأخطأت في إكفاره ولم تصب الحق في تفسير بعض الوجوه ؛ زعمت أنه كفر في حكمه بادعاء زياد بن أبي سفيان وأن من جعل الولد للماهر وجعل الحجر للفراش ومن ردّ الحكم المنصوص وبذل هذا القول المفسر فقد كفر ؛ وهذا منك سرف وبعث ، وهو شبيه بمذهب أصحاب التكلف والتزيّد ومن يريد [ب] العفن الذي في نفسه والذلة التي يجدها في قلبه والريبة التي تشتمل عليها أضلاعه أن يُذلل من حضره ويوهم من سمع كلامه ، أنه إنما يكفر من أكفر من فرط في تعظيمه لحرّمات الله ومن شدّة غضبه على من عصى الله ؛ وعهدي بك تشنع بذلك على العمريّة والرافضة وعلى الخوارج والبكريّة .

ولو كان معاوية صنع ما تقول على ما فسرت ورد المنصوص على ما ذكرت ، لكان جلة السابقين وكبراء التابعين وفقهاء المحدثين قد سبقوك إلى إكفاره وتشريكه ، بل كان أعداؤه وأهل الخلاف عليه قد أكفروه وسبقوا إلى ذلك فيه ، فان زعمت أنه قد كان عند غالبية الشيع وعند جميع الخوارج كافراً ، قلنا : لعمرى ، لو كانوا لا يكفرونه على خصال كثيرة ولا ترى أنت وأصحابك أنه قد كفر من أجلها ، ثم أكفروه على هذه الخصلة ، لكان في ذلك متعلق لهم ومصاب وجمال ومُسْتَح ؛ ولكن الفريقين جميعاً يكفرانه على جميع خصاله التي أنت لا ترى بعضها إثماً ، فضلاً عن أن تكون [عندك] فسقاً ، ولا تراها فسقاً ، فضلاً عن أن تكون عندك كافراً .

ثم اعلم أنه لا بدُّ لك من الخبر على تأنيبهم من ترك إكفاره ، بل على إكفار
من ترك إكفاره ، إذ كان إنما كفره برّد المنصوص وما لا يحتمل التأويل ؛ وأما أن
تجرأ أن تدعي عليهم من إكفاره خلاف ما ثبتت به الشهادة عنهم وخلاف
المعروف من قولهم ، فلو كان كذلك لكان [ن] الخبر به مشهوراً ولكان معروفاً
مستفيضاً ؛ بل ينبغي أن يكون قد كان ثبت عنده أن وطياً قد كان ، ورأى فيه
الشبه والمخايل والاخلاق والشمائل وشبهه له القافة ، وذهب في سبيل الفراسة
وتأويل قول عمر وسمع كلام أبي مريم وقواه رأي المغيرة فقال : « هو ابن أبي
سفيان » ، لم يذهب الى تثبيت حكم ولكنه حبّل كان عنده من نطقه فكأنه قال :
« هو من نطقة أبي سفيان » ، وكان أغلظ أحواله أن يكون كمن استلأط اليوم منا
رجلاً أو أقرّ بولد عند موته ليصرف الميراث عن آخرين ، ولم يعترض
على قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكمه وستة برّد ولا جحود ؛ والحاكم
عندك وعند أصحابك قد يعطل الحكم ويحكم بالهوى ويجلد من يستحق القطع
ويقطع من يستحق الجلد ؛ ثم أنتم لا ترون إكفاره ولا تشريكة .

[١٨ - موقف الجاحظ الحيادي]

ولم أنصب نفسي - حفظك الله - لاحتجاج له إلا بما يلزمي من الاحتجاج
من لا يرى إكفاره من السلف ، وإياهم أردتُ وعنهم دافعتُ ؛ وعلى أني على كل
حال أكره الزيادة والنقصان ، والعدل أولى بنا وهو مذهب إخواننا ومشايخنا
وسلفنا من المعتزلة في فرق ما بين الاكفار والتفسيق ، وفي فرق ما بين التفسيق
والتأنيب ، ولسنا ممن يميل في شق عن شق ويتعصب لبعض على بعض ومن
يبخس حق الدولن ، فكأنك به قد تبخس حق من فوقه حتى تصير إلى أئمة
المهتدين وخلفائه الراشدين ؛ لستُ عمرياً دون أن أكون علوياً ولا علوياً دون أن
أكون عثمانياً ، اللهم إلا بما أخص به العترة بسبب القرابة ، وأما في غير ذلك
فليس شأني إلا محبة الجميع والتوفير على الكل ودفع الظلامة عن الكبير
والضعيف على قدر ما شاهدنا عليه من الحالات ؛ وليس هذا الكتاب من كتب

أصحاب الأهواء ولا من كتب المتكسبين ولا المتقربين ولا من كتب المفلقين
بالباطل ومن جرى من النفاق على أخبث منشئ وأسوأ عادة ؛ فعليك [بسنة]
أصلافك ودع عنك ما قد أخذ الناس فيه .

[١٩ - السفينية لا تفضل معاوية لمبايعته ابنه يزيد]

وأما براءتك منه على قتل حُجْر وأصحابه وإطعام عمرو وخراج ، وعلى
ادعاء الخلافة وعلى الحكم بالهوى وتبذ كثير من أحكام الكتاب والسنة ، والسير
في الحرب والسلم سيرة ملوك الغلبة ، فهذا ما لم أملك عليه ولم أنكره منك ،
وعلى ذلك مضى سلفك الصالح - نصر الله وجوهمهم - ؛ ولكني عتبتُ عليك في
قولك : « وضللتُه أيضاً لبيعته لابنه » ، فان قلت : « وضللتُه أيضاً بالمبايعه ليزيد
لانه كان صاحب كذا وكذا ويقول كذا » ، لكان صواباً ولكن قولاً عدلاً ولكن
مصنئ مهذباً ، وأجود العبارات ما كانت الدلالة فيها غير مستكبرة ويكون اللفظ
للمعنى طبقاً فاضلاً ولا ناقصاً ، وأما أن تقول كلمة مرسله الوجوه مطلقه
[..... فلا]

مركز تحقيقات كويتيون

ضللتُه لانه بايع ابنه ، وما باس بيعة الابن إذا كان لذلك مستحقاً ؟ ما
الابن إلا كالأخ وما الأخ إلا كابن العم ؛ وما علمك ؟ لعل علياً قد بايع الحسن
ولعل الحسن قد بايع الحسين ؟ فأبي حجة تدفع ذلك وما البرهان على خلاف ما
جاء من ذلك ؟ وهل يعترض على هذا المذهب مسلمٌ وهل يجمله عاقل ؟ فأياك
أن تعود إلى هذا اللفظ مفسراً أو مشروحاً مثبتاً ؛ فان من حق العلم عليك ومن
شكر أياديه عندك ومن الصون لعراضه والدفع لقدره أن تخلص الفاظك من كل
هجنة وأن تصفّيها من كل كدر وان تتخير من الألفاظ أيهاها وأقربها دلالة وأن
تقصد من المعاني لاطهرها شرفاً وأرفعها قدراً وأكرمها منصباً ، وقد يلزم من عبّر
عن العلم وتوكل به وأضاف نفسه إليه أن يعبر عنه بأبين العبارات وأقرب
الاختصار وأن يضعه في موضعه وأن يجري عليه كما ينبغي على نفسه وأن يجيبه

إلى السامع بالإنصاف ويُنهيه عنده بالترُّسل ويوتيه بالنصيحة ، وأن يجعل قائمه إلى القلوب والعمل وسائقه إلى العقول الانقطاع إليه ، ولا يغالب خصمه ولا يناهب الكلام من ناقله ولا يعجله عن جوابه إذا فاتحه ولا يُظهر تضجره إن هو أبطأ عنه ولا يفتنم بخلطه إن هو سها ولا بشيء يلفظه ظناً وهو يجد له في الصواب محتملاً .

[٢٠ - كتاب القضية مدخول لفظاً وشهوداً ومضموناً]

وزعمت أن كتاب القضية في الحكمين يُثبت للخوارج حجبتهم وأن لفظه يمتنع فيه التوجيه والتورية ، وسألتني أن أكتب لك الكتاب لتجمع بين مخارج لفظه ودلائل وصفه وبين احتجاجي له في ضمان علي ، والكتاب الذي يدور في صحف أصحاب الاخبار والاسناد هو هذا الكتاب الذي أنا مصوره لك ، ولكني بعد ذلك عائد إلى أسانيد بالتصفح في التثبت وعلى أصل مخرجه بالتفتيش والتقرير إن شاء الله :

بسم الله الرحمن الرحيم ، حدثنا عثمان بن عبد الرحمن عن الزُّهري وحباب بن موسى وعليّ ومجاهد عن محمد بن إسحق : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (قال معاوية : « لو سميتك بهذا لم أحاربك ولولا أنك أسن مني ما قُدمتُك » ، فأبى عليّ ملياً من النهي ثم سمح وكتب : هذا ما تقاضى عليه عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان : قاضي [عليّ بن أبي طالب] على أهل العراق [ومن كان معه] من شيعته من المؤمنين والمسلمين [وقاضي معاوية بن أبي سفيان على أهل الشام ومن كان معه من شيعته من المؤمنين والمسلمين] أنا ننزل عند حكم الله في كتابه فيما اختلفنا فيه من فاتحته (إلى خاتمته ، نحى ما أحيا ونميت ما أمات ، فما وجدنا في كتاب الله مسمى أخذنا به ، وما لم نجده في كتاب الله مسمى فإلسنة العادلة الجامعة غير المفرقة فيما اختلفنا فيه ؛ والحكممان عبد الله بن قيس الأشعري وعمرو بن

العاص ؛ وأخذ علي ومعاوية عليهما عهد الله ليحكمان بما وجدا في كتاب الله وما لم يجدا في كتاب الله مسمى فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة ؛ وأخذ الحكمان من علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان الذي يرضيان من العهد والميثاق ليرضيان بما يقضيانه فيهما من خلع من خلعا وتأمير من أمرا ؛ وأخذنا من علي ومعاوية والجندين كليهما الذي يرضيانه من العهد والميثاق وأنها آمان على أنفسهما وأموالهما ، والامة لهما أنسار على ما يقضيان به عليهما وأعوان على من بدّل وغير ، وأنه قد وجبت القضية من المؤتمر والأمر والاستفاضة ورفع السلاح أين ما شأوا وكانوا على أنفسهم وأهاليهم وأموالهم وأرضهم وشاهدهم وغائبهم ؛ وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه ليقضيان بين الأمة ولأبناهم يذراهم في الفرقة والحرب حتى يقضيا ؛ وآخر أجل القضية بين الناس في انسلاخ شهر رمضان ؛ فإن أحبنا أن يعجلا ذلك عجلا ، وإن أحبنا أن يؤخرا ذلك عن ملاءمتها وتراض أخرا ؛ وإن هلك أحد الحكمين فإن أمير الشيعة والشيعة يختارون مكانه رجلا لا يألون عن أهل المعدلة والاقتصاد ، وإن ميعاد القضية أن يقضيا بمكان من أهل الكوفة وأهل الحجاز وأهل الشام سواء لا يحضرهما فيه إلا من أرادا ، فإن أحبنا أن يكون بأقرب وبدومة الجنادل كان ، وإن رضيا مكانا غيره حيث أحبنا فليقضيا على علي ومعاوية أن يجتمعا على الحكمين ؛ شهد عبد الله بن عباس والاشعث بن قيس وسعيد بن قيس وورقاء بن [.] البكري الحارفي وعبد الله بن طفيل البكاوي و (يقال : عبد الله بن طليق البكاوي) وجرير بن يزيد الكندي وعبد الله بن حجل العجلي وعتبة بن زياد المذحجي (أو الانصاري) ومالك بن كعب النحلي (أو الهمداني) ويقال : عتبة ابن زيد ويقال زياد بن كعب .

- وأنا أقول - حفظك الله - أن كتاب القضية كتاب مدحول - منه ما يشبه ألفاظهم ولحنهم وطبع الفصاحة وقريحة البلاغة - وللقوم كلام معروف وجوه معلوم متى تكلف المولّد لم يستطع تغليب الجهابذة فيه إذا طال شعره وامتدّت خطبته ، وكذلك رسالته واحتجاجه ، وقد يخفى ذلك في الشعر القصير والكلام

القليل - ؛ وفي هذه القضية كلام ركيك ضعيف خفيف سخيف ، وفيها ما يضارع العجمة ويناسب الضعة ؛ ومأ يُبهمه أيضاً اختلاف الخوارج والشيعه وما بين أهل الشام وأهل العراق من الزوائد والنقصان فيه مع ضعف أسانيدِه وحال رواته عند رُواة الآثار وحال الأخبار وعند ناقلِي الحلال والحرام ، ولأنَّ أبعد غاياتهم فيه الزُّهري وأمتن ما يعتمدون عليه ابن اسحق وهذان لم يدركاه ولا شاهداه ؛ فكلٌّ مَنْ روى ذلك عنهما فليس بالمحمود ولا المثبت المقبول ؛ وليس العلم به وبصحته كالحبر الذي ليست للخاصة فيه فضيلة على العامة وإنما هو خبر يدرك عند مَنْ يطلب مثله ؛ فإذا لم يجده في معدن الصحة وفي جوهر الصدق ومُصاب السلامة والبراءة من التهمة فكان معرضاً لأصحاب الأهواء أولمّن له في النقصان منه والزيادة فيه وفي تحريفه وتبديله أقوى العلل ؛ لم يكن لك ان تقضي به على عليّ بن أبي طالب في سابقته وشدة ورعه واتساع معرفته وصحة غريزته وثبات حجّته فكانت خليقاً أن تردّ حكم ذلك إلى الأصل الذي به عرفت فضيلته ونقصان غيره عن درجته .

وعلى أن عمامة الشهود المذكورين فيه مشكوك في نسبهم ، مختلف في أسمائهم ، ثم لا تجدهم إلا أقلّ القليل من وجوههم وذوي العدالة والأقدار منهم ، حتى كان واصفه حيث وصفه وصفه [وصف] مَنْ له الخيار عليه ؛ إن شاء أثبته وإن شاء أنكره ؛ ونحن لا نشكُّ أن عليّاً إنما أعطى القوم لفظاً ليحكم واستحلّ ذلك التوهّم بما رجا في تلك المهلة والهدنة من رجوع بصائرهم إليهم ومن اجتماعهم بعد فرقتهم ؛ وفي هذا الكتاب أن أجل القضية سلخ شهر رمضان ، وهذا كلام ظاهره ينقض ظاهر التدبير الذي لا وجه للتحكيم غيره ولا عذر فيه سواه وليس نقضه له بما يعرف [بالاستنباط] وبعد التفكير فيُدعى فيه الغلط ، بل هو ظاهر فيهما قائم بهما .

وقد قسمنا أقسام التدبير الذي لا يجوز على غيره وعددنا أبواب ذلك وسألنا المخالفين لنا أن يزيدوا فيها وينقصوا منها ، فلم نجد ذلك بعد التفكير منا ومنهم وبعد أن مرّت عليه الدهور وبردت عليه الحقود ؛ فكيف يجوز لنا أن نظن أن

علياً وأصحابه تولوا نفض تدبيرهم بأيديهم ولم يدفعوه ولم يحتالوا فيه وكيف سهلوا وكيف هان عليهم موقعه وهم لا يطمعون في سواء ولا حيلة لهم غيره ؟ وبعد فمدار الكلام إنما هو على أن علياً هو الإمام في كتاب الله وفي سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فإن دلت الكتاب على أن علياً هو الإمام فعلياً هو الإمام وسبيل السنة في ذلك سبيل الكتاب وكذلك حالهما في الحكم معاوية .

فخبرني - رحمك الله - وقف عندما أسألك عنه عن الكتاب ، كيف يجوز أن يدن على معاوية وكيف جواز ذلك وأين بابه وأين مفتاحه والطريق إليه ، في أي سورة ذلك الدليل وفي [أي] آية ذلك البرهان يُصاب ؟ وأين تلك السنة ، وأين تُطلب ، ومن أي شكل هي ، وما لفظها ، وما أصل معناها ؟ وقد علمت أن القرآن الذي أشاروا إليه هو الذي في مصاحفنا وإن السنن التي قصدوا إليها هي التي في صحفنا مما فرض الله في كتابه وسنة النبي صلى الله عليه وسلم في أمته ؛ فانظر فيهما وتبينهما وفتشهما بالنظر الشافي والتقليب المستقصى : هل تجد فيهما اسم معاوية أو صفته أو جليته أو صفة عمله أو جليته عمله ؟ .

وقد علمنا ان الله الجليل قدره لم يقل في كتابه : « اقبلوا شهادة أبي بكر وعمر وعثمان » ولكن الله لما قال : ﴿ مَن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ ﴾ وجدناهم مرضيين نصاً فقبلنا شهادتهم ؛ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليؤمكم خياركم » ، فإذا كان الغرض الذي إليه ينزع الكلام ويشير القول إليه الخير دون الشر والفضل دون النقص ، فكل من كان خيراً كان احق بتلك الإمامة ؛ فإن كان كتاب القضية إنما دعا الحكمين إلى هذا الجنس من النظر ، فليس معاوية فيه درك ، ولا متعلق ولا طمع ، وإن كان على غير هذا الوجه فخبرني ما هو وما شكله وأي صورة هو .

وقد قالوا في وصف السنة فجعلوها العادلة والجامعة غير المفرقة ، والسنة كلها عادلة وكلها جامعة غير مفرقة ، فأثبتن هي وما علامتها وما شبهتها ؟ ويدللك على فساد هذا الأمر أنه لم يأتنا قط أنها مذنفدا إلى أن انقضى امرها

تذاكرا شيئاً من ذلك في خلاء ولا ملاء ولا الشمساً تأويلاً ولا خرُجا تفسيراً ؛ ولا سمعنا في ذلك إلا ما كان منهما عند المراضة أن الناس لا يكتبون بعد تفريقهم إلا على رجل لم يُخَضَّ في الدماء وليس لأحد قبله بيعة ولا وتر ؛ فهذا خلاف الشريعة والذي وقعت فيه القضية وإنما جعل إليهما سطرأ في كتاب الله والسنة على أيهم أدل فقط ، فتركا ذلك البتة .

ثم ابتداءً باباً آخر لم يجر لها ذكره ولا وقع عليه شرط ؛ فلو ان أبا موسى قال : « قد صرفتها إلى ابن عمر » ، وقال عمرو : « قد صرفتها إلى ابني عبد الله ابن عمرو ما كان إلا كقول أبي موسى ، وهذا عند جميع من شهد القضية خلاف ما وقع عليه شرط القضية ، وهما - حفظك الله - لم يحكما على ان لهما ان يخرجاهما إلى من أحبأ وإنما جعل إليهما في ظاهر الكتاب ان يجتمعا على أحد الرجلين اللذين حكماهما ، فأما ان يقول له عمرو وهو يعرف رايه في عمر وميله إلى ابن عمر : « ما لهذا الأمر خير من رجل لم يُخَضَّ في الفتنة ، له صحبة ولم يتلطح بالدماء وليست قبله تباعة ولا ضغينة ، فيكون مرضياً ابن مرضي » ، ثم توهمه ذلك ليسكن إليه ويظهر أن الرأي في وضع شورى بين من كان هذا شكله وهذه صفته ، وهذا خروج من حد القضية ، وقد صاروا حينئذ يختاران للأمة ، فلا يثبت ذلك الحكم منها إلا أن يكونا عن توكيل منهما لهما ، أو يكون لأن مكانهما من الإسلام أن يضعا الإمامة حيث أحبأ ؛ وإذا كانا كذلك فهما أحق بالإمامة من يريان إقامته وتقويمه ، فلا الأمة وكُلتهما ولا مكانهما هذا المكان والحمد لله .

ووجه آخر تستدل به على صواب ما قلنا وتعرف به صحة ما فسرنا : كأن قائلأ قال : كان علي قد كان علم أن عمراً وأبا موسى يوم القضية وفي تلك الحال لم يكونا عند أهل العراق وأهل الحجاز عدلين مرضيين ، وإذا لم يكونا مرضيين لم يكونا شاهدين ، وإذا كانا بعيدين من جواز الشهادة كانا من جواز الحكم أبعد ؛ فأظهر علي قولأ يتوهم المتوهم معه أنه قد رضي بحكم عمرو وقد علم أن في قلوب اصحابه منه ومن سقوط عدالته ما فيها ، وعلم أن عمراً وأبا موسى [إن]

اجتمعوا على الحكم له فقد كفي القيل والقال ، وإن اجتمعوا على معاوية ، وعمرو
 مندهم لا يجوز حكمه ، كان على دارس أمره ، لأن الحكم كان مجموعاً إليهما
 ولا باجتماعهما يقع ؛ ولا يقع أن يلزم علياً حكم عمرو لمعاوية ولا يلزم معاوية
 حكم أبي موسى لعلي ، وإنما الشرط أن يجتمعوا ومن اجتمعوا عليه فله إنكار ذلك
 الحكم إذ كان واحداً من لا تتم الحكومة إلا به فاسد الحكم ؛ وإنما استجاز علي
 أن يظهر كلاماً ما ، يحتل الحكم الفاسد لمكان التقية ، وليس هذا التدبير كان
 معروفاً عنده ؛ وهذا - أبقاك الله - تدبيرٌ معجب ورأي مؤثق في هذا المكان وعند
 هذه البلية وعند الضيقة والتقية والخوف من الفتنة لا كتدبير معاوية في ذلك ، فأننا
 لا نجد له في ذلك مذهباً مرضياً ولا تدبيراً صحيحاً .

[٢١ - عزل علي معاوية لضلاله فتمرد عليه]

وقد علمت - أبقاك الله - أن الذي أخرج معاوية إلى حرب علي ولزوم
 محاربة علي عزل علي له حين يبيع له وحين لم يستحل أن يدعه طرفة عين ،
 ولذلك حين قيل له : « لو شئت أن تدعه حتى إذا تمكن الأمر ومهد وضرب
 الحق بجمرانه عزلته » - قال : « ما كنت منجد المضلين عضداً » ؛ فقد دل ذلك
 على أن رأيه كان فيها متقدماً ؛ فعلي عندما قال ذلك القول وصنع ذلك الصنيع
 الذي يتوهم عنها المتوهم أنه قد رضي بعمرو حكماً وكره أيضاً بما أعطاه الله من
 صحة الغريزة وقوة القرينة وعجيب التدبير أن يجيء برجل غير أبي موسى ويحيى
 معاوية بغير عمرو ، فكان إنكار حكم عمرو وإزالة جورهِ ، إذ كان عند أهل
 العراق والحجاز ظنيناً ، أهون وأيسر من أن يرضى برجلين مسلمين صالحين برين
 تقين مسلمين سليمين طاهرين نقين ؛ فإن هما غلطا أو بدلا كان نقي حكمهما
 والسخط لما أبرما من قضيتهما أعسر وأضيق ، بل قد أراد أن يجرح شهادة أبي
 موسى ويسقط حكمه عند جميع الأمة لأنه بالأمس قد كان روى عن
 رسول الله صلى الله عليه وسلم الروايات في الشبيط عن علي وأن من سمى معه
 في تلك الجيوش والحروب مفتنون ، حتى جرى بينه وبين الحسين وعمار ما قد

رواه الناس وشاع في الأفاق ، وصار بعد ذلك حكماً لهذا الفئات ليحدّ إليه وإلى
خبره .

كذلك كان ظاهر حالها ، فنفس حال أبي موسى كانت جارحة لشهادته
مفسدة لحكمه ، فأراد عليّ أن يكون بالخيار وكان ينبغي لمعاوية في الحزم أن يظن
لهذه المكيدة وأن يرتاب بظاهر رضاه بأبي موسى ، والحال عنده معروفة وجواسيسه
كثيرة ومن يكاتبه أكثر عدداً .

[٢٢ - الشيعة والخوارج غافلون عن فهم علي]

والناس - حفظك الله وأرشدك - عن تدبير هذا الامام غافلون ، لا الشيعة
يعرفونه فيضيفونه اليه ويحتجون به على الخصوم ويوسعون الناس عذراً عند
تضايق الأمر عليهم فيه ، ولا الخوارج النذير هم عليه يقومون والمكفرون له من
هذه المارقة يعرفون ذلك التدبير ، وهم كانوا من خاصة جنده من المحققين
وأصحاب البرانس وأصحاب السجادون غيرهم ، فيرتدعون عن إكفاره وشمته
وخلعه ؛ وقد كان ينبغي لمن خالف علياً مرة - حفظك الله - وهو مستبصر في
نفسه ثم تبين أن الحق معه ، أن يرتدع عن الاستبصار في أمر آخر فلا يدري
لعل السبيل فيه كالسبيل فيما قبله .

[٢٣ - ضلال الخوارج في قضية التحكيم]

فلو قال لهم بعض نصحاتهم : قد علمتم ما كان منا يوم رفع المصاحف
من إضلال وجه الرأي ومن خديعة معاوية إيانا ومن إصابة عليّ وجه الرأي
وتنبهه لنا ، فلعل الذي أعطى من نفسه في الحكمين من شكل ذلك التدبير ؛
بل قد رأيتم وسمعتم ما كان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم
قضية الخديبية حين ألغى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكتاب اسم النبوة

وقاضاهم على أن من أتاه من عدوه كان عليه رده ، ومن صار إلى عدوه من أصحابه فليس عليهم رده ، فماجوا وضاعت نفوسهم وقالوا : « هذه دنية » ، حتى قال أبو بكر : « لو كانت دنية ما أعطاها » ، ثم أقبل على عمرو وقال : الزم غرزه واعلم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يعط دنية » ، فلم ير المسلمون قط قضية أعظم عليهم بركة منها ، فلو فكر القوم فيما أعطى الله أنبياءه وخلفاءه من صواب التدبير والرأي والمعرفة بغوامض الأمور لما تهوروا تهور الأغمار ولا أقدموا على تخطئة الأئمة إقدام من لا يجب التمكن ولا يعرف فضل عقل الإمام على رعيته .

[٢٤ - موقف ابن عباس من عزل معاوية]

وأما ما روئتم عن ابن عباس أنه قال لعليّ حيث أبى إلا عزله وقال : « ما له عندي إلا السيف حتى يغلبه الحق » - فقال له ابن عباس : « وما لك عنده إلا السيف حتى يغلبك الباطل » ، فإن باطل معاوية يوم عزم على عزله [لا] يتخوفه على الخلافة ولا ظن أحد ولا دار في وهمه ولا خطر على باله ان الامور ستفتح وان الحوادث ستفتق بما تفتحت وتفتقت ، ولا ظنوا ان تلك الاعاجيب كانت كامنة في تلك الحالات ، ولا قدر ذلك معاوية ولا ظنه ولا طمع فيه ، ولكنها امور تناجت وأعاجيب تلاقحت وامور كثيرة - حفظك الله - قد كانت محقرة الاوائل مصفرة الاسباب ثم ترامت بها أمواج البلاء وزخرت بها بحور الفتن حتى عنت وخسرت من الجيلة وطفت وامتنعت على الأطباء ، وقد قال مجاشع الربيعي : « ليس بكبير ما أصلحه المال » وقد يصلح المال الداء وينجع فيه الدواء وربما أعضل الداء فامتنع الشفاء .

[٢٥ - العامة تستنكر مقتل عثمان فتقبل الى معاوية]

وقد خبرتكم أن دم عثمان كان من أمتن أسبابه وأجود

مصايده ، وكان ذلك الدم دماً أكثرته الجماعة واستفظعته الدهماء وكبر في نفوس العامة وفي نفوس أكثر الخاصة ؛ وقد رووا أن ابن عمر لما هجم على طارق مولى عثمان يأكل الطعام على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما ظننت ان العقوبة يقتل عثمان تبلغ ما أرى ! » ، وقال عدي بن حاتم : « إنكم إن قتلتم عثمان لم تحبث فيه عنز » ، فلما قتل ابنه وفقت عينه ودخل بعد ذلك على معاوية وقد صار الأمر إليه وله ، قال له : « هل حبقت العنز ؟ » - قال : « أي - والله - والتيس الاضخم ! » وزعموا أنهم حين سمعوا قول كثير في ولد عثمان :

وابن الذي عوقبت في قتليه العرَبُ

عجبوا مما أهدم ؛ وقد قالوا لعلي بن أبي طالب ولاصحابه يوم الجمل :

رُدُّوا علينا شيخنا ثم بَجِّلْ نعي ابن عفان بأطراف الأسفل
 فإذا كان جند طلحة والزبير وحالهما في دم عثمان والعمون عليه وهو محصور حالهما
 وهم يقولون هذا القول ويطالبون علياً بدمه هذه المطالبة ، كيف تتمجب من
 معاوية وجنده وكيف لا يطالب معاوية علياً بدم عثمان بأهل الشام إذ كان طلحة
 والزبير يطالبان علياً بدمه ، وأصحاب طلحة والزبير يوم الجمل هم فتحوا هذا
 الباب لأصحاب معاوية يوم صفين ؟ وإنما ذكرت لك هذا لتعلم أن معاوية يوم
 عزله علي لم يكن بالمخوف على ما تهبأ له وأنفق على يده ؛ فإن قلت : فإن أكثر
 الناس قد أكثروا في علي وقالوا : « قتل عثمان » ، وقال حسان بن ثابت :

يا ليت شعري وليت الطير تخبرني ما كان شأن علي وابن عفان
 لتسمعن وشيكاً في دياركم الله أكبر يا ثارات عثمان

وقال الوليد بن عقبة ايضاً :

بني هاشم رُدُّوا سلاح ابن أختكم . ولا تنهبوه لا تحل مناهيه

قلتُ لك إني قد سمعتُ من هذا روايات ورويتُ فيه أشعاراً وسمعتُ من الناس فيه خوضاً كثيراً ، وسأقيمك على السواضحة وأقف لك على الجادة ، بل على العلم العظيم والمنهج الفسيح إن شاء الله ؛ وخير الاقوابيل بل أعدّها وأرضاهما عند الله أقصدّهما ، ولذلك اخترنا الاعتزال مذهباً وجعلناه نحلةً ومفخراً ؛ وسنقدّم قبل القول في هذه المسألة قولاً ، فافهمه ، قالت الجهمية : « لا نقول إن الله معنى ولا نقول إنه شيء ، ومتى أضفنا إليه شيئاً فمتى نحن أضفناه إليه فذلك الشيء فعلٌ من أفعاله ، كذلك سمعته وبصره وعلمه وقدرته . » وقالت الرافضة : « هو جسم فضلاً عن ان نقول إنه شيء . » وقالت المعتزلة : « هو شيء وليس كمثل شيء ، وليس بجسم وليس علمه بفعل ولا صنع ، وإنما قولنا : له علم ، كقولنا : هو عالم ، نريد أنه لا يخفى عليه خافية . »

وقالت المرجئة : « القاذف مؤمن » ، وقالت الخوارج : « القاذف كافر » ، وقال بعضهم : مشرك ؛ وقالت البكرية : « بل هو أسوأ حالاً من المشرك ، والمُنافق أشدّ عذاباً من الكافر » ؛ وقالت المعتزلة : « هو فاسق كما سُمّاه نصّاً ولا نسّميه كافراً فيلزمنا أن نلزمه أحكام الكفار وليس ذلك حكمه ، ولا نقول : مؤمن ، فيلزمنا ولايته ومدحه وإيجاب الثواب له ، وقد أخبرنا الله تعالى أنه مشؤوم من أهل النار ، فنزعم أنه في النار مع الكافر وأنه لا يجوز أن يكون في الجنة مع المؤمن . »

وقالت الخوارج في قتال الفئة الباغية : « نسير فيها بالإكفار وبالسي والغنائم وباتباع المدبر والاجهاز على الجريح » ؛ وقالت المرجئة : « لا قتال » ؛ وقالت المعتزلة بالقول المرضي وهو إيجاب القتال على جهة الدفع لا على القصد إلى القتال ولا على السي ولا على الاجهاز على الجرحى ولا على استحلال

الاموال ، فلم تُفطر إفراط الخوارج ولم نقصر تقصير المرجئة ، ودين الله بين المقصر والغالي ، وهذا الاشتقاق ، وهو التوسط والاقتصاد ، هو الاعتزال لغلو من غلا وتقصير من قصر ؛ والاصل الذي نبي عليه أمورنا فيمن ليس عندنا كعلي وسابته وأروته وكامل خصاله بل في أدنى رجل من أوليائنا ، أنا متى وجدنا له عملاً يحتمل الخطأ والصواب لم يكن لنا ان نجعل عمله خطأ ، حتى يُعيينا فيه وجه الصواب ، وليس لنا بعد ان قضينا بانه خطأ أن نقضي بانه خطيئة حتى يُعيينا القدر بانه سليم من طريق المآثم ، فان قضينا بانه إثم فليس لنا أن نقضي بانه ضلال ونحن نجد لصرف الدفع عنه أنه ضلال الى الاثم عتماً ، وان قضينا بانه ضلال فليس لنا ان نقضي بانه كفر إلا بعد ألا نجد من ذلك بدأ فيكون الحق أحق ما قضي به وصبر عليه .

فمن كانت - حفظك الله - هذه سيرته وطريقته في أدنى أوليائه ، فكيف تظنه في أرفع أوليائه ؟ فهذا ما لا يحل لي أن أظنه بعلي بن أبي طالب ؛ فان كان عندك برهان واضح ودليل بين يكشف لنا عن الحال فيه حتى يتبين به انه كان سبياً من إراقة دمه ، فعلينا البسمع واليقين والاقرار وعليك البيان والافهام بالدليل والحرص .

واعلم أن الرجل المخوف على الملك قد يكون محبوساً عند الملك القائم فيموت حتف أنفه ؛ فلا يشك الناس أن الملك هو الذي أمر بقتله ، ويموت على فراشه وفي منزله ؛ فلا يشكون انه قد دس إليه السموم وأدب إليه العقارب ، ويموت وهو ناء عنه ؛ فلا يشكون انه قد احتال له وتقدم في ذلك من أمره على يدي طبيب أو خادم أو طبّاخ أو صاحب شراب على بُعد داره وشطون مزاره ، ولو تمنع مكانه واشتد احتراسه ؛ ولو قتله هبوب الريح أو صعقته صاعقة لوجدت من يقول في ذلك قولاً مرغوباً عنه .

وقد قال بعض العلماء عن تعلم : « لقد عجز عن معرفة أمر عثمان من شدة غيبه ، فكيف بمن غاب عنه ؟ » ؛ ولو كان معاوية القائم ، بزعمه ، بدعه هو

القائم بعده بالحجاز والعراق ، لوجدت من يقول إنه قد كان دس عليه ورفض به وأفسد عليه وأنغل ، إن لم يجدوا شيئاً ظاهراً ؛ هكذا الناس فاعرفهم ، إلا من عصم الله ولا يعصم الا المخلصين .

[٢٧ - موقف علي والناس من مقتل عثمان]

وكان - حفظك الله - من أعظم ما أثنى به على علي في دم عثمان أن دمه الامة كانوا يعقلمون شأن دمه ويبرثون علياً منه ، وكان اكثر أجناد الخلافة والقواد ورؤساء العشائر من سوء الرأي في عثمان وحسن الرأي في قاتليه على خلاف ذلك ؛ ولم يكن للناس جند سواهم : فصار علي ، إن هو أظهر الدلالة الصحيحة على البراءة من قاتليه ، خاف أن يفسد عليه عامة أجناده ؛ فكان يمسك من ذكره ما امكنه الامساك ، فإذا اضطره القول قال قولاً يحتمل رضى الفريقين ، ولو شهدته - أرشدك الله - عذرتة ، ولو وهمت نفسك بحالته التي كان يمتحن بها لصوبته ، بل لعلمت انه لا رأي ولا صواب إلا ما اختار ولا رأي إلا ما كان يفعله ؛ واحذر - حفظك الله - تخطئة الاثمة ، فإنه [لو] لم ينزل ذلك إلا لأنها كثيراً ما تظهر من تدبيرها شيئاً تورى به عن شيء آخر يخسافة في حال وطمعاً [في] ان تكون مصلحة شأنه في ذلك التدبير ، لوجب عليك ترك ذلك ، ولذلك روي عن علي : « ما قتلته ولا امرت بقتله وما ساءني وما سرنني » ، وروي عنه انه قال : « الله قتله وانا معه » ، في كلام كثير يحتمل التأويل .

[٢٨ - أنصار معاوية يحتجون له]

وزعمت أنك سمعت رجلاً من السُفيانية ممن يرى رأي المروانية وبعض من ينحل مذهب الغيلانية ومن أصحاب ثور بن يزيد والاوزاعي يذكرون حججاً في تثبيت الخلافة لمعاوية وأن نسبه إليها أقرب من نسب الزبير وطلحة ، وأنهم

كانوا يتعجبون من رأى الوقوف في حرب عليّ والزبير وطلحة ولم يقف في حرب عليّ ومعاوية ، وأن معاوية إما أن يكون على الحق وإما أن يكون أثبت على القياس وأبقى على المسائل من أمر طلحة والزبير ، وأن حجته في قتال عليّ أصح من حجة عبد الله بن وهب ، وأن عذره أوضح من عذر أصحاب النهر ، ولكنه لما كان أهل الحجاز وأهل العراق ليغضبتهم على أهل الشام ولطول محاربتهم لأجناد بني مروان وآل أبي سفيان أطلقوا على عداوتهم البراءة منهم ، صار من عرف حقهم استعمل التقيّة ومن لم يعرفه قال : « تقول تلك الجماعة » ، إذ كان لا يرى الجماعة إلا تلك الجماعة .

[٢٩ - موقف طلحة والزبير من علي]

وذلك أن علياً سُمي أصحاب الجمل الناكثين لنكث طلحة والزبير لبيعته ، ولم يختلف الناس في بيعتهما له ، ولا أنكر ذلك الزبير يوم واقفه عليّ بالبصرة وقد أقر بها طلحة ثم ادعى الإكراه ؛ فني واجب الحكم أن يقضي عليه بإقراره وأن يُسأل البيّنة على دعواه ؛ ولم يشهد إلا أسامة ، وليس في قول أسامة وحده حجة على أنه لم يشهد عليّ ، وأسامة ممن ترك بيعة عليّ ، ولو لم يدع بيعة عليّ لما كان في شهادة الواحد حجة ؛ على أنه لم يشهد إلا بأنه بايع وهو كاره ، وهذا اللفظ يحتمل الوجوه ، وهو بخلاف ما أراد طلحة أشبه .

والحق كله مرّ والباطل كله حلّ ؛ وقد خلق الله النار فحرقها بالشهوات وخلق الجنة فحرقها بالمكراه ؛ ومن صفة الطاعة أن يحتمل فيها صاحبها الكلفة والمشقة ومجانبة الهوى ، ومن صفة المعصية أن يدخل فيها من طريق الشهوة لها والذهاب معها ، وقد رجع الزبير عند الأذكار ، وتأخر طلحة إلى خلاف موضع صاحب الاستبصار حتى قتل في أخريات الناس ، ولذلك قال بعض الناس : « لله مصرع شيخ ما أضيعه » ، وهو لا يستطيع أن يدعي على معاوية عقد بيعة ولا على أصحابه نكثاً كما ادعى على الزبير وأقر له بها طلحة .

[٣٠ - احتجاج السفينانية بان معاوية لم يكن قاسطاً]

« ولو كان معاوية سيء السيرة في أهل الشام سيء النظر للعوام غير مُصيب في سياسة الأجناد وفي ترتيب الأشراف وفي تقريب العلماء وفي رحمة المساكين ولم يكن عفيفاً عن المال شديداً على الفاسد نامعاً للظالم قوياً في الحق سهل الحجاب معظماً للشريف منصفاً للضعيف بصيراً بالحزم عالماً بالحكم كثير الفتوح رحب العطن واسع الصدر ميمون النقية فاضل الحلم ، قد جمع المحبة والهيبة ، لما لقوا معه بجباههم ظبابة السيوف وينحورهم أطراف الأسننة ، ولما خلّفوا العيالات وراءهم [و] ملك الروم قد زحف اليهم ، ولولا أن عدله عليهم وحسن سيرته فيهم قد كان دخل كل قلب وخص كل شخص وتمكّن من كل قلب ، لكانت الملاة لطول الولاية والذي يعتري النفوس من الضجر والضعة عند السامة قد منع من ذلك وأعان عليه من لم يعنه ، ولكان أحسن حالاته أن ينجو منهم سالماً لاله ولا عليه .

وهل رأيتم قط أو سمعتم برجل ولي مثل ما ولي من أمر الناس أربعين سنة ، عشرين سنة منها كان فيها أميراً وعشرين سنة كان فيها خليفة ، وكانوا مع ذلك يوم فارقهم أضرب به وأميل إليه منهم في ابتداء ولايته وفي أول ما أذاقهم من حلاوة إمرته ، وقد رويتم أن علياً قال : « لا تتمنوا موت معاوية ، فإنه لو مات لرأيتم الرؤوس تندر عن كواهلها » ؛ وقال معاوية : « لو أن شعرة طرفها في يدي وطرفها الآخر في أيدي الناس لما انقطعت أبداً » - قيل له : « وكيف ذلك ؟ » - قال : « كنت إذا مدّوا أرسلت وإذا أرسلوا مددت » .

فمن أين سمّاهم القاسطين ، والقاسط هو الجائر ؟ فأبي جوار كان رأى منه ؟ ولو كان صاحب جور كان من أغضى له على ذلك الجور أجور ، فهذا اسم أصحاب يوم الجمل اشتق لهم من النكت لنكت الرجلين ؛ وهذا اسم أصحاب النهر اشتق لهم اسم الحرورية من نزولهم بحروراء ، واسم المارقين لأنهم مرقوا عنه من الحق مرتين : مرة حين عرفهم أن رفع المصاحف خدعة ، فعصوه

ومرقوا عن أمره ، ومرة لسألتهم إياه العودة وهو يرى فيهم الوهن وفساد القلوب
وضعف الركن .

خبروني عن معاوية أي جور ظهر منه منذ ولأه عمر إلى أن قُتل عثمان ،
وعلى من كان جاراً ، وأي شيء ذلك الجور ، ومن يعرف ذلك ومن يشهد به
عليه ؟ فان زعمتم أن امتناعه من اعتزاله [عن] العمل هو جور فلذلك سمّاه
فاسطاً ثم عمّ به الجميع لطاعتهم له ، فقد قلنا في ذلك ما قد سمعتم ، وكيف
ونحن لم نرَ أحداً من فقهاءهم لم يأخذ منه عطائه ولا أبى جائزته ولا أسقط اسمه
من ديوانه « ولا ترك ابتياع السبي من مغنم عميال ثغوره ولا ترك وطر ما يبيع من
مقاسمه ولا ترك الأكل والبيع والابتياع من ثمار قطائعه ، ولقد سموا العام الذي
سلم إليه فيه الحسن الخلافة « عام الجماعة » ، ولقد دفع إليه عبد الرحمن
ابن سَعْرَةَ ، وهو من كبار الصحابة ، مالا كان عنده وعليّ حي ، وقال : « جيبته
في الجماعة فلم أكن لأدفعه إلا في الجماعة » ؛ وقيل لابن عمر : « ما منعك من
أخيك ابن الزبير حين نصب نفسه للخلافة وخرج على يزيد بن معاوية ؟ »
- فقال : « إن أخي وضع يده في فرقة وأنا لن أنزع يدي من جماعة وأضعها في
فرقة » .

[٣١ - احتجاج السفينانية بان عمر وعثمان وليا معاوية وان علياً لم ينل

الخلافة بالتشاور والاجماع او النص]

وقلت : وكان مما احتجوا به في استحقاق اسم الخلافة واستيجاب الإمامة
أنه قال : « هذا موضع وضعي به عمر بن الخطاب ، ولم يعزلني مد ولأني وقد
كان لا يكاد يدع أميراً إلا استبدل به ولأ غضب عليه لبعض ما يكون منه ،
وربما أمر بإشغافه إليه ، ولم يعزلني ولم يغيظ عليّ مد رضي عني ولا عزلني مد
ولأني ، ثم جمع لي الأرباع بعد أن كان ولأني ربعاً وقوى أمري وثبت وطني ،
ثم أكد لي ذلك عثمان بن عفان وشئده وقوى أمري ومكنه ، فلم يكن لي سني

الاختلاف أكثر في ذلك منه في سبني الائتلاف ، ثم إنك أمرتني بالاعتزال من غير أن أكون أحدثت حدثاً أو أويتُ حدثاً ، وأنت لم تأخذها من جهة التشاور والتخاير كما أخذها عثمان ، ولا نصّ عليك عثمان كما نصّ أبو بكر على عُمر ، ولا أجمعت عليك الأمة من تلقاء أنفسها كما أجمعت على أبي بكر ، فلم يكن لي أن أسلم إليك علقاً في الفرقة كنتُ تسلّمته من أهله في الجماعة ؛ فإن حاربتني على ما في يدي ، منعتك ، وإن تركتني ، سلمته إلى مثل من سلمه إليّ ، ولي أن أمنعك بالسلاح إن شهرت عليّ السلاح ، وأن أمنعك بالحجة إن طلبته مني بالحجة .

[٣٢ - احتجاج السفينانية بان ولاية معاوية صارت له بوضع اليد]

وزعمت أنهم قالوا : وقال معاوية : « احسبوا أن هذا العلق الذي قد صار في يدي ، وصار لي فيه حقٌ صاحب اليد فيه ، كان لقطعة طلبها مني بعض من لم يثبت عندي أن اللقطة له ، لا من طريق البيئات التي لا معارض لها ولا من طريق العلامات التي يستحق بها اللقطة من جاء بمثل العلامات التي يُستحق بها اللقطة : فأنا في منعتك محقٌ ، وأنت في طلبها مني مُبطل ، فإن قاتلتني قاتلتك دون حقي ، وإن كفت عني انتظرتُ بها صاحبها متى أرادها مني ؛ أو ليس لو طلبها مني سعد ولم يتبين لي أنه أحق بها منك فدفعتها إليه كنتُ ظالماً لك ؟ فكذلك أنت في التماسك ما لو دفعته إليك كنتُ ظالماً له ؛ فإذا اجتمعتما على أمر ، فعندها لك أن تأمر وتنهى ؛ ولست في جهلي فضلك على سعد بأسوأ حالا من سعد حين جهل فضيلتك عليه ، وقد أشكل عليّ كما أشكل على من قبلي ؛ ولو كانت أقداركم عند عمر بن الخطاب متميزة وحالاتهم عند أنفسكم وعند الرقباء عليكم غير مشكلة ، لكان تكلف التشاور عيباً وهجراً ، ولكان تكلف عمر ذلك لكم جهلاً وضعفاً ، وكيف أمسكت في ذلك الدهر عن إنكار مخايرة سعد وأنكرته في هذا الدهر ؟ فأرنا الفضيلة التي حدثت لك والنقص الذي ظهر له . »

[٣٣ - احتجاج السفينانية بان معاوية أولى الناس بمطالبة علي بدم عثمان]

وزعمت أنهم قالوا : قال معاوية : « قتل إمامي وخليفتي مظلوماً وقتل ابن عمي وولي نعمتي مخلولاً ، ورايتُ موضع قتليته ومتهكّي حرمانه في زمان مفتون ودهر اختلاف ، وأولياء دمه ضعفاء وهم لي أهل وأولياء : فإن أنا طلبتهم وحبستهم إلى أن يقوم إمام يحكم فيهم وكان ذلك مني من طريق القيام بحق الحرمة والحسبة وما يجب من شكر النعمة ، كان ذلك حسناً : فهو يحسن من طريق الدين والحسبة ومن طريق الوفاء والمودة ومن طريق الأرحام الماسة ومن طريق ما يُوجبه شكر النعمة ، وكيف يحسن بي أو يُستحسن لي ترك محاولة ذلك وتكليفه وتعاطيه وامتحان الحمال فيه مع ما معي من الآلة والقوة والعدد والعتاد والعتة ، وقتلته معروفون ومكانهم مشهور ؟ فإن حال بيني وبين الاستيثاق منهم أحد كان ظالماً ، وهل أنا في أخذهم إلا كقوم مات إمامهم فشدوا على من في مجالهم وعشائرهم من أهل الدُّعارة والفساد ومن رجال الفتنة والفساق فحبسوهم إلى أن تجتمع جماعتهم وتُفق كلمتهم ؟ فإن منعتي دون هؤلاء القتلّة مانعٌ بالسلاح ، طلبتهم بالسلاح ، وإذا فعل ذلك عدلٌ زالت عدالته وتحول حكمه ، ولا تجوز الإمامة إلا للعدل ، بل لا تجوز لمن اشترك في دم أو أمان علي قتل مسلم ؟ أو منع وليّ الدم من أخذ قاتلٍ وليّه إلى أن يسلمه إلى من له أن يحكم فيه حكمه . »

[٣٤ - احتجاج السفينانية بان الخلافة شورى ومعاوية أحق بها من بقية

الشورى الأربعة] .

وزعمت أن أصحابه قالوا : وكيف جاز لسليمان بن صردة وللمسيّب بن نجبة ولعبد الله بن هلال أن يطلبوا بالسلاح قتل الحسين بن عليّ ، ولا يكون لمعاوية أن يطلب بالسلاح قتل عثمان ؟ ، وقلت : وزعموا أن معاوية زعم أنه أحق

بالخلافة من جميع بقية الشورى : فأما سعد فلم يستحقها قط لأنه كان جليساً لا يرى أن يدفع ضيماً ولا يمنع حرماً ، وأن الدفع بالسلاح ممن أراد السلطان بالسلاح بدعةً وفسق وضلال وفجور ، ولأنه روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان أخى علياً دون جميع الصحابة وقال له : « أنت مني بمنزلة هارون من موسى » ، فإن كان صادقاً فهلاً روى هذه الرواية أيام كان علياً حياً وهو يجاذبه الرئاسة ويأبى تقديمه الى مقام الإمامة ويصرح أنه أحقُّ بها منه ويدعوه الى الشورى ويقول : « ما أنا بمقصي هذا أحقُّ مني بها » ؟ وهل يخلو من أن يكون في روايته كاذباً أو صادقاً ؟ فإن كان صادقاً فقد ضلَّ بامتناعه عن بيعة من هذه عنده صفة وترك تقديم من هذه الرواية فيه ومن مكانه من الرسول هذا المكان ؛ وإن كان كاذباً فليس هذا النوع من الكذب من أخلاق الأئمة ومن صفات الخلفاء ، وهل أن من أقرُّ بأنه قد ترك تقديم من هذه صفة ، فقد أقرُّ على نفسه بالمعاندة ويشرك الإقرار لأهل الحق بحقهم ؛ ومتى ثبت ذلك عليه بطل خبره وردت روايته ، ومن كان مكذباً في حديثه ، فغير إمام ولا حاكم ولا شاهد ، فافهم ذلك .

وأما طلحة والزبير ، فإن كانا قد اهتديا في بيعته ، فقد ضلَّا في النكث عليه ، وإن كانا قد ضلَّا في بيعته ، فما تابا من ضلأهما ولا خرجا من إدخال الشبهة على رعيتهما ، وإدخال شبهة تُورث الفتنة أعظم من قتل رجلٍ من المسلمين ؛ وفي رجوع الزبير ونكوص طلحة وفيما كان من مسيرهما وتجاهدهما الإمامة فيما بينهما وتقديم أبنائهما الصلاة على النوب واختلاف أمرهما ما يدلُّ على اختلاط التدبير ؛ فلأنهما لم يكونا من أحلاس الخلافة ولا يتسمان لها ولا ينهضان بأعبائها ، وإن الأمر لو أفضى إليهما ومات من ينازعهما ، لكان كل واحد منهما أشدَّ على صاحبه من العدو الذي مات عنه ، ولو فرغا من حرب عليٍّ لألقيا للناس حرباً أطول وفتنةً أشنع وقتلاً أذرع ، ولو قتل كل واحد منهما صاحبه أو مات عنه حثف أنفه لجري بين ابنيهما ، إذ كان هذا يصلي بالناس مرة عن أبيه وهذا مرة عن أبيه ، من الشرِّ والمناسبة ومن القتال والمغالبة ما « هو أشنع وأفظع

وأدهى وأمر ، ولو كان ذلك لأصابنا من أتباع أبنائه الأبناء وسرعان الغوغاء ما يُنسي ما قبله ويشغل عن ذكر ما تقدم امامه ، ومن كان كذلك حكم ارتحاله وحله وعقله ونقضه وإبرامه لم يستحق تلك المقام ولم يستوجب تلك المراتب .

وقالوا : وأما علي بن أبي طالب فإنه مع الشرك في دم عثمان والاشتمال على قتله لم يزل لا يرى أن يعيد الأمر إلى الشورى وكان ذلك منه طعناً على عمر وزيارة منه على أولئك الرقباء والأمناء وخلافاً على رأي الجماعة ، والظن على هؤلاء ضلال والخلاف عليهم إثم كبير ، وإنما كان الإنصاف والإقرار بالحق والخضوع اللازم أن تجتمع بقية الشورى وهم أربعة فيشتوروا في التخيير كمشورتهم فيه وهم ستة ، ولأن ذلك الأمر إنما كان مقصوداً على قوم قد أجمعوا على تفضيلهم وتولييتهم وأنه حق لنفر فلا يزول حق الحي لموت الميت ، والجماعة الذين كانوا بالأمس راضين لم يتغيروا ولم يتبدلوا ، وإنما كانوا ستة فمات عبد الرحمن وقتل عثمان : فلو تركهم علي يجتمعون ولم يبتز الأمر وصيره إلى التخيير والتشاور وإلى طلب من هو أرى عليهم وأنفع لهم ولو بشيء يسير وذلك هو القياس ، لما كان اختلاف كما لم يكن قبله اختلاف ، وعلى أن المسلمين لم يتشاوروا قط في أمر الإمامة فيما دونها فافترقوا إلا عن غير اختلاف ، وكيف يختلفون وقد أطاعوا ربهم وكيف لا يعصمهم وقد اعتصموا بحبله وآثروا حقه ؟ قال الله : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنِهِمْ ﴾ ، وقال : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ ، وقال : ﴿ فَابْتَغُوا حَكْماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكْماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ ، ولا يجوز أن يضمن التوفيق لنفسين إذا أرادا الإصلاح ويخذل الجماعة ، ولا يجوز أن يوفق من كان من عرض الأمة ويدع الأئمة .

ويعتد فهل خالف ذلك الرأي من عمر أحد ؟ ولقد اتفقوا عليه بعد موته كما اتفقوا عليه قبل موته ؛ ولقد خالف بعضهم أبا بكر في استخلاف عمر وما خالف أحد عمر في وضع الأمر في الستة ، ولم يقل أحد من الستة : « فينا واحد لم يكن ينبغي أن يكون معنا » ، أو : « في الناس واحد كان ينبغي أن يكون

معنا» ، لا ولا قال احد من الأمناء ولا من جميع الجمهور والدمماء : « فيهم واحد لم يكن ينبغي أن يكون فيهم وفيما واحد كان ينبغي أن يكون معهم » ، فتَمَّت الكلمة وشاع الرضى واستفاض التسليم .

وقالوا : فعلي لا يصلح لها من هذه الوجوه وطلحة والزبير لا يصلحان لها من حيث ذكرنا ، وسعد هو الذي لا يجوز أن يجيء منه ملك ولا إمام في كفر ولا إسلام ، لأن من لم يدفع عن بيضة الملك بالسيف فهو مقتول وأمره ضائع ، ولم يطلب ملكك أحدً فرضي بأخذه دون أن يأخذ نفسك مع الملك ، وهذا قائم منذ كانت الدنيا ، ولو آمنه أن يثب به أو يثب من أجله واثب ما دام حياً لكان استبقاؤه أحب إليه وألذ له وأبلغ عنده فيما يريد .

[٣٥ - احتج السفينة بانه لا بد من الدين والسيف في الملك]

وقالوا : ولو ادعى رجل عندنا النبوة وذكر أنه يستشهد إحياء الموتى والمشى على الماء ، ثم زعم أن الملك مستقيم دون منعه بالسيف والسوط ، لعلمنا أنه لم يكن ليأتي بعلامة أبداً ولا يُقيم شاهداً على دعواه أبداً ، إلا ان يأتي قوم طبائعهم على خلاف طبائعنا وحالاتهم على خلاف حالاتنا وعاداتهم على خلاف عاداتنا وأسبابهم على خلاف أسبابنا ؛ فأما والأمر على ما شاهدنا من طبائع الناس اليوم وعلى ما سمعنا من طبائع العرب في جاهليتها وإسلامها والعجم في سالف أيامها ، فإن ذلك لا يجوز ولا يقوله من يعرف الدنيا وما فيها ؛ ولذلك لم يكن للزنادقة مملكة قط ولا تكون أبداً ، ولقد اضطر الأمر نصارى الروم ونصارى الحبشة إلى الدفع بالسيف حين رغبت في الملك ومالت إلى الدنيا مع علم جميع العالم أن القتال ليس من دينها ولا من مذهبها .

ألا ترى أن الله لم يُخل الدنيا من أن يجعل فيها نبياً يحمل السلاح ويُقيم جزاء الحسنه والسيئة ويستعمل السيف والسوط ، أو يضم إليه ملكاً يذب عن النبوة بعز الملك ويدعو النبي إلى طاعته براءة النبوة ؛ فأما أن يُرفع أحدهما من

العالم فلا بد من اجتماع اللين والشدة إما في شخص واحد وإما في شخصين ، وقد قال الله : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ، وفي المثل المحمود : « قتل البعض إحياء الجميع » ، وليس في الأرض ملك إلا وأطراف مملكته تنتهي إلى حدود ممالك الملوك ، فهو وإن تنصّر فإن الملوك لا يتنصرون معه ، وإن تزندق لم يتزندقوا معه ، على أن الملوك لم تنصب الأديان رغبة في الديانات ولكنها تعلم أنها إن لم يكن لها دين لم تلزم بيعة ولم يثبت عقد أولى الملك من بعدها ، ولم يتدين الناس بقتال من يخرج عليها ويريد إزالتها ؛ وإن لم يكن دين كانت الأموال متهبة والزوجات مشتركة ولم يثبت نسب ولم يكن لأحد وارث ولم يكن تزويج ولا طلاق ولا ملك ولا عتاق ولم يثبت توكيل ولا أجره ولا شهادة ولا وصية ولا شرط ولا عهد ولا حدود ولا قصاص ولا قود ولا حبس ولا إقرار ولا إنكار ولا دعوى ولا أيمان ولا بيع ولا شراء ولا ميراث ؛ وإنما يحرص عليه لأن به وفيه ثبات ملكه وتوكيد سلطانه ، ثم لا يبالي ما قالوا في الله وما جوزوا على الله وكيف وقعت الأمور بعد أن يستقيم له شيء يكون فيه وبه ثبات الملك .

فإن كنتَ محبباً أن تعلم أن الذي أقول حق فتأمل قول كسرى مع شدة عقله في الله وفي إبليس وفي أعلام زرادشت وفي شرائعه من غشيان الأمهات والتوضؤ بالأبوال ، وفي دين قيصر وقوله في الله وفي المسيح وفي بولس ، وفي دين ملوك العرب وفي عبادة الحجارة ، وفي ملوك الهند في البُدّ وفي تعظيم الزنا ، ودخول النيران ، وهؤلاء رؤساء الأمم ، فانظر كيف تجدهم في الأديان .

[٣٦ - اسباب صلاح معاوية للخلافة بنظر السفينانية]

وإذا كان هؤلاء وهم بقية الشورى لا يصلحون للإمامة فمن دونهم أجدر ألا يصلح لها وكانوا منها أبعد ؛ وقلت إن معاوية أولى بها منهم إذ كان أبراهم ساحة من هذه العيوب وأسلمهم فناء من هذه اللوائم ، ولأنه أيضاً أول

مَنْ انتدب ؛ ولو أن جميع أهل بدر أمكنهم إنكار المنكر من مَلِكٍ متغلب إلا أنهم لم يتكلموا ذلك حتى انتدب رجل من عرض المسلمين فبذل نفسه وأهله وماله ودياره وعشيرته وأصحابه وأمل الناس فيه درك حاجتهم ورجوا الفرج على يديه ، كان ذلك المنتدب - وإن كانت سابقة غيره أفضل - أولى بذلك منهم ، ولعله أن يلحق بهم في الطاعة أو يجوزهم ، كما عقد عمر بن الخطاب لأبي عبيد ابن مسعود على أربعين من أهل بدر وعلى الجماعة الكثيرة من المهاجرين والانصار السابقين وليست له في ذلك علة إلا أنه كان أول من انتدب ، ولذلك كانوا رأوه وتحدثوا به ، فساروا تحت لوائه وصلّوا خلفه وأطاعوا أمره وأكبروه بالخضوع له وأعظموه بالإطراق بين يديه والانتصاب له عند طلعت .

[٣٧ - رد الجاحظ على حجج السفينانية]

قد كتبت إليك ، يا ابن حسان ورسمت لك ما ألقيت إلي من جمل دعواهم مفسراً ومن حججهم مبيناً ، ولم أقتصر على مقدار ذلك حتى لم أدع لذي هوى نزاعاً ولا لذي حيلة متعلقاً ، لأن أحسم من قلبك هذا الداء وأقطع أصل هذه المأذة ، ولولا أني - والحمد لله - على ثقة من سهولة الجواب وقرب المأخذ وظهور المعنى وقمع الحق للباطل وأنه لا يتلقاك إلا مكشوف القناع ناصع البياض مشرق اللون ، كما رضيت أن أكون سبياً لتنبه العدو ومأذة الخواطر الأعداء ، ولعل بعضهم أن يعدو عليّ بالسلاح الذي ألقيت إليه يوم الحفل ويلتمس به نحري على شغل مني ؛ فقف الآن على فصل فصل وانظر في باب باب ، فإنك ستفهمه ما لم تتشاغل تشاغل المستفرغ وتستبين ما لم تصد عنه صدود المتعمه إن شاء الله .

[٣٨ - معاوية لم يحتج بحجج السفينانية]

باسم الله الرحمن الرحيم فأول ما أبدوك به وأول ما أذكره لك من هذه

الخصال ، تعريفك أن معاوية لم يحتج بشيء من هذا قط ولا احتج له به في عصره أحد ، ولا جرى لهذا الشكل ذكر قط ولا خطر على بال ؛ فمنه ما تكلفه أعداء علي من المتكلمين وأهل السباب من الناصبة الملاحين ، ومنه ما هو تخريج من أصحابنا لخصومهم على أنفسهم ليتقدموا في الحجّة وفي العناد والعدّة وفي الأخذ بالثقة كصنيعهم واعتلاهم بمذاهب المخالفين ودعوى جميع المبطلين ، ومنه ما حضرني عند ابتدائي الإخبار عنهم وما عزمّت عليه من استقصاء كلّ شيء لهم لتعرف قوّة أوليائك وعجز أعدائك ، وتعلم أنّ من عرف من حجاج الخصم أكثر مما يعرفه الخصم كان بحجج نفسه أعرف وعلى معالي حقّه أغوص وعلى غايته أقدر وأنقى ، وكان أياس للمخالف وأنس للموافق ، ولأن تعلم أنّ أوليائك لو لم يجدوا في أنفسهم فضلاً لما أعاروا بعض قوتهم أعداءهم ، ولأن لا يبقى على من قرأ كتابي شبهة بعد قراءته ، والله الموفق للصواب ، وهو على كلّ شيء قدير .

[٣٩ - أصحاب السير والأخبار لم يذكروا حجج السفينانية]

ولو كانت هذه الحجج قد احتج بها معاوية واحتج له بها أحد في ذلك الدهر ، لكان ذلك مشهوراً عند جمال الأثار والمعروفين بالصدق من أصحاب الأخبار والنقلة مثل الزهريّ ومحمد بن إسحق إمامي أهل الحجاز في علم السير ونقل الأخبار ، ومثل قتادة صاحب الأخبار بالبصرة ومن كانت الملوك تكتب إليه من الشامات في المشكلات ، ومثل سيمك بن حرب بالكوفة ، ومثل الشعبيّ وابن شبرمة والقاسم بن مَعْن ، وجملة من أهل [ع ١٨] البصرة مثل ابن أبي عيّنة ، ومثل مسلمة بن محارب ، بل مثل أبي عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب ومحمد ابن حفص وعبيد الله بن محمد بن حفص وأبي عبيدة وأبي اليقظان ، ومثل مسمع وكردين وأبي عاصم النبيل ، ومثل خلاد بن يزيد والقحذميّ ومؤرج وابن قنبر .

وسندع ذكر الأصحاء والثقات وأصحاب التبريز في تصحيح

الروايات ، ونذكر من دونهم ممن قد يؤخذ عنه ويُطعن عليه كالكلبي وابن الكلبي وعمارة والشرقي بن القطامي وأبي الحسن المدائني والميثم بن عبدني وأبي مخنف لسوط بن يحيى وابن جعدبة ؛ وكان لا أقل من أن يرويّه شوكر وابن دأب والعتبي ، أو لرواه رواية الخوارج كهمران بن حطان . والمقعطل والضحاك بن قيس وحبيب بن خدره وأبي عبيدة كورين ومثيل وأصغر بن عبد الرحمن ورعا ومسمار .

[٤٠ - حجج السفينية من عمل المتكلمين]

وأنت تعلم اضطراراً أن هذه المسالك ليست مسالك الرواة وإنما هي مسالك المتكلمين إذا كانوا رواة ؛ وقد سمعتُ خطب معاوية ورسائله وكتاب القضية : أظنُّ أن معاوية كان عنده من هذه الحجج ومن هذه الاعتلالات شيء وهو يدع أن يخاطب به ويشيعه ويدعوه إليه ويعرضه على أصحابه ؟ بل كان لا يدع أن يجعله في كتاب ويقرأه على أجناده في كل خميس واثنين ؛ ولم أقل إن معاوية لم يكن فطناً أم بعيد الغور بيناً ، ولكن لو رجعت إلى عقله ودهائه عقل عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وزيناد والأحنف والمهلب وأضعافهم من الرجال ، لما عرفوا من هذا الشكل شيئاً بطباعهم دون أن يستعملوا صناعة الكلام ، كما أنهم لو أرادوا الحساب والهندسة وعلم اللحون والطب وجميع العلوم لكانوا لا يدركون من ذلك حظاً دون كثرة التنقيح والتفتيش وطول الدراسة للكتب ومنازعة الرجال ؛ وما أشك أنهم أحق بذلك من كثير ممن قد رأيت من المعدودين في أهل النظر ، فلا تنكر قولي إنه لم يكن يعرف من هذا قليلاً ولا كثيراً .

فدواؤك قبل كل شيء أن تخرج من قلبك أنه كان يحسن هذا وأن عمراً كان يتندي له ؛ ثم أعلم أنه مولد خبيث وموه ضعيف ، وسوجدك ذلك فيه باباً باباً وفصلاً فصلاً ؛ وقد يكون الكلام ظاهر العيوب بادي المقاتل مستهدفاً

للمطاعن ، ولا يفتن له الحازم من الرجال ويفتن له الخسيس العقل من أهل النظر ؛ وإن خرجنا كل شيء في هذا الباب كثر الكلام ، وإذا كثر الكلام خرج الكتاب من حدّ الرمائل ، ولم نأمن من ملالة القارىء ونعاس المستمع ، وفيما نلقي إليك من الجمل ما يُغني مثلك عن التخصيل ، ولو كان المقصود إليه سواك لما وجدتُ بدأً من التفسير والتخريج وانتظام جميع الآمات واستحصاء جميع الأبواب .

[٤١ - حجة السفىانية بعدم توافر الإجماع على علي لا يظمن في خلافه لان

الإجماع تابع لفضله]

أما قولهم بقول معاوية : « هذا موضع صرتُ إليه بالإجماع فلا أخرج منه في الفرقة » ، فإن أكثر الناس يغلطون في حكم الإجماع في هذا المكان ويُلحقونه بغير شكله ؛ نقول إن الناس إنما أجمعوا على تفضيل الفاضل لفضيلة وجدوها فيه ، وليس أنهم وجدوا الفضيلة فيه لأنهم أجمعوا على تفضيله ، فالإجماع تبعٌ للفضيلة الموجودة ، وليست الفضيلة تبعاً للإجماع الذي كان منهم ؛ وإذا كان الفضل بارزاً ، فعليه الإجماع عليه ؛ فإن اختلفوا فلا يبعد الله إلا من خالف ، الحقُّ حقُّ الفاضل ؛ وإن لم يصل إليه مع ضعف الموافق وقوة المخالف ؛ فإن وافق صاحب الحق إجماعاً فعليه الشكر والحقُّ حقُّه ، وإن وافق اختلافاً فالحقُّ حقُّه وعليه الصبر .

وقد كان فضل عليّ ظاهراً ، فإن أجمعوا عليه فقد أصابوا حظوظهم ووافقوا محبته إذ كان ذلك حقاً ، وإن اختلفوا فقد أخطأ المخالف حفظه ، ولم يُضْم ذلك علياً لأن ثواب عليّ على الصبر على البلاء كشوابه على الشكر على الرخاء ؛ والحقُّ ليس يجب له بالإجماع بل إنما كان ذلك دليلاً على الاستحقاق وحكم مقام النبيّ صلى الله عليه وسلم وحكم مرتبة الإمام والتخصيل إلى أن نعلم أن أمراً قد اضطرَّ إليه ؛ فما لم نعلم ، فالحكم بالتخصيل

لازم لظاهر الحال ، وليس لنا أن نُزيل حكم ظاهر الأمر بـ « لعل » أو « عسى » ،
 وليس يزول اليقين إلا باليقين ، ومتى هجمنا على رجل قد أجمع الناس على تأميره
 طائعين غير مكتمهين ، ثم رأيناهم يدينون بطاعته ويتقربون إلى الله بنصيحته
 ويرون أنه إذا ولى رجلاً صلاة الجمعة أن له أن يقصر وأن لهم أن يقصروا
 خلفه ، وإن هو عزله كان عليه وعليهم أن يأتوا بخلاف ذلك ، ومتى استعمل
 رجلاً على ثغر دانوا بابتیاع ذلك السبي ووطنه واستخدامه وبيعه والانتفاع بذلك
 المقسم وبابتیاع العقود والعقارات والمستغلات منه ، ومتى عزله حرّموا
 ذلك وسقطوا من لم يجتنبه ؛ ومتى استقضى رجلاً لزم الناس حكمه ونفذ فيهم
 أمره ووجب سجلاته ولزمت قضاياه ، ومتى قال : قد عزلتُك ، كان كالمفاتي
 وكالمشير والمصلح ، ثم تراهم إذا كان قاضياً يقومون فوق رأسه ولا يجلسون إلا
 بأمره .

ولم نر علياً لما عزل سعداً وولى أبا موسى وعزل عماراً وولى المغيرة ، قال
 المعزول : « لا اعتزل البتة ا » أو قال : « لا اعتزل حتى أعرف لم عزلني ولم ولى
 من أنا اعظم عناية منه واجود سياسته منه وأشرف أرومة منه » ، أو قال : « أنا
 أسن منه وأكثر فقهاً وعلماً منه » ، أو يدعى أن أهل البلدة به أرضى وأنه لا يرضى
 أن يكون قد عانى خراب أرضها وفساد رجالها وضياع ثغرها ، فلما عمر البلدة
 وحصن الثغر وأصلح الفاسد وقد كلف وتعب وسهر ونصب ، بعثت رجلاً يصير
 له مهناً فيذهب ببردتها وحلاوتها ، وأنا قد صُلبت بحرّها ومرارتها ؛ بل نجد
 المعزول صابراً راضياً والمستعمل قابلاً نافذاً لأمره وقوله ؛ فحكم ظاهر هذه الحال
 وحكم المرتبة التقديم لأهلها والتفضيل لأربابها حتى ثبتت الحجة ببعض ما يحطه
 عن أهل المراتب ويقتصر به على دون الكمال ، فالإجماع تابع في هذا الموضع .

[٤٢ - حجة السفينية بعدم عمل علي بالشورى لا يطعن في خلافته لأن

شورى عمر لا تلزمه]

فأما من حيث ذهب القوم إليه فقد قلنا في ذلك ؛ فان قال : « فهلاً

جعلها شورى بينه وبين طلحة والزبير ؟ - قلنا : قد زعمتم أنها قد بايعا فإن كانا قد ضلّا بتلك البيعة فقد صاروا لا يصلحان لإمامة ، وإن كان ذلك منها هدى فقد ضلّا بالصمت قبل الحديث ؛ فإن قالوا : قد قلنا ذلك في طلحة والزبير ولكننا قد علمنا أن سعداً لم يبايع وإنما ضلّ عندنا بعد أن تبين لنا رايه في ترك البسط وفي روايته في تفضيل عليّ على نفسه بعد وفاة عليّ ولكن ما باله لم يدعُ إلى الشورى يومئذ ، وتركه للشورى عندها ضغف [حينه] على عمر ونخطة للجماعة ؟ - قلنا : إن عمر لم يشترط ذلك الأبد ، ولم يُوجبه إلا في الثلاثة الأ [يام] التي قال : « إن انقضت ولم يفرغوا ، فاقتلوهم » ؛ وما علم عمر بما يكون من انحفاظ قوم وتبديلهم ، وبأي وجه آخر يدلّ من تقدّمهم ، وبما يحدث في أنصارهم من العمى الذي يمنع من الحكم ، أو ممّا يُعجل من [.....] الذي يحول دون الخلافة ، أو ليس الإمام الذي بعده قد كان له في رعيته من التدبير مثل الذي كان لعمر في رعيته ؟ .

أولستُم تزعمون أنّ أبا بكر أقام عمر وأنّ عمر ترك سيرة أبي بكر وصار إلى الشورى ووضعها ؟ فإن قلتم : « إنما غير التدبير حين لم يجد واحداً [قادراً] قد لكم : وكذلك من بعده فغير تدبير عمر كما غير عمر ذلك التدبير عن بعض ما شاهد أبو بكر من الحال المخالفة للحال الأخرى ، فليس لنا أن نلزم عليّاً الشورى إلا بأن يوجد أنّ عمر قد كان جعل ذلك شرطاً محدوداً وأنّ الأمة تلقت ذلك بالتصويب ، فلم [يحدث] اختلاف وليس لعمر في سلطانه إلا مثل ما للإمام [من] المصلحة على قدر ما شاهد من الحال ؛ وإنما تدبير الأمور على قدر اختلاف الأمور وقد وجدنا عليّاً نفسه عند الحاجة والضرورة وعند الخطبة على الرعيّة قد أظهر الرضى بأن يكون أبو موسى وعمرو يتشاوران فيه ، فكانا في موضع الشورى في ظاهر الحال وهما عنده على ما هما له عندنا ، وكذلك معاوية وقد امتنع قبل ذلك أن يجس نفسه بمخايرة طلحة والزبير وسعد [فحبسها] بحباله أخرى أبعد من الأولى من كلّ ما ذكرنا ؛ وإنما كلّ ذلك بقدر ما يشاهد الإمام من الحال إذ كان ذلك إنما يُعرف صوابه من باب الرأي فقط .

[٤٣ - علي اولى بالخلافة للقرابة والرواية والقدم والزهد] .

ويقال لهم : فإننا نرد الأمر إليكم : أرايتم لو أمرتم ان تختاروا بين عليّ وسعد إماماً كيف كنتم تصنعون حتى تُوجدونا أن سعداً أو [لى] من عليّ ؟ قولوا كيف شتمتم ؛ قد علمتم ان هذا الأمر ، إن كان بالحسب ، فإن سعداً ليس من شكل عليّ ، وعليّ هاشميّ الأبوين وكان أول هاشميّ الأبوين كان في الأرض ، ولذّه أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم من فاطمة بنت أسد بن هاشم ، وهم أربعة : عليّ وجعفر وعقيل وطالب ؛ ثم هو صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن اخي حمزة والعبّاس ؛ ثم الذي يجمع أبا النبي صلى الله عليه وسلم وأبا طالب [الجد] الأديني بالأم التي جمعتهما .

فإن كان هذا الأمر إنما يستحقّ بالرواية فليس لسعد في ذلك حرف واحد ممّا يُوجب له الإمامة والتفضيل على جميع الأمة وما أكثر [من] روى [فيه الرواية] ولكن تلك الرواية ليست من شكل الرواية في علي بن أبي طالب ، [فإن] ذكرنا أهل التقديم في الإسلام والسبق إليه فأدنى حالاته أن يكون مذكوراً معهم ، وإن ذكر أهل الزهد والتقى والظلف والنزاهة وقلة الركون إلى الدنيا والميل إلى اللذات فأدنى [حالاته] أن يكون مذكوراً معهم ، وليس بعد هذه الأمهات شيء يستحقّ به الخلافة إلا ما حددنا وذكرنا ، وكلهنّ مجموعات في عليّ بن أبي طالب ومتفرقات في سواه ، فقد فوّضنا الأمر في سعد إليكم : فقولوا كيف شتمتم : فإن سددتم قدّمتم عليّاً ، وإن تركتم السد [د] كفيتمونا [.] فيكم وأعفيتمونا من ذكركم وشغل القلوب بكم .

[٤٤ - حتى معاوية بالمطالبة بدم عثمان لا يمنحه الحق بالخلافة]

وأما طلبه بدم عثمان ، فليس ذلك مستكراً إذ كانت غايته الاستيثار منهم إلى أن يقوم حاكم الجماعة ؛ ونحن لا نخالفكم أن قاتل عثمان من

أهل النار مَنْ كان من العالمين، ولكنْ معاوية وأهل الشام لم [.....]
 عند علي بما هو بين [.....]
 دون قيام الحجّة بالأَم ولا بما هو [.....] ولا أن
 يقتلوا [.....] قتله ومن أمر ومن أشار ومن أظهر عجة ذلك وعلم
 أنه لو درجهم إليهم إنهم كانوا لا يقتصرون عليهم حتى يطمعهم ذلك في أكثر
 منه، كان له حين عرف [.....] أي معنى [.....] وأي طريق
 يسلك ان يمنع من ذلك بأهل [.....] فضلاً عن أهل الصلاة
 ومن يشك ان عسكر علي قد كان يشتمل على قو [م] طوائف
 وفي رقابهم حقوق ومق يتهبأ أن يجمع منه ألف مقاتل ليس فيهم إلا مؤمن بريء
 الساحة [.....] العدالة .

[٤٥ - علي لم يقتل عثمان ولم يمن عليه]

وأما ما ادعى عليه من قتل عثمان فقد قلنا في ذلك في صدر
 الكتاب بجملة كافية، وأما القنوت فإن سأقول فيه إن شاء الله وأحمد [.....]
 [.....] أكثر مما قد كنت قد أوردته على ابن ابراهيم بن الحسين بحضرتك
 وحضرة [.....] شهادتك عليه بحب المغالبة وقلة التهيّب والمرافقة ويغيبك
 على [.....] يظهر في صدوده وشدة عنوده ، ولو كان القنوت وتركه



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

هامش رسالة الحكمين

- (١) يوجه الجاحظ كلامه الى شخص يدعوه ابن حسان يبدو انه كان يميل الى العثمانية ويكره الشيعة ، وكان معتزليا فانفصل عنهم « فانت معتزلي نظامي » اي من فرقة النظام استاذ الجاحظ ، هكذا يخاطبه الجاحظ ، ولكنه لم يحافظ على نحلة الاعتزال فعاون ابراهيم بن الحسن على ترك الصلاة في مسجد ابن رغبان بالبصرة الذي بناه احد المعتزلة الفضيل بن عبد الرحمن مولى بني سدوس . وكان هذا المسجد يقنت فيه ابناء جميع الفرق من الجبرية والنابتة والمعتزلة . وهذا العمل يدل في نظر الجاحظ على سخافة عقل ابن حسان وسوء المحافظة على نحلته .
- ونستطيع ان نستنتج من هذه الحادثة ان الفرق الغالبة على البصرة عندما كتب الجاحظ هذه الرسالة قبل الانتقال الى بغداد هي الجبرية والنابتة والمعتزلة . وان التعصب كان على اشده بينها بحيث انها اقتسمت المساجد في البصرة .
- (٢) يبحث الجاحظ في شروط التمثيل بين شخصين او شيئين . وقد تحدث على هذه المسألة في رسائل أخرى (انظر رسالة التريبع والتدوير رقم ٢٣) . ولا وجه للمقارنة بين علي ومعاوية لأنه لا شبه بينهما . ويستعين الجاحظ ببعض الامثال فيحورها لتتلاءم مع الفكرة التي يريد التعبير عنها فيقول ان سحبان اخطب من باقل ، والاصل مثلان هما اخطب من سحبان واعيا من باقل ، ويقول ان زيادا ادهى من هبنقة ، والاصل مثلان هما : ادهى من زياد (يعني زياد ابن ابيه) واحق من هبنقة (هبنقة رجل ضرب المثل بحمقه) . ويقول ان ابا ذر اصدق من مسيلمة والاصل مثلان هما : اصدق من ابي ذر واكذب من مسيلمة ، (اي مسيلمة الكذاب الذي ادهى النبوة بعيد موت النبي) . ويقول ان جالينوس اطب من ابي دينار ، والاصل مثلان هما : اطب من جالينوس (الطبيب اليوناني الشهير) واجهل من ابي دينار (رجل يضرب المثل بجهله في الطب) .

(٣) يجمل الجاحظ فضائل معاوية التي يقول بها ابن حسان والسفيانية . ويبدو ان النص حرف بحيث لا يظهر فيه رأي الجاحظ الحقيقي في معاوية . فحسب النص معاوية مؤمن عادل غير فاسق ؛ ولكن حسب نص الثابتة ، معاوية فاسق وضال وكافر .

(٤) يذكر الجاحظ طرق اختيار الامام او اقامته . وقد ذكر معظمها في كتاب العثمانية (راجع رسالة العثمانية ضمن هذا الكتاب) . وتبني الاولى منها التي تقول « والامامة لا تستوجب الا بالتقدم في الفضل والتقدم في السوابق ، والا بأن يكون الفضل اما ظاهراً للعيون ومشهوراً عند جميع المسلمين قد اجمعوا على تقديم رجل وتأمر امير من تلقاء انفسهم بغير سيف ولا خوف ولا اكراه ظاهر ولا سبب يوجب سوء الظن فضلاً على غير ذلك » .

(٥) يعدد الجاحظ كتاب الرحي الذين سبقوا معاوية او عملوا معه وقد كان له رأي سيء بالكتاب عامة (راجع رسالة الكتاب ضمن كتابنا هذا « رسائل الجاحظ السياسية ») .

(٦) الجاحظ يريد أن يقول ان قتلة عثمان مهدوا الطريق له الى الخلافة اذ لولا قتل عثمان لما اوهم الناس باشتراك علي في قتله وتآليهم عليه ، ولما قال انه اولى بها لانه انتدب نفسه للأخذ بثأره .

(٧) موقف عضوي الشوري سعد بن ابي وقاص وعبد الله بن عمر بن الخطاب الناهي عن القتال استغله معاوية بحبر استغلال لصالحه . كما افاد من تماسك جنده وتضعضع جند علي ، وقد علل الجاحظ تضعضع جند علي لانهم من النزارية اصحاب الاحقاد والعداوات القبلية الجاهلية ، كما انهم من اهل العراق « اصحاب الخواطر والنظر والتأويل والقياس ومع هذه الصفة يكون الاختلاف .. » .

(٨) يذكر الجاحظ سبباً آخر ادى الى غلبة معاوية وهي اللجوء الى الترغيب بالمال والمناصب يفري بها اصحاب النفوس الضعيفة والدينية . بينما عرف عن علي تشده في بذل المال والظن به على غير مستحقه .

(٩) حيلة المصاحف لم تنطل على علي ، ولكنها انطلت على جنده .

(١٠) دهاء عمرو بن العاص ادى الى ضعف موقف علي .

(١١) الجاحظ يحلل موقف ابي موسى الاشعري ، وينتهي الى نتيجة جديدة وهي أنه لم يكن غيباً فيخدع ولكنه انقلب على علي وحاول صرف الخلافة الى عبد الله بن عمر .

(١٢) أنظر موقف الجاحظ من قبول علي بابي موسى حكماً ، انه يتابع استاذة النظام في تعليل ذلك القبول وهو انه لم يرض به حكماً لانه قصير النظر عديم الفطنة ، جاهل بما يضمه ابو موسى من عداوة له ، ولا بسبب ضغط انصار ابي موسى اليمانية

عليه ، ولكن خوفاً من الخلاف في جيشه .

(١٣) اسباب ترك علي القتال هو ما لمسه من مهل جنته الى الراحة والملل من الحرب .

(١٤) يشرح الجاحظ مبدأ من مبادئ المعتزلة هو اقتران القول بالعمل . ويلمح الى التقية عند الشيعة .

(١٥) يرى الجاحظ ان علياً لم يمدح بحيلة معاوية وعمرو بن العاص .

(١٦) الفرق بين علي ومعاوية هو ان عليا كان يلزم في اعماله وتصرفاته الكتاب والسنة اي القرآن وسنة الرسول من قول وفعل وتقرير . اما معاوية فكان لا يتقيد بهما دائماً .

(١٧) الجاحظ يشير الى ما قاله في رسالة النابتة من ان معاوية كفر لمخالفته سنة الرسول في ادعاء الولد (يعني زياد ابن ابيه الذي ادعى ابو سفيان انه ابنه وهو ابن قراش) .

(١٨) الجاحظ يعلن انه معتزلي وليس علوياً او عثمانياً او بكرياً ، وهو لا يكره هؤلاء ولا اولئك ولا يميل الى اي فريق من الفريقين .

(١٩) السفينانية لا تحكم على معاوية بالفسلال بسبب مبايعته ابنه يزيد . والجاحظ يخالفهم في ذلك .

(٢٠) وكتاب القضية ، هو نص الاتفاق على التحكيم بين علي ومعاوية . اثبت الجاحظ النص وحلله فوجده مزوراً لفظاً ومعنى او شكلاً ومضموناً . وقد احسن الجاحظ التحليل والتقد .

(٢١) سبب تمرد معاوية على علي عزله عن ولاية الشام .

(٢٢) الشيعة غافلون عن تدبير علي ، رأي خطير اذا ثبت قلب مقاييس الشيعة راساً على عقب .

(٢٣) خطأ الخوارج في موقفهم من علي : لم يفهموا تدبيره مرتين : عندما دعاهم الى مواصلة القتال فابوا ، وعندما دعوه الى استئناف القتال فأبوا .

(٢٤) الجاحظ يميظ اللثام عن موقف ابن عباس من عزل معاوية : لقد نصح عليا بعدم عزله فرفض الخليفة .

(٢٥) سبب آخر ساعد معاوية في صراعه ضد الامام علي هو استنكار العامة لمقتل عثمان ، والشك في موقف علي من مقتله .

(٢٦) الجاحظ يحدد معنى الاعتزال بانه التوسط والاقتصاد بين غلو الخوارج وامشاهم وتقصير المرجئة وامثالهم في صفات الله والعاذف وقتال الفئة الباغية . والمنزلة بين المنزلتين .

(٢٧) لماذا كان موقف علي من مقتل عثمان غامضاً ؟ لأن الناس انقسموا فثنين بشأن عثمان : فئة ناقمة على عثمان مثبته على قاتليه وهم اكثر الجنود والقواد ورؤساء العشائر . وفئة تعظم شأن دمه وتبريء عليا منه وهم عامة الأمة . فاحترار علي فيما عساه يقول في مقتله : فاذا اظهر البراءة من قاتليه ثار به الجند . واذا اتنى على قاتليه نعمت عليه العامة . « فكان يمسك عن ذكره ما امكنه الامساك ، فاذا اضطره القول قال قولاً يحتمل رضى الفريقين » .

(٢٨) يذكر الجاحظ اسما الفشاة التي تؤيد معاوية وتثبت حقه في الخلافة وهي : السفينانية (نسبة الى ابي سفيان والد معاوية) والمروانية (نسبة الى مروان بن الحكم المؤسس الثاني للخلافة الاموية) . والغيلانية (نسبة الى غيلان الدمشقي المتكلم ٧٢٣ م) واليزيدية اصحاب ثور بن يزيد (احدى رجال الحديث (٧٧٠ م)) والاوزاعي (احد فقهاء السنة في مطلع العصر العباسي ، ولد في بعلبك ومات ودفن في محلة الاوزاعي بالقرب من بيروت سنة ٧٧٤ م) .

(٢٩) طلحة والزبير عضوا الشورى ومن كبار الصحابة بايعا علياً ثم نكثا البيعة وقادا الحرب ضده في معركة الجمل قرب البصرة .

(٣٠) السفينانية تنكر ان يكون معاوية قاسماً او جائراً . ولو كان كذلك لما اطاعه الناس وحاربوا معه وضحوا بنفوسهم واموالهم من اجله .

(٣١) السفينانية تطعن في خلافة علي لأنه لم ينلها بالتشاور ، ولم يجمع عليه الناس ، ولم يرد فيه نص . اما معاوية فقد ولاه عمر وزكاه عثمان وكانا راضيين عنه .

(٣٢) السفينانية تدعي ان ولاية معاوية صارت بوضع اليد كاللقطة ولو طلبها علي منه لم يثبت ان اللقطة له .

(٣٣) السفينانية تزعم ان حق علي بالخلافة سقط لأنه اشترك في دم عثمان او اعان على قتله او منع ولي الدم من معاقبة القاتل .

(٣٤) السفينانية تنفي صحة الحديث النبوي « انت مني بمنزلة هارون من موسى » لأنه لو كان صحيحاً لاحتج به علي . ثم انها تقول ان الخلافة شورى ، وعلي لم ينلها بالشورى .

(٣٥) استندت السفينانية في حق معاوية بالخلافة إلى انتصاره على خصمه وقوته . والامام يجب ان يكون هو الأقوى ويجب أن يجمع الدين والسيف لتستقيم الامامة . وكذلك النبوة فلا بد للنبي من ان يحمل السيف الى جانب الرسالة الدينية أو يؤيده ملك في دعواه ولكن هذا الزعم لا ينطبق على السيد المسيح وعلى موسى . ولا يؤيده الجاحظ الذي يرى في رسالة حجج النبوة أن يكون النبي اعتمد على

الارهاب لنشر دينه (انظر ايضا استحقاق الامامة) .

(٣٦) ملخص حجج السفيانية في وجوب امامة معاوية : براءته من عيوب اعضاء الشورى ، وانتدابه الى الثار لدم عثمان .

(٣٧) الجاحظ يعترف بأن حجج السفيانية القاها اليه ابن حسان مفسرة مستوفاة لكي لا يعتب عليه أحد .

(٣٨) جميع حجج السفيانية لم يدل بها معاوية ولم يعرفها اهل عصره انها من تصنع المتكلمين المتأخرين من الناصبة .

(٣٩) يذكر الجاحظ معظم المؤرخين العرب : الزهري ومحمد بن اسحق ، امامي اهل الحجاز في علم السير والاختبار ، وقسادة البصري ، وسمك بن حرب الكوفي ، وشبرمة والقاسم بن معن وابن ابي عينة البصريين الخ . وهؤلاء ثقاة . ومثل الكلبي وابن الكلبي وعوانه والشرفي بن القطامي وابن الحسن المدائني والهيثم بن عدي الخ . . من غير الثقاة . ويدل كلام الجاحظ على انه اطلع على كتبهم مما يبرهن على سعة ثقافته .

(٤٠) الدليل على ان هذه الاحتجاجات التي قالت بها السفيانية في عصر معاوية من صنع المتكلمين المحدثين ان خطب معاوية ورسائله تخلو منها ، وكذلك كتاب القضية .

(٤١) الرد على حجة السفيانية بعدم الاجماع على خلافته يدفع الجاحظ الى ايضاح مفهوم الاجماع وعلاقته باستحقاق الامامة . ان الاجماع بنظره ليس سبب الامامة سواء توافر ام لم يتوافر ، ان سبب الامامة هو الفضل (راجع نظريته في الامامة في اواخر رسالة العثمانية ، وفي كتابنا : المناحي الفلسفية عند الجاحظ) .

(٤٢) الشورى ليست سبب الامامة بنظر الجاحظ ، وقد عمل بها عمر وليس من الضروري اتباعها . فابوبكر لم يعمل بها بل اقام عمر قبل وفاته .

(٤٣) علي اولى بالخلافة بسبب القرابة والرواية والقدم والزهد . هذا الرأي قال به الشيعة ورفضه الجاحظ في « استحقاق الامامة » وكتب أخرى .

(٤٤) الجاحظ لا يستنكر طلب معاوية بدم عثمان ويرى ان قاتل عثمان من اهل النار . هذا الرأي اعلنه ايضاً في رسالة النابغة . (راجعها ضمن رسائل الجاحظ الكلامية) .

(٤٥) علي لم يقتل عثمان ولا اشترك في قتله . هذا الرأي ابداه الجاحظ في مطلع الرسالة (رقم ٦) .



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی





مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

قال أبو عثمان :

[١ - خصال هاشم في الجاهلية]

إن أشرف خصال قريش في الجاهلية : اللواء والندوة والسقاية والرفادة
وزمزم والحجابة ، وهذه الخصال مقسومة في الجاهلية لبني هاشم وعبد الدار وعبد
العزى دون بني عبد شمس . على أن معظم ذلك صار شرفه في الاسلام إلى
بني هاشم . لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما ملك مكة صار مفتاح الكعبة
بيده ، فدفعه إلى عثمان بن طلحة . قالشرف راجع إلى من ملك المفتاح لا إلى
من دفع إليه . وكذلك دفع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير
اللواء فالذي دفع اللواء إليه وأخذ مصعب من يديه أحق بشرفه وأولى
بمجده ، وشرفه راجع إلى رهنه من بني هاشم . قال : وكان محمد بن عيسى
المخزومي أميراً على اليمن فهجاه أبي بن مُذَلج فقال :

قُلْ لَأَبْنِ عِيسَى الْمَسْتَفِي	عِ مِنْ السُّهُولَةِ بِأَلْوَعُورَةِ
النُّاطِقِ الْعَوْرَةِ فِي	جُلِّ الْأُمُورِ بِلَا بَمِيرَةِ
وَلَدِ الْمَفِيرَةِ تَسْعَةَ	كَانُوا صَنَادِيدَ الْعَثِيرَةِ
وَأَبُوكَ عَاثِرُهُمْ كَمَا	نَبَتْ مَعَ النَّخْلِ الشَّعِيرَةِ
إِنَّ النُّبُوَّةَ وَالْجِلَافَةَ	وَالسَّقَايَةَ وَالْمَشُورَةَ
فِي غَيْرِكُمْ فَكَفِّ الْبِك	يَدَا مَجْذَمَةَ قَصِيرَةِ

قال : فانبرى له [شاعر] من ولد كُرَيْزِ بن حبيب بن عبد شمس ، وكان مع محمد بن عيسى باليمن ، يهجو عنه ابن مُدَلجٍ في كلمة له طويلة قال فيها :

لَا لَوَاءَ يُعَدُّ بِأَبْنِ كُرَيْزٍ لَا وَلَا رِفْدُ بَيْتِهِ فِي السَّنَاءِ
لَا حِجَابٌ وَلَيْسَ فِيكُمْ سِوَى الْ كِبَرٍ وَبُغْضِ النَّبِيِّ وَالشُّهَدَاءِ
بَيْنَ حَاكٍ وَخَلَجٍ وَطَرِيدٍ وَقَتِيلٍ يَلْعَنُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ
وَلَمْ يَزْمَ وَجِبْرَائِيلَ وَتَجَدُّ السُّقَايَةِ الْفَرَاءِ

قال أبو عثمان : فالشهداء : علي وحمزة وجعفر . والحاكمي والمخلج هو الحكم ابن أبي العاص ، كان يحكى مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم فالتفت يوماً فرآه فدعا عليه ، فلم يزل مخرج المشية عقوبة من الله تعالى . والطرديد : إثنان ، الحكم ابن أبي العاص ومعاوية بن المغيرة بن أبي العاص . وهما جدا عبد الملك بن مروان من قبل أمه وأبيه . وكان النبي صلى الله عليه وسلم طرد معاوية بن المغيرة هذا من المدينة وأجله ثلاثاً فحيره الله ولم يزل يتردد في ضلاله حتى بعث في أثره علياً وعماراً فقتلاه . فأما القتل فكثير : نحو شيبة وعتبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة وحنظلة بن أبي سفيان وعقبة بن أبي مُعيط والعاص بن سعيد بن أمية ومعاوية المغيرة وغيرهم .

[٢ - كرم هاشم]

قال أبو عثمان : وكان اسم هاشم عُثْرًا ، وهاشيم لقب . وكان أيضاً يقال له القمر . وفي ذلك يقول مطرود الخزاعي :

إِلَى الْقَمَرِ السَّارِي الْمُنِيرِ دَعْوَتُهُ وَمُطْعِمِهِمْ فِي الْأَزْلِ مِنْ قِمَعِ الْجَزْرِ

قال ذلك في شيء كان بينه وبين بعض قريش ، فدعا مطرود إلى المحاكمة إلى هاشم . وقال ابن الزبيري :

كَانَتْ قُرَيْشٌ رَيْضَةً فَتَلَفَّتْ فَالْحُ خَالِصَةً لِعَبْدِ مَنْابِ

السَّرائِثُونَ وَلَيْسَ يَوجَدُ رَإِثُ
وَأَلقائِلُونَ هَلُمُّ لِأَضيافِ
عَمَرُوا العُلَّ هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ
وَرَجَالَ مَكَّةَ مُسَيِّتُونَ عَجَافُ

فعم كما ترى أهل مكة بالأزل والمعجف وجعله السدي هشم لهم الخبز
ثريداً ، فغلب هذا اللقب على اسمه حتى صار لا يعرف إلا به . وليس لعبد
شمس لقب كريم ولا اشتق له من صالح أعماله اسم شريف ، ولم يكن لعبد
شمس ابن يأخذ بضبعه ويرفع من قدره ويزيد في ذكره .

[٣ - مزايا عبد المطلب]

ولهاشم عبد المطلب سيد الوادي غير مدافع ، أجمل الناس جمالاً وأظهرهم
جوداً وأكملهم كمالاً ، وهو صاحب الفيل والطير الأبايل صاحب زمزم وساقى
الحجيج . وولد عبد شمس أمية بن عبد شمس ، وأميه في نفسه ليس هناك وإنما
ذكر بأولاده ولا لقب له . ولعبد المطلب لقب شهير واسم شريف : شيبة
الحمد . قال مطرود الخزاعي في مدحه :

يا شَيْبَةَ الحَمْدِ الَّذِي تَتَى لَهُ
أَلْمَجْدُ ما حَجَّتْ قُرَيْشُ بَيْتَهُ
وَاللهَ لا أَنسَأَكُمُ وِفْعالِكُمْ
أَيامُهُ مِن خَيْرِ دُخْرِ الذَّائِجِرِ
وَدَعَا هَدِيلَ فَوْقَ عُصَمِ نَاجِرِ
حَتَّى أَغْيِبَ فِي سَفَاةِ القَاسِرِ

وقال حذافة بن غانم الغدوي وهو يمدح أبا هب ويوصي ابنه خارجة بن
حذافة بالانتباه إلى بني هاشم :

أَخْصِرُجُ إِما أَهْلِكُنْ فِلا تَسْزُلْ
بِني شَيْبَةَ الحَمْدِ الكَرِيمِ فِعالُهُ
لِساقي الحَجِيجِ ثم لِلشَّيخِ هاشِمِ
أَبو عُنْتَبَةَ المُسَلِّقِ إِلى جِوارِهِ
أَبوهم قَهِيٌّ كانَ يُدْعَى جَمعاً
لَهُم شَأِكِرُا حَتَّى تُغَيَّبَ فِي القَبْرِ
يُضِيءُ ظِلَامَ اللَّيْلِ كَالقَمَرِ البَدْرِ
وَعَبِدِ مَنافِ ذَلِكِ السَّيِّدِ القَمَرِ
أَغْرُ هِجَانُ اللَّوْنِ مِن نَفْرِ غُرِّ
بِهِ جَمَعَ اللهُ القَبائِلَ مِن نَهْرِ

فأبو عتبة هو أبو لهب بن عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم وابناه عتبة
وعثيبة : وقال العبدى حين احتفل في الجاهلية فلم يترك :

لا تَرَى فِي النَّاسِ حَيًّا مِثْلَنَا مَآخِلًا أَوْلَادَ عَبِيدِ الْمُطَلِّبِ

وإنما شرف عبد شمس بأبيه عبد مناف بن قصي ، وبني ابنه أمية بن عبد
شمس . وهاشم شرف بنفسه وبأبيه عبد مناف وبابنه عبد المطلب . والأمر في
هذا بينٌ وهو كما أوضحه الشاعر في قوله :

إِنَّمَا عَبِيدُ مَنْافٍ جَوْهَرٌ زَيْنَ الْجَوْهَرِ عَبِيدُ الْمُطَلِّبِ

قال أبو عثمان : ولسنا نقول إن عبد شمس لم يكن شريفاً في نفسه ،
ولكن الشرف يتفاضل ، وقد أعطى الله عبد المطلب في زمانه وأجرى على يديه
وأظهر من كرامته ما لا يعرف مثله إلا لنبي مرسل ، وإن في كلامه لأبرهة
صاحب الفيل وتوعده إياه برب الكعبة وتحقق قوله من الله تعالى ونصرة وعيده
بحبس الفيل وقتل أصحابه بالطير الأبايل وحجارة السجيل حتى تركوا كالعصف
المأكول ، لأعجب البرهانات وأسمى الكرامات ، وإنما كان ذلك إرهافاً لنبوة
النبي صلى الله عليه وسلم ، وتأسيساً لما يريد الله به من الكرامة ، وليجعل ذلك
البهاء متقدماً له ومردوداً عليه ، وليكون أشهر في الأفق وأجل في صدور القارعة
والجبابرة والأكاسرة ، وأجدر أن يقهر المعاند ويكشف غباوة الجاهل .

[٤ - نبوة محمد]

وبعد ، فمن ينهض أو يناضل رجالاً ولدوا محمداً صلى الله عليه وسلم ؟
ولو عزلنا ما أكرمه الله به من النبوة حتى نقتصر على أخلاقه ومذاهبه وشيمه لما
وفى به بشري ولا عدله شيء ؟ ولو شئنا أن نذكر ما أعطى الله عبد المطلب من
نفجر العيون وينابيع الماء من تحت كل كل بعيره وأخفافه بالأرض القسي وبما
أنتى يوم المساهمة وعند المقارعة من الأمور العجيبة والخصال البائنة لقلنا ولكننا

أحيينا أن لا نحتج عليكم إلا بالموجود في القرآن الحكيم والمشهور في الشعر القديم الظاهر على السنة الخاصة والعامة ورواة الأخبار وحال الآثار .

[٥ - إيلاف قريش]

قال : وما هو مذكور في القرآن - عدا حديث الفيل - قوله تعالى : ﴿ لِيُؤَلِّفَ لِقُرَيْشٍ ﴾ ولقد أجمعت الرواة على أن أول من أخذ الإيلاف لقريش هاشم بن عبد مناف . فلما مات قام أخوه المطلب مقامه ، فلما مات قام عبد شمس مقامه ، فلما مات قام نوفل مقامه - وكان أصغرهم - والإيلاف هو أن هاشماً كان رجلاً كثير السفر والتجارة فكان يسافر في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام ، وشرك في تجارته رؤساء القبائل من العرب ومن ملوك اليمن نحو العباهلة باليمن والبيكسوم من بلاد الحبشة ونحو ملوك الروم بالشام ، فجعل لهم معه ربحاً فيما يربح وساق لهم إبلاً مع إبله فكفاهم مؤنة الأسفار على أن يكفوه مؤنة الأعداء في طريقه ومنصرفه ، فكان في ذلك صلاح عام للفريقين ، وكان المقيم رابحاً والمسافر محفوظاً . فأخبرت قريش بذلك وحملت معه أموالها وأتاه الخير من البلاد الساقلة والعالية وحسنت حالها وطاب عيشها . قال : وقد ذكر حديث الإيلاف الحارث بن الحنشل السلمي وهو خال هاشم والمطلب وعبد شمس فقال :-

إِنْ أُخِي هَاشِماً لَيْسَ أَخَا وَاجِدٍ الْأَجِذِ الْإِيْلَافِ وَالْقَائِمِ لِلْقَاعِجِدِ

قال أبو عثمان (وقيل إن تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ هو خوف من كان هؤلاء الأخوة يبرون به من القبائل والأعداء وهم معتربون ومعهم الأموال وهذا هو ما فرنا به الإيلاف آنفاً ، وقد فسره قوم بغير ذلك قالوا : إن هاشماً جعل على رؤساء القبائل ضرائب يؤديونها إليه ليحمي بها أهل مكة ، فان ذؤبان العرب وصعاليك الأحياء وأصحاب الغارات وطلاب الطوائف كانوا لا

يؤمنون على الحرم لا سيما وناس من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة ولا للشهر الحرام قدراً ، مثل طيء وخنعم وقضاعة وبعض بلخريث بن كعب ، وكيفما كان الايلاف فإن هاشماً كان القائم به دون غيره من إخوته .

[٦ - حلف الفضول]

قال أبو عثمان : ثم حلف الفضول وجلالته وعظمته ، وهو أشرف حلف كان في العرب كلها وأكرم عقد عقده قريش في قديمها وحديثها قبل الاسلام . لم يكن لبني عبد شمس فيه نصيب ، قال النبي صلى الله عليه وسلم وهو يذكر حلف الفضول : لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً لو دعيتُ إلى مثله في الاسلام لأجبت . ويكفي في جلالته وشرفه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شهده وهو غلام . وكان عتبة بن زبيعة يقول : لو أن رجلاً خرج مما عليه قومه لدخلت في حلف الفضول لما أرى من كماله وشرفه ولما أعلم من قدره وفضيلته . قال : ولفضل ذلك الحلف وفضيلة أهله سمي « حلف الفضول » وسميت تلك القبائل « الفضول » فكان هذا الحلف في بني هاشم وبني المطلب وبني أسد بن عبد العزى وبني زهرة وبني تيم بن مرة . تعاقدوا في دار ابن جدعان في شهر حرام قياماً يتماسحون بأكفهم سعداً ليكونن مع المظلوم حتى يؤدوا إليه حقه ما بل بحر صوفة ، وفي التآسي في المعاش والتساهم بالمال . وكانت الشاهة في هذا الحلف للزبير بن عبد المطلب ولعبد الله بن جدعان . أما ابن جدعان فلأن الحلف عقده في داره ، وأما الزبير فلأنه هو الذي نهض فيه ودعا إليه وحث عليه ، وهو الذي سماه « حلف الفضول » وذلك لأنه لما سمع الزبيدي المظلوم ثمن سلته قد أوفى على أبي قيس قبل طلوع الشمس رافعاً عقيرته ، وقريش في أنديةها ، قائلاً :

يَا لِلرَّجَالِ بِمَظْلُومِ بَضَاعَتِهِ بِيْطْنِ مَكَّةَ نَائِي الْحَيِّ وَالنَّفْرِ
إِنَّ الْحَرَامَ لَمَنْ تَمَّتْ حَسْرَامَتُهُ وَلَا حَرَامَ لِشَوِيٍّ لَإِسِّ الْعَدْرِ

هي وحلف ليمقدن حلفاً بينه وبين بطون من قريش يمنعون القوى من ظلم الضعيف ، والقاطن من عنف الغريب . ثم قال :

حَلَفْتُ لِنَعْمِدَنَّ حِلْفًا عَلَيْهِمْ وَإِنْ كُنَّا جَمِيعًا أَهْلَ دَارِ
نُسَمِّيهِ الْفُضُولَ إِذَا عَقَدْنَا يَعْزُبُهُ الْغَرِيبُ لِسَدَى الْجَوَارِ
وَيَعْلَمُ مَنْ يَطُوفُ الْبَيْتَ أَنَا أَبَاةَ الضَّمِيمِ نَجْرُ كُلِّ عَارِ

فينو هاشم هم الذين سموا ذلك الحلف « حلف الفضول » وهم كانوا سببه والقائمين به دون جميع القبائل العاقدة له والشاهدة لأمره ، فما ظنك بمن شهده ولم يقم بأمره ؟

قال أبو عثمان : وكان الزبير بن عبد المطلب شجاعاً أهباً وجميلاً بهياً ، وكان خطيباً شاعراً وسيداً جواداً ، وهو الذي يقول :

وَلَوْلَا الْحَمْسُ لَمْ يَلْبَسْ رِجَالُ ثِيَابَ أَعِزَّةٍ حَتَّى يَمُوتُوا
ثِيَابُهُمْ شِمَالٌ أَوْ عِبَاءُ بَهَا دَنَسٌ كَمَا دَنَسَ الْحَمِيئَةُ
وَلَكِنَّا خَلِقْنَا إِذْ خُلِقْنَا لَنَا الْخَبْرَاتُ وَالْمِسْكُ الْقَيْتُ
وَكَأْسٌ لَوْ تُبِينُ لَمْ كَلَامَا لَقَالَتْ إِنَّمَا لَمْ سُبِينُ
تُسِينُ لَنَا الْقَلْبَى إِنْ كَانَ فِيهَا رَحِيمٌ الْحِلْمُ يَشْرِيهَا هَبِينُ
وَيَقْطَعُ نَخْوَةَ الْمُخْتَالِ عَنَا رِفْلِقُ الْحَدِّ ضَرْبُهُ صَمُوتُ
يَكْفُ مَجْرِبٌ لَا عَيْبَ فِيهِ إِذَا لَقِيَ الْكَرِيمَةَ يَسْتَمِينُ

قال : والزبير هو الذي يقول :

وَأَسْحَمُ مِنْ رَاحِ الْمِرَاقِ ثَمَلَا مِحِطٌ عَلَيْهِ الْخَيْشُ جَلْدٌ مَرَائِرَةٌ
صَبَحْتُ بِهِ طَلْقًا يُرَاحُ إِلَى النَّدى إِذَا مَا انْتَهَى لَمْ يَخْتَصِرَةٌ مُعَاقِرَةٌ
ضَمِيئٌ بِجَنْبِ الْكَاسِ قَبْضُ بِنَانِهِ كَلِيلٌ عَلَى جَلْدِ النَّدِيمِ أَظَافِرَةٌ

قال : ويتو هاشم هم الذين ردوا على الزبيدي ثمن بضاعته ، وكانت عند

العاصم بن وائل ، وأخذوا للبارقي ثمن سلعته من أبي بن خلف الجهمي ، وفي ذلك يقول البارقي :

وَيَأَيُّ لَكُمْ جِلْفُ الْفُضُولِ ظِلَامِي بَنِي جَمَحٍ وَالْحَقُّ يُؤْخَذُ بِالغَضَبِ

وهم الذين انتزعوا من نبيه بن الحجاج فتول الحسناء بنت التاجر الخثعمي ، وكان كابره عليها حين رأى جاهها . وفي ذلك يقول نبيه بن الحجاج :

وَغَشِيَتْ الْفُضُولَ حِينَ اتَّوْنِي قَدْ أَرَأَيْتَ وَلَا أَخَافُ الْفُضُولَا
إِنِّي وَاللَّيْلِ بِجَمَحٍ لَهُ شُمُطٌ يُبَادِ وَهَلَّلُوا تَهْلِيلَا
لِبَرَاءٍ مِنِّي قَتِيلَةٌ يَا لِلنَّاسِ هَلْ يَبْتَغُونَ إِلَّا الْقَتُولَا

وفيها أيضاً يقول :

لَوْلَا الْفُضُولُ وَأَنَّهُ لَا أَمْنٌ مِنْ عَدُوِّهَا
لَدَنَوْتُ مِنْ أَبَائِهَا وَلَطَفْتُ حَوْلَ نَجَائِهَا

في كلمته التي يقول فيها *بنت كميته* *عبد شمس*

حَسْبُ الْبَيْخِيلَةِ إِذْ نَأَتْ مِنَّا عَلَى عَدُوِّهَا
لَا بِالْفِرَاقِ تُنْبِلُنَا شَيْئاً وَلَا يُلْقِيهَا
حَلَّتْ بِمَكَّةَ حَلَّةً فِي مَشِيهَا وَوِطَائِهَا

في رجال كثير انتزعوا منهم الظلمات . ولم يكن يظلم بمكة إلا رجال أقرباء وهم العمد والعارضة ، منهم من ذكرنا قصته .

[٧ - حرب الفجار]

قال أبو عثمان : ولهاشم أخرى لا يعد أحد مثلها ولا يأتي بما يتعلق بها . وذلك أن رؤساء قبائل قريش خرجوا إلى حرب بني عامر منسائدين ، فكان حرب ابن أمية على بني عبد شمس ، وكان الزبير بن عبد المطلب على بني هاشم ،

وكان عبد الله بن جدعان على بني تيم ، وكان هشام بن المغيرة على بني مخزوم . وكان على كل قبيلة رئيس منها ، فهم متكافئون في التساند ولم يحقق واحد منهم الرأسة على الجميع . ثم أب هاشم بما لا تبلغه يد متناول ولا يطمع فيه طامع ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : شهدت الفجار وأنا غلام فكنت أنبل فيه على عمومتي . فنفى مقامه عليه الصلاة والسلام أن تكون قریش هي التي فجرت ، فسميت تلك الحرب « حرب الفجار » وثبت أن الفجور إنما كان ممن حاربهم . وصاروا يمينه وبركته ولما يريد الله من إعزاز أمره وإعظام الغالبين العالين . ولم يكن الله ليشهده فجرة ولا غدرة ؟ فصار مشهده نصراً وموضعه فيهم حجة ودليلاً .

[٨ - مخازي أمية مقابل فضائل هاشم]

قال أبو عثمان : وشرف هاشم متصل ، من حيث عددت كان الشرف معه كابرأ عن كابر ، وليس بنو عبد شمس كذلك ، فإن الحَكَم بن أبي العاص كان عارياً في الاسلام ولم يكن له تناء في الجاهلية . وأما أمية فلم يكن في نفسه هناك ، وإنما رفعه أبوه ، وكان مضموفاً وكان صاحب عهار ، يدل على ذلك قول نفي بن عدي جد عمر بن الخطاب حين تنافر إليه حرب بن أمية وعبدالمطلب ابن هاشم ، فنفر عبد المطلب وتعجب من إقدام حرب عليه وقال له :

أَبُوكَ مُصَاهِرٌ وَأَبُوهُ عَفٌّ وَذَاذَ الْفَيْسَلِ عَن بَلَدِ حَرَامِ

وذلك أن أمية كان تعرض لامرأة من بني زهرة فضربه رجل منهم بالسيف ، فاراد بنو أمية ومن تبعهم إخراج بني زهرة من مكة فقام دونهم قيس ابن عدي السهمي ، وكانوا أخواله وكان منيع الجانب شديد العارضة حبي الأنف أبي النفس فقام دونهم وصاح : أصبح ليل . فذهبت مثلاً . ونادى : الآن الطاعن مقيم . وفي هذه القصة يقول وَهَبُ بْنُ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ زَهْرَةَ :

مَهْلًا أُمِّي فَإِنَّ الْبَنِي مَهْلَكَةٌ لَا يُكْسِبَنَّكَ يَوْمَ شَرِّهِ ذَكَرُ

تَبْدُو كَوَاكِبَهُ وَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ يُضْبُ فِي الْكَاسِ مِنْهُ الصَّبَابُ وَالْمَقْرُ

قال أبو عثمان : وصنع أمية في الجاهلية شيئاً لم يصنعه أحد من العرب ، زوج أبا عمرو امرأته في حياته منه ، فأولدها أبا مُعَيْط بن أبي عمرو بن أمية . والمقيتون في الاسلام هم الذين نكحوا نساء آبائهم بعد موتهم . فأما أن يتزوجها في حياة الأب ويبني عليها وهو يراه فإنه شيء لم يكن قط .

قال أبو عثمان : وقد أقر مُعَاوِيَةُ على نفسه ورهطه لبني هاشم حين قيل له : أيها كان أسود في الجاهلية ، أنتم أم بنو هاشم ؟ فقال : كانوا أسود منا واحداً ، وكنا أكثر منهم سيذا . فأقر وأدعى ، فهو في إقراره بالتقصير مخصوم ، وفي ادعائه الفضل خصيم وقال جحش بن رئاب الأسدي حين نزل مكة بعد موت عبد المطلب : والله لأتزوجن ابنة أكرم أهل هذا الوادي ولأحالفن أعزهم . فتزوج أميمة بنت عبد المطلب وحالف أبا سفيان بن حرب . وقد يمكن أن يكون أعزهم ليس بأكرمهم ، ولا يمكن أن يكون أكرمهم ليس بأعزهم . وقد أقر أبو جهل على نفسه ورهطه من بني مخزوم حين قال : تحاربنا نحن وهم حتى إذا صرنا كهاتين جاءنا نبي . فأقر بالتقصير ثم ادعى المساواة ، ألا تراه كيف أقر أنه لم يزل يطلب شأوهم ثم ادعى أنه لحقهم ؟ فهو مخصوم في إقراره ، خصيم في دعواه . وقد حكى هاشم دَغْفَلَ بْنَ حَنْظَلَةَ النسابة حين سأله مُعَاوِيَةُ عن بني هاشم فقال : هم أطعم للطعام وأضرب للهام . وهاتان خصمتان يجمعان أكثر الشرف .

قال أبو عثمان : والعجب من منافرة حرب بن أمية عبد المطلب بن هاشم وقد لطم حرب جاراً لخلف بن أسعد جد طلحة الطلحات فجاء جاره فشكا ذلك إليه ، فمشى خلف إلى حرف وهو جالس عند الحجر فلطم وجهه عنوة من غير تحاكم ولا تراض ، فما انتطح فيه عنزان . ثم قام أبو سفيان بن حرب مقام أبيه بعد موته فحالفه أبو الأزير الدوسي ، وكان عظيم الشأن في الأزدي ، وكانت بينه وبين بني الوليد بن المغيرة محاكمة في مصاهرة كانت بين الوليد وبينه ، فجاءه

هشام بن الوليد وأبو الأزهر قاعد في مقعد أبي سفيان بلدي المجاز فضرب عنقه ، فلم يدرك به أبو سفيان عقلاً ولا قوداً في بني المغيرة . وقال حسان بن ثابت يذكر ذلك :

غذا أهل حصني ذي المجاز بسحره وجار ابن حرب لا يروح ولا يغدو
كسك هشام بن الوليد ربابه فأبل وأخلق مثلها جُدداً بعد

[٩ - ملوك هاشم اعظم من ملوك أمية]

قال أبو عثمان : فإن قالت أمية : لنا الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي . أربعة خلفاء في نسق . قلنا لهم : ولبن هاشم : هرون الوائق بن محمد المعتصم بن هرون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد الكامل بن علي السجاد - كان يصلي كل يوم وليلة ألف ركعة ، فكان يقال له السجاد لعبادته وفضله ، وكان أجمل قرشي على وجه الأرض وأوسمه ، ولد ليلة قتل علي بن أبي طالب فسمي باسمه كُنِيَ بِكُنْيَتِهِ فقال عبد الملك : لا والله لا أحتمل لك الاسم والكنية فغير أحدهما ؟ فغير الكنية فصيرها أبا محمد - ابن عبد الله وهو البحر وهو حبر قريش وهو الملقب في الدين المعلم التأويل ، ابن العباس ذي الرأي وحليم قريش ، ابن شيبة الحمد وهو عبد المطلب سيد الوادي ، ابن عمرو وهو هاشم هشم الثريد وهو القمر سمي بذلك لجماله ولأنهم كانوا يقتنون به ويبتدون برأيه ، ابن المغيرة وهو عبد مناف بن زيد وهو قصي وهو مجمع . فهؤلاء ثلاثة عشر سيداً لم يحرم منهم واحد ولا قصر عن الغاية . وليس منهم واحد إلا وهو ملقب بلقب اشتق له من فعله الكريم ، ومن خلقه الجميل ، وليس منهم إلا خليفة أو موضع للخلافة أو سيد في قديم الدهر متبع أو ناسك مقدم أو فقيه بارع أو حليم ظاهر الزكاة . وليس هذا لأحد سواهم . ومنهم خمسة خلفاء في نسق ، وهم أكثر مما عدته الأموية . ولم يكن مروان كالمصور ،

لأن المنصور ملك البلاد ودوخ الأقطار وضبط الأطراف اثنتين وعشرين سنة ، وكانت خلافة مروان على خلاف ذلك كله ، وإنما بقي في الخلافة تسعة أشهر حتى قتلته امرأته عاتكة بنت يزيد بن معاوية حين قال لابنها خالد من بعلمها الأول : يا ابن الرطبة . ولئن كان مروان مستوجباً لاسم الخلافة مع قلة الأيام وكثرة الاختلاف واضطراب البلدان فضلاً عن الأطراف ، فابن الزبير أولى بذلك منه ، فقد كان ملك الأرض إلا بعض الأردن . ولكن سلطان عبد الملك وأولاده لما اتصل بسultan مروان ، اتصل عند القوم ما انقطع منه وأخفى موضع الوهن عند من لا علم له . وسنو المهدي كانت سني سلامة ، وما زال ملك عبد الملك في انتقاض وانتكاس ، ولم يكن ملك يزيد كملك هرون ، ولا ملك الوليد كملك المعتصم .

[١٠ - هاشم احق بالخلافة]

قال أبو عثمان : وتفخر عليهم بنو هاشم بأن سني ملكهم أكثر ومدته أطول ، فإنه قد بلغت مدة ملكهم إلى اليوم أربعاً وتسعين سنة . ويفخرون أيضاً عليهم بأنهم ملكوا بالميراث وبحق العصبة والعمومة ، وأن ملكهم في مخرس نبوة ، وأن أسبابهم غير أسباب بني مروان ، بل ليس لبني مروان فيها سبب ولا بينهم وبينها نسب ، إلا أن يقولوا إنا من قريش . فساووا في هذا الاسم قريش الظواهر . لأن رواية الراوي : الأئمة من قريش . واقعة على كل قريش . وأسباب الخلافة معروفة وما يدعيه كل جيل معلوم ، وإلى كل ذلك قد ذهب الناس فمنهم من ادعاه لعل لاجتماع القرابة والسابقة والوصية . فإن كان الأمر كذلك فليس لآل أبي سفيان ولا لآل مروان فيها دعوى ، وإن كانت إنما تنال بالوراثة وتستحق بالعمومة وتستوجب بحق العصبة ، فليس لهم أيضاً فيها دعوى ، وإن كانت لا تنال إلا بالسوابق والأعمال والجهاد ، فليس لهم في ذلك قدم مذكور ولا يوم مشهور ، بل كانوا إذ لم يكن لهم سابقة ولم يكن فيهم ما يستحقون به الخلافة ولم يكن فيهم ما يمنعهم منها أشد المنع لكان أهون ولكن

الأمر عليهم أيسر . قد عرفنا كيف كان أبو سفيان في عداوة النبي صلى الله عليه وسلم وفي محاربه له وإجلابه عليه وفضوزه إياه ، وعرفنا إسلامه كيف أسلم وإخلاصه كيف أنخلص ومعنى كلمته يوم الفتح حين رأى الجنود وكلامه يوم حنين وقوله يوم صعد بلال على الكعبة فأذن ، على أنه إنما أسلم على يد العباس ، والعباس هو الذي منع الناس من قتله وجاء به رديفاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله فيه أن يشرفه وأن يكرمه وينوه به . وتلك يد بيضاء ونعمة غراء ومقام مشهود ، ويوم حنين غير مجحود .

[١١ - جور أمية]

فكان جزاء بني هاشم من بنيه أن حاربوا علياً ، وسموا الحسن وقتلوا الحسين وحملوا النساء على الأقتاب حواسر وكشفوا عن عورة علي بن الحسين حين أشكل عليهم بلوغه كما يصنع بنراري المشركين إذا دخلت دورهم عنوة . وبعث معاوية بُسرَ بن أرطاة إلى اليمن فقتل ابني عبيد الله بن العباس ، وهما غلامان لم يبلغا الحلم . وقتل عبيد الله بن زياد يوم الطف تسعة من صلب علي وسبعة من صلب عقيل ، ولذلك قال ناعيمهم :

عَيْنُ جُودِي بَعْبَرَةٍ وَعَوِيلِ وَأَسْذِي إِنْ نَدَبْتَ آلَ الرَّسُولِ
تَسْفَةَ كُلَّهُمْ لِصُلْبِ عَلِيٍّ قَدْ أَصَيْسُوا وَسَبَعَةَ لِعَقِيلِ

ثم إن بني أمية تزعم أن عقيلاً أعان معاوية على علي ، فإن كانوا كاذبين فما أولاهم بالكذب ، وإن كانوا صادقين فما جازوا عقيلاً بما صنع . وضرب عنق مسلم ابن عقيل صبراً وغدراً بعد الأمان ، وقتلوا معه هاني بن عروة لأنه آواه ونصره ، ولذلك قال الشاعر :

فَإِنْ كُنْتَ لَا تَدْرِينَ مَا الْمَوْتُ فَانظُرِي إِلَى هَانِيٍّ فِي السُّوقِ وَأَبْنِ عَقِيلِ
تَرَيَّ بَطْلًا قَدْ هَشَمَ السَّيْفُ وَجْهَهُ وَأَخْرَجَ يَهُوِيٍّ مِنْ طَمَارِ قَتِيلِ

وأكلت هندُ كبد حمزة ، فمنهم آكلة الأكباد ، ومنهم كهف النفاق ، ومنهم من نقر بين ثنيتي الحسين بالفضيب ، ومنهم القاتل يوم الحرة عون بن عبد الله ابن جعفر ، ويوم الطفُّ أبا بكر بن عبد الله بن جعفر ، وقتل يوم الحرة أيضاً من بني هاشم : الفضل بن عباد بن ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب ، والعباس بن عتبة بن أبي لهب بن عبد المطلب ، وعبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب .

قال أبو عثمان : وقالت هاشم لأمية : قد علم الناس ما صنعتم بنا من القتل والتشريد لا لذنب أتيناه إليكم ، ضربتم علي بن عبد الله بن عباس بالسياط مرتين على أن تزوج بنت عمه الجعفرية التي كانت عند عبد الملك وعلى أن نحلتموه قتل سابط ، وسمتم أبا هاشم عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب ، ونبشتم زيدا وصلبتموه وأقيمت رأسه في عرصة الدار توطأ بالأقدام ، وينقر دماغه الدجاج حتى قال القائل :

إطردوا الذئب عن فؤاية زيد طالما كان لا تطأه الدجاج

وقال شاعركم أيضاً :

صَلَبْنَا لَكُمْ زَيْدًا عَلَى جَذَعِ نَخْلَةٍ وَلَمْ نَرَمْهُدِيًّا عَلَى الْجَذَعِ يُضَلَبُ
وَقَسْتُمْ بَعُثْمَانَ عَلِيًّا سَفَاهَةً وَعُثْمَانَ خَيْرًا مِنْ عَلِيٍّ وَأَطْمَبُ

فروى أن بعض الصالحين من أهل البيت قال : اللهم إن كان كاذباً فسلط عليه كلباً من كلابك . فخرج يوماً بسفر له فعرض له الأسد فافترسه . وقتلتم الإمام جعفر الصادق ، وقتلتم يحيى بن زيد وسميت قتله نائر مروان وناصر الدين . هذا الى ما صنع سليمان بن حبيب بن المهلب عن أمركم وقولكم بعبد الله أبي جعفر المنصور قبل الخلافة ، وما صنع مروان بإبراهيم الإمام أدخل رأسه في جراب نورة حتى مات . فإن أنشدتم :

أفأض المدامع قتل كدى وقتل بكثوة لم ترمس

وَبِالزَّابِيَيْنِ نَفُوسٌ ثَوَّتْ وَأَعْمَرَى بِنَهْرٍ أَيْ فُطْرُسٍ

أَشَدُّنَا نَحْنُ :

وَأَذْكُرُوا مَضْرَعَ الْحُسَيْنِ وَزَيْدًا وَقَتِيلًا بِجَانِبِ الْمَهْرَاسِ
وَالْقَتِيلَ الَّذِي بِنَجْرَانَ أُمِّي ثَاوِيًا بَيْنَ عُرْبِيَّةٍ وَتَنَاسِ

وقد علمتم حال مروان أبيكم وضعفه وأنه كان رجلاً لا فقه له ولم يعرف بالزهد ولا بالصلاح ولا برواية الآثار ولا بصحبة ولا ببعدهمة ، وإنما ولي رستاقا من رستاق دار أبحرد لابن عامر ثم ولي البحرين لمعاوية . وقد كان جميع أصحابه ومن تابعه يبائع لعبد الله بن الزبير حتى رده عبيد الله بن زياد . وقال يوم مرج راهط والرؤوس تندر عن كواهلها في طاعته :

وَمَا ضَرَّهُمْ عِنْدَ حَيْثُ النَّفُوسِ أَي غَلَامِي قَرَيْشٍ غَلَبَ

وهذا قول من لا يستحق أن يبلي زبعا من الأرباع ولا خمسا من الأخماس ، وهو أحد من قتله النساء لكلمة كان حنفته فيها . وأما أبوه الحكم بن أبي العاص فهو طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولعينه والمتخلى في مشيته الحماكي لرسول الله والمتسمع عليه ساعة خلوته ، ثم صار طريداً لأبي بكر وعمر ، امتنعا عن إعادته إلى المدينة ولم يقبلا فيه شفاعاة عثمان ، فلما ولي أدخله فكان أعظم الناس شؤماً عليه ومن أكبر الحجج في قتله وخلعه من الخلافة .

فعبد الملك أبو هؤلاء الملوك الذين تفتخر الأموية بهم أعرق الناس في الكفر ، لأن أحد أبويه هذا والآخر من قبل أمه معاوية بن المغيرة بن أبي العاص كان النبي صلى الله عليه وسلم طرده من المدينة وأجله ثلاثاً فحيره الله حين خرج وبقي متردداً متلداً حوها لا يبتدي لسبيله حتى أرسل في أثره علياً وعماراً فقتلاه ، فأنتم أعرق الناس في الكفر ، ونحن أعرق الناس في الإيمان ، ولا يكون أمير المؤمنين إلا أولاهم بالإيمان وأقدمهم فيه .

قال أبو عثمان : وتفتخر هاشم بأن أحداً لم يجد تسعين عاماً لا طواعين

فيها إلا منذ ملكوا . قالوا : لو لم يكن من بركة دعوتنا إلا أن تعذيب الأمراء
لعمال الخراج بالتعليق والرهق والتجريد والتسهير والمسال والنورة والجورتين
والعذراء والجماعة والتشطيب قد ارتفع لكان ذلك خيراً كثيراً . وفي الطاعون
يقول العماني الراجز يذكر دولتنا :

قَدْ رَفَعَ اللهُ رِمَاحَ الْجِنِّ وَأَذْهَبَ التَّمْذِيبَ وَالتَّجَنِّيَّ

والعرب تسمي الطواعين رماح الجن . وفي ذلك يقول الشاعر :

لَعْمُرِكَ مَا خَشِيتُ عَسَلِيَّ أَهِيَّ رِمَاحَ بَنِي مُقَيْدَةَ الْحِمَارِ
وَلِكِنِّي خَشِيتُ عَسَلِيَّ أَهِيَّ رِمَاحَ الْجِنِّ أَوْ إِيَّاكَ حَارِ

يقوله بعض بني أسد للحرث الغساني الملك .

قال أبو عثمان : وتفخر هاشم عليهم بأنهم لم يهدموا الكعبة ، ولم يحولوا
القبلة ، ولم يجعلوا الرسول دون الخليفة ، ولم يختموا في أعناق الصحابة ، ولم
يغيروا أوقات الصلاة ، ولم ينقشوا أكف المسلمين ، ولم يأكلوا الطعام ويشربوا
على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يذهبوا الحرم ولم يطؤوا المسلمات في
دار الإسلام بالسباء .

[١٢ - هاشم تنتزع الملك من أمية]

قال أبو عثمان : ويفخر بنو العباس على بني مروان ، وهاشم على عبد
شمس بأن الملك كان في أيديهم فانتزعوه منهم وغلبوهم عليه بالبطش الشديد
وبالحيلة اللطيفة ثم لم ينزعوه إلا من يد أشجعهم شجاعة وأشدهم تسديراً
وأبعدهم غوراً ومن نشأ في الحروب وربي في الثغور ومن لا يعرف إلا الفتوح
وسياسة الجنود ، ثم أعطى الوفاء من أصحابه والصبر من قواده فلم يخسر منهم
غادر ولا قصر منهم مقصر ، كما قد بلغك عن حنظلة بن نباتة وعامر بن ضبارة
ويزيد بن عمرو بن هبيرة ولا من سائر قواده حتى أحببه وكتابه ، كعبد الحميد

الكاتب ، ثم لم يلقه ولا لقي تلك الحروب في هامة تلك الأيام إلا رجال ولد
العباس بأنفسهم ، ولا قام بأثر الدولة إلا مشايخهم كعبد الله بن علي ، وصالح
ابن علي ، وداود بن علي ، وعبد الصمد بن علي ، وقد لقبهم المنصور نفسه .

قال : وتفخر هاشم أيضاً عليهم بقول النبي صلى الله عليه وسلم وهو
الصديق المصدق : « نقلت من الأصلاب الزاكية الى الأرحام الطاهرة وما افترت
فرقتان إلا كنت في خيرهما » . وقوله : « بعثت من خيرة قريش » . ومعلوم أن
بني عبد مناف افترقوا فكانت هاشم والمطلب يدا ، وعبد شمس ونوفل يداً .

[١٣ - مفاخر هاشم بعد الاسلام : الفخر بكثرة الولد]

قال : وإن كان الفخر بكثرة العدد ، فإنه من أعظم مفاخر العرب ، فولد
علي بن عبد الله بن العباس اليوم مثل جميع بني عبد شمس . وكذلك ولد
الحسين بن علي بن أبي طالب . هذا مع قرب ميلادهما . وقد قال النبي صلى
الله عليه وسلم : « شواهء ولود خير من حسناء عقيم » . وقال : « أنا مكاتر بكم
الأمم » . وقد روى الشعبي عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم
قدم من سفر فأراد الرجال أن يطرقوا النساء ليلاً فقال : « أمهلوا حتى تمتشط
الشعثة وتستحد المغيبة ، فإذا قدمتم فالكيس الكيس » . قالوا : ذهب إلى طلب
الولد . وكانت العرب تفخر بكثرة الولد وتمدح الفحل القبيس وتذم العاقر
والعقيم . قال عامر بن الطفيل يعني نفسه :

لَيْسَ الْفَقَى إِنْ كُنْتَ أَعْوَزَ عَاقِرًا جَبَانًا فَمَا عُدْبِرِي لَسَدَى كُلِّ مَحْضِرٍ

وقال علقمة بن علاثة يفخر على عامر : آمنت وكفر ، ووفيت وغدر ،
وولدت وعقر وقال الزبيرقان :

فَأَسْأَلُ بَنِي سَعْدِ وَعَظِيمَهُمْ يَوْمَ الْفَخَارِ فَعِنْدَهُمْ خُبْرِي
أَيُّ امْرَأَةٍ أَنَا حِينَ يَحْضُرُنِي رَفْدُ الْعَسْطَاءِ وَطَالِبُ النَّصْرِ

وَإِذَا هَلَكْتُ تَرَكْتُ وَسْطَهُمْ وَوَلَدِي الْكِرَامَ وَنَابِيَهُ الذُّكْرَ

وقال طرفة بن العبد :

فَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ قَيْسَ بْنَ خَالِدٍ وَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ عَمْرَوَ بْنَ مَرْثِدٍ
فَأَصْبَحْتُ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ وَعَادِنِي بَنُونَ كِرَامٍ سَادَةٌ لِمَسُودٍ

ومدح النابغة الذبياني ناساً فقال :

لَمْ يُحْرَمُوا طَيْبَ النِّسَاءِ وَأُمَّهُمْ طَفَحَتْ عَلَيْكَ بِسَاطِقِ مِذْكَارِ

وقال نهشل بن حري :

عَلَّ بَنِيَّ يَشُدُّ اللَّهُ عَظْمَهُمْ وَالنَّبْعُ يَنْبِتُ قُضْبَانًا فَيَكْتَهِلُ

ومكث الفرزدق زماناً لا يولد له فغيرته امرأته فقال :

قَالَتْ أَرَاهُ وَاجِدًا لَا أَخَالَكَ يَوْمَ لَمَّا فِي الْوَارِثِينَ الْأَبَاعِدُ
لَعَلَّكَ يَوْمًا أَنْ تَرَبِّبِي كَأَنَّمَا بَنِيَّ حَوَالِي اللَّيْثِ الْخَوَارِدُ
فَإِنْ تَمِيمًا قَبْلَ أَنْ يَلِدَ الْحَضَا أَقَامَ زَمَانًا وَهُوَ فِي النَّاسِ وَاجِدُ

وقال آخر - وقد مات اخوته وملا حوضه ليستقي فجاء رجل صاحب

عشيرة وعتره فأخذ بضبعه فتحاه ثم قال لراعيه : إسق إيلك - :

لَوْ كَانَ حَوْضُ جِمَارٍ مَا شَرِبْتُ بِهِ إِلَّا بِإِذْنِ جِمَارٍ آخِرِ الْأَبْدِ
لَكِنَّهُ حَوْضٌ مَنِ أَوْدَى بِإِخْوَتِهِ رَبُّبُ الْمُنْسُونِ فَأَمْسَى بِيضَةَ الْبَلْدِ
لَوْ كَانَ يُشْكِي إِلَى الْأَمَوَاتِ مَا لَقِيَ الْآ حَيَاءُ بَعْدَهُمْ مِنْ قِلَّةِ الْعَدَدِ
ثُمَّ اشْتَكَيْتُ لِأَشْكَائِي وَأَنْجَدَنِي قَبْرُ بَسَنْجَارٍ أَوْ قَبْرُ عَلِيٍّ فَحَسِدِ

وقال الاعشى وهو يذكر الكثرة :

وَلَسْتَ بِأَلَاكْثَرِ مِنْهُمْ حَصَا وَإِنَّمَا الْعِزَّةُ لِسُلْكَائِرِ

قال : وقد ولد رجال من العرب كل منهم ولد لصلبه أكثر من مائة ، فصاروا بذلك مفخراً ، منهم : عبد الله بن عمير الليثي ، وأنس بن مالك الأنصاري وخليفة بن بر السعدي . أتى على عامتهم الموت الجارف . ومات جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس عن ثلاثة وأربعين ذكراً وخمس وثلاثين امرأة كلهم لصلبه ، فما ظنك بمن مات من ولده في حياته ؟ وليس طبقة من طبقات الأسنان الموت إليها أسرع وفيها أعم وأفسى من سن الطفولية . وأمر جعفر بن سليمان قد عينه عالم من الناس وعامتهم أحياء . وليس خبر جعفر كخبر غيره من الناس . قال الهيثم بن عدي : أفضى الملك إلى ولد العباس وجميع ولد العباس يومئذ من الذكور ثلاثة وأربعون رجلاً ، ومات جعفر بن سليمان وحده عن مثل هذا العدد من الرجال . وممن قرب ميلاده وكثر نسله حتى صار ك بعض القبائل والعمائر : أبو بكر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمهلب بن أبي صفرة ، ومسلم بن عمرو الباهلي ، وزباد بن عبيد أمير العراق ، ومالك بن مسمع . وولد جعفر بن سليمان السوم أكثر عدداً من أهل هذه القبائل . وأربعة من قريش ترك كل واحد منهم عشرة بنين معروفين ، وهم : عبد المطلب بن هاشم ، والمطلب بن عبد مناف ، وأمية بن عبد شمس ، والمغيرة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم . وليس على ظهر الأرض هاشمي إلا من ولد عبد المطلب . ولا يشك أحد أن عدد الهاشميين شبيه بعدد الجميع . فهذا ما في الكثرة والقلّة .

[١٤ - الفخر بالحكمة]

قال : وإن كان الفخر بنبل الرأي وصواب القول ، فمن مثل عباس بن عبد المطلب وعبد الله بن العباس ؟ وإن كان في الحكم والسؤدد وأصالة الرأي والغناء العظيم ، فمن مثل عبد المطلب ؟ وإن كان إلى الفقه والعلم بالتأويل

ومعرفة التزليل ، وإلى القياس السديد وإلى الألسنة الحداد والخطب الطوال ،
 فمن مثل علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس ؟ قالوا : خطبنا عبد الله بن
 عباس خطبة بحمكة أيام حصار عثمان لو شهدها الترك والديلم لأسلموا . وفي
 عبد الله بن العباس يقول حسان بن ثابت :

إِذَا قَالَ لَمْ يَتْرُكْ مَقَالًا لِقَائِلٍ بِمُلْتَقَطَاتٍ لَا تَسْرَى بَيْنَهَا فَصَلَا
 شَفَى وَكَفَسَى مَا فِي النُّفُوسِ فَلَمْ يَدْعُ لِيَلِي إِدْبِيَةَ فِي الْقَوْلِ جِدًّا وَلَا هَزْلًا

وهو البحر ، وهو الحبر ، وكان عمر يقول له في حديثه عند إجابة الرأي :
 غص غواص . وكان يقدمه على جلة السلف .



[١٥ - فخر هاشم بالبسالة]

قال : وإن كان الفخر في البسالة والنجدة وقتل الأقران وجزر الفرسان ،
 فمن كحمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب ؟ وكان الأحنف إذا ذكر حمزة
 قال : أليس . وكان لا يرضى أن يقول شجاع ، لأن العرب كانت تجعل ذلك أربع
 طبقات فتقول : شجاع . فإذا كان فوق ذلك قالت : بطل . فإذا كان فوق ذلك
 قال : هُجْم . فإذا كان فوق ذلك قالت : أليس . وقال العجاج : « أليس عن
 حوياته سخى ، . وهل أكثر ما يعد الناس من جرحاهما وصرعاهما إلا ساداتكم
 وأعلامكم ؟ قتل حمزة وعلي عتبة والوليد ، وقتل شيبة أيضاً شركا عبيدة بن
 الحارث فيه ، وقتل علي حنظلة بن أبي سفيان . فأما آباء ملوككم من بني مروان
 فانهم كما قال عبد الله بن الزبير لما أتاه خبير المصعب : إنا والله ما نموت إلا
 قتلاً ، قعصاً بالرماح وموتاً تحت ظلال السيوف . قال أبو عثمان : كأنه لم يعد
 قتل معاوية بن المغيرة بن أبي العاص قتلاً ، إذ كان إنما قتل في غير معركة ،
 وكذلك قتل عثمان بن عفان إذا كان إنما قتل محاصراً ، ولا قتل مروان بن الحكم
 لأنه قتل خنقاً ، خنقته النساء ؟ قال : وإنما فخر عبد الله بن الزبير بما في بني

أسد بن عبد العزى من القتل ، لأن من شأن العرب أن تفخر بذلك كيف كانوا قاتلين أو مقتولين . ألا ترى أنك لا تصيب كثرة القتل إلا في القوم المعروفين باليأس والنجدة وبكثرة اللقاء والمعاربة ؟ كآل أبي طالب ، وآل الزبير ، وآل المهلب ؟ قال : وفي آل الزبير خاصة سبعة مقتولون في نسق ، ولم يوجد ذلك في غيرهم : قتل عمارة وحمزة ابنا عبد الله بن الزبير يوم قُتَيْدٍ في المعركة ، قتلها الأباضية ، وقتل عبد الله بن الزبير في محاربة الحجاج ، وقتل مصعب بن الزبير بدير الجائليق في المعركة أكرم قتل ، وبازائه عبد الملك بن مروان ، وقتل الزبير بوادي السباع منصرفه من وقعة الجمل ، وقتل العوام بن خويلد في حرب الفجار ، وقتل خويلد بن أسد بن عبد العزى في حرب خزاعة . فهؤلاء سبعة في نسق . قال : وفي بني أسد بن عبد العزى قتل كثير من غير هؤلاء : قتل المنذر بن الزبير بمكة ، قتله أهل الشام في حرب الحجاج وهو على بغل ورد كان نقر به فأصعد به في الجبل . وإياه يعني يزيد بن مفرغ الحميري وهو يهجو صاحبكم عبيد الله بن زياد ويعيره باخفاره بقراره يوم البصرة :

لأبن الزُّبَيْرِ غَدَاةٌ تَذْمُرُ مُثَلِّباً أُولَى بِكُلِّ حَفِيظَةٍ وَزَمَاعِ

وقتل عمرو بن الزبير قتله أخوه عبد الله بن الزبير وكان في جوار أخيه عبيدة بن الزبير فلم يغن عنه ، فقال الشاعر يحرص عبيدة على قتل أخيه عبد الله بن الزبير ويعيره باخفاره جوار عمرو أخيها :

أُعْيِيْدُ لَوْ كَانَ الْمَجِيْرَ لَوْلَوْتُ	بَعْدَ الْمُدُوِّ بِرَنَةِ أَسْمَاءِ
أُعْيِيْدُ إِنَّكَ قَدْ أَجَرْتَ وَجَارِكُمْ	تَحْتَ الصَّفِيْحِ تَنْوِبُهُ الْأَصْدَاءِ
إِضْرِبْ بِسَيْفِكَ ضَرْبَةً مَذْكُورَةً	فِيهَا أَدَاءُ أَمَانَةٍ وَوَفَاءِ

وقتل بجير بن العوام أخو الزبير بن العوام ، قتله سعد بن صفح الدوسي جد أبي هريرة من قبل أمه بناحية اليمامة ، وقتل معه أصرم وبعكك ابني العوام ابن خويلد . وقد قتل منهم في محاربة النبي صلى الله عليه وسلم قوم متهورون منهم : زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى ، وكان شريفاً ، قتل

يوم بدر . وأبوه الأسود كان المثل يضرب بعزته بمكة ، وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يذكر عاقر الناقة : كان عزيزاً منيعاً كأبي زمعة ويكنى زمعة ابن الأسود أبا حكيمة . وقتل الحرث بن الأسود بن المطلب يوم بدر أيضاً ، وقتل عبد الله بن زمعة بن الأسود ، ضرب عنقه مسرف بن عقبة صبراً ، قال له : بايع لأمر المؤمنين يزيد بن معاوية على أنك عبد قن له ؟ قال : بل أبايعه على أني أخوه وابن عمه . فضرب عنقه . وقتل اسماعيل بن هبار بن الأسود ليلاً وكان دعا حيلة فخرج مصرخاً لمن استصرخه فقتل فاتهم به مصعب بن عبد الله بن عبد الرحمن فأحلفه معاوية خمسين مئناً وخلي سبيله . فقال الشاعر :

وَلَا أَجِيبُ بَلِيلٍ دَاعِيًا أَبَدًا أَخْتِي الْغُرُورَ كَمَا غُرَّ ابْنُ هَبَّارٍ
بَاتُوا يَجْرُونَ فِي الْحَيْثِ مُنْعَفِرًا بَشَّ الْمَدِيَّةُ لِابْنِ النِّعَمِ وَالْجَارِ

وقتل عبد الرحمن بن العوام بن خويلد في خلافة عمر بن الخطاب في بعض المغازي . وقتل ابنه عبد الله يوم الدار مع عثمان . فعبد الله بن عبد الرحمن بن العوام بن خويلد ، قتيل ابن قتيل ابن قتيل ، أربعة في نسق . ومن قتلهم : عيسى بن مصعب بن الزبير ، قتل بين يدي أبيه بمسكن في حرب عبد الملك ، وكان مصعب يكنى أبا عيسى ، وعيسى كلاهما : موالي قریش كهلهما وصميمها . ومنهم مصعب بن عكاشة بن مصعب بن الزبير ، قتل يوم قديد في حرب الخوارج وقد ذكره الشاعر :

فَمَنْ فَاثِدُّنَ رَجَالًا قَتَلُوا بِقُدَيْدٍ وَلِنَقْضَانِ الْعَدَدِ
ثُمَّ لَا تُعَدِّلُنَّ فِيهَا مُضْعَبًا حِينَ يُبْكِي مِنْ قَتِيلٍ بِأَحَدِ
أَنَّهُ قَدْ كَانَ فِيهَا بِاسِلًا صَارِمًا يُقْسِدِمُ إِفْدَامَ الْأَسَدِ

ومنهم خالد بن عثمان بن خالد بن الزبير ، خرج مع محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن فقتله أبو جعفر وصلبه . ومنهم عتيق بن عامر بن عبد الله بن الزبير ، قتل بقديد أيضاً ، وسمى عتيقاً باسم جده أبي بكر الصديق .

قال : وإن كان الفخر والفضل في الجود والسماح ، فمن مثل عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ؟ ومن مثل عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ؟ - وقد اعترضت الأموية هذا الموضوع فقالت : إنما كان عبد الله بن جعفر يهب مما كان معاوية ويزيد يهبانه له ، فمن فضل جودنا جاد ، قالوا : ومعاوية أول رجل في الأرض وهب ألف ألف درهم ، وابنه يزيد أول من ضاعف ذلك . فإنه كان يميز الحسن والحسين ابني علي في كل عام لكل واحد منهما بألف ألف درهم ، وكذلك كان يميز عبد الله بن العباس وعبد الله بن جعفر ، فلما مات وقام يزيد وفد عليه عبد الله بن جعفر فقال له : إن أمير المؤمنين معاوية كان يهل رحمي في كل سنة بألف ألف درهم ؟ قال : فلك ألفا ألف درهم ! فقال : بسأبي أنت وأمي ؟ أما إنني ما قلتها لابن أنثى قبلك ! قال : فلك أربعة آلاف ألف درهم - وهذا الاعتراض ساقط ، لأن [هذا] إن صح لم يمد جوداً ولا جائزة ولا صلة رحم ، هؤلاء قوم كان يخافهم هل ملكه ويعرف حقهم فيه وموقعهم من قلوب الأمة ، فكان يدبر في ذلك تدبيراً ويربع أموراً ويصانع عن دولته وملكه . ونحن لم نعد قط ما أعطى خلفاء بني هاشم قوادهم وكتائبهم وبني عمهم جوداً ، فقد وهب للمأمون للحسن بن سهل غلة عشرة آلاف ألف فما عد ذلك منه مكرمة ، وكذلك كل ما يكون داخلاً في باب التجارة واستمالة القلوب وتدبير الدولة ، وإنما يكون الجود ما يدفعه الملوك إلى الوفود والخطباء والشعراء والأشراف والأدباء والسمار ونحوه ؟ ولولا ذلك لكان الخليفة إذا وفي الجند أعطيتهم احتسب ذلك في جوده ! فالعمالات شيء والإعطاء على دفع المكروه شيء ، والتفضل والجود شيء .

ثم إن الذين أعطاهم معاوية ويزيد هو بعض حقهم ، والذي فضل عليهما أكثر مما خرج منها . وإن أريد الموازنة بين ملوك بني العباس وملوك بني أمية في العطاء افتضح بنو أمية وناصرهم فضيحة ظاهرة . فإن نساء خلفاء بني العباس

أكثر معروفاً من رجال بني أمية ، ولو ذكرت معروف أم جعفر وحدها لأن ذلك على جميع صنائع بني مروان . وذلك معروف . ولو ذكرت معروف الخيزران وسلسبيل لمئات الطوامير الكثيرة به ، وما نظن خالصة مولاتهم إلا فوق أجواد أجوادهم . وإن شئت أن تذكر مواليتهم وكتابتهم فاذكر عيسى بن ماهان ، وابنه علياً ، وخالد بن برمك ، وابنه يحيى ، وابنيه جعفر والفضل ، وكتابتهم منصور بن زبدا ، ومحمد بن منصور فتي العسكر ، فإنك تجد لكل واحد من هؤلاء ما يحيط بجميع صنائع بني عبد شمس .

فأما ملوك الأموية فليس منهم إلا من كان يخل على الطعام . وكان جعفر بن سليمان كثيراً ما يذكر ذلك . وكان معاوية يبغض الرجل النهم على مائدته . وكان المنصور إذا ذكرهم يقول : كان عبد الملك جباراً لا يبالي ما صنع ، وكان الوليد مجنوناً ، وكان سليمان همه بطنه وفرجه ، وكان عمر أعمور بين عميان ، وكان هشام رجل القوم . وكان لا يذكر ابن عاتكة . ولقد كان هشام - مع ما استثناء به - يقال هو الأحول السراق ، ما زال يدخل أعطيات الجند شهراً في شهر وشهراً في شهر حتى أخذ لنفسه مقدار رزق سنة . وأنشده أبو النجم العجلي أرجوزته التي أولها « الحمد لله الوهوب المجزل » فما زال يصفق بيديه استحساناً لها حتى صار إلى ذكر الشمس فقال « والشمس في الأفق كمين الأحول » فأمر بوجء عنقه وإخراجه . وهذا ضعف شديد وجهل عظيم . وقال خاله إبراهيم بن هشام المخزومي : ما رأيت من هشام خطأ قط إلا مرتين : حدا به الخادي مرة فقال :

إِنَّ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْبُخْتِيُّ أَكْثَرَ مَنْ تَمَشَّى بِهِ الْمَطِيُّ

فقال : صدقت ! وقال مرة : والله لأشكون سليمان يوم القيامة إلى أمير المؤمنين عبد الملك ! وهذا ضعف شديد وجهل مفرط .

قال أبو عثمان : وكان هشام يقول : والله إنني لأستحي أن أعطي رجلاً أكثر من أربعة آلاف درهم . ثم أعطى عبد الله بن الحسن أربعة آلاف دينار

فاعتدها في جوده وتوسعه . وإنما اشترى بها ملكه وحصن بها عن نفسه وما في يديه . قال له أخوه مسلمة : أتطمع أن تلي الخلافة وأنت بخيل جبان ؟ فقال : ولكني حلیم عفيف . فاعترف بالجبن والبخل . وهل تقوم الخلافة مع واحد منها ؟ وإن قامت فلا تقوم إلا مع الخطر العظيم والتغريير الشديد ، ولو سلمت من الفساد لم تسلم من العيب . ولقد قدم المنصور عليهم عمر بن عبد العزيز بقوله : أعور بين عميان . وزعمتم أنه كان ناسكاً ورعاً تقياً ، فكيف وقد جلد خبيب بن عبد الله بن الزبير مائة جلده وصب على رأسه جرة من ماء بارد في يوم شاتٍ حتى كز فمات ، فما أقر بدمه ولا خرج لوليه من حقه ولا أعطى عقلاً ولا قوداً ، ولا كان خبيب ممن أتت عليه حدود الله وأحكامه وقصاصه فيقال كان مطيعاً بإقامتها وأنه أزهق الحد نفسه ؟ واحسبوا الضرب كان أدباً وتعزيراً فما عذره في الماء البارد في الشتاء على إثر جلد شديد ؟ ولقد بلغه أن سليمان بن عبد الملك يوصي فجاء حتى جلس على طريق من يجلس عنده أو يدخل إليه فقال لرجاء بن حيوة في بعض ما يدخل وما يخرج من شأنه : نشدتك الله أن تذكرني لهذا الأمر وتشير بي في هذا الشأن فوالله مالي عليه من طاقة ؟ فقال له رجاء : (قاتلك الله ما أحرصك عليها ! ولما جاء الوليد بن عبد الملك بنعي الحجاج قال له الوليد : مات الحجاج يا أبا حفص ؟ فقال : وهل كان الحجاج إلا رجلاً منا أهل البيت ؟ وقال في خلافته : لولا بيعة في أعناق الناس ليزيد بن عاتكة لجعلت هذا الأمر شورى بين صاحب الأعواص إسماعيل بن أمية بن عمرو بن سعيد الأشدق ، وبين أحمد قريش القاسم بن محمد بن أبي بكر ، وبين سالم بن عبد الله بن عمر . فما كان عليه من الضرر والحرج ، وكان عليه من الوكف والنقص لو قال : بين علي بن عبد الله بن عباس ، وعلي بن الحسين بن علي ؟ على أنه لم يرد التيمي ولا العدوي ، وإنما دبر الأمر للاموي . ولم يكن عنده أحد من هاشم يصلح للشورى ثم دبر الأمر ليبايع لأخيه أبي بكر بن عبد العزيز من بعده حتى عوجل بالسهم : ؟ وقدم عليه عبد الله بن حسن بن حسن فلما رأى كماله وبيانه وعرف نسه ومركبه وموضعه وكيف ذلك من قلوب المسلمين وفي صدور المؤمنين

لم يدعه يبيت بالشام ليلة واحدة وقال له : إلتق بأهلك فإنك لم تغنمهم شيئاً هو
أنفس منك ولا أرد عليهم من حياتك ، أخاف عليك طواعين الشام ،
وستلحقك الحوائج على ما تشتهي ونحب . وإنما كره أن يروه ويسمعوا كلامه فلعله
أن يبذر في قلوبهم بذراً ، ويغرس في صدورهم غرساً . وكان أعظم خلق الله
قولاً بالجبر حتى يتجاوز الجهمية ويربي على كل ذي غاية صاحب شئعة ، وكان
يصنع في ذلك الكتب مع جهله بالكلام وقلة اختلافه إلى أهل النظر . وقال له
شوذب الخارجي : لم لا تلعن رهطك وتذكر أباك إن كانوا عندك ظلمة فجرة ؟
فقال عمر : متى عهدك بلعن فرعون ؟ قال : مالي به عهد . قال : أفيستك أن
تمسك عن لعن فرعون ولا يسعني أن أمسك عن لعن آبائي ؟؟ فرأى أنه قد
خصمه وقطع حجته ، وكذلك يظن كل من قصر عن مقدار العالم وجاوز مقدار
الجاهل ! وأي شبه لفرعون بآل مروان وآل أبي سفيان ؟ هؤلاء قوم لهم حزب
وشيعة وناس كثير يدينون بتفضيلهم وقد اعتورتهم الشبه في أمرهم ، وفرعون على
خلاف ذلك وضده ، لا شيعة له ولا حزب ولا نسل ولا موالى ولا صنائع ولا في
أمره شبهة ؟ ثم إن عمر ظن في أمر أهله فيحتاج إلى غسل ذلك عنه بالبراءة
منهم . وشوذب ليس بظنين في أمر فرعون . وليس الإمساك عن لعن فرعون
والبراءة منه مما يعرفه الخوارج . فكيف استويا عنده ؟! وشكا إليه رجل من
رهطه ديناً فادحاً وعبالاً كثيراً فاعتل عليه ، فقال له : هلا اعتلت على عبد
الله بن الحسن ؟ قال : ومتى شاورتك في أمري ؟ قال : أو مشيراً تراني ؟ قال :
وهل أعطيتني إلا بعض حقه ؟ قال : ولم قصرت عن كله ؟! فأمر باخراجه وما
زال إلى أن مات محروماً منه . وكان عمال أهله على البلاد عماله وأصحابه .
والذي حسن أمره وشبهه على الأغبياء حاله أنه قام بعقب قوم قد بدلوا عامة
شرائع الدين وسنن النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان الناس قبله من الظلم
والجور والتهاون بالاسلام في أمر صخر في جنبه ما عابنوا منه وآفوه عليه .
فجعلوه بما نقص من تلك الأمور الفظيمة ، في عداد الأئمة الراشدين . وحسبك
من ذلك أنهم كانوا يلعنون علياً على منابرهم فلما نهى عمر عن ذلك عد محسناً .

ويشهد لذلك قول كثير فيه :

وَلَيْتَ فَلَمَّ تَشْتُمُ عَلِيًّا وَلَمْ تُحِثْ بِرَبِّهِمْ وَلَمْ تَتَّبِعْ مَقَالَةَ مُجْرِمٍ

وهذا الشعر يدل على أن شتم علي قد كان لهم عادة حتى مدح من كف عنه . ولما ولي خالد بن عبد الله القسري مكة - وكان إذا خطب بها لعن علياً والحسن والحسين - قال عبيد الله بن كثير السهمي :

لَعَنَ اللَّهُ مَنْ يَسُبُّ عَلِيًّا وَحَسِينًا مِنْ سَوْفَةِ وَإِمَامٍ
أَيُّبُ الْمُطَهَّرُونَ جُدوداً وَالكَرَامُ الْأَبَاءَ وَالْأَعْمَامِ
يَأْمَنُ الطَّيْرُ وَالْحَمَامُ وَلَا يَأْ مَنْ آلَ الرَّسُولِ عِنْدَ الْمَقَامِ
طَبَّتْ بَيْتاً وَطَابَ أَهْلُكَ أَهْلًا أَهْلَ بَيْتِ النَّبِيِّ وَالْإِسْلَامِ
رَحْمَةُ اللَّهِ وَالسَّلَامُ عَلَيْهِمْ كُلَّمَا قَامَ قَائِمٌ بِسَلَامِ

وقام عبد الله بن الوليد بن عثمان بن عفان - وكان ممن يتاله بزعمهم - إلى هشام بن عبد الملك وهو يخطب على المنبر بعرفة فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا يوم كانت الخلفاء تستحب فيه لعن أبي تراب ؟ فقال هشام : ليس لهذا جتنا . ألا ترى أن ذلك يدل على أنه قد كان لعنه فيهم فاشياً ظاهراً ؟ وكان عبد الله بن الوليد هذا يلعن علياً ويقول : قتل جدي جميعاً الزبير وعثمان . وقال المغيرة وهو عامل معاوية يومئذ لصعصعة بن صوحان : قم فالعن علياً ؟ فقال : إن أميركم هذا أمرني أن ألعن علياً فالعنوه لعنه الله - وهو يضم المغيرة .

وأما عبد الملك فحسبك من جهله بتدليل شرائع الدين والاسلام وهو يريد أن يبي أمور أصحابها بذلك الدين بعينه ! وحسبك من جهله أنه رأى من أبلغ التدبير في منع بني هاشم الخلافة أن يلعن علي بن أبي طالب على منابره ويرمى بالفجور في مجالسه ، وهذا قرّة عين عدوه وعير عين وليه ، وحسبك من جهله قيامه على منبر الخلافة قائلاً إني والله ما أنا بالخليفة المستضعف ، ولا بالخليفة المدهن ، ولا بالخليفة المأفون . وهؤلاء سلفه وأئمتّه ، وبشفعتهم قام ذلك

المقام ، ويتقدمهم وتأسيسهم نال تلك الرئاسة ، ولولا القادة المتقدمة والأجناد
المجندة والصنائع القائمة لكان أبعد خلق الله من ذلك المقام وأقربهم إلى الهلكة
إن رام ذلك الشرف . وعنى بالمستضعف عثمان ، وبالمداهن معاوية ، وبالمأفون
يزيد بن معاوية . وهذا الكلام نقض لسلطانه ، وعداوة لأهله ، وإفساد لقلوب
شيعة ، ولو لم يكن من عجز رأيه إلا انه لم يقدر على إظهار قوته إلا بأن يظهر
عجز أئمة لكفالك ذلك منه . . . فهذا ما ذكرته هاشم لأنفسها .

[١٧ - مفاخر أمية بالدهاء والحروب والعلم والشعر]

قالت أمية : لنا من نوادر الرجال في العقل والدهاء والأرب والتكر ما ليس
لأحد . ولنا من الأجواد وأصحاب الصنائع ما ليس لأحد . زعم الناس أن
الدهاة أربعة : معاوية بن أبي سفيان ، وزيد ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن
شعبة . فمنا رجلان ومن سائر الناس رجلان . ولنا في الأجواد : سعيد بن
العاص ، وعبد الله بن عامر ، لم يوجد لهما نظير إلى الساعة . وأما نوادر الرجال
في الرأي والتدبير : فأبو سفيان بن حرب ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وعبد الملك
ابن مروان ، ومسلمة بن عبد الملك . وعلى أنهم يعدون في الحكماء والرؤساء .
فأهل الحجاز يضربون المثل في الحلم بمعاوية كما يضرب أهل العراق المثل فيه
بالأحنف . فأما الفتوح والتدبير في الحرب فلمعاوية غير مدافع ، وكان خطيباً
مصقلاً ومُحَرَّباً مظهرًا . وكان مسلمة شجاعاً مدبراً وسائماً مقدماً ، وكثير الفتوح
كثير الأدب . وكان يزيد بن معاوية خطيباً شاعراً . وكان الوليد بن يزيد خطيباً
شاعراً . وكان مروان بن الحكم وعبد الرحمن بن الحكم شاعرين . وكان بشر بن
مروان شاعراً ناسباً وأديباً عالماً . وكان خالد بن يزيد بن معاوية خطيباً شاعراً
وجيد الرأي أريباً كثير الأدب حكيمًا ، وكان أول من أعطى التراجمة والفلاسفة
وقرب أهل الحكمة ورؤساء أهل كل صناعة ، وترجم كتب النجوم والطب
والكيمياء والحروب والآداب والآلات والصناعات . وقالوا : وإن ذكرت البأس
والشجاعة فالعباس بن الوليد بن عبد الملك ، ومروان بن محمد ، وأبوه محمد بن

مروان بن الحكم وهو صاحب مصعب . وهؤلاء قوم لهم آثار بالروم لا تجهل
 وآثار بآرمينية لا تنكر ، ولهم يوم العقر شهده مسلمة والعباس بن الوليد . قالوا :
 ولنا الفتح العظيم ، ولنا فارس وخراسان ، وإرمينية وسجستان ، وأفريقية وجميع
 فتوح عثمان . فأما فتوح بني مروان فأكثر وأعم وأشهر من أن تحتاج إلى عدد أو
 إلى شاهد ، والذين بلغوا في ذلك الزمان أقصى ما يمكن صاحب خوف وحافر أن
 يبلغه ، حتى لم يحتجز منهم إلا ببحر أو خليج بحر أو غياض أو عقاب أو حصون
 وصياصي ثلاثة رجال : قتيبة بن مسلم بخراسان ، وموسى بن نصير بأفريقية ،
 والقاسم بن محمد بن القاسم الثقفي بالسند والهند . وهؤلاء كلهم عمالنا
 وصنائعنا . ويقال : إن البصرة كانت صنائع ثلاثة رجال : عبد الله بن عامر ،
 وزبيد ، والحجاج ، فرجلان من أنفسنا والثالث صنيعتنا . قالوا : ولنا في
 الأجواد وأهل الأقدار : عبد الله بن خالد بن أسيد بن أمية ، وأخوه خالد ،
 وفي خالد يقول الشاعر :

إلى خالد حتى أنحنأ بخاليد فإنهم ألقى بـرجي ونعم المومل

ولنا سعيد بن خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، وهو عقيد الندي ،
 كان يسبت ستة أشهر ويفيق ستة أشهر ، ويرى كحيلا من غير اكتحال ، ودهينا
 من غير تدهين ، وله يقول : موسى شهوات *

أبا خالد أعني سعيد بن خالد أنحا العرف لا أعني ابن بنت سعيد
 ولكنني أعني ابن عائشة الذي أبو أبويه خالد ابن أسيد
 عقيد الندي ما عاش يرضى به الندي فإن مات لم يرض الندي بعقيد

قالوا : وإنما تمكن فينا الشعر وجاد ليس من قبل أن الذين مدحونا ما كانوا
 غير من مدح الناس ، ولكن لما وجدوا فينا مما يتسع لأجله القول وبصدق فيه
 القائل . قد مدح عبيد الله بن قيس الرقيات من الناس آل الزبير عبد الله
 ومصعباً وغيرهما . فكان يقول كما يقول غيره . فلما صار إلينا قال :

ما تقموا من بني أمية إلا أنهم يحلمون إن غضبوا

وَأَنَّهُمْ مَعْدِنُ الْمُلُوكِ فَمَا تَصْلُحُ إِلَّا عَلَيْهِمُ الْعَرَبُ

وقال نصيب :

مَنْ النَّفْرِ الشَّمِ الذِّينَ إِذَا انْتَجَعُوا أَقْرَتْ لِنَجْوَاهُمْ نُؤْيُ بِنُ غَالِبِ
يُحْيُونَ بِسَامِينَ طَوْرًا وَتَارَةً يَحْيُونَ عَبَّاسِينَ شَوْسِ الْحَوَاجِبِ

وقال الأخطل :

شُمْسُ الْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ وَأَعْظَمُ النَّاسِ إِخْلَامًا إِذَا قَدَرُوا

قالوا : وفيما يقول شاعركم والمتشيع لكم الكميث بن زيد :

فَالآنَ حَسِرْتُ إِلَى أُمِّيَّةٍ وَالْأُمُورُ لَهَا مَصَايِرُ

وفي معاوية يقول أبو الجهم العذوي :

تُقَلِّبُهُ لِنَخْبَرَ خَالَتِيهِ فَنُخْبِرُ مِنْهَا كَرَمًا وَلِينَا
عَمِلُ عَمَلِ جَوَانِيصِيَا كَانَا إِذَا مَلْنَا نَمِيسُ عَمَلِ أَبِيْنَا

وفيه يقول :

تُرِيغُ إِلَيْهِ هُوَادِي الْكَلَامِ إِذَا ضَلَّ خُطْبَتَهُ الْمِهْدَرُ

قالوا : وإذا نظرتم في امتداح الشعراء عبد العزيز بن مروان عرفتم صدق

ما نقوله :

قالوا : وفي إرسال النبي صلى الله عليه وسلم إلى أهل مكة عثمان

واستعماله عتاب بن أسيد وهو ابن اثنين وعشرين سنة دليل على موضع المنعة

ومن تهاب العرب وتعز قريش . وقال النبي صلى الله عليه وسلم قبل الفتح :

« قَتِيَانِ أَضْنَ بِيهَا عَلَى النَّارِ عِتَابُ بْنُ أُسَيْدٍ وَجُبَيْرُ بْنُ مُطْعَمٍ » فولى عتاباً وترك

جُبَيْرِ . وقال الشعبي : لو ولد لي مائة ابن لسميتهم كلهم « عبد الرحمن » للذي

رأيت في قريش من أصحاب هذا الإسم . ثم عد : عبد الرحمن بن عتاب بن

أسيد ، وعبد الرحمن بن الحرث بن هشام ، وعبد الرحمن بن الحكم بن أبي

العاص . فأما عبد الرحمن بن عتاب فإنه صاحب الخيل يوم الجمل ، وهو صاحب الكف والحقام ، وهو الذي مر به علي وهو قتيل فقال : فني عليك بمسوب قريش ! هذا اللباب المحض من بني عبد مناف ! فقال له قائل : لشد ما أبته اليوم يا أمير المؤمنين ! قال : إنه قام عني وعنه نسوة لم يقمن عنك .

[١٨ - فخر عبد شمس بالخطابة]

قالوا : ولنا من الخطباء معاوية بن أبي سفيان ، أخطب الناس قائلاً وقاعداً وعلى منبر وفي خطبة نكاح ! وقال عمر بن الخطاب : ما يتصعدني شيء من الكلام كما تتصعدني خطبة النكاح . وقد يكون خطيباً من ليس عنده في حديثه ووصفه للشيء واحتجاجه في الأمر لسان بارع . وكان معاوية يجري مع ذلك كله .

قالوا : ومن خطبائنا يزيد بن معاوية ، كان أعرابي اللسان بدوي اللهجة . قال معاوية - وخطب عنده خطيب فأجاد - لأرمينه بالخطيب الأشدق . يريد يزيد ابن معاوية . ومن خطبائنا سعيد بن العاص ، لم يوجد كتبخيره تحبير ولا كارتجاله ارتجال . ومنا عمرو بن سعيد الأشدق ، لقب بذلك لأنه حيث دخل على معاوية وهو غلام بعد وفاة أبيه فسمع كلامه فقال : إن ابن سعيد هذا لأشدق : وقال له معاوية : إلى من أوصى بك أبوك ؟ قال : إن أبي أوصى إلي ولم يوصي بي ! قال : فما أوصى إليك ؟ قال : أن لا يفقد إخوانه منه إلا وجهه .

قالوا : ومنا سعيد بن عمرو بن سعيد ، خطيب ابن خطيب . تكلم الناس عند عبد الملك قياماً وتكلم قاعداً ، قال عبد الملك : فتكلم وأنا والله أحب عشرته وإسكاته ، فأحسن حتى استنطقته واستردته . وكان عبد الملك خطيباً خطب الناس مرة فقال : ما أنصفتمونا معشر رعيتنا ، طلبتم منا أن نسير فيكم وفي أنفسنا سيرة أبي بكر وعمر في أنفسها ورعيتها ، ولم تسيروا فينا ولا في أنفسكم سيرة رعية أبي بكر وعمر فيها وفي أنفسها ، ولكل من النصفة نصيب . قالوا : فكانت خطبته نافعة .

قالوا : ولنا زياد وعبيد الله بن زياد ، وكانا غايتين في صحة المعاني وجودة اللفظ . ولهما كلام كثير محفوظ .

قللوا : ومن خطبائنا سليمان بن عبد الملك ، والوليد بن يزيد بن عبد الملك . ومن خطبائنا وناكنا يزيد بن الوليد الناقص . قال عيسى بن حاضر : قلت لعمر بن عبيد : ما قولك في عمر بن عبد العزيز ؟ فكلح ثم صرف وجهه عني . قلت : فما قولك في يزيد الناقص ؟ فقال : أو الكامل ، قال بالعدل وعمل بالعدل وبذل نفسه وشري وقتل ابن عمه في طاعة ربه ، وكان نكالا لأهله ، ونقص من أعطياتهم ما زادته الجبابة ، وأظهر البراءة من آبائه ، وجعل في عهده شرطاً ولم يجعله جزماً . لا والله لكانه ينطق عن لسان أبي سعيد - يريد الحسن البصري - قال : وكان الحسن من أنطق الناس . قالوا : وقد قرئ في الكتب القديمة : يا مبذر الكنوز ويا مساجداً بالأسحار ، كانت ولايتك رحمة وعليهم حجة . قالوا : هو يزيد بن الوليد . ومن خطبائنا ثم من ولد سعيد بن العاص : عمرو بن خولة ، كان ناسياً فصيحاً خطيباً . وقال ابن عائشة الأكبر : ما شهد خطيباً قط إلا لجلج هبة له ومعرفته بانتقاده . ومن خطبائنا عبد الله بن عامر ، وعبد الأعلى بن عبد الله بن عامر ، وكانا من أكرم الناس وأبين الناس . كان مسلمة بن عبد الملك يقول : إني لأنحي كور عمامي عن أذني لأسمع كلام عبد الأعلى . وكانوا يقولون : أشبه قريش نعمة وجهارة واقتداراً وبياناً بعمر بن سعيد : عبد الأعلى بن عبد الله .

[١٩ - فخر عبد شمس بالورع والنسك]

قالوا : ومن أكثر نسك الملوك منا ؟ منا معاوية بن يزيد بن معاوية ، وهو الذي قيل له في مرضه الذي مات فيه : لو أقمت للناس ولياً عهد ؟ قال : ومن جعل لي هذا العهد في أعناق الناس ! والله لولا خوف الفتنة لما أقمت عليها طريقة عين ! والله لا أذهب بمرارتها وتذهبون بحلاوتها ! فقالت له أمه : لوددت أنك حيضة . قال : أنا والله وددت ذلك .

قالوا : ومنا سليمان بن عبد الملك الذي هدم الديماس ورد المسيرين وأخرج المسجونين وترك القريب واختار عمر بن عبد العزيز ، وكان سليمان جواداً خطيباً جميلاً صاحب سلامة ودعة وحب للعافية وقرب من الناس حتى سمي المهدي وقيلت الأشعار في ذلك .

قالوا : ولنا عمر بن عبد العزيز شبيه عمر بن الخطاب ، قد ولده عمر وباسمه سمي ، وهو أشج قريش المذكور في الآثار المنقولة ، العدل في أشد الزمان ، وظلف نفسه بعد اعتياد النعم حتى صار مثلاً ومفخراً . وقيل للحسن : أما رويت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يزداد الزمان إلا شدة والناس إلا شحاً ولا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق » ؟ قال : بلى . قيل : فيما بال عمر بن عبد العزيز وعدله وسيرته ؟ فقال : لا بد للناس من متنفس . وكان مذكوراً مع الخطباء ومع النساك ومع الفقهاء

قالوا : ولنا ابنه عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز ، كان ناسكاً زكياً طاهراً ، وكان من أتقى الناس وأحسنهم معونة لأبيه ، وكان كثيراً ما يهذ أباه وبيناه .

قالوا : ولنا من لا نظير له في جميع أموره ، وهو صاحب الأعواص اسماعيل ابن أمية بن عمرو بن سعيد بن العاص ، وهو الذي قال فيه عمر بن عبد العزيز : لو كان إلي من الأمر شيء لجعلتها شورى بين القاسم بن محمد وسالم بن عبد الله ، وصاحب الأعواص .

قالوا : ومن نساكنا أبو حراب من بني أمية الصغرى ، قتله داود بن علي . ومن نساكنا يزيد بن محمد بن مروان ، كان لا يهدب ثوباً ولا يصبغه ولا يتخلق بخلوق ولا يختار طعاماً على طعام ما أطعم أكله ، وكان يكره التكلف وينهى عنه . قالوا : ومن نساكنا أبو بكر بن عبد العزيز بن مروان ، أراد عمر أخوه أن يجعله ولي عهده لما رأى من فضله وزهده ، فسما جميعاً . ومن نساكنا عبد الرحمن بن أبان بن عثمان بن عفان ، كان يصلي كل يوم ألف ركعة وكان كثير

الصدقة وكان إذا تصدق بصدقة قال : اللهم إن هذا لوجهك فخفف عني الموت . فانطلق حاجاً ثم تصبح بالنوم فذهبوا ينيهونه للرحيل فوجدوه ميتاً . فأقاموا عليه المأتم بالمدينة ، وجاء أشعب فدخل إلى المأتم وعمل رأسه كبة من طين فالتدم مع النساء ، وكان إليه عسناً . ومن نساكنا عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان .

قالوا : فنحن نعد من الصلاح والفضل ما سمعتموه ، وما لم نذكره أكثر .

وأنتم تقولون : أمية هي الشجرة الملعونة في القرآن وزعمتم أن الشجرة الخبيثة لا تثمر الطيب كما أن الطيب لا يثمر الخبيث . فإن كان الأمر كما تقولون فعثمان بن عفان ثمرة خبيثة ، وينبغي أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم دفع ابتيئه إلى خبيث ؟ وكذلك يزيد بن أبي سفيان صاحب مقدمة أبي بكر الصديق على جيوش الشام ؟ وينبغي لأبي العاصم بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون كذلك ؟ وينبغي لمحمد بن عبد الله المدبج أن يكون كذلك وإن ولدته فاطمة عليها السلام ، لأنه من بني أمية ! وكذلك عبد الله بن عثمان سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي مات بعد أن شدن ، نقر الديك عينه فمات ، لأنه من بني أمية . وكذلك ينبغي أن يكون عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية ، وإن كان النبي صلى الله عليه وسلم ولاء مكة أم القرى وقبلة الاسلام مع قوله صلى الله عليه وسلم : فتیان أضن بهما على النار، عتاب بن أسيد وجبير بن مطعم . كذلك وينبغي أن يكون عمر بن عبد العزيز شبيه عمر بن الخطاب ، وكذلك معاوية بن يزيد بن معاوية ، وكذلك يزيد الناقص ؟ وينبغي أن لا يكون النبي صلى الله عليه وسلم عبد عثمان في العشرة الذين بشرهم بالجنة ؟ وينبغي أن يكون خالد بن سعيد بن العاص شهيد يوم مرج الصفر والحبيس في سبيل الله ووالي النبي صلى الله عليه وسلم على اليمن ووالي أبي بكر على جميع أجناد الشام ورابع أربعة في الاسلام والمهاجر الى أرض الحبشة ، كذلك ! وكذلك أبان بن سعيد بن العاص المهاجر إلى المدينة والقديم الاسلام والحبيس على الجهاد يجب أن يكون ملعوناً خبيثاً ! وكذلك أبو حذيفة بن

عتبة بن ربيعة وهو يدري من المهاجرين الأولين ، وكذلك أمامة بنت أبي العاص
ابن الربيع وأمها زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ! وكذلك أم كلثوم
بنت عتبة بن أبي معيط وكان النبي صلى الله عليه وسلم يخرجها في المفازي
ويضرب لها بسهم ويصافحها ؟ وكذلك فاطمة بنت أبي معيط من مهاجرة
الحبشة .

[٢٠ - مفاخر امية بالملك]

قالوا : وما نفخر به وليس لبني هاشم مثله أن منا رجلاً وبني أربعين سنة
منها عشرون سنة خليفة ، وهو معاوية بن أبي سفيان . ولنا أربعة أخوة خلفاء :
الوليد وسليمان ويزيد وهشام بنو عبد الملك . وليس لكم إلا ثلاثة : محمد وعبد
الله وأبو إسحق ، أولاد هرون .

قالوا : ومنا رجل ولده سبعة من الخلفاء ، وهو عبد الله بن يزيد بن عبد
الملك بن مروان ، أبوه يزيد بن عاتكة خليفة ، وجدته عبد الملك خليفة ، وأبو
جده مروان بن الحكم خليفة ، وجدته من قبل عاتكة ابنة يزيد بن معاوية أبوها
يزيد بن معاوية وهو خليفة ، ومعاوية بن أبي سفيان وهو خليفة . فهؤلاء
خمسة . وأم عبد الله هذا عاتكة بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ،
وحفصة بنت عبد الله بن عمرو بن الخطاب . فهذان خليفتان . فهذه سبعة من
الخلفاء ولدوا هذا الرجل .

قالوا : ومنا امرأة أبوها خليفة ، وجدتها خليفة ، وابنها خليفة ، وأخوها
خليفة وبعلمها خليفة ، فهؤلاء خمسة . وهي عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي
سفيان . أبوها يزيد بن معاوية خليفة ، وجدتها معاوية بن أبي سفيان خليفة ،
وابنها يزيد بن عبد الملك بن مروان خليفة ، وأخوها معاوية بن يزيد خليفة ،
وبعلمها عبد الملك بن مروان خليفة .

قالوا : ومن ولد المدبج محمد بن عبد الله الأصغر امرأة ولدها النبي صلى

الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير ، وهي عائشة بنت محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ، وأمها خديجة بنت عثمان بن عمرو بن الزبير ، وأم عمرو أسماء ذات النطاقين بنت أبي بكر الصديق ، وأم محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان وهو المدبج ، فاطمة بنت الحسين بن علي ، وأم الحسين بن علي فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأم فاطمة بنت الحسين بن علي أم اسحق بنت طلحة بن عبيد الله ، وأم عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان حفصة بنت عبد الله بن عمر بن الخطاب .

[٢١ - فخر أمية بالحسن]

قالوا : ولنا في الجمال والحسن ما ليس لكم . منا المدبج والديباج ، قيل ذلك لجماله ، ومنا المطرف ، ومنا الأرجوان ، فالمطرف وهو عبد الله بن عمرو بن عثمان ، سمي المطرف لجماله ، وفيه يقول الفرزدق :

تَمَّ الْفَارُوقُ أَنْكَ وَأَبْنُ أَرْوَى أَبُوكَ فَبَأْتِ مُنْصَدِغُ النَّهَارِ

والمدبج هو الديباج ، كان أطول الناس قياماً في الصلاة ، وهلك في سجن المنصور .

قالوا : ومنا ابن الخلائف الأربعة ، دُعي بذلك وشهر به ، وهو المؤمل بن العباس بن الوليد بن عبد الملك . كان هو وأخوه الحارث ابني العباس بن الوليد من الفجاءة بنت قطري بن الفجاءة إمام الخوارج ، وكانت سبيت فوقعت إليه ، فلما قام عمر بن عبد العزيز أتت وجوه بني مازن وفيهم حاجب بن قبيان المازني الشاعر فقال حاجب :

أَتَيْتَكَ زُوراً وَوَفِدَاً إِلَى أُنْصَأَتْ فَلَا يَخْفَى عَلَى النَّاسِ نُورُهَا
أَبُوهَا عَمِيدُ الْحَيِّ جَمْعاً وَأُمُّهَا مِنْ الْحَنْظَلِيَّاتِ الْكِرَامِ حُجُورُهَا
فَلِإِنْ تَكُ صَارَتْ حِينَ صَارَتْ إِلَى نَسَبِ ذَلِكَ كِرَامِ تَغْيِيرُهَا

فبعث عمر بن عبد العزيز الى العباس بن الوليد : إما أن تردّها إلى أهلها
 وإما أن تتزوجها . قال قائل ذات يوم للمؤمل : يا ابن الخلائف الأربعة ! قال :
 ويلك ، من الرابع ؟ قال : قطري . فأما الثلاثة فالوليد وعبد الملك ومروان ،
 وأما قطري فيبيع بالخلافة . وفيه يقول الشاعر :

وَأَبُو نَعَامَةَ سَيِّدُ الْكُفَّارِ

قالوا : ومن أين صار محمد بن علي بن عبد الله بن العباس أحق بالدعوة
 والخلافة من سائر إخوته ؟ ومن أين كان له أن يضعها في بنيه دون أخوته ،
 وكيف صار بنو الأخ أحق بها من الأعمام ! قالوا : إن يكن هذا الأمر إنما
 يستحق بالميراث فالأقرب إلى العباس أحق ، وإن كان بالسنة والتجربة فالعموم
 بذلك أولى !



[٢٢ - مفاخر أمية قبل الإسلام]

قالوا : فقد ذكرنا جملاً من حال رجالنا في الإسلام . وأما الجاهلية ، فلنا
 الأعياص ، والعنابس ، ولنا ذو العصابة أبو أحيحة سعيد بن العاص ، كان إذا
 أعتق لم يعتم بمكة أحد ، ولنا حرب بن أمية رئيس يوم الفجار ، ولنا أبو
 سفيان بن حرب رئيس أحد والخنزق وسيد قريش كلها في زمانه . وقال أبو
 الجهم بن حذيفة العدوي لعمر - حين رأى العباس وأبا سفيان على فراشه دون
 الناس - : ما نرانا نستريح من بني عبد مناف على حال ؟ قال عمر : بش أخو
 العشيرة أنت ؟ هذا عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا سيد قريش !

قالوا : ولنا عتبة بن ربيعة ، ساد مملقا ولا يكون السيد إلا مترقاً ، لولا ما
 رأوا عنده من البراعة والنبيل والكمال ، وهو الذي تحاكت بجيلة وقلب في
 منافرة جرير والفرافصة وتراهنوا بسوق عكاظ وضعوا الرهن على يده دون جميع
 من شهد على ذلك المشهد . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم - ونظر إلى
 قريش مقبلة يوم بدر - : إن يكن منهم عند أحد خير فعند صاحب الحمل

الأحر ! وما ظنك بشيخ طلبوا له من جميع العسكر عند المبارزة بيضة فلم يقدرُوا
على بيضة يدخل رأسه فيها ؟ وقد قال الشاعر :

وَإِنَّا أَنَا نَسُ تَمَلُّا الْبَيْضَ هَامُنَا

قالوا : وأمّية الأكبر صنفان : الأعياص والعنابس . قال الشاعر :
مِنَ الْأَعْيَاصِ أَوْ مِنْ آلِ حَرْبٍ أَغْرَ كَغُرَّةِ الْفَرَسِ الْجَوَادِ

سموا بذلك في حرب الفجار حين حفروا لأرجلهم الحفائر وثبتوا فيها
وقالوا نموت جميعاً أو نظفر . وإنما سموا بالعنابس لأنها أسماء الأسود ، وإنما سموا
الأعياص لأنها أسماء الأصول . فالعنابس : حرب وأبو حرب ، وسفيان وأبو
سفيان ، وعمرو . والأعياص : العيص وأبو العيص ، والعاص وأبو العاص ،
وأبو عمرو . ولم يعقب من العنابس إلا حرب ، وما عقب الأعياص إلا
العيص . ولذلك كان معاوية يشكو القلة : قالوا : وليس لبني هاشم والمطلب
مثل هذه القسمة ، ولا مثل هذا اللقب المشهور .

مركز تحقيقات كويتيون سعوديون

[٢٣ - رد هاشم على ادعاءات أمية الدهاء]

قالت هاشم :

أما ما ذكرتم من الدهاء والنكر ، فإن ذلك من أسماء فجار العقلاء ،
وليس من أسماء أهل الصواب في الرأي من العقلاء والأبرار . قد بلغ أبو بكر
وعمر من التدبير وصواب الرأي والخبرة بالأمور العامة ، وليس من أوصافهما ولا
من أسمائهما أن يقال كانا داهيين ولا كانا مكيرين ؟ وما عامل معاوية وعمرو بن
العاص علياً قط بمعاملة إلا وكان علي أعلم بها منهما ، ولكن الرجل الذي يحارب
ولا يستعمل إلا ما يحل له أقل مذاهب في وجوه الخيل والتدبير من الرجل الذي
يستعمل ما يحل وما لا يحل ؟ وكذلك من حدث وأخبر ، ألا ترى أن الكذاب
ليس لكذبه غاية ولا لما يولد ويصنع نهاية ؟ والصدوق إنما يحدث عن شيء

معروف ومعنى محدود ؟ ويدل على ما قلنا أنكم حددتم أربعة في الدهاء ليس واحد منهم عند المسلمين في طريق المتقين . ولو كان الدهاء مرتبة والمكر منزلة لكان تقدم هؤلاء الجميع السابقين الأولين عياً شديداً في السابقين الأولين ، ولو أن إنساناً أراد أن يمدح أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً ثم قال : الدهاء أربعة وعدمهم ، لكان قد قال قولاً مرغوباً عنه ، لأن الدهاء والمكر ليس من صفات الصالحين ، وإن علموا من غامض الأمور ما يجهله جميع العقلاء إلا ترى أنه قد يحسن أن يقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرم الناس ، وأحلم الناس ، وأجود الناس ، وأشجع الناس . ولا يجوز أن يقال : كان أمكر الناس وأدهى الناس ؟ وإن علمنا أن علمه قد أحاط بكل مكر وخديعة ، وبكل أرب ومكيمة ؟؟

[٢٤ - رد هاشم على ادعاء أمية الجود]

وأما ما ذكرتم من جود سعيد بن العاص ، وعبد الله بن عامر ، فأين أنتم من جود عبد الله بن جعفر وعبيد الله بن العباس ، والحسن بن علي ؟ وأين أنتم من جود خلفاء بني العباس كمحمد المهدي ، وهرون ، ومحمد بن زبيدة ، وعبد الله المأمون ، بل لعل جود بعض صنائع هؤلاء كبنى برمك أعظم من جود الرجلين اللذين ذكرتموهما ، بل من جميع ما جاء به خلفاء بني أمية .

[٢٥ - رد هاشم على ادعاء أمية الحلم]

وأما ما ذكرتم من حلم معاوية فلو شئنا أن نجعل جميع ساداتنا حلماً لكانوا محتملين لذلك ، ولكن الوجه في هذا أن لا يشتق للرجل اسم إلا من أشرف أعماله وأكرم أخلاقه ، وإلا أن يبين بذلك عند أصحابه حتى يصير بذلك اسماً يسمى به ويصير معروفاً به كما عرف الأحنف بالحلم ، وكما عرف حاتم بالجود ، وكذلك هرم ، قالوا : هرم الجواد ؟ ولو قلتم كان أبو العاص بن أمية أحلم الناس لقلنا ولعله يكون قد كان حليماً ولكن ليس كل حلم يكون صاحبه

به مذكوراً ومن أشكاله بائناً . وإنكم لتظلمون خصومكم في تسميتكم معاوية بالحلم ، فكيف من دونه ؟ لأن العرب تقول : أحلم الحلمين أن لا يتعرض ثم يحلم . ولم يكن في الأرض رجل أكثر تعرضاً من معاوية ؟ والتعرض هو السفه . فإن ادعيتم أن الأخبار التي جاءت في تعرضه كلها باطل ، إن لقائل أن يقول : وكل خبر رويتموه في حلمه باطل ! ولقد شهر الأحنف بالحلم ولكنه تكلم بكلام كثير يجرح في الحلم ويثلم في العرض . ولا يستطيع أحد أن يحكي عن العباس بن عبد المطلب ولا عن الحسن بن علي بن أبي طالب لفظاً فاحشاً ولا كلمة ساقطة ولا حرفاً واحداً مما يحكى عن الأحنف ومعاوية ! وكان المأمون أحلم الناس ، وكان عبد الله السفاح أحلم الناس . وبعد ، فمن يستطيع أن يصف هاشماً أو عبد المطلب بالحلم دون غيره من الأخلاق والأفعال حتى يسميه بذلك ويخصه به دون كل شيء فيه من الفضل ؟ وكيف وأخلاقهما متساوية وكلها في الغاية ؟ ولو أن رجلاً كان أظهر الناس زهداً وأصدقهم للعدو لقاء وأصدق الناس لساناً وأجود الناس كفاً وأفصحهم منطقاً وكان بكل ذلك مشهوراً ، لمنع بعض ذلك من بعض ولما كان له إلا اسم السيد المقدم والكامل المعظم ، ولم يكن الجود أغلب على اسمه ، ولا البيان ولا النجدة .

[٢٦ - رد هاشم على ادعاء أمية الخطابة]

وأما ما ذكرتم من الخطابة والفصاحة والسؤدد والعلم بالأدب والنسب ، فقد علم الناس أن بني هاشم في الجملة أرق السنة من بني أمية . كان أبو طالب والزيير شاعرين ، وكان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب شاعراً . ولم يكن في أولاد أمية بن عبد شمس لصلبه شاعر ، ولم يكن في أولاد أمية إلا أن تعدوا في الإسلام العرجى من ولد عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن الحكم . فنعد نحن الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب ، وعبد الله بن معاوية بن عبد الله ابن جعفر . وإن عددتم الخطابة والبيان والفصاحة لم تعدوا كعلي بن أبي طالب ولا كعبد الله بن العباس . ولنا من الخطباء : زيد بن علي بن الحسين ، وعبد

الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ، وجعفر بن الحسين بن الحسن ، وداود بن علي بن عبد الله بن العباس وداود وسليمان ابنا جعفر بن سليمان . قالوا : كان جعفر بن الحسين ابن الحسن ينازع زهد بن علي بن الحسين في الرصية ، وكان الناس يجتمعون ليستمعوا محاورتهما ، وكان سليمان بن جعفر بن سليمان بن علي والي مكة ، فكان أهل مكة يقولون : لم يرد علينا أمير إلا وسليمان أبين منه قاعداً ، وأخطب منه قائماً . وكان داود إذا خطب استحضر فلم يره شيء . قالوا : ولنا عبد الملك بن صالح بن علي ، كان خطيباً بليغاً ، وسأله الرشيد - وسليمان بن أبي جعفر وعيسى بن جعفر حاضران - فقال له كيف رأيت أرض كذا ؟ قال : ماء في ربح ومنابت شبح . قال : فأرض كذا ؟ قال : هضبات حمر وربوات عُقر . حتى أتى علي جميع ما سأله عنه . فقال عيسى لسليمان : والله ما ينبغي لنا أن نرضى لأنفسنا بالدون من الكلام .



[٢٧ - رد هاشم على ادعاء أمية الورع]

قالوا : وأما ما ذكرتم من نساك الملوك ، فلنا علي بن أبي طالب ، ويزهده وبيدنه يضرب المثل . وإن عددتم النساك من غير الملوك ، فأين أنتم عن علي بن الحسين زين العابدين الذي كان يقال له : علي الخبير وعلي الآخر وعلي العابد ، وما أقسم على الله بشيء إلا وأبر قسمه ؟ وأين أنتم عن علي بن عبد الله بن العباس ؟ وأين أنتم عن موسى بن جعفر بن محمد ؟ وأين أنتم عن علي بن محمد الرضا ، لابس الصوف طول عمره مع سعة أمواله وكثرة ضياعه وغلاته ؟

وأما ما ذكرتم من الفتوح ، فلنا الفتوح المعتصمية التي سارت بها الركبان وضربت بها الأمثال ، ولنا فتوح الرشيد ، ولنا الأثار الشريفة في قتل بابك الخرمي بعد أن دامت فنته في دار الإسلام نحو ثلاثين سنة .

[٢٨ - رد هاشم على ادعاء أمية الفقه]

فأما الفقه والعلم والتفسير والتأويل ، فلإن ذكرتموه لم يكن لكم فيه أحد

وكان لنا فيه مثل علي بن أبي طالب ، وعبد الله بن العباس ، وزيد وعمر بن محمد ابني علي بن الحسين بن علي ، وجعفر بن محمد الذي ملأ الدنيا علمه وفقهه - ويقال إن أبا حنيفة من تلامذته وكذلك سفيان الثوري ، وحسبك بهما في هذا الباب ، ولذلك نسب سفيان إلى أنه زيدي المذهب وكذلك أبو حنيفة - ومن مثل علي بن الحسين زين العابدين ، وقال الشافعي في الرسالة في إثبات خبر الواحد : وجدت علي بن الحسين - وهو أفعه أهل المدينة - يعول على أخبار الأحاد . ومن مثل محمد بن الحنفية وابنه أبي هاشم الذي قرر علوم التوحيد والعدل حتى قالت المعتزلة : غلبنا الناس كلهم بأبي هاشم الأول !

[٢٩ - رد هاشم على ادعاء أمية البسالة]

وإن ذكرت النجدة والبسالة والشجاعة ، فمن مثل علي بن أبي طالب ؟ وقد وقع اتفاق أوليائه وأعدائه على أنه أشجع البشر . ومن مثل حمزة بن عبد المطلب ، أسد الله وأسد رسوله ؟ ومن مثل الحسين بن علي ! قالوا يوم الطف : ما رأينا مكشوراً قد أفرد من إخوته وأهله وأنصاره أشجع منه ، كان كالليث المجرب يحطم الفرسان حطماً ، وما ظنك برجل أبت نفسه الدنية وأن يعطي بيده مقاتل حتى قتل هو وبنوه وإخوته وبنو عمه بعد بذل الأمان لهم والتوثيق بالآمان المغلظة ، وهو الذي سن للعرب الإباء واقتدى بعده أبناء الزبير وبنو المهلب وغيرهم . ومن لكم مثل محمد وإبراهيم ابني عبد الله ؟ ومن لكم مثل زيد بن علي ، وقد علمتم كلمته التي قالها حيث خرج من عند هشام : - ما أحب الحياة إلا من ذل . فلما بلغت هشاماً قال : خارج ورب الكعبة . فخرج بالسيف ونهى عن المنكر ودعا إلى إقامة شعائر الله حتى قتل صابراً محتسباً . وقد بلغتكم شجاعة بر إسحق المعتصم ووقوفه في مشاهد الحروب بنفسه حتى فتح الفتح الخليلية ، وبلغتكم شجاعة عبد الله بن علي وهو الذي أزال ملك بني مروان وشهد الحروب بنفسه . وكذلك صالح بن علي وهو الذي تبع مروان بن محمد إلى مصر حتى قتل .

[٣٠ - رد هاشم على ادعاء امية التواضع]

قالوا : وإن كان الفضل والفخر في تواضع الشريف وإنصاف السيد وسجاجة الخلق ولين الجانب للعشيرة والموالي ، فليس لأحد من ذلك ما لبني العباس . ولقد سألتنا طارق بن المبارك - وهو مولى لبني أمية وصنيعة من صنائعهم - فقلنا : أي القبيلين أشد نخوة وأعظم كبرياء وجبرية ! ابنو مروان أم بنو العباس ؟ فقال : والله لبني مروان في غير دولتهم أعظم كبرياء من بني العباس في دولتهم . وقد كان أدرك الدولتين . ولذلك قال شاعرهم :

إذا تباينة من عبد شمس رأيت يتية فسر شحمة لكل عظيم
وإن تبا تبا سواهم فإتما يتية بسوك أو يتية لبوم

ومن كلامهم : من لم يكن من بني أمية تباها فهو دعي .

قالوا : وإن كان الكبر مفخراً يمدح به الرجال ويعد من خصال الشرف والفضل ، فمولانا عمارة بن حمزة أعظم كبراً من كل أموي كان ويكون في الدنيا ، وأخباره في كبره وتبئه مشهورة متعالية .

[٣١ - رد هاشم على ادعاء امية الحسن]

قالوا : وإن كان الشرف والفخر في الجمال والكمال وفي البسطة في الجسم وقام القوام ، فمن كان كالعباس بن عبد المطلب ! قالوا : رأينا العباس يطوف بالبيت وكأنه فسطاط أبيض . ومن مثل علي بن عبد الله بن العباس وولده ، وكان كل واحد منهم إذا قام إلى جنب أبيه كان رأسه عند شحمة أذنه ، وكانوا من أطول الناس ، وإنك لتجد ميراث ذلك اليوم في أولادهم . ثم الذي رواه أصحاب الأخبار وحال الآثار في عبد المطلب من التمام والقوام والجمال والبهاء ، وما كان من لقب هاشم بالشمر لجماله ولأنهم يستضيئون برأيه . وكثر رواد الناس

أن عبد المطلب ولد عشرة كان الرجل منهم يأكل في المجلس الجذعة ويشرب
الفرق وترد أنفهم قبل شفاهم ، وأن عامر بن مالك لما رآهم يطوفون بالبيت
كانهم جمال جون قال : بهؤلاء تمنع مكة وتشرف مكة ، وقد سمعتم ما ذكره
الناس من جمال السفاح وحسنه ، وكذلك المهدي ، وابنه هرون الرشيد ، وابنه
محمد بن زبيدة الى الواصل ، وكان الحسن بن علي أصبح الناس وجهاً ، كان يشبه
برسول الله صلى الله عليه وسلم . وكذلك عبد الله بن الحسن المحض .

وقالوا : ولنا ثلاثة في عصر كلهم يسمى علياً ، وكلهم كان يصلح للخلافة
بالفقه والنسك والمركب والرأي والتجربة والحال الرفيعة بين الناس : علي بن
الحسين بن علي ، وعلي بن عبد الله بن العباس ، وعلي بن عبد الله بن جعفر .
كل هؤلاء كان تاماً كاملاً بارعاً جامعاً . وكانت أباية بنت عبد الله بن العباس
عند علي بن عبد الله بن جعفر . قالت : ما رأيته ضاحكاً قط ولا قاطباً ولا قال
شيئاً احتاج إلى أن يعتذر منه ولا يضرب عبداً قط ولا ملكه أكثر من سنة .
قالوا : وبعد هؤلاء ثلاثة بنو عم ، وهم بنو هؤلاء الثلاثة ، وكلهم يسمى
محمداً ، كما أن كل واحد من أولئك يسمى علياً ، وكلهم يصلح للخلافة بكرم
النسب وشرف الخصال : محمد بن علي بن الحسين بن علي ، ومحمد بن
علي بن عبد الله بن العباس ومحمد بن علي بن عبد الله جعفر ، قالوا : كان محمد
ابن علي بن الحسين لا يسمع المبتلى الاستعاذة ، وكان ينهى الجارية والغلام أن
يقولا للمسكين : يا سائل ، وهو سيد فقهاء الحجاز ، ومنه ومن ابنه جعفر تعلم
الناس الفقه ، وهو الملقب بالباقر ، باقر العلم ، لقبه به رسول الله صلى الله عليه
وسلم ولم يخلق بعد ، وبشر به ووعد جابر بن عبد الله برؤيته وقال : ستره طفلاً
فإذا رأيته فأبلغه عني السلام ، فعاش جابر حتى رآه وقال له ما وصى به . وتوعد
خالد بن عبد الله القسري هشام بن عبد الملك في رسالة له إليه وقال : والله إني
لأعرف رجلاً حجازي الأصل شامي الدار عراقي الهوى ! يريد محمد بن علي بن
عبد الله بن العباس .

[٣٢ - رد هاشم على مفاخرة امية بالنساء]

وأما ما ذكرتم من أمر عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، فلإنا نذكر فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي سيدة نساء العالمين ، وأمها خديجة سيدة نساء العالمين ، وبعلمها علي بن أبي طالب سيد المسلمين كافة ، وابن عمها جعفر ذو الجناحين وذو الهجرتين ، وابناهما حسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ، وجدها أبو طالب بن عبد المطلب أشد الناس عارضة وشكيمة وأجودهم رأياً وأشهمهم نفساً وأمنهم لما وراء ظهره ، منع النبي صلى الله عليه وسلم من جميع قريش ثم بني هاشم وبني المطلب ، ثم منع بني إخوانه من بني أخواته من بني مخزوم الذين أسلموا ، وهو أحد الذين سادوا مع الإقلال . وهو مع هذا شاعر خطيب . ومن يطبق أن يفاخر بني أبي طالب وأمهم فاطمة بنت أسد بن هاشم وهي أول هاشمية ولدت لهاشمي ، وهي التي ربه رسول الله في حجرها وكان يدعوها : أمي ، ونزل في قبرها وكان يوجب حقها كما يوجب حق الأم ؟ من يستطيع أن يسامي رجالاً ولدهم هاشم هجرتين من قبل أبيهم ومن قبل أمهم ؟ قالوا : ومن العجائب أنها ولدت أربعة كل منهم أسن من الآخر بعشر سنين : طالب وعقيل وجعفر وعلي . ومن الذي يعد من قريش أو من غيرهم ما يعده الطالبيون عشرة في نسق كل واحد منهم عالم زاهد ناسك شجاع جواد طاهر زاك ؟ فمنهم خلفاء ، ومنهم مرشحون ، ابن ابن ابن هكذا إلى عشرة . وهم : الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي . وهذا لم يتفق لبيت من بيوت العرب ولا من بيوت المعجم .

قالوا : فإن فخرتم بأن منكم اثنتين من أمهات المؤمنين : أم حبيبة بنت أبي سفيان وزينب بنت جحش ، فزينب امرأة من بني أسد بن خزيمه ادعيتموها بالهلف لا بالولافة ؟ وفيها رجل ولدته أمان من أمهات المؤمنين : محمد بن عبد الله بن الحسن المحض . ولدته خديجة أم المؤمنين ، وأم سلمة أم المؤمنين ، وولدته مع ذلك فاطمة بنت الحسين بن علي ، وفاطمة سيدة نساء العالمين ابنة رسول

الله ، وفاطمة بنت أسد بن هاشم . وكان يقال : خير النساء الفواطم
والعواتك . وهن أمهاته .

قالوا : ونحن إذا ذكرنا إنساناً قبيل أن نعد من ولده نأتي به شريفاً في
نفسه مذكوراً بما فيه دون ما في غيره . قلتم : لنا عاتكة بنت يزيد ، وعاتكة في
نفسها كامراً من عرض قريش ليس فيها في نفسها خاصة أمر تستوجب به
المفاخرة . ونحن نقول : منا فاطمة ، وفاطمة سيدة نساء العالمين ، وكذلك أمها
خديجة الكبرى . وإنما تذكران مع مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم اللتين
ذكرهما النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر إحداهما في القرآن ، وهن المذكورات
من جميع نساء العالم من العرب والعجم . وقلتم : لنا عبد الله بن يزيد بن عبد
الملك بن مروان ، ولده سبعة من الخلفاء . وعبد الله هذا في نفسه ليس هناك .
ونحن نقول : منا محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن
هاشم ، كلهم سيد ، وأمه العالبة بنت عبد الله بن العباس ، وأخوته : داود
وصالح وسليمان وعبد الله رجال كلهم أقر محجل ، ثم ولد الرؤساء إبراهيم
الإمام وأخويه أبا العباس وأنا جعفر ومن جاء بعدهما من خلفاء بني العباس .
وقلتم : منا عبد الله بن يزيد . وقلنا : منا الحسين بن علي سيد شباب أهل الجنة
وأولى الناس بكل مكرمة وأطهرهم طهارة ، مع النجدة والبصيرة والفقه والصبر
والحلم والأنف ، وأخوه الحسن سيد شباب أهل الجنة وأرفع الناس درجة
وأشبههم برسول الله خلقاً وخلقاً ، وأبوهما علي بن أبي طالب وهو الذي ترك
وصفه أبلغ في وصفه ، وعمهما ذو الجناحين ، وأمهما فاطمة ، وجدتها خديجة ،
وأخواتها : القاسم وعبد الله وإبراهيم ، وخالاتهما زينب ورقية وأم كلثوم ،
وجدتاهما : آمنة بنت وهب والدة رسول الله ، وفاطمة بنت أسد بن هاشم ،
وجدتهما رسول الله صلى الله عليه وسلم المخرس لكل مفاخر والغالب لكل منافر .
قل ما شئت واذكر أي باب شئت من الفضل فإنك تجدهم قد حازوه .

[٣٣ - رد أمية على هاشم والدعوة الى التسوية]

قالت أمية :

نحن لا ننكر فخر بني هاشم وفضلهم في الإسلام ، ولكن لا فرق بيننا في الجاهلية إذ كان الناس في ذلك الدهر لا يقولون : هاشم وعبد شمس ، ولا هاشم وأمية ، بل كانوا لا يزيدون في الجميع على عبد مناف ، حتى كان أيام تمييزهم في أمر علي وعثمان في الشورى ، ثم ما كان في أيام تمزيقهم وحريمهم مع علي ومعاوية . ومن تأمل الأخبار والآثار علم أنه ما كان يذكر فرق بين البيتين ، وإنما يقال : بنو عبد مناف . ألا ترى أن أبا قحافة سمع رجلة شديدة وأصواتاً مرتفعة - وهو يومئذ شيخ كبير مكفوف - فقال : ما هذا ! قالوا : قبض رسول الله . قال : فما صنعت قريش ؟ قالوا : ولوا الأمر ابنك . قال : ورضيت بذلك عبد مناف ؟ قالوا : نعم . قال : فلا مانع لما أعطى الله ولا معطى لما منع . . . ولم يقل أرضى بذلك بنو هاشم ، أرضى بذلك بنو عبد شمس ! وإنما جمعهم على عبد مناف . لأنه كذلك كان يقال . وهكذا قال أبو سفيان بن حرب لعلي وقد سخط إمارة أبي بكر : أرضيتم يا بني عبد مناف أن تلي عليكم تيم ؟ ولم يقل أرضيتم يا بني هاشم ! وكذلك قال خالد بن سعيد بن العاص حين قدم من اليمن وقد استخلف أبو بكر : أرضيتم معشر بني عبد مناف أن تلي عليكم تيم ؟

قالوا : وكيف يفرقون بين هاشم وعبد شمس وهما أخوان لأب وأم ! ويدل أن أمرهما كان واحداً وأن اسمهما كان جامعاً قول النبي صلى الله عليه وسلم وصنيعه حين قال : مناخير فارس في العرب عكاشه بن محصن . وكان أسدياً ، وكان حليفاً لبني عبد شمس - وكل من شهد بدرأ من بني كشير بن داود وكانوا حلفاء بني عبد شمس - فقال ضرار بن الأزور الأسدي : ذاك منا يا رسول الله ! فقال عليه الصلاة والسلام : بل هو منا بالحلف . فجعل حليف بني عبد شمس حليف بني هاشم . وهذا بين لا يحتاج صاحب هذه الصفة إلى أكثر منه . قالوا : ولهذا نكح هذا البيت في هذا البيت ، فكيف صرنا نتزوج بنات النبي وبنات بني

هاشم على وجه الدهر إلا ونحن أكفاء وأمرنا واحد ؟ وقد سمعتم إسحق بن عيسى يقول لمحمد بن الحارث أحد بني عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد : لولا حي أكرمهم الله بالرسالة لزعمت أنك أشرف الناس . أفلا ترى أنه لم يقدم علينا رهطه إلا بالرسالة ؟

[٣٤ - جواب هاشم الأخير : لا تسوية بيننا]

قالت هاشم :

قلت : لولا أنا كنا أكفاءكم لما أنكحتمونا نساءكم . فقد نجد القوم يستوون في حسب الأب ويتفرقون في حسب الأنفس . وربما استووا في حسب أبي القبيلة كاستواء قريش في النضر بن كنانة ، ويختلفون كاختلاف كعب بن لؤى وعمر بن لؤى ، وكاختلاف أبناء قصي عبد مناف وعبد الدار وعبد العزي . والقوم قد يساوي بعضهم بعضاً في وجوه ويفارقونهم في وجوه ويستجيزون بذلك القدر منا كحمتهم وإن كانت معاني الشرف لم تتكامل فيهم كما تكاملت فيمن زوجهم . وقد يزوج السيد ابن أخيه وهو حارص بن حارص ، على وجه صلة الرحم فيكون ذلك جائزاً عندهم . ووجوه في هذا الباب كثيرة . فليس لكم أن تزعموا أنكم أكفاؤنا من كل وجه وإن كنا قد زوجناكم وساويناكم في بعض الأباء والأجداد

وبعد ، فأنتم في الجاهلية والإسلام قد أخرجتم بناتكم إلى سائر قريش وإلى سائر العرب : أفترعمون أنهم أكفاؤكم عينا بعين ؟

وأما قولكم إن الحيين كان يقال فيها عبد مناف . فقد كان يقال لها أيضاً مع غيرهما من قريش وبنيتها : بنو النضر . وقال الله تعالى : ﴿ وَأَنْزِلُ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ فلم يدع النبي صلى الله عليه وسلم أحداً من بني عبد شمس ، وكانت عشيرته الأقربون بني هاشم وبني عبد المطلب ، وعشيرته فوق ذلك عبد مناف ، وفوق ذلك قصي . ومن ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أتى بعيد

الله بن عامر بن كريز بن حبيب بن شمس ، وأم عامر بن كريز أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم قال : هذا أشبه بنا منه بكم . ثم تفصل في فيه فازدرده ، فقال : أرجو أن تكون مسقياً . فكان كما قال : ففي قوله : هو أشبه بنا منه بكم . خصماتان إحداهما أن عبد شمس وهاشماً لو كانا شيئاً واحداً كما أن بني عبد المطلب شيء واحد لما قال هو بنا أشبه به منكم . والأخرى إن في هذا النول تفضيلاً لبني هاشم على بني عبد شمس ، ألا ترون أنه خرج خطياً جواداً نبياً وسيداً مسقياً له مصانع وآثار كريمة ! لأنه قال : هو بنا أشبه به منكم ؟ . وأتى عبد المطلب بعامر بن كريز - وهو ابن ابنته أم حكيم البيضاء - فتأمله وقال : وعظام هاشم ما ولدنا ولداً أحرض منه . فكان كما قال . ولم يقل : وعظام عبد مناف . لأن شرف جده عبد مناف له فيه شركاء ، وشرف هاشم أبيه خالص له .

وأما ما ذكرتم من قول أبي سفيان وخالد بن سعيد : أرضيت معشر بني عبد مناف أن تلي عليكم تيم ؟ فهذه الكلمة كلمة تحريض وتهيج ، فكان الأبلغ فيما يريد من اجتماع قلوب الفريقين أن يدعوهم لأب وأن يجمعهم على واحد ، وإن كانا مفترقين . وهذا المذهب شديد وهذا التدبير صحيح . قال معاوية بن صعصعة للأشهب بن رميلة وهو نهشلي ، وللفرزدق بن غالب وهو مجاشعي ، ولمسكين بن أنيف وهو عبدلي : أرضيت معشر بني دارم أن يسب آباءكم ويشتم أعراضكم كلب بني كليب ؟ وإنما نسبهم إلى دارم الأب الأكبر المشتمل على آباء قبائلهم ليستروا في الحمية ويتفقوا على الأنف ، وهذا في مثل هذا الموضوع تدبير صحيح .

قالوا : ويدل على ما قلنا ما قاله الشعراء في هذا الباب قبل مقتل عثمان وقبل صفين . قال حسان بن ثابت لأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب :
وَأَنْتَ مَنْسُوطٌ نَيْطٌ فِي آلِ هَاشِمٍ كَمَا نَيْطٌ خُلْفَ الرَّايِبِ الْقَدْحِ الْفَرْدِ

ولم يقل : نيط في آل عبد مناف ! وقال آخر :

ما أنت من هاشمٍ في بيتٍ مكرمةٍ ولا بنى جمع الخضر الجلاء عبيد

ولم يقل : ما أنت من آل عبد مناف . وكيف يقولون هذا وقد علم الناس أن عبد مناف وولد أربعة : هاشماً والمطلب وعبد شمس ونوفلاً ؟ وأن هاشماً والمطلب كانا يداً واحدةً ، وأن عبد شمس ونوفلاً كانا يداً واحدةً . وكان مما أبطأ ببني نوفل عن الإسلام إبطاء إخوتهم من بني عبد شمس ، وكان مما حدث ببني المطلب على الإسلام فضل محبتهم لبني هاشم . لأن أمر النبي صلى الله عليه وسلم كان بينا ، وإنما كانوا يمتنعون منه من طريق الحسد والبغضة . فمن لم يكن فيه هذه العلة لم يكن له دون الإسلام مانع . ولذلك لم يصحب النبي صلى الله عليه وسلم من بني نوفل أحد ، فضلاً عن أن يشهدوا معه المشاهد الكريمة ، وإنما صحبه حلفاؤهم كيعل بن منبه ، وعتبة بن غزوان وغيرهما . وبنو الحارث بن المطلب كلهم بدري : عبيدة وطفيل وحصين . ومن بني المطلب : مطح بن أثانة بدري ؟ وكيف يكون الأمر كما قلتم وأبو طالب يقول لمطعم بن عدي بن نوفل في أمر النبي لما تمالات قريش عليه :

جَزَى اللهُ عَنَّا عَبْدَ شَمْسٍ وَنُوفَلًا جَزَاءَ شَيْءٍ عَاجِلًا غَيْرَ آجِلٍ
أُطْعِمُ إِذَا سَبَّانِي الْقَوْمُ خِطَّةً فَإِنِّي مَتَى أُوَكَّلْتُ بِأَكْبَلِ
أُطْعِمُ لَمْ أَخِذْكَ فِي يَوْمِ شِدَّةٍ وَلَا مَشْهَدٍ عِنْدَ الْأُمُورِ الْجَلِيلِ

ولقد قسم النبي صلى الله عليه وسلم قسمة فجعلها في بني هاشم وبني المطلب فأناه عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف وجبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف فقالا له : يا رسول الله إن قرابتنا منك وقرابة بني المطلب واحدة ، فكيف أعطيتهم دوننا ؟ فقال النبي : إنا لم نزل وبني المطلب كهاتين . وشبك بين أصابعه . فكيف تقولون كنا شيئاً واحداً ، وكان الاسم الذي يجمعنا واحداً ؟؟

قالت هاشم :

إن كان الفخر بالأيد والقوة واهتصار الأقران ومباطشة الرجال ، فمن أين

لكم كمحمد بن الحنفية ! وقد سمعتم أخباره وأنه قبض على درع فاضلة فجذبها فقطع ذيلها ما استدار منه كله . وسمعتهم حديث الأيد القوي الذي أرسله ملك الروم إلى معاوية يفخر به على العرب ، وأن محمداً قعد له ليقبمه فلم يستطع فكأنما يحرك جبلاً ، وأن الرومي قعد ليقبمه محمد فرفعه فوق رأسه ثم جلد به الأرض . هذا مع الشجاعة المشهورة والفقه في الدين والحلم والصبر والفصاحة والعلم بالملاحم والإخبار عن الغيوب حتى ادعى له أنه المهدي . وقد سمعتهم أحاديث أبي اسحق المعتصم وأن أحمد بن أبي دؤاد عض ساعده بأسنانه أشد العض فلم يؤثر فيه ، وأنه قال : ما أظن الأسنة ولا السهام تؤثر في جسده !؟ وإن كان الفخر بالبشر وطلاقة الأوجه وسجاجة الأخلاق ، فمن مثل علي بن أبي طالب ؟ وقد بلغ من سجاجة خلقه وطلاقة وجهه أن عيب بالدعابة . ومن الذي يسوى بين عبد شمس وهاشم في ذلك ! كان الوليد جباراً ، وكان هشام شرس الأخلاق ، وكان مروان بن محمد لا يزال قاطباً عابساً ، وكذلك كان يزيد بن الوليد الناقص . وكان المهدي بن المنصور أسرى خلق الله والطفهم خلقاً ، وكذلك محمد الأمين وأخوه المأمون . وكان السفاح يضرب به المثل في الشرو وسجاجة الخلق .

قالوا : ولنا من أفراد الرجال من ليس لكم مثله . منا يحيى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، كان شجاعاً [جريئاً] ، وهو الذي ولي الموصل لأخيه السفاح فاستمرض أهلها حتى ساخت الأقدام في الدم . ومنا يعقوب بن إبراهيم بن عيسى بن أبي جعفر المنصور ، كان شاعراً فصيحاً ، وهو المعروف بأبي الأسباط . ومنا محمد وجعفر ابنا سليمان بن علي ، كانا أعظم من ملوك بني أمية وأجل قدراً وأكثر أموالاً ومكاناً عند الناس . وأهدى محمد بن سليمان من البصرة إلى الخيزران مائة وصيفة في يد كل واحدة منهن جام من ذهب وزنه ألف مثقال مملوء مسكاً . وكان لجعفر بن سليمان ألفا عبد من السودان خاصة ، فكم يكون ليت شعري غيرهم من البيض ومن الإماء ! وما رؤى جعفر بن محمد راكباً قط إلا ظن أنه الخليفة . ومن رجالنا محمد بن السفاح ، كان جواداً أيدياً شديد

البطش . قالوا : ما رؤى أخوان أشد قوة من محمد وريطة أخته ولدى أبي العباس السفاح ، كان محمد يأخذ الحديد فيلويه فتأخذه هي فترده . ومن رجالنا محمد بن ابراهيم طباطبا صاحب أبي السرايا ، كان ناسكاً عابداً فقيهاً عظيم القدر عند أهل بيته وعند الزيدية . ومن رجالنا عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، وهو الذي شيد ملك المنصور وحارب ابني عبد الله بن حسن وأقام عمود الخلافة بعد اضطرابه ، وكان فصيحاً أديباً شاعراً . ومن رجالنا عبد الوهاب بن ابراهيم الامام ، حج بالناس وولي الشام ، وكان فصيحاً خطيباً . ومن رجالنا عبد الله بن موسى الهادي ، كان أكرم الناس ، وجواداً ممدحاً أديباً شاعراً . وأخوه علي بن موسى الهادي ، كان أكرم الناس وأجود الناس ، كان يلبس الثياب وقد حدد ظفره فيخرقها بظفره لثلاث تعاد إليه . وعبد الله بن احمد بن عبد الله بن موسى الهادي ، كان أديباً ظريفاً .

قالوا : وقلتم : لنا عاتكة بنت يزيد يكتنفها خمسة من الخلفاء . ونحن نقول : لنا زبيدة بنت جعفر يكتنفها ثمانية من الخلفاء : جدها المنصور خليفة ، وعم أبيها السفاح خليفة ، وعمها المهدي خليفة ، وابن عمها الهادي خليفة ، وبعلمها الرشيد خليفة ، وابنها الأمين خليفة ، وابنها المأمون والمعتمد خليفتان .

قالوا : وأما ما ذكرتم من الأعياص والعنابس ، فلسنا نصدقكم فيما زعمتموه أصلاً لهذه التسمية ، وإنما سمو الأعياص لمكان العيص ، وأبي العيص ، والعاص وأبي العاص . وهذه أسماءهم الأعلام ليست مشتقة من أفعال لهم كريمة ولا خسيمة . وأما العنابس . فأنما سمو بذلك لأن حرب بن أمية كان اسمه عنبة ، وأما حرب فلقبه . ولما كان حرب أمثلهم سمو جماعتهم باسمه فقيل « العنابس » كما يقال « المهالبة » و « المناذرة » ولهذا المعنى سمي أبو سفيان بن حرب : ابن عنبة . وسمى سعيد بن العاص : ابن عنبة .



وهذا آخر ما عثرت عليه من هذا الكتاب استخلصته بعد جهد وعناء .

هامش كتاب فضل هاشم على عبد شمس

(١) يخلو الكتاب من المقدمة التقليدية التي نعهد لها في رسائل الجاحظ مما يدل على ان قسماً من الكتاب قد بتر .

- يعدد الجاحظ الوظائف التي كانت تضطلع بها بطون قريش في الجاهلية وهي اللواء والندوة والسقاية والرفادة وزمزم والحجابه . واللواء : تسولى القيادة في الحرب ، والندوة : تسولى الاجتماعات التي كانت تعقد لها قريش في دار الندوة للتداول في الامور . والسقاية : تسولى امر سقي الحجاج الماء المحلى بالزبيب أثناء الموسم . والرفادة : تسولى جمع المال من القرشيين لاطعام الحجاج . والحجابه والسدانة : تسولى خدمة الكعبة .

(٢) المقارنة بين هاشم وأخيه عبد شمس وكلاهما ابنا عبد مناف . اشتهر هاشم بجماله حتى لقب بالقمر كما اشتهر بجوده واطعامه بني قومه الثريد في الأيام العجاف ومن ثم اشتق لقبه . اما عبد شمس فهو على العكس وليس له لقب كريم ولا اشتق من صالح اعماله اسم شريف .

(٣) عبد المطلب هو ابن هاشم وجد النبي محمد . وهو سيد وادي مكة واجل الناس واكرمهم . وهو صاحب كرامات لا تعرف الا للأنبياء منها الابتهاال الى الله أن ينصره على جيش الحبشة الذي عزم على الإناخة على مكة فاستجاب الله لدعائه ورمى الاحباش بطير اباييل ترميهم بحجارة من سجيل كما جاء في القرآن . وظهرت الكرامات على يدي عبد المطلب مهدت السيل لنسوة خفيده محمد . ومن كراماته تفجر العيون تحت اخفاف بعيره .

(٤) النبي محمد الهاشمي جمع ميزتين لا يضارعه فيها أحد : الرسالة وكرم الاخلاق .

(٥) إيلاف قريش المذكور في القرآن بدأه هاشم ودر على قريش الاموال الطائلة . وقد فر الجاحظ الايلاف على وجهين : الوجه الاول هو إتفاق هاشم مع ملوك اليمن

والشام والحبشة على الاشتراك في تسيير القوافل التجارية بين مكة واليمن والشام
وضمنان عدم الاعتداء عليها . . . والوجه الثاني هو فرض ضرائب على قبائل قريش
ليحتمى بها هاشم أهل مكة وقوافلهم التجارية من غارات سائر القبائل مثل طيء
وقضاعة وختعم .

(٦) يلقي الجاحظ ضوءاً على حلف الفضول الذي قام به بنو هاشم وسمى حلف
الفضول لفضله وفضيلته . وقد تعاقد أفاذ هاشم : بنو المطلب ، وبنو اسد ،
وبنو زهرة ، وبنو تيم بن مرة في دار عبد الله بن جدعان على احقاق الحق ونصرة
المظلوم والضرب على ايدي الظالم ، سواء كان قريباً او غريباً . وكان الزبير بن عبد
المطلب هو الذي دعا الى قيام ذلك الحلف .

(٧) حرب الفجار جرت بين قريش وعامر في زمن الزبير بن عبد المطلب عم النبي .
وقد شهد النبي المعركة اذ كان ينبل فيها على عمومته . وسميت بذلك لان عامر
هي التي فجرت .

(٨) يقابل هذه المكارم الهاشمية مخازي امية . فامية كان مضعوفاً وصاحب عمار
(تعرض لامرأة من بني زهرة فضربه احداهم بالسيف ، فلم يستطع قومه الشار
له) . وابنه حرب كان مقيماً (اي تزوج امرأة ابيه امية في حياته) والمقيتون هم
الذين ينكحون نساء اباؤهم بعد موتهم . وابو سفيان بن حرب ضربت عنق حليفه
ابي الازهر الدوسي الازدي ولم يدرك به قوداً .

(٩) مقارنة بين خلفاء بني هاشم العباسيين امثال المنصور والرشيد والمعتمد والواثق ،
وخلفاء امية امثال مروان بن الحكم ومعاوية وبزيد وعبد الملك الخ . . . تبين
عظمة العباسيين وقدرتهم وضعف الامويين .

(١٠) الهاشميون احق بالخلافة من الامويين لانهم ملكوا بالميراث وحق العصبة
والعمومة ، اما الامويون فملكوا لانهم قرشيون ، وفي هذا يفضلهم العلويون الذين
ادعوا الملك بسبب القرابة السابقة والوصية ، ويفضلهم العباسيون الذين اعتمدوا
السوراة ، ويسبقهم سائر القرشية ، اذا كان الملك لا ينال الا بالسوابق والأعمال
والجهاد .

والجاحظ يلخص هنا مختلف الدعوي بالامامة او الخلافة التي كان ينادي بها كل
من العلويين والعباسيين وغيرهم .

(١١) يعدد الجاحظ اعمال بني امية وجورهم على بني هاشم ، ابتداء من محاربة علي ،
الى سم الحسن ، وقتل الحسين ، وسم ابي هاشم عبد الله بن محمد بن علي بن ابي
طالب ، وضرب الكعبة وتغيير موعد الصلاة . وقد وردت معظم هذه التهم في

رسالة النابتة التي نشرناها ضمن رسائل الجاحظ الكلامية . وقد كررها الجاحظ هنا
لتركيز عليها والتذكير بها .

(١٢) انتزاع العباسيين الملك من بني امية بفضل شجاعتهم وحنكتهم . وقد تولى ولد
العباس بانفسهم الحرب امثال عبد الله بن علي ، وصالح بن علي ، وداود بن
علي ، وعبد الصمد بن علي ، والمنصور . وفي هذا اسقاط للدعوة التي تقول ان
الفرس هم الذين اسقطوا دولة الامويين .

(١٣) خصال هاشم في الاسلام هو القسم الثاني من الكتاب . والقسم الاول خصصه
كما رأينا للكلام على خصال هاشم في الجاهلية .
- وقد بدأه بالفخر بكثرة العدد . واورد ابياتاً في الشعر تبين تعظيم العرب لكثرة
العدد وتعتبره شرفاً .

(١٤) الفخر بالحكمة اي نبل الرأي وصواب القول ، وقد ذكر من ابواب الحكمة الفقه
والعلم والتأويل ومعرفة التنزيل والقياس والخطابة . واشتهر بها عبد الله بن عباس
وعلي بن ابي طالب .

(١٥) الفخر بالبسالة أي الشجاعة والنجدة وقتل الأقران وجزر الفرسان وقد اشتهر فيها
حمزة عم النبي وعلي بن ابي طالب .

(١٦) الفخر بالكرم أي الفضل في الجود والسماح ، وقد عرف به عبد الله بن جعفر
وعبيد الله بن العباس .

١٧ - مفاخر أمية في الدهاء والحروب والعلم والشعر :

يذكر الجاحظ من انجبتهم امية في هذه الميادين . فمن الدهاة معاوية بن ابي
سفيان ، وزيد ابن ابيه ، ومن الشعراء والخطباء يزيد بن معاوية والوليد بن يزيد
ومروان بن الحكم وابنه عبد الرحمن وبشر بن مروان . وفي العلم نبخ خالد بن
يزيد الذي ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء . وفي الشجاعة نبخ العباس بن
الوليد بن عبد الملك ، ومروان بن محمد وعبد الملك بن مروان .

(١٨) مفاخر بني أمية في النسك والورع : يقدم الجاحظ لائحة باسماء عدد من النسك
الورعين امثال معاوية بن يزيد بن معاوية ، وسليمان بن عبد الملك ، وعمير بن
عبد العزيز وابنه عبد الملك .

(٢٠) فخر امية بالجمال طريف ، ويذكر منهم المديح والديباج والمطرف عبد الله بن
عمرو بن عثمان .

(٢١) مفاخر امية قبل الاسلام : لا ينسى الجاحظ مفاخر الامويين قبل الاسلام رداً على
مفاخر الهاشميين قبل الاسلام لتتم الموازنة . وامية تفتخر قبل الاسلام بجلودها

امثال حرب بن امية رئيس يوم الفجار ، وابي سفيان بن حرب رئيس احد والخندق
وسيد قريش كلها في زمانه . وقد سموا بالعنابس لانها اسماء الاسود ، وسموا
بالاعياص لانها اسماء الاصول .

(٢٢) رد هاشم على ادعاءات امية في الدهاء والحلم والخطابة والسورع والفقه والبسالة
والتواضع والجمال والنساء يتضمن تعداد رجالات هاشم الذين اشتهروا بهذه
الصفات وتفوقهم على رجالات عبد شمس . ومعظمه تكرر لما سبق .

(٢٣) رد امية على هاشم ودعوتهما الى التسوية ووقف التنافس لانها ابناء عمومة ولا
فضل لاحدهما على الآخر .

(٢٤) رد هاشم الأخير : لا تسوية بيننا .



مركز بحوث كميبيوتر علوم سعودي





مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

قال أبو عثمان :

وقد زعم أناس أن الدليل على صدق خبرهما (يعني أبا بكر وصهر) في منع الميراث وبراءة مساحتها ، ترك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم النكير عليها . ا قد يقال لهم : لئن كان ترك النكير دليلاً على صدقها ، إن ترك النكير على المتظلمين والمحتجين عليها والمطالبين لها دليل على صدق دعوهم أو استحسان مقالتهم ، ولا سيما وقد طالت المناجاة وكثرت المراجعة والملاحاة ، وظهرت الشكية واشتدت الموجدة . وقد بلغ ذلك من فاطمة أنها أوصت أن لا يصلي عليها أبو بكر . ولقد كانت قالت له حين أتته مطالبة بحقها ومحنة لرمطها : من يرثك يا أبا بكر إذا مت ؟ قال : أهلي وولدي . قالت : فما بالنا لا نرث النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فلما منعها ميراثها وبخسها حقها واحتل عليها وجلع أمرها وهابنت التهضم وأبست في التورع ووجدت نشوة الضعف وقلة الناصر قالت : والله لأدعون الله عليك . قال : والله لأدعون الله لك . قالت : والله لا كلمتك أبداً . قال : والله لا أمجرك أبداً . فان يكن ترك النكير على أبي بكر دليلاً على صواب منعها ، إن في ترك النكير على فاطمة دليلاً على صواب طلبها ؟ وأنى ما كان يجب عليهم في ذلك تعريفها ما جهلت وتذكيرها ما نسيت وصرافها عن الخطأ ورفع قدرها عن البذاء وأن تقول مُجراً ونجوراً عادلاً أو تقطع واصلاً ؟ فإذا لم نجد لهم أنكروا على الخصمين جميعاً فقد تكافأت الأمور واستوت الأسباب . والرجوع إلى أصل حكم الله في الميراث أولى بنا وبكم ، وأوجب علينا وعليكم .

فان قالوا : كيف تظن به ظلمها والتعدي عليها ، وكلما ازدادت عليه غلظة ازداد لها ليناً ورقة ، حيث تقول له : والله لا أكلمك أبداً فيقول والله لا أهجرك أبداً . ثم تقول والله لأدعون الله عليك فيقول والله لأدعون الله لك . ثم يتحمل منها هذا الكلام الغليظ والقول الشديد في دار الخلافة وبحضرة قريش والصحابة مع حاجة الخلافة إلى البهاء والتنزيه وما يجب لها من الرفعة والهيبة ، ثم لم يمنعه ذلك أن قال معتزلاً متقرباً كلام المعظم لحقها ، المكبر لمقامها الصائن لوجهها ، المتحنن عليها . ما أحد أعز عليّ منك فقراً ، لا أحب إليّ منك غنى ! ولكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه فهو صدقة » ؟ .

قيل لهم : ليس ذلك بدليل على البراءة من الظلم والسلامة من الجور ، وقد يبلغ من مكر الظالم ودهاء الماكر إذا كان أريباً وللخصومة معتاداً أن يظهر كلام المظلوم وذلة المتصف وحنين السواقق ومقة المحق . وكيف جعلتم ترك النكير حجة قاطعة ودلالة واضحة وقد زعمتم أن عمر قال على منبره : متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، متعة النساء ومتعة الحج ، أنا أنهى عنها وأعاقب عليها ، فما جعلتم أحداً أنكر قوله ولا استثنع مخرج نبيه ولا خطئه في معناه ولا تعجب منه ولا استفهمه ؟ وكيف تفضون بترك النكير ، وقد شهد عمر يوم السقيفة وبعد ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الأئمة من قريش » . ثم قال في شكاته : لو كان سالم حياً ما تخالفتي فيه شك . حين أظهر الشك في استحقاق كل واحد من الستة الذين جعلهم شورى ! وسالم عبد لامرأة من الأنصار وهي أعتقتة وحازت ميراثه . ثم لم ينكر ذلك من قوله منكر ولا قابل إنسان بين قوله ولا تعجب منه ! وإنما يكون ترك النكير على من لا رغبة ولا رهبة عنده دليلاً على صدق قوله وصواب عمله ، فأما ترك النكير على من يملك الضعة والرفعة والأمر والنهي والقتل والاستحياء والحبس والإطلاق ، فليس بحجة تشفى ولا دلالة تضيء .

وقال آخرون : بل الدليل على صدق قولها وصواب عملها إمساك

الصحابة عن خلعهما والخروج عليهما ، وهم الذين وثبوا على عثمان في أيسر من
جحد التنزيل ورد النصوص ، ولو كان كما تقولون وما تصفون ما كان سبيل
الامة فيها إلا كسبيلها فيه ، وعثمان كان أمز نفراً ، وأشرف رهطاً ، وأكثر عدداً
وثررة وأقوى عدة ؟

قلنا : إنها لم ييحدنا التنزيل ولم ينكرا النصوص ، ولكنها بعد اقرارهما
بحكم الميراث وما عليه الظاهر من الشريعة ، ادعيا رواية وتحدثا بحديث لم يكن
محالاً كونه ولا ممتنعاً في حجج العقول بحجته ، وشهد لها عليه من عكته مثل علتها
فيه ، ولعل بعضهم كان يرى تصديق الرجل إذ كان عدلاً في رهطه مأموناً في
ظاهره ، ولم يكن قبل ذلك عرفه بفجرة ولا جرب عليه غدرة ، فيكون تصديقه
له على جهة حسن الظن وتعديل الشاهد ، ولأنه لم يكن كثير منهم يعرف حقائق
الحجج والذي يقطع بشهادته على الغيب ، وكان ذلك شبهة على أكثرهم .
فلذلك قلّ النكير وتواكل الناس فاشتبه الأمر فصار لا يتخلص إلى معرفة حق
ذلك من باطله إلا العالم المتقدم ، أو المؤيد المرشد . ولأنه لم يكن لعثمان في
صدر العوام وقلوب السفلة والعلغام ما كان لها من المحبة والهيبة ، ولأنها كانا
أقل استئثاراً بالفيء وتفضلاً بجمال الله منه . ومن شأن الناس إهمال السلطان ما
وفر عليهم أموالهم ولم يستأثر بخراجهم ولم يعطل ثغورهم ، ولأن الذي صنع أبو
بكر من منع العترة حفيها والعمومة ميراثها قد كان موافقاً لجلة قريش وكبراء
العرب ، ولأن عثمان أيضاً كان مضعوقاً في نفسه مستخفاً بقدره لا يمنع ضيماً ولا
يقمع عدواً ، ولقد وثب ناس على عثمان بالشتم والقذع والتشنيع والنكير لأموار
لو أن أضعافها وبلغ أقصاها لما اجترأوا على اغتيابه فضلاً على مباداته والإغراء به
ومواجهته ، كما أغلظ عيينة بن حصن له فقال له : أما لو كان عمر لقمعك
ومنعك ! فقال عيينة : إن عمر كان خيراً لي منك ، رهيني فاتقاني وأعطاني
فاغنائي .

والعجب أنا وجدنا جميع من خالفنا في الميراث على اختلافهم في التشبيه
والقدر والوعيد يرد كل صنف منهم من أحاديث مخالفيه وخصومه ما هو أقرب

إستناداً وأصح رجلاً وأحسن اتصالاً ، حتى إذا صاروا إلى القول في ميراث النبي
صلى الله عليه وسلم نسخوا الكتاب وخصوا الخبر العام بما لا يبدأ به بعض ما
ردوه وأكثروا قائله ، وذلك أن كل إنسان منهم إنما يجرى إلى هواه ويصدق ما
وافق رضاه .



مركز بحوث الكمبيوتر علوم إلكترونية



مناقب الترك
سیدی



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

[١ - مقدمة]

وَفَقَّكَ اللهُ لِرَشْدِكَ ، وَأَعَانَ عَلَى شُكْرِكَ ، وَأَصْلَحَكَ وَأَصْلَحَ عَلَى يَدَيْكَ ، وَجَعَلْنَا وَإِيَّاكَ مِمَّنْ يَقُولُ بِالْحَقِّ وَيَعْمَلُ بِهِ ، وَيُؤَثِّرُهُ وَيَحْتَمِلُ مَا فِيهِ [مِمَّا قَدْ بَصَلَتْهُ عَنْهُ] ، وَلَا يَكُونُ حَظُّهُ مِنْهُ الْوَصْفَ لَهُ وَالْمَعْرِفَةَ بِهِ ، دُونَ الْحَثِّ عَلَيْهِ وَالْإِنْقِطَاعِ إِلَيْهِ ، وَكَشَفَ الْبِنَاعَ فِيهِ ، [وَيُصَالُهُ إِلَى أَهْلِهِ ، وَالصَّبْرَ عَلَى الْمُحَافَظَةِ فِي الْأَيِّامِ] يَصِلُ إِلَى غَيْرِهِمْ ، وَالتَّثْبِيتِ فِي تَحْقِيقِهِ لِنَدِيمِهِمْ [فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَعْلَمْ النَّاسَ لِيَكُونُوا عَامِلِينَ دُونَ أَنْ يَكُونُوا عَامِلِينَ ، بَلْ عَلَّمَهُمْ لِيَعْمَلُوا ، وَبَيْنَ أُمَّمٍ لِيَتَّقُوا التَّوَرُّطَ فِي وَسْطِ الْخُوفِ ، وَالْوُقُوعَ فِي الْمَضَارِّ ، وَالتَّوَسُّطَ فِي الْمَهَالِكِ .

[فَلِلذَلِكَ] طَلِبَ النَّاسُ التَّبَيُّنَ ، وَحُبَّ السَّلَامَةِ مِنَ الْهَلَكَةِ ، وَالرُّغْبَةَ فِي الْمَنْفَعَةِ ، أَحْتَمَلُوا ثِقَلَ الْعِلْمِ ، وَتَعَجَّلُوا مَكْرُوهُ الْمَعَانَةِ . وَلَقَلَّ الْعَامِلِينَ وَكَثُرَ الْوَاصِفِينَ [قَالَ الْأَوَّلُونَ : الْعَارِفُونَ أَكْثَرُ مِنَ الْوَاصِفِينَ ، وَالوَاصِفُونَ أَكْثَرُ مِنَ الْعَامِلِينَ .] وَأَمَّا [كَثُرَتِ الصِّفَاتُ وَقَلَّتِ الْمَوْصُوفَاتُ ، لِأَنَّ ثَوَابَ الْعَمَلِ مُؤَجَّلٌ ، وَاحْتِمَالُ مَا فِيهِ مُعَجَّلٌ .

[٢ - أهداء السلطان]

وقد أعجبني ما رأيت من شغفك بطاعة إمامك ، والمحامسة لتدبير

خليفتك ، وإشفاقك من كل غلّ وغلّة دخل على ملكه وإن دق ، ونال سلطانه
 وإن صغر ، ومن كل أمر خالفه وإن خفي مكانه ، وجانب وإن قل
 ضرره ، ومن تخوفك أن يجد المتأول إليه طرفاً والعدو عليه متعلقاً ، فإن
 السلطان لا يخلو من متأولٍ ناقم ، ومن محكوم عليه ساخط ، ومن معدول عن
 الحكم زار ، ومن متعطل متصفح ، ومن معجب برأيه ذي غطلٍ في بيانه ،
 مولع بتهجين الصواب ، وبالاغراض على التدبير ، حتى كأنه رائد لجميع الأمة ،
 ووكيل لسكان جميع المملكة ، يضع نفسه في موضع الرقباء ، وفي موضع التصفح
 على الخلفاء والوزراء ، لا يعير وإن كان مجاز العذر واضحاً ، ولا يقف فيها
 يكون للشك محتملاً ، ولا يصدق بأن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، وأنه لا
 يعرف مصادر الرأي من لم يشهد موارده ، ومستدبره من لم يعرف مستقبله . ومن
 محروم قد أضغفه الحرمان ، ومن لثيم قد أفسده الإحسان . ومن مستبطن قد
 أخذ أضعاف حقه ، وهو لجهله بقدره ، ولضييق ذرعه وقلة شكره ، يظن أن
 الذي بقي له أكثر ، وأن حقه أوجب . ومن مستزبد لو ارتجع السلطان سالف
 أياديه البيض عنده ، ونعمه السالفة عليه ، لكان لذلك أهلاً ، وله مستحقاً
 قد غره الإملاء ، وأبطره دوام الكفاية ، وأفسده طول الفراغ . ومن صاحب فتنية
 خامل في الجماعة ، رئيس في الفرقة ، نفاق في المرح ، قد أقصاه السلطان ،
 وأقام صفوه ثقاف الأدب ، وأذله الحكم بالحق ، فهو مغيب لا يجد غير التشنيع ،
 ولا يتشفي بغير الإرجاف ، ولا يستريح إلا إلى الأمان ، ولا يأنس إلا بكل
 مرجف كذاب ، ومفتون مرتاب ، وخارص لا خير فيه ، وخالف لا غناة
 عنده ، يريد أن يسوى بالكفاية ، ويرفع فوق الحمأة ، الأمر [ما] سلفت له ،
 وإحسان كان من غيره ، وليس ممن يرب قدمها بحديث ، ولا يفضل بدروس
 شرف ، ولا يفصل بين ثواب المحتسين ، وبين الحفظ لأبناء المحسنين .

وكيف يعرف فرق ما بين حق الذمام وثواب الكفاية ، من لا يعرف
 طبقات الحق في مراتبه ، ولا يفصل بين طبقات الباطل في منازل .

ثم أعلمتني بذلك أنك بنفسك بدأت في تعظيم امامك ، والحفظ لمناب

أنصار خليفتك ، وإيهاما حُطت بحياطتك لأشياحه ، واحتجاجك لأولياكه . ونعم
العون أنت إن شاء الله على ملازمة الطاعة ، والموازرة على الخير ، والمكانفة لأهل
الحق .

وقد استدلتُ بالذي أرى من شِدَّةِ عنيتك ، وفرطِ اكترائك ، وتفقدك
لأخبار الأعداء وبحثك عن مناقب الأولياء ، على أن ما ظهر من نصحك أَمَمٌ ،
في جنب ما بطن من إخلاصك .

فأمتع الله بك خليفته ، ومنحنا وإياك محبته ، وأعادنا وإياك من قول
الزور ، والتقرب بالباطل ، إنه حميد مجيد ، فعَالَ لما يريد .

[٣ - أقسام جند الخلافة الخمسة]

وذكرت أبقاك الله أنك جالست أخلاقاً من جُند الخلافة ، وجماعة من أبناء
الدعوة ، وشيوخاً من جِلَّةِ الشَّيعة ، وكهولاً من أبناء رجال الدولة ، والمنسويين
إلى الطاعة والمناصحة ، [والمحبة] الدينية ، دون محبة الرغبة والرهبة ، وأن رجلاً
من عُرض تلك الجماعة ، ومن حاشية تلك الجِلَّةِ ارتجمل الكلام ارتجالاً مستبداً ،
وتفرد به تفرداً مُعجَب ، وأنه لم يستامر زعماءهم ، ولم يراقب خطباءهم ، وأنه
تعسف المعانَ وتمجَّم على الألفاظ ، وزعم أن جُند الخلافة اليوم على خمسة
أقسام : خراساني ، وتركمي ، وموولي ، وعربي ، وبنسوي . وأنه أكثر من حمد الله
وشكروه على إحسانه وبنته ، وعلى جميع أباديه وسابغِ نعمه ، وعلى شمول عافيته
وجزيل مواهبه ، حين ألف على الطاعة هذه القلوبَ المختلفة ، والأجناسَ
المتباينة ، والأهواءَ المتفرقة . وأنت اعترضت على هذا المتكلم المستبد ، وعلى هذا
القائل المتكلف ، الذي قَسَمَ هذه الأقسام ، وخالف [بين] هذه الأركان ،
ولفصل بين أنسابهم ، وفرَّق بين أجناسهم ، وباعد بين أسبابهم .

[٤ - لا فرق بين الخراساني والتركي]

وأنك أنكرت ذلك عليه أشد الإنكار ، وقذعته أشد القذع ، وزعمت أنهم لم يخرجوا من الأتفاق أو من شيء يقرب من الأتفاق . وأنك أنكرت التباعد في النسب ، والتباين في السبب . وقلت : بل أزعج أن الخراساني والتركي أخوان ، وأن الحمير واحد ، وأن [حكم ذلك الشرق ، والقضية على] ذلك الصقع متفق غير مختلف ، ومتقارب غير متفاوت . وأن الأعراق في الأصل إن لا تكن [كانت] راسخة فقد كانت متشابهة ، وحدود البلاد المشتملة عليهم إن لا تكن متساوية فإنها متناسبة ؛ وكلهم خراساني في الجملة وإن تميزوا ببعض الخصائص ، فافترقوا ببعض الوجوه .

وزعمت أن اختلاف التركي والخراساني ليس كالاختلاف بين العجمي والعربي ، ولا كالاختلاف بين الرومي والصقلبي ، والزنجي والحبشي ، فضلاً عما هو أبعد جوهرأ وأشد خلافاً . بل كاختلاف ما بين المكي والمدني ، والبدوي والحضري ، والسهلي والجبلي ، وكاختلاف ما بين الطائي الجبلي والطائي السهلي ، وكما يقال : أن هذيلاً أكراد العرب ، وكاختلاف ما بين من نزل البطلون وبين من نزل الحزون ، وبين من نزل النجود وبين من نزل الأغوار .

[٥ - العرب أمة واحدة]

وزعمت أن هؤلاء وإن اختلفوا في بعض اللغات ، وفارق بعضهم بعضاً في بعض الصور ، فقد تحالفت عليها تميم ، وسفلى قيس ، وعَجُز هوازن وفصحاء الحجاز ، في اللغة ، وهي في أكثرها على خلاف لغة حمير ، وسكان تحاليف اليمن ، وكذلك في الصورة والشمايل والأخلاق . وكلهم مع ذلك عربي خالص ، غير مشوب ولا مقلهج ولا مذرع ولا مزئج . ولم يختلفوا اختلاف ما بين بني قحطان وبني عدنان ، من قبل ما طبع الله عليه تلك البرية من خصائص

الغرائز ، وما قسم الله تعالى لأهل كل جيزة من الشكل والصورة ومن الأخلاق
واللغة .

فإن قلت : فكيف كان أولادهما جميعاً عربياً مع اختلاف الأبوة .

قلنا : إن العرب لما كانت واحدة فاستورا في التربة وفي اللغة ، والشماثل
والهمة ، وفي الأنف والحمية ، وفي الأخلاق والسجية ، فسبكوا سبكاً واحداً ،
وأفرغوا إفراغاً واحداً ، وكان القلب واحداً ، تشابهت الأجزاء وتساويت
الأخلاق ، وحين صار ذلك أشد تشابهاً في باب الأعم والأخص وفي باب الوفاق
والمباينة من بعض ذوي الأرحام ، جرى عليهم حكم الاتفاق في الحسب ،
وصارت هذه الأسباب ولادة أخرى حتى تناكحوا عليها ، ونصافروا من أجلها ،
وامتنعت عدنان قاطبة من مناكحة بني إسحاق وهو أخو إسماعيل ، وجاءوا بذلك
في جميع الدهر لبني قحطان - وهو ابن عابر - ففي إجماع الفريقين على التناكح
والمصاهرة ، ومنعها من ذلك جميع الأمم : كسرى فمن دونه ، دليل على أن
النسب عندهم متفق ، وأن هذه المعاني قد قامت عندهم مقام الولادة والأرحام
الماسة .

[٦ - البتوي خراساني]

وزعمت أنه أراد الفرقة والتحزيب ، وأنت أردت الألفة والتقريب .

وزعمت أيضاً أن البتوي خراساني ، وأن نسب الأبناء نسب آبائهم ، وأن
حسن صنع الأباء ، وقديم فعال الأجداد ، هو حسب الأبناء . وأن الموالي بالعرب
أشبه ، وإليهم أقرب ، وبهم أسر ؛ لأن السنة جعلتهم منهم . فقلت : إن
الموالي أقرب إلى العرب في كثير من المعاني ؛ لأنهم عرب في المذهب ، وفي
العائلة ، وفي الوراثة . وهذا تأويل قوله « مولى القوم منهم » و « مولى القوم من
أنفسهم » ، و « الولاء لحمة كلحمه النسب » . وعلى شبيه ذلك صار حليفه

القوم منهم ، وحكمه حكمهم ، فصار الأخنس بن شريق وهو رجلٌ من ثقيف ، وكذلك يعلى بن منية وهو رجلٌ من بلعدوية ، وكذلك خالد بن عرفة وهو رجلٌ من عُدرة من قريش . وبذلك النسب حرمت الصدقة على موالي بني هاشم ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم أجراهم في باب التنزيه والتطهير مجرى مواليتهم . وبذلك السب قدّم النبي صلى الله عليه وسلم على بني عبد المطلب على بني عبد شمس ، وقرباتهم سواء ونسبهم واحد ، للعقد المتقدم ، وللأيدي المتخفة .

وقال صلى الله عليه وسلم : « بنا خير فارس في العرب : عكاشة بن محصن » ، فقال ضرار بن الأزور الأسدي : ذاك رجلٌ منا يا رسول الله . قال : « بل هو منا بالحلف » . فجعل حليف القوم منهم ، كما جعل ابن أخت القوم منهم .

ثم زعمت أن الأتراك قد شاركوا هؤلاء القوم في هذا النسب ، وصاروا من العرب بهذا السب ، مع الذي بانوا به من الخلال ، وحُبوا به من شرف الخصال .

على أن ولاء الأتراك لبني قريش ، ولصاحب عبد مناف ، و [هم] في سر بني هاشم ، [وهاشم] موضع العذار من خد الفرس ، والعقد من لبة الكاعب ، والجوهر المكنون ، والذهب المصنّى ، وموضع المحة من البيضة ، والعين في الرأس ، والروح من البدن ؛ وهم الأنف المقدم ، والسنام الأكبر ، والذرة الزهراء ، والروضة الخضراء ، والذهب الأحمر . فقد شاركوا العرب في أنسابهم ، والموالي في أسابهم ، وفصلوهم بهذا الفضل الذي لا يُلغى فضل وإن برع ، بل لا يعشّره شرف وإن عظم ، ولا مجد وإن قدّم .

فزعمت أن انساب الجميع متقاربة غير متباعدة ، وعلى حسب ذلك التقارب تكون المؤازرة والمكافئة ، والطاعة والمناصحة ، والمحبة للخلفاء والأئمة .

وذكرت أنه ذكر جملًا من مفاخرة الأجناس ، وجمهرة من مناقب هذه الأصناف ، وأنه جمع ذلك وفصله وفسره ، وأنه ألغى ذكر الأتراك فلم يعرض لهم ، وأضرب عنهم صفحاً ، يُخبر عنهم كما أخبر عن حُجَّة كلِّ جيل ، وعن بُرهان كلِّ صنف ، وذكر أن الخراساني يقول : نحن النُقباء وأبناء النُقباء ؛ ونحن النُجباء وأبناء النُجباء ، ومنا الدُّعاة ، قبل أن تظهر نقابة ، أو تُعرف نجابة ، وقبل المغالبة والمباراة ، وقبل كشف الفِئاع وزوال التقيَّة وزوال ملك أعدائنا عن مستقرِّه ، وثبات ملك أوليائنا في نصابه . وبين ذلك ما قُتلنا وشُرِّدنا ، ونُهِّكنا ضرباً ونُضَعنا بالسُّيوف الجداد ، وعذبنا بالوان العذاب .

وبنا شفى الله الصدور ، وأدرك الثار . ومنا الاثنا عشر النُقباء ، والسُّبعون النُجباء . ونحن الخندقية ، ونحن الكفِّية وأبناء الكفِّية ، ومنا المستجبية ومن يبرج الشيعة ومنا نيم خزان وأصحاب الجوريين ومنا الرُّغندية والأزافردية .

ونحن فتحنا البلاد وقتلنا العباد ، وأندنا العدو بكلِّ وادٍ . ونحن أهل هذه الدولة ، وأصحاب هذه الدعوة ، ومنبت هذه الشجرة . ومن عندنا هبت هذه الرِّيح .

والأنصار أنصاران : الأوس والخزرج نصرُوا النبي صلى الله عليه وسلم في أول الزمان ، وأهل خراسان نصرُوا ورثته في آخر الزمان . غَدَّانا بذلك آباؤنا وغَدَّونا به أبناءنا وصار لنا نسباً لا نعرف إلا به ، وديناً لا نوالي إلا عليه .

ثم نحن على وتيرة واحدة ، ومنهاج غير مشترك ؛ نعرف بالشيعة ، ونُذِّبُ بالطاعة ، ونُقْتَلُ فيها ونُؤْتُ عليها . بييماننا موصوف ، ولباسنا معروف . ونحن أصحاب الرِّايات السود ، والروايات الصحيحة ، والأحاديث المأثورة ، والذين يهدِّمون مدن الجبابرة ، ويتزعجون الملوك من أيدي الظلِّمة ، وفيها تقدُّم الخبر ، وصحُّ الأثر . وجاء في الحديث صفة الذين يفتحون عمورية ويظهرون عليها ،

ويقتلون مُقاتليها وَيُسَبِّون ذرارِها ، حيث قالوا في نعتهم : « شعورهم شعور النساء ، وثيابهم ثيابُ الرهبان » . فَصَلِّقُ الفِعْلُ القول ، وَحَقَّقُ الخَبْرَ العِيان .

ونحن الذين ذَكَرْنَا وذكّرنا بِلاءَنَا امامَ الأئمة ، وأبو الخلائق العشرة : عمّد ابن علي ، حين أراد توجيةَ الدُّعاةِ إلى الأفاق ، وتفريقَ شيعته في البلاد ، أن قال :

أما البصرة وسوادها فقد غلب عليها عثمانٌ وصنائع عثمان ، فليس بها من شيعتنا إلا القليل . وأما الشام فشيعةُ بني مروان وآل أبي سُفيان . وأما الجزيرة فَحُرُورِيَّةٌ شَارِيَّةٌ ، وخارجةٌ مارقةٌ ، ولكن عليكم بهذا الشرق ؛ فإنَّ هناك صدوراً سليمةً وقلوباً باسلةً ، لم تُفْسِدْها الأهواء ، ولم تُخامِرْها الأدواء ، ولم تَعْتَقِبْها البدع ، وهم مغيطون موتورون . وهناك العَدَدُ [والعُدَّةُ] ، والعَتادُ والنُّجدةُ .

ثم قال : [وأنا أتفاءل] إلى حيث يطلع منه النهار . فكُنَّا خَيْرَ جُنْدٍ بِخَيْرِ إمام ؛ فَصَدَّقْنَا ظَنَّهُ ، وَبَيَّنَّا رَأْيَهُ ، وَصَوَّرْنَا فِرَاسَتَهُ .

وقال مرّةً أخرى : *مركز حقة كميتر علوم رسيدي*

أمرنا هذا شرقيٌّ لا غربيٌّ ، ومُقبِلٌ لا مدبرٌ ، يطلعُ كطلوعِ الشمس ، ويمتدُّ على الأفاق امتدادَ النهار ، حتى يبلغ حيث تبلغه الأحفاف ، وتناه الحوافر .

قالوا : ونحن قتلنا الصُّحُصِجِيَّةَ ، والدُّالِقِيَّةَ ، والدُّكوانِيَّةَ ، والرَّاشِدِيَّةَ . ونحن أيضاً أصحابُ الخنادقِ أيامَ نصر بن سيار . وابن جُذَيْعِ الكَرَمانيِّ ، وشيبان بن سَلَمَةَ الخارجي . ونحن أصحابُ نِباتَةَ بن حنظلة ، وعامر بن ضبارة ، وأصحابُ ابن هبيرة . قَلْنَا قديمُ هذا الأمرِ وحديثه ، وأوله وآخره ومُنَا قاتلُ مروان .

ونحنُ قومٌ لنا أجسامٌ وأجرامٌ ، وشُعُورٌ وهامٌ ، ومِنَاكِبُ عِظامٍ ، وجِبَاهُ عِراضٍ ، وقَصْرٌ غِلاظٍ ، وسِوَاعِدُ طِوَالٍ .

ونحنُ أولدٌ للذُّكُورةِ ، وأنسلُ بعولةٍ . وأقلُّ ضِوئِيٌّ وضُؤولةٍ ، وأقلُّ إِتِئاماً

وانتق أرحاماً ، وأشدُّ عصباً وأتمُّ عظاماً ، وأبداننا أحمَل للسلح ، ونجفأفنا أملاً
للعيون .

ونحن أكثر مائة ، وأكثر عدداً وعدة .

ولو أن ياجوج وماجوج كاثروا من وراء النهر منا لظهروا عليهم بالعدد .
فأما الأيد وشدة الأسر ، فليس لأحد بعد عاد وثمود والعمالقة والكنعانيين مثل
أيدينا وأسرنا .

ولو أن خيول الأرض وفرسان جميع الأطراف جمعوا في حلبة واحدة ، لكنا
أكثر في العيون ، وأهول في الصدور .

ومنى رأيت فواكبنا وفرساننا ، ونودنا التي لا يحملها غيرنا ، علمت أننا لم
نخلق إلا لقلب الدول ، وطاعة الخلفاء ، وتأييد السلطان .

ولو أن أهل التبت ورجال الزابج ، وفرسان الهند ، وحلبة الروم ، هجم
عليهم هاشم بن أسنا خنج لما امتنعوا من طرح السلاح والحرب في البلاد .

ونحن أصحاب اللحي وأرباب النهي ، وأهل الحلم والحجبا ، وأهل
الثخانة في الرأي ، والبعد من الطيش . ولنا كجند الشام المتعرضين للحرم ،
والمتهكين لكل محرم .

ونحن ناس لنا أمانة وفينا عفة . ونحن نجتمع بين النزاهة والقناعة والصبر
على الخدمة ، والتجمير عند بعد الشقة . ولنا الطبول المهنولة العظام والبود ،
ونحن أصحاب التجافيف والأجراس ، والبازيكند والبود الطوال ، والأغماد
المعقفة والشوارب المعقربة ، والفلانس الشاشية ، والخيول الشهرية ، والكافر
كوبات والطبرزينات [في الأكتف] ، والخناجر في الأوساط . ولنا حسن الجلسة
على ظهور الخيل . ولنا الأصوات التي تسقط منها الحبالى .

وليس في الأرض صناعة غريبة من أدب وحكمة ، وحساب وهندسة ،

وإيقاع وصنعة ، وفقه ورواية ، نظرت فيها الخراسانية إلا فرغت فيها الرؤساء ،
وبزت فيها العلماء .

ولنا صنعة السلاح من لبّد وركابٍ ودرع . ولنا عما جعلناه رياضة وتمريناً ،
وإرهاصاً للحرب ، وتثقيفاً وذبّةً للمجاوله والمشاولة ، [و] للكرّ بعد الكرّ :
مثل الذّبوق ، والنزود على الخيل صغاراً ، ومثل الطّبّاطب والصّوالجّة الكبار ، ثم
رمي المجثمّة ، والبّرجاس والطائر الحطّاف .

فنحن أحقُّ بالأثرة ، وأولى بشرف المنزلة .

[٨٠ - مفاخر العرب]

ثم قلت : وزعم أن القربة تُستعق بالأسباب الثابتة ، وبالأرحام
الشابكة ، وبالقدمة ، والطاعة للأباء والعشيرة ، وبالشكر النافع ، والمديح الكافي
بالشعر الموزون الذي يبقى بقاء الدهر ، ويلوح ما لاح نجم ، ويُشدد ما أهمل
بالحج ، وما هبت الصبا ، وما كان للزيت عاصم ؛ وبالكلام المنشور والقول
المأثور . أو بصفة مخرج الدولة والاحتجاج للدعوة ، وتقييد المآثر ، إذ لم يكن
[ذلك من] عادة المعجم ، ولا كان يُحفظ ذلك معروفاً لسوى العرب . ونحن
نربطها بالشعر المقفى ، ونصلها بحفظ الأميين . [الذين لا يتكلمون على الكتب
المدوّنة ، والخطوط المطرّسة . ونحن أصحاب التفأخر والتناقر ، والتنازع في
الشرف ، والتحاكم إلى كلِّ حكم مُقنع وكاهنٍ سجاع . ولنا التعاير بالمشالب ،
والتفأخر بالمناقب . ونحن أحفظ لأنسابنا ، وأرعى لحقوقنا وتقييدها أيضاً بالمنشور
المرسل ، بعد الموزون المعدّل ، بلسانٍ أمضى من السنان ، وأرهف من السيف
الحسام ، حتى نذكرهم ما قد درس رسمه ، وعفا أثره .

وبين القتال من جهة الرغبة والرغبة فرق ، وليس المُعزّق في الحفاظ كمن
هذا فيه حادث . وهذا بابٌ يتقدّم فيه التالذ القديم الطارف الخديث .

وطُلاب الطوائل رجلاًن : سَجِسْتَانِي وَأَعْرَابِي . وهل أكثر النقباء إلا من صميم العرب ، ومن صلية هذا النسب ، كأبي عبد الحميد قحطبة بن شبيب الطائلي ، وأبي محمد سليمان بن كثير الخزاعي ، وأبي نصر مالك بن الهيثم الخزاعي ، وأبي داود خالد بن إبراهيم الدهلي ، وكأبي عمرو لاهز بن قريظ المرثي ، وأبي عتيبة موسى بن كعب المرثي ، وأبي سهل القاسم بن مجاشع المزني ، ومن كان يجري مجرى النقباء ولم يدخل فيهما ، مثل مالك بن الطواف المزني .

وبعد فمن هذا الذي باشر قتل مروان ، ومن هزم ابن هبيرة ، ومن قتل ابن ضبارة ، ومن قتل نباتة بن حنظلة ، إلا عَرَبُ الدَّعْوَةِ ، والصُّمَيْمُ من أهل الدولة ؟ ومن فتح السند إلا موسى بن كعب ، ومن فتح إفريقية إلا محمد بن الأشعث ؟



[٩ - مفاخر الموالى]

وقلت : وقال : وتفوق الموالى لنا النصيحة الخالصة ، والمحبة الراسخة ، ونحن موضع الثقة عند الشدة . وعلل المولى من تحت موجبة لمحبة المولى من فوق ، لأن شرف مولاه راجع إليه ، وكرمه زائد في كرمه ، وخوله مُسْقَطٌ لقدره . وبودّه أن خصال الكرام كلها اجتمعت فيه ؛ لأنه كلما كان مولاه أكبر وأشرف وأظهر ، كان هو بها أشرف وأنبى . ومولاك أسلم لك صدرأ ، وأرد ضميراً ، وأقل حسداً .

وبعد فالولاء لحمة كلحمة النسب ، فقد صار لنا النسب الذي يصوبه الغربي . ولنا الأصل الذي يفتخر به العجمي .

قال : والصبر ضرور ، فأكرمها كلها الصبر على إفشاء السر . وللمولى في هذه المكرمة ما ليس لأحد .

ونحن أخص مدخلاً ، وألطف في الخدمة مسلماً . ولنا مع الطاعة والخدمة

والإخلاص وحسن النية ، خدمة الأبناء للآباء ، والآباء للأجداد ، وهم بمواليهم
آنس ، وبناحيتهم أوثق ، وبكفائتهم أسر .

وقد كان المنصور ، ومحمد بن علي ، وعلي بن عبد الله ، يخصون مواليهم
بالمواكلة والبسط والإيناس ، لا يُبهرجون الأسود لسواده ، ولا الدميم لدمامته ،
ولا الصناعة الدنيئة لدناءتها . ويوصون بحفظهم أكابر أولادهم ، ويجعلون لكثير
من موتاهم الصلاة على جنائزهم ، وذلك بحضرة من العمومة وبني الأعمام
والأخوة .

ويتذكرون إكرام رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة مولاه ،
حين عقد له يوم مؤتة على جلة بني هاشم ، وجعله أمير كل بلدة يطؤها .

ويتذكرون حبه لأسامة بن زيد ، وهو الحُبُّ ابنُ الحب . وعقد له على
عظماء المهاجرين وأكابر الأنصار .

ويتذكرون صنيعه بسائر مواليه ، كأبي أنسة ، وشقران ، وفلان وفلان .

قالوا : ولنا من رؤوس النقباء أبو منصور مولى خزاعة ، وأبو الحكم
عيسى بن أعين مولى خزاعة ، وأبو النجم عمران بن إسماعيل مولى آل أبي
مُعيط . فلنا مناقب الخراسانية ، ولنا مناقب الموالى في هذه الدعوة ، ونحن منهم
واليهم ، ومن أنفسهم ، لا يدفع ذلك مسلم ولا ينكره مؤمن ، خدمناهم كباراً
وحملناهم على عواتقنا صغاراً . هذا مع حق الرضاع والخزولة ، والنشوء في
الكتاب ، والتقلب في تلك العراض التي لم يبلغها إلا كل سعيدي الجد ، وجيه في
الملوك . فقد شاركنا العربي في فخره ، والخراساني في مجده ، والبنوي في فضله ،
ثم تفرّدنا بما لم يشاركونا فيه ، ولا سبقونا إليه .

قالوا : ونحن أشكل بالرعية ، وأقرب إلى طباع الذمماء ، وهم بنا آنس
وإيناس أسكن ، وإلى لقائنا أحق ؛ ونحن بهم أرحم ، وعليهم أعطف ، وبهم
أشبه . فمن أحق بالأثرة ، وأولى بحسن المنزلة ممن هذه الخصال له ، وهذه
الخلال فيه .

[١٠ - مفاخر النبوي]

وقلت وذكرت أن النبوي قال :

أنا أصلي خراسان ، وهي تخرج الدولة وتطلع الدعوة ؛ ومنها نجم هذا القرن ، وصبا هذا الناب ، وتفجر هذا ينبوع ، واستفاض هذا البحر ، حتى ضرب الحق بجوانه ، وطبق الأفاق بضيائه ، فأبرأ من السقم القديم ، وشفى من الداء العضال ، وأغنى من العيلة ، وبصر من العمى

قال : وفرعى بغداد ، وهي مستقر الخلافة ، والقرار بعد الحولة ، وفيها بقية رجال الدعوة ، وابتداء الشيعة ، وهي خراسان العراق ؛ وبيت الخلافة ، وموضع المادة .

قال : وأنا أشرق في هذا الأمر من أبي ، وأكثر تردداً فيه من جدّي ، وأحق في هذا الفضل من المولى والعربي . ولنا بعد في انفسنا ما لا يُنكر من الصبر تحت ظلال السيوف الفصار والرماح الطوال . [ولنا معانقة الأبطال عند تحطم القنا وانقطاع الصفائح . ولنا المواجهة بالسكاكين ، وتلقي الخناجر بالعيون ، ونحن حماة المستلحم ، وابتداء المضايق . ونحن أهل الثبات عند الجسولة ، والمعرفة عند الخيرة ، وأصحاب المشهرات ، وزينة العساكر وحل الجيوش ، ومن يمشي في الرمح ، ويختال بين الضفين . ونحن اصحاب الفتك والإقدام ، ولنا بعد التسليق ، ونقب المدن ، والتفحيم على ظلمات السيوف وأطراف الرماح ، ورضخ الجندل ، وهشم العمود ، والصبر على الجراح وعلى جر السلاح إذا طار قلب الأعرابي ، وساء ظن الخراساني . ثم الصبر تحت العقوبة ، والاحتجاج عند المسألة ، واجتماع العقل ، وصحة الطرف ، وثبات القدمين ، وقلة التكفي بحبل العقابين ، والبعد من الإقرار ، وقلة الخضوع للدهر والخضوع عند جفوة الزوار وجفاء الأقارب والإخوان .

ولنا القتال عند أبواب الخنادق ، ورؤوس القناطر . ونحن الموت الأحر

عند أبواب النُقب . ولنا المواجهاة في الأزقة ، والصُبر على قتال السُجون .
فَسَلُّ عن ذلك الخُلَيْدية ، والكتفية ، والبلائية ، والخريبة . ونحن أصحاب
المكابدات وأرباب البيات ، وقتل الناسِ جهاراً في الأسواق والطُرقات .

ونحن نجمع بين السُّلَّة والمزاحفة . ونحن أصحاب القنا الطُوال ما كُنَّا
رَجالة ، والمطارِدِ القصارِ ما كُنَّا فُرسانا . فإن صرنا كُمناً فالحتف القاضي ،
والسُّمُّ الدُّعاف . وإن كُنَّا طلائع فكلُّنا يقوم مقام أمير الجيش . نقاتل بالليل
كما نقاتل بالنهار، ونقاتل في الماء كما نقاتل على الأرض ، ونقاتل في القرية كما
نقاتل في المحلة .

ونحن أفنك وأخشب ، ونحن أقطع للطريق وأذكر في الثُغور ، مع
حُسن القُدود وجودة الخطر ومقادير اللُحى ، وحُسن العِمة ، والنفس المُرة .
وأصحابُ الباطل والفتوة ، ثم الخطَّ والكتابة ، والفقه والرُواية .

ولنا بغداد باسرها، تسكن ما سكنا، وتتحرك ما تحركنا . والدُّنيا كلها معلقة
بها ، وصائرة الى معناها . فإذا كان هذا أمرها وقدرها فجميع الدُّنيا تبعُ
لها [. وكذلك أهلها لاهلها ، وتساكها لتساكها ، وخلعها لخلعها ،
ورؤساؤها لرؤسائها ، وصلحاؤها لصلحائها .

ونحن بعدُ تربية الخلفاء ، وجيران الوُزراء ، ولدنا في أفنية مُلوكننا ،
ونحن أجنحةُ خلفائنا ؛ فأخذنا بأثارهم واحتدبنا على مثالهم ، فلسنا نعرف
سواهم ، ولا نعرف بغيرهم ، ولا يطمع فينا أحدٌ قطُّ من خُطاب مُلكهم ،
ومن يترشَّح للاعتراض عليهم . فَمَنْ أَحَقُّ بالأثرة ، وأولى بالقُرب في المنزلة
بِمَنْ هذه الخصالُ فيه ، وهذه الخلالُ له .

[١١ - الغاية من وضع الكتاب]

إنَّ ذهبنا حفظك الله بِعقب هذه الاحتجاجات ، وعند مقطع هذه

الاستدلالات ، نستعمل هذه المعارضة بمناقب الأتراك ، والموازنة بين خصالهم
وخصال كلِّ صنف من هذه الأصناف ، سلطنا في هذا الكتاب سبيل أصحاب
الخصومات في كتبهم ، وطريق أصحاب الأهواء في الاختلاف الذي بينهم .

وكتابتنا هذا إنما تكلفناه لنؤلف بين قلوبهم التي كانت مختلفة ، ولنزيد
الألفة إن كانت مؤتلفة ، ولنخبر عن اتفاق أسبابهم لتجتمع كلمتهم ، ولتسلم
صدورهم ، وليعرف من كان لا يعرف منهم موضع التفاوت في النسب ، وكم
مقدار الخلاف في الحسب ، فلا يغير بعضهم مغير ، ولا يفسده عدوُّ بأباطيل
مموهة وشبها مزورة ؛ فإن المنافق العليم ، والعدوُّ ذا الكيد العظيم ، قد يصور
لهم الباطل في صورة الحق ، ويلبس الاضاعة ثياب الحزم . إلا أنا على حال
سنذكر جملاً من أحاديث روينها ووعينها ، وأمور رأيناها وشاهدناها ،
وفضائل تلقفناها من أفواه الرجال وسمعناها .

وسنذكر جميع ما في هذه الأصناف من الآلات والأدوات ، ثم ننظر أيهم
لها أشدُّ استعمالاً ، وبها أشدُّ استقلالاً ، ومن أثقُب كَيْساً وأفتح عيناً وأدكى
يقيناً ، وابتعد غوراً وأجمع أمراً ، وأعمُّ خواطر وأكثر غرائب ، وأبدع طريقاً ، وأدوم
نفعاً في الحروب ؛ وأضرى وأدرب دربةً ، وأغمض مكيدةً ، وأشدُّ احتراساً
والطفُّ احتيالاً ؛ حتى يكون الخيار في يد الناظر المتصفح لمعانيه ، والمقلب
لوجوهه ، والمفكر في أبوابه ، والمقابل بين أوله وآخره ، فلا نكون نحن
انتحلنا شيئاً دون شيء ، وتقلدنا تفضيل بعض على بعض ، بل [لعلنا أن
لا] نخبر عن خاصة ما عندنا بحرف واحد .

فإذا دبرنا كتابنا هذا التدبير ، وكان موضوعه على هذه الصفة ، كان
أبعد له من مذاهب الجدال والمراء ، واستعمال الهوى .

وقد ظنُّ ناسٌ أن أسماء أصناف الأجناس كما اختلفت في الصورة والخط
والهجاء ، أن حقائقها ومعانيها على حسب ذلك . وليس الأمر على حسب ما
توهته ؛ إلا ترى أن اسم الشاكرية وإن خالف في الصورة وانجاء اسم

الجُنْد ، فَإِنَّ الْمَعْنَى فِيهِمَا لَيْسَ بِبَعِيدٍ ، لِأَنَّهُمْ يَرْجِعُونَ إِلَى مَعْنَى وَاحِدٍ وَعَمَلٌ وَاحِدٌ . وَالَّذِي يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ طَاعَةُ الْخُلَفَاءِ ، وَتَأْيِيدُ السُّلْطَانِ .

وَإِذَا كَانَ الْمَوْلَى مَنقُولًا إِلَى الْعَرَبِ فِي أَكْثَرِ الْمَعَانِي ، وَمَجْمُولًا مِنْهُمْ فِي عَامَّةِ الْأَسْبَابِ ، لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ بِأَعْجَبَ مِمَّنْ جَعَلَ الْحَالَّ وَالسُّدَّ ، وَالْحَلِيفَ مِنَ الصَّمِيمِ ، وَابْنَ الْأَخْتِ مِنَ الْقَوْمِ .

وَقَدْ جُعِلَ ابْنُ الْمَلَاغِنَةِ الْمَوْلُودُ عَلَى فِرَاشِ الْبَعْلِ مَنْسُوبًا إِلَى أُمِّهِ .

وَقَدْ جَعَلُوا اسْمَاعِيلَ وَهُوَ ابْنُ عَجْمِيِّنَ عَرَبِيًّا ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَتَقَّ لِهَاتِهِ بِالْعَرَبِيَّةِ الْمُبِينَةِ عَلَى غَيْرِ التَّلْقِينِ وَالتَّرْتِيبِ ، ثُمَّ فَطَرَهُ عَلَى الْفَصَاحَةِ الْعَجِيبَةِ عَلَى غَيْرِ النُّشُوءِ وَالتَّقْدِيرِ ، وَسَلَخَ طِبَاعَهُ مِنْ طِبَاعِ الْعَجْمِ ، وَنَقَلَ إِلَى بَدَنِهِ تِلْكَ الْأَجْزَاءَ ، [وَرَكَّبَهُ اخْتِرَاعًا] عَلَى ذَلِكَ التَّرْكِيبِ ، وَسَوَّاهُ تِلْكَ التَّسْوِيَةَ ، وَصَاغَهُ تِلْكَ الصِّيَاغَةَ ، ثُمَّ حَبَّأَهُ مِنْ طِبَائِعِهِمْ وَمَنَحَهُ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَشِمَائِلِهِمْ ، وَطَبَّعَهُ مِنْ كَرَمِهِمْ وَأَنْفَتِهِمْ وَهَمَمِهِمْ عَلَى أَكْرَمِهَا وَأَمَكْنَهَا ، وَأَشْرَفِهَا وَأَعْلَاهَا ، وَجَعَلَ ذَلِكَ بَرَهَانًا عَلَى رِسَالَتِهِ ، وَدَلِيلًا عَلَى نَبُوَّتِهِ ؛ فَكَانَ أَحَقُّ بِذَلِكَ النُّسْبِ ، وَأَوْلَى بِشَرَفِ ذَلِكَ الْحَسَبِ .

وَكَذَا جُعِلَ إِبْرَاهِيمُ أَبًا لِمَنْ لَمْ يَلِدْهُ ، فَالْبَنُوِيُّ خُرَاسَانِيٌّ مِنْ جِهَةِ الْوِلَادَةِ ، وَالْمَوْلَى عَرَبِيٌّ مِنْ جِهَةِ الْمَدْعَى وَالْعَاقِلَةِ . وَإِنْ أَحَاطَ عَلْمُنَا بِأَنَّ زَيْدًا لَمْ يَخْلُقْ مِنْ نَجْلِ عَمْرٍو إِلَّا عِهَارًا لِنَفِينَاهُ عَنْهُ ، وَإِنْ وَثَّقْنَا أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْ مِنْ صُلْبِهِ .

وَكَذَا جَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَزْوَاجَهُ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ وَهُنَّ لَمْ يَلِدْنَهُمْ وَلَا أَرْضَعْنَهُمْ ، وَفِي بَعْضِ الْقِرَاءَاتِ : (وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ) ، عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ . وَجَعَلَ الْمَرَأَةَ مِنْ جِهَةِ الرُّضَاعِ أُمًَّ ، وَجَعَلَ [امْرَأَةً] الْبَعْلَ أُمًَّ وَلَدَ الْبَعْلَ مِنْ غَيْرِهَا ، [وَجَعَلَ] الرَّابَّ وَالِدًا ، وَجَلَّ الْعَمُّ أَبًا [فِي كِتَابِ اللَّهِ] . وَهِيَ عَمِيدَةٌ لَا يَقْبَلُونَ إِلَّا فِيهَا قُلُوبَهُمْ فِيهِ . وَلَهُ أَنْ يَجْعَلَ مِنْ عِبَادِهِ مَنْ شَاءَ عَرَبِيًّا وَمَنْ شَاءَ عَجْمِيًّا ، وَمَنْ شَاءَ قُرَشِيًّا ، وَمَنْ شَاءَ زَنْجِيًّا ؛ كَمَا لَهُ أَنْ يَجْعَلَ مِنْ شَاءَ ذَكَرًا وَمَنْ شَاءَ أُنْثَى ؛

[ومن شاء خشي] ، ومن شاء أفرده من ذلك فجعله لا ذكراً ولا أنثى ولا
خُنثى .

وكذلك خلق الملائكة وهم أكرم على الله من جميع الخليفة . وخلق آدم
 فلم يجعل له أباً ولا أمّاً ، وخلق من طين ونسبه اليه ، وخلق حواء من ضلع
 آدم وجعلها له زوجاً وسكناً . وخلق عيسى من غير ذكرٍ ونسبه إلى أمه التي
 خلقه منها . وخلق الجان من نار السموم ، وآدم من طين ، وعيسى من غير
 نطفة . وخلق السماء من دُخان ، والأرض من الماء ، وخلق اسحاق من
 عاقرة . وأنطق عيسى في المهدي ، وأنطق يحيى بالحكمة وهو صغير ، وعلم
 سليمان منطلق الطير ، وكلام النمل ، وعلم الحفظة من الملائكة جميع الألسنة
 حتى كتبوا بكل خط ، ونطقوا بكل لسان . وأنطق ذئب أهبان بن أوس .

والمؤمنون من جميع الأمم إذا دخلوا الجنة ، وكذلك أطفالهم والمجانين
 [منهم] ، يتكلمون ساعة يدخلون الجنة بلسان أهل الجنة ، على غير الترتيب
 والتنزيل ، والتعليم على طول الأيام والثمانين . فكيف يتعجب الجاهلون من
 [نطق] اسماعيل بالعربية على غير تعليم الآباء ، وتأديب الخواضن !؟

وهذه المسألة ربما سأل عنها بعض القحطانية ، ممن لا علم له ، بعض
 العدنانية ، وهي على القحطاني أشد . فأما جواب العدناني فليس النظام
 سهل المخرج ، قريب المعنى ؛ لأن بني قحطان لا يدعون لقحطان نبوة فيعطيه
 الله مثل هذه الأعجوبة .

وما الذي قسم الله - عز اسمه - بين الناس من ذلك ، إلا كما صنع في
 طينة الأرض ، فجعل بعضها حجراً ، وبعض الحجر ياقوتاً ، وبعضه ذهباً ،
 وبعضه نحاساً ، وبعضه رصاصاً ، وبعضه حديداً ، وبعضه تراباً ، وبعضه
 فخاراً . وكذلك الزجاج ، والمفجرة ، والزرنبخ ، والمرك ، والكبريت ، والقار
 والثوتيا ، والنوشادر ، والمرقيشا ، والمغنطيس .

ومن يحصي عدداً أجزاء الأرض ، وأصناف الفلز ؟!

وإذا كان الأمر على ما وصفنا فالبنوي خراساني . وإذا كان الخراساني مولى ، والمولى عربياً - فقد صار الخراساني والبنوي والمولى والعربي واحداً .

وأدى ذلك أن يكون الذي معهم من خصال الوفاق غامراً ما معهم من خصال الخلاف ، بل هم في معظم الأمر وفي كبر الشأن وعمود النسب متفقون . والأتراك خراسانية وموالي الخلفاء قصرة ، فقد صار التركي الى الجميع راجعاً ، وصار شرفه إلى شرفهم زائداً .

وإذا عُرف سائر ذلك سمعت النفوس ، وذهب التعقيد ، ومات الضغن ، وانقطع سبب الاستئصال ؛ فلم يبق إلا التحاسد والتنافس الذي لا يزال يكون بين المتقاربين في القرابة وفي المجاورة .



على أن التوازر والتسام في الترابيات وفي بني الأعمام والعشائر ، أفشى وأعم من البعداء .

مركز بحوث كميبيوتر علوم إسلامي

ولخوف التخاذل ولحب التناصر ، والحاجة إلى التعاون - انضم بعض القبائل في البوادي الى بعض ، ينزلون معاً ويظعنون معاً . ومن فارق أصحابه أقل ، [و] من نصر ابن عمه أشر . ومن اغتبط بنعمته ونمى بقاءها والزيادة فيها أكثر ممن بغاها الغوائل ، وطلب انقطاعها وزوالها . ولا بد في أضعاف ذلك من بعض التنافس والتخاذل ، إلا أن ذلك قليل من كثير .

وليس يجوز أن تصف الدنيا وتنقى من الفساد والمكروه حتى يموت جميع الخلائق ، وتستوي لأهلها ، وتمهد لسكانها على ما يشتهون ويهون ؛ لأن ذلك من صفة دار الجزاء ، وليس كذلك صفة دار العمل .

هذا كتاب كنتُ كتبتُه أيامَ المعتصم بالله ، رضي الله عنه ، فلم يصل إليه ، لأسبابٍ يطول شرحها ، فلذلك لم أعرض للإخبار عنها . وأحييتُ أن يكون كتاباً قَصِداً ، ومذهباً عَدَلاً ، ولا يكون كتاب إسرافٍ في مديح قوم ، وإغراقٍ في هجاء آخرين ، وإن كان الكتابُ كذلك شابهَ الكذب ، وخالطه التزويد ، وبُنِيَ أساسه على التكلُّف ، وخرج كلامُه نَحْرَجَ الاستكراه والتدليق .

وأنقَعُ المدائح للمادح وأجدها على الممدوح ، وأبقاها أثراً وأحسنها ذكراً : أن يكون المديحُ صادقاً ، وللظاهر من حال الممدوح موافقاً ، وبه لائقاً ، حتى لا يكون من المعبر عنه والواصف [له] إلا الإشارةُ إليه ، والتنبيهُ عليه .

وأنا أقول : إن كان لا يمكن ذلك في مناقب الأتراك إلا بذكر مثالب سائر الأجناد ، فترك ذكر الجميع أصوب ، والأضرابُ عن [هذا الكتاب] أحزم ، وذكر الكثير من [هذه الأوصاف بالجميل] لا يقوم بالقليل من ذكر بعضهم بالقبيح ، لأن ذكر الأكثر بالجميل نافلة ، وباب من التطوع ، وذكر الأقل بالقبيح معصية ، وباب من ترك الواجب . وقليل الفريضة أجدي علينا من كثير التطوع .

ولكل نصيب من المساويء ومقدار من الذنوب ؛ وإنما يتفاضل الناس بكثرة المحاسن وقلة المساوي . فأما الاشتغال على جميع المحاسن ، والسلامة من جميع المساويء دقيقتها وجليلها ، وظاهرها وخفيها ، فهذا لا يُعرف .

وقد قال النابغة :

ولست بمستبقرٍ أخاً لا تلمه على شعبٍ ، أي الرجال المهذب

وقال خريش السعدي :

أخ لي كأيام الحياة إخواؤه نلون الواناً على خطوبها
إذا عبت منه خلة فتركته دعني إليه خلة لا أعيبها

وقال بشار :

إذا كنت في كل الأمور معاتباً خليلك لم تلق الذي لا تعاتبه
فعيش واحداً أو جبل أخاك فإنه مقاريف ذنب مرة ومجائبه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

وقال مطيع بن إياس اللثمي :

ولئن كنت لا تصاحب الأ صاحباً لا تزُل ، ما عاش ، نعله
لم تجده ولو جهدت وأنى بالذي لا يكون يُوجد مثله

وقال محمد بن سعيد ، وهو رجل من الجنذ :

سأشكر عمرأ إن تراخت مني أيادي لم تمنن وإن هي جلت
فتي غير محبوب البني عن صديقه ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت
رأى خلتي من حيث يخفى مكانها فكانت قذى عيني حتى ثجلت

فإذا كان الخلطاء من جهور الناس ، وأصحاب المعاش من
ذمء الجماعة ، يرون ذلك واجباً وتدبيراً في التعامل ، على ما هم فيه من
مشاركة الخطأ للصواب ، وامتزاج الضعف بالقوة ، فلسنا نشك أن الامام
الأكبر والرئيس الأعظم ، مع الأعراق الكريمة والأخلاق الرفيعة ، والتمام في
الحلم والعلم ، والكمال في الحزم والعزم ، مع التمكين والقدرة ، والفضيلة
والرياسة [والسيادة] ، والخصائص التي معه من التوفيق والعصمة ، والتأييد
وحسن المعونة ، أن الله جل اسمه لم يكن ليجلله باسم الخلافة ، وعجوه بتاج
الإمامة ، وبأعظم نعمة وأسبغها ، وأفضل كرامة وأسناها ، ثم وصل طاعته
بطاعته ، ومعصيته بمعصيته ، إلا ومعه من الحلم في موضع الحلم ، والعقوف في
موضع العفوف ، والتغافل في موضع التغافل ، ما لا يبلغه فضل ذي فضل ،

ولا جِلمُ ذي حلم .

[١٣ - مناسبة تأليف الكتاب]

ونحن قائلون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، فيما انتهى اليُنا في أمر الأتراك :

زعم محمدُ بن الجهم ، وثمامةُ بن أشرس ، والقاسمُ بن سيار ، في جماعةٍ ممن يَغشى دارَ الخلافة ، وهي دارُ العامة ، قالوا جميعاً :

بيننا حميدُ بن عبد الحميد جالساً ومعه بخشادُ الصغدِي ، وأبو شجاعُ [شيب] بن بُخار الخدائي البلخي ، ويحيى بن معاذ ، ورجال من المعدودين المتقدمين في العلم بالحرب [من أصحاب التجارب والمراس ، وطول المعالجة والمعاناة] في صناعات الحرب ، إذ خرج رسولُ المأمون فقال لهم : نقول لكم متفرقين ومُجتمعين : ليكتب كلُّ رجلٍ منكم دعواه وحقته ، وليقلُّ أيما أحبُّ إلى [كلُّ] قائدٍ منكم إذا كان في عدوته من صحبه وثقاته : أن يلقى مائةَ تركيٍّ أو مائةَ خارجيٍّ ؟ فقال القومُ جميعاً : [لأن] نلقى مائةَ تركيٍّ أحبُّ إلينا من أن نلقى مائةَ خارجيٍّ ! وحميدُ ساكت .

فلما فرغ القومُ [جميعاً] من حُججهم ، قال الرسولُ : قد قال القومُ فقل واكتب قولك ، وليكن حجةُ لك أو عليك . قال : بل ألقى مائةَ خارجيٍّ أحبُّ إليَّ ؛ لأنني وجدت الخصالَ التي يفضلُ بها الخارجيُّ جمعَ المقاتلةِ غير تامّةٍ في الخارجيِّ ، ووجدتها تامّةً في التركيِّ . ففضلُ التركيِّ على الخارجيِّ بقدر فضلِ الخارجيِّ على سائرِ المقاتلةِ ، ثمَّ بانَ التركيُّ عن الخارجيِّ بأمرٍ ليس فيها للخارجيِّ دعوى ولا متعلق . على أن هذه الأمور التي بانَ بها التركيُّ عن الخارجيِّ ، أعظمُ خطراً وأكثرُ نفعاً ، مما شاركه الخارجيُّ في بعضها .

[١٤ - خصال الخوارج]

ثم قال حميدُ : والخصال التي يَصُولُ بها الخارجيُّ على سائر الناس يصدق

الشدة عند أول وهلة ، وهي الدفعة التي يبلغون بها ما أرادوا ، ويثالون الذي أملاوا .

والثانية : الصبر على الحطب وعلى طول السرى ، حتى يصبح القوم [الذين مرقوا بهم] غارين فيهمجوا عليهم وهم بسوء ، ولحم على وضهم ، يتعجلونهم عن الرؤية ، وعن رد النفس عن النزوة والجولة ؛ لا يظنون أن أحداً يقطع في ذلك المقدار من الزمان ذلك المقدار من البلاد .

والثالثة : أن الخارجي موصوف عند الناس بأنه إن طلب أدرك ، وإن طلب فات .

والرابعة : خفة الأزواد وقلة الأمتعة ، وأنها تجنب الخيل وتركب البغال ، وإن احتاجت أمست بأرض وأصبحت بأخرى ، وأنهم قوم حين خرجوا لم يخلفوا الأموال الكثيرة ، والجنان الملتفة ، والدور المشيدة ، ولا ضياعاً ولا مستغلات ، ولا جوارى مطهومات ، و [أنهم] لا سلب لهم ولا مال معهم فيرغب الجندي لقائهم ، وإنما هم كالطير لا تدخر ولا تنتم لغد ، ولها في كل أرض من المياه والأقوات ما تبلغ به ، وإن لم تجد ذلك في بعض البلاد فأجبحتها تقرب لها البعيد ، وتسهل لها الحزون . وكذلك الخوارج لا يمتنع عليهم القرى والمطعم ، وإن تمنع عليهم ففي بنات شحاج وبنات صهال ، وخفة الأثقال على طول الحطب ، ما يسهل أقواتها ، ويكثر من أرزاقها .

والخامسة : أن الملوك إن أرسلوا إليهم أعدادهم ليكونوا في خفة أوزارهم وأثقالهم ، وليقروا على التنقل كقوتهم ، لم يقروا عليهم ؛ لأن مائة من الجندي لا يقومون لمائة من الخوارج ؛ وإن كثفوا الجيش بالجيش ، وضاعفوا العدد [بالعدد] ثقلوا عن طلبهم ، وعن الفتوت إن طلبهم عدوهم . ومتى شاء الخارجي أن يقرب منهم ليتطرقهم أو ليصيب الغيرة منهم ، أو ليسلبهم ، فعل ذلك ثقة بأنه يغم عند الفرصة ورؤية الغورة ، ويمكنه الهرب عند

الخوف . وإن شاء كبسهم ليقطع نظامهم ، أو ليقطع القطعة منهم .

قال حميد : فهذه هي مفاخرهم وخصالهم ، التي لها كره القواد لقاءهم .

قال قاسم بن سيار : وخصلة أخرى ، وهي التي رعبت القلوب وخلعتها ، ونقضت العزائم وفسختها ، وهو ما تسمع الأجناد ومقاتلة العوام ، من ضرب المثل بالخوارج ، كقول الشاعر :

إذا ما البخیل والمحاذير للقرى رأى الضيف مثل الأزرقى المجفف

وكقول الآخر :

وقلب ود حال عن عهدو والسيف ينبو بيد الشاري

وكقول الآخر :

لقاء الأسد أهون من لقاء إذا التحكيم يسهر بالأصيل

فهذه زيادة قاسم بن سيار تحت كقول حميد

[١٥ - خصال الاتراك]

فأما حميد فإنه قال :

الشدة الأولى التركي فيها أحمد [أثراً ، وأجمع] أمراً ، وأحكم شأناً ؛ لأن التركي من أجل أن تصدق شدته ويتمكن عزمه ، ولا يكون مشترك العزم ولا منقسم . لحواطر ، قد عود بردونه ألا ينثني وإن شاء ، أن يملا فروجه للأمر يديره مرة أو مرتين ، وإلا فإنه لا يدع سننه ، ولا يقطع ركضه . وإنما أراد التركي أن يوثق نفسه من البدوات ، ومن أن يعتريه التكذيب بعد الاعتزام ، لهول [اللقا] ، وحب الحياة ؛ لأنه إذا علم أنه قد صير بردونه إلى هذه الغاية حتى لا ينثني ولا يجيبه إلى التصرف معه إلا بأن يصنع شيئاً بين الصفتين فيه عطبه ، لم يقدم على الشدة إلا بعد إحكام الأمر ، والبصرة

بالعورة . وإنما يريد أن يُشَبِّه نفسه بالمُحْرَج الذي إذا رأى أشدَّ القتال لم يدعُ
جُهداً ولم يدخر حيلة ، ولينفَى عن قلبه خواطرَ الفِرار ، ودواعي الرجوع .

وقال : الخارجيُّ عند الشُدَّة إنما يعتمد على الطُّعان ، والأتراك تطعن
طعنَ الخوارج ، وإن شدَّ منهم ألفُ فارس فرموا رشقاً واحداً صرعوا ألف
فارس ، فما بقاء جيشٍ على هذا النوع من الشُدَّة !

والخوارج والأعراب ليست لهم رمايةٌ مذكورة على ظهور الخيل ،
والتركيُّ يرمي الوحشَ والطيرَ ، والبُرجاس ، والناسَ ، والمجتمعة ، والمثلُ
الموضوعة ، ويرمي وقد ملأُ فُروجَ دابَّته مُدبراً ومُقبلاً ، ومِنَّةً ويسرةً ، وصُعداً
ومُفلاً ، ويرمي بعشرة أسهم قبل أن يَفُوقَ الخارجيُّ سهماً واحداً ، ويركض
دابَّته منحدرًا من جبل ، أو مستقبلاً إلى بطن وادٍ بأكثر مما يمكن الخارجيُّ على
بسيط الأرض .

وللتركيِّ أربعة أعين : عينان في وجهه ، وعينان في قفاه . وللخارجيِّ
عينٌ في مُستدبر الحرب ، وللخراسانيِّ عينٌ في مُستقبل الحرب . فعيب
الخراسانية أن لها جولة عند أول الالتقاء ، وإن ركبوا [كُسام] كانت
هزيمتهم ، وكثيراً ما يثوبون ، وذلك [بعد] الخطار بالعسكر ، وإطماع العدو
في الشُدَّة .

والخوارج إذا ولَّوا فقد ولَّوا وليس لهم بعد الفِرار ، إلا ما لا يُعدُّ .
والتركيُّ ليست له جولةُ الخراسانيِّ ، وإذا أدبرَ فهو التَّمُّ النافع ، والحتفُ
القاضي ؛ لأنه يصيب بسهمه وهو مدبرٌ كما يصيب به وهو مُقبل ، ولا يؤمن
وهقه ، ولا انتسافُ الفرس ، واحتطافُ الفارس بتلك الرُكضة .

وله بُقلت من الوهُوق في جميع الدُّهر إلا المهلب بن أبي صفرة ، والحريش
هلال ، وعبيد بن الخُصين . ورُبما رمى بالوهُوق وله فيه تدبير آخر وإن لم يتجنَّب
الرميُّ معه ، يوهم الجاهل أن ذلك إنما كان لخرق التركيِّ ، أو لِحذق الرميِّ .

قال : وهم علموا الفرسان حمل قوسين وثلاثة قسي ، ومن الأوتار على حسب ذلك .

قال : والتركي في حال شدته ، معه كل شيء يحتاج اليه لنفسه وسلاحه ودابته وأداة دابته . فأما الصبر على الخبب وعلى مواصلة السفر ، وعلى طول السرى وقطع البلاغ ، فعجيب جداً .

فواحداً : أن فرس الخارجي لا يصبر صبر برذون التركي .

والخارجي لا يحسن أن يعالج فرسه إلا معالجة الفرسان لخيولهم . والتركي أحذق من البيطار ، وأجود تقويماً لبرذونه على ما يريد من الرأفة [وهو استتجه] ، وهو رباه فلوا ، وتتبعه إن سماه ، وإن ركض ركض خلفه . وقد عوده ذلك حتى عرفه ، كما يعرف الفرس أقدم ، والناقة حبل ، والجمل جاه ، والبغل عدس ، والحمار ياسا ، وكما يعرف المجنون لقبه والصبي اسمه .

ولو حصلت عمر التركي وحسبت أيامه لوجدت جلوسه على ظهر دابته أكثر من جلوسه على ظهر الأرض . والتركي يركب فحلاً أو زمكة ، ويخرج غازياً أو مسافراً ، أو متباعداً في طلب صيد ، أو سبب من الأسباب ، فتتبعه الرمكة وأفلاؤها ، إن أعياه اصطيد الناس اصطاد الوحش ، وإن أخفق منها أو احتاج إلى طعام فصَدَّ دابةً من دوابه ، وإن غطش حلب زمكة من رماكه ، وإن أراح واحدة تحته ركب أخرى من غير أن ينزل إلى الأرض . وليس في الأرض أحد إلا وبدنه ينتفض على إقتيات اللحم وحده غيره ، وكذلك دابته تكتفي بالعنقر والعشب والشجر ، لا يظللها من شمس ولا يكتئب من برد .

قال : وأما الصبر على الخبب فإن الثغريين ، والفرانقيين ، والحصيان والخوارج ، لو اجتمعت قواهم في شخص واحد لما وقوا بتركي واحد . والتركي لا يبقى معه على طول الغاية إلا الضميم من دوابه . [و] الذي يقتله التركي بإتعايه له ، وينفيه عند غزاته ، هو الذي لا يصبر معه فرس

الخارجي ، ولا يبقى معه كلُّ برذونٍ بخاري . ولو سائر خارجياً لاستفرغ
وُسْعُه قبل أن يبلغ الخارجي عَفْوَه .

والتركي هو الراعي ، وهو السائس وهو الرائض ، وهو النُخاس ، وهو
البيطار ، وهو الفارس . والتركي الواحدُ أمةٌ على جِدة .

قال : وإذا سار التركي في غير عساكر الترك ، فسار القومُ عَشْرَةَ أميالٍ
سار عشرين ميلاً ؛ لأنه ينقطع عن العسكر يَمْنَةً ويُسرِع في ذرى الجبال ،
ويستبطنُ قُصور الأودية في طلب الصَّيد ؛ وهو في ذلك يرمي [كُلُّ] مادبٌ
وذرج ، وطارز ووقع .

قال : والتركي لم يسير في العساكر سِيراً الناسِ قطُّ ، ولا سارَ مستقبياً
قطُّ .

قالوا : وإذا طالت الدُّجَّة واشتدَّ السير ، وتعدَّ المنزل ، وانتصف
النهار ، واشتدَّ التعب ، وشغلَّ الناسَ الكلالُ ، وصمَّت المتسايرون فلم
ينطقوا ، وقطمهم ما هم فيه عن الشاغِل بالحديث ، وتفسَّخَ كلُّ شيءٍ من
شدة الحرِّ ، وخذ كلُّ شيءٍ من شدة البرد ، وتمنى كلُّ جليد القوى على طول
الشرى أن تطوى له الأرض ، وكلُّها رأى خيالاً أو أبصر علماً سرُّ به واستبشر ،
وظنُّ أنه قد بلغ المنزل ؛ فإذا بلغه الفارس نزل وهو متفحجٌ كأنه صبيٌّ
محفون ، يثنُّ أنينَ المريض ، ويستريح إلى التناؤب ، ويتداوى مما به بالتمطُّي
والتضجُّع . وترى التركي في تلك الحال وقد سار ضعفَ ما ساروا وقد أتعب
مَنكبيهِ كثرةَ النَّزْع ، يرى قُربَ المنزل غيراً أو ظليماً ، أو عَرَضَ له ثعلبٌ أو
أرنب ، فيركضُ ركضَ مبتدىٍ مسانِف ، كأن الذي سار ذلك السيرَ وتعب
ذلك التعبَ غيره .

وإن بلغ الناسُ وادياً فازدحموا على مَسلكِه أو [على] قنطرتِه ، بطن
برذونه فاقحمه ثم طلع من الجانب الأخر كأنه كوكب . وإن انتهوا إلى غُقبَةٍ
صعبةٍ تركَ السُننَ وذهب في الجبل صُعداً ، ثم ندلى من موضعٍ يعجز عنه

الوعيل ؛ وأنت تحسبه مخاطراً بنفسه ، للذي ترى من مُطلعه . ولو كان في كل ذلك مخاطراً لما دامت له السلامة مع تتابع ذلك منه .

قال : ويفخر الخارجيُّ بأنه إذا طلب أدرك ، وإذا طلب لم يُدرك .
والتركيُّ ليس يُجوز إلى أن يفوت ؛ لأنه لا يُطلب ولا يُرام . ومن يروم [ما لا يُطمع فيه] ؟

فهذا . على أننا قد علمنا أن العلة التي عمّت الخوارج بالنجدة استواء حالاتهم في الديانة ، واعتقادهم أن القتال دين ؛ لأننا حين وجدنا السجستاني والحراساني والجزري واليمامي والمصري والعماني ، والأزرق مني والتجدي والإباضي والصفري ، والمولى والعربي ، والعجمي والأعرابي ، والعبيد والنساء ، والحائك والفلاح ، كلهم يقاتل مع اختلاف الأنساب وتباين البلدان - علمنا أن الديانة هي التي سوت بينهم ، ووفقت بينهم في ذلك . كما أن كل حجاج في الأرض من أي جنس كان ، ومن أي بلد كان ، فهو يجب النيذ ، وكما أن أصحاب الخلقان والسماكين والنخاسين والحائكة في كل بلد من كل جنس ، شزار خلق الله في المباينة والمعاملة . فعلمنا بذلك أن ذلك خلقة في هذه الصناعات ، وبنية في هذه التجارات ، حين صاروا من بين جميع الناس كذلك .

قال : ورأينا التركي في بلاده ليس يقاتل على دين ولا على تأويل ، ولا على ملك ولا على خراج ، ولا على عصبية ولا على غيرة دون الحرمة والمحرم ، ولا على حية ولا على عداوة ، ولا على وطن ومنع دار ولا مال ؛ وإنما يقاتل على السلب والخيار في يده . وليس يخاف الوعيد إن هرب ، ولا يرجو الوعد إن أبى عذراً . وكذلك هم في بلادهم وغاراتهم وحروبهم . وهو الطالب غير المطلوب ؛ ومن كان كذلك فإنما يأخذ العفو من قوته ، ولا يحتاج إلى [مجهوده] . ثم هو مع ذلك لا يقوم له شية ولا يطمع فيه أحد ، فما ظنك بمن هذه صفته أن لو اضطره إخراج أو غيرة أو غضب أو تدبير ، أو

عَرَضَ لَهُ بَعْضُ مَا يَصْحَبُ الْمُقَاتِلَ الْمُحَامِيَ مِنَ الْعِلَلِ وَالْأَسْبَابِ .

قال : وقناة الخارجي طويلة صماء ، وقناة التركي مطرزة أجوف . والقني المجوفة القصار أشد طعنة وأخف في المحمل . والعجم تجعل القني الطوال للرجال ، وهي قني الأبناء ، على أبواب الخنادق والمضايق . والأبناء في هذا الباب لا يجرون مع الأتراك والخراسانية ، لأن الغالب على الأبناء المطاعنة على أبواب الخنادق وفي المضايق ، وهؤلاء أصحاب الخيل والفرسان وعلى الخيل والفرسان تدور الجيوش ، لهم الكر والفر . والفراس هو الذي يطوي الجيش طي السجل ، ويفرقهم تفريق الشعر . وليس يكون الكمين إلا منهم ولا الطليعة ولا الساقة . وهم أصحاب الأيام المذكورة والحروب الكبار والفتوح العظام ، ولا تكون المقانب والكتائب إلا منهم . ومنهم من يحمل البود والرايات ، والطبول والتجايف والاجراس . وهم أصحاب الصهيل والقتام ، وزجر الخيل ، وقمعة الريح في الثياب والسلاح ووقع الخوافر ، والإدراك إذا طلبوا ، والغوث إذا طلبوا . ولم يجعل النبي صلى الله عليه وسلم للفراس سهمين وللراجل من المقاتلة سهماً واحداً إلا لتضعيف الرد في القتل والفتوح ، والنهبة والمغانم .

ثم قال : ولعمري إن للأبناء من القتال في السكك والسجون والمضايق ما ليس لغيرهم . ولكن الرجالة أبداً أتباع ومأمورون ومنقادون ، وقائد الرجالة لا يكون [إلا] فارساً ، وقائد الفرسان من الممتنع أن يكون راجلاً . ومن تعود الطعان والضرب والرمي ركباً إن اضطر إلى الطعن والضرب والرمي راجلاً كان على ذلك أدفع عن نفسه ، وأرد عن أصحابه ، من الراجل إذا احتاج أن يستعمل سلاحه فارساً . وعلى أنه ما أكثر ما ينزلون ويقاتلون . وقد قال الشاعر :

لم يُطيقوا أن ينزلوا ونزلنا وأخو الحرب من أطلاق النزولا

وقال الضبي :

• وَعَلَامَ أَرْكَبُهُ إِذَا لَمْ أَنْزِلِ •

وقال آخر :

• فمعانقُ ومنازلُ •

وقال حميد : وليس في الأرض قومٌ إلا والتساندُ في الحروب ، والاشتراك في الرِّياسة ضارُّ لهم ، إلا الأتراك . على أن الأتراك لا يتساندون ولا يتشاركون ؛ وذلك أن الذي يُكره من المساندة والمشاركة اختلافُ الرأي ، والتنافس في السرِّ ، والتحاسد بين الأشكال ، والتواكل فيما بين المشتركين .

والأتراك إذا صافوا جيشاً إن كان في القوم موضع عورة فكلهم قد ابصرها وعرفها ؛ وإن لم تكن هناك عورة ولم يكن فيهم مطمع ، وكان الرأي الانصراف ، فكلهم قد رأى ذلك الرأي وعرف الصواب فيه . وخواطرمهم واحدة ، ودواعيهم مستوية بإقبالهم معاً . وليس هم أصحاب تأويلات ولا أصحاب تفاخر وتناشد ، وإنما شأنهم إحكام أمرهم ؛ فالاختلاف يقلُّ بينهم . وكانت الفرس تعيب العرب إذا خرجوا إلى الحرب متساندين ، وكانت تقول : الاشتراك في الحرب وفي الزوجة وفي الإمرة سواء .

وقال حميد : فما ظنك بقومٍ إذا تساندوا لم يضرهم التساند ، فكيف يكونون إذا تحاسدوا .

فلما انتهى الخبر إلى المأمون قال : لست بالترك حاجة إلى حكم حاكم بعد حميد ؛ فإن حميداً قد مارس الفريقين ، وحميد خراساني وحميد عربي ، فليس للثمة عليه طريق .

قالوا : وأى الخبر ذا اليمينين طاهر بن الحسين فقال : ما أحسن ما قال حميد . أما إنه لم يقصر ولم يفرط .

فهذا قول الخليفة المأمون ، وحكم حميد ، وتصويب طاهر .

وخبّرني رجلٌ من أهل خراسان أو من بني سدوس قال : سمعت أبا البطّ يقول : ويلكم ، كيف أصنع بفارسٍ يملاً فروج دابّته منحدرًا من جبيل ، أو مُصعِدًا في مقطعٍ عقير ، ويمكنه على ظهر الفرس ما لا يمكن الرقاص الأبلبيّ على ظهر الأرض .

قال : وقال سعيد بن عُقبة بن سَلَم الهنائيّ ، وكان ذا رأيٍ في الحرب وابن ذي رأيٍ فيها : فرّق ما بيننا وبين التُّرك أن التُّرك لم تغزُ قومًا قطّ ، ولا صافّت جيشًا ولا هجّمت على عدوّ كانوا عرباً أو عجمياً ، فأخرجوا إليهم أعدادهم ولقّوهم بمثلهم . وليس غايتهم إلا أن ينقادوا ليكفّوا عنهم بأسهم ومعرّتهم ، ويصرفوا عنهم كيدهم . فإن هم امتنعوا من الصلح واعتزموا إلى الحرب فليس شأنهم والسذي يدور عليه أمرهم إلا منع أنفسهم وتخصّصين عسكرهم ، والاحتراس منهم . فأما أن ترقى همّهم وتسمو أنفسهم إلى الاحتيال عليهم ، والتماس غرّتهم ، فإنّ هذا شيءٌ لا يخطر على بالٍ من يجارهم .

ثم قال : وقد عرفتم حيلهم في دخول المدن من جهة جيطانها المضمّنة العريضة ، وحيلتهم في عبور نهر بلخ .
وسعيدٌ هذا هو الذي قال : إذا حاربتم وكنتم ثلاثة فاجعلوا واحداً مدداً ، وآخر كميناً . وله كلامٌ في الحرب غير هذا كثير .

قال سعيد : وأخبرني أبي قال : شهدت أبا الخطاب يزيد بن قتادة بن دعامة الفقيه ، وذكر قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في التُّرك حيث قال : « عدوّ شديدٌ طلبه ، قليلٌ سلّبه » ، فقال رجلٌ من العالقة : نهى عمرُ أبا زُبَيْد الطائيّ عن وصف الأسد ، لأن ذلك مما يزيد في رُعب الجنان ، وفي هول الجنان ، ويُقلّ من رُعب الشجاع ، وقد وُصِف التُّرك بأشدّ من وصف أبي زُبَيْد الأسد .

وقال سعيد في حديثه يومئذ ، وقد قطعتُ شِرْذِمَةَ منهم بلادَ أبي خزيمة - يُريدُ حمزة بن أدرك الحارِجيّ - وما والى خراسان [في] بعض الأمر ، وحمزة في

مُعظم الناس ، فقال لأصحابه : أفرجوا لهم ما تركوكم ، ولا تتعرضوا لهم ؛ فإنه قد قيل : « تاركوهم ما تاركوكم » .

فهذا قول سعيد بن عقبة ورأيه وحديثه ؛ وهو عربي خراساني

وذكر يزيد بن مزيّد الوقعة التي قتل فيها يولبا التركيّ الوليد بن طريف الخارجي ، فقال في بعض ما يصف من شأن التُّرك : ليس لبدن التُّركي على ظهر الدابة ثقل ، ولا لمشيّه على الأرض وقع ، وإنه ليرى وهو مدبرٌ ما لا يرى الفارسُ منا وهو مُقبل . وهو يرى الفارسَ منا صيداً ويعدُّ نفسه قهداً ، ويُعدُّه ظيأً ويعدُّ نفسه كلباً . والله لو رُميَ به في قعر بشر مكتوفاً لما أعجزته الحيلة ؟ ولولا أن أعمار عامتهم تقصرُ دون الجبل - يعني جبل حلوان - ثم هموا بنا ، لألقوا لنا شغلاً طويلاً .

وأنشد رجلٌ من أصحابه :

هَبِ الدنْيَا تُسَاقُ إِلَيْكَ عَفْوَاً أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَاكَ إِلَى زَوَالِ

قال : أما التُّركي فلأن ينال الكفاف غصباً أحبُّ إليه من أن ينال الملك عفواً . ولم يتهنُّ تركي بطعامٍ إلا أن يكون صيداً أو مغنماً ، ولا يُعزُّ على ظهر دابته طالباً كان أو مطلوباً .

وقال ثمامة بن أشرس ، وكان مثل عمُد بن الجهم في كثرة ذكوره للتُّرك . قال ثمامة : التُّركي لا يخاف إلا مخوفاً ولا يطمع في غير مطمع ، ولا يكفه عن الطُّلب إلا اليأسُ صرفاً ، ولا يدع القليل حتى يصيب أكثر منه ، وإن قدر أن يجمعها لم يفرط في واحدٍ منها . والباب الذي لا يُحسنه لا يُحسن منه شيئاً ، والباب الذي يُحسنه قد أحكمه بأسره وأمره وخفيّه عنده كظاهرة ، ولا يتشاغل بشيءٍ ليس فيه شيء ، ولا على نفسه من شيء . فلولا أن يُجمُّ نفسه بالنوم لما نام ، على إن نومه مشوبٌ باليقظة ، ويقظته سليمة من الوَسْنة . ولو كان في شِقْهم أنبياء ، وفي أرضهم حُكماء ، وكانت هذه الخواطرُ قد مرّت على قلوبهم ، وقرعت أسماعهم ، لأنسوك أدب البصريين ، ونِحكمة اليونانيين ، وصنعة أهل

الصَّين .

وقال ثمامة : عَرَضَ لَنَا فِي طَرِيقِ خُرَاسَانَ تَرْكِيٌّ وَمَعَنَا قَائِدٌ يَصُولُ بِنَفْسِهِ وَرِجَالَهُ ، وَبَيْنَنَا وَبَيْنَ التَّرْكِيِّ وَايٌ ، فَسَأَلَهُ أَنْ يَبَارِزَهُ فَارْسٌ مِنَ الْقَوْمِ ، فَأَخْرَجَ لَهُ رَجُلًا لَمْ أَرِ قَطُّ أَكْمَلَ مِنْهُ ، وَلَا أَحْسَنَ تَمَامًا وَقَوَامًا مِنْهُ ، فَاحْتَالَ حَتَّى عَبَرَ إِلَيْهِمُ الْفَارِسَ ، فَتَجَاوَلَا سَاعَةً ، وَلَا نَظَنُّ إِلَّا أَنْ صَاحِبِنَا يَبْقَى بِأَضْعَافِهِ ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَتْبَاعِدُ عَنَّا . فَبَيْنَا هُمَا فِي ذَلِكَ إِذْ وُلِيَ عَنْهُ التُّرْكِيُّ كَالهَارِبِ مِنْهُ ، وَفَعَلَ ذَلِكَ فِي مَوْضِعٍ ظَنَنَّا أَنْ صَاحِبِنَا قَدْ ظَهَرَ عَلَيْهِ ، وَأَتْبَعَهُ الْفَارِسُ لَا نَشْكُ إِلَّا أَنَّهُ سَيَأْتِينَا بِرَأْسِهِ ، أَوْ يَأْتِينَا بِهِ مَجْنُوبًا إِلَى فَرَسِهِ ، [فَلَمْ نَشْعُرْ] إِلَّا وَصَاحِبِنَا قَدْ أَفْلَتَ عَنْ فَرَسِهِ وَغَابَ عَنْهُ ، فَتَزَلَّ التَّرْكِيُّ إِلَيْهِ فَأَخَذَ سَلْبَهُ وَقَتَلَهُ ، ثُمَّ عَارَضَ فَرَسَهُ فَجَنِبَهُ إِلَيْهِ مَعَهُ .

قال ثمامة : ثُمَّ رَأَيْتُ بَعْدَ ذَلِكَ التَّرْكِيَّ قَدْ جِيءَ بِهِ أَسِيرًا إِلَى دَارِ الْفَضْلِ ابْنِ سَهْلٍ ، فَقُلْتُ لَهُ : كَيْفَ صَنَعْتَ يَوْمَئِذٍ ، وَكَيْفَ طَاوَلْتَهُ ثُمَّ عَلَاكَ ثُمَّ وَلِيَتْ عَنْهُ هَارِبًا ثُمَّ قَتَلْتَهُ ؟ قَالَ : أَمَا إِنِّي لَوِشَّتُ أَنْ أَقْتُلَهُ حِينَ عَبَرَ ؛ وَقَدْ كَانَ مَقْتَلُهُ بَارِزًا لِي ، وَلَكِنِّي احْتَلْتُ عَلَيْهِ حَتَّى نَحَيْتُهُ عَنْ أَصْحَابِهِ لِأَجُوزِهِ ، فَلَا يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَ فَرَسِهِ وَسَلْبِهِ .

قال ثمامة : وَإِذَا هُوَ يُدِيرُ الْفَارِسَ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ وَيُرِيغُهُ كَيْفَ شَاءَ وَأَحَبُّ .

قال ثمامة : وَقَدْ غُبِّرَتْ فِي أَيْدِيهِمْ أَسِيرًا فَمَا رَأَيْتُ كِلَاكِرَامِهِمْ وَتُحْفِهِمْ وَالطَّافِهِمْ .

فهذا ثمامة بن اشرس ، وهو عربي لا يُتهم في الإخبار عنهم .

وأنا أخبرك أني قد رأيت منهم شيئاً عجيباً وأمرأ غريباً : رأيت في بعض غزوات المأمون بسماطي خيل على جنبي الطريق بقرب المنزل ، مائة فارس من الأتراك في الجانب الأيمن ، ومائة من سائر الناس في الجانب الأيسر ، وإذا هم قد اصطفوا ينتظرون مجيء المأمون ، وقد انتصف النهار واشتد الحر . فورد عليهم

وجمَّع الأتراك جلوسٌ على ظُهُور خيولهم إلا ثلاثة أو أربعة ، وجميع تلك
الأخلاق من الجند قد رَمَوْا بنفوسهم الى الأرض إلا ثلاثة أو أربعة . فقلت
لصاحب لي : انظر أيُّ شيء اتَّفَق لنا . أشهد أن المعتصم كان أعرف بهم حين
جمَّعهم واصطنعهم .

وأردتُ مرةً القاطولَ - وهي المباركة - وأنا خارجٌ من بغداد ، وأرى فوارسَ
من أهل خراسان والأبناء وغيرهم من أصناف الجند ، قد عازَّ لهم فرس ، وهم
على خيلٍ عتاقٍ يريغونه فلا يقدرُون على أخذه ، ومرَّ تركيٌّ ولم يكن من ذوي
هياتهم وذوي القدرِ منهم ، وهو على بِردونٍ له خسيس ، وهم على الخيول
المطهَّمة ، فاعترض الفرسَ اعتراضاً ، وقتله قتلاً وجيئاً ، وأتاه من زجره شيء ،
فوقف أولئك الجندُ وصارُوا نظارةً ، فقال بعضهم من كان يُزري على ذلك
التركيِّ : هذا وأبيك التكلُّف والتعرُّض : أن فرساً قد أعجزهم وهم أسد
البلاد ، وجاء هذا مع قصر قامته وضمف دابته ، فطمَّع أن يأخذه . فما انقضى
كلامه حتَّى أقبل به ثمَّ سلَّمه إليهم ومضى لطلبينه ، لم ينتظر ثناءهم ولا دُعاهم ،
ولا أراهم أنه قد صنع شيئاً ، أو أن إليهم معروفاً .

والأتراك قومٌ لا يعرفون الملق ولا الحلاية ، ولا التفاق ولا السَّاية ، ولا
التصنُّع ولا التَّميمة ولا الرِّياء ، ولا البَذخ على الأولياء ، ولا البغي على
الخلطاء ، ولا يعرفون البِدع ، ولم تُفسدْهم الأهواء ، ولا يستحلُّون الأموال على
التأوُّل ، وإنما كان غيبتهم ، والذي يُوجش منهم ، الحنين إلى الأوطان ، وحبُّ
التقلُّب في البلدان ، والصُّبابة بالفارات ، والشُّغف بالنَّهب ، وشدة الإلف
للعادة ، مع ما كانوا يتذكرون من سُرور الظفر وتتابعه ، وحرارة المغنم وكثرته ،
وملاعبتهم في تلك الصُّحاري ، وتردُّدهم في تلك المروج ، وألَّا يذهب بطول
الفراغ فضلُ نجدتهم باطلاً ، ويصير خدُّهم على طول الأيام قليلاً .

ومن خَلق شيئاً لم يصبر عنه ، ومن كره أمراً فرَّ منه .

- وإنما خُصُّوا بالحنين من بين جميع العجم لأنَّ في تركيبهم وإخلاقهم طبائعهم

من تركيب بلدهم وتربيتهم ، ومشاكله مياهم ومناسبة إخوانهم ، ما ليس مع أحد سواهم ، ألا ترى أنك ترى البصري فلا تدري أبصري هو أم كوفي ، وترى المكّي فلا تدري أمكّي هو أم مدني . وترى الجبلي فلا تدري أجبلي هو أم خراساني ، وترى الجزري فلا تدري أجزري هو أم شامي . وأنت لا تغلظ في التركي ، ولا تحتاج فيه إلى قيافة ولا إلى فِراسة ، ولا إلى مُساءلة . ونساؤهم كرجالهم ، ودوابهم تركيّة مثلهم .

وهكذا طبع الله تلك البلدة ، وقسم لتلك التربة . وجميع دُور الدنيا ونشؤها إلى منتهى قواها ومدّة أجلها ، جارية على عللها ، وعلى مقدار أسبابها ، على قدر ما خصّها الله تعالى به وأبانها ، وجعل فيها . فإذا صاروا إلى دار الجزاء ، فهي كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴾ .

وكذلك ترى أبناء العرب والأعراب الذين نزلوا خراسان ، لا تفصل بين من نزل أبوه بفرغانة وبين أهل فرغانة ، ولا ترى بينهم فرقا في السبيل الصّهب والجلود القثيرة ، والأقفاء العظيمة ، والأكسية الفرغانية . وكذلك جميع تلك الأرباع ، لا تفصل بين أبناء النازلة وبين أبناء النابتة .

ومحبّة الوطن شيء شامل لجميع الناس ، وغالب على جميع الجيرة . ولكن ذاك في التُّرك أغلب ، وفيها أرسخ ؛ لما معها من خاصّة المشاكلة والمناسبة ، واستواء الشبّه ، ونكافي التركيب . ألا ترى أن العبيدي يقول : « عمّر الله البلدان بحبّ الأوطان » ، وأن ابن الزبير قال : « ليس الناس بشيء من أقسامهم أقنع منهم بأوطانهم » ، وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : « لولا ما لولا تفرّق أهواء العباد لما عمّر الله البلاد » ، وأن جُمعة الإيادية قالت : « لولا ما أوصى الله به العباد من قفر البلاد ، لما وسّعهم وادّ ولا كفاهم زاد » .

وذكر قتيبة بن مسلم التُّرك فقال : « هم والله أحنّ من الإبل المعقّلة إلى أوطانها » ؛ لأنّ البعير يحنّ إلى وطنه وعطنه ، وهو بعمان ، من ظهر البصرة ، فهو يحبّ كل شيء ويستبطن كل وادّ ، حتى يأتي مكانه ؛ على أنه طريق لم يسلكه إلا

مرة واحدة ، فلا يزال بالشَّم والاسْتِرواح وحسن الاستدلال ، وبالطبيعة
المخصوص بها حتى يأتي مَبْرَكُه ، على بُعد ما بين عُمان والبصرة .

فلذلك ضربَ به قتيبة المثل .

والشُّعُ على الوطن [والحنين إليه] ، والصُّبابية به ، مذكورة في القرآن ،
مخطوطة في [الصُّحف بين] جميع الناس . غير أن التركيُّ للعلل التي ذكرناها
أشدَّ حنيناً وأكثرُ نزوعاً .

وباب آخر ، مما كان يدعُوهم إلى الرجوع قبل العزم الثابت ، والعادة
المنقوضة : وذلك أن التُّرك قومٌ يشتدُّ عليهم الحَصْرُ [والجُشوم] ، وطول اللَّيْث
والمُكث ، وقلة التصرُّف والتحرُّك ، وأصلُ بنيتهم إنما وُضِعَ على الحركة ، وليس
للسكون فيها نصيب ، وفي قُوى أنفسهم فضلٌ على قُوى أبدانهم ، وهم
أصحاب توقُّد وحرارة واشتعال وفطنة ، كثيرة خواطرهم ، سريع لحظهم ، وكانوا
يرون الكفاية معجزةً ، وطول المُقام ببلادهم ، والراحة عُقْلةً ، والقناعة من قصر
الهِمة ، وأن تَرَكَ الغزو يُورث الذلَّة .

مركز حياكة كويت بئر طوم راسمي

وقد قالت العرب في مثل ذلك : قال عبد الله بن وهب الراسبي : « حب
المُؤينا يُكسب النَّصَب » . والعرب تقول : « من غلا دماغه في الصَّيف غَلَّتْ
قِذْرُه في الشُّتاء » . وقال أكنم بن صيفي : « ما أحبُّ أني مكفي كلُّ أمرٍ
الدنيا » . قيل : ولم ؟ قال : « أخاف العجز » .

فهذه كانت عِللُ التُّرك في حبِّ الرجوع والحنين إلى الوطن .

ومن أعظم ما كان يدعُوهم إلى الشُّرودِ وبيعهم على الرجوع ، ويكره
عندهم المُقام ، ما كانوا فيه من جهل قُوادهم بأقذارهم ، وقلة معرفتهم
بأخطارهم ، وإغفالهم موضع الرُّد عليهم والانفتاح بهم ، حتى جعلوهم أسوة
أجنادهم ، ولم يقنعوا أن يكونوا في الحاشية والحشوة ، وفي غمار العامة ومن
عُرِض العساكر ، وأنفوا من ذلك لأنفسهم ، وذكروا ما يجب لهم ، ورأوا أن

الضُّمَيْمَ لا يُلِيقُ بِهِمْ ، وَأَنَّ الْحَمْسُولَ لا يَجُوزُ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَّهُمْ فِي الْمَقَامِ عَلَى مَنْ لا يَعْرِفُ حَقَّهُمْ أَلْوَمٌ مِمَّنْ مَنَعَهُمْ حَقَّهُمْ ، فَلَمَّا صَادَفُوا مَلِكاً حَكِيماً ، وَبِأَقْدَارِ النَّاسِ عَلَيْهِمَا ، لا يَمِيلُ إِلَى [سَوْءٍ] عَادَةٍ وَلا يَجْنَحُ إِلَى هَوَى ، وَلا يَتَعَصَّبُ لِبَلَدٍ عَلَى بَلَدٍ ، يَدُورُ مَعَ التَّدْبِيرِ حَيْثَمَا دَارَ ، وَيَقِيمُ مَعَ الْحَقِّ حَيْثَمَا أَقَامَ ، أَقَامُوا إِقَامَةً مَنْ قَدْ فَهِمَ الْحِفْظَ ، وَدَانَ بِالْحَقِّ وَبَنَدَ الْعَادَةَ ، وَأَثَرَ الْحَقِيقَةَ ، وَرَحَلَ نَفْسَهُ لِقَطِيعَةِ وَطَنِهِ ، وَأَثَرَ الْإِمَامَةَ عَلَى مُلْكِ الْجَبْرِيتَةِ ، وَاخْتَارَ الصُّوَابَ عَلَى الْإِثْفِ .

[١٦ - مقارنة الأمم]

ثُمَّ اعْلَمْ بَعْدَ هَذَا كُلَّهُ أَنَّ كُلَّ أُمَّةٍ وَقَرْنٍ ، وَكُلَّ جَيْلٍ وَبَنِي أَبِي وَجَدْتَهُمْ قَدْ بَرَعُوا فِي الصَّنَاعَاتِ ، وَفَضَّلُوا النَّاسَ فِي الْبَيَانِ ، أَوْ فَاقَوْهُمْ فِي الْأَدَابِ ، وَفِي تَأْسِيسِ الْمُلْكِ ، وَفِي الْبَصْرِ بِالْحَرْبِ ، فَإِنَّكَ لا تَجِدُهُمْ فِي الْغَايَةِ وَفِي أَقْصَى النِّهَايَةِ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ اللهُ قَدْ سَخَّرَهُمْ لِذَلِكَ الْمَعْنَى بِالْأَسْبَابِ ، [وَتَقْصِرُهُمْ] عَلَيْهِ بِالْعِلَلِ الَّتِي تَقَابِلُ تِلْكَ الْأُمُورَ ، وَتَصْلُحُ لِتِلْكَ الْمَعَايِنِ ، لِأَنَّ مَنْ كَانَ مُتَقَسِّمًا الْهَوَى ، مُشْتَرِكًا الرَّأْيِ ، وَمُتَشَعِّبًا النَّفْسَ ، غَيْرَ مُوَفَّرٍ عَلَى ذَلِكَ الشَّيْءِ وَلا مُهَيِّئًا لَهُ ، لَمْ يَخْلُقْ مِنْ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ [شَيْئاً] بِأَسْرِهِ ، وَلَمْ يَبْلُغْ فِيهِ غَايَتَهُ ، كَأَهْلِ الصِّينِ فِي الصَّنَاعَاتِ ، وَالْيُونَانِيِّينَ فِي الْحِكْمِ وَالْأَدَابِ ، وَالْعَرَبِ فِيمَا نَحْنُ فِيهِ ذَاكِرُوهُ فِي مَوْضِعِهِ ، وَآلِ سَاسَانَ فِي الْمُلْكِ ، وَالْأَتْرَاكِ فِي الْحُرُوبِ . أَلَا تَرَى أَنَّ الْيُونَانِيِّينَ الَّذِينَ نَظَرُوا فِي الْعِلَلِ لَمْ يَكُونُوا تِجَّاراً وَلا صُنَّاعاً بِأَكْفَهُمْ ، وَلا أَصْحَابَ زَرْعٍ وَلا فِلاحةٍ وَبِنَاءٍ وَغَرْسٍ ، وَلا أَصْحَابَ جَمْعٍ وَمَنْعٍ ، وَجِرْصٍ وَكَدِّ ، وَكَانَتِ الْمُلُوكُ تَفَرُّغُهُمْ ، وَتُجْمَرُ عَلَيْهِمْ كِفَايَتُهُمْ ، فَنَظَرُوا حِينَ نَظَرُوا بِأَنْفُسِهِمْ مَجْتَمِعَةً ، وَقُوَّةً وَافِرَةً ، وَأَذْهَانَ فَارِغَةً ، حَتَّى اسْتَخْرَجُوا الْأَلَاتِ وَالْأَدَوَاتِ ، وَالْمَسْلَاهِمِ الَّتِي تَكُونُ جَمَاساً لِلنَّفْسِ ، وَرَاحَةً بَعْدَ الْكَدِّ ، وَسُرُوراً بِدَاوِي قَرْحِ الْهَمُومِ ، فَصَنَعُوا مِنَ الْمِرْفَاقِ ، وَصَاغُوا مِنَ الْمَنَافِعِ كَالْقَرِصَطُونَاتِ ، وَالقَبَانَاتِ ، وَالْأَسْطَرلابَاتِ ، وَآلَةِ السَّاعَاتِ ، وَالْكَالْكُونِيَا وَالْكَشِيزَانَ وَالْبِرْكَارَ وَكَأَصْنَافِ الْمَزَامِيرِ وَالْمَعَازِفِ ، وَكَالطَّبِّ وَالْحِسَابِ وَالْهَنْدَسَةِ وَاللُّعُونَ ، وَأَلَاتِ الْحَرْبِ كَالْمَجَانِيْقِ ، وَالغُرَادَاتِ ،

والرُّبيلات ، والدُّبَابات ، وآلة النَّقَاط ، وغير ذلك مما يطول ذكره .

وكانوا أصحابَ حكمة ولم يكونوا فَعَلَةً ؛ يصوِّرون الآلة ، ويخترطون
الأداة ، ويصوغون المثل ولا يُحسنون العملَ بها ، ويشيرون إليها ولا يمُسونها ،
ويرغَّبون في العلم ويرغَّبون عن العمل .

فأما سُكَّان الصين فهم أصحاب السُّبُك والصِّيَاغَة ، والإفراغ والإذابة
والأصباغ العجيبة ، وأصحاب الخَرْط والنَّحت والتصاوير ، والنسخ والخط ،
ورفق الكفِّ في كلِّ شيء يتولَّونه ويُعائنونه ، وإن اختلفت جواهره ، وتباينت
صنعته ، وتفاوتت ثمنه .

والسُّونانيون يعرفون الفلك ، لأن أولئك حكماء وهؤلاء فَعَلَةٌ . وكذلك
العرب ، لم يكونوا تجَّاراً ولا صنَّاعاً ، ولا أطباءً ولا حُساباً ، ولا أصحابَ فِلاحة
فيكونون مهنة ، ولا أصحابَ زرع ، لحسبهم من صَفَّار الجِزْيَةِ . ولم يكونوا
أصحاب جمعٍ وكسب ، ولا أصحابَ الحِمْيَرِ لما في أيديهم وطلب ما عند
غيرهم ، ولا طلبوا المعاشَ من السنة الموازين ورؤوس المكاييل ، [ولا عرفوا
الدُّوانيق والقراريط ، ولم يفتقروا الفِقر المدقع الذي يشغل عن المعرفة] ، ولم
يستغنوا الغنى الذي يورث البُلْدَةَ ، والثروة التي تحدث الغرَّة ، ولم يهتموا ذُلًّا قطُّ
فِيمِيتِ قلوبهم ويصغُر عندهم أنفسهم . وكانوا سكانَ فيافٍ وتربية العرَّاء ، لا
يعرفون الغَمَقَ ولا اللَنَقَ ، ولا البُخارَ ولا الغِلْظَ ولا العَفْنَ ، ولا التَّخْمَ . أذهان
جداد ، ونفوسٌ منكورة ، فحين حملوا حُدُومَهم ووجَّهوا قواهم لقول الشعر وبلاغة
المنطق ، وتشقيق اللغة وتصاريف الكلام ، بعد قيافة الأثر وحفظ النسب ،
والاهتداء بالنجوم ، والاستدلال بالآفاق ، وتعرُّف الأنواء ، والبصر بالحليل
والسَّلاح وآلة الحرب ، والحفظ لكلِّ مسموعٍ والاعتبار بكلِّ محسوسٍ ، وإحكام
شأن المثالب والمنائب ، بلَغُوا في ذلك الغاية ، وحازوا كلَّ أمنيَّةٍ . وبعض هذه
العمل صارت نفوسهم أكبر ، وهمهم أرفع من جميع الأمم وأفخر ، ولأيامهم
أحفظ وأذكر .

وكذلك الترك أصحاب عمَد وسُكَّان فيافٍ وأرباب مواشٍ ، وهم أعراب العَجَم كما أن هذيلًا أكراد العَرَب . فحين لم تشغلهم الصناعات والتجارات ، والطبُّ والفِلاحة والهندسة ؛ ولا غرسٌ ولا بُنيانٌ ، ولا شقُّ أنهار ، ولا جباية غلات ، ولم يكن همهم غير الغزو والغارة والصَّيد وركوب الخيل ، ومقارعة الأبطال ، وطلب الغنائم وتدويخ البُلدان ، وكانت همهم إلى ذلك مصروفةً وكانت لهذه المعاني والأسباب مسخرةً ومقصورةً عليها ، وموصولةً بها ، أحكموا ذلك الأمر بأسره ، وأتوا على آخره ، و [صار ذلك هو صناعتهم وتجارتهم ، ولذتهم] وفخرهم ، وحديثهم وسمرهم .

فلما كانوا كذلك صاروا في الحرب كالليونانيين في الحكمة ، وأهل الصين في الصناعات ، والأعراب فيما عددنا ونزلنا ، وكآل ساسان في الملك والرياسة .

ومما يُستدلُّ به على أنهم قد استقصوا هذا الباب واستغرقوه ، وبلغوا أقصى غايته وتعرفوه ، أن السيف إلى أن يتقلده متقلدٌ ، أو يضرب به ضاربٌ ، قد مرَّ على أيدي كثيرة ، وعلى طبقاتٍ من الصُّنَّاع ، كلُّ واحدٍ منهم لا يعمل عملَ صاحبه ، ولا يُحسنه ولا يدعيه ولا يتكلفه ، لأن الذي يذيب حديد السيف ويطبعه ، ويصفِّيه ويهدِّبه ، غير الذي يمده ويمطِّله ؛ والذي يمده ويمطِّله غير الذي يطبعه ويسوي متنه ، ويقيم خشبته ؛ والذي يطبعه ويسوي متنه غير الذي يسقيه ويرهفه ، والذي يرهفه غير الذي يركب قبيعته وستوتق من سيلانه ، والذي يعمل مسامير السيلان و [شاربِي] القبيعة ونصل السيف غير الذي ينحت خشبَ غمده ، والذي ينحت خشبَ غمده غير الذي يدبغ جلده ، والذي يدبغ جلده غير الذي يجلِّيه ، والذي يجلِّيه ويركب نعله غير الذي يحرز هائله . وكذلك الشُّرج ، وحالات السهم والجمعبة والرُمح وجميع السلاح ، مما هو جارحٌ أو جُنَّةٌ .

والتركيُّ يعمل هذا كله لنفسه من ابتدائه إلى غايته ، فلا يستعين برفيق ، ولا يفرِّع فيه إلى صديق ، ولا يختلف إلى صانع ، ولا يشغل قلبه بمطالعه وتسويفه ، وأكاذيب مواعيده ، وبغرم كرائه .

وحين بلغ أوس بن حجر صفة القانص ، وبلغ له الغاية في جمعه لأبواب الكفاية بنفسه ، قال :

قهي مبيت الليل للصيد مُطعم لأسهيمه غارٍ وبارٍ وراصفُ

وليس أنه ليس في الأرض تركي إلا وهو كما وصفنا ، كما أنه ليس كل يوناني حكيمًا ولا كل صيني غايًا في الخلق ، ولا كل أعرابي شاعرًا قائمًا ، ولكن هذه الأمور في هؤلاء أعم وأتم ، وهي فيهم أظهر وأكثر .

قد قلنا في السبب الذي تكاملت به النجدة والفروسيّة في التُّرك دون جميع الأمم ، وفي العلل التي من أجلها انتظموا جميع معاني الحرب ، وهي معانٍ تشتمل على مذاهب غريبة ، وخصالٍ عجيبة .

فمنها : ما يُقضى لأهله بالكرم ويُبغد الهمة وطلب الغاية . ومنها : ما يدلُّ على الأدب السديد والرأي الأصيل ، واللفظة الثاقبة والبصيرة النافذة . [ألا ترى أنه ليس بدُّ لصاحب الحرب من الحلم والعلم ، والحزم والعزم ، والصبر والكتمان ، ومن الثقافة] ، وقلة الغفلة وكثرة التجربة ، ولا بدُّ من البصر بالخيال والسلاح ، [والخبرة] بالرجال وبالبلاد ، والعلم بالمكان والزمان والمكايد ، وبما فيه صلاح هذه الأمور كلها .

والمَلِك يحتاج إلى أواخٍ شدادٍ وأسبابٍ متانٍ ، ومن أتمها سيأ وأعماها نفعاً ما بُتته في نصابه ، وأقره وسكنه في قراره ، وزاد في تمكُّنه وبهائه ، وقطع أسباب المطمعة فيه ، ومنع أيدي البُغاة من الإشارة إليه فضلاً عن البسُّط عليه .

قال : ثم إن التُّرك عطفَتْ على العرب بالمحاجة والمقايسة ، وقالوا : قلتم إن تكن القرابة مما يستحقُّ بالكفاية فنحن أقدمُ في الطاعة والودِّ والمناصحة ، وإن تكن تستحقُّ القرابة فنحن أقربُ قرابةً .

قالوا : والعرب بعد هذا صنفانٍ : عدنان وقحطان . فأما القحطاني فنسبتنا إلى الخلفاء أقرب من نسبتهم ، ونحن أسُّ بهم رحماً ؛ لأن الخليفة من ولد

اسماعيل بن ابراهيم ، دون قحطان وعابر . وولد ابراهيم عليه السلام
اسماعيل ، وأمه هاجر ، وهي قبطية . واسحاق وأمه سارة وهي سريانية .
والسنة الباقون أمهم قطورا بنت مفظون عربية ، من العرب العاربة .

وفي قول القحطانية : إن أمنا أشرف في الحسب إذ كانت عربية . وأربعة
من السنة هم الذين وقعوا بخراسان ، فأولدوا ترك خراسان . فهذا قولنا
للقحطاني .

وأما قولنا للعدناني ، فإبراهيم أبونا ، واسماعيل عمنا ، وقرابتنا من
اسماعيل كقرابتهم .

قال الهيثم بن عدي : قيل لمبارك التركي ، وعنده حماد التركي : إنكم من
مذحج . قال : ومذحج هذا من هوذاك ؟ وما نعرف إلا إبراهيم خليل الله
وأمر المؤمنين .

قال الهيثم : وقد كان سقط إلى بلاد الترك رجل من مذحج فأنسل نسلأ
كثيراً ، ولذلك قال شاعر الشعوية للعرب في قصيدة طويلة :

زعمتم بأن الترك أبناء مذحج وبينكم قرى وبين البرابر
وذنكم نسل ابن ضبة باسل وصوفان أنسال كثير الجرائر

وقال آخر :

متى كانت الأتراك أبناء مذحج إلا إن في الدنيا عجيباً لمن عجب

وقد سمعتم ما جاء في سد بني قطورا وشأن خيولهم بنخل السواد ، وإنما
كان الحديث على وجه التهويل والتخويف بهم لجميع الناس ، فصاروا للإسلام
مادة [و] جنداً كثيراً ، وللخلفاء وقاية وموتلاً وجنة حصينة ، وشعاراً دون
الذئار .

وفي المأثور من الخبر : « تاركوا الترك ما تاركوكم » . وهذه وصية لجميع
العرب ؛ فإن الرأي متاركتنا ومسالمتنا . وما ظنكم بقوم لم يعرض لهم ذو

القرنين . ويقول « اتركوهم » سُموا التُّرك . هذا بعد أن غلب على جميع الأرض
غلبةً وقسراً ، وغنوةً وقهراً .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « هذا عدوٌ شديدٌ كَلْبُه ، قليل
سَلْبِه » . فنهى كما ترى عن التعرُّض لهم ؛ بأحسنِ كناية .

والعربُ إذا ضربت المثلُ في العداوة الشديدة قالوا : ما هم إلا التُّركُ
والدَّيلم .

قال عمّلس بن عقيل بن علفة :

تبدلت منه بعد ما شاب مفرقي عداوة تُركي وبغض أبي جنل

وأبو حنل هو الضَّب . والعرب تقول : « هو أعقُّ من ضَب » : لأنه

يأكل أولاده .

ولم يُرعب قلوبَ أجناد العرب مثل التُّرك . وقال خلفُ الأحمر :

كأنِّي حين أرهنتهم بنبيي دفعتهم إلى صهب السُّبال

قال : وإياهم عنى أوس بن حجر بن سدي

نكبتُها ماءهم لما رأيتهم شهب السُّبال بأيديهم بيسازيرُ

وحدثني إبراهيم بن السُّندي مولى أمير المؤمنين ، وكان عالماً بالدولة ،

شديد الحبِّ لأبناء الدعوة ، وكان يحوط مواليه ويحفظ أيمانهم ، ويدعو الناس إلى

طاعتهم ، ويدرسهم منقابهم ، وكان فخم المعاني فخم الألفاظ ، لو قلت لسأته

كان أَرْدُ على هذا المُلْك من عشرة آلاف سيفٍ شهير ، وبنانٍ طَيرٍ ، لكان ذلك

قولاً ومذنباً .

قال : حدثني عبد الملك بن صالح ، عن أبيه صالح بن علي ، أن خاقان

ملك التُّرك واقف مرة الجنيد بن عبد الرحمن أمير خراسان ، وقد كان الجنيد هالهُ

أمره ، وافزعه شأنه ، وتعاظمه جُوعه وجمعه ، ويَبيلُ به ، وفطن به خاقان وعرف

ما قد وقع فيه ، فأرسل إليه :

«إني لم أقف هذا الموقف وأمسك هذا الإمساك وأنا أريد مكروهاً ، فلا تُرغ . ولو كنت أريد غلبةً أو مكروهاً لقد كنت انتسفتُ عسكرك انتسافاً أعجلك فيه عن الروية وقد أبصرتُ موضعَ العورة . ولولا أن تعرفَ هذه المكيدة فتعود بها على غيري من الأتراك ، لعرفتُك موضعَ الانتشار والخلل والخطأ في عسكرك وتعبيتك . وقد بلغني أنك رجلٌ عاقل ، وأن لك شرفاً في بيتك وفضلاً في نفسك ، وعلماً بدينك ، وقد أحببت أن أسأل عن شيءٍ من أحكامكم لأعرف به مذهبكم ، فاخرجُ إليّ في خاصّبتك لأخرج إليك وحدي ، وأسألك عما احتاج إليه بنفسي . ولا تحتفل ولا تحترس ؛ فليس مثلي من غدر ، وليس مثلي يؤمن من نفسه ، ومن مكره وكيده ، ثم ينكث بوعده . ونحن قومٌ لا نخدع بالعمل ، ولا نستحسن الخديعة إلا في الحرب ، ولو استقام أمر الحرب بغير خديعة لما جوزنا ذلك لأنفسنا .»

فأبى الجنيّد أن يُخرج إليه إلا وحده ، ففصلا من الصُوف . وقال : سأل عما أحببت ، فإن كان عندي جوابٌ أرضاه أجبتك ، وإلا أشرتُ عليك بمن هو أبصر بذلك مني .

مركز تحقيقات كويتية للدراسات والبحوث

قال : ما حكمكم في الزاني ؟

قال الجنيّد : الزاني عندنا رجلان : رجلٌ دفعنا إليه امرأةً تُغنيه عن حُرْم الناس ، وتكفّه عن حُرْم الجيران ؛ ورجلٌ لم نُعطه ذلك ، ولم نُحلّ بينه وبين أن يفعل ذلك لنفسه . فأما الذي لا زوجة له فإننا نجلده مائة جلدة ونُحضر ذلك الجماعة من الناس لنشهره ونحذره به ، ونغرّبه في البلدان لنزيد في شهرته وفي التحذير منه ، ولينزجر بذلك كلُّ من كان يهْمُ بمثل عمله . فأما الذي قد [أغنياه] فإننا نرجمه بالجندل حتى نقتله .

قال : حسن جميل ، وتدبير كبير ، فما قولكم في الذي يقيف عفيفاً بالزنى ؟

قال : يجلد ثمانين جلدة ، ولا نقبل له شهادة ، ولا نُصدّق له حديثاً .

قال : حَسَنٌ جَمِيلٌ ، وَتَدْبِيرٌ كَبِيرٌ ، فَمَا حُكْمُكُمْ فِي السَّارِقِ ؟

قال : السَّارِقُ عِنْدَنَا رَجُلَانِ : رَجُلٌ يَحْتَالُ لِمَا قَدْ أَحْرَزَهُ النَّاسُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَتَّى يَأْخُذَهَا بِتَنْقَبِ حَيْطَانِهِمْ وَيَتَسَلَّقُ مِنْ أَعَالِي دُورِهِمْ ، فَهَذَا نَقَطَعَ يَدَهُ الَّتِي سَرَقَ بِهَا ، وَتَنْقَبَ بِهَا ، وَاعْتَمَدَ عَلَيْهَا . وَرَجُلٌ آخَرٌ يُخَيِّفُ السَّبِيلَ ، وَيَقَطَعُ الطَّرِيقَ ، وَيَكَايِدُ عَلَى الْأَمْوَالِ ، وَيَشْهَرُ السُّلَاحَ فَلِئِنْ مَنَعَهُ صَاحِبُ الْمَتَاعِ قَتَلَهُ ، فَهَذَا نَقَتَلَهُ وَنَصَلِيهِ عَلَى الْمَنَاهِجِ وَالطَّرِيقِ .

قال : حَسَنٌ جَمِيلٌ ، وَتَدْبِيرٌ كَبِيرٌ . قال : فَمَا حُكْمُكُمْ فِي الْغَاصِبِ وَالْمُسْتَلَبِ ؟

قال : كُلُّ مَا فِيهِ الشُّبُهَةُ وَيَجُوزُ فِيهِ الْغَلَطُ وَالْوُجُوهُ ، كَالْغَضَبِ وَالِاسْتِلَابِ ، وَالْجَنَائِيَةِ ، وَالسَّرِقَةِ لِمَا يُؤْكَلُ أَوْ يُشْرَبُ فَإِنَّا لَا نَقَطَعُ فِيهَا فِيهِ شُبُهَةَ وَنَتَمَحَّلُ لِذَلِكَ وَجَهًا غَيْرَ السَّرِقَةِ .

قال : حَسَنٌ جَمِيلٌ وَتَدْبِيرٌ كَبِيرٌ . قال : فَمَا حُكْمُكُمْ فِي الْقَاتِلِ وَقَاطِعِ الْأُذُنِ وَالْأَنْفِ ؟

قال : النَّفْسُ بِالنَّفْسِ ، وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ ، وَالْأَنْفُ بِالْأَنْفِ . وَإِنْ قَتَلَ رَجُلًا عَشْرَةَ قَتَلْنَاهُمْ . وَنَقَتَلَ الْقَوِيَّ الْبَدَنَ بِالضَّعِيفِ الْبَدَنِ ، وَكَذَلِكَ الْيَدُ وَالرُّجُلُ .

قال : حَسَنٌ جَمِيلٌ وَتَدْبِيرٌ كَبِيرٌ . قال : فَمَا تَقُولُونَ فِي الْكُذَّابِ وَالنَّمَامِ وَالضَّرَاطِ .

قال : عِنْدَنَا فِيهِمُ الْإِقْصَاءُ لَهُمْ وَإِبْعَادُهُمْ وَإِهَانَتُهُمْ ، وَلَا نَقْبَلُ شَهَادَتَهُمْ ، وَلَا نَصَدِّقُ أَحْكَامَهُمْ .

قال : وَليْسَ إِلَّا هَذَا ؟

قال : هَذَا جَوَابُنَا عَلَى دِينِنَا .

قال له : أَمَا النَّمَامُ عِنْدِي ، هُوَ الَّذِي يُضْرَبُ بَيْنَ النَّاسِ ، فَلِئِنْ أَحْبَبْتَهُ فِي مَكَانٍ لَا يَرَى فِيهِ أَحَدًا . وَأَمَا الضَّرَاطُ فَلِئِنْ أَكْرَبِي اسْتَه ، وَأَعَاقِبَ ذَلِكَ الْمَكَانَ

فيه . وأما الكذاب فإني أقطع الجارحة التي بها يكذب ، كما قطعتم اليد التي بها يسرق ، وأما الذي يضحك الناس ويعودهم السخف فإني أخرجهم من سلطاني ، وأصلح بإخراجه عقول رعيقي .

قال : فقال الجنيد بن عبد الرحمن : أنتم قوم تردون أحكامكم إلى جواز العقول ، وإلى ما يحسن في ظاهر الرأي ؛ ونحن قوم نتبع الأنبياء ، ونرى أن لم نصلح على تدبير العباد . وذلك أن الله تعالى أعلم بغيب المصالح وسير الأمور وحقائقه ، ومحصوله وعواقبه ، والناس لا يعلمون ولا يرون الحزم إلا على ظاهر الأمور . وكم من مضيع يسلم ، وحازم يعطب .

قال : ما قلت كلاماً أشرف من هذا ، ولقد ألقيت لي فكراً طويلاً .

قال إبراهيم : قال عبد الملك : قال صالح : قال الجنيد : فلم أر أوفى ولا أنصف ولا أفهم ولا أذكى منه . ولقد واقفته ثلاث ساعات من النهار وما تحرك منه شيء إلا لسانه ، وما مني شيء لم أحركه . وهكذا يصفون ملوك الترك ، يزعمون أن ساسان وخابان الأكبر ، تواقفا ببعض الكسور ، وفضلاً من الصفيين ، وطالت المناجاة ، فلما انفتلا قالوا : كان خاقان أركن وآدب ، وكان مركب كسرى أركن وآدب ، ولم يتحرك من خاقان إلا لسانه ، وكان برذونه يرفع قائمة ويضع أخرى ، وكان مركب كسرى كأنما صب صباً ، وكان كسرى يحرك رأسه ويشير بيده .

قالوا : ومن الأعاجيب أن الحارث بن كعب لا يقوم لحزم ، وحزم لا تقوم لكندة ، وكندة لا تقوم للحارث بن كعب .

قالوا : ومثل ذلك من الأعاجيب في الحارث : أن العرب لا تقوم للترك ، والترك لا تقوم للروم ، والروم لا تقوم للعرب .

قال جهم بن صفوان الترمذي : قد عرفنا ما كان بين فارس والترك من الحرب ، حتى تزوج كسرى أبرويز ، خاتون بنت خاقان ، يستميله بذلك

الصهر ، ويدفع بأسه عنه . وقد عرفنا الحروب التي كانت بين فارس والروم ، وكيف تساجلوا الظفر ، وبأي سبب غرس الزيتون بالمداخن وسوسا ، وبأي سبب بنيت الرومية ولم سميت بذلك ، ولم يبق كسرى على الخليج قبالة قسطنطينية النواويس وبيوت النار . ولكن متى ظهرت الروم على ترك خراسان ظهوراً موالياً ، ضربوا بها المثل إلى آخر دارمه ، ومن هناك من الأشباه ، ومن يتخلل هذا النسب .

وكانت خاتون بنت خاقان عند أبرويز فولدت له شيرويه . وقد ملك شيرويه بعد أبرويز ، فتزوج شيرويه مريم بنت قيصر ، فولدت له فيروزا شامي أم يزيد الناقص والوليد . وكان يقول : ولدني أربعة أملاك : كسرى ، وخاقان ، وقيصر ، ومروان . وكان يرتجز في حروبه التي قتل فيها الوليد بن يزيد بن عاتكة :

أنا ابن كسرى وأبي خاقان وقيصر جدّي وجدّي مروان
فلما صار إلى الافتخار في شعره بالنجدة والثغافة بالحرب ، لم يفخر إلا بخاقان فقط فقال :

فإن كنت أرمي مقبلاً ثم مدبراً وأطلع من طويد زليق على مهر
فخاقان جدّي فاعير في ذلك واذكري أخا بيرة في السهل والجبل السويعر

قوله « وأطلع » يريد : وأنزل ، وهي لغة أهل الشام وأخذوها من نازلة العرب في أول الدهر . وجعل دابته مهراً ، لأن ذلك أشد وأشق .

وقال الفضل بن العباس بن رزين : أتانا ذات يوم فرسان من الترك ، فلم يبق أحد ممن كان خارجاً إلا دخل حصنه وأغلق بابه ، وأحاطوا بحصن من تلك الحصون ، وأبصر فارس منهم شيخاً يطلع إليهم من فوق ، فقال له التركي : لكن لم تنزل إلي لاقتلنك قتلة ما قتلتها أحداً قال : فنزل إليه وفتح له الباب ، ودخلوا الحصن ، واكتسحوا كل شيء فيه ، فضحك من نزوله إليه وفتح له وهو

في أحصن موضع وأمنع مكان ، ثم أقبل به إلى حصن أنا فيه فقال : اشتروه مني . قلنا : لا حاجة لنا في ذلك . قال : فإني أبيعه بدرهم واحد . فرمينا إليه بدرهم فخلت سبيله ، ثم أدبر عنا ومضى مع أصحابه ، فما لبث إلا قليلاً حتى عاد إلينا فوقف حيث نسمع كلامه ، فراعنا ذلك ، فأخرج الدرهم من فمه وكسره بنصفين . وقال : لا يسوى درهماً ، وهذا غبن فاحش ، فخذوا هذا النصف ، وهو على كل حال غالٍ جداً بالنصف الآخر .

قال : فإذا هو أظرف الخلق .

قال : وكنا نعرف ذلك الرجل بالجبن ، وقد كان سيع باحتيال الترك في دخول المدن وغبور الأنهار في الحروب ، فتوهم أنه لم يتوعد بفتح الباب .

وقال ثمامة : ما شبهت الذر إلا بالترك ، لأن كل ذرة على جذتها معها من المعرفة بأدخار الطعام ، ومن الشم والاسترواح ، ونجيب المدخر حتى لا يئس في جحره ، ثم الاحتيال للناس في الاحتال لها بالصمامة والعفص والمزدجر ، وتعليق الطعام على الأوتاد والبرادات ، مثل الدر مع صاحبها .

وقال أبو موسى الأشعري : كل جنس يحتاج إلى أمير ورئيس ومبدب ، حتى الدر .

وروى أبو عمر الضريير ، أن رئيس الدر الرائد الذي يخرج أولاً لشيء قد شبه دون أصحابه ، لخصوصية خصه الله تعالى بها ، ولطافة الحس ، فإذا حاول حمله وتعاطى نقله ، وأعجزه ذلك بعد أن يبلي عذراً ، أتاهم فأخبرهم فرجع ، وخرجت بعده كأنها خيط أسود محدود . وليست ذرة أبداً تستقبل ذرة أخرى إلا واقفتها وسارتها بشيء ثم انصرفت عنها .

وكذلك الأتراك كل واحد منهم غير عاجز عن معرفة مصلحة أمره ، إلا أن التفاضل واجب في جميع أصناف الأشياء والنبات والموت . وقد تختلف الجواهر وكلها كريم ، وتفاضل العتاق وكلها جواد .

وقد قلنا في مناقب جميع الأصناف بجُمَل ما انتهى إلينا وبلغه علمنا ؛ فإن وقع ذلك بالموفقة فبشويق الله وصنعه ، وإن قصر دون ذلك فالذي قصر بنا نقصان علمنا ، وقلة حفظنا وسماعنا . فأما حسن النية ، والذي نُصير من المحبة والاجتهاد في القربة ، فلإنا لا نرجع في ذلك إلى أنفسنا بلائمة . وبين التقصير من جهة التفريط والتضييع ، وبين التقصير من جهة العجز وضعف العزم ، فرق .

ولو كان هذا الكتاب من كتب المناقضات ، وكتب المسائل والجوابات ، وكان كل صنف من هذه الأصناف يريد الاستقصاء على صاحبه ، ويكون غايته إظهار فضل نفسه وإن لم يصل إلى ذلك إلا بإظهار نقص أخيه ووليّه ، لكان كتاباً كبيراً ، كثير الورق عظيماً ، ولكان العدد الذين يقضون لمؤلفه بالعلم والاتساع في المعرفة أكثر وأظهر ، ولكننا رأينا أن القليل الذي يُجمع خير من الكثير الذي يُفرق .

ونحن نعوذ بالله من هذا المذهب ، ونسأله العون والتسديد ، إنه سميع قريب ، فعلاً لما يريد .

تم الكتاب والله المتق ، وببئذ الحول والقوة

والله الموفق للصواب

الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين وسلامه وهو حسبنا ونعم الوكيل .

هامش رسالة مناقب الترك

وعامة جند الخلافة

- (١) يجب اقتران القول بالفعل ، او المعرفة بالعمل . وقد كثر المارفون وقل العاملون بين الناس . وقد سبق ابن المقفع في كليله ودمته الى التأكيد على هذه الفكرة .
- (٢) المتأول : الذي يفسر الأمور كما يحلو له . قارن معنى التأويل عند الجاحظ ومعناه الذي انتهى اليه ابن رشد الذي يقول ان التأويل هو ارجاع اللفظ من المعنى الحقيقي الى المعنى المجازي .
- المحكوم عليه : الذي صدر بحكم إدانة بحقه .
 - معدول عن الحكم : الذي نحي عن الحكم .
 - المتعطل والمتصفح : الذي لا يعمل شيئاً ويكتفي بالمراقبة .
 - المعجب برأيه : الذي يحب الاعتراض والنقد ، ويعتبر نفسه قائداً للناس ووكيلاً عنهم يدافع عن حقوقهم . يشك في كل شيء ، ولا يصدق احداً .
 - المحروم : الذي لم ينل حقوقه .
 - اللثيم الذي يفسده الاحسان ، يشبه قول الامام علي بن ابي طالب : اتق شر من احسنت اليه .
 - المستبطىء والمستريد : يعني الناس الذين يغلب عليهم الطمع فلا يرضون بما ينالون من السلطان مهما عظم شأنه .
 - صاحب الفتنة : الانسان الذي ينزع الى اثاره الفتن . ويكون هذا رئيس فرقة سياسية او كلامية ابعد السلطان فاغتياظ وعمد الى التشنيع على السلطان واثارة الريب والاكاذيب والظنون به .
 - وتضم لائحة اعداء السلطان تسعة اصناف اجاد الجاحظ حصرهم .

(٣) جند الخلافة العباسية مكون من خمسة أقسام : خراساني وتركبي ومولى وعربي وبنوي . ولم يلحظ الجاحظ نسبة الاقسام الى بعضها البعض ، وغلبة العنصر التركي عليها في عهد المعتصم والبنوي من كان ابوه فارسياً وامه عربية فهو مولد . والمولى هو الاعجمي الاصل الذي وقع في الاسر او السبي واصبح عبداً للعربي . وقد اشار الجاحظ الى اللحمة الجامعة التي نادي بها العباسيون لتكون رابطة توحدتهم وهي الطاعة والمحبة الدينية . ولهذا يعترض على هذا التصنيف الذي زعمه بعضهم - ولم يسم اسمه - واتهمه بالاستبداد بالرأي والتفرد به وبالتعسف في المعاني . وقال الجاحظ إنهم متفقون .

(٤) لاحظ كيف يوفق بين الخراساني والتركي . إنهم اخوان لأن بلادهم متقاربة ، ولأن الاعراق في البدء كانت متشابهة

(٥) العرب امة واحدة رغم اختلاف اللغة بين عدنان وقحطان ونجيم وقيس وهوازن . ويعني هنا باختلاف اللغة اختلاف اللهجات . وهذا ما يفسر قوله في الفقرة التالية : ان العرب لما كانت واحدة إستووا في التربة وفي اللغة . وهذا يعني ان اللغة العربية واحدة ولكنها ذات لهجات مختلفة .

ويشير الجاحظ الى مقومات وحدة العرب القومية وهي التربية واللغة والاخلاق والنسب . وهذه المقومات « سبكوا سبكاً واحداً ، وافرغوا افرغاً واحداً ، وكان القالب واحداً » . . . وهذا يكون الجاحظ أقدم مفكر تكلم على وحدة العرب القومية .

مركزتحت كويت علوم عربي
- وقد ميز بين العربي الخالص والمعلوج المهجين ذي الام غير العربية ، والمذرع ذي الام العربية والاب الاعجمي ، والمزيج اي الدمى .

(٦) البنوي خراساني الاصل لأن نسب الابناء نسب آبائهم . بهذا يجدد الجاحظ معنى الابناء . فالابناء هم ابناء الفرس الذين جاؤوا مقاتلين الى اليمن لنصرة ابن ذي يزن ضد الاحباش قبل الفتح الاسلامي . وقد اقام هؤلاء المقاتلون هناك وتزوجوا من نساء عربيات فسمي اولادهم ابناء . ويمكن أن نعمم هذا الحكم على جميع الاولاد الذين ولدوا من آباء فرس وامهات عربيات في العصر الاسلامي والاموي والعباسي .

وعلى هذا الاساس يصبح الابناء والخراسانيين عرقاً واحداً لأن نسب الابناء نسب آبائهم .

- المولى عربي : والسبب في ذلك هو ان « لحمة اللولاء كلحممة النسب » . تخريبياً لقول النبي « مولى القوم منهم » .

- « حليف القوم منهم » قول نسب للنبي وهو سبب آخر في النسب كسبب الولاء وهذا الحكم ينطبق على الأتراك . فهؤلاء صاروا من العرب بسبب الحلف .

(٧) الخراسانيون يؤكدون على فضلهم على العباسيين لانهم نصرهم ضد الامويين عندما ثاروا بقيادة ابي مسلم الخراساني وزحفوا نحو الشام لاسقاط الدولة الاموية . ويذكرون الرتب العسكرية التي تدل على تنظيمهم من نقباء ونجباء وخذقية وكفية والرغندية والازامردية .

- الشيعة هنا لا تعني الفرقة الاسلامية التي تتبع علي بن ابي طالب . وانما تعني الانصار أو المؤيدين بشكل مطلق .

- لاحظ توزيع الاحزاب والفرق في البلاد الاسلامية في مطلع الدولة العباسية او نهاية الدولة الاموية : العثمانية في البصرة ، والمروانية في الشام ، والخوارج في الجزيرة العربية . اما بلاد فارس فلم تنتشر فيها الفرق ولم يغلب عليهم أحد .

- الصحاحية والدالية والذكوانية والراشدية ، فرق كلامية او حزبية ظهرت في العصر الأموي .

- لاحظ النزعة الشعبية : تفضيل الخراسانيين على جند الشام العرب .

- لاحظ انواع الاسلحة التي كان يستعملها الفرس : الخطبول ، والبنود ، والاجراس ، والبازيكند (كساء يوضع على الكتف) ، واللبود ، والسيوف المعقوفة ، والقلائس ، والخيول الشهيرة (البراذين) ، والكافركوبات (المقارع) ، والطبرزينات (الفؤوس) ، والخناجر ، والدروع ، والركاب . عدا ذلك التي تستعمل في التمارين العسكرية مثل الدبوق (لعبة للصبيان) ، والتزو على الخيل ، والطباطب (مضرب الكرة) والصولجان ، والمحتمة (ما نصب من الحيوان للرمي والقتل) والبرجاس (غرض في الهواء على رأس رمح) والطار الخطاف .

(٨) مفاخر العرب تقتصر على الشعر الموزون ، وقرابة النبي والسبق الى الدين الاسلامي وحمل لوائه ، والانساب النقية ، والخطابة . ورد دعوى الخراسانيين بانهم اصحاب الدعوة العباسية . ان قواد تلك الدعوة من العرب وقد سمي أهمهم امثال قحطبة ابن شبيب الطائي ، وسليمان بن كثير الخزاعي الخ . .

(٩) مفاخر الموالي تجمع النسب الذي يعتز به العرب لانهم عرب بالولاء ، والاصل الذي يفتخر به العجمي اي الفارسي .

ويفخرون بحب النبي اياهم ، فقد عقد لاسامة بن زيد وهو مولى علي عظماء المهاجرين والانصار وقال عنه انه « الحب ابن الحب » .

(١٠) مفاخر الابناء تنحصر في الشجاعة والاقدام في الحروب والفتك وقمع الثورات

واعمال الشغب . ويبدو ان الحليدية والكثبية والبلابية والحريبية حركات تمرد قمعها
الابناء .

(١١) يؤكد الجاحظ من جديد اتفاق الاعراق والاجناس التي تشكل منها الدولة
العباسية . فليس الاختلاف في الاسم دليلاً على الاختلاف في الحقيقة . والروابط
التي توحدتهم هي الولاء والخلف والاصل الواحد لجميع البشر من آدم وحواء .
- ان الناس جميعاً عبيد الله يقلبهم كيف يشاء ويخلقهم ، كيف يشاء . وله ان يجعل
من شاء عربياً ومن شاء عجمياً ، من شاء ذكراً ومن شاء انثى ؛ وهو الذي خلق
آدم من غير اب وام وخلق حواء من ضلعه ، وخلق عيسى من غير ذكر ، وخلق
الجان من النار وخلق السماء من دخان والارض من ماء ، وعلم سليمان منطق
الطير .

والجاحظ يذكر مشيئة الله في خلقه ليعين انه لا فضل لمخلوق على آخر . وقد ميز
بين الاعراق والاجناس كما ميز بين اصناف المعادن ولنلاحظ قوله مثل طاليس ان
الماء اصل العالم .

(١٢) « هذا كتاب كنت قد كتبه ايام المعتصم رضي الله عنه فلم يصل اليه » . هذه
العبارة تدل على تاريخ تأليف الكتاب او قسم منه في عهد الخليفة المعتصم .
والقسم الاول الذي ينتهي هنا قد وضع ايام المتوكل . واذا كان القسم الذي وضع
في عهد المعتصم يتناول مفاخر الاتراك (لان الاتراك غلبوا على السلطة ايام
المعتصم وكثر عدوهم في الجيش) فان القسم الاول الذي وضع ايام المتوكل يتناول
مفاخر الحراسانيين والعرب والموالي والابناء (لان المتوكل حاول ايجاد التوازن في
الجيش بين مختلف الاجناس) .

وعمل هذا الاساس ينبغي اعادة ترتيب مادة الكتاب . بحيث يوضع القسم الثاني
الذي يبدأ بعبارة : « هذا كتاب كنت كتبه ايام المعتصم » في اول الكتاب .

(١٣) يذكر الجاحظ مناسبة تأليف الكتاب وهي السؤال الذي طرحه الخليفة المأمون على
قواده والمقرين اليه امثال . محمد بن حميد الطوسي والاختيميد واي شجاع وعيسى بن
معاذ : ايها اشجع التركي او الفارسي .

(١٤) خصال الخوارج : صدق الاقدام ، والصبر ، والنصر ، وقلة الامتعة .

الحزون جمع حزن هو المرتفع .

بنات شجاع : البغال .

بنات سهال : الحمول .

(١٥) للتركي اربعة عيون : عينان في وجهه وعينان في قفاه ، وللخارجي عين - ولا عيب -

في مستدير الحرب وللخراساني عين في مستقبل الحرب . وبذا يصح المعنى . والعين هنا استعملت بمعنى البصر في الأمر والعلم به . فالتركي يتحسّن الحرب في جميع الجهات والخارجي يحسن الكرّ الى الامام والخراساني الكرّ الى الامام .
الوهق : الحبل . الانتصاف : الاقتلاع .

المهلب بن ابي صفرة ، الحريش بن هلال وعباد بن الحصين التميميان ، من الفرسان المشهورين . وكان المهلب والياً على خراسان ابان الدولة الاموية .

- الخوارج جمعوا في صفوفهم اجناساً مختلفة من اصقاع متباينة وانقسموا الى فرق عدة . فكان منهم اعداد من سجستان وخراسان والجزيرة واليمامة والمغرب وعمان ، وانضوى تحت لوائهم العربي والمولى والعجمي والاعرابي والعبدي والمرأة والحائك والفلاح .

وقد انقسموا الى فرق ذكر منها الجاحظ هنا الازارقة والنجيدات والاباضية والصفرية .

الازارقة نسبة الى رئيسهم نافع بن الازرق الحنفي ، قالوا بتكفير علي بن ابي طالب وكل مرتكب كبيرة ، وكل قاعد عن الجهاد .

وفرقة النجدات او النجدية نسبة الى رئيسهم نجدة بن عامر الحنفي . قالوا يجب على المسلمين معرفة الله ورسله وتحريم دماء المسلمين واموالهم . وما سوى ذلك

فالناس معذورون فيه بجهلهم .
وفرقة الصفرية نسبة الى عبد الله بن الاصغر قالوا ان جميع مخالفيهم كفار يجب قتلهم .

- حمزة بن ادرك الخارجي : صاحب احدي فرق العجاردة من الخوارج ، خرج في خراسان ايام الرشيد وبقي يقاتل حتى ايام المأمون .

- الوليد بن طريف أحد رؤساء الخوارج قتله يزيد بن يزيد القائد العباسي .

- نعام بن اشرس احد شيوخ المعتزلة ومعاصر الجاحظ، هو كما يقول الجاحظ عربي بيد انه معجب الاثراك . وقد وقع في اسرهم مرة فاكرموه ، وشهد بعض وقائعهم

- الجاحظ يذكر انه رافق المأمون في بعض غزواته . ويرر اصطناع المنتصم للاثراك عندما تولى الخلافة لشدة بطشهم وصبرهم على القتال . ويذكر ايضاً ما شاهده من انفلات فرس من الجنود الخراسانيين وغيرهم وعجزهم عن اخذها حتى جاء تركي فقبض عليها وسلمهم اياها .

- لاحظ كيف يفسر الجاحظ ظاهرة تعلق الاثراك بوطنهم وحنينهم اليه اكثر من

العرب وسائر الأمم . لأن تركيبهم وطبيعتهم من تركيب بلادهم . وقد اورد بعض هذه الافكار في كتاب الاوطان والبلدان .

(١٦) قارن الجاحظ بين مختلف الأمم من عرب ويونانيين وأتراك وفرس وصينيين وخلص

الى القول ان الاتراك تفوقوا في الحرب تفوق اليونانيين بالحكمة واهل الصين في الصناعة ، والعرب بالأدب ، وآل ساسان في الرياسة . وقد مهد السبيل في هذه المقارنة الى ابن صاعد الاندلسي صاحب كتاب طبقات الامم .

- لاحظ انساب العرب والاتراك واليهود . كلهم يتهون الى جد مشترك هو ابراهيم ويتحدرون من ثلاث امهات تزوجهن ابراهيم : هاجر القبطية ، وسارة السريانية ، وقطورا بنت مفظون العربية .

- اسم الاتراك جاء من التَّرك تبعاً للحديث المأثور : تاركوا الترك ما تاركوكم . ويقولون « اتركوهم سموا الترك » .

- الجاحظ يترجم لابراهيم بن السندي مولى امير المؤمنين المعتصم . وقد حدثه عن خاقان ملك الترك الذي حارب الجنيد بن عبد الرحمن المري امير خراسان من قبل هشام بن عبد الملك الخليفة الاموي . ويروي ما دار بينهما من حديث حول احكام الدين الاسلامي في الزنا والسرقه والسلب والقتل الخ . . .

- الفرق بين العقل والنقل : اصحاب العقل يردون احكامهم الى جواز العقول وما يحسن في الرأي . واصحاب النقل يتبعون ما ورد في كتب الانبياء لعلمهم أن الله ادري بصالح الخلق .

- جهنم بن صفوان (١٢٨ هـ) مؤسس فرقة الجهمية . قال بالجبرية والاضطرار وانكر حرية الانسان او قدرته على فعل اعماله . وقال ان الايمان هو المعرفة بالله والكفر هو الجهل به ، وقتل في اواخر الدولة الاموية .



[١ - مقدمة]

تولاك الله وحفظك ، وأسعدك بطاعته ، وجعلك من الفائزين برحمته .

ذكرت - أعاذك الله من الغش - أنك قرأت كتابي في مُحاجة الصُّرحاء
للهجناء ، وردُّ الهُجَناء ، وجواب أحوال الهُجَناء ، وأني لم أذكر فيه شيئاً
من مفاخر السودان . فاعلمُ حفظك الله أني أخبرت ذلك متعمداً .

وذكرت أنك أحببت أن أكتب لك مفاخر السودان ، فقد كتبتُ لك ما
حضرني من مفاخرهم .

قال الأصمعي : قال الفيزرُ عبْدُ قزارة وكانت في أذنه خُرْبَةٌ : إنَّ الوئام
يترع في جميع الطَّمش : لا يقرب العنز الضَّان ما وجدت الماعز ، وتنفر الشَّاء
من المِخلب ولا تأنس بالخُف .

وأنشد أبو زيد النحوي :

لولا الوئام هلك الإنسان

وقال شدَّاد الحارثي - وكان خطيباً عالماً - : قلتُ لأمَّةٍ سوداءٍ بالبادية :
لمن أنتِ يا سوداء ؟ قالت : لسيد الحَضْر يا أصلع . قال : قلتُ أولستِ
بسوداء ؟ قالت : أولست أصلع ؟ قلت : ما أغضبكِ من الحق . قالت :

الحقُّ اغضَبَكَ ، لا تشتمُّ حتى تُرهبَ ، ولأن تتركه أمثلاً .

وقال شداد : لقد كلمتها وأنا اظنُّ أني أفي بأهل نجد ، وما نزعَتْ عني إلا وأنا عند نفسي لا أفي بأمقي .

وقال الأصمعي : قال عيسى بن عمر : قال ذو الرُّمة : فاتل الله أمةً آل فلان السوداء ، ما كان أفصحها وأبلغها ! سألتها كيف كان المطر عندكم ؟ قالت : غثنا ما شئنا .

[٢ - نجباء السودان]

أن لقمان الحكيم منهم ، وهو الذي يقول : ثلاثة لا تعرفهم إلا عند ثلاثة : الحليم عند الغضب ، والشجاع عند الخوف ، والأخ عند حاجتك .

وقال لابنه : إذا أردت أن تخالط رجلاً فأغضبه قبل ذلك ، فإن أنصفك وإلا فاحذره .

ولم يرووا ذلك عنه إلا وله أشياء كثيرة . وأكثر من هذا مدح الله إياه وتسميته الحكيم ، وما أوصى به ابنه .

ومنهم : سعيد بن جبير ، قتله الحجاج قبل موته بسنة أشهر وهو ابن تسع وأربعين سنة ، ومات الحجاج وهو ابن ثلاث وخمسين سنة . وكان سعيداً أورع الخلق وأتقاهم ، وكان أعظم أصحاب ابن عباس . وأصحاب الحديث يطعنون في الذي يجيء من قبل أصحاب ابن عباس حتى يجيء [من] سعيد ابن جبير . وأبوه مولى بني أسد ، وهو مولى بني أمية ، وقُتل يوم قُتل والناس يقولون : كلنا محتاج إليه .

ومنهم : بلال الحبشي رضي الله عنه ، الذي يقول فيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إن أبا بكر سيدنا وأعتق سيدنا ، وهو ثلث الإسلام .

ومنهم : مهنج ، وهو أول قتيل قُتل بين الصُفَّيين في سبيل الله .

ومنهم : المقداد ، وهو أول من عدا به فرسه في سبيل الله .

ومنهم : وحشي قاتلُ مُسَيْلِمَةَ الكَذَّابِ . وكان يقول : قتلتُ خيرَ الناسِ - يعني حمزةَ بنَ عبدِ المطلبِ رضي اللهُ عنه - وقتلتُ شرَّ الناسِ - يعني مُسَيْلِمَةَ الكَذَّابِ .

ومنهم : مكحولُ الفقيه .

ومنهم : الحَيْقُطَانُ الشَّاعِرُ ، الذي كان يَفْضَلُ في رأيه وعقله وهمته . وهو الذي يقول في الإخوان : لا تعرفُ الاخَ حتى ترافقه في الحَضَرِ ، وتزامله في السَّفَرِ .

ومنهم : جُلَيْبِيبُ الذي تحدّثت الرواةُ أن رسولَ الله صلى اللهُ عليه وسلم خرج في غزاةٍ فقال لأصحابه : هل تَفْقِدُونَ من أحدٍ ؟ قالوا : نفقد فلاناً وفلاناً . ثم خرج فقال : هل تَفْقِدُونَ من أحدٍ ؟ قالوا : نفقد فلاناً وفلاناً . ثم خرج فقال : هل تَفْقِدُونَ من أحدٍ ؟ قالوا في الثالثة : لا . قال : لكني أفقد جُلَيْبِيباً ، اطلبوه . فطلبوه فوجدوه بين سبعةٍ قد قتلَهُمْ ثم قُتِلَ . فقال النبي صلى اللهُ عليه وسلم : « قَتَلَ سَبْعَةَ ثُمَّ قَتَلُوهُ هَذَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ » . قال : ثم حملهُ على ساعديهِ حتى حَفَرُوا له ، ماله سريراً غير ساعدي رسولِ الله صلى اللهُ عليه وسلم . قال : ولم يذكرُوا غسلًا .

ومنهم : فرجُ الحُجَّامِ وكان من أهل العَدَالَةِ ، والمُقَدِّمِينَ في الشَّهَادَةِ . اعتقه جَعْفَرُ بنُ سُلَيْمَانَ ، وذلك أنه خدّمه دهرًا يصلحُ شارِبَهُ ولحيتَهُ وبيتهُ ، فلم يره أخطأ في قولٍ ولا عملٍ ، فقال : واللّهِ لأمتحنهُ ، فإن كان ما أرى منه عن تدبيرٍ وقصدٍ لأعتقهُ ولأزوجهُ ولأغنيتهُ . وإن كان على غير ذلك عرفتُ الصُّنْعَ فيه . فقال له ذاتَ يومٍ وهو يحجمه : يا غلامُ ، أمتحجم ؟ قال : نعم . قال : ومتى ؟ قال : عند الحاجة . قال : وتعرفُ ذلك ؟ قال : أعرفُ أكثره وربما غلِطت . قال : فأني شيءٌ تأكل ؟ قال : أمّا في الشتاء فذاكبراه خائفة حلوة . وأمّا في الصيف فسيكباجةً حامضة عذبة . فبلغ به جعفر

ابن سليمان ما قال . وهو الذي يقول فيه أبو فرعون :

خَلُّوا الطَّرِيقَ زَوْجِي أَمَامِي أَنَا حَيْمُ فَرَجِ الْحَجَّامِ

قال: وبلغ من عدالته ونبله في نفسه وتوقيه وورعه، أن مواليه من ولد جعفر وكبار أهل البربد، كانوا لا يطمعون أن يشهدوه إلا على أمر صحيح لا اختلاف فيه .

وأما الحيقطان فقال قصيدة تحتج بها اليمانية على قريش ومضر، ويحتج بها العجم والحبش على العرب، وكان جرير رآه يوم عيد في قميص أبيض وهو اسود، فقال :

كَأَنَّهُ لَمَّا بَدَأَ لِلنَّاسِ أَيْرَ حَارِ لُفٍّ فِي قَرطَاسِ .

فلما سمع بذلك الحيقطان وكان باليمامة، دخل الى منزله فقال هذا الشعر :

لئن كنت جعد الرأس والجلد فاجم فإن لسبط الكف والعرض أزهر
وإن سواد اللون ليس بضائري إذا كنت يوم الروع بالسيف أخطر
فإن كنت تبغي الفخر في غير كنهه فرهط النجاشي منك في الناس أفخر
تأبى الجلندي وابن كسرى وحاتث وهودة والقبطي والشيخ قيصر
وفاز بها دون الملوك سعادة فدام له الملك المنيع الموقر
ولقمان منهم وابنه وابن أمه وأبرهة الملك الذي ليس ينكر
غزاكم أبو يكوم في أم داركم وأنتم كقبض الرمل أو هو أكثر
وأنتم كطير الماء لما هوى لها يلقعة، حجن الخالب أكدر
فلو كان غير الله رام دفاعه علمت وذو التجريب بالناس أخبر
وما الفخر إلا أن تبيتوا إزاءه وأنتم قريب ناركم تتسعر
ويدلف منكم قائد ذو حفيظة نكافحه طورا وطورا يدبر
فأما التي قلت فتلکم نبوة وليس بكم صنون الحرام المستر

وقلتهم لَنَقَاحٌ لا نَسُودِي إِتَاوَة فإِعْطَاءُ أَرِيانٍ مِنَ الفَرِّ أَيْسَرُ
ولمَوْكَانٍ فِيهَا رَغْبَةٌ لِمَتَوَجِّجٍ إِذَا لَانْتَهَا بِالْمَقَاوِلِ حَمِيرُ
وليس بِهَا مَشَقٌّ وَلَا مِتْصِيفٌ وَلَا كَجُؤَانِ مَأْوَها يَتَفَجَّرُ
ولا مِسْرَتَعٌ لِلْعَمِينِ أَوْ مِتْقَنْصٌ وَلَكِنْ نَجْرًا ، وَالتَّجَارَةُ تُحْمَرُ
السَّتْ كُليبيَّا وَأُمُّكَ نَمِجَةٌ لَكُمْ فِي سِمَانِ الضَّانِ عَارٌ وَمَفْخَرُ

أما قوله :

تَأَى الْجُلَنْدَى وَابْنُ كَسْرَى وَحَارِثُ وَهَوْدَةُ وَالْقَبْطِيُّ وَالشَّيْخُ قَيْصَرُ

فإنه يقول : كَتَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى بَنِي الْجُلَنْدَى فَلَمْ يُؤْمِنُوا
وَكَذَلِكَ كَسْرَى ، وَكَذَلِكَ الْحَارِثُ بْنُ أَبِي شَيْمِرٍ ، وَكَذَلِكَ هَوْدَةُ بْنُ عَلِيٍّ
الْحَنْفِيُّ ، وَكَذَلِكَ الْمُقَوْسُ عَظِيمُ القِبْطِ صَاحِبُ الإسْكَندَرِيَّةِ ، وَكَذَلِكَ قَيْصَرُ
مَلِكُ الرُّومِ . عَلَى أَنَّ بَنِي الْجُلَنْدَى قَدْ اسْلَمُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الْكِتَابِ ، وَلَكِنْ
النُّجَاشِيُّ اسْلَمَ قَبْلَ الفَتْحِ ، فَدَامَ لَهُ مَلِكُهُ وَنَزَعَ اللهُ مِنْ هَؤُلَاءِ النُّعْمَةَ .
قَيْصَرٌ إِنْ كَانَ قَدْ بَقِيَ مِنْ مَلِكِهِ شَيْءٌ فَقَدْ أُخْرِجُوهُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ يَبْلُغُهُ ظِلْفٌ
أَوْ حَافِرٌ ، وَصَارَ لَا يَتَمَنَعُ إِلَّا بِالْحَلِيجِ وَبِالعِقَابِ وَالحِصُونِ وَبِالشُّتَاءِ وَالثُّلُوجِ
وَالعِطَارِ .

وفخر بلقمان وابنه .

وأما قوله :

غَزَاكُمْ أَبُو يَكْسُومَ فِي أُمِّ دَارِكُمْ وَأَنْتُمْ كَقَبْضِ الرُّمْلِ أَوْ هُوَ أَكْثَرُ

فإنه يعنى صاحب الفيل حين أتى مكة ليهدم الكعبة . يقول : كنتم في عدد
الرمل ، فلم فررتم منه ولم يلقه أحد منكم حتى أفضى إلى مكة ، ومكة أم
القري ، ودار العرب هي جزيرة العرب ، ومكة قرية من قراها ، ولكن لما
كانت أقدّمها قدماً ، وأعظمها خطراً ، جعلت لها أمماً . ولذلك قيل لفتح
مكة : قَتَحُ الفُتُوحِ . وعلى مثل ذلك سميت فاتحة الكتاب : أم الكتاب .

والعرب قد تجعل الشيء أم ما لم يلد . من ذلك قولهم : ضربته على أم رأسه ، وكذلك أم الهاوية . والضيف يسمى ربة منزله أم مشواي .

وقال أعرابي وقد أصابته براغيث عند امرأة كان نزل بها :

يا أم مشواي عديمت وجهك أنقذني رب الغلا من مصرك
ولذع برغوث أراه مهلكي أبيت ليبي دائب التحكك
تحكك الأجر عند المبرك

وقد أبان الله تعالى مكة والبيت حين قال : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾ .

يقول : فإذا غزيت - وهي أم القرى وفيها البيت الحرام الذي هو شرفكم - فقد غزيت جميعكم .

وأما قوله :

وأما التي قُلتم فتلكم نبوة وليس بكم صون الحرام المستر
وقُلتم لقاح لا تؤذي إتاوة فإعطاء أريان من الفرس أيسر

فالقاح : البلد الذي لا يؤدي إلى الملوك الأريان . والأريان : هو الخراج ، وهو الإتاوة . وفي ذلك يقول عبيد بن الأبرص :

أبوا دين الملوك فهم لقاح إذا نُدبوا إلى حرب أجابوا

قال : فقتلتم إنا لقاح ولسنا تؤذي الخراج والأريان .

قال : فإعطاء الخراج أهون من الفرار وإسلام الدار وأنتم مثل عدد من جاءكم المراز الكثيرة .

وأما قوله :

وليس بها مشقى ولا متصيف ولا كجواثا مأوها يتفجر

يقول : ليس في الغلبة على مكة رغبة ، ولولا ذلك لغزاها أهل اليمن
وغيرهم . وليس بها مشق ولا متصيف ؛ لأنهم يتبرّدون بالطائف ويتدفقون
بجدة . وجؤاثا : عين بالبحرين . وليس بمكة شيء يداني ذلك .

وقال :

ولا مرتع للعين أو متقنص ولكن تجراً والتجارة تحقر

يقول : ليس بها متزهات ، وصيدها حرام ، وإنما تجار والتجار يحقرون .
يقول : هم عند الناس في حد الضعف ولا يستجيز ملك أخذ الذي به
يتعيشون ، ولا يكون ما يؤخذ منهم يقوم بنوائب الملوك ، وهم قوم ليس
عندهم امتناع . ولذلك يقول الشاعر معاوية بن أوس ، وهو جاهلي :

وزق سبات لدى متجبر أسيرة كالرجل الأسحم
ضربت يفيه على نحره وقائمه كيد الأجذم
إلى التاجر العربي الشحح أو خرد ذي النطف العظيم

مركز ترقية كويتيون سعوديون

أراد بهذا كله قريشاً . يقول : هم تجار وقد اعتصموا بالبيت ، وإذا
خرجوا علّقوا عليهم المقل ولحاء الشجر حتى يُعرفوا فلا يقتلهم أحد .

وأما قوله :

أست كليبياً وأمك نعجة لكم في سيمان الضان عار ومفخر

فإن بني كليب يرمون بإتيان الضان ، وكذلك بنو الأعرج ، وسليم .
وأشجع ترمى بإتيان المعز .

وقال النجاشي :

ولو شتمتني من قريش قبيلة سوي ناكبة المعزى سليم وأشجع

وقال الفرزدق :

ولست مضحياً ما دمت حياً بشاة من حلوبة أعرجي
فما أدري إذا أنفقت مالي لعل الشاة تبقر عن صبي

وقال الآخر :

إذا أحببت أن تغلي أتانا فذل الدارمي على شراها
يقبل ظهرها ويكاد لولا فحول الظهر يدنو من قفاها
وود الدارمي لو أن فاه إذا نال الحمارة نال فاهها

وقال عبد بن رشيد :

قبيلة سوء خيرهم مثل شرهم ترى منهم للضأن فعلاً وراعياً
إذا جليت فيهم عروس لبعلها ترى النعجة البعاء أبكى البواكياً

ولذلك قال الأخطل :

فانق بضأنك يا جرير فإنا متتك نفسك في الخلاء ضللاً

ولذلك قال الحيقطان :

الست كليبياً وأمك نعجة لها في سمان الضأن عار ومفخر

أما العار فالذي شاع عليهم من ذكر النعاج . وأما المفخر يقول : إذا
فخروا فخروا بالشاء ، ولا يلفون إلى حد الإبل .

ومن مفاخر السودان والزنج والحبش مع ما ذكرنا من قصيدة الحيقطان ،
أن جرير بن الخطفي لما هجا بني تغلب [و] قال :

لا تطلبن خولة في تغلب فالزنج أكرم منهم أحوالا

غضب سنيح بن رباح شار ، فهجا جريراً ، وفخر عليه بالزنج فقال :

ما بال كلب من كليب سبنا أن لم يوازن حاجباً وعقلا

إِنَّ امراً جَعَلَ المِراغَةَ وابْنِها
 وَالزُّنْجُ لَو لا قِيَّتَهُم في صَفْهِم
 فَسَلِ ابنَ عَمْرٍو حينَ رامَ رِماحَهُم
 فَجَعُوا زياداً بابِئِهِ وَتَنالُوا
 وَمرَبُطِينَ خِيولَهُم بِفِئِئَتِهِم
 كانَ ابنُ نَدْبَةَ فيكُم مَن نَجَلنا
 وابِنًا زُبيبَةَ : عَنزُ وَهَراسَةَ
 سَلِ ابنَ جِيفرِ حينَ رامَ بِلادِنا
 وَسُليكَ اللُّيْثُ المِزْبِرُ إذا عَدا
 هَذا ابنُ خِازِمِ ابنُ عَجَلِي مَنهُم
 ابِناءُ كَلِّ نَجِيبَةَ لِنَجِيبَةَ
 فَلنَحنُ أَنجَبُ مَن كُليبُ خُزُولَةَ
 وَبنو الحُبابِ مَطاعِنَ وَمَطاعِمَ

أما ابن عمرو الذي ذكر ، فهو حفص بن زياد بن عمرو العتكي ، كان
 خليفة أبيه على شرطة الخنجاج ، فغلب رباح بن زيار الزنجي على الفرات ،
 فتوجه إليه حفص بن زياد فقتله رباح وقتل أصحابه واستباح عسكره .

وأما ابن جيفر فهو النعمان بن جيفر بن عباد بن جيفر بن الجلندي .
 كان غزا بلاد الزنج فقتلوه وغنموا عسكره .

ثم ذكر أبناء الزنجيات حين تزعموا إلى الزنج في البسالة والأنفة . فذكر
 خفاف بن ندبة ، وعباس بن مرداس ، وأبني شداد : عترة القوارس وأخاه
 هراسة ، وسليك بن السلكة . فهؤلاء أسد الرجال ، وأشدهم قلوباً
 وأشجعهم بأساً ، وبهم يضرب المثل .

ومنهم : عبد الله بن خازم السلمي ، وبنو الحباب : عمير بن الحباب
 وإخوته .

وكان أيضاً منهم : الجحاف بن حكيم .

وهم أيضاً يفخرون برباح أخى بلال وحاله وصلاحه .

وفخرون بعلم بن فهيرة ، بدرى استشهد يوم بئر معونة ، فرآه الناس
قد رفعه الله بين السماء والأرض ، فليس له في الأرض قبر .

ومنهم : آل ياسر .

قالوا : ومنا الغداف صاحب عبيد الله بن الحر . لم يكن في الأرض أشد
منه : كان يقطع على القافلة وحده بما فيها من الحماة والخفراء .

وكعبويه صاحب المغيرة بن الفزr ، كان مثلاً في الشجاعة .

ويقولون : ومنا مريح الأشرم ، غلام أبي بحر القائد ، الذي كان قديم
من الشام أيام قتيبة بن مسلم ، وكان لا يرَام لقاءه ، وأمره مشهور .

قالوا : ومنا المغلول وبنوه ، وهم من الخول ، ليس في الأرض أعرف
ولا أنقف ولا أعلم بالبادية منهم .

قالوا : ومنا أفلح ، الذي قطع على القوافل بخراسان وحده عشرين
سنة . قالوا : وإنما قتله مالك بن الربيع ، لأنه وطشه في جوف الليل وهو
سكران خائر . والشاهد على قولنا قول ابنه :

أمالِك لولا السكر أيقنت أنه أخو الورد أو يُرَبِّي على الأسد الورد

قالوا : ونحن قد ملكنا بلاد العرب من لدن الحبشة إلى مكة ، وجرت
أحكامنا في ذلك أجمع . وهزمتنا ذا نواس ، وقتلنا أقيال حمير . وأنتم لم تملكوا
بلادنا . وقد قال شاعركم :

وخرب غمداناً وهدم سقفه رباط بأجناد وصولته هصر
اطافت به الأحبوش ليلاً فقوضوا بنا شدة الأقيال في سالف الدهر
بجمع من اليكسوم سود كأنهم أسود الشرى اجتابت جلوداً من المر

قالوا : ومنا كبا جلا ، لم يصعد نهر . مان ولا قاتل في المخارجات أحد
قط يشبهه .

قالوا : ومنا الأربعون الذين خرجوا بالفُرات أيام سوار بن عبد الله
القاضي ، فأجلوا أهل الفُرات عن منازلهم ، وقتلوا من أهل الأبله مقتلة
عظيمة .

قالوا : ومنا الذي ضرب عنق عيسى بن جعفر بعمان ، بمنجل
بحراني ، بعد أن لم يجسر عليه أحد .

[٣ - خصال السودان]

قالوا : والناس مجموعون على أنه ليس في الأرض أمة السخاء فيها أعم ،
وعليها أغلب من الزنج . وهاتان الخلتان لم توجدا قط إلا في كريم .

وهي أطبع الخلق على الرقص الموضع الموزون ، والضرب بالطبل على
الإيقاع الموزون ، من غير تأديب ولا تعليم .

وليس في الأرض أحسن خلقاً منهم . وليس في الأرض لغة أخف على اللسان
من لغتهم ، ولا في الأرض قوم أذرب السنة ، ولا أقل تمطيماً منهم .

وليس في الأرض قوم إلا وأنت تصيب فيهم الأرت والفأفاء والغبي ،
ومن في لسانه حبسة ، غيرهم .

والرجل منهم يخطب عند الملك بالزنج من لدن طلوع الشمس إلى
غروبها ، فلا يستعين بالتفاتة ولا بسكتة حتى يفرغ من كلامه .

وليس في الأرض أمة في شدة الأبدان وقوة الأسر أعم منهم فيها .

وإن الرجل ليرفع الحجر الثقيل الذي تعجز عنه الجماعة من الأعراب
وغيرهم . وهم شجعاء أشداء الأبدان أسخياء . وهذه هي خصال الشرف .

[والزنجي] مع حُسن الخلق وقلة الأذى ، لا تراه ابداً إلا طيب
النفس ، ضحك السنن ، حسن الظن . وهذا هو الشرف .

وقد قال ناسٌ : إنهم صاروا أسخياء لضعف عقولهم ، ولقصر
رؤياتهم ، ولجهلهم بالعواقب .

فقلنا لهم : بشئ ما أنثيتم على السخياء والأثرة ، وينبغي في هذا
القياس أن يكون أوفر الناس عقلاً وأكثر الناس علماً أبخل الناس بخلًا
وأقلهم خيراً .

وقد رأينا الصقالبة أبخل من الروم ، والروم أبعد رويةً وأشدُّ عقولاً
وعلى قياس قولكم أن قد كان ينبغي أن تكون الصقالبة أسخى أنفساً واسمَحَ
أكفأ منهم .

وقد رأينا النساء أضعف من الرجال عقولاً ، والصبيان أضعف عقولاً
منهم ، وهم أبخل من النساء ، والنساء أضعف عقولاً من الرجال . ولو كان
العقل كلما كان أشدُّ كان صاحبه أبخل ، كان ينبغي أن يكون الصبي أكرم
الناس خصالاً . ولا نعلم في الأرض شيئاً من صبي ، هو أكذب الناس وأنم
الناس ، وأشره الناس وأبخل الناس ، وأقل الناس خيراً وأقسى الناس
قسوةً .

وإنما يخرج الصبي من هذه الخلال أولاً فأولاً ، على قدر ما يزداد من
العقل فيزداد من الأفعال الجميلة .

فكيف صارت قلة العقل [هي] سبب سخاء الزنج ، وقد أقررتهم لهم بالسخاء
ثم ادعيتهم ما لا يعرف . وقد وقفناكم على إحاض حجتكم في ذلك بالقياس
الصحيح .

وهذا القول يوجب أن يكون الجبان أعقل من الشجاع ، والغادر أعقل
من الوفي . وينبغي أن يكون الجزوع أعقل من الصبور . فهذا ما لا حجة فيه

لكم ، بل ذلك هبةً في الناس من الله . والعقلُ هبةٌ ، وحسن الخلق هبةٌ ،
والسخاء والشجاعة كذلك .

وقد قالت الزنج للعرب : من جهلكم أنكم رأيتمونا لكم أكفاء في
الجاهلية في نسائكم ، فلما جاء عدلُ الإسلام رأيتم ذلك فاسداً ، و [ما] بنا
الرغبة عنكم . مع أن البادية منا ملأى ممن قد تزوج ورأس وساد ، ومنع
الذمار ، وكنتفكم من العدو .

قال : وقد ضربتم بنا الأمثال وعظمت أمرَ ملوكنا ، وقد متموهم في كثير
من المواضع على ملوككم . ولو لم تروا الفضل لنا في ذلك عليكم لما فعلتم .

وقال النمر بن تولب :

إن ملكه ما أن تُبعأ وأبرهة الملك الأعظم

فرقعه على ملوك قومه .

وقال ليبد بن ربيعة :

لو كان حي في الحياة خُلداً في الزهر أدركه أبو يكسوم

وهذا شيء من وصف الفضل لم يوصف أحد بمثله .

قالوا : وما قدتم به ملوكنا على ملوككم قوله :

غلب الليالي خلف آل محرق وكما فعلن بتبع وبهرقل

وغلبن أبرهة الذي ألفيته قد كان خلد فوق غرفة مؤكل

فقدّم أبرهة وأراد التسمية .

قالوا : ومن الحبشة عكيم الحبشي ، وكان أفصح من العجاج . وكان

علماء أهل الشام يأخذون عنه كما أخذ علماء أهل العراق من المتجع بن

نبهان .

وكان المتجع سدياً في أذنه خربة ، وقع إلى البادية وهو صبي ، فخرج

أفصح من رؤية .

ولما قال حكيم بن عياش الكلبى :

لا تفخرون بخال من بني أسد فإن أكرم منها الزنج والنوب

اعترض عليه عكيم الحبشى ، فقال :

ويوم غمدان كنا الأسد قد علموا
وليلة الفيل إذ طارت قلوبهم
منا النجاشي وذو العقصين صهركم
هني غفرت لعدنان تهتكهم
حمارة جمعت من كل محربة
ويوم يشرب كنا فحلة العرب
وكلهم هارب موف على قتب
وجد أبرهة الحامي أبي طلب
فما لحمير والمقوال في النسب
جمع الشبيكة نون الزاخر اللجب

غمدان : حصن كان ينزله الملك الذي يكون على اليمن ، وكان عجيباً ، فلما ملكت الحبشة اليمن أخرجته الأبقايا هدمها عثمان بن عفان رضي الله عنه في الإسلام . وقال : وينبغي لمآثر الجاهلية أن تمحى . وكان في الحصن مصنعة عليها قبة من طلق ، وفيها يقول خلف الأحمر :

ومصنعة الطلق أودى بها عوادي الأحابيش بالصيدين

وفيها يقول قدامة حكيم المشرق ، وكان صاحب كيمياء :

فأوقد فيها ناره ولو أنها أقامت كعمر الدهر لم تنصم

لأن الطلق لو أوقد عليه ألف عام لم يسخن . وبه يتطلى النفاطون إذا أرادوا الدخول في النار .

وقال لبيد :

أصاح ترى بريقاً هباً وهنا
أرقت له وأنجد بعد هدء
يضيء زبابه في المزن حبشاً
كمصباح الشعيلة في الذبال
وأصحابي على شعب الرحال
قياماً بالحراب وبالإلال

وقال ذلك لبيدُ لأنهم إذا أقبلوا بحراهم ورماحهم وقسيهم وسيوفهم ،
وراياتهم ، وخيولهم وفيولهم ، مع سواد ألوانهم وضحَم أبدانهم - رأيت هؤلاً لم
تَر مثله ولم تسمع به ، ولم تتوهمه .

وأما قوله :

ويومَ يشربُ كنا فحلةَ العربِ

فإن مُسرفَ بنِ عُقبةَ المرِّيِّ ، حينَ كانَ أباحَ المدينةَ ، زعموا أنه قد كان
هناك أمرٌ قبيحٌ من السودانِ والجندِ ؛ وفي ذلك يقول شاعرٌ من شعراءِ مَضرٍ :

فسائلُ مُسرفِ المرِّيِّ عنكم غداةَ أباحَ للجندِ العِذارِي
فسيما زَجَكُم على حَنقِ زَنوجِ وفزَّ الشَّامُ كالأسدِ الضُّواري
ودافعَ وهَرِزُّ والفرسُ عنكم ورأسُ الحَبَشِ يحكُمُ في ذَمَارِ
فأفسدَ نسلَكُم بسوادِ لونِ وأبرِ مثلَ غُرمولِ الحَمَارِ

فذكر إباحةَ الحَبَشِ لليمنِ كما ذكرَ إباحةَ مُسرفِ للمدينةِ .

مركز تحقيقات كويتية للدراسات والبحوث

وأما قوله :

حمارة جُمعت من كلِّ معزوة جمع الشبيكة نون الزاخر اللُّجبِ
فإنه ذهبَ إلى ما تقول الرواة أن حميرَ كانت حمارة .

وأما الشبيكة فأراد الشبيكة .

وقال السُرَّانُ : فهذا الفضلُ فينا ، ولم يصلِّ النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم
قط إلا على جنازةٍ أو قَبْرِ ، إلا النجاشيُّ فإنه صلَّى عليه وهو بالمدينةِ وقبِرُ
النجاشيُّ بالحبيشة .

قالوا : والنجاشيُّ هو كانَ زَوْجَ أمِ حَبِيبةَ بنتِ أبي سفيانٍ من النبيِّ صلى
الله عليه وسلم ، ودعا خالدُ بنُ سعيدٍ فجعله وليُّها ، وأصدقَ عن النبيِّ صلى
الله عليه وسلمَ أربعمئةَ دينارٍ .

قالوا : وثلاثة أشياء جاءتكم من قبلنا . منها الغالية ، وهي أطيب الطيب وأدخره وأكرمه . ومنها النعش وهو أستر للنساء وأضون للحرم . ومنها المصحف ، وشراوقى لما فيه وأحصن له ، وأبهى وأهيا .

[٤ - مزايا اللون الاسود]

قالوا : ونحن أهول في الصدور وأملا للعيون ، كما أن المسودة أهول في العيون وأملا للصدور من المبيضة ، وكما أن الليل أهول من النهار .

قالوا : والسواد أبداً أهول . وإن العرب لتصف الإبل فتقول : الصهب سرع ، والحمر غزر ، والسود بهي . فهذا في الإبل .

قالوا : وذهم الخيل أبهى وأقوى ، والبقر السود أحسن وأبهى ، وجلودها أثمن وأنفع وأبقى . والحمر السود أثمن وأحسن وأقوى . وسود الشاء أدسم البانأ وأكثر زبداً ، والدئس أغزر من الحمر .

وكل جبل وكل حجر إذا كان أسود كان أصلب صلابةً وأشد يوسة . والاسد الأسود لا يقوم له شيء .

وليس من الثمر شيء أحلى حلاوة من الأسود ، ولا أعم منفعة ولا أبقى على الدهر . والنخيل أقوى ما تكون إذا كانت سوداً الجذوع .

وجاء : « عليكم بالسواد الأعظم » ، وقال الأنصاري :

أدين وما ديني علي بمفرم ولكن على الشم الطوال القراوح
على كل خوار كأن جذوعها طلين بقار أو بدم ذبائح

قالوا : وأحسن الخضرة ما ضارع السواد . قال الله جل وعلا : ﴿ ومن ذومها جنتان ﴾ ، ثم قال لما وصفها وشوق إليها : ﴿ مدهاتان ﴾ قال ابن عباس : خضراوان من الرّي سوداوان .

وليس في الأرض عوداً أحسنَ خشباً ولا أغلى ثمناً ، ولا أثقلَ وزناً ولا
أسلمَ من القوادح ، ولا أجدرَ أن ينشَبَ فيه الخطُّ من الأبنوس . ولقد بلغ
من اكتنازه والتثامه وملوسته وشدة تداخله ، أنه يرسُبُ في الماء دونَ جميع
العِيدانِ والخشبِ . ولقد غلبَ بذلك بعضَ الحجارة ؛ إذ صار يرسُبُ وذلك
الحجرُ لا يرسُبُ .

والإنسانُ أحسنُ ما يكونُ في العينِ ما دام أسودَ الشعرِ . وكذلك
شعورُهُم في الجنةِ .

وأكرمُ ما في الإنسانِ حَدَقَتاهُ ؛ وهما سوداوان . وأكرمُ الأكحالِ الإئيدُ ،
وهو أسود . ولذلك جاء أن الله يُدخلُ جميعَ المؤمنين الجنةَ جُرداً مُرداً
مكحلين .

وأفنع ما في الإنسانِ له كبئنه التي بها تصلحُ معدته ، وينهضمُ طعامه ،
وبصلاح ذلك قامَ بدنه ، والكبدُ سوداءُ .

وأنفسُ ما في الإنسانِ وأعزُّه سويداءُ قلبه ، وهي علقةُ سوداءُ تكونُ في
جوفِ فؤاده ، تقومُ في القلبِ مقامَ الدماغِ من الرأسِ .

ومن أطيب ما في المرأةِ وأشهاه شَفَتَاهَا للتقبيلِ ، وأحسن ما تكونان إذا
ضارعتا السواد .

وقال ذو الرُّمة :

لَمِياءُ في شَفَتَيْهَا حُوءٌ لَعَسُ وفي اللِّثَاتِ وفي أنْيَابِهَا شَنَبُ

وأطيبُ الفُطْلُ وأبردهُ ما كانَ أسود . وقال الراجز :

سود غرابيب كإظلالِ الحجرِ

وقال حميد بن ثور :

ظَلَّلنَا إلى كهفٍ وظَلَّتْ رِكابُنَا إلى مستَكِناتٍ لهنَّ غروبُ

إلى شجرِ المي الظلال كأنه رواهبُ أجرَمَن الشُّرابِ عُذوب
وجعل الله اللَّيْلَ سكناً وجماماً ، والنَّهَارَ للكسبِ والكَدِّ .

والذي يدلُّ على أن السَّوَادَ في وجهِ آخرٍ مقرونٌ بالشَّدةِ والضَّرَامَةِ ،
والهَيْجِ والحركة ، انتشار الحَيَاتِ والعقاربِ وشَدَّةُ سُومِهَا بِاللَّيْلِ ، وهَيْجُ
السَّبَاعِ واستكلابِهَا بِاللَّيْلِ . وتحركُ الأوجاعِ وظهورُ الغِيلَانِ ، هذه كُلُّهَا
بالليل .

قال : وأشبهُنَا اللَّيْلَ من هذا الوجه .

قالوا : وأبلغ ما تكون القائلَةُ وأشفاها للنَّفْسِ ، وأسرع لمجيئِهَا إذا
أردتِهَا ، وأبطأ لذهابِهَا إذا كرهتِهَا ، ما كان منها في الظُّلْمَةِ ، عند إسيالِ
السُّتورِ وإغلاقِ الأبوابِ .

قالوا : وليس لونٌ أرسخُ في جوهره وأثبتُ في حُسنه من سَوَادِ .

وقد جرى المثلُ في تبديدِ الشَّيْءِ : *ولا ترى ذلك حتى يبيضُ القار ،
وحتى يثيبُ الغراب .*

مركز تحقيقات كويتيون سعوديون

وهو العَرَضُ المَلَأُ عند الحُكَمَاءِ .

وأكرمُ العطرِ المِسْكُ والعَنْبَرُ ، وهما أسودان .

وأصلبُ الأحجارِ سُودِهَا . وقال أبو ذَهَبِ الجَمَحِيُّ يمدح الأزرَقِ
المخزوميَّ ، وهو عبد الله بن عبد شمس بن المغيرة :

فإنَّ شكركَ عندي لا انقضاءَ له ما دامَ بالجَزَعِ من لُبْنَانَ جُلْمَسودُ
أنت الممدوحُ والمُغْلَى بهِ ثمناً إذ لا يعاتبُ صخرُ الجنسُدِ السُّودُ

والعربُ تَفخرُ بسوادِ اللُّونِ . فإنَّ قال : فَعَلَامَ ذلكَ وهي تقول : فلانُ
هجانُ ، وأزهرُ وأبيضُ ، وأغرُّ ؟ قلنا : ليس تريد بهذا بياضَ الجلدِ ، إنما تريد
به كرمَ الجواهرِ ونقاءه . وقد فخرتْ خُضرُ محاربٍ بأنَّها سُودُ ، والسُّودُ عند

العرب الخُضْر . وقال الشُّمَاح بن ضِرَار :

وَرَا حَتْ رَوَاحاً مِنْ زَرُودٍ فَنَازَعَتْ زُبَالَةَ جِلْبَاباً مِنَ اللَّيْلِ أَخْضَرَا

وقال الراجز :

حَتَّى انْتَضَى الصُّبْحُ مِنْ لَيْلٍ خُضِرُ مَثَلُ انْتِضَاءِ الْبَطْلِ السِّيفِ الذَّكْرُ

وهم يسمون الحديد أخضر لأنه صلب ؛ لأن الأخضر أسود .

وقال الحارث بن جِلْزَةَ :

إِذْ رَفَعْنَا الْجَمَالَ مِنْ سَعَفِ الْبَحْرِ سَرِينٍ سَمِيراً حَتَّى نَهَاها الْحِيسَاءُ

فَهَزَمْنَا جَمَعَ ابْنِ أُمِّ قَطَامٍ وَلَهُ فَارَسِيَّةٌ خَضِرَاءُ

وقال المحاربي وهو يفخر بأنه من الخُضْر :

فِي خُضْرٍ قَيْسٍ نَمَانِي كُلُّ ذِي فَخْرٍ صَعْبِ الْمَقَادَةِ أَبِي الضَّمِيمِ شَعْمَاعِ

وَبَنُو الْمَغِيرَةِ خُضْرُ بَنِي عَمْرٍ قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ بْنِ

الْمَغِيرَةِ الْمَخُومِيِّ - وَيُقَالُ إِنَّهَا لِلْفَضْلِ بْنِ الْعَبَّاسِ اللَّهْبِيِّ :

وَأَنَا الْأَخْضَرُ مَنْ يَعْرِفُنِي أَخْضَرُ الْجِلْدَةِ فِي بَيْتِ الْعَرَبِ

مَنْ يَسَاجِلُنِي يُسَاجِلُ مَاجِداً يَمْلَأُ الدُّلُوكَ إِلَى عَقْدِ الْكَرْبِ

وَأَخْضَرُ غَسَّانٌ بَنُو جَفْنَةَ الْمَلُوكِ ؛ قَالَ الْغَسَّانِيُّ :

إِنَّ الْخَضْرَاءَ الْخُضْرُ الَّذِينَ وَدَّوْا أَهْلَ الْبَرِيصِ نَمَانِي مِنْهُمْ الْحَكَمُ

وقد ذكر حسانٌ أو غيره الخُضْرَ من بني عُكَيْمٍ حين قال :

وَلَسْتُ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فِي بَيْتِ مَكْرَمَةٍ وَلَا بَنِي جَمْحِ الْخُضْرِ الْجَلَاعِيْدِ

قالوا : وكان ولد عبد المطلب العشرة السادة ذلماً ضحياً ، نظر إليهم

عامر بن الطفيل يطوفون كأنهم جمالٌ جُونٌ ، فقال : بهؤلاء تمنع السدانة .

وكان عبد الله بن عباس أدلمّ ضخماً . وآل أبي طالبٍ أشرفُ الخلق ،
وهم سُودٌ وأدمٌ ودلمٌ .

قالوا : وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « بُعثت إلى الأحمر والأسود » .
وقد علمت أنه لا يُقال للزنج والحبشة والنوبة بيضٌ ولا حمرٌ ، وليس
لهم اسمٌ إلا السُود .

وقد علمنا أن الله عز وجل بعث نبيه [إلى الناس] كافة ، وإلى العرب
والعجم جميعاً . فإذا قال : « بُعثت إلى الأحمر والأسود » ولنا عنده حمرٌ ولا
بيضٌ ، فقد بُعث إلينا ، فإنما عنانا بقوله « الأسود » . ولا يخرج الناس من
هذين الاسمين ، فإن كانت العرب من الأحمر ، فقد دخلت في عداد الروم
والصقالبة ، وفارسٍ وخراسان . وإن كانت من السُود ، فقد اشتم لها هذا
الاسم من اسمنا . وإنما قيل لهم وهم آدمٌ وسمرٌ سُودٌ ، حين دخلوا معنا في
جملتنا ، كما يجعل العربُ الإناث من الذكور ذكوراً .

وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أن الزنج والحبشة والنوبة
ليسوا بحمرٍ ولا بيضٌ ، وأنهم سُودٌ ، وقد بعث الله تعالى إلى الأسود والأحمر ،
فقد جعلنا والعرب سواةً ، ونكون نحن السُودَ دونهم . فإن كان اسمُ أسودَ
وقع علينا فنحن السودان الخُلص ، والعربُ أشباه الخُلص . فنحن المتقدمون
في الدعوة . وإذا كان اسمهم محمولاً على اسمنا ؛ إذ كنا وحدنا يقال لنا
سُودٌ ، ولا يقال لهم سُودٌ إلا أن يكونوا معنا .

[٥ - كثرة عدد السودان واتساع بلادهم]

قالوا : وأنتم ترون كثرة العدد مجداً ، ونحن أكثر الناس عدداً وولداً .

قالوا : ونحن صنفان : النمل والكلاب .

قالوا : ولو عدلتكم بالنمل العرب كلها لأربت عليها . فكيف إذا قرنت

إليها الكلاب ؟ ثم كيف إذا ضممت إليها الحبشة ، والنوبة وفزان ومرو
وزنجاوة وغير ذلك من أنواع السودان ؟

وليست قحطان من عدنان في شيء . ونحن بالحبشة أشبه ، وأرحامنا بهم
أمر من عدنان بقحطان . وإن ذكرتم اختلاف اللغات ، فإن لغة عجز
هوازن ، وقد تختلف اللغات والأصل واحد ، وقد تتفق والنجر مختلف . ومن
دخل أوائل خراسان وأواخرها ، وأوائل الجبال وفارس وأواخرها ، علم أن
اللغات قد تختلف لاختلاف طبائع البلدان والأصل واحد .

قالوا : وأنتم لم تروا الزنج الذين هم الزنج قط ، وإنما رأيتُم السبي
يحيء من سواحل قبلة وغيابها وأوديتها ، ومن مهنتنا وسفلتنا وعبيدنا ،
وليس لأهل قبلة جمال ولا عقول . وقبلة : اسم الموضع الذي تزفون منه
سفنكم إلى ساحله . لأن الزنج ضربان : قبلة ولنجوية ، كما أن العرب
ضربان : قحطان وعدنان . وأنتم لم تروا من أهل لنجوية أحداً قط ، لا من
السواحل ولا من أهل الجوف ، ولو رأيتوهم نسبتهم الجمال والكمال .

فإن قلتم : وكيف ونحن لم نر زنجياً قط له عقل صبي أو امرأة ؟

قلنا لكم : ومتى رأيتم من سبي السند والهند قوماً لهم عقول وعلم
وآداب وأخلاق حتى تطلبوا ذلك فيما سقط إليكم من الزنج . وقد تعلمون ما
في الهند من الحساب وعلم النجوم وأسرار الطب ، والخراط والنجر ،
والتصاوير والصناعات الكثيرة العجيبة ، فكيف لم يتفق لكم مع كثرة ما
سببتم منهم واحد على هذه الصفة ، أو بعشر هذه الصفة ؟

فإن قلتم : أهل الشرف والعقل والعلم إنما ينزلون بواسطة ، ويقرب
دار الملك ، وهؤلاء حاشية وأعلاج وأكثر ، ونزال السواحل والأجام والفيوض
والجزائر ، من أكابر ومن صياد .

قلنا : وذلك من رأيتم ومن لم تروا منا . وجوابنا هو جوابكم لنا .

قالوا : ولو أن الزنجي والزنجية إذا تناكحا بقيت أولادهما بعد الحيض والاحتلام ببلاد العراق ، كانوا قد غلبوا على الدار بالعدد والجلد ، والعلم والتدبير ، ولكن ولد الهندي والهندي ، والرومي والرومية ، والخراساني والخراسانية ، يبقون فيكم وفي بلادكم كبقاء آبائهم وأمهاتهم ، ولا يبقى ولد الزنجيين بعد الحيض والاحتلام . على اننا لا نصيب في عشرة آلاف ، واجد يبلغ ما ذكرنا ، إلا أن يضرب الزنجي في غير الزنجيات ، والزنجية في غير الزنج . ولولا أن الزنجي والزنجية قليلاً ما يريدان من الغرائب والغرباء ، لكننا على حال سنرى لرجال الزنج نسلًا كثيراً . ولكن الزنجية لا تكاد تنشط لغير الزنجي .

قالوا : وكذلك البيضان منكم ، لا يكادون ينشطون لطلب النسل من الزنجيات . والزنجية أيضاً من الزنجي أسرع لقاحاً منها من الأبيض .

قالوا : وانتم لا تكادون تعدون بمن ولد له من صلبه مائة ولد إلا أن يكون خليفة ، فيكون ذلك لكثرة الطروقة ، ولا تجدون ذلك في سائركم . والزنج لا تستكثر هذا ولا تستعظمه ؛ لكثرتهم في بلادهم ، لأن الزنجية تلد نحواً من خمسين بطناً في نحو من خمسين عاماً ، في كل بطن اثنين ، فيكون ذلك أكثر من تسعين . لأنه يقال إن النساء لا يلدن إذا بلغن الستين إلا ما يحكى عن نساء قريش خاصة .

والزنج أحرص من خلق الله على نسايتهم ، ونساؤهم لهم كذلك ، وهن أطيب من غيرهن .

قالوا : فتأملوا قولنا واحتجاجنا ، فإننا قد رويناهم الأخبار وقلنا الأشعار ، وعرفناكم وعرفنا الأمم .

وقد كان الفرزدق أعلم الناس بالنساء ، وكان قد جرب الأجناس كلها

فلم يجذ مثلهن ، ولذلك تزوج أم مكية الزنجية وأقام عليها ، وترك النساء ،
للذي وجد عندها . وفي ذلك يقول :

يا رُبَّ خَوْدٍ من بنات الزنج تمشي بتنوير شديد الوهج
أخشم مثل القدح الخلتج

وكانت دنائير بنت كعبويه الزنجي عند أعشي سليم ، وكانت شديدة
السواد ، فرآها يوماً وقد خضبت يديها بالحناء ، واكتحلت بالإثمد ، فقال :

تخضب كفاً بتكت من زندها فتخضب الحناء من مسودها
كأنها والكحل في مرودها تكحل عينها ببعض جلدها
فلما سمعت ذلك قالت :

وأقبح من لوي سواد عجانهِ على بشر كالقلب أو هو أنصح
فسموه أسود ، وصاح به الصبيان فطلقها . وقد كان صبيحة عرسها
قال :

إن الدنيا خير مما تكون سودا

فقال :

بياض الرأس أقبح من سوادِي وشيب الحاجبين هو الفضوح
فامسك عنها حيناً ثم عاودها ، فلما فضحت طلقها .

قالوا : وإن نظر البيضان إلى نساء السودان بغير عين الشهوة فكذلك
السودان في نساء البيضان . على أن الشهوات عادات وأكثرها تقليد . من
ذلك أن أهل البصرة أشبه النساء عندهم الهنديات وبنات الهنديات
والأغوار . واليمن أشبه النساء عندهم الحبشيات وبنات الحبشيات . وأهل
الشام أشبه النساء عندهم الروميات وبنات الروميات . وكل قوم فإنما
يشتهون جلبهم وسبيهم . إلا الشاذ ، وليس على الشاذ قياس .

قالوا : وأطيبُ الأفواه نكهةً ، وأشدُّها عذوبةً ، وأكثرها ريقاً ، أفواهُ
الزنج . والكلاب من بين السباع أطيبُ أفواهاً منها .

قالوا : والسوادُ مُلاومٌ للعين ، وإذا اعتلتْ فخيْفٌ عليها لم يكن لها دواءٌ
خيراً من القعود في الظلِّمة وفي يد صاحبها خرقةٌ سوداء . فالسوادُ للإبصار ،
وخيراً ما في الإنسان البصر .

وقالوا : والسُودانُ أكثر من البيضان ، لأنَّ أكثر ما يُعدُّ البيضانُ فارسَ
والجبالَ وخراسانَ ، والرُّومَ والصُّقالبَ وفرنجةَ والأبر ، وشيثاً بعد ذلك قليلاً
غير كثير . والسُودانُ يُعدُّونَ الزُّنجَ والحبشةَ ، وقَزَانَ وبربرَ ، والقبطَ والنُّوبةَ ،
وزَغاوةَ ومَرَّرَ ، والسُّندَ والهندَ ، والقَمَارَ والدَّيِّلا ، والصُّينَ وماصينَ . والبحرُ
أكثر من البرِّ ، وجزائرُ البحرِ ما بين الصُّينَ والزُّنجَ مملوءةٌ سُوداناً ،
كسرنديبَ ، وكَلَهَ ، وأملَ ، وزابجَ وجزائرها إلى الهندِ إلى الصُّينِ إلى كابلَ وتلك
السواحلُ .

قالوا : وكان الأعمى الاشتيام يقول : السُودانُ أكثر من البيضانَ ،
والصُّخرُ أكثر من الوحلِ ، والرَّمْلُ أكثر من التُّرابِ ، والماءُ المسالِحُ أكثر من
العذبِ .

قالوا : ومنا العرْبُ لا من البيضانَ ؛ لقرب ألوانهم من ألواننا . والهندُ
أسفَرُ ألواناً من العرْبِ ، وهم من السُودانِ . ولأنَّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم
قال : « بُعثتُ إلى الأحمرِ والأسودِ » . وقد علم النَّاسُ أنَّ العرْبَ ليست بحمُرٍ
كما ذكرنا قبلَ هذا .

قال : فهذا المُفخِرُ لنا وللعرْبِ على جميعِ البيضانِ إنَّ أحبَّتُ ذلك
العرْبُ ؛ وإن كرهته فإنَّ المُفخِرَ لنا بالذي ذكرنا على الجميعِ .

قالوا : ولو لم نكثركم إلا بالزابجِ وحدها لفضَّلناكم بهم فضلاً مبيِّناً ؛
وذلك أنَّ ملكَ الزابجِ إنَّ غضِبَ على أهلِ مملكةٍ ولم يتَّقوه بالخراجِ بعث ألفَ

سُنْبُوقَةٌ فِي كُلِّ سُنْبُوقَةٍ أَلْفُ رَجُلٍ عَلَى أَنْ [لَا] يَجْلِدُوهُمْ وَلَا يِقَاتِلُوهُمْ ، وَلَكِنْ يَأْمُرُهُمْ أَنْ يَقِيمُوا أَيْدِيَهُمْ فِيهِمْ حَقًّا بِتَقْوَاهُمْ بِالخِرَاجِ ، فَيَكُونُ مَا يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَيُغَذَّوْنَ وَيَلْبَسُونَ ، أَضْرُّ عَلَيْهِمْ مِنْ مَقْدَارِ الخِرَاجِ الْمَرَارَ الْكَثِيرَةِ .
فَإِنْ اتَّقَوْهُمْ بِالخِرَاجِ وَالْأَرْضَ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ أَلْفَ سُنْبُوقَةٍ أُخْرَى ، فَلَا يَجِدُ ذَلِكَ الْمَلِكُ بَدَأَ مِنْ أَنْ يَتَّقِيَهُ بِكُلِّ مَا طَلَبَ ، وَلَا يَأْمَنُ أَنْ يَغْضَبَ فَيَأْتِيَ عَلَيْهِ وَعَلَى أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ .

قَالُوا : وَلَقَدْ نَزَلَ مَلِكُ الزَّبَاجِ عَلَى خَلِيجٍ مَرَّةً وَالخَلِيجُ فِرَاسِخٌ فِي فِرَاسِخٍ ، فَبَيْنَمَا هُوَ عَلَى مَائِدَتِهِ فِي سِرَادِقِهِ عَلَى شَاطِئِ الخَلِيجِ ، إِذْ سَمِعَ صَارِخَةً فَقَالَ : مَا هَذَا ؟ وَقَطَعَ الْأَكْلَ . قَالُوا : امْرَأَةٌ سَقَطَتْ ابْنُهَا فِي هَذَا الخَلِيجِ فَأَكَلَهُ التَّمْسَاحُ . قَالَ : وَفِي مَكَانٍ أَنَا فِيهِ شَيْءٌ يَشَارِكُنِي فِي قَتْلِ النَّاسِ ! ثُمَّ وَثَبَ فَلِذَا هُوَ فِي الخَلِيجِ . فَلَمَّا [رَأَى] النَّاسَ سَقَطُوا عَنْ آخِرِهِمْ ، فَخَضَّخَضَّوْهُ وَهُوَ فِرَاسِخٌ فِي فِرَاسِخٍ ، حَتَّى أَخَذُوا كُلَّ تَمْسَاحٍ فِيهِ أَخَذَ يَدًا .

فَيَقَالُ : إِنَّ أَهْلَ الزَّبَاجِ وَأَغْيَابَهَا أَكْثَرُ مِنْ شَطْرِ أَهْلِ الْأَرْضِ .

قَالُوا : وَآخِرُ العُمَرَانِ كُلُّهُ سَوْدَانٌ ، وَمَا اسْتَدَارَ مِنْ أَقْصَى العُمَرَانِ أَكْثَرَ مِنْ أَهْلِ الوَاسِطَةِ ، كَطُوقِ الرُّحَى الَّذِي يَلِي الهَوَاءَ ، الَّذِي هُوَ أَوْسَعُ وَأَكْثَرُ ذِرْعًا مِمَّا قَصَرَ عَنْهُ مِنْ قَلْبِ الرُّحَى وَلِنَعْتَبِرُ ذَلِكَ بِالْجَنَاحِ المُنِيفِ ، لَا يَرَى أَحَدٌ ذِرْعَهُ مَعَ قَلْبِهِ عَرَضَهُ ، وَنَجْدَهُ أَكْثَرَ ذِرْعًا مِنْ نَفْسِ الدَّارِ .

وَلَيْسَ خَلْفَ الزَّبَاجِ بِيضَانٌ ، وَكَذَلِكَ جَمِيعُ بِلَادِ السُّودَانِ السَّاكِنَةِ فِي الْأَطْرَافِ وَفِي آخِرِ أَطْوَاقِ العُمَرَانِ .

قَالُوا : فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَا أَكْثَرُ ، وَإِذَا كُنَّا أَكْثَرَ كُنَّا أَفْخَرُ . وَقَدْ قَالَ شَاعِرُكُمْ :

وَلَسْتُ بِالْأَكْثَرِ مِنْهُ حَقًّا وَإِنَّمَا الْعِزَّةُ لِلْكَائِمِ

قَالُوا : وَالْقَبْطُ جَنْسٌ مِنَ السُّودَانِ وَقَدْ طَلَبَ مِنْهُمْ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ

[الولد] فولد له منهم نبي عظيم الشأن ، وهو أبو العرب إسماعيل عليه السلام . وطلب النبي صلى الله عليه وسلم منهم الولد ، وولد له إبراهيم ، وكناه به جبريل .

قالوا : والحجر الأسود من الجنة . والنحاس إذا اشتد سواده كان اثنان وأجود . فمن استنكر لون السواد فما في فرنجة والروم والصقالبة من إفراط سبوطه الشعر والرقة والصهوية ، والحمرة في شعر الرأس واللحية ، وبياض الحواجب والأشفار ، أقبح وأسمج . وليس في السودان مغرب ، ليس المغرب إلا فيكم . ولا سواد من لم تنضجه الأرحام وما جازت به حد التمام .

[٦ - اثر البيئة في لون السودان والبيضان]

قالوا : ولنا بعد معرفة بالتفلسف والنظر ، ونحن أثقف الناس . ولنا في الأسرار حجة . ونحن نقول : إن الله تعالى لم يجعلنا سوداً تشويهاً بخلقنا ، ولكن البلد فعل ذلك بنا . والحجة في ذلك أن في العرب قبائل سوداً كبنو سليم بن منصور . وكل من نزل الحرّة من غير بني سليم كلهم سود . وإنهم ليتخذون الممالك للرعي والسقاء ، والمهنة والخدمة ، من الأشبانيين ومن الروم نسائهم ، فما يتوالدون ثلاثة أبطن حتى تنقلهم الحرّة إلى ألوان بني سليم . ولقد بلغ من أمر تلك الحرّة أن طبأها ونعامها ، وهوائها وذبابها وثعالبها وشاءها وحميرها ، وخيلها ، وطيرها كلها سود . والسواد والبياض إنما هما من قبل خلقة البلدة ، وما طبع الله عليه الماء والتربة ، ومن قبل قرب الشمس وبعدها ، وشدة حرّها . وليس ذلك من قبل مسخ ولا عقوبة ، ولا تشويه ولا تقصير .

على أن بلاد بني سليم تجري تجرى بلاد الترك . ومن رأى إبلهم ودوابهم وكل شيء لهم تركي رآه شيئاً واحداً . وكل شيء لهم تركي المنظر . وربما رأى الغزاة دون العواصم اخلاط غنم الروم فلا يخفى عليهم غنم الروم

من غنم الشام ، للرومية التي يرونها فيها .

وقد نرى الناس أبناء الأعراب والأهرايبات الذين وقعوا إلى خراسان فلا
نشك أنهم علوج القرى . وهذا موجود في كل شيء . وقد نرى جرّاد البقل
والرّيحان وديدانها خضراً ، ونرى قمل رأس الشاب سوداً ، ونراها إذا ابيض
رأسه بيضاً ، ونراها إذا خضبت حمراً .

فليس سوادنا ، معشر الزنج ، إلا كسواد بني سليم ومن عددنا عليكم
من قبائل العرب في صدر هذا الكلام .

وما إفراط سواد من اسود من الناس إلا كإفراط بياض من ابيض من
الناس . وكذلك السمرة المتولدة من بينها ، وكذلك الزي والهيئات ، وكذلك
الصناعات ، وكذلك المطاعم والشهوات .

وقد ذكر الشاعر ، حين مدح أسيلم بن الأحنف الأسدي ، سواد
اليمانية فقال :

أسيلم ذاكم لا تخفا بمكاتبه
لعين يداحي أو لأذن تسمع
من النقر الشم الذين إذا انتموا
وهاب الرجال حلقة الباب فعمعوا
جلا الأذفر الأحوى من المسك فرقه
وطيب الدهان رأسه وهو أنزع
إذا النقر السود اليمانون حاولوا
له حوك برديه أرقوا وأسمعوا

وقد عاب بعض اليماني عبد بن جمدة بلونه ، فقال :

قد عاب لوني أقوام فقلت لهم
ما عاب لوني إلا مفرط الحمق
إن كسان لوني فيه دعة كلف
حزن الإهاب فإن أبيض الخلق
أرضي الصديق وأحبي الظعن معترضاً
صدر القنابة وأكنى كنه السرقي

وكانت امرأة عمرو بن شاس تجفو جرّار بن عمرو ، وكان ابن سوداء ، فقال

عمرو بن شاس في ذلك ، وفي صفة أبناء الحبشيات والزنجيات :

الم يأتيها أني صحوت وأنني
وأطرق إطراق الشجاع ، ولو يرى
أرادت عرّاراً بالهوان ومن يرد
وإن عرّاراً إن يكن غير واضح
فإن كنت مني أو تحبين شيمتي
والأ فبيني مثل ما بان ركب

تخشعت حتى ما أعارم من عرم
مساغاً لنايبه الشجاع لقد أزم
عرّاراً لعمري بالهوان فقد ظلم
فإني أحب الجون ذا المنكب العمم
فكسوي له كالسمن ربت له الأدم
تزود بخساً ليس في سيره أتم

وأما الهند فوجدناهم يُقدّمون في النجوم والحساب ، ولهم الخطّ الهندي
خاصة ، ويقدمون في الطب ، ولهم أسرار الطبّ وعلاج فاحش الأدوية
خاصة . ولهم خرط التماثيل ونحت الصور بالأصباغ تتخذ في المحاريب
وأشبه ذلك . ولهم الشطرنج ، وهي أشرف لعبة وأكثرها تدبيراً وفطنة . ولهم
السيوف القلعية ، وهم ألب الناس بها وأحذقهم ضرباً بها . ولهم الرمي
النافذة في السُموم وفي الأوجاع . ولهم غناء مُعجِب . ولهم الكنكلة ، وهي
وتر واحد يمدُّ على قرعة فيقوم مقام أوتار العود والصنج . ولهم ضروب الرقص
والحنفة ، ولهم الثقافة عند الثّقاق خاصة ، ولهم معرفة المناصفة ، ولهم السحر
والتدخين والدمازكية . ولهم خطّ جامع لحروف اللغات ، وخطوط أيضاً
كثيرة ، ولهم شعرٌ كثير وخطب طوال ، وطب في الفلسفة والأدب . وعندهم
أخذ كتاب قليلة ودمنة . ولهم رأي ونجدة ، وليس لأحد من أهل الصبر ما
لهم . ولهم من الرّي الحسن والأخلاق المحمودة مثل الأجلة والقرن والسواك ،
والاحتباء ، والفرق والخضاب . وفيهم جمال وملح واعتدال وطيب عرق .
وإلى نساتهم يضرب الأمثال . ومن عندهم جاءوا الملوك بالعود الهندي الذي
لا يعيدله عود . ومن عندهم خرج علم الفكر ، وما إذا تكلم به على السّم لم
يضر . وأصل حساب النجوم من عندهم أخذه الناس خاصة . وآدم عليه
السلام إنما هبط من الجنة فصار ببلادهم .

قالوا : ومن مفاخر الزنج حُسن الخلق ، وجودة الصوت . وإنك لتجد

ذلك في القيان إذا كن من بنات السند .

وخصلة أخرى : أنه لا يوجد في العبيد أطبخ من السندي ، هو أطبخ على طيب الطبخ كله .

ومن مفاخرهم أن الصيارفة لا يولون أكبستهم وبيوت صروفهم إلا السند وأولاد السند ؛ لأنهم وجدوهم أنفذ في أمور الصرف ، وأحفظ وآمن . ولا يكاد أحد أن يجد صاحب كيس صيرفي ومفاتيجه ابن رومي ولا ابن خراساني .

ولقد بلغ من تبرك التجار بهم أن صيارفة البصرة وبنادرة البريهارات ، لما رأوا ما كسب فرج أبوزوح السندي لمولاه من المال والأرضين اشترى كل امرئ منهم غلاماً سندياً ، طمعاً فيما كسب أبوزوح لمولاه .

قال : وكان عبد الملك بن مروان يقول : « الأدغم سيد أهل المشرق » يعني عبداً لله بن أبي بكر . وكان أشد السودان سواداً . وإياه يعني عبداً لله ابن خازم حيث يقول :

حَبَشِيٌّ مَرْتَحِيكِيْتِيْهِمْ مَدِي حَبَشَةٌ

فهذا جملة ما حضرنا من مفاخر السودان . وقد قلنا قبل هذا في مفاخر قحطان ، وسنقول في فخر عدنان على قحطان في كثير مما قالوا إن شاء الله .

هامش كتاب فخر السودان على البيضان

(١) يذكر الجاحظ اسم احد كتبه الذي ذكره في مقدمة كتاب الحيوان اعني كتاب الصرخاء والمجناء . والصريح هو العربي الأب والام . والمجين هو العربي الأب ولكن امه امة غير عربية .

- ينبغي ملاحظة الالفاظ الغريبة في كلام الأصمعي العالم اللغوي والراوية المشهور وقد أخذ عنه الجاحظ . امثال الخربة اي الثقب ، والترع اي التسرع ، والطمش اي الخلق : ولكن استعمال ترع بمعنى تسرع غير موافق لمعنى الجملة او المثل الذي ضربه : لا يقرب العنز الفئان ما وجدت الماعز ، وتنفر الشاة من المخلب ولا تأنس بالحف . وربما كان استبدالها بكلمة يتترع افضل .

(٢) لقمان الحكيم تضاربت الآراء حول شخصيته وهويته ، وقد ورد اسمه في القرآن ، ونسبت اليه حكم ووصايا كثيرة لابنه .

- مهجع هو مولى عمر ، وقد قتل يوم بدر .

- المقداد : هو المقداد بن الاسود الكندي ابوه عمرو بن ثعلبة حليف كنده . حسن اسلامه وناضل في سبيل الدين وقتل في خلافة عثمان سنة ٣٣ هـ .

- وحشي بن حرب الحبشي مولى بني نوفل .

- مكحول بن سهراب ، عرف بفقهاء وتوفي سنة ١١٢ هـ .

- الحيفطان شاعر عاش في العصر الأموي وتبادل المهجاء مع جرير وتفسوح من شعره رائحة الشعوبية . وقد اثبت له الجاحظ في كتاب فخر السودان على البيضان قصيدة رائية يفخر فيها بقومه ويهجو جريراً .

- سنيح بن رباح شار : شاعر اسود عاش ايضاً في العصر الأموي وتبادل المهجاء مع جرير ، والقصيدة التي اثبتها الجاحظ له هنا تبين نزعة الشعوبية واعتداده بقومه السود . ولا حاجة لشرح معانيها لأن الجاحظ اعفانا من هذه المهمة فشرحها باسهاب .

(٣) القياس : سمي الجاحظ قياساً الجملة السابقة وهي : « انهم صاروا اسخياء لضعف عقولهم ولقصر رواياتهم ولجهلهم بالعواقب » ومعنى ذلك ان كل ضعيف العقل سخى . والزنج اسخياء لانهم ضعاف العقول . فالعلة في السخاء هي ضعف العقل والعلة في البخل هي رجاحة العقل .

بيد ان هذا القياس لا ينطبق على الصقالبة والروم ولا على النساء والصبيان . فالصقالبة ابخل من الروم مع انهم اضعف عقولا منهم . والنساء والصبيان ابخل من الرجال مع انهم اضعف عقولاً منهم .

ان القياس يعني إذا بناء على هذه الامثلة التي ذكرها الجاحظ نقل الحكم من شيء الى آخر للعلة ذاتها . ولكن الجاحظ يعتبر قياس خصوم الزنج غير صحيح لانهم قلبوا القياس وبدأوا بالنتيجة بدل البدء بالمقدمة العامة .

- ان السخاء او البخل ، والخلق عامة ، وكذلك العقل ، هبة من الله او فطرة اودعها الله في الناس . وهذا هو المبدأ الفلسفي الذي نادى به الجاحظ . فليس السخاء الذي نلغيه في الزنج او عند بعض الاشخاص نتيجة ضعف العقل او غير ذلك من الاسباب .

- عكيم الحبشي شاعر من السودان الاجباش عاصر الكمييت الاسدي . وقد اثبت له الجاحظ هنا خمسة ابيات يفتخر بها ببلاء السودان في المعارك .

(٤) « سويداء القلب وهي علقته سوداء تكون في جوفه ، تقوم في القلب مقام الدماغ من الرأس » . لم يوضح الجاحظ ماذا يعني بذلك ، وما هو الشبه بين سويداء القلب ودماغ الرأس .

- لاحظ النعرة الشعوية في تفسير قول النبي « بعثت الى الاحمر والاسود » . ان السود هم اصحاب الدعوة بنظر هؤلاء وهم المتقدمون على العرب .

(٥) لاحظ المبالغة في العصبية الشعوية التي دفعت السودان الى اعتبار الصين والهند والعرب ومرو من بلاد السودان . والقمار والديبلا وكلة وزابج من بلاد الهند .

(٦) انظر كيف يفسر الجاحظ اختلاف الوان البشر . انه تفسير طبيعي محض يتفق مع فلسفته الطبيعية . فالبيثة هي التي صيرت لون السودان اسود ولون البيضان ابيض بسبب شدة الحر او شدة البرد الخ . .

(٧) عدد علوم الهند لانه اعتبر الهند من السود . ولم يترك علماً لم ينسبه اليهم : الحساب ، الفلك ، الخط ، الطب ، صناعة الادوية ، النحت ، الشطرنج ، صنع السيوف ، الموسيقى والآلها ، الرقص ، السحر ، الشعر ، الخطابة ، الفلسفة ، الأدب .

- علم الفكر : احد علوم الهند ، وهو كلام يتلى على السم فيصبح غير ضار .
- كليلة ودمنة اصله هندي برأي الجاحظ ، وهو أقدم من أشار الى ذلك .
- الدمازكية : لفظة هندية على الأرجح .
- اعمال الصيرفة كانت رائجة في البصرة وبغداد في عصر الجاحظ . وقد برع فيها الموالي من اصل سندي .
- بنادرة البربهارات : تجار العقاقير او التوابل .
- حبشي حبشته حبشة : اي اسود من بلاد الحبشة ، ولدت له امرأة حبشية . يعنى به عبد الله بن ابي بكر الذي عاش في العصر الأموي . والشعر لعبد الله بن خازم البصري امير خراسان لبني أمية وقد ثار به اهل خراسان وقتلوه سنة ٧٢ هـ .
- يشير الى كتابين من كتبه هما : فخر قحطان ، وفخر عدنان على قحطان . انظر كشاف آثار الجاحظ .



مركز بحوث كالمبيوتر علوم إرسودي

- ۹ -



کتاب الحجاب

مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

[١ - مقدمة]

أطال الله بقاءك ، وجعلني من كل سوء فداءك ، وأسعدك بطاعته
وتولّك بكرامته ، ووالى إليك مزیده .

إنه يقال - أكرمك الله - « إن السعيد من وعظ بغيره ، وأن الحكيم من
أحكمته تجاربه » . وقد قيل : « كفاك أدباً لنفسك ما كرهت من غيرك »
وقيل : « كفاك من سوء سماعه » ، وقيل : « إن يقظة الفهم للواعظ مما يدعو
النفس إلى الحذر من الخطأ ، والعقل إلى تصفيته من القذى » .

وكانت الملوك إذا أتت ما يجملُ عن المعاتبة عليه ضربت لها الأمثال ،
وعرض لها بالحديث . وقال الشاعر :

العبد يقرعُ بالعصا والحُرُّ تكفيه الملامةُ

وقال آخر :

وبكفبك سواتِ الأمور اجتنأها

وقال عبد المسيح المتلمسُ :

لذي الحلم قبل اليوم ما تُقرعُ العصا وما عُلم الإنسان إلا ليعلمها

وقال بعضهم : « في خفيّ التعريض ما أغنى عن شنيع التصريح » .

وقد جمعتُ في كتابي هذا ما جاء في الحجاب من خبرٍ وشعرٍ ، ومعاتبَةٍ
وعُذرٍ ، وتصريحٍ وتعريضٍ ، وفيه ما كفى . وبالله التوفيق :

وقد قلت :

كفى أدباً لنفسك ما تراه لغيرك شائناً بين الأنام

[٢ - النهي عن الحجاب]

رُوِيَ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ مِنْ
السُّلْوةِ اضْطَلَعَ بِأَمَانَتِهِ وَأَمْرِهِ : إِذَا عَدَلَ فِي حُكْمِهِ ، وَلَمْ يَحْتَجِبْ دُونَ غَيْرِهِ ،
وَأَقَامَ كِتَابَ اللَّهِ فِي الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ » .

وَرُوِيَ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ وَجَّهَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى
بَعْضِ الرُّجُوعِ ، فَقَالَ لَهُ فِيهَا أَوْصَاءَ بِهِ : « إِيَّيْ قَدْ بَعَثْتُكَ وَأَنَا بِكَ ضَمِينٌ فَابْرُزْ
لِلنَّاسِ ، وَقَدِّمِ الوَضِيعَ عَلَى الشَّرِيفِ ، وَالضَّعِيفَ عَلَى الْقَوِيِّ ، وَالنِّسَاءَ قَبْلَ
الرِّجَالِ ، وَلَا تُدْخِلَنَّ أَحَدًا يَغْلِبُكَ عَلَى أَمْرِكَ ، وَشَاوِرِ الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ إِمَامُكَ » .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا استعمل عاملاً شرط عليه
أربعاً : لا يركب برفدونا ، ولا يتخذ حاجباً ، ولا يلبس كثناناً ، ولا يأكل
ذرمكاً .

ويوصي عماله فيقول : إياكم والحجاب ، وأظهروا أمركم بالبراز ،
وخذوا الذي لكم وأعطوا الذي عليكم ، فإن امرأة ظلمت حقه مضطرة حتى ينفذوا
به مع الغادين .

وكتب عمر رضوان الله عليه إلى معاوية وهو عامله على الشام :

« أما بعدُ فإنني لم ألك في كتابي إليك ونفسي خيراً . إياك والاحتجاب
دون الناس ، وأذن للضعيف وأدينه حتى ينسبط لسانه ، ويمتريء قلبه ، وتعهد
الغريب فإنه إذا طال حبسه وضاق إذنه ترك حقه ، وضعف قلبه ، وإنما أتوى

حَقُّهُ مَنْ حَبَسَهُ . واحرص على الصلح بين الناس ما لم يستثن لك القضاء .
وإذا حضرك الخصمان بالبينّة العادلة والأيمان القاطعة فأمض الحكم .
والسلام .»

وكتب عمر رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري :

«أس بين الناس في نظرك وججايبك وإذتك ، حتى لا يطمع شريف في
خيفك ، ولا يياس ضعيف من عدلك . وأعلم أن أسعد الناس عند الله تعالى
يوم القيامة من ساعد به الناس ، وأشقاهاهم من شقوا به .»

وروى الهيثم بن عدي عن ابن عباس قال : قال لي عبيد الله بن أبي
المخارق القيني :

استعلمني الحجاج على الفلوجة العليا ، فقلت : أما ها هنا دهقان
يعاش بعقله ورأيه ؟ فقبل لي : بل ، ها هنا جميل بن بضرى . فقلت : علي
به . فأتاني فقلت : إن الحجاج استعلمني على غير قرابة ولا دالة ولا وسيلة ،
فأشّر علي . قال :

لا يكون لك بواب حتى إذا تذكر الرجل من أهل عملك بابك لم يخف
حجابك ، وإذا حضرك شريف لم يتأخر عن لقائك ولم يحكم على شرفك
حجابك . وليطل جلوسك لأهل عملك ييبك عمالك ، ويبقى مكانك ولا
يختلف لك حكم على شريف ولا وضيع ، ليكون حكمك واحداً على الجميع ،
يثق الناس بعقلك . ولا تقبل من أحد هدية فإن صاحبها لا يرضى بأضعافها
مع ما فيها من الشهرة .

قال موسى الهادي لحاجبه : لا تحجب الناس عني ، فإن ذلك يزيل التزكية ،
ولا تُلقي إليّ أمراً إذا كشفته وجدته باطلاً ، فإن ذلك يوتغ المملكة .

وقال بعض الخلفاء لحاجبه : إذا جلست فأذن للناس جميعاً علي ، وأبرز
فم وجهي ، وسكن عنهم الأحراس ، واخفص لهم الجناح ، وأطب لهم

بشرك ، وألن لهم في المسألة والمنطق ، وارفع لهم الحوائج ، وسو بينهم في
المراتب ، وقدمهم على الكفاية والغناء ، لا على الميل والهوى .

[٣ - واجبات الحاجب]

وقال آخر لحاجبه : إنك عيني التي أنظر بها ، وجنة أستنيم إليها ، وقد
وليتك باي فما تراك صانعاً برعيتي ؟

قال : أنظر إليهم بعينك ، وأحملهم على قدر منازلهم عندك ، وأضعهم
لك في إبطائهم عن بابك ولزومهم خدامتك مواضع استحقاقهم ، وأرتبهم
حيث ونسبهم ترتيبك ، وأحسن إبلاغك عنهم وإبلاغهم عنك .

قال : قد وفيت بما عليك ولك قولاً ، إن وفيت به فعلاً . والله ولي
كفايتك ومعونتك .

وعهد أميراً إلى حاجبه فقال : إن أداء الأمانة في الأعراض أوجب منها في
الأموال ، وذلك أن الأموال وقاية للأعراض ، وليست الأعراض بوقاية
للأموال . وقد ائتمنتك على أعراض الغائبين لبابي ، وإنما أعراضهم
أقدارهم ، فصنّها لهم ، ووفرها عليهم . وصنّ بذلك عرضي ، فلعمري إن
صيانتك أعراضهم صيانة لعرضي ، ووقايتك أقدارهم وقاية لقدري ؛ إذ كنت
الحظي بزوين إنصافهم إن أنصفوا ، والمبتلى بشين ظلمهم إن ظلموا في
غشيانهم بابي ، وحضورهم فنائي .

أوف كل أمرى قدره ، ولا تُجاور به حذّه ، وتوق الجور في ذلك التوقي
كله . أقبل على من تحجب بإبداء البشر وحلاوة العذر ، وطلاقة الوجه ولين
القول ، وإظهار الود ، حتى يكون رضاه عنك لما يرى من بشاشتك به
وطلاقتك له ، كرضاه من تأذن له عنك لما يمنحه من التكريم ، ويحويه من
التعظيم ؛ فإن المنع عند الممنوع في لين المقالة يكاد يكون كالتبيل عند العطاء

في نفع المَنَالَة .

أَنَّهُ إِلَىٰ حَالَاتِ كُلِّ مَنْ يَغْشَىٰ بَابِي مِنْ وَجِيهِهِ وَخَامِلٍ ، وَذِي هَيْئَةٍ وَأَخِي
رَثَائَةٍ ، فَيَا مَحْضُرُونَ لَهُ بَابِي ، وَيَتَعَلَّقُونَ بِهِ مِنْ إِيَابِي .

لَا تَحْتَقِرُنَّ مَنْ تَقْتَحِمُهُ الْعَيُونَ لِرَثَائَةِ ثَوْبٍ أَوْ لِدِمَامَةِ وَجْهِهِ ، احْتِقَارًا يَخْفَى
عَلَىٰ آثَرِهِ ، فَرُبَّمَا بَدَأَ مِثْلَهُ بِمَخْبِرِهِ مِنْ يَرُوقُ الْعَيُونَ مِنْظَرُهُ .

إِنَّكَ إِنْ نَقَصْتَ الْكَرِيمَ مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنْ مَالٍ لَمْ يَغْضَبْ بَعْدَ أَنْ تَسْتَوْهَبَهُ
مِنْهُ ، وَإِنْ نَقَصْتَ مِنْ قَدْرِهِ أَسْخَطْتَهُ أَشَدَّ الْإِسْخَاطِ ، إِذْ كَانَ يَرِيدُ دُنْيَاهُ
لِيَصُونَ بِهَا قَدْرَهُ ، وَلَا يَرِيدُ قَدْرَهُ لِيُبْقِيَ بِهِ دُنْيَاهُ . فَكُنْ لِتَحْيُفِ عِرْضِهِ أَشَدَّ
تَوْقِيًّا مِنْكَ لِتَحْيُفِ مَالِهِ .

إِنَّ الْمَحْجُوبَ وَإِنْ كَانَ عَدُوًّا فِي حِجَابِهِ كَعَدَلْنَا عَلَى الْمَأْذُونِ لَهُ فِي إِذْنِهِ ،
يَتَدَاخَلُهُ انْكَسَارٌ إِذَا حُجِبَ وَرَأَى غَيْرَهُ قَبْدَ إِذْنِ لَهُ . فَاخْتَصُّهُ لِذَلِكَ مِنْ
بِشَائِئِكَ بِهِ ، وَطَلَّاقَتِكَ لَهُ ، بِمَا يَتَحَلَّلُ بِهِ عَنْهُ انْكَسَارُهُ . فَلَعَمْرِي لَوْ عَرَفَ
أَنَّ صَوَابِنَا فِي حِجَابِهِ كَصَوَابِنَا فِي الْإِذْنِ لِمَنْ نَأْذُنُ لَهُ ، مَا احْتَجْنَا إِلَىٰ مَا
أَوْصَيْنَاكَ بِهِ مِنْ اخْتِصَاصِهِ بِالْبَشَرِ دُونَ الْمَأْذُونِ لَهُ .

إِنْ اجْتَمَعَ الْأَعْلُونَ وَالْأَوْسَطُونَ وَالْأَدْنُونَ ، فَدَعَوْتَ بِوَاحِدٍ مِنْهُمْ دُونَ مَنْ
يَعْلُوهُ فِي الْقَدْرِ ، لِأَمْرٍ لَا يَدَّ مِنْ الدَّعَاءِ بِهِ لَهُ ، فَأَظْهَرَ الْعُذْرَ فِي ذَلِكَ لِشَلَا
تَحْبِثَ نَفْسٌ مِنْ عِلَاءٍ ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يَتَغَالَبُ لِمِثْلِ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ سُوءُ الظُّنُونِ .
وَالْوَاجِبُ عَلَىٰ مَنْ سَأَسَهُمُ التَّوَقُّيَ عَلَىٰ نَفْسِهِ سُوءَ ظَنُونِهِمْ ، وَعَلَيْهِمْ تَقْوِيمُ
نَفْسِهِمْ ؛ إِذْ هُوَ كَالرَّأْسِ يَأْلُمُ لِأَلْمِ الْأَعْضَاءِ ، وَهَمٌّ كَالْأَعْضَاءِ بِالْمَوْنِ لِأَلْمِ
الرَّأْسِ .

المدائني قال : قال زياد ابن أبيه خواجه :

يَا عَجَلَانُ : قَدْ وَلَيْتُكَ بَنِي ، وَعَزَيْتُكَ عَنْ أَرْبَعَةٍ : ضَارِقِ نَيْلٍ ، فَشَرِّ
مَا جَاءَ بِهِ أَوْ خَيْرٍ . وَرَسُولٍ صَاحِبِ الشَّغْرِ ؛ فَإِنَّهُ إِنْ نَحَبِرَ سَاعَةَ نَفْسِهِ

عمل سنة . وهذا المنادي بالصلاة . وصاحب الطعام ؛ فإن الطعام إذا ترك برده ، وإذا أعيد عليه التسخين فسد .

الهيثم بن عدي قال : قال خالد بن عبد الله القسري لحاجبه : لا تحجبني عني أحداً إذا أخذت مجلسي ؛ فإن الوالي لا يحتجب إلا عن ثلاث : إما رجل عيب يكره أن يُطلع على عيبه ، وإما رجل مشتمل على سوءة ، أو رجل بخيل يكره أن يدخل عليه إنسان يسأله شيئاً .

أنشدني محمود الوراق لنفسه في هذا المعنى :

إذا اعتصم الوالي بإغلاق بابيه ورد ذوي الحاجات دون حجابيه

وأنشدني بعض المحدثين في ابن المدبر :

لولا مقارفة الرئيب ما كنت ممن يحتجب
أولا فعي منك أو بخل على أهل الطلب
فاكشف لنا وجه الحاجب ولا تُبال من عتب

مركز تحقيقات الكمبيوتر علوم رسيدي

[٤ - شروط الحاجب]

قال المنصور للمهدي : لا ينبغي أن يكون الحاجب جهولاً ، ولا غيباً ، ولا عيباً ، ولا ذهولاً ولا متشاغلاً ، ولا خاملاً ولا محتقراً ، ولا جهماً ولا عبوساً . فإنه إن كان جهولاً أدخل على صاحبه الضرر من حيث يقدر المنفعة ، وإن كان عيباً لم يؤذ إلى صاحبه ولم يؤذ عنه ، وإن كان غيباً جهل مكان الشريف فأحله غير منزلته ، وحطه عن مرتبته ، وقدم الوضيع عليه ، وجهل ما عليه وماله . وإن كان ذهولاً متشاغلاً أحل بما يحتاج إليه صاحبه في وقته ، وأضاع حقوق الغائبين لبابه ، واستدعى الدم من الناس له ، وأذن عليه لمن لا يحتاج إلى لقائه ولا ينتفع بمكانه . وإذا كان خاملاً محتقراً أحل الناس صاحبه في محله وقضوا عليه به . وإذا كان جهماً عبوساً تلقى كل طبقة

من الناس بالمكروه ، فترك أهل النصائح نصائحهم . وأخل بذوي الحاجات في حوائجهم ، وقلت الغاشية لباب صاحبه ، فراراً من لقائه .

الهيثم بن عدي عن مجالد عن الشعبي ، أن عبد الملك بن مروان قال لأخيه عبد العزيز بن مروان ، حين ولأه مصر :

إن الناس قد أكثروا عليك ، ولعلك لا تحفظ ، فاحفظ عني ثلاثاً .

قال : قل يا أمير المؤمنين .

قال : انظر من تجمل حاجبك ، ولا تجعله إلا عاقلاً فهماً مفهماً ، صدوقاً لا يُورد عليك كذباً ، يُحسن الأداة إليك والأداء عنك . ومرة ألا يقف ببابك أحد من الأحرار إلا أخبرك ، حتى تكون أنت الأذن له أو المانع ؛ فإنه إن لم يفعل كان هو الأمير وأنت الحاجب . وإذا خرجت إلى أصحابك فسلم عليهم بأنسوا بك . وإذا هممت بعقوبة فتان فيها ؛ فإنك على استدراكها قبل فوتها أقدر منك على انتزاعها بعد فوتها .

وقال سهل بن هارون للفُضَّل بن سهل بن زياد

إن الحاجب أحد وجهي الملك ، يُعتبر عليه برافته ، ويلحقه ما كان في غلظته وفظاظته . فاتخذ حاجبك سهل الطبيعة ، معروفاً بالرافة ، مألوفاً منه البر والرحمة . وليكن جميل الهيئة حسن البسطة ، ذا قصد في نيته وصالح أفعاله . ومرة فليضع الناس على مراتبهم ، وليأذن لهم في تفاضل منازلهم ، وليعط كلاً بقسطه من وجهه ، ويستعطف قلوب الجميع إليه ، حتى لا يغشى الباب أحد وهو يخاف أن يقصر به عن مرتبته ، ولا أن يمنح في مدخل أو مجلس أو موضع إذن شيئاً يستحقه ، ولا أن يمنح أحداً مرتبته . وليضع كلاً عندك على منزلته . وتعهده فإن قصر مقصر قام بحسن خلافته وتزيين أمره .

وقال كسرى أنوشروان في كتابه المسمى « شاهيني » :

ينبغي أن يكون صاحب إذن الخاصة رجلاً شريفاً البيت ، بعيد الهمة ،

بارغ الكرم ، متواضعاً طلقاً ، معتدلاً الجسم بهي المنظر ، لين الجانب ، ليس
بيذخ ولا بطر ولا مريح ، لين الكلام ، طالباً للذكر الحسن ، مشتاقاً إلى محادثة
العلماء ومجالسة الصلحاء ، محباً لكل ما زين عمله ، معانداً للسُّعاة ، مجانباً
للكذابين ، صدوقاً إذا حَدث ، وفيأ إذا وعده ، متفهماً إذا خوطب ، مجيباً
بالصواب إذا رُوجع ، منصفاً إذا عامل ، آنساً مؤنساً ، محباً للأخيار ، شديد
الحنو على المملكة ، أديباً له لطافة في الخدمة ، وذكاء في الفهم ، وبسطة في
المنطق ، ورفق في المحاوره ، وعلم بأقدار الرجال وأخطارها .

وقال في حاجب العامة :

ينبغي أن يكون حاجب العامة رجلاً عبداً مطاعاً ، دائم الحراسة
للملك ، مخوف اليد ، خشن الكلام مروعاً ، غير باطش إلا بالحق ، ولا
أنيساً ولا مانوساً ، دائم العُبوس ، شديداً على المريب ، غير مستخف بخاصة
الملك ومن يهوى ويقر ، من بطانته .

قال عبد الملك لأخيه عبد العزيز ، حين وجهه إلى مصر :

اعرف حاجبك ، وجليستك ، وكاتبك . فإن الغائب يجبره عنك كاتبك ،
والمتوسم يعرفك بحاجبك ، والخارج من عندك يعرفك بجليستك .

وقال يزيد بن المهلب لابنه مخلد حين ولّاه جرجان : استطرف كاتبك ،
واستعقل حاجبك .

وقال الحجاج : حاجب الرجل وجهه ، وكاتبه كله .

وقال ابن أبي زُرعة : [قال] رجلٌ من أهل الشام ، لأبي
الخطاب الحسن بن محمد الطائي يعاتبه [في حجاب] :

هذا أبو الخطاب بدر طالغ	من دون مطلعته حجاب مظلم
ويقال وجه المرء حاجبه كما	بلسان كاتبه الفنى يتكلم
أدبيت من قبل اللقاء ، وبعده	أفصيت ، هل يرضى هذا من يفهم

وإذا رأيت من الكريم فظافةً فالإيه من أخلاقه أتظلم
وقال الفضل بن يحيى : إن حاجب الرجل عامله على عرضه ، وإنه لا
عوض لحر من نفسه ، ولا قيمة عنده لحرية وقدره .

وأشده ابن أبي كامل في هذا المعنى :

واعلمن إن كنت تجهله أن عرض المرء حاجبه
فيه تبدو محاسنه وبه تبدو معايبه

[٥ - أخبار وأشعار عتاب وهجاء ومدح في الحجاب]

إسحاق الموصلي عن ابن كنانة قال :

خبرت أن هانيء بن قبيصة وفد على يزيد بن معاوية ، فاحتجب عنه
أياماً ، ثم إن يزيد ركب يوماً بتصيد فتلقاه هانيء فقال : يا يزيد ، إن الخليفة
ليس بالمحتجب المتخفي ، ولا المتطرف المتنجي ، ولا الذي ينزل على الغدران
والفلوات ، ويخلو للذات والشهوات . وقد وليت أمرنا فأقم بين أظهرنا ،
وسهل إذننا ، واعمل بكتاب الله فينا . فإن كنت قد عجزت عما هنا فاردد
علينا بيعتنا نباع من يعمل بذلك فينا ، ويقيمنا لنا . ثم عليك بخلواتك
وصيدك وكلابك .

قال : فغضب يزيد وقال : والله لولا أن أسن بالشام سنة العراق
لاقت أودك .

ثم انصرف وما هاجه بشيء ، وأذن له ، ولم تتغير منزلته عنده ، وترك
كثيراً مما كان عليه .

الموصلي قال : كان سعيد بن سلم والياً على أرمينية ، فورد عليه أبو
دُهْمَان الغلابي ، فلم يصل إليه إلا بعد حين ، فلما وصل قال - وقد مثل بين
السماطين - :

والله إنِّي لأعرف أقواماً لو علموا أن سَفَّ التُّراب يُقيم من أود أصلابهم
لجعلوه مُسكَةً لأرماقيهم ، إشاراً للتنزُّه عن العيش الرقيق الحواشي . والله إنِّي
لبعيدُ الوَثْبَةِ ، بطي ، العَطْفَةِ إنَّه والله ما يثني عليك إلَّا مثلُ ما يَصرفني
عنك ، ولأن اكون مملقاً مقرباً أحبُّ إليَّ من أن أكون مكشراً مبعداً .
والله ما نسأل عملاً لا نضبطه ولا مالاً إلَّا ونحن أكثر منه ، وإن الذي صار في
يدك قد كان في يد غيرك ، فأمسوا والله حديثاً ، إن خيراً فخييراً ، وإن شراً
فشراً . فتحبُّب إلى عبادِ الله بحُسن البشر ، ولين الحجاب ؛ فإنَّ حبَّ عبادِ
الله موصولٌ بحبِّ الله ، وهم شهداءُ اللّهِ على خلقه ، وأمانؤه على من اعوجَّ
عن سبيله .

إسحاق بن إبراهيم الموصلي قال :

استبطاني جعفر بن يحيى ، وشكنا ذلك إلى أبي ، فدخلت عليه - وكان
شديد الحجاب - فاعتذرت إليه وأعلمته أنّي أتيت مراراً للسلام فحجبتني نافذُ
غلامه . فقال لي وهو مازحٌ : متى حجبتك فنكته . فأتيت بعد ذلك للسلام
فحجبتني ، فكتبتُ إليه رقعةً فيها :

جُعِلَتْ فِدَاؤُكَ مِنْ كُلِّ سُوءٍ إِلَى حُسْنِ رَأْيِكَ أَشْكُو أَنَا سَا
يُحُولُونَ بَيْنِي وَبَيْنَ السَّلَامِ فَمَا إِنْ أَسَلِمُ إِلَّا اخْتِلاَسَا
وَأَنْفَذْتَ رَأْيَكَ فِي نَافِذٍ فَمَا زَادَهُ ذَاكَ إِلَّا شِمَاسَا

وسألتُ نافذاً أن يوصلها ففعل ، فلما قرأها ضحك حتى فحصر برجليه
وقال : لا تحجبه أي وقتٍ جاء . فصرتُ لا أحجب .

وحجبتُ أحمد بن أبي طاهر بباب بعض الكتاب فكتب إليّ :

ليس لحرٍّ من نفسه عَوْضٌ ، ولا من قدره خطر ، ولا لبذل حُرَيْتِهِ
ثمن . وكلُّ ممنوعٍ فمستغنى عنه بغيره ، وكلُّ مانعٍ ما عنده ففي الأرض
عَوْضٌ منه ، ومندوحةٌ عنه . وقد قيل : أرخصُ ما يكون الشيء عند غلاته .

وقال بشار :

والدُّرُّ يُتْرَكُ من غِلاثِه

ونحن نعوذ بالله من المطامع الدنيئة ، والهمة القصيرة ، ومن ابتذال
الحرية ، فإن نفسي واللّه آيئة ، ما سقطت وراء همة ، ولا خذلها ناصر عند
نازلة ، ولا استرقها طمع ، ولا طبعت على طبع . وقد رأيتك ولّيت عرضك
من لا يصونه ، ووكلت ببابك من يشينه ، وجعلت ترجمان كرمك من يكثر من
أعدائك ، وينقص من أوليائك ، وسيء العبارة عن معروفك ، ويوجه وفود
الدم إليك ، ويضعن قلوب إخوانك عليه ؛ إذ كان لا يعرف لشريف قدرأ ،
ولا لصديق منزلة ، ويزيل المراتب عن جهاتها ودرجاتها ، فيحط العلي إلى
مرتبة الوضيع ، ويرفع الدني إلى مرتبة الرفيع ، ويقبل الرثى ، ويقدم على
الموى . وذلك إليك منسوب ، وبرأسك معسوب ، يلزمك ذنبه ، ويحل
عليك تقصيره .



وقد أنشدني أبو علي البصير :

كم من فتى عمدا أخلاقه ~~وتسكن الأحرار في ذمته~~
قد كثر الحاجب أعداءه وأحقد الناس على نعمته
وأنشئت لبعضهم :

يدل على سرو الفتى واحتماله إذا كان سهلاً دونه إذن حاجبه
وقد قيل ما البواب إلا كربه إذا كان سهلاً كان سهلاً كصاحبه

وقال الطائي :

حشم الصديق عيونهم بحاشة لصديقه عن صدقه ونفاقه
فلينظرن المرة من غلماناه فهم خلائفه على أخلاقه

وقال آخر :

اعرف مكانك من أخيه لك ومن صديقك بالحشم

وقال ابن أبي عيينة :

إنَّ وجداً الغلام يجبر عمًا
فإذا ما جهلت ودُّ صديقي

في ضمير المولى من الكتمان
فامتحن ما أردت بالغلماين

ردل آخر :

ومحنة نزلين بيئنة ' تُعرف قبل اللقاء بالحشم

وأنشد عبد الله بن أحمد المَهْزَمِيّ في عليّ بن الجهم :

أعليّ دونك يا عليّ حجابُ
هذا بإذنك أم برأيك أم رأى
يُدن البعيد وتحجب الأصحابُ
هذا عليك العبدُ والبوابُ
إن الشريف إذا أمر عبيده
غلبت عليه فأمره مُرتابُ

وأخذه من قول الطائي :

أبا جعفر وأصول الفتي
ليس عجيباً بأنَّ امرأ
تدُلُّ عليه بأغصانه
رجاك لحادثِ أزمائه
فتماسر أنت بإعطائه
ولست أحبُّ الشريف الظريف
ويأمر فتُح بحرمانه
يكون غلاماً لسفلمانه

وحُجِب ابن أبي طاهر بباب بعض الكتاب ، فكتب إليه :

« إنه من لم يرفعه الإذن لم يضعه الحجاب ، وأنا أرفعك عن هذه
المنزلة ، وأربأ بعدوك عن هذه الخليفة ، وما أحد أقام في منزله - عظم أو
صغر قدره - إلا ولو حاول حجاب الخليفة عنه لأمكنه . فتأمل هذه الحال
وانظر إليها بعين النصفه ، ترها في أقبح صورة ، وأدنى منزلة . وقد قلت :

إذا كنت تأتي المرة تُعظم حقّه
ففي الناس أبدال وفي العزّ راحة
ويجهل منك الحقّ فاهجر أوسع
وإن امرأ يرضى أخوان لنفسه
وفي اليأس عمّن لا يواتيك مقنع
فدع عنك أفعالاً يشينك فعلها
حبري بجدع الأنف والجدع أشنع
وسهل حجاباً إذنه ليس ينفع

وحدّثني عبد الله بن أبي مروان الفارسيّ قال :

ركبت مع ثمامة بن أشرس إلى أبي عباد الكاتب ، في حوائج كتب إليّ فيها أهل إرمينية من المعتزلة والشيعة ، فاتيناه فأعظم ثمامة واقعه في صدر المجلس وجلس قبأته ، وعنده جماعة من الوجوه ، فتحدّثنا ساعة ثم كلمه ثمامة في حاجتي ، وأخرجت كتب القوم فقرأها ، وقد كانوا كتبوا إلى أبي عباد كتباً ، وكانوا أصدقاءه أيام كونه بإرمينية ، فقال لي : بكر إليّ غداً حتى أكتب جواباتها إن شاء الله . فقلت : جعلني الله فداك ، تأمر الحاجب إذا جئت أن يأذن لي . فغضب من قولي واستشاط وقال : ومي حُجبت أنا ، أو لي حاجب ، أو لأحد عليّ حجاب ! .

قال عبد الله : وقد كنت أتيتُه فحجبتني بعض غلمانيه ، فحلّف بالأيمان المغلظة أن يقلع عينيّ من حجبتني ، ثم قال : يا غلام ، لا يبق في الدار غلام ولا منقطع إلينا إلا أحضر ثمنه الساعة ! قال : فأق بغلمانيه وهم نحو من ثلثمائة ، فقال : أشير إلى من شئت فيهم فغمزني ثمامة فقلت : جعلت فداك لا أعرف الغلام بعينه ، فقال : ما كان لي حاجب قط ، ولا احتجبت ، وذلك لأنه سبق مني قول ، لأنّي كنت وأنا بالرّي وقد مات أبي وحلّف لي بها ضياعاً فاحتجب إلى ملاقة الرجال والسُلطان فيما كان لنا ، فكنت أنظر إلى الناس يدخلون ويصلون وأحجب أنا وأقصي ، فتنقصر إليّ نفسي ، ويضيق صدري ، فأليت على نفسي إن صرت إلى أمر من السُلطان ألا احتجب أبداً .

وحدّثني الزبير بن بكار قال :

استأذن نافع بن جبير بن مطعم على معاوية ، فمنعه الحاجب فدقّ أنفه ، فغضب معاوية وكان جبير عنده ، فقال معاوية : يا نافع ، أتفعل هذا بحاجبي ؟ قال : وما ينعني منه وقد أساء أدبه وأسأت اختياره ؟ ! ثم أنا بالمكان الذي أنا به منك . فقال جبير : فُضّ الله فاك ، الا تقول : وأنا بالمكان الذي أنا به من عبد مناف ؟ ! قال : فتبسم معاوية وأعرض عنه .

قال : وقد رجل من الأكاصرة على بعض ملوكهم ، فأقام ببابه حولاً لا يصل إليه ، فكلم الحاجب فأوصل له رقعة فيها أربعة أسطر :

السطر الأول فيه : الأمل والضرورة أقدماني إليك .

وفي الثاني : ليس على العديم صبرٌ على المطالبة .

وفي الثالث : الرجوع بلا فائدة شماتة العدو والقريب .

وفي الرابع : إما « نَعَمْ » مُثمرة ، وإما « لا » مؤيسة ، ولا معنى

للحجاب بينها .

فوقع تحت كل سطرٍ منها : « زه » .

وأنشد الوليد بن عُبيد البحرني في ابن المدبر يهجو غلامه بشراً :

وكم جئت مشتاقاً على بُعد غايةٍ إلى غير مشتاقٍ وكسم ردي بشرُ

وما بأله يأتى دخولي وقد رأى خروجي من أبوابه ويدي صفرُ

وأنشئت لبعضهم :

لعمري لئن حجبتني العبيدُ ببابك ما يحجبوا القافية

سأرمي بها من وراء الحجابِ جزاءً فروض لكم وافيه

تُصمُّ السَّميعَ وتُعمي البصيرَ ويُسال من أجلها العافية

وأنشدني أحمد بن أبي فتن ، في محمد بن حمدون بن إسماعيل :

ولقد رأيتُ بباب دارك جفوةً فيها لحسن صنيعية تكديرُ

ما بال دارك حين تدخل جنةً وببَاب دارك منكِرٌ وتكبيرُ

وأنشدني أبو علي الدرهمي اليمامي في أبي الحسن علي بن يحيى :

لا يُشبه الرجل الكريم نجاره ذا اللب غيرُ بشاشة الخجَابِ

وببَاب دارك من إذا حبيته جعل التبرُّمَ والعُبوسَ ثوابي

أوصيته بالإذن لي فكأنما أوصيته متعمداً لحجابي

وأنشدني أبو علي البصير في أبي الحسن علي بن يحيى :

في كل يوم لي ببابك وقفاً اطوى إليها سائر الأبواب
فإذا حضرت وغبتُ عنك فإنه ذنبٌ عقوبته على البواب

وأنشدني أبو علي اليمامي ، وعاتب بعض أهل العسكر في حاجبه ، فلم
يأذن له الحاجب بعد ذلك ، فكتب إليه :

صار العتابُ يزيدني بُعداً ويزيد من عاتبته صداً
وإذا شكوت إليه حاجبه أغراه ذاك فزادني رداً

وأنشدني العجيني في بعض أهل العسكر ، يعاتبه في حجابهِ ويهجو
حاجبه :

إنما يحسن المديح إذا ما أنشد المادح الفتى الممدوحا
وأراني بباب دارك عسراً ت طويلاً مقصي مهاناً طريحا
إن بالبواب حاجباً لك أمسي مُنكرٌ عنده ظريفاً مليحاً
ما سألناه عنك قطُ وإلا رداً من يفضه مرذاً قبيحاً

وأنشدت لبعضهم في هجاء حاجب

سأترك باباً أنت تملك إذنه ولو كنت أعمى عن جميع المسالك
فلو كنت بواب الجنان تركتها وحولت رجلي مسرعاً نحو مالك

وكتب بعض الكتاب إلى الحسن بن وهب ، في بوابه :

قد كنت أحسب أن طرفك ملني ورُميت منك بجفوة وعذاب
فإذا هواك على الذي قد كان لي وإذا بلتُنا من البواب
فإعلم - جعلتُ فداك - غير معلم أن الأديب مؤدبُ الحجاب

وقال رزيرُ القروصي لجعفر بن محمد بن الأشعث :

إن كنت تحجيني للذنب مزدهياً فقد لعمرى أبوكم كلّم الذيبنا
فكيف لو كلّم الليث المصوّر إذا تركتم الناس مأمولاً ومثروبنا

هذا السنيدي ما ساوى إتاوته يكلم الفيل نصعيداً وتصويباً
اذقبت إليك فما آسى عليك وما القى بسابك طلباً ومطلوباً

المدائني قال : كان يزيد بن عمر الأسدي على شرطة البصرة ، فأتاه
الفرزدق في جماعة فوقف ببابه ، فأبطأ عليه إذنه ، فقال - وكان [ابن] عمر
يلقب الوقاح - :

ألم يك من نكس الزمان على استه وقوفي على باب الوقاح أسائله
فإن تك شرطياً فإني لغالب إذا نزلت أركاناً فح منازله

وقال أبو علي البصير ، وحجبه محمد بن غسان ، بعد أنس كان بينهما :

قد أتينا للوعد صدر النهار فدقنا من دون باب الدار
وسمعنا ، من غير قصد لأن نس مع ، صوت الغناء والأوتار
فأحطنا بكل ما غاب من شأ نك عنا خيراً بلا استخبار
فإذا أنت قد وصلت صبحاً بتبوق ودجلة باهتكار
وإذا نحن لا تحاطبنا الغيل حان إلا بالجد والإنكار
فانصرفنا وطالما قد تلقوا نأ بأنس منهم وباستبشار
ذاك إذ كان مرة لك فينا وطر فانفضى من الأوطار
حين كنا المقدمين على النا من وكنا الشعار دون الدثار
كم تأتيت وانتظرت فأفني ت تأتي كبله وانتظاري
فعليك السلام كنا من الأه ل فصرنا كسائر الزوار

وله إليه أيضاً :

قد أطلنا بالباب أمس القمودا وجفينا به جفاء شديدا
وذهمنا العبيد حتى إذا نح ن بلونا الموتى صدرنا العبيدا
وعلى موهب أتمناك معلو م وأمر مؤكد تأكيدا
فأقمنا لا الإذن جاء ولا جا ة رسول قال انصرف مطرودا

وَصَبَرْنَا حَتَّى رَأَيْنَا قُبَيْلَ الْ
 وَاسْتَقَرَّ الْمَكَانُ بِالْقَوْمِ وَالغَدَا
 وَيُثْبِرُونَ بِالْمَضْيِ فَلَمَّا
 فَانصَرَفْنَا فِي سَاعَةٍ لَوْ طَرَحْتَ الْ
 فَلَعَمْرِي لَوْ كُنْتَ تَعْتَدُّ لِي ذَنْ
 وَطَلَبْتَ الْمَزِيدَ لِي فِي عَذَابِ
 كَانَ ظَنِّي بِكَ الْجَمِيلَ فَأَلْفَيْ
 فَعَلَيْكَ السَّلَامُ تَسْلِيمَ مَنْ لَا

وله في أحمد بن داود السبيي وقصد إليه بكتاب إسحاق بن سعيد

الكاتب :

يَا ابْنَ سَعْدٍ إِنْ الْعُقُوبَةُ لَا تَدُ
 وَابْنَ دَاوُدَ مَسْتَخْفًا وَقَدِ
 فَاهِدِهِ لَلْقِي يَكُونُ لَهُ مِنْ
 سَامَنِي أَحْمَدُ بْنُ دَاوُدَ أَمْرًا
 لِي إِلَيْهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ جَدِيدًا
 وَوَقُوفًا بِبَابِهِ أَمْنَعُ الْإِذِ
 خُطَّةً مَنْ يُقِمُ عَلَيْهَا مِنَ النَّاسِ
 لَوْ يَنَالُ الْغَنَى لَمَا كَانَ فِي ذِ
 عَزَبَ الرَّأْيِي فِي عَنَةِ وَعَزَّتْ

زَمَ إِلَّا مِنْ نَالِهِ الْإِعْذَارُ
 فَتَهُ مَشْحُودَةٌ عَلَيْهِ الشُّفَارُ
 بِهَا مَفْرُ مَا دَامَ يُنْجِي الْفِرَارُ
 مَا عَلِي مِثْلَهُ لَدَيْهِ اصْطِبَارُ
 رُوحَةٌ مَا أُغْبِيهَا وَابْتِكَارُ
 نَ عَلَيْهِ وَيَدْخُلُ الزُّوَارُ
 سَ فِيهَا ذُلٌّ لَهُ وَصَفَارُ
 لِكَ حَظُّ يَنَالَهُ مَخْتَارُ
 هُ أُنَاءَ طَوِيلَةً وَأَنْتَظَارُ

وحجج بباب بعض الكتاب فكتب إليه :

أَقَمْتُ بِبَابِكَ فِي جَفْوَةٍ
 فَيَطْمَعُنِي تَارَةً فِي الْوَصُولِ
 فَأَعْلَمُ عِنْدَ اخْتِلَافِ الْكَلَامِ
 وَأَعَزُّمُ عَزْمًا فَيَأْبَى عَدُو

يُسَلُّونَ لِي قَوْلَهُ الْحَاجِبُ
 وَرَبَّنَا قَالَ لِي : رَاكِبُ
 وَتَحْلِيظُهُ أَنَّهُ كَاذِبُ
 فِي إِسْضَاءَهُ رَأْيِي الشَّاقِبُ

وَإِنِّي أَرَأَيْتَ حَتَّى يَثُورَ بَلِّ لِحَرٍّ مِنْ رَأْيِهِ ثَائِبٌ
فَإِنْ تَسَعْتَدَرُ تُلْفِي عَاذِرًا صَفْوَحًا وَذَاكَ هُوَ الْوَاجِبُ
وَإِلَّا فَلَيْتَ إِذَا مَا الْحَبَا لُ رَأَيْتَ قُؤَاهَا ، هَا قَاضِبٌ

وقال لعلِّي بن يعقوب الكاتب وحجبه بياحه :

قَدْ أَتَيْتَنِي لَلْإِسْلَامِ فَصَادَفَ نَا عَلَى غَيْرِ مَا عَهَدْنَا الْغَلَامَا
وَسَأَلْتَنِي عَنْكَ فَاعْتَلُّ بِالنُّو مِ وَمَا كَانَ مُنْكَرًا أَنْ تَنَامَا
غَيْرَ أَنَّ الْجَوَابَ كَانَ جَوَابًا سَيِّئًا يُعَقِّبُ الصُّدِيقَ احْتِشَامَا
فَانصَرَفْنَا نَوَجُّهُ الْعُذْرَ إِلَّا أَنْ فِي مَضْمَرِ الْقُلُوبِ اضْطِرَامَا
يَا ابْنَ يَعْقُوبَ لَا يَلُومُنْ إِلَّا نَفْسَهُ بَعْدَ هَذِهِ مَنْ الْإِمَامَا

وقال لعلِّي بن يحيى المنجم ، وحجبه غلامه :

لَيْسَ يَرْضَى الْحُرُّ الْكَرِيمَ وَلَوْ أَق طَعَمْتَهُ الْأَرْضَ أَنْ يَذُلَّ لِعَبِيدِ
فَعَلَيْكَ السَّلَامُ إِلَّا عَلَى الظَّر قِ وَحُبِّي كَمَا عَلِمْتَ وَوَدِّي

وقال أبو هيفان لعلِّي بن يحيى ، يعاتبه في حجابيه :

أَبَا حَسَنِ وَقُنَا حَقَّتْ بِرَبِّكَ بِحَقِّ مَكَارِمِكَ الْوَافِيَةِ
أَحْجَبَ دُونَكَ شَرُّ الْحَجَابِ وَيَدْخُلُ دُونَ بَنِي الْعَافِيَةِ
أَعُوذُ بِفَضْلِكَ مِنْ أَنْ أَسَاءَ وَأَسْأَلُ رَبِّي لَكَ الْعَافِيَةَ
فَلَيْتَ أَمْرًا تُشْفِيَنِي الْمَلُوكُ وَتَدْخُلُ فِي خَلْقِي الْبُضَافِيَةِ
كَتَبْتَ عَلَى نَفْسٍ مِنْ رَأْيِي بِبَعْضِ الْأَذَى لِلرَّدَى صَافِيَةِ

وأنشئت لبرقوق الأخطل وحجبه بياح بعض الكتاب :

قَدْ حُجِبْنَا وَكَانَ خَطْبًا جَلِيلًا وَقَلِيلُ الْجَفَاءِ لَيْسَ قَلِيلًا
لَمْ أَكُنْ قَبْلَهَا ثَقِيلًا وَهَلْ يَثُ تُقَلُّ مِنْ خَافِ أَنْ يَكُونَ ثَقِيلًا
غَيْرَ أَنِّي أَظُنُّ لَا زَالَ ذَاكَ ال ظُنُّ يَنْقَادُ أَنْ يَكُونَ مَلُولًا

وأخذه من قول الآخر :

لما محاجبت وقد خفت أن أقلت إيمانكم إنه قدنوا من وذلك بالقبيل من خاف أن يُنقل لم يشغل

وأنشدني أبو عبد الرحمن العَطَوِيُّ :

لأبي بكر خليلي يا أبا بكر سقاك الله لن تراني بعدها من إن ينبت نخطب ففى الرشد
حسن رأيي في الحجاب به من صوب السحاب بعدها قارع بساب بل بلاغ والكتاب

ولخالد الكاتب في جعفر بن محمود :

احتجب الكاتب في دهرنا القوم يخلون الحجابهم وكان لا يجتنب الكاتب فبئس المحجوب والمحجب

ولأبي سَعْدِ المَخْزُومِيِّ في الحسن بن سهل :

ترهب بعدك الحسن بن سهل فأغلق بابَه دون المديح كذبت له ولم أكذب عليه كما كذب النصارى للمسيح

وأنشدني البلاذري في بعض كتاب أهل العسكر :

أبججني من ليس من دون عرسه ججاب ولا من دون وجعائه يتر عليه لاضحى قد تضمينه قبر ومن لو أمات الله أهون خلقه

وأنشدني حبيب بن أوس ، في موسى بن إبراهيم ، أبي المغيث :

أموس لا يُغني اعتذارك طالبا هب من له شيء يريد حجابَه ما إن سمعت ولا أراني سامعا من كان مفقود الحياء فوجهه
وذي فما بعد الهجاء عتاب ما سأل لا شيء عليه حجاب يوماً بصحراء عليها باب من غير بواب له بواب

ولآخر :

بَخِلَ الأَمِيرُ بإِذْنِهِ فَجَلَسْتُ فِي بَيْتِي أَمِيرًا
وَتَرَكْتُ إِمْرَتَهُ لَهُ وَاللَّهُ عَمُودٌ كَثِيرًا

وَأَنشَدَنِي الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ لِبَعْضِ الشُّعْرَاءِ :

سَأَتْرُكُ هَذَا الْبَابَ مَا دَامَ إِذْنُهُ عَلَى مَا أَرَى حَقًّا يَلِينُ قَلِيلًا
إِذَا لَمْ نَجِدْ لِلْإِذْنِ عِنْدَكَ سُلْمًا وَجَدْنَا إِلَى تَرْكِ الْمَجِيءِ سَبِيلًا

الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ قَالَ : وَقَدْ ابْنُ عَمٍّ لِدَاوُدَ بْنِ يَزِيدَ الْمُهَلَّبِيِّ عَلَيْهِ فَحِجْبُهُ ،
وَجَعَلَ يَمْطُلُهُ بِحَاجَتِهِ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ :

أَبَا سَلِيمَانَ وَعَدَا غَيْرَ مَكْدُوبٍ الْيَأْسَ أَرْوَحُ مِنْ آمَالِ عُرْقُوبٍ
أَرَى حَمَامَةً مَطْلًا غَيْرَ طَائِرَةٍ حَقًّا تُنْقَبُ عَنِ بَعْضِ الْأَعَاجِيبِ
لَا تَرْكِبُنْ بِشِعْرِي غَيْرَ مَرْكَبِهِ فَيَرْكَبُ الشُّعْرَ ظَهْرًا غَيْرَ مَرْكُوبٍ
لَنْ تُحِجِبْتُ فَلِمَ تَأْذُنُ عَلَيَّ فَمَا شِعْرِي إِذَا سَارَ عَنْ أُذُنٍ بِمَحْجُوبٍ
إِنْ ضَاقَ بِأَبْكَ عَنْ إِذْنٍ شَدَدَتْ غَدَا رَحَلِي إِلَى الْمَطْرَبِيِّنَ الْمُنَاجِيبِ
قَوْمٌ إِذَا سَلُّوا رَقَّتْ وَجُوهَهُمْ لَا يَسْتَقِيدُونَ إِلَّا لِلْمَوَاهِبِ

وَلِلْأَحْوَصِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْأَنْصَارِيِّ فِي أَبِي بَكْرٍ بْنِ حَزْمٍ :

أَعْجَبْتَنِي أَنْ رَكِبَ ابْنُ حَزْمٍ بَغْلَةً فَرَكَوْبُهُ فَوْقَ الْمُنَابِرِ أَعْجَبُ
وَعَجَبْتَنِي أَنْ جَعَلَ ابْنُ حَزْمٍ حَاجِبًا سَبْحَانَ مَنْ جَعَلَ ابْنَ حَزْمٍ يُحْجَبُ

وَأَنشَدْتَ لابْنَ حَزْمٍ يِعَاتِبُ رَجُلًا فِي حِجَابِهِ :

صَحْبَتُكَ إِذْ أَنْتَ لَا تُصْحَبُ وَإِذْ أَنْتَ لَا غَيْرَكَ الْمَوْكِبُ
وَإِذْ أَنْتَ تَفْرَحُ بِالزَّائِرِينَ وَنَفْسُكَ نَفْسُكَ تَسْتَحْجِبُ
وَإِذْ أَنْتَ تُكْثِرُ ذَمَّ الزَّمَانِ وَمِثْلِيكَ أَضْعَافُ مَا تَرْكِبُ
فَقُلْتُ : كَرِيمٌ لَهُ هِمَّةٌ نُنَالُ فَأَدْرِكُ مَا أَطْلُبُ
فَلَيْتَ فَأَقْصِيئَنِي عَامِدًا كَأَنِّي ذُو عُرَّةٍ أَجْرُبُ
وَأَصْبَحْتُ عَنْكَ إِذَا مَا أَتَيْتُ تُوْنَ الْوَرَى كُلَّهُمْ أَحْجَبُ

وأنشدني أبو تمام الطائي :

ومحجَّب حاولته فوجدته نجماً عن الركب العفاة شوعاً
لما عدمت نواله أعدمته شكري فرحنا معدمين جميعاً

ووقف العتيبي بباب إسماعيل بن جعفر يطلب إذنه ، فأعلمه الحاجب أنه
في الحمام ، فقال :

وأمر إذا أردنا طعاماً قال حجابُه أتى الحماما
فيكون الجواب مني للحا جب ما إن أردت إلا السُلاما
لست أتیکم من الدهر إلا كل يوم نويت فيه الصياما
إنني قد جعلت كل طعام كان جلاً لكم علي جراما

وأنشدني إسحاق بن خلف البصري له :

أيمجُبني أبو الحسن وهذا ليس بالحسن
وليس حجابُه إلا عن الزيتون والجُبُن

وأنشدني بعضهم :
مركز حقیقت کویٹور علوم اسلامی

لا تتخذ باباً ولا حاجباً عليك من وجهك بوابُ
أنت ولو كنت بذوئيه عليك أبوابٌ وحجابُ

ولعلي بن جبلة في الحسن بن سهل :

السياس عز والذلة الطمع يضيق أمر يوماً ويتسع
لا تستريثن إذن محتجب إن لم تكن بالدخول تنتفع
أحق شيء بطول مهجرة من ليس فيه ري ولا شبع
قل لابن سهل فلإنني رجل إن لم تدعني فلإنني أدع
السياس مالي وجنتي كرم والصبر والي علي لا الجزع

ولأبي تمام الطائي في أبي المغيث :

لا تَكُلْفُنْ وأَرْضْ وجهك وجهه
لا تَمْتَهِنِي بالحجاب فإنني

ولبعض الشعراء في العباس بن خالد ، وخبرته أنه لابن الأعمش :

أَتَجُوبِي فليس لديك نَيْلٌ وقد ضَمَيْتَ مَكْرَمَةً ومَجْدًا
وفي الأفاق أبدالٌ ورزقٌ وفي الدُنْسِيما مَرَاخٌ لي وَمَغْدِي

وأنشدني أبو الخطاب ، لدعبل ، في غَسَّانَ بن عباد :

لَقَطْعُ الرَمَالِ وَنَقْلُ الجِبَالِ وشرب البحار التي تصطبغُ
وَكَشْفُ الغِطَاءِ عن الجِنِّ أو صُمُودُ الشَّهَاءِ لمن يرتقب
وإحصاء نُومٍ سعيدٍ لنا أو الشُّكْلُ في ولدٍ مُنتَجِبٍ
أخفُّ على المرء من حاجةٍ تكلفُ غشيانها مرتقبُ
له حاجبٌ دونه حاجبٌ وحاجب حاجبه محتجبُ

ولمرداس، بن حزام الأسدي ، في بَيْتِيرِ بن جرير بن عبد الله :

أَتَيْتُ بِشِيرًا زَائِرًا فوجدته أحمًا كبرياءٍ عالماً بالمعافز
فَصَدُّ وأبدي غِلْظَةً ونَجْهًا وأغلق باب العُرف عن كل زائرٍ
حجاباً لحرٍّ لا جواداً بماله ولا صابراً عند اختلاف البواتر

وحجب أبو العتاهية بياب أحمد بن يوسف الكاتب ، فكتب إليه :

ألم تر أن الفقر يُرجى له الغنى وأن الغنى يُخشى عليه من الفقر
فإن نلتَ تيهًا بالذي نلتَ من غنى فإن غنيتي تُخشى عليه من الفقر

وله أيضاً فيه :

إني أتيتك لئلا م تكلفا مني ومهما
فصدت عني نخوة ومحجراً ولنوت شذفا
فلو أن رزقي في يدي لك لما طلبت الدهر رزقا

ولأحمد بن أبي طاهر :

ليس العجيب بأن أرى لك حاجباً ولأنت عندي من حجابتك أعجبُ
فلئن حُجبتُ لقد حجبتُ معاشراً ما كان مثلهم يبائك يُحجِبُ

وله في بعض الكتاب :

ردني بالذلِّ صاحبُه إذا رأى أيُّ اطمالبُه
ليس كَشَخَاناً فاشتُمه إنما الكَشَخَانُ صاحبُه

وله أيضاً في علي بن يحيى يعاتبه في بعض قصائده :

أصواباً تراه أصلحك الله فما إن رأيتُه بصوابٍ
صرتُ أدعوك من وراء حجابتِ ولقد كنتُ حاجبَ الحجَابِ

أن أبو العتاهية باب أحمد بن يوسف الكاتب في حاجة فلم يؤذن له ،

فقال :

لئن عدتُ بعد اليَومِ إنِّي لظالمٌ سأصرف وجهي حيث تُبغى المكارمُ
متى يُنجح الفادي إليك بحاجةٍ ونصفك محسوبٌ ونصفك نائمٌ

ولآخر :

رأيتُك تطردنا بناحجا ب عنك برفقك طرداً جميلاً
ولكن في طمع الطامعي من والحر من ذا يفك العقولا
فهل لك في الإذن لي بالرحي بل فقد آبت النفس إلا الرحيلاً

وحدثني أبو علي البصير قال : حدثني محمد بن غسان بن عباد قال : كنتُ
بالرقة ، وكان بها موسوسٌ يقول الشعر المحال والمنكر ، فغذيتُه يوماً معي احتساباً
للشواب ، فاتاني من غدٍ وعندني جماعةٌ من العمال ، فحجبه الغلام ، فلما كان
من غدٍ وقف على الباب وصاح :

عليك إذن فإننا قد تغدينا لسنا نمود لأكلٍ قد تغدينا

يا أكلة ملفت أبقت حرارتها داء بقلبك ما صمنا وصلينا

قال : وما علمته قال شعراً على استواء غيره ، ولكنني وعظت به فوق

مكروهي على لساني .

وأُنشِدت لخمادٍ عجردٍ يعاتب بعض الملوك :

بِ دُونَ اللَّامِ تَرَكْتُ اللَّامَ	إِذَا كُنْتُ مَكْتَفِيًّا بِالْكُتَا
كُ بِوَابِكُمْ بِي وَأَوْصِرِ الْغَلَامَا	وَالْأَ فَاوْصِرِ هَذَاكَ الْمَلِي
نَ ، إِمَّا قَمُوداً وَإِمَّا قِيَامَا	فَإِنْ كُنْتُ أُدْخِلْتُ فِي الزَّائِرِي
فَلَا لَوْمْ لَسْتُ أَحِبُّ الْمَلَامَا	وَأَنْ لَمْ أَكُنْ مِنْكَ أَهْلًا لِذَاكَ
مَ أَخْزَاهُمْ اللهُ رَبِّي أَنَامَا	فَلْيَبِيْ أَدْمُ إِلَيْكَ الْأَنَا
يُمَيِّتُونَ مَجْدًا وَيُحْيُونَ ذَامَا	فَلْيَبِيْ وَجَدْتَهُمْ كُلَّهُمْ

ولابي الأسد الشيباني ، يعاتب أبا دلف في حجابيه :

لَيْتَ شَعْرِي أَضَاقَتِ الْأَرْضُ عَنِّي	أَمْ نَفْسِيْ مِنْ الْبِلَادِ طَرِيدُ
أَمْ قُدَارُ أَمْ الْحَبَابَةُ أَمْ أَحَدُ	مَرُّ لَاقَتِ بِهِ الْبَلَاءُ ثَمُودُ
أَمْ أَنَا قَانَعٌ بِأَدْنَى مَعْيَاشٍ	هَمَّتِي الْقَوْتُ وَالْقَلِيلُ الزَّهْيَدُ
مِقْوَلِي قَاطِعٌ وَسَيْفِي حَسَامُ	وَيْدِي حُرَّةٌ وَقَلْبِي شَدِيدُ
رُبُّ بَابٍ أَعَزَّ مِنْ بَابِكَ الْيَسُو	مَ عَلَيْهِ عَسَاكِرُ وَجَنُودُ
قَدْ وَجَّهْنَا دَاخِلِينَ غَدُوًّا	وَرَوَّاحًا وَأَنْتَ عَنْهُ مَذُودُ
فَاكْفِفِ الْيَوْمَ مِنْ حَجَابِكَ إِذْ لَبَّ	تَ أَمِيرًا ، وَلَا خَمِيْسًا تَقُودُ
لَنْ يَقِيْمَ الْعَزِيْزُ فِي الْبِلَدِ الْهُو	نَ وَلَا يَكْسَدُ الْأَدِيْبُ الْجَلِيْدُ
كُلُّ مَنْ فَسَدَ مِنْ هَوَانٍ فَإِنَّ الد	رُحْبَ يَلْقَاهُ وَالْفَضَاءُ الْعَنِيْدُ

ولعلي بن جبلة في بعض الملوك :

حَجَابِكَ ضَيِّقٌ وَنَدَاكَ نَزْرُ	وَإِذْنِكَ قَدْ يُرَادُ عَلَيْهِ أَجْرُ
وَذَلُّ أَنْ يَقُومَ إِلَيْكَ حُرُ	وَطُلَّابُ الشَّوَابِ لَدَيْكَ نَقْرُ

وأنشدني اليمامي في أبي الصقر إسماعيل بن بلبل ، يعاتبه في حجابيه :

لكل مؤمل جدوى كريم
وأنت الحر ما خانتك نفس
وشكري ظاهراً ورجائي جزل
وحقني أن تكافئني مزيداً
عل تامله يوماً ثواب
ولا أصل إذا وقع انتساب
فقيم جزائي من ذل حجاب
بشكري إذ به نزل الكتاب

وأنشئت لأبي مالك الأبرج :

علقت عمي بباب السدار منتظراً
لما رأيت رسولي لا سبيل له
صانعت فيك بمثلي ما أوئله
منك الرسول فخلضها من الباب
إلى لقائك من دفع وحجاب
في ليدك وهذا سعي خياب

ولبشار بن برد ، في عبيد الله بن قزعة :

إذا سئل المعروف أغلق بابه
فلم تلقه إلا وأنت كمين
كان عبيد الله لم ير ماجداً
ولم يدرك أن المكرمات تكون
فقل لأبي يحيى متى تدرك العلاء
وفي كل معروف عليك يمين

وأنشد لأبي زُرعة - رجل من أهل الشام - في أبي الجهم بن سيف :

ولكن أبو الجهم إن جنته
وليس بلدي موعدي صادق
لهيفاً حُجبت عن الحاجب
وبخل بالموعد الكاذب

وحجب - سعيد بن حميد بباب الحسن بن مخلد ، فكتب إليه :

رب بشر بصير الحر عبداً
وفتق ذي خلائق معجبات
وكريم قد قصرت بأيادي
لا أرى للكريم أن يشتري السذ
إن تركت العبيد والحكم فينا
للك غالتته جفوة في الحجاب
أفسدتها خلائق البواب
به عبيد نسيء للآداب
يا جميعاً بوقفه بالباب
صار فصل الرعوس للإذئاب

فأحلُّوا أشكاهم رُتِبَ الفَضُّ لِر ، وَحَفْظُ الأحرارِ غَفَرَ التُّرابِ

وَأُنشِدت لعبد الله بن العباس :

أنا بالباب واقفٌ منذ أصبحُ تٌ على الشُّرجِ ممسكٌ بعنانِ
وبعين البواب كلُّ الذي بي ويراني كأنه لا يراني

وَأُنشِدتُ لأبي عيينة المُهَلَّبِي - واسمه عبد الله بن محمد - يعاتب رجلاً من

قومه :

أنتُك زائراً لفضاء حَقِّ فحال السُّسْرُ دونك والحجابِ
ولستُ بساقطٍ في قدر قومٍ وإن كرهوا كما يقع الذبابُ
وراني مذهبٌ عن كلِّ ناءٍ إجانِبِه إذا عزُّ الذهبُ

وَأُنشِدني ابنُ أبي فتن :

ما ضاقت الأرضُ على راغِبٍ يَطْلُبُ الرزقَ ولا ذاهِبٍ بل ضاقت الأرضُ على صابرٍ
مَنْ شَتَمَ الحاجِبَ في ذنِبِه فأما يَقصِدُ للضاحِبِ فارغِبْ إلى الله وإحسانه
لا تطلبِ الرزقَ من الطالبِ

قال المدائني : أن عُوَيْفُ القوافي بابَ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ،

فَحَجِبَ آيَما ، ثم استأذَنَ له حُبَيْشُ صاحبُ إذنِ عمر ، فلما قام بين يَدَيْه قال :

أجني أبا حفص ، لقيتُ مُحَمَّدًا على حَوْضِه مستبِشراً بِدُعَاكا

فقال عمر : أقول لبيك وسعديك ! فقال :

وأنت امرؤٌ كلتا يَدَيْكَ طليقةٌ شمألك خيرٌ من يمينِ سِواكا
علامَ حجابي ، زادك اللهُ رِفعةً وفضلاً ، وماذا للحجابِ دعَاكا

فقال : ليس ذاك إلا لخير ! وأمر له بصيلة .

المدائني قال : أقام عبد العزيز بن زُرارة الكلابي ، بباب معاوية حيناً لا

يُؤذَن له ، ثم دخل فقال :

دخلتُ على معاويةَ بنِ حربٍ
رأيتُ الحظَّ يسترُ عيبَ قومٍ

قيل للحَيِّ المدنيَّة : ما الجرحُ الذي لا يندمل ؟ قالت : حاجةُ الكريمِ إلى اللئيمِ ثم لا يُجدي عليه . قيل لها : فما الذُّلُّ ؟ قالت : وقوفُ الشريفِ ببابِ الدينِ ثم لا يُؤذَن له . قيل لها : فما الشُّرفُ ؟ قالت : اعتقادُ المنِّ في أعناقِ الرجالِ ، تبقي للأعقابِ في الأعقابِ .

وقيل لعُبوةَ بنِ عديِّ بنِ حاتمٍ وهو صبيٌّ ، في وليمةٍ كانت لهم : وقفْ بالبابِ فاحجُبْ من لا تعرفُ واثذُنْ لمن تعرفُ . فقال : لا يكونُ - والله - أوَّلُ شيءٍ استكفَيْتَهُ منُ الناسِ من الطعامِ .

وأنشدتُ لأبي عيينة المهلبي :

بُلقنةٌ محجُبةٌ الفقى عن دُناةٍ
هو خيرٌ من الرُّكوبِ إلى بنا
وعتَابٌ يخافُ أو لا يخافُ
بِحجابِ عنوانهُ الانتصرافةُ
بشِّ للدولةِ التي تُرفعُ السُّفد
لهُ فيها وتسقطُ الأشرافُ

وأنشدت لموسى بن جابر الحنفي :

لا أشتهي يا قوم إلا مكرها
ومن الرُّجالِ أسمةٌ مذروبة
بسببِ الأميرِ ولا دفاعُ المحتاجينِ
ومتزندانِ شهودهم كالخنايبِ
متهم أسودٌ لا تُسرامُ ، ومنهم

وأنشدني بعضُ أصحابنا :

إني امرؤ لا أرى بالبابِ أقرعهُ
ولا اليومِ امرأ في ودِّ ذي شرفٍ

وأنشدني ابنُ أبي قنن :

الموت أهونُ من طول الوقوف على باب ، علي لبوابٍ عليه يدُ
مالي أقيمُ على ذلِّ الحجابِ كأنُ قد مَئني وطنُ أو ضائقُ بي بلدُ

وأنشدني الزبير بن بكار لجعفر بن الزبير :

إنَّ وقوفي من وراء البابِ يعدلُ عندي قلعَ بعضِ أنيابِ
وأنشد لمحمود الوراق :

شاد الملوكُ حصونهم وتمحصنوا من كل طالبِ حاجةٍ أو راغبِ
عالموا بأبوابِ الحديدِ لعزمها وتنوقوا في قبجِ وجهِ الحاجبِ
فإذا تَلَطَّفَ للدخولِ إليهم راجِ . تَلَقَّوهُ بوعيدِ كاذبِ
فاضرعْ إلى مَلِكِ الملوكِ ولا تكنْ بايدي الضراعةِ طالباً من طالبِ

وأنشدني أبو موسى المكفوف :

لن تراني لك العيونُ ببابِ ليس مثلي يُطيقُ ذلَّ الحجابِ
يا أميراً على جريبِ من الأرب من له تسعةُ من الحجابِ
قاعداً في الحربِ تُحجَّبُ عينا ما منكم معنا إمارةً في خرابِ

وأنشدني أبو قنبر الكوفي :

ولستُ بمتخذِ صاحبِا يُقيمُ على بابهِ حاجبِا
إذا جثته قيل لي نائمٌ وإن غبتُ ألفيته عاتبِا
ويُلزمُ إخوانه حقه وليس يرى حقهم واجبِا
لستُ بإلقية حتى المماتِ إذا أنا لم ألقه راكبِا

وأنشدني أبو بكر محمد بن أحمد ، من أهل رأس العين - لنفسه في بعض بني
عمران بن محمد الموصلي :

ياأبا الفوارسِ أنت أنت فقَى الندى شهدتُ بذاك ولم تنزلِ قحطانُ
فلاي شيءٌ دون بابك حاجبُ من بغيه يتخبطُ الشيطانُ

فإذا رأني من خوفه سرطانُ

فإذا رأني مالٌ عني مُعرضاً

قال الأشهب بن رُميلة :

وأن البعيث من بني عمّ سالمٍ
وريشُ الدُنسايّ تابعٌ للقوامِ

أبلغ أبا داود أني ابنُ عمّه
أتولجُ بابَ الملكِ من ليس أهله

وقال عاصمُ الرُّمانيّ، من بني زُمان :

وفي العتابِ حياةٌ بين أقوامِ
في الحقِّ أن يُلجوا (الأوابُ قُداميّ
ببابِ دارك أدلُّوها بأقوامِ

أبلغ أبا مسمعٍ عني مغلقةً
أدخلتُ قبلي رجلاً لم يكن لهم
فقد جعلتُ إذا ما حاجةٌ عرضتُ

وقال هشامُ بن أبيض ، من بني عبد شمس :

عليّ ولا تراني مستكيناً
أراني فوقهم حسباً وديناً
إلى ما كان قدّم أولونا
تري لي المجدّ والحسبُ السميناً

وليس يزيدني حسبي هواناً
فإن قدمتُ قبلي رجلاً
السنا عائدين إذا رجعتنا
فأرجع في أرومة عبثي

وقال دينار بن نعيم الكلبيّ :

فراسخُ تطوي الطرف وهو حديدُ
يقدمُ قبلي راسبٌ وسعيدُ
وأشرفُ إن كنت الشريفة تُريدُ

أبلغ أميرَ المؤمنين ودونه
بأني لدى عبد العزيز مدفعُ
وإني لأدنى في القرابة منها

المدائني قال : أتى ابن فضالة بن عبد الله الغنويّ باب قتيبة بن مسلم ،

فأساء إذنه فقال :

وأنت تُكرمُ أصحابي وتجفوني
تُدعوهم النُقريّ دوني ويقصوني
مذ ذاك أوليته ما كان يوليني

كيف المقامُ أبا حفصٍ بساحتكم
أراهم حين أغشى بابَ حجرتكم
كم من أميرٍ كفاني الله سخطه

إني أرى أن أَرْضِي بِمَنْقِصَةٍ عَمُّ كَرِيمٌ وَخَالَ غَيْرِ مَأْفُونٍ
خَالِي كَرِيمٌ وَعَمِّي غَيْرِ مُؤْتَشَبٍ ضَخَمَ الْحَمَالَةَ أَبَاءَ عَلَى الْمُؤُونِ

المدائني قال : كان مسلمة بن عبد الملك تزوج ابنة زُفر بن الحارث الكلابي، وكان بيابه عاصم بن يزيد الهلالي، والهُذَيْل وكوثر ابنا زفر، فكان يأذن لهما قبل عاصم، فقال :

أَمْسَلَمُ قَدْ مَسَّنِي وَوَعَدْتَنِي مَوَاعِدَ صَدَقٍ إِنْ رَجَعْتَ مُؤْمِرَا
أَيْدَعِي هُذَيْلٌ ثُمَّ أَدْعَى وَرَاءَهُ فَيَا لَكَ مَدْعَى مَا أَدُلُّ وَأُحْقِرَا
وَكَيْفَ لَمْ يَشْفَعْ لِي اللَّيْلَ كُلَّهُ شَفِيعٌ وَقَدْ أَلْقَى قِنَاعاً وَمُشْرَا
فَلَسْتُ بِرَاضٍ عَنْكَ حَتَّى تَحْبُنِي كَحَبِّكَ صَهْرَيْكَ الْهُذَيْلَ وَكُوثِرَا

وقال الأصم، أحد بني سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة، يذكر خالد بن عبد الله القسري، وأبان بن الوليد البجلي، وحجبه خالد :

وَمَنْزِلَةٌ لَيْسَتْ بِدَارِ تَشْيَةِ أَطَالَ بِهَا حَبِي أِبَانَ وَخَالَدُهُ
فَإِنْ أَنَا لَمْ أَنْزَلْ بِلَاداً هُمَا بِهَا فَلَا سَاغَ لِي مِنْ أَعَذِبِ الْمَاءِ بَارِدُهُ
إِذَا مَا أُتِيَتْ الْبَابُ صَادَفْتُ عَتِدَهُ بَجِيلَةَ ، أَمْشَالَ الْكِلَابِ ، تُرَاصِدُهُ
عَلَيْهِمْ ثِيَابُ الْحَزْرُ تَبْكِي كَمَا بَكَتْ كِرَاسِيَهُ ، مِنْ لُؤْمِهِ ، وَوَسَائِدُهُ
وَيُدْعَوْنَ قُدَامِي وَيَجْعَلُ دُونَنَا مِنْ السَّاجِ مَسْمُوراً تَنْطُ حِدَائِدُهُ

المدائني قال : كان نعيم بن راشد مولى باهلة، حاجباً لقتيبة بن مسلم بخراسان، فكان يأذن لسويد بن هوبر النهشلي، ومجفر بن جزى الكلابي، قبل الحصين بن المنذر الرقاشي، فقال الحصين :

إني لألقى من نعيم وبابه عناية ويدعو مجفرا وابن هوبرا
نزيعين من حين شتى كأنما يرى بهما البواب كسرى وقيصرا

وقال عبيد الله بن الحر الغاتك، لعبد الله بن الزبير، وشكا إليه مصعباً وحجابه :

أبلغ أمير المؤمنين نصيحتي فليست على رأي قبيح أواريه
 أفي الحق أن أجفَى ويجعل مصعب وزيريه من قد كنت فيه أحاربه
 وما لامرئ إلا الذي الله سائق إليه وما قد خط في الزبير كاتبه
 إذا ما أتيت البلب يدخل مسلم ويعني أن أدخل الباب حاجبه
 لقد رابني من مصعب أن مصعباً لدى كل ذي غش لنا هو صاحبه

وقال ابن نوفل لخالد بن عبد الله القسري ، وحجبه :

فلو كنت غوثياً لأدريت مجلي إليك ، أخا قسر . ولكني فعل
 رأيتك تُدني ناشئاً ذا عجيزة بمحجر عينيه وحاجبه كحل
 فوالله ما أدري إذا ما خلوتما وأزحيت الأمتار أيكما الفحل

وقال عمرو بن الوليد ، في عقية بن أبي معيط :

أفي الحق أن تُدني إذا ما فرغتم ونقصي إذا ما تأمنون ونحجب
 ويجعل فوق من يسود لو أنكم شهاب بكفي قاس يتلهب
 فها أنتم داويتم الكلم ظاهراً فمن لكوم في الصدور تحوب
 فقلت وقد أغضبتوني بفعلكم وكنت امرأ ذا مرة حين أغضب
 أمالي في أعداد قومي راحة ولا عند قومي إن تعبت متعب

المدائني قال : كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج أن يستعمل بسمع
 ابن مالك على سجستان ، فولاه إياها ، فاتاه الضحاك بن هشام فلم يُبله خيراً
 وأقصاه ، فقال :

وما كنت أخشى يا ابن كبشة أن أرى لبابك بواباً وإلا سيك منبراً
 وما شجر الوادي دعوت ولا الحصى ولكن دَعَوَات الحُرقتين وجحدرا
 أخذنا بآفاق السماء فلم ندع لعينك في آفاقها الحضر منظرأ

قال أيمن بن خريم في بشر بن مروان :

ولو شاء بشرٌ كان من دون بابهِ
ولكن بشرأ أسهل الباب للتي
بعيدُ مراد الطرف ما رُدَّ طرفه
طماطمٌ سودٌ أو صقالبَةٌ حمراءُ
يكون له من دونها الحمدُ والشكرُ
حذار الغواشي بابٌ دار ولا يسترُ
وله أيضاً في عبد العزيز :

لعبيد العزيز على قومه
فبابك ألين أبوابهم
وكلبك أراف بالمعتفين
وكفك حين ترى السائل
فمنك العطاء ومننا الشناء
وغيرهم ممن ظاهره
ودارك مأهولة عامرة
من الأم بابنتها الزائرة
من أندى من الليلة الماطرة
بكل تحبرة مائة
ولآخر أيضاً :

مالي أرى أبوابهم مهجورة
إني رأيتك للمكارم عاشقاً
وكان بابك مجمع الأسواق
والمكرّمات قليلة العُشاق
وللتميمي :

يزدحم الناس على بابهِ
ولاشجع بن عمرو السلمي :

على باب ابن منصور
جماعات وحسبُ الباء
علامات من البذل
بِ جوداً كثرة الأهل
وأنشدت لعمارة بن عقيل ، في خالد بن يزيد :

تأني خلائق خالد وفعاله
وإذا حضرنا الباب عند غدائه
الأ تجنب كل أمرٍ عائب
وأنشدت لبعضهم :

أبلغ بين حاجبيه نوره
إذا تغذى رفعت سُتوره

ولثابت قَطَنَةٌ ، في يزيد بن المهلب :

أبا خالدٍ زدت الحياةَ محبَّةً إلى الناس أن كنت الأميرَ المتوجهاً
وَحُقُّ لهم أن يرغبوا في حياتهم ويأبئك مفتوحاً لمن يخاف أو رجاً
تزيد الذي يرجو نذاك تفضلاً وتؤمن ذا الإجمام إن كان مُحرجاً

المدائني قال : حضر أبو سفيان بن حربٍ بابَ عثمان بن عفان رضي الله
عنه ، فحجَّب عنه ، فقال له رجلٌ يُغريه به : حجبتك أمير المؤمنين يا أبا
سفيان ؟ فقال : لا عَلِمْتُ من قومي مَنْ إذا شاء أن يحجبني حجبتني .

وأشدني الطائي في إسحاق بن إبراهيم الموصلي :

يا أيها المأمول نائله وجوده لمراععي جوده كئيبُ
ليس الحجابُ بمقصّرٍ عنك لي أملاً إن السماء تُرجى حين محتجبُ



وله أيضاً في مالك بن طوق :

قل لابن طوق رحي سعيد، إذا خبعت حوادث الدهر اعلاها وأسفلها
أصبحت حاتمها جوداً، وأخفها حلماً، وكيسها علماً ودغفلها
مالي أرى الحجرَ الفيحاء مقلَّةً عني وقد طال ما استفتح مقلها
كانها جنَّة الفردوس مُعرضةً وليس لي عملٌ زاكٍ فادخلها

ولأبي عبد الرحمن العَطوي في ابن المدبر :

إذا أنت لم ترسل وجئت فلم أصل ملأت بعلمٍ منك سمعٍ لبيبٍ
قصدتُك مشتاقاً فلم أر حاجباً ولا ناظراً إلا بعين غضوبٍ
كأنني غريمٌ مفتضٍ أو كئيبٌ طُلوع رقيبٍ أو نهوضٍ حبيبٍ
عليّ له الإخلاصُ ما ردغ الهوى أصالة رأيٍ أو وقارٍ مشيبٍ

وأشدني الخثعمي :

كيفما شئت فاحتجب يا أبا الليث سِ ومن شئت فأنجذب بوابي

أنت لو كنت دون أعراضٍ قحطاً نَ وأسبَلتَ دونها الأحسابا
لرأيتُك في مرأيا أيادي لك يقيناً ولو أطلتَ الحجابا

وأنشدني البلاذري في عبيد الله بن يحيى بن خاقان :

قالوا اصطبارك للحجابِ وذُلُّه صار عليك يدَ الزُمانِ وعابُ
فأجبتهم ولكلِّ قولٍ صادقٍ أو كاذبٍ عند الكريمِ جوابُ
إني لأغترفُ الحجابَ لماجد ليست له مِننٌ عليَّ رِغابُ
قد يرفع المرءُ اللثيمُ حجابَه ضعةً ، ودون العُرفِ منه حجابُ
والحرُّ مبتذلُ النُوالِ وإن بدا من دونه بيترٌ وأغلقَ بابُ

تم كتاب الحجاب ، والله الحمد والمنة ، وبيده الحول والقوة ، والله سبحانه الموفق للصواب برحمته .

يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب «مفاخرة الفلماني والجزائري» من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ أيضاً ، والله المستعان وعليه التكلان ، إنه سميع مجيب الدعاء .

والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلامه ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

هامش كتاب الحجاب

(١) معنى « الحكيم من أحكامه التجارب » ، من الخير مقارنته بما ورد عند الفلاسفة ، امثال ارسطو والكندي والفارابي وابن رشد . الحكيم عند ارسطو هو من يعرف كل شيء على قدر الامكان ، والحكمة علم يبحث في بعض العلل وبعض المبادئ . والحكيم بنظر الكندي هو الذي يعلم الاشياء بحقائقها . والحكيم برأي الفارابي هو الفيلسوف ويعني من يحب الحكمة . اما ابن رشد فيعرف الحكيم بانه الناظر في الموجودات واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع .
- ود تصفية العقل من القذى « تعني نقي الاوهام عنه .
- العبد يفرغ بالعصا والحز تكفيه الملامة .

هذا البيت نسبة الجاحظ في البيان والتبيين (ج ٣ ص ٣٦) الى الشاعر يزيد بن مفرغ .

وان قراب البطن يكفيك ملؤه وكفيك سؤات الامور اجتنابها

وهذا البيت الذي اورد الجاحظ صدره في كتاب الحيوان (ج ١ ص ٢٨٣) ، نسب الى الشاعر هلال بن خثعم ! وهلال بن خثعم كما في عيون الاخبار .

(٢) « أقسام كتاب الله في القريب والبعيد » يعني طبق الاحكام الواردة في القرآن على الناس جميعاً دون التفتت الى القرابة .

- « وشاور القرآن فانه إمامك » يعني طبق احكام القرآن فهو مرجعك وهاديك الى طريق الصواب ، ومنهاجك . (الامام : المنهاج) .

- نلاحظ من اقوال الرسول وعمر بن الخطاب التركيز على ثلاثة أمور تشكل أسس السياسة هي : العدل ، وعدم الاحتجاب عن الرعية ، والمساواة بين الناس .

(٣) « انك عمي التي انظر بها وجته التي استنيم اليها وقد وليت بك باي . . . » . يعني أن الحاجب بمثابة عين الحاكم التي يرى فيها الأمور ، وهو يشبه الدرع التي تقي الحاكم . وتولية الباب تعني توليه الحجابة .
يعني بد الخي الرثاءة « الفقير البالي الثياب .

- ابن المدبر هو ابراهيم بن محمد بن عبيد الله . كان شاعراً وكتاباً كبيراً ووزر للمعتمد على الله والمعتضد وتوفي سنة ٢٧٩ هـ . ويريد الشاعر ان يقول في الابيات الثلاثة التي يهجو فيها ابن المدبر ان سبب احتجابه هو الخوف من انكشاف عيوبه او عيه او بخله .

(٤) لاحظ تمييز العقل والفهم .

(٥) الموصلي هو اسحق بن ابراهيم الموصلي راوية الشعر والახباري المشهور توفي سنة ٢٣٥ هـ .

- سعيد بن سلم بن قتيبة الباهلي عالم بالحديث واللغة ، اخذ عنه ابن الاعرابي ، عاش في العصر العباسي الاول .

- ابو دهمان شاعر بصري عاش بين دولتي بني امية وبني العباس واشتهر بظرفه .
وغلا عليك طلابه والنذر يترك من غلاته

نسب هذا البيت الى بشار بن برد الشاعر العباسي الذي اشتهر بهجائه ومدحيه وقتل متهاً بالزندقة .

- ابو عبد الرحمن المعطوي نسبة الى عطية ، شاعر ومتكلم معتزلي عاصر الجاحظ واتصل بابن ابي دؤاد . وقال مثل الحسين النجار بخلق الافعال .

- حبيب بن اوس الطائي هو الشاعر العباسي الكبير ابو تمام الذي اكثر من مدح المعتصم وبائيته في فتح عمورية آية في هذا الفن . وقد عرف الجاحظ وروى له .

- مرداس بن حازم الاسدي شاعر اسلامي كوفي اشتهر بخبثه وفحشه في الهجاء .

- ابو الاسد الشيباني هو الشاعر نباتة بن عبد الله الحماني ، عرف بنوادره وملحه وهجائه الخبيث ، وبالطبيعة في الشعر . وقد عاش في عهد دولة بني العباس .

- ابو مالك الاعرج هو النضر بن ابي النضر التميمي ، مدح الرشيد ونال عطاءه .

- عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع بن يونس بن ابي فروة . اشتهر بشعره المطبوع وغنائه الحسن . ادرك الخليفة المنتصر العباسي .

- موسى بن جابر الحنفي الملقب بازيرق اليمامة والمكنى بابن الفريفة شاعر جاهلي غزير الشعر .

- أمّ بن خرم بن الأكرم من شعراء الدولة الأموية .
- ثابت قطنة فارس وشاعر عاش في الدولة الأموية وكان يغطي عينه المصابة بقطنة فلقب بذلك اللقب .



مركز تحقيقات كالمبيوتر علوم إسلامي



[١ - المقدمة]

حفظك الله وأبقاك وامتنع بك .

قد قرأت كتابك ومدحتك أخلاق الكتاب وأفعالهم ، ووصفك فضائلهم
وآياتهم ، وفهمته .

ومتى وَقَعَ الوصفُ من القائلِ تَقْصِيْباً ، والنُّعْمَت من الواصفِ تَأْلُفاً ، قُلُّ
شُهَدَاؤُهُ وَكَثْرُ خُصْمَاؤُهُ ، وَخَفْتُ الْكُؤُونَةَ عَلَى مَجَاهِدِيهِ فِي دَعْوَاهِ ، وَسَهَلْتُ مُنَاسِبَةَ
الْأَذْنِيَاءِ لَهُ فِي مَعْنَاهِ . لِأَنَّ أَغْلَظَ الْمَخْنِ مَا عُضِرَ عَلَى الْمَشْهُودِ فَأَزَالَهُ ، وَتَصَفَّحَهُ
الْمَعْقُولُ فَأَحَالَهُ .

مركز تحقيقات كميوتير علوم اسلامی

وأضعفُ العلل ما التمس بعد المعلول ، ونصبت له علماً على الموجود بعد
الوجود . وإذا تقدّم المعلول علته والمخبر عنه خبره ، استغني عن الحاكم ، وظهر
عوار الشاهد .

فقد رأيتك أطبت بإحماد هذا الصنف من الناس ، وحكمت بفضيلة هذه
الطبقة من الخلق ، فعلمت أن فرط الإعجاب عن القائل متى وافق صناعة المباح
رسخ في التركيب هواه ، ورسبت في القلوب أوتاده ، واشتد على المناظر إلهامه ،
وعلى المخاصم بالحق توقيفه ، وكان حكمه في صعوبة فسخه وتمتد دعيه حكم
الإجماع إذا لاقى محكم التنزيل .

ولست أدع مع ذلك توقيفك على موضع زلك في الاحتجاج ، وتنبهك
على النكته من غلطك في الاعتلال ، بما لا يمكن السامع إنكاره ولا ينسأغ له

إبطاله . وأبين مع ذلك رداة مذاهب الكتاب وأفعالهم ، ولؤم طبائعهم وأخلاقهم بما تعلم أنت والناظر في كتابي هذا: أني لم أقل إلا بعد الحجة ، ولم أحتج إلا مع ظهور العلة ، ثم أستشهد مع ذلك الأضداد تبياناً ، وأجمع عليه الأعداء إنصافاً ، إذ كان في ذلك من التبيان ما يبهرهم ، ومن القول ما يسكتهم .

[٢ - نماذج سيئة من الكتاب]

ثم أقول : ما ظنك بقوم منهم أول مرتد كان في الإسلام ، كتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فخالف في كتابه إملأه ، فأنزل الله فيه آيات من القرآن نهي فيه عن اتخاذ كاتباً ، فهرب حتى مات بجزيرة العرب كافراً ، وهو عبد الله بن أبي سرح .

ثم استكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده معاوية بن أبي سفيان ، فكان أول من غدر في الإسلام بإمامه ، وحاول نقض عرى الإيمان بأثامه .

وكتب عثمان بن عفان لأبي بكر رضوان الله عليهما - مع طهارة أخلاقه وفضائل أيامه - فلم يمت حتى أذاه عرق الكتابة إلى ذم من ذمه من أوليائه .

ثم كتب لعمر بن الخطاب رضي الله عنه زياد بن أبيه ، فانعكس شر ناشيء في الإسلام ، نُقضت بدعوته السنة ، وظهرت في أيام ولايته بالعراق الجبرية .

ثم كتب لعثمان بن عفان رضي الله عنه مروان بن الحكم ، فخسأه في خاتمته ، وأشعل الرعية حرباً عليه في ملكه .

ثم أفضى الأمر إلى علي بن أبي طالب رضوان الله عنه ، فتبين من البصيرة في الكتاب ما لم ير التنويه بذكر كاتب حتى مات .

[٣ - الرسول لم يعرف الكتابة]

ولو كانت الكتابة شريفةً والحفظ فضيلةً كان أحق الخلق بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أولى الناس ببلوغ الغاية فيها ساداتهم وذوو القدر

والشرف فيهم . ولكن الله منع نبيه صلى الله عليه وسلم ذلك ، وجعل الخط فيه ذبيحة ، وصد العلم به عن النبوة . ثم صير الملك في ملكه ، والشريف في قومه يتبجح برداء الخط ، وينبل بشنج الكتاب . وإن بعضهم كان يقصد لتقيح خطه وإن كان حلوا ، ويرتفع عن الكتاب بيده - وإن كان ماهراً - وكان ذلك عليه سهلاً - فيكلفه تابعه ، ويحتشم من تقليده الخطير من جلسائه .

وكتب أحمد بن يوسف يوماً بين يدي المأمون خطاً أعجبه فقال : وددت والله أني كتبت مثله وأنى مغرم ألف ألف . فقال له أحمد بن يوسف : لا تأمن عليه يا أمير المؤمنين ، فإنه لو كان خطاً ما حرمه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

[٤ - الكتاب اتباع وخدم]

ومع ذلك إن سئخ الكتابة بُني على أنه لا يتقلدها إلا تابع ، ولا يتولاها إلا من هو في معنى الخادم . ولم نر عظيماً قط تولى كفاية نفسه ، أو شارك كاتبه في عمله . وكل كاتب فمحكوم عليه بالوفاء ، ومطلوب منه الصبر على الأواء . وتلك شروط متنوعة عليه ، وبجنته مستكملة لديه .

وليس للكاتب اشتراط شيء من ذلك ، بل يناله الاستيطاء عند أول الرزلة وإن أكذى ، ويذكره الغذل بأول هفوة وإن لم يرض .

يجب للعبد استزادة السيد بالشكوى ، والاستبدال به إذا اشتهى . وليس للكاتب تقاضى فائته إذا أبطأ ، ولا التحول عن صاحبه إذا التوى . فأحكامه أحكام الأرقاء ، ومحلّه من الخدمة محل الأغبياء .

ثم هو مع ذلك في الذروة القصوى من الصلّف ، والسنام الأعلى من البذخ ، وفي البحر الطامي من التيه والسرف . يتوهم الواحد منهم إذا عرض جبهته وطول ذيله ، وعقص على خده صدغه ، وتحذف الشابورتين على وجهه ، أنه المتبوع ليس التابع ، والمليك فوق المالك .

[٥ - تكبير الكتاب وادعواهم العلم]

ثم الناشيء فيهم إذا وطىء مقعد الرياسة ، وتورّك مشورة الخلافة ،
وحُجزت السُّلَّةُ دونه ، وصارت الدواةُ أمامه ، وحَفِظَ من الكلام فتيقَه ، ومن
العلم مُلَحَحه ، وروى لُبْرَجْمَهْرَ أمثاله ، ولأردشِيرَ عَهْدَه ، ولعبد الحميد
رسائله ، ولابن المقفَعِ أدبه ، وصيّر كتابَ مَزْدَكِ مَعِدِنَ علمه ، ودفترَ كليلَةَ
ودمنة كَنَزَ حِكْمَتِه - [ظنُّ] أنه الفاروق الأكبر في التدبير ، وابنُ عَبَّاسٍ في
العلم بالتأويل ، ومُعَاذُ بنِ جَبَلٍ في العلم بالحلال والحرام ، وعليُّ ابن أبي
طالب في الجرأة على القضاء والأحكام ، وأبو الهذيل العلاف في الجزء
والطُّفْرَةَ ، وإبراهيم بن سيار النظام في المكامات والمجانسات ، وحسينُ
التُّجَارِ في العبارات والقول بالإثبات ، والأصمعيُّ وأبو عبيدة في معرفة
اللغات والعلم بالأنساب . فيكون أولُ بذوه الطعن على القرآن في تأليفه ،
والقضاء عليه بتناقضه . ثم يُظهِرُ ظَرْفَه بتكذيب الأخبار ، وتهجين مَنْ نَقَلَ
الأثار . فإن استرجَحَ أحدُ عنده أصحابَ الرسول صلى الله عليه وسلم قَتَلَ
عند ذكْرهم شِدْقَه ، ولوى عِنْدَ مُحَابِسَتِهِمْ كَشْحَه . وإن ذُكِرَ عنده شُرَيْح
جُرْحَه ، وإن نُعِتَ له الحَسَنُ استثقله ، وإن وُصِفَ له الشعبيُّ استحمقه ،
وإن قيل له ابنُ جُبَيْرٍ استجهله ، وإن قُدِّمَ عنده النُخَعِيُّ استصغره .

ثم يقطع ذلك من مجلسه سياسةُ أردشِيرِ بابَكَانَ ، وتدبير أنوشِروانَ ،
واستقامة البلاد لآل ساسان .

فإن حذِرَ العيون وتفقدت المسلمون ، رجع بذكر السُّننِ إلى المعقول ،
ومحكّم القرآن إلى المنسوخ ، ونفى ما لا يُدْرِكُ بالعبان ، وشبّه بالشاهد
الغائب . لا يرتضي من الكُتب إلا المنطق ، ولا يحمد إلا الواقف ، ولا
يستجيد منها إلا السائر .

هذا هو المشهور من أفعالهم والموصوف من أخلاقهم .

[٦ - فنى الكتاب]

ومن الدليل على ذلك ، أنه لم يُر كاتبٌ قطُّ جعل القرآن سميّره ، ولا علّمه تفسيره ، ولا التفقه في الدين شعاره ، ولا الحفظ للسنن والآثار عماده ، فإن وُجد الواحدُ منهم ذاكراً شيئاً من ذلك لم يكن لدوران فكيه به طلاقة ، ولا لمجيئه منه حلاوة . وإن آثر الفردُ منهم السعي في طلب الحديث ، والتشاعُل بذكر كتب المتفقيين ، استقله أقرانه ، واستوخمه الأُفّه ، وقضوا عليه بالإدبار في معيشته ، والحِرفة في صناعته ، حين حاول ما ليس من طبّعه ، ورامَ ما ليس من شكله .

قال الزُّهري لرجل : أيعجبك الحديث ؟ قال : نعم . قال : أما إنّه لا يعجب إلا الفحول من الرجال ، ولا يُغضه إلا إناثهم !

ولئن وافق هذا القولُ من الزُّهري فيهم مذهباً ، إن ذلك لَبينٌ في شمائلهم ، مفهوم في إشاراتهم .

مركز بحوث ودراسات إسلامية

[٧ - المعتزلة يكرهون الكتاب]

وسئل ثمامة بن أشرس يوماً ، وقد خرج من عند عمرو بن مسعدة ، فقيل له : يا أبا معن ، ما رأيت من معرفة هذا الرجل وبلوت من فهمه ؟ فقال : ما رأيتُ قوماً نفرتُ طبائعهم عن قبول العلوم ، وصغرت هممهم عن احتمال لطائف التمييز - فصار العلمُ سببَ جهلهم ، والبيانُ غلماً ضلالتهم ، والفحصُ والنظرُ قائدَ غيهم ، والحكمةُ مُعِينٌ شُبّههم - [أكثر] من الكتاب .

وذكر أبو بكر الأصمُ ابن المقفّع فقال : ما رأيتُ شيئاً إلا وقليله أخفٌ من كثيره إلا العلم ، فإنه كلما كثر خفتُ محبته . ولقد رأيتُ عبد الله ابن المقفّع هذا في غزارة علمه وكثرة روايته ، كما قال الله عزّ ذكره : ﴿ كَمَثَلِ الْجَمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ . قد أوهته علمه ، وأذهله حلمه ، وأعمته حكمته ،

وَكُنَّا فِي مَجْلِسِ بَشْرِ بْنِ الْمُعْتَمِرِ يَوْمًا وَعِنْدَهُ الْمُزْدَارُ ، وَثَمَامَةُ ،
وَالْعَلَّافُ ، فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَأَصْحَابِ الْكَلَامِ ، فَتَذَاكَرُوا الْعَوَامَّ
وَاسْتَحْوَاذَ الْفِتْنَةَ عَلَيْهِمْ فِي التَّقْلِيدِ ، وَاسْتَفْلَقَ قُلُوبَهُمْ بِكَثِيرٍ مِمَّا لَيْسَ فِي
طَبْعِهِمْ ، فَتَعَظَّمَهُمْ وَتَقَضَى لِكُلِّ مَنْ نُبِلَ مِنْهُمْ بِالصُّوَابِ فِي قَوْلِهِ وَإِنْ لَمْ
يَعْلَمُوا . لَا يَدِينُونَ بِالْحَقِيقَةِ ، وَلَا يَحْمَدُونَ إِلَّا ظَاهِرَ الْحِلْيَةِ .

وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى نَذَالَةِ طَبْعِهِمْ ، وَالْعِلْمِ بِفَسَالَةِ رَأْيِهِمْ ، تَقْدِيمُهُمْ
بِالْفَضْلِ لِمَنْ لَا يَفْهَمُونَهُ ، وَقِضَاؤُهُمْ بِالْعِلْمِ لِمَنْ لَا يَعْرِفُونَهُ ، حَتَّى إِنْهُمْ
يَضْرِبُونَ بِالْكَاتِبِ فِيمَا بَيْنَهُمُ الْمَثَلُ ، وَيَحْكُمُونَ لَهُ بِالْبَصِيرَةِ فِي الْأَدَبِ ،
عَلَى غَيْرِ مُعَاشِرَةٍ جَرَتْ بَيْنَهُمْ ، وَلَا مَحَبَّةٍ ظَهَرَتْ لَهُ مِنْهُمْ . لَيْسَ إِلَّا أَنْ
هَمَّهُمْ صَغُرَتْ عَنْهُمْ ، وَامْتَلَأَتْ قُلُوبُهُمْ مِنْهُمْ ، فَصَارَ الْمُحْفَظُونَ مِنْ
أَقْوَالِهِمْ ، وَالَّذِي يَدِينُونَ بِهِ مِنْ مَذَاهِبِهِمْ : كَيْفَ لَا يَأْمَنُ فُلَانٌ الْخَطَأَ مَعَ
جَلَالَتِهِ ، وَكَيْفَ يَسَاغُ لِأَحَدٍ تَجْهِيلُهُ مَعَ نُبْلِهِ . فَإِنْ وَقَفُوا عَلَى تَمْيِيزِهِ هَابُوهُ ،
وَإِنْ دُعُوا إِلَى تَفْهِيمِهِ أَكْبَرُوهُ ، وَقَالُوا : لَمْ يُنْصَبْ هَذَا بِمَوْضِعِهِ إِلَّا لْخَاصَّةٍ
فِيهِ وَإِنْ جَهَلْنَاهَا ، وَفَضِيلَةُ مَوْتَكُومَةٍ وَإِنْ قَصُرَ عِلْمُنَا عَنْهُمْ . وَلَعَلَّهُ عُمَرُ بْنُ
فَرَجٍ فِي السُّفْهِ وَالْمِبَاهِتَةِ ، وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ الْعَبَّاسِ فِي الشُّرْهِ وَالرُّقَاعَةِ ،
وَنَجَّاحُ بْنُ سَلْمَةَ فِي (السُّطَيْشِ) وَالسُّخَافَةِ ، وَأَحْمَدُ بْنُ الْخَصِيبِ فِي اللَّؤْمِ
وَالجَهَّالَةِ ، وَأَلُّ وَهْبٍ فِي النَّهْمِ وَالنُّذَالَةِ ، وَيَحْيَى بْنُ خَاقَانَ فِي السُّدُّ
وَالْفَاقَةِ ، وَمُوسَى بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي السُّوَحْمِ وَالْبِلَادَةِ ، وَابْنُ الْمَدْبُرِ فِي الْخِيبِ
وَالْمَكَابِرَةِ ، وَالْفُضْلُ بْنُ مَرْوَانَ فِي الْفَدَامَةِ مَقْصُورَةً .

وَفِي عَمْرِ بْنِ فَرَجٍ يَقُولُ الشَّاعِرُ :

لَا تَطْلُبِ الْخَيْرَ مِنْ بَنِي فَرَجٍ	لَا بَارِكِ السُّلَّةُ فِي بَنِي فَرَجٍ
وَالعَمْرُ إِذَا مَا لَقِيْتَهُ عُمَرَاً	لَعْمَاً يَقِينَاً بِأَعْظَمِ الْهَجْرِ
فَلَعْنَةٌ إِنْ لَعْنَتْهَا عُمَرَاً	تَعْدِلُ مَقْبُولَةً مِنَ الْجَجَجِ
لَيْسَ عَلَى الْمُفْتَرِي عَلَى عُمَرَ	مَنْ ضَرَبَ حَدًّا يُخْشَى وَلَا حَرَجٍ

وُخْبِرْتُ أَنَّ أَبَا الْعَتَاهِيَةَ أَتَى يَحْيَى بْنَ خَاقَانَ يَوْمًا لِيَسْلَمَ عَلَيْهِ ، فَلَمْ يَأْذَنْ لَهُ حَاجِبُهُ فَانصَرَفَ ، وَأَتَاهُ يَوْمًا آخَرَ فَصَادَفَهُ حِينَ نَزَلَ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ ، وَدَخَلَ يَحْيَى إِلَى مَنْزِلِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَهُ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ أَبُو الْعَتَاهِيَةَ مِنْ سَاعَتِهِ رُقْعَةً فِيهَا :

أَرَاكَ تُرَاعُ حِينَ تَرَى خِيَالِي فَمَا هَذَا يَرُوعُكَ مِنْ خِيَالِي
لِعَمَلِكَ خَائِفٌ مَنِّي سَوَالًا أَلَا فَلَكَ الْأَمَانُ مِنَ السُّؤَالِ
كَفَيْتُكَ إِنْ حَالَكَ لَمْ تَجِلْ بِي لِأَطْلَبَ مِثْلَهَا بَدَلًا بِحَالِي
وَإِنَّ الْعُسْرَ مِثْلَ الْيُسْرِ عِنْدِي بِأَيُّهُمَا مُنِيْتُ فَمَا أَبَالِي

فلما قرأ يحيى بن خاقان رُقْعَتَهُ وَوَثِقَ بِأَمَانِهِ مِنَ السُّؤَالِ أَذِنَ لَهُ ، فَخَرَجَ الْحَاجِبُ فَوَجَدَهُ قَدْ انصَرَفَ ، وَلَمْ يَعُدَّ إِلَيْهِ ، وَلَا التَقِيَ بَعْدَ ذَلِكَ .

وَبَجَلَسَ الْجَاحِظُ يَوْمًا فِي بَعْضِ الدُّوَابِّ ، فَتَأَمَّلَ الْكُتَابَ فَقَالَ : خَلَقَ خُلُوعًا ، وَشَمَائِلَ مَعْشُوقَةٍ ، وَتَطَرَّفَ أَهْلَ الْفَهْمِ ، وَوَقَّارَ أَهْلَ الْعِلْمِ ، فَإِنْ أَلْقَيْتَ عَلَيْهِمُ الْإِخْلَاصَ وَجَدْتَهُمْ كَالزُّبَيْدِ يَذْهَبُ جُفَاءً ، وَكَيْبِئَةَ الرَّبِيعِ يُحْرِقُهَا الْهَيْفُ مِنَ الرِّيَاحِ ؛ لَا يَسْتَنْدُونَ مِنَ الْعِلْمِ إِلَى وَثِيقَةٍ ، وَلَا يَدِينُونَ بِحَقِيقَةٍ ؛ أَخْفَرُ الْخَلْقِ لِأَمَانَاتِهِمْ ؛ وَأَشْرَاهُمْ بِالثَّمَنِ الْخَسِيسِ لِعَهْوِهِمْ ؛ الْوَيْلُ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلُ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ .

[٨ - قلة تعاطف الكتاب]

ثم وَصَفَ أَصْحَابَ الصَّنَاعَاتِ ، وَذَكَرَ تَعَاظِفَ أَهْلِهَا عَلَى نِظَرَاتِهِمْ ، وَتَعَصَّبَ رِجَالَهَا عَلَى غَيْرِهِمْ فَقَالَ :

لَا أَعْلَمُ أَهْلَ صِنَاعَةٍ إِلَّا وَهُمْ يَجْرُونَ فِي ذَلِكَ إِلَى غَايَةِ مَحْمُودَةٍ ، وَيَأْتُونَ مِنْهُ آيَةً مَذْكُورَةً ، إِلَّا الْكُتَابَ ، فَإِنَّ أَحَدَهُمْ يَتَحَادَقُ عِنْدَ نِظَرَاتِهِ بِالِاسْتِقْصَاءِ عَلَى مِثْلِهِ ، وَيَسْتَرْجِعُ رَأْيَهُ إِذَا بَلَغَ فِي نِكَايَةِ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ صِنَاعَتِهِ .

ثم ضرب لهم في ذلك مثلاً ، ثم قال : هم كالهزيمة من الكلاب في
مرايضها ، يمرُّ بها أصناف الناس فلا تحركُ ، وإن مرَّ بها كلبٌ مثلها نهضتْ
إليه بأجمعها حتى تقتله .

وحدّثني عمّار بن سيف ، أنه حضر مجلس أبي عباد ثابت بن يحيى
يوماً في منزله ، وعنده جماعة من الكتاب فذكر ما هم عليه من ملائم الأخلاق
ومدانس الأفعال ، قال : ووصف تقاطعهم عند الاحتياج ، [وعدم
تعاطفهم عند الاختلال ، وزهدهم في المواصلة فقال :

معاشر الكتاب ، ما أعلم أهل صناعة أملاً لقلوب العامة منكم ، ولا
النعم على قومٍ أظهر منها عليكم . ثم إنكم في غاية التقاطع عند
الاحتياج ، وفي ذروة الزهد في التعاطف عند الاختلال . وإنه ليبلغني أن
رجلاً من القصابين يكون في سوقه ، فيتلف ما في يديه ، فيخلى له
القصابون سوقهم يوماً ، ويجعلون له أرباحهم ، فيكون يربحها منفرداً ،
وبالبيع مُفرداً ، فيسدون بذلك خلته ، ويجبرون منه كسره . وإنكم لتناكرون
عند الاجتماع والتعارف ، تناكرون الضباب والملاحف ، ثم مع استحوادكم
على صناعتكم ، وقلة ملابسة أهل الصناعات لها معكم ، لم أر صناعة من
الصناعات إلا وقد يجمع أهلها غيرها إليها فيعانونها جميعاً ، ويتزلون لضرب
من التجارات معاً ، إلا صناعتكم هذه ؛ فإن المتعاطي لها منكم ؛
والمتمسّي بها من نظرائكم ، لا يليق به ملابسة سواها ، ولا يساغ له
التساغل غيرها . ثم كأنكم أولاد علاتٍ ، وضرائر أمهات ، في عداوة
بعضكم بعضاً ، وحنقٍ بعضكم على بعض . أف لكم ولاخلاقكم !

إن للكتاب ضائع لثيمة ، ولولا ذلك لم يكن سائر أهل التجارات
والمكاسب بنظرائهم بررةً ، ومن ورائهم لهم حفظة ، وأنتم لاشكالكم
مذبلون ، ولاهل صنائعكم قائلون . فبسخ الله الذي يقول قضيينا في الأمور
بالأغلب

وعرفنا علل الناس في مكاسبهم وتعاملهم ، فمن كانت علته اكرم كان
كرم فعاله اعم .

ولست اعلم جلة في مكتسب انبل عند الخاصة من مكسبكم .

[٩ - شؤون الكتاب]

ثم وصف من سلف من هذه الطبقة يوماً فقال : كتب سالم لهشام بن
عبد الملك ، وكان اشد الناس غلظاً ، واضعفهم رأياً ، وكان هشام يحضره
فيسمع من ضعفه ويستميحه الرأي ، يهزأ به .

ثم كتب لهم مسعدة وكان مؤدباً ، وكانت ضعفة المؤدبين فيه .

ثم كتب لهم عبد الحميد وكان معلماً ، وبتحامله على نصر بن سيار
انتقضت خراسان ، وزال ملك بني مروان .

ثم كتب لبني العباس عبد الله بن المقفع ، فأغرى بهم عبد الله بن
علي ، ففطن له وقتل وهدم البيت على صاحبه .

ثم كتب لهم يونس بن أبي فروة ، وكان زنديقاً ، فطلب فساختمى
بالكوفة والنيل حتى هلك .

واستكتب الرشيد أزدانقادر على ديوان الخراج ، وكان ثويلاً .

ثم لم ينوهوا بذكر كاتب حتى ولي المأمون ، فقديم معه ابن أبي
العباس الطوسي ، فيه انتشرت السعاية بالعراق .

واستكتب أبا عباد ، وكان بالرّي مؤدباً ، وكان سخيلاً حديداً ، ولم
يزل بمكانه في ديوانه فيما لابن أبي خالد الاحول والاسم له .

ثم كتب له رجاء بن أبي الضحاك ، وكان اظلمهم وأغشمهم ،
واستخلف حفصويه على ديوان الخراج ، وكان ركيكاً لسعايته .

ثم كتب لهم ابن يزداد ، وكان أشقاهم ، حتى هلك .
وكتب لهم عمرو بن مسعدة ، وكان رسائلياً فقط .

واسترجح المأمون وهو بخراسان قبل مقدمه من كتاب العراق على غير
بَلَوَى إبراهيم بن إسماعيل بن داود ، وأحمد بن يوسف ، فلما قديم امتحنهما
فتعنتا ، فاستنهضهما في الأعمال ففشلا ، فلم يعملوا على شيء حتى
هلكا .

وكان إبراهيم شعوبياً ، وكان يتهم بالثنوية . فإن كان ذلك صحيحاً
فقد كانت صيبته بها على جهة التقليد فيها ، لا على جهة التفيش
والاحتجاج فيها . وهذه علة المرتد من سائر الكتاب .

وقد قال أهل الفطن : إن محض العمى التقليد في الزندقة ؛ لأنها إذا
رسخت في قلب امرئ تقليداً أطالت جراته ، واستغلق على أهل الجدل
إفهامه .

وكان أحمد بن يوسف مافونياً ، وهو أول من قُرف بالآفة المخالفة لطبع
الكتاب .

واستقضى على ديوان الخراج والجنيد إبراهيم الحاسب ، والحسن بن
أبي المشرف . فلقين إبراهيم من سائر الأداب والعلوم علم الحساب فقط ،
ولم يُفزع إليه في قضية ولا رأي حتى هلك ، فكان الذي وضعه وادناه
شره ، وهي علة قائمة في كتاب الجنيد خاصة .

واستضعف ولاية الدواوين الحسن بن أبي المشرف عند قول الفضل
[ابن] مروان له وهو على الوزارة : «يا حسن ، احتجنا إلى رجلٍ جزلٍ في رأيه ،
متوفر لأمانته ، متصرف في الأمور بتجربته ، مستقدر على الأعمال بعلمه ،
تصيف لنا مكانه ، وتُشير علينا به ، فنقلده جسيماً من عملنا .» فأجابه سريعاً
قال : وجدته لك - أصلحك الله - كذلك . قال : من هو؟ قال : أنا . والحُج

عليه في قوله ، فتبسم الفضل وقال : هذا من غيرك فيك أحسن منك
بلسانك لك ، تعود وننظر إن شاء الله ا

[١٠ - حساسة ارزاق الكتاب]

وحسبك بقوم أنبلهم أحسهم في الرزق مرتبة ، وأعظمهم غناء أقلهم عند
السلطان عقلاً . يُرزق صاحب ديوان الرسائل - ولسانه يخاطب الخلق - العشر
من رزق صاحب الخراج . ويرزق المحرر - ويخطه يكون جمال كتب الخليفة -
الجزء من رزق صاحب النسخ في ديوان الخراج . لا يحضر كاتب الرسائل
لنائبية ، ولا يُفزع إليه في حادثة . فإذا أبرم الوزراء التدبير ووقفوا منها على
التقدير ، طُرحت إليه رقعة بمعاني الأمر لينسق فيه القول ، فإذا قرغ من نظامه
واستوى له كلامه ، أحضر له محرره فجلس في أقرب المواطن من الخليفة ، وأمنع
المنازل من المختلفة ، فإذا تقضى ذلك فُهِموا والعوام سواء .

هذا وليست صناعتها بفاشية في الكتاب ، ولا بموجودة في العوام ؛
فاغزروهم علماً أمهتهم ، وأقربهم من الخليفة أهونهم . فكيف بكاتب الخراج
الذي علمه ليس بمحظور واشراك الناس فيه ليس بمنوع ، يصلح لموضعه كل
من عميل وعميل عليه ، أحمد أحواله عند نفسه التعمد على الخصوم ، وأسعد
أموره التي يربو بها البلوغ الشره ومنع الحقوق . وأحذق ما يكون بصناعته عند
نفسه حين يأخذ بإبطال السنن ، ويعمل بفلتات الدفع .

ولذلك ما ذكر أن بعض رجال الشعبي قال له : يا أبا عمرو ، الكتاب
شرار خلق الله ا فقال : لا تفعل .

ولكن الشعبي كان لسلطانه مدارياً .

ومن كتاب الجند : محمود بن عبد الكريم ، كان حميد بن عبد الحميد عند دخول المأمون مدينة السلام وبعد سكون الهيج وخمود النائرة ، رفع إلى المأمون يذكر أن في الجند دغلاً كثيراً ممن دخل فيهم بسبب تلك الحروب في أيام الأجناد - [وهم] قومٌ من غير أهل خراسان ممن تشبه بهم وأدعى إليهم من الأعراب والدُّعَار ، وممن لا يستحقُّ الديوان ، وقومٌ من أهل خراسان صارت لهم الخواصُّ السنيّة ، [و] لم يكن لهم من الغناء ما يستحقُّون به مثلها - وذكر أن بيت المال لا يحتمل ذلك ، وسأل المأمون أن يوليّه تصنيفَ الجند . ولم يكن مذهب حميد في ذلك التوفير على المأمون ، ولا الشفقة على بيت مال المسلمين ، ولكنه تعصب على أبناء أهل خراسان ، واضطغن عليهم محاربتهم إياه أيام الحسن بن سهل مع ولده محمد بن أبي خالد وغيرهم ، وما كانوا قد انتحوه به من تلك الوقائع والهزائم ، وما ذهب له من الأموال بذلك السبب .

فولاه المأمون التصنيف ، وأمر للجند برزق شهرين ، فولى حميدُ العطاء والتصنيف محمود بن عبد الكريم الكاتب ، وعرف محمود ما غزا حميدٌ ، فتحامل على الناس واستعمل فيهم الأحقاد والسُّدْم ، فخفض الأرزاق ، وأسقط الخواصُّ ، وبعث في الكُور وأنحى على أهل الشرف والبيوتات ، حسداً لهم وإشفاءً لغيلل صاحبه منهم ، ففضد لهم بالمكروه والتعنت ، فامتنت طائفة من الناس من التقدُّم إلى العطاء وتركوا أسماءهم ، وطائفة انتدبوا مع طاهر بن الحسين بخراسان ، فسقط بذلك السبب بشرٌ كثير .

ثم إن المأمون أمر للناس بتمام عطاياهم ؛ واكتسب محمود بن عبد الكريم المذمة ، وصار ملعنةً في محالِّ بغداد وفي مجالسها وطرقها .

ومنهم : زيد بن أيوب الكاتب ، عمل في ديوان الجند أربعين سنة ، ثم صار في آخر عمره قواداً ليحيى بن أكرم القاضي . وذلك أن المأمون أمر له بفرض ، فصبر يحيى بن أكرم أمر ذلك الفرض إلى زيد بن أيوب ، وأمره ألا يفرض إلا لأمرد بارع الجمال ، حسن القُدِّ والصورة . فكان أمر ذلك الفرض مشهوراً متعالماً . ففي ذلك يقول الحسن بن علي الجرمازي لزيد بن أيوب :

يا زيد يا كاتب فرض الفرائش أكل هذا طلب للمعاش
مالي أرى فرضك حملانهم يثب في القرنين قبل الكباش

وعلى ذلك فإنه لم يبلغني أنه كان في ولاية ديوان الجند ولا في كتابهم مثل المعلّى بن أيوب في نبه وارتفاع همته ، وكرم صحبته ، وعفافه ، وجميل مذهبه ، وشدة محاماته عن صحبه وتحرم به . فكان المأمون يعرف له ذلك ومن بعده من الخفاء ، فثبت وطاقته ، ودامت ولايته ، وحمد أثره .

مركز تحقيقات كويتية علوم إسلامية

قد أتينا على بعض ما أردنا فيما له قصدنا ، ولم نستعمل الانتزاعات فيما ذكرنا ، وأعرضنا عن التأويلات فيما وصفنا ، وقصدنا إلى المأثور فحكينا ، وإلى المذكور في الأزمنة فأجرينا ، لئلا يجذ الطاعن فيما وصفنا مقالا ، والمنكر للدم ما ذمنا مساعاً ، وعلمنا أن من عاند مع ذلك فقد دفع عياناً وانكر كائناً مذكوراً . وفي ذلك دليل باهر على اضمحلاله ، وشاهد عدل لأضداده .

ولو حكينا كل ما في هذا الجنس من الأقوال ، وما يدخله من المقاييس والأشكال ، لطال الكتاب ، ولمه الناظر المعجاب ، فاكتفينا بالجزء من الكتاب ، والبعض دون التمام ، وعلمنا أن الناظر فيه إن كان فطناً أقنعه القليل ففضى ، وإن كان بليداً جهولاً لم يزد الإكثار إلا عيباً ،

ومن العلم بما له قَصَدْنَا إِلَّا بَعْدَهُ . وبالله الكفاية والتوفيق .



تمّ كتاب « ذم أخلاق الكتاب » بعون الله ومنه ومشيبته وتوفيقه ، والله تعالى الموفق للصواب . والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وأصحابه الطيبين الطاهرين وسلامه ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .



مركز تحقيقات كميوتير علوم رسدي

هامش كتاب ذم اخلاق الكتاب

(١) لاحظ غموض الفكرة في هذا المقطع . ويبدو ان الجاحظ يريد ان يقول ان الاسراف في الاستقصاء يعرض صاحبه للنقد من قبل الخصوم لأن الشيء المستقصى في الوصف يندرس سهل المتناول مكشوفاً للنقاد .

- الوجود لا يحتاج الى برهان ، وبهذا يسبق الجاحظ هيجل . واذا وجد الوجود لم نعد بحاجة الى البحث عن العلة ، لأن المعلول يخبر عن العلة .

- اذا اجتمع الاعجاب في الشيء مع المديح - اي مديح الشيء - غدا من المسير ازالة الاعجاب والتحول عنه . ويشبه اجتماع الاعجاب مع المديح اجتماع الاجماع مع محكم التنزيل .

- الاعتلال هو التفتيش عن العلة او السبب ، والاحتجاج هو التفتيش عن الحججة . والحجة تثبت صحة الشيء ، اما العلة فتثبت وجوده . راجع حول مفهوم العلة والحجة عند الجاحظ كتابنا المناهي الفلسفية عند الجاحظ .

(٢) هناك شك في رواية الجاحظ عن عبد الله بن ابي سرح . انظر الاستيعاب لابن عبد البر ، طبعة حيدرآباد سنة ١٣٨٨ ص ١٥٥٣ . وهو يذهب الى انه لم يمت كافراً .

- ينتم الجاحظ معاوية بن ابي سفيان بالغندر بعلي بن ابي طالب امامه ، كما يرميه بالاثم ، وقد عدد آثامه في رسالة النابتة ضمن مجموعة رسائل الجاحظ الكلامية .

- زياد ابن ابيه عمل كاتباً لعمر بن الخطاب ثم والياً لعلي بن ابي طالب ثم لمعاوية ابن ابي سفيان وقد ادعى معاوية انه أخوه اخذاً بقول والده ابي سفيان ونقض بادعائه السنة او خالفها .

والجبرية فرقة كلامية ظهرت في العصر الأموي ذهبت الى ان الانسان ليس حراً في اعماله بل هو مجبر وافعاله من صنع الله . واشهر رؤسائهم الجهم بن صفوان الذي قتل في آخر خلافة بني أمية .

- (٣) لاحظ تعليل الجاحظ للاعتباطي لجهل النبي الكتابة .
 (٤) لاحظ خطأ الجاحظ في رأيه أن الكتاب كانوا جميعاً تابعين أو خدماً .
 (٥) انظر وصف الجاحظ لباس الكاتب : الجبة العريضة الطويلة ، والشعر المعقوص على الصدغ الخ . . .

- ثقافة الكاتب تناول حفظ الكلام الفصيح أو الفتيق ، وامثال بزرجمهر الحكيم الفارسي الذي وزر لكسرى ، ورسائل عبد الحميد الكاتب الذي كتب لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، وكتب ابن المقفع الذي كتب لاعمام المنصور وقتل بسبب كتاب العهد الذي خطه على المنصور أماناً لعمه عبد الله بن علي ؛ وقد ترجم كتاب كليله ودعنة عن الفارسية ، وكتب الأدب الكبير والأدب الصغير ، وكتاب مزدك .

- وهو يعني بالفاروق عمر بن الخطاب ويعني بالتدبير السياسة .
 - ويعني بابن عباس عبد الله بن العباس الفقيه والخطيب وقد ولي لعلي بن أبي طالب واشتهر بالعلم والتأويل : والتأويل هو تفسير آيات القرآن .
 - أبو الهذيل العلاف (٨٤٩ م) أحد شيوخ المعتزلة الكبار ، قال إن الاجسام تتألف من أجزاء لا تتجزأ أو جواهر فردة أو ذرات ، وعارض النظام لقوله بالطفرة أي قطع المسافة من مكان إلى ثالث دون المرور بالمكان الثاني . وكان أبو الهذيل والنظام معاصرين للجاحظ وأكبر منه سناً . وكان النظام أستاذ الجاحظ قال بان الجسم يمكن تجزئته إلى غير نهاية كما قال بالكمون أي وجود شيء في شيء آخر يظهر متى ذهب المانع ، مثل كمون النار في الخطب . وقال أيضاً : بالمجانسات أي تقسيم الاشياء والحيوانات إلى أجناس يشترك كل جنس بخصائص معينة موجودة في جميع افراد الجنس .

- وحسين النجار صاحب فرقة النجارية بحث في العبادات وقال بالتعطيل كالمعتزلة .

- والاصمعي ، عبد الله بن قريب الباهلي (٢١٦ هـ) كان اماماً في الاخبار والنوادر .

- وابو عبيدة معمر بن مثنى التيمي بالولاء (٢١٠ هـ) كان راويةً ولغويًا كبيراً كالاصمعي واخذ عنه الجاحظ الكثير .

- وشريح بن الحارث الكوفي القاضي جعله عمر بن الخطاب قاضياً على الكوفة واثبته عثمان وعلي في عمله وولاه زياد ابن ابيه القضاء على البصرة وتوفي سنة ٧٢ هـ .

- ويعني بالحسن (وان نعت له الحسن استقله) الحسن البصري المتكلم والفقير
والواعظ المشهور وقد عاش في العصر الأموي .
- ابن جبير هو سعيد بن جبير الاسدي الكوفي مروى بني أسد كان فقيهاً عابداً
وكتب في الدواوين القضائية ، وقتل لدى خروجه مع ابن الأشعث سنة ٩٥ هـ .
- النخعي هو ابراهيم بن يزيد النخعي . كان فقيهاً وتوفي سنة ٩٦ هـ .
- (٦) عدم اهتمام الكتاب لعلوم التفسير والفقهاء والحديث يثير الدهشة .
- (٧) ثعامة بن اشروس ، احد ائمة المعتزلة توفي سنة ٨٢٨ م . وقد اكثر الجاحظ من ذكره
في كتبه ويبدو انه كان مقرباً من الخلفاء .
- وعمرو بن مسعدة احد الكتاب في عصر المأمون ، توفي سنة ٢١٧ هـ .
- وابو بكر الاصم معاصر الجاحظ واحد شيوخ المعتزلة .
- بشر بن المعتز معاصر الجاحظ واحد شيوخ المعتزلة توفي سنة ٨٢٥ م .
- وابو موسى المرداد معاصر الجاحظ واحد ائمة المعتزلة توفي سنة ٨٤١ م .
- عمر بن سرح وابراهيم بن العباس ونجاح بن سلمة واحمد بن الخصب وآل
وهب ويحيى بن خاقان ، وموسى بن عبد الملك ، وابن المدبر والفضل بن مروان
من اعلام الكتاب في العصر العباسي .
- ابو العتاهية الشاعر العباسي المشهور بزهدياته ورقة شعره عاش في العصر العباسي
الأول .
- « وجلس الجاحظ يوماً في بعض الدواوين » هذه الجملة دخيلة على الكتاب لأن
الجاحظ لا يمكن ان يقول عن نفسه ذلك . ويمكنه ان يتحدث بضمير المتكلم
فيقول جلست يوماً في بعض الدواوين فتأملت الكتاب وقلت . . .
- (٨) اولاد علات : من امهات مختلفات فرائر .
- وضرائر امهات : النساء اللواتي يكن لزوج واحد وفن اولاد .
- (٩) سالم الكاتب عمل في ديوان هشام بن الحكم والوليد بن يزيد .
- ويونس بن ابي فروة احد كتاب العباسيين .
- وابو عباد هو ثابت بن يحيى ، كان مقرباً من المأمون .
- رجاء بن ابي الضحاك هو والد الحسن بن رجاء . ولي على اخراج في عهد
المعتصم ، وكان يقرض الشعر .
- ابن يزداد هو محمد بن يزداد بن سويد استعمله المأمون .
- (١٠) لتلاحظ ان معظم الكتاب كانوا من اصل فارسي ، وقد اهتم اكثرهم بالشموية
والزندقة امثال ابن المقفع ، ويونس بن ابي فروة ، وازداد نقاذار وابراهيم بن

اسماعيل بن داود .

(١١) محمود بن الكريم احد الكتاب في عهد المأمون .

- وحميد بن عبد الحميد من كتاب الجند في عهد المأمون .

- يحيى بن اكنم بن صيفي ينتهي بنسبه الى اكنم بن صيفي الحكيم والخطيب

الجاهلي المشهور . اشتهر بفقهه وسعة علمه . ولاء المأمون القضاء وتدير السياسة .

وقد احله المتوكل مكان محمد بن احمد بن ابي دؤاد ، ثم عزله وتسوفي سنة

٢٤٦ هـ .



مركز تحقيقات كبيوتر علوم رسدي

فهرس الاعلام (١)

- ١-
 آدم ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٤٨٩ ، ٥٥٦ .
 اباضية ١١١ .
 ابراهيم ١١٠ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ .
 خالد بن ابراهيم ٤٨٣ .
 عبيد بن الأبرص ٥٣٤ .
 ابرهة ٤١٢ .
 الأبله ١١٢ .
 أنباء ٥٠٠ .
 هشام بن أبيض ٥٩٣ .
 زياد ابن ابيه ١١٥ ، ٥٦٩ .
 أحد : ١٤٥ ، ١٦٦ .
 ابو بكر محمد بن أحمد ٥٩٢ .
 الخليل بن أحمد ١١٦ .
 خلف الأحمر ٥١٣ ، ٥٤٢ .
 الاحنف ١١٦ .
 الاحوص ٥٤٨ .
- شبيب بن نجار أخداي ٤٩٣ .
 الاخطل ٤٣٨ ، ٥٣٦ .
 برقوق الاخطل ٥٢٨ .
 مرداس بن أدبة ٣١٧ .
 حبيب بن الارث ١٢٩ ، ١٣٠ ،
 ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٥ .
 ابو ازهر ١٤٣ .
 اسامة ١٦٨ ، ١٨١ ، ٢٢٩ ، ٢٤٤ ،
 ٢٤٥ ، ٢٥٠ ، ٢٨١ .
 ٣١٠ ، ٣٥٢ ، ٤٨٤ .
 ابن اسحق ١٤٤ ، ٣٧١ ، ٣٧٣ ،
 ٣٩٣ .
 اسحق : ٤٧٧ ، ٤٨٩ ، ٥١٢ .
 ابو سلمة بن عبد الأسد ١٤٢ .
 اسماعيل ٤٧٧ ، ٤٨٨ ، ٥٠٢ .
 هاشم بن اشتاحج ٤٨١ .
 الاشر ٣٤٩ ، ٣٥٦ .

(١) لا يتناول هذا الفهرس رسالة فضل هاشم على عبد شمس .

٣٨٩ . (كل رقم يدل على آية

قرآنية) .

امية : ٤١١ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤١٩ .

انس : ٢٢٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ .

كسرى او شروان : ٥٧١ .

الاهواز : ١١٢ ، ١١٥ ، ١٢٠ .

الاوزاعي : ٣٨٢ .

حبيب بن اوس الطائي (ابو تمام)

، ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٥٨٣ ،

٥٨٥ ، ٥٩٧ .

ذئب اهبان بن اوس : ٤٨٩ .

معاوية بن اوس : ٥٣٥ .

الاورس : ٤٧٩ .

مطيع بن اياس : ٤٩٢ .

زيد بن ايوب : ٦١٧ .

المعلل بن ايوب : ٦١٧ .

١ - قمامة بن اشروس : ٤٩٣ ، ٥٠٣ ،

٥٠٤ ، ٥١٨ ، ٥٧٧ ،

٦٠٩ ، ٦١٠ .

مريج الاشم : ٥٣٨ .

الاشعث : ٣٤٩ ، ٤٨٣ .

ابو موسى الاشعري : ٣٠١ ، ٣٥١ ،

٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٧١ -

٣٧٦ ، ٥١٨ ، ٥٦٧ .

الاصهبند : ١١٥ .

الاصمعي : ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٦٠٨ ،

ابو بكر الاصم : ٦٠٩

ابو مالك الاعرج : ٥٨٩ .

الاعشى : ٤٢٦ .

اعشى (سليم) : ٤٢٦ .

الاعمش : ٢٢٧

افلح : ٥٩٨

يحيى بن اكثم : ٦١٧

- ب -

الله : ٧٠ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٨ ، ٨٠ ،

١٠١ ، ١٠٥ ، ١١٣ ،

١١٤ ، ١١٦ ، ١٤٨ ،

١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٦ ،

١٦١ ، ١٧٠ ، ١٧٧ ،

١٧٩ ، ١٨٨ ، ١٩٥ ،

٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ،

٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ ،

٢٣٩ ، ٢٦٤ ، ٢٧٤ ،

٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٣٤٢ ،

ابو برزة : ١٩٢

- ت -

	بشار ٤٩٢ ، ٥٧٥ ، ٥٨٩
تاهرت ١١١	البصرة ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ،
التبت ٤٨١	١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ،
تبوك ٢٣٤	١٢٢ ، ٤٨٠ ، ٥٥١ ،
السترك (الانراك) ٤٧٨ ، ٤٧٩ ،	ابو علي البصير ٥٧٥ ، ٥٧٨ ، ٥٨٠ ،
٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ،	٥٨٧ ، ٥٨٢
٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ،	بغداد : ١١٥ ، ١١٧ ، ١١٩ ،
٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥١٨ ،	١٢٠ ، ٤٨٦ ، ٦١٦ ،
التقية ٢٨٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣١٤ ،	ابوبكر : ١٠٦ ، ١٢٩ ، ٣٢٨ ،
٣١٥	١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ،
التمرية : ٣٦٨	١٥١ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ،
تميم : ٣٤٨ ، ٤٧٦ ،	١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٥ ،
النمر بن تولب ٥٤١	١٧٩ ، ٢٥٧ ، ٣٩٢ ،
عمرو بن بكر التيمي ٣٦٧	٢٩٣ ، ٣٢٣ ، ٣٤٤ ،
	٣٧٨ ، ٣٨٥ ، ٤٦٧٤ ،

زيد بن ثابت ١٤١ ، ١٤٢ ، ٢٢٨ ،	٤٦٩ ، ٦٠٦
٣٥٢ ، ٣٤٥	البكرية : ٣٦٨ ، ٣٨٠
ثقيف : ١٠٣	اسماء بنت ابي بكر ١٤٦ ، ١٥٩ ،
	١٨٥

- ج -

موسى بن جابر ٥٩١	عائشة بنت ابي بكر ١٣٤ ، ١٥٩ ،
جبريل ١٦٠ ، ٢٤٢ ،	١٦١ ، ١٨٥ ، ٢٠٣ ،
الجبرية ٣١٣ ، ٣٤٣ ،	عبد الرحمن بن ابي بكر ١٦٥
علي بن جبلة ٥٨٥	محمد بن ابي بكر ٣٥٦
سعيد بن جبير ١٤٥ ، ٥٣٠ ، ٦٠٨ ،	البلافري ٥٥٩
جلة ٥٣٣	بلال ١٤٥ ، ١٤٦ ، ٢٥٣ ، ٥٣٠ ،
	كعب بن مرة البهزي ٢٤٨

حسان بن ثابت ١٧٣ ، ٢٠٢ ،
٢١٤ ، ٢٤٠ ، ٣٤٣ ،
٥٤٧ ، ٣٧٩

عبد الله بن حسن بن الحسن ٤٣٣

الحشوية ٢١٣

عينية بن حصن ٤٦٩

عباد بن الحصين ٤٩٦

عبدالله بن حفص ٣٩٣

محمد بن حفص ٣٩٣

حفصوية ٦١٣

عمران بن حطان ٣٩٤

مروان بن الحكم ٢١٤ ، ٤٢٣٢ ،

٦٠٦

الحجاف بن حكيم ٣٤٨ ، ٥٣٨

سعيد بن حميد ٥٨٩

حميد بن عبد الحميد ٤٩٣ ، ٥٠١ ،

٦١٦

الحارث بن حلزة ٥٤٧

سوداء بن هران ٣٥٦

هزة ١٣٣ ، ٤٢٢

همير ٤٧٦

عمرو بن الحمق ٣٥٦

محمد بن الحنفية ٤٥٠

سهل بن حنيف ٢٣٩ ، ٢٤٠

يوم حنين ١٦٨

حواء ٤٨٩

الحسن بن حي ٣١٧

عبد الله بن جدعان ١٠٤

ابو عبيدة بن الجراح ١٦٦ ، ١٧١ ،

٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤

جرير ٥٣٢ ، ٥٣٦

جليب ٥٣١

الجهل ١٣٣ ، ٢٨٤

ابو جهل ١٤٩ ، ١٩٦ ، ٢٠٥ ، ٤١٨

علي بن الجهم ٥٧٦

محمد بن الجهم ٤٩٢ ، ٥٠٣

الجهمية ٣٨٠

ابن جيفر ٥٣٧

-ح-

عبوة بن عدي بن حاتم ٥٩١

زفر بن الحارث ٣٤٨

زيد بن حارثة ١٢٩

ابراهيم الحاسب ٦١٤

الحبشة ١١١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٨ ، ٥٤٩

يونس بن حبيب ٣٩٣

يزيد بن حجة ٣٤٩ ، ٣٥٠

الحجاج ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٥٦٧ ، ٥٧٢

نبيه بن الحجاج ٤١٦

حجاز ١٠٠ ، ١١٣ ، ٤٧٦

الخدبية ١٧١ ، ١٧٦

حوران ١٠٥

حرورية ٤٨٠

مرداس بن حزام ٥٨٦

نوفل بن خويلد ١٤٤

الحيرة ١٠٥ ، ١٢٢

الحقطنان ٥٣ ، ٥٣٢

- د -

- خ -

ابراهيم بن اسماعيل بن داود ٦١٤

ابو علي الدرهمي ٥٧٨

ابو دجانة ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٦٦

دجلة ١١٢ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٨

دعبل ٥٨٦

الفضل بن دلم ٢٠٥

ابو دهيل (الجمحي) ٥٤٦

- ذ -

عبدالله بن خازم ٥٥٧

خاقان ٥١٣ ، ٥١٦ ، ٥١٧

الخثمي ٥٩٧

خراسان ١٠٨ ، ٤٧٩ ، ٥٠٦

خرشبة ١١٥

أيمن بن خريم ٥٩٥

خزاعة ١٠٣

الخزرج ٤٧٥

عمر بن الخطاب : ١٠٤ ، ١٣٠ ، النابغة الذبياني ٣١٧ ، ٤٢٦ ، ٤٩١

١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٦٧ ، ابو فر ١٤٥ ، ٢٢٣ ، ٢٥٦

١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١

١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٨ ، مركزية علوم رسيدي

١٧٩ ، ٢٥٦ ، ٢٦٨

عمر بن ابي ربيعة ٥٤٧

٢٩٣ ، ٣٣٩ ، ٣٤٤

ليبيد بن ربيعة ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣

٣٧٨ ، ٤٦٩ ، ٥٠٢

ربيعة ٣٤٨

٥٠٦ ، ٥١٣ ، ٥٦٦

الفضل بن العباس بن رزين ٥١٧

٦٠٨ ، ٥٦٧

رسول الله : ٦٨ ، ٨١ ، ١٣٦ ،

الخنلق ١٤٥

١٤٤ ، ١٥٣ ، ٦٠٦

الخصوارج : ١١١ ، ١١٥ ، ٣١٧

عبد بن رشيد ٥٣٦

٣٤٠ ، ٣٤٨ ، ٣٥٦

الحصين بن المنذر الرقاشي ٥٩٤

٣٦٨ ، ٣٧١ ، ٣٧٣

عبيدالله بن قيس الرقيات ٤٣٧

٣٧٧ ، ٣٨٠ ، ٤٤٤

ذو الرمة ٥٤٥

٤٨٠ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤

الاشهب بن رميلة ٥٩٣

٤٩٧ ، ٥٠٠

الرافضة (الروافض) ١٣٣ ، ١٣٩ ،	زبيرة ١٤٧
١٤٠ ، ١٥٣ ، ١٨٠ ،	الزهري ١٤٨ ، ٣٧١ ، ٣٧٣ ، ٣٩٣
١٨٢ ، ٢١٥ ، ٢٣١ ،	قيس بن زهير ٣١٧
٢٨٠ ، ٢٨٨ ، ٢٢٤ ،	وهب بن زهر ٤١٧
٢٢٤ ، ٣٤٠ ، ٣٦٨ ، ٣٨٠ ،	عبيد الله بن زياد ١٠٩
١١٠ ، ١١١ ، ١١٥ ، ١٦٨ ،	سعید بن زيد ١٦٧
٣٠١ ، ٤٨١ ، ٥٤٠ ،	زيد ٤٢٢ ، ٤٨٤
	الكمبیت بن زيد ٤٣٨
	الزيدية ٢٥٣ ، ٣١٧ ، ٣٢٤ ، ٤٦٠

- ز -

الزايغ ٤٨١ ، ٥٥٣ ، ٥٥٣

ابن الزبيري ٤١٠

- س -

الزبير ١٠٠ ، ١٣٤ ، ١٤٦ ، ٢٥٠ ،	سابور ١٠٦ ، ١١٢
١٥٧ ، ١٦٣ ، ٢٨٥ ،	ساسان ٥٠٨ ، ٥١٠ ، ٥١٦ ، ٥١٧
٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٣٢٣ ،	ساعدة ٢٥١
٣٧٩ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ،	سالم ٤٦٨ ، ٦١٤
٣٨٥ ، ٣٩٠ ، ٥٠٦ ،	ابو اسحق السبيعي ٢٠٧
زرادشت ٣٩١	عبدالله بن ابي سرح ٣٤٧ ، ٦٠٦
عمرو بن زرارة ٣٥٦	سعد : ١٤٣٦ ، ١٧٠
عبد العزيز بن زرارة ٣٥٦	عامر بن سعد ٢٣٩
ابن ابي زرعة ٥٧٢ ، ٥٨٩ ،	ابو سفيان ١٦٤ ، ١٧٢ ، ٢٥٢ ،
زغاوة ٥٤٩	٤١٨ ، ٤٢١ ، ٤٨٠
يحيى بن زكريا ١٣٢ ، ١٣٤ ،	السفيانية ٣٨٢
عاصم الزماني ٥٩٣	عبدالله بن سلمة ١٨٨
زمزم ١٠٥ ، ٣٨٨ ،	اشجع السلمي ٥٩٦
روح بن زنباع ١١٣	سليمان : ٢٤٧ ، ٢٧٠ ، ٢٥٠ ،
الزنج ٥٣٥ - ٥٥٦	٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨
الزندقة ١١٠	جعفر بن سليمان ١١٧ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧

البرك الصريمي ٣٦٧	بنو سليم ١٠٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥
عامر بن صعصعة ١٠٣	صهيب بن سنان ٢٥٠ ، ٢٨١ ، ٣٥٢
المهلب بن ابي صفرة ٤١٦	هرم بن سنان ٣١٧
الجهم بن صفوان ٥١٦	السند ٥٥٧
امية بن ابي الصلت ١٠٣ ، ١٠٤	ابراهيم بن السندي ٥١٣
دريد بن الصمة ١٠٤	السوس الاقصي ١٠٥
زيد بن صوحان ٣٠٦	القاسم بن سيار ٤٩٣ ، ٣٩٥
الصين ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٠	ابن سيرين ٢٥٠

- ش -

- ض -	سفيح بن رياح شار ٥٣٦ ، ٥٣٧
الشماخ بن ضرار ٥٤٧	عمرو بن شاس ٥٥٥

- ط -

الطائف ١٠٣ ، ٥٣٥	الشام ١٠٠ ، ١١٣ ، ١٢٠ ، ١٧١
ابوطالب ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٣ ، ١٩٦ ، ١٣٢	٣٤٧ ، ٣٧١ ، ٤٨٠ ، ٥٥١
علي بن ابي طالب : ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٩ ، ١٣٠ - ٣٢٨ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٤٤ ، ١٥١ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ٢٣١ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٢٣ ، ٣٤٠ ، ٤٠٠ ، ٥٦٦ ، ٦٠٦ ، ٦٠٨	قحطبة بن شبيب (الطائي) ٤٨٣ ، ٥٣٠ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠
	شداد (الحارثي) ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣٠
	عترة بن شداد ٥٣٧
	الشمبي ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ٢١٠ ، ٢٥٠ ، ٣٩٣ ، ٤٢٥ ، ٥٧١ ، ٦٠٨
	الشعوية ٥١٢
	شوكر ٣٩٤ ، ٦١٥
	الشيعة : ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٥٧ ، ١٨٠ ، ٢٢٣ ، ٣٥٦ ، ٣٧٣ ، ٣٧٧ ، ٤٧٥

- ص -

احمد بن ابي طاهر ٥٧٤ ، ٥٧٦ ، ٥٨٧	سليمان بن صرد ٣٨٧
عامر بن الطفيل ٤٢٥ ، ٥٤٧	

طلحة ١٣٤ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٥٧ ،	عبد شمس ٤٠٩ - ٤٥٩
١٦٦ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠	عمر بن عبد العزيز ٤٣٤ ، ٤٣٥
٣٢٣ ، ٣٧٩ ، ٣٨٢	عبد العزى ٤٠٩
طليحة ١٨٤ ، ٢٥٧	محمود بن عبد الكريم ٦١٦
ابن ابي العباس الطوسي ٦١٣	عبد المطلب ١٠٧ ، ١٤٢ ، ٤١١ ،
طية ١١٢	٤١٢ ، ٤٧٨
- ظ -	ابو العتاهية ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٦١١
الحارث بن ظالم ٣٠٧ ، ٣٨٣ ،	ابو حذيفة بن عتبة ١٦٤
٣٨٨ ، ٣٩٠	العتبي ٥٨٥
- ع -	عثمان بن عفان ١٣٠ ، ١٤٦ ،
الحكم بن ابي العاص ٤١٠ ، ٤١٧ ،	١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٧١ ،
عمرو بن العاص ١٣٥ ، ٢٩٤ ،	١٧٥ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ،
٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٥ ،	٢٥٧ ، ٢٦٨ ، ٢٨٤ ،
٣٧٠ ، ٣٧١ .	٢٨٧ ، ٣٠١ ، ٣٢٠ ،
ابو عباد ٦١٣	٣٢٤ ، ٣٤٤ ، ٣٧٨ ،
عبد الله بن عباس ١٤٥ ، ٢٠٥ ،	٣٧٩ ، ٣٨٥ ، ٤٦٩ ،
٣٧٨ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ،	٤٨٠ ، ٦٠٦
٥٤٨ ، ٥٩٠ ، ٦٠٨	العثمانية ١٢٩ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ،
العباسية ٢٥٨ ، ٢٥٩	١٧٥ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ ،
طرفة بن العبد ٤٢٦	٢١٣ ، ٢٢٣ ، ٢٣١ ،
ابو عبدة ١٠٧ ، ١١٧ ، ١٦٦ ،	٢٥٩ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ،
١٦٧ ، ٣٩٣ ، ٦٠٨	٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٣٢٥ ،
ابو عبد الرحمن (العطوي) ٥٩٣ ،	٣٤٨ ، ٣٦٩
٥٩٧	حاد عجرد ٥٨٨
الجنيد بن عبد الرحمن ٥١٣ ، ٥١٦ ،	المعجم : ١٠٧ ، ١١١ ، ٢٥٨ ،
عمرو بن عبيد ٣١٧	٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٣ ،
	٢٨٥ ، ٣٩٠ ، ٤٨٨

- عبد الحميد (الكاتب) ٦١٣ ، ٦٠٨ ،
عدنان ٥٤٩ ، ٤٨٩ ، ٤٧٧ ، ٤٧٦ ،
المهيشم بن علي : ٣٩٤ ، ٥١٢ ،
٤٦٧ ، ٥٧٠ ، ٥٧٦ ،
العراق ١٠٠ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٥ ،
١١٧ ، ١٢٢ ، ٣٤٧ ، ٣٧١ ،
المغرب : ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٧ ،
٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٤٧٦ ،
٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٨٢ ،
٤٨٨ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ،
٥١٠ ، ٥٣٢ ، ٥٤١ ، ٥٤٨ ،
رزين العروضي ٥٧٩
العسكر ١٢٠
عكاظ ١٠٤
سعيد بن عقبة ٥٠٢ ، ٥٠٣ ،
عقيل ٤٢١
عمارة بن عقيل ٤٢١
الوليد بن عقبة ٣٧٩
حكيم (الحبشي) ٥٤١ ، ٥٤٢ ،
علقمة بن علاثة ٤٢٥
ابو الهذيل العلاف ٥٠٨ ، ٥١٠ ،
عملس بن عقيل بن علف ٥١
محمد بن علي ٤٨٠ ، ٤٨٤ ،
الحسين بن علي ١٠٩ ، ٤٥٠ ،
العلوية ١٣٩ ، ٢٢٤ ، ٢٨٥ ، ٣٦٩ ،
عمان ١١١
ابن عمر ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٥٢ ، ٣٨٥ ،
عبد الله بن عمر ١١٤ ، ٢٤٨ ،
سهيل بن عمر ١٧١ ، ١٧٦ ،
مريم بنت عمران ١١٤ ،
عمري ٢٢٤ ، ٢٨٦ ، ٣٦٩ ، ٤٤٥ ،
عبد الرحمن بن عوف ٢٦٨ ، ٢٩٤ ،
عيسى ١٣٢ ، ١٣٤ ، ٤٨٩ ،
ابن ابو عيينة ٥٧٦
ابوعيينة (المهلي) ٥٩٠
- غ -
الغار ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٦١ ،
الغالية ٣٤٠
الغداد ٥٣٨
الغزغر ١١٠
غسان ١٠٦
الخطاريف ١٤٣
خطفان ١٠٤
خمدان ٥٤٣
خيلان الدمشقي ٣١٧
الخيلاية ٣٨٢
- ف -
فارس ١١٠ ، ٥٤٩ ،
فاطمة بنت النبي ٤٦٧
قطري بن الفجاءة ٤٤٤ ، ٤٤٥ ،
الفجار ١٠٣ ، ١٦٤ ، ٤١٦ ، ٤٤٥ ،
٤٤٦
الفرات ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٨ ،

قنبلة ٥٤٩	فروج (الحجام) ٥٣١
عويظ للقوافي ٥٩٠	الفرزدق ٤٢٦ ، ٥٣٦ ، ٥٥٠ ، ٥٨٠
قيس (قبيلة ٣٤٨ ، ٤٧٦	فرعون ١١٣
الاخنف بن قيس ١٩٢	ابو فرعون ٥٣٢
الضحاك بن قيس ٣٩٤	فرغانة ٥٠٦
عامر بن عبد القيس ٣٤٠	يونس بن فروة ٦١٣
قيصر ١١١ ، ٥٣٣	فزان ٥٤٩
- ك -	الفضول (حلف) ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦
سليمان بن كثير ٤٨٣	احمد بن فتن ٥٧٨ ، ٥٩٠
عبد الله بن كثير ٤٣٥	عامر بن فهيرة ١٤٧ ، ١٥٩
كردين ٣٩٣	- ق -
كسرى ٥٣٣	القاسية ٢٧٩ ، ٢٨٠
الحارث بن كعب ١٠٣	القطب ٥٥٣
موسى بن كعب ٤٨٣	هانء بن قبيصة ٥٧٣
الكعبة ١٠٣	فحطان ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٨٩ ، ٥١٢ ، ٥٤٩
الكلبي ٣٩٤	ابو قحافة ١٧٣
دنيار بن نعيم الكلبي ٥٩٣	قداحة حكيم المشرق ٥٤٢
الحارث بن كلدة ٣١٧	قريش ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١١٠ ، ١٣٢ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٨
ذات كهف ١٠٣	ايلاف قريش ٤١٣
الكوفة ١١٥ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ٢٢٥ ، ١٢٢	لاهر بن قريظ ٤٨٣
ابو قنبر الكوفي ٥٩٢	ثابت قطنة ٥٩٧
- ل -	خالد بن عبد الله القسري ٥٧٠
اللات ١٣٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧	ابن قنبر ٣٩٣
لبنان ٥٤٦	

عبد الملك بن مروان ٤١٠ ، ٤٣٥ ،	لحم ١٠٦
٥٧١ ، ٤٥٣	لقمان الحكيم ٥٣٠
آمنة بنت مزاحم ١١٤	لنجويه ٥٤٩
يزيد بن فريد ٥٠٣	ابو لهب ١٩٦
مسعدة ٥١٣	لوط ٢٧٦
عمرو بن مسعدة ٦١٤	-٢-
عبد الله بن مسعود ٢٨٦ ، ٢٩٤	ماجوح ٤٨١
عروة بن مسعود ١٦٧	المأمون ٥٠١ ، ٥٠٤ ، ٦٠٧
مسطح ١٦١ ، ٢٠٣	البراء بن مالك ١٥٥
قتيبة بن مسلم ٥٠٦	كعب بن مالك ٢٠٣
المسيح ٣٩١	الثلثمس ٥٦٥
مسيلمة ١٨٤ ، ٢٥٧ ، ٥٣١	ابو محجن ٢٠٢ ، ٢١٤
محمد بن مسيلمة ١٥٥ ، ١٧١ ،	ابو مخنف ٣٩٤
٣٥٢ ، ٣٥٠ ، ٢٤٩	المدائني ٣٩٤ ، ٥٦٩
الحسين بن ابي الشرف ٦١٤	ابن المدبر ٥٧٠
مصر ١٠٨ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١١٤ ،	ابي بن مدليج ٤٠٩
٣٧٠ ، ٣٥٠ ، ١١٥	حمي المدينة ٥٩١
جبير بن مطعم ١٤٣	مذحج ٥١٢
يحيى بن معاذ ٤٩٣	المدينة ١٠٠ ، ١١٢ ، ١١٥ ، ١٤٥ ،
سعد بن معاذ ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ،	٢٦٦ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣
معاوية ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٥٧ ، ٣٤٠ -	المريد ١١٧
٤٠٠ ، ٤١٨ ، ٥٦٦ ،	مرجثة ١٨٠ ، ٢٣١ ، ٣٨٠
٦٠٦ ، ٥٧٧	مرحب ١٦٣
المعتزلة ٣١٧ ، ٣٤٣ ، ٣٦٩ ، ٣٨٠ ،	عباس بن مرداس ٢٦٤ ، ٥٣٧ ،
٦١٠ ، ٥٧٧ ، ٤٥٠	مرو ٥٤٩
المتصم ٤٨٩	الروانية ٣٨٢ ، ٤٨٠
بشر بن المعتمر ٦١٠	

(كل رقم يدل على حديث	المغلول ٥٣٨
شريف)	المقداد ٢٥٤ ، ٥٣١
المتجع بن نيهان ٥٤١	ابن المقفع ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، ٦١٣
النجاشي ١١١ ، ٢٠٣ ، ٣٤٢ ،	المقنع ١١٥
٥٤٣ ، ٥٣٥	الموقس ١١١ ، ٥٣٣
حسين النجار ٦٠٨	مكة : ١٠٠ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٩ ،
خفاف بن ندبة ٥٣٧	١٣٢ ، ١٤٥ ، ٤٠٩ ،
النصاري ١١٠ ، ٢٦٨ ، ٣٠٣ ، ٣٩٠	٥٣٣ - ٥٣٨
ابو اسحق النظام ٣٥٢ ، ٣٥٣ ،	مكحول (الفقيه) ٥٣١
٦٠٨ ، ٣٥٤	ابو موسى المكفوف ٥٩٢
عمرو بن نفيل ١٦٧ ، ٢٢٥	عبد الرحمن بن ملجم ٣٦٧
التهدي ١٤٨	الملكانية ١١٩
النهران ٣٦٠	منف ١١٣
النوبة ٥٤٩	المهدي ٥٧٠
نوح ٢٧٦	مهجع ٥٣٠
ابن نوفل ٥٩٥	يزيد بن المهلب ٣٤٠ ، ٥٧٢
النيل ١١٥ ، ١١٨ ، ١١٩	اسحق الموصلي ٥٧٣ ، ٥٤٥
	ابوعيينة (المهلي) ٥٧٠ ، ٥٩١

- ٨ -

سهل بن هارون ٥٧١	- ن -
موسى الهادي ٥٦٧	النايبة ٣٤٠ ، ٣٤٣
هاشم ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٠	النبي ٧٤ ، ٧٨ ، ١٠٤ ، ١١٢ ،
٤٠٩ ، ١٤٢ ، ١١٥	١١٤ ، ١٤٣ ، ١٥١ ،
٤٨١ ، ٤٧٨ ، ٤٥٩	١٨٤ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ،
شريح بن هانئ ٢١٣	٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ،
ابن هبيرة ٤٨٢	٢٣١ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ،
الحارث بن هشام ٢١٤	٢٩٤ ، ٣٣٩ ، ٤٢٥ ، ٥٦٦

عمرو بن الوليد ٥٩٥

عبد الله بن وهب ١٥٧

- ي -

يا جوج ٤٨١

عمار بن ياسر ١٤٥ ، ٢٥٥

يثرب ١٥٢

يزداد ٦١٤

ثور بن يزيد ٣٨٢

خلاد بن يزيد ٣٩٣

يحيى (بن زكريا) ٢٨٩

جعفر بن يحيى ٥٧٤

الفضل بن يحيى ٥٧٣

سليمان بن يسار ١٠٩

اليقوية ١١٩

ابويكسوم ١٠٦ ، ٥٣٣

اليمن ٤٧٦ ، ٥٣٥ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ،

٥٥١

اليونان ٥١٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٠

الضحك بن هشام ٥٩٥

ابوهفان ٥٨٢

سعيد بن عقبة (الهنائي) ٥٠٢

عبد الله بن هلال ٣٨٧

عاصم بن يزيد الهلالي ٥٩٤

الهند ٣٩١ ، ٥٤٩ ، ٥٥٦

مالك بن الهيثم ٤٨٣

- و -

الواقدي ١٤٤

محمود الوراق ٥٧٠ ، ٥٩٢

بديل بن ورقاء ١٦٧

وحشي ٥٣١

سعد بن ابي وقاص ١٦٧ ، ٢٤٨ ،

٣٢٤ ، ٣٥٢ ، ٣٨٨ ،

٣٩٠ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧

خالد بن الوليد ١٨٤ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ،

٣٠٥



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة عامة
٩	مقدمة رسالة المعاش والمعاد
١٣	مقدمة كتاب الاوطان والبلدان
٢١	مقدمة العثمانية
٢٩	مقدمة رسالة الحكيم
٣٧	مقدمة رسالة فضل هاشم والعباسية
٤٥	مقدمة مناقب الترك
٥١	مقدمة فخر السودان على البيضان
٥٥	مقدمة كتاب الحجاب
٥٩	مقدمة كتاب ذم اخلاق الكتاب

محتويات المعاش والمعاد

(٦٣ - ٩٢)

٦٥	١ - تقریظ محمد بن ابي دؤاد
٦٩	٢ - موضوع الكتاب
٧٠	٣ - آداب الدين والدنيا واحدة
٧٢	٤ - طبع الناس على حب المنفعة ودفح الضرر
٧٣	٥ - الرغبة والرغبة اساس السياسة
٧٤	٦ - العدل اساس السياسة

الصفحة	الموضوع
٧٦	٧ - لائحة الاسباب والعواقب
٧٨	٨ - الجود والبخل
٧٩	٩ - الصمت والمنطق
٧٩	١٠ - الشجاعة
٨٠	١١ - معاملة العدو
٨١	١٢ - اجناس الناس
٨٢	١٣ - معرفة الأمور الغائبة
٨٤	١٤ - الصداقة
٨٥	١٥ - الخلال المذمومة
٨٨	١٦ - امتداح الذات
٩١	١٧ - سياسة السلطان
٩٣	هامش رسالة المعاش والمعاد


 محتويات رسالة الاوطان والبلدان
 (٩٧ - ١٢٢)
 مركز بحوث وتوثيق علوم إسلامي

٩٩	١ - موضوع الكتاب
١٠٠	٢ - حب الوطن طبع في الناس
١٠٢	٣ - خصال قريش
١٠٥	٤ - مكة
١٠٦	٥ - خصال هاشم
١١٠	٦ - عودة الى قريش
١١٢	٧ - المدينة
١١٣	٨ - مصر
١١٥	٩ - الكوفة والبصرة
١٢٢	١٠ - الحيرة
١٢٣	هامش الاوطان والبلدان

محتويات رسالة العثمانية

(١٢٧ - ٣٢٨)

- ١ - مقدمة ١٢٩
- ٢ - اسلام ابي بكر افضل من اسلام علي ١٢٩
- ٣ - اسلام علي اقل عن تربية وتأديب ١٣٠
- ٤ - حكم الطباع هو الصحيح ١٣١
- ٥ - لو عرف علي هذا التمييز المبكر لاحتج هو بهذه الآية ولذكرها القرآن والاحبار ١٣٢
- ٧ - أدلة الشيعة على قدم اسلام علي وفضله ورد العثمانية عليهم ١٣٨
- ٨ - أسلم علي وهو يعلم ان له ظهراً يحميه ١٤١
- ٩ - كان ابو بكر ذا ثراء وجاه فلم يخش عليهما، بينما لم يكن علي ذا مال فيخشى عليه ١٤٢
- ١٠ - ابو بكر تحمل التنكيل في سبيل الاسلام بينما كان علي وادع البال ١٤٤
- ١١ - ابو بكر يدعو الناس الى الاسلام فيستجاب له، ويعتق العبيد ١٤٦
- ١٢ - ابو بكر انفق ماله في سبيل الاسلام، بينما لم يكن لعلي مال فينفقه ١٤٨
- ١٣ - قتال علي في سبيل الاسلام لا يصارع احتمال ابي بكر ١٥١
- ١٤ - صحبة ابي بكر في الغار ونوم علي في الفراش ١٥٣
- ١٥ - فروسية علي ليست افضل من رباطة جأش ابي بكر وحزمه في مواجهة المعضلات ١٥٥
- ١٦ - حكمة ابي بكر افضل من فقه علي ١٧٤
- ١٧ - حكمة ابي بكر يوم صلح الحديبية ١٧٦
- ١٨ - حكمة ابي بكر عند موت النبي ١٧٨
- ١٩ - حكمة ابي بكر في الزكاة ١٨٠
- ٢٠ - حكمة ابي بكر في انقاذ جيش أسامة ١٨١
- ٢١ - حكمة ابي بكر في مكان قبر النبي ١٨٢
- ٢٢ - شهادة علي في ابي بكر ١٨٢
- ٢٣ - صدق ظن ابي بكر ١٨٥
- ٢٤ - فقهاء الاسلام ، عودة الى فقه علي ١٨٥
- ٢٥ - علي ليس افقه الناس ١٨٩
- ٢٦ - قصور علي في التدبير والسياسة ١٩٠

الموضوع	الصفحة
٢٧ - ابوبكر ازهد من علي	١٩٢
٢٨ - علي مزواج علي خلاف ابي بكر	١٩٣
٢٩ - تقاضي علي عمالته من الخزينة على عكس ابي بكر	١٩٣
٣٠ - انزلت الآي في ابي بكر تكريماً له	١٩٤
٣١ - آية الغار	١٩٥
٣٢ - آية الصفع عن مسطح بسبب قرف عائشة	٢٠٣
٣٣ - آيات أخرى في ابي بكر	٢٠٤
٣٤ آية طاعة الرسول واولي الامر ليست في علي وحده	٢٠٦
٣٥ - آية الدخول في السلم ليست في علي	٢٠٧
٣٦ - تأويل آية يقيمون الصلاة ويأتون الزكاة وهم راكعون	٢٠٨
٣٧ - تأويل آية وكفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب	٢١٠
٣٨ - تسمية ابي بكر بالصديق دليل على فضله	٢١١
٣٩ - تأمير ابي بكر الحج دون علي	٢١٦
٤٠ - النبي يعهد الى ابي بكر بام الناس في الصلاة يوم شكاته	٢١٧
٤١ - حجج الشيعة في تفضيل علي من الاحاديث	٢٢٠
٤٢ - حجج العثمانية في تفضيل ابي بكر من الاحاديث	٢٢١
٤٣ - موقف الجاحظ من التعضيل	٢٢٢
٤٤ - تأويل العثمانية لحديث : «من كنت مولاه فعلي مولاه»	٢٢٧
٤٥ - تأويل العثمانية لحديث «انت مني كهارون من موسى»	٢٣٤
٤٦ - تأويل الشيعة لحديث إمرة ابي بكر في الصلاة ورد العثمانية	٢٤١
٤٧ - الرد على احتجاج الشيعة بان الناس لم يجمعوا على امامة ابي بكر	٢٤٧
٤٨ - تأويل قول ابي بكر : منا امير ومنكم امير	٢٥٠
٤٩ - تأويل قول سلمان : كرداذ ونكرداذ	٢٥١
٥٠ - موقف بلال من بيعة ابي بكر	٢٥٣
٥١ - موقف المقداد من خلافة ابي بكر	٢٥٤
٥٢ - موقف عمار بن ياسر من خلافة ابي بكر	٢٥٥
٥٣ - موقف ابي فر من عمر	٢٥٦
٥٤ - عودة الى اسلام سلمان	٢٥٦

٢٦١	٥٥ - موقف خالد من بيعة ابي بكر
٢٦٤	٥٦ - يستحيل اجماع الناس على الخلافة ، وعلي كان اقل الخلفاء اجماعاً
٢٦٥	٥٧ - تأويل قول ابي بكر : كانت بيعتي فلتة
٢٧٢	٥٨ - الرياسة عند العثمانية لا تنال بالقرابة بل بالدين
٢٧٣	٥٩ - احتجاج العثمانية للتسوية بين الناس
٢٧٧	٦٠ - رد العثمانية على ادعاء الشيعة ان عمر لم يأخذ بالتسوية
٢٨٣	٦١ - الرد على ادعاء الشيعة ان علياً عمل بالتسوية دون عمر
٢٨٥	٦٢ - رد العثمانية على ادعاء الشيعة ان الزبير سلب سيفه انتصاراً لعلي
٢٨٩	٦٣ - تأويل قول ابي بكر «وليتكم ولست خيراً منكم»
٢٩٢	٦٤ - تأويل قول ابي بكر : بايعوا ابي هذين شتم
٢٩٧	٦٥ - خلاصة آراء الشيعة والعثمانية
٣٠١	٦٧ - جدل الشيعة والعثمانية حول صحة اسلام ابي بكر
٣٠٧	٦٨ - العامة لا تصلح لاقامة الامام
٣١٤	٦٩ - تكليف الخاصة باقامة الامام
٣١٦	٧٠ - معرفة الامام
٣٢٠	٧١ - وجوه ثلاثة لاقامة الامام
٣٢١	٧٢ - رفض نظرية الشيعة في النص على الامام
٣٢٧	٧٣ - خاتمة
٣٢٩	هامش رسالة العثمانية

محتويات رسالة الحكمين وتصويب علي بن ابي طالب في فعله

(٣٢٧ - ٣٩٩)

٣٣٩	١ - موضوع الرسالة
٣٤١	٢ - لا وجه للمقارنة بين علي ومعاوية
٣٤٤	٣ - فضائل معاوية
٣٤٤	٤ - اسس استحقاق الامامة بنظر الجاحظ
٣٤٥	٥ - معاوية لا يستحق الامامة

الموضوع	الصفحة
٦ - معاوية يدعي استحقاق الامامة لانه يطالب عليا بدم عثمان	٣٤٥
٧ - معاوية يستغل موقف سعد وابن عمر ويفيد من اختلاف جند علي واتفاق جنده	٣٤٦
٨ - معاوية يلجأ الى الترغيب بالمال والتولية على عكس علي	٣٥٠
٩ - حيلة المصاحف تنطلي على الناس	٣٥٠
١٠ - دعاء عمرو بن العاص وغباء ابي موسى الاشعري	٣٥١
١١ - دوافع ابي موسى الى موقفه من التحكيم	٣٥٣
١٢ - لماذا قبل علي بابي موسى حكماً	٣٥٣
١٣ - اسباب ترك علي القتال	٣٥٧
١٤ - العمل عند المعتزلة كالقول	٣٦٣
١٥ - معاوية لم يخدع علياً بل كان هو المخدوع	٣٦٤
١٦ - معاوية ليس ادهى من علي ولكنه كان يستعمل جميع المكاييد حلالها وحرامها بينما لم يستعمل علي الا ما وافق الكتاب والسنة	٣٦٥
١٧ - كفر معاوية في ادعاء اخوة زياد ابن ابيه	٣٦٨
١٨ - موقف الجاحظ الحيادي	٣٦٩
١٩ - السفينانية لا تفضل معاوية لمبايعته يزيد	٣٧٠
٢٠ - كتاب القضية مدخول لفظاً وشهوداً ومضموناً	٣٧١
٢١ - عزل علي معاوية لضلاله فتمرد عليه	٣٧٦
٢٢ - الشيعة والخوارج غافلون عن فهم علي	٣٧٧
٢٣ - ضلال الخوارج في قضية التحكيم	٣٧٧
٢٤ - موقف ابن عباس من عزل معاوية	٣٧٨
٢٥ - العامة تستنكر مقتل عثمان فتميل الى معاوية	٣٧٨
٢٦ - المعتزلة يتوسطون الفرق	٣٨٠
٢٧ - موقف علي والناس من فضل عثمان	٣٨٢
٢٨ - أنصار معاوية يحتجون له	٣٨٢
٢٩ - موقف طلحة والزبير من علي	٣٨٣
٣٠ - احتجاج السفينانية بان معاوية لم يكن قاسطاً	٣٨٤
٣١ - احتجاج السفينانية بان عمر وعثمان وليا معاوية وان علياً لم ينل الخلافة بالتشاور والاجماع او النص	٣٨٥

- ٣٢ - احتجاج السفيانية بان ولاية معاوية صارت له بوضع اليد ٣٨٦
- ٣٣ - احتجاج السفيانية بان معاوية اولى الناس بمطالبة علي بدم عثمان ٣٨٧
- ٣٤ - احتجاج السفيانية بان الخلافة شورى ، وان معاوية احق بها من بقية الشورى ٣٨٧
- ٣٥ - احتجاج السفيانية بانه لا بد من الدين والسيف في الملك ٣٩٠
- ٣٦ - اسباب صلاح معاوية للخلافة بنظر السفيانية ٣٩١
- ٣٧ - رد الجاحظ على حجج السفيانية ٣٩٢
- ٣٨ - معاوية لم يحتج بحجج السفيانية ٣٩٢
- ٣٩ - اصحاب السير والاناخبار لم يذكروا حجج السفيانية ٣٩٣
- ٤٠ - حجج السفيانية من عمل المتكلمين ٣٩٤
- ٤١ - حجة السفيانية بعدم توافر الاجماع على علي لا تطعن في خلافته ٣٩٥
- ٤٢ - حجة السفيانية بعدم عمل علي بالشورى لا تطعن في خلافته ٣٩٦
- ٤٣ - علي اولى بالخلافة للقرابة والولاية وعدم الزهد ٣٩٨
- ٤٤ - حق معاوية بالمطالبة بدم عثمان لا يمنحه الحق بالخلافة ٣٩٨
- ٤٥ - علي لم يقتل عثمان ولم يعن عليه ٣٩٩
- ٤٠١ - هامش رسالة الحكمين ٤٠١

مركز بحوث ودراسات إسلامية

محتويات رسالة فضل هاشم علي عبد شمس

(٤٠٧ - ٤٦٠)

- ١ - خصال هاشم في الجاهلية ٤٠٩
- ٢ - كرم هاشم ٤١٠
- ٣ - مزايا عبد المطلب ٤١١
- ٤ - نبوة محمد ٤١٢
- ٥ - ايلاف قريش ٤١٣
- ٦ - حلف الفضول ٤١٤
- ٧ - حرب الفجار ٤١٦
- ٨ - مخازي امية مقابل فضائل هاشم ٤١٧
- ٩ - ملوك هاشم اعظم من ملوك امية ٤١٩
- ١٠ - هاشم احق بالخلافة ٤٢٠

الصفحة	الموضوع
٤٢١	١١ - جور أمية
٤٢٤	١٢ - هاشم تنتزع الملك من أمية
٤٢٥	١٣ - مفاخر هاشم بعد الاسلام : الفخر بكثرة الولد
٤٢٧	١٤ - الفخر بالحكمة
٤٢٨	١٥ - فخر هاشم بالبسالة
٤٣١	١٦ - فخر هاشم بالكرم
٤٣٦	١٧ - مفاخر امية بالدهاء والحروب والعلم والشعر
٤٣٩	١٨ - فخر عبد شمس بالخطابة
٤٤٠	١٩ - فخر عبد شمس بالورع والنسك
٤٤٣	٢٠ - فخر امية بالملك
٤٤٤	٢١ - فخر امية بالحسن
٤٤٥	٢٢ - مفاخر امية قبل الاسلام
٤٤٦	٢٣ - رد هاشم على ادعاءات امية الدهاء
٤٤٧	٢٤ - رد هاشم على ادعاء امية الجود
٤٤٧	٢٥ - رد هاشم على ادعاء امية الحلم
٤٤٨	٢٦ - رد هاشم على ادعاء امية الخطابة
٤٤٩	٢٧ - رد هاشم على ادعاء امية الورع
٤٤٩	٢٨ - رد هاشم على ادعاء امية الفقه
٤٥٠	٢٩ - رد هاشم على ادعاء امية البسالة
٤٥١	٣٠ - رد هاشم على ادعاء امية التواضع
٤٥١	٣١ - رد هاشم على ادعاء امية الحسن
٤٥٣	٣٢ - رد هاشم على مفاخرة امية بالنساء
٤٥٥	٣٣ - رد امية على هاشم والدعوة الى التسوية
٤٥٦	٣٤ - جواب هاشم الأخير : لا تسوية بيننا
٤٦١	هامش كتاب فضل هاشم على عبد شمس

محتويات رسالة العباسية

(٤٦٥ - ٤٧٠)

محتويات رسالة مناقب الترك

(٤٧١ - ٥١٩)

٤٧٣	١ - مقدمة
٣٧٣	٢ - اعداء السلطان
٤٧٥	٣ - اقسام جند الخلافة الخمسة
٤٧٦	٤ - لافرق بين الخراساني والتركي
٤٧٦	٥ - العرب امة واحدة
٤٧٧	٦ - البنوي خراساني
٤٧٩	٧ - مفاخر الخراسانيين
٤٨٢	٨ - مفاخر العرب
٤٨٣	٩ - مفاخر الموالي
٤٨٥	١٠ - مفاخر البنوي
٤٨٦	١١ - الغاية من وضع الكتاب
٤٩١	١٢ - موضوع الكتاب
٤٩٣	١٣ - مناسبة تأليف الكتاب
٤٩٣	١٤ - خصال الخوارج
٤٩٥	١٥ - خصال الاترك
٥٠٨	١٦ - مقارنة الامم
٥٢١	هامش رسالة مناقب الترك وعامة جند الخلافة

١ محتويات رسالة فخر السودان على البيضان

(٥٢٧ - ٥٥٧)

٥٢٩	١ - مقدمة
٥٣٠	٢ - نجباء السودان
٥٣٩	٣ - خصال السودان
٥٤٤	٤ - مزايا اللون الاسود
٥٤٨	٥ - كثرة عدد السودان واتساع بلدانهم

٥٥٤	٦ - أثر البيئة في لون السودان والبيضان
٥٥٩	هامش رسالة فخر السودان على البيضان

محتويات رسالة الحجاب

(٥٦٣ - ٥٩٨)

٥٦٥	١ - مقدمة
٥٦٦	٢ - النهي عن الحجاب
٥٧٠	٣ - شروط الحجاب
٥٧٣	٥ - اخبار واشعار عتاب وهجاء ومديح في الحجاب
٥٩٩	هامش رسالة الحجاب

محتويات رسالة ذم اخلاق الكتاب

(٦٠٣ - ٦١٨)

٦٠٥	١ - المقدمة
٦٠٦	٢ - نماذج سيئة من الكتاب
٦٠٦	٣ - الرسول لم يعرف الكتابة
٦٠٧	٤ - الكتاب اتباع وخدم
٦٠٨	٥ - تكبر الكتاب وادعائهم العلم
٦٠٩	٦ - فسق الكتاب
٦٠٩	٧ - المعتزلة يكرهون الكتاب
٦١١	٨ - قلة تعاطف الكتاب
٦١٣	٩ - شؤم الكتاب
٦١٥	١٠ - حساسة ارزاق الكتاب
٦١٦	١١ - بعض اخبار الكتاب
٦١٩	هامش رسالة ذم اخلاق الكتاب

الرسائل الأدبية

رسائل الجاحظ

تأليف

أبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الملقب بالجاحظ

أبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب المتوفى

سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م

قد مر لها وبوبها وشرحها
الدكتور علي أبو ملحم

دار ومكتبة الهلال

بيروت - صرب ١٥/٥٠٣

سَنَاءُ الْجَاهِلِ

مقدمات عامة

هذه احدى وعشرون رسالة من مؤلفات الجاحظ الكثيرة التي ضاع معظمها ولم يصلنا منها سوى ربع عددها تقريباً . وما وصلنا منها ليس كاملاً الا في أقله .

وقد اطلقنا على هذه المجموعة اسم الرسائل الادبية لا بالمعنى الذي نفهمه اليوم من الأدب ، أي ذلك الفن الجميل الذي يغلب عليه الخيال والعاطفة ، ولكن بالمعنى الذي فهمه الجاحظ نفسه في قوله « والأدب اما خلق واما رواية ، وقد اطلقوا له اسم المؤدب على العموم » (المعلمين) . فالأدب يعني الاخلاق كما يعني رواية العلم او نقله بين الاجيال بواسطة المؤدب او المعلم ، والكتاب .

ان الجاحظ لم يكتب ادباً خالصاً او صافياً الا فيما ندر . لقد كان رجل فكر في المرتبة الأولى ورجل ادب في المرتبة الثانية . ولقد عبر عن فكره بأسلوب أدبي ، فجمع بذلك بين الفكر والأدب . ولكن دارسيه المعاصرين اقتصروا على الناحية الادبية عنده ولم يفتنوا او لم يهتموا بالناحية الفكرية وهي الناحية الأهم والغالبة عليه . وهذا ما قمنا به في كتابنا « المناحي الفلسفية عند الجاحظ » .

وتدور هذه الرسائل حول خمسة موضوعات اساسية : فموضوع الاخلاق المحض يغلب على ثلاث رسائل هي « كتمان السر وحفظ اللسان » ، و« الحاسد والمحسود » ، و« النبل والتنبيل وذم الكبر » . ونلفي الجاحظ فيها يحلل هذه الخصال الخلقية تحليلاً نفسياً يمتاز بالدقة والعمق ، وينطلق من مبدأ خلقي واحد يقول ان الاخلاق طباع في الناس . فهي تولد معهم ويحملونها بالفطرة ولا تكتسب اكتساباً بالتربية والتعليم . وفي هذا يخالف ارسطو والفلاسفة المشائين .

والموضوع الثاني الذي يحتل حيزاً كبيراً في هذه المجموعة هو الاجتماع وهو يغلب على رسائل ست هي « مفاخرة الجوارى والفلماني » و« تفضيل البطن على الظهر » ، و« المعلمين » ، و« طبقات المغنين » ، و« الوكلاء » ، و« مدح التجار وذم حمل السلطان » . في الرسالتين الاوليين يطرق الجاحظ موضوعاً يمتزج فيه الاجتماع بالفقه والاخلاق . وهو ظاهرة اللواط التي استشرت في عصره نتيجة الانحلال الخلقي والفساد الاجتماعي والانحراف الجنسي . وفي كل من الرسائل الاربع الباقية يتحدث عن طبقة من طبقات المجتمع في عصره أيضاً : عن المعلمين وأوضاعهم ونظرة الناس اليهم والدور الخطير الذي يضطلعون به في التربية ونقل الثقافة عبر الاجيال . وعلى المغنين واهمية فن الموسيقى ونشأته وممثليه الكبار . ثم الوكلاء ومدى الثقة التي ينبغي أن تمنحها اياهم . واخيراً التجار وشرف عملهم واشتهار قریش ومنها النبي في التجارة .

والموضوع الثالث الذي يحظى باهتمام الجاحظ هو الفقه . ويعتبر الجاحظ نفسه رجل علم وفقه . وقد طرق هذا الموضوع في ثلاث رسائل هي « الفتيا » و« مدح النبيذ وصفة اهله » و« الشارب والمشروب » ، ويذكر الجاحظ في رسالة الفتيا انه ألف كتاباً يجمع أصول الفقه عند مختلف

المذاهب الفقهية ولكن هذا الكتاب ضاع مع الأسف ولم يصل إلينا . ويعتبر علم الفقه مختلفاً عن علم الكلام . وفي الرسالتين الآخرين يعالج موضوعاً واحداً هو النبيذ ، صفاته ، وتحليله . وهو يذهب إلى أنه غير محرم في الشرع لأنه يختلف عن الخمر .

والموضوع الرابع يستقطب ثلاث رسائل هي « البلاغة والايجاز » ، و « تفضيل النطق على الصمت » ، و « صناعة القواد » وموضوعها الغالب هو فضل الأدب ، وأهميته في حياة المرء ومفهوم البلاغة وعلاقتها بالايجاز . وهو يرى في رسالة البلاغة والايجاز التي لم يصلنا منها سوى النزر اليسير (صفحتين) أن البلاغة لا تعني الايجاز كما يدعي البيانيون . وقد طرقت هذا الموضوع بتوسع في البيان والتبيين والحيوان . ويرى في الرسالة الثانية أن النطق أفضل من الصمت على الرغم من حسنات الصمت ، وقد عاد إلى بحث هذه المسألة في رسائل أخرى مثل الترييح والتدوير ، وكتمان السر وحفظ اللسان ، كما رجع إليها في صدر كتاب البيان والتبيين . أما « صناعة القواد » فتحدث على تعلم جميع الآداب ، وإغناء الثروة اللغوية ، والإطلاع على مختلف فنون الأدب والقول ، ليتمكن المرء من التعبير عن جميع ما يجول بخاطره أو يعرض له من الموضوعات . وتتضمن الرسالة نماذج من شعر الجاحظ والفاطمة تقنية تخص مختلف المهن .

أما الموضوع الخامس والآخر فهو الشؤون الشخصية التي تغلب على ست رسائل هي : « الجدل والهزل » و « فصل ما بين العداوة والحسد » ، و « رسالة إلى أبي الفرج بن نجاح الكاتب » ، و « المودة والخلطة » ، و « استنجاز الموعد » و « الترييح والتدوير » . في الرسالة الأولى يبيط الجاحظ اللثام عن سوء علاقته بالوزير محمد بن عبد الملك الزيات في المرحلة الأخيرة من حياته ، ويتذمر من كره الوزير إياه لأنه لم يدفع الاتاوة ، كما يشكو من عيب

ابن الزيات اياه بعدم تجليد كتبه وتنظيمها ، وتمنيه موته ليرتاح من اعباء الحياة بعد ان طعن في السن . وفي الرسالة الثانية و « فصل ما بين العداوة والحسد » يشكو ابو عثمان من كثرة حساده الذين يطعنون على كتبه أو يسرقونها أو يتحلونها ، أو يتقاضونه جزءاً من ريعها . ويتطرق الى الكلام على الحسد الذي عالج في رسالة الحاسد والمحسود ، ويهتم هنا بتفريقه عن العداوة . وفي الرسائل الثلاث التالية التي يوجهها الى ابي الفرج بن نجاح الكاتب يسأل الجاحظ ابا الفرج أن يساعده على فاقته فيجري عليه ارزاقاً قد انقطعت ، ويبدو أنه وعده خيراً ثم لم ينجز وعده ، فعاد الى تذكيره بالوعد . ونجد في احداها قصيدة نظمها الجاحظ ولم يعلن عن نسبتها اليه ، يمدح فيها ابا الفرج ويستعطفه .

والرسالة الاخيرة التي نلفيها في هذه المجموعة هي « الترييع والتدوير » . والباعث على كتابتها دافع شخصي هو اعتداد احد الكتاب المدعو احمد بن عبد الوهاب بنفسه وعلمه حتى طاول الجاحظ ذاته . ولما نفذ صبره ولم يعد باستطاعته احتماله وضع هذه الرسالة يسخر من قبح جسده ، ويصوره تصويراً كاريكاتورياً مضحكاً ، كما يمتحنه بمائة مسألة يطرحها عليه ويطلب منه الاجابة عليها . وهذه المسائل تحيط بجوانب الثقافة العامة التي عرفها مجتمع الجاحظ وانعكست بجلاء في كتبه العديدة . ولهذا تلقى الجاحظ ينصح ابن عبد الوهاب في آخر الرسالة ان يعمد الى قراءة كتب الجاحظ التي تنطوي على اجوبة على تلك المسائل الطبيعية والكيميائية والحيوية والتاريخية والجغرافية ، والدينية والفنية الخ . . .

بقي ان نقول اننا لم نحقق هذه الرسائل لأنها حققت ونشرت مرات عدة (انظر كتابنا « كشاف آثار الجاحظ » ، الذي يوضح الطبقات المختلفة واصولها ، ويحصي كتب الجاحظ) . ولكننا انجزنا ثلاث مهام اساسية كانت

الرسائل بحاجة اليها : المهمة الأولى هي كتابة مقدمة تحليلية لها تبين محتوياتها وقيمتها ، والثانية تبويب الرسائل وتصنيفها على اساس موضوعاتها ، ووضع عناوين فرعية لفقرها تسهل تناولها وتوضح مطالبها . والثالثة شرح الرسائل وايضاح الآراء والافكار المنطوية عليها .

وقد اعتمدنا على طبعة عبد السلام هارون الصادرة عن مكتبة الخانجي بمصر سنة ١٩٦٤ م وسنة ١٩٧٩ م ، في اربعة اجزاء ، بعنوان « رسائل الجاحظ » . واعتمدنا على طبعة حسن السندوبي ، الصادرة بمصر عن المطبعة الرحمانية سنة ١٩٣٣ م ، في رسالة واحدة هي : التبريع والتدوير ، لأنها اكمل من طبعة هارون . وقد اوضح عبد السلام هارون انه رجع في طبعة الى ثلاث مخطوطات هي مخطوطة مكتبة داماد ابراهيم بتركيا رقم ٩٤٩ . ومخطوطة المتحف البريطاني رقم ١١٢٩ . ومخطوطة المكتبة التيمورية المودعة بدار الكتب المصرية ، رقم ١٩ .



مركز تحقيقات كويتية علوم إسلامية

١ - مقدمة كتمان السر وحفظ اللسان .

يوجه الجاحظ كلامه الى شخص لم يسمه ينعته بطيب الاخلاق والاقتراب من الكمال والتمام والفضل ، لولا عيبان يعتبرهما القطب الذي تدور عليهما الفضائل ويستحقان العذل والتأنيب وهما الفشاء السر ووضع القول في غير موضعه . ويبدو أن هذا الشخص من اصحاب الشأن والمراتب العالية ، ومن اصدقاء الجاحظ الذين يهمة أمرهم ويحرصون على ارشادهم وتوجيههم ، أمثال محمد بن احمد بن ابي دؤاد .

ويرى الجاحظ ان الانسان مطبوع على « اذاعة السر واطلاق اللسان بفضل القول » والذي يحمله على ذلك الهوى وضعف العقل . ولذلك كان من العسير عليه مغالبة هواه وحفظ لسانه وصيانة اسراره ، ولن يستطيع ذلك الا بقوة العقل . فمتى قوى عقله لجم هواه وضبطه ومنعه من ارسال الكلام على عواهنه واذاعة ما ينطوي عليه صدره ومن ثم جاءت تسمية العقل بهذا الاسم ، فهو بالنسبة للهوى بمثابة الحبل بالنسبة للبعير يقينه ويمنعه من الشرود والضلال . اما اللسان فلا لوم عليه لانه ليس سوى « اداة مستعملة لا حمد له ولا ذم عليه » والحمد والذم للعقل والحلم .

ان اللسان ترجمان القلب ، والقلب خزانة تحفظ الاسرار والخواطر
والعلم . والقلب يضيق بما فيه ويستثقله ويستريح الى نبذه واذاغته بواسطة
اللسان . وهذا هو السبب في طبع الناس على حب الاخبار والاستخبار ،
واهتمامهم بالتاريخ واحداثه وتدوينه . وقد سيطرت هذه الغريزة عليهم حتى
عسر عليهم الكتمان وغدا من يكتم سره عرضة للسقم والكمس والكرب .
ويروي الجاحظ اخباراً مذهشة في ذلك . فان احد الفقهاء اطلع على اسرار لا
يحتملها العامة ضاق صدره بها فذهب الى العراء وحفر حفرة اودعها دناً وراح
يختلف على هذا الدن يحدثه بما سمع فيروح عن قلبه . وكان الاعمش ،
سليمان بن مهران (١٨٨ هـ) عندما يضيق صدره بما فيه مما لا يريد ان يذيعه
بين الناس ، يقبل على شاته فيحدثها بالاخبار والفقه .

ويتحدث الجاحظ على مساهيء افشاء الاسرار ، فيقول ان صاحب السر
يبقى مالكا له حتى يذيعه او يفلت منه الى اذن واحدة ، فسرعان ما يشيع
ويدفع الى اذن ثانية فثالثة . وعندئذ يصبح صاحب السر عبداً لمن ائتمنه على
سره ورهينة بين يديه .

واذا اساء من اؤتمن على السر حفظ الامانة ، ونشره او حرفه ارث الشحنة
بين الاقرباء والاصدقاء ، والصراع بين الاعداء ، وقد يؤدي الى سفك الدماء
وازالة النعم والتفرقة .

ويدعو الجاحظ الى سوء الظن بجميع الناس حتى الاهل والعيبد
والحاشية والاولاد والعمال . فهؤلاء اكثر الناس اذاعة للاسرار . وعمال الخليفة
خاصة يفشون اسراره المشينة . والنامون مولعون باذاعة الاسرار التي تنتشر
على سنتهم انتشار النور في الظلمة .

ومما يدفع الى افشاء السر التحذير من نشره . فاذا اودعنا احدهم سراً

وايستعدهناه بعدم اظهاره اغربناه باذاعته لأن كل ممنوع مرغوب . ويفسر الجاحظ
 رغبة الناس فيما منعوا منه بالطبع الذي يفسر به كل شيء لأنه مبدأ الفيلسفي
 الاساسي . انهم مطبوعون على شهوات عديدة ترغب في الارتواء والاشباع .
 فاذا منعت من الحصول على ما يشبعها او يرويهها تعلقت به وفتشت عنه ورغبت
 فيه . فاذا حصلت على مطلوبها واشبعت حاجتها قل قدره عندها وهان عليها
 وصدفت عنه . هذا هو حال الجائع والشبعان والمحروم من الجماع
 والمغموس فيه . ولا يشذ عن هذه القاعدة سوى المال والعلم ، لأن المال
 يتخذ البعض لا لقضاء الحاجة بل لقمع الحرص والحرص لا حد له . ولأن
 العلم لا حد له ولا نهاية وكلما ازداد المرء طلباً ازداد فيه رغبة . ويرى الجاحظ
 في موقف الناس من المال والعلم خروجاً على العقل لأن النهم هو تجاوز
 القدر .

ان اكثر الامور عرضة لافشاء السر الخبير الرائع والمخطف الجليل مثل
 اسرار الاديان وعقائدها واخبار الملوك والعظماء .
 وافشاء السريمت بصلة الى الغيبة ، والغيبة رذيلة خلقية كريهة لانها
 « حطة جور في الحكم ، وسقوط في الهمة ، وسخافة في الرأي ، ودناءة في
 القيمة ، وكلفة عريضة ، وحسد وتعاسة قد استحوذت على هذا العالم وغلبت
 على طبائعه وتوكدت لسوء العادة عندهم ولعلو الشر على الخير وكثرة الدغل
 والنفل والحسد في القلوب . . . » .

ويحض الجاحظ على العدل في الاحكام لانه لا شيء « احلى مذاقاً من
 العدل ، ولا اروح على القلوب من الانصاف ، ولا امر من الظلم ولا ابشع
 من الجور » .

واسباب الظلم هي الشره والحرص المركب في اخلاق الناس ومن ثم

مست الحاجة الى الحكام الذين يردعون الظالم عن ظلمه وبأخذون للضعيف
حقه .

كما ينهى الجاحظ عن الفضول ، ويعني به ان « يسأل المرء عما لا
يعنيه ، ويكثرث لما لا يكرثه ، ويعني بما لا ينفعه ولا يضره ، واكثر المجيبين
يجيب ولم يسأل ، ويكلف ما لا يعلم » . فهو ينظر اليه من الوجة الاخلاقية
لا القانونية .

ويختتم ابو عثمان الرسالة بالدعوة الى حفظ اللسان ويستشهد باقوال كثيرة
تنصح بالصمت ينسبها الى النبي وعلي بن ابي طالب والحكماء .



مركز تحقيقات كميونر علوم اسلامي

٢ - مقدمة الحاسد والمحسود

تبدو المقدمة متصنعة الاسلوب ، يتقيد بها صاحبها بالسجع والطباق ويقصد اليها قصداً على غير عادة الجاحظ . ونحدد المقدمة موضوع الكتاب وهو الحسد : اصله ، ومظاهره ، وخفائيه ، وتفشييه في العلماء اكثر من الجهلاء ، وفي الاقارب والصالحين والجيران واسباب ذلك .

ويعتبر الجاحظ الحسد داءً عضالاً يصعب علاجه ينهك الجسد ويورث الضجر والعسرة ويدفع صاحبه الى مراقبة الغير حتى لا يغفل عن شيء من امورهم . والحاسد يحب ان يترع النعمة التي اعطاها سواء الله لتصير اليه .

اما سبب الحسد فهو حصول الناس على النعم والمراتب دون الحاسد ، فاذا وجد الحاسد ذلك تنغص وحزن وحقده على الذين انعم الله عليهم وتمنى ان يحرموا من تلك النعم . فاذا كانت النعمة مالا قال ان صاحبه جمعه حراماً ، وألب اقاربه واصدقائه عليه ، وحرصه عليهم ليقطع عنهم معروفه ، وذمه وخذله . واذا كان المحسود عالماً اتهمه بالابتداع والاتباع والجهل والتزلف لنيل الهبات . واذا كان المحسود ورعاً رماه بالتصنع والتظاهر بالنسك لتثق الناس به فيودعون لديه اموالهم ويقبلون شهادته ويشنون عليه .

وهذا الداء يصيب جميع الطبقات ويتفشى خاصة بين الجيران لانهم يطلعون على بعضهم البعض بسبب ملاصقة المنازل ، كما يتفشى بين الاقارب للعلة ذاتها ولانهم يعرفون شؤونهم الخاصة . ويضرب في الاصدقاء نظراً للالفة والمداخلة بينهم ، ولذا ينصح الجاحظ المرء بالاقبال من مخالطة صديقه الحسود ، وعدم الافضاء اليه بسره ، وعدم مشاورته في اموره .

ويؤكد الجاحظ على الفكرة القائلة انه لا خير يرتجى من الحسود فهو لا يصوب رأياً ولا يدل على خطأ ، اذا ملك فتك ، واذا ملك عصي وبني ، حياتك موته وموتك عرسه وسروره . يصدق عليك كل شاهد زور ، ويكذب فيك كل عدل مرضي ، لا يحب من الناس الا من يفضك ، ولا ينقص الا من يحبك ، عدوك بطانة وصديقك علانية .

بهذا الوصف البليغ صور الجاحظ الحسود واماط اللثام عن نفسه المريضة الحاقدة التي تضرر الشر وتظاھر بالخير ، وتنطوي على الغل ، ويرى الجاحظ ان الحياة الاجتماعية ، اذا كثر فيها الحسد غدت جحيماً لا يطلق ، لذا نزع الله من اهل الجنة الغل والحسد ليوفر لهم الحياة الهانئة السعيدة .

ومن صفات الحسود نزوعه الى اظهار حسده او عدم القدرة على كتمانها . ويضرب مثل ابن الزبير الذي لم يستطع اضمار حقه وحسده على اهل البيت في حضرة ابن عباس . ومثل اخوة يوسف الذين حسدوه على جماله وفطنته ومحبة والده اياه فالحوا عليه بالسماح له بمرافقتهم واعطوه الموائيق المؤكدة بالمحافظة عليه .

اما عواقب الحسد فهي العداوة والقطيعة والتفرقة بين الاصدقاء والاقرباء والجيران ، وادخال الغم على نفس الحاسد وتنغيص حياته ، واستحكام الوسوس على ضميره .

٣ - مقدمة النبيل والتنبيل وذم الكبير

موضوعان يدور عليهما الكلام في هذا الكتاب هما النبيل والتنبيل ،
والكبير .

ويزعم الجاحظ انه تلقى كتاباً من شخص لم يذكر اسمه يشكو فيه من تكبر بعض الناس عليه . واعتقد انه محمد بن احمد بن ابي دؤاد . والدليل هو قوله : « وقد اصبح شيخك ، وليس يملك من عقابهم الا التوقيف ، ولا من نأديهم الا التعريف ، ولو ملكناهم ملك السلطان ، وقهرناهم قهر الولاة ، لانهكتهم عقوبة بالضرب ، ولقمعناهم بالحصر » . فهذا الشخص من العلية وذوي السلطان ، وشيخه أو أبوه مثله في المرتبة والسؤدد ولا ينطبق ذلك الا على محمد بن أحمد بن أبي دؤاد ووالده اللذين توليا على التوالي منصب القضاء في عصر الجاحظ وكان الجاحظ مقرباً منهما وتجمعه بهما نحلة الاعتزال . وقد وجه اليه اكثر من رسالة واستعمل العبارة ذاتها : شيخك . الخ . . وحاول ان يرشده الى بعض الامور السياسية والمذهبية ويحرضه على أعدائه المتهاونين به (انظر رسالة المعاش ، والمعاد ، ورسالة في نفي التشبيه) ضمن رسائل الجاحظ الكلامية ، ورسائل الجاحظ السياسية)

ان النبيل هو الفضل وكرم النفس ﴿ وهو خصلة يفطر عليها بعض الناس
ولا يمكن اكتسابها او تكلفها : « ومتى كنت من اهل النبيل لم يضرك التبذل ،
ومتى لم تكن من أهله لم ينفعك التبذل » . ان النبيل لا يكون بالتبذل ولا
العظم بالتعظم ، هذا ما يقرره الجاحظ عملاً بمبدئه الفلسفي القائل إن
الاخلاق طباع وليست نتيجة الاكتساب والتربية .

وصفات النبيل هي المروعة ، وبعد الهمة ، وبهاء المنظر ، وجزالة
اللفظ ، والمقامات الكريمة . ولا يكون المرء نبيلًا « حتى يكون نبيل الرأي ،
نبيل اللفظ ، نبيل العقل ، نبيل الخلق ، نبيل المنظر ، بعيد المذهب في
التنزه ، طاهر الثوب من الفحش ، ان وافق ذلك عرفاً صالحاً ومجداً تالداً » .
أضف الى ذلك التواضع والانصاف والصبر والحلم . وهكذا غدا النبيل مجمعاً
لجميع الفضائل الخلقية والجسمية والاجتماعية .

اما التكبر فقد عالجَه الجاحظ في القسم الثاني من الكتاب ، واعتبره
صفة قبيحة في الانسان ولا يستحسن الا في ثلاثة مواضع : اذا كان المتكبر
بدوياً غير متحضر ، فيكون كبره من بقايا الجاهلية والعنجهية الاعرابية . واذا
كان انتقاماً من عدو متجبر . واذا كان معارضة للملوك الجبارة . .

ومن صفات المتكبر التعظم على الصديق ، والتغافل عن الضيف والمن
على الضعيف ، واحتقار من هو دونه والخضوع لمن فوقه . انه لثيم يظلم
الضعيف ويطلب الهارب ، ويهرب من الطالب ويستخف بالأديب ، ويكذب
وينم ويخون ، ويذخ ، وينفج ، ويصلف .

اما عواقبه فوخيمة : انه يسبب لصاحبه مقت الناس وسخط الله ، ويبعده
عن العلم والفلاح والحقيقة ، ويزين له الشر والمعصية وقد عبر الجاحظ عن
ذلك بقوله الجامع المانع البليغ « ما رأيت أوبأ مغبة وانكر عاقبة واوخم مرعى

وأبعد هوى واضر على دين ، وافسد لعرض واوجب لسخط الله ، وادهى الى مقت الناس ، وابعد عن الفلاح واظهر نفوراً من التوبة ، واقل دركاً عند الحقيقة ، وانقص للطبيعة واضيع من العلم ، واشد خلافاً على الحلم ، من التكبر في غير موضعه ، والتبيل في غير كنهه .

والكبر يعتري مختلف طبقات الناس من سفلة وعلية واجواد ونجلاء ، وشجعان وجبناء ، وكذابين وصدوقين واحرار وعبيد وجاهلين ومسلمين ، وعرب وفرس وسند .

والكبر من اعظم مساويء السلطان ولم يعرف به سوى الملوك الجبابة امثال فرعون وآل ساسان ، والولاة القساة امثال يوسف بن عمر ووكيع بن ابي سود .



مرکز تحقیقات کتب و تاریخ علوم اسلامی

٤ - مقدمة مفاخرة الجوّاري والغلمان

الموضوع إجتماعي ونفسي وخلقي وشخصي . فهو يعالج ظاهرة شاذة من الوجهتين الخلقية والنفسية هي اللواط ، ولكنها أصبحت في عصر الجاحظ مسألة إجتماعية انتشرت بين طبقات المجتمع انتشاراً واسعاً حتى غدت شأنها عادياً لا يثير الاستنكار والشجب ، يتحدث عليه الناس ويدور على السنة الشعراء والكتاب . وهذا ما اراد الجاحظ الاشارة اليه في صدر الرسالة بقوله : « وبعض من يظهر النسك والتشفيق اذا ذكر الحر والأير والنيك تقزز وانقبض . واكثر من تجده كذلك فانما هو رجل ليس معه من المعرفة والكرم ، والنبل والوقار ، إلا بقدر هذا التصنع » .

ويورد امثلة عديدة تبين أن استعمال الكلمات الجنسية كان شائعاً منذ عصر النبي على السنة الصحابة والتابعين والفقهاء امثال علي بن أبي طالب وابي بكر الصديق ، وعبد الله بن عباس وحمزة بن عبد المطلب . وقد رويت احاديث شريفة وردت فيها بعض المفردات الجنسية .

ويبرر الجاحظ جواز استعمال هذه الالفاظ بمبررات لغوية وفنية وطبيعية . والتبرير اللغوي يقوم على القول ان هذه الالفاظ انما وضعت ليستعملها اهل

اللغة ، ولو لم يكن للناس بها حاجة لما وضعت . « ولو كان الرأي الا يلفظ بها ما كان لأول كونها معنى ، ولكان في التحريم والصون للغة العرب ان ترفع هذه الاسماء والالفاظ منها » .

والتبرير الفني عبر عنه الجاحظ بقوله : « لكل مقام مقال » . وشرحه بان اصناف العلم عديدة ولكل نوع اهل يقصدونه . من هذه الانواع الجزل والسخيف . وينبغي ان يعبر عن كل علم باللغة التي تلائمها ، فالجزل للجزل والسخيف للسخيف . وحتى اذا كان الموضوع رصيناً وجاداً لم يضره ان يمزج بشيء من الهزل لطرد الملل عن النفس ولتنشيط الذهن . وقد التزم الجاحظ هذه القاعدة الفنية في معظم كتبه فمزج الجد بالهزل في الحيوان والبخلاء والتدوير والتربيع الخ . .

والتبرير الطبيعي يستخرج من مذهبه الفلسفي العام القائل ان الجنس امر طبيعي موجود في جميع اصناف الحيوانات بما فيها البشر ، وهو تعبير عن غريزة فطرية لا يمكن إنكارها او الأشمئزاز منها او كبتها او الغاؤها وينبغي ان تمارس دون عقد نفسية او حرج خلقي

ولكننا نستطيع ان نضيف الى تبريرات الجاحظ الثلاثة تبريراً رابعاً يتعلق بشخصية الجاحظ ذاتها . وهو الافتراض بانه كان يعاني عقدة جنسية تتمثل بالنقص او الضعف الجنسي . هذا الضعف هو الذي جعله يحجم عن الزواج وبناء العائلة وانجاب البنين ، وقد الملح الى الحسرة التي يشعر بها في كتاب الجد والهزل عندما عابه ابن الزيات على عدم انجاب الاولاد . وهذا النقص هو الذي دفعه الى الاكثار من حديث الجنس للتعويض عملاً بمبدأ يونغ .

اما مسألة اللواط فقد بحثها في رسالة تفضيل البطن على الظهر واعتبرها امراً غير طبيعي ومحرمأ في الشرع . وفي رسالة الجوارى والغلمان التي نحن

بصددها يذكر من جديد بتحريم الزنى واللواط : « ولا تقربوا الزنى انه كان فاحشة ومقتنا وساء سبيلا » (الاسراء ٣٢) . كما يذكر بالعقاب الصارم عليهما عملاً بالآية الكريمة « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة » (النور، ٢) . وحد اللواط كحد الزنى ، وربما كان أشد من الرجم ليصل الى الاحراق والقتل .

ويورد الجاحظ احاديث عديدة تحت على الزواج مثل الحديث « تزوجوا فاني مكاتر بكم الامم » . والحديث « تزوجوا والتمسوا الولد ، فانهم ثمرات القلوب ، واياكم والعجز المعر » .

ويعقد الجاحظ مقارنة مسهبة بين الجواري والغلمان واحتجاجات اصحابهما ليتهاي اى تفضيل الجارية على الغلام . بقوله : « نحن نترك ما انكرت علينا ونقول : لو لم يكن حلال ولا حرام ، ولا ثواب ولا عقاب ، لكان الذي يحصله المعقول ويدركه الحسن والوجدان دالاً على ان الاستمتاع بالجارية أكثر واطول مدة ، لأنه اقل ما يكون التمتع بها اربعون عاماً ، وليس تجد في الغلام معنى الا وجدته في الجارية واضعافه . »

ويأتي ابو عثمان على اوصاف الجارية الجميلة فيكرر ما قاله في رسالة القيان ورسالة النساء من ان المجدولة هي مثال الجمال .

ويتطرق الى موضوع جانبي هو الخصاء . وقد طرقه باسهاب في كتاب الحيوان . واستنكره استنكاراً شديداً ونهى عنه لأنه يمثل بالانسان ويفقده انسانيته ويغير نفسيته . « فالخصي ليس برجل ولا امرأة ، واخلاقه مقسمة بين اخلاق النساء واخلاق الصبيان » « والخصي اذا قطع منه ذلك العضو قويت شهوته ، وقويت معدته ، ولانت جلده ، وانجردت شعرته ، وكثرت دمعته ، واتسعت فمحة . . . » .

ويسرد الجاحظ اشعاراً كثيرة في وصف الجواري والغلمان والتغزل بهم
اختارها من ابي نواس وابي هشام الخراز ويوسف لقوة وامرئ القيس وعلقمة
الفحل .

وينهي الرسالة بمقطعات من احاديث البطالين والظرفاء ، تتضمن نوادر
من أخبار اللاطة والزناة والشبقيين وينسبها الى شخص لا يذكر اسمه لأن كلا
منها يبدأه بكلمة قال ، ويسرد الخبر . وهي نكات تبعث على الشهوة وتسيء
الى العفة ما كان اغنى ابا عثمان عن الاشتغال بها . ولكن المبررات التي
سارع اليها في صدر الرسالة ، ربما اقنعت بجواز ما تضمنته وينبغي أن يكون
قد قصد الى اقناعنا ايضاً بجواز صنيعه .



مركز تحقيقات كويتية لدراسات إسلامية

٥ - مقدمة تفضيل البطن على الظهر

يبدو الموضوع غريباً او مستهجنأ بالنسبة لنا ، ولكن ليس كذلك بالنسبة للجاحظ وعصره . لقد كان اللواط منتشرأ بين طبقات المجتمع حتى شاع في الشعر والنثر والخواطر والاعبار وبما ان الجاحظ آلى على نفسه أن يصور عصره من جميع نواحيه فقد تصدى لهذا الموضوع وخصه بهذه الرسالة .

وهذا الشخص الذي كتب الى الجاحظ في تفضيل الظهور على البطون ، او الغلمان على النساء ، انما هو شخص وهمي ، فزع الجاحظ الى توهمه ليبرر الخوض في هذا الموضوع الشاذ .

ويعلن الجاحظ منذ البدء انه يخالف صاحب الرسالة في الرأي ، ويفضل البطون على الظهور ويأتي بحجج عديدة تدعم موقفه .

في طليعة تلك الحجج نهى الشريعة عن اللواط عملاً بالأيتين الكريمتين ﴿ اتأتون الذكران من العالمين ، وتذرون ما خلق لكم ربكم من ازواجكم ، بل انتم قوم عادون ﴾ (الشعراء ، ١٦٥ - ١٦٦) .

ولم يكتف الشرح بتحريم اللواط ، بل حرم اتيان النساء من جهة الظهر

او من ادبارهن وفقاً للحديث النبوي « لا تأتوا النساء في محاشهن » .

ثم راح الجاحظ يحشد ادلة كثيرة على فضيلة البطن على الظهر بالمعنى الطبيعي والجمالي .

في الطبيعة نجد الخير في البطن لا في الظهر ، إذ أن الكنوز والذخائر والمعادن النافعة ودائع في بطن الارض ، ومنها تستخرج ، وليس على ظهرها سوى الهوام القاتلة والسباع المفترسة .

ومن الوجهة الجمالية نجد محاسن المرأة محصورة في جهة البطن ومن ثم قالوا « مدمجة الخصر ، لذينة العناق ، طيبة النكهة ، حلوة العيين ، ساحرة الطرف ، كأن سرتها مدهن ، وكأن فاما خاتم ، وكأن ثديها جفان ، وكان عنقها ابريق فضة ، وليس للظهر في شيء من ذلك حظ . . . » .

ومما يدل على أن الشرع نهى عن الظهر دون البطن هو الحد الذي فرضه على الزاني واللوطي . ان حد الزاني ثمانون جلدة ، وحد اللوطي الاحراق ، وكلاهما فجور ورجاسة واثم . « الا ان ايسر المكروهين احق بان يميل اليه من ابتلي ، وخير الشرين احسن في الوصف من شر الشرين » .

وإذا قبل رجل امرأته امام المألا لما حد ، اما اذا قبل غلاما لفرض عليه الحد « لأن الحكم في هذا غير الحكم في ذلك » .

ويختتم الجاسط رسالته هذه بقوله ان من يفضل الظهور على البطن يساين الحلال ويقبل على الحرام . وعلى هذا الاساس تكون رسالته ذات غرض فقهي وخلقي ، وليست كلاماً فارغاً من المحتوى ، او خطراً على الاخلاق .

وقد عالج الجاحظ هذا الموضوع في رسالة أخرى عنوانها الجوارى والغلمان كما مر معنا ، وتعتبر الرسالتان متممتين لبعضهما البعض .

٦ - مقدمة كتاب المعلمين

يبدأ الكتاب كالعادة بمدخل تقليدي يخبرنا فيه الجاحظ أن شخصاً يهزأ من المعلمين ويرميهم بالحمق والجهل والسفه فيتصدى له الجاحظ ويضع هذا الكتاب للرد عليه .

ويشرع بتبيان فضائل المعلم ، فيقول ان المعلم قيم على الكتاب مشتغل بتدريسه للناشئة . والكتاب يحمل اخبار الماضين وبه يدرك الملك مصالح رعيته ويقوم سكان مملكته . وهو مستودع الحقيقة وحافظة العلم .

ولا ينبغي أن يقوم التعليم على التلقين والحفظ بل يجب أن ينمي القدرة على الاستنباط والتفكير لدى الناشئة ، لأن مستعمل الحفظ لا يكون الا مقلداً ، اما الاستنباط فيؤدي بصاحبه الى الخلق والابداع ويوصله الى الحقيقة .

ان طبيعة الحفظ تختلف عن طبيعة الاستنباط وان كان الموضوع واحداً . وكلاهما يعتمدان فراغ القلب والشهوة الى المعرفة . ويختص الحفظ بشيئين هما الموضوع والوقت . فالمكان الهادئ الخالي افضل من المكان المكتظ والصاحب . ووقت الاسحار افضل من سائر اوقات النهار والليل .

ان اكثر العظماء والنوابغ كانوا معلمين ، وهذا ما نتحققه اذا استعرضنا
اسماء الفحوليين والعروضيين والفرضيين والحساب والخطاطين والرواة والقضاة
والحكماء والولاة والقادة والرؤساء والكتاب والشعراء والوزراء والادباء .
ويخص بالذكر عبد الله بن المقفع الذي كان من المعلمين والبلغاء
المتأدبين والمترجمين ، ولكنه لم يفلح في الكلام كما يبدو من رسالة
الهاشمية .

ثم إن جميع العلوم إنما تنتقل بين الاجيال بواسطة المعلمين ، من
حساب وفرائض وقرآن ونحو وعروض واشعار واخبار وآثار ، ثم الفروسية
والنجوم واللحون والطب والهندسة والنرد والشطرنج والفلاحة والتجارة والبناء
والصياغة والخياطة والصبغة والحياكة ، وترويض الحيوانات المختلفة من قرود
ودببة وكلاب وظباء وبيغاء وصقور ودواب .

ان الانسان عالم صغير لأنه ينطوي على جميع الطبائع الموجودة في
الحيوانات من « ختل الذئب وروغان الثعلب ووثوب الاسد ، وحقد البعير ،
وهدانة القطاة ، وهذا كثير ، وهذا باب ، ولأنه يخفي كل صوت فيه ويصور
كل صورة بيده ، ثم فضله الله بالمنطق والروية وامكان التصرف » .

والمعلم يقوم بعملين هما التأديب والتعليم ومن هنا دعي ايضا بالمؤدب
لان الأدب يعني الخلق ويعني رواية العلم . ولكن العلم هو الالم لأنه
الأصل . ويلجأ المعلم في عمله التأديبي الى القصاص على التهاون او
الكسل ، والى الضرب على الفرار، كما يحمل الصبية على الصلاة في الجماعة
وتدارس القرآن وحفظ الاشعار والارجاز .

ومع ذلك فان مهنة التأديب لا تدر على اصحابها المال الوفير ، ولذا شكا
الادباء والشعراء من الفاقة وطلبوا المساعدة .

ولم يكتف الجاحظ بايضاح فضل المعلم واهميته وانما قدم مقترحات تربوية هامة لم يفتن لها سوى علماء التربية المحدثين . منها ضرورة مراعاة المعلم مستوى الصبي العقلي والنزول الى مستواه ليتمكن من افهامه مادة التعليم .

ومنها وجوب الاقتصار في تدريس مادة النحو على القدر الذي يفضي به الى السلامة من فاحش اللحن ، ويمكنه من القراءة الصحيحة والانشاد المستقيم .

ومنها مراعاة الطبيعة والفصاحة في الكتابة والاختصار واستكراه العبارة المعقدة والالفاظ الوحشية الغريبة . والاهتمام بالمعاني اكثر من الالفاظ .

وما تبقى من الكتاب مقحم عليه اذ لا يمت الى موضوعه بصلة . فهناك ببذة عن اللواط ينبغي ان تلحق بكتاب الفه الجاحظ في هذا الموضوع ، وقد الحقناها بكتاب البطن والظهر . وهناك بضع صفحات في المفاضلة بين التجار وعمل السلطان يرجح انها مستلوخة من كتاب « مدح التجار وذم عمل السلطان » ، وكان ينبغي ان تلحق به ايضاً ، لولا مزجها بعبارات من كتاب المعلمين بحيث يصعب فرزها .

٧ - مقدمة طبقات المغنين

لم يصلنا من هذه الرسالة سوى المقدمة التي لا تتجاوز صفحات عدة . ولكنها على قصرها تلقي اضواء كاشفة على محتوى الرسالة . فهي تدور حول موضوع الغناء وترجم للمغنين الذين عاشوا في عصر الجاحظ ، وفي بغداد فقط ، حتى عام ٢٢٥ هـ تاريخ تأليف الرسالة .

بيد ان الجاحظ يتناول في المقدمة ثلاث مسائل هامة .

الاولى : هي تصنيف العلوم الذي ينسب الى الفلاسفة المتقدمين دون ان يذكر اسماءهم . لقد قسم هؤلاء الحكماء العلوم الى اربعة اقسام هي علم النجوم الذي يبحث في البروج والازمنة والاوقات وتأثيرها في طبائع الناس . وعلم الهندسة الذي يبحث في المساحة والوزن والتقدير وما اشبه ذلك . وعلم الكيمياء والطب الذي يبحث في صلاح الابدان وعلاج الامراض . وعلم اللحون الذي يدرس اجزاء اللحون ومقاطعها ومخارجها واوزانها «حتى يستوي على الايقاع ويدخل في الوتر» .

وعلى الرغم من نقص هذا التصنيف ، فانه يعتبر رائداً في هذا المضمار ، لانه فتح الطريق الذي سلكه من اتى بعده امثال الفارابي وابن سينا والغزالي .

والمسألة الثانية : التي تكلم عليها الجاحظ في المقدمة هي أصل علم الموسيقى العربي . لقد اعتبر الجاحظ الخليل بن احمد الفراهيدي مؤسس هذا العلم . وقيل الخليل لم يعرف العرب علل هذا العلم وتصاريفه ، وكانت معرفتهم به مبنية على ما يسمعونه من الفارسية والهندية ، فلما جاء الخليل درس الشعر ووزنه ووضع كتاب العروض . ثم « اخذ في تفسير النغم واللحون ، فاستدرك منه شيئاً ، ورسم له رسماً احتذى عليه من خلقه ، واستمه من عني به » .

ثم جاء بعد الخليل ابراهيم الموصلي فاقتفى اثره وطور علم الموسيقى ووضع له الآلات الجديدة . وكان حاذقاً بالضرب والايقاع واللف في هذا العلم كتباً كثيرة .

والمسألة الثالثة : هي شرح طريقة تأليف الكتاب او الرسالة . لقد قسم المغنين الى طبقات ، وترجم لهم ، وحمله على ذلك « الكلف والمودة لهم ، والسرور بتخليد فخرهم ، وتشبيك ذكركم ، والحرص على تقويم اود ذي الأود منهم ، حتى يلحق باهل الكمال في صناعته ، والعقل في معرفته ، على تمييز طبقة على طبقة منهم ، وتسمية اهل كل طبقة باوصافهم ، وآلاتهم وادواتهم ، والمذاهب التي نسبوا اليها انفسهم واحتملها اخوانهم عليها ، وخلطنا جداً بهزل ، ومزجنا تقريباً بتعريض . . . » .

ثم ان الجاحظ ترك فرجاً في كل طبقة لتملاً بترجمة من سها عنهم في المستقبل ، وهو يحذر من محاولات البعض القيام بهذا العمل أي ملء الفرج المتروكة ، دون علم . واحباطاً للتشويه والنحل اودع عدداً من النسخ خزائن بعض الثقات في الغناء ليحفظوها ويرجع اليها عند حدوث تغيير او اضافات . في الكتاب .

ان هذا التدبير الذي قام به الجاحظ يشير الى قضية خطيرة هي استثناء النحل في الكتب التي كانت تظهر في عصر الجاحظ ولا سيما مؤلفاته بالذات . ولعل هذا الأمر هو الذي ادى الى نحل الجاحظ العديد من المؤلفات مثل كتاب الأمل والمأمول ، وكتاب الحنين الى الاوطان ، وكتاب التبصر بالتجارة وسواها . ولا ادري اذا كانت يد النحل امتدت الى هذا النزر اليسير الذي وصلنا من كتاب طبقات المغنين .



مركز تحقيقات كميونير علوم إسلامي

٨ - مقدمة الوكلاء

في هذه الرسالة ينتقد الجاحظ كاتباً انتقد الوكلاء ، وفي سبيل نقد النقد هذا يأتي بحجج قيمة يمكن اعتبارها مبادئ عامة في الاخلاق والتفكير والتأليف .

هذا الكاتب الذي وضع مؤلفاً في ذم الوكلاء والذي كان معاصراً للجاحظ لم يسمه ابو عثمان . ولكنه يعيبه بعدم الثبت من الحقيقة ، وبعدم تصفح الكتاب قبل إخرجه . ويمزق السبب في ذلك الى التسرع في تأليف الكتاب تلبية لالاحاح المطالبين ، والى قصر ايام تحصيل العلم ، والى سوء العادة . ولهذا يقتضي العلم القريحة المحموده ، ويقتضي النظر والاستقصاء والروية . وهذه مبادئ علمية لو طبقت في الابحاث والتأليف لتجنب اصحابها الزلل والاختفاء .

ويشير الجاحظ الى عيب آخر يعتري الباحثين والمؤلفين هو الغضب والميل مع الهوى . وهذا ما جرى لذاك الكاتب الذي حمله غضبه وكرهه للوكلاء على ارتكاب اخطاء لا تغتفر . ان الغضب يميت صاحبه لأن الغضبان اشد خطراً على نفسه من السكران والمجنون . وسببه ضيق الصدر . ولذا

يجب ان يتحلى المرء بسعة الصدر لأن سعة الصدر اصل الخير ، وضيقه اصل الشر .

وثمة نصيحة أخرى يسديها الجاحظ الى مؤلف الكتاب وهي عدم الثقة بما « يرسمه في الخلاء ويتوقاه في الملأ » وهذا يعني ان كل رأي يخطر له في خلوته او اثناء الكتابة ، لا ينبغي أن يتمسك به اذا كان يخشى ان يبديه في جمع من الناس .

واذا لم يراع المؤلف هذه القواعد او المبادئ اسلم نفسه للاعداء والخصوم وعرضها للنقد والتكذيب .

وعدا التسرع في اصدار الاحكام او ابداء الآراء ثمة مبدأ آخر عرضه الجاحظ هو عدم تعميم الاحكام . فاذا وجد المفكر حالة خاصة او عدداً من الحالات الخاصة ، فلا ينبغي أن يستخرج منها حكماً عاماً يشمل جميع الحالات الأخرى . هذا المبدأ يطبق في العلم كما يطبق في الاخلاق والاجتماع وقد ساق الجاحظ عدة ادلة على صحة مبدئه هذا .

ان الوكلاء في المجتمع يشبهون الاجراء والاصياء والامناء . ولا يمكنك ان « تقضي على الجميع باسائة البعض ، ولو بهرجنا جميع الوكلاء وخونا جميع الامناء ، واتهمنا جميع الاوصياء واسقطناهم ومنعنا الناس الارتفاق بهم ، لظهرت الخلة وشاعت المعجزة ، وبطلت العقد ، وفسدت المستغلات ، واضطربت التجارات . . . » .

وعلى الصعيد الخلقي لا يوجد خير محض ولا شر محض . والاشياء جميعاً تنطوي على بعض الخير وبعض الشر ، مع نسب متفاوتة منهما . وهذا الرأي سيرده ابن سينا في كلامه على العناية الالهية ووجود الخير والشر في العالم .

وفي الطبيعة تجد المبدأ ذاته ، ان المطر مثلاً مصدر خير وشر ، فهو يفسد بعض الثمار ، ويفيد معظم المزروعات والحيوانات والناس . وخيره اكثر من شره .

وفي السياسة يطالعنا المبدأ ذاته « فالامام الجائر وان استأثر ببعض الفيء وعطل بعض الحكم فانه ينفع في ضبط الأمن ودرء الاخطار الخارجية الخ . .

ولا شك في ان مبدأ عدم التعميم هذا الذي نادى به الجاحظ يسيء الى مفهوم القياس الارسطي ، ويزعزع اسس العلم الطبيعي .

واخيراً نجد في رسالة الوكلاء مبدأ ثالثاً يقول بعدم الاكتفاء بما وصل اليه السابقون من العلم طبقاً للحكم الخاطيء الذي يقول « ما ترك الاول للاخر شيئاً » . على النقيض يدعوا الجاحظ الى متابعة التحصيل والبحث للاهتداء الى معارف جديدة . ولو طبقنا هذا الحكم لتوقف الناس عن التقدم ، ولانحصرت العلوم في اجيال معينة وامم محددة . ويؤيد رأيه بالاختراعات الجديدة التي توصل اليها مجتمعة العباسي ولم يعرفها ملوك فارس من قبل مثل الحراقة والزلالة والخيش ، والجمازة ، وتطعيم الاشجار ، والكردة .

٩ - مقدمة مدح التجار ودم عمل السلطان

لم يبق من هذا الكتاب سوى صفحات قليلة . وما تبقى منه يعطينا فكرة واضحة عن محتواه . انه مقارنة بين التجار وخدم السلطان .

والجاحظ كعادته يتخيل شخصاً يؤيد خدم السلطان ويمدحهم فيرد عليه ويعارضه ويتصل من التهمة التي وجهها اليه ذلك الشخص وهي التكلف والصنعة البيانية في كتابته ويقول : « استحي من الكتابة ، واستكف بان انبأ اليها في البلاغة وان أعرف بها في غير موضعها ، ومن السجع ان يظهر مني ، ومن الصنعة ان تعرف في كتيبي ، ومن العجب بكثير ما يكون مني » .

والجاحظ صادق فيما يقوله عن نفسه فهو لا يتصنع في كتابته ، واذا ورد فيها شيء من السجع او الصنعة البيانية ، فإتما يرد عفو الخاطر دون ان يقصد اليه قصداً . وقد اعلن رايه في هذه المسألة مراراً وهو ان جمال الادب يرتكز على الطبيعة اي عدم التكلف ، وعلى البلاغة اي المساواة بين اللفظ والمعنى ، واختيار اللفظ الذي يناسب المعنى ويوازيه فلا يفضل عنه ولا ينقص ، شرط ان تتوافر فيه الفصاحة اي الوضوح ويتجنب الغرابة والوحشية . نجد هذا الرأي في كتاب البيان والتبيين وفي كتاب الحيوان ، وفي كتاب المعلمين وغيرها .

ان التجار اعز جانباً من اتباع السلطان واسلم ديناً واطيب طعاماً واهناً
عيشاً وآمن نفساً وادع بالآ . انهم احرار في تصرفاتهم ، لا يستجدون احداً
ولا يحتاجون لغيرهم ، بل يحتاج اليهم الناس ، ولا يعانون الذلة في مكاسبهم
وهم يحصلون الارباح الوفيرة ويملكون الثروات الطائلة .

اما اتباع السلطان فلباسهم الذلة ، وشعارهم الملق ، وهم في خوف دائم
من تغير الدول ، او سطوة الرئيس وتنكيله ؛ معرضون دائماً للازمات والمحن .
والدليل على شرف التجارة ان النبي كان تاجراً ، وقبيلته اشتهرت
بالتجارة حتى اشتق اسمها من القرش والتقرش .

ويرفض الجاحظ الدعوى القائلة ان التجارة تصد عن العلم والأدب ،
ويقول ان تجاراً كباراً نبغوا بالعلم والفقہ ، يذكر منهم سعيد بن المسيب الذي
يقول ان النبي و ابا بكر وعمر وعثمان وعلي لم يقضوا قضاء الا علمه . وكان
الى ذلك نبأياً وعالماً باخبار الجاهلية والاسلام .

كما يذكر منهم محمد بن سيرين الفقيه الورع ، ومسلم بن يسار العالم
العابد (١٠٠ هـ) وأيوب السخيتي البصري المحدث (٦٦ - ١٢٥ هـ) ويونس
ابن عبيد (١٣٩ هـ) .

١٠ - مقدمة رسالة الفتيا

موضوع هذه الرسالة اهداء القاضي احمد بن ابي دؤاد كتاب اصول الفتيا .

وهذا الاهداء يقتضي مقدمات ويهدف إلى اغراض ويشرح قضايا .

اما المقدمات فمديح للقاضي الذي بيده السلطان وعليه الاعتماد في تدبير شؤون الرعية واصلاحها ، انه العالم معلم الخير وطالبه ، والداعي اليه ، وحامل الناس عليه ، من موضع السلطان بارفع مكان ، لأن من جعل الله اليه مظالم العباد ، ومصالح البلاد ، وجعله متصفحاً على القضاة ، وعتاداً على الولاية ، ثم جعله الله منزع العلماء ، ومنزع الضعفاء ، ومستراح الحكماء ، فقد وضعه بارفع المنازل ، واسنى المراتب .

في هذا الكلام اشارة واضحة الى المرتبة التي كان يتبوأها احمد بن ابي دؤاد المعتزلي المذهب ، بل احد شيوخ الاعتزال الكبار . فهو يشرف على القضاة والولاية ويدبر امور العباد . انه رجل علم وسياسة وداعية إصلاح ، وهو في اسنى مراتب السلطة .

واما الاغراض فهي ترجع الى إثنين : طلب مساعدة القاضي واحسانه

وثوابه على الكتاب ، ثم ارشاد الناس وتوعيتهم . والغرض الأول اي طلب المساعدة والاثابة يفصح عنه في مقدمة الرسالة بقوله : « السلطان سوق ، وانما يجلب الى كل سوق ما ينفق فيها » . ويشبه الجاحظ نفسه بالتاجر الذي لديه بضاعة يفتش لها عن سوق يبيعها فيها . تلك البضاعة هي الكتب التي يعنى بتأليفها ويعبر عن ذلك بقوله : « وقد نظرت في التجارة التي اخترتها ، والسوق التي اقمتها ، فلم ار فيها شيئاً ينفق الا العلم والبيان عنه . . » . ويعرف بنفسه بانه « رجل من اهل النظر ومن حمال الأثر » .

والغرض الثاني من الرسالة هو ارشاد الناس وتوعيتهم ، اشار اليه بقوله : « فما ينتظر العالم باظهار ما عنده ، والناشر للحق من القيام بما يلزمه . فقد امكن القول وصلح الدهر ، وخوى نجم التقية ، وهبت ريح العلماء ، وكسد الجهل والعي ، وقامت سوق العلم والبيان » . فالجاحظ يعتبر نفسه صاحب رسالة في الاصلاح الاجتماعي عليه ان يؤديها دون تقية او خوف عملاً بمبدأ المعتزلة الداعي الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

مركز تحقيقات وتوثيق علوم اسلامی

وقد عاد الجاحظ الى تأكيد غرضه الاول مرة ثانية في اواخر الرسالة عندما يقول للقاضي ان الذي دعاه الى وضع الكتاب علمه ان القاضي يقرب العالم ويقصي الجاهل ، ويقرأ الكتب فيعاقب على السيء منها او يصفح ويشيب الجيد ويكافيء عليه .

اما القضايا التي يشرحها الجاحظ في الرسالة فهي التعريف بكتاب الفتيا وفضل الكتب عامة وهذا الكتاب خاصة . وما عند الجاحظ من كتب كثيرة .

ان كتاب الفتيا يجمع اصول الفتيا عند مختلف الفرق . فهو جامع لاختلاف الناس ويجمع الدعاوى مع جميع العلل . يحكي آراء كل فريق ويسرد حججهم ثم يبين ما فيها من حق وما فيها من بطل . ويبدو من تعريف

الجاحظ لكتاب اصول الفتيا خطره ، واهميته . وليته بقي ولم تعبت به عوادي الضياع .

ويشيد الجاحظ بفضل الكتب فيقول ان قراءة الكتاب اعم فائدة من لقاء صاحبه ، لأن تلاقى الناس يستتبع الحمية والمواجهة وحب الغلبة وشهوة المباهاة والرياسة ، مع الاستحياء والانفة من الخضوع ، والضغائن والجدل .

والكتاب يوجد في كل زمان ومكان ، اما صاحبه فلا يلبث ان يموت . ولولا الكتب لضاع العلم ولم ينتقل بين الاجيال ويخلد على مر الدهور .

وانفع الكتب كتاب الله الذي ينطوي على الهدى والرحمة والعبر والتعريف بالخير والشر . وكتاب اصول الفتيا يمت الى كتاب الله بصلة ، لأنه يدور حول القرآن والسنة . وينفي الجاحظ عن كتابه صفة علم الكلام . وهذا ما دعاني الى عدم وضعه في رسائل الجاحظ الكلامية .

ويخبر الجاحظ القاضي بان لديه كتاباً أخرى سيهديها اليه . تباعاً ، ويمنعه من اهدائها دفعة واحدة كثرة شغل القاضي ، والخوف من ملله .

١١ - مقدمة مدح النبيذ وصفة اصحابه

هذه الرسالة من روائع الأدب الصرف حيث يتعد الجاحظ عن الفلسفة والكلام والسياسة والاخلاق . ويصف لنا النبيذ وصفاً دقيقاً يذكرنا بوصف ابي نواس للخمر . ولكنه مع ذلك يعترف انه سيبقى مقصراً عن ايفاء النبيذ حقه مهما اجاد في وصفه وذكر مزاياه .

إن النبيذ دواء يشفي من الامراض ويغني عن الاطباء وقد قال ابونواس قبله :

دع عنك لومي فان اللوم اغراء وداوني بسالتي كانت هي الداء والنبيذ صديق لا يمكن الاستغناء عنه ، ومن العجب انشغال الحسن بن وهب عنه بديوانه واعماله . وجدير به أن يعظمه ويتعصب لجماله للمناسبة التي بينهما والشكل الذي يجمعهما ، فان كان بعضك لا يصون بعضاً وانت لا تعظم شقيقاً ، فانت والله من حفظ العشيرة أبعد ، ولمعرفة الصديق انكر .

ويمضي الجاحظ في ذكر مزايا النبيذ فيقول انه « يطرد الهم ويمنح شاربه صدق الحس وفراغ النفس ورخاء البال ، والبعد عن شواغل الدنيا وخوف الحدثنان .

كما انه يعيد الشباب الى الشيوخ ، وينشط اجسامهم ويوقظ همهم .

والنبيذ يبعث على الظرف والضحك ، ويعفي من الجد والتعب
والحشمة ، ويشحذ الذهن . وهو يفعل ذلك في كل وقت ومكان ، في الليل
والنهار ، وفي الشتاء والصيف ، وفي المنازل والبساتين .

ثم ان النبيذ يحمل النفس على السرور والطرب ، ويدخلها الى الجود ،
ويورثها الغنى ، ويبعدها عن الفقر ، ويملاها عزاً وكرامة .

وهو جامع الخلان والظرفاء والادباء ، ومصدر متعتهم . وهو افضل من
سائر الاشربة لانه كلما زدت منه ازداد طيبة . واذا اسكرك رفق بك ولم يكن
اسكاره تغلبا ، واخذه بالرأس تعسفاً ، حتى يميت الحس بحدته ، ويصرع
الشارب بسورته . . . « ولكنه على عكس ذلك « يغازل العقل ويعارضه ،
ويدغدغه ويخادعه ، فيسره ثم يهزه . فاذا امتلا سروراً وعاد ملكاً مجبوراً ،
خاتله السكر وراوغه ، وداراه وماكره ، وهازله وغانجه » .

ولا اظن شاعراً من شعراء الخمر استطاع أن يبلغ شأرا الجاحظ في
وصف تأثير الخمر بالنفس ، وتصوير مراحل السكر .

الى جانب وصف النبيذ ومحاسنه يمدح الجاحظ الحسن بن وهب الذي
وجه اليه هذه الرسالة . وقد كان الحسن معاصراً للجاحظ وشاعراً وكاتباً .
ويقول في مدحه « وحسي بصفاتك عوضاً من كل حسن ، وخلقاً من كل
صالح . . . » فهو يجمع الجمال الجسمي الى جودة الرأي وسعة الخلق واللسان
الفخم والبلاغة ونبل المحتد .

والجاحظ يطلب اخيراً من الحسن بن وهب أن يهديه مقداراً من النبيذ لا
يكثر ولا يقل عن الحاجة . وهو لا يسأله اياه لشربه او يسقيه او يهديه ، ولكن
ليختبر مودة الحسن واكرامه وتقديره .

ان الجاحظ الأديب لا يقل أهمية عن الجاحظ المتكلم ، وفنه يرتكز الى الوصف الجسمي والنفسي لا على الخيال المجنح ، كما يعتمد على التلوين اللفظي والترادف المعنوي والتقطيع المتوازن للجمل .



مرکز تحقیقات کتب و پژوهش‌های اسلامی

١٢ - مقدمة الشارب والمشروب

موضوع هذه الرسالة هو انواع النبيذ ، وهل هو محلل او محرم . وهو يدعي في المقدمة كعادته ان شخصاً سأل عن انواع النبيذ والفوارق بينها ، وعمما اذا احلها الشرع او حرمها رغم الفوائد العديدة التي يجنيها الشارب منها ، ثم ان هذا السائل يسرد له تلك الفوائد التي ذكرها الجاحظ في رسالة أخرى عنوانها « مدح النبيذ وصفة اصحابه » مما يدل على أن هذا السائل هو الجاحظ نفسه الذي يتساءل وليس شخصاً آخر كما يدعي . وما يؤكد ما نذهب اليه هو اعتراف الجاحظ في آخر الرسالة بانه هو الذي وضع اجناس الاشربة وبلدانها في صدرها تمهيداً لمعالجة الموضوع الاساسي وهو تحليل النبيذ وتحريمه كما يتضح في قوله التالي : « والذي دعاني الى وضع جميع هذه الاشربة والوقوف على اجناسها وبلدانها ، مخافة ان يقع هذا الكتاب عند بعض من عساه لا يعرف جميعها ولم يسمع بذكرها فيتوهم اني في ذكر اجناسها المستشنة وانواعها المبتدعة كالهادي برقية العقرب ، وان كان قصدي لذكرها في صدر الكتاب لاقف على حلالها وحرامها وكيف اختلفت الأمة فيها ، وما سبب اعتراض الشك واستمكان الشبهة ، ولأن احتج للمباح واعطيه حقه ، واكشف ايضاً عن المحظور فاقم له قسطه ، فاكون قد سلكت بالحرام سبيله

وبالحلال منهجه ، اقتداءً مني بقول الله عز وجل ﴿ يا ايها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما احل الله لكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين ﴾ .

ولن نطيل في وصف النبيذ وذكر فوائده فهي تكرر لما ورد في رسالة مدح النبيذ ووصف اهله ولكننا نتوقف عند مسألتين لم تردا هنا هما انواع النبيذ ، وتحليله . وبذلك تكون الرسالتان متممتين بعضهما البعض ، ويكون الجاحظ كما عهدناه في جميع آثاره جامعاً بين علم الكلام والأدب . ان الموضوع في الرسالتين واحد وهو النبيذ ، وقد طرقة الجاحظ من الناحية الكلامية في رسالة الشارب والمشروب وطرقة من الناحية الأدبية في رسالة مدح النبيذ وصفة اهله .

.. ان انواع النبيذ كثيرة اهمها الترش شيرين ، والسكر ، والمسجور والبتي ، وهي انواع رديئة لأن الاول يشيب الريح والحموضة ، والثاني مر ، والثالث والرابع كلران يسببان الحكمة .

اما الانواع الحسنة فهي تفتح العروق ، وتلذ القلب وتساعد المعدة على الهضم وتغسلها ، وتعين الكبد ، وتحمر الجلد وتولد الشجاعة والسخاء وتمنع القر . اهمها نبيذ الزبيب الحمصي والعسل الماذي ، ونبيذ العنب المعصور ، والنبيذ المصري ، ونبيذ الاهواز ، والدوشاب البستاني ، والمعتق ، ونبيذ الجزر ، ونبيذ المشمش ، ونبيذ التين ، والنبيذ المروق والغربي والفضيخ .

قلنا ان موضوع الرسالة الاساسي هو مسألة تحليل النبيذ . والجاحظ يذهب الى ان الشرع لم يحرمه ويقدم على ذلك الحجج التالية :

اولاً : ان النبيذ غير الخمر . والشارع حرم الخمر فقط ولم يحرم النبيذ . والادعاء ان جميع الاشربة خمر يدل على الجهل والخلاعة . « وقد يكون الشيء من جنس الحرام ، فيعالج بضرب من العلاج حتى يتغير بلون

يحدث له ورائحة وطعم ونحو ذلك ، فيتغير لذلك اسمه ويصير حلالاً بعد ان كان حراماً .

ثانياً : ان الصحابة والتابعين لم يختلفوا في الفرائض وحدودها ولكنهم اختلفوا في الاشربة التي تسكر مما يدل على ان المسألة بحاجة الى نظر وتأويل .

ثالثاً : ان الله حرم على الناس كثيراً من الاشياء وابعاح لهم اجناسها الأخرى بما يناظرها او يعمل عملها او ما يقرب منه ليغنيهم بالحلال عن الحرام « قد حرم من الدم المسفوح وابعاح غير المسفوح » كدم الطحال والكبد . وحرم الميتة وابعاح ميتة البحر وغير البحر كالجراد وشبهه ، وحرم الربا وابعاح البيع الخ . .

رابعاً : ان اهل المدينة الذين حرموا النبيذ ليسوا حجة على غيرهم . لانهم ليسوا ملائكة لا يخطئون ؛ وعظم حق بلدتهم لا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً ، وانما المرجع الوحيد هو الكتاب والسنة المجمع عليهما والعقول الصحيحة . واهل المدينة الذين احلوا القناء لم يجلدوا مغنيهم الذين كانوا يتغنون وقد ثملوا .

١٣ - مقدمة البلاغة والايجاز

لم يبق من هذه الرسالة سوى هذه الاسطر القليلة . ولكنها تلخص لنا مفهوم الجاحظ للبلاغة وعلاقتها بالايجاز . واذا اردنا التوسع يمكننا التماس ذلك مسهباً في كتاب البيان والتبيين ، وكتاب الحيوان .

لقد اطبق الناس من عرب وعجم على ان البلاغة هي الايجاز في القول .

ولكن الجاحظ لا يوافق على ذلك ويعرف البلاغة بانها اصابة المعنى والقصد الى الحجة دون فضل او تقصير ، أي دون تطويل او ايجاز ، وهذا يعني المساواة . فالكلام البليغ هو الذي نستخدم فيه من الالفاظ القدر الضروري لا بلاغ المعنى الى السامع . وهذا معنى قوله « وربما كان الايجاز محموداً ، والاكثر مدموماً ، وربما رأيت الاكثر احمد من الايجاز ، ولكل مذهب ووجه عند العاقل » .

ان الاكثر يغدو عيباً اذا بعث على « الملل وجاوز المقدار وخرج عن مجرى العادة » . ولكنه لا يعد عيباً اذا قصد به التعريف والتوكيد والتشديد ، لأن التفريق يحتاج الى تطويل ، والتوكيد يقتضي التكرار ، والتشديد يتطلب الاكثر .

ويعمل الجاحظ كون البلاغة عدم مجاوزة المقدار بان كل ما جاوز
المقدار انقلب الى ضد طباعه . فالبارد يتحول الى حار ، والنافع يغدو ضاراً ،
والثلج يطفىء قليله الحرارة بينما يحركها كثيره . والى هذا ذهب من عد الاكثار
عيماً والايجاز بلاغة .

ان الجاحظ يفسر كل شيء في العالم بما في ذلك الجمال والفن تفسيراً
طبيعياً ، وفي هذا تكمن أصالته الفكرية .



مركز تحقيقات كميته علوم اسلامي

١٤ - مقدمة تفضيل النطق على الصمت

يبدو ان الجاحظ تلقى كتاباً أو قرأ رسالة في مدح الصمت وإشاره على النطق . وقد وصف صاحب الرسالة مزايا الصمت ، وذم الكلام وبين مساوئه وما يجره على صاحبه من البلوى والفحش والخطأ والتورط والندم . وقد استشهد بأقوال كسرى انوشروان ملك الفرس ، والاشعار ، ورجال الأدب ، والذين ذموا الكلام ومدحوا السكوت .

لم تعجب الرسالة ابا عثمان بل وجدها تنطوي على الخطأ والاعجاب بالنفس والتسرع في الاحكام ، مما حمله على الرد عليها في كتاب تفضيل النطق على الصمت .

لقد وجد الكلام افضل من الصمت لاسباب عديدة . منها ان الكلام ضروري للابانة عن النفس والتعبير عن الحاجات الكثيرة التي تكثر لدى الانسان . ومنها ان الكلام هو المزية التي يمتاز بها الانسان عن الحيوان والجماد .

وإذا كان الصمت يحمد في حالة واحدة وهي توقي الأثم وتوخي النجاة ، فإنه يلزم صاحبه صفة الجهل والغباء .

ويعمد الجاحظ الى القرآن ليستدل من آياته التي ورد فيها النطق على فضيلة الكلام . فالكلام الذي تفوه به ابراهيم لدى تحطيمه الاوثان هو الذي نجاه . والكلام الذي تفوه به يوسف لدى عزيز مصر هو الذي لفت الى ذكائه وفطنته فقربه منه واكرمه .

ثم ان الكلام هو الذي برهن على شرائع الانبياء وشرحها وقربها من افهام الناس ، وهو الصيغة التي يعبر بها المؤمن بشهادة الايمان . وعلى الكلام البليغ قامت معجزة القرآن . وكان النبي محمد افصح العرب وابلغهم بياناً . رغم اتصاف العرب بالبيان ولا سيما قريش قبيلة الرسول .

ثم ان الكلام آلة الشكر على النعمة . وقد اوجب الله الشكر وقال ﴿ لئن شكرتم لازيدنكم ﴾ . والشكر لا يكون الا بالكلام .

واغظم دليل على فضيلة الكلام - وهنا يستعمل الجاحظ اللفظ بمعنى علم الكلام - هو الحاجة اليه لاثبات وجود الله وتصديق رسالة النبي ، ومعرفة حقائق الاديان ، والتمييز بين الحجج والشبهات ، ودعم مبادئ المعتزلة في التعديل والتوحيد والاختيار .

وقد الف الجاحظ رسالة في فضل صناعة الكلام نشرناها في رسائل الجاحظ الكلامية .

وقد يتبادر الى الذهن ان الجاحظ يناقض نفسه ويقول الشيء وضده . فهو في هذه الرسالة يذم الصمت ويمدح الكلام ، بينما يدعو في « رسالة كتمان السر وحفظ اللسان » الى تقييد اللسان ويحث على السكوت . والواقع ان الجاحظ لا يقع في التناقض وانما يسوق في رسالة كتمان السر وحفظ اللسان اقوالاً لبعض الحكماء تدعو الى اخضاع الكلام للعقل لكي لا يأتي لغواً

او يفتي سرأ فيلحق الضرر بصاحبه .

وقد تحدث على الموضوع ذاته في قسم من رسالة التبريع والتدوير التي تتضمنها رسائل الجاحظ الأدبية هذه ولا نعتقد انه يناقض نفسه .



مرکز تحقیقات کتب و تاریخ علوم اسلامی

١٥ - مقدمة رسالة في صناعة القواد

عنوان هذه الرسالة لا يتلاءم تماماً مع موضوعها . إن موضوع الحرب لا يطرق الا بالاسم . سئل احد القواد عن المعركة التي خاضها العرب ضد الروم فأجاب انهم حصروا الاعداء في مكان ضيق ثم قتلوهم وكذبوا جثثهم . ان الموضوع الحقيقي للرسالة هو الأدب واللغة والبيان . ويتناول ما ينبغي ان نتعلم من الأدب واللغة ، لنستطيع التعبير عن افكارنا في مختلف الموضوعات .

ولهذا يطنب الجاحظ في تعداد حسنات اللسان ويرجعها الى عشر . فاللسان اداة البيان والمعبر عن النفس ، والمصدر للحكم ، والمجيب ، وطالب الحاجة ، وواصف الاشياء ، والواعظ ، والمعزي ، والمثني والملهي . ويردف هذه الحسنات باقوال تدل على اهمية اللسان في حياة الانسان . فالانسان بدون لسان يشبه البهيمة او الصورة وقيمة الانسان في لسانه وعقله .

وعلى هذا الاساس ينبغي ان يعنى المرء باللغة لانها اداة التعبير ومادة اللسان . وهذه العناية تقتضي التزود بالمفردات والتعبير المختلفة في كل علم وموضوع . هذا ما قصد اليه الجاحظ بقوله للمعتصم : « فخذ يا امير المؤمنين

اولادك بان يتعلموا من كل الأدب ، فانك ان افردتهم بشيء واحد ثم سئلوا عن غيره لم يحسبوه .

ويقدم امثلة تشهد على صحة هذا الرأي . فالقائد العسكري يعبر عن معانيه بالفاظ وتعابير يستقيها من صناعة الحرب والقتال . والطبيب يستعمل الفاظاً وتعابير تمت الى صناعة الطب بصلة وثيقة مثل البيمارستان والمحقنة والمبضع والاكحل ودستج والاسهال والقولنج والسل والبرسيم وبقراط وجالينوس .

والخياط يستعين بكلمات من صميم صناعته مثل الدرز والجربان والابرة والسروال والبايكية والطيلسان والشوكزة والازرار والعروة والكثبان والزيقة والمقراض والذيل .

والزارع يعتمد اسماء تتعلق بمهنته مثل الجريبين والمشاركة والاناير والسنبل والفدان والزراعة والسقاية والسرجين والنبث واليرقان .
والخباز يستعمل الفاظاً تدل على صناعته مثل الرغيف والتنور والحمرة والجفتة والدقيق والنار والجرداق والثريد .

والمؤدب يلجأ الى الفاظ تدخل في صميم عمله مثل الصبي والامام والرقم والدواة واللوح والمداد والكرسف .

وصاحب الحمام ذو لغة تتلاءم تعابيرها ومفرداتها مع الادوات التي يحتاجها في عمله مثل الغسيل والأتون والليفة والمثزر والنقع والزنبيل .

والكناس يستعين بمفردات تعبر عن ادواته وحركاته مثل الزبيل والجرح والمكنسة والكتيف والبالوعة والبريخ ، والسلح ، والخنفس .

ولغة الشرايبي تمتليء بالفاظ مثل الدن والسكر والكأس والخمر والقذح

والدورق والقنينة .

والطباق يعبر عن معانيه بمفردات خاصة مثل الصحن والشواء والموقد
والمغرفة والقدر والفالودج واللوزنج والجوزنج والخبيصة والسكباج والجوذاة
والزبد والنرسيان والقصعة والبرماورد والعصارات .

واخيراً تمتاز لغة الفراش باسمااء وتعابير مجانسة للمعاني والادوات التي
يستعملها مثل المخدة والمنصة والريش والوسادة والخيش والستور والتمكأ .

بقي ان نتساءل عن اصحاب هذه الاشعر التي وردت في الرسالة . لقد
سكت الجاحظ عن ذكر اصحابها والارجح انه هو ناظمها وصاحبها . وفي ذلك
دليل على موهبته الشعرية . وقد الفينا له قصيدة في المديح ضمنها رسالته الى
ابي الفرج بن نجاح الكاتب .



مركز تحقيقات كالمبيوتر علوم ارساوى

١٦ - مقدمة رسالة الجند والهزل

يقول الجاحظ ان سبب جفاء الوزير محمد بن عبد الملك الزييات هو كتاب الزرع والنخل الذي الفه قبل عام ٢٤٣ هـ واهداه الى ابراهيم بن العباس الصولي فاجازه عليه بخمسة آلاف دينار . ولكن الجاحظ لا يصدق ان يكون تفضيل النخل على الزرع سبباً في عداوة الاخوان ، وهو اكثر سخافة من حرب البسوس او حرب داحس والغبراء .

وهو يذكر سبباً آخر لذلك الجفاء هو رفض الجاحظ دفع الاتاوة المتوجبة عليه . ويفترض ان يكون التهرب من الاتاوة هو الذي اثار حفيظة الوزير المسؤول عن اموال الدولة فانتقد الجاحظ وابنه وحرمه من بعض العائدات التي ينتفع بها . فاعتبر ابو عثمان موقف ابن الزييات عدائياً وكتب هذه الرسالة يستعطفه ويعاتبه .

والجاحظ لا ينفي عن نفسه تهمة التهرب من دفع الاتاوة ولكنه لا يرى ان هذا الذنب يستحق مثل ذلك العقاب ويشير حقد الوزير وغضبه ونقده . ان ذنبه صغير والعقوبة كبيرة ، فلا توازن بينهما ، وعدم التوازن معناه عدم العدل وهذا ما اراده بقوله : « ومن عاقب على الصغير بعقوبة الكبير ، وعلى الهفوة

بعقوبة الاصرار ، وعلى الخطأ بعقوبة العمد . . . ومن خرج من باب الاوزان
وخالف جميع التعديل كان بغاية العقاب احق ، وبه اولى . وينصح الوزير
بالنظر في سبب الذنب قبل انزال العقوبة .

ويحذر الجاحظ ابن الزيات من الانسياق وراء هواه والانقياد للغيب
والغضب ، لان الغيظ نار تحرق اهلها ، وسلطان غشوم . ولأن « الغضب يصور
لصاحبه مثل ما يصور السكر لاهله . . . والغضب يانشغل الغضب ويغلي به
الغيظ ، وتستفرغه الحركة ، ويمتلئ بدنه رعدة ، وتتزايد اخلاطه ، وتنحل
عقده ، ولا يعتره من الخواطر الا ما يزيده في دائه ، ولا يسمع من جلسه الا
ما يكون مادة لفساده . . . » .

كما يطلب منه ان يميز بين الاخيار والاشرار والمحبين والمبغضين في
التعادي . فلا ينبغي ان يعادي عقلاء الرواة ومن عرفوا بالصدق ، ولا يعاقب
واداً ولا يضجر من صاحب مهما بدا منه . واذا تحقق ان مبعث الذنب البغض
او الميل الى الشر فيجب ان يشتد في العقاب والتعذيب دون رحمة او تردد .

ولا يوجد سبب كاف يوجب التعادي بين الجاحظ وابن الزيات .
فهما ابنا نحلة واحدة ، وتجمعهما مودة قديمة . ان اسباب التعادي بنظر
الجاحظ هي « تنافس الجيران والقرايات ، وتحاسد الاشكال في
الصناعات . . . والتشاحن على الموارد ، والتنازع في تخوم الارضين » . وهذه
الاسباب جميعاً غير متوافرة في أبي عثمان والوزير . فابن الزيات من عائلة
مختلفة عن عائلة الجاحظ ، وابن الزيات وزير والجاحظ سوقة ، ولا مشكلة
بينهما الا في إثارة الدقيق الخشن على الدقيق الابيض والباقلاء على الحلوى .

واذا كان الجاحظ صديق ابن الزيات بالأمس فينبغي ان يدرك أن ما
يصيب الانسان ينسحب على صديقه لأنه « اذا اعتل خليلك فقد اعتل

نصفك . . . فموتي هو موت صديقي ، وحياتي هي حياة صديقي » .

وعلاوة على ذلك يجدر بابن الزيات أن يعتبر شيخوخة الجاحظ ويحترمها ، لأن للكبرة شفاعة وللضعف حرمة . ثم ان الجاحظ منح الوزير جلد شبابه ، واعطاءه عند الكهولة قوة رأيه وثمره تجاربه .

وإذا كان الوزير حريصاً على مال الدولة فعليه بهؤلاء الذين اختلسوا تلك الاموال او احتجزوها وليمض فيهم حكم الكتاب والسنة .

عدا هذه الحجج التي يبغى منها ابو عثمان تبرئة ساحته واستعطاف الوزير ، يتهم ابن الزيات بالاساءة اليه جسماً وسمعة وكتبا . فابن الزيات يعيب الجاحظ على اهماله كتبه وتركها اوراقاً مبعثرة لا تجمعها المصاحف فتسهل قراءتها وتحفظ . ويعيبه ايضاً على انه يكتبها على الورق الصيني بدل الجلود التي تقوى على عاديات الزمان . ويعيبه ثالثاً على عدم انجاب الاولاد . ويتمنى له رابعاً الموت ، ربما للخلاص من تكاليف الحياة . ولكن الجاحظ لم يفهم غاية الوزير فظن أنه يعيبه او يتمنى له الموت لأنه يكرهه ويحقد عليه . حقاً ان للشيوخوخة منطقتها الضعيف ١٩

مركز تقيت كويتير علوم رسدي

١٧ - مقدمة فصل ما بين العداوة والحسد

هذه الرسالة موجهة الى ابي الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل كما يتضح من استشهاد الجاحظ بالتاليتين اللذين يمدح بهما الوزير ويعتبره حاميه من الحساد :

ان ابن يحيى عبيد الله أميني من الحوادث بعد الخوف من زمني
فلست احذر حسادي وان كثروا ما دمت ممسك حبل من ابي الحسن

وموضوعها حساد ابي عثمان واعدائه الذين حسدوه على كتبه وما تدر عليه من المنزلة والنعمة ، وتحريض الوزير عليهم . ولكن الجاحظ يتطرق الى خلة الحسد والفصل بينها وبين العداوة .

ويستهل الكتاب بترغيب الوزير بقراءته ، لكونه يعالج موضوعاً جديداً لم يسبقه اليه أحد ، ولأنه يتصف كالكتاب السابق بالنبل ، والكتاب السابق هو استنجاز الوعد . ويرجع نبل هذين الكتابين في رأي الجاحظ الى الاخبار الانيقة الغريبة والاحاديث الباعثة على الاخلاق المحمودة . . . الخ .

ويرى الجاحظ انه يوجد في كل زمان علماء محقون الفوا الكتب القيمة

في مختلف ميادين العلم والاخلاق وبدؤوا سواهم بمواهبهم التي حباهم الله
اياتها. ولكن ظهر لهم حساد معارضون في تلك العلوم والكتب « منتحلة
يدعون مثل دعاويهم ، قد وسموا انفسهم بسمات الباطل وتسموا باسماء العلم
على المجاز من غير حقيقة ، ولبسوا لباس الزور متزخرفين متشيعين بما لا
محصول له ، يحتذون امثلة المحققين في زيهم وهديبهم ، ويقتفون آثارهم في
الفاظهم والمحاظهم وحركاتهم واشاراتهم ، لينسبوا اليهم ويحلوا محلهم . . . » .

ويدي الجاحظ خشيته من ان يكون له حساد على كتبه التي يعنى
بتأليفها يتولون انتحالها ووضع مثلها . او يطعنون بها ويوهمون « فساد معانيها
وسقوط الفاظها » . ويورد شاهداً على ذلك محمداً بن ابي العباس الطوسي
الذي انبرى يطعن على كتابه في تحليل النبيذ لدى عرضه على المأمون مما
اثار حفيظة المأمون على الطوسي ، ولم يسكت هذا الطاعن الباغي الا عندما
دخل بشر المريسي معارضه وأيد الجاحظ في مذهبه من تحليل النبيذ ، ونحن
نعلم ان الكتاب الذي طرق موضوع تحليل النبيذ هو « الشارب والمشروب »
ولعله هو المقصود .

مرکز تحقیقات کتب و تاریخ علوم اسلامی

ويخبرنا الجاحظ انه « ربما الف الكتاب المحكم المتقن في الدين
والفقه والرسائل والسيرة والخطب والخراج والاحكام وسائر فنون الحكمة »
وينسبه الى نفسه فيقصد اليه جماعة من اهل العلم بالطعن والتحقير والعيب .
وربما فعلوا اكثر من ذلك ، اذ يسرقون معاني الكتاب ويؤلفون كتاباً حولها
ويهدونه الى الملك الذي اهداه كتابه وغيره .

كما يخبرنا انه ربما الف الكتاب الذي هو دون الكتاب الاول في معانيه
والفاظه وينسبه الى غيره امثال ابن المقفع والخليل وسلم صاحب بيت الحكمة
والعتابي وغيرهم ، فيقبل عليهم هؤلاء الطاعنون يتدارسون ويتأدبون به معجبين
بمعانيه والفاظه .

ويقول اخيراً انه ربما الف الكتاب وتركه غفلاً دون ذكر المؤلف اشفاقاً
من حسد هؤلاء وطعنهم « فينهالون عليه انهيال الرمل ويستبقون الى قراءته سباق
الخييل يوم الحلبة الى غايتها » .

وقد ذهب بعض الكتاب الحاسدين ابعد من ذلك عندما هددوا الجاحظ
وتوعده بالويل والشبور وعظائم الأمور اذا هو لم يضمن لهم الشركة فيما يجري
عليه .

وعدا مسألة نحل كتب الجاحظ والطعن عليها وهي مسألة في غاية
الخطورة ، يعالج الجاحظ مسألة الفصل ما بين العداوة والحسد . فيرى الحسد
نتيجة النعمة التي اسبغت على المحسود وحرم منها الحاسد . اما العداوة فلها
اسباب مباينة . ويرافق العداوة العقل اما الحسد فيخلو منه . والحسد لا يزول
الا بزوال المحسود عليه ، اما العداوة فتحدث لعدة وتزول بزوالها . والعداوة
تضعف مع الزمن بينما يبقى الحسد غصاً جديداً . والحسد يرافق الكذب بينما
قد تخلو العداوة من الكذب ، والحسد يتفشى في اهل العلم اكثر من الجهلة
والملوك والسوقة . والحسود جبان بينما العدو أشجع واظهر .

١٨ - مقدمة رسالة في استنجاز الوعد

لم يسم الجاحظ ممدوحه ، ولكنه على الأرجح ابو الفرج محمد بن نجاح الكاتب الذي وجه اليه رسالة المودة والخلطة ، ورسالة ثالثة باسمه . وتعتبر الرسائل متممة لبعضها البعض من حيث الموضوع والمنحى والغرض .

ان الجاحظ يسأل ويمدح . وقد سارع الى الافصاح عن غرضه في صدر الرسالة حيث يقول : « اطلبوا الحاجات من احسان الوجوه » . هذا يعني ان لديه حاجة ، ويريد من ابي الفرج ان يليها . وهو يهجم على موضوعه دون توطئة فيذكر حاجته ويشرع في مديح ابي الفرج ويركز على جمال وجهه لأن الوجه عنوان الفال او مطلقه : « فاجتمع فيكم تمام القوام وبراعة الجمال ، والبشر عند اللقاء ، ولين الخطاب ، والكنف للخلطاء ، وقلة البذخ بالمرتبة الرفيعة ، والزيادة في الانصاف عند النعمة الحادثة ، فجعل الناس وعدكم من اكرم الوعد ، وعقدكم من اوثق العقد ، واطماعكم من اصح الانجاز . . » . وهذا التركيز على الوجه والقال والبشر عند اللقاء الخ يذكرنا بمعاني مديح ابن الرومي .

وعدا المديح نجد في الرسالة حملة على المديح الكاذب الخادع كما

في رسالة المودة والخلطة . وينجلي نبذه اياه في قوله : « معاذ الله ان تقول الا
معروفاً غير مجهول ، وتصف الا صحيحاً غير مدخول ، او يكون ممن يتودد
بالملق ، ويتقحم على اهل الاقدار شرها الى مال ، او حرصاً على تقريب ،
وابعد الله الحرص واخزي الشره والطمع » .

ويذهب ابعد من ذلك فيحرص المدوحين على عدم اجازة المديح
الكاذب ، واذا اثابوا الكذابين شاركوهم في كذبهم وسخفهم وتحملوا وزرهم .
وكانوا كمن يمدح نفسه .

ولم يكتف الجاحظ بمدح ابي الفرج ، بل مدح والده ايضاً الذي عرف
« بالتبرع بالوعد وسرعة الانجاز ، وتمام الضمان » .

واذا كان الولد يشبه الوالد في الصفات طبقاً للمثل العربي : « ومن اشبه
اباه فما ظلم » فهذا دليل على ان اخلاق الناس طباع يتوارثونها ، وليست نتيجة
التربية والتعليم . والجاحظ يعود في هذا الحكم الى اصول فلسفته الطبيعية
التي لم يحد عنها في جميع مناجي فكره .

ولا ينسى الجاحظ في ختام الرسالة ان يذكر الممدوح بقاعدة التوازن
التي شرحها في رسالة المودة والخلطة وهي تقول : يجب على الممدوح
العطاء ويجب على المادح الشكر والثناء . « وانك والله ، ايها الكريم
المأمول ، والمستعطف المسؤول ، لا تزرع المحبة الا وتحصد الشكر ، ولا
تكثر المودات الا اذا اكثر الناس الاموال ، ولا يشيع لك طيب الاحدثة وجمال
الحال في العشيرة الا لتجرع مرارة المكروه » .

١٩ - مقدمة رسالة الى ابي الفرج بن نجاح الكاتب

إنها الرسالة الثانية التي بين ايدينا من رسائل الجاحظ في ابي الفرج بن نجاح الكاتب . وهي تشبه اختيها السابقة واللاحقة من حيث الموضوع والغاية وتختلف عنهما في الاسلوب .

الموضوع هو مديح ابي الفرج ، والغاية هي طلب المال او المساعدة او عدم تأخير الأرزاق على حد تعبيره . أما الاسلوب فهو النثر في الرسالتين الآخرين ، والنثر والشعر في الرسالة التي نحن بصدددها .

وينجاهل الجاحظ في صدر الرسالة صاحب القصيدة التي نظمت في أبي الفرج ، ولكنه يعرف ان كنيته ابو عثمان . ثم يحصي اسماء الذين حملوا تلك الكنية ، ويورد اسمه في جملتهم دون ان يعترف بانه صاحب القصيدة . بيد أننا نستطيع ان ندرك انه هو الذي نظم القصيدة اذا ما مضينا في قراءتها ووصلنا الى البيت التالي :

اعيدك بالرحمن من قول شامت ابو الفرج المأمول يزهد في عمرو
ان عمرا هذا هو ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ لأنه ورد اسمه في عداد
الشعراء المحتملين الذين قرضوا الشعر .

وفي نهاية الرسالة يوضح الجاحظ ان الرائية من نظمه عندما يقول :
« وكيفما تصرفت بي الحال ، فاني لم اخرج من جهد المجتهدين الراغبين
المخلصين . فان وقعت هذه القصيدة والتي قدمنا قبلها بالموافقة فالحمد لله ،
وان خالفت فنستغفر الله ، وان شيعتم ضعفها بقوة كرمكم ، وقويتم اودها
بفضل حلمكم ، كان في ذلك بلاغ لما املنا . والله الموفق » .

ويمكن تقسيم القصيدة ثلاثة اقسام :

في القسم الاول : يصف حالته النفسية ويميط اللثام عن بعض صفاته
فهو راض بحظه في الحياة قاعد بدار الخفض لا يبرح مكانه . ولكن هذا
الرضا مر كالصبر . ولو كان غيباً لقنع بالقليل الذي أصابه ، ولم يجزع من
الاحداث والخطوب التي تعصف به ، ولما طمح الى المفاخر والمكارم .

وقد ساقته الفاقة الى سؤال قوم لم ينل منهم سوى الابتسامة ، اما المال
فقد ضنوا به عليه ، وعندئذ قرر ان يلزم منزله وينصرف الى الدراسة والتفكير ،
واشبار عليه اصدقائه بالتوجه الى ابي الفرج الذي لا يخلف الوعد ولا يرد
عافياً .

وفي القسم الثاني يفصح عن غرضه من الرسالة وهو مطالبة ابي الفرج
اجراء ارزاق للجاحظ يبدو أنها تأخرت .

اترضى رفدتك اليوم نفسي واسرتي بتأخير ارزاقني وانت تلي امسري
هذه الارزاق التي يذكرها هنا المح اليها في الرسالتين الاخرين :
استنجاز الوعد ، والمودة والخلطة . ويبدو ان ابا الفرج وعده بتلبية طلبه بعد
نظم هذه القصيدة ، ولكنه تأخر في انجاز وعده ، فكتب له الجاحظ الرسالتين
الاخرين يحثه على انجاز ما وعد .

وفي القسم الثالث يمدح الجاحظ ابا الفرج وينعته بفتى العسكر والكتاب

قائلاً :

الاياء فتي الكتاب والعسكر الذي تأسر بالحسنى وايد بالنصر

تماما كما نعته في رسالة المودة والخلطة حيث قال : « وابو الفرج - اعزه

الله - فتي العسكرين ، واديب المصريين . . . » .

ويمدحه ايضا بحسن التدبير والحنكة في معرفة مكائد المحتالين والحزم

والعزم .

ويأمل في نهاية القصيدة ان لا يخيب ابو الفرج امله فيه ، ويعدده بالود

والثناء والشكر الدائم .

ان شعر الجاحظ الذي فزنا في هذه القصيدة بنموذج عنه فريد يمتاز

بتقليب المعاني واستقصائها كشعر ابن الرومي ، كما يمتاز بسهولة اللفظ

ووضوح الأفكار ، ولكنه يفتقر كشعر ابن الرومي الى الجزالة وفخامة الديباجة .



مركز تحقيقات كويتية لدراسات إسلامية

٢٠ - مقدمة رسالة في المودة والخلطة

تنتمي هذه الرسالة الى فن المديح ، والمادح هنا هو الجاحظ ، والممدوح هو ابو الفرج محمد بن نجاح بن سلمة الكاتب ، كان والده علي ديوان التوقيع في خلافة المتوكل ، وقتله الخليفة سنة ٢٤٥ هـ وقبض على ابنه محمد . وقد وضع الجاحظ هذه الرسالة قبل نكبة ابي الفرج يسأله بعض الحاجات ويتزلف اليه ويتودد ويمدح .

ولكن الجاحظ يمهد للتودد والمديح بوضع اصول فن المديح اهمها وجوب الاخلاص فيه ، والاغدا المديح ضربا من الحيل والخداع يستغل فيه الشعراء والادباء المداحون سلامة صدر الممدوحين او حسن ظنهم ، او قلة فطنتهم ، او خوفهم من الهجاء ، او شدة بذلهم وكرمهم . والجاحظ يرفض هذا المديح الخادع ويرذله .

ومن اصول المديح تجنب الالحاح والتضرع في السؤال مع التظاهر بالزهد واضمار الرغبة .

ومن اصول المديح التوازن بين واجبات المادح والممدوح وحقوقهما . ان واجب الممدوح السخاء ومساعدة المحتاج والاحتفاء بالمادح . ومن حقه

شكر المادح إياه على عطائه وذكر مناقبه والثناء عليه واضمار المودة له .

ومن الناحية الفنية ينبغي ان يتوافر في المادح ادبان هما أدب الخلق
وادب الرواية الى جانب رجاحة العقل الذي يسوسهما . ويبدو ذلك في أصول
تجدر مراعاتها وهي الايجاز والابتعاد عن اللحن ، ووضوح المعنى واللفظ ،
وعدم اللجوء الى الزخرفة البيانية ، والقصد الى المعنى دون لف ودوران ،
ودون تصوير الباطل حقاً والحق باطلاً ، وتجنب الفأفة وسائر آفات اللسان .

بعد وضع هذه الاصول الجمالية للمدح ينتقل الجاحظ الى غرضه وهو
طلب العطاء من ابي الفرج . وهذا العطاء انما يقتضيه من ممدوحه مقابل ما
يمحضه من محبة واكبار ، وبسبب المشاكلة في الأدب ، ولأنه في فاقة وابتا
الفرج في غنى ومجد ، وقد عبر عن ذلك بقوله « وانا اقول بعد هذا كله : لو
لم أضمر لكم محبة قديمة ولم أضربكم بشفيح من المشاكلة ، ولا بسبب
الأديب الى الأديب ، ولم يكن علي قبول ، ولا على حلاوة عند المحصول ،
ولم اكن الا رجلاً من عرض المعارف ، ومن جمهور الاتباع ، لكان في
احسانكم الينا ، وانعامكم علينا ، دليل على أنا قد اخلصنا المحبة ، واصطفينا
لكم المودة » . ويردف قائلاً : « ولا خير في سمين لا يحتمل هزال اخيه ،
وصحيح لا يجبر كسر صاحبه » .

وينتهي ابو عثمان الرسالة بتعداد مزايا ابي الفرج على سنة المداحين ،
فلا يترك منقبة الا وينسبها اليه : الأريحية والنجابة والسيادة والقيادة والذكاء
والمهابة والجمال وكرم المحتد والادب . لقد اجتمع له المجد من طرفيه
« وهل المجد الا كرم الأرومة ، والحسب وبعد الهمة ، وكثرة الأدب ، والثبات
على العهد اذا زلت الاقدام ، وتوكيد العقد اذا انحلت معاهد الكرام ، والا
التواضع عند حدوث النعمة ، واحتمال كل العثرة ، والنفاذ في الكتابة ،
والاشراف على الصناعة » .

٢١ - مقدمة الترييح والتدوير

رسالة وضعها الجاحظ بهزاً فيها من معاصره الكاتب أحمد بن عبد الوهاب . وهذا الهزء ينصب على النواحي الجسمية والخلقية والعقلية .

فهو يجلو لأحمد بن عبد الوهاب صورة كاريكاتورية تبعث على الضحك : « كان أحمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ويدعي انه مفرط الطول ، وكان مربعاً وتحسبه لسعة جفرتة واستفاضة خاصرته مدوراً . وكان جعد الاطراف قصير الاصابع وفي ذلك يدعي السباطة والرشاقة ، وانه عتيق الوجه اخمص البطن معتدل القامة تام العظم . وكان طويل الظهر قصير عظم الفخذ ، وهو مع قصر عظم ساقه يدعي انه طويل الباد رفيع العماد عادي القامة عظيم الهامة قد اعطي البسطة في الجسم والسعة في العلم ، وكان كبير السن متقدم الميلاد ، وهو يدعي انه معتدل الشباب حديث الميلاد » .

هذه الصورة الساخرة تلم بمختلف اعضاء جسم أحمد بن عبد الوهاب ، فهي تمثل وجهه واطرافه وبطنه وظهره وخاصرته وقامته واصابع يديه ، وعمره . ولكنها تعمد الى مواطن البشاعة فيه فتضخمها لتلفت اليها النظر ، وتكرر ذكرها للتأكيد عليها ؛ ولذا نرى الجاحظ يعود الى قصر جسم أحمد بن عبد الوهاب

واستفاضة بطنه وخاصرته مراراً عديدة فيقول « فيا شعراً جمع الاعاريض ويا شخصاً جمع الاستدارة والطول ، بل ما يهملك من أقاويلهم ويتعاطمك من اختلافهم ، والراسخون في العلم والناطقون بالفهم يعلمون ان استفاضة عرضك قد ادخلت الضيم على ارتفاع سمكك ، وان ما ذهب منك عرضاً قد استغرق ما ذهب منك طولاً ، ولئن اختلفوا في طولك فقد اتفقوا في عرضك » .

ثم إنه لا يكتفي بالوصف الساخر بل يضيف اليه التلوين الفكري الهازيء . ان احمد بن عبد الوهاب مربع الجسم ولذا لا يمكن ان ينعت بالطول ولا بالقصر لان المربع متساوي الأضلاع اي ليس له طول وعرض وهو بالتالي في منأى عن الزرابة لأنه لم يتجاوز الحد في طول او عرض ، وكل ما لا يتجاوز الحد او القصد معتدل ، وكل معتدل جميل : « وبعد ، فأني قد أردى واي نظام أفسد من عرض مجاوز للقدّر وطول مجاوز للقصد ؟ ومتى لم يضرب العرض بسهمه على قدر حقه ، ويأخذ الطول من نصيبه على مثل وزنه خرج الجسد من التقدير وجاوز التعديل ، واذا خرج من التقدير تفسد ، واذا جاوز التعديل تبين . . . » . وهو يردف قائلاً : « وقد سمعنا من يذم الطوال كما سمعنا من يزري على القصار ، ولم نسمع احداً ذم المربع ولا ازرى عليه ولا وقف عنده ولا شك فيه ، ومن يذمه الامن ذم الاعتدال ، ومن يزري عليه الامن ازرى على الاقتصاد » .

ولا يضير ابن عبد الوهاب صغر جسمه فصغار المخلوقات اقواها واقتلها واصلبها كالحصى من الحجارة والافعى من الحيات والقرقس من البعوض والبعثات من الطير .

ثم إن صغار المخلوقات اكثرها عدداً كالأجوج وماجوج ، والذر والفراش والبعوض .

ثم ان الجسم القصير لا ينحني عند الشيخوخة ولا تعوج عظامه ، ويسعه كل باب ، ولا تخرج رجلاه من النعش .

ثم ان صغار النبات اجمله ، كالفلفة والزنبقة الخ . .

وعلاوة على ذلك فقد توصف الارض بالعرض دون الطول ، ووصف الله الجنة بالعرض دون الطول ﴿ وجنة عرضها السماوات والأرض ﴾ وقد وجدنا الافلاك مدورة لا مطولة وكذلك القمر والبحر والدينار والذرة : وكلها مضرب الجمال . فكيف لا يكون احمد بن عبد الوهاب جميلاً كالقمر والدينار والزهرة والذرة والمهابة والعمامة ؟ .

ومن الناحية الخلقية يركز الجاحظ على خلتين في أحمد بن عبد الوهاب هما حب المراء ، والادعاء بما ليس فيه . فهو كلف بالجدال يكثُر من الاعتراض ويميل الى الخلاف ويؤثر المغالبة والمعاندة . ولو كان يعقل ذلك عن علم وبصيرة لهان الأمر ، ولكنه لا يعرف الحجة ولا موضع الشبهة ، ويعجز عن الرد والافهام . وبدل أن يعرف قدره ويقف عند حده ، نراه يطاول محمد بن عبد الله الزيات وينافره ويبرهنه في المحافل والمجامع ، ويطمح الى مخاشنة الجاحظ نفسه ومظارفته ، ويستهن بالنظام ، والاصمعي ، ويستخف بالاحنف بن قيس .

ومن الناحية العقلية ، ينعت الجاحظ احمد بن عبد الوهاب بالجهل وضيق أفق التفكير ، وبأنه لم يأخذ العلم عن اربابه بالسماع والمجالسة بل اقتنى الكتب وقراها دون ان يفهم منها الكثير ؛ وهذا ما يعنيه بقوله : « كان قليل السماع غمراً وصحفيماً غفلاً » . ومع ذلك كان يدعي الأدب ويعتمد بمواهبه ومعارفه حتى غدا لا يطاق ، وهذا ما حدا الجاحظ كما يقول على تأليف هذه الرسالة ؛ والهدف منها كشف قناعه وابداء صفحته للحاضر والغائب

وسكان كل ثغر وكل مصر بأن يسأله مائة مسألة يهزأ فيها ويعرف الناس مقدار جهله .

وقد تناولت هذه الاسئلة جميع الموضوعات من مختلف العلوم . ابتداء من الطوفان وانتهاء بالمعرفة عند الانسان . اسئلة تاريخية وطبيعية وحيوية وجغرافية ودينية ومذهبية وكيمائية وفلسفية ورياضية وموسيقية وفيزيائية وبيولوجية .

ويؤكد الجاحظ في نهاية طرح هذه المسائل العويصة ان احمد بن عبد الوهاب لا يحسن الاجابة عليها ؛ ويدله على مظانها وهي كتبه التي فيها ويبحث فيها جميع الموضوعات واجاب على مختلف المسائل . ويطلب منه ان يقرأ تلك الكتب ، ويتخلى عن مذهب التشيع ويستبدل به الاعتزال اي مذهب الجاحظ ، ويختلف على بيت الجاحظ لأخذ العلم عليه .

ونستطيع أن نقول ان الجاحظ تزخى من رسالة التريبع والتدوير ان تكون فهرساً للمسائل التي عالجهها في كتبه ، وشاهداً على سعة ثقافته وعمقها وشمولها ، ودعوة سافرة لقراءة تلك الكتب التي لا غنى عنها لكل مثقف او طالب علم ، وترويحاً للاعتزال .

وقد لخص أبو عثمان مزايا رسالة التريبع والتدوير وفوائدها حيث يقول : « هذا الكتاب مرض مع ما (فيه) من الاخلاط مع اشكال واضداد ، ومن الجذ والهزل ، ومن الحظر والاطلاق ، ومن الاستنشاف والقطع ، ومن التحفظ والتضييع ، ومن الثبت والتهاون . اذا اريد به تقريع معجب او تكثيف مموه ، او امتحان مشكل ، او تخجيل وقاح ، او قمع ممار ، او مازحة ظريف ، او مساءلة عالم ، او مدارسة حافظ ، او تنبيهها على الطريق ، او تجديداً للذهن » .

ان كتاب التريبع والتدوير يجمع الجد والهزل ، فهو يشحذ الذهن للتفكير في معظم المسائل العلمية والفلسفية التي انطوى عليها ، وهو يشير الضحك بلهجته الساخرة وتصويره البارع لخلق احمد بن عبد الوهاب وخلقه .

وقد احتج الجاحظ لكتابه هذا بقوله انه ينفع لممازحة ظريف او مسائلة عالم او مدارسة حافظ او تجديدأ للذهن . فهو يعتقد ان عقل الانسان احوج الى الشحذ من السيف ، وان للعلم مطالب كثيرة واسبابا عديدة ، وان اهم اسبابه الخواطر الشتى والمسائل التي تطرح على اختلافها . وهذا الكتاب يمثل حشداً للمسائل والخواطر التي تحض على العلم والتفكير .

واذا كانت رسالة التريبع والتدوير معرضاً للمسائل الثقافية التي شغلت عقول الناس في عصره ، فهي نموذج لادب الجاحظ تمثلت فيه خصائصه الفنية خير تمثيل . وفي طليعة تلك الخصائص الاستطراد الذي ينقله من موضوع الى آخر ثم يعود منه ثانية الى الموضوع الاول . فقد عاد مراراً الى الكلام على الجد والمزاح ، وعلى الجن والسحر ، وعلى الموضوعات التاريخية ، وعلى بشاعة جسم احمد بن عبد الوهاب .

ومن تلك الخصائص مزج الجد بالهزل ، وقد احتج لهذا الاسلوب بقوله ان لكل منهما فوائد ، وقد اراد من المزج بينهما طرد السامة عن نفس القراء . وخصص لبحث هذا الموضوع قسماً لا بأس به من الرسالة .

ومن تلك الخصائص السياق الجدلي الرائع ، فهو يورد الفكرة ونقيضها ، ويحتج لهذه كما يحتج لتلك . ويستقصي للشيء وضده ، وكل ذلك انعكاس لغلبة علم الكلام عليه .

ومن تلك الخصائص العبارة المقطعة تقطيعاً متوازناً ، والتي تنطوي على ترادف لفظي ومعنوي ، وهي* ان دلت على شيء فعلى ثروة لغوية هائلة تمكنه من

التعبير عن المعنى الواحد بطرق مختلفة والفاظ متقاربة او متضادة . واننا لنشعر
ونحن نقرأ الرسالة أن الالفاظ تتثال عليه انشياً ، والمعاني تزدهم ازدحاماً ،
فيتلاعب بها ويداعبها ويشكلها كما يشاء ومهارة ورشاقة عجيبتين .



مرکز تحقیقات کتب و پژوهش‌های اسلامی

- ١ -



[١ - موضوع الكتاب]

أما بعد فإنني قد تصفحت أخلاقك ، وتدبرت أعرافك ، وتأملت شيمك ،
ووزنتك فعرفت بمقدارك ، وقومتك فعلمت قيمتك ، فوجدتك قد ناهزت
الكمال ، وأوقيت على التمام ، وتوقلت في حرج الفضائل ، وكدت تكون
منقطع القرين ، وقاربت أن تُلغى عديم النظر ، لا يطمع فضل أن يفوتك ،
ولا يأنف شريف أن يقصر دونك ، ولا يخشع عالم أن يأخذ عنك .

ووجدتك في خلال ذلك على سبيل تضييع وإهمال لأمرين : هما
القطب الذي عليه مقياس الفضائل ، فكنت أحق بالعدل ، وأقمن بالتأنيب
عن لم يسبق شأوك ، ولم يتسّم رُبتك ، لأنه ليس ملوماً على تضييع
القليل من قد أضاع الكثير ، ولا يُسام إصلاح يومه وتقويم ساعته من قد
استحوذ الفساد على دهره ، ولا يُحاسب على الزلة الواحدة من لا يعلم منه
الزلل والبشار ، ولا يُنكر المنكر على من ليس من أهل المعروف ، لأن المنكر
إذا صار معروفاً ، وإذا صار المنكر معروفاً صار المعروف منكراً .

وكيف يُعجب ممن أمره كله عجب ، وإنما الإنكار والتعجب ممن خرج

عن مجرى العادة ، وفارق السُّنة والسجِّية ، كما قال الأول : « تُذكر » .
 وقيل : « الكامل من عُدَّت سَقَطَاتِهِ » ، وقيل : « من استوى يومه فهو مغبون ،
 ومن كان يومه خيراً من غدِهِ فهو مفتون ، ومن كان غدُهُ خيراً من يومه فذلك
 السعيدُ المغبوط » . وفي هذا المعنى قال الشاعر :

رأيتك أمسٍ خيرَ بني مَعَدٍ وأنت اليومَ خيرُ منك أمسٍ
 وأنت غداً تزيد الضعف خيراً كذاك تزيد سادة عبد شمس

وقال آخر في مَعْنٍ :

أنت امرؤٌ همك المعالي ودلومعروفك الريبعُ
 أنت امرؤٌ من وائلٍ صميمٍ كالقلب تُحنى له الضلوعُ
 في كلِّ عامٍ تزيد خيراً يُشيعه عنك من يُشيعُ

والامران اللذان تَقَمَّتْهُمَا عَلَيْكَ : وَضَعُ الْقَوْلِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ، وَإِضَاعَةُ
 السَّرِّ بِإِذَاعَتِهِ .



مرکز تحقیقات کتب و اسناد ملی جمهوری اسلامی ایران

[٢ - العقل واللسان]

وليس الخطرُ فيما أسومك وأحاولُ حملك عليه بسهلٍ ولا يسير . وكيف
 وأنا لا أعرف في دهري - على كثيرٍ عديدٍ أهله - رجلاً واحداً ممن يتحل
 الخاصة ، ويُنسب إلى العلية ، وَيَطْلُبُ الرِّياسة ويخطبُ السِّيادة ، ويتحلَّى
 بالأدب ويديم الثُّخانة والزُّماتة ، والحلمَ والفخامة ، أرضى ضبطهُ للسانه ،
 وأحمدُ حياطته لسره . وذلك أنه لا شيء أصعبُ من مكابدة الطَّبائع ، ومغالبة
 الأهواء ، فإن الدُّوَلَةَ لَمْ تَزَلْ للهوى على الرأي طُولَ الدهر . والهوى هو
 الدَّاعية إلى إِذَاعَةِ السَّرِّ ، وإِطْلَاقِ اللِّسانِ بِفَضْلِ الْقَوْلِ .

وإنما سُمِّيَ العقلُ عقلاً وجرأً ، قال تعالى - ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي

جَجْر ﴿ - لأنه يزُمُّ اللسان وَيَخِطِمُه ، وَيَشْكُلُه وَيَرْبُثُه ، وَيَقْيِدُ الْفَضْلَ وَيَعْقِلُه عَنْ أَنْ يَمْضَى فُرْطاً فِي سَبِيلِ الْجَهْلِ وَالْخَطَا وَالْمَضْرَّةِ ، كَمَا يُعْقَلُ الْبَعِيرُ ، وَيُحَجَّرُ عَلَى الْيَتِيمِ .

وَأَمَّا اللِّسَانُ تَرْجَمَانُ الْقَلْبِ ، وَالْقَلْبُ خِزَانَةُ مَسْتَحْفَظَةٌ لِلْخَوَاطِرِ وَالْأَسْرَارِ ، وَكُلُّ مَا يَعِيهِ [مِنْ] ذَلِكَ عَنِ الْحَوَاسِّ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، وَمَا تَوَلَّدَهُ الشَّهَوَاتُ وَالْأَهْوَاءُ ، وَتَتَجَهَّ الْحِكْمَةُ وَالْعِلْمُ .

وَمِنْ شَأْنِ الصَّدْرِ - عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ وَعَاءٌ لِلْأَجْرَامِ ، وَأَمَّا يَعِي بِقُدْرَةِ [مِنْ] اللَّهِ لَا يَعْرِفُ الْعِبَادُ كَيْفَ هِيَ - أَنْ يَضِيقَ بِمَا فِيهِ ، وَيَسْتَقْبَلُ مَا حَمَلَ مِنْهُ ، فَيَسْتَرِيحُ إِلَى نَبِيذِهِ ، وَيَلْتَذُّ إِلقاءَهُ عَلَى اللِّسَانِ . ثُمَّ لَا يَكَادُ أَنْ يَشْفِيهِ أَنْ يَخَاطِبَ بِهِ نَفْسَهُ فِي خَلَوَاتِهِ حَتَّى يَفْضِي بِهِ إِلَى غَيْرِهِ مِمَّنْ لَا يَرَعَاهُ وَلَا يَحْوِطُهُ . كُلُّ ذَلِكَ مَا دَامَ الْهَوَى مَسْتَوْلِيًّا عَلَى اللِّسَانِ ، وَاسْتَعْمَلَ فَضُولَ النَّظَرِ فَدَعَتْ إِلَى فَضُولِ الْقَوْلِ .

فَإِذَا قَهَرَ الرَّأْيُ الْهَوَى فَاسْتَوْلَى عَلَى اللِّسَانِ ، مَنْعَهُ مِنْ تِلْكَ الْعَادَةِ ، وَرَدَّهُ عَنْ تِلْكَ الدُّرْبَةِ ، وَجَسَّمَهُ مَوْئِنَةَ الصَّبْرِ عَلَى سِتْرِ الْحِلْمِ وَالْحِكْمَةِ .

وَلَا شَيْءٌ أَعْجَبُ مِنْ أَنَّ الْمَنْطِقَ أَحَدَ مَوَاهِبِ اللَّهِ الْعِظَامِ ، وَنِعْمَهُ الْجِسَامِ ، وَأَنَّ صَاحِبَهَا مَسْئُولٌ عَنْهَا ، وَمُحَاسَبٌ عَلَى مَا خَوَّلَ مِنْهَا ، أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ اسْتِعْمَالَهَا فِي ذِكْرِهِ وَطَاعَتِهِ ، وَالْقِيَامَ بِقِسْطِهِ وَحِجَّتِهِ ، وَوَضْعَهَا مَوَاضِعَ النُّفْعِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا ، وَالْإِنْفَاقَ مِنْهَا بِالْمَعْرُوفِ لَفْظَةً لَفْظَةً ، وَصَرْفَهَا عَنْ أَضْدَادِهَا .

فَلَمْ يَرْضَ الْإِنْسَانُ أَنْ عَطَّلَهَا عَمَّا خُلِقَتْ لَهُ مِمَّا يَنْفَعُهُ حَتَّى اسْتَعْمَلَهَا فِي ضِدِّ ذَلِكَ مِمَّا يَضُرُّهُ ، فَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ الْإِيمَانُ اللَّذَانِ اجْتَمَعَا عَلَى صَاحِبِ الْمَالِ الَّذِي كَنْزَهُ وَمَنْعَهُ مِنْ حَقِّهِ ، فَوَجَبَ عَلَيْهِ إِثْمُ الْمَنْعِ وَإِنْ كَانَ لَمْ يَصْرِفْهُ

في معصية ، ثم صرفه في أبواب الباطل والفسق فوجب عليه إثم الإنفاق فيها . وهذه غاية الغبن والخسران . نعوذ بالله منها .

فاللسان أداة مستعملة ، لا حمد له ولا ذم عليه ، وإنما الحمد للحلم واللوم على الجهل . فالحلم هو الاسم الجامع لكل فضل ، وهو سلطان العقل القامع للهوى . فليس قمع الغضب وتسكين قوة الشرّة ، وإسقاط طائر الخرق بأحقّ بهذا الاسم ، ولا أولى بهذا الرسم ، من قمع فرط الرضا وغلبة الشهوات ، والمنع من سوء الفرح والبطر ، ومن سوء الجزع والهلع ، وسرعة الحمد والذم ، وسوء الطبع والجشع ، وسوء مناهزة الفرصة ، وفرط الحرص على الطلبة ، وشدة الحنين والرقّة ، وكثرة الشكوى والأسف ، وقرب وقت الرضا من وقت السخط ، ووقت التسخط من وقت الرضا ، ومن اتّفاق حركات اللسان والبدن على غير وزن معلوم ولا تقدير موصوف ، وفي غير نفع ولا جدوى .



[٣ - حب الاخبار]

واعلم يقيناً أن الضمّت سرمداً أبدأ ، أسهل مراماً - على ما فيه من المشقة - من إطلاق اللسان بالقول على جهة التحصيل والتمييز ، والقصد للضواب ، لما قدّمنا ذكره من علة مجاذبة الطباع ، ولأنّ من طبع الإنسان محبة الإخبار والاستخبار . وبهذه الجيلة التي جبل عليها الناس نقلت الأخبار عن الماضين الى الباقين ، عن الغائب الى الشاهد ، وأحبّ الناس أن ينقل عنهم ، ونقشوا خواطرهم في الصُخور ، واحتالوا لنشر كلامهم بصنوف الحيل . وبذلك ثبتت حجّة الله على من لم يشاهد مخارج الأنبياء ، ولم يحضر آيات الرُّسل ، وقام مجيء الأخبار عن غير تشاعر ولا تواطؤ مقام العيان ، وعرفت البلدان والأقطار والأمم والتجارات والتدبيرات والعلامات ، وصار ما ينقله الناس بعضهم عن بعض ذريعة الى قبول الإخبار عن الرسل ، وسلماً الى التصديق ،

وعوناً على الرضا بالتقليد .

ولولا حلاوة الإخبار والاستخبار عند الناس لما انتقلت الأخبار وحلت هذا المحل . ولكن الله عز وجل حَبَّبَهَا إليهم لهذا السبب ، كما جعل عشق النساء داعيةً للجماع ، ولذَّةً للجماع سبيلاً للنَّسل ، والرَّقة على الولد عوناً على التريبة والحضانة - وبهما كان النَّشْو والنماء - وحبُّ الطعام والشراب سبباً للغذاء ، والغذاء سبباً للبقاء وعمارة الدنيا .

فعرَّس على الإنسان الكتمان لإيثار هذه الشهوة ، والانقياد لهذه الطبيعة ، وكانت مزاولة الجبال الراسيات عن قواعدها أسهل من مُجاذبة الطباع . فاعتراه الكربُ لكتمان السرِّ ، وغشيه لذلك سُقم وكمد يحسُّ به في سُويداء قلبه بمثل ديبب النمل ، وجُكَّة الجرب ، ومثل لسع الدُّبُر ووخز الأشافي ، على قدر اختلاف مقادير الحلوم والرَّزانة والخفَّة . فإذا باح بسرِّه فكأنه أنشَط من عقال . ولذلك قيل : « الصُّدر إذا نفث برا » مثلاً مضروباً لهذه الحال . وقيل :

* ولا بدُّ من من شكوى إذا لم يكن صبرٌ *

وليس قولنا « طُبِع الإنسان على حبِّ الإخبار والاستخبار » حجَّةً له على الله ، لأنه طبع على حب النساء ومُنِع الرُّنْي ، وحبُّب إليه الطعام ومُنِع من الحرام . وكذلك حُبِّب إليه أن يُخبر بالحقِّ النافع ويستخبر عنه ، وجعلت فيه استطاعةً هذا وذاك ، فاختر الهوى على الرأى .

ومما يؤكِّد هذا المعنى في كَرَب الكتمان وضُعوبته على العقلاء فضلاً عن غيرهم ، ما رووه عن بعض فقهاءهم أنه كان يحمل أخباراً مستورة لا يحتملها العوام ، فضاق صدره بها ، فكان يبرِّز إلى العراء فيحتفر بها خفياً يودعها دنأ ، ثم ينكبُّ على ذلك الدَّنَّ فيحدِّثه بما سمع ، فيروِّح عن قلبه ، ويرى أن قد نقل سرِّه من وعاءٍ إلى وعاء .

وكان الأعمش سيء الخلق غليظاً ، وكان أصحاب الحديث يُضجرونه
ويُسومونه نشر ما يحبُّ طيِّبهُ عنهم ، وتكرار ما يحدثهم به ، ويتعتُّونه ، فيحلف
لا يحدثهم الشهرَ والأكثر والأقل ، فإذا فعل ذلك ضاق صدره بما فيه ،
وتطلَّعت الأخبار إلى الخروج منه ، فيقبل على شاةٍ وكانت له فيحدثها بالأخبار
والفقه ، حتى كان بعض أصحاب الحديث يقول : « ليت أني كنت شاةً
الأعمش » .

وشكا هشامُ بن عبد الملك ما يجدُ من فقد الأئيس المأمونِ على سرِّه
فقال : أكلت الحامض والحلو حتى ما أجد لهما طعماً ، وأتيتُ النساء حتى ما
أبالي امرأةً لقيتُ أم حائطاً ، فما بقيت لي لذة إلا وجود أخٍ أضع بيني وبينه
مؤونة التحفظ .

وقال معاوية لعمر بن العاص : ما اللذة ؟ قال : تأمر شبابَ قريش أن
يخرجوا عنا . ففعل ، فقال : اللذة طريح المروءة .

وقد صدق عمرو ، ما تكون الزماتة والوقار إلا بحملٍ على النفس
شديد ، ورياضةٍ متعبة .

وقال بعض الشعراء :

ألم ترَ أن وُشاةَ الرجال لا يتركون أديماً صحيحاً
فلا تُفش سِرُّك إلا إليك فإن لكل نصيحٍ نصيحاً

[٤ - مساويء إفشاء السر]

والسرُّ - أبقاك الله - إذا تجاوز صدرَ صاحبه وأقلت من لسانه إلى أذنٍ
واحدةٍ فليس حينئذ بسرٌّ ، بل ذاك أولى بالإذاعة ، ومفتاحُ النشر والهرة . وإنما
بينه وبين أن يشيع ويستطير أن يُدفع إلى أذنٍ ثانية . وهو مع قلَّة المأمونين
عليه ، وكَرَب الكتمان ، حَرِيٌّ بالانتقال إليها في طرفة عين .

وصدُر صاحب الأذن الثانية أضيق ، وهو إلى إفشائه أسرع ، وبه أسخى
وفي الحديث به أعذر ، والحجّة عنه أدحض .

ثم هكذا منزلة الثالث من الثاني ، والرابع من الثالث أبداً إلى حيث
انتهى .

هذا أيضاً إذا استُعهد المحدث واستُكتم ، وكان عاقلاً خليماً ، وناصحاً
وإداً ، فكيف إذا أُخبر ولم يؤمر بالكتمان ، وكان ممن يمشى بالنمائم ويحب
إفشاء المعاييب ، وكان ممن ينطوي على غش أو شحناء ، أو كان له في إظهاره
اجتلابٌ نفعٍ أو دفع ضرر .

فاللوم إذ ذاك على صاحب السرّ أوجب ، وعمّن أفضى به إليه أنزل ،
لأنه كان مالِكاً لسره فأطلق عقاله ، وفتح أقفاله ، وسرّحه فأفلت من قيده
ووثاقه ، وصار هو العبد القين المملوك لمن ائتمنه على سرّه ، وملكه رقّ
رقبته ، فإن شاء أحسن ملكته لحفظ ذلك السرّ فجزّ ناصيته ، وجعله رهينةً ليوم
عُتبه عليه . وقلّ من يُحسن الملكة ، ويحرس الحرّية أو يضبط نفسه ، فإنه
ربّما لم يُخرجه غشاً فأخرجه سخفاً وضعفاً . وإن أساء الملكة وختر الأمانة
فأطلق السرّ واسترعاه من هو أشدُّ له إضاعة ، فسفك الدم وأزال النعم وكشف
المودة وفرّق بين الجميع ، وإن كان المضيع لسره ألوم . قال الشاعر :

إذا ضاق صدرُ المرء عن سرِّ نفسه فصدر الذي يستودع السرّ أضيقُ

فمّن أسوأ حالاً ، وأخسر مكاناً ، وأبعد من الحزم ، ممن كان حرّاً مالِكاً
لنفسه فصير نفسه عبداً مملوكاً لغيره ، مختاراً للرّق ، من غير أسير ولا قسر !
والعبيد لم يصبروا على الرّق إلاّ ببدل الأسر والسّباء .

ومن كان سرّه مصنوعاً في قلبه يُطلّب إليه في الحديث به فأخرجه عن
يده ، صار هو الطالب الراغب إلى من لا يوجب له طاعة ، ولا يفكر له في

عاقبة ، ولا يتحرز له من مُصيبة . وكلما كانت إذاعته لأسراره أكثر كان عدد مواليه أكثر ، وشقاؤه بخدمتهم أدوم . فإذا كان أصل السر معلوماً عند عدّة أو أقل من العدّة ، فما أَعسر استتاره . غير أنه لا لوم على صاحب الخيانة فيه إذا كان ليس هو الذي أفشاه ، ولا من قبله عليم .

ولو أن أوزن الناس جِلماً ملك لسانه وحصن سره وقَلل لفظه ، ما قدر على أن يملك لحظ عينية ، وسحنة وجهه ، وتغيّر لونه ، وتبسّمه أو قطوبه ، عند ما يجرى بلبه من ذكر ذلك السر ، أو يخطر بباله منه ، فيبدو في وجهه ومخايله إذا عرّض بذكره ، أو سَنح له نظيراً أو مثيلاً ، أو حضر من له فيه سبب - إلا بعد التصنع الشديد ، والتحفّظ المُقرط .

فإذا كان يُعرف من هذه الجهات وما أشبهها ، ويُطلع عليه بتظنّ المرجمين ، والمتعقبين للأفعال والأقوال ، والنظر في مصادر التدبير ومخايل الأمور ، فيفشو من هذه الجهات أكثر مما تفشيه السُن المذاييع البُدر . فكيف إذا أطلق به اللسان ، وعود إذاعته القلب . والعادة أملك بالأدب .

وربّما أدركه الحدس ، وقبضه الظنّ ، فنالت صاحبه فيه خدعة ، بأن يُذكر له طرف منه ، ويُوهم أنه قد فشا وشاع ، فيصدّق الظنّ فيجعله يقيناً ، ويفسر الجملة فيصيرها تفصيلاً ، فيهلك نفسه ويوبقها .

وربّ كلام قد ملأ بطون الطوامير قد عُرف جملته وما فيه الضرر منه ، بسحاة أو طابع ، أو لحظة مطلع في الكتاب ، أو حرف تبيين من ظهره .

فاستيقظ عند هذه الأحوال ، واستعمل سوء الظنّ بجميع الأنام ، فإنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الحزم سوء الظنّ » . وقيل لثقيف : بم بلغت ما بلغت من الشرف والسؤدد ؟ قالوا : بسوء الظنّ .

فلا تعتمد على رجل في سرّك تحمّد عقله دون أن تحمّد وده ونصحته ،

فإن الأمر في ذلك كما قال الشاعر :

وما كلُّ ذي لبٍّ بمؤتيك نصحه ولا كلُّ مؤتٍ نصحه بلبيبٍ

ولقد استحسّن الناس من بعض رجال العراق أنه دخل على عبد الملك ابن مروان فأوقع بالحجاج عنده وسبه ، فلما خرج من عنده خبر بما كان منه لبعض أصحابه ، فلامه وأنبه وقال : ما يؤمنك أن يُخبر أمير المؤمنين عبد الملك الحجاج بما قلتَ فيه - ومرجعك الى العراق - فيضغنه عليك ؟ قال : كلا ، والله إنني مارطلتُ بيدي قطُّ أحدًا أرزَن منه .

وهذا والله - أبقاك الله - الغلط البين ، والعذر الملقق ، وتحسين فارط الخطأ ، لأنه ليس كلُّ راجحٍ وعاقِلٍ بناصح لصاحب السرِّ ، ولو كان أخوه كذلك كان أمره إليه أهم ، وشأنه أولى - والأعلى من الناس لا يكلف الأدنى هذه المؤونة ، وإنما يفعلها الأدنى بالأغلب رغبةً ورهباً ، وتحسُّساً عندهم بحاجتهم إليهم .

مركز تحقيقات كويتية للدراسات والبحوث

[٥ - من يذيع الاسرار]

وأكثر ما يذيع أسرارَ الناس أهلوهم وعبيدُهم ، وحاشيتهم وصبيانهم ، [من] لهم عليهم اليد والسلطان . فالسرُّ الذي يودعه خليفة في عاملٍ له يَلْحَقُه رَينُه وَشَينُه ، أحرى ألا يكتمه . وهذا سبيل كل سرٍّ يستودعه الجِلَّة والعظماء ، ومن لا تبلغه العقوبة ولا تلحقه اللائمة .

وقال سليمان بن داود في حكمته : ليكن أصدقاؤك كثيراً ، وصاحب سرِّك واحداً من ألف .

وليس معنى الحديث أن تعدَّ ممن تعرف ألفاً وتُفضيَ إلى واحد بسرِّك إن لم يكن ذلك الواحد موضعاً للأمانة في السرِّ . لكنه قيل : رجلٌ يساوي ألفَ

رجل ، ورجل لا يساوي رجلاً . وكقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« الناس كإبل مائة لا يوجد فيها راحلة » .

فكل ذلك يراد به أن الفضل قليل والنقص قليل لا على نسب ما يتلقاه
الاجتماع من هذه الأعداد ، لأننا قد نجد الرجل يُوزن بالآمة ، ونجد الآمة لا
تساوي قلامه ظفر ذلك الرجل .

فإذا كان من تقع عليه الشريطة معدوماً - سيئاً من يوثق بحلمه وعقله ،
وأمانته ونصحه ، ومن لا ضررَ عليه ولا نفعَ له في السرّ الذي يُضمر ولا يحرمُ
عليه كتمانهُ ، ومن قد وأى على نفسه بالسرّ والحفظ ، فإنه ليس كلُّ من ضَمَّن
فلم يضمَّن ضامناً ، ولا من استودع فلم يقبل مستحفظاً ، ولا من استخلف فلم
يخلف خائناً ، وإنما يلحقه الحمدُ والذمُّ ، والأجر والإثم إذا ضَمَّن الأمانة ثم
خترها - فكانَ القوم قالوا : لا تودعن سرّك أحداً . والأفمى تجد رجلاً فيه
الصفة التي وصف بها مسكينُ الدارمي نفسه حيث يقول :

إني امرؤ مني الحياء الذي ترى أنوء بأخلاقٍ قليل خداعها
أواخي رجلاً لست أطلعُ بعضهم على سرِّ بعضٍ غير أني جماعها
يظنون شتى في البلاد وسرهم إلى صخرة أعيا الرجال انصداعها

وقيل لرجلٍ : كيف كتمانك للسرّ؟ قال : أجعل قلبي له قبراً أدفنه فيه
إلى يوم النشور .

وقال الآخر :

* وأكتمُ السرِّ فيه ضربةُ العنقِ *

وهذه صفاتٌ موجودةٌ بالأقوال ، معدومةٌ بالأفعال . والمغرورُ من اغترَّ بما
يعده الواعدُ منها دون أن يبُلُو الخبر .

والذي جربناه ووجدناه : أن من يُفَضَى إليه بالشيء ، يبلغ من إذاعته ونشره ما لا يبلغه الرسولُ المستحفظُ المعنى بتبليغ الرسالة ، المحمودُ المجازي على أدائها ، حتى ربما كان يبلغ في الإذاعة لمن أرادها أن يقصد للبلاغة من الرجال ، المعروف بالنميمة والتفتيت ، فيوهمه أنه قد استحفظه السرُّ ، فيشيع على لسانه كما يشيع الضوء في الظلمة .

وهذا فعلُ عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين أحبُّ أن يُشيع إسلامه فقال : مَنْ أَنْتُمْ أَهْلُ مَكَّةَ ؟ قِيلَ لَهُ : جَمِيلُ بْنُ النَّحِيْتِ . فَأَتَاهُ فَأَخْبَرَهُ بِإِسْلَامِهِ وَسَأَلَهُ إِنْ يَكْتُمُهُ عَلَيْهِ ، فَلَمْ يُمَسِّرْ وَبِمَكَّةَ أَحَدٌ لَمْ يَعْلَمْ بِإِسْلَامِ عُمَرَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

ثم يكون من أكثر الأعوان على إظهار السرِّ الاستعهادُ له ، والتَّحذِيرُ من نشره ، فَإِنَّ النَّهْيَ أَغْرَى ، لِأَنَّهُ تَكْلِيفٌ مُشَقَّةٌ ، وَالصَّبْرُ عَلَى التَّكْلِيفِ شَدِيدٌ ، وَهُوَ حَظْرٌ ، وَالنَّفْسُ طَيَّارَةٌ مُتَقَلِّبَةٌ ، تَعْشَقُ الْإِبَاحَةَ وَتُغْرَمُ بِالْإِطْلَاقِ .

ولعلَّ رجلاً لو قيل له : لا تمسح بهذا الجدار - وهو لم يمسخها به قط - غرِّي بأن يفعل .

وكذلك ما حُدِّثَ به من السرِّ فلم يؤمر بستره ، لعله ألا يخطر بباله ، لأنه موجود في طبائع الناس الولوعُ بكلِّ ممنوع ، والضُّجرُ بكلِّ محصول .

[٦ - كل ممنوع مرغوب]

فتريد أن نعلم : لم صار الإنسانُ على ما منع - وإن كان لا يتفَعُه - أحرَصَ منه على ما أبيحَ من غيرِ علةٍ ولا سببٍ إلا امتهاناً ما كثر عليه ، واستطرافاً ما قلَّ عنده ؟ ولم أقبلَ على مَنْ ولى عنه وولى عمن أقبلَ عليه ؟ ولم قالوا : إذا جُدَّتْ المسألةُ جدُّ المنعِ ؟ وقال الشاعر :

الحرُّ يُلْحَى والعصا للعبيدِ وليس للمُنحِفِ مثلُ الرُّدِّ

ولم صار يَتَمَنَّى الشَّيْءَ وَيَنْذُرُ فِيهِ النُّذُورَ ، وَيَتَقَطَّعُ إِلَيْهِ شَوْقًا ، فإِذَا ظَفِرَ بِهِ صَدُّ عَنْهُ وَأَخْلَقَ عِنْدَهُ ؟ وَلَمْ زَهْدِ الْمَلُوكُ فِيمَا فِي أَيْدِيهِمْ وَرَغِبُوا فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ ؟

فنقول : إن الله تبارك وتعالى جعل لكل نفس مبلغاً من الوُسْع لا يمكنها تجاوزه ، ولا تتسع لأكثر منه . فكان معها فيما دون الوُسْع الفقرُ وخوفُ الإخوان ، وفيما تجاوزه عزُّ الغنى وأمنُ العُدْم . وبهذا وبمثله من البخل والحرص استخفَّت من احتاج إليها ، وأعظمت من استغنى عنها . وجعلها تواقَّةً مشتاقَّةً ، متطرِّفةً ملالةً ، كثيرة التزاع والتقلب ، تستحکم عليها الفتنة ، ويُبلى خيرها [من شرها] وصبرها من جزعها . ولولا هذه الخلال سقطت المِحَن ، فهي تعظم القليل بالضرورة إليه إن كان من أقبواتها ، أو لشدة التزاع والشوق إن كان من طُرف شهواتها ، فإن صنوف الشهوات كثيرة ، ولكلِّ صنفٍ منها أهل لا يحفلون بما سواه . وتتعجب من الغريب النادر ، ويضحكها البديع الطاريء . إلا أنه إذا كثر الغريب صار قريباً ، وإذا تجاوز المطلوب مقدارٌ وسعها وحاجتها فصار ظهرياً وفضلاً استخفَّت به وقلَّ في أعينها كثيره . وأعظم الأشياء عندها قدرًا ما اشتدَّ إليه الفقرُ والحاجة وإن قلَّ قدره ، وأهونها عليها ما استغنى عنه وإن عظم خطره . وجعل لما تنوق إليه واشتاقه مكاناً من قواها ، له . فإذا امتلأ ذلك المكان سروراً ، وقضى ذلك الأربُّ وطراً مما كا طمَح إليه ، وروِيَ مما كان ظامئاً إليه ، انصرف عنه وقلاه ، وحال عشقه بُغضاً ، وشوقه ملالاً .

والعلة في ذلك : أن الدنيا دارُ زوالٍ وملالٍ ، ليس في كيانها أن تثبت هي ولا شيء مما فيها على حالٍ واحدة ، وإنما الثبوت الدائم لدارِ القرار . فالسامة تلحقها في محبوبها ، كما يصيب المتهوى من الطعام والشراب والباه ، فإنه ليس شيء أبغض إلى من يتناهى فيه إلى بغايته ، من النظر إلى ناحيته ،

فضلاً عن ملابسته ، إلى وقت عودة السبب الأول .

فإذا كانت الطبائع تتشابه ، ولكل حاسة قوة ، فإذا امتلأت تلك القوة من محسوسها لم تجد لها وراءه طعاماً ولا ريحاً ، وعاد عليها الضرر . فبعض النظر يُعمى ، والصوت الشديد يُصم ، والرائحة المُتنتة تُبطل الشم ، والأطعمة الحارة المُحرقة تبطل حاسة اللسان .

وتتطرف كل واحدة منها ، فبين الطيب عند من بعد عهده [به] ، والجماع والسمع ، وبين من هو مغموس فيه بون بعيد جداً ، في الحلاوة وحسن الموقع . كل ذلك ما لم يأت المال والعلم ، فإنه كلما كثر كان أشهى وأعجب ، لأن قصد الناس له ليس لطلب مقدار الحاجة وسد الخلة كما يريد أهل القناعة والزهادة ، وإنما يراد لقمع الجِحرص ، والحرص لا حد له ولا نهاية ، لأنه سعى لا لحاجة ، وإيضاع لا لبغية .

وهكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لسوآن لابن آدم واديين من ذهب لا يتغى إليهما ثالثاً . ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب » .
وقال بعض الحكماء :

من كان لا يغنى بما يغنيه فكل ما في الأرض لا يغنيه

قال الله عز وجل : ﴿ وتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ . . . وقال : ﴿ وإنه

لحبُّ الخير لشديد ﴾ . وقال الشاعر :

والناس إن شِيعتْ بطونهم فعيونهم في ذاك لا تشبع

فأما الحديث الذي جاء : « لا يشبع أربع من أربعة : أرض من مطر ،

وعين من نظر ، وأنثى من ذكر ، وعالم من علم » . . فإن العين لا تشبع في

الجملة كما لا يشبع الخيشوم من الاستنشاق . فأما من صنف مما يراه دون

صِنْفٍ ، فَإِنَّهُ يَشْبَعُ وَيَرَوِي ، وَيَصْدُ وَيَصْدِفُ إِلَى غَيْرِهِ .

وَأَمَّا الْعِلْمُ فَإِنَّهُ أَوْسَعُ مِنْ أَنْ يَحَاطَ بِهِ ، فَمَنْ طَلَبَهُ لَشَرَفِهِ وَفَخْرِهِ فَإِنَّهُ لَا حُدَّ لَهُ وَلَا نَهَايَةَ ، وَلَمْ يَزِدْ لَهُ طَلِباً إِلَّا أَزْدَادَ فِيهِ رَغْبَةً . وَمَنْ طَلَبَ مِنْهُ مَقْدَارَ كِفَايَتِهِ وَحَاجَتِهِ كَفَاهُ مِنْهُ الْيَسِيرُ . عَلَى أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ مِنْ كَثْرَةِ عِلْمِهِ أَنْ يَرَى فِيهِ الْغِنَى وَالْكَبْرِيَاءَ أَيْضاً . وَقَدْ يُمَلُّ كَمَا يَمَلُّ كُلُّ شَيْءٍ . وَتَمَلُّ الْعَيْنُ أَيْضاً مِنْهُ وَمِنْ الْمَالِ .

وقيل : اثنان منهومان : طالب علم وطالب دنيا . وهذه القضية تدل على الخروج عن العقل ، لأن النهم تجاوز القدر .

وأما الحرص على الممنوع الذي لا يتفجع به ، والعجب مما يتعجب من مثله ، فليس من أخلاق العقلاء . وما لم يكن في أخلاقهم فلا نظر فيه ولا قياس عليه ، وإنما ذلك فعل من استوحش من الحجّة ، وشرد عن علم العلل والأسباب .



[٧ - أكثر الأمور عرضة لإفشاء السر]

وإفشاء السر إنما يوكل بالخبر الرائع ، والخطب الجليل ، والدفين المغمور ، والأشنع الأبلق ، مثل سر الأديان لغلبة الهوى عليها ، وتضاغن أهلها بالاختلاف والتضاد ، والولاية والعداوة . ومثل سر الملوك في كيد أعدائهم ومكنون شهواتهم ومستور تسديراتهم ، ثم من يليهم من العظماء والجلّة ، لنفاسة الملوك على العوام ، وأتهم ساء مظلة عليهم ، أعينهم إليها سامية ، وقلوبهم بها معلقة ، ورغباتهم ورهباتهم إليها مصروفة . ثم عداوات الإخوان ، فإنما صارت العداوة بعد المودة أشد لأطلاع الصديق على سر صديقه ، وإحصائه معاينه ، وربما كان في حال الصداقة يجمع عليه السقطات ويحصى العيوب ، ويحتفظ بالرقاع ، إرصاداً ليوم النبوة ، وإعداداً لحال

وقد شكوا بعض الملوك تنقيب العوام عن أسرار الملوك فقال :

ما يريد الناس منا ما ينام الناس عنا
لو سكنا باطن الأر ضل كانوا حيث كنا
إنما همهم أن ينشروا ما قد دفنا

ولم نرى حب الطعن على الملوك ، والتجسس على أخبارهم ، وعشق
نشر المعاييب ، واستحلال الغيبة ، ظاهراً في طباع الناس لا يكاد ينجو منه
أحد منهم إلا من رجح حلمه وعظمت مروءته ، وظهر سُؤدده ، واشتد ورعه ،
حتى قال بعضهم : « الغيبة فاكهة النساك » .

وروا عن بعضهم أنه قال : « الفاسق لا غيبة له » .

وقال آخر : « أترعون من ذكر الفاسق ؟ اذكروه يعرفه الناس » .



[٨ - الغيبة] مركز تحقيقات كويت علوم إسلامي

ولم نر الله جل ثناؤه رخص في اغتياب مؤمن ، بل ضرب المثل في
الغيبة بأكره ما تكرهه النفوس ، وما تختار منه الموت على الحياة ، فقال :
﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَعضُكُمْ بعضاً أَيحبُّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً
فكرهتموه ﴾ .

واغتياب الناس جميعاً خطة جور في الحكم ، وسقوط في الأهمة ،
وسخافة في الرأي ، ودناءة في القيمة ، وكلفة عريضة ، وحسد ونفاسة قد استحوذت
على هذا العالم وغلبت على طبائعهم ، وتوكدت لسوء العادة عندهم ، ولعلو الشر
على الخير ، وكثرة الدغل والنغل والحسد في القلوب . فلست ترى منها
ناجياً . إما ناظر بعين عدل وإنصاف ، فهو يرى ما ينكر فيبدو في وجهه

ولسانه . وإما ناظرٌ بعين البغضاء والعداوة فهو كثيراً ما يجد من العيوب في
عدوه ما يُعِينُهُ على التخرُّص عليه فيقربها ويزيد فيها . وإن عَدِمَ الحقَّ تقول
وقبح الحسن ، وزاد في قبح القبيح .

والحديث كله - إلا ما لا يال به - ذكرُ الناس ، ولغوٌ وخطل ، وهجر
وهذاء ، وغيبةٌ وهَمَزٌ ولمز .

وقال بعض الحكماء لابنه : يا بُنَيَّ ، إنما الإنسانُ حديثٌ ، فإن استطعتَ
ان تكون حديثاً حسناً فافعل .

وكلُّ سرٍّ في الأرض إنما هو خبرٌ عن إنسان ، أو طيٌّ عن إنسان ، فله
في الغيبة أكثر الحفظ ، وجُلُّها كلفةٌ لا ضرورة ، يُرى صاحبها أنه قد أهمل
محاسبة نفسه ، وغفر ذنوبها وألغى عيوبها ، وقصدَ قُصْدَ غيره ، فتشاغلَ عما
يعنيه بما لا يعنيه ، فأنكر أقواله وأفعاله ، وهجر تدبيره ، وتعجب من مقابحه ،
وجهدَ نفسه في تفقدِ أموره . ليس ذلك عن عنايةٍ بصلاحه ، ولا محبةٍ لتقويمه
وتهذيبه ، ولا أنه مسيطرٌ عليه ولا محمودٌ عنده على ما عُني به من شأنه ، بل
هو عنده عين المذموم .

وهذا جُلُّ حديث البشرِ وشُغلهم في الليل والنهار .

قال بعض الحكماء : فضول النظر تدعو إلى فضل القول ، وفضول
الخواطر تبعث على اللهو والخطل .

[٩ - العدل]

ولو كان الرجل لا يتكلم إلا بما يعنيه ، ولا يتكلف ما قد كُفِيه ، قلُّ
كلامه . ولو حَكَمَ العَدْلُ في أموره ، وفيما بينه وبين خالقه ، وبينه وبين إخوانه
ومعامله ، لطاب عيشه وخفت مؤونته والمؤونة عليه ، فإن الله تبارك وتعالى لم

يَخْلُقُ مِذَاقًا أَحْلَى مِنَ الْعَدْلِ ، وَلَا أَرْوَاحَ عَلَى الْقُلُوبِ مِنَ الْإِنْصَافِ ، وَلَا أَمْرًا مِنَ الظُّلْمِ ، وَلَا أَشْعَاقَ مِنَ الْجَوْرِ .

وقال بعض المتقدمين : « إنما يعرف الظلم من حكم به عليه » . ومن استعمل العدل دله على أن الناس يجدون من طعمه وطعم الظلم إذا فعله بهم مثل الذي يجد إذا ظلم ، فكره لهم ما كره لنفسه ، فأنصف ولم يظلم .

ويتظالم الناس فيما بينهم بالشره والحرص المركب في أخلاقهم ، فلذلك احتاجوا إلى الحكام - وقد أطلق لهم تصريح أخلاقهم وأماناتهم - التي ردت إليهم بالأحكام فيها ، ما جنيته عليهم أكثر مما يطالبهم به الخصوم .

وقال بعض الحكماء : إن من أصعب الأعمال إنصافك في نفسك ، ومواساتك أخاك في مالك ، وذكر الله . أما إني لا أعنى قول سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر - وإن ذلك لمن ذكر الله - ولكن ذكره عنده ما يعرض من الأمور ، فإن كان طاعة لله فعلته ، وإن كان معصية لله اجتنبته .

مرکز تحقیقات کتب و تفسیر علوم اسلامی

وروى عن بعضهم أنه قال : « ثلاثة في ظل عرش الله يوم لا ظل إلا ظله : رجل لم يعب أخاه بعيب فيه مثله حتى يصلح ذلك العيب من نفسه ، فإنه لا يصلحه حتى يهجم على آخر ، فتشغله عيوبه عن عيوب الناس . ورجل لم يقدم يداً ولا رجلاً حتى يعلم : أفي طاعة الله هو أم في معصيته ؟ ورجل لم يلتمس من الناس إلا مثل ما يعطيهم من نفسه . أما تحبون أن تُنصفوا » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رحم الله عبداً أنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله ، وشغله عيبه عن عيوب الناس » .

وقال عيسى بن مريم : « يا بني إسرائيل ابرى أحدكم القذاة في عين أخيه ويغيب عن الجذع المعترض في عينه » .

[١٠ - الفضول]

وقيل لعيسى بن مريم : ما أفضل أعمالك ؟ قال : تركى ما لا يعنيني .

وقال عمرو بن عبيد : أعيّنى ثلاثٌ خلال : تركى ما لا يعنيني ، وديرهم من جلّه ، وأخ احتجت الى ما في يديه بذلّه لي .

وما أحقّ من أحصيت الفاضله وليس من قولٍ يبدر منه إلا لسيه رقيب عتيد ، ومن أحصيت عليه مشاقيل الذرّ واستشهد عليه جلته وجوارحه - أن يضبط لسانه .

وقد جاء في بعض الآثار : من عدّ كلامه من عمله قلّ كلامه إلا فيما لا يعنيه .

وكلّ امرئٍ فحسب نفسه ، غير مأخوذ بغيره ، وهو الوحيد دون الأهل والولد والقراة . وقال الله جلّ ثناؤه - وقوله الحقّ - ﴿ كُلُّ أَمْرٍ إِيمًا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ . وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ .

وليس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا مع السيف والسوط .

وقال بعض الحكماء : شيان لا صلاح لأحدهما إلا بالآخر : اللسان والسيف .

وانت إذا تأملت أكثر ما يتاجى به المتحدّثون وجدت أكثر السائلين يسأل عما لا يعنيه ، ويكثرث لما لا يكرهه ، ويعنى بما لا ينفعه ولا يضره ، وأكثر المجيبين يُجيب ولم يسأل ، ويتكلّف ما لا يعلم ، ولو قال له قائل : من سألك لافتضح ، ولو حاجه فيما ادعى ووقفه لانقطع . قال الله عز وجل : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ .

ومرّ هشامُ بن عبد الملك ببعض أهل الكُلفة والفضول ، وعليه حُلّة ذبّالة يسحبها في التُّراب ، فقال له المتكلف : يا هذا ، إنك قد أفسدت ثوبك . قال : وما يضرُّك من ذلك ؟ قال : ليتك ألقيتَه في النار . قال : وما ينفعك من ذلك ؟ فأفحمه غاية الإفحام .

ولو تهيأ للمتكلِّفين في كل وقتٍ مثلُ صرامة هشام لآزدجر من به حياءُ منهم ، ولقلّت الفضول والكُلف والغيبة .

[١١ - عودة الى الغيبة]

قالوا : وليس من أحد أذلّ من مغتاب ، لأنه يُخفي شخصه ، ويُطامن جسّه ، ويغض من صوته ، ولا يزيدُ بما يناله من ذلك إلا بأن يرفع من قدر خصمه ويعظم من شأنه .

قال معاوية : أتدري من النبيل ؟ هو الذي إذا رأته هبته ، وإذا غاب عنك اغتبهته .

وهي لعمرى سبيلُ العظماء عند العوام ، والملوك عند الرعيّة ، والسادة عند العبيد .

فلم يأخذ المغتاب ممن اغتابه شيئاً بعضيته إياه إلا والذي أعطى من الهيبة عند حضوره أكثر منه .

ولو كان المغتاب لا يستتر من الغيبة إلا ممن يخاف سطوته ، كان أعذر . ولكن اللؤم المتمكّن منه يحمله على اغتياب عبده وأمنه ، فضلاً عن كفته ونظيره .

ويغتتاب الرجل عند عدوّه والمشاجين له ، مساعدةً له بالسُخف ، وتقرباً إليه بالمهانة والضعف ، من غير أن يكون له عليه طول ، أو يلتبس منه على ما

تقرب به إليه جزاء أو شكوراً .

ثم لعله ينكفيء الى الذي اغتابه وقصبه من ساعته ويومه ، فيعطيه في عدوه الذي اغتابه عنده أيضاً مثل ذلك وأكثر منه ، لا لعله أيضاً ولا مرفق ولا ربح أكثر من الذلة التي يجدها في نفسه ، والضعف في مئته ، كما يعظم الغني بغير ثمن ، ويحتقر الفقير بغير سبب ، فمتى كوشف أو عوتب لئسته ذلة أخرى من الكظة بالمعاذير الكاذبة ، والاعتصام بالآيمان الفاجرة . ومن كانت هذه دُرْبته فهو حري أن يُطْلَع على دِخْلة أمره ، فلا يُقْبَل منه عذر ، ولا يُصَدَّق في قول ولا حلف ، وقد تسربل الذلة ، وتدرع الخضوع .

وليس من سُوس النفسِ الكريمة الشهمة ، أن تلقى الناس بخلاف ما يتخلقون به ما لم تأت ضرورة يحتاج فيها الى كيد وغييلة ، او مكر وحيلة ، ويثار بالغبية فيها الرأي الاصيل من مكانه ، فيفعل ذلك العاقل فيما يحل له ويحسن به ، بعد أن تُعييه الحيلة في استصلاح ذلك العدو بالرفق والملاينة .

وإنما قيل : « قسِّلْ مِنْ اعْتِذَارِ الْإِكْذِيبِ » ، لكثرة النطف في الناس وضعف أنفسهم على الإقرار بالذنب ، فلا ذلة الضعف الثاني في الاعتذار نهت عن كلفة الضعف الأول في الاغتياب ، ولا كلفة الضعف الأول صانت عن ذلة الضعف الثاني .

وعلى أن أكثر من يُعْتَدِرُ إليه بقابلٍ للعدر على حقيقة وإن أظهر القبول ، لما جرّب من سخاء الناس بالآيمان ، وبعدهما من الإقرار بالذنب ما لم تأت حجة واضحة ، ودليل شاهد عدل .

وإذا كانت هذه سبيل المعتذر إليه فيحق على المعتذر - إن كانت في نفسه قيمة - أن لا يعتذر إلا من يحب أن يجد له عُذراً ، ولا يعجل الى الميّن وهو لا يجد للحجة مكاناً .

وأكثر من يُعتذر إليه إنما يُفعل ذلك به خوفاً من سقطته ، وإبقاء
لسلطانه .

والمتفقهون يتأولون في الأيمان السلطانية ما يلحق بها عند السلطان
الهمة ، ويلزمهم الظنة ، سيما في الأمور التي في الإقرار بها إباحة الدّم
والمال ، وهتك السُّتر .

ولا حسم لهذا الداء إلا باطراح الفضول ، وسلامة اللسان من أن يبلغ في
الأعراض ، ويستسرّ بالعصية والبهت .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المسلم من سلم المسلمون من
لسانه ويده » . ومن لم يسلم الناس منه فليس سالماً من نفسه .

[١٢ - حفظ اللسان]



وقال القائل : احرس أخاك إلا من نفسه .

وقالوا : مقتل المرء بين فكيه .

وكتب على بعض أبواب المدن بالسند : احفظ رأسك .

وقال الأوّل : قد تصل النصال إلى الإخوان فتستخرج ، وأمشال النصال
من القول إذا وصلت إلى القلب لم تستخرج أبداً .

وقال بهرام ، وسمع في الليل صوت طائر فتحدها بسهم وهو لا يراه ، إلا
أنه تتبع الصوت فصرعه ، فلما صار بين يديه قال : والطير أيضاً لو سكت كان
خيراً له !

وقيل : ما شيء أحق بطول سجن من لسان .

وقيل : يسأل اللسان الأعضاء في كل يوم فيقول : كيف أنتن ؟ فيقلن :

بخير إن تركتنا !

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل : « وَهَلْ يَكْبُ
النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي النَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ » .

وقال عيسى عليه السلام : « أَعْمَالُ الْبَرِّ ثَلَاثَةٌ : الْمَنْطِقُ ، وَالنَّظَرُ ،
وَالصُّمْتُ . فَمَنْ كَانَ مَنْطِقُهُ فِي غَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ فَقَدْ لَغَا ، وَمَنْ كَانَ نَظْرُهُ فِي غَيْرِ
اعْتِبَارٍ فَقَدْ سَهَا ، وَمَنْ كَانَ صَمْتُهُ فِي غَيْرِ تَفَكُّرٍ فَقَدْ لَهَا » .

فانظر بأيّ الأمرين قطعتَ عمرَكَ ؟ أباالحكمة أم باللغو؟ وانظر كيف
وصف الله تعالى من أتى عليه بخير من عباده فقال : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ
مُعْرِضُونَ ﴾ ، وقال : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ ، وقال : ﴿ وَإِذَا
مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرَّوْا كِرَامًا ﴾ . وصانَ عنه أَسْمَاعُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالسَّنْتِهِمْ فَقَالَ :
﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الْعِبَادَةُ عَشْرَةٌ أَجْزَاءُ ، تِسْعَةٌ مِنْهَا
فِي الصُّمْتِ » .

وقال علي بن أبي طالب : « أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ الصَّبْرُ وَانْتِظَارُ الْفَرْجِ » .

وقال بعض الحكماء : لو لم يكن للصَّامت في صمته إلا الكفاية لأن
يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ وَيُحْكِي عَنْهُ مُحَرَّفًا فَيُضْطَرُّ إِلَى أَنْ يَقُولَ : لَيْسَ هَكَذَا قُلْتُ ، إِنَّمَا
قُلْتُ كَذَا وَكَذَا . فَيَكُونُ إِنْكَارُهُ إِقْرَارًا ، وَاعْتِرَافُهُ بِمَا حُكِيَ عَنْهُ شَاهِدًا لِمَنْ
وَشَى بِهِ ، وَادِّعَاءٌ لِتَحْرِيفٍ غَيْرِ مَقْبُولٍ مِنْهُ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَ بَيِّنَةٌ لَهُ . لَكَانَ ذَلِكَ مِنْ
أَكْثَرِ فَضَائِلِ الصُّمْتِ .

وربما ذكر رجلُ الله تبارك وتعالى ، فكان ذلك الذِّكْرُ إثمًا له ، لأنه قد
يُدْخِلُهُ فِي بَابِ تَفْخِيمِ الذَّنْبِ الْحَقِيرِ وَالْإِغْرَاءِ وَالتَّحْرِيفِ ، فَيَسْفِكُ الدَّمَ
الْحَرَامَ ، أَوْ يَعْظُمُ الْجَرْحَ الصَّغِيرَ . بَلْ رَبَّمَا ضَحَكَ وَتَبَسَّمَ ، فَأَغْرَى وَحَرَّضَ ،
وَأَثِمَ وَأَوْبَقَ . قَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ :

فإن شئت أدلى فيكما غير واحد مجاهرة أو قال عندي في سر
فإن أنا لم أمر ولم أنه عنكما ضحكت له حتى يلج ويستشري

وقالت العرب : « من كفي شر لقلقه وذذبه وقببه فقد كفي الشر » .

وهذا باب لولا أن نشغل القارئ لهذا الكتاب بغير ما قصدنا إليه وعزماً عليه لأتينا عليه . وهو كثير موجود لمن طلبه ، وجملة واحدة فيها كفاية ، فإنما تختلف الألفاظ التي تجعل كسوة لتلك المعاني . وإلا فإنك إذا نظرت إلى جميع شُور الدنيا وجدت أولها كلمة عارت فجنت حرباً عواناً ، كحرب بكر وتغلب ابني وائل ، وعبس وذبيان ابني بغيض ، والأوس والخزرج ابني قبيلة ، والفيجار الأول والثاني ، وعامة حروب العرب والعجم .

وإذا تأملت أخبار الماضين لم تحص عدد من قتله لسانه وكان هلاكه في كلمة بدرت منه .

وليس العجب ممن أفضى بسرّه إلى من ليس له بموضع ، ممن تقدّمت معرفته وزالت الشكوك عنه في أمره ، ولكن العجب عين العجب ممن استنام بسرّه إلى من لم تقدّم معرفته ومن أنس إليه عن اللقاء واللّقاءتين ، دون معرفة العين والاسم ، والسبب والنسب ، فانخدع في أول وهلة وغبن عقله قبل أن يُغبن دينه وماله ، وتضاعفت عليه البلية بطول الحسرة ، فإن البلاء عارض ومكتسب ، فكان العارض السماوي وما حولته الأقدار سراً بعد اجتهاد صاحبه رأيه ، وحيلته في طلب الخير . وصواب تدبيره فيه أسهل وأيسر على العاقل المعتاد للصواب ، وإن كان كل مكروه مرّاً بشعاً . وإنما الكرب اللازم والداء العياء ما اجتمع على صاحبه مع الفجيرة والحاجة ، والنقص والذلة ، غم الندامة والأسف على ما فرط منه ، إذ كان الجاني على نفسه بيده .

ولهذا الكلام نظر نكره التطويل به ، والمعنى واحد ، وإنما نحتاج من

هذا ومثله - مما قدّمت ذكره في الكتاب - إلى حفظ السرّ ووزن القول . وإلى هذا أجرينا ، وله قصدنا .

ولو اقتصرنا في هذا الكتاب على حرفٍ مما فيه ، لكان بإذن الله كافياً لمن له لبٌ وعقل ، لكنّ الاحتجاج أوكد ، والإيضاح أبلغ ، والحظّ في هذا القول كلّهُ لمن عقله والأخذ به ، أوفرُ [منه] لمن قاله ولم يعمل بقوله ، لأنه إنما يجتنى ثمرة الصواب ، ويختلف برّفته من صدق قوله بفعله ، فإنّ الحكمة قول وعمل ، وإنما حظّ القائل ما لم يستعمل علمه وقوله حظّ الواصفين ، وحسن الصفة يزول بزوالها ، وينقطع بانقطاعها ، ومدتها - إلى ان يملها القائل والسامع - يسيرة .

والأفعال المحمودة متصلة النفع والشرف والفضيلة في الحياة وبعد الوفاة ، ومذخورٌ للاعقاب ، وحديثٌ جميلٌ ، ونشرٌ باقٍ على مرّ الجديدين . وأكثر من ذلك كلّهُ توفيقُ الله وتسدّيقه ، فإنّ القلوبَ في يده ، والخيراتِ مقسوماتٌ من عنده . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

مرکز تحقیقات کتب وعلوم اسلامی

تم كتاب كتمان السر من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، بعون الله وتأييده ، ومشيئته وتوفيقه . والله الموفق للصواب برحمته .

والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين وسلامه .

١ - هامش كتاب كتمان السر وحفظ اللسان

- (١) « ووجدتك في خلال ذلك على سبيل تضييع واهمال لامرين ، الامران هما كتمان السر وحفظ اللسان .
- التعجب والاعجوبة هو ما خرج عن العادة والطبع او السجية .
- (٢) « لا شيء اصعب من مكابدة الطبايع ومغالبة الاهواء » يعني ان طبع الانسان هو افشاء السر . وهو يؤيد مذهب الطبيعي في الاخلاق ، الاخلاق بنظر الجاحظ وليدة الطبع لا التربية .
- « وانما سمي العقل عقلاً وحجراً . . . » لاحظ كيف يفهم العقل هنا بالمعنى الخلقى لا المعرفى .
- « القلب خزانة مستحفظة للخواطر والاسرار » يعني ان الجاحظ اعتقد مثل الفلاسفة المشائين ان العقل مركزه القلب .
- (٣) « لأن من طبع الانسان محبة الاخبار والاستخبار » كل شيء يرجعه الجاحظ الى الطبيعة . وقد وردت عنده هذه الفكرة في اكثر من مكان من كتبه . راجع حجج النبوة ، والمعرفة وشروط الخبر الصحيح .
- (٤) الفرق بين السر والعلن هو مجاوزة السر صدر صاحبه الى اذن واحدة . واللوم يقع على صاحب السر اكثر مما يقع على من نقله .
- (٥) الناس المولعون بالاسرار الاولاد والنساء وعمال السلطان والنامون والمفتابون .
« رجل يساوي الف رجل ، ورجل لا يساوي رجلاً » معناها ان الفضل قليل .

(٦) « كل ممنوع مرغوب » يفسره الجاحظ تفسيراً طبعياً بالشهوات التي فطر عليها الانسان ، كلما منعت من حاجتها ازدادت رغبته فيها . كالشهوة الى الطعام والشراب والجماع الخ .

« الطبائع تتشابه ، ولكل حاسة قوة ، فاذا امتلأت تلك القوة من محسوسها لم تجد لها وراءه طمعاً ولا ريحاً وعليها بالضرر » . المنع يضرم نار الشهوة ، والافراط في اشباع الشهوة يورث التخمة والضرر .

(٧) قوله « مثل سر الاديان لغلبة الهوى عليها وتضاغن اهلها والاختلاف والتضاد ، والولاية والعداوة » . يدل على سيطرة الهوى والعاطفة على اصحاب الاديان ، وعلى العداوة بينهم ، وفي الماضي والحاضر .

(٨) يستعين الجاحظ في تدعيم آرائه بالقرآن والاحاديث النبوية والحكم والشعر . ولعل أجمل ما جاء في الغيبة الآية الكريمة ﴿ ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً ، يجب احدكم أن يأكل لحم اخيه ميتاً فكرهتموه ﴾ (الحجرات ، ١٢) .

(٩) العدل ضد الظلم . اسباب الظلم هي الأنانية والحرص المركب في أخلاق الناس . وربما ساق الجاحظ الى الكلام على العدل اعتباره الغيبة ظلماً بحق الآخرين الذين نغتابهم .

(١٠) الفضول هو السؤال عما لا يعنيننا والاهتمام بما لا يتفعنا ولا يضرنا » .

(١١) العودة الى الحديث عن الغيبة مثال على استطراد الجاحظ وتركه الموضوع الذي يتكلم فيه الى موضوع آخر ثم العودة الى الموضوع الاول .

- تأويل الفقهاء للأيمان السلطانية . إذ يميزون الكذب فيها مخافة سفك الدم .

(١٢) حفظ اللسان يعني قلة الكلام أو الصمت . وقد بحث الجاحظ هذا الموضوع في اماكن عديدة في كتبه . راجع مثلاً مقدمة كتاب البيان والتبيين .

- ٢ -

الحاسد والمحسود

مركز تحقيقات كميوتور علوم ارسدي

[١ - موضوع الكتاب]

وَهَبَ اللهُ لَكَ السَّلَامَةَ ، وَأَدَامَ لَكَ الْكِرَامَةَ ، وَرَزَقَكَ الْإِسْتِقَامَةَ ، وَرَفَعَ
عَنْكَ النُّدَامَةَ .

كُتِبَتْ إِلَيَّ - أَيُّدُكَ اللهُ - تَسْأَلُنِي عَنِ الْحَسَدِ مَا هُوَ؟ وَمِنْ أَيْنَ هُوَ - وَمَا
دَلِيلُهُ وَأَفْعَالُهُ؟ وَكَيْفَ تُعْرَفُ أُمُورُهُ وَأَحْوَالُهُ ، وَبِمِمْ يُعْرَفُ ظَاهِرُهُ وَمَكْتُومُهُ ، وَكَيْفَ
يَعْلَمُ مَجْهُولُهُ وَمَعْلُومُهُ ، وَلِمَ صَارَ فِي الْعُلَمَاءِ أَكْثَرَ مِنْهُ فِي الْجُهَلَاءِ؟ وَلِمَ كَثُرَ
فِي الْأَقْرَبَاءِ وَقَلَّ فِي الْبَعْدَاءِ؟ وَكَيْفَ دَبَّ فِي الصَّالِحِينَ أَكْثَرَ مِنْهُ فِي الْفَاسِقِينَ؟
وَكَيْفَ خُصَّ بِهِ الْجِيرَانُ مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ أَهْلِ الْأَوْطَانِ .

[٢ - تعريف الحسد]

وَالْحَسَدُ - أَبْقَاكَ اللهُ - دَاءٌ يَنْهَكَ الْجَسَدَ ، وَيُفْسِدُ الْوَدَّ ، عِلَاجُهُ عَسِيرٌ ،
وَصَاحِبُهُ ضَجْرٌ . وَهُوَ بَابٌ غَامِضٌ وَأَمْرٌ مُتَعَدِّرٌ ، وَمَا ظَهَرَ مِنْهُ فَلَا يُدَاوَى ، وَمَا
بَطَنَ مِنْهُ فَمُدَاوِيهِ فِي عَنَاءٍ . وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « دَبُّ
إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأَمْرِ مِنْ قِبَلِكُمْ : الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ » . وَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ
لِجَلْسَائِهِ : أَيُّ النَّاسِ أَقْلُ غَفْلَةٌ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ : صَاحِبُ لَيْلٍ ، إِنَّمَا هُمُ أَنْ

يُصبح . فقال : إنه لكذا وليس كذا . وقال بعضهم : المسافر ، إنما همُّه أن يقطع سفره . فقال : إنه لكذا وليس كذا . فقالوا له : فأخبرنا بأقلِّ الناس غفلة . فقال : الحاسدُ ، إنما همُّه أن ينزع الله منك النعمة التي أعطاكها ، فلا يغفل أبداً .

[٣ - أسباب الحسد]

ويروى عن الحسن أنه قال : الحسد أسرع في الدُّين من النار في الحطب اليابس .

وما أتى المحسود من حاسده إلا من قبل فضل الله عنده ونعمه عليه قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴾ .

والحسد عقيدُ الكُفر ، وخليفُ الباطل ، وضدُّ الحقِّ ، وحرِبُ البيان . فقد ذمَّ الله أهل الكتاب به فقال : ﴿ وَذَكَرْنَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ﴾ .

[٤ - عواقب الحسد]

منه تتولد العداوة ، وهو سبُّ كلِّ قطيعة ، ومُنتج كلِّ وحشة ، ومفرِّق كلِّ جماعة ، وقاطع كلِّ رحمٍ بين الأقرباء ، ومُحدث التفرُّق بين القرناء ، ومُلحق الشرِّ بين الخلطاء ، يكمن في الصدر كمنون النار في الحجر .

ولو لم يدخل على الحاسد بعد تراكم الغموم على قلبه ، واستكمان الحزن في جوفه ، وكثرة مَضَضه ووسواس ضميره ، وتنغص عمره وكدر نفسه وكد عيشه ، إلا استصغاره نعمة الله عليه ، وسخطه على سيِّده بما أفاد غيره ، وتمنيه عليه أن يوجع في هبته إياه ، وأن لا يرزق أحداً سواه ، لكان عند

ذوي العقول مرحوماً ، وكان لديهم في القياس مظلوماً . [وقد قال بعض الأعراب : ما رأيت ظالماً أشبه بمظلومٍ من الحساد : نفسٌ دائم ، وقلبٌ هائم ، وحزنٌ لازم] والحاسد مخذول وموزور ، والمحسود محبوب ومنصور . والحاسد مغموم ومهجور ، والمحسود مغشي ومزور .

والحسد - رحملك الله - أول خطيئة ظهرت في السموات ، وأول معصية حدثت في الأرض ، خصَّ به أفضل الملائكة فعصى ربُّه ، وقايسه في خلقه ، واستكبر عليه فقال : ﴿ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ ، فلعنه وجعله إبليساً ، وأنزله من جواره بعد أن كان أنيساً ، وشوّه خلقه تشويهاً ، وموّه على نبيه تمويهاً نسي به عزم ربِّه ، فواقع الخطيئة ، فارتدع المحسود وتاب عليه وهدى ، ومضى اللعين الحاسد في حسده فشقي وغوى .

وأما في الأرض فابنا آدم حيث قتل أحدُهما أخاه ، فعصى ربُّه وأتكل أباه . وبالحسد طرّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين . لقد حمّله الحسدُ على غاية الفسوة ، وبلغ [به] أقصى حدود العقوق ، فأنساه من رجمه جميع الحقوق ، إذ ألقي الحجر عليه شادخاً وأصبح عليه نادماً صارخاً .

[٥ - رأي الحاسد في المحسود]

ومن شأن الحاسد إن كان المحسود غنياً أن يويّخه على المال فيقول : جمّعه حراماً ومنعه أثاماً . وألبَّ عليه محاويج أقاربه فتركهم له خصماً ، وأعانهم في الباطن وحمل المحسود على قطيعتهم في الظاهر وقال له : لقد كفروا معروفك ، وأظهروا في الناس ذمك ، فليس أمثالهم يُوصلون ، فإنهم لا يشكرون . وإن وجد له خصماً اعانه عليه ظلماً ، وإن كان ممن يعاشره فاستشاره غشاً ، أو تفضّل عليه بمعروفٍ كفره ، أو دعاه إلى نصرٍ خذله ، وإن

حَضَرَ مَذْحَه ذَمُّهُ وَإِنْ سُئِلَ عَنْهُ هَمَزَهُ ، وَإِنْ كَانَتْ عِنْدَهُ شَهَادَةٌ كَتَمَهَا ، وَإِنْ كَانَتْ مِنْهُ إِلَيْهِ زَلَّةٌ عَظَمَهَا ، [وَقَالَ : إِنَّهُ] يَحِبُّ أَنْ يَعَادَ وَلَا يَعُودَ ، وَيُرَى عَلَيْهِ الْعُقُودَ .

وَإِنْ كَانَ الْمَحْسُودَ عَالِمًا قَالَ : مَبْتَدِعُ ، وَرَأْيُهُ مُتَّبِعٌ ، خَاطَبُ لَيْلٍ وَمَبْتَغِي نَيْلٍ ، لَا يَدْرِي مَا حَمَلَ ، قَدْ تَرَكَ الْعَمَلَ ، وَأَقْبَلَ عَلَى الْحَيْلِ . قَدْ أَقْبَلَ بِوَجْهِهِ النَّاسَ إِلَيْهِ ، وَمَا أَحْمَقَهُمْ إِذْ انْتَالُوا عَلَيْهِ . فَقَبَّحَهُ اللَّهُ مِنْ عَالَمٍ مَا أَعْظَمَ بَلِيَّتَهُ ، وَأَقْلَ رِعَّتَهُ ، وَأَسْوَأَ طَعْمَتَهُ .

وَإِنْ كَانَ الْحَسُودَ ذَا دِينٍ قَالَ : مُتَّصِنٌ يَغْزُو لِيُوصِيَ إِلَيْهِ ، وَيَحِجُّ لِبَيْتِي بِشَيْءٍ عَلَيْهِ ، وَيَصُومُ لِقَبْلِ شَهَادَتِهِ ، وَيُظْهِرُ النُّسْكَ لِيُودَعَ الْمَالُ بَيْتِهِ ، وَيَقْرَأُ فِي الْمَسْجِدِ لِيُزَوِّجَهُ جَارَهُ ابْنَتَهُ ، وَيَحْضُرُ الْجَنَائِزَ لِيُتَعَرَفَ شُهْرَتَهُ .

وَمَا لَقِيَتْ حَاسِدًا قَطُّ إِلَّا تَبَيَّنَ لَكَ مَكْنُونُهُ بِتَغْيِيرِ لَوْنِهِ وَتَخَوُّصِ عَيْنِهِ وَإِخْفَاءِ سَلَامِهِ ، وَالْإِقْبَالِ عَلَى غَيْرِكَ وَالْإِعْرَاضِ عَنْكَ ، وَالِاسْتِثْقَالِ لِحَدِيثِكَ ، وَالْخِلَافِ لِرَأْيِكَ .

وَمَا تَحْتَمِلُ كَمَا تَرَى عَلَيْهِ رَسُودِي
وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي ، قَبْلَ نِفَاقِهِ ، نَسِيحًا وَحَدِيثَهُ لِحُجُودِ رَأْيِهِ وَيُؤَدِّهِ هَمَّتَهُ ، وَبُنَى شَيْمَتَهُ ، وَانْقِيَادِ الْعَشِيرَةِ لَهُ بِالسِّيَادَةِ ، وَادْعَانِهِمْ لَهُ بِالرِّيَاسَةِ . وَمَا اسْتَوْجَبَ ذَلِكَ إِلَّا بَعْدَمَا اسْتَجْمَعَ لَهُ لُبُّهُ ، وَتَبَيَّنَ لَهُمْ عَقْلُهُ ، وَافْتَقَدُوا مِنْهُ جِهْلَهُ ، وَرَأَوْهُ لِذَلِكَ أَهْلًا ، لَمَّا أُطِيقَ [لَهُ] حَمَلًا . فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدِمَ الْمَدِينَةَ ، وَرَأَى هُوَ عَزُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَمَخَ بِأَنْفِهِ فَهَدَمَ إِسْلَامَهُ لِحَسَدِهِ ، وَأَظْهَرَ نِفَاقَهُ . وَمَا صَارَ مُنَافِقًا حَتَّى كَانَ حَسُودًا ، وَلَا صَارَ حَسُودًا حَتَّى صَارَ حَقُودًا . فَحُمِقَ بَعْدَ اللَّبِّ ، وَجَهَلَ بَعْدَ الْعَقْلِ ، وَتَبَوَّأَ النَّارَ بَعْدَ الْجَنَّةِ .

وَلَقَدْ خَطَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَدِينَةِ فَشَكَاهُ إِلَى الْإِنصَارِ ،

فقالوا : يا رسول الله لا تلمه فاننا كنا عقدنا له الخرز قبل قدومك
لِتُتَّوَجَّهُ . ولو سلم المخدول قلبه في الحسد لكان من الاسلام بمكان ومن
السؤدد في ارتفاع ، فوضعه الله لحسده واظهر نفاقه ولذلك قال القائل :

طلت على الحاسد احزانه فاصفر من كثرة احزانه
دعه فقد اشعلت في جوفه ما هاج في حر نيرانه
العيب اشهى عنده لذة من لذة المال لخزانه
فارم على غاربه حبله تسلم من كثرة بهتانه

[٦ - حسد الجيران]

فصل منه : وذلك أن الجيران - يرحمك الله - طلائع عليك ، وعيونهم
نواظر إليك ، فمتى كنت بينهم مُعَدِّماً فَأَيَّسرت ، فبدلت وأعطيت ، وكسوت
وأطعمت ، وكانوا في مثل حالك فأتضعوا ، وسلبوا النعمة وألبستها [أنت] ،
فعمظمت عليهم بليّة الحسد ، وصاروا منه في تنغيص آخر الأبد . ولولا أن
المحسود بنصر الله إياه مستور ، وهو بصنعه محجوب لم يأت عليه يوم إلا كان
مقهوراً ، ولم تأت ليلة إلا وكان عن منافعه مقصوراً . ولم يمس إلا وماله
مسلوب ، ودمه مسفوك ، وعرضه بالضرب منهوك .

[٧ - الحسود لا يستطيع كتمان حسده]

فصل منه : وأنا أقول حقاً : ما خالط الحسد قلباً إلا لم يمكنه ضبطه ولا
قدر على تسجينه وكتمانه ، حتى يتمرد عليه بظهوره وإعلانه ، فيستعبده
ويستمليه ، ويستنطقه لظهوره عليه فهو أغلب على صاحبه من السيد على
عبده ، ومن السلطان على رعيته ، ومن الرجل على زوجته ومن الأسر على
أسيره .

وكان ابن الزبير بالصبر موصوفاً ، وبالدهاء معروفاً ، وبالعقل موسوماً ،
وبالمدارة منهوماً ، فأظهر بلسانه حسداً كان أضيئ عليه أربعين سنة لبني

هاشم ، فما اتسع قلبه لكتمانته ، ولا صبرَ على اكتامته ، لما طالت في قلبه طائلته أظهره وأعلنه ، مع صبره على المكاره ، وحمله نفسه على حثفها ، وقلة اكترائه والتفاته لأحجار المجانيق التي [كانت] تمرّ عليه فتذهب بطائفة من قومه ما يلتفت إليها .

حُدِّثَ بذلك عن عليّ بن مُشهر عن الأعمش ، عن صالح بن حَبَاب ، عن سعيد بن جُبَيْر قال : قَدْتُ ابنَ عباسٍ حتّى أدخلته على ابن الزُّبير ، قال : أنت الذي تؤنّبني ؟ قال : نعم ، لأنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ليس بمؤمن من بات شبعاناً وجارهُ طاووساً » . فقال له ابن الزُّبير : لمن قلت ذلك ؟ إنّي لأكتم بَعْضَكُمْ أهلَ البيت مُذْ أربعين سنة . فحسر ابن عباس عن ذراعيه كأنهما عَسِيْبَا نخل . ثم قال لابن الزبير : نعم فليبلغ ذاك منك ، ما عرفتُك .

ولقد أجلتُ الرأيَ ظهراً لِبطنٍ وفكرتُ في جوابه لابن عباس أن أجد له معنى سوى الحسد فلم أجده ، وكانت وخزةً في قلبه فلم يُبدِها . وفروعُ بني هاشم حول الحرم باسقة ، وعزوقُ دُوخَاتِهِمْ بين أطباقها راسية ، ومجالسُهم من أعاليها عامرة ، وبحورها بأرزاق العباد زاخرة ، وأنجمها بالهدى زاخرة . فلما خلت البطحاءُ من صنابيرها استقبله بما أكنّ في نفسه .

والحاسد لا يغفل عن فرصته إلى أن يأتي الموتُ على رِمته ، وما استقبلَ ابنَ عباسٍ بذلك إلا لما رأى عمرَ قَدَمه على أهلِ القَدَم ، ونظرَ إليه وقد أطاف به أهلُ الحرم ، فأوسعهم حُكماً ، وثَقَبوا منه رأياً وفهماً ، وأشبعهم علماً وجِلماً .

فصل منه : وكيف يصبر من استكنَّ الحسدُ في قلبه على أمانيه . ولقد كان اخوة يوسف حُلَماء ، وأجلَّة علماء ، ولذَهُمُ الأنبياء ، فلم يَغفَلُوا عَمَّا قَدِمَ في قلوبهم من الحسد ليوסף ، حتّى أعطوا أباهم الموائيق المؤكدة ، والعهود

المقلدة ، والأيمان المغلظة ، إنهم له لحافظون ، وهو شقيقهم وبضعة منهم .
فخالفوا العهود ووثبوا عليه بالظلم والقوة ، وألقوه في غيابة الجب ، وجاءوا
على قميصه بدم كذب ، فبظلمهم يوسف ظلموا أباهم ، طمعاً أن يخلو لهم
وجه أبيهم وينفردوا بحبه ، وظنوا أن الأيام تسليه ، ووجه لهم من بعد غمه
يلهيه ، فاسألوا عبرته واحرقوا قلبه . وكيف تقر اعين المحسودين بعد
يوسف وقد ملكه الله خزائن الارض بصبره على اذى حساده ومقابلته اياهم
بالعفو والمكافأة وحسن العشرة والمؤاخاة ، بعد امكانه منهم كما اتوه مختارين
رفدهم عليه خائفين وهم له منكرون ، فاحسن رفدهم ، واكرم قراهم ،
فاقروا له لما عرفوه بالاذعان ، وسألوه بعد ذلك الغفران ، وخرروا له سجداً
لما وردوا عليه وقدأ .

[٨ - معاملة الصديق الحسود]

فَإِذَا أَحْسَسْتَ - رَحِمَكَ اللَّهُ - مِنْ صَدِيقِكَ بِالْحَسَدِ فَأَقْبِلْ مَا اسْتَطَعْتَ مِنْ
مُخَالَطَتِهِ ، فَإِنَّهُ أَعُونَ الْأَشْيَاءِ لَكَ عَلَى مَسَالِمَتِهِ . وَحَصِّنْ سِرَّكَ مِنْهُ تَسَلِّمَ مِنْ
شُرِّهِ وَعَوَاتِقِ ضُرِّهِ . وَإِيَّاكَ وَالرَّغْبَةَ فِي مَشَاوِرَتِهِ ، وَلَا يَغْرُنْكَ خُدْعُ مَلَقِهِ ، وَبَيَانَ
ذَلَقِهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ حِبَائِلِ نِفَاقِهِ .
فَإِنْ أُرِدْتَ أَنْ تَعْرِفَ آيَةَ مِصْدَاقِهِ فَأَدْنِيَنَّ إِلَيْهِ مِنْ يُهَيِّنُكَ عِنْدَهُ ، وَيَذُمَّكَ
بِحَضْرَتِهِ ، فَإِنَّهُ سَيُظْهِرُ مِنْ شَأْنِهِ لَكَ مَا أَنْتَ بِهِ جَاهِلٌ ، وَمِنْ خِلَافِ الْمَوَدَّةِ مَا
أَنْتَ عَنْهُ غَافِلٌ . وَهُوَ أَلْحُ فِي حَسَدِهِ لَكَ مِنَ الدُّبَابِ ، وَأَسْرَعُ فِي تَهْرِيقِكَ مِنَ
السَّيْلِ إِلَى الْحَدُورِ .

وما أحب أن تكون عن حاسدك غيباً ، وعن وهمك بما في ضميره
نسياً . إلا أن تكون للذل محتملاً ، وعلى الدناءة مشتتلاً ، ولأخلاق الكرام
مجانباً ، وعن محمود شيمهم ذاهباً ، أو تكون بك إليه حاجة قد صيرت لك لسهام
الرماة هدفاً ، وعرضك لمن أراد غرضاً .

وقد قيل على وجه الدھر : « الحرّة تجوع ولا تأكل بشديها » .

وربّما كان الحسودُ للمصطنعِ إليه المعروفِ أكفَرَ له وأشدَّ احتقاداً ، وأكثر
تصغيراً له من أعدائه .

[٩ - لا خير يرتجى من الحسود]

فصل منه : ومتى رأيت حاسداً يصبّ لك رأياً إن كنت مصيباً ، أو
يرشدك إلى صواب إن كنت مخطئاً ، أو أفصح لك بالخير في غيبته عنك أو
قصر من غيبته لك ؟

فهو الكلب الكلب ، والنمر النمر والسّم القشيب ، والفحل القنيطم ،
والسّيل العريم . إن ملك قتل وسبى ، وإن ملك عصى ويغى ، حياتك موته ،
وموتك عزسه وسروره . يصدق عليك كل شاهد زور ، ويكذب فيك كل عدل
مرضي . لا يحب من الناس إلا من ييغضك ، ولا ييغض إلا من يحبك .
عدوك بطانة وصديقك علانية .

وقلت : إنك ربّما غلطت في أمره لما يظهر لك من برّه . ولو كنت
تعرف الجليل من الرأي ، والدقيق من المعنى ، وكنت في مذاهيك فطناً نقاباً ،
ولم تك في غيب من ظهر لك غيبه مرتاباً ، لاستغنيت بالرمز عن الإشارة ،
وبالإشارة عن الكلام ، وبالسّر عن الجهر ، وبالخفض عن الرفع ، وبالاختصار
عن التطويل ، وبالجمل عن التفصيل ، وأرحتنا من طلب التحصيل ولكني
أخاف عليك أن قلبك لصديقك غير مستقيم ، وأن ضمير قلبك له غير سليم ،
وإن رفعت القذى عن لحيته ، وسويت عليه ثوبه فوق مركبه ، وقبّلت صبيه
بحضرتة ، ولبست له ثوب الاستكانة عند رؤيته ، واغتفرت له الرّولة ،
واستحسنّت كل ما يقبح من جهته ، وصدّقته على كذبه ، وأعتته على فجرتّه .
فما هذا العناء ! كأنك لم تقرأ المعوذة ، ولم تسمع مخاطبته نبيه صلى الله
عليه وسلم ، في التّقديمة إليه بالاستعاذة من شر حاسد إذا حسد .

أَتَطْلُبُ وَيَحْكُ أَثْرًا بَعْدَ عَيْنٍ ، أَوْ عَطْرًا بَعْدَ عَرُوسٍ ، أَوْ تَرِيدُ أَنْ تَجْتَنِيَّ
عَبَأًا مِنْ شَوْكٍ ، أَوْ تَلْتَمِسَ حَلَبَ لَبِنٍ مِنْ حَائِلٍ . إِنَّكَ إِذَا أَعْيَا مِنْ بَسَاقِلٍ ،
وَأَحْمَقُ مِنَ الضَّبِيعِ ، وَأَغْفَلُ مِنْ هَرِيمٍ .

إِنْ كُنْتَ تَجْهَلُ بَعْدَ مَا أَعْلَمْنَاكَ ، وَتَعْوِجُ بَعْدَ مَا قَوْمْنَاكَ ، وَتَبَلِّدُ بَعْدَ مَا
ثَقَّفْنَاكَ ، وَتَضِلُّ إِذْ هَدَيْنَاكَ ، وَتَنْسَى إِذْ ذَكَّرْنَاكَ ، فَأَنْتَ كَمَنْ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى
عِلْمٍ فَبَطَلَتْ عِنْدَهُ الْمَوَاعِظُ ، وَعَمِيَ عَنِ الْمَنَافِعِ ، فَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ،
وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غَشَاوَةً . فَتَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْخِذْلَانِ .

إِنَّهُ لَا يَأْتِيكَ وَلَكِنْ يُنَادِيكَ وَلَا يَحَاكِيكَ وَلَكِنْ يُوَازِيكَ . أَحْسَنُ مَا تَكُونُ
عِنْدَهُ حَالًا [أَقْلُ مَا تَكُونُ مَالًا ، وَأَكْثَرُ مَا تَكُونُ عِيَالًا ، [وَأَعْظَمُ] مَا تَكُونُ
ضَلَالًا . وَأَفْرَحُ مَا يَكُونُ بِكَ أَقْرَبُ مَا تَكُونُ بِالْمَصِيبَةِ عَهْدًا ، وَأَبْعَدُ مَا تَكُونُ
مِنَ النَّاسِ حَمْدًا .

فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا فَمَجَاوِرَةُ الْمَوْتَى ، وَمَخَالِطَةُ الزُّمَنِ ، وَالِاجْتِنَانِ
بِالْجُدْرَانِ ، وَمَضْرُ الْمُصْرَانِ ، وَأَكْلُ الْقُرْدَانِ ، أَهْوَنُ مِنْ مَعَاشِرَتِهِ ، وَالِاتِّصَالِ
بِحَبْلِهِ .

وَالِغَيْلُ نَتِيجُ الْحَسَدِ ، وَهُوَ رَضِيعُهُ ، وَغَصْنٌ مِنْ أَغْصَانِهِ ، وَغَوْنٌ مِنْ
أَعْوَانِهِ ، وَشُعْبَةٌ مِنْ شُعْبِهِ ، وَفِعْلٌ مِنْ أَفْعَالِهِ ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ فَرْعٌ إِلَّا لَهُ أَصْلٌ ،
وَلَا مَوْلُودٌ إِلَّا لَهُ مُوَلِّدٌ ، وَلَا نَبَاتٌ إِلَّا مِنْ أَرْضٍ ، وَلَا رَضِيعٌ إِلَّا مِنْ مُرْضِعٍ ،
وَإِنْ تَغَيَّرَ اسْمُهُ ، فَإِنَّهُ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ ، وَنَبَتٌ مِنْ نَبَاتِهِ ، وَنَعْتٌُّ مِنْ نَعْوَتِهِ .

[١٠ - الْجَنَّةُ حَيْثُ لَا حَسَدٌ]

وَرَأَيْتَ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ ذَكَرَ الْجَنَّةَ فِي كِتَابِهِ فَحَلَّاهَا بِأَحْسَنِ جِلْيَةٍ ، وَزَيَّنَهَا
بِأَحْسَنِ زِينَةٍ ، وَجَعَلَهَا دَارَ أَوْلِيَائِهِ وَمَحَلَّ أَنْبِيَائِهِ ، فَفِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا
أَذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ . فَذَكَرَ فِي كِتَابِهِ مَا مِنْ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ

السُّرور والكرامة عندما دَخَلوها وبَوَّأها لهم فقال : ﴿ إِن الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ . وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ . لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ .

فما أنزلهم دارَ كرامته إلا بعد ما نزع الغِلَّ والحسدَ من قلوبهم ، فتهنَّوا بالجنة ، وقابلوا إخوانهم على السُّرر ، وتلذذوا بالنظر في مقابلة الوجوه لسلامة صدورهم . ونزع الغِلَّ من قلوبهم . ولو لم ينزع ذلك من صدورهم ويخرجه من قلوبهم ، لافتقدوا لذادة الجنة ، وتدابروا وتقاطعوا وتحاسدوا ، وواقعوا الخطيئة ، ولمسهم فيها النَّصَب ، وأعقبوا منها الخروج ، لأنَّه عزَّ وجلَّ فضل بينهم في المنازل ، ورفع درجات بعضهم فوق بعض في الكرامات ، وسنيَّ العطيَّات .

فلما نزع الغِلَّ والحسدَ من قلوبهم ظنَّ أدناهم منزلةً فيها ، وأقربهم بدخول الجنة عهداً ، أنه أفضلهم منزلةً ، وأكرمهم درجةً ، وأوسعهم داراً بسلامة قلبه ، ونزع الغِلَّ من صدره ، فقُصِّرَتْ عَيْنُه وطاب أكله . ولو كان غير ذلك لصاروا إلى التنغيص في النظر بالعيون ، والاهتمام بالقلوب ، ولحدثت العيوبُ والدُّنوبُ .

[١١ - السلامة في الابتعاد عن الحسود]

وما أرى السَّلامةَ إلا في قطع الحاسد ، ولا السُّرورَ إلا في افتقاد وجهه ، ولا الرَّاحةَ إلا في صَرْم مداراته . ولا الرِّيحَ إلا في ترك مصافاته .

فإذا فعلتَ ذلك فكل هنيئاً مريئاً ، [ونم رَضِيئاً] ، وعش في السُّرور

مَلِيئاً .

ونحن نسال الله الجليل أن يصفى كدر قلوبنا ، ويجنبنا إياك [دناءة
الأخلاق ، ويرزقنا وإياك] حُسن الألفة والاتفاق ويحسين توفيقك وتسديدك .
والسلام .



مرکز تحقیقات کمپیوتر علوم اسلامی

٢ - هامش كتاب الحاسد والمحسود

- (١) لاحظ وجوه التصنع البياني في المقدمة : السجع مثل : وهب الله لك السلامة ، وادام لك الكرامة ، ورزقك الاستقامة ورفق عنك الندامة . ثم الطباق مثل : ولم يعرف ظاهره ومكتومه ، وكيف يعلم مجهوله ومعلومه ولم صار العلماء فيه اكثر من الجهلاء الخ . . .
- (٢) صاحب ليل : المسهد الذي لا يستطيع ان ينام .
ويروى عن الحسن : الارجح ان يكون الحسن البصري .
- (٣) حرب البيان : يعني ان الحاسد يضمم عكس ما يفصح .
- (٤) لاحظ بلاغة الجاحظ في تصوير نفس الحسود « تراكم الغموم على قلبه ، واستمکان الحزن في جوفه ، وكثرة مضضه ، ووسواس ضميره ، وتنغص عمره ، وكدر نفسه ، ونكد عيشه . . . واستصغار نعمة الله عليه وسخطه على سيده بما أفاء عليه ، وتمنيه ان يرجع في هبته اياه وان لا يرزق احداً سواه . . . » .
- رجوع الجاحظ الى القرآن باستمرار دليل على استمکان الثقافة الدينية فيه :
قصة الملاك الذي عصى ربه فلعنه وجعله ابليساً وشوه خلقه ، وابعده عنه .
وقصة قابيل الذي قتل اخاه هابيل .
- (٥) يجب ان يعاد ولا يعود : يجب ان يزور ولا يزور لكبره وحقده . ويسرى علة العقود : جمع عقد وهو خيط من الخرز يعقد للرؤساء .
- المبتدع : من يخالف السنة او يأتي بجديد لم يعرفه السلف .
- المتبع : غير الاصيل ياخذ عن غيره .

- حاطب ليل : يمشي في الظلام على غير هدى ودون استبصار ؛ يخلط في كلامه .

- عبد الله بن أبي الخرزجي عرف بنفاقه وعاش في عهد الرسول .

(٦) المعدم : الفقير ؛ طلائع : مطلعون وناظرون .

(٧) الحسود لا يستطيع كتمان حسده . انظر رسالة كتمان السر وحفظ اللسان وتعليل

الجاحظ النفسي لميل الانسان الى الافشاء عما في نفسه .

(٨) الح من الذباب مثل يضرب بلجاجة الذباب في الحط على الاجسام التي

يربدها . راجع خبر القاضي والذباب الوارد في كتاب الحيوان .

(٩) الفحل القطم : الذي اشتدت به الشهوة الى الضراب .

- السيل العرم : السيل الغامر الجامح الذي لا يطلق .

- الجليل والدقيق : الجليل الكلام المتعلق بامور الدين الدقيق : الكلام المعلق

بامور الفلسفة الطبيعية مثل الجوهر والعرض والحركة الخ .

- لاحظ كلف الجاحظ بالطباق في جميع اجزاء الرسالة : الرمز والاشارة ، السر

والجهر ، الخفض والرفع ، الاختصار والتطوير الخ .

- تلتمس حلب لبن من حائل : الحائل هي الناقة التي انقطع حملها .

- لاحظ كثرة الامثال التي يضربها الجاحظ : أعى من باقل ، احمق من ضبيع ،

اغفل من هرم (مسن) . راجع الامثال للميداني .

(١٠) وصف الجنة الجميل : فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب

بشر . . . الخ تخلو قلوب اهلها من الغل والحسد ويطيب عيشهم .

(١١) يشير الجاحظ الى نوع الرسالة : انها رسالة في الاخلاق هدفها تصفية القلوب ،

وحسن الالفة .

- ۳ -
النبیل والتنبیل و ذم الکبر
مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

[١ - مقدمة يحرض فيها مخاطبه على اناس تكبروا عليه]

فصل منه : قد قرأت كتابك وفهمته ، وتتبع كل ما فيه واستقصيته ، فوجدت الذي ترجع إليه بعد التطويل ، وتقف عنده بعد التحصيل ، قد سلف القول منا في عيبه ، وشاع الخبر عنا في ذمه ، وفي النصب لأهله ، والمباينة لأصحابه ، وفي العجب منهم ، وإظهار النفي عنهم .

والجملة أن فرط العجب إذا قارن كثرة الجهل ، والتعرض للعيب إذا وافق قلة الاكتراث ، بطلت المزاجر ، وماتت الخواطر . ومتى تصاقم الداء وتفاوت العلاج ، صار الوعيد لغواً مطرحاً ، والعقاب حكماً مستعملاً .

وقد أصبح شيخك ، وليس يملك من عقابهم إلا التوقيف ، ولا من تأديبهم إلا التعريف .

ولو ملكناهم ملك السلطان ، وقهرناهم قهر الولاة ، لنهكناهم عقوبة بالضرب ، ولقمعناهم بالحصر .

والكبر - أعزك الله تعالى - باب لا يُعد احتمالاً حليماً ، ولا الصبر على أهله حزماً ، ولا ترك عقابهم عفواً ، ولا الفضل عليهم مجداً ، ولا التغافل

عنهم كرمًا ، /ولا الإمساك عن ذمهم صمتًا .

واعلم أن حمل الغنى أشد من حمل الفقر ، واحتمال الفقر أهون من احتمال الذل على أن الرضا بالفقر قناعة وعز ، واحتمال الذل نذالة وسخف .
ولئن كانوا قد أفرطوا في لوم العشيبة ، والتكبر على ذوي الحرمة ، لقد أفرطت في سوء الاختيار ، وفي طول مقامك على العار .

وأنت مع شدة عجبك بنفسك ، ورضاك عن عقلك ، خالطت من موته يضحك السن ، وحياته تورث الحزن ، وتشاغلك به من أعظم الغبن .

وشكوت تنبلهم عليك ، واستصغارهم لك ، وأنت أكثر منهم في المحصول ، وفي حقائق المعقول . ولو كنت كما تقول لما أقمت على الذل ولما تجرعت الصبر وأنت بمنذوحة منهم ، وبنجوة عنهم . ولعارضتهم من الكبر بما يهضهم ، ومن الامتعاض بما يبهرهم .

وقلت : ولو كانوا من أهل النبل عند الموازنة ، أو كان معهم ما يغلط الناس فيه عند المقايسة لعذرتهم واحتجبت عنهم ، ولسترت عيبتهم ، ولرقت وحييتهم . ولكن أمرهم مكشوف ، وظاهرهم معروف .

وإن كان أمرهم كما قلت ، وشأنهم كما وصفت ، فذاك ألوم لك ، وأثبت للحجة عليك .

وسأؤخر عدلك إلى الفراغ منهم ، وتوقيفك بعد التنبؤ بهم .

[٢ - شروط النبل]

أقول : وإن كان النبل بالتنبل ، واستحقاق العظم بالتعظيم وبقلة الندم والاعتذار ، وبالثهون بالإقرار ، فكل من كان أقل حياة ، وأتم قحة ، وأشد تصلفاً ، وأضعف عدة ، أحق بالنبل وأولى بالعذر .

وليس الذي يُوجب لك الرِّفعة أن تكون عند نفسك - دون أن يراك
الناس - ربيعاً ، وتكون في الحقيقة وضيعاً .

ومتى كنتَ من أهل النبل لم يضرَّكَ التبذُّل ، ومتى لم تكن من أهله لم
ينفَعَكَ التنبُّل .

وليس النُّبل كالرُّزق ، يكون مرزوقاً الجرمان أليقُ به ، ولا يكون نبيلاً
السُّخافة أشبه به .

وكلُّ شيءٍ من أمر الدنيا قد يحظى به غيرُ أهله ، كما يحظى به أهله .

وما ظنُّكَ بشيءٍ المروءة خصلةً من خصاله ، وبُعْدُ الهمة خلةً من
جلاله ، وبهاء المنظر سببٌ من أسبابه ، وجزالة اللفظ شعبةً من شعبه ،
والمقامات الكريمة طريقٌ من طرقه .

فصل منه : واعلم أنك متى لم تأخذ للنبل أهبتَه ، ولم تقم له أدواته ،
وتأته من وجهه ، وتضم بحقه ، كنت مع العناء مُبغضاً ، ومع التكلف
مُستصلاً . ومن تبغض فقد استهدف للشتم ، وتصدى للملام .

فإن كان لا يحفل بالشتم ، ولا يجزع من الذم ، فعده ميتاً إن كان حياً ،
وكلباً إن كان إنساناً .

وإن كان ممن يكثر ويحزع ، ويحس ويألم ، فقد خسر الراحة
والمحبة ، وريح النصب والمدمة .

وبعد ، فالنُّبل كلفٌ بالمولى عنه ، شيفٌ للمقبل عليه ، لازقٌ بمن
رَفَضَه ، شديدٌ النِّفار ممن طلبه .

[٣ - نبل السيد]

فصل منه : والسَّيِّدُ المطاعُ لم يسهلُ عليه الكفُّم ، ولم يكن له كنفُ

الجلم ، إلا بعد طول تجرع للغيظ ، ومقاساة للصبر . وقد كان معنى القلب
دهره ، ومكدود النفس عمره ، والحرب سجالاً بينه وبين الجلم ، ودوّل بينه
وبين الكظم . فلما انقادت له العشيّة ، وسمحت له بالطاعة ، ووثق بظهور
القدرة خلاف المعجزة سهل عليه الصبر ، وغمر بعلوه دواعي الجزع ، بطلت
المجاذبة ، وذهبت المساجلة .

والذي كان دعاهُ إلى تكلف الحلم في بدء أمره وإلى احتمال المكروه في
أول شأنه ، الأمل في الرياسة ، والطمع في السيادة ، ثم لم يتم له أمره ، ولم
يستحكم له عقدهُ إلا بعد ثلاثة أشياء : الاحتمال ، ثم الاعتياد ، ثم ظهور
طاعة الرجال .

ولولا خوفُ جميع المظلومين من أن يُظنَّ بهم العجزُ ، والا يوجه
احتمالهم إلى السذل لزاحم السادة في الحلم رجال ليسوا في أنفسهم
بدونهم ، ولغمرهم بعضُ من ليس معه من أسبابهم .



[٤ - صفات النبيل]

فصل منه : ولا يكون المرء نبيلًا حتى يكون نبيلَ الرأي ، نبيلَ اللفظ ،
نبيلَ العقل ، نبيلَ الخلق ، نبيلَ المنظر ، بعيد المذهب في التنزه ، طاهر
الثوب من الفحش ، إن وافق ذلك عرقاً صالحاً ، ومجدداً تالداً .

فالخارجي قد يتنبت بنفسه ، والنابتي قد يخرج بطبعه . ولكل عز أول ،
وأول كل قديم حادث .

ومن حقوق النبيل أن تتواضع لمن هو دونك ، وتُنصف من هو مثلك ،
وتتنبل على من هو فوقك .

[٥ - الكبر قبيح في الانسان]

فصل منه : وكان بعض الأشراف في زمان الأحنف ، لا يحترق أحداً ،

ولا يتخرج لزاثر ، وكان يقول :

• نهلان ذو الهضبات ما يتحلحل •

فكان الأحف ما يزداد إلا علواً ، وكان ذلك الرجل لا يزداد إلا تسفلاً .

وقد ذم الله تعالى المتكبرين ، ولعن المتجبرين ، وأجمعت الأمة على غيبه ، والبراءة منه ، وحتى سُمي المتكبر تائهاً ، كالذي يَدْتَبِطُ فِي التَّيَّةِ بِلا أَمارة ، ويتعسف الأرض بلا علامة .

ولعل قائلًا أن يقول : لو كان اسم المتكبر قبيحاً ، ولو كان المتكبر مذموماً ، لَمَا وصفَ الله تعالى بهما نفسه ، وَلَمَّا نَوَّهَ بهما في التنزيل حين قال : ﴿ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ﴾ ثم قال : ﴿ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ .

قلنا لهم : إنَّ الإنسانَ المخلوقَ المَسْخَرُ ، والضعيفَ الميسرَ ، لا يليقُ به إلا التذللُ ، ولا يجوزُ له إلا التواضعُ .

وكيف يليق الكبرُ بمن إنَّ جاعَ صُرِعَ ، وإنَّ شَبِعَ طَفَى ، وما يشبه الكبرُ بمن يأكل وَيَشرب ، وَيَبول وَيَنجُو . وكيف يستحقُّ الكبرُ وَيَسْتوجب العظمةَ من يَنْقُصُهُ النَّصَبُ ، وتُفْسِدُهُ الرَّاحَةُ ؟ .

فإذا كان الكبر لا يليق بالمخلوق فإنما يليق بالخالق ، وإنما عانَدَ اللهُ تعالى بالكبرِ لتَعَدِّيهِ طَوْرَهُ ، ولِجَهْلِهِ لِقَدْرِهِ ، وانتحالِهِ ما لا يجوزُ إلا لرَبِّهِ . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « الْعَظْمَةُ رِداءُ اللهِ ، فَمَنْ نازَعَهُ رِداءَهُ قَصَمَهُ » .

فصل منه : والنبل لا يتنبل ، كما أنَّ الفصيح لا يتفصح ، لأنَّ النبيل يكفيه نُبْلُهُ عن التَّنْبُلِ ، والفصيح تُغْنِيهِ فصاحته عن التفصح . ولم يتزید أحدٌ قطُّ إلا لنقصٍ يجده في نفسه ، ولا تَطاولَ متطاولٌ إلا لسوْفَنٍ قد أحسَّ به

قوته .

والكِبْرُ من جميع الناس قبيحٌ ، ومن كلِّ العبادِ مَسْخُوطٌ ، إلاَّ أنه عند
الناس من عُظَمَاءِ الأعرابِ ، وأشباهِ الأعرابِ أَوْجَدُ ، وهو لهم أسرعُ ،
لجفائهم وبعدهم من الجماعة ، ولقلة مخالطتهم لأهل العفة والرعة ، والأدبِ
والصنعة .

[٦ - مواضع استحسان الكبر]

ولم نر الكبر يسوغ عندهم ويُستحسن إلا في ثلاثة مواضع :

من ذلك أن يكون المتكبر صعباً بدوياً ، وذاتاً عرضيةً وحشياً ، ولا يكون
حضرياً ولا مدبرياً ، فيحمل ذلك منه على جهة الصعوبة ومذهب الجاهلية ،
وعلى العنجهية والأعرابية .

أو يكون ذلك منه على جهة الانتقام والمعارضة ، والمكافأة والمقابلة .

أو على أن لا يكون تكبره إلا على الملوك والجبابة ، والفراعنة وأشباه
الفراعنة .

وصاحبك خارج من هذه الخصال ، مُجانبٌ لهذه الخلال . إن
أصاب صديقاً تعظّم عليه ، وإن أتاه ضيفٌ تغافل عنه ، وإن أتاه ضعيفٌ من
عليه ، وإن صادف حليماً اعتمر به .

وينبغي أن يكون خضوعه لمن فوقه على حسب تكبره على من دونه .

[٧ - صفات اللئيم]

ومن صفة اللئيم أن يظلم الضعيف ، ويظلم نفسه للقوي ، ويقتل
الصريع ، ويجهز على الجريح ، ويطلب الهارب ، ويهرب من الطالب ، ولا

يَطْلُبُ مِنَ الطَّوَائِلِ إِلَّا مَا لَا خِطَارَ فِيهِ وَلَا يَتَكَبَّرُ إِلَّا حَيْثُ لَا تَرْجِعُ مَضْرُوتُهُ عَلَيْهِ ، وَلَا يَقْفُو التَّقِيَّةَ وَلَا المَرُوَّةَ ، وَلَا يَعْمَلُ عَلَى حَقِيقَتِهِ .

وَمَنْ اخْتَارَ أَنْ يَبْغِيَ تَبَدُّي ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُسْمَعَ قَوْلُهُ سَاءَ خَلْقُهُ ، إِذْ كَانَ لَا يَحْفَلُ بِبُغْضِ النَّاسِ لَهُ وَوَحْشَةِ قُلُوبِهِمْ مِنْهُ ، وَاحْتِيَالِهِمْ فِي مُبَاعَدَتِهِ ، وَقَلَّةِ مَلَاسَتِهِ .

وَلَيْسَ بِأَمْنُ اللَّثِيمِ عَلَى إِتْيَانِ جَمِيعِ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ اسْمُ اللَّؤْمِ إِلَّا حَاسِدٌ .

فَإِذَا رَأَيْتَهُ يَعْقُ أَبَاهُ ، وَيَحْسُدُ أَحْيَاهُ ، وَيَظْلِمُ الضَّعِيفَ ، وَيَسْتَخْفُ بِالْأَدِيبِ ، فَلَا تُبْعِذُهُ مِنَ الْخِيَانَةِ ، إِذْ كَانَتْ الْخِيَانَةَ لَوْماً وَلَا مِنَ الْكُذْبِ ، إِذْ كَانَ الْكُذْبَ لَوْماً ، وَلَا مِنَ النَّمِيمَةِ ، إِذْ كَانَتْ النَّمِيمَةَ لَوْماً ، وَلَا تَأْمَنَّهُ عَلَى الْكُفْرِ فَإِنَّهُ أَلَمُ اللَّؤْمِ ، وَأَقْبَحُ الْغَدْرِ .

وَمَنْ رَأَيْتَهُ مَنْصَرِفاً عَنْ بَعْضِ اللَّؤْمِ ، وَتَارِكاً لِبَعْضِ الْقَبِيحِ ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَوَجَّهَ ذَلِكَ مِنْهُ عَلَى التَّجَنُّبِ لَهُ ، وَالرَّغْبَةِ عَنْهُ ، وَالْإِشَارِ لِخِلَافِهِ ، وَلَكِنْ عَلَى أَنَّهُ لَا يَشْتَهِيهِ أَوْ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ ، أَوْ يَخَافُ مِنْ مَرَارَةِ الْعَاقِبَةِ أَمْراً يَعْنِي عَلَى حِلَاوَةِ الْعَاجِلِ ، لِأَنَّ اللَّؤْمَ كُلَّهُ أَصْلٌ وَاحِدٌ وَإِنْ تَفَرَّقَتْ فِرْعَوْنُهُ ، وَجِنْسٌ وَاحِدٌ وَإِنْ اخْتَلَفَتْ صُورُهُ ، وَالْفِعْلُ مَحْمُولٌ عَلَى غَلْبَتِهِ ، تَابِعٌ لِسَمِيَّتِهِ . وَالشَّكْلُ ذَاهِبٌ عَلَى شَكْلِهِ ، مَنْقَطَعٌ إِلَى أَصْلِهِ ، صَائِرٌ إِلَيْهِ وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهُ ، وَنَازِعٌ إِلَيْهِ وَإِنْ حِيلَ دُونَهُ . وَكَذَلِكَ تَنَاسَبَ الْكَرَمُ وَحَنِينُ بَعْضِهِ لِبَعْضٍ .

[٨ - عَوَاقِبُ الْكِبَرِ]

وَلَمْ تَرَ الْعَيُونَ ، وَلَا سَمِعَتِ الْأَذَانُ ، وَلَا تَوَهَّمَتِ الْعُقُولُ عَمَلًا اجْتِبَاهُ ذُو عَقْلٍ ، أَوْ اخْتَارَهُ ذُو عِلْمٍ ، بِأَوْبَاءٍ مَغْبِيَّةٍ ، وَلَا أَنْكَدَ عَاقِبَةً ، وَلَا أَوْحَمَ مَرَعَى ، وَلَا أَبْعَدَ مَهْوَى ، وَلَا أَضْرَّ عَلَى دِينٍ ، وَلَا أَفْسَدَ لِعَرَضٍ ، وَلَا أَوْجَبَ لُسْخَطٍ

الله ، ولا أدعى إلى مقتِ الناس ، ولا أبعد من الفلاح ، ولا أظهر نُفُوراً عن
التوبة ، ولا أقل دَرَكَاً عند الحقيقة ، ولا أنقض للطبيعة ، ولا أمتع من العلم ،
ولا أشدَّ خلافاً على الجِلم ، من التكبر في غير موضعه ، والتنبُّل في غير
كُنْهه .

وما ظنك بشيء العُجبِ ثَمِيقه ، والبَدخِ صديقِه ، والنَّفحِ أليفِه ،
والصِّلَفِ عَقِيدِه .

والبُذاخِ متزیدِ ، والنَّفاجِ كذابِ ، والمتكبرِ ظالمِ ، والمُعجبِ صغيرِ
النفسِ . وإذا اجتمعت هذه الخصالُ ، وانتظمت هذه الخصالُ في قلبِ طالِ
خِرابِه ، واستغلق بابُه .

وشرُّ العيوبِ ما كان مضمناً بعيوبِ ، وشرُّ الذنوبِ ما كان علةً للذنوبِ .

والكبرِ أوَّلُ ذنبِ كان في السماوات والأرضِ ، وأعظمُ جُرمِ كان من
الجنِّ والإنسِ ، وأشهرُ تعصُّبِ كان في الثقلينِ ، وعنه لجَّ إبليسُ في الطغيانِ ،
وعنَّا على ربِّ العالمينِ ، وخطأَ رَبِّهِ في التدبيرِ ، وتلقى قوله بالردِّ . ومن أجلِه
استوجبَ السُّخطةَ ، وأخرجَ من الجنةَ ، وقيل له : ﴿ ما يكونُ لك أن تتكبرَ
فيها ﴾

ولإفراطه في التعظيمِ خرج إلى غاية القسوة ، ولشدَّة قسوته اعتزم على
الإصرارِ ، وتتابع في غاية الإفسادِ ، ودعا إلى كلِّ قبيحِ ، وزين كلَّ شرِّ ، وعن
معصيته أخرج آدمُ من الجنةَ ، وشهر في كلِّ أفقِ وأمةٍ ، ومن أجلِه نصبَ
العداوةَ لذريتهِ ، وتفرغ من كلِّ شيءٍ إلا من إهلاكِ نَسِلهِ ، فعادى من لا يرجوه
ولا يخافه ، ولا يضاهيه في نسبِ ، ولا يُشاكله في صناعةٍ ، وعن ذلك قتلَ
الناسُ بعضهم بعضاً ، وظلم القويُّ الضعيفَ ، ومن أجلِه أهلكَ اللهُ الأممِ
بالمسخِ والرُّجفِ ، وبالخسفِ وبالطوفانِ ، والرَّيحِ العقيمِ ، وأدخلهم النارَ ،

واقنطهم من الخروج .

والكبر هو الذي زين لإبليس ترك السجود ، ووهمه شرف الأنفة ، وصور له عز الانتفاض ، وحبب إليه المخالفة ، وأنسه بالوحدانية والوحشة ، وهون عليه سُخط الرب ، وسهل عليه عقاب الأبد ، ووعدَه الظفر ، ومنأه السلامة ، ولقنه الاحتجاج بالباطل ، وزين له قول الزور ، وزهده في جوار الملائكة ، وجمع له خلال السوء ، ونظم له خلال الشر ، لأنه حسد والحسد ظلم ، وكذب والكذب ذل ، وخدع والخديعة لؤم . وحلف على الزور ، وذلك فجور . وخطأ ربه ، وتخطئ الله جهل ، وأخطأ في جلي القياس وذلك غي ، ولجج واللجاج ضعف . وفرق بين التكبر والتبدي . وجمع بين الرغبة عن صنيع الملائكة وبين الدخول في أعمال السفلة .

واحتج بأن النار خير من الطين . ومنافع العالم نتائج أربعة أركان : نار يابسة حارة ، وماء بارد سيال ، وأرض باردة يابسة ، وهواء حار رطب . ليس منها شيء مع مزاجيته لخلافه إلا وهو محي متي . على أن النار نعمة الله من بين جميع الأصناف ، وهي أسرع إتلافاً لما صار فيها . وأمحقهن لما دنا منها .

هذا كله ثمرة الكبر ، ونتائج النية ، . والتكبر شر من القسوة ، كما أن القسوة شر المعاصي . والتواضع خير الرحمة ، كما أن الرحمة خير الطاعات .

[٩ - الكبر رذيلة تعترى مختلف طبقات الناس]

والكبر معنى ينتظم به جماع الشر ، والتواضع معنى ينتظم به جماع الخير ، والتواضع عقيب الكبر ، والرحمة عقيب القسوة . فإذا كان للطاعة قدر من الثواب فلتتركها وعقبها ، ولما يوازنها ويكايئها ، مثل ذلك القدر من

العقاب . وموضع الطاعة من طبقات الرضا ، كموضع تركها من طبقات السخط
إذ كانت الطاعة واجبة ، والترك معصية .

والكبر من أسباب القسوة . ولو كان الكبر لا يعتري إلا الشريف
والجميل ، أو الجواد ، أو الوفي أو الصدوق ، كان أهون لأمره ، وأقل لشينه ،
وكان يعرض لأهل الخير ، وكان لا يغلط فيه إلا أهل الفضل ، ولكننا نجده في
السفلة ، كما نجده في العلية ونجده في القبيح كما نجده في الحسن ، وفي
الدميم كما نجده في الجميل ، وفي الدني الناقص ، كما نجده في الوفي
الكامل ، وفي الجبان كما نجده في الشجاع ، وفي الكذوب كما نجده في
الصدوق ، وفي العبد كما نجده في الحر ، وفي الدمي ذي الجزية والصغار
والذلة ، كما نجده في قابض جزيته والمسلط على إذلاله .

ولو كان في الكبر خير لما كان في دهر الجاهلية أظهر منه في دهر
الإسلام ، ولما كان في العبد أفضل منه في الحر ، ولما كان في السند أعم منه
في الروم والفرس .

مرکز تحقیقات کتب و تاریخ علوم اسلامی

[١٠ - الكبر ليس من سياسة الملوك]

وليس الذي كان فيه آل ساسان وأنوشروان وجميع ولد أزدشير بن بابك
كان من الكبر في شيء . تلك سياسة للعوام ، وتفخيم لأمر السلطان ، وتسديد
للملك .

ولم يكن في الخلفاء أشد نخوة من الوليد بن عبد الملك ، وكان
أجهلهم وألحنهم . وما كان في ولاية العراق أعظم كبراً من يوسف ابن عمر ،
وما كان أشجعهم ولا أبصرهم ، ولا أتمهم قواماً ، ولا أحسنهم كلاماً .

ولم يدع الربونية ملك قط إلا فرعون ، ولم يك مقدماً في مركبه ، ولا
في شرف حسيه ، ولا في نبيل منظره ، وكمال خلقه ، ولا في سعة سلطانه

وشرف رعيته وكرم ناحيته . ولا كان فوق الملوك الأعظم والجلّة الأكابر ، بل دون كثير منهم في الحسب وشرف الملك وكرم الرعيّة ، ومنعة السلطان ، والسّطوة على الملوك .

ولو كان الكبر فضيلة وفي التّيه مروءة ، لما رغب عنه بنو هاشم . ولكن عبد المطّلب أولى الناس منه بالغاية ، وأحقّهم بأقصى النهاية .

ولو كان محمود العاجل ومرجؤ الأجل ، وكان من أسباب السّيادة أو من حقوق الرّياسة ، لبأذر إليه سيّد بني تميم ، وهو الأحنف بن قيس ، ولشخ عليه سيّد بكر بن وائل وهو ملك ، ولاستولى عليه سيّد الأزدي وهو المهلب .

ولقد ذكر أبو عمرو بن العلاء جميع عُيوب السّادة ، وما كان فيهم من الخلال المذمومة ، حيث قال : « ما رأينا شيئاً يمنع من السّودد إلا وقد وجدناه في سيّد : وجدنا البخل يمنع من السّودد ، وكان أبو سفيان بن حرب بخيلاً . والعهار يمنع من السّودد ، وكان عامر بن الطفيل سيّداً ، وكان عاهراً . والظلم يمنع من السّودد ، وكان حذيفة بن بدر ظلوماً ، وكان سيّد غطفان . والحُمق يمنع من السّودد ، وكان عتبية بن حصن محمقاً ، وكان سيّداً . والإملاق يمنع من السّودد ، وكان عتبة بن ربيعة مملقاً . وقلة العدد تمنع من السّودد وكان شبيل بن معبد سيّداً ، ولم يكن من عشيرته بالبصرة رجلاً . والحداثة تمنع من السّودد ، وساد أبو جهل وما طرّ شاربه ، ودخل الندوة وما استوت لحيته .

فذكر الظلم ، والحُمق ، والبخل ، والفقر ، والعهار ، وذكر العيوب ولم يذكر الكبر ، لأنّ هذه الأخلاق وإن كانت داء فإنّ في فضول أحلامهم وفي سائر أمورهم ما يُداوى به ذلك الداء ، ويُعالج به ذلك السّقم ، وليس الداء المُمكن كالداء المُعْضِل ، وليس الباب المُغلق كالمُسْتَبِهم ، والأخلاق التي لا يمكن معها السّودد ، مثل الكبر والكذب والسُّخف ، ومثل الجهل بالسياسة .

وخرجت خارجة بخراسان فقيل لقتيبة بن مسلم : لو وجهت إليهم وكيع
ابن أبي سويد لكفاهم فقال : وكيع رجل عظيم الكبر ، في أنفه خنزوانة ، وفي
رأسه نغرة ، وإنما أنفه في أسلوب ؛ ومن عظم كبره اشتد عجبته ، ومن
أعجب برأيه لم يشاور كفيًا ، ولم يؤامر نصيحاً ، ومن تبجح بالانفراد وفخر
بالاستبداد كان من الظفر بعيداً ، ومن الخذلان قريباً ، والخطأ مع الجماعة
خير من الصواب مع الفرقة . وإن كانت الجماعة لا تخطيء والفرقة لا
تصيب .

ومن تكبر على عدوه حقره ، وإذا حقره تهاون بأمره . ومن تهاون
بخصمه ووثق بفضل قوته قل احتراسه ، ومن قل احتراسه كثر عثاره .

وما رأيت عظيم الكبر صاحب حرب إلا كان منكوباً ومهزوماً ومخدوعاً .
ولا يشعر حتى يكون عدوه عنده ، وخصمه فيما يغلب عليه . أسمع من فرس ،
وأبصر من عقاب ، وأهدى من قطاة ، وأحذر من عققو ، وأشد إقداماً من
الأسد ، وأوثب من فهد ، وأحقد من جمل ، وأروع من ثعلب ، وأغدر من
ذئب ، وأسخى من لافظة ، وأشح من صبي ، وأجمع من ذرة ، وأحرص من
كلب ، وأصبر من ضب . فإن النفس إنما تسمح بالعناية على قدر الحاجة ،
وتحفظ على قدر الخوف ، وتطلب على قدر الطمع ، وتطمع على قدر
السبب .

فصل منه : وأقول بعد هذا كله : إن الناس قد ظلموا أهل الحلم
والعزم ، حين زعموا أن الذي يسهل عليهم الاحتمال معرفة الناس بقدرتهم
على الانتقام ، فكيف والمذكور بالحلم والمشهور بالاحتمال يقبض له من
السفهاء ، ويؤتى له من أهل البداء ما لا يقوم له صبر ، ولا ينهض به عزم .
بل على قدر حلمه يتعرض له ، وعلى قدر عزمه يمتحن صبره ولأن الذي سهل
عليه الحلم ، ومكثه من العزم ، معرفة الناس بقدرته على الانتقام ، واقتداره

على شفاء الغيظ ؛ فإن منعه لنفسه ، ومجاذبته لطبعه مع الغيظ الشديد ،
والقدرة الظاهرة ، أشد عليه في المزاولة وأبلغ في المشقة والمكابدة ، من صبر
الشكل على أذى شكله ، واحتمال المظلوم عن مثله ، وإن خاف السطمس ،
وتوقع العيب .

فصل منه : ومن بعد هذا ، فمن شأن الأيام أن يُظلم المرء أكثر محاسنه
ما كان تابعاً ، فإذا عاد متبوعاً عادت عليه من محاسن غيره بأضعاف ما منعت
من محاسن نفسه ، حتى يضاف إليه من شوارد الأفعال ، ومن شواذ المكارم إن
كان سيّداً ، ومن غريب الأمثال إن كان منطيقاً ، ومن خيار القصائد إن كان
شاعراً ، مما لا أمارات لها ، ولا سمات عليها .

فكم من يد بيضاء وصنيعة غراء ، ضلت فلم يقم بها ناشد ، وخفيت
فلم يظهرها شاكر . والذي ضاع للتابع قبل أن يكون متبوعاً ، أكثر مما حفظ ،
والذي نسي أكثر مما ذكر ، وما ظنك بشيء بقيته تهب السيادة ، ومشكورة يهب
الرياسة ، على قلة الشكر ، وكثرة الكفر .

وقد يكون الرجل تام النفس ناقص الأداة ، فلا يستبان فضله ، ولا يعظم
قدره ، كالمفرج الذي لا عشيرة له ، والإتاوي الذي لا قوم له . وقد يعظم
المفرج الذي لا ولاء له ولا عقد جوار ، ولا عهد حلف ، إذا برع في الفقه
وبلغ في الزهد ، بأكثر من تعظيم السيد ، كجهة تعظيم الديان . كما أن طاعة
السلطان غير طاعة السادة ، والسلطان إنما يملك أبدان الناس ، ولهم الخيار
في عقولهم ، وكذلك الموالي والعبيد .

وطاعة الناس للسيد ، وطاعة الديان طاعة محبة ودينونة ، والقلوب أطوع
لهما من الأبدان ، إلا أن يكون السلطان مريضاً ، فإن كان كذلك فهو أعظم
خطراً من السيد ، وأوجه عند الله من ذلك الديان .

وربما ساد الأتاوي لأنه عربي على حال . والمفرج لا يسود أبداً لأنه

عجمي لا جلف له ، ولا عقْد جوار ، ولا ولاء معروف ، ولا نسب ثابت . وليس
التسويد إلا في العرب ، والعجم لا تطيع إلا للملوك .

والذي أحوج العرب في الجاهلية إلى تسويد الرجال وطاعة الأكابر ، بُعْدُ
دورهم من الملوك والحكام والقضاة ، وأصحاب الأرباع ، والمسالح والعمال .
فكان السيد ، في منيعهم من غيرهم ومنع غيرهم منهم ، ووثوب بعضهم على
بعض ، في كثير من معاني السلطان .



مركز تحقيقات كميّات علوم إسلاميّة

٣ - هامش كتاب النبل والتبيل ودم الكبر

- (١) الجاحظ يحرض على تاديب المنكبرين بقوله « والكبر أعزك الله تعالى باب لا يعد احتمالاً حليماً ، ولا الصبر على أهله حزمياً ، ولا ترك عقابهم عفواً ، ولا الفضل عليهم مجداً ، ولا التغافل عنهم كرمياً ، ولا الامسك عن ذمهم صمتاً » . لاحظ تقطيع الجمل المتوازي وزناً ومعنى .
- (٢) يفرق بين النبل والتبيل : التبيل هو التظاهر بالنبل او تكلفه .
- (٣) الدول جمع دولة ومعناها هنا العهد والمرحلة الزمنية .
- (٤) « فالخارجي قد يتبنت بنفسه ، والنابتي قد يخرج بطبعه ، ولكل غير اول ، واول كل قديم حادث » . هذه العبارة مبهمه لا يتألف معناها مع ما قبلها وما بعدها . الخارجي هو من ينتمي الى فرقة الخوارج الذين خرجوا على علي وكفروه بعد ان كانوا من اتباعه ونادوا بالجهاد . والنابتي نسبة الى النابطة ، اتباع معاوية ، وهي فرقة نبئت ابي حدثت في عصر الجاحظ تدعو مجدداً الى احياء الدولة الاموية ، نبئت خلافة معاوية . وقد كتب الجاحظ حولها رسالة النابطة التي نشرناها ضمن رسائل الجاحظ الكلامية .
- (٥) الاحنف هو الاحنف بن قيس ساد قبيلته في العصر الأموي واشتهر بحلمه ولسنه وموهبته الخطابية .
- الكبر والعظمة لله اما الانسان فاخلق به التواضع والتذلل .
- الرغبة : الورع والتقوى .
- (٦) الخلال والحصال مترادفتان .
- (٧) اللثيم يستعملها بمعنى المتكبر ؟ .
- الحقيقة تعني هنا الطبيعة والجوهر .

(٨) لاحظ الجمل المترادفة والمتوازنة « العجب شقيقه ، والبذخ صديقه ، والنفج أليفه ، والصلف عقيدة » .

- الثقلين : الانس والجن .

- الاركان الاربعة : النار والماء والارض والهواء . يدل على التأثر بالفلاسفة اليونانيين القائلين بالعناصر الاربعة : انبدقليس وافلاطون وارسطو .

- لاحظ اقتباس الجاحظ من القرآن : قصة ابليس وكبره ورفضه السجود . وقد ورد ذلك في اماكن عدة من نتاج الجاحظ (انظر مثلاً كتاب الحاسد والمحسود ، ضمن رسائل الجاحظ الادبية) .

(٩) الكبر نقيض التواضع .

يكابلهما من الكيل لمعرفة كمية الشيء ، مثل الموازنة لمعرفة الوزن السلمي ذي الجزية : اهل الذمة هم النصارى واليهود الذين منحوا حرية العبادة شرط دفع الجزية لبيت المال المسلم .

(١٠) القول ان ملوك آل ساسان لم يعرفوا التعظيم والكبر غير صحيح . لقد احاطوا ملكهم بالابهة والاجلال واسرفوا في ذلك حتى اصبحوا مضرب الامثال . ويبدو ان بعض النساخ الميالين للشعوبية حرقوا قول الجاحظ .

- لاحظ اطلاع الجاحظ على اخبار العرب ومعرفة ساداتهم وخصالهم : وهؤلاء السادة عاشوا حتى ادركوا الاسلام وكان لهم مواقف من الدعوة : ابوسفيان وعامر بن الطفيل وحذيفة بن بدر ، وعيينة بن حصن الفزاري ، وعتبة بن ربيعة وابن عبد شمس بن مناف الذي قتل كافراً يوم بدر مع أبي جهل عمرو بن هشام ابن المغيرة المخزومي .

- اثبت الجاحظ جملة من الامثال التي وردت في مجمع الامثال للميداني : اسمع من فرس ، ابصر من غراب ، اهدى من قطاة ، احذر من عقق ، اشد من اسد ، اوثب من فهد ، احقد من جمل ، اروغ من ثعلب ، اغدر من ذئب ، اسخى من لافظة (ديك) اشح من صبي ، اجمع من ذرة ، احرص من كلب ، اصبر من صب .

- ٤ -

تفضيل البطن على الظهر

مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

[١ - مناسبة الرسالة : كتاب وارد من شخص يفضل الظهر على البطن]

فصل منه : عَصَمْنَا اللَّهَ وَإِيَّاكَ مِنَ الشُّبْهَةِ ، وَأَعَادَنَّا وَإِيَّاكَ مِنْ زَيْغِ
الهُوَى ، وَمُضِلَّاتِ الْمُنَى ، وَوَهَبَ لَنَا وَلِكَ تَأْدِيبًا مُؤَدِّيًا إِلَى الزُّيَادَةِ فِي إِحْسَانِهِ ،
وَتَوْفِيقًا مُوجِبًا لِرَحْمَتِهِ وَرِضْوَانِهِ .

وقد كان كتابك يا ابن أخي - وفقك الله - ورد علي ، تصف فيه فضيلة
الظهور وصفا يدل على شغفك بها ، وحُبك إياها ، وحنينك إليها وإيثارك لها ،
وفهمته .

فلم تمنع - أعاذك الله من عدوك - من الإجابة عن كتابك في وقت
ورؤيه ، إلا عوارض أشغال مانعة ، وحوادث من التصرف والانتقال من مكان
إلى مكان عاقبة .

ولم آمن أن لو تأخر الجواب عليك أكثر منا تأخر ، أن يسبق إلى قلبك
أني راض باختيارك ، ومسلم لمذهبك ، وموافق لك فيه ، مساعد لك عليه ،
ومنقاد معك فيما اعتقدت منه ، ومجد في طلبه ، ومعرض عليه .

[٢ - الجاحظ يرجو الهداية لصاحب الكتاب]

فبادرتُ بكتابي هذا ، منبهاً لك من سِنَةِ رَقَدَتِكَ ، وداعياً إلى رشدك .
فإنك تعلم - وإن كنتَ لي في مذهبي مخالفاً ، وفي اعتقادي مبايناً - أن اجتماع
المتباينين فيما يقعُ بصلاحيهما أولى في حكم العقل ، وطريق المعرفة [منه]
فيما أبادهما ، وعُاد بالضرر في اختيارهما عليهما .

وأنا ، وإن كنتُ كشفتُ لك قِنَاعَ الخِلاف ، وأبديتُ مكنونَ الضمير
بالمضادة ، وجاهدتني بنصرة الرأي والعقيدة في حُبِّ الظهور ، وتلفيق الفضائل
لها ، غَيْرُ مُسْتَشْعِرٍ لليأس من رَجْعَتِكَ ، ولا شاكٍ في لطائفِ حكمتك ،
وغوامضِ فطنتك .

وقد أعلمُ أن معك - بحمدِ الله - بصيرةَ المعتبرين ، وتمييزَ الموفقين
وأنتك إذا أنعمت فكراً وبحثاً ونظراً ، رَجَعْتَ إلى أصلِ قَوِيّ الانقياد
والموافقة ، ولم تتورط في اللجاجِ فِعْلَ المُعْجَبِينَ ، ولم يتداخلك غِرَّةُ
المنتحلين ؛ فإننا رأينا قوماً انتحلوا الحكمةَ وليسوا من أهلها ، بل هم أعلامُ
الدُّعوى ، وحلفاءُ الجهالة ، وأتباعُ الخطأ ، وشيخُ الضلالة ، وخَوَلُ النقص ،
الذين قامت عليهم الحُجَّةُ بما نَحَلوه أنفسهم من اسمها ، وسُلبوه من فهمِ
عظيمِ قدرها ومعرفةِ جليلِ حَظِّها ، ولم يَجْلُوا الرِّينَ عن قلوبهم والصدأ عن
أسماعهم ، بالتنقيير والبحثِ والتكشُّف ، ولم ينصبوا في عقولهم لأنفسهم أصلاً
يثلون في اعتقادهم عليه ، ويرجعون عند الحيرة في اختلاف آرائهم إليه .
فصلُّوا ، وأصبحَ الجهلُ لهم إماماً ، والسُّفهاءُ لهم قادةً وأعلاماً .

ونحن نسالُ الله بِحَوْلِهِ وَطَوْلِهِ وَمَنَّهُ ، ألا يجعلَكَ من أهلِ هذه الصِّفَةِ ،
وأن يُرِيكَ الحقَّ حقاً فتتبعه ، والباطلَ باطلاً فتجتنبه ، وأن يُعْمِنَا بِسِرَّةِ هذا
الدعاء ، وجماعةَ المسلمين ، وأن يأخذ [إلى] الخيرِ بنواصينا ، ويجمع على

الهُدَى قُلُوبِنَا ، وَيُؤَلَّفَ فِيهِ ذَاتَ بَيْنِنَا ، فَإِنَّكَ مَا عَلِمْتَ - وَأَتَقَلَّدُ فِي ذَلِكَ أَمَانَةَ الْقَوْلِ - مِمَّنْ أَحَبُّ مَوَافَقَتَهُ وَمُخَالَطَتَهُ ، وَأَنْ يَكُونَ فِي فَضْلِهِ مَقْدَمًا ، وَعَنْ كُلِّ عَضِيهَةٍ مِنْزَاهًا .

وما أعلم حالاً أنا عليها في الرغبة لك فيما أرغب لنفسي فيه ، والشُّرُورِ بتكامل أحوالك ، واستواء مذهبك ، وما أزابنُ به من إرشادك ونصيحتك ، وتسديدك وتوفيقك ، إلا وصدق الطَّوْبَةِ مِنِّي فيها أبلغ من إسهامي في فضل صفتها . والله تعالى المُعِينُ والمُؤَيِّدُ والمُوفِّقُ ، والمُبدِعُ ، وَحَدَّهُ لا شريك له . والحمد لله ، كما هو أهله ، وصلى الله على محمد وآله وسلم كثيراً .

[٣ - الشريعة تنهى عن الظهور]

يا أخي - أرشدك الله - إنك أغرقت في مدح الظاهر من الجهة التي كان ينبغي لك أن [تذمها ، وقدمتها من الجهة التي ينبغي لك أن] تؤخرها . وآثرتها وهي محققة بأن ترفضها .

وما رأينا هلاك الأمم الخالية ، من قوم لوط ، وثمود وأشباعهم وأتباعهم ، وحلول الخسف والرجفة والآيات المثلات والعذاب الأليم والريح العقيم ، والغير والنكير ووجوب نار السعير ، إلا بما دانوا به من اختيار الظهور . قال الله تعالى ، في قصة لوط : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ . وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ .

فدُمهم الله - تبارك وتعالى - كما ترى ، وبلغ بهم في ذكر ما استعظم من عنوهم إلى غاية لا تدرك صفتها ، ولا يُوقَف على حدِّها مع أي كثيرة قد أنزلها فيهم ، وقصص طويلة قد أنبأ بها عنهم ، وروايات كثيرة أثرها فيمن كان من طبقتهم .

وسنأتي منها بما يقع به الإكفاية دون استفراغ الجميع ، مما حُمِلته
الرِّوَاة ، ونَقَله الصالحون .

فصل منه : والحقُّ بينَ لمن التمسَه ، والمنهَجُ واضحٌ لمن أراد أن
يسلُكَه . وليس في العنودِ دَرَكٌ ولا مع الاعترامِ قَلَجٌ . والرُّجوعُ إلى الحقِّ خيرٌ
من التُّمادي في الباطل ، وتركُ الذَّنْبِ أيسرُ من التماسِ الحُجَّةِ ، كما كانَ غَضُّ
الطَّرْفِ أهونَ من الحنينِ إلى الشهوة . وبالله تعالی التوفيق .

[٤ - فضائل البطون في القرآن والسنة والحكم]

فصل منه : نبدأ الآن بذكر ما خصَّ الله به البُطون من الفضائل ، ليرجع
راجعٌ ، ويُنيبَ منيبٌ مفكِّرٌ ، وينتبه راقِدٌ ، ويُبصِرَ متحيرٌ ، ويستغفر مذنبٌ ،
ويستقبل مخطيءٌ ، وينزع مُصِرٌ ، ويستقيم عانِدٌ ، ويتأمل غمرٌ ، ويرشد
غويٌ ، ويعلم جاهلٌ ، ويزداد عالمٌ .
قال الله عزَّ وجل فيما وصف به النحل : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ
مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ .

وَبِعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي خَيْرِ بُطُونِ قَرِيشٍ .

ووجدنا الأغلبَ في صفةِ الرجل أن يقال إنه معروفٌ بكذا مُذْ خَرَجَ مِنْ
بَطْنِ أُمِّهِ ، ولا يقال من ظهر أبيه .

ويقال في صفات النساءِ : « قُبُّ البَطونِ نواعِمٌ » . ويقال : خُمَصَانَةُ
البَطْنِ ، ولا يقال : خُمَصَانَةُ الظَّهْرِ .

ويقال : فلانٌ بَطْنٌ بالأُمورِ ، ولا يقال : ظَهْرٌ . ويقال : بِطَانَةُ الرَّجُلِ
وطهارته ، فيبدأ بالبطانة .

وبطن القِرطاس خيراً من ظهره ، وبطن الصُّحيفة موضع النُّفَع منها لا
ظهرها ، وبِبطنِ القَلَمِ يُكْتَبُ لا بظهره ، وبِبطنِ السُّكِّينِ يُقَطَعُ لا بظهرها .

وخلق الله جلُّ وعزُّ آدمَ من طينٍ ، ونَسَلَهُ من بطنِ حَوَاءَ . -

ورأينا أكثر المنافع من الأغذية في البُطون لا في الظُّهور ؛ فبطون البقر
أطيب من ظهورها ، وبطن الشاة كذلك .

ومن أفضل صفات عليٍّ رضي الله عنه أن كان أحمصَ بطينا .

وأسمَعُ من غنائهم :

بطني علي بطنك يا جاريه لا نَمَطاً نَبِغِي ولا باريه
ولم يقل « ظهري على ظهرك » ، فجعل مماسة البطن غانياً عن الوطاء ،
كافياً من الغطاء .

ولو لم يكن في البطن من الفضيلة إلا أن الوجه الحسن ، والمنظر الأنيق
من حيزه ، وفي الظهر من العيب ، إلا أن الدُّبُرَ في جانبه ، لكان فيها أوضح
الأدلة على كرم البطن ولُؤْمِ الظهر .

ولم نرهم وصفوا الرجل بالفحولة والشجاعة إلا من تلقائه ، وبالحُبث
والأبنة إلا من ظهره .

وإذا وصفوا الشجاع قالوا : مرُّ فلان قُدماً ، وإذا وصفوا الجبان قالوا :
وَلِي مُدْبِراً .

ولشَّتَانِ بين الوصفين : بين من يلقي الحربَ بوجهه وبين من يلقاهُ
بقفاه ، وبين الناكح والمنكوح ، والراكب والمركوب ، والفاعل والمفعول ،
والآتي والمأتي ، والأسفل والأعلى ، والزائر والمزور ، والقاهر والمقهور .

ولما رأينا الكنوز العادية والدُّخائِرَ النفسية ، والجواهرَ الثمينة مثل الدرِّ

الأصفر ، والياقوتية الأحمر ، والزُّمرد الأخضر ، والمسك والعنبر والعقيان
 واللجين ، والزُّرنخ والزُّنبق ، والحديد والبُورق ، والنَّفط والقار ، وصُنوفِ
 الأحجار ، وجميع منافع العالم وأدواتهم وآلاتهم ، لحربهم وسلمهم ، وزرعهم
 وضرعهم ، ومنافعهم ومرافقهم ومصالحهم ، وسائر ما يأكلونه ويشربونه ،
 ويلبسونه ويشمونه ، ويتفعمون برائحته وطعمه ، ودائع في بطون الأرض ،
 وإنما يُستنبط منها استنباطاً ، ويُستخرج منها استخراجاً ، وإن على ظهرها
 الهوامُ القاتلة ، والسباع العاديّة التي في أصغرِها تَلَفُ النفوس ودواعي الفناء
 وعوارضُ البلاء ، وأنه قل ما يمشي على ظهرها من دابةٍ ، إلا وهو للمرء
 عدوٌّ ، وللموتِ رسولٌ ، وعلى الهلكة دليل - لم يمتنع [في] عقولنا ، وآرائنا
 ومعرفتنا من الإقرار بتفضيل البطن على الظهر في كل وقت ، وعلى كل حال .

ومن فضيلة البطن على الظهر أن أحداً إن ابتلي فيه بداءٌ كان مستوراً ،
 وإن شاء أن يكتمه كتمه عن أهله ، ومن لا ينطوي عنه شيءٌ من أمره ، وغايرِ
 دهره .

ومن بلية الظهر أنه إن كان داءً ظهرَ وبان ، مثل الجرب والسُّع والخنازير
 وما أشبهها ، مما سَلِمَتْ منه البطون وجُعِلَ خاصاً في الظهور .

[٥ - حرم الله إتيان النساء من دبرهن]

وفضَّل اللهُ تعالى البطونَ بأن جعل إتيانَ النساءِ، وطلبَ الولدِ ، والتماسِ
 الكثرةِ مباحاً من يَلقائِها ، محرماً في المَحاشِرِ من ورائِها ، لأنه حرامٌ على الأمةِ
 إتيانُ النساءِ في أدبارهنَّ ، لما جاء في الحديث عن الصادقِ صلى اللهُ عليه
 وسلم : « لا تَأْتُوا النِّسَاءَ فِي مَحَاشِينَهُنَّ » .

وقد ترى بِطَانَةَ الثوبِ تقومُ بنفسِها ، ولا ترى الظُّهارةِ تستغني .

وجعل الله تعالى البطنَ وعاءَ لخير خلقه محمدٍ صلى الله عليه وسلم ،
ثم جعل أولَ دلائلِ نبوته أن أهبطَ إليه ملكاً حين أُنْفَع ، وهو يدْرُج مع غلمانِ
الحيِّ في هوازن ، وهو مسترضعُ في بني سعد ، حين شقُّ عن بطنه ، ثم
استخرج قلبه فحسبي نوراً ، ثم ختم بخاتم النبوة . ولم يكن ذلك من قبَل
الظَّهر .

فصل منه : ومما فضلت به البطنونُ : أن لحم السُرَّة من الشاة أطيبُ
اللحم ، ولحمُ السُرَّة من السمك الموصوفُ ، وسُرَّة حمارِ الوحش شفاءٌ يتداوى
بها ، ومن سُرَّة الظباء يُستخرج المسك . وهذا كله خاصُّ للبطنون ليس للظهور
منه شيء .

وبدأ الله عز وجل في ذكر الفواجش بما ظهر منها ، ولم يبدأ بما بطن
فقال : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ﴾ ، فجعله ابتداءً في
الدم .

والظَّهر في أكثر أحواله سَمِجٌ ، والبطن في أكثر أحواله حَسَنٌ . والظَّهر
في كلِّ الأوقات وَحْشَةٌ وَوَحْشٌ ، والبطن في كلِّ الأوقات سَكَنٌ وَأَنَسٌ .

[٦ - محاسن المرأة من جهة البطن لا الظهر]

ولم نرهم حين بالغوا في صفات النساءِ بدأوا بذكرها إلا من جهة البطن
فقالوا : مُدْمَجَةُ الْخَضِرِ ، ا لَّذِيذَةُ الْعِنَاقِ ، طَيِّبَةُ النُّكْحَةِ ، حُلُوةُ الْعَيْنَيْنِ ، سَاحِرَةٌ
الطَّرْفِ ، كَأَنَّ سُرَّتَهَا مُدْهَنٌ ، وَكَأَنَّ فَاهَا خَاتَمٌ ، وَكَأَنَّ ثَدْيَيْهَا حُقَّانِ ، وَكَأَنَّ
عَنْقَهَا إِبْرِيْقُ فِضَّةٍ . وليس للظهور في شيء من تلك الصفات حظٌ .

[٧ - جد الزاني واللوطي]

وأتى نبلُغ في صفة البطنون ، وإن أسهبنا ، وكم عسى أن نحصي من

معايب الظهور وإن اجتهدنا وبالغنا . ألا ترى أن حد الزاني ثمانون جلدة ما لم يكن مُحَصَّنًا ، وحد اللوطي أن يُحْرَق . وكلاهما فجورٌ ورجاسة ، وإثمٌ ونجاسة . إلا أن أيسر المكروهين أحق بأن يميل إليه من ابتلي ، وخير الشرين أحسن في الوصف من شر الشرين .

ولو أننا رأينا رجلاً في سوقٍ من أسواق المسلمين يقبل امرأة فسألناه عن ذلك ، فقال : امرأتي . وسألوها فقالت : زوجي - لدرأنا عنهما الحد ، لأن هذا حكم الإسلام . ولو رأينا يقبل غلاماً لأدبناه وحبسناه ؛ لأن الحكم في هذا غير الحكم في ذلك .

ألا ترى أنه ليس يمتنع في العقول والمعرفة أن يقبل الرجل في حب ما ملكت يمينه حتى يقبلها في الملا كما يقبلها في الخلا ، يصدق ذلك حديث ابن عمر : « وَقَعْتُ فِي يَدِي جَارِيَةً يَوْمَ جَلُولَاءَ كَأَنَّ عُنُقَهَا إِبْرِيْقُ فِضَّةٍ فَمَا صَبَرْتُ حَتَّى قَبَلْتُهَا وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ » .

[٨ - تفضيل الظهر على البطن بشر الشك]

فصل منه : وقد رأيت منك أيها الرجل إفراطك في وصف فضيلة الظهور ، وفي محل الرؤية وقعت ، لأننا روينا عن عمر أنه قال : « من أظهر لنا خيراً ظننا به خيراً ، ومن أظهر لنا شراً ظننا به شراً » .

وإنما يصف فضل الظهر من كان مغرماً بحب الظهور ، وإلى ركوبه صباً ، وبالنوم عليه مستهتراً ، وبالولوع بطلبه موكلاً ، ومن كان للحلال مباحياً ، ولسبيله مفارقاً ، ولأهله قالياً ، وللحرام معاوداً ، وبجبله مستمسكاً وإلى قربه داعياً ، ولأهله موالياً .

وقد اضطررتنا بتصويرك المفضول فاضلاً ، والعام خاصاً ، والخسيس

نفسياً ، والمحمودة مذمومة ، والمعروف منكراً ، والمؤخر مقدماً والمقدم مؤخراً ،
والحلال حراماً ، والحرام حلالاً ، والبِدعة سُنَّة ، والسُنَّة بدعة ، والحظَر
إطلاقاً ، والإِثلاق حَظراً ، والحقيقة شُبْهة والشُبْهة حقيقة ، والشين زِيناً والزين
شِيناً ، والزجر أمراً والأمر زَجراً ، والوهم أصلاً والأصل وهماً ، والعلم جهلاً
والجهل فضلاً - إلى أن أدخلنا عليك الظن ، وألحقناك التهمة ، ونسبناك إلى
غير أصلك ، ونحلناك غير عقيدتك ، وقضينا عليك بغير مذهبك . و « يداك
أو كفا ، وفاك بفتح » . فلا يبعد الله غيرك !

أوجدنا أيها الضالُّ المَضِلُّ ، المغلوب على رأيه ، المسلوب فهمه ،
المؤلَّى على تمييزه ، الناكص على عقبه في اختياره ، المفارق لأصل عقده ،
المُدبر بعد الإقبال في معرفته ، الساقط بعد الهوى في ورطته ، المتخلى من
فهمه ، الغني عن إفهامه ، المضيع لحكمته ، المنزوع عقله ، المختلس لُبه ،
المستطار جنانه ، المعدوم بيانه ، في الظهور بعد الفضائل التي أوجدناكها في
البطون ، إما قياساً ، وإما اختياراً ، وإما ضرورة ، وإما اختباراً وإما اكتساباً ،
أو في كتاب منزل ، أو سنة مأثورة ، أو عادة محمودة ، أو صلاح على خير .

أم هل لك في مقالتي في إمام تاتم به ، أو أستاذ تفتني أثره ، وتهتدي
بهداه ، وتسلك سننه .

فصل منه : وقد حَضتني عليك عند انتهائي إلى هذا الموضوع رقة ،
وتداخلتني لك رحمة ، ووجدت لك بقية في نفسي ؛ لأنه إنما يُرحم أهل
البلاء .

والحمد لله الذي عافانا مما ابتلاك به ، وفضلنا على كثير من خلقه
تفضيلاً .

فرايت أن أختتم بأبسط الدعاء لك كتابي ، وأن أحرز به أجري وثوابي ،

ورجوت أن تُنَيَّبَ وترجع بعد الجِماج واللُّجاج ، فإنَّ للجواد استقلالاً بعد الكِبوة ، وللشُّجاع كَرَّةً بعد الكَشْفة ، وللحليم عطفةً بعد النُّبوة .

وأنا أقول : جعلنا الله وإياك ممن أبصر رُشدَه ، وعرفَ حَظَه ، وآثرَ الإنصاف واستعمله ، ورفض الهوى وأطرحه ؛ فإنَّ الله تعالى لم يبتلِ بالهوى إلا من أضلَّهُ ، ولم يُبَعِدْ إلا من استبعده .

[٩ - فصل في ذم اللواط^(١)]

والذي يدل على ان هذه الشهوة معيبة في نفسها ، قبيحة في عينها ، ان الله تعالى وعز لم يعوض في الآخرة بشهوة الولدان من ترك لوجهه في الدنيا شهوة الغلمان . كما سقى في الآخرة الخمر من تركها له في الدنيا ، ثم مدح خمر الجنة باقصر الكلام ، فنظم به جميع المعاني المكروهة في خمر الدنيا فقال : ﴿ لا يصدعون عنها ولا ينزفون ﴾ . كأنه تبارك وتعالى قال : لا سكر فيها ولا خمار .

مرکز تحقیقات کتب و تاریخ اسلام

وفي اكتفاء الرجال بالرجال والنساء بالنساء انقطاع النسل ، وفي انقطاع النسل بطلان جميع الدين والدنيا . وغشيان الرجل الرجل والمرأة المرأة من المنكوس المعكوس ، ومن المبدل المقلوب ؛ لأن الله جل ذكره انما خلق الذكر للانثى ، وجعل بينهما اسباب التحاب وعلائق الشركة ، وعلل المشاكلة وجعل الذكر طبقاً للانثى ، وجعل الانثى سكناً للرجل . فقلب هؤلاء الامر وعكسوه ، واستقبلوا من اختار الله لهم بالرد والزهد فيه .

(١) هذه الصفحة وردت وسط كتاب المعلمين في طبعة عبد السلام هارون وهي بدون شك مقحمة على الكتاب وربما اختيرت من كتاب ذم اللواط الضائع . ورأينا من المناسب الحاقها بكتاب تفضيل البطن على الظهر الذي يعالج الموضوع ذاته .

٤ - هامش تفضيل البطن على الظهر

- (١) الجاحظ يعلن موقفه الجازم من الموضوع : انه ليس راضٍ باختيار من يفضل الظهر على البطن ، ولا مسلماً لمذهبه ، ولا موافقاً فيه ، او مساعداً عليه .
- (٢) الجاحظ ينصح ويرشد ويسدد الخطي . وكأنه ينفي عن نفسه تهمة الميل الى مذهب من يفضل الظهر على البطن .
- (٣) الشريعة تنهي عن اللواط . والاستشهاد بالآيات القرآنية دليل على اهتمام الجاحظ بعلم الكلام .
- (٤) بطون قریش : ما تنفرع اليه من عشائر .
- لاحظ استغلال اللغة في تأييد آرائه : بطن الامر خير من ظهره . بطن القرطاس خير من ظهره ، بطن الصحيفة خير من ظهرها الخ . .
- السلع جمع سلعة : زيادة في الجسد كالغدة .
- (٥) المحاش ، جمع المحشة ، اي الدبر .
لاحظ المعجزة النبوية : الملاك يشق بطن النبي حين ايقع ويحشو قلبه نوراً ويختمه .
- (٦) مدهن : قارورة الدهن .
مدمجة الخصر : مستقيمة الخصر ، محكمة الخصر .
- (٧) لاحظ كيف يستغل الفرق بين حد الزاني وحد اللوطي لتأييد رأيه وكذلك تفصيل الغلام والمرأة .

(٨) لاحظ هذا القلب الممثل : صيرت المؤخر مقدماً والمقدم مؤخراً ، والحلال حراماً
والحرام حلالاً ، والبدعة سنة والسنة بدعة . . . الخ . . هل تظن ان الجاحظ
كان غافلاً عن هذه اللعبة البيانية ؟
- يداك اوكتا ، وفاك نفخ « مثل يضرب لمن يجني على نفسه .



مركز تحقيقات كميپوز علوم اسلامي

- ۵ -

کتاب
مفاخرة الجوارى والغلمان
مرکز تحقیقات کتب و تاریخ علوم اسلامی

[١ - موضوع الكتاب ومبررات مزج الجد بالهزل]

بالله نستعين واياه نستهدي وعليه نتوكل .

ان لكل نوع من العلم اهلاً يقصدونه ويؤثرونه ، واصناف العلم لا تحصى ، منها الجزل ومنها السخيف . واذا كان موضع الحديث على أنه مضحك ومله ، وداخل في باب حد المزح ، فابدلت السخافة بالجزالة انقلب عن جهته ، وصار الحديث الذي وضع على أن يسر النفوس يكرهها ويغمرها .

ومتى كان صاحب علم ممرناً موقحاً ، الف تفكير وتنقيب ودراسة ، وحلف تبين ، وكان ذلك عادة له ، لم يضره النظر في كل فن من الجد والهزل ؛ ليخرج بذلك من شكل الى شكل . فان الاسماع قد تمل الاصوات المطربة والاورار الفصيحة والاغاني الحسنة ، اذا طال ذلك عليها .

وقد روي عن ابي الدرداء ، رضي الله عنه ، انه قال : « اني لاستجم نفسي ببعض الباطل مخافة ان أحمل عليها من الحق ما يملها » .

وقد روي عن علي بن ابي طالب رضي الله عنه انه قال : « العلم اكثر من أن يحصى ، فخذوا من كل شيء احسنه » .

وروي عن الشعبي أنه قال : « إِنَّ القلوب تملُّ كما تملُّ الأبدان ، فابتغوا لها طرائف الحكمة » .

وبعض من يُظهر النسك والتقشُّف إذا ذُكر الجِرُّ والأير والنَّيك تقزُّز وانقبض . وأكثر من تجده كذلك فإنما هو رجلٌ ليس معه من المعرفة والكرم ، والنُّبل والوقار ، إلا بقدر هذا التصنع .

ولو علم أن عبد الله بن عباس أنشد في المسجد الحرام وهو مُحَرَّم :

وَمَنْ يَمْشِيْنَ بِنَا هَمِيْسَا إِنَّ تَصَدَّقِ الطَّيْرُ نَنْكَ لَمِيْسَا

ف قيل له : إن هذا من الرُّفْت ! فقال : إنما الرُّفْت ما كان عند النساء

وقول عليّ رضوان الله عليه ودخل على بعض أهل البصرة ، ولم يكن في حَسَبه بذاك ، فقال : مَنْ في هذه البيوت ؟ فقال : عقائل من عقائل العرب . فقال : « مَنْ يَطَّلُ أَيْرُ أَبِيهِ يَنْتَلِقُ بِهِ » روي

فعلى عليّ في التَّنْزَه يُعَوَّل .

وقول أبي بكر الصديق رضي الله عنه لبديل بن ورقاء يومَ الحُدَيْبِيَّة ، وقد تهدَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم : « غَضَضَتْ يَسْطَرُ اللات ، أنحنُّ نخذله ! » .

وقول حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه : « وأنت يا ابنَ مقطعة البُظور ممن يكثر علينا ! » .

وحديث مرفوع : « مَنْ عَذِيْرِي مِنْ ابْنِ أُمِّ سَبَاعٍ مَقْطَعَةُ البُظُورِ » .

ولو تتبعت هذا وشبهه وجدته كثيرا .

وإنما وُضعت هذه الألفاظ ليستعملها أهل اللغة ، ولو كان الرأي ألا يُلفظ بها ما كان لأول كونها معنى ، ولكن في التحريم والصون للغة العرب أن تُرفع هذه الأسماء والألفاظ منها .

وقد أصاب كل الصواب من قال : « لكل مقام مقال » .

ولو كان ممن يتصوف ويتقشف ، عَلِم قول امرأة رِفَاعَةَ الْقُرْظِيَّ تَجِبُهُ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم غير محتشمة : « إني تزوجت عبد الرحمن بن الزبير ، وإنما معه مثل هُدبة الثوب ، وكنت عند رِفَاعَةَ فطلقتني - ورسول الله صلى الله عليه وسلم ما يزيد على التبسم حتى قضت كلامها - فقال : « تريدان أن ترجعي إلى رِفَاعَةَ ؟ لا ، حتى تذوقني من عَسيلته ويزدوني من عَسيلتك » . ورواه ابن المبارك عن معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها - لعلم أنه على سبيل التصنع والرياء .

ولو سمعوا حديث ابن حازم حين زعم أنه يُقيم ذكره ويصعد السلم وامرأته متعلقة بذكره حتى يصعد  *مرزوقية كوكبير علوم رسولي*

وحديث ابن أخي أبي الزناد إذ يقول نعمه : « أنخر عند الجماع ؟ قال : يا بُني إذا خلوت فاصنع ما أحببت . قال : يا عم ، أتنخر أنت ؟ قال : يا بني ، لو رأيت عمك يجامع لظننت أنه لا يؤمن بالله العظيم !

وهذان من ألفاظ المُجان .

وروى عن بعض الصالحين من التابعين رحمه الله ، أنه كان يقول في دعائه : اللهم قوْ ذكري على نكاح ما أحللت لي .

ونحن لم نقصد في ذكرنا هذه الأخبار الرد على من أنكر هذه الأمور ، ولكننا لما ذكرنا اختصاص الشتاء والصيف ، واحتجاج أحدهما على صاحبه ، واحتجاج صاحب المعز والضأن بمثل ذلك ، أحيينا أن نذكر ما جرى بين

اللأطة والزناة ، وذكرنا ما نقل حُمّال الآثار وروّته الرواة ، من الأشعار
والأمثال ، وإن كان في بعض البطالات ، فأردنا أن نقدّم الحجّة لمذهبنا في
صدر كتابنا هذا .

ونعوذ بالله أن نقول ما يُوتغ ويُردّي ، وإليه نرغب في التأييد والعصمة ،
ونسأله السلامة في الدين والدنيا برحمته .

* * *

[٢ - ذكر الولدان والجواري في القرآن]

قال (صاحب الغلمان) : إن من فضل الغلام على الجارية أن الجارية
إذا وُصفت بكمال الحسن قيل : كأنها غلام ، ووصيفة غلامية .

لها قدُ الغلام وعارضاهُ وتفتير المبتلة اللعوب



وقال :

فطُبّ لحديثٍ من نديمٍ موافقٍ وساقية بين المراهق والحلم
إذا هي قامت والسُداسي طالها وبين النحيف الجسم والحسن الجسم

وقال والبة بن الحُباب :

وميراثية تمشي اختيالاً من التكريه قاتلة الكلام
لها زيُّ الغلام ولم أقسها إليه ولم أقصر بالغلام

وقال عكاشة :

مطمومة الشَّعر في قُمصٍ مزرورةٍ في زيِّ ذي ذكرٍ سيماءُ بيماهما

وأكثر من قول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ

مَكْنُونٌ ﴿ وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ . بِأَكْوَابٍ
وَأَبَارِيقَ ﴾ . فوصفهم في غير موضع من كتابه ، وشوق إليهم أوليائه .

قال (صاحب الجوارى) : قد ذكر الله جلُّ اسمه الحورَ العينَ أكثرَ مما
ذكر الولدان ، فما حجتك في هذا إلا كحجتنا عليك .

ومما صان الله به النساء أنه جعل في جميع الأحكام شاهدين : منها
الإشراك بالله ، وقتل النفس التي حرم الله تعالى ؛ وجعل الشهادة على المرأة
إذا زُمت بالزنى أربعة مجتمعين غير مفترقين في موضع ، يشهدون أنهم رأوه
مثل الجبل في المكحلة . وهذا شيء لا عسير ؛ لما إراد الله من إغماض هذا
الحدِّ إذ جعل فيه الشدخ بالحجارة .

وإنما خلق الله الرجال بالنساء .

وريحُ الجارية أطيبُ ، وثيابها أعطرُ ، ومشيها أحسن ، ونغمتها أرقُ ،
والقلوب إليها أميلُ ، ومتى أردتها من قدامٍ أو خلفٍ من حيث يحسن ويحلُّ
وجدت ذلك كما قال الشاعر :

وصيفةٌ كالغلامِ تصلحُ للـ أمرينِ كالغصنِ في ثنيتها
أكملها الله ثم قال لها لما استمت في حُسبها : إليها

قال : ونظر بعض الحاجِّ إلى جاريةٍ كأنها ثَمِيَّةٌ في محرابٍ ، قد أبدت
عن ذراعٍ كأنه جُمارةٌ ، وهي تكلمُ بالرُّفثِ ، فقال : يا هذه ، تكلمينِ بمثلِ
هذا وأنت حاجَّةٌ ! قالت : لستُ حاجَّةٌ ، وإنما يحجُّ الجمَلُ ، أَلستُ تراني
جالسةً وهو يمشي ! قال : ويحكِ ، لم أر مثلكِ فمن أنتِ ؟ قالت : أنا من
اللواتي وصفهنَّ الشاعرُ فقال :

ودقتُ وجَلتُ واسبكرتُ وأكملتُ فلو جُنَّ إنسانٌ من الحُسنِ جُنَّتِ

[٣ - الغلمان والجواري في الحديث النبوي]

قال (صاحب الغلمان) : إن أحداً لا يدخل الجنة إلا أمرد ، كما جاء في الحديث : « إن أهل الجنة يدخلونها مرداً مكحلين » . والنساء إلى المرء أميل ، وله أشهى ، كما قال الأعشى :

وأرى الغواني لا يواصلن امرأً فقد الشباب وقد يصلن الامردا
وقال امرؤ القيس :

فيا رب يومٍ قد أروح مرجلاً حياً إلى البيض الأوانسِ أملسا
أراهن لا يحبين من قل مائة ولا من راين الثيب فيه وقوسا
وقال علقمة بن عبدة :

فإن تسألوني بالنساء فإني بصيرٌ بأدواء النساء طيبُ
إذا شاب رأسُ المرء أو قل ماله فليس له في ودّهن نصيبُ
يردّن ثراءَ المالِ حيث علمته وشرخُ الشباب عندهن عجيبُ

قال (صاحب الجواري) : فإن الحديث قد جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم : « حُبب إلي النساء والطيب ، وجعلت قرّة عيني في الصلاة » . ولم يأت للغلمان مثل هذه الفضيلة . وقد فتن بالنساء الأنبياء عليهم السلام ، منهم داود ، ويوسف ، عليهما السلام .

[٤ - حد الزنى واللواط]

قال (صاحب الغلمان) : لو لم يكن من بلية النساء إلا أن الزنى لا يكون إلا بهن ، وقد جاء في ذلك من التغليظ ما لم يأت في غيره في الكتاب نصاً ، وفي الروايات الصحيحة . قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجِيَّ ﴾

إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿١٠﴾ ، وقال : ﴿ وَلَا يَرْشُدُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴾ ، وقال : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ ﴾ . وقد جعل بينهما إذا لم يكن شهودُ التلاعُن والفرقة في عاجل الدنيا ، إلى ما أعد للكَاذِبِ مِنْهُمَا مِنَ اللَّعْنِ وَالغَضَبِ فِي الْآخِرَةِ .

قال (صاحب الجوارى) : ما جعلَ اللهُ مِنَ الحَدِّ عَلَى الزَّانِي إِلَّا مَا جَعَلَ عَلَى اللُّوطِيِّ مِثْلَهُ . وقد رُوِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، أَنَّهُ أَتَى بِلُوطِيٍّ ، فَأَصْبَعَهُ الْمِثْدَنَةَ ثُمَّ رَمَى مِنْكُأً عَلَى رَأْسِهِ ، وَقَالَ : « هَكَذَا يُرْمَى بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ » .

وَحَدَّثَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، أَنَّهُ أَتَى بِلُوطِيٍّ فَعَرَّقَبَ عَلَيْهِ حَائِطًا .

وَحَدِيثُ أَبِي بَكْرٍ أَيْضًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، أَنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ كَتَبَ إِلَيْهِ فِي قَوْمٍ لَا طَوْلَ لَهُمْ إِلَّا بِأَحْرَاقِهِمْ .

مركز تحقيقات كليات علوم الشريعة
جامعة الإمام محمد بن سعود

وَأَحْرَقَهُمْ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَأَحْرَقَهُمْ خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بِأَمْرِ هِشَامٍ .

وَفِي حَدِيثٍ مُجَاهِدٌ أَنَّ الَّذِي يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ لَوْ اغْتَسَلَ بِكُلِّ قَطْرَةٍ مِنَ السَّمَاءِ وَكُلِّ قَطْرَةٍ فِي الْأَرْضِ لَمْ يَزَلْ نَجِسًا .

وَحَدِيثُ الزُّهْرِيِّ : « اللُّوطِيُّ يُرْجَمُ ، أَحْصِنَ أَوْ لَمْ يُحْصِنْ ؛ سُنَّةٌ مَاضِيَةٌ » .

وَرُوِيَ عَنِ الْحَكَمِ بْنِ عُثَيْبَةَ أَنَّ عَلِيًّا رَحِمَهُ اللهُ رَجَمَ لُوطِيًّا وَقَالَ : « لَعَنَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذَّكَرَيْنِ يَلْعَبُ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ » .

وَحَدِيثُ أَنَسٍ قَالَ : « لَعَنَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُؤَنَّثِينَ مِنَ الرِّجَالِ ، وَالْمَذْكُورَاتِ مِنَ النِّسَاءِ » .

وقد نفى رسول الله صلى الله عليه وسلم مخنثاً من المدينة يقال له « هيت » وسمعه يقول لأم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا فتحت الطائف فعليك بادية بنت غيلان ، فإنها هيفاء شموع ، إذا قامت ثنت ، وإذا تكلمت تغنت ، تُقبل بأربع وتدبر بثمان ، وبين رجلها كالإناء المكفوء ، فزوجهها عمر ابنك » . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد تغلغلت في النظر يا عدو الله ، وما ظننتك من ذوي الإربة ! » ، فنفاه عن المدينة .

[٥ - النبي يحث على الزواج والانجاب]

قال (صاحب الغلمان) : من عيوب المرأة أن الرجل إذا صاحبها شيب رأسه ، وسهكت ريحته ، وسودت لونه ، وكثر بولُه . ومن مصاد إبليس وحبائل الشيطان ، يتعين الغني ، ويكلفن الفقير ما لا يجد . وكم من رجل تاجر مستور قد فلست امرأته حتى هام على وجهه ، أو جلس في بيته ، أو أقامته من سوقه ومعاشه .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء » .

قال (صاحب الجوارى) : قد جاء الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « تزوجوا فإني مكاثركم الأمم » .

وجاء عنه : « إذا قضيتُم غزوكم فالكيس الكيس » . يعني النكاح .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « مسكين مسكين رجل لا زوجة له . مسكينة مسكينة امرأة لا بعل لها » .

وجاء عنه صلى الله عليه وسلم : « تزوجوا والتمسوا الولد ، فإنهم ثمرات القلوب . وإياكم والعجز العقر » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر أهل عصره نساء ، وكذلك كانت الأنبياء عليهم السلام قبله .

وقد أنبأك الله عز وجل بخبر داود عليه السلام في القرآن ، وما روى أنه كان لسليمان عليه السلام .

وقد تزوج ابن مسعود في مرضه الذي مات فيه .

وقال معاذ : زوجوني لا ألقى الله تعالى وأنا عزب .

وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال : إني لأجهد نفسي في النكاح حتى يخرج الله مني نسمة تسبحه .

وروي أنه قال : عليكم بالأبكار الشواب ؛ فإنهن أطيب أفواهاً ، وأنتن أرحاماً .



والحديث في هذا أكثر من أن نأتي عليه.

مركز تحقيقات كويتية للدراسات الإسلامية

[٦ - عيوب الزنا]

قال (صاحب الغلمان) : إن من عيوب الجواري أن الرجل إذا اشترى الوصيصة إلى أن يستبرئها محرماً عليه أن يستمتع بشيء منها قبل ذلك ، والوصيف لا يحتاج إلى ذلك . وقد قال الشاعر :

فديتُك إنما اخترناك عمداً لأنك لا تحيض ولا تبيضُ

وقد جاء في الحديث أن الزنى فيه ست خصال : ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة . فأما التي في الدنيا فيذهب بالبهاء ، ويعجل الفناء ، ويقطع الرزق من السماء . وأما اللواتي في الآخرة فالحساب ، والعذاب ، ودخول النار .

وروي عن مجاهد ، قال : إن لأهل النار صرخة من ريح الزناة .

وقالوا : إن أهل النار ليتأذون بريح الزناة .

[٧ - حب النساء يتيم صاحبه بعكس حب الغلمان]

قال (صاحب الجوارى) : لم نسمع بعاشق قتل حُب غلام . ونحن نعدُّ من الشعراء خاصة الإسلاميين جماعة ، منهم جميل بن معمر قتل حُب بُيُنة ، وكثير قتل حُب عزة ، وعروة قتل حُب عفراء ، ومجنون بني عامر هيمة ليلي ، وقيس بن ذريح قتلته لُبني ، وعبيد الله بن عجلان قتلته هند ، والغمر بن ضرار قتلته جُمَل . هؤلاء من أحصينا ، ومن لم نذكر أكثر .

قال (صاحب الغلمان) : لو نظر كثير وجميل وعروة ، ومن سميت من نظرائهم ، الى بعض خدام أهل عصرنا ممن قد اشتري بالمال العظيم قراة وشطاطاً ونقاء لون ، وحسن اعتدال ، وجودة قَدِّ وقوام ، لبذوا بُيُنة وعزة وعفراء من حالي ، وتركوهن بمزجر الكلاب . ولكنك احتججت علينا بأعراب أجلاف جفاة ، غُدوا بالبوُس والشقاء ونُشوا فيه ، لا يعرفون من رفاة العيش ولذات الدنيا شيئاً ، إنما يسكنون القفار ، وينفرون من الناس كنفور الوحش ، ويقتاتون القنافة والضباب ، وينفقون الحنظل ، وإذا بلغ أحدهم جهده بكى على الدُمنة ونعت المرأة ، ويشبهها بالبقرة والظبية ، والمرأة أحسن منهما . نعم حتى يشبهها بالحية ، ويسمّيها شوهاً وجرباءً ، مخافة العين عليها بزعمه .

فأما الأدباء والظرفاء فقد قالوا في الغلمان فأحسنوا ، ووصفوهم فأجادوا ، وقدموه على الجوارى ، في الجد منهم والهزل .

[٨ - اشعار في الغلمان والجواري]

وقال الشاعر يصف الغلام :

شبيهة بالقضيب وبالكثيب غريبُ الحسن في قدِّ غريبِ
بَرَاهُ اللهُ بَدْرًا فَوْقَ غَصَنِ ونيطٌ بحقوقه دِعْصُ الكَثِيبِ
أَغْنُ تَوْلُدِ الشُّهُوَاتِ مِنْهُ فما تَعَدُوهُ أهْوَاءُ القُلُوبِ
وما اِكْتَحَلَتْ بِهِ عَيْنُ فِصَاةٍ مَسْلَمَةَ الضَّمِيرِ مِنَ الذُّنُوبِ
شَغَلَتْ بِهِ الهَوَى وَنَزَعَتْ عَنْهُ ولم أدنَسْ بِهِ دَنَسَ المُرِيبِ

وقال آخر :

كَلِفْتُ بِظَبِيٍّ لَهُ سَوَالِفُ أَدْمَانِهِ
قَضِيبٌ عَلَى رَمْلَةٍ عَلَيَّ شُعْبَتِي بَانِهِ
لَهُ لِحْظٌ وَحَشِيَّةٌ وَالْقَاطُ أَنْسَانِهِ

وقال أبو نواس :

سَقِيًّا لَغَيْرِ العَلِيَاءِ وَالسَّنْدِ وَغَيْرِ أَطْلَالِ مَيِّ بِالجَرْدِ
وَيَا صَيِّبَ السُّحَابِ إِنْ كُنْتَ قَدْ جُدْتَ اللَّوَى مَرَّةً فَلَا تَعُدِ
لَا تَسْقِينُ بِلَدَّةٍ إِذَا عُدْتَ الـ بُلْدَانُ كَانَتْ زِيَادَةَ الكَيْدِ
إِنْ أَتَحَرَّرَ مِنَ القُرَابِ بِهَا يَكُنْ مَفْرِيٍّ مِنْهُ إِلَى الصُّرْدِ
بِحَيْثُ لَا تَجْلِبُ الفِجَاجُ إِلَى أَذْنِيكَ إِلَّا تَصَابِحُ النُّقْدِ
أَحْسَنُ عِنْدِي مِنَ انكِبَابِكَ بِالـ فِهُرٍ مُلْحًا بِهِ عَلَيَّ وَتَدِ
وُقُوفِ رِيحَانَةِ عَلَيَّ أُذُنِ وَمَسِيرِ كَأْسِ إِلَى فَمِ بِيَدِ
يَسْقِيكُهَا مِنْ بَنِي العِبَادِ رَشًّا مَنْتَسِبٌ عَيْدُهُ إِلَى الأَحْدِ
إِذَا بَنَى المَاءَ فَوْقَهَا حَبِيبًا صَلَّبَ فَوْقَ الجَبِينِ بِالسُّزْبِ

فيه رُضاباً [يجري] على بَرْدِ
رُبْعٍ وَأَنْمَى فِي الرُّوحِ وَالْجَسَدِ

أَشْرَبُ مِنْ كَفِّهِ الشَّمُولُ وَمَنْ
فَذَاكَ خَيْرٌ مِنَ الْبِكَاءِ عَلَى الْ-

قال (صاحب الجواري) : فقد قال أبو نواسِ الحَكَمِيُّ شاعرِكم أيضاً :

وَأَشْرَبُ عَلَى الْوَرْدِ مِنْ حَمْرَاءَ كَالْوَرْدِ
رَأَيْتَ حَمْرَتَهَا فِي الْعَيْنِ وَالْخَدِّ
مَنْ كَفَّ لَوْلُؤَةً مَمشُوقَةَ الْقَدِّ
خَمْرًا فَمَا لَكَ مِنْ سَكْرِينَ مِنْ بُدِّ
شَيْءٍ خُصِصْتُ بِهِ مِنْ بَيْنِهِمْ وَحَدِي

لَا تَبْكُ لَيْلَى وَلَا تَطْرَبُ إِلَى هِنْدِ
كَأْسًا إِذَا انْحَدَرَتْ فِي حَلْقِ شَارِبِهَا
فَالْخَمْرُ بِأَقْوَمَةٍ وَالْكَأْسُ لَوْلُؤَةٌ
تَسْقِيكَ مِنْ عَيْنِهَا سِحْرًا وَمَنْ يَدِهَا
لِي نَشُوتَانِ وَلِلنَّدَمَانِ وَاحِدَةٌ

وقال أيضاً :

وَدَاوِنِي بِالَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ
لَوْ مَسَّهَا حَجْرٌ مَسَّتْهُ سَرَاءُ
لَهَا مُجَبَانٌ : لَوْطِي وَزَنَاءُ
فَظَلُّ مِنْ وَجْهَهَا فِي الْبَيْتِ لِالَاءِ
كَأَنَّمَا أَخَذَهَا بِالْعَيْنِ إِغْفَاءُ
فَمَا يَصِيبُهُمْ إِلَّا بِمَا شَاءُوا
كَانَتْ تَكُونُ بِهَا هِنْدُ وَأَسْمَاءُ

دَعِ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللُّومَ إِغْرَاءُ
صَفْرَاءُ لَا تَنْزِلُ الْأَحْزَانُ سَاحَتَهَا
مَنْ كَفَّ ذَاتَ حِرِّ فِي زِيٍّ ذِي ذِكْرِ
قَامَتْ بِإِبْرِيْقِهَا وَاللَّيْلُ مَعْتَكِرُ
فَأَرْسَلَتْ مِنْ فَمِ الْإِبْرِيْقِ صَافِيَةٌ
فِي فَتِيَةٍ زُهْرٍ ذُلُّ الزَّمَانِ لَهُمْ
لِتِلْكَ أَبْكِي وَلَا أَبْكِي لِمَنْزِلَةٍ

[قال صاحب الغلمان] وقال النظام :

وَجَلُّ عَنْ وَصْفِكَ الضُّمَيْرُ
صَفِيرُ أَمْرِ وَلَا كَبِيرُ
جَسْمًا عَلَى أَنَّهُ مَنْبِيرُ
وَأَنْتَ عِنْدَ السُّلْحَاطِ نَوْرُ

بِأَنَّ بِكَ الشُّكْلَ وَالنُّظِيرُ
فَلَيْسَ يُخْطِئُكَ فِي امْتِحَانِ
خُلِقْتَ مَنْ مِثْلَ لَا عِيَانِ
فَأَنْتَ عِنْدَ الْمَجَسِّ نَارُ

وقال أبو هشام الخزاز :

يا مَنْ تَعَدَّى الْعِبَادَ مِنْ شَبِيهِهِ
وَيَا غَزَالاً يَسِيبِي بِلِحْفَظْتِهِ
يَجْعَلُ قَتْلَ النُّفُوسِ نَزَهَتَهُ
لِبُيُوكِ دَاعٍ دَعَا فَعَلْتُ لَهُ
هَذَا فَوَادِي أَتَاكَ مَبْتَدِعاً
يَشْرَهُ مِنْكُمْ إِلَى مَوَاصِلِهِ
فَالآنَ قَلَّ لِلْخِيَالِ يَطْرُقُ مَنْ
لَمَّا قَصُرْنَ الصُّفَاتُ عَنْ كُنْهِهِ
مَكْتَجِلاً رَاحَ أَوْ عَلَى مَرِهِ
يُوشِكُ يُفْنِي النُّفُوسَ فِي نُزْهِهِ
وَالْقَلْبُ فِي كَرْبِهِ وَفِي وَلِيهِ
طَوَّعاً وَلَمْ يَأْتِكُمْ عَلَى كُرْهِهِ
يَأْبُوسَ قَلْبٍ يَذُوبُ مِنْ شَرِّهِ
أَعْيَا عَلَيْهِ وَصَالَ مُنْتَبِهِهِ

وقال الحكمي :

رَسُمُ الْكَرَى بَيْنَ الْجَفُوسِ مُجِيلُ
يَا نَاطِراً مَا أَقْلَعْتُ نَظْرَاتِهِ
أَحَلَّتْ مِنْ قَلْبِي هَوَاكَ مَحَلَّةً
عَفَى عَلَيْهِ بُكَاءُ عَلَيْكَ طَوِيلُ
حَتَّى تَشْحَطَ بَيْنَهُنَّ قَتِيلُ
مَا حَلَّهَا الْمَشْرُوبُ وَالْمَأْكُولُ

مرکز تحقیقات کتب و تاریخ علوم اسلامی

وقال أيضاً :

لِي حَبِيبٌ كُلَّمَا زَادَ فِي
هُوَ وَجْهٌ كُلُّهُ فِي كُلِّ مَا
وَكَذَا الدُّرَّةُ لَا يَدْرِي الْفَتَى
جَفْوَتَهُ لِي كَانَ أَشْهَى
نَظَرْتُ عَيْنَاكَ مِنْهُ كَانَ وَجْهًا
أَيُّهَا مَنْ أَيُّهَا فِي الْعَيْنِ أَبْهَى

وقال أيضاً :

أَفْنَيْتُ فِيكَ مَعَانِيَ الشُّكُورِ
قَلْبِي أَفْسَاقَ الْكَلَامِ فَمَا
وَأَعُدُّ مَا لَا أَشْتَكِي غَبْنًا
فَلَوْ أَنَّ مَا أَشْكُو إِلَى بَشِيرٍ
لَكُنْتُ أَشْكُو إِلَى حَجَرٍ
وَصِفَاتٍ مَا أَلْقَى مِنَ الْبَلْوَى
أَبْصَرْتَنِي أَغْفَلْتُ عَنْ مَعْنَى
فَاعُودُ فِيهِ مَرَّةً أُخْرَى
لَأَرَا حِنِي ظَنِّي مِنَ الشُّكُورِ
تَنْبُو الْمَعَاوِلُ عَنْهُ بَلْ أَقْسَى

فهذا وشبهه من الشعر كثير .

وإذا جئت إلى أصحاب الهزل كقول بعضهم ممن ذم النساء :

هذه الخمرُ فاشرب واسقني يا ابن مصعبِ
اسقنيها وغنني : من لقلبٍ معذبِ
طمعتُ في طفلة ربُّ راجٍ مجنبِ
قلتُ لما رأيتها أسفرتُ لي : تنقبي
لستُ والله مُدخلاً إصبعي جُحرَ عقربِ

وقال آخر :

لا أبتغي بالمُردِ مطمومةً ولا أبيع الظبي بالأرنبِ
لا أدخِل الجُحرَ يدي طائعاً أخشى من الحية والعقربِ

وقال آخر :

ليس لي في الجبرِ حاجة نيكه عندي سماجه
ما ينيك الجبرُ إلا كل ذي فقرٍ وحاجه
فإذا نكتم فنيكوا أمرداً في لون عاجه

وقال يوسف أقوه :

ما يساوي نيك أنثي عند أيري بمرتينِ .
إنما نيك السجواوي حلُّ ديسنٍ بعد ديسنِ
ليس للأير حياة غير ريح الخصيتينِ

وهو الذي يقول :

وعلى اللواط فلا تلومن كاتباً إن اللواط سجية في الكاتبِ
ولقد يتوب من المحارم كلها ، وعن الخصى ما عاش ليس بتائبِ

وقال الحَكَمي :

لَطْمَةٌ يَلْطِمُنِي أَمْرَدٌ تَأْخُذُ مِنِّي الْعَيْنَ وَالْفُكَا
أَطِيبٌ مِنْ تَفَاحَةٍ فِي يَدِي مَعْضُوضَةٌ قَدْ مَلَكْتُ بِسُكَا

وقال آخر :

إِنْ تَزِنِ مَحْصَنَةً تُرْجَمُ عِلَانِيَةً وَإِنْ يَلْطُ عَزَبٌ ! يُرْجَمِ الْعَزَبُ

وقال آخر :

أيسرُ ما فيه من مفاضلةٍ أمُنك من طمِثِه ومن حَبيلِه
وهذا قليلٌ من كثيرٍ ما قالوا ، فقد قالت الشعراء في الغلام في الجَدِّ
والهزل فأحسنُوا ، كما قالت الشعراء في الغَزَلِ والنَّسِيبِ ، ولا يَفْضِرُ المحسَنُ
منهم أقديماً كان أو محدثاً .

قال (صاحب الجسور) : **أما أنت** فحيث اجتهدت واحتفلت جئت
بالحَكَمي ، والرُّقاشي ، ووالبِة ، ونظراتهم من الفُساق والمرغوب عن
مذهبهم ، الذين نبغوا في آخر الزمان ، سَقَطَ عند أهل المروءات ، أوضاعُ
عند أهل الفضل ؛ لأنهم وإن أسهبوا في وصف الغلمان ، فإنما يمدحون
اللُّوَاطَ وَيُشِيدُونَ بذكره .

وقد علمت ما قال الله تبارك وتعالى في قوم لوط ، وما عَجَلَ لهم من
الخبزي والقذف بالحجارة ، إلى ما أعدَّ لهم من العذاب الأليم . فمن أسوأ
حالاتهم مَدَحَ ما ذَمَّه الله ، وَحَسَّنَ ما قُبِحَ ! وأين قول من سَمِيَتْ من قول
الأوائل في الغزل والنَّسِيبِ والنساء ! وهل كان البكاء والتشيب والعويل إلا
فيهنَّ وعليهنَّ ، ومن أجلهنَّ ! وهل ذُمَّت العرب الشَّيبَ مع الخصال المحمودة
التي فيه إلا لكرهتهنَّ له . قال شاعر الشعراء من الأولين والآخرين ، امرؤ
القيس :

أَرَاهُنَّ لَا يُحِبُّنَّ مَنْ قَلَّ مَالُهُ وَلَا مَنْ رَأَى الشُّبَّابَ فِيهِ وَقُوسًا

وقال علقمة بن عبدة الفحل ، وكان نظير امرئ القيس في عصره :

إِذَا شَابَ رَأْسُ الْمَرْءِ أَوْ قَلَّ مَالُهُ فَلَيْسَ لَهُ فِي وَدْهِنٍ نَصِيبٌ
يُرْدُنُّ ثَرَاءَ الْمَالِ حَيْثُ عَلِمْنَاهُ وَشَرَّخُ الشُّبَّابِ عِنْدَهُنَّ عَجِيبٌ

وما قالت القدماء في النسيب أكثر من أن نأتي عليه . وابن قول من
ذكرت في صفات الغلمان من قول امرئ القيس في التشبيب حيث يقول :

وَمَا ذَرَفَتْ عَيْنَاكَ إِلَّا لِتَضْرِبِي بِسَهْمِيكَ فِي أَعْشَارِ قَلْبٍ مَقْتُلِ
أَغْرَكَ مِنِّي أَنْ حُبِّكَ قَاتِلِي وَأَنْكَ مَهْمَا تَأْمُرِي الْقَلْبَ يَفْعَلِ

وقول الأعمى :

لَوْ أَسْنَدَتْ مَيْتًا إِلَى نَحْرِهِمَا عَاشَ وَلَمْ يُنْقَلْ إِلَى قَابِرِ
حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ مِمَّا رَأَوْا يَا عَجِبًا لِلْقَاتِلِ النَّاشِرِ

وقال جرير :

إِنَّ الَّذِينَ غَدَوْا بِلُبِّكَ غَادِرُوا وَشَلًّا بَعِينِكَ لَا يَزَالُ مَعِينَا
غَيْضُنَ مِنْ عَبْرَاتِهِنَّ وَقَلْنَ لِي مَاذَا لَقِيتَ مِنَ الْهَوَى وَلَقِينَا

وقال جميل :

خَلِيلِي فِيمَا عَشْتَمَا هَلْ رَأَيْتَمَا قَتِيلًا بَكَى مِنْ حُبِّ قَاتِلِهِ قَبْلِي

وقال القطامي :

بِقَتْلِنَا بِحَدِيثٍ لَيْسَ بِعَلْمِهِ مَنْ يَتَّقِينَ وَلَا مَكْنُونُهُ بَادِي
فَهَنْ يَنْبِذَنَّ مِنْ قَوْلٍ يُصَبِّنُ بِهِ مَوَاقِعَ الْمَاءِ مِنْ ذِي الْغُلَّةِ الصَّادِي

فهؤلاء القدماء في نجاهلية والإسلام ، فأين قول من احتججت به من قولهم !

ولا نعلم أحداً قال في الغلام ما قال الحكمي وهو من المحدثين . وأين يقع قوله من قول الأوائل الذين شُبِّوا بالنساء ! فدع عنك الرقاشي ووالبة والخراز ومن أشبههم ؛ فليست لك علينا حجة في الشعراء .

وأخرى : ليس من قال الشعر بقريحته وطبعه واستغنى بنفسه ، كمن احتاج إلى غيره يطرد شعره ، ويحتذى مثاله ، ولا يبلغ معشاره .

[٩ - صفات المرأة الجميلة]

قال (صاحب الغلمان) : ظلمت في المناظرة ولم تُنصف في الحجّة ؛ لأننا لم ندفع فضل الأوائل من الشعراء ، إنما قلنا إنهم كانوا أعراباً أجلافاً جفاةً ، لا يعرفون رقيق العيش ولا لذات الدنيا ؛ لأن أحدهم إذا اجتهد عند نفسه شبه المرأة بالبقرة ، والظبية ، والحجة ؛ فإن وصفها بالاعتدال في الخلقة شبهها بالقضيب ؛ وشبه ساقها بالبردية ؛ لأنهم مع الوحوش والأحناش نشؤوا ، فلا يعرفون غيرها .

وقد نعلم أن الجارية الفائقة الحسين أحسن من البقرة ، وأحسن من الظبية ، وأحسن من كل شيء شبهت به .

وكذلك قولهم : كأنها القمر ؛ وكأنها الشمس ؛ فالشمس وإن كانت حسنة فإنما هي شيء واحد ، وفي وجه الإنسان الجميل وفي خلقه ضروب من الحُسن الغريب ، والتركيب العجيب . ومن يشك أن عين الإنسان أحسن من عين الظبي والبقرة ، وأن الأمر بينهما متفاوت !

وهذه أشياء يشترك فيها الغلمان والجواري ، والحجة عليك مثل الحجّة لك في هذه الصفات

وأما احتجاجك علينا بالقرآن والآثار والفقهاء ، فقد قرأنا مثل ما قرأت ،
وسمِعنا من الآثار مثل ما سمعت . فإن كنت إلى سرور الدنيا تذهب ، ولذاتها
تريدُ ، فالقولُ قولنا . كما قال الشاعر :

ما العيش إلا في جنون الصبا فإن تولّى فزمانُ المدام
كأساً إذا ما الشيخُ والى بها خمساً تردى برداء الغلام

[١٠ - مفاخرة اهل البصرة والكوفة]

وإن كنت إلى التقشف والتزهيد في اللذات تعبد فترك جميع الشهوات
من النساء وغيرهن أفضل . فإن أنصفت فأتينا بمثل حجتنا . فإما أن تتلو علينا
القرآن وتأتينا بأحاديث ألفتها فهذا منك انقطاع . ومثلنا ومثلك في ذلك مثلُ
بصريٍّ وكوفيٍّ تفاخرا بعدد أشراف أهل البصرة وأشراف أهل الكوفة ، فقال
البصريُّ للكوفيِّ :

هات في أربع قبائل الكوفة مثل أربعة رجالٍ بالبصرة في أربع قبائل :
في تميم الكوفة مثل الأحنف ، وفي بكر الكوفة مثل مالك بن مسمع ، وفي
قيس الكوفة مثل قتيبة بن مسلم ، وفي أزد الكوفة مثل المهلب .

فقال الكوفيُّ : مخنف بن سليم من أزد السُرارة ، وهم أشرف من أزد
عُمان .

فقال البصريُّ : إنا لم نكن في شرف القبائل وفرق ما بينها ، فإنما
ذكرنا المهلبَ بنفسه ، وما علمتُ أن أحداً يبلغ من جهله أن يفخر بمخنف بن
سليم فيفضله على المهلب . وأخمل رجل من ولد المهلب أشهر في الولايات
وفي القرسان وفي الناس من مخنف . والمهلب رجلٌ ليس له بالعراق نظيرٌ
يقاومه ، ومناقبه وآيامه وفتوحه أكثر وأشهر من أن يجوز لنا أن نجعله إزاء
مخنف . وما زالوا يقولون : « بصرة المهلب » . ولو لم يكن للمهلب إلا أنه

وَلَدَ يَزِيدَ بْنِ بِنِ الْمَهَلْبِ كَانَ كَافِيَا . وَنَحْنُ إِذَا قَلْنَا : لَيْسَ فِي قَيْسِ الْكُوفَةِ مِثْلُ قَتِيْبَةِ بِنِ مُسْلِمٍ ، قَالَ قَائِلٌ : فِزَارَةُ أَشْرَفُ مِنْ بَاهِلَةَ . قَلْنَا : لَيْسَ هَذِهِ مَعَارِضَةٌ ؛ فَإِنَّمَا الْمَعَارِضَةُ أَنْ تَذَكَرَ أَسْمَاءَ بِنِ خَارِجَةَ ثُمَّ تَقُولُ وَتَقُولُ ، فَنَذَكَرُ فَتُوحِ قَتِيْبَةُ الْعِظَامَ ، وَالشُّهَامَةَ وَالنَّفْسَ الْاِيْبَةَ ، وَالشُّجَاعَةَ وَالْحِزْمَ وَالرَّايَ ، وَالْوَفَاءَ ، وَشَرَفَ الْوَلَايَةِ ، وَنَذَكَرُ سُودَدَ أَسْمَاءَ ، وَجُودَةَ وَنِوَالَهَ . فَأَمَّا أَنْ نَتَخَطِيْ أَنْفُسَهُمَا إِلَى قِبَاثِلَهُمَا كَمَا تَخَطَيْتَ بَدَنَ الْمَهَلْبِ وَبَدَنَ مِخْنَفٍ إِلَى أُزْدِ عَمَانَ وَأَزْدِ السَّرَاةِ ، فَهَذَا لَيْسَ مِنْ مَعَارِضَةِ الْعُلَمَاءِ .

وَكَذَلِكَ إِذَا ذَكَرْنَا عُبَادَ الْبَصْرَةِ وَرُهَادَهَا وَنُسَاكَهَا فَقَلْنَا : لَنَا مِثْلُ غَامِرِ بْنِ عَبْدِ قَيْسٍ ، وَهَرَمِ بْنِ حَيَّانَ ، وَصِلَةَ بْنِ أَشِيْمٍ . قَلْتُ : فَعُبَادُ الْكُوفَةِ : أُوَيْسُ الْقَرْنِيِّ ، وَالرَّبِيْعُ بْنُ حُثَيْمٍ ، وَالْأَسْوَدُ بْنُ يَزِيدَ النَّخَعِيِّ . وَهَذَا جِوَابٌ .

فَأَمَّا أَنْ تَذَكَرَ طَيْبَ الدُّنْيَا وَالتَّمَتُّعَ مِنْ لَذَاتِهَا وَصِفَاتِ مَحَاسِنِهَا ، وَتَذَكَرَ ظُرْفَاءَهَا وَأَرْبَابَهَا ، وَتَجِيئَنَا بِأَحَادِيثِ الزُّهَادِ وَالْفِقْهَاءِ ، فَقَدْ انْقَطَعَ الْحِجَابُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ .

وَقَدْ قَلْنَا فِي صَدْرِ كِتَابِنَا : إِنْ الْكَلَامُ إِذَا وُضِعَ عَلَى الْمُرْجِ وَالْهَزْلِ ، ثُمَّ أَخْرَجْتَهُ عَنْ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْجَدِّ ، تَغَيَّرَ مَعْنَاهُ وَبَطُلَ .

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ مَعَاوِيَةَ سَأَلَ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ يَوْمًا - وَعِنْدَهُ شِبَابٌ مِنْ قَرِيْشٍ - فَقَالَ لَهُ : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، مَا اللَّذَّةُ ؟ فَقَالَ : مُرُّ شِبَابٍ قَرِيْشٍ فَلَيقُومُوا . فَلَمَّا قَامُوا قَالَ : « إِسْقَاطُ الْمَرْوَةِ » .

قَالَ الشَّاعِرُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ :

مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ مَاتَ غَمًّا وَفَازَ بِاللَّذَّةِ الْجَسُورُ

وَقَالَ الْحَكَمِيُّ :

تَجَاسَرْتُ فَكَاشَفْتُكَ لَمَّا غَلِبَ الصُّبْرُ

وما أحسنَ في مثلك أن ينهتك السُّترُ

[١١ - فضل الجارية على الغلام]

قال (صاحب الجواري) :

فنحن نترك ما أنكرت علينا ونقول : لو لم يكن حلال ولا حرام ، ولا ثواب ولا عقاب ، لكان الذي يُحصّله المعقول ويدركه الحسُّ والوجدان ، دالاً على أن الاستمتاع بالجارية أكثر وأطول مدة ؛ لأنه أقل ما يكون التمتع بها أربعون عاماً ، وليس تجد في الغلام معنى إلا وجدته في الجارية وأضعافه . فإن أردت التفضيل فأرداف وثيرة ، وأعجاز بارزة لا تجدها عند الغلام . وإن أردت العناق فالشدي النواهد ، وذلك معدوم في الغلام . وإن أردت طيب المأى فناهيك ، ولا تجد ذلك عند الغلام . فإن أتوه في محاشه حدث هناك من الطفاصة والقدر ما يكدر كل عيش ، وينقص كل لذة .

وفي الجارية من نعمة البشرة ولدونة المفاصل ، ولطافة الكفين والقدمين ، ولين الأعطاف ، والتشي وقلة الحشن وطيب العرق ما ليس للغلام ، مع خصال لا تحصى ، كما قال الشاعر :

.....

يصفُ جودة القَدِّ وحسن الخرط ، ويفرق بين المجدولة والسُمينة .

وقولهم « مجدولة » يريدون جودة العَصَب وقلة الاسترخاء ، ولذلك قالوا : حُمصانة وسيفانة ، وكأنها جان ، وكأنها جدلُ عنان ، وكأنها قضيبُ خيزران . والتشي في مشية الجارية أحسن ما فيها ، وذلك في الغلام عيب ؛ لأنه يُنسب إلى التخنيث والتأنيث . وقد وصفت الشعراء المجدولة في أشعارها ، فقال بعضهم :

لها قِسمَةٌ من خُوطِ بانٍ ومن نَقْأٍ ومن رشاً الأَقْوازِ جِيدٌ ومَذْرِفُ

وقال آخر :

مجدولة الأعلى كثيبٌ نصفها إذا مشت أعمدها ما خلفها

وقال الآخر :

ومجدولة جدل العنان إذا مشت ينوء بخصريها يقال الروادف

وقال الأصوص :

من المدمجات اللحم جديلاً كأنها عنان صناع انعمت أن تحودا

وقالوا في ذلك أكثر من أن تأتي عليه .

والغلام أكثر ما تبقى بهجته ونقاء خديبه عشرة أعوام ، إلى أن تنصل
لحيته ويخرج من حد المرودة ، ثم هو وقاح طوراً يتف لحيته ، وتارة يهلبها
ليستدعي شهوة الرجال . وقد أغلى الله الجارية عن ذلك ، لما وهب لها من

الجمال الفائق ، والحسن الرائق *مركز تحقيقات كويتية للدراسات والبحوث*

فإن قلت : إن من النساء من تتحسن وتسترعيها بخضاب الشعر وغيره ،

كما قال الشاعر :

عجوزٌ تسرجي أن تكون فتيةً وقد لحب الجنان واحدودب الظهر
تدس إلى العطار ميرة أهلها ولن يصلح العطار ما أفسد الدهر

قلنا : قد يفعل ذلك بعض النساء إذا شئيت وليس كالغلام ، لعموم هلب

اللحي في الغلمان .

[١٢ - الخصيان]

وذكرت الخصيان وحسن قدودهم ، ونعمة ابشارهم ، والتلذذ بهم ، وأن

ذلك شيء لا تعرفه الأوائل ، فألجأتنا إلى أن نصِفَ ما في الخِصيان وإن لم يكن لذلك معنى في كتابنا ، إذ كنا إنما نقول في الجوارى والغلمان .

والخصي - رحمك الله - في الجملة ممثل به ، ليس برجل ولا امرأة ، وأخلاقه مُقسمة بين أخلاق النساء وأخلاق الصبيان ، وفيه من العيوب التي لو كانت في حوراء كان حقيقاً أن يُزهد فيها منه ؛ لأن الخصي سريع التبذل والتقلُّل من حدِّ البِضاضة ومَلامة الجلد ، وصفاء اللون ورقته ، وكثرة الماء ويريقه ، إلى التكسر والجمود والكمود ، والتقبُّض والتجمُّد والتحدُّب ، وإلى الهُزال وسوء الحال . لأنك ترى الخصي وكأنَّ السيوفَ تلمع في وجهه ، وكأنه مرأة صينيَّة ، وكأنه جُمارة ، وكأنه قضيب فضة قد مسه ذهب ، وكأن في وجناته الورد . فإن مَرَضَ مَرَضَةً ، أو طعنَ في السن ذهباً لا يعود .

وقال بعض العلماء : إنَّ الخصي إذا قُطع ذلك العضو منه قويتْ شهوته ، وقويتْ معدته ، ولانت جلدته ، وانجردت شعرته ، وكثرت دمعته ، واتسعت فمخته ، ويصير كالبغل الذي ليس هو جُماراً ولا فرساً ؛ لأنه ليس برجل ولا امرأة . فهو مذنب لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

ويعرض للخصي سرعة التَّمعة والغضب ، وذلك من أخلاق النساء والصبيان . ويعرض له حبُّ النميمة وضيقُ الصدر بما أودع من السرِّ .

ويعرض لهم البول في الفراش ولا سيما إذا بات أحدهم ممتلئاً من النيد .

ومما ناله من الحسرة والأسف لما فاتهم من النكاح مع شدة حُبهم للنساء ، أبغضوا الفحول أشدَّ من تباغض الأعداء ، فأبغضوا الفحول بغض الحاسد لنوي النعمة .

وزعم بعض أهل التجربة من الشيوخ المعمَّرين أنهم اعتبروا أعمارَ

ضروب الناس فوجدوا [طول] أعمار الخصيان أعم من جميع أجناس الرجال ، وأنهم لم يجدوا لذلك علة إلا عدم النكاح . وكذلك طول أعمار البغال لقلة التزو . ووجدوا أقل الأعمار أعمار العصافير ؛ لكثرة سفادها .

ثم الخصي مع الرجال امرأة ، ومع النساء رجل . وهو من النمائم والتحريرش والإفساد بين المرء وزوجه ، على ما ليس عليه أحد . وهذا من النفاسة والحسد للفحول على النساء . ويعتريه إذا طعن في السن اعوجاج في أصابع اليد ، والتواء في أصابع الرجل .

ودخل بعض الملوك على أهله ومعه خصي فاستترت منه ، فقال لها : تستترين منه وإنما هو بمنزلة المرأة ! فقالت : الموضع المثلة به يحل له ما حرم الله عليه .

مع أن في الخصي عيوباً يطول ذكرها .
ولولا خوف الملل والسامة على الناظر في هذا الكتاب ، لقننا في الاحتجاج عليك بما لا يدفعه من كانت به مسكة عقل ، أوله معرفة . وفيما قلنا ما أقنع وكفى . وبالله الثقة .

* * *

[١٣ - مقطعات من احاديث البطالين]

وقد ذكرنا في آخر كتابنا هذا مقطعات من احاديث البطالين والظرفاء ، ليزيد القارئ لهذا الكتاب نشاطاً ، ويذهب عنه الفتور والكلال ، ولا قوة إلا بالله .

١- قال : مرض رجل من عتاة اللأطة مرضاً شديداً ، فأيسوا منه ، فلما أفاق وأبل من مرضه ، دخل عليه جيرانه فقالوا له : احمد الله الذي أقالك ،

ودع ما كنت فيه من طلب الغلمان والانهمالك فيهم ، مع هذه السين التي قد بلغتها . قال : جزاكم الله خيراً ؛ فقد علمت أن فرط العناية والمروة دعاكم إلى عظمتي . ولكني اعتدت هذه الصناعة وأنا صغير ، وقد علمتم ما قال بعض الحكماء : ما أشد فطام الكبير !

قال الشاعر :

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يُوارى في ثرى رميه
فقاموا من عنده آيسين من فلاحه .

٢ - قال : كان رجل من الأطة وله بنون لهم أقدار ومروءات ، فشانهم بمشيته مع الغلمان وطلبه لهم ، فعاتبوه وقالوا : نحن نشترى لك من الوصائف على ما تشتهي ، تشتغل بهن ، فقد فضحتنا في الناس . فقال : هبكم تفترون لي ما ذكرتم فكيف لشيخكم بحرارة الجبلتين ! فتركوا عتابه وعلسوا أنه لا حيلة فيه .

مركز تحقيقات كويتية لعلوم ودراسات

٣ - وقال بعض اللوطيين : إنما خلق الأير للفقحة ، مدور لمدورة ؛ ولو كان للحجر كان على صيغة الطبرزين .

وقال شاعرهم :

إذا وجدت صغيراً وكأت أصل الحماره
وإن أصبت كبيراً قصدت قصد الحراره
فما أبالي كبيراً قصدت أو ذا غراره

٤ - وقيل لامرأة من الأشراف كانت من المتزوجات : ما بالك مع جمالك وشرفك لا تمكثين مع زوجك إلا يسيراً حتى يطلقك ؟ قالت : يريدون الضيق ، ضيق الله عليهم .

٥ - قال : طلق رجل امرأته ، فمرَّ رجلٌ في بعض الطُّرقات فسمع امرأةً تسأل أخرى عنها فقالت : البائسة طلقها زوجها ! فقالت : أحسنَ بارك اللهُ عليه . فقال لها : يا أمةَ الله ، من شأن النساءِ التعصُّبَ لبعضهن لبعض ، وأسمعكِ قولين ما قلتِ . قالت : يا هذا ، لو رأيتها لعلمتَ أن الله تعالى قد أحلَّ لزوجها الزَّنى ، من قُبْح وجهها .

٦ - وقال مخنثٌ لامرأة : يا معشرَ النساءِ ، مالكنَّ همةً إلا طلبَ النِّيك ، لا تُؤثرنَّ عليه شيئاً . فقالت : إن امرأاً انتقلتَ من شهوته من طَبَعِ الرُّجال إلى طَبَعِ النساءِ حتى عقرتَ لحيتك له ، لحقيق ألا تلامَّ عليه .

٧ - قال إسحاقُ الموصليُّ : نظرتُ إلى شابٍّ مخنثٍ حسنِ الوجه جدًّا قد هَلَبَ لحيته فشانَ وجهه ، فقلت له : لِمَ تفعلُ هذا بلحيتك ، وقد علمتَ أن جمالَ الرجالِ في اللِّحى ؟ فقال : يا أبا محمد ، أيسركَ بِاللهِ أنها في استيك ؟ قلت : لا والله ! فقال : ما أنصفتني ، أنكره أن يكون في استك شيءٌ وتأمرنِي أن أدعَه في وجهي !

٨ - وقال : اشترى بعضُ وُلاةِ العراقِ قينةً بمالٍ كثيرٍ ، فجلسَ يوماً يشربُ وأمرها أن تغنيه ، فكان أولُ صوتٍ تغنت به :

أرواح إلى القصاص كلَّ عشيةٍ أرجي ثوابَ الله في عددِ الخطي

فقال للخادم : يا غلامُ ، خذ بيد هذه الزَّانية فادفعها إلى أبي حَزْرَةَ القاصِّ . فمضى بها إليه فلقِيَ بعد ذلك ، فقال : كيف رأيتَ تلكَ الجاريةَ ؟ فقال : ما شئتَ أصلحك اللهُ ، غيرَ أن فيها خصلتين من صفاتِ الجنَّةِ ! قال : ويلك ما هما ؟ قال : البَرْدُ ، والسَّعةُ .

٩ - قال : علق رجلٌ من أهلِ المدينةِ امرأةً فطالَ عناؤه وشقاؤه بها حتى ظفِرَ بها ، فصار بها إلى منزلِ صديقٍ له مغنٍّ ، ثم خرج يشتري ما يحتاج

إليه ، فقالت له : لو غُنيتَ لي صوتاً إلى وقت مجيء صديقك !

فأخذ العودَ وتغنّى :

من الخفِرات لم تفضَحِ أحاسها ولم ترفعْ لوالدها سَناراً

قال : فأخذت المرأةُ خُفها ولبستْ إزارها وقالت : ويلي ويلي ، لا والله لا جلستُ ! فجهَدَ بها فأبَت وصاحت ، فخشيَ الفضيحةَ فأطلقها . وجاء الرجلُ فلم يجدْها ، فسأله عنها فقال : جئني بمجنونة ؛ قال : ما لها وملك ؟ قال : سألتني أن أغنيها صوتاً ففعلتُ ، فضربتُ بيدها إلى خُفها وثيابها فلبستُ وقامت تولول ، فجهدتُ أن أحبسها فصاحت فخلَّيتها . قال : وأيُّ شيء غُنيتها ؟ فأخبره ، فقال : لعنك الله ! حقُّ لها أن تهرب !

قال : تَواصف قومُ الجماعِ ، وأفاضوا في ذكر النساءِ ، وإلى جانبهم مخنثٌ فقال : بالله عليكم دعوا ذكر الجبرِ لعنه الله ! فقال له بعضهم : متى عهدك به ؟ قال : مُدٌ خرجتُ منه !

١٠ - قال : تزوج رجلٌ امرأةً ، فمكثت عنده غيرَ بعيلِهِ ، ثم أتى الرجلُ بالذي زوجه فقَدَّمه إلى القاضي فقال : أصلحك الله ، إنَّ هذا زوجني امرأةً مجنونة . قال : وأيُّ شيء رأيت من جنونها ؟ قال : إذا جامعتها عُشيَّ عليها حتى أحسبها قد ماتت . فقال له القاضي : قم قبحك الله فما أنت لمثلِ هذه بأهل . وكانت زَبوخاً .

١١ - قال : كانت عائشة بنت طلحة من المتزوجات ، فتزوجها عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي ، فبينا هي عنده تحدثُ مع امرأةٍ من زوارها إذ دخل عمر فدعا بها فواقَعها ، فسمعت المرأة من النخير والشهيق أمراً عجيباً ، فلما خرجت قالت لها : أنتِ في شرقكِ وقَدْرِكِ تفعلين مثل هذا ! قالت : إنَّ الدوابَّ لا تُجيد الشربَ إلا على الصَّفير !

١٢ - قال : وكانت حُبي المدينة من المغتلمات ، فدخل عليها نسوة من المدينة فقلن لها : يا خالة ، أتيناك نسألك عن القبع عند الجماع يفعلهُ النساء ، أهو شيء قديم أم شيء أحدثهُ النساء ؟ قالت : يا بناتي ، خرجتُ للعمرة مع أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ، فلما رجعنا فكُنّا بالعرج نظر إليّ زوجي ونظرتُ إليه ، فأعجبهُ مني ما أعجبني منه فوائبني ، ومرت بنا غير عثمان فقبعتُ قبعهُ وأدركني ما يصيب بناتِ آدم ، فنفرتِ العيرُ - وكانت خمسَ مائة - فما التقى منها بعيرانِ إلى الساعة .

والقبع : النخير عند الجماع . والغربلة : الرهز . كذاك تسميه أهل المدينة .

ويقال إن حُبي علّمت نساء أهل المدينة القبع والغربلة .

١٣ - قال : وكانت خُليدة امرأة مسوداء ذاتَ خلقٍ عجيب ، وكان لها دارٌ بمكة تُكربها أيامَ الحجّ ، فحجّ فتى من أهل العراق فاكترى منزلها ، فانصرفَ ليلةً من المسجد وقد طافَ فأعيا ، فلما صعد السطحَ نظر إلى خُليدة نائمةً في القمر ، فرأى أهيأ الناسِ وأحسنه خلقاً ، فدعته نفسه إليها فدنا منها ، فتركته حتى رقع رجلها فتابعته وأرته أنها نائمة ، فناكها ، فلما فرغ نديم فجعل يبكي ويلطم وجهه ، فتعاربتُ وقالت : ما شأنك ؟ لسعتك حية ؟ لدغتك عقرب ؟ ما بالك تبكي ؟ قال : لا والله ولكني نكتك وأنا محرم . قالت : فتنيكني وتبكي ؟ أنا والله أحقُّ بالبكاء منك . قم يا أرعن !

١٤ - وقال ابن حُبي لأمه : يا أمه ، أيُّ الحالات أعجبُ إلى النساء من أخذ الرجال إياهنّ ؟ قالت : يا بني ، إذا كانت مُسِنَّةً مثلي فأبركها وألصقَ خدّها بالأرض ثم أوعبه فيها . وإذا كانت شابّةً فاجمعْ فخذنيها إلى صدرها فانت تدرك بذلك ما تريدُ منها وتبلغُ حاجتك منها .

١٥ - وقال : اشترى قومٌ بعيراً وكان صعباً ، فأرادوا إدخاله الدارَ فامتنع ، فجعلوا يضربونه وهو يآبى ، فأشرفت عليهم امرأةٌ كأنها شققةٌ قمر ، فبهتوا ينظرون إليها ، فقالت : ما شأنه ؟ فقال لها بعضهم : نريده على الدُخول فليس يدخل . قالت : بلُ رأسه حتى يدخل .

١٦ - قال : نظر رجلٌ بالمدينة إلى جاريةٍ سرّيةٍ ترتفع عن الخدمة ، فقال : يا جاريةُ ، في يدك عمل ؟ قالت : لا ، ولكن في رجلي .

١٧ - قال بعضهم : كنا في مجلس رجلٍ من الفقهاء فقال لي رجل : عندك حرّةٌ أو مملوكةٌ ؟ قلت : عندي أمٌ ولدي ، ولم سألتنني عن ذلك ؟ قال : إن الحرّة لها قدرها فأردت أن أعلمك ضرباً من النيك طريفاً . قلت : قل لي . قال : إذا صرت إلى منزلك فتم على قفالك ، واجعل مخدّةً بين رجليك ورُكّبك ليكون وطاءً لك ، ثم ادعُ الجارية وأقم أيرك واقعدّها عليه ، وتحول ظهرها إلى وجهك ، وارفع رجليك ومُرّها أن تأخذ بإبهامك كما يفعل الخطيبُ على المنبر ، ومُرّها تصعد وتنزل عليه ؛ فإنه شيء عَجَب . فلما صار الرجلُ إلى منزله فعل ما أمره به ، وجعلت الجارية تعلق وتستفل ، فقالت : يا مولاي ، من علمك هذا النيك ؟ قال : فلان المكفوف . قالت : يا مولاي ، ردّ الله عليه بصره !

١٨ - قال : كانت امرأةٌ من قريش شريفةً ذات جمال رائعٍ ومال كثير ، فخطبها جماعةٌ وخطبها رجلٌ شريفٌ له مالٌ كثير ، فردّته وأجابته غيره ، وعزموا على الغدوّ إلى وليّها ليخطبوها ، فاغتم الرجلُ غمّاً شديداً ، فدخلت عليه عجوّزٌ من الحيّ فرأت ما به وسألته عن حاله فأخبرها ، قالت : ما تجعل لي إن زوجتُك بها ؟ قال : ألف درهم . فخرجت من عنده ودخلت عليها ، فتحدّثت عندها ملياً وجعلت تنظر في وجهها وتتفّس الصعداء ، ففعلت ذلك غير مرّة ، فقالت الجارية : ما شأنك يا خالة ، تنظرين في وجهي وتتفّسين ؟

قالت : يا بُنَيَّةُ ، أرى شبابيكِ ، وما أنعمَ اللهُ عليكِ به من هذا الجمال ، وليس يتمُّ أمرُ المرأةِ إلاَّ بالزَّوجِ ، وأراكِ أيماً لا زوجَ لك . قالت : فلا يَغْمُكُ اللهُ ، قد خطبني غير واحدٍ وقد عزمْتُ على تزويجِ بعضهم . قالت : فاذكري لي مَنْ خطبك . قالت : فلان . قالت شريفُ ، ومن ؟ قالت : فلان . قالت : شريفُ ، فما يمنعُك منه ؟ قالت : وفلانُ - لصاحبِها - قالت : أفُ أفُ ، لا تريدينه . قالت : وماله أليس هو شريفاً كثيراً المال ؟ قالت : بلى ، ولكن فيه خصلةٌ أكرهها لك . قالت : وما هي ؟ قالت : دعني عنك ذكراً . قالت : أخبريني على كلِّ حال . قالت : رأيته يبول يوماً فرأيتُ بين رجله رجلاً ثالثة . وخرجتُ من عندها فأتته ، فقالت : أعِدْ ليها رسولك . وأتاها الرجل الذي كانت أجابته - بعد مجيء الرسول - فردته وبعثتُ إلى صاحبِ المرأة : أن اغدُ بأصحابك . فتزوجها فلما بنى بها إذا معه مثل الرُّزِّ ، فلمنا أُنْتها العجوز فقالت : بكم بعثني يا لُخْنا ؟ قالت : بألف درهم . قالت : لا أكلتها إلا في المرض !

١٩ - قال : كان هشام بن عبد الملك يقبض الثياب من عظم أيره ، فكتب إلى عامله على المدينة : « أما بعد فاشتر لي عكاك النيك » . قال : وكان له كاتبٌ مدينيٌّ ظريفٌ ، فقال له : ويحك ، ما عكاك النيك ؟ قال : الوصائف . فوجه إلى النُخاسين فسألهم عن ذلك . فقالوا : عكاك النيك الوصائفُ البيضُ الطوال . فاشترى منهن حاجته ، ووجه بهن إليه .

قال : وكانت بالمدينة امرأة جميلةً وضيئةً ، فخطبها جماعةٌ وكانت لا ترضى أحداً ، وكانت أمها تقول : لا أزوجها إلا من ترضاه . فخطبها شابٌ جميلُ الوجه ذو مالٍ وشرف . فذكرته لابنتها وذكرت حاله وقالت : يا بُنَيَّةُ إن لم تزوجي هذا فمن تزوجين ؟ قالت : يا أمه : هو ما تقولين ، ولكني بلغني عنه شيء لا أقدر عليه . قالت : يا بُنَيَّةُ لا تحتشمين من أمك ، اذكري كلَّ

شيء في نفسك . قالت : بلغني أن معه أيراً عظيماً وأخافُ إلا أقوى عليه .
فأخبرت الأمُ الفتى فقال : أنا أجعلُ الأمرَ إليك تُدخلين أنتِ منه ما تريدُ
وتحبسين ما تريد . فأخبرت الابنةُ فقالت : نَعَمْ أَرْضَى إِنْ تَكْفَلْتِ لِي بِذَلِكَ .
قالت : يَا بِنِيَّةُ وَاللَّهِ إِنَّ هَذَا هُوَ لَشَدِيدٌ عَلَيَّ ، وَلَكِنِّي أَتَكَلَّفُهُ لَكَ . فَتَزَوَّجْتَهُ .
فلما كانت ليلةُ البناءِ قالت : يَا أُمُّهُ ، كَوْنِي قَرِيبَةً مِنِّي لَا يَقْتُلْنِي بِمَا مَعَهُ .
فجاءت الأمُ وأغلقت البابَ وقالت له : أَنْتِ عَلَيَّ مَا أَعْطَيْتِنَا مِنْ نَفْسِكَ ؟ قَالَ :
نَعَمْ ، هُوَ بَيْنَ يَدَيْكَ . فَحَبِضْتَ الْأُمَّ عَلَيْهِ وَأَدْنَيْتَهُ مِنْ أِبْتِهَاءِ فَدَسْتِ رَأْسَهُ فِي
حِرِّهَا وَقَالَتْ : أَزِيدُ ؟ قَالَتْ : زَيْدِي . فَأَخْرَجْتَ إِصْبَعاً مِنْ أَصَابِعِهَا فَقَالَتْ : يَا
أُمُّهُ زَيْدِي . قَالَتْ : نَعَمْ . فَلَمْ تَزَلْ كَهَذَا حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِي يَدِهَا شَيْءٌ مِنْهُ ،
وَأَوْعَبَهُ الرَّجُلُ كُلَّهُ فِيهَا ، قَالَتْ : يَا أُمُّهُ زَيْدِي . قَالَتْ : يَا بِنِيَّةُ لَمْ يَبْقَ فِي يَدِي
شَيْءٌ . قَالَتْ بِنْتُهَا : رَحِمَ اللَّهُ أَبِي فَإِنَّهُ كَانَ أَعْرَفَ النَّاسِ بِكَ ، كَانَ يَقُولُ :
إِذَا وَقَعَ الشَّيْءُ فِي يَدَيْكَ ذَهَبَتِ الْبَرَكَةُ مِنْهُ قَوْمِي عَنِّي !

٢٠ - قال : تزوج رجلُ امرأةً وكان معه أيرٌ عظيمٌ جداً ، فلما ناكها أدخله
كله في حِرِّها ، ولم تكن تقوى عليه امرأةً ، فلم تتكلم ، فقال لها : أيُّ شيءٍ
حالكِ خرجَ من خلفكِ بعدُ ؟ قالت : بأبي أنتَ وهل أدخلته ؟

٢١ - قال : نظر رجلٌ إلى امرأةٍ جميلةٍ سريةً ، ورجلٌ في دارها دميمٌ
مشوَّةٌ يأمر وينهى ، فظنُّ أنه عبدها ، فسألها عنه فقالت : زوجي . قال : يا
سبحانَ الله ، مثلكِ في نعمةِ الله عليكِ تتزوجين مثل هذا ؟ فقالت : لو
استدبرك بما يستقبلني به لعظم في عينك . ثم كشفت عن فخذها فإذا فيه يُقع
خضِرٌ ، فقالت : هذا خطأؤه فكيف إصابته .

٢٢ - قال : وكانت بالمدينة امرأةٌ ماجنةٌ يقال لها سَلَامَةُ الخضراءُ ،
فأخذت مع مخنثٍ وهي تنيكه بكبيرنج ، فرُفعتُ إلى الوالي فأوجعها ضرباً
وطاف بها على جمل ، فنظر إليها رجلٌ يعرفها فقال : ما هذا يا سَلَامَةُ ؟

فَقَالَتْ : يَا اللَّهُ اسْكُتْ ، مَا فِي الدُّنْيَا أَظْلَمُ مِنَ الرِّجَالِ ، أَنْتُمْ تَتِيكُونَا الدَّهْرَ كُلَّهُ
فَلَمَّا نَكْنَا كُمْ مَرَّةً وَاحِدَةً قَتَلْتُمُونَا .

٢٣ - قَالَ : تَزْوِجُ رَجُلًا امْرَأَةً فَقِيلَ لَهُ : كَيْفَ وَجَدْتَهَا ؟ قَالَ : كَأَنَّ رَكْبَهَا
دَارَةُ الْقَمَرِ ، وَكَأَنَّ شُفْرِيهَا أَيْرُ حِمَارٍ مُشْتَبِيٍّ .

٢٤ - وَقَالَ بَعْضُ الْعَجَائِزِ الْمَغْتَلَمَاتِ :

وَحَضَبْتُ مَا صَبَّغَ الزَّمَانُ فَلَمْ يَدُمِ صِيبُغِي وَدَامَتْ صِيبُغَةُ الْإِيَامِ
أَيَّامَ أُمِّي وَالشُّبَابَ غَرِيرَةً وَأَنَاكَ مِنْ خَلْفِي وَمَنْ قُدَّامِي

٢٥ - وَقَالَ بَيْيَاهُ ، وَكَانَ مِنْ مَرَدَةِ اللَّاطَةِ ، وَاسْمُهُ مَيْمُونُ بْنُ زِيَادِ بْنِ

ثُرْوَانَ ، وَهُوَ مَوْلَى لِحِزَابَةِ :

أُحْزَاعُ إِنْ عَدَّ الْقَبَائِلُ فَخَرَّهُمْ فَضَعُّوا أَكْفُكُمُ عَلَى الْأَفْوَاهِ
إِلَّا إِذَا ذُكِرَ السُّوَّاطُ وَأَهْلُهُ وَالنَّفَاتِقُونَ مَشَارِجَ الْأَسْتَاهِ
فَهَنَّاكَ فَافْتَخَرُوا فَلِئِنْ لَكُمْ بِهِ مَجْدًا تَلِيدًا طَارِفًا بِسِيَاهِ

٢٦ - قَالَ : وَجَاءَ بَيْيَاهُ إِلَى الْكَمَيْتِ فَقَالَ لَهُ : يَا أَبَا عُمَارَةَ ، قَدْ قَلْتُ

عَلَى عَرُوضِ قَصِيدَتِكَ :

• أَبَتْ هَذِهِ النَّفْسُ إِلَّا أَدَّكَارًا •

فَقَالَ : هَاتِ . فَقَالَ :

أَبَتْ هَذِهِ النَّفْسُ إِلَّا أَحْسَارًا وَإِلَّا ارْتِدَادًا وَإِلَّا أَزُورَارًا
وَحَمَلَ الدُّيُوكَ وَقَوَدَ الْكَلَابِ فَهَذَا هِرَاشًا وَهَذَا نِقَارًا
وَشَرِبَ الْخُمُورَ بِمَاءِ الْغَمَامِ تَنْفَجِرُ الْأَرْضُ عَنْهُ انْفِجَارًا

٢٧ - وَقَالَ : أَخِذْ « دَيْكٌ » ، وَكَانَ مِنْ كِبَارِ اللَّاطَةِ ، وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ

الحجاز ، مع غلامٍ من قُريش كأنه قدينة ، فقيل له : عدو الله هبك تُعذر في الغلمان بالصباح فما أردت إلى هذا ؟ فقال : بأبي أنتم وأمي ، قد والله علمت أنه كما تقولون ، وإنما نكته لشرفه .

٢٨ - وقد يُضرب المثل في اللواط بالحجاز فيقال : « ألوط من ديك » ، كما يقول أهل العراق : « ألوط من سبياه » ، وهو كوفي .

وقد اختصرتُ كتابي هذا لثلاثي يملئه القاريء . وبالله التوفيق .



تم كتاب مفاخرة الجوارى والغلمان ، والله المستعان ، وعليه التكلان ، ولا إله إلا هو .

يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب القيان من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ أيضاً ، والله الموفق للصواب . والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلامه .

مركز بحوث ودراسات إسلامية

٥ - هامش مفاخرة الجوّاري والفلمان

- (١) السبب في مزج الجد بالهزل هو طرد الملل عن نفس القارىء هذه العلة يذكرها الجاحظ في معظم كتبه لتبرير أسلوبه . والواقع ان الجاحظ كان مطبوعاً على الظرف وهذا هو السبب الحقيقي لما نلفيه في كتبه من خلط الجد والهزل .
- لكل مقام مقال ، اصل قتي من اصول فلسفة الجاحظ الجمالية . راجع نظريته الجمالية في كتابنا المناحي الفلسفية عند الجاحظ ، المنحى الجمالي .
- (٢) والبة بن الحباب شاعر عباسي من رمة ابي نواس في المجون والتهتك .
عكاشة : هو عكاشة بن عبد الصمد العمي ، عاش في البصرة في مطلع الدولة العباسية ، وهو شاعر مقل .
الرفث : حديث الجنس .
- (٣) لاحظ الاحاديث النبوية حول الجنس ، ومدى صحتها . « ان اهل الجنة يدخلونها جراداً مكحلين » . . « حبيت الي النساء والطيب » .
- (٤) حد الزنى = عقاب الزنى .
لاحظ لجوء الجاحظ الى الكتاب والسنة والاستشهاد بهما .
الهيفاء الشموع : الضامرة البطن ، والضمون اللعوب .
- (٥) لاحظ التناقض في الحديث « ما تركت بعدي فتنة اصر على الرجال من النساء » والحديث السابق « حبب الي النساء والطيب » .
- النساء العُجُزَ والعقر : اللاتي لهن اعجاز كبيرة ولا ينجبن الاولاد .
- (٦) عيوب الزنى الست : يذهب بالبهاء ، ويعجل بالغباء ، ويقطع الرزق ويعاقب عليه في الآخرة ويعذب من اجله هناك ويدخل النار .

(٧) الشعراء الذين تيمهم الحب : جميل بن معمر وكثير عزة وعروة بن الورد ، وقيس ابن الملوح ، وقيس بن ذريح ، وعبد الله بن عجلان والغمر بن ضرار .

(٨) اشعار في الغلمان والجواري « معظم هذه الاشعار اختيرت من ابي نواس (٧٦٣ - ٨٢٤ م) الذي اشتهر بتهتكه ، وتغزله بالغلمان . وكذلك تجد نموذجاً من شعر النظام استاذ الجاحظ الذي يبدو فيه اثر الفلسفة ظاهراً . ويوسف لقوة صاحب ابي نواس ونظيره في المجون . حتى قال في ابي نواس « ولا نعلم احداً قال في الغلام ما قال الحكمي . . . » .

(٩) صفات المرأة الجميلة : نقد للتشايه التي وجدها في الشعر القديم الذي يتناول وصف المرأة : لقد شبهوها بالقضيب والبقرة والظبية والشمس . وهي اجمل من هذا كله .

(١٠) مفاخرة اهل البصرة والكوفة : هذا من نوع الاستطراد الذي نجده في كتب الجاحظ . ويمكن ان نلمس في المفاخرة بين المدينتين دليلاً على التنافس بينهما في المجالات العلمية والسياسية .

(١١) لاحظ الكلمات الجنسية التي تدل على اعضاء الجسم : الارداق ، والاعجاز ، والثدي ، والمحاش ، والقد والخرط والمجدولة والسمنية الخ .

(١٢) الخصيان : جمع خصي ، وهو الانسان الذي عطلت قدرته الجنسية . لاحظ الوصف الدقيق لنفس الخصي وجسمه وخلقه ، وموقف الجاحظ الانساني من مسألة الخصاء .

(١٣) مقطعات من احاديث البطالين والظرفاء : ربما زيد عليها الكثير مما لم يورده الجاحظ .



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

[١ - مدخل]

فصل منه : أعانك الله على سورة الغضب ، وعصمك من سرف الهوى ،
وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الإنصاف ، ورجح في قلبك إشار الأناة .
فقد استعملت في المعلمين نوك السفهاء ، وخطل الجهلاء ، ومفاحشة الأبدياء ،
ومجانبة سبل الحكماء ، وتهكم المقتدرين ، وأمن المغترين . ومن تعرض للعداوة
وجدها حاضرة ، ولا حاجة بك إلى تكلف ما كفييت .

[٢ - فضل المعلم]

فصل منه : ولولا الكتاب لاختلت أخبار الماضين ، وانقطعت آثار
الغائبين . وإنما اللسان للشاهد لك ، والقلم للغائب عنك ، وللماضي قبلك
والغابر بعدك . فصار نفعه أعم ، والدواوين إليه أفقر .

والمملك المقيم بالواسطة لا يدرك مصالح أطرافه وسد ثغوره ، وتقويم سُكَّان
مملكته ، إلا بالكتاب .

ولولا الكتاب ما تم تدبير ، ولا استقامت الأمور . [وقد] رأينا عمود

صلاح الدين والدنيا إنما يعتدل في نصابه ، ويقوم على أساسه بالكتاب والحساب .

وليس علينا لأحد في ذلك من المنّة بعد الله الذي اخترع ذلك لنا ودلنا عليه ، وأخذ بنواصينا إليه ، ما للمعلمين الذين سخرهم لنا ، ووصل حاجتهم إلى ما في أيدينا . وهؤلاء هم الذين هجوتهم وشكوتهم وحاججتهم وفحشت عليهم ، وألزمت الأكابر ذنب الأصاغر ، وحكمت على المجتهدين بتفريط المقصرين ، ورثت لأباء الصبيان من إبطاء المعلمين عن تحذيقهم ، ولم تثر للمعلمين من إبطاء الصبيان عما يراد بهم ، وبُعدهم عن صرف القلوب لما يحفظونه ويدرسونه ، والمعلمون أشقى بالصبيان من رعاة الضأن ورؤاض المهارة .

ولو نظرت من جهة النظر علمت أن النعمة فيهم عظيمة سابغة ، والشكر عليها لازم واجب .



[٣ - الحفظ والاستنباط]

فصل منه : وأجمعوا على أنهم لم يجدوا كلمة أقل حرفاً ولا أكثر زبناً ، ولا أعم نفعاً ، ولا أحت على بيان ، ولا ادعى إلى تبين ، ولا أهجى لمن ترك التفهم وقصر في الإفهام ، من قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه : « قيمة كل امرئ ما يحسن » .

وقد أحسن من قال : « مُذاكرة الرجال تلقيح لألبابها » .

وكرهت الحكماء الرؤساء ، أصحاب الاستنباط والتفكير ، جودة الحفظ ، لمكان الأتكال عليه ، وإغفال العقل من التمييز ، حتى قالوا : « الحفظ عذق الذهن » . ولأن مستعمل الحفظ لا يكون إلا مقلداً ، والاستنباط هو الذي يقضي بصاحبه إلى برد اليقين ، وعز الثقة .

والقضية الصحيحة والحكم الحمود : أنه متى أدام الحفظ أضر ذلك بالاستنباط ، ومتى أدام الاستنباط أضر ذلك بالحفظ ، وإن كان الحفظ أشرف

منزلة منه .

ومتى أهمل النظر لم تسرع إليه المعاني ، ومتى أهمل الحفظ لم تعلق بقلبه ،
وقل مكثها في صدره .

وطبيعة الحفظ غير طبيعة الاستنباط . والذي يعالجان به ويستعينان متفق
عليه ، [ألا] وهو فراغ القلب للشيء ، والشهوة له ، وبها يكون التمام ،
وتظهر الفضيلة .

ولصاحب الحفظ سبب آخر يتفقان عليه ، وهو الموضع والوقت .

فأما الموضع فأبها يختار إذا أراد ذلك الفوق دون السفل .

وأما الساعات فالأسحار دون سائر الأوقات ، لأن ذلك الوقت قبل وقت
الاشتغال ، ويعقب تمام الراحة والجمام ، لأن للجمام مقداراً هو المصلحة ، كما
أن للكذ مقداراً هو المصلحة .



[٤ - أكثر العظماء كانوا معلمين]

فصل منه : ويستدل أيضاً بوصول الملوك للمؤذنين في أبنائهم ، وفي تقويم
أحداثهم ، على أنهم قد قلدوهم أمورهم وضميرهم ببلوغ التمام في تأديتهم .
وما قلدوهم ذلك إلا بعد أن ارتفع إليهم في الحنوحاتهم في الأدب ، وبعد أن
كشفهم الامتحان وقاموا على الخلاص .

وأنت - حفظك الله - لو استقصيت عدد النحويين والعروضيين
والفرضيين ، والحساب ، والخطاطين ، لوجدت أكثرهم مؤدب كبار ومعلم
صغار ، فكم تظن أننا وجدنا منهم ، من الرواة والقضاة والحكام ، والولاة من
المنابر والذمهاة ، ومن الحماة والكفأة ، ومن القادة والذادة ، ومن الرؤساء
والسادة ، ومن كبار الكتاب والشعراء ، والوزراء والأدباء ، ومن أصحاب
الرسائل والخطابة ، والمذكورين بجميع أصناف البلاغة ، ومن الفرسان وأصحاب
الطعان ، ومن نديم كريم ، وعالم حكيم ، ومن مليح ظريف ، ومن شاب

عفيف .

ولا تعجل بالقضية حتى تستوفي آخر الكتاب ، وتبلغ أقصى العذر ، فإنك إن كنت تعمّدت تذممت ، وإن كنت جهلت تعلّمت ، وما أظن من أحسن بك الظن إلا وقد خالف الحزم .

[٥ - لجميع اصناف العلوم معلّمون]

فصل منه : قال المعلّم : وجدنا لكلّ صنفٍ من جميع ما بالناس إلى تعلّمه حاجة ، معلمين ، كمعلّمي الكتاب والحساب ، والفرائض والقرآن ، والنحو والعروض والأشعار ، والأخبار والآثار ، ووجدنا الأوائل كانوا يتخذون لأبنائهم من يعلمهم الكتابة والحساب ، ثم لعب الصوالمجة ، والرّمي في التّبوك ، والمجتمّة ، والطير الخاطف ، ورّمي البنجكاز . وقبل ذلك الدّبوق والتّفخ في السّبطانة . وبعد ذلك الفروسية ، واللّعب بالرّماح والسيوف ، والمشاوله والمنازلة والمطاردة ، ثم النجوم واللّحون ، والطب والهندسة ، وتعلّم النرد والشطرنج ، وضرب الدّفوف وضرب الأوتار ، والوقع والتّفخ في أصناف المزامير .

ويأمرون بتعليم أبناء الرعيّة الفلاحة والنجارة ، والبنيان والصياغة والخيطة ، والسرد والصّبغ ، وأنواع الحياكة . نعم حتى علّموا البلايل ، وأصناف الطير الأبحان .

وناساً يعلمون القروود والدبّية والكلاب والطبّاء المكّيّة والبيغاء ، والسقور وغراب البين ، ويعلمون الإبل ، والخيل ، والبغال ، والحمير ، والفيلة ، أصناف المشي ، وأجناس الحضر ، ويعلمون الشواهين والصقور والبوازي ، والفهود ، والكلاب ، وعناق الأرض ، الصيد .

ويعلمون الدّوابّ الطّحن ، والبخاتيّ الجمز حتى يرؤضوا الهملاج والمعناق ، بالتخلّيع وغير التخلّيع ، وبالموضوع والأوسط والمرفوع .
ووجدنا للأشياء كلّها معلمين .

[٦ - الانسان عالم صغير]

وإنما قيل للإنسان العالم الصغير ، سليل العالم الكبير ، لأنَّ في الإنسان من جميع طبائع الحيوان أشكالا ، من ختل الذئب وروغان الثعلب ، ووثوب الأسد ، وحقد البعير ، وهداية القطاة . وهذا كثير ، وهذا بآبه .
ولأنه يحكي كل صوتٍ بفيه ، ويصوِّر كل صورةٍ بيده . ثم فضله الله تعالى بالمنطق والرؤية وإمكان التصرف .

وعلى أنا لا نعلم أن لأحدٍ من جميع أصناف المعلمين لجميع هذه الأصناف - كفضيلة المعلم من الناس الأحداث المنطق المنشور ، ككلام الاحتجاج والصفات ، والمناقشات من المسائل والجوابات في جميع العلامات ، بين الموزون من القصائد والأرجاز ، ومن المزدوج والأسجاع ، مع الكتاب والحساب ، وما شاكل ذلك ووافقه واتصل به ، وذهب مذهبه .



[٧ - معنى المعلم والمؤدب]

وقالوا : إنما اشتق اسم المعلم من العلم ، واسم المؤدب من الأدب . وقد علمنا أن العلم هو الأصل ، والأدب هو الفرع .

والأدب إما خلق وإما رواية ، وقد أطلقوا له اسم المؤدب على العموم .

والعلم أصل لكل خير ، وبه ينفصل الكرم من اللؤم ، والحلال من الحرام . والفضل من الموازنة بين أفضل الخيرين ، والمقابلة بين أنقص الشرين .

فلم يعرضوا لأحدٍ من هذه الأصناف التي اتخذ الناس لها المعلمين من جميع أنواع الحق والباطل ، والسرف والاقتصاد ، والجذ والهزل ، إلا هؤلاء الذين لا يعلمون إلا الكتاب والحساب ، والشعر ، والنحو ، والفرائض ، والعروض . وما بالسما من نجوم الاهتداء والأنواء والسعود ، وأسما الأيام والشهور ، والمناقشات .

وعنهم بالغرامة ، ويأخذهم بالصلاة في الجماعة ، ويُدرّسهم القرآن ،
ويهدّب ألسنتهم برواية القصيد والأرجاز ، ويُعاقب على التهاون ، ويضرب على
القرار ، ويأخذهم بالمناقلة ، والمناقلة [من] أسباب المنافسة .
لحقيق بخلاف هذه السيرة ، وبضدّ هذه المعاملة .

[٨ - فقر الأدباء]

فصل منه : وقد ذهب قومٌ إلى أنّ الأدبَ حُرْفٌ ، وطلبه سُومٌ . وأنشد
قول الشاعر :

ما ازددت في أدبي حُرْفاً أُسرُّ به إلاّ تزيّدت حُرْفاً تحته سُومٌ
إنّ المقدم في حنقٍ بصنعتِه أنّ توجّه فيها فهو محرومٌ

ولم نر شاعراً نال بشعره الرغائب ، ولا أديباً بلغ بأدبه المراتب ، ذكّر
يُعنّ الأدب ، ولا بركة قول الشعر . فإذا حرم الواحد منهم ، والرجل الشاذُّ
ذكّر حُرْفَ الأدب وسُومَ الشعراء . وإن كان عددٌ من نال الرغائب أكثر من عدد
من أخفق .

ومهما عيّنا مَنْ كان في هذه الصّفة فإننا غير مُعايرين لأبي يعقوب
الخريمي ؛ لأنّه نال بالشعر وأدرك بالأدب .

وليس الذي يحمل أكثر الناس على هذا القول إلاّ وجدان المعاني
والألفاظ ، فإنهم يكرهون أن يُضيعوا باباً من إظهار الظرف وفضل اللسان وهم
عليه قادرون .

[٩ - المعلم يراعي مستوى الصبي العقلي]

فصل منه : وقد قالوا : الصبيُّ عن الصبيِّ أفهمٌ ، وبه أشكل . وكذلك

الغافل والغافل ، والأحمق والأحمق ، والغبي والغبي ، والمرأة والمرأة . قال
الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا ﴾ . لأنَّ الناس عن النَّاس
أفهم ، وإليهم أسكن . فمما أعان الله تعالى به الصَّبيان ، أنَّ قَرَبَ طبائعهم
ومقادير عقولهم من مقادير عقول المعلمين .

وسمع الحجاج - وهو يسير - كلام امرأة من دار قوم ، فيه تخليط
وهذيان ، فقال : مجنونة ، أو ترقص صبياً !

ألا ترى أنَّ أبلغ الناس لساناً ، وأجودهم بياناً وأدقهم فطنةً ، وأبعدهم
رويةً ، لو ناطق طفلاً أو ناغى صبياً ، لتوخى حكاية مقادير عقول الصَّبيان ،
والشَّبه لمخارج كلامهم ، وكان لا يجد بداً من أن ينصرف عن كلِّ ما فضله
الله به بالمعرفة الشريفة ، والألفاظ الكريمة . وكذلك تكون المشاكلة بين
المتفقيين في الصناعات .



[١٠ - تعليم النحو والرياضة]

فصل منه : وأما النحو فلا تشغل قلبه منه إلا بقدر ما يؤدِّيه إلى السلامة
من فاحش اللحن ، ومن مقدار جهل العوام في كتاب إن كتبه ، وشعر إن
أنشده ، وشيء إن وصفه . وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به ،
ومذهل عما هو أَرْدُ عليه منه من رواية المثل والشاهد ، والخبر الصادق ،
والتعبير البارع .

وإنما يرغب في بلوغ غايته ومجاورة الاقتصار فيه ، مَنْ لا يحتاج الى
تعرف جسيمات الأمور ، والاستنباط لغوامض التدبُّر ، ولمصالح العباد والبلاد ،
والعلم بالأركان والقُطب الذي تدور عليه الرُّحى ؛ ومن ليس له حظُّ غيره ،
ولا معاش سواه .

وعويص النحو لا يجري في المعاملات ولا يُضطرُّ إليه شيء . فمن

الرأي أن يُعتمد به في حساب العُقَد دون حساب الهِنْد ، ودون الهندسة
وعويص ما يدخل في المساحة . وعليك في ذلك بما يحتاج إليه كُفَاة السُلطان
وكتاب الدواوين .

وأنا أقول : إن البلوغ في معرفة الحساب الذي يدور عليه العمل ،
والترقي فيه والسبب اليه ، أَرْدُ عليه من البلوغ في صناعة المحررين ورؤوس
الخطاطين ؛ لأن في أدنى طبقات الخط مع صحّة الهجاء بلاغاً . وليس كذلك
حال الحساب .

[١١ - تعليم صناعة الكتابة]

ثم خذ بتعريف حجج الكتاب وتخلصهم باللفظ السهل القريب المأخذ
إلى المعنى الغامض . وأذقه حلاوة الاختصار ، وراحة الكفاية ، وحذره
التكلف واستكراه العبارة ؛ فإن أكرم ذلك كله ما كان إفهاماً للسامع ، ولا
يُحسِّج إلى التأويل والتعقب ، ويكون مقصوراً على معناه لا مقصراً عنه ، ولا
فاضلاً عليه .

مركز تقيت كويتير علوم رسيدي

فاختر من المعاني ما لم يكن مستوراً باللفظ المتعقد ، مُغْرِقاً في الإكثار
والتكلف ، فما أكثر من لا يحفل باستهلاك المعنى مع برّاعة اللفظ وغموضه
على السامع بعد أن يتسوق له القول ، وما زال المعنى محجوباً لم تكشف عنه
العبارة . فالمعنى بعد مقيم على استخفائه وصارت العبارة لغواً وظرفاً خالياً .

وشرُّ البلغاء من هياً رسم المعنى قبل أن يهيء المعنى ، عشقاً لذلك
اللفظ ، وشغفاً بذلك الاسم ، حتى صار يجرُّ إليه المعنى جراً ، ويلزقه به
إلزاقاً . حتى كأن الله تعالى لم يخلق لذلك المعنى اسماً غيره ، ومنعه
الإفصاح عنه إلا به .

والآفة الكبرى أن يكون رديء الطبع بطيء اللفظ ، قليل الحد ، شديد

العُجْب ، ويكون مع ذلك حريصاً على أن يُعدَّ في البلغاء ، شديد الكُلف بانتحال اسم الأدياء . فإذا كان كذلك خفي عليه فرق ما بين إجابة الألفاظ واستكراهه لها .

وبالجملة إن لكل معنى شريف أو وضيع ، هزل أو جد ، وحزم أو إضاعة ، ضرباً من اللفظ هو حقُّه وحظُّه ، ونصيبه الذي لا ينبغي أن يجاوزه أو يقصُر دونه .

ومن قرأ كتب البلغاء ، وتصفح دواوين الحكماء ، ليستفيد المعاني ، فهو على سبيل صواب . ومن نظر فيها ليستفيد الألفاظ فهو على سبيل الخطأ . والخسرانُ هنا في وزن الرِّبح هناك ؛ لأن من كانت غايته انتزاع الألفاظ حملة الحرص عليها ، والاستهتارُ بها إلى أن يستعملها قبل وقتها ، ويضعها في غير مكانها . ولذلك قال بعض الشعراء لصاحبه : أنا أشعر منك ! قال صاحبه : ولم ذاك ؟ قال : لأنِّي أقول البيت وأخاه ، وأنت تقول البيت وابن عمه .

وإنما هي رياضة وسياسة ، والرفيق : مصلح وآخر مفسد . ولا بد من هذان وطبيعة مناسبة .

وسماع الألفاظ ضاراً ونافع .

فالوجه النافع : أن يدور في مسامعه ، ويغب في قلبه ، ويختمر في صدره ، فإذا طال مكثها تناكحت ثم تلاقت فكانت نتيجتها أكرم نتيجة ، وثمرتها أطيب ثمرة ؛ لأنها حينئذ تخرج غير مُسترقّة ولا مختلّسة ولا مغتصبة ، ولا دالة على فقر ؛ إذ لم يكن القصد إلى شيء بعينه ، والاعتماد عليه دون غيره . وبيّن الشيء إذا عَشش في الصدر ثم باض ، ثم فرخ ثم نهض ، وبين أن يكون الخاطر مختاراً ، واللفظ اعتسافاً واغتصاباً ، فرق بين .

ومتى اتكَلَّ صاحبُ البلاغة على الهوينى والوكال ، وعلى السُرقة والاحتيال ، لم يَنْلِ طائلاً ، وشقَّ عليه النزوع ، وامتولى عليه الهوان ، واستهلكه سوء العادة .

والوجه الضارّ : أن يتحفّظ ألفاظاً بعينها من كتابٍ بعينه ، أو من لفظ رجل ، ثم يريد أن يعدّ لتلك الألفاظ قسمها من المعاني ، فهذا لا يكون إلا بخيلاً فقيراً ، وحائفاً سروراً ، ولا يكون إلا مستكبرهاً لألفاظه ، متكلِّفاً لمعانيه ، مضطرب التاليف منقطع النظام . فإذا مرَّ كلامه بنقاد الألفاظ وجهابذة المعاني استخفوا عقله ، وبهرجوا علمه .

ثم اعلم أن الاستكراه في كل شيء سَمِج ، وحيث ما وقع فهو مذموم ، وهو في الطَّرَفِ أَسْمَج ، وفي البلاغة أقبج . وما أحسن حاله ما دامت الألفاظ مسموعة من فيه ، مسرودة في نفسه ، ولم تكن مخلّدة في كتبه .

وخير الكتب ما إذا أعدت النظر فيه زادك في حسنه ، وأوقفك على حدّه .

مركز تحقيقات كويتية للدراسات والبحوث

[١٢ - عبد الله بن المقفع]

فصل منه : ومن المعلمين ثم من البلغاء المتأدّبين : عبد الله بن المقفّع ، ويكنى أبا عمرو ، وكان يتولّى لآل الأهم ، وكان مقدّماً في بلاغة اللسان والقلم والترجمة ، واختراع المعاني وابتداع السّير . وكان جواداً فارساً جميلاً ، وكان إذا شاء أن يقول الشعر قاله ، وكان يتعاطى الكلام . ولم يكن يُحسن منه لا قليلاً ولا كثيراً . وكان ضابطاً لحكايات المقالات ، ولا يعرف من أين غرّ المغترُّ ووثق الوثائق . وإذا أردت أن تعتبر ذلك ، إن كنت من خلّص المتكلّمين ومن النظّارين ، فاعبر ذلك بأن تنظر في آخر رسالته (الهاشمية) ، فإنك تجده جيّد الحكاية لدعوى القوم ، رديّ المدخل في مواضع الطعن

عليهم .

وقد يكون الرجل يُحسن الصَّنْفَ والصنْفين من العلم ، فيظنُّ بنفسه عند ذلك أنه لا يحمل عقله على شيء إلا نَفَذَ به فيه ، كالذي اعترى الخليل بن أحمد بعد إحسانه في النحو والعروض ، أن ادعى العلم بالكلام وبأوزان الأغاني ، فخرج من الجهل إلى مقدار لا يبلغه أحدٌ إلا ببذلان الله تعالى . فلا حرمتنا الله تعالى عصمته ، ولا ابتلانا ببذلاننا .

فصل منه : وهذان الشاعران جاهليان ، بعيدان من التوليد ، وينجوة من التكليف .

[١٣ - تعلم التجارة والصيرفة افضل من عمل السلطان]

فصل منه : ومن خصال العبادة وإن كانت كلها راجحة فليس فيها شيء أردُّ في عاجل ، ولا أفضل في آجل من حُسن الظنِّ بالله تعالى وعزِّ .

ثم اعلم أن أعقل الناس السلطان ومن احتاج إلى معاملته ، وعلى قدر الحاجة إليه يفتح له باب الحيلة ، والاهتداء إلى مواضع الحاجة . وما أقرب فضل الراعي على الرعية من فضل السائس على الدابة . ولولا السلطان لأكل الناس بعضهم بعضاً ، كما أنه لولا الميسم لوثب السباع على السوام .

ودعني من تدرسه كتب أبي حنيفة ، ودعني من قولهم : اصرفه إلى الصيارفة ؛ فإن صناعة الصرف تجمع مع الكتاب والحساب المعرفة بأصناف الأموال ، ولا تجد بدءاً من حيلة السلطان .

ودعني من قول من يقول : قد كانت قريش تجاراً ؛ فإن هذا باب لا ينقاس ولا يعطرد . ومن قاس تجار الكرخ وبيعته ، وتجار الأهواز والبصرة ، على تجار قريش ، فقد أخطأ مواضع القياس ، وجعل أقدار العلل .

قريش قوم لم يزل الله تعالى يقبلهم في الأرحام البريئة من الآفات ،
وينقلهم من الأصلاب السليمة من العاهات ، ويعيبيهم لكل جسيم ، ويربيهم
لكل عظيم .

ولو علم هذا القائل ما كانت قريش عليه في التحارة لعرف اختلاف
السبل ، وتفاوت ما بين الطرق . ولو كانت علتهم في ذلك كعلة تجار الأبله ،
ومحتكري أهل الحيرة ، لثلمت دقة التجارة في أعراضهم ولنهك سخر التربح
من مروءاتهم ، ولصغر ذلك من أقدارهم في صدور العرب ، ولوضع من
علوهم عند أهل الشرف . وكيف وقد ارتحلت إليهم الشعراء كما ارتحلت إلى
الملوك العظماء ، فأسنوا لهم العطية ، ولم يقصروا عن غاية ، فسقوا الحجيج
وأقاموا القرى لزوار الله تعالى ، وهم بوادٍ غير ذي زرع . فلو أنه كان معهم من
الفضل ما يتهر العقول ، ومن المجد ما تخرج فيه العيون ، لما أصلح طبائعهم
الشيء الذي يفسد جميع الأمة . ولقد أورث ذلك صدورهم من السعة بقدر ما
أورث غيرهم من الضيق . ولو كانت سبلهم عند الملوك إذا وفدوا عليهم ، أو
وردوا بلادهم بالتجارات ، سبل غيرهم من التجار لما أوجهوهم وقربوهم ،
ولما أقاموا لهم قرى الملوك وحبوهم بكرامة الخاص .

وإذا كانت قريش حُمساً تنسك في دينها ، وتتأله في عبادتها وكان مانعاً -
لهم من الغارات والسبأ ، ومن وطء النساء من جهة المغنم ، ولذلك لم يشدوا
البنات ولا ولدت منهم امرأة غيرهم من جهة السبأ ، ولا زوجوا أحداً من
العرب حتى يتحمس ويدين بدينهم . ولذلك لما صاروا إلى بناء الكعبة لم
يُخرجوا في بنائها من أموالهم إلا مواريت آبائهم ونسائهم ، خوفاً من أن يخالطه
شيء حرام ، إذ كانت أرباح التجارات مخوفاً عليها ذلك . فلما كانوا بوادٍ غير
ذو زرع ويحتاجون إلى الأقوات ، وإقامة القرى ، لم يجسدوا بدأ من أن
يتكلفوا ما يُغيشهم ويصلح شأنهم ، فأخذوا الإيلاف ، ورحلوا إلى الملوك

بالتجارات . فهذا هو السبب .

فانظر كم بين علتهم وعلّة غيرهم ! فيسرك بعد هذا أن يتحوّل ابنك في
مسلّاح صالح الزّرازريشي ، أو في طباع ابن بادام ، أو في عقل ابن سامري .
فإنّ زعموا أنّ أصحاب السلطان بعرض مكروه فيعلموا أنّ كلّ مسافرٍ
فبعرض مكروه ، وقد قال بعض الحكماء : « المسافرُ ومتاعه على قلت إلا من
حفظ الله » ، يعني على هلاك .

وراكب البحر أشدّ خطراً ، ومشتري طعام الأهواز أشدّ تهوراً ، ورافع
الشّراع بعرض هلكة . والمتعرّض للملاحاة والمعروض نفسه للسّباع أقلّ شفقة .
وسكان الجزائر والسواحل أحقّ بالتعرّض ، وأولى بالخوف . والمنهوم بالطعام
الردّي ، والمدمنُ للشّراب أشبه بأصحاب التّغريب ، والمتباري في ذلك
والمتزيّد منه أحقّ بتوقّع الجِدثان وحوادث الأزمان ، قد جرت عليه عادة الدهر
وسيرة الأيام . وهذا كلّهُ أحقّ بالاهتمام .

وإن كنت إلى الإشفاق تذهب ، وإلى إعطاء الحزم أكثر من نصيبه ،
وكيف دار الأمر فإنّ التاجر قد استشعر الدّل ، وتغشى ثوب المذلة .

وصاحب السلطان قد تجاوز حدّ العزّ والهيبة . وإنما عيّه سُكر
السُّلطان ، وإفراط التعظيم . قد استبطن بالعزّ ، وظاهره بالبشر واستحكمت
تجربته ، وبعُدت بصيرته حتى عرف مصلحة كلّ مضر ، وإصلاح كلّ فاسد ،
 وإقامة كلّ معوج ، وعمارة كلّ خرب .

ولا أعلم في الأرض أعمّ إفلاساً ولا أشدّ نكبةً ، ولا أكثر تحوّلاً من يُسر
إلى عسر ، ولا رأينا الجوائح إلى أحدٍ أهدى منها إلى أموال الصّيارفة . فكيف
يُقاس شأن قومٍ تعمهم المعاطب بشأن قوم أهل السّلامة فيهم أكثر ، والنكبات
فيهم أقلّ .

وبعد هذا فإني أرى ألا تستكرهه فتبغض إليه الأدب ، ولا تهمله فيعتاد
اللهو .

على أنني لا أعلم في جميع الأرض شيئاً أجلب لجميع الفساد من قرناء
السوء ، والفراغِ الفاضل عن الجَمَامِ .

درسه العلم ما كان فارغاً من أشغال الرجال ، ومطالب ذوي الهَمَمِ .
واحتل في أن تكون أحب إليه من أمه . ولا تستطيع أن يمحضك المِيقَةَ ،
ويصفي لك المودَّة مع كراهته لما تحمل إليه من ثقل التأديب عند من لم يبلغ
حال العارف بفضله .

فاستخرج مكنون محبته ببر اللسان ، وبذل المال . ولهذا مقدار من
جازه أفرط . والإفراط سرف . ومن قصر عنه فرط ، والمفرط مضياع .

ولا تستكثرن هذا كله فإن بعض النعمة فيه تأتي على أضعاف النعمة ،
والذي تحاول من صلاح أمر من تؤمل فيه أن يقوم في أهلك مقامك ، وإصلاح
ما خلقت كقيامك ، لتحقيق الخيطة عليه ، وبإعطائه المجهود من نفسك .

وقال زكريا عليه السلام : ﴿ رَبُّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ .
فَعَلِمَ اللهُ تبارك وتعالى ، فوهب له غلاماً ، وقال اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ
كَالْأُنثَى ﴾ .

اعلم أنه أعطاك ولداً عبّرةً عيّن العدو ، وقرة عين الصديق الولي .
فاحمد الله وأخلص في الدعاء ، وأكثر من الخير إن شاء الله تعالى .

٦ - هامش كتاب المعلمين

- (١) يهجو الجاحظ شخصاً ذم المعلمين ويتهمه بالسفه والجهل والبذاءة والغرور .
- (٢) فوائد الكتاب في حفظ العلم والاختبار عن الماضي الخ . . . وقد عدد الجاحظ فوائد الكتاب في مقدمة كتاب الحيوان حيث أبدع في ذلك .
- (٣) الاستنباط تعني التفكير والحكماء هم اصحاب الاستنباط اما الحفظ فمن عمل المقلدين . لاحظ تأثر الجاحظ بالفلسفة .
- القضية تعني الحكم . والحكم عند المنطقيين مؤلف من قضية .
- لاحظ الآراء التربوية حول طبيعة الحفظ وزمانها ومكانها وطبيعة التفكير .
- (٤) الفرضيين : علماء الميراث وتقسيم الارث على الورثة .
- القضية : معناها هنا الحكم ايضاً .
- (٥) الجاحظ لا يتورع عن استعمال الالفاظ الاعجمية مثل التنبوك (القوس) البنجكاز (خمس اخشاب ، فارسية مثل التنبوك) . كما يستعمل كلمات عربية اصبحت غريبة بالنسبة لنا لعدم استعمالها مثل الديوق (لعبة للصبيان) والسبطانة (فناة جوفاء يرمى بها الطير) والمجتممة (حيوان ينصب ويرمى ويقتل) .
- (٦) الانسان عالم صغير : وردت هذه الفكرة مع شرحها في الحيوان ج ١ ص ٢١٢ طبعة عبد السلام هارون .
البابة = الباب والوجه .
- (٧) المعلم مشتق من العلم . والمؤدب مشتق من الأدب . والعلم أصل والأدب فرع .
- الادب له معنيان : معنى خلقي تاديبى ، ومعنى تعليمي .



- (٨) الحرف = الحرمان . الادب لا يشبع ولا يعني من جوع .
- (٩) ناطق : تكلم او حدث .
- توخى حكاية مقادير عقول الصبيان : راعى مستوى عقولهم .
- (١٠) اللحن : المخطأ في تحريك الكلمات .
- (١١) استكراه العبارة : استعمال العبارة الكريهة .
- التأويل : التفسير .
- الطبع : الموهبة الادبية - القريحة .
- (١٢) عبد الله بن المقفع : يقدم الجاحظ ترجمة موجزة له . والجديد في هذه الترجمة قوله أنه اشتغل بعلم الكلام دون اجادة فيه .
- (١٣٢) التجار وعمال السلطان : هذه الفقرة مشتركة بين كتاب المعلمين وكتاب « مدح التجار وذم السلطان » . وفيه يمدح قريشاً وخصالها ومهارتها في التجارة ويتحدث عن الايلاف الذي عقده مع ملوك اليمن والحيشة والشام وفارس . ونجد كلاماً مشابهاً عن خصال قريش في كتاب الاوطان والبلدان ، وكتاب فضل هاشم على بني عبد شمس .

- ٧ -

طبقات المغنين

مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

[١ - تصنيف العلوم]

فصل منه : ثم إنا وجدنا الفلاسفة المتقدمين في الحكمة ، المحيطين بالأمور معرفة ، ذكروا أن أصول الآداب التي منها يتفرع العلم لسذوي الألباب أربعة :

فمنها النجوم وبروجها ، وحسابها الذي يعرف به الأوقات والأزمنة ، وعليها مزاج الطبائع وأيام السنة من تحقير علوم السوي
ومنها الهندسة وما اتصل بها من المساحة والوزن والتقدير ، وما أشبه ذلك .

ومنها الكيمياء والطب اللذان بهما صلاح المعاش وقوام الأبدان ، وعلاج الأسقام ، وما يتشعب من ذلك .

ومنها اللحون ومعرفة أجزائها وقسمها ، ومقاطعها ومخارجها ووزنها ، حتى يستوي على الإيقاع ويدخل في الوتر وغير ذلك مما اقتصرنا من ذكره على أسمائه وجمله ، اجتناباً للتطويل ، وتوخياً للاختصار . وقصدنا للأمر الذي إليه انتهينا ، وإياه أردنا . والله الموفق وهو المستعان .

[٢ - الخليل يضع علمي الغناء والعروض]

ولم يزل أهل كل علم فيما خلا من الأزمنة يركبون منهاجه ، ويسلكون طريقه ، ويعرفون غامضه ، ويسهلون سبيل المعرفة بدلائله ، خلا الغناء ، فإنهم لم يكونوا عرّفوا علله وأسبابه ووزنه وتصاريفه ، وكان علمهم به على الهاجس وعلى ما يسمعون من الفارسيّة والهنديّة إلى أن نظر الخليل البصريّ في الشعر ووزنه ، ومخارج ألفاظه ، وميّز ما قالت العرب منه ، وجمعه وألّفه ، ووضع فيه الكتاب الذي سماه العروض ، وذلك أنه عرض جميع ما روي من الشعر وما كان به عالماً ، على الأصول التي رسمها ، والعلة التي بيّنها ، فلم يجد أحداً من العرب خرج منها ، ولا قصر دونهما . فلما أحكم وبلغ منه ما بلغ ، أخذ في تفسير النغم واللّحون ، فاستدرك منه شيئاً ، ورسم له رسماً احتذى عليه من خلفه ، واستتمه من غني به .



[٣ - ابراهيم الموصلّي يتم علم الغناء]

وكان إسحاق بن إبراهيم الموصلّي أول من حدا حدّوه ، وامثل هديه ، واجتمعت له في ذلك آلات لم تجتمع للخليل بن أحمد قبله ، منها معرفته بالغناء ، وكثرة استماعه إياه وعلمه بحسبه من قبيحه ، وصحيجه من سقيمه .

ومنها جذقه بالضرب والإيقاع ، وعلمه بوزنها . وألّف في ذلك كتباً معجبة ، وسهل له فيها ما كان مُستصعباً على غيره ، فصنع الغناء بعلم فاضل ، وجذق راجح ، ووزن صحيح ، وعلى أصل مستحکم له دلائل صحيحة واضحة ، وشواهد عادلة . ولم نر أحداً وجد سبيلاً إلى الطعن عليه والعيب له .

وصنع كثيرٌ من أهل زمانه أغاني كثيرة بهاجسٍ طبعهم والاتباع لمن سبقهم ، فبعضُ أصاب وجة صوابه ، وبعضُ أخطأ ، وبعضُ قصر في بعضٍ وأحسن في بعضٍ .

[٤ - طبقات المغنين في عصر الجاحظ]

ووجدنا لكل دهرٍ دولةً للمغنين يحملون الغناء عنهم ، ويُطارحون به فتیانَ زمانهم ، وجواريَ عصرهم . وكان يكون في كلِّ وقتٍ من الأوقات قومٌ يتنادمون ، ويستحسنون الغناء ، ويميزون رديه من جيده ، وصوابه من خطائه ، ويجمعون إلى ذلك محاسنَ كثيرة في آدابهم وأخلاقهم ، ورؤايتهم وهياتهم ، فلم نجد هذه الطبقةَ ذكروا . ووجدنا ذكر الغناء وأهله باقياً .

وخصصنا في أيامنا وزماننا بفتيةٍ أشرف ، وخلانٍ ينظف ، انتظم لهم من آلات الفتوة وأسباب المروءة ما كان محجوراً عن غيرهم ، معدوماً من سواهم ، فحملني الكلف والمودة لهم والسرور بتخليد فخرهم وتشبيد ذكركم والحرصُ على تقويم أودٍ ذي الأود منهم حتى يلدح بأهل الكمال في صناعته ، والفضل في معرفته ، على تمييز طبقة [على] طبقة منهم ، وتسمية أهل كلِّ طبقة بأوصافهم ، وآلاتهم وأدواتهم ، والمذاهب التي نسبوا إليها أنفسهم ، واحتملهم إخوانهم عليها . وخلطنا جداً بهزل ، ومزجنا تقريباً بتعريض ، ولم نرد بأحدٍ ممن سميناهُ سوءاً ، ولا تعمداً نقداً ولا تجاوزنا حداً .

ولو استعملنا غير الصدق لفضلنا قوماً وحائنا آخرين . ولم نفعل ذلك ؛ تجنباً للحيف ، وقصداً للإنصاف . وقد نعلم أن كثيراً منهم سيالغ في الذم ، ويحتفل في الشتم ، ويذهب في ذلك غير مذهبنا .

وما أيسر ذلك فيما يجب من حقوق الفتيان وتفكيههم ، والله حسيبٌ من ظلم ، عليه نتوكل وبه نستعين ، وهو ربُّ العرش العظيم .

ولم نقصد في وصف مَنْ وصفنا من الطبقات التي صنّفنا منهم ، إلا لمن أدركنا من أهل زماننا مَنْ حصل بمدينة السلام ، إذ مَنْ خرج عنها ونزع إلى الفتوة بعد التوبة ، وإلى أخلاق الحداثة بعد الحنكة ، وذلك في سنة خمس عشرة ومائتين . فرحم الله امرأً أحسنَ في ذلك أمرنا ، وحذاً فيه حذونا ، ولم يعجل إلى ذمنا ، ودعاً بالمغفرة والرحمة لنا .

[٥ - طريقة تأليف الكتاب]

وقد تركنا في كلِّ بابٍ من الأبواب التي صنّفنا في كتابنا ، فرجاً لزيادة إن زادت ، ولاحقة إن لحقت ، أو نابتة إن نبتت . ومَنْ عسى أن يتقل به الجلق من مرتبته إلى ما هو أعلى منها ، أو يعجز به القصور عما هو عليه منها إلى ما هو دونها ، إلى مكانه الذي إليه نقله ارتفاع درجة أو انحطاطها ، ومَنْ لعنا نصير إلى ذكره ممن عزب عنا ذكره ، وأنسينا اسمه ، ولم يحط علمنا به ، فنصيره في موضعه ، ونلججه بأصحابه .

وليس لأحد أن يثبت شيئاً من هذه الأصناف إلا بعلمنا ، ولا يستبد بأمرٍ فيه دوننا . وبورد ذلك علينا فتمتحنه ، ونعرفه بما عنده ، ويصير إلى ترتيبه في المرتبة التي يستحقها ، والطبقة التي يحتملها .

[٦ - الاحتياط من العيب]

فلما استتب لنا الفراغ مما أردنا من ذلك خطر ببالنا كثرة العيابين من الجهال برّب العالمين ، فلم نأمن أن يسرعوا بسفه رأيهم وخفة أحلامهم إلى نقض كتابنا وتبديله ، وتحريفه عن مواضعه ، وإزالته عن أماكنه التي عليها رسمنا ، وأن يقول كلُّ امرئٍ منهم في ذلك على حاله ، ويقدر هواه ورأيه ،

وموافقته ومخالفته ، والميل في ذلك إلى بعض ، والذم لطبقة والحمد
لأخرى ، فیهجئوا کتابنا ، ویلحقوا بنا ما لیس من شأننا .

وأحببنا أن نأخذ في ذلك بالحزم ، وأن نحتاط فيه لأنفسنا ومن ضمّه
کتابنا ، ونبادر إلى تفريق نسخ منها وتصيرها في أيدي الثقات والمستبصرين ،
الذين كانوا في هذا الشأن ، ثم ختموا ذلك بالعزلة والتوبة منه ، كصالح بن
أبي صالح ، وكأحمد بن سلام ، وصالح مولى رشيدة .

فعلنا ذلك وصيرناه أمانة في أعناقهم ، ونسخة باقية في أيديهم ، ووثقنا
بهم أمانة ومستودعين وحفظه غير مضيعين ولا متهمين . وعلّمنا أنهم لا يدعون
صيانة ما استودعوا ، وحفظ ما عليه اتّمنوا .

فإن شیب به شوبٌ يخالفه ، وأضيف إليه ما لا يلائمه ، رجعنا إلى
النسخة المنصوبة ، والأصول المخددة عند ذوي الأمانة والثقة ، واقتصرنا
عليها ، واستعلينا بها على المبطلين ، ودفعنا بها إدغال المدغلين ، وتحريف
المحرّفين ، وتزيّد المتزيّدين ، إن شاء الله .
ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

٧ - هامش كتاب طبقات المغنين

(١) الكتاب يخلو من المقدمة التقليدية التي عهدناها في مؤلفات الجاحظ كالدعوة الى الهداية والسلامة والتوفيق الخ . .

- الفلاسفة : هم الذين تقدموا في الحكمة واخطوا بمعرفة الامور .
- الآداب : تتفرع منها العلوم . الفلاسفة كانوا يجعلون الفلسفة ام العلوم ومنها تتفرع . ولكن هنا تحل لفظ الآداب محل الفلسفة وتعتبر الاصول التي تتفرع منها العلوم . الخلط ظاهر بين المفهومين .

(٢) الخليل البصري : هو الخليل بن احمد الفراهيدي الذي وضع اسس علم الموسيقى العربي ، واكتشف علم العروض ، واسهم في بناء علم النحو وعلم المعاجم . عاش في البصرة وتوفي فيها سنة ٧٨٦ م .

(٣) اسحق بن ابراهيم الموصلي قلد الخليل واكمل علم الموسيقى والغناء . نشأ ومات في بغداد (٧٧٢ - ٨٥٠ م) ونادم الخلفاء . وترك عدة كتب في الموسيقى والأدب .

(٤) طبقات المغنين في عصر الجاحظ وفي بغداد يقسمون الى فئتين : فئة تركت الغناء وتابت يذكر منهم ثلاثة هم صالح بن ابي صالح ، واحمد بن سلام ، وصالح مولى رشيدة . وفئة لا تزال تمارس الغناء وهم فتية يعطف عليهم الجاحظ ولكنه لم يذكر هنا احداً منهم .

(٥) طريقة تأليف الكتاب ليست جديدة على الجاحظ فقد اتبعها في البيان والتبيين ، او خطط لها ولكن لم يتقيد بها نظراً لميله الى الاستطراد .

(٦) خوف الجاحظ من العيابين الذين يسفهن كتابه او يسرعون الى نقضه وتحريفه
عن مواضعه هو الذي حداه على ابداع نسخ يرجع اليها لدى حدوث ذلك .
هذا التدبير يثير العجب ويدعو الى الشك في صحة ما وصلنا من الكتاب ذاته .



مركز تحقيقات كميبيوتر علوم إسلامي

- ۸ -



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

[١ - المقدمة]

فصل منه : وفَّقك الله للطَّاعة ، وعَضَمَك من الشُّبهة ، وأفلجَك
بالمُحجَّة ، وختَم لك بالسعادة .

مركز تحقيقات كليات العلوم الإسلامية

[٢ - يجب الثبوت في الأمور]

غَبِرَتْ - أصلحك الله - أزمانٌ وأنت عندي ممَّن لا يُمضي القولُ إلا بعد
الثبوت ، ولا يُخرج الكتابُ إلا بعد التصفُّح ، وكنتَ حَرِيّاً بتهيئةِ الرأيِ الفطيرِ ،
جديراً أن تُمِلَّ بنفسك عاقبةَ التفريطِ . ولولا كثرةُ مُرورِ أيامِ المُطالبَةِ عليك لما
ثَقَلَ عليك الثبوتُ ، ولولا قِصْرُ أيامِ التحصيلِ لَمَا وثقتُ بأولِ خاطرٍ ، ولولا
سوءُ العادةِ لَمَا كَذَبتُكَ رائدُ النظرِ واتهمتُ الرأيِ .

[٣ - ينبغي عدم الانقياد مع الهوى]

واعْتبرامِ الغُضبانِ يهُورُ الأعمارُ ، فإنَّ الغُضبانَ أسوأَ أثراً على نَفْسِهِ من

لسكران ، ولولا أن نار الغضب تخبو قبل إفاقة المعتوه ، وضباب السكر
ينكشف قبل انكشاف غروب عقل المدلّه ، وأن حكم الظاعن خلاف حكم
المقيم ، وقضية المجتاز خلاف قضية الماكث ، لكانت حال الغضبان أسوأ
مغبة ، وجهله أوبأ ، على أن الحكم له الزم والناس له ألوم .

وما أكثر ما يُقجم الغضبُ المَقاحمَ التي لا يبلغها جنابة الجنون ، وفرط
جهل المصروع .

فصل منه : وإن الغمر لا يكون إلا عديم الآلة ، منقطع المادة ، يرى
الغى رُشداً وانغلو قصداً . فلو كنت إذا جنيت لم تُقِم على الجنابة ، وإذا
عزمت على القول لم تُخلد في الكتب ، وإذا خلدته لم تُظهر التبجح به ،
والاستبصار فيه ، كان علاج ذلك أيسر ، وكانت أيام سقمك أقصر .

فأخزي الله التصميم إلا مع الحزم ، والاعتزام إلا بعد الثبوت والعلم إلا
مع القريحة المحمودة ، والنظر إلا مع استقصاء الروية .

وأخلق بمن كان في صفتك ، وأخبر بمن جرى على دربك ، ألا يكون
سبب تسرعه ، وعلّة تشحنه إلا من ضيق الصدر .

وجميع الخير راجع إلى سعة الصدر . فقد صح الآن أن سعة الصدر
أصل ، وما سوى ذلك من أصناف الخير فرع .

[٤ - ينبغي الاحتراز من اصدار الآراء الفطيرة]

وقد رأيتك - حفظك الله - خونت جميع الوكلاء وفجرتهم ، وشنت على
جميع الوراقين وظلمتهم ، وجمعت المعلمين وهجوتهم ، وحفظت مساويهم ،
وتناسيت محاسنهم ، واقتصرت على ذكر مثالب الأعلام والجلّة ، حتى صوب
نفسك عند السامع لكلامك ، والقارىء كتابك ، أنك ممن يُنكر الحق جهلا ،

أو يتركه معاندةً له . وقد علم الناس أن من تركه جهلاً به أصغرُ إثماً ممن تركه عمداً .

ولعمري إن العلم لَطَوْعٌ يديك ، والمتصرف مع خواطرك ، والمستملي من بديهتك ، كما يستملي من ثمرة فكرك ، والمحصل من رويتك . ولكن الرأي لك أن لا تثق بما يرسمه العلم في الخلاء ، وتتوقاه في الملاء .

اعلم أنك متى تفرّدت بعلمك استرسلت إليه . ومتى ائتمنت على نفسك نواجهم خواطرك ، فقد أمكنت العدو من ربة عنفك . وبنية الطبايع وتركيب النفوس ، والذي جرت عليه العادة ، إهمال النفس في الحلا ، واعتقالها في الملاء .

فتوقفت عند العادة ، وأتهم النفس عند الاسترسال والثقة . قال ابن هرمة :

إن الحديث تغر القوم خلوتك حتى يكون له عي وإكثار
وبس الشيء العجب ، وحسن الظن بالبدية !

واعلم أن هذه الحال التي ارتضيتها لشأنك هي أمنية العدو ، ونهزة الخصم ، ومتى أبرزت كتابك على هذه الصورة وأفرغته هذا الإفراغ ، ثم سبكته هذا السبك ، فليس بعدوك حاجة إلى التكذيب عليك ، وقول الزور فيك ، لأنك قد مكنته من عرضك ، وحكمته في نفسك .

وبعد ، فمن يعجز عن عيب كتاب لم يحرس بالتثبت ، ولم يحصن بالتصفح ، ولم يغب بالمعاودة والنظر ، ولم يقلب فيه الطرف من جهة الإشفاق والحذر . فكيف يوفق الله الواثق بنفسه ، والمستبد برأيه لأدب ربّه ، ولما وصى به نبيه صلى الله عليه وسلم [حين قال لرجلٍ خاصم عنده رجلاً فقال في بعض كلامه : حسبي الله ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم] : « أبلى الله

من نفسك عُذراً ، فإذا غلبك أمرُ فقل : حسبي الله .

وزعمت في أول تشنيعك عليهم ، فقلت : قال يعقوب بن عبيد لبعض ولده حين قال له في مرضه : أي شيء تشتهي ؟ قال : كَبِدٌ وَكَيْلٌ .
وقد كان ترك التجارة من سوء معاملتهم وفحش خباياهم .

[٥ - لا ينبغي تعميم الحكم على جميع الوكلاء]

فصل منه : قد فهمنا عُذركَ وسَمِعنا قولك ، فاسمع الآن ما نقول :

اعلم أن الوكيل ، والأجير ، والأمين ، والوصي ، في جملة الأمر ، يَجرون مجرى واحداً . فأيش لك أن تقضي على الجميع بإساءة البعض . ولو بهرَجنا جميع الوكلاء وخَوَّنا جميع الأمناء ، وأتهمنا جميع الأوصياء وأسقطناهم ، ومنعنا الناس الارتفاق بهم ، لظهرت الخلَّة وشاعت المعجزة ، وبطلت العقْد وفَسَدت المستغلات ، واضطربت التجارات ، وعادت النعمة بليَّة والمَعونة حراماً ، والأمر مهملاً ، والعهد مريجاً .

ولو أن التجار وأهل الجهاز صاحبوا الجمالين والمكاريين والملاحين ، حتى يعابنوا ما نزل بأموالهم في تلك الطرق والمياه ، والمسالك والخانات ، لكان عسى أن يترك أكثرهم الجهاز .

فصل منه : وقد قال الله عز وجل : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ ، وقال : ﴿ فَإِنْ أَنْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ وقال : ﴿ وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ .

وقال يوسف النبي صلى الله عليه وسلم لفرعون وفرعون كافر :

﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ .

وقالت بنت شُعيب في موسى بن عمران : ﴿ يَا أَبْتَ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ
اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ : فَجَمَعَ جَمِيعَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي الْكَلِمَتَيْنِ .

وفي قياسك هذا إسقاطُ جميع ما أَدَبْنَا اللهُ بِهِ ، وجَعَلَهُ رِبَاطاً لِمُرَاشِدِنَا
فِي دِينِنَا ، وَنِظَاماً لِمُصَالِحِنَا فِي دُنْيَانَا .

وَالَّذِي يَلْزُمُنِي لَكَ أَنْ لَا أُعْمَهُم بِالْبِرَاءَةِ ، وَالَّذِي لَزِمَكَ أَنْ لَا تَعْمَهُم
بِالْتُّهْمَةِ ، وَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّ نَفْعَهُمْ عَامٌ ، وَخَيْرُهُمْ خَاصٌّ .

وقالوا : مَثَلُ الْإِمَامِ الْجَائِرِ مَثَلُ الْمَطَرِ ، فَإِنَّهُ يَهْدِمُ عَلَى الضَّعِيفِ ، وَيَمْنَعُ
الْمَسَافِرَ .

وقال النبي - صلى الله عليه وسلم - ﴿ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا ﴾ .

وَالْمَطَرُ وَإِنْ أَفْسَدَ بَعْضَ الثَّمَارِ ، وَأَضْرَبَ بَعْضَ الْأَكْرَةِ فَإِنَّ نَفْعَهُ غَامِرٌ
لِضَرَرِهِ .

وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا يَكُونُ نَفْعُهُ مَتَحْضاً ، وَشَرُّهُ صِرْفاً . وَكَذَلِكَ الْإِمَامُ
الْجَائِرُ ، وَإِنْ اسْتَأَثَرَ بَعْضَ الْفِيءِ ، وَعَطَّلَ بَعْضَ الْحُكْمِ ، فَإِنَّ مَضَارَّهُ مَغْمُورَةٌ
بِمَنَافِعِهِ .

قالوا : وَكَذَلِكَ أَمْرُ الْوُكَلَاءِ وَالْأَوْصِيَاءِ وَالْأَمْنَاءِ ، لَا تَعْلَمُ قَوْمًا الشَّرُّ فِيهِمْ
أَعْتَمَ وَلَا الْغَيْشُ فِيهِمْ أَكْثَرَ مِنَ الْأَكْرَةِ ، وَمَا يَجُوزُ لَنَا مَعَ هَذَا أَنْ نَعْمَهُم بِالْحُكْمِ
مَعَ إِنْ الْحَاجَةُ إِلَيْهِمْ شَدِيدَةٌ ، وَتَنَزَّعَ هَذِهِ الْعَادَةُ [وَهَذَا] الْخُلُقُ مِنْهُمْ أَشَدُّ .

فصل منه : وَأَنَا أَظُنُّ أَنَّ الذَّنْبَ مَقْسُومٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ وَكَلَاتِكَ . فَارْجِعْ إِلَى
نَفْسِكَ فَلَعَلَّكَ أَنْ تَرَى أَنَّكَ إِنَّمَا أُتِيتَ مِنْ قِبَلِ الْفِرَاسَةِ ، أَوْ مِنْ قِبَلِ أَنَّكَ لَمْ
تَقْطَعْ لَهُمُ الْأَجْرَةَ السَّنِيَّةَ ، وَحَمَلْتَهُمْ عَلَى غَايَةِ الْمَشَقَّةِ فِي آدَاءِ الْأَمَانَةِ وَتَمَامِ

[٦ - لا بد من صحة الفراسة في معرفة الرجال]

فصل منه : ولا بُدُّ في باب البصر بجواهر الرجال من صدق الحس ،
ومن صحة الفراسة ، ومن الاستدلال في البعض على الكل ، كما استدلت
بنت شبيب - صلوات الله عليه - حين قضت لموسى - عليه السلام بالأمانة
والقوة ، وهما الركنان اللذان تُبنى عليهما الوكالة .

[٧ - خطر قول « ما ترك الأول للآخر شيئاً »]

فصل منه : وقد قالوا : ليس مما يستعمل الناس كلمةً أضرَّ بالعلم
والعلماء ، ولا أضرَّ بالخاصة والعامة ، من قولهم : « ما ترك الأول للآخر
شيئاً » .

ولو استعمل الناس معنى هذا الكلام فتركوا جميع التكلف ، ولم يتعاطوا
إلا مقداراً ما كان في أيديهم لفقدها علماً جمعاً ومرافق لا تُحصى ، ولكن أرى
الله إلا أن يُقسِمَ نعمه بين طبقات جميع عبادِهِ قسمةً عدل ، يُعطي كلَّ قرنٍ
وكلَّ أمةٍ حصتها ونصيبها ؛ على تمام مرآشد الدين ، وكمال مصالح الدنيا .

فهؤلاء ملوك فارس نزلوا على شاطيء الدجلة ، من دون الصراة إلى فوق
بغداد ، في القصور والبساتين ؛ وكانوا أصحاب نظير وفكر ، واستخراج
واستنباط ، من لُدُنْ أَرْدَشِيرِ بْنِ بَابِكِ إِلَى فِيرُوزِ بْنِ يَزْدَجَرْدِ .

وقبل ذلك ما نزلها ملوك الأشكان ، بعد ملوك الأردوان .

فهل رأيتم أحداً اتخذ حراقة ، أو زلالة ، أو قارباً ؟

وهل عرفوا الحنش مع حر البلاد ووقع السموم ؟

وهل عرفوا الجمّازاتِ لأسفارهم ومُنْتزَحاتهم ؟!

وهل عرف فَلَاحُومِ الثُّمارِ المَطعمَة ، وغِراسِ النخلِ على الكُرداتِ
المسْطَرة ؟ .

وأين كانوا عن استخراجِ فُوهِ العُصْفُرِ ؟ وأين كانوا عن تغليقِ الدُّورِ
والمُدنِ ، وإقامةِ ميلِ الحيطانِ والسُّواريِ المائِلةِ الرُّوسِ ، الرفيعةِ السُّموكِ
المركّبةِ بعضُها على بعضِ ؟!

وأين كانوا عن مراكبِ البحرِ في مُنارسةِ العدوِ الذي في البحرِ ، إن
طارَتِ البوارجِ أدركتْها ، وإن أكرهتها فاتتها بعد أن كان القومُ أسرى في بلادِ
الهندِ ، يتحكّمون عليهم ويتلعبون بهم ؟

وأين كانوا عن الرّميِ بالنيرانِ ؟!

نعم ، وكانوا يتخذون الأحصارِ وينفقون عليها الأموالَ ، رجالهم دشم
العمائمَ ، وسبخةِ القلانسِ ، وكان الرُّجلُ منهم إذا مرَّ بالعطارِ ، أو جلسَ إليه ،
فأراد كرامته دهنَ رأسه ولحيته ، لا يحتشم من ذلك الكبيرِ ، وكان أهلُ البيتِ
إذا طبخوا اللحمَ غرفوا للجارِ والمجارةِ غرفةً غرفةً .

٨ - هامش كتاب الوكلاء

- (١) افلجك بالحجة او افلحك بالحجة : يراد به منحك الحجة والبينة في اعمالك .
(٢) التثبت : التحقيق .
التصفح : المراجعة واعادة النظر ، وتقليبه
الرأي الفطير: الرأي الفج الذي لم ينضج
(٣) يهور : يتلف ، يقضي .
الغمر : الجاهل ، وعديم التجربة او الخبرة *عديم رسي*
(٤) العلم طوع يديك والمتصرف مع خواطرك : يراد به انه من صنعك .
- الملاً : الجمع من الناس .
- نهزة : المناسبة الموافقة للغاية .
(٥) ايش لك : تخفيف للكلمتين : اي شيء . مثل ويلمه بدل ويل لأمه .
- العقد : العقود ، الانفاقات .
(٦) « ولا يد . . . ومن الاستدلال في البعض على الكل » هذا يناقض كل ما قاله
الجاحظ في الفقرة السابقة من عدم تعميم الحكم . ويبدو ان بعض التحريف في
أجزاء العبارة ادى الى ان يكون معناها مناقضاً لمعنى الفقرة السابقة .
(٧) التكلف : لا يراد بها التصنع ، بل تحمل الكلفة والمشقة او التعب في سبيل
البحث والاستنباط .

- ملوك الاشكان بعد ملوك الاردوان : طائفتان من ملوك الفرس حكموا بعد اجتياح الاسكندر ايران وموافقة منه .
- حراقة ، زلالة : نوعان من السفن السريعة الحركة . - الحنيش : ثياب رقيقة من الكتان .
- الجمازات : الابل .
- الكردات : القنوات التي تجريها المياه بين المزارع .



مركز تحقيقات كالمبيوتر علوم اسدي

- ۹ -
مدح التجار و ذم عمل السلطان
مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

[١ - مقدمة]

فصل منه : أدامَ اللهُ لكِ السُّلَامَةَ ، وأسعدَكَ بالنُّعْمَةِ ، وختَمَ لكِ
بالسُّعَادَةِ ، وجعلك من الفائزين .

فَهَمْتُ كتابَ صاحبِكَ ، ووقفتُ منه على تعدُّ في القول ، وخبفَ في
الحكم ؛ وسمعتُ قوله . وهو على كلِّ حالٍ حائرٌ ، وطريقُهُ طريقُهُم ، وكتبُهُ
تُشاكلُ كتبَهُم ، وألفاظُهُ تُطابقُ ألفاظَهُم .

وكذلكِ حالنا وحالُ صاحبِ كتابِكَ فيما يسخطه من أمرنا ، أني لا أعتذرُ
منه ، وأستنكفُ من الانتسابِ إليه ، بل أستحي من الكتابة ، وأستنكفُ بأن
أنسبَ إليها من البلاغة أن أعرف بها في غير موضعها ، ومن السُّجع أن يظهرَ
مني ، ومن الصُّنعة أن تُعرف في كتبي ، ومن العُجبِ بكثير ما يكونُ مني .

وقديماً كرهَ ذلكَ أهلُ المروءة والأئمة ، وأهلُ الاختيارِ للصُّوابِ والصدِّ
عن الخطأ ، حتَّى إن معاويةَ مع تخلُّفه عن مراتبِ أهلِ السُّابقة ، أملى كتاباً
إلى رجلٍ فقال فيه : « لهو أهونُ عليَّ من ذرَّةٍ ، أو كلبٍ من كلابِ الحرَّة » ثم
قال : « امحُ : من كلابِ الحرَّة ، واكتب : من الكلاب » . كأنه كره اتصال

الكلام والمزاوَجَة وما أشبه السُّجْع ، وأريّ أنّه ليس في موضعه

[٢ - فضيلة التجار]

فصل منه : وهذا الكلام لا يزال ينجم من حُشوة أتباع السُّلطان . فأما
عَلِيَّتُهُمْ ومُصَاصُهُمْ ، وذوُّو البصائر والتمييز منهم ، ومن فَتَقَتْهُ الفِطْنَةُ ، وأرهفه
التأديب ، وأرهقه طول الفكر وجَرَى فيه الحَيَاءُ وأحكمته التجارب ، فَعَرَفَ
العواقبَ وأحكم التفصيل وتَبَطَّنَ غوامضَ التحصيل ، فإنهم يعترفون بفضيلة
التُّجَّار ويتمنُّونَ حالهم ، ويحكمونَ لهم بالسُّلامة في الدِّين ، وطيب الطُّعْمَةَ ،
ويعلمونَ أنَّهم أودعُ النَّاسِ بَدَنًا وأهنؤهم عَيْشًا ، وآمنهم سِرْبًا ، لأنهم في
أفئدتهم كالمملوك على أَسْرَتِهِمْ ، يرغب إليهم أهل الحاجات ، وينزع إليهم
مُلتمسو البياعات ، لا تَلْحَقُهُم الذُّلَّةُ في مكاسبهم ، ولا يستعبدهم الضُّرْعُ
لمعاملاتهم .

مركز تحقيقات كويتية للدراسات والبحوث

[٣ - ذل رجال السلطان]

وليس هكذا مَنْ لابسَ السُّلطانَ بِنَفْسِهِ ، وقارَبَهُ بِخِدْمَتِهِ ؛ فإنَّ أولئك
لباسُهُم الذُّلَّةُ ، وشعارُهُم المَلَقُ ، وقلوبُهُم مَمْنُهم لهم حَوْلَ مملوءةً ، قد
لبسها الرُّعبُ ، وألفها الذُّلُّ ، وصاحبها ترقُبُ الاحتياج ؛ فهُم مع هذا في
تكديرٍ وتنغيصٍ ، خوفاً من سَطْوَةِ الرَّئِيسِ وتنكيلِ الصَّاحِبِ ، وتغييرِ الدُّوَلِ ،
واعتراضِ حُلُولِ المِحْنِ . فإنَّ هي حَلَّتْ بِهِمْ ، وكثيراً ما تُحَلُّ ، فناهيكَ بهم
مَرْحُومِينَ يرقُّ لهم الأعداءُ فضلاً عن الأولياءِ .

فكيف لا يُمَيِّزُ بين مَنْ هذا ثمرةُ اختياره وغايةُ تحصيله ، وبينَ مَنْ قد نال
الرُّفاهيةَ والدُّعَةَ ، وسَلِمَ من البَوَاقِ ، مع كثرةِ الإثراءِ وقضاءِ اللُّذاتِ ، من غيرِ
مِنَّةٍ لِأَحَدٍ ، ولا مِنَّةٍ يَعْتَدُّ بِهَا رَئِيسٍ وَمَنْ هُوَ مِنْ نِعَمِ المُفْضَلِينَ خَلِيٍّ ، وبينَ

من قد استرقه المعروف ، واستعبده الطمع ، ولزمه ثقل الصنعة ، وطوق عنقه
الامتنان ، واسترهن بتحمل الشكر .

[٤ - شهرة قريش بالتجارة]

فصل منه : وقد علم المسلمون أن خيرة الله تعالى من خلقه ، وصفيه
من عباده ، والمؤمن على وحيه ، من أهل بيت التجارة ، وهي معولهم وعليها
معتددهم ، وهي صناعة سلفهم ، وسيرة خلفهم .

ولقد بلغتك بسالتهم ، ووصفت لك جلاتهم ، ونعتت لك أحلامهم ،
وتقرر لك سخاؤهم وضيافتهم ، وبدلهم ومواساتهم . وبالتجارة كانوا يعرفون .
ولذلك قالت كاهنة اليمن « لله در الديار لقريش التجار » .

وليس قولهم : قرشي كقولهم : هاشمي ، وزهري وتيمي ، لأنه لم يكن
لهم أب يسمى قريشاً فينتسبون إليه ، ولكنه اسم اشتق لهم من التجارة
والتقريش ، فهو أفخم أسمائهم وأشرف أنسابهم ، وهو الاسم الذي نوه الله
تعالى به في كتابه ، وخصهم به في محكم وحيه وتنزيله ، فجعله قرآناً عربياً
يتلى في المساجد ، ويكتب في المصاحف ، ويجهر به في الفرائض ، وحظوة
على الحبيب والمخلص .

ولهم سوق عكاظ ، وفيهم يقول أبو ذؤيب :

إذا ضربوا القباب على عكاظ وقام البيع واجتمع الألو

وقد غير النبي صلى الله عليه وسلم برهة من دهره تاجراً ، وشخص فيه
مسافراً ، وباع واشترى حاضراً ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

ولم يقسم الله مذهباً رضيعاً ، ولا خلقاً زكياً ولا عملاً مرضياً إلا وحظه منه
أوفر المحفوظ ، وقسمه فيه أجزل الأقسام .

ولشهرة أمره في البيع والشراء قال المشركون : ﴿ مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ
الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ ، فأوحى الله إليه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ
الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَنَّهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَمْشُوا فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ . فأخبر أن الأنبياء
قبله كانت لهم صناعات وتجارات .

[٥ - التجار لا تعدوهم العلوم]

فصل منه : وإن الذي دعا صاحبك إلى ذم التجارة توهمه بقلة تحصيله ،
انها تنقص من العلم والأدب وتقتطع دونهما وتمنع منهما . فأبي صنف من
العلم لم يبلغ التجار فيه غاية ، أو يأخذوا منه بنصيب ، أو يكونوا رؤساء أهله
وعليتهم !؟

هل كان في التابعين أعلم من سعيد بن المسيب أو أنبل ؟ وقد كان تاجراً
بيع ويشترى ، وهو الذي يقول : ما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله
ولا أبو بكر ، ولا عمر ، ولا عثمان ، ولا علي - رضوان الله عليهم - قضاء إلا
وقد علمته .

وكان أعبر الناس للرؤيا وأعلمهم بأنسب قريش ، وهو من كان يُفتي
أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم متوافرون . وله بعد علم بأخبار
الجاهلية والإسلام ، مع خشوعه وشدة اجتهاده وعبادته ، وأمره بالمعروف ،
وجلالته في أعين الخلفاء ، وتقدمه على الجبارين .

ومحمد بن سيرين في فقهه وورعه وطهارته .

ومسلم بن يسار في علمه وعبادته ، واشتغاله بطاعة ربه .

وأيوب السخيتاني ، ويونس بن عبيد ، في فضلها وورعها .

٩ - هامش كتاب مدح التجار ودم عمل السلطان

- (١) السجع : اتفاق اللفظ في آخر الجمل بالخرف الواحد . وقد اعطى مثلاً عليه كلام معاوية « لهواهون علي من ذرة ، او كلب من كلاب الحرة » . ينفي عن نفسه تهمة الاهتمام به او تكلفه .
- (٢) الحشوة : العامة والطبقة السفلى يقابلها العلية .
تبطن الامر : تعمق فيه .
الطعمة : الكسب .
الضرع والتضرع = الخضوع والاستكانة .
الافنية جمع فناء : البيت .
- (٣) لابس : قاربه ولصق به كاللباس الذي يلتصق بالجسم .
- (٤) قريش : مشتقة من قرش وقرش تقرشاً اي حسب القروش وجمعها .
سوق عكاظ : سوق عامة كانت تقام في الجاهلية في الجزيرة العربية للتجارة وقرض الشعر ، تقع قريباً من مكة ، وتدوم شهراً .
يمشي في الاسواق : أي يتجر ويعمل في البيع والشراء .
- (٥) تجار علماء أمثال سعيد بن المسيب ومحمد بن سيرين الخ . .
- كان اعبر للرؤيا : أجود تفسيراً للأحلام .

- ۱۰ -



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

[١ - مدخل في مدح احمد بن أبي دؤاد] .

أطال الله بقاءك وأعزك ، وأصلح على يدك .

كان يقال : السلطان سوق ، وإنما يجلب إلى كل سوق ما ينفق فيها .

وأنت أيها العالم معلم الخير وطالبه ، والداعي إليه ، وحامل الناس عليه - من موضع السلطان بأرفع المكان ؛ لأن من جعل الله إليه مظالم العباد ، ومصالح البلاد ، وجعله متصفحاً على القضاة ، وعتاداً على الولاة ، ثم جعله الله منزع العلماء ، ومفزع الضعفاء ، ومستراح الحكماء ، فقد وضعه بأرفع المنازل ، وأسنى المراتب .

وقد قال أهل العلم ، وأهل التجربة والفهم : « لَمَا يَزَعُ اللَّهُ بِالْسلطانِ أَكْثَرَ مِمَّا يَزَعُ بِالقرآنِ » .

وقد كان يقال : شيان متباينان ، إن صلح أحدهما صلح الآخر : السلطان والرعية .

فقد صلح السلطان ، وعلى الله تمام النعمة في صلاح الرعية ، حتى يحقق الأثر ، وتصديق الشهادة في الخبر .

[٢ - صناعة الجاحظ]

فنسأل الذي منحك حُسن الرُعاية أن يمنحنا حُسن الطاعة .

وقد نظرتُ في التُّجارة التي اخترتها ، والسُّوق التي أقمتها ، فلم أر فيها شيئاً يَنفُوقُ إلاَّ العلمُ والبيانُ عنه ، وإلاَّ العملُ الصالح والدُّعاءُ إليه ، وإلاَّ التُّعاونُ على مصلحة العباد ، ونفي الفساد عن البلاد .

وأنا - مدُّ الله في عمرك - رجلٌ من أهل النُّظرِ ، ومن حُمال الأثر ، ولا أكملُ لكلِّ ذلك ولا أفي ؛ إلاَّ أنِّي في سبيل أهله وعلى منهاج أصحابه .
والمرءُ مع مَنْ أحبُّ ، وله ما اكتسب .

[٣ - التعريف بكتاب أصول الفُتيا]

وعندي - أبقاك الله - كتابٌ جامعٌ لاختلاف النَّاس في أصول الفُتيا ، التي عليها اختلفت الفُروع وتضادَّت الأحكام ، وقد جمعتُ فيه جميع الدُّعاوي مع جميع العلل . وليس يكون الكتابُ تاماً ، ولحاجة النَّاس إليه جامعاً ، حتَّى تَحْتَجَّ لكلِّ قولٍ بما لا يُصابُ عند صاحبه ، ولا يبلغه أهله ؛ وحتَّى لا ترضى بكشف قناع الباطل دون تجريدته ، ولا بتوهمه دون إبطاله . وقد قال رسولُ ربِّ العالمين وخاتمُ النَّبِيِّينَ ، محمدٌ صلى الله عليه وسلم : « تَهَادَوْا تَحَابُّوا » .

فحثُّ على الهدية وإن كان كراعاً وشيئاً يسيراً . وإذا دعا إلى اليسير الحقيق فهو إلى الثمين الخطير أدعى ، وبه أرضى .

ولا أعلم شيئاً أدعى إلى التُّحابِّ ، وأوجب في التُّهادي ، وأعلى منزلةً وأشرف مرتبةً ، من العلم الذي جعل الله العملَ له تبعاً ، والجنةَ له ثواباً .

ولا عُذرَ لمن كتب كتاباً وقد مغاب عنه خصمه ، وقد تكفل بالإخبار

عنه ، في ترك الحيطة له ، والقيام بكل ما احتمله قوله . كما أنه لا عُذر له في التفسير عن فساد كل قولٍ خالف عليه ، وضاد مذهب ، عند من قرأ كتابه وتفهم أدخاله ، لأن أقل ما يُزيل عذره ويزيح عِلته ، أن قول خصمه قد استهدف لخصمه ، وأصحَرَ للسانه ومكَّنه من نفسه ، وسلَّطه على إظهار عورته . فإذا استراح واضع الكتاب من شغب خصمه ومداراة جليسه ، فلم يبق إلا أن يقوى على كسر الباطل أو يعجز عنه .

ومن شكر المعرفة بمغايي الناس ومراشدهم ، ومضارهم ومنافعهم ، أن تحتمل ثقل مؤونتهم في تعريفهم ، وأن تتوخى إرشادهم ، وإن جهلوا فضل ما يُسدى إليهم .

[٤ - الكتاب افضل من صاحبه]

ولم يُصنِ العلمُ بمثل بذله ، ولم يُستَبَقْ بمثل نشره . على أن قراءة الكتبِ أبلغ في إرشادهم من تلاقيهم ، إذ كان مع التلاقي يكثر التظالم ، وتُفْرِطُ النُصرة ، وتشتدُّ الحِمِيَّةُ . وعند المواجهة يُفْرِطُ حُبُّ الغلبة ، وشهوةُ المباهاةِ والرِّياسة ، مع الاستحياء من الرجوع ، والأنفة من الخضوع . وعن جميع ذلك تحدث الضغائن ، ويظهر التباين . وإذا كانت القلوبُ على هذه الصِّفة وهذه الحِلْيَةِ ، امتنعت من المعرفة ، وعميت عن الدلالة .

وليست في الكتبِ عِلَّةٌ تمنع من دَرَكَ البُغْيَةِ ، وإصابة الحُجَّةِ ؛ لأن المتوحد بقراءتها ، والمتفرد بفهم معانيها ، لا يُباهي نفسه ، ولا يغالب عقله .

والكتاب قد يفضل صاحبه ، ويرجع على واضعه بأمر :

منها أنه يوجد مع كل زمانٍ على تفاوت الأعصار ، ويُعد ما بين الأمصار . وذلك أمرٌ يستحيل في واضع الكتاب ، والمنازع بالمسألة والجواب . وقد يذهب العالم وتبقى كتبه ، ويُفنى المعقب ويبقى أثره . ولولا

ما رسمت لنا الأوائل في كتبها ، وخذت من عجيب حكماها ، ودونت من
أنواع سيرها ؛ حتى شاهدنا بها ما غاب عنا ، وفتحنا بها المستغلق علينا ،
فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم ، وأدرکنا ما لم نكن ندركه إلا بهم - لقد خسر حظنا
في الحكمة ، وانقطع سببنا من المعرفة ، وقصرت الهمة ، وضعفت النية ،
فاعتقم الرأي وماتت الخواطر ، ونبا العقل .

[٥ - يجب على العالم اظهار ما عنده]

وأكثر كتبهم نفعاً ، وأحسن ما تكلموا به موقفاً ، كتب الله التي فيها
الهدى والرحمة ، والإخبار عن كل عبرة ، وتعريف كل سيئة وحسنة .

فينبغي أن يكون سبيلنا فيمن بعدنا كسبيل من قبلنا فينا . على أنا قد
وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا ، كما أن من بعدنا يجد من العبرة أكثر مما
وجدنا .

فما ينتظر العالم بإظهار ما عنده ، والناشر للحق من القيام بما يلزمه .
فقد أمكن القول وصلح الدهر ، وخوى نجم التقيّة ، وهبت ربيع العلماء ،
وكسد الجهل والعمى وقامت سوق العلم والبيان .

وهذا الكتاب - أرشدك الله - وإن حسن في عيني ، وحلا في صدري ،
فلست آمن أن يعتريني فيه من الغلط ما يعترني الأب في ابنه ، والشاعر في
قريضه .

[٦ - فرض الجاحظ من هذه الرسالة مساعدة القاضي وثوابه]

والذي دعاني إلى وضعه مع إشفاعي منه ، وهبتي لتصفحك له ، أنني
حين علمت أن الغالب على إرادتك ، والمستولى على مذهبك ، تقرب العالم
واقصاء الجاهل ، وأنت متى قرأت كتاباً أو سمعت كلاماً ، كنت من وراء ما

فيه من نقصٍ أو فضل ، باتساع الفهم ، وصحة العلم ؛ وأنت متى رأيت زللاً
غفرتَه وقومتَ صاحبه ، ولم تُقرِّعه به ، ولم تخرمه له . ومتى رأيت صواباً
أعلنته ورعيتَه ، فدعوتَ إليه وأثبتتَ عليه . ولأنِّي حين أمنتُ عقابَ الإساءة ،
[و] وثقت بشواب الإحسان ، كان ذلك موجباً لوضعه ، ولم أستكره نفسي
عليه ، وصار ذلك موجباً لنظمه وموحياً للتقرب به . والسبب أحق بالتفضيل من
المسبب ؛ لأن الفعل محمول على سببه ، ومضاف إليه ، وعياله عليه ،
ومضمّن به .

وإحساني - مدد الله في عمرك - في كتابي هذا إن كنت محسناً ، صغيراً
في جنب إحسانك ، إذ كنت المثير له من مراقبه ، والباعث له من مراقده .
فلذلك صار أوفر النصيبين لك ، وأمتن السببين مضافاً إليك . وإن كنت قد
قصرت عن الغاية ، فأنا المضيع دونك . وإن كنت قد بلغت فضلك أظهر
وحظك أوفر . لأنني لم أنشط له إلا بك ، ولا اعتمدت فيه إلا عليك .

ولولا سوقك التي لا ينفق فيها إلا إقامة السنة ، وإماتة البدعة ، ودفع
الظلمة ، والنظر في صلاح الأمة - لكانت هذه السلعة بائرة ، وهذا الجلب
مدفوعاً ، وهذا العلق خسيماً .

فالحمد لله الذي عمّر الدنيا بك ، وأخذ لمظلومها على يدك ، وأيد هذا
المُلك بيمينك ، وصدق فراسة الإمام فيك .

وأية منزلة أرفع وأية حالة أحمد ممن ليس على ظهرها عالم إلا وهو يحن
إليه ، أو قد رحل إليه ، أو قد صار إلى كنفه وتحت جناحه . وليس على
ظهرها ظالم إلا وهو يتقيه ، ولا مظلوم إلا وهو يستعديه .

ومن يقف على قدر ثواب من هذا قدره ، وهذه حاله !؟

[٧ - لدى الجاحظ كتب أخرى]

وعندي - مد الله في عمرك - كتب سوى هذا الكتاب ، وليس يمنعني من أن أهديها إليك معاً إلا ما أعرفه من كثرة شُغلك ، وكثرة ما يلزمك من التدبير في ليلك ونهارك . والعلم وإن كان حياة العقل ، كما أن العقل حياة الروح ، والروح حياة البدن ، فإن حكمه حكم الماء وجميع الغذاء ، الذي إذا فضل عن مقدار الحاجة عاد ذلك ضرراً . وإنما يسوغ الشُّراب ويُستمرأ الطعام الأوّل فالأوّل . فكذلك العلم يجري مجراه ، ويذهب مذهبه .

ومن شأن النفوس الملائمة لما طال عليها ، وكثر عندها . فليس لنا أن نكون من الأعوان على ذلك ، ومن الجاهلين بما عليه طبائع البشر ؛ فإن أقوامهم ضعيف ، وأنشطهم سُؤوم ؛ وإن كانت حالاتهم متفاوتة فإن الضعف لهم شامل ، وعليهم غالب .

فإذا قرىء عليك - أيدك الله - هذا الكتاب التمسنا أوقات الجَمَام وساعات الفراغ ، بقدر ما يُمكن من ذلك وينتهي . والله الموفق لذلك ، والمهييء له . ثم أتبعنا كل كتاب بما يليه إن شاء الله .

ولست بحمد الله من باب الطُفيرة والمداخلة ، ولا من باب الجواهر والعرَض ، بل كلها في الكتاب والسُّنة ، وبجميع الأمة إليها أعظم الحاجة .

ثم نسأل الذي عرفنا فضلك ، أن يصل حبنا بحبك ، وأن يجعلنا من صالح أعوانك ، المستمعين منك ، والناظرين معك ؛ وأن يُحسن في عينك ويُزِين في سمعك ، ما تقرُّبنا به إليك ، والتمسنا الدنو منك ، إنه قريب مجيب ، فعلاً لما يريد .

أطال الله بقاءك ، وأتم نعمته عليك ، وكرامته لك في الدنيا والآخرة .

* * *

تمت الرسالة بعون الله تعالى ومنه وتوفيقه . والله الموفق للصواب .
والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه
الطيبين الطاهرين وسلامه .



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

١٠ - هامش رسالة الفتيا

- (١) القاضي احمد بن ابي دؤاد عالم ، انه شيخ من شيوخ المعتزلة . ومنصب قاضي القضاة هام جداً لأنه يشرف على الولاية والقضاة ويدبر شؤون الناس ، انه بتصريح القضاة أي يراقب اعمالهم .
- قوله « لما يزع الله بالسلطان اكثر مما يزع بالقرآن » يراد به أن من يكف من الناس عن ارتكاب العظائم خوفاً من السلطان اكثر ممن يكف عن ارتكابها خوفاً من نهي القرآن وامره وانذاره .
- (٢) قوله « انا رجل من اهل النظر ، ومن حمال الأثر » يراد به انه من اهل الفكر والعلم (النظر) . والحديث (الأثر) .
- (٣) لاحظ اسلوب الجاحظ في البحث الذي عبرت عنه الجملة التالية : « وليس يكون الكتاب تاماً ، ولحاجة الناس اليه جامعاً ، حتى تحتج لكل قول بما لا يصاب عند صاحبه ، ولا يبلغه اهله ، وحتى لا ترضى بكشف قناع الباطل دون تجريده ، ولا بتوهينه دون ابطاله » .
- (٤) قوله « وليست في الكتب علة تمنع من درن البغيسة » العلة تعني السبب وليس الخلل .
- المتوحد بقراءتها : المنفرد .
- (٥) يجب على العالم اظهار ما عنده = خير تعبير عن مبدأ الالتزام . ينبغي ان يكون سبيلنا فيمن بعدنا كسبيل من قبلنا فينا : اي تحصيل العلم ونشره .

(٦) لاحظ موقف القاضي من الكتب التي تعرض عليه او تؤلف : انه يقرأها ليطلع على ما فيها ويراقبها ، فيقرع على الخطأ او يصفح ، ويشجع على الصواب ويكافئ . هذا يعني ان الدولة كانت تمارس رقابة على المنشورات والمؤلفات .
- قوله « ولولا سوقك التي لا ينفق فيها الا اقامة السنة ، وامانة البدعة ، ودفع الظلّامة ، والنظر في صلاح الامة . . . » . يعني حرص القاضي على العمل بالشرعية الاسلامية وعدم الابعاد عنها ، واحقاق الحق ورفع الظلم ، واصلاح الرعية .

- « صدق فراسة الامام فيك » : الخليفة .

- لاحظ احترام الجاحظ لعلم احمد بن ابي دؤاد وخشية سطوته .

(٧) كثرة كتب الجاحظ تستفاد من هذه العبارة « وعندي مسد الله من عمرك - كتب سوى هذا الكتاب » . لقد وصلتنا اسماء نحو مائتي رسالة وكتاب .

- العلم حياة العقل ، والعقل حياة الروح ، والروح حياة البدن . انه يميز بين العقل والروح والبدن . ويجعل الروح وسطاً بين العقل والبدن .

- العلم اذا زاد مقداره على العقل كالطعام اذا زاد مقداره على الجسد يعود ضرراً . قاعدة تربوية ينبغي الانتباه اليها .

- « من شأن النفوس الملاّلة لما طال عليها ، فكرة يتذرع بها الجاحظ في معظم كتبه ، اما ليبرر عدم اطالة الكتاب ، واما ليبرر مزج الجسد بالهزل ، او الاستطراد .

- « الكتاب ليس من باب الطفرة والمداخلة ولا من باب الجوهر والعرض » . اربع مسائل بحثها المتكلمون ، الطفرة : انتقال جسم من المكان الاول الى المكان الثالث دون المرور بالمكان الثاني ، قال فيها النظام . المداخلة : دخول اجزاء الجسم في اجزاء الجسم الأخرى . الجوهر : هو ما قام بنفسه . العرض هو ما قام بالجوهر . (راجع كتابنا : المناحي الفلسفية عند الجاحظ ، باب المنحى الطبيعي) .

- ١١ -

مدح النبذ وصفة اصحابه

مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

[١ - وصف النبيذ لا يفیه حقه]

أنا - أبقاك الله - الطالب المشغول ، والقائل المعذور ، فإن رأيت خطأ
فلا تنكر فإنني بصدده وبعرض منه ، بل في الحال التي توجه ، والسبب الذي
يؤدي إليه . وإن سمعت تسديداً فهو الخريب الذي لا نجده . اللهم إلا أن
يكون من بركة مكاتبتك ، ويؤمن مطالبتك . ولأن ذكرك يشحذ الذهن ،
ويصورك في الوهم ، ويجلو العقل ، وتأملك ينفي الشغل .

ولا يعجبني ما رأيت من قلة إطنابك في هذا النبيذ ، وقلة تلهمك بهذا
الشراب وأنت تجد من فضل القول وحسن الوصف ما لا يُصاب عند خطيب ،
ولا يُوجد عند بليغ . وأنت ولو منيت الخيلاء ، وحقرت العظماء ، وأرغبت
الشعراء ، وأعطيت الخطباء ، ليكون القول منهم موصولاً غير مقطوع ،
ومبسوطاً غير مقصور ، لكنك بعد مقصراً في أمره ، مفرطاً في واجب حقه .
فلا تأديب الله قبلك ، ولا قول الناصح سمعت .

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ . وقال الأول :
« استديم النعمة بإظهارها ، واستزِد الواهب بإدامة شكره » .

[٢ - النبيذ دواء يشفي من الامراض]

بل كيف أنست بالجلساء ، وأرسلت إلى الأطباء ولم يكن في قريتك
[منه] ما يغنيك ، وفي النظر إليه ما يشفيك ؟ ولم ملكت نفسك دون أن
تهدي ، ولم رأيت الوقار مروءة قبل أن تستخف ولم كان الهذيان هو الهذيان ،
والسُخف هو المروءة ، والتناقض هو الصُحّة والأبأي شيء خصصت ، وبأي
معنى أتيت ، ولم لم تخلع فيه العذار ، ولم تخرج فيه عن كل مقدار .

وأبي شيء أجرّب جلدك وأمات حالك ، وأضعف مسرتك ، وأوحش منك
رفيقك ، إلا العقوبة المحضة ، وإلا الغضب والعقاب ، وحرمت الشواب إلا
التهاون في أمره ، وقلة الرعاية لحقه .

وكيف صارت أمراض الأغنياء وأمراضك أمراض الفقراء إلا
لمعرفتي بفضله ، واستخفافك بقدره . ألا ترى أنني منقرس مفلوج ، وأنت
أجرّب مبسور .

فإن تبت فما أقرب الفرج ، وأسرع الإجابة . وسفرغ لك إن شاء الله
قريباً ، وتفلاح سريعاً .

وإن أصررت وتنايمت وتماديت أذاك والله من سفلة الأدواء ، وزوي عنك
من عليّة الأمراض ، ما يضعك موضعاً لا ارتفاع معه ، ويلزق بعقبك عاراً لا
زوال له . ثم تتبع أسيحك السبّة ، وتببهم المذمة .

[٣ - النبيذ شقيقك الذي شغلت عنه]

علم الله أنه استظرفك واستملحك ، واستحسن قلبك ، واسترجح
عقلك ، وأحسن بك ظناً ، وراك لنفسه أهلاً ، ولا تخاذه موضعاً ، وللأنس به

مكاناً ، وأنت لاهٍ عنه زارٍ عليه متهاون به ، قد اقبلت على ديوانك تشغل
بملازمته وتدع ما يجب عليك من صفاته ، والدُّعاء إلى تعظيمه . بل هل
كنت من شيعته والذائبين عن دولته ، والمعروفين بالانقطاع إليه ، والانبثات في
حبله ، إلا أن يكون عندك التقصيرُ لحقه ، والتهاونُ بأمره اللازم ، ونهْيُ الناس
عنه .

ولو خرجت إلى هذا لخرجت من جميع الأخلاق المحمودة ، والأفعال
المرضية . وأحسب أنك لا تعظمه ولا ترقُّ له . ولو لم تتعصب إلا لجماله
وحسنه ، ولو لم تحافظ على نقائه وعِفته لكان ذلك واجباً ، وأمرأ معروفاً .
فكيف مع المناسبة التي بينكما ، والشكل الذي يجمعكما . فإن كان بعضك
لا يصون بعضاً وأنت لا تعظم شقيقاً ، فأنت والله من حفِظِ العشيرة أبعدُ ،
ولمعرفة الصديق أنكر .

ولقد نعت إليَّ لُبَّك ، وأثقلتني حفاظك ، وأفسدت عندي كلَّ صحيح .
وقد كان يقال : « لا يزال الناس بخير ما تعجبوا من العَجَب » . قال الشاعر :
وهلك الفتى أن لا يَراحَ إلى الندى وأن لا يرى شيئاً عجيباً فيعجبا
قال بكر بن عبد الله المُرَني : « كنا نتعجب من دهرٍ لا يتعجب أهله من
العجب فقد صبرنا في دهرٍ لا يستحسِنُ أهله الحَسَن . ومَن لا يستحسِن الحَسَن
لم يستفح القبيح » .

وقال بعضهم : « العجب تركُّ التعجب من العَجَب » .

ولم أقل ذلك إلا لأن تكون به ضنيناً ، وبما يجب له عارفاً . ولكنك لم
توفِّر حقه ولم توفِّ نصيبه .

فإن قلت : ومَن يقضي واجب حقه ، ويتنهض بجميع شكره ؟ قلنا :
فهل أعذرت في الاجتهاد حتى لا يُذم إلا تعجبك ، وهل استفرقت الاعتذار

حتى لا تعاب إلا بما زاد على قوتك . ولولا أنك عين الجواد لم نطلبه منك . ولولا ظنك لم نحمدك عليه . ولولا معرفتك بفضله لم نعجب من تقصيرك في حقه ، ولولا أن الخطأ فيك أقبح ، والقيح منك أسمج ، وهو فيك أبين والناس به أكلف ، والعيون إليه أسرع - لكان كتابنا كتاب مطالبة ، ولم يكن كتاب معاتبه ، ولشغلنا الحلم لك عن الحلم عليك ، والقول لك عن القول فيك .

وقد كنت أهابك بفضل هبتي لك ، وأجترى عليك بفضل بسطك لي ، فمنعني حرص الممنوع ، وخوف المشفق ، وأمن الواثق ، وقناعة الراضي .

[٤ - الجاحظ يطلب النيذ ويخشى أن يرد طلبه]

وبعد فمن طلب ما لا يجاد به ، وسأل ما لا يوهب مثله ممن يجود بكل ثمين ، ويهب كل خطير ، فواجب أن يكون من الرد مشيقاً ، وبالنجح مؤقناً .
وإن كان ، أبقاك الله ، أهلاً لأن يمنع ، وكنت حفظك الله أهلاً أن تبذل ، وجب أن تكون باذلاً مانعاً ، وساكتاً مطمئناً ، إلا أن يكون الحرب سلماً سجالاً ، والحالات دولا .

ولهذه الخصال ما وقع الطلب ، وشاع الطمع .

فإن منعت فعذرک مبسوط عند من عرف قدره ، وإن بذلت فلم تعد الذي أنت أهله عند من عرف قدرك ، إلا أنه لا يجود بمثله إلا غني عند جميع الناس ، أو عاقل فوق جميع الناس .

وكيف لا أطلب طلب الجريء المتهور ، وأمسك إمساك الهائب الموقر .
وليس في الأرض خلق يفتخر في وصفه المحال ولا يستحسن الهديان سواء ١٩

على أن من الهديان ما يكون مفهوماً ، ومن المحال ما يكون مسموعاً .
فمن جهل ذلك ولم يعرفه ، وقصر ولم يبلغه ، فليسمع كلام اللّهُفان
والثكلان ، والغضبان والغيران ، ومرقصه الصبيان ، والمنعظ إذا دنا منه
الحلقي .

حتى إذا استوهبتك لم تهب له منه حتى تقف وقفة ، وتطرق ساعة ، ثم
تستحسن وتستشير ، ثم تشفع على مستوهبه ، وتعجب من شاريه ، ثم تطيل
الكتاب بالامتنان ، وتسطر فيه بتعظيم الإنعام مع ذكر مناقبه ، ونشر محاسنه
يقدر الطاقة . وإن لم تبلغ الغاية فاعرف وزنه ، واشهد بطييه ، وأرخ ساعته ،
واشهر في الناس يومه .

وما ظنك بشيء لا تقدر أن تشرد في ذكره وتفرد في مدحه ، وتقصيرك
واضح في لونه ، مكتوب في طعمه ، موجود في رائحته ، إذ كان كل ممدوح
يقصر عن مدحه وقدره ، ويصغر في جنبه .

ولو لم يستدل على سعادة حالك ، وإقبال أمرك ، وأن لك زياً صليقاً في
المعلوم ، وحظاً في الرزق المقسوم ، وأنك ممن تبقى نعمه ، ويدوم شكره ،
وفهم النعمة وبرؤها ، ويدراً عنها ويستديمها ، إلا أنه وقع في قسّمك ، وكان
في نصيبك - لكان ذلك أعظم البرهان ، وأوضح الدلالة .

بل لا نقول : إنه وقع اتفاقاً وخرساً نادراً ، حتى يكون التوفيق هو الذي
قصد به ، والصنع هو الذي دل عليه .

[٥ - النبيذ غني لمالكة وفقير لفاقده]

ولو لم تملك غيره لكنت غنياً ، ولو ملكت كل شيء سواه لكنت فقيراً .
وكيف لا يكون كذلك وهو مستراح قلبك ، ومجال عقلك ، ومرتع عينك ،

وموضع أنسك ، ومُستنبط لذتك ، ونبوغ سرورك ، ومصباحك في الظلام ،
وشعارك من جميع الأقسام .

وكيف وقد جمع أهبة الجلال ، ورشاقة الجلال ، ووقار البهاء ، وشرف
الخير ، وعزّ المجاهرة ولذّة الاختلاس ، وحلاوة الدبيب .

[٦ - النبيذ يطرد الهم ويعيد الشباب]

وسأصف لك شرف النبيذ في نفسه ، وفضيلته على غيره ، ثم أصف
فضل شرابك على سائر الأشربة ، كما أصف فضل النبيذ على سائر الأنبذة ؛
لأن النبيذ إذا تمشى في عظامك ، والتبس بأجزائك ، ودب في جنانك ،
منحك صدق الحس ، وفراغ النفس ، وجعلك رخي البال ، خلّي الصدر ،
قليل الشواغل ، قرير العين ، واسع الصدر ، فسيح الهمم حسن الظن . ثم
سد عليك أبواب التهم ، وحسن دونك الظن وخواطر الفهم ، وكفك مؤونة
الجراحة ، وألم الشفقة ، وخوف الحدثنان ، وذلل الطمع وكذ الطلب ، وكل ما
اعترض على السرور وأفسد اللذة ، وقاسم الشهوة ، وأحل بالنعمة .

وهو الذي يرد الشيوخ في طبائع الشباب ، ويرد الشباب في نشاط الصبيان ،
وليس يخاف شاربهُ إلا مجاوزة السرور إلى الأثر ، ومجاوزة الأثر إلى البطر .

[٧ - النبيذ يبعث على الظرف والضحك في كل وقت]

ولو لم يكن من أياديه ومينيه ، ومن جميل آلائه ونعمه ، إلا أنك ما دمت
تمزجه بروحك ، وتزواج بينه وبين دمك فقد أعفك من الجد ونصبه ، وحبب
إليك المزاح والفكاهة ، وبغض إليك الاستقصاء والمحاولة ، وأزال عنك تعقد
الجسمة وكذ المروعة ، وصار يومه جمالاً لأيام الفكرة ، ونسهلاً لمعاودة
الروية ، لكان في ذلك ما يوجب الشكر ، ويُطيب الذكر . مع أن جميع ما

وصفناه وأخبرنا به عنه يقوم بأيسر الجرم ، وأقل الثمن .

ثم يعطيك في السفر ما يعطيك في الحضر ، وسواء عليك البساتين
والجنان . ويصلح بالليل كما يصلح بالنهار ، ويطيب في الصبح كما يطيب في
الدجن ، ويلذ في الصيف كما يلذ في الشتاء ، ويجري مع كل حال . وكل
شيء سواه فإنما يصلح في بعض الأحوال .

ويدفع مضرّة الخمار ، كما يجلب منفعة السرور .

إن كنتَ جذلاً [كان] باراً بك ، وإن كنتَ ذا همّ نفاةً عنك .

وما الغيثُ في الحرثِ بأنفعَ منه في البدنِ ، وما الريشُ السُخامُ بأدفاً منه
للمرور .

ويُستمرأُ به الغذاءُ ويدفع به ثقلُ الماءِ ، وتعالجُ به الأدواءُ ، وتحمرُّ به
الوجنتانُ ، ويُعدّلُ به قضاءُ الدينِ .



[٨ - النبيذ يسبب السرور ويحث على الجود]

إن انفردتَ به أهلك ، وإن نادمتَ به سواك .

ثم هو أصنع للسرور من زلزل ، وأشدُّ إطباقاً من مخارِق ، وقدر
احتياجهما إليه كقدر استغنائه عنهما ؛ لأنه أصل اللذات وهي فرعه ، وأول
السرور ونتأجه .

ولله درُّ أولٍ من عمله وصنعه ، وسقياً لمن استنبطه وأظهره . ماذا دبر ؟
وعلى أي شيء دل ؟ وأي معنى أنعم ؟ وأي دفين أثار ؟ وأي كنز استخرج .

ومن استغناء النبيذ بنفسه ، وقلة احتياجه إلى غيره ، أن جميع ما سواه
من الشراب يصلحه اللج ، ولا يطيّب إلا به .

وأوّل ما يُثني عليه به ، ويُذكر منه ، أنّه كريم الجواهر ، شريفُ النفس ، رفيع القدر ، بعيد الهَم ، وكذلك طبيعته المعروفة وسجيّته الموصوفة . وأنّه يسرُّ النفوس ويحبُّ إليها الجود ، ويزينُ لها الإحسان ، ويرغبُها في التوسّع ، ويورثُها الغنى ، وينفي عنها الفقر ، ويملؤها عزّاً ، ويعدّها خيراً ، ويحسنُ المسارّة ، ويصير به الثبْتُ خصباً والجنابُ مريعاً ، وماهولاً مُعشياً .

[٩ - النبيذ يجمع الندماء ويرفق بالسكرارى]

وليس شيءٌ من المأكول والمشروب أجمع للظرفاء ، ولا أشدّ تالفاً للأدباء ، ولا أجلب للمؤمنين ، ولا أدعى إلى خلافِ المُتمتعين ، ولا أجدر أن يُستدام به حديثهم ويُخرج مكنونهم ، ويطول به مجلسهم ، منه .

وإنّ كلّ شرابٍ كان حلاً وزقاً ، وصفاً ودقاً ، وطابَ وعذب ، وبرد ونقح ، فإنّ استطابتك لأوّل جرعةٍ منه أكثر ، ويكون من طبائعك أوقع . ثم لا يزال في نقصانٍ إلى أن يعود مكروهاً وبيّية ، إلا النبيذ ، فإنّ القدرَ الثاني أسهلُّ من الأوّل ، والثالثُ أسوأ ، والرابعُ ألدُّ ، والخامسُ أسلس ، والسادسُ أطرب ، إلى أن يُسلمك إلى النوم الذي هو حياتك ، أو أحد أقواتك . ولا خير فيه إذا كان إسكاره تغلباً ، وأخذُه بالرأس تعسفاً ، حتّى يُميت الحسُّ بحدّته ، ويضرعَ الشارب بسورته ، ويورث البهراً بكظّته ، ولا يسري في العروق لغلظه ، ولا يجري في البدن لركوده ، ولا يدخل في العمق ولا يدخل الضميم .

ولا والله حتّى يغازل العقل ويعارضه ، ويدغدغه ويخادعه ، فيسره ثم يهزه ، فإذا امتلاً سروراً وعباد ملكاً مجبوراً ، خاتله السكر وراوغه ، وداراه وماكره ، وهازلّه وغانجه . وليس كما يغتصب السكر ، ويعتسف الداذي ، ويفترس الزبيب ؛ ولكن بالتفتير والغمز ، والحيلة والختل ، وتحبيب النوم ،

وتزيين الصمت .

وهذه صفة شرابك إلا ما لا تُحيط به ، ونعوته تتبدل إلا ما يقبح منها

الجهل به .

وخير الأشرية ما جمع الم محمود من خصالها وخصال غيرها . وشرابك هذا قد أخذ من الخمر دبيبها في المفاصل ، وتمشيتها في العظام ولونها الغريب ؛ وأخذ برّد الماء ورقّة الهواء ، وحركة النار ، وحمرة خدك إذا خجلت ، وصفرة لونك إذا فزعت ، وبياض عارضيك إذا ضحكت .

[١٠ - مديح الحسن بن وهب]

وحسي بصفاتك عوضاً من كل حسن ، وخلفاً من كل صالح . ولا تعجب أن كانت نهاية الهمة وغاية المثبة ؛ فإن حُسن الوجوه إذا وافق حُسن القوام وشدة العقل ، وجودة الرأي ، وكثرة الفضل وسعة الخلق ، والمغرس الطيب والنصاب الكريم ، والظرف الناصع ، واللسان الفخم والمخرج السهل والحديث الموثق ، مع الإشارة الحسنة والتبلي في الجلسة ، والحركة الرشيقة واللّهجة الفصيحة ، والتمهل في المحاورّة والهزّ عند المناقلة ، والبديه البديع والفكر الصحيح ، والمعنى الشريف ، واللفظ المحذوف ، والإيجاز يَوْم الإيجاز والإطناب يَوْم الإطناب ، يَفْلُ الحَزُّ ويُصيب المِفْصِل ، ويبلغ بالعفو ما يقصر عنه الجهد ، كان أكثر لتضاعف الحُسن ، وأحقّ بالكمال . والحمد لله .

وإنّ التاج بهي وهو في رأس الملوك أبهى ، والياقوت الكريم حَسَنٌ وهو في جيد المرأة الحسناء أحسن ، والشعر الفاخر حَسَنٌ وهو من فم الأعرابي أحسن . فإن كان من قول المنشد وقريضه ، ومن نَحْتِه وتحبيره ، فقد بلغ الغاية وأقام النهاية .

وهذا الشرابُ حسنٌ وهو عندك أحسن ، والهدية منه شريفةٌ وهي منك أشرف .

وإن كنتَ قدَّرتَ أني إنما طلبته منك لأشربه أو لأسقيه ، أو لأهبه ، أو لأتحساه في الخلا ، أو أديره في الملا أو لأنافس فيه الأكفاء ، واجترأ زيادة الخُلطاء ، أو لأبتذله لعيون النُدماء ، أو أعرضه لنواب الأصدقاء فقد أسأت بي الظن ، وذهبت من الإساءة بي في كل فن ، وقصرت به فهو أشدُّ عليك ، ووضعته منه فهو أضرُّ بك .

وإن ظننت أني إنما أريده لأطرف به معشوقاً ، أو لأستميل به هوى ملك ، أو لأغسل به أوضار الأفتدة ، أو أداوي به خطايا الأشربة ، أو لأجلوبه الأبصار العليلة ، وأصلح به الأبدان الفاسدة ، أو لأتطوع به على شاعر مُفلق أو خطيب مضجع ، أو أديب مُدقع ، ليفتيق لهم المعاني ، وليخرج المذاهب ، ولما في جانبهم من الأجر ، وفي أعناقهم من الشكر ، ولينفضوا ما قالت الشعراء في الحمد ، وليرتجعوا ما شاع لهم من الذكر ؛ فإني أريد أن أضع من قدرها ، وإن أكر من بالها ، فقد تاهت ورتبة بها . أو لأن أتفاءل برؤيته وأتبرك بمكانه ، وأنس بقربه ، أو لأشفي به الظماء ، أو أجعله إكسيرا أصحاب الكيمياء ، أو لأن أذكرك كلما رأيت ، وأداعبك كلما قابلته أو لأجتلب به اليسر وأنقي العسر . ولأنه والفقر لا يجتمعان في دار ، ولا يقيمان في ربح . ولأن تعرف به حسن اختيارك ، وأتذكر به جودة اجتهاتك . أو لأن أستدل به على خالص حُبك ، وعلى معرفتك بفضلي ، وقيامك بواجب حقّي - فقد أحسنت بي الظن ، وذكرت من الإحسان في كل فن . بل هو الذي أصونته صيانة الأعراس ، وأغار عليه غيرة الأزواج .

واعلم أنك إن أكثرت لي منه خرجتُ إلى الفساد ، وإن أقللتَ أقسمت
على الاقتصاد .

وأنا رجلٌ من بني كنانة ، وللمخلاة قرابة ، ولي فيها شفعة ، وهم بعدُ
جنسٌ وعصبة ، فأقل ما أصنعُ إن أكثرتَ لي منه أن أطلبَ المُلْك ، وأقل ما
يصنعون بي أن أنقى من الأرض . فإن أقللتَ فإنك الولدُ الناصح ، وإن أكثرتَ
فإنك الغاشُّ الكاشح . والسلام .



مرکز تحقیقات کتب و تاریخ علوم اسلامی

١١ - هامش رسالة مدح النبيذ وصفة اصحابه

- (١) « ان الطالب المشغول والقائل المعذور » يلخص موضوع الرسالة . فهو يطلب من مخاطبه الحسن بن وهب النبيذ ، ويصفه ويمدحه .
- (٢) « اني منقرس مفلوج ، وانت أجرب ميسور » اشارة الى مرضي الجاحظ اللذين اصيب بهما في شيخوخته وهما النقرس والفالج . مما يدل على تاريخ وضع الرسالة المتأخر . اما مرض الحسن بن وهب فهو البواسير . وكان الجاحظ يحاول ان يقنع الحسن بن وهب بأن النبيذ يساعد على الامراض المذكورة .
- (٣) لاحظ كيف يحث الجاحظ على اقتناء النبيذ ويحسسه . انه بمثابة الصديق الذي ينبغي المحافظة عليه والضمن به .
- اقبلت على ديوانك تشغل بملازمته : اشارة الى عمل الحسن بن وهب كاتباً في ديوان الخليفة .
- (٤) لاحظ كيف يصف تردد المرء اذا سئل شيئاً عزيزاً عليه « وحتى اذا استوهبك لم تهب منه حتى تقف وقفة ، وتطرق ساعة ، ثم تستحسن وتستشير ، ثم تشفع على مستوهبه ، وتعجب من طاربه . . . » .
- (٥) النبيذ غني لمالكة وفقير لفاقده ؛ لماذا ؟ لانه « مستراح قلبك وجمال عقلك ، ومرتع عينيك ، وموضع انسك ، ومستنبط لذتك ، وينبوع سرورك ، ومصباحك في الظلام ، وشعارك في جميع الاقسام » . هذه ذروة البلاغة .
- (٦) تأثير النبيذ في النفس : يطرد الهم ويريح النفس ويعيد الشباب لمن فقده .
- الذرع : الطاقة والوسع .

(٧) النبيذ يحبب الظرف والفكاهة . والجاحظ يشدد على هذه الصفة لأنه مطبوع على الظرف كلف به .

- وما الريش السخام (اللين) بادفاً منه للمقروور : إشارة الى خاصية النبيذ في اثاره الدفء في الجسم ابان البرد .

- تعالج به الادواء : ترديد للفكرة التي اشرنا إليها .

(٨) اصنع للسرور من زلزل واشد اطراباً من مخارق : زلزل مفن مشهور عاش في عصر الرشيد واخذ عن ابراهيم الموصلي .

- اما مخارق : فمفن عباسي آخر معاصر لزلزل والجاحظ .

(٩) النبيذ يجمع الندامى ويرفق بالسكارى ؛ لاحظ جمال الوصف .

الداذي : شراب يستخرج من حب كالشعير طيب الرائحة .

(١٠) مديح الحسن بن وهب يحيط بجميع النواحي الجسمية والخلقية والعقلية ،

والنفسية والفنية عنده . ان ادبه كأدب الجاحظ يتصف « بالبديه البديع والفكر

الصحيح ، والمعنى الشريف ، واللفظ المحذوف ، والايجاز يوم الايجاز ،

والاطناب يوم الاطناب . . . » . وراجع مفهوم البلاغة عند الجاحظ في رسالة

البلاغة والايجاز ضمن هذا الكتاب اي رسائل الجاحظ الأدبية .

(١١) لاحظ براعة الجاحظ في تبرير غايته .

- اكسير اصحاب الكيمياء : يدعى ايضاً حجر الفلاسفة ، وهو مادة كيميائية اعتقد

القدماء انها تحول المعادن الرخيصة الى ذهب .

- انا رجل من بني كنانة : يشير الى أصله ويعتز به . وهو لم يذكر انه مولى كما

زعم البعض . مما يدل على صحة نسبه العربي .

- ۱۲ -

الشارب والمشروب

مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

[١ - موضوع الكتاب]

فصل منه : سألت - أكرم الله وجهك ، وأدام رُشدك ، ولطاعته توفيقك ، حتى تبلغ من مصالح دينك ودنياك منازل ذوي الألباب ، ودرجات أهل الثواب - إن أكتب لك صفات الشارب والمشروب وما فيهما من المَدح والعيوب ، وأن أميز لك بين الأنبذة والخمر ، وأن أقفك على حد السكر ، وأن أعرفك السبب الذي يرغب في شرب الأنبذة وما فيها من اجتلاب المنفعة ، وما يكره من نبيذ الأوعية .

وقلت : وما فرق ما بين الجرّ والسقاء ، والمزفت والحنتم والدباء ، وما القول في الممتل والمكسوب ، وما فرق ما بين النقيع والداذي ، وما المطبوخ والبادق ، وما الغربي والمرووق ، وما الذي يحل من الطبخ ، وما القول في شرب الفضيخ ، وهل يكره نبيذ العكر ، وما القول في معتيق السكر ، وأنبذة الجرار ، وما يعمل من السكر ، ولم كره النقيع والمقير .

وسألت عن نبيذ العسل والعربات وعن رزين سوق الأهواز ، وعن نبيذ أبي يوسف وجمهور ، والمعلق والمسحوم . والحلو والترش شيسرين ونبيذ

الكشمش والتين ، ولم تُكره الجلوس على البواطي والرياحين .

وقلت : وما نصيب الشيطان ، وما حاصل الإنسان ؟

وسألت عن شرب الأنبذة أو كرهها من الأوائل ، وما جرى بينهم فيها من الأجوبة والمسائل ، وما كانوا عليه فيها من الآراء ، وتشبثوا فيها من الأهواء ، ولأني سبب تضادت فيها الآثار ، واختلفت فيها الأخبار .

[٢ - منافع النبيذ]

وسألت أن أقصد في ذلك إلى الإيجاز والاختصار ، وحذف الإكثار .

وقلت : وإذ جعل الله تعالى للعباد عن الخمر المندوحة بالأشربة الهنية الممدوحة ، فما تقول فيما حُسن من الأنبذة صفاءً ، ويُعد مداهً ، واشتدَّت قواه ، وعتق حتى جاد ، وعاد بعد قَدَم الكون صافي اللون ، هل يجعلُ إليه الاجتماع ، وفيه الاكتراع ، إذ كان يهضم الطعام ويوطئ المنام . وهو في لطائف الجسم سارٍ ، وفي خفيات العروق جارٍ ، ولا يضرُّ معه بُرغوثٌ ولا يعوض ولا جرجسٌ عضوض .

وقلت : وكيف يحلُّ لك تركُ شربه إذا كان لك موافقاً ، ولجسمك ملائماً . ولم لا قلت : إن تارك شربه كتارك العلاج من أدوية الأدوية وإنه كالمُعِين على نفسه إذا ترك شربه أفحش الداء . وأنت تعلم أنك إذا شربته عدلت به طبيعتك ، وأصلحت به صفار جسمك ، وأظهرت به حُمرة لونك ، فاستبدلت به من السقمِ صحَّةً ، ومن حُلول العجزِ قوَّةً ، ومن الكسلِ نشاطاً ، وإلى اللذَّة انبساطاً ، ومن الغمِّ فرجاً ، ومن الجمود تحركاً ، ومن الوحشة أنساً ، وهو في الخلوة خيرٌ مسامرٍ ، وعند الحاجة خيرٌ ناصرٍ . يترك الضعيف وهو مثل أسدٍ

العرين يُلان له ولا يلين .

وقلت : الجيد من الأنبذة يُصفي الذهن ويقوي الركن ، ويشد القلب والظهر ،
ويمنع الضيم والقهر ، ويشحد المعدة ، ويهيج للطعام الشهوة ، ويقطع عن إكثار
الماء الذي منه جُلُّ الأدوية ، ويحذر رطوبة الرأس ، ويهيج العطاس ،
ويشد البضعة ، ويزيد في النطفة ، وينفي القرقرة والرياح ، ويبعث
الجود والسماح ، ويمنع الطحال من العظم ، والمعدة من التخم ، ويحذر
المرة والبلغم ، ويلطف دم العروق ويُجريه ، ويرفه ويصفيه ، ويسط الآمال ،
وينعم البال ، ويغشي الغلظ في الرثة ، ويصفي البشرة ويترك اللون كالعصفور ،
ويحذر أذى الرأس في المنخر ، ويموه الوجه ويسخن الكلية ، ويلد النوم
ويحلل التخم ، ويذهب بالإعياء ، ويغذو لطيف الغداء ، ويطيب الأنفاس ،
ويطرُد الوسواس ، ويطرب النفس ، ويؤنس من الوحشة ، ويسكن الروعة ،
ويذهب الحشمة ، ويقذف فضول الصليب بالإنشاط للجماع ، وفصول المعدة
بالهرع ، ويشجع المرتاع ويُرهي الدليل ، ويكثر القليل ، ويزيد في جمال
الجميل ، ويسلي الحزن ، ويجمع الذهن ، وينفي الهم ، ويطرُد الغم ،
ويكشف عن قناع الحزم ، ويولد في الحليم الحلم ، ويكفي أضغاث الحلم ،
ويحث على الصبر ، ويصحح من الفكر ، ويرجي القانط ، ويرضي الساخط ،
ويغني عن الجليس ، ويقوم مقام الأنيس وحتى إن عز لم يقنط منه ، وإن
حضر لم يصبر عنه ، يدفع النوازل العظيمة ، وينقي الصدر من الخصومة ،
ويزيد في المساع ، وسخونة الدماغ ، وينشط الباه حتى لا يزيغ شيئاً يراه ،
وتقبله جميع الطبائع ، ويمتزج به صنوف البدائع ، من اللذة والسُرور ،
والنضرة والخبور . وحتى سمي شربه قصفاً ، وسمى فقده خسفاً . وإن شرب
منه الصرغ بغير مزاج ، تحلل بغير علاج . ويكفي الأحزان والهموم ، ويدفع
الأهواء والسُوم ، ويفتح الذهن ، ويمنع الغبن ، ويلقن الجواب ، ولا يكيد
منه العتاب ، به تمام اللذات ، وكمال المروءات . ليس لشيء كحلاوته في

النَّفوس ، وكسوطه في الجباه والرؤوس ، وكإنشاطه للحديث والجلوس ، يحمر
الألوان ، ويرطب الأبدان ، ويخلع عن الطرب الأرسان .

[٣ - مساويء النيذ]

وقلت : ومع كل ذلك فهو يُلججُ اللسان ، ويُكثر الهديان ، ويُظهر
الفضول والأخلاق ، ويُناوب الكسل بعد النشاط . فأما إذا تبين في الرأس
الميلان ، واختلف عند المشي الرجلان ، وأكثر الإخفاق ، والتنخع والبصاق ،
واشتملت عليه الغفلة ، وجاءت الزلة بعد الزلة ولا سواة إن دسع بطعامه ، أو
سال على الصدر لعابه ، وصار في حد المخرفين ، لا يفهم ولا يبين ، فتلك
دلالات النكر ، وظهور علامات السكر ، يُنسي الذكر ، ويُورث الفكر ، ويهتك
الستر ، ويسقط من الجدار ، ويهور في الآبار ، ويُغرق في الأنهار ، ويصرف
عن المعروف ، ويعرض للحشوف ، ويحصل على الهفوة ، ويؤكد الغفلة ،
ويورث الصياح أو الضمات ، ويصرع الفهم للسبات فلغير معنى يضحك ،
ولغير سبب يمحك ، ويحيد عن الإنصاف ، وينقلب على الساكت الكاف . ثم
يظهر الشرائر ، ويُطلع على ما في الضمائر ، من مكنون الأحقاد ، وخفي
الاعتقاد .

وقد يقل على السكر المتاع ، ويطول منه الأرق والصُداع ، ثم يُورث
بالغدوات الخمار ، ويختل سائر النهار ويمنع من إقامة الصلوات ، وفهم
الأوقات ، ويُعقب السل ، ويُعقب في القلوب الغل ، ويجفف النطفة ، ويُورث
الرعدة ، ويولد الصفار ، وضروب العلل في الإبصار ، ويُعقب الهزال ،
ويجفف بالمال ويجفف الطبيعة ويقوي الفاسد من المرّة ويُذبل النفس ،
ويفسد مزاج الجس ، ويُحدث الفتور في القلب ، ويُطوى عند الجماع
الصب ، حتى يحدث من أجله الفتق ، الذي ليس له رفق ، ويحمل على

المظالم ، وركوب المآثم ، وتضييع الحقوق حتى يقتل من غير علم ، ويكفر من غير فهم .

[٤ - انواع النيذ]

فصل منه : وقلت : ومن الخلو في المعيد التخم ، وفي الأبدان الوخم ، وللترش شيرين رياح كمثل رياح العدمس ، وحموضة تولد في الأسنان الضرس .

والسكر فحسبك بفرط مرارته ، وكسوف لونه ، وبشاعة مذاقه ، ونفاس الطبيعة عنه .

وانواع ما يعالج من التمور والحبوب فشرؤها الذاء العضال .

وللمسجور ، والبتى ، وأشباهاها كدورة ترسب في المعدة ، وتولد بين الجلدتين الحكمة . وأشباه هذا كثيرة تركت ذكرها ، لأنني لم أقصدك بالمسألة أبتغي منك تحليل ما يجلب المضرة .

مرآة الحكمة في علاج الأمراض

ولكن ما تقول فيما يسرك ولا يسوءك ، وما إذا شربته تلقته العروق فاتحة أفواهها كأفواه الفراخ ، محسناً للون ملئمة للنفس ، يجثم على المعدة ، ويروى في العروق ، ويقصد إلى القلب فيولد فيه اللثة ، وفي المعدة الهضم ، وهو غسولها ونضوحها ، ويسرع إلى طاعة الكبد ، ويقضي بالعجل إلى الطحال ، ويتنفخ منه العروق ، وتظهر حمرة بين الجلدتين ، ويزيد في اللون ، ويولد الشجاعة والسخاء ، ويريح من اكتنان الصغن ، ويعني على تغير النكهة ، وينفي الذفر ، ويسرع إلى الجبهة ، ويعني عن الصلاة ، ويمنع القر؟!

وما تقول في نيذ الزبيب الجمصي والغسل الماذي إذا تورّد لونه ، وتقادم كونه ، ورأيت حمرة في صفرة تلوح . تراه في الكأس لكأنه بالشمس

ملتحف ، شعاعه يضحك في الأكت ؟

وما تقول في عصير الكرم إذا أجذت طبخه وأنعمت إنضاجه ، وأحسن
الذئ نتاجه ، فإذا فُض عن غصارة قد صار في لون الجادي في صفاء ياقوته
تلمع في الأكت لمع الدنانير ، وبضيء كالشهاب المتقد .

وما تقول في نبيذ غسل مصر ، فإنه يؤدي إلى شاربهِ الصحيح من طعم
الزعفران ، لا يلبس الخلقان ولا يجود إلا في جدد الدنان ، ولا يستخدم
الأنجاس ولا يَألف الأرجاس . وكذلك لا يزكو على علاج الجنب والحائض ،
ولا يتفَضُّ على شيء من الأجسام لونه حتى لو غُبِس فيه قطن لخرج أبيض
يَقَقًا . وحسبك به في رقة الهواء ، يكدره صافي الماء ، وهو مع ذلك كالهزبر
ذي الأشبال ، المفترس للأقران ، مَنْ عاقره عقره ، ومن صارعه صرعه !؟

وما تقول في رزين الأهواز من زيبب الداقياد إذ يعود صلباً من غير أن
يُسَلَّ سلافه ، أو يُعاط عنه ثقله ، حتى يعود كلون العقيق ، في رائحة المسك
العقيق . أصلب الأنبذة عريكة ، وأصلبها صلابة ، وأشدّها خشونة . ثم لا
يستعين بغسل ولا سُكْر ولا دوشياب . وما ظنك به وهو زيبب نقيع ، لا يشتد
ولا يجود إلا بالضرب الوجيع !؟

وما تقول في الدوشاب البستاني ، سلالة الرطب الجحفي بالحلب الرتيلي ،
إذا أوجع ضرباً ، وأطيل حبساً ، وأعطى صفوه ومنح رفته ، وبذل ما عنده ،
فيذا كُشِف عنه قناع الطين ظهر في ثون الشقر والكُمْت وسَطع برائحة
كالمسك . وإذا هَجَم على المعدة لانت له الطبائع ، وسَلِسَتْ له الأمعاء ،
وأيس الحُضْر ، وانقطع طمع القوئنج ، وانقادت له اليوسمة ، وأذعنت له
بالطاعة ، وابتل به الجلد القحل ، وارتحل عنه الباسور ، وكفى شاربهِ الوخز .
فيذا سُجَّ بماء تَلْظَى ورَمَى بشرره ، هل يحل أن يُشعشع إذا سَكَن جاشه ،
وآب إليه حلمه .

وما تقول في المعْتق من أنبذة التمر ، فإنك تنظر إليه وكأن النيران تلمع من جوفه . قد ركذ ركود الزلال حتى لكان شاربه يكرع في شهاب ، ولكأنه فيرنذ في وجه سيف . وله صفيحة مرآة مجلوة تحكي الوجوه في الزجاجه ، حتى يهيم فيها الجلّاس !؟

وما تقول في نبيذ الجزر ، الذي منه تمتد النطفة وتشتد النقطة ، يجلب الأحلام ، ويركد في مخ العظام !؟

وما تقول في نبيذ الكشمش الذي لونه لون زمرده خضراء صافية ، محكم الصلابة ، مفرط الحرارة ، حديد السورة ، سريع الإفاقة عظيم المؤونة ، قصير العمر ، كثير العلل ، جمّ البدوات تطمع الآفات فيه ، وتسرع إليه !؟

وما تقول في نبيذ التين فإنك تعلم أنه مع حرارته لين العريكة ، سلس الطبيعة ، عذب المذاق ، سريع الإطلاق ، يزهّم للعروق ، نضوح للكبد فتاح للسدد ، غسال للأمعاء ، هياج للباه ، أخذ للثمن ، جلاب للمؤن ، مع كسوف لون وقبح منظر !؟

مرکز تحقیق کتب و ترمیم و نشر کتب

وما تقول في نبيذ السكر الذي ليس مقدار المنفعة به على قدر المؤونة فيه ، هل يوجد في المحصول لشربه معنى معقول !؟

وما تقول في المروق والغربي والفضيخ ؟ ألد مشروبات في أزمانها وأنفع مأخوذات في إيانها . أقل شيء مؤونة ، وأحسنه معونة ، وأكثر شيء قنوعاً ، وأسرع بلوغاً ، ضموزات عروفات للرجل ألوفات . ولها أرايسح على الشاهسفرم كأذكي رائحة تشم ، أقل المشروبات صداعاً ، وأشدهن خداعاً .

فصل منه : وكرهت أيضاً تقليد المختلف من الآثار فأكون كحاطب ليل ، دون التأمل والاعتبار بأن ظلام الشك لا يجعلوه إلا مفتاح اليقين .

[٥ - الرد على اسئلة السائل]

قد فهمت - أسعدك الله تعالى بطاعته - جميع ما ذكرت من أنواع الأنبذة ، وبديع صفاتها ، والفصل بين جيدها وريئها ، ونافعها وضارها ، وما سألت من الوقوف على حدودها . ولا زلت من عداد من يسأل ويتحس ، ولا زلنا في عداد من يشرح ويُفصَح .

[٦ - هناك فرق بين الخمر والنيذ]

اعلم - أكرمك الله - أنك لو بحثت عن أحوال من يؤثر شرب الخمر على الأنبذة ، لم تجد إلا جاهلاً مخذولاً ، أو خذثاً مغروراً ، أو خليعاً ماجناً ، أو رعاعاً همجاً ؛ ومن إذا غدا بهيمة ، وإذا راح نعاماً ، ليس عنده من المعرفة أكثر من انتحال القول بالجماعة ؛ قد مُرِج له الصحيح بالمحال ، فهو مدين بتقليد الرجال ، يُشعِشعُ الرُوح ، ويحرم المباح ، فمتى عدله عاذلٌ ووَعظُهُ واعظٌ قال : الأشرية كلها حرام ، فلا أشرب إلا أجودها .

وقد أحبيت - أيديك الله - التوثق من إصغاء فهمك ، وسؤت فلنا بالتغريير فقدمت لك من التوطئة ما يسهل [لك] سبيل المعرفة . وذلك إلى مثلك من مثلي حزم سيما فيما خفيت معالمه ودرست مناهجه ، وكثرت شبهه ، واشتد غموضه .

ولو لم يكن ذلك وكان قد اعتاص علي البرهان في إظهاره ، واحتجبت في الإبانة عنه إلى ذكر ضده ، ونظيره وشكله ، لم أحتشم من الاستعانة بكل ذلك . فكيف والقدرة - بحمد الله - وافر ، والحجة واضحة .

قد يكون الشيء من جنس الحرام فيعالج بضرب من العلاج حتى يتغير

بلونٍ يحدث له ، ورائحةٍ وطعمٍ ونحو ذلك ، فيتغير لذلك اسمه ، ويصير
حلالاً بعد أن كان حراماً .

فصل منه : فإن قال لنا قائلٌ : ما تدرون ، لعل الأنبذة قد دخلت في
ذكر تحريم الخمر ، ولكن لما كان الابتداء أجري في ذكر تحريم الخمر ،
خرج التحريم عليها وحدها في ظاهر المخاطبة ، ودخل سائر الأشربة في
التحريم بالقصد والإرادة .

قلنا : قد علمنا أن ذلك على خلاف ما ذكر السائل ، لأسباب موجودة ،
وعِللٍ معروفة .

[٧ - الصحابة ميزوا بين الفرائض والمسكرات]

منها : أن الصحابة الذين شهدوا نزول الفرائض ، والتابعين من بعدهم ،
لم يختلفوا في قاذف المحصنين أن عليه الحد ، واختلفوا في الأشربة التي
تسكر ، ليس لجهلهم أسماء الخمر ومعانيها ، ولكن للأخبار المروية في
تحريم المسكر ، والواردة في تحليلها .

ولو كانت الأشربة كلها عند أهل اللغة في القديم خمراً لما احتاجوا إلى
أهل الروايات في الخمر ، أي الأجناس من الأشربة هي ؟ كما لم يخرجوا إلى
طلب معرفة العبيد من الإماء .

وهذا بابٌ يطول شرحه إن استقصيت جميع ما فيه من المسألة
والجواب .

وما يُنكر من خالفنا في تحليل الأنبذة مع إقراره أن الأشربة المسكرة
الكثيرة لم تزل معروفة بأسمائها واعيانها ، وأجناسها وبلدانها ، وأن الله تعالى
قصد للخمر من بين جميعها فحرمها ، وترك سائر الأشربة طلقاً مع أجناس

[٨ - حرم الله اشياء وحلل سائر اجناسها]

والدليل على تجويز ذلك أن الله تعالى ما حَرَّمَ على الناس شيئاً من الأشياء في القديم والحديث إلا (أطلق لهم من جنسه ، وأباح من سِنِخه ونظيره وشبهه ، ما يَعْمَلُ مثل عمله أو قريباً منه ، لِيُغْنِيَهُم بالحلال عن الحرام . أعني ما حُرِّمَ بالسَّمْعِ دون المحرَّم بالعقل . قد حَرَّمَ من الدم المسفوح ، وأباح غير المسفوح ، كجامد دم الطحال والكبد وما أشبههما ، وحَرَّمَ المَيْتَةَ وأباح الذَكِيَّةَ . وأباح أيضاً مَيْتَةَ البحر وغير البحر ، كالجراد وشبهه ، وحَرَّمَ الربا وأباح البيع ، وحَرَّمَ بيع ما ليس عندك وأباح السَّلْمَ ، وحَرَّمَ الضَّمِيمَ وأباح الصُّلْحَ ، وحَرَّمَ السُّفْحَ وأباح النِّكَاحَ . وحَرَّمَ الخنزيرَ وأباح الجَدْيَ الرُّضِيْعَ ، والخروفَ والحُوَارَ .

والحلال في كل ذلك أعظم موقفاً من الحرام .

مركز تحقيقات كميته علوم اسلامی

[٩ - اهل المدينة حرموا النيذ ولكنهم ليسوا حجة]

فصل منه : ولعل قائلًا يقول : وأهل مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وسكان حرمه ودار هجرته ، أبصر بالحلال والحرام ، والمُسْكِرِ والخمر ، وما أباح الرسول وما حظره ، وكيف لا يكون كذلك والذين ومعالمه من عندهم خرج إلى الناس ؛ والوحي عليهم نزل ، والنبي صلى الله عليه وسلم فيهم ذفن . وهم المهاجرون السابقون ، والأنصار المؤثرون على أنفسهم . وكلهم مُجْمَعٌ على تحريم الأنبذة المُسْكِرَةِ ، وأنها كالخمر .

وخلفهم على منهاج سلفهم إلى هذه الغاية ، حتى إنهم جلدوا على

وكيف لا يفعلون ذلك ويدينون به وقد شهدوا مَنْ اشْهَدَ النبي صلى الله عليه وسلم قد حَرَمَهَا وَذَمَّهَا ، وَأَمَرَ بِجِلْدِ شَارِبِهَا .

ثم كذلك فَعَلَ أُمَّةُ الْهُدَى من بعده . فهم إلى يومِ الناسِ على رأيٍ واحد ، وأمر متفق ، ينهون عن شربها ، ويجلدون عليها .

وإننا نقول في ذلك : إن عِظَمَ حَقِّ الْبِلْدَةِ لَا يُجِلُّ شَيْئاً وَلَا يَحْرُمُهُ ، وَإِنَّمَا يُعَرَّفُ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ بِالْكِتَابِ الْنَاطِقِ ، وَالسُّنَّةِ الْمَجْمَعِ عَلَيْهَا ، وَالْعَقُولِ الصَّحِيحَةِ ، وَالْمَقَائِسِ الْمُصِيبَةِ .

وبعد ، فمن هذا المهاجري أو الأنصاري ، الذي رَوَّأَ عَنْهُ تَحْرِيمَ الْأَنْبِذَةِ ثُمَّ لَمْ يَرَوُّوا عَنْهُ التَّحْلِيلَ ؟ بَلْ لَوْ أَنْصَفَ الْقَائِلُ لَعَلِمَ أَنَّ الَّذِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ حَرَّمُوا الْأَنْبِذَةَ لَيْسُوا بِأَفْضَلَ مِنَ الَّذِينَ أَحَلُّوا النُّكَاحَ فِي أَدْبَارِ النِّسَاءِ ، كَمَا اسْتَحَلَّ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ عَارِيَةَ الْفُرُوجِ ، وَحَرَّمَ بَعْضُهُمْ ذَبَائِحَ الزُّنُوجِ ، لِأَنَّهُمْ فِيمَا زَعَمُوا مَشَوْهُوَ الْخَلْقِ . ثُمَّ حَكَمُوا بِالشَّاهِدِ وَالْيَمِينِ خِلَافاً لظَاهِرِ التَّنْزِيلِ . وَأَهْلُ الْمَدِينَةِ وَإِنْ كَانُوا جَلَدُوا عَلَى الرِّيحِ الْخَفِيِّ فَقَدْ جَلَدُوا عَلَى حَمْلِ الزُّقِّ الْفَارِغِ ؛ لِأَنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّهُ آلَةُ الْخَمْرِ ، حَتَّى قَالَ بَعْضُ مَنْ يَنْكُرُ عَلَيْهِمْ : فَهَلَّا جَلَدُوا أَنْفُسَهُمْ ؟ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْهُمْ إِلَّا وَمَعَهُ آلَةُ الزُّنَى ! وَكَانَ يَجِبُ عَلَى هَذَا الْمِثَالِ أَنْ يُحَكَّمَ بِمِثْلِ ذَلِكَ عَلَى حَامِلِ السِّيفِ وَالسُّكَيْنِ وَالسُّمِّ الْقَاتِلِ ، فِي نِظَائِرِ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ كُلُّهَا آلَاتُ الْقَتْلِ .

[١٠ - مَغْنُو الْمَدِينَةِ شَرَبُوا الْخَمْرَ وَلَمْ يَحْدِثْ لَهُمْ أَهْلُهَا]

وبعد ، فأهل المدينة لم يخرجوا من طبائع الإنس إلى طبع الملائكة . ولو كان كل ما يقولونه حقاً وصواباً لجلدوا من كان في دار معبد ، والغرييض ، وابن سريج ، ودحمان وابن مُحَرِّزٍ وَعَلْوَيْهِ وَابْنِ جَامِعٍ ، وَمُخَارِقٍ ، وَشَرَبِكٍ ،

ووكيع ، وحماد ، وإبراهيم وجماعة التابعين ، والسلف والمتقدمين ؛ لأن هؤلاء فيما زعموا كانوا يشربون الأنبذة التي هي عندهم خمر ؛ وأولئك كانوا يعالجون الأغاني التي هي حلٌ طلقٌ ، على نقر العيدان والطنابير ، والنايات والصنح والزنج ، والمعازف التي ليست محرمة ولا منهيًا عن شيء منها .

ولو كان ما خالفونا فيه من تحليل الأنبذة وتحريمها ، كالاختلاف في الأغاني وصفاتها وأوزانها ، واختلاف مخرجها ، ووجوه مصارفها ومجاريها ، وما يذمج ويوصل منها ، وما للحنجرة والحنك والتفسي واللّهوات وتحت اللسان من نغمها . وأي الدساتين أطرب ، وأي أصوب ، وما يحفز بالهمز أو يحرك بالضم ؛ وكالقول بأن الهزج بالبصر أطيب ، أو بالوسطى ؟ والسريع على الزبير ألد ، أو على المثنى ؟ والمصعد في لين أطرب أم المحذر في الشدة ؟ لسهل ذلك ولسلمنا علمه لمن يدعيه ، ولم نجادب من يدعي دوننا معرفته .

فصل منه : ولهج أصحاب الحديث بحكم لم أسمع بمثله في تزييف الرجال ، وتصحيح الأخبار . وإنما أكثروا في ذلك ، لتعلم حيدهم عن التفتيش ، وميلهم عن التنقير ، وانحرافهم عن الإنصاف .

[١١ - غرض الكتاب الاساسي]

فصل منه : والذي دعاني إلى وضع جميع هذه الأشربة والوقوف على أجناسها وبلدانها ، مخافة أن يقع هذا الكتاب عند بعض من عساه لا يعرف جميعها ، ولم يسمع بذكرها ، فيتوهم أنني في ذكر أجناسها المستشنة وأنواعها المبتدعة ، كالهادي برقية العقرب ، وإن كان قصدي لذكرها في صدر الكتاب لأقف على حلالها وحرامها ، وكيف اختلفت الأمة فيها ، وما سبب اعتراض الشك واستكمان الشبهة ؛ ولأن أحتج للمباح وأعطيه حقه ، وأكشِف أيضاً عن

المحظور فأقسم له قسطه ، فأكون قد سلكت بالحرام سبيله ، وبالحلال منهجه ، اقتداءً مني بقول الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرُمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ .

وقد كتبتُ لك - أكرمك الله - في هذا الكتاب ما فيه الجزاية والكفاية ، ولو بسطتُ القول لوجدته متسعاً ، ولأتاك منه الدُّهم . وربما [كان] الإقلال في إيجازِ أجدى من إكثارِ يُخاف عليه الملل . فخلطت لك جِداً بهزل ، وقرنتُ لك حُجةً بملحة ، لتخفَّ مَوونة الكتاب على القارئ ، وليزيد ذلك في نشاط المستمع ، فجعلت الهزل بعد الجِدِّ جَماماً ، والملحة بعد الحُجة مُستراحاً .



مركز تحقيقات كميونير علوم إسلامي

١٢ - هامش رسالة الشارب والمشروب

(١) الجر والسقاء والمزقت والحتمم والدُّبَاء : انواع من الجرار والاعوية التي يوضع فيها النبيذ .

- الممثل والمكسوب : النبيذ المعالج بالرماد والحرارة .

- الداذي : نبات عنقودي حبه يشبه الشعير ، له رائحة زكية .

- الباذق : الخمر الاحمر .

- الغربي : النبيذ المصنوع من عصير العنب وحده .

- المروق : المصفى .

- الفضيخ : نوع من النبيذ المصنوع من عصير العنب ، الغربي الفضيخ .

- التقير : اصل النخلة ينقر ويتخذ وعاء للنبيذ .

- المقير : الزق المطلبي بالقار .

- الترش شيرين : الحامض والحلو .

(٢) منافع النبيذ ، ورد معظمها في رسالة مدح النبيذ وصفة اهله منها الشفاء من

الامراض ، وشحذ الذهن ، وراحة البال ، والدفء والبعث على السرور ،

والجود والظرف ، ونسيان الهموم .

(٣) مساوى، النبيذ : الجاحظ يقول الشيء وضده عملا بمنهجه الجدلي : ان مساوىء

الخمر هي السكر والهذيان ، والكسل ، والاستفراغ او التقيؤ ، وإفشاء الاسرار ،

والمنع من اداء الصلاة .

(٤) انواع النبيذ : شرحنا معانيها في الفقرة الاولى .

(٥) الرد على اسئلة السائل : هذه هي طريقة الجاحظ : يتخيل شخصاً يطرح عليه المسائل في صدر الرسالة ، فيجيب عليها في مؤخرتها .

(٦) « ليس عنده من المعرفة اكثر من انتحال القول بالجماعة » : يراد بالجماعة اهل السنة والجماعة . ويبدو انهم تشددوا في شرب النبيذ واعتبروه خمراً مسكراً .

(٧) اختلف المسلمون في مسألة تحريم المسكرات ، ورووا اخباراً متناقضة بعضها يحلل وبعضها يحرم .

ورأي الجاحظ هو ان الاشربة ليست كلها خمراً والدليل على ذلك تمييز اهل اللغة بينها وبين اجناسها .

(٨) الامثلة التي يسوقها الجاحظ على المحللات والمحرمات التي تنتمي الى اصل واحد تدل على مقدرته الجدلية : الدم المسفوح وغير المسفوح ، الميتة والذكية ، ميتة البحر وغير البحر . النكاح والسفاح ، الربا والبيع ، الخنزير والجدلي .

(٩) المرجع في التمييز بين الحلال والحرام هو القرآن والسنة والعقل والقياس . وهي اصول الفقه الاربعة الى جانب الاجماع . والعقل يقابل الاجتهاد .

(١٠) اهل المدينة معرضون كسائر الناس للخطأ ، وقياسهم غير صحيح .

- معبد بن وهب عاش في مطلع دولة بني أمية وادرك دولة بني العباس . من كبار المغنين .

- الغريض : مغن جميل الوجه يجيد ضرب العود والدف توفي عام ٩٥ هـ .

- ابن سريج : مغن مات في خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان .

- دحمان ، عبد الملك بن عمرو ، عاش في مطلع الدولة العباسية واعطاه المهدي خمسين الف دينار في ليلة واحدة .

- محرز : مسلم بن محرز ، لقب بصناجة العرب ، وجاب بلاد العراق والفرس والشام .

- علوية ، علي بن عبد الله بن يوسف ، تتلمذ على ابراهيم الموصلي وغنى للامين وعاش حتى ادرك المتوكل .

- ابن جاسع : مغن ورع وفقهه ، غنى للرشيد - مخارق الجزائر : مغن ومولى للرشيد .

- شريك النخعي توفي سنة ١٧٧ هـ - وكيع الرؤاسي الكوفي توفي سنة ١٩٦ هـ فقيه

- حماد بن سلمة بن دينار البصري توفي سنة ١٦٧ هـ فقيه . - ابراهيم النخعي
(٨١٥) فقيه ورع .

- الدساتين : رباطات الأوتار - الزير ، المثني ، المصعد : من اوتار العود .

(١١) الدهم : الكثير ، الجزاية : الاجزاء .



مركز بحوث كالمبيوتر علوم إرسدي

- ۱۳ -

البلاغة والإيجاز

مركز تحقیقات کپیویر علوم اسلامی

فصل منه : قال عمرو بن بحر الجاحظ : درجت الأرض من العرب والعجم على إثار الإيجاز ، وحمد الاختصار ، ودم الإكثار والتطويل والتكرار ، وكل ما فضل عن المقدار .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم طويل الصمت ، دائم السكت يتكلم بجوامع الكلم ، لا فضل ولا تقصير ، وكان يبغض الشرثارين المتشدقين .

وكان يقال : أفصح الناس أسهلهم لفظاً ، وأحسنهم بديهة .

والبلاغة إصابة المعنى والقصد إلى الحجّة مع الإيجاز ، ومعرفة الفضل

من الوصل .

وقيل : العاقل من خزن لسانه ، ووزن كلامه ، وخاف الندامة .

وحسن البيان محمود ، وحسن الصمت حُكم .

وربما كان الإيجاز محموداً ، والإكثار مذموماً . وربما رأيت الإكثار أحمد

من الإيجاز . ولكل مذهب ووجه عند العاقل . ولكل مكان مقال ، ولكل كلام

جواب . مع أن الإيجاز أسهل مراماً وأيسر مطلباً من الاطناب ، ومن قدر
على الكثير كان على القليل أقدر .

والتقليل للتخفيف ، والتطويل للتعريف ، والتكرار للتوكيد ، والإكثار
للتشديد .

فصل منه : وأما المذموم من المقال ، فما دعاً إلى الملأل ، وجاوز
المقدار ، واشتمل على الإكثار ، وخرج من مجرى العادة .

وكلُّ شيءٍ أفرط في طبعه ، وتجاوز مقدار وسعته ، عاد إلى ضدّ طباعه ،
فتحوّل البارد حاراً ، وبصير النافع ضاراً ، كالصندل البارد إن أفرط في حركه
عاد حاراً مؤذياً ، [و] كالثلج يُطفئ قليله الحرارة ، وكثيره يحركها .

وكذلك القرد لما فرط قبحه ، وتناهت سماجته استمليح واستظرف .

وإلى هذا ذهب من عدّ الإكثار عيباً ، والإيجاز بلاغة .



مركز تحقيقات كميّات علوم إسلاميّة

- ۱۴ -

تفضیل النطق علی الصمت



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

[١ - مدخل : كتاب تلقاه يمدح الصمت ويذم الكلام]

فصل منه : أمتع الله بك وأبقى نعمه عندك ؛ وجعلك ممن إذا عرف الحق انقاد له ، وإذا رأى الباطل أنكروه وتزحزح عنه .

قد قرأت كتابك فيما وصفت من فضيلة الصمت ، وشرحت من مناقب الشكوت ، ولخصت من وضوح أسبابهما ، وأحمدت من منفعة عاقبتهما وجريت في مجرى فنون الأقاويل فيهما ، وذكرت أنك وجدت الصمت أفضل من الكلام في مواطن كثيرة وإن كان صواباً ، وألفت الشكوت أحمد من المنطق في مواضع جمّة ، وإن كان حقاً .

وزعمت أن اللسان من مسالك الخنا ، الجالب على صاحبه البلا .

وقلت : إن حفظ اللسان أمثل من التورط في الكلام .

وسميت الغبي عاقلاً ، والصامت حليماً ، والساكت لبيباً ، والمطرق مفكراً . وسميت البليغ مكشّراً والخطيب مهذاراً والفصيح مفرطاً ، والمنطوق مطمئناً .

وقلت : إنك لم تندم على الصمتِ قطُّ وإن كان منك عيباً ، وإنك ندمت
على الكلامِ مراراً وإن كان [منك] صواباً .

واحتجاجك في ذلك بقول كسرى أنوشروان ، واعتصامك فيها بما سار
من أقاويل الشعراء والمتسقين من كلام الأدباء ، وإفراطهم في مذمة الكلام ،
وإطنايهم في محملة السكوت .

وأُتيت - حفظك الله - على جميع ما ذكرت من ذلك ، ووصفت
ولخصت ، وشرحت وأطنبت فيها وفرطت بالفهم ، وتصفحتها بالعلم ، وبحثت
بالحزم ، ووعيت بالعزم ، فوجدتها كلاماً امرئياً قد أعجب برأيه وارتطم في
هواه ، وظن أنه قد نسج فيها كلاماً ، وألف ألفاظاً ونسق له معاني على نحو
مأخذه .

ومقصده أن لا يلقي له ناقضاً في دهره بعد أن أبرمها ، ولا يجد فيها
مناوياً في عصره بعد أن أحكمها . وأن حجتَه قد لزمَت جميع الأنام ،
ودحضت حجة قاطبة أهل الأديان ، لِمَا شرح فيها من البرهان ، وأوضح
بالبیان . وحتى كان القول من القائل نقضاً ، ورفع الوصف من الواصف تغلباً ،
وكان في موضع لا ينازعه فيه أحدٌ ، وقُلما يجد من يُخاصمه ، ولا يلقي أبداً
من يناضله ، وصار قلباً [بحجته] أو حدياً في لهجته ، إذ كان محلّه محلّ
الوحدة ، والأنس بالخلوة ، وكان مثله في ذلك [مثل] من تخلّص إلى الحاكم
وَحده فليج بحجته .

وإني سأوضح ذلك ببرهانٍ قاطع ، وبيانٍ ساطع ، وأشرح فيه من الحجج
ما يظهر ، ومن الحق ما يقهر ، بقدر ما أتت عليه معرفتي ، وبلغته قوتي ،
وملكته طاقتي ، بما لا يستطيع أحد رده ، ولا يمكنه إنكاره وجحده . ولا قوة
إلا بالله ، وبه أستعين ، وعليه أتوكل وإليه أنيب .

[٢ - الكلام اداة التعبير عن الحاجات]

إنني وجدت فضيلة الكلام باهرة ، ومنقبة المنطق ظاهرة ، في خلال كثيرة ، وخصال معروفة .

منها : أنك لا تؤذي شكر الله ولا تقدر على إظهاره إلا بالكلام .

ومنها : أنك لا تستطيع العبارة عن حاجاتك والإبانة عن مآربك إلا باللسان . وهذان في العاجل والأجل مع أشياء كثيرة لو ينحوها الإنسان لوجدتها في المعقول موجودة ، وفي المحصول معلومة وعند الحقائق مشتهرة ، وفي التدبير ظاهرة .

[٣ - الكلام يميز الانسان عن الحيوانات والجمادات]

ولم أجد للصمت فضلاً على الكلام مما يحتمله القياس ، لأنك تصف الصمت [بالكلام ، ولا تصف الكلام به . ولو كان الصمت] أفضل والسكوت أمثل لما عُرف للأدميين فضل على غيرهم ، ولا فرق بينهم وبين شيء من أنواع الحيوان وأخفاف الخلق في أصناف جواهرها واختلاف طبائعها ، وافتراق حالاتها وأجناس أبدانها في أعيانها وألوانها . بل لم يمكن أن يميز بينهم وبين الأصنام المنصوبة والأوثان المنحوتة ، وكان كل قائم وقاعد ، ومتحرك وساكن ، ومنصوب وثابت ، في شرع سواء ومنزلة واحدة ، وقسمة مشاكلة ؛ إذ كانوا في معنى الصمت بالجنّة واحداً ، وفي معنى الكلام بالمنطق متبايناً . ولذلك صارت الأشياء مختلفة في المعاني ، مؤلفة الأشكال ، إذ كانت في أشكال خلقتها متفقة بتركيب جواهرها ، وتأليف أجزائها ، وكمال أبدانها ، وفي معنى الكمال متباينة عند مفهوم نعماتها ، ومنظوم ألفاظها ، وبيان معالمها وعدل شواهدا .

مع أنني لم أنكر فضيلة الصمت ، ولم أهجن ذكره إلا أن فضله خاص
دون عام ، وفضل الكلام خاص وعمام ، وأن الاثنين إذا اشتمل عليهما فضل
كان حظهما أكثر ، ونصبيهما [أوفر من الواحد . ولعله أن يكون بكلمة واحدة
نجاهة [خلقي ، وخلص أمة .

ومن أكثر ما يُذكر للساكت من الفضل ، ويُوصف له من المنقبة أن يقال
يسكت ليتوقى به عن الإثم ، وذلك فضل خاص دون عام .

ومن أقل ما يُحتكم عليه أن يقال غبي أو جاهل ، فيكون في ذلك لازم
ذنب على التوهم به ، فيجتمع مع وقوع اسم الجاهل عليه ما ورط فيه صاحبه
من الوزر .

والذي ذكر من تفضيل الكلام ما ينطق به القرآن ، وجاءت فيه الروايات
عن الثقات ، في الأحاديث المنقولات ، والأقاصيص المرويات ، والسمر
والحكايات ، وما تكلمت به الخطباء ونطقت فيه البلغاء - أكثر من أن يبلغ
آخرها ، ويُدرِك أولها ، ولكن قد ذكرت من ذلك على قدر الكفاية ، ومن الله
التوفيق والهداية .

ولم نر الصمت - أسعدك الله - أحمد في موضع إلا وكان الكلام فيه
أحمد ، لتسارع الناس إلى تفضيل الكلام ، لظهور علته ، ووضوح جليته ،
ومغيبته نفعه .

[٤ - الكلام ينجي صاحبه]

وقد ذكر الله جل وعز في قصة إبراهيم عليه السلام حين كسر الأصنام
وجعلها جذاذاً ، فقال حكاية عنهم : ﴿ قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتَانَا يَا
إِبْرَاهِيمَ . قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ . فكان كلامه

سبباً لنجاته ، وعِلَّةٌ لخلاصه ، وكان كلامه عند ذلك أحمَدَ من صمتِ غيره في مثل ذلك الموضع ، لأنه عليه السلام لو سكت عند سؤالهم إياه لم يكن سكوتُه إلا على بَصَرٍ وَعِلْمٍ ، وإنما تكلم لأنه رأى الكلامَ أفضلَ ، وأن من تكلم فأحسنَ قَدَرَ أن يسكتَ فيحسِنَ ، وليس من سكت فأحسنَ قَدَرَ أن يتكلمَ فيحسِنَ .

واعلَمَ - حَفِظَكَ اللهُ - أنَّ الكلامَ سببٌ لإيجابِ الفضلِ ، وهدايةٌ إلى معرفة أهل الطُّولِ .

[٥ - الكلام يبين فضل صاحبه]

ولولا الكلامُ لم يكن يُعرَفُ الفاضلُ من المفضولِ ، في معانٍ كثيرة ، لقول الله عزَّ وجلَّ ، في بيانِ يوسف عليه السلام وكلامه عند عزير مصر ، لما كلمه فقال : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ . فلو لم يكن يوسف عليه السلام أظهرَ فضلَه بالكلامِ ، والإفصاح بالبيان ، مع محاسنه الموثقة ، وأخلاقه الطاهرة ، وطبائعه الشريفة ، لما عرف العزيزُ فضلَه ، ولا بلغ تلك المنزلة لديه ، ولا حلَّ ذلك المحلُّ منه ، ولا صار عنده بموضع الأمانة ، ولكان في عدادِ غيره ومنزلةٍ سواه عند العزيزِ . ولكنَّ الله جعلَ كلامه سبباً لرفع منزلته ، وعلو مرتبته ، وعِلَّةً لمعرفة فضيلته ، ووسيلةً لتفضيل العزيزِ إياه .

[٦ - الكلام دليل على الايمان والشريعة]

ولم أرَ للصِّمتِ فضيلةً في معنى ولا للسكوتِ منقبةً في شيءٍ إلا وفضيلةُ الكلامِ فيها أكثرُ ، ونصيبُ المنطقِ عندها أوفرُ ، واللفظُ بها أشهرُ . وكفى بالكلامِ فضلاً ، وبالمنطقِ منقبةً ، أن جعلَ اللهُ الكلامَ سبيلَ تهليله وتحميده ، والدَّالُّ على معالم دينه وشرائع إيمانه ، والدَّليلُ إلى رضوانه . ولم يرضَ من

أحد من خلقه إيماناً إلا بالإقرار ، وجعل مسلكه اللسان ، ومجراه فيه البيان ،
وصيره المعبر عما يضمرة والمبين عما يخبره ، والمنبئ عن مالا يستطيع بيانه
إلا به . وهو ترجمان القلب . والقلب وعاء واع .

ولم يُحمد الصمت من أحد إلا توقياً لعجزه عن إدراك الحق والصواب
في إصابة المعنى . وإنما قاتل النبي صلى الله عليه وسلم المشركين عند
جهلهم الله تعالى وإنكارهم إياه ، ليقرؤا به ، فإذا فعلوه حُقنت دماؤهم ،
وحُرمت أموالهم ، ورُعيت ذمتهم . ولو أنهم سكتوا ضناً بدينهم لم يكن
سبيلهم إلا العطب .

فاعلم أن الكلام من أسباب الخير لا من [أسباب] الشر .

والكلام - أبقاك الله - سبيل التمييز بين الناس والبهائم ، وسبب المعرفة .
لفضل آدميين على سائر الحيوان ، قال الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَيْنَ يَدَيْ آدَمَ
وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْدِ وَالْبَحْرِ ﴾ . كَرَّمَهُم بِاللِّسَانِ وَجَمَلَهُم بِالتَّدْبِيرِ .

مركز ترقية وتطوير علوم راسدي

[٧ - الكلام آلة الشكر]

ولو لم يكن الكلام لما استوجب أحد النعمة ، ولا أقام على أداء ما
وجب عليه من الشكر سبباً للزيادة ، وعلة لامتحان قلوب العباد . والشكر
بالإظهار في القول ، والإبانة باللسان . ولا يعرف الشكر إلا بهما .

والله تعالى يقول : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ ، فجعل الشكر علة
لوجوب الزيادة ، عند إظهاره بالقول ، والحمد مفتاحاً للنعمة .

وقد جاء في بعض الآثار : لو أن رجلاً ذكر الله تعالى وآخر يسمع له
كان المعدود للمستمع من الأجر ، والمذكور له من الثواب واحداً وللمتكلم به
عشرة أو أكثر .

فهل ترى - أبقاك الله - أنه وجب لصاحب العشر ذلك وفضل به على صاحبه إلا عند استعماله بالنطق به لسانه . ولم يلزم الصمت أحد إلا على حسب وقوع الجهل عليه . فأما إذا كان الرجل نبيها مميّزاً ، عالماً مفوهاً فالصمت مَهْجَنٌ لعلمه وسائر لفضله . كالقداحة لم يستين نفعها دون تزنيدها . ولذلك قيل : « من جهل علماً عاداه » .

[٨ - فضيلة الخطباء قائمة على بيانهم]

فصل منها : ولم أجِدِ الصّامت مستعاناً به في شيء من المعاني ، ولا مذكوراً في المحافل .

ولم يُذكر الخطباء ولا قَدَمَتَهُمُ الوفودُ عند الخلفاء إلا لِمَا عرفوه من فضل لسانهم وفضيلة بيانهم . وإن أصح ما يوجد في المعقول ، وأوضح ما يُعدُّ في المحصول للعرب من الفضل ، فصاحتها وحسن منطقتها ، بَعْدَ فضائلها المذكورة ، وأيامها المشهورة .

مركز تحقيقات كويتية للدراسات والبحوث

[٩ - انزل الله القرآن بلسان عربي مبين]

ولفضل الفصاحة وحسن البيان بعث الله تعالى أفضل أنبيائه وأكرم رُسُلِهِ من العرب ، وجعل لسانه عربياً ، وأنزل عليه قرآنه عربياً ، كما قال الله تعالى : ﴿ بلسان عربي مبين ﴾ . فلم يُخصَّ اللسان بالبيان ، ولم يُحمد بالبرهان إلا عند وجود الفضل في الكلام ، وحسن العبارة عند المنطق ، وحلاوة اللفظ عند السمع .

[١٠ - النبي افصح العرب]

واعلم أن الله تعالى لم يُرسل رسولاً ولا بعث نبياً إلا من كان فضله في

كلامه وبيانه كفضله على المبعوث إليه ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم أفصح العرب لساناً ، وأحسنهم بياناً ، وأسهلهم مخارج للكلام وأكثرهم فوائد من المعاني ؛ لأنه كان من جماهير العرب ، مولده في بني هاشم ، وأخواله من بني زهرة ، ورضاعه في بني سعد بن بكر ، ومنشؤه في قريش ، ومتزوجه في بني أسد بن عبد العزى ، ومهاجرة إلى بني عمرو ، وهم الأوس والخزرج من الأنصار . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أنا أفصح العرب بيد أتى من قريش ، ونشأت في بني سعد بن بكر » .

ولو لم يكن مما عندنا من هؤلاء الأحياء إلا قريش وحدها لكان فيها مستغنى عن غيرها ، وكفاية عن من سواها ، لأن قريشاً أفصح العرب لساناً وأفضلها بياناً ، وأحضرها جواباً ، وأحسنها بديهة ، وأجمعها عند الكلام قلباً .

ثم للعرب أيضاً خصال كثيرة ، ومشاهد كثيرة ، مما يشاكل هذا الباب ، ويضارع هذا المثال ، حذف ذكرها خوف التطويل فيها .

فصل منه : فهذه كلها دلائل على دحض حججك ونقض قضيتك . وإنما أرسل الله تعالى رسلاً مبشرين ومنذرين الأمم ، وأمرهم بالإبلاغ ليلزمهم الحجج بالكلام لا بالصمت ، إذ لا يكون للرسله بلاغ ولا للحجة لزوم ولا للعلّة ظهور إلا بالنطق .

فصل منه : وليس يقوى على ذلك إلا امرؤ في طبيعته فضل عن احتمال نحيزته وفي قريحته زيادة من القوة على صناعته ، ويكون حفظه من الاقتدار في المنطق فوق قسطه من التغلب في الكلام ، حتى لا يضع اللفظ الحر النحيل إلا على مثله من المعنى ، ولا اللفظ الشريف الفخم إلا على مثله من المعنى . نعم ، وحتى يعطى اللفظ حقه من البيان ، ويوفر على الحديث قسطه من الصواب ، ويجوز للكلام حفظه من المعنى ، ويضع جميعها مواضعها ، ويصنفها بصفاتها ، ويوفر عليها حقوقها من الإعراب والإفصاح .

[١١ - علم الكلام جليل لأنه يثبت وجود الله ويبين صفاته]

فصل منه : وبعد ، فأئى شيء أشهر منقبة وأرفع درجة وأكمل فضلاً ، وأظهر نفعاً ، وأعظم حرمةً ، من شيء لولا مكانه لم يثبت لله ربوبية ولا لنبي حجة ، ولم يفصل بين حجة وشبهة ، وبين الدليل وما يتجلى في صورة الدليل .

ثم به يُعرف فضل الجماعة من الفرقة ، والشبهة من البدعة ، والشذوذ من الاستفاضة .

والكلام سبب لتعرف حقائق الأديان ، والقياس في تثبيت الربوبية وتصديق الرسالة ، والامتحان للتعديل والتجويز والاضطرار والاختيار .



مركز تحقيقات كليات علوم إسلامي

١٤ - هامش رسالة تفضيل النطق على الصمت

- (١) يستعمل الجاحظ الصمت مرادفاً للسكوت . ولا يوافق صاحب الرسالة التي تلقاها في تفضيل الصمت وعلى نعت البليغ بالمكثار والخطيب بالمهذار والفصيح بالمفرط والمنطوق بالمطرب . لأن معاني هذه الكلمات لا تعني الاوصاف التي نعتها بها ، فالبلاغة لا تعني كثرة الكلام ، والفصاحة لا تعني الافراط (راجع معاني البلاغة والفصاحة عند الجاحظ في كتاب البيان والتبيين ، وفي كتابنا المناحي الفلسفية عند الجاحظ) .
- (٢) يستعمل ابو عثمان العبارة بمعنى الابانة ، والحاجة بمعنى المأرب . ويستعمل المعقول في مقابل المحصول ، ويعني بهما ما يتوصل اليه العقل المفكر وما يجيء به النقل .
- (٣) يستعمل القياس هنا بمعنى التمثيل والتشبيه والمقارنة بين شيئين وهما الصمت والكلام . وقد تحدث عن شروط التمثيل في اماكن اخرى من كتبه مثل رسالة التربيع والتدوير .
- ويستعمل كلمة جواهر بمعنى الطبايع ، وبمعنى الاجسام .
- (٤) السبب معناه العلة ، والبصر معناه العلم .
- (٥) عزيز مصر : الفرعون - الكلام : الافصاح بالبيان .
- (٦) المنطق معناه الكلام وليس علم المنطق .
- الايمان يساوي الاقرار باللسان او تلاوة الشهادة .
- (٧) العشر يعني عشرة اضعاف الأجر الذي للمستمع .
- لا يلزم الصمت الا من يجهل الجواب . اما العالم فينبغي الافصاح عن علمه .

- (٨) فضل العرب يرتكز على بيانهم وحسن منطقتهم ومقدرتهم الخطابية . والجاحظ يعتقد ان العرب اخطب الامم (راجع كتاب البيان والتبيين) .
- (٩) النبي محمد افضل الانبياء ، واللغة العربية افصح اللغات ولهذا نزل القرآن بها .
- (١٠) النبي محمد افصح العرب ، وقريش افصح القبائل . لاحظ هذه الترجمة البليغة لحياة النبي محمد . راجع هذا الرأي في كتاب البيان والتبيين .
- (١١) الكلام يعني هنا علم الكلام الذي دافع عنه الجاحظ في رسالة فضل صناعة الكلام (راجعها ضمن رسائل الجاحظ الكلامية التي نشرناها) .
- تصديق الرسالة اي رسالة النبي .
- امتحان التعديل والتجويز : اثبات عدل الله وعدم جوره وهو احد مبادئ المعتزلة الخمسة .
- والاضطرار والاختيار : الاختيار القول بحرية الانسان في أفعاله . والاضطرار : القول بان الانسان ليس حراً في افعاله ، وانما هي من خلق الله . المعتزلة قالوا بالاختيار والجبرية قالوا بالاضطرار .



مركز تحقيقات كميونير علوم إسلامي

- ١٥ -



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

[١ - حسنات اللسان]

أرشدك الله للصواب ، وعرفك فضل أولى الألباب ، ووهب لك جميل الآداب ، وجعلك ممن يعرف عز الأدب كما تعرف زوائد الغنى .

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : دخلت على أمير المؤمنين المعتصم بالله فقلت له : يا أمير المؤمنين ، في اللسان عشر خصال : أداة يظهر بها البيان ، وشاهد يُخبر عن الضمير ، وحاكم يفصل بين الخطاب ، وناطق يُردُّ به الجواب ، وشافع تُدرك به الحاجة ، وواصف تُعرف به الأشياء ، وواعظ يُعرف به القبيح ، ومُعزُّ يُردُّ به الأحزان ، وخاصَّةٌ يُزهي بالصنعة ، ومُله يوثق الأسماع .

وقال الحسن البصري : إن الله تعالى رفع درجة اللسان ، فليس من الأعضاء شيء ينطق بذكره غيره .

وقال بعض العلماء : أفضل شيء للرجل عقل يُؤكِّد معه ، فإن فاته ذلك فمالٌ يُعظم به ، فإن فاته ذلك فعلمٌ يعيش به ، فإن فاته ذلك فموتٌ يجتثُّ أصله .

وقال خالد بن صفوان : ما الإنسان لولا اللسان إلا ضالة . أو بهيمة
مرسلة ، أو صورة ممثلة .

وذكر الصمت والنطق عند الأحنف فقال رجل : الصمت أفضل وأحمد .
فقال : صاحب الصمت لا يتعداه نفعه ، وصاحب المنطق يتفجع به غيره .
والمنطق الصواب أفضل .

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « رحم الله امرأ أصلح
من لسانه » .

قال : وسمع عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه رجلاً يتكلم فأبلغ في
حاجته ، فقال عمر : هذا والله السحر الحلال .

وقال مسلمة بن عبد الملك : إن الرجل ليسألني الحاجة فتستجيب نفسي
له بها ، فإذا لحن انصرفت نفسي عنها .

وتقدم رجلاً إلى زياد فقال : أصلح الله الأمير ، إن أئينا هلك ، وإن
أخونا غصبنا ميراثه . فقال زياد : الذي ضيعت من لسانك أكثر مما ضيعت من
مالك .

وقال بعض الحكماء لأولاده : يا بني أصلحوا من ألسنتكم ، فإن الرجل
لتنويه النائبة فيستعير الدابة والثياب ، ولا يقدر أن يستعير اللسان .

وقال شبيب بن شيبه ورأى رجلاً يتكلم فأساء القول ، فقال : يا ابن
أخي ، الأدب الصالح خير من المال المضاعف .

وقال الشاعر :

وكائن ترى من صامتٍ لك مُعجِبٍ زيادته أو نقصه في التكلم
لسانُ الفتى نصفٌ ونصفُ فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

فخذُ يا أمير المؤمنين أولادك بأن يتعلموا من كلِّ الأدب ؛ فإنك إن
أفردتهم بشيءٍ واحد ثم سئلوا عن غيره لم يحسنوه .

[٢ - قول القائد في الحرب والغزل]

وذلك أني لقيت جِزَماً حين قديم أمير المؤمنين من بلاد الروم ، فسألته
عن الحرب كيف كانت هناك ؟ فقال :

لقيناهم في مقدار صَحْن الإصطبل ، فما كان بقدر ما يحسُّ الرجلُ دابته
حتى تركناهم في أضيّق من ممرّغة . وقتلناهم فجعلناهم كأنهم أنابير مرجين ،
فلو طرحت روثه ما سقطت إلا على ذنب دابة .

وعمل أبياتاً في الغزل فكانت :

إن يهدم الصدُّ من جسمي معالفه
لأن قلبي بقَتَّ السَّوْجِدِ معمورُ
لأنني امرؤ في وثاق الحبِّ يكبحه
لجسام هجرٍ على الأسقام معذورُ
عللُّ بجُلِّ نبيلٍ من وصالك أو
حين السُّرُقادِ فإنَّ النومَ مأسورُ
أصاب حبلَ شِكْالِ الوصلِ حينَ بدا
ومبضع الصدِّ في كفيه مشهورُ
لبستُ برقَعَ هجرٍ بعد ذلك في
إصطبلٍ وُدِّ فروثِ الحبِّ مشورُ

[٣ - قول الطبيب في الحرب والغزل]

قال : وسألت بَخْتِيشوع [الطبيب] عن مثل ذلك فقال :

لقيناهم في مقدار صَحْن البيمارستان ، فما كان بقدر ما يختلف الرجل
مقعدين حتى تركناهم في أضيّق من مُحَقَّنة ، فقتلناهم فلو طرحت مبضعاً ما
سقط إلا على أكحلِ رَجُلٍ .

وعمل أبياتاً في الغزل فكانت :

شَرِبَ الوِصْلُ دَسْتَجَ الهَجْرَ فاسْتَدَّ
ورماني جَبِي بِقَوْلِنَجِ بَيْسِنِ
ففؤاد الحبيب ينحله السُّدُ
وفؤادي مُبْرَمَمٌ ذُو سَقَامِ
لَو ببقراط كان ما بي وجالي
طَلَّقَ بطنُ الوِصَالِ بالإسهالِ
مُذْهِلٍ عَن مَلامَةِ العُذالِ
لُ وقلبي معذبٌ بالَمَلالِ
يا بِنَ ، ما سُوِيَه ضَلُّ عَنِّي احتيالي
نُوسَ باتا منه باكسَفِ بالِ

[٤ - قول الخياط في الحرب والغزل]

قال : وسألت جعفرأ الخياط عن مثل ذلك فقال :

لقيناهم في مقدار سوق الخلقان ، فما كان بقدر ما يخيط الرجل ذرأاً
حتى قتلناهم وتركناهم في أضيقتهم من جربان ، فلو طرحت إبرة ما سقطت إلا
على رأس رجل .

وعمل أبياتاً في الغزل فكانت :

فَتَقَّتْ بِالهَجْرِ ذُرُوزَ الهَوَى
فألقب من ضيق سراويله
جشمتني يا طيلسان النوى
أزرار عيني فيك موصلة
يا كستبان القلب يا زيقه
قد قص ما يعهد من وصله
يا حُجْزَةَ النُفْسِ ويا ذيلها
ويا جربان سُروري ويا
إذ وخزنتني إبرة الضد
يعثرني بايكة الجهد
منك على شوزكتي وجدي
بعروة الدمع على خدي
عذبني التذكار بالوعد
مقراض بين مرهف الحد
مالي من وصلك من بُد
جيب حياتي حلت عن عهدي

[٥ - قول الزارع في الحرب والغزل]

قال : وسألت إسحاق بن إبراهيم عن مثل ذلك - وكان زراعاً - فقال :

لقيناهم في مقدار جريبين من الأرض ، فما كان بقدر ما يسقى الرجل
مشاركة حتى قتلناهم ، فتركناهم في أضيقت من باب ، وكانهم أنابير سنبل ، فلو
طرح فدان ما سقط إلا على ظهر رجل .

وعمل أبياتاً في الغزل فكانت :

زرعتُ هواه في كراب من الصفا وأسقيته ماء الدوام على العهد
وسرجته بالوصل لم آل جاهداً ليحرزه السرجين من آفة الصد
فلما تعالي الثبت واخضر يانعاً جرى يرقان البين في سنبل الود

[٦ - قول الخباز في الحرب والغزل]

قال : وسألت فرجاً الرُّحجِيَّ عن مثل ذلك - وكان خبازاً - فقال :

لقيناهم في مقدار بيت الثُّور ، فما كان بقدر ما يخبز الرجل خمسة
أرغفة حتى تركناهم في أضيقت من حجر ثور ، فلو سقطت جمرة ما وقعت إلا
في جفنة خباز .

مركز تحقيقات كويتية للدراسات والبحوث

وعمل أبياتاً في الغزل فكانت :

قد عجن الهجر دقيق الهوى في جفنة من خشب الصد
واختمر البين فنار الهوى تُدكي يسرجين من البعد
وأقبل الهجر بمحراكيه يفتح عن أرغفة الوجد
جرادق الموعد مسمومة مشرودة في قصعة الجهد

[٧ - قول المؤدب في الحرب والغزل]

قال : وسألت عبد الله بن عبد الصمد بن أبي داود عن مثل ذلك - وكان

مؤدباً - فقال :

لقيناهم في مقدار صحن الكُتَّاب ، فما كان بقدر ما يقرأ الصبي إمامه
حتى الجأناهم إلى أضيّق من رُقم فقتلناهم ، فلو سقطت دواة ما وقعت إلا في
حجر صبي .

وعمل أبياتاً في الغزل فكانت :

قد أمانت الهجرانُ صبيانَ قلبي	ففضّادي معذبٌ في خَبالِ
كسّر البينُ لوحَ كِبدي فما أط	مع ممن هويتهُ في وصالِ
رفع الرُقم من حياتي وقد أط	لَق مولايَ حبله من حبالِ
مَشق الحُبِّ في فؤادي لَوحي	بِ فأغرى جوانحي بالسُّلالِ
لاق قلبي بنائه فمداد الـ	عَين من هجر مالِكِي في انهمالِ
كُرسفُ البين سؤد السوجة من وصـ	لي فقلبي بالسبين في إشعالِ

[٨ - قول صاحب الحمام في الحرب والغزل]

قال : وسألت عليّ بن الجهم بن يزيد - وكان صاحبَ حمام - عن مثل

ذلك فقال :

مركز تحقيقات كويتية للدراسات والبحوث

لقيناهم في مثل بيت الأنبار ، فما كان إلا بقدر ما يغسل الرجل رأسه
حتى تركناهم في أضيّق من باب الأتون ، فلو طرحت ليفة ما وقعت إلا على
رأس رجل .

وعمل أبياتاً في الغزل فكانت :

يا نورة الهجر خلقتِ الصفا	لما بدت لي ليفة الصّد
يا مئزر الأسقام حتى متى	تُنقع في حوض من الجهد
أوقد أتون الوصل لي مرة	منك بزنبيل من الود
فالسبين مُد أوقد حمامه	قد هاج قلبي مسلخ الوجد
أفسد خطمي الصفا والهوى	نخاله الناقض للعهد

[٩ - قول الكناس في الحرب والغزل]

قال : وسألت الحسن بن أبي قماشة عن مثل ذلك - وكان كُنَّاساً - فقال :

لَقِينَاهُمْ فِي مَقْدَارِ سَطْحِ الْإِيوَانِ ، فَمَا كَانَ إِلَّا بِقَدْرِ مَا يَكْنَسُ الرَّجُلُ
زَبِيلًا حَتَّى تَرَكْنَاهُمْ فِي أَضِيقٍ مِنْ جُحْرِ الْمَخْرَجِ ، ثُمَّ قَتَلْنَاهُمْ بِقَدْرِ مَا يَشَارِطُ
الرَّجُلُ عَلَى كُنْسِ كَنْيْفٍ ، فَلَوْ رَمَيْتَ بَابِنَا وَرَدَّانَةَ مَا سَقَطَتْ إِلَّا عَلَى فَمِ
بِالْوَعَةِ .

وعمل أبياتاً فكانت :

أَصْبَحَ قَلْبِي بِرَبِّخَاءِ لَهْوَى تَسْلُحُ فِيهِ فَفَحَةُ الْهَجْرِ
بِنَاتٍ وَرَدَانَ الْهَوَى لَلْبَلَى أَصْبِرُ مِنْ ذَا الْوَجْدِ فِي صَدْرِي
خَنَافَسُ الْهَجْرَانِ أَتُكَلِّنُنِي يَوْمَ تَوْلَى مُعْرِضًا صَبْرِي
أَسْقَمَ دِيدَانُ الْهَوَى مُهْجَتِي إِذْ سَلَخَ الْبَيْنَ عَلَى عُمَرِي

[١٠ - قول الشرايبي في الحرب والغزل]

قال : وسألت أحمد الشرايبي عن مثل ذلك فقال :

لَقِينَاهُمْ فِي مَقْدَارِ صَحْنِ بَيْتِ الشَّرَابِ ، فَمَا كَانَ بِقَدْرِ مَا يَصْنُفِي الرَّجُلُ
دَنًا حَتَّى تَرَكْنَاهُمْ فِي أَضِيقٍ مِنْ رَطْبِيَّةٍ فَقَتَلْنَاهُمْ ، فَلَوْ رَمَيْتَ تَفَاحَةَ مَا وَقَعَتْ إِلَّا
عَلَى أَنْفِ سَكْرَانٍ .

وعمل أبياتاً في الغزل فكانت :

شَرِبْتَ بِكَاسٍ لِلْهَوَى نَبْذَةً مَعًا وَرَقَرْتَ خَمْرَ الْوَصْلِ فِي قَدَحِ الْهَجْرِ
فَمَالَتِ دِنَانَ الْبَيْنِ يَدْفَعُهَا الصُّبَا فَكُسِّرْنَ قَرَابَاتِ حُزْنِي عَلَى صَدْرِي
وَكَانَ مِزَاجُ الْكَاسِ غُلَّةً لَوَعَةٍ وَدُورِقَ هَجْرَانٍ وَقُنِينَتِي غَلِيْرِي

[١١ - قول الطباخ في الحرب والغزل]

قال : وسألت عبد الله بن طاهر عن مثل ذلك - وكان طباخا - فقال :

لقيناهم في مقدار صحن المطبخ ، فما كان بقدر ما يشوي الرجل حملاً
حتى تركناهم في أضيّق من موقد نار ، فقتلناهم فلو سقطت مغرفة ما وقعت إلا
في قدر .

وعمل أبياتاً في الغزل فكانت :

يا شبيهة الفالوذ في حمرة الخد
أنت جوزينج القلوب وفي اللب
عذتُ مُستهتراً يسكباج و
يا نسيم القُدور في يوم غرس
أنت أشهى إلى القلوب من الزبد
أطعمم الحاسدون ألوان غم
قد غلا القلبُ مذ نأتُ عنك داري
هام قلبي لَمَا كَسَرَنَ غَضَارَا
فتفضّل على العميد بيوم
وتفضّل على الكئيب بيز ما
دُ وَلَوْزِينَجِ الثُّفُوسِ الظُّمَاءِ
مِنِ كِلِينِ الخَبِيصَةِ البِيضَاءِ
بَعْدَ جُودَابِيَةِ بَجَنْبِ شِوَاءِ
وَشَبِيهَا بِشُهْدَةِ صَفْرَاءِ
بِدِ مَعَ النُّرْسِيَانِ بَعْدَ الغَدَاءِ
فِي قِصَاعِ الأَحْزَانِ والأَدْوَاءِ
غَلِيَانِ القُدُورِ عِنْدَ الصُّلَاءِ
بِ سِرُورِي مِفَارِفِ الشُّحْنَاءِ
جُدُ بُوَصَلِ يُكَبِّتُ بِهِ أَعْدَائِي
وَرِدُ وَصَلِ يَشْفِي مِنَ الأَدْوَاءِ

[١٢ - قول الفراش في الحرب والغزل]

قال : وسألت - أطلال الله بقاءك - محمد بن داود الطوسي عن مثل ذلك

- وكان فراشا - فقال :

لقيناهم في مقدار صحن بساط ، فما كان إلا بقدر ما يفرش الرجل بيتاً

حتى تركناهم في أضيّق من منصّة فقتلناهم ، فلو سقطت مِخْدَةٌ ما وقعت إلا
على رأس رجل .

ثم عمل أبياتاً في الغزل فكانت :

كسَحَ الهجرُ ساحةَ الوصلِ لَمَّا
وَجَرى البينُ في مرافقِ ريشِ
فرشِ الهجرِ في بيوتِ همومِ
حينَ هيأتَ بيتَ خيشٍ من الوصلِ
فرشَ البحرِ لي بيوتَ مُسوحِ
رِقُّ للصبِّ من براغيثِ وجدِ
غَبِرَ البينُ في وجوهِ الصُفاهِ
هي مَلخورةٌ لَيومِ اللقاهِ
تحتِ رأسي وسادةَ البُرَحاهِ
لِ لأبوابه ستورِ البهاهِ
مُتَكاهَا مَطارِحِ الحصباهِ
تعتري جِلدَه صباحَ مساءِ
قال : فضحك المعتصم حتى استلقى ، ثم دعا مؤدّب ولده فأمره أن
ياخذهم بتعليم جميع العلوم .



تم كتاب الجاحظ والله المنة ، وييده الحول والقوة ، والله سبحانه الموفق
للصواب . والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله
وصحبه وسلامه . بعد زيادات ليست للجاحظ .

١٥ - هامش رسالة صناعة القواد

(١) « قال ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ « جملة مقحمة .
« دخلت على امير المؤمنين المعتصم « تشير الى تاريخ كتابة الرسالة .
البيتان الواردان في النص للشاعر الجاهلي الحكيم زهير بن ابي سلمى ، وردا
في المعلقة :

وكائن ترى من صامت لك معجب زيادته او نقصه في التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فيؤاده فلم يبق الا صورة اللحم والدم

(٢) « حين قدم امير المؤمنين من بلاد الروم « إشارة الى غزو المعتصم بلاد الروم .

أنابير سرجين : اكداس زبل .

يحص دابته : ينفض عنها التراب .

الشكال : جبل تشد به قائمة الدابة .

(٣) بخثيشوع : طبيب وفد الى بغداد من نيسابور في مطلع الدولة العباسية وجعله

الخلفاء طبيهم ومات في خلافة المتوكل سنة ٢٥٦ هـ .

- اختلف الرجل : ذهب الى المتوضأ .

- الاكحل : عرق في اليد .

- الدستج : آنية .

(٤) الدرز : موضع الخياطة

- الجربان : جيب القميص .

- (٥) المشاركة : مقبعة الأرض .
اليرقان : دود ينمو في الزرع ثم يصير فراشاً .
(٦) الجرادق : جمع جردق ، الرغيف (كلمة فارسية معربة) .
(٧) المؤدب : المعلم .
الكتّاب : المدرسة .
- الامام : البرنامج .
(٨) الأتون : الموقد .
الزنبيل : القفة .
(٩) الزبيل : القفة مثل الزنبيل .
- بنت وردان : الخنفس
- البرينج : مجرى البول .
- يسلح : ينجو .
(١٠) الرطيلة وعاء يسع رطلاً من الشراب .
القرايات : ضرب من الاواني .
١١ - السكباج لحم يعالج بالخل والتوابل .
النرسيان : نوع من التمر المجيد .
(١٢) الغضارات : الصحاف المتخذة من الغضاراي الطين .
- البزماورد : نوع من الحيز يخشى بالشواء .

- ١٦ -

رسالة الجد والهزل



مركز تحقيقات كميوتور علوم رسدي

[١ - أسباب معاقبة ابن الزيات للجاحظ وعدم عدالة العقوبة]

جُعلتُ فِداك . ليس من أجل اختياري النُّخل على الزُّرع أفضيتي ، ولا على ميل إلى الصُّدقة دون إعطائي الخراج عاقبتني ، ولا لبُغضي دفع الإتاوة والرضا بالجزية حرمثني .

ولست أدري لم كرهت قُرْبِي وهويت بُعدي ، واستثقلت رُوحِي ونفسي واستطلت عُمرِي وأيامَ مُقامي . ولم سررتك سيّتي ومصيبتي وساءتك حسنتي وسلامتي ، حتّى ساءك تجمُّلي بقدر ما سرّك جزعي وتضجُّري ، وحتّى تمنيت أن أخطيء عليك فتجعل خطيئي حجة لك في إبعادي ، وكرهت صوابي فيك خوفاً من أن تجعله ذريعة لك إلى تقريبي .

فإن كان ذلك هو الذي أغضبك ، وكان هو السبب لموجدتك فليس - جُعلتُ فداك - هذا الحقُّ في طبقة هذا الذنب ، ولا هذه المطالبة من شكل هذه الجريمة .

ولو كان إذ لم يكن في وزنه وقع قريباً ، وإذ لم يكن عدله وقع مُشبهها كان أهون في موضع الضرر ، وأسهل في مخرج السماع .

فأيُّ شيءٍ بقيتَ للعدوِّ المكاشفِ والمناقِ المِلاطفِ ، وللمعتمدِ المِصرِّ
وللقادرِ المِديلِ .

ومنَ عاقبَ على الصَّغيرِ بعقوبةِ الكبيرِ ، وعلى الهفوةِ بعقوبةِ الإصرارِ ،
وعلى الخطأِ بعقوبةِ العمدِ ، وعلى معصيةِ المتسُّرِّ بعقوبةِ معصيةِ المعلنِ ،
ومن لم يفرقِ بينِ الأعاليِ والأسافلِ ، وبينِ الأقاصيِ والأدانيِ ، عاقبَ على
الزُّنى بعقوبةِ السُّرقِ ، وعلى القتلِ بعقوبةِ القذفِ . ومن خرجَ إلى ذلكِ في
بابِ العقابِ خرجَ إلى مثلهِ في بابِ الثَّوابِ . ومن خَرَجَ من جميعِ الأوزانِ
وخالفَ جميعَ التعديلِ ، كان بغايةِ العقابِ أحقَّ ، وبه أولى .

والدُّليلُ على شدَّةِ غيظِكَ وغَلِيانِ صدركِ قُوَّةُ حركتِكَ وإبطاءِ فترتِكَ ،
ويُعدُّ الغايةِ في احتيالكِ . ومن البرهانِ على ثباتِ الغُضبِ ، وعلى كظمِ الذنوبِ
تمكُّنُ الحقدِ ورسوخُ الغيظِ ، ويُعدُّ الوثيقةَ وشدَّةَ الصُّولةِ .



[٢ - ذم الغيظ]

مركز بحوث ودراسات في العلوم الإسلامية

وهذا البرهان صحيح ما صحَّ النظم ، وقام التعديل ، واستوت الأسباب .

ولا أعلم ناراً أبلغَ في إحراقِ أهلها من نارِ الغيظِ ، ولا حركةً أنقضَ لقوَّةَ
الأبدانِ من طلبِ الطوائِلِ مع قلةِ الهدوءِ والجهلِ بمنافعِ الجَمَامِ ، وإعطاءِ
الحالاتِ أقسامها من التدبيرِ .

ولا أعلم تجارةً أكثرَ خُسراناً ولا أخفَ ميزاناً من عداوةِ العاقلِ
[العالم] ، وإطلاقِ لسانِ الجليسِ المُداخِلِ ، والشُّعارِ دونَ الدُّثارِ ، والخاصِّ
دونَ العامِّ .

والطالبُ - جُعِلتُ فداك - بعُرضِ ظَفَرٍ ما لم يَخْرُجِ المطلوبُ ، وإليه
الخيارُ ما لم تقعِ المنازلةُ . ومن الحزمِ ألا تخرجَ إلى العدوِّ إلا ومعك من

القوى ما يغمر الفضلة التي يتجها له الإخراج . ولا بد أيضاً من حزم يحذرك
مصارع البغي ، ويخوفك ناصر المطلوب .

وبعد - أبقاك الله - فأنت على يقين من موضع ألم الغيظ من نفسك ،
والغيظ عذاب . ولربما زاد التشفي في الغيظ ولم ينقص منه . ولست على
يقين من نفوذ سهمك في صيدك [كما أيقنت بموضع الغيظ من صدرك] .

والحازم لا يلتمس شفاء غيظه باجتلاب ضعفه ، ولا يطفىء نار غضبه
تأخر عقوبة من أغضبه ، ولا يسدّد سهمه إلا والغرض ممكن ، والغاية قريبة ،
ولا يهرب إلا والمهرب معجزة .

إن سلطان الغيظ غشوم ، وإن حكم الغضب جائر ، وأضعف ما يكون
العزم على التصرف أضعف ما يكون الحزم . والغضب في طباع شيطان ،
والهوى يتصور في صورة امرأة ، فلا يبصر مساقط العيب ومواقع الشرف إلا كل
معتدل الطباع ، ومعتدل الأخلاق مستوي الأسباب .

والله لقد كنت أكره لك سرف الرضا مخافة جواذبه إلى سرف الهوى .
فما ظنك بسرف الغضب ، وبغلبة الغيظ ، ولا سيما ممن قد تعود إهمال
النفس ولم يعودها الصبر ، ولم يعرفها موضع الحظ في تجرع مرارة العفو ،
وأن المراد من الأمور عواقبها لا عواجلها .

ولقد كنت أشفق عليك من إفراط السُرور فما ظنك بإفراط الغيظ . وقد
قال بعض الناس : لا خير في طول الراحة إذا كان يُورث الغفلة ، ولا في
الكفاية إذا كان يؤدي إلى المعجزة ، ولا في كثرة الغنى إذا كان يخرج إلى
البلدة .

جعلت فداك . إن داء الحزن وإن كان قاتلاً فإنه داء مُماطل ، وسقمه
سقم مُطاول ، ومعه من التمهل بقدر قسطه من أناة المرّة السوداء . وداء الغيظ

سفيه طيَّاش ، وعجول فحَّاش ، يُعجل عن التوبة ، ويقطع دون الوصية ، ومعه من الخُرْق بقدر قسطه من التهاب المرّة الحمراء . [والعجول يخطيء وإن ظفِر ، فكيف به إذا أخفق . على أن إخفاقه يزيد في حقيقة خطئه كما أن ظفِره لا يتقص من مقدار زلله] . وأنت روحٌ كما أنت وحشيٌّ من قرنك إلى قدمك . وعمل الآفة في الدِّقاق والعناق أسرع ، وحدُّها عن الغلاظ الجفافة أكلٌ ؛ فلذلك اشتدَّ جزعي لك من سلطان الغيظ وغلبته .

والله لو كنتُ ابتلعتُ مزار بابك ، وأبطلت بمر الباطل ، ووردت الفظائع كلها ، ونقضت الشروط بأسرها ، وأفسدت نتاجك ، وقتلت كلَّ شطر نجِيٍّ لك ، ورفعتُ من الدنيا فراهة الخيل ، وجعلتُ المروجَ كلها حميًّا ، وكنتُ صدّاق المرادين ، وپرسام الأولاد ، ومسخت جميع الجواري في صورة أبي رملة ورددت شيطاط خَلْقك إلى جعودة أبي حنّة وكنت أول من سنَّ بيع الرجال في النخاسين ، وفتح باب الظلم لأصحاب المظالم ، وحوّلت إليك عقل أبي دينار ، وطبعت على بيان ما تويته ، وأعنت على موت المعتصم ، وغضبت لمصرع الأفشين ، واستجيت للديك الأبيض الأفرق وأحييت صالح بن حنين ، وأحوجتك إلى حاتم الرِّيش ، وكان أبو الشماخ صديقي ، والفراسيُّ من شيعتي - لكان ما تركبني به سرفا ، ولكنت في هذا العتاب متعدياً .

[٣ - يجب التمييز في المداوة بين الاخيار والاشرار والمحبين

والمبغضين]

جعلتُ فداك ، لا تتعرض لعداوة عُقلاء الرواة ، ولضعيفة حُفاظ المثالب ، وللسان من قد عُرف بالصدق والتوخي ، وبقلّة الخطل والتكُّب ، ما وجدت عن ذلك مندوحة ، ووجدت المذهب عنه واسعاً . ولا تعاقب واداً وإن اضطرك الواد ، ولا تجعل طول الصُّحبة سبباً للتضجر ، واصبر على خَلقه فإن

خَلَقَهُ خَيْرٌ مِنْ جَدِيدٍ غَيْرِهِ . وَصَدَاقَةُ الْمُتَطَرِّفِ غَرُورٌ ، وَمَلَالَةُ الصُّدِيقِ أَفْنٌ ،
وَالْعِلْمُ بِأَقْدَارِ الذُّنُوبِ غَامِضٌ ، وَحُدُودُ الذُّنُوبِ فِي الْعِقَابِ خَفِيَّةٌ . وَلَنْ يَعْرِفَ
الْعِقَابَ مَنْ يَجْهَلُ قَدْرَ الذَّنْبِ . وَالْأَجْرَامُ كَثِيرَةٌ الْأَشْكَالُ ، وَمُتَفَاوِتَةٌ فِي
الْأَقْدَارِ . وَإِذَا أُرِدْتَ أَنْ تَعْرِفَ مِقْدَارَ الذَّنْبِ إِلَيْكَ مِنْ مِقْدَارِ عِقَابِكَ عَلَيْهِ فَانظُرْ
فِي عِلَّتِهِ وَسَبَبِهِ ، وَإِلَى مَعْدِنِهِ الَّذِي مِنْهُ نَجَمٌ ، وَعُشْبُهُ الَّذِي مِنْهُ دَرَجٌ ، وَمَغْرِسُهُ
الَّذِي مِنْهُ نَبْتٌ ، وَإِلَى جِهَةِ صَاحِبِهِ فِي التُّابِعِ وَالتُّرْعِ ، وَفِي النُّزُوعِ وَالتُّبَاتِ ،
وَإِلَى قَجِحَتِهِ عِنْدَ التَّقْرِيعِ ، وَإِلَى حَيَاتِهِ عِنْدَ التَّعْرِيفِ ، وَإِلَى فِطْتِهِ عِنْدَ الرِّشْقِ
وَالتُّورِيَةِ ؛ فَإِنَّ فَضْلَ الْفِطْنَةِ رَبَّمَا دَلَّ عَلَى فِرَاطِ الْاِكْتِرَاثِ ، وَعَلَى قَدْرِ الْاِكْتِرَاثِ
يَكُونُ الْاِقْدَامُ وَالْاِحْجَامُ . فَكُلُّ ذَنْبٍ كَانَ سَبَبَهُ الْاِدَالَةُ وَضِيقُ صَدْرٍ وَغَلْظُ طَبَاعٍ
وَحِدَّةٌ مِرَارٍ ، مِنْ جِهَةِ تَأْوِيلٍ أَوْ مِنْ جِهَةِ غَلْظٍ فِي الْمَقَادِيرِ ، أَوْ مِنْ طَرِيقِ
[فِرَاطٍ] الْأَنْفَةِ وَغَلْبَةِ طَبَاعِ الْحَمِيَّةِ مِنْ بَعْضِ الْجَفْوَةِ أَوْ لِبَعْضِ الْأَثَرِ ، أَوْ مِنْ
جِهَةِ اسْتِحْقَاقِهِ عِنْدَ نَفْسِهِ وَفِيمَا زَيْنَ لَهُ مِنْ عَمَلِهِ ، وَأَنَّهُ مَقْصُرٌ بِهِ مُؤَخَّرٌ عَنِ
مَرْتَبَتِهِ ، أَوْ كَانَ مَبْلَغًا عَنْهُ أَوْ مَكْذُوبًا عَلَيْهِ ، وَكَانَ ذَلِكَ جَائِزًا عَلَيْهِ غَيْرَ مَمْتَنِعٍ
فِيهِ . فَإِذَا كَانَتْ ذُنُوبُهُ مِنْ هَذَا الشَّكْلِ وَعَلَى هَذِهِ الْأَسْبَابِ ، وَفِي هَذِهِ
الْمَجَارِي ، فَلَيْسَ يَقِفُ عَلَيْهَا كَرِيمٌ ، [وَلَا يَلْتَفِتُ لَهَا حَلِيمٌ] .

وَلَيْسَتْ أَسْمِيهِ بِكَثْرَةِ مَعْرُوفِهِ كَرِيمًا حَتَّى يَكُونَ عَقْلُهُ غَامِرًا لِعِلْمِهِ ، وَعِلْمُهُ
غَالِبًا لَطَبَعِهِ ، وَحَتَّى يَكُونَ عَالِمًا بِمَا تَرَكَ ، وَعَارِفًا بِمَا أَخَذَ . وَاسْمُ الْحَلِيمِ
جَامِعٌ لِلْكُظْمِ ، وَالْقُدْرَةِ ، وَالْفَهْمِ .

فَإِذَا وَجَدْتَ الذَّنْبَ بَعْدَ ذَلِكَ لَا سَبَبَ لَهُ إِلَّا الْبَغْضَةَ فَلَوْلَمْ تَرْضَ لِصَاحِبِهِ
بِعِقَابٍ دُونَ قَعْرِ جَهَنَّمَ لَعَذْرَكَ كَثِيرًا مِنَ الْعُقْلَاءِ ، وَلِصَوِّبِ رَأْيِكَ عَالِمًا مِنَ
الْأَشْرَافِ .

وَمَتَى كَانَتْ لِعِلَّتِهِ طَبِيعَةُ الْبَدَاءِ ، وَخُلِقَ الشَّرَارَةُ وَالتُّسْرُعُ ، فَاقْتُلْهُ قَتْلَ
الْعُقَارِبِ ، وَادْمَعُهُ دَمْعَ رُؤُوسِ الْحَيَاتِ . *

وإذا كان ممن لا يسيء فيك القول ، ولا يرصدك بالمكروه إلا لتعطيه
على الخوف ، وتمنع عرضك من جهة التقية فامنعه جميل رفقك ، واحتل في
منعه من قبل غيرك ؛ فإنك إن أعطيتَه على هذه الشريطة ، وأعظمتَه من هذه
الحكومة فقد شاركته في سبِّ نفسك ، واستدعيت الألسنة البذيئة إلى عرضك ،
وكنت عوناً لهم عليك .

وكيف تعاقبه على ذنبٍ لك شطره ، وأنت فيه قبيمه ، إلا أن عليك
غُرمه ولك غُمنه .

ومن العدل المحض والإنصاف الصحيح أن تحط عن الحسود نصف
عقابه ، وأن تقتصر على [بعض] مقداره ، لأن ألم حسده لك قد كفاك مؤونة
شطر غيظك عليه .

وأما الوادُّ فلا تعرض له البتة ، [ولا تلتفت لفته] ، ولو أتى على الحرث
والنسل ، وحتى على الروح والقلب . ولا تغتر بقوله إنِّي وادُّ ، ولا تحكم له
بدعواه بأنى جدِّ وامق . وانظر أنت في حديثه وإلى مخارج لفظه ، وإلى لحن
قوله ، وإلى طريفته وطبيعته ، وإلى خلقه وخليقته ، وإلى تصرفه وتصميمه
وإلى توقفه وتهوره . وتأمل مقدار جزعه من قلة اكترائه ، وانظر إلى غضبه فيك
ولك ، وإلى انصرافه عن انصرف عنك وميله إلى من مال إليك ، وإلى تسلمه
من الشر وتعرضه له ، وإلى مُداهنته وكشف قناعه . بل لا تقص له بجماع
ذلك ما كان ذلك في أيام دولتك ومع إقبال من أمرك ، وإن طالت الأيام
وكثر الشهور ، حتى تنتظم الحالات ، وتستوي فيه الأزمان .

نعم ، ثم لا تحكم له بذلك حتى تكون حاله مقصورة على محبتك ،
ومحنوة على نصيحتك ، بالعلل التي توجب الأفعال . والأسباب التي تسخر
القلوب للمودات ، كالعلل الثابتة في الصنعة ، والأسباب الموجودة مع مولى
العناقة ؛ فإنَّ عللها خلاف عِلل مولى الكلالة ، وخلاف عِلل الصديق الذي

لم يزل يرى أنه مثلك ، وأنه يستوجب منك استيجابك ، ولا سيما إذا كانت الصنعة أنت ابتدأتها ، وأنت أبو عذرتها .

فإن أنت لم تحكم له بالغاية مع اجتماع هذه العلل فيه ، ومع توافيها إليه ، ولم تقض له بأقصى الغاية مع ترادف هذه الأسباب وتكامل هذه الدلائل ، وتعاون هذه البرهانات ، فكل خبر بيته زور ، وكل دلالة فاسدة . وقد قال الأول : « دلائل الأمور أشد تثبتاً من شهادات الرجال » . إلا أن يكون في الخبر دليل ، ومع الشهادة برهان ؛ لأن الدليل لا يكذب ولا ينافق ولا يزيد ولا يبذل ، وشهادة الإنسان لا تمتنع من ذلك ، وليس معها أمان من فساد ما كان الإمكان قائماً .

[٤ - تفضيل النخل على الزرع سبب سخيف للعداوة]

وبعد متى صار اختيار النخل على الزرع يحقد الإخوان ، ومتى صار تفضيل الحَبِّ وتقريظ الثمر يورث الهجران ، ومتى تميزوا هذا التميز وتهالكوا هذا التهالك ؟ ومتى صار تقديم النحلة ملة ، وتفضيل السنبله نحلة ؟ ومتى صار الحكم للنعجة نسباً وللكرمة صهراً ، ومتى تكون فيها ديانة وتستحكم فيها بصيرة ، ويحدث عنها حمية .

وقد كنا نعجب من حرب البسوس في ضرع ناب ، ومن حرب بُعَاثٍ في مخرَفِ تَمْرٍ ، ومن حرب غَطَفَانٍ في سَبَقِ دَابَّةٍ . فجئتنا أنت بنوع من العجب أبطل كل عجب ، وأنسنا بكل غريب ، وحسن عندنا كل قبيح ، وقرب عندنا كل بعيد .

فإن جهلت - أعزك الله - غضبك فمثلي جهل ما لا علة له ، وإن عجزت عن احتمال عقابك فمثلي ضج مما لا يطيق حمله . ولا عار على جازع إلا فيما يمكن في مثله الصبر ، ولا لوم على جاهل فيما لا ينجح في مثله الفكر .

وليس هذا أول شركٍ نصبتَه ، ولا أول كيدٍ أرغته ، ولا هي بأول زُبِيَّة
عظمتها وسترتها ، وحيلةٍ أكرمتها ورَبَصتها .

وقد كانت التقية والاقتصاد أسلم ، بل كان العفو أرحم ، والتغافل أكرم .

[٥ - ذم العجلة]

ولا خير في عقوبة تشمت العدو المتقادم ، ويُنادي بها العدو الحادث .
والأنانة أبلغ في الحزم ، وأبعد من الذم ، وأحمد مغبةً وأبعد من خرق العجلة .
وقد قال الأول : « عليك بالأنانة ؛ فإنك على إيقاع ما أنت موقَّعه أقدر منك
على ردِّ ما قد أوقعته » . فقد أخطأ من قال :

قد يُدرك المتأنِّي بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلُّ

بل لو قال : والمتأنِّي يدرك حاجاته أحق ، والمستعجل يفوت حاجاته
خلق ، لكان قد وفى المعنى حقّه ، وأعطى اللفظ حظه ، و [إن] كان القول
لأول موزوناً والثاني منثوراً ، ولولا أنه اشتقَّ المستعجل من العجلة لما قرنه
بالمتأنِّي . وينبغي أن يكون الذي غلظه قولهم : « ربِّ عجلة تهب ريشاً » .
لجعل الكلام الذي خرج جواباً عندما يعرض من السبب ، كالكلام الذي خرج
رتجالاً ، وجعله صاحبه مثلاً عاماً . فإذا سميت العمل عجلةً وريشاً فاقص
على الريث بكثرة الفوت ، ويقدر ذلك من العجز ، وعلى العجلة بقلّة النجح ،
يقدر ذلك من الخرق .

والريث والأنانة في بلوغ الأمل وإدراك النعمة كانتهاز الفرصة واهتبال
لغيره . والأنانة وإن طالت [فليست من جنس الريث] ، وانتهاز الفرصة وإن
كان في غاية السرعة فليس من جنس العجلة .

وربّت كلمة لا توضع إلا على معناها الذي جعلت حظه ، وصارت هي

حقه والِدَالَّةَ عليه دون غيره ، كالحزم والعلم ، والحلم والرُفْق ، والأناسة
والمداواة ، والقصد والعدل والاهتبال ، وكاليأس والأمل ، وكالخُرْق والعَجَلَة ،
والمداهنة والتسرُّع ، والغلو والتقصير .

وربّت كلمة تدور مع خُلَّتْها ، وتتقلَّب مع جاراتها ، وإزاء صاحبها ،
وعلى قدر ما تُقابل من الحالات ، وتُلاقي من الأسباب ، كالحبِّ والبُغض ،
والغضب والرُّضا ، والعزم والإرادة ، والإقبال والإدبار ، والجِدِّ والفتور ؛ لأن
هذا الباب الأخير يكون في الخير والشرِّ ، ويكون محموداً ويكون مذموماً .

وصاحب العَجَلَة - أعزَّكَ اللهُ - صاحب تغريرٍ ومخاطرة ، إن ظفر لم
يحمده عالمٌ ، وإن لم يظفر قطعته الملاوم . والرَّيْثُ أخو المَعَجَزة ، ومقرون
بالحسرة ، وعلى مَدْرَجَة اللاتمة . وصاحب الأناة إن ظفر نفع غيره بالغنم ،
ونفع نفسه بثمره العلم ، وأطاب ذكره دوامُ شكره ، وحُفظ فيه ولده . وإن حُرِمَ
فمبسوطٌ عذره ، ومصوبٌ رأيه مع انتفاعه بعلمه وما يجد من عزِّ حزمه ونبيل
صوابه ، ومع علمه بالذي له عند العقلاء ، وبعذره عند الأولياء والأعداء .

وما عندي لك إلا ما قال الدهقان لأسد بن عبد الله وهو على خراسان ،
حين مرَّ به وهو يُدهق في حَبِيبه :

إن كنت تعطي من ترحم فارحم من تظلم . إن السموات تنفجر لدعوة
المظلوم ، فاحذر من ليس له ناصر إلا الله ، ولا جنة إلا الثقة بشيئ من الغير ،
ولا سلاح إلا الابتغال إلى مولى لا يُعجزه شيء .

يا أسد ، إن البغي يصرع أهله ، وإن الظلم مرتعه وخيم ، فلا تغترَّ
بإبطاء العقاب من ناصر مني شاء أن يغيث أغاث . وقد أملى لقوم كي يزدادوا
إثماً . وجميع أهل السعادة إما سالمٌ من ذنب ، وإما تاركٌ لإصرار . ومن رغب
عن التماذي فقد نال أحد الغنمين ، ومن خرج من السعادة فلا غاية له إلا دار

الندوة . وسواء - جعلت فداك - ظلمت بالبطش والغشم ، أو ظلمت بالدحس والدس . فشاوّر لُبّك ، وناظر حزمك ، وقف قبل الوثبة ، واحذر زلة العالم .

وقد قال صاحبكم : من استشار الملاة وقلد طبيعته الاستطراف ، وجعل الخُطرة ذنباً ، والذنب ذنباً ، ومقدار الطرفة إصراراً ، والصغير كبيراً ، والقليل كثيراً ، عاقب على المتروك الذي لا يُعبأ به ، وبلغ بالبطش إلى حيث لا بقية معه ، ورأى أن القطيعة التي لا صلة معها ، والتخليج الذي لا تجمل معه ، الحزم المحمود ؛ وأن الاعتزام في كل موضع هو الرأي الأصيل .

وقال أيضاً : من كانت طبيعته مأمونة عليه عند نفسه ، وكان هواه رائده الذي لا يكذبه ، والمتأمر عليه دون عقله ، ولم يتوكل لما لا يهواه على ما يهواه ، ولم ينصر تالذ الإخوان على الطارف ، ولم ينصف المملول المبعّد من المستطرف المقرب ، ولم يخف أن تجتذبه العادة ، وتتحكم عليه الطبيعة ، فليرسم حُججَهما ، ويصوّر صورَهما ، في كتاب مفرد أو لفظ مسموع ، ثم يعرضهما على جهابذة المعاني وأطباء أدواء العقول ، على ألا يختار إلا من لا يدري أي النوعين يبغى ، وعلى أيهما يحامي ، وأيها دواؤه وأيها داءه . فإن لم يستعمل ذلك بما فضل له من سكر سوء العادة ، لم يزل متورطاً في الخطاء مغموراً بالدم .

[٦ - ابن الزيات يعرض بالجاحظ لاهماله تجليد كتبه ونظمها]

سمعتك وأنت تريدني وكأنك تريد غيري ، وكأنك تشير عليّ من غير أن تنصني . ونقول : إنني لأعجب ممن ترك دفاتر علمه متفرقة مبثوثة ، وكراريس دريسه غير مجموعة ولا منظومة ، كيف يعرضها للتجرّم ، وكيف لا يمنعها من التفرّق . وعلى أن الدفتر إذا انقطعت جزامته ، وانحلّ شِداده ، وتخرّمت رُبطه ، ولم يكن دونه وقاية ولا جنة ، تفرّق ورقه ؛ وإذا تفرّق ورقه اشتدّ

جمعه ، وعسر نظمه ، وامتنع تأليفه ، وربما ضاع أكثره . والدقتان أجمع ،
وضم الجلود إليها أضون ، والحزم لها أصلح . وينبغي للأشكال أن تنظم
وللأشياء أن تؤلف ؛ فإن التأليف يزيد الأجزاء الحسنة حسنا ، والاجتماع
يحدث للمتساوي في الضعف قوة ، فإذا فعلت ذلك صرت متى وجدت بعضها
فقد وجدت كلها ، ومتى رأيت أديانها فقد رأيت أقصاها ؛ فإن نشطت لقراءة
جميعها مضيت فيها .

وإذا كانت منظومة ، ومعروفة المواضيع معلومة ، لم تحتج إلى تقليب
القماطر على كثرتها ، ولا تفتيش الصناديق مع تفاوت مواضعها ، وخفت عليك
مؤونتها وقلت فكرتك فيها ، وصرفت تلك العناية إلى بعض أمرك ، وادخرت
تلك القوة لنوابغ غدك .

وعلى أن ذلك أدل على حبك للعلم ، واصطناعك للكتب ، وعلى حسن
السياسة ، والتقدم في إحكام الصناعة .

وقلت : لأمر ما جمعوا أسباع القرآن وسوره في مصحف ، ولم يدعوا ما
فيه مفرقا في الصدور ، ولا مبددا في الدفاتر ، ومفرقا في القماطر . على ذلك
أجمع المسلمون ، والسابقون الأولون ، والأئمة الرشيدة ، والجماعة
المحمودة ، فتوارثه خلف عن سلف ، وتابع عن سابق ، وصغير عن كبير ،
وحديث عن قديم .

ولم أشك في أنها نصيحة حازم ، ومشورة واثق ، أو رأيي حصر أو
حكمة نبغت ، أو صدر جاش فلم يملك ، أو علم فاض فلم يرد ، استعمله
من استعمله ، وتركه من تركه .

فلما أخذت بقولك ، وصرت إلى مشورتك وأكثر حمد الله على
إفادتك من العلم وحفظ عنايتك من النقل ، وجمعت البعض إلى البعض ،

والشُّكل إلى الشُّكل ، وتقدَّمتُ في استجادة الجلود ، وفي تمييز الصُّناع ، وفي
تخيير البياعات ، وغرمت المال ، وشغلت البال ، وجعلتها مصحفاً مصحفاً ،
وأجملتها صينفاً صينفاً ؛ ورأيت أنني قد أحكمت شأني ، وجمعت إليّ أقطاري ،
رأيتُ أن أنظر فيها وأنا مستلقٍ ولا أنظر فيها وأنا منتصبٌ ، استظهاراً على تعب
البدن ؛ إذ كانتِ الأسافل مُثقلةً بالأعالي ، وإذ كان الانتصاب يُسرِّع في إدخال
الوهن على الأصلاب ؛ ولأن ذلك أبقى على نور البصر ، وأصلح لقوة الناظر ؛
إذ كلُّ واحدٍ من هذه المصاحف قد أعجزَ يدي بِثقلِ جرِّمه ، وضيقِ صدري
بجفاءِ حجمه . وإذا ثقلَ أنكأ الصدر ، وأوهنَ العظم .

وإذا أنا نظرت فيها وأنا جالسٌ سدرتُ عيني ، وتقوَّسَ ظهري ، واجتمع
الدمُّ في وجهي ، وأكرهتُ بصري على غير جهته ، وأجريتُ شعاعَ ناظري في
غير مجراه .



وقد علمتُ - أبقاك الله - مع خبرتك بمقايح الأمور ، ومواقع المنافع
والمضار ، ثم بمصالح العباد والبلاء ، أن من كان على مَقْطَعِ جبل ، أو على
شُرْفَاتِ قصر ، فأراد رؤية السماء على بُعدها ، وجد ذلك على العين سهلاً
خفيفاً ، وإن أراد أن يرى الأرض على قُربها ، وجد ذلك على العين عِثاً
ثقيلاً . فإن بدا لي أن يُقابل عيني به العبدُ ، أو تُواجهني به الأمة ، كلَّفتُ
أحرقَ النَّاسَ كفاً ، وأقلَّهم وَفقا ، وأكثرهم التفاتاً ، وأحضرهم نعاساً ، وأقلَّهم
على حالٍ واحدةٍ ثباتاً ، وأجهلهم بمقدار الموافقة ، ولمقادير المقابلة ، وبحطِّ
اليد ورفعها ، وإمالتها ونصبها . ثم رأيتُ في تضجُّرهم وتكرُّهم وفرارهم
منه ، ما صيَّر تجشُّمي لثقلِ وزنه ، ومُقاساتي لجفاءِ حجمه ، أهونَ على
يدي ، وأخفُّ على قلبي . فإن تعاطيته عند ذلك بنفسِي فشقاءٌ حاضر ، وإن
ألزمتُه غيري فغيظٌ قاتل . وحتى صارت الحال فيها داعيةً إلى تركِ دَرَسِها
والمعاودة لقراءتها ، مع ما كان فيها من الفائدة الحسنة ، والمنافع الجامعة ،

ومن شَحَذ الطبيعة ، وتمكين حُسن العادة .

ولو لم يكن في ذلك إلا الشُّغل عن خَوْض الخائضين ، والبُعد عن لهُو
اللاهين ، ومن الغيبة للناس والتمني لما في أيديهم ، لقد كان نفع ذلك
كثيراً ، وموقعه من الدين والفرض عظيماً .

ومتى تُقلّ الدرس تشاقلت النفس ، وتقاعست الطبيعة . ومتى دام
الاستشغال احدث الهجران . وإذا تطاول الكدّ رسخ الزهد . وفي ترك النظر
عمى البصر ، وفي اهمال الطبيعة كلال حد(الطبيعة) . وعلى قدر الحاجات
تكون الخواطر ، كما انه على قدر غريزة العقل تصح الحوائج وتسقم ، وعلى
قدر كثرة الحاجة تتحرك الجارحة ويتصرف اللسان ، ومع قلة الحركة وبعد
العهد بالتصرف يحدث العمى ويظهر العجز ويبطئ الخاطر . ومع ذهاب البيان
يفسد البرهان . وفي فساد البرهان هلاك الدنيا وفساد الدين .

فقد بلغت ما أردت ، ونلت مما حاولت ، فحسبك الآن من شج من
مأسوك ، ومن قتل من يقتل فيك .

جعلت فداك . إنه ليس يومي منك بسواجد ، وأنا على عقابك
أوجد . وليس ينجي منك مُعقل وَعِل ، ولا مفازة سبُع ، ولا فقر بحر ، ولا رأس
طود ، ولا دُغل ولا دحل ، ولا نفق ولا مغارة ولا مطمورة . وليس ينجيني منك
إلا مفازة المهلب . فان اعرتني قلبه وعلمتني حيلته ، وأمكثتني من سكينه .
ولا فانا أول من ابتلعت تلك الحية . ولا والله إن بي قوة على
الثعبان ، فكيف الثنين . أعفني من حية المهلب ثم اقتلني أي قتلة شئت .

إن احترست منك ألفيت لنفسي كدّاً شديداً ، وغماً طويلاً ، وطال
اغترابي وافتراق الا في ، وتعرضت للعدو ، وتحرّشت بالسباع . فإن
استرسلت اليك لم تر أن تقتلني إلا شر قتلة وآلها ، ولم تعذبني إلا بأشد
النقم وأطولها . ولو أردت ذبحي لاخترت الكليل على المرهف ، والتطويل

على التذفيف ، حتى كأني علمت عليك « شاه مات » ، أو أكلت سبعة
وأطعمتكَ واحدة .

[٧ - ابن الزيات يكيده للجاحظ]

ولقد تقدّمت في المكر واستظهرت عليّ في الكيد ، حتى تولّيت ذلك
في صغار كتبي وفيها لا تحفل به من دوام أمري ، وعلمت ان الدرس لليل
وأن الإستراحة للنهار ، وأن الكتاب لا يقرأ إلا ليلاً والنيران زاهرة ،
والمصاييح مُقرّبة . وعلمت أن كل من ضعّف بصره وكلّ نظره ، فإنه أبداً
أقربُ مصباحاً وأعظم ناراً وأن المحرور المحترق ، والممرور الملتهب ،
والبائس المتهافت ، إذا كان صاحب كتب ودرس ، أنه لا يجد بداً من
الصبر على ما يُحرقه ويُعميه ، أو التريّك للقراءة فيها والتعرض لها . فخيرتني
بين العمى والجهل . وما فيها حظ لمختار .

وقلت : إذا سحُن بدنه سحُن بوله ، وإذا سحِن بوله جرح مئنته وأحرق
كليتته ، وطبخ فضول غذائه ، وجفّف ما فضل عن استمائه فأحاله حصي قاتلاً
وصخراً جامداً ، وهو دقيق القضييب ضيق الإحليل ، فإذا حصاه يورث الأسر ،
وفي ذلك الأسر تلفُ النفس أو غاية التعذيب .

وقلت : فإن ابتليت بطول عمره أقام فينا مشغولاً بنفسه ، وإن ذهب عنا
فقد كفانا مؤونة الحيلة في أمره .

جعلتُ فِداك ، ما هذا الاستقصاء وما هذا البلاء ؟! وما هذا التبع
لغوامض المسألة ، والتعرض لدقائق المكروه ؟! وما هذا التغلغل في كل شيء
يُحمل ذكري ؟! وما هذا الترقّي إلى كل ما يحطّ من قدرتي ؟!

وما عليك أن تكون كتبي كلها من الورق الصيني ، ومن الكاغد
الخراساني ؟!

قل لي : لِمَ زينت النسخ في الجلود ، ولم حشنتني على الأدم ، وأنت
تعلم أن الجلود جافية الحجم ، ثقيلة الوزن ، إن أصابها الماء بطلت ، وإن
كان يوم لثقي استرخت . ولو لم يكن فيها إلا أنها تبغض إلى أربابها نزول
الغيث ، وتكره إلى مالكيها الحيا ، لكان في ذلك ما كفى ومنع منها .

قد علمت أن الوراق لا يخط في تلك الأيام سطرا ، ولا يقطع فيها
جلدا . وإن نديت - فضلا على أن تمطر ، وفضلا على أن تفرق - استرسلت
فامتدت . ومتى جفت لم تعد إلى حالها إلا مع تقبض شديد ، وتشنج قبيح .
وهي أنتن ريحا وأكثر ثمنا ، وأحمل للغش : يغش الكوفي بالواسطي ،
والواسطي بالبصري ، وتعتق لكي يذهب ريحها وينجاب شعرها . وهي أكثر
عقداً وعجراً ، وأكثر خباطاً وأسقاطاً ، والصفرة إليها أسرع ، وسرعة انسحاق
الخط فيها أعم . ولو أراد صاحب علم أن يحمل منها قدر ما يكفيه في سفره
لما كفاه حمل بعير . ولو أراد مثل ذلك من القطني لكفاه ما يحمل مع زاده .

وقلت لي : عليك بها فإنها أحمل للحك والتغيير ، وأبقى على تعاور
العارية وعلى تقلب الأيدي ، ولرديديها ثمن ، ولطرسها مرجوع ، والمعاد منها
ينوب عن الجدد . وليس لدفاتر القطني أثمان في السوق وإن كان فيها كل
حديث طريف ، ولطيف مريح ، وعلم نفيس . ولو عرضت عليهم عدلها في
عند الورق جلوداً ثم كان فيها كل شبر بارد وكل حديث غث ، لكانت أئمن ،
ولكانوا عليها أسرع .

وقلت : وعلى الجلود يعتمد في حساب الدواوين ، وفي الصكك

والعهود ، وفي الشروط وصُور العقارات . وفيها تكون نموذجات النقوش ، ومنها تكون خرائط البُرد . وهنّ أصلح للجُرب ولِعفاص الجِرة وبيداد القارورة . وزعمت أنّ الأَرْضة إلى الكاغد أسرع ، وانكرت أن تكون القارة إلى الجلود أسرع ، بل زعمت أنّها إلى الكاغد أسرع وله أفسد ، فكنت سبب المضرة في اتّخاذ الجلود والاستبدال بالكاغد ، وكنت سبب البلية في تحويل الدفاتر الخفاف في المَحمل ، إلى المصاحف التي تُثقل الأيدي وتحطّم الصدور ، وتقوّس الظهر ، وتعمي الأبصار .

وقد كان في الواجب أن يدع الناس اسم المصحف للشيء الذي جمع القرآن دون كل مجلّد ، والأ يروموا جمع شيء من أبواب التعلّم بين الدفتين ، فيلحقوا بما جعله السلف للقرآن غير ذلك من العلوم .

[٩ - ابن الزيات يشمت بعلم أنجاب الجاحظ]

دع عنك كل شيء . ما كان عليك أن يكون لي ولد يُحيي ذكري ويحوي ميراثي ، ولا أخرج من الدنيا بحسرتي ، ولا يأكله مُراء يرصدني ، وابن عمّ يحسدني ، ولا يرتع فيه المعدّلون في زمان السوء ، ولا تُصطنع فيه الرجال ، ويُقضى به الذمام . فقد رأيت صنيعهم في مال المفقود والمناسخة والوارث الضعيف ، ومن مات بغير وصية .

جُعلت فداك ، إن النفوس لا تجود لمولى الكلالة بما تجود به لأولاد الأصلاب وما مسّ تلك الأصلاب ؛ لأنّ الرحم الماسة والقراية الملتصقة ، واللحمة الملتحمة ، وإن أمّلت التركة ونازعت إلى المورث ، فمعها ما يطرّها ويثنيها ، ويحزنها ويكيها ، ويحرك دماها ويستغزر دمعها . وقد يشفع للولد إلى أبيه حال أبيّة كانت من أبيه .

وابن العمّ الذي ليس بالبعيد فيحُتّك من جسده ، وليس بالقريب المحنوّ

على رَجْمِهِ ، وسببه الجاذبُ له إلى تمنِّي مماتِي أمتنُّ من سببه إلى تمنِّي بقائِي ، وهو إلى الحال الموجبة للقسوة والغلظة أقرب منه إلى الحال الموجبة للرفقة والعطف . وليس ينصرك إذا نصرك ولا يحامي عليك لقرابته منك ، ولكن لعلمه بأنه متى خذلك حلُّ به ضعفك ، واجترأ بعد ضعفك عليه عدوه . فهو يريد بنصره من لا يجب عليه شكره ، ويقوِّي ضعف غيره بدفع الضعف عن نفسه .

جعلتُ فداك . ما كان عليك من بُنيِّ صغير يكون لي ، ولا سيِّما ولست عندك ممن يُدرِّك كسبه أو تُبلغ نصرته ، أو يُعاین برّه أو يؤمّل إمتاعه .

وما كان عليك مع كبر سنيّ وضعف ركني ، أن يكون لي ريحانة أشمُّها وتمرة أضمُّها ، وأن أجد إلى الأمانِي به سبباً ، وإلى التلهي سَلماً ، وأن تكثر لي من جنس سرور الحالم ، ويقدر ما يمتنع به راجي السراب اللامع ، حتّى حببت قصر عمري إلى وليّ ، وشوقته إلى ابن عمّي ؛ وحتّى زدت فيما عنده مع كثرة ما عنده ، وحتّى صيرني حبه لعموتي إلى حبِّ موته ، وتأميل مالي [إلى] تأميل فقره ؛ وحتّى شغلتي عمّن كان يشغل عدوي عني .

وسواء أعبت عليّ إلا يكون لي ولدٌ قبل أن يكون ، أو عبت عليّ إلا يكون بعد أن كان . وإنما يعذبُ الله على النية والقصد ، وعلى التوخي والعمد .

وكما أنه سواء أن تحتال في ألا يكون لي مالٌ قبل أن أملكه . أو احتلت في ألا يكون بعد أن ملكته .

وكنت لا أدري ما كان وجهُ حبِّك لإعناتي ، والتشديد بذكر ثرائي ، والتنويه باسمي ، ولا لم زهدتني في طلب الولد ، ورغبتني في سيرة الرهبان .

فإذا أنت لم ترفع ذكري في الأغنياء إلا لتعرض ذنبي للفقراء ، ولم تكثر مالي إلا لتقوي العلة في قتلي ، فيا لها مكيدة ما أبعد غورها ، ويا لها حفرة ما أبعد قعرها . لقد جمع هذا التدبير لطفة الشخص ودقة المسلك ، ويُعد الغاية .

والله لو دبرها الإسكندر على دارا بن دارا ، أو استخرجها المهلب على سفيان بن الأبرد ، وفتحت على هرثمة في مكيدة خازم بن خزيمه ، ولو دبرها لقيم بن ليمان على لقمان بن عاد ، ولو أراغها قيس بن زهير على حصن بن حذيفة ، ولو توجهت لكهان بنى أسد على ذهاة قريش - لقد كان ذلك من تدبيرهم نادراً [بديعاً] ، ولكان في مكابدهم شاذاً غريباً . وإنما لترفع عن قصير في كيد الزبلاء ، وعن جذيمة في مشاورة قصير . وما إخالها إلا ستدق على ابن العاص ، وتغضب على ابن هند ، ويكل عنها أخو ثقيف ، ويستسلم لها ابن سمية .

مركز تحقيقات كويتية للدراسات والبحوث

هذا والله التدبير لا مخاريق العراف ، وتزاويق الكاهن ، وتهاويل الحاوي ، ولا ما يتحلها صاحب الرئي ؛ بل تفضل فيها رقى الهند ، وتقرؤها سحرة بابل .

فلو كنت إذ أردت ما أردت ، وحاولت ما حاولت ، رفعت قبل كل شيء الموانسة ، ثم أبيت المؤاكلة ، ثم قطعت البر ، ثم أذنت مع العامة ، ثم عملت الحرمان ، ثم صرحت بالجفوة ، ثم أمرت بالحجاب ، ثم صرمت الحبل ، ثم عادت واقتصدت ، ثم من بعد ذلك كله أسرفت واعتديت ، لكنك واحداً ممن يصبر أو يجزع ، فلعلني كنت أعيش بالسرفق ، وأتبلغ بحشاشة النفس ، وأعلل نفسي بالطمع الكاذب . ولكن فجاءت الحوادث وبغتات البلاء

لا يَقُوم لها الحجر القاسي ، ولا الجبل الراسي . فلم تَدْعُ غايةً في صرف ما بين طبقات التعذيب إلا أتيت عليها ، ولا فضولاً ما بين قواصم الظهر إلا بلغتها . فقد مِتُ الآن فمع مَنْ تعيش ؟ [بل قد قتلتي فَمَنْ الآن تعاشر !] ، كما قال ديوست المغني لكسرى حين أمر بقتله لِقْتله تلميذه بلهيد : قتلْتُ أنا بلهيد ، وتقتلني ، فمن يُطربُك ؟ قال : خلوا سبيله ؛ فإن الذي بقي من عمره هو الذي أنطقه بهذه الحجة .

ولكنني أقول : قد قتلتي فمع من تعيش ؟ أمع الشطرنجيين ؟ فقد قال جالينوس : إياك والاستمتاع بشيء لا يعمُ نفعه .

إنَّ الكلامَ إنما صار أفضلَ من الصُّمتِ ؛ لأنَّ نفع الصمت لا يكاد يعدو الصُّامت ، ونفع الكلام يعمُّ القائل والسامع ، والغائب والشاهد ، والراهن والغابر .

وقالوا : ومما يدلُّ من فضل الكلام على الصمت ، أنك بالكلام تخبر عن الصُّمت وفضله ، ولا تخبر بالصُّمت عن فضل الكلام . ولو كان الصُّمتُ أفضلَ لكانت الرسالة صمتاً ، ولكان عدم القرآن أفضلَ من القرآن .

وقد فرَّق بينهما رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وفضل وميَّز وحضَّل ، حيث قال : « رحم الله امرأً قال خيراً فغنم ، أو سكت فسلم » . فجعل حظَّ السكوت السلامةً وحدها ، وجعل حظَّ القول الجمعَ بين الغنمة والسلامة . وقد يسلم من لا يغنم ، ولا يغنم إلا من سلم .

فأما الدوابُّ فمن يضع المركبَ الكريم إلى الصَّاحب الكريم ؟ ومن يعدل إمتاع بهيمة بإمتاع أديب .

قالت ابنة النعمان : لم نر فيما جرَّبنا من جميع الأصناف أبلغ في خير وشرُّ من صاحب .

ولما عزم ابن زياد على الحُقنة بعد أن كان تَفحُشها قال له حارثةُ بن بدر : ما أجد أولى بتولي ذلك من الطبيب . قال عُبيد الله : كلاً ، فأين صاحب .

والله أن لو تُتجت في كل عام ألف شُبديز ، وأُحبلت في كل ليلة أربعة آلاف ربرب ، وصار لك كل نهر المبارك بدلاً من بعض بابك وأكلت رأس الجُنيد بن حاق الأشيم ، وأُحبلت ابن العَزَم من إفراط الشُبَق ، لما كان ينبغي لك أن تعاملنا بهذه المعاملة ، ولا كان ينبغي أن تقتلنا هذه القِتلة ، ولو اقتصرت من العقوبة على شيء دون شيء لكان أعدل ، ولو عفوت البتة لكان أمثل .

[١١ - ذم الغضب]

إن الاعتزام على قليل العقاب يدعو إلى كثيره ، ومبتدئ العقاب بعرض لجاج . وليس يُعاقب إلا غضبان .

والغضب يغلب العزم على قدر ما يمكن ، ويحير اللب بقدر ما سُلط .

والغضب يصور لصاحبه مثل ما يصور السكر لأهله .

والغضب يَشعل الغضب ، ويغلي به الغيظ ، وتستفرغه الحركة ، ويمتلئ بدنه رعدة ، وتتزايد أخلاطه ، وتنحل عُقده ، ولا يعتريه من الخواطر إلا ما يزيد في دائه ، ولا يسمع من جليسه إلا ما يكون مادةً لفساده ، وعلى أنه ربما استفرغ حتى لا يسمع ، واحترق حتى لا يفهم .

ولولا أن الشيطان يريد ألا يخلو من عمله ، ولا يقصر في عاداته ، لما وسوس إلى الغضب ولا زين له ، ولما أغراه ولا فتح عليه ؛ إذ كان قد كفاه ، وبلغ أقصى مناه .

وليس يُصارع الغضبَ أيامَ شبابه وُغْرِبِ نابه شيءٌ إلا صرعه ، ولا يُنازعه قبل انتهائه وإدباره شيءٌ إلا قهره . وإنما يُحتال له قبل هيجه ، ويتوثق منه قبل حركته ، ويتقدم في حَسَمِ أسبابه وفي قطعِ علله - فأما إذا تمكَّن واستفحل ، وأذكى ناره واشتعل ، ثم لاقى ذلك من صاحبه قُدرة ، ومن أعوانه سمعاً وطاعة ، فلو سَعَطته بالتوراة ، ووجرتَه بالإنجيل ، ولدذتَه بالزُّبور ، وأفرغت على رأسه القرآنَ إفراغاً ، وأتيتَه بآدم عليه السلامُ شفيعاً لما قصُر دون أقصى قُوته ، ولتمنى أن يُعازَ أضعاف قدرته .

وقد جاء في الأثر : أن أقرب ما يكون العبدُ من غضب الله إذا غضب .

قال قتادة : ليس يُسكن الغضبَ إلا ذكر غضب الرحمن عزَّ وجلَّ .

وقال عمرو بن عبيد : ذكر غضب الرب يمنع من الغضب . إلا أن يريد

الذكر باللسان .



ويسمى المتوجِّد غضبان ، والدُّكُور حقوداً .

فلا تقف - حفظك الله - بعد مضيك في عقابي التماساً للعتو عني ، ولا تقصُر عن إفراطك من طريق الرحمة لي ؛ ولكن قف وقفة من يتهم الغضبَ على عقله ، والشيطانَ على دينه ، ويعلم أن للعقل خصوماً ، وللكرم أعداء .

وإن من النصف أن تنتصف لعقلك من خصمه ، وتنتصف لكرمك من عدوه ، وتُمسك إمساكك من لا يبرىء نفسه من الهوى ، ولا يبرىء الهوى من الخطأ .

[١٢ - علاقة الاسماء بالمعاني]

ولا تُنكر لنفسك أن تزَلَّ ، ولعقلك أن يهفُو ؛ فقد زلَّ آدمُ عليه السلامُ وهفأ ، وعصى ربُّه وُغوى ، وُغرةُ عدوه وُخدعه خصمه ، وعيب باختلال عزمه

وسكون قلبه إلى خلاف ثقته . هذا وقد خلقه الله بيده ، وأسكنه في دار أمته ،
وأسجد له ملائكته ، ورفع فوق العالمين درجته ، وعلمه جميع الأسماء بجميع
المعاني . ولا يجوز أن يعلمه الاسم ويدع المعنى ، ويعلمه الدلالة ولا يضع
له المدلول عليه . والاسم بلا معنى لغو ، كالظرف الخالي . والأسماء في
معنى الأبدان والمعاني في معنى الأرواح . اللفظ للمعنى بدن ، والمعنى للفظ
روح . ولو أعطاه الأسماء بلا معانٍ لكان كمن وهب شيئاً جامداً لا حركة له ،
وشيثاً لا حس فيه ، وشيثاً لا منفعة عنده .

ولا يكون اللفظ اسماً إلا وهو مضمّن بمعنى ، وقد يكون المعنى ولا
اسم له ، ولا يكون اسم إلا وله معنى .

في قوله جلّ ذكره : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ إخبار أنه قد علمه
المعاني كلها . ولسنا نعني معاني تراكيب الألوان والطعم والأرايسح ،
وتضاعيف الأعداد التي لا تنتهي ولا تتناهي . وليس لما فضل عن مقدار
المصلحة ونهاية الرسم اسم إلا أن تدخله في باب العلم فتقول : شيء ،
ومعنى .

مركز تحقيقات كويت للعلوم الإسلامية

الأسماء التي تدور بين الناس إنما وضعت علامات لخصائص الحالات ،
لا لتتائج التركيبات . وكذلك خاصّ الخاصّ لا اسم له إلا أن تجعل الإشارة
المقرونة باللفظ اسماً .

وإنما تقع الأسماء على العلوم المقصورة ، ولعمري إنها لتُحيط بها
وتشتمل . فأما العلوم المبسوطة فإنها تبلغ مبالغ الحاجات ثم تنتهي .

فإذا زعمت أن الله تبارك وتعالى علم آدم الأسماء كلها بمعانيها ، فإنما
تعني نهاية المصلحة لا غير ذلك . هذا وادم هو الشجرة وأنت ثمرة ، وهو
سماوي وأنت أرضي ، وهو الأصل وأنت الفرع ، والأصل أحق بالقوة والفرع

أولى بالضعف .

فلست أسألك أن تمسك إلا ريثما تسكن إليك نفسك ، ويرتد إليك
ذهنك ، وحتى توازن بين شفاء الغيظ والانتفاع بشواب العفو ، وترى الحلم وما
يجلب من السلامة وطيب الأحذوثة ، وترى تضرم الغضب وما يفضي لأهله من
فضل القوة .

على أن العقل إذا تخلص من سُكر الغضب أصابه ما يُصيب المخمور
إذا خرج من سُكر شرابه ، والمنهزم إذا عاد إلى أهله ، والمُبرسم إذا أفاق من
برسامه .

وما أشك أن العقل حين يُطلق من إساره كالمقيّد حين يفك من قيوده ؛
يمشي كالنزيف ، ويحجل كالغراب . فإذا وجب عليك أن تحذر على عقلك
مخامرة داء الغضب بعد تخلّصه ، وأن تتعمّده بالعلاج بعد مبايئته له وتخلّصه
من يده ، فما ظنك به وهو أسير في ملكه ، وصريع تحت كلكله ، وقد غطّه
في بحره ، وغمره بفضل قوته .

وقد زعموا أن الحسنَ حضر أميراً قد أفرط في عقوبة بعض المُذنبين ،
فكلّمه فلم يحفل بكلامه ، وخوفه فلم يتعظ بزجره ، فقال : إنك إنما تضرب
نفسك ، فإن شئت الآن فأقل ، وإن شئت فأكثر .

ومعاذ الله أن أقول لك كما قال الحسنُ لذلك الظالم المعتدي ،
والمصمم القاسي ، ولكني أقول : اعلم أنك تضرب من قد جعلك من قتله
في جِل . وإن كان القتل يحل بإحلال المقتول ، ويسقط عنه عقابه بهبة
المظلوم ؛ ولو أمكن في الدين تهاؤبُ قصاص الأخرى في الدنيا ؛ وإن كان
ذلك مما تجود به النفس يوم الحاجة إلى الشواب وإلى رفع العقاب ، وكان
الوفاء مضموناً - لكنك أول من أسمحت بذلك نفسه ، وانشرح به صدره .

[١٣ - اسباب التعادي غير متوافرة بين الجاحظ وابن الزيات]

جُعلت فداك ، إني قد أحصيتُ جميعَ أسباب التعادي ، وحصلت جميع عِلل التضاعن ، إلاَّ علَّةُ عداوة الشيطان للإنسان ؛ فإني لا أعرف إلاَّ مجازها في الجملة ولا أحقَّ خاصتها على التحصيل . وعلى حالٍ فقد عرفتُها من طريق الجملة وإن جهلتُها من طريق التفصيل . فأما هذا التجني فلم أعرفه في خاصٍّ ولا عامٍ .

فمن أسباب العداوات تنافسُ الجيران والقرايات ، وتحاسدُ الأشكال في الصناعات . ومن أمتن أسبابهم إلى الشرِّ وأسرعها إلى المبروءة والعقل ، وأقدحها في العرض وأحطبها على الدين ، التشاحُّ على المواريث ، والتنازع في تخوم الأرضين . فإن اتَّفَق أن يكون بين المتشاكلين في القرابة كان السبب أقوى ، والداء أدوى . وعلى حساب ذلك إن جمعتَ هذه الخصومةَ مع الجوار والقرابة واستواء الحظِّ في الصناعة . ولذلك كتب عمر رضي الله عنه إلى قضاته : أن ردُّوا القرايات عن حرا القضاء فإن ذلك يورث التضاعن .

ولم أعجب من دوام ظلمك ، وثباتك على غضبك ، وغلظ قلبك ، ودورنا بالعسكر متجاورة ، ومنازلنا بمدينة السلام متقابلة ، ونحن ننظر في علم واحد ، ونرجع في النحلة إلى مذهب واحد ؛ ولكن اشتدَّ عجبِي منك اليوم وأنا بفرغانة وأنت بالاندلس ، وأنا صاحب كلام وأنت صاحب إنتاج ، وصناعتك جودة الخطِّ وصناعتِي جُودة المحو ، وأنت كاتبٌ وأنا أمي ، وأنت خراجي وأنا عُشري ، وأنت زرعِي وأنا نخلي . فلو كنت إذ كنت من بكر كنت من تميم ، كان ذلك إلى العداوة سبباً ، وإلى المنافسة سلماً .

أنت أبقاك الله شاعر وأنا راوية ، وأنت طويلٌ وأنا قصير ، وأنت أصلعٌ وأنا أنزع ، وأنت صاحب براذين وأنا صاحب حمير ، وأنت ركينٌ وأنا عجول ،

وأنت تدبر لنفسك وتقيم أودَّ غيرك ، وتتسع لجميع الرعيَّة ، وتبلغ بتدبيرك أقصى الأمة ، وأنا أعجز عن نفسي وعن تدبير أمّتي وعبدي . وأنت منعم وأنا شاكر ، وأنت ملك وأنا سُوقة ، وأنت مصطنع وأنا صنيعة ، وأنت تفعل وأنا أصف ، وأنت مقدّم وأنا تابع ، وأنت إذا نازعت الرجال وناهضت الأكفء لم تقل بعد فراغك وانقطاع كلامك : لو كنت قلتُ كذا كان أجود ، ولو تركت قول كذا لكان أحسن ؛ وأمضيت الأمور على حقائقها ، وسلّمت إليها أقساطها على مقادير حقوقها ؛ فلم تندم بعد قول ، ولم تأسف بعد سكوت . وأنا إن تكلمت ندمت ، [وإن جاريت أبدعت] ورأيي كلُّه دَبْرِي . وأنت تُعدُّ في الشطرنج زبر ، وأنا في الشطرنج لا أحد .

وما أعرفها هنا اجتماعاً على مشاكلة إلا في الإيثار بخبز الخشكار على الحواري ، والباقلي على الجوزينج ، وأنا جميعاً ندعي الهندسة . فقد بلغ الآن من جرمي في مساواتك في خبز الخشكار ، وإيثاري الباقلي ، والمعرفة بتقدير المدن وإجراء القنى ، أن أنفي من جميع الأرض ، وأن تجعل في دمي الجعائل ؛ فإني قد هجرت الخبز البتة إلى مواصلة التمر ، ونزلت الوبر بدلاً من المدر .

دعنا الآن فإنك فارغ . إن الله يعلم - وكفى به عليماً ، وكفى به شهيداً ، وكفى به حفيظاً ووكيلاً ، وكفى بجرأة من يعلم ما لا يعلم جرأة وتعرضاً ، وكفى بحاله عند الله بعداً ومقتاً - لقد أردت أن أفديك بنفسي في بعض كتبي ، وكتب عند نفسي في عداد الموتى وفي حيز الهلكى ، فرأيت أن من الخيانة لك ومن اللؤم في معاملتك ، أن أفديك بنفسي ميتة ، وأن أريك أنني قد جُدت لك بأنفس علق وعلق معدوم . ليس أن من قد فداك فقد جعل فداك ، ولكنها نهاية من نهايات التعظيم ، ودليل من دلائل الاجتهاد . ومن أعلن الاجتهاد لك واستسرَّ خلاف ذلك فقد نافق وخان ، وغشَّ والآم . وأخلق بمن أحلَّ بهذه الآ

يرعى حقاً ، ولا يرجع إلى صحّة ولا إلى حقيقة .

ثم أنت لا يشفيك مني السمّ المجهز ، ولا السمّ الساري ؛ فإنه أبعد غايةً في التطويل وأبلغ في التعذيب . لا ولا لعاب الأفاعي وداهية الدواهي ، فإنه يعجز الرقى ويفوت ذرع الأطباء . لا ولا نار الدنيا ، بل لا يشفيك من نار الآخرة إلا الجحيم ، ولا يشفيك من الجحيم إلا أن أرى في سوائه وفي أصطمة ناره ، وفي معظم حريقه ، وفي موضع الصميم من لهيبه . بل لا تكتفي بذلك دون الدرك الأسفل ، بل لا يرضيك شيء سوى الهاوية ، بل لا ترضى إلا بعذاب آل فرعون ، أشدّ العذاب ، بل لا يرضيك إلا عذاب إبليس الذي زين الختر للعباد ، وبثه في البلاد ، والذي خطأ الربّ وعانده وردّ قوله ، وغير عليه تدبيره ، ولم يزد إلا شكاً ولجاجة ، وتمادياً وإصراراً . ثم لم يرض من الجدّ في مخالفة أمره ، وخلع العذار في شدة الخلاف عليه إلا بأن يحلف على شدة اجتهاده في ذلك بعزته ، فجعل العزة المانعة من إسخاطه سبيلاً إلى إسخاطه ، والقسم الحاجز دون إغضابه وسيلة إلى إغضابه ، حيث قال :

﴿ فبِعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾

فعليك عافاك الله بإبليس إن كنت لله تغضب ، أو عليك بالأكفاء إن كنت لنفسك تتشقى .

[١٤ - ابن الزيات استضعف الجاحظ فوصفه]

لا ولكنك استغمرتني واستضعفتني ، وجعلتني فرج الرقاء ، وتريد أن تتعلم في معاقبة الأعداء . فإن كنت إلى هذا تذهب فجعفر بن معروف أضعف مني ، وعبد الله بن عيسى أسوأ خبراً مني .

سبحان الله ، يسلم عليك خيدر الأفشين ، ويهلك عليك عمرو الجاحظ ، ويسعد بك أبعده البعداء ويشقى بك أقرب القرباء . وتتغافل عن مثل

الجبال التماساً للتسليم وحباً للسلامة ، وتغلغل إلى المحقرات طلباً للتعريض
وحباً للشر .

ومنى قدرت على عدوك فلم تجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه ، ومنى
لم تتغافل عنه تكراً أو تدعه احتقاراً ، ومنى اكثرت لكبير وضاق صدرك عن
شيء عظيم فهانذا بين يديك ، فكلني بخلٍ وخردل ؛ فوالله إنك لتأكل غشاً غير
مريء ، وخبثاً غير شهيق .

لا والله ، لكأنك وقعت على مطمورة ، وظفرت برأس خاقان . كنت
أظن أن الرشاقة والحلم لا يجتمعان ، وأن ظرف الإنسان وأصالة الرأي لا
يفترقان ، وأن النزق والخفة مقرونان بخفة البدن ، وأن الركابة والأناة مجموعتان
لصاحب السمن ، حتى رأيتك فاعتقدت بك خلاف ذلك الرأي ، واستبدلت
فيك ضد ذلك الظن . فتركتني حتى إذا نازعت الرجال ، وتعرضت للشجى ،
وشغلت نفسي بثلب الخصام ، وانقطعت إلى أصحاب القُدود ، وجعلت
عدواني في تقديم القضاة ، وطال لساني ، وأظهرت الاستبصار في فضلك ،
وجعلت مزاج أخلاطك هو الخجة ، واعتدالك هو النهاية ، وطبيعتك هي
المسكة ؛ وزعمت أن منظرك يغني عن مخبرك ، وأن أولك يُجلي عن آخرك .
شددت عليّ شدة المهر الأرن ، وتسرعت إليّ تسرع الغر النزق ، وألححت
[عليّ] إلحاح اللجوج الحيق . كأنك لم تحفل بما يشيع لك من اسم
المتسرّع ، وبما تضاف إليه من سُخف المتسرّع ، بعد أن تكذب قولي وتفند
خبري .

وقد تقدمت التجربة أن الحديد لا يكون حقوداً ، وأن المصطنع لا يكون
للصنعة حاسداً ، فقصدت على رأس إلى القياس الممتحن فأفسدته ، وإلى
الطبائع المعتدلة فنقضتها ، وإلى القضايا الصحيحة فرددتها .

وقالوا بأجمعهم : حالان لا تقبلان الحسد ، ولا يخلوان من الرشد :

حال الصُّنِيعَةِ لمصطَبِيعِهِ ، وحال المولى لِمُعْتَقِهِ . فكيف إذا كان الصُّنِيعَةُ صديقاً ، وكان للخاصَّةِ محتملاً .

[١٥ - ما يصيب الانسان يصيب صديقه]

وإنما صارت - أبقاك الله - أجزاء النفس وأعضاء الجسد مع كثرة عددها ، واختلاف أخلاطها ، وتباعد أماكنها ، نفساً واحدة وجسداً واحداً ، لاستواء الخواطر ، ولاتفاقها على الإرادة . فأنت وصديقك الموافق ، وخليلك ذو الشكل المطابق ، مستويان في المَحَابِّ ، متفقان في الهوى ، متشاكلان في الشهوة ؛ وتعاونكما كتعاون جوارح أحدكما ، وتسالمكما كتسالم المتفق من طبائعكما . فإذا بان منك صديقك فقد بان منك شطرك ، وإذا اعتلَّ خليك فقد اعتلَّ نصفك ، بل النفوس المضمَّنة كالمعاني المضمَّنة ، فذهاب بعضها هو ذهابُ جميعها . فموتي هو موتُ صديقي ، وحياتي هي حياة صديقي . فلا تبعده من قلبك بُعدَ بدنه من بدنك ؛ فقد يقربُ البغيض وينأى الحبيب . ولعلَّ بعضَ طبائعك المخالط لروحك ، أن يكون أعدى من كلِّ عدو ، وأقطع من كلِّ سيف ، وأخوف عليك من الأسد الضاري ، ومن السمِّ الساري .

ثم اعلم أنَّ الموتى بمودته قليل ، وقد صار اليومَ المعتمدُ عليه في صحة العقدة ، وفي كرم الغيب والعشرة ، عتقاء مُغْرِبٍ . ولا أعلم الكبريت الأحمرَ إلا أوجدَ منه . وإنِّي لأظنُّ القناعةَ أكثرَ منه . وما أكثرَ مَنْ جعل انقطاع سببه وضعف طمعه لانقطاع سببه قناعةً :

وقيل ليحيى بن خالد : أي شيء أقل ؟ قال : قناعة ذي الهمة البعيدة بالعيش الدون ، وصديق قليل الآفات كثير الإمتاع ، شكور النفس ، ويصيب مواضع المدح .

لا والله إن تعرف على ظهرها موضعاً للسرّ ، ولا مكاناً للشكوى ، ولا روحاً تأنس بها ، ولا نفساً تسكن إليها . ولو أردت أن تعرفني من جميع العالمين رجلاً لَمَا قدرت على أحدٍ يحتمل الغنى . ومحتمل الفقر قليل ، ومحتمل الغنى عديم .

إنّ الخير - أبقاك الله - في أيام كثرته كان قليلاً فما ظنك به في أيام قلته ، وإن الشرّ في أيام قلته كان كثيراً فما ظنك به في أيام كثرته ، وأنت غريبٌ في المصطنعين ، وأنا غريبٌ في الصنائع ، والغريب للغريب نسيب ، ونسب المشاكلة وقرابة الطبيعة الموافقة ، أقربٌ من نسب الرجم ؛ لأنّ الأرحام مولةٌ بالتحاسد ، لهجةً بالتقاطع ، وأن التحابُّ على طبع المشاكلة . والتلاقي على وفاقٍ من الطبيعة ، أبعد من التماسد ، وأبعد من التعادي . وسببُ التعادي غرضٌ في طبائع الغرباء ، وجوهرٌ في طبائع الأقرباء .

واعلم أنّك لا تزال في وحشةٍ إلى وحشة ، وفي غربةٍ إلى غربة ، وفي تنكُّر العيش وتسخط الحال ، حتى تجد من تشكو إليه بشك ، وتُفصِّي إليه بذاتِ نفسك . ومتى رأيت عجباً لم تضحكك رؤيتك له بقدر ما يضحكك إخبارك إياه . فمن أغلب عليك ممن كانت هذه حاله منك ، وموقعه من نفسك .

[١٦ - الجاحظ يستعطف ابن الزيات بشيخوخته وفضاله عليه إبان

[شبابه]

ولو أنّ شيبتي التي بها استعطفتك ، وكبرة سني التي بها استرحمتك ، اللتان لم يحدثنا عليّ إلا وأنا في ذراك ، ولم يُحلاّ بي إلا وأنا في ظلك ، لكان في شفاعة الكبرة ، واسترحام الضعف والوهنة ، ما يردعك عني أشدّ الردع ، ويؤثر في طباعك أبين الأثر . فكيف وقد أكرمتني جديداً ، ثم تريد أن

تُهَيِّنِي خَلْقًا ، وَقَوِّتْ عِظْمِي أَغْلَظَ مَا كَانَ ، ثُمَّ تَرِيدُ أَنْ تُوَهِّنَهُ أَرْقُ مَا كَانَ .
وَهَلْ هَرِمْتُ إِلَّا فِي طَاعَتِكَ ، وَهَلْ أَخْلَقَنِي إِلَّا مَعَانَاةَ خِدْمَتِكَ ! .

قال علي بن أبي طالب : رأي الشيخ الضعيف أحب إلينا من جلد الشاب القوي .

وأنا أقول كما قال أخو ثقيف : مودة الأخ التالذ وإن أخلق خيراً من مودة الطارف وإن ظهرت بشاشته ، ورأعتك جدته .

وقال عبد الملك بن مروان : رأي الشيخ أحب إلينا من مشهد الغلام .

وقال بعضهم : ليس بغائب من شهد رأيه ، وليس بفانٍ من بقي أثره .

وما كمل العقل ولا وفر التجربة شيء كتنقصان البدن ، وكأخذ الأيام من قوى الأعضاء .

وقال آخر : ما قبح الرجال شيء كالوكال ، ولا أفسد الكريم شيء كحب الاستطراف . وخير الناس من أتبع العقاب مواقع الغضب ، ولم يتبع الغضب مواقع الهوى .

ولقد منحتك جلد شبابي كمالاً ، وغرّب نشاطي مقتبلاً ، وكان لك مهناه ، وثمرة قواه ، واحتملت دونك عرامه وغرّبه ، وكان لك غنمه وعليّ غرمه ، وأعطيتك عند إدبار بدني قوة رأيي ، وعند تكامل معرفتي نتيجة تجربتي ، واحتملت دونك وهن الكبر وإسقام الهرم .

وخير شركائك من أعطاك ما صفا ، وأخذ لنفسه ما كدر . وأفضل خلطائك من كفاك مؤونته ، وأحضرك معونته ، وكان كلاله عليه ، ونشاطه لك . وأكرم دخلائك وأشكر مؤمليك من لا يظن أنك تسعي جزيل ما تحتمل في بذلك ومواساتك مؤونة ، ولا تتابع إحسانك إليه نعمة ، بل يرى أن نعمة الشاكر فوق نعمة الواهب ، ونعمة الواد المخلص فوق نعمة الجواد المغني ؛ وأنه لا

يبلغ في إعطاء المجهود من نفسه في خلع جميع ما له إلى مؤمليه والمتحرمين به ، حُسن نية الشاكر الوامق ، وحقّ تمنّي الوادّ العارف .

ولو اقتضيت جميع حقوقك عليّ ، وأنكرت جميع حقوقي عليك ، أو جعلت حقّي عليك حقاً لك ، ثم زعمت أنّ حقك لا يؤدي إلى شكره ، وأنّ حقّي لا يلزم حكمه ، وأنّ إحساني إساءة ، وأنّ الصغير من ذنوبي كبير ، وأنّ اللّمم منّي إصرار ، وأنّ خطائي عمد ، وأنّ عمدي كلّه كفر ، وأنّ كفري يوجب القمع ويمنع من التزوع لِمَا كان عندك . وما اتسع قولي لأكثر من هذا العقاب ، ولا أشدّ من هذا الغضب . وما ينبغي أن يكون هذا المقدار من النقم إلا لبارئ النّسم في دار البقاء ، لا في دار الفناء . [و] الذي يجوز بين العباد إنّما هو تعزير أو حدّ ، أو قود أو قصاص ، أو حبس أو تغريب ، أو إغرام أو إسقاط عدالة ، أو إلزام اسم العداوة ، أو عقاب يجمع الألم والتقسيم والتكيل ، فيكون مفضّض الألم جزاءً له ومعذلاً لأسبابه .

وربّما قصر الإيقاع على السخط وجاوز حدّ الغضب . وربّما كان مقصوراً على مقدارهما ، ومحبوساً على نهاية حالهما .

وليس كلّ عقاب نتيجة سخط ، وقد لا يسمّى ذلك الموقع والمعاقب واجداً كما يسمّى ساخطاً ، ولا يسمّى عاتباً كما يسمّى غضبان ، فيخرج كما ترى من أن يسمّى سُخطاً أو موجدةً وغضباً ، كما خرج عقابُ آدم عليه السلام من هاتين الصّفتين ، ومن جميع القسمين . وعلى أنه كان إخراجاً من دار الخلد والكرامة إلى دار الابتلاء والمحنة ؛ ومع ما في ذلك من إعراء الجلد ، والتسمية بالظلم ، مع الوصف له بضعف العزم ، والاعتزاز بيمين الخصم .

والعجبُ أنك تضجر من طول مسألتنا لعفوك مع حاجتنا إلى عاجل عفوك ، ولا تضجرُ بطول تشاغلِكَ بظلم صديقك مع استغنائك عن ظلم صديقك . فلو كنت إنّما تفعل ذلك لأنك تلذُّ ضربَ السّياط ورضُ العظام ،

فَجُنِبَ « دندن » أحمل ، والسُّوطُ في ظهر قاسمٍ أحسن ، وأبدانهما تحت
السَّيَاطِ أثبت ، وإنَّ أرواحهما أبقى ، وهي بأرواح الكلاب أشبه ، وإلى طبائع
الضُّباب أقرب ، وأرحامهم بالحمير أمس ، ومن يُشير فيهم بذلك أكثر ، والأجر
في ضَرْبِهِمْ أعظم . فاستديم اللدَّة بطريق اللدَّة ، وضع الأمور في مواضعها
يطل سرورُك بها .

إنَّ عناق الخيل وأحرار الطير أدقُّ حسّاً ، وأشدُّ اكتراثاً . والكوادن الغلاظ
والمحامر الثقال ، أكلُّ حسّاً وأقلُّ اكتراثاً . وليس الصَّبر بالصَّمْتِ والسكوت ،
ولا بقلة الصَّياح والضُّموز . وقد يصيح تحت السُّوط من لا يقرُّ على صاحبه ،
ولا يدلُّ على عورة نفسه . والكلب المضروب يجمع الصَّياح والهرب ،
والفرس العتيق يعدو ولا يصيح ، والحافر كله كظوم ضامر ، والمخلب كله
ضجور صياح ، والضُّجر في الخفِّ عامٌ ، والبخاتي أضجر . فيمن الظلف
عامٌ ، وهو في الضَّان أخفى ، وكلُّ مضروب هارب صياح ، ومنها ما يجمع
الخصال كالكلب والبعير . والهرب من المكروه محمود ، والمقام عليه مذموم ؛
كالذي يعتري العير السقيم وتجدده في الفرس الكريم ، من قلة الاكتراث
وشدته .

وصبرُ البدن غير صبر النفس . وليس بقاء الأرواح المنعقدة تحت الضرب
الشديد من اعتزام النفس ، ولا يدلُّ على الكرم .

وفي المثل : « ما رُوح فلانٍ إلا رُوح كلب » . وتقول العرب : « الضَّبُّ
أطول شيءٍ دماءً » . والكلب لثيم ، والضَّبُّ غير كريم .

والبازي أكرم من الصُّقر وأشدُّ وأكثر ثمناً ، وأجمل جمالاً ، وأعفى
صيداً ، وأنبل نبلاً ؛ إن قبض عليه قتله ، وإن لم يُنحَّ كُنْذرتَه عن قربه أو هن
نفسه . ثم بلغ من رقة طبع البازي وعنته أنه ينقطع برِّد البازيار له إلى مسقطه
من يده . والصُّقر يتعلَّق بسبائقيه من رجل حمل بدرع فيضطرب منكساً إلى

الصُّبْح ، ثم تجده وكأنه لم يزل على كُنْدْرته وعلى مسقطه الذي يوتى له .
فليس بدني من أبدان الاحتمال فأمتعك بطول ثباته لك ، ولا أثبت لك
ثبات العَير الكليل الجِسِّ ، ولا أجعل الصُّباح دليلاً على الإقرار ، فيكون ذلك
أحد ما تتمتع به ، وتدرك به حاجاتِ نفسك .

[١٧ - عليك بمن احتجنا اموال الدولة]

وقد دلتك على ناس يجمعون لك الخصال التي خيها دوام لذتك ،
وتمام شهوتك ؛ فإن زعمت أن الذي يثبت روح دندن في بدنه ، وروح القاسم
في جسمه ، سرورهما بما قد احتجنا من كنوز الخلافة وأموال الرعية ، وليس
ذلك من رسوخ أرواحهما في أبدانهما ، ومن شدة الاحتجان وقوة الاكتناز ،
ففرق بينهما وبين تلك الأموال التي تمسك أرواحهما بالجيل اللطيفة ، والتدبير
النافذ ، وبأن تمضي فيهما حكم الكتاب والسنة ؛ فإنه سيحل عُقدة أرواحهما
عقداً عقداً ، فيعظم أجرك ، ويبطئ ذكرك ، وتطيع الخليفة ، وتتحبب به إلى
الامة ؛ فتكون قد أحسنت في صرف الضرب إلى أهله ، وأرحت منه غير
أهله .

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

* * *

تمت الرسالة بعون الله ومنه وتوفيقه ، والله الموفق للصواب برحمته ،
والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه ، وآله الطيبين
الطاهرين وسلامه .

١٦ - هامش رسالة الجدل والهزل

- (١) لم يمهد للرسالة بالمقدمة التقليدية التي عودنا عليها الجاحظ .
- « ومن خرج من جميع الاوزان وخالف جميع التعديل » يراد به ضرورة وجود توازن بين الذنب والعقوبة .
- (٢) الطوائل : جمع طائلة ، الوتر .
- لاحظ الوصف النفسي الدقيق للغيظ .
- (٣) التمييز بين الصديق والعدو ، والمحبة والمغض ، والخير والشرير ، ضرورة في العقوبة . والجاحظ يريد ان يقول انه صديق ودود وصاحب خير ، وبالتالي لا ينبغي عداوته وانزال العقاب فيه .
- التتابع والترع : التهافت والتسرع .
- (٤) حرب البسوس نشبت في الجاهلية بين قبيلتي بكر وتغلب بسبب رمي كليب ضرع ناقة البسوس ، خالة جساس ، مما حمل جساساً على قتل كليب . فاستمرت الحرب بين قبيلة (تغلب) وقبيلة جساس (بكر) .
- حرب داحس والغبراء نشبت بين قبيلتي عيس وذبيان (من قحطبان) بسبب نزاع على سبق الخيل بين الغبراء فرس سيد ذبيان وداحس حصان قيس بن زهير سيد عيس .
- (٥) لاحظ كيف يميز لغوياً بين الاناة والريث . ويستتج ان للكلمات استعمالين : استعمال وضعي واستعمال قيمي ، يعني بالاول استعمال الكلمة بمعناها الذي وضعت له اصلاً ، وبالتالي استعمال الكلمة بالمعنى الذي يتناسب مع اخواتها

في الجملة . وهذا ما انتهى اليه سوسير عندما تحدث عن قيمة الوحدات اللغوية
(راجع كتاب : محاضرات في الالسنية العامة) .

- الدهقان : زعيم الفلاحين الفرس .

(٦) اسباب جمع القرآن في مصحف هي حفظه من الضياع .

- الجاحظ يجمع كتبه في اواخر أيامه وينظمها .

- الجاحظ يقرأ كتبه وهو مستلق بسبب عجزه عن الانتصاب .

- لاحظ تأثره بالنايعة في تصوير فزعه من ابن الزيات كما فزع النايعة الشاعر
الجاهلي من النعمان ملك الحيرة :

وانك كالليل الذي هو مدركي وان خلت ان المتأى عنك واسع
وبت كاني ساورتني ضئيلة من النرقش في انيابها السم ناقع

(٧) ابن الزيات يكيد للجاحظ صحياً وعقلياً : يبدو ان الوزير نصح الجاحظ بعدم
ادمان القراءة في الليل اشفاقاً من العمى . ولكن الجاحظ ظن أنه يريد ان يتركه
جاهلاً .

(٨) لاحظ الاشارة الى انواع الورق المستعمل في الكتابة : الورق الصيني ، الكاغد
الخراساني ، الجلود .

(٩) ابن الزيات يشمت لعدم انجاب الجاحظ الاولاد : لاحظ المرارة التي تعترض
قلب الجاحظ بسبب ذلك « ما كان عليك ان يكون لي ولد يحيي ذكري ويحوي
ميراثي ، ولا اخرج من الدنيا بحسرتي » او يقول معيراً من حسرته تلك « وما كان
عليك مع كبر سني وضعف ركني ان يكون لي ربحانة أشمها وثمره اضمها وان
اجد الى الاماني ميبا » .

(١٠) الجاحظ يتهم ابن الزيات بالكيد لقتله .

- الزياء : ملكة تدمر - ابن العاص : عمرو بن العاص - ابن هند : عمرو بن هند
ملك الحيرة اخو ثقيف : الحجاج بن يوسف الثقفي - ابن سمية : زياد ابن ابيه .

(١١) دم الغضب : استطراد ، لأنه تكلم عليه في صدر الرسالة .

(١٢) يطرق الجاحظ هنا موضوعاً لغوياً هاماً هو علاقة الاسماء بالمعاني . انظر تشبيهه
المعنى بالروح ، والاسم بالجسد . وقد ورد هذا الشبه ايضاً في البيان والتبيين

(١٣) اسباب العداوات : تنافس الجيران والاقارب ، تحاسد اصحاب الصناعات ، تكلم
عليها في امكان اخرى من كتبه - النحلة التي يجمعها الوزير والجاحظ هي
الاعتزال .

- الزبر : العقل والرأي وقد وردت خطأ زبرب في طبعة عبد السلام هارون .
- (١٤) « استغمرتني واستضعفتني وجعلتني فروج الرفاء » تعبير نجده عند المعري .
- (١٥) تعاون الاصدقاء كتعاون جوارح الجسم ؟
- (١٦) « اني استرحمك بكبرة سني » : لاحظ ضعف الشيخوخة .
- (١٧) القاسم وديدن : يبدو أنهما ممن احتجن مال الدولة ، وهما يستحقان العقاب بنظر الجاحظ وليس هو .



مركز تحقيقات كميبيوتر علوم إسلامي

- ١٧ -

فصل ما بين العداوة والحسد



مركز تحقيقات كميوتير علوم ارسدي

[١ - فضل هذا الكتاب]

أصبحَ الله مدَّتكَ السَّعادةَ والسَّلامَةَ ، وقرَنها بالعافية والسُّرورَ ، ووصلها
بالنعمة التي لا تُزول ، والكرامة التي لا تُحول .
هذا كتابٌ - أطال الله بقاءك - نيلٌ بارع ، فُصِّل فيه بين الحَسَدِ
والعداوة ، ولم يسبقني إليه أحدٌ ولا إلى كتاب فضل الوعد الذي تقدَّم هذا
الكتاب ، ولا إلى كتاب أخلاق الوزراء الذي تقدَّم كتاب فضل الوعد .

وإنما نُبلت هذه الكتب وحُسنت وبرَّعت ، وبدت غيرها لمشاكلتها
شرفَ الأشراف ، بما فيها من الأخبار الأنيقة الغريبة ، والأثار الحسنة اللطيفة ،
والأحاديث الباعثة على الأخلاق المحمودة ، والمكارم الباقية الماثورة ، مع ما
تضمَّنَّته من سِير الملوك والخلفاء ووزرائهم وأتباعهم ، وما جرت عليه
أحوالهم .

فأنا أسألك بساطع كرمك وناصر فضلك ، لِمَا امتننت عليَّ بصرف
عنايتك إلى قراءتها ، فإن لم يمكنك تبخُّرها والتقصِّي لجمعها ، للأشغال التي
تعروك ، فبحسبك أن تقف على حدودها ، وتتعرف معاني أبوابها بتصفح

أوائلها ؛ فإنَّ معك قلباً به من اليقظة والذكاء ، والتوقُّد والحفظ ، ما يكفي معه
النظر الخاطف .

[٢ - حساد المؤلفين]

إنه لم يخلُ زمنٌ من الأزمان فيما مضى من القرون الذاهبة إلا وفيه
علماء محقِّون ، قد قرأوا كتب من تقدّمهم ، ودارسوا أهلها ، ومارسوا
[الموافقين] لهم ، وعانوا المخالفين عليهم ، فمخضوا الحكمة وعجموا
عيدانها ، ووقفوا على حدود العلوم ، فحفظوا الأمهات والأصول ، وعرفوا
الشرائع والفروع ، ففرقوا ما بين الأشباه والنظائر ، وصاقبوا بين الأشكال
والأجناس ، ووصلوا بين المتجاور والمتوازي ، واستنبطوا الغامض الباطن
بالظاهر البين ، واستظهروا على الخفي المشكل بالمكشوف المعروف ، وعرفوا
بالفهم الثاقب والعلم الناصع ، وقضت لهم المحنة بالذكاء والفتنة ، فوضعوا
الكتب في ضروب العلوم وفنون الآداب لأهل زمانهم ، والأخلاف من بعدهم .
يزدلفون بذلك إلى الممتن عليهم بفضل المعرفة التي ركبها الله فيهم ، وأبانهم
من غيرهم ، وفضلهم عليهم ، ويباهون به الأمم المخالفة لهم ، ويتبارون
بذلك فيما بينهم ، ولهم حسادٌ معارضون من أهل زمانهم في تلك العلوم
والكتب ، متحلّة يدعون مثل دعاويهم ، قد وسموا أنفسهم بسمات الباطل ،
وتسموا بأسماء العلم على المجاز من غير حقيقة ، ولبسوا لباس الزور
متزخرفين متشبعين بما لا محصول له ، يحتذون أمثلة المحقِّين في زيهم
وهديهم ، ويقتفون آثارهم في ألفاظهم وأحاديثهم ، وحركاتهم وإشاراتهم ،
لينسبوا إليهم ويحلّوا محلّهم ، فاستمالوا بهذه الحيلة قلوب ضعفاء العامة ،
وجهلاء الملوك ، واتخذهم المعادون للعلماء المحقِّين عدّة يستظهرون بهم عند
العامة . وحمل المدّعية للعلم المزور الحسد على يهت العلماء المحقِّين ،

وَعَضُّهُمْ وَالطَّعْنَ عَلَيْهِمْ ، وَجَرَّاهُمْ عَلَى ذَلِكَ مَا رَأَوْا مِنْ صَفْوِ ضَعْفَةِ الْقُلُوبِ
وَإِذْلَةِ النَّاسِ إِلَيْهِمْ ، وَمِيلِ جِهْلَاءِ الْمُلُوكِ مَعَهُمْ عَلَيْهِمْ ، وَأَمَلُوا أَنْ يَنَالُوا بِذَلِكَ
بِشَاشَةِ الْعَامَةِ ، وَتَسْتَوِيَّ لَهُمُ الرِّيَاسَةَ عَلَى طَعَامِ النَّاسِ وَرَعَاعِهِمْ ، وَيَسْتَخُولُوا
رُغَائِهِمْ وَقَوْمَهُمْ ، فَهَمَّرُوا وَهَدَّرُوا وَتَوَرَّدُوا عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ بِغِبَاوَتِهِمْ ، وَكَشَفُوا
أَغْطِيَةَ الْجَهْلِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَهَتَكُوا سِتْرًا كَانَ مُسَدِّلاً عَلَيْهِمْ بِالصُّمْتِ . فَقَدْ
قِيلَ : « الصَّمْتُ زَيْنُ الْعَالَمِ ، وَسِتْرُ الْجَاهِلِ » ؛ طَمَعًا فِي الرِّيَاسَةِ وَحُبًّا لَهَا .
وَقَدْ قِيلَ :

حُبُّ الرِّيَاسَةِ دَاءٌ لَا دَوَاءَ لَهُ وَقَلَّمَا تَجَدُّ الدَّرَاضِينَ بِالْقَسَمِ

وَلَمْ يَخُلْ زَمَنٌ مِنَ الْأَزْمِنَةِ مِنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ وَلَا يَخْلُو . وَهَلَاكٌ مِنْ هَلَاكِ
مِنِ الْأُمَمِ فِيمَا سَلَفَ بِحُبِّ الرِّيَاسَةِ . وَكَذَلِكَ مِنْ يَهْلِكُ إِلَى انْقِضَاءِ الدَّهْرِ
فِيحُبِّ الرِّيَاسَةِ .

وَقَدْ قِيلَ : هَلَاكُ النَّاسِ مِنْذَرٌ كَانُوا إِلَى أَنْ تَأْتِيَ السَّاعَةُ بِحُبِّ الْأَمْرِ
وَالنَّهْيِ ، وَحُبِّ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ .
فَأَشْكَلَ عَلَى الْعَامَّةِ أَمْرُ الْعَالَمِ الْحَقِيقِيِّ وَالْمُدَّعِيِ الْمَجَارِيِّ الْمُتَحَلِّ
لِلزُّورِ وَالْبَاطِلِ ؛ ثُمَّ تَرَادَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ هَذِهِ الْعِلَلِ الَّتِي يَعْمَى لَهَا السَّبِيلُ الْوَاضِحُ
وَالطَّرِيقُ الْمُنشَأُ ، عَلَى الْجَاهِلِ الْمُسْتَضْعَفِ ؛ وَذِي الْغَبَاءِ الْمُسْتَرْهَفِ .

[٣ - مُتَحَلُّو كِتَابِ الْجَاحِظِ]

وَلَسْتُ آمِنٌ - جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ - أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْكُتُبُ الَّتِي أُعْنَى
بِتَأْلِيفِهَا ، وَأَتَأْتِقُ فِي تَرْصِيفِهَا ، يَتَوَلَّى عَرْضَهَا عَلَيْكَ مِنْ قَدْ لَيْسَ لِبِئْسَ الزُّورِ
فِي انْتِحَالِ وَضْعِ مِثْلِهَا ، وَنَسَبِ نَفْسِهِ إِلَى الْقُوَّةِ عَلَى نِظَائِرِهَا ، وَالْمَعْرِفَةِ بِمَا
يُقَارِبُهَا ، إِنْ لَمْ يَكُنْ أَخَاهَا فَابْنَ عَمِّهَا ، وَتَشَبَّعَ بِمَا لَمْ يُطْعَمَهُ اللَّهُ مِنْهَا .

ولعلَّ بعضَ من حَوَله ، أو بعض من يهزل به ، ويرتفع في عقله ويلهو بلبه ، ويضعه على طَبْطابة اللَّعب ، وفي أرجوحة العبث ، يوهمه الحسد له على ما يدَّعي من ذلك ، ويتقدَّم إلى آخرين في إيهامهم إياه ذلك ، فيزيده فعلهم ضراوةً بادِّعاء ما ليس معه وهو منه عارٍ . فإذا رجع إلى الحقائق علم أنَّ مثله كما قد قيل :

ومن يَسكن البحريين يعظم طحالَه ويُغبطُ بما في البطن والبطنُ جائع

وقد قيل : « الذئب يُغبطُ وهو جائع » . فيلتوي في قراءتها ، ويقبض لسانه عن بسطِ ما يحتاج أن ينشره منها ، ويقصِّر في تفخيم حروفها ولا يملأ فمَه منها .

[٤ - الطاعنون على كتب الجاحظ]

بل لا آمن أن يتجاوز ذلك إلى الطعن عليها بقولٍ أو إشارة ، فيوهم فسادَ معانيها ويؤمِّي إلى سقوط الماظها ، من غير أن يُظهر المعادة لها ، والحسدَ لمؤلَّفها ، والحمل عليها بقولٍ يكون دليلاً على ما يضمُر ، وهو أبلغ ما يكون من قلب المستمع وأنجعُه فيه ، فيقع ذلك بخَلده . وقد قيل : « مَنْ يَسْمَعُ يَخْلُ » .

وليس يقابله أحدٌ برِدٍّ ، ولا يوازيه بنزاع ، فيزداد نشاطاً عندما يرى من خلاء الأمر . وقد قيل : « كلُّ مُجرٍ في الخلاء يُسرُّ » وكلُّ مناظر متفرِّدٍ بالنظر مسرور ، وإنَّما يُعرَف جريُّ الخيل عند المسابقة ، وبراعةُ النظر عند المخاصمة .

وقال لي بشرُّ المريسي : عُرض كتابي على المأمون في تحليل النُبَيْدِ ،

وبحضرته محمد بن أبي العباس الطوسي ، فانبرى للطعن عليه والمعارضة للحجج التي فيه ، وأسهب في ذلك وخطب ، وأكثر وأطنب ، فقلق المأمون واحتدم ، وهاج واضطرم ؛ لاستحقار الطوسي وخلاء المجلس له ، وكان يحب أن يزعه وازع يكفه بحجة تسكته ، فلما لم ير أحداً بحضرته يذب عن كتابي قال متمثلاً :

يا لك من قبرة بمعمر
خلالك الجو فيضي واصفري
ونقري ما شئت أن تنقري

فما كان إلا ريث فراغه من التمثل بهذه الأبيات حتى استؤذن لي فدخلت عليه ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ، ما تقول في النيذ ؟ فقلت : جل طلق يا أمير المؤمنين . فقال : فما تقول فيما أسكر كثيره ؟ قلت : لعن الله قليله إذا لم يسكر [إلا] كثيره . ثم قال : إن محمداً يخالفك . فأقبلت على ابن أبي العباس فقلت له : ما تقول فيما قال أمير المؤمنين ؟ قال : لا خلاف بيني وبينك [و] كلاماً يوهم به أهل المجلس ، حباً للتسلم مني والتخلص من مناظرتي ، لا على حقيقة التحليل له . فاستغنمت ذلك منه وقلت له : فما لي لا أرى أثر قواه في عقلك ؟ فضحك المأمون ، فلما رأيت ضحكه أطنبت في معاني تحليل النيذ ، وابن أبي العباس ساكت لا ينطق ، وكان قبل دخولي ناطقاً لا يسكت . فلما رأى المأمون سكوته عند حضوري مع كثرة كلامه في ثلب كتابي وعييه - كان - قبل دخولي ، قال متمثلاً :

مالك لا تبع يا كلب الدوم
قد كنت نباحاً فمالك اليوم

[٥ - أبناء النعم محسودون]

ثم نظر إليّ فقال : إن الكتب عقول قوم وراءها عندهم حجج لها ، فما

ينبغي أن يُقضى على كتابٍ إلا إذا كان له دافع عنه ، وَخَصْمٌ يُبَيِّنُ عَمَّا فِيهِ ؛
فإن أبناء النعم وأولاد الأسد محسودون .

ثم قال : يا أبا عبد الرحمن ، بإزاء كل حاسد راهن .

وقد قيل في مثلٍ من الأمثال : « الحَسَنُ محسودٌ » . وفي مثلٍ آخر :
« لن تعدم الحسناءُ ذاماً » . وقال الأحنف بن قيس :

ولن تصادفَ مَرَعِيَّ ممرعاً أبداً إلا وجدت به آثار مأكولٍ

يقول : يُعَاثُ في كلِّ [مرعى] حَسَنٍ ويؤكل منه ، فيعيبه ذلك .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « ما أحدث الله عبداً نعمةً إلا
وجدت له عليها حاسداً . ولو أن امرأً كان أقومَ من القِدْحِ لوجدت له غامزاً » .

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : الحاسد لا يملك إلا عنان
حَسَدِهِ ؛ لأنه مغلوبٌ على نفسه .

وقال الخطَّاب بن نمير السعدي : الحاسد مجنون ؛ لأنه يحسد الحسن
والقبيح .

[٦ - فصل ما بين العداوة والحسد]

وقال المهلب بن أبي صفرة : الحسد شهابٌ لا يبالي من أصاب ، وعلى
من وقع .

والعداوة لها عقل تسوس به نفسها فينجم قرنها ، وتبدي صفحاتها في
أوقات الهتر . وإلا فإنها كامنَةٌ تنتهز أزمته الفرص . والحسد مسلوب المعقول
بإزاء الضمير في كلِّ حينٍ وزمانٍ ووقت .

ومن لؤم الحسد أنه موكل بالأدنى فالأدنى ، والأخص فالأخص . والعداوة وإن كانت تقبح الحسن فهي دون الحسد ؛ لأن العدو المبين قد يحول ولياً منافقاً ، كما يحول المولى المنافق عدوياً مبيناً .

والحاسد لا يزول عن طريقته إلا بزوال المحسود عليه عنده . والعداوة تحدث لعلّة ، فإذا زالت العلة زالت معها . والحسد تركيب لعلّة يحسد عليها فهو لا يزول إلا بزوالها . ومن هذا قال معاوية رحمه الله : يمكنني أن أرضي الناس كلهم إلا حاسد نعمة ، فإنه لا يرضيه منها إلا زوالها .

وأعداء النعمة إذا شوركوا فيها ونالوا منها تزحزحوا عن عداوتها ، وكانوا من أهلها المحامين عنها ، والدافعين عن حماها .

ومن هذا قال المغيرة بن شعبة : النعمة التي يُعاش فيها نعمة محروسة ليس عليها نثار يفتالها ، ولا ذو حسد يحتال في غيرها .

وقال قتيبة بن مسلم : خير الخير وأحصنه خير عيش فيه . وكل خير كان يُرضخ بدلاً كان من المتألف ممنوعاً ، ومن الغير آمننا

وحساد النعمة إن أعطوا منها وتبجحوا فيها ، ازدادوا عليها غيظاً وبها إغراء .

والعداوة تُخلق وتُمل ، والحسد غص جديد ، حرم أو أعطي ، لا يبىد . فكل حاسد عدو ، وليس كل عدو بحاسد . وإنما حمل اليهود على الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم - وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم أنه نبي صادق ورسول مُحَقَّق ، يقرأون بعثه في توراتهم ، ويتدارسونه في بيت مدراسهم - الحسد ، وحجز بين علمائهم والإيمان به ، ثم نتج لهم الحسدُ عداوته .

ومن الدليل على أن الحسد آلم وآذى وأوجع وأوضع من العداوة ، أنه مُغريٌّ بفعل الله عز وجل ، والعداوة عارية من ذلك لا تتصل إذا اتصلت إلا

بأفعال العباد . ولا يُعَادَى على فعل الله تباركت أسماؤه ألا ترى أنك لم تسمع أحداً عَادَى أحداً لأنه حسن الصورة جميل المحاسن ، فصيح اللسان حسن البيان . وقد رأيت حاسداً هذه الطبقة وسمعت به ، وهم كثير تعرفهم بالخبر والمشاهدة .

فهذا دليل على أن الحسد لا يكون إلا عن فساد الطبع ، واعوجاج التركيب ، واضطراب السوس .

والحسد أخو الكذب ، يجريان في مضمنا واحد ؛ فهما أليفان لا يفترقان ، وضجيعان لا يتباينان . والعداوة قد تخلو من الكذب ؛ ألا ترى أن أولياء الله قد عادوا أعداء الله إذ لم يستحلوا أن يكذبوا عليهم !؟ والحسد لا يبرأ من البهت ، وكيف يبرأ منه وهو عموده الذي عليه يعتمد ، وأساسه الذي به البناء يُعقد . وأنشد :

كضرائر الحسناء قلن لوجهها كذباً وروراً إنه لدميم

والحسد نارٌ وقوده الروح ، لا تبوخ أبداً أو يقنى الوقود . والحسد لا يبلى إلا يبلى المحسود أو الحاسد . والعداوة جمر يُوقده الغضب ، ويطفئه الرضا . فهو مؤمل الرجوع مرجو الإجابة . والحسد جوهرٌ والعداوة اكتساب .

وقال بعضهم : الحسد أنثى ، لأنه ذليل ؛ والعداوة ذكرٌ فحل ، لأنها عزيزة .

والحسد وإن كان موكلاً بالأدنى فالأدنى فإنه لم يعر منه الأبعد فالأبعد . فقد رأينا وشاهدنا من كان يسكن العراق ويتحل العلم والأدب ، انتهى إليه خبرٌ مشارك له في الصناعة من أهل خراسان وجنبة بلخ من أساق الرياسة في بلده ، وجميل حاله وتبيل محله عند أهل مصره ، وطاعة العامة له ، وترادف الناس عليه ، فطار قلبه فرقاً ، وأخذته الأرباء ، وتنفس الصعداء وانتفض

انتفاض المفسر الممطور ، فقال لي رجلٌ من إخواني كان عن يميني ، حين رأى ما رأى منه : بحق قال من قال : « لم يرَ ظالم أشبه بمظلوم من حاسدٍ نعمة ؛ فإنَّ نفسه متصل ، وكرهه دائم ، وفكرته لا تنام » .

وهو في أهل العلم أكثر ، وعليهم أغلب ، وبهم أشدُّ لصوقاً منه بغيرهم من الملوك والسوقة . وكأنَّ من ناله التقصير في صناعة العلم عن غايته القصوى قد استشعر حسدَ كلِّ ما يردُّ عليه من طريف أدبٍ ، أو أنيق كلام ، أو بديع معنى . بل قد وقع بخلده لضعفه ، وقرَّ في روعه لخساسته ، أنه لا ينال أحدٌ منهم رياسةً في صناعة ، ولا يتهيأ له سياسةُ أهلها ، إلا بالطعن على نواصيهم ، والعيب لجلَّتهم ، والتحييف لحقوقهم .

قال لي مسلم بن الوليد الأنصاري الشاعر ، الذي يُعرف بصريح الغواني : خيَّل إلى نوكى الشعراء أنهم لا يُقضى لهم بجودة الشعر إلا بهجائي والطعن في شعري ، ولسانٌ يهجى به عرضي ، لا أنفكُ متهما من غير جرم ، إلا ما سبق إلى قلوبهم من وساوس الظنون والخواطر التي أوهمتهم أنه لا يسجل لهم بجودة الشعر إلا إذا استعملوا في ما خيَّل إليهم .

وأخبرني أشياخنا من أهل خراسان أن أبا الصلت الهروي كان عند الفضل بن سهل ذي الرياستين بمرو ، فقرأ عليه كتاباً ألفه النضر بن شميل ، فطعن أبو الصلت فيه ، وكان الفضل عارفاً بالنضر الشميلي ، واثقاً بعلمه ، مائلاً إليه ، فأقبل على أبي الصلت وقال له : إن يحيى بن خالد قال يوماً : إن كتبي لتعرض على من يغلظ فهمه عن معرفتها ، ويجسو ذهنه عنها ، ولا يبلغ أقصى علمه ما فيها - يُعرض بإسماعيل بن صبيح - فيطعن فيها ولا يدري ما يُقرأ عليه منها . إلا أن نار الحسد تلهبه فيهدي هذيان المريض ، ويهمز همزات الغيرى ، ثم لا يرضى أن يقف عند أول الطعن ويميل عنه حتى يستقصي على نفسه إظهار جهله عند أهل المعرفة ، باستيعابه الطعن على ما

لم يبلغ درايته ، ولم يُحِط به علمه ، ثم يُنسيه جهله الطُّعَنَ الذي تقدّم منه فيها ، ويَحمله نوْكه على استعمال معانيها وألفاظها ، في كتبه إلى إخوانه وأعوانه الذين شهدوه في أوانِ طعنه عليها ، وحين تلبه لها .

[٧ - بعض الكتاب يسرقون كتب الجاحظ أو قسماً منها]

وقد عرفت حقيقة ما قال يحيى بن خالد بالتجربة والابتلاء . وإني ربّما ألفت الكتاب المحكم المتقن في الدين والفقّه ، والرسائل والسيرة ، والمُخَطَب والخراج والأحكام ، وسائر فنون الحكمة ، وأنسبه إلى نفسي ، فيتواطأ على الطُّعَن فيه جماعة من أهل العلم ، بالحسد المركّب فيهم ، وهم يعرفون براعته ونصاعته . وأكثر ما يكون هذا منهم إذا كان الكتاب مؤلفاً لمليك معه المقدرّة على التقديم والتأخير ، والحطّ والرّفْع ، [والترغيب] والترهيب ، فإنهم يهتاجون عند ذلك احتياج الإبل المغتلمة ، فإن أمكنتهم حيلة في إسقاط ذلك الكتاب عند السيّد الذي أُلّف له فهو الذي قصده وأرادوه ، وإن كان السيّد المؤلفُ فيه الكتاب بحريراً نقاباً ، ونفسياً بليغاً ، وحاذقاً فطناً ، وأعجزتهم الحيلة ، سرقوا معاني ذلك الكتاب وألفوا من أعراضه وحواشيه كتاباً ، وأهدوه إلى ملك آخر ، ومثوا إليه به ، وهم قد ذمّوه وتلبّوه لما راوه منسوباً إليّ ، وموسوماً بي .

[٨ - الجاحظ ينحل كتبه غيره لتروج]

وربّما ألفت الكتاب الذي هو دورته في معانيه وألفاظه ، فأترجمه باسم غيري ، وأحيله على من تقدّمني عصره مثل ابن المقفّع والخليل ، وسلم صاحب بيت الحكمة ، ويحيى بن خالد ، والعنّابي ، ومن أشبه هؤلاء من مؤلّفي الكتب ، فيأتيني أولئك القوم بأعيانهم الطاعنون على الكتاب الذي كان

أَحْكَمَ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ ، لِاسْتِنْسَاحِ هَذَا الْكِتَابِ وَقِرَاءَتِهِ عَلَيَّ ، وَيَكْتُبُونَهُ بِخُطُوطِهِمْ ، وَيَصَيِّرُونَهُ إِمَاماً يَقْتَدُونَ بِهِ ، وَيَتَدَارِسُونَهُ بَيْنَهُمْ ، وَيَتَأَدَّبُونَ بِهِ ، وَيَسْتَعْمَلُونَ أَلْفَاظَهُ وَمَعَانِيَهُ فِي كِتَابِهِمْ وَخُطَابَاتِهِمْ ، وَيُرْوُونَهُ عَنِّي لِغَيْرِهِمْ مِنْ طُلَّابِ ذَلِكَ الْجِنْسِ فَتَثَبَتْ لَهُمْ بِهِ رِيَاسَةٌ ، [وَ] يَأْتُمُّ بِهِمْ قَوْمٌ فِيهِ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَتَرَجَّمْ بِاسْمِي ، وَلَمْ يُنَسَبْ إِلَى تَأْلِيفِي .

[٩ - الْجَاهِظُ يَتْرِكُ بَعْضَ الْكُتُبِ غَفْلاً إِشْفَاقاً مِنَ الطَّعْنِ عَلَيْهَا]

وَلَرُبَّمَا خَرَجَ الْكِتَابُ مِنْ تَحْتِ يَدِي مُحَصَّفاً كَأَنَّهُ مَتْنٌ حَجَرٍ أَمْلَسَ ، بِمَعَانٍ لَطِيفَةٍ مُحْكَمَةٍ ، وَأَلْفَاظٍ شَرِيفَةٍ فَصِيحَةٍ ، فَأَخَافُ عَلَيْهِ طَعْنَ الْحَاسِدِينَ إِنْ أَنَا نَسَبْتُهُ إِلَى نَفْسِي ، وَأَحْسَدُ عَلَيْهِ مِنْ أَهْمٍ بِنَسْبَتِهِ إِلَيْهِ لِحُجُودَةِ نِظَامِهِ وَحَسَنِ كَلَامِهِ ، فَأُظْهِرُهُ مُبْهِمًا غَفْلاً فِي أَعْرَاضِ أَصُولِ الْكُتُبِ الَّتِي لَا يُعْرَفُ وَضَاعُهَا ، فَيُنْهَالُونَ عَلَيْهِ انْهِيَالَ الرَّمْلِ ، وَيَسْتَبِقُونَ إِلَى قِرَاءَتِهِ سِبَاقَ الْخَيْلِ يَوْمَ الْحَلْبَةِ إِلَى غَايَتِهَا .

مركز تحقيقات كويتية للدراسات والبحوث

[١٠ - عَوْدَةُ إِلَى الْحَسَدِ وَالْعَدَاوَةِ]

وَحَسَدُ الْجَاهِلِ أَهْوَنُ شَوْكَةً وَأَذَلُّ مِحْنًا ، مِنْ حَسَدِ الْعَارِفِ الْفَظِنِ ؛ لِأَنَّ الْحَاسِدَ الْجَاهِلَ يَبْتَدِرُ إِلَى الطَّعْنِ عَلَى الْكِتَابِ فِي أَوَّلِ وَهْلَةٍ يُقْرَأُ عَلَيْهِ ، مِنْ قَبْلِ اسْتِمَامِ قِرَاءَتِهِ وَرَقَةً وَاحِدَةً ؛ ثُمَّ لَا يَرْضَى بِأَيْسَرِ الطَّعْنِ وَأَخْفِهِ حَتَّى يَبْلُغَ مِنْهُ إِلَى أَشَدِّهِ وَأَغْلَظِهِ ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَقِفَ عَلَى فِصُولِهِ وَحُدُودِهِ . وَلَيْسَ ثَلْبُهُ مَفْسُراً مَفْصُلاً ، وَلَكِنَّهُ يُجْمَلُ ذَلِكَ وَيَقُولُ : هَذَا خَطَأٌ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ ، وَبَاطِلٌ مِنْ ابْتِدَائِهِ إِلَى انْقِضَائِهِ ، وَيَحْسِبُ أَنَّهُ كَلِمَا إِزْدَادٍ إِغْرَاقاً وَطَعْنًا وَإِطْنَابًا فِي الْحَمْلِ عَلَى وَاضِعِ الْكِتَابِ ، كَانَ ذَلِكَ أَقْرَبَ إِلَى الْقَبُولِ مِنْهُ . وَهِيَ لَا يَعْلَمُ أَنَّ الْمَسْتَمِعَ إِلَيْهِ إِذَا ظَهَرَ مِنْهُ عَلَى هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ اسْتَحْفَتْ بِهِ ، وَبَكَتَهُ بِالْجَهْلِ ،

وعلم أنه قد حكم من غير استبراء ، وقضى بغير روية ، فسقط عنه وبطل .

والحاسد العارف الذي فيه تقية ومعه مسكة ، وبه طعم أو حياة ، إذا أراد أن يغال الكتاب ويحتال في إسقاطه ، تصفح أوراقه ووقف على حدوده ومفاصله ، وردد فيه بصره وراجع فكره ، وأظهر عند السيد الذي هو بحضرتة وجلسائه ، من الثبوت والتأني حباله يقتنص بها قلوبهم ، وسبباً يسترعي به البابهم ، وسألما يرتقي به إلى مراده منهم ، وبساطاً يفرش عليه مصارع الخدع . فيوهم به القصد إلى الحق والاجتباء له . فربما استرعى بهذه المخاتل والخدع قلب السيد الحازم .

فمن أعظم البلايا وأكبر المصائب على مؤلفي الكتب إذا كان العارض لها على السيد الذي منه تُرجى أئمانها ، وعنده تنفق بضائع أهلها ، على هذه الصفة التي وصفتها من الحسد والحذق بأسبابه ، والمعرفة بالوجوه التي تثلم المحسود وتهده ، وتضع منه ومن كتبه : لا سيما إن كان مع استبطان الحسد واستعمال الدهاء والذكاء جليسا لازما ، وتابعا لا يفارق ، ومحدثا لا يريم ، وليست له رعة تحجره عن الباطل ، ولا معه حذر يعثه على الفكر في العواقب ؛ فإن هذا ربما وافق فترة السيد بطول ترداد الكلام ، وكثرة تكراره عليه ، من تأكيد خطائه ، ونصرتة قوله ، وزيادته عنه ، واحتجاجه فيه ، فيؤثر في قلبه ، ويضجع رأيه . فليس للسيد الذي يحب أن تصير إليه الأمور على حقائقها ، وتصور له الأشياء على هيئاتها ، حيلة في ذلك إلا حسم مادة هذا من أهل الحسد ، بالإعراض عنهم ، والاحتجاز دونهم .

وربما بلغ من الحاسد جهد الحسد إذا لم يعمل بشهوته ، ولم تنفذ سهام لطائفه ، أن يقر على نفسه بالخطأ ، ويعترف أن الطعن الذي كان منه في الكتاب عن سهو وغفلة ، وأنه لم يكن بلغ منه في الاستقصاء ما أراد ، وكان مشغول الفكر مقسم الذهن ، فلما فرغ له ذهنه وانفرد له هممه راجع ما

كان بدر منه ، لتُظنُّ به الرِّعةُ ، ويقالُ إنَّه لم يرجع عن قوله واعترف بالخطأ إلا من عقل وازع ، ودين خالص . وإنما ذلك حيلة منه ودهاء قدَّمه أمام ما يريد أن يؤكد لنفسه ويوطد لها ، من قبول القول في سائر ما يرد عليه من الكتب عن غير موافقة على مواضع ، ويجعل ما قد تقدَّم له من الرجوع عن قوله عند ما تبين له خلاف ما قال ، أوثق أسباب عدالته ، وأحكم عُرى نصفته .

وكان يقال : من لطيف ما يستدعي به الصدق إظهار الشك في الخبر الذي [لا] يشك فيه .

وكان يقال : من غامض الرياء أن ترى بأنك لا تراني . ومن أبلغ الطعن على ما تريد الطعن عليه أن تطعن ثم تستغفر الله ، ثم تتمهل فترة ، ثم تعود لظعنٍ هو أعظم منه وأطم من الأول ؛ ليوثق بك فيه ، ويقال : إن هذا لو كان عن حسدٍ ما رجع عن الطعن الأول .

وقد قيل : ذو الغيبة المشهورُ بها المنسوب إليها يقلُّ ضرره ، ويضعف كيده ، لما شاع له في الناس وانتشر منه ، فكان عندهم ظنينا متهماً ، ومطبوراً عليها ، يستمعون منه على قضاء ذمام المجالسة والتلذذ به ، من غير قبول ولا اصطفاء له .

وإنما البلية في غيبة حُذاق المغتابين الذين يسمعون ، فيضحكون ولا يتكلمون . وأحذق منهم الذين يستمعون ويُسكتون القائل ويدعون الله بالصَّلاح للمقول فيه ، فهم قد أسكتوا القائل المغتاب ودعوا للمقول فيه ، وأوكدوا قول القائل ؛ لأنه لو حلَّ عندهم محلُّ البراءة مما قيل له لجُبَّه القائل ورُدع عن قوله .

وقد قال بعض العلماء : إن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود كان من نبلاء المغتابين وحُذاقهم حيث يقول :

فُسا تُرابَ الأرض ، منه خُلِقْتُمَا
 ولا تعجبيا أن تُوتَيَا وتعظُما
 فلو شئت أدلى فيكما غير واحد
 فإن أنا لم أمر ولم أنسه عنكما
 وفيها المعاد والمصير إلى الحشر
 فما حُشِيَ الإنسانُ شرّاً من الكبر
 علانيةً أو قال ذلك في سرّ
 ضجكتُ له حتى يلجّ فيستشري

ومن هذا سرق العتابيُّ المعنى حيث يقول :

إن كنت لا تحذر شُمتي لما
 فاخش سكوتي سامعاً ضاحكاً
 مقالةُ السوء إلى أهلها
 ومن دعا الناس إلى ذمّه
 تعرف من صفحي عن الجاهل
 فيك لمشروع من القائل
 أسرع من منحدر سائل
 ذمّوه بالحق وبالباطل

وسئل القاسم بن معن عن أبي ليلى ، فقلّب كفيّه وقال :

من الناس من يخفي أبوه وجده
 وجدُّ أبي ليلى كالبدر ظاهر

فلم تثبت عليه به حجة في ذم له ولا مدح . وقد بلغ ما أراد .

وسئل يوماً عن علمه فقال : أوغوه وطباً ، فإن كان محضاً أو مشوباً أظهره
 الوطب وما خضوه .

فإن قدح - جعلني الله فداك - بالحسدِ قادح فيما أولفه من كتابي لك ،
 وسبق إلى وهمك شك فيه ، أعلمتني النكتة التي قدح فيها ، ثم قابله
 بجوابي ، فلاني أرجو ألا تحتاج إلى حاكم عند نجائي القولين بين يديك ،
 لعلّ الحق على الباطل ، ودموغه إياه .

والحسد أذلُّ نفساً من أن يُجائني أحداً ، والعداوة إنما قدّمت عليه لأنها
 عزيزة منيعة .

ويقال : الحسد لا يبدو إلا في العين وعلى اللسان المقصور عند أهله
المؤتلفين على . . . والعداوة تبدو وتنجم قرونها وينبسط لسانها عند الموافقين
له والمخالفين عليه .

وسئل خالد بن صفوان عن شبيب بن شيبسة فقال : ذاك امرؤ يبسط
بالحسد وجبيل عليه ، فليس له أخ في السر ولا عدو في العلانية .

وسئل العتّابي عن أهل بغداد فقال : حَسَادُ ، إخوانُ العلانية ، وأعداءُ
السُّريرة ، يعطونك الكلّ ويمنعونك القلّ .

ومما يدُّك على أن الحسد أحسُّ وأغبنُّ من العداوة ، أن المِملَّ كلُّها
ذمُّه وعابته . ولا تعلم أن شاذاً من الشواذ ، وشارداً من الشُّراد ، فضلاً عن
جيل من الأجيال ، أمر بالحسد ؛ كما قيل : « عادٍ من عاداك ، وقارعٌ بالعداوة
أهلها » . ثم عظم شأنُ العداوة عندهم ، وجلُّ قدرها لديهم ، حتى اختلفوا في
وجوه العمل فيها ؛ فمنهم من أمر بها على الحزم والعقل .

وقال الشعبيُّ لبشر بن مروان : لو وجهت إلى عمرو بن محمد بن عقيل
مولي آل الزبير - وكان شتمه - من يأتيك به سحياً وجراً ! فقال بشر : إنِّي
مستعملٌ في عدوي قولَ القائل :

وعادِ إذا عاديتَ بالحزم والنهي . تنسلُ ظفراً ممن تُريد وتغلبُ
فكان بهذا ممن يرى المعادة بالحزم ، ويغتالها بالعقل والتأني .

وكان عروة بن المغيرة يقول : شرُّ العداوة ما ستر بالمداراة ، وأشقاها
للأنفس ما قرع بمثلها بادياً . وكان ينشد :

لا أتقي حَسَك الضَّغائن بالرُّقي فعَل الذُّليلِ ولو بقيتُ وحيداً
لكن أعدُّ لها ضغائنَ مثلها حتَّى أداويَ بالحقودِ حُقوداً
كالخمر خير دوائها منها بها تشفي السُّقيمَ وتُبري المنجوداً

فانتهى قوله إلى ابن شبرمة فقال : « لله درُّ عروءة ، هذه أنفس العرب ! » .

فهؤلاء رأوا كشف المعادة ولم يروا التاني .

ومنهم من رأى المعادة بعد الفِرار منها والإعذار فيها ، فإن هي أبت إلا المقارنة قارنوها بمثلها .

قال شبيب بن شيبه : إذا رأيت الشرَّ قد أقبل إليك فتطامنْ له حتى يتخطاك ، ولا تهججه ولا تبحث عنه ؛ فإنَّ أبى إلا أن يبرك عليك فكن من الأرض ناراً ساطعة تلتظي . وأنشد :

إذا عاداك محتنك لبيبٍ فعاد النُّومَ واحترس البياتا
ولا تُثير الرُّبوضَ وخلَّ عنها وإن ثارت فكن شبحاً مواتا
تجُزُّك إلى سواك ونسَّ عنها فخير الشرِّ أسرع فواتا
وإن مالت عليك وخفت منها فواجهها مجاهرةً صلاتا

ومنهم من أمر بقبول الإنصاف وترك المحاسبة . قال عبيد الله بن عبد الله ابن [عتبة بن] مسعود : إن الملاماتِ والمذماتِ كلها قيحة ، وأقبح الملامة والمذمة ما كانتا في ترك نصفه أو شدة منافسة في تعداد الذنوب . وأنشد :

منافسة العدو أو الصديق تجسرُ إلى المذمة واللامه
إذا أعطاك نصفاً ذو وِدادٍ وبعضُ النُّصفِ فانتهاز السَّلامه

ومنهم من قال : لا ترض من عدوك إلا بالظلم ، ولا تقبل إنصافه ونافسه في ذلك . قال العباس بن عبد المطلب :

أبا طالب لا تقبل النُّصف منهم ولو أنصفوا حتى تعق وتظلما

ومنهم من أمر بمعونة الدهر على العدو إذا حمل عليه . قال : حدثني

إبراهيم بن شعبة المخزومي قال : سمعت من حكى لي عن مُصعب بن الزبير
قال : إذا رأيت يد الدهر قد لطمت عدوك فبادره برجلك ، فإن سلم من الدهر
لم يسلم منك . وأنشد :

إذا بركَ الزَّمانُ على عدوِّ بنكبته أعنتَ له الزَّمانا

قال العتابي : قلت لَطوق بن مالك : إن من شرط الدهر ومن صناعة
الزمان السُّلب ، فإذا حملت الأيام على عدوك ثقلاً وأمتك منه فزده ثقلاً إلى
ثقله . قال : فقال لي طوق : من لم ينتهز من عدوه انتهز منه ، وحالت الأيام
التي كانت بيضاً عليه سوداً . وأنشد :

لله درك ما ظننتَ بِثائرِ حرَّانٍ ليس على التُّرابِ براقِدِ
أحقدته ثم اضطجعتَ ولم ينم أسفاً عليك وكيف نومُ الحاقِدِ
إن تُمكنَ الأيامُ منك ، وعلَّها ، يوماً نُوفِّك بالصُّواعِ الزائدِ
ولكن سلمتَ لأتركك عارضاً بعدي لكلِّ مُسالِمٍ ومعانِدِ

ومنهم من كان يرى جبر كسر العدو وإقالة عثرته ، ونصرتَه عند وثوب
الدهر عليه .

قال : حدثني ابن عبد الحميد قال ابن شبرمة : كانت الحرب يوم صُفِّينَ
بين العرب مَحضةً لا شوبَ فيها ، فكانت محاربتهم كدأماً واعتناقاً ، وكانوا إذا
مروا برجل جريح كانوا يقولون : خذله قومُه فانصروه ، وألقاه دهره بمضيعةٍ
فردَّوه إلى أهله .

وقال ابن شبرمة : ما زلنا نسمع أن المصيبات تنزع السجيات .

قال : وأنشدني بعضُ أهل العلم في هذا المعنى :

فلو بي بدأتم قبل من قد دعوتُم لفرجتُها وحدي ولو بلغتْ جهدي

إذا المرء ذو القربى وذو الحقد أجهفت به سنة سلئت مصيبتة حقدى

ومنهم من رأى الإفضال على عدوه وترك مجازاته . وهذا كثير لا يحتاج فيه الى استقصاء شواهده .

قال غيلان بن خرشة الضبي - وقال بعضهم : بل الأحنف بن قيس - لا تزال العرب بخير ما ليست العمائم وتقلدت السيوف وركبت الخيل ، ولم تأخذها حمية الأوغاد . قيل : وما حمية الأوغاد ؟ قال : أن يروا الجلم ذلاً ، والتواهب ضيماً .

وقال الشعبي لرجل قال له : ألا تنتقم من فلان فقد عاداك ونصب لك ؟ فقال :

ليست الأحلام في حال الرضا إنما الأحلام في حال الغضب

وأشدني بعض العلماء بيتين وقال : إن الزبيرى كان كثيراً ما يتمثل

بهما :

وإني لأعدائي على المقت والقلبي بني العم منهم كاشح وحسود
أذب وأرمي بالحصى من ورائهم وأبدأ بالحسنى لهم وأعود

وكان عبد الملك بن مروان إذا أنشد :

إني وإن كان ابن عمي كاشحاً لسُمراجسُم من دونه وورائه
ومعيره نصري وإن كان امراً متزحزحاً في أرضه وسمائه
وإن اكتسى ثوباً نفيساً لم أقل ياليت أن علي حسن ردايه
وإذا تخرق في غناه وفرتة وإذا تصعلك كنت من قرنائه

قال : هذا والله من شعر الأشراف . نفى عن نفسه الحسد واللؤم

والانتقام عند الإمكان ، والمسألة عند الحاجة .

ومنهم من أمر بالسُّفَه في العداوة واستعمال الخُرق فيها .

حدّثني نوح بن أحمد عن أبيه عن ابن عباس قال : جاء النابغة الجعديّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هل معك من الشعر ما عفا الله عنه ؟ قال : نعم . قال : أنشدني منه . فأنشده :

وإنّا لقومٌ ما نعوّد خيلنا إذا ما التقينا أن تَجِيدَ وتنفرا
وتنكر يومَ الرُّوع ألوانَ خيلنا من الطّعن حتى تحسبَ الجَونَ أشقرا
وليس بمعروفٍ لنا أن نردّها صحاحاً ولا مستنكراً أن تعفرا
بلغنا السّماءَ مجدّنا وسناؤنا وإنّا لنبغى فوق ذلك مَظهِرا

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلى أين يا أبا ليلى ؟ فقال : إلى الجنّة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إلى الجنّة إن شاء الله » .

مركز تحقيقات كويتية للدراسات والبحوث الإسلامية

ثم رجع في قصيدته فقال :

ولا خير في جهلٍ إذا لم يكن له حلِيمٌ إذا ما أورد الأمرَ أصدرا
ولا خير في حلمٍ إذا لم تكن له بوادِرُ تحمي صفوه أن يكذرا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا فضُّ الله فاك ! » . قال : فأتت عليه عشرون ومائة سنة ، كلُّما سقطت له سِنَّ أُثْغِرَتْ أخرى مكانها ؛ لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فهذا أحسن ما روي في البادرة التي يُصان بها الحلم .

وقال الشاعر الجاهليّ :

صَفَحْنَا عن بني ذُهَلٍ وقلنا : القومُ إخوانُ

عسى الأيام أن يرجع
فلما صرَّح الشُّرُّ
مَشِينَا مِثْبِيَةَ اللَّيْثِ
يَضْرِبُ فِيهِ تَوْهِينِ
وَطَعْنِ كَفَمِ الرَّقِّ
وَفِي الشَّرِّ نَجَاةٌ حَيَّةٌ
نَحْيَا كَالَّذِي كَانُوا
وَأَمْسَى وَهُوَ عُرْيَانُ
بَدَا وَاللَّيْثُ غَضْبَانُ
وَتَضَجَّعُ وَإِذْعَانُ
وَهِيَ وَالرَّقُّ مَلَانُ
نَحْيَا لَا يُنْجِيكَ إِحْسَانُ

حدثنا أبو مسهر عن أبيه عن خالد بن عمرو الكلبي قال :

كنا مع أبي برزة الأسلمي في غزاة ، فكان منا رجل يمتار لنا البيرة
ويقوم بحوائجنا ، فإذا أقبل قلنا : جزاك الله خيرا . فغضب لدعائنا ، فشكونا
ذلك إلى أبي برزة ، فقال أبو برزة : كنا نسمع أن من لم يصلحه الخير أصلحه
الشر ، فاقبلوا له . فكنا نقول له إذا أتانا بالحوائج : جزاك الله شراً وعرأ ،
فيضحك لذلك .

وأنشدني رجل عن بعض الأعراب :

أرى الحلم في بعض المواطن ذلةً
إذا أنت لم تدفع بحلمك جاهلاً
لبست له ثوب المذلة صاغراً
فأبقى على جهال قومك إنه
وفي بعضها عزاً يُشرف فاعله
سفيهاً ولم تقرن به من يُجاهله
فأصبح قد أودى بحقك باطله
لكل حلیم موطن هوجاهله

وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : « استوصوا بالغواة
خيراً ، فإنهم يطفئون الحريق ، ويسدون البثوق » .

وقال أبو سلمى في الجاهلية :

لا بدُّ للُسُودِّدِ من رِمَاحٍ ومن عَدِيدِ يُتَّقَى بِالرِّجَاحِ
* ومن كلابِ جَمَّةِ النُّبَاحِ *

وقال مسلم بن الوليد :

حلفت لئن لم تلقني سفهاؤها
لأرتجعنَّ الودَّ بيني وبينها
من اللاء لا يرجعن إلا شوارداً
أصابوا حليماً فاستعدوا بجاهل
خزاعة والحَيان عوفُ وأسلمُ
بِقافيةِ تَفري العروق فتحسبُ
لهنَّ بأفواه الرجال تَهْمُهُمُ
إذا الحلم لم يمنعك فالجهلُ أحزمُ

ولم نستقصِ الأبواب كلها بالمعارضة في هذا الكتاب ، ولو استقصينا لطالت بنا الأيام وتراخت الليالي إلى بلوغ الغاية في تمام الكتاب . وإنما ذكرنا من كل باب عرض فيه ما دلَّ على معناه الذي إليه قصد .

ولم نر الحسد أمر به أحدٌ من العرب والعجم في حالٍ من الأحوال ، ولا ندب إليه ونبه عليه . وقد نبه على العداوة وفصل بين أحوالها بما قد بيناه ، فظهر فضلها على الحسد بذلك .



مرکز تحقیقات کلامی و علوم اسلامی

[١١ - الكتاب يطلبون من الجاحظ أن يشاطروه فيء كتبه]

وكنت امرأ قليل الحُساد حتى اعتصمت بعُروتك ، واستمسكتُ بحبلك
واستذريت في ظلك ، فتراكم عليَّ الحُساد وازدحموا ، ورموني بسهامهم من
كل أوبٍ وأفق ، وتتايعوا عليَّ تتايَع الدُّثرِ على مُشتار العَسَل . ولئن كثروا لقد
كُثر بهبوب ريحك إخواني ، وبنُصرة أيامك وزهرة دولتك خلَّاني . وأنا كما
قلت :

فأكثرَ حُسادِي وأكثرَ خُلَّتِي . وكنْتُ وحُسادِي قليلٌ وخُلَّانِي

فلما بلغت هذا الفصل من تأليف هذا الكتاب دخل عليَّ عشرة نفرٍ من
الكتاب قد شملهم معروفك ، ورفع مراتبهم جميلٌ نظرك ، فهم من طاعتك

والمحبة لك على حسب ما أوليتهم من إحسانك وجزيل فوائدك ، فأفاضوا في حديث من أحاديث الحسد ، فشعب لهم ذلك الحديث شعوباً افتتوا فيها - والحديث ذو شجون - فما برحوا حتى أتتني رقعة أناسية من الحساد فيها سهام الوعيد ، ومقدمات التهديد والتحذير والتخويف ، للطعن على ما ألفت من الكتب إن أنا لم أضمن لهم الشركة فيما يُجرى عليّ ، فدفعت رقتهم إلى من قُرب إليّ منهم ، فقرأها ثم قال : « قاتلهم الله ! أبظلم يرومون النيل ويلتمسون الشركة في المعروف ! لنزع الروح بالكلايب أهون من بذل معروف بترهيب » . وأنشأ يقول :

أبقى الحوادث من خليد لك مثل جندلة المراجم
قد رامني الأعداء قب لك فامتنعت من المظالم

ودفعها إلى من قُرب منه فقرأها . وقال الثاني : « ضكة جلمود ، لكل مُرعدٍ حُسود ، يمتطر العُرف بالتهديد . خلّ الوعيد ، يذهب في اليد » . وأنشأ يقول :

أبرق وأرعذ يا يزي دُ فما وعيدك لي بضائر

ودفعها إلى الثالث فقرأها وقال : « سألوا ظلماً ، وخوفوا هُضماً ، لقوا حرباً ولقيت سلماً » . وأنشأ يقول :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً أبشر بطول سلامة يا مربع

ودفعها إلى الرابع فقرأها وقال : « قول الذليل وبولته سيان » . وأنشأ يقول :

ما ضرَّ تغلب وائلٍ أهجوتها أم بُلَّت حيث تناطح البحران

ودفعها إلى الخامس فقرأها وقال : « نهيق الحمار ، ودُم الأعيار جبار

جُبَار . وأنشأ يقول :

ما أبالي أنبّ بالحزن تيسُ أم لحاني بظهر غيبٍ لثيمُ

ودفعها إلى السادس فقرأها وقال : « إذا عَلِقْتَكَ الأُمُجَاد ، فليهنَّ عليكِ

الحُسَاد . وأنشأ يقول :

إذا أهلُّ الكرامة أكرموني فلا أخشى الهوانَ من اللثامِ

ودفعها إلى السابع فقرأها وقال : « كيف يخاف الصرعة ، من هو في ذي

المنعة . وأنشأ يقول :

كم تنبحون وما يغني نباحكم ما يملك الكلبُ غير النبح من ضررِ

ودفعها إلى العاشر فقرأها وقال : « نوكى هلكتي ، لم يعرفوا خبيرك ، ولا

درؤاً أمرك . وأنشأ يقول :

فلو علم الكلاب بنو الكلاب بحالك عند سيّدنا لذؤوا

وعندي صديقٌ لي من السوقة له أدبٌ ، فقال لي بعقب فراغهم مُسِراً :

إنّ هؤلاء الكتاب قد أظهروا الاستخفاف بقول الحُسَاد ، وضربوا الأمثال في

هوانهم عليك ، وعرفوا أنّك في منعة من عزّ أبي الحسن أطال الله بقاءه ،

ومعقلٍ لا يُسامى ولا يُنال . وأنا أقول بالشفعة :

توقُّ قوماً من الحُسَاد قد قَصَدُوا لِحطِّ قدرك في سرِّ وفي علنِ

فقلت له : إنّي أقول بيتين هما جوابك وجواب الحُسَاد :

إنّ ابن يحيى عبید الله آمنني من الحوادث بعد الخوف من زمني

فلستُ أحذر حُسَادِي وإن كَثُرُوا ما دمت مُمِيسِكُ حَبْلِ من أبي الحسنِ

فلما رأى صديقي اقتفائي آثار الكتاب ، باستهانتني للحساد عند اعتلاقي
حبائلك أعزك الله ، أنشأ متمثلاً بقول نصر بن سيار :

إنني نشأت وحُسَّادي ذُوو عددٍ يا ذا المعارج لا تنقص لهم أحدا
إن يحسدوني على ما قد بنيت لهم فمثل حُسن بلائي جرُّ لي الحسدا

وليس العجب أن يكثروا وأنا أنعق بمحاسنك ، وأهيف بشركك ، ولكن
العجب كيف لا تنفتت أكبادهم كمدا .

وكان بعضهم يقول : اللهم كثر حُسادَ ولدي ؛ فإنهم لا يكثرون إلا بكثرة
النَّعمة .

فإن كان والدي سبقَ منه هذا الدُّعاء ، فإن الإجابة كانت مخبوءة إلى
زمان عزك ؛ فقد رأينا تباشيرها ، وبدت لنا عند عنايتك غايتها .

وكان بعض الصالحين يقول : اللهم اجعلْ ولدي محسودين ، ولا
تجعلهم مرحومين ؛ فإن يومَ المحسود يومٌ عِزَّة ، ويومُ الحاسد يومٌ ذلَّة .

ويقال : إنه لما مات الحجاج سمعوا جاريةً خلف جنازته وهي تقول :

اليوم يرحمنا من كان يحسدنا واليوم تتبع من كانوا لنا تبعاً

ويقال : إن زيادَ ابن أبيه قال لِحُرَّة ابنة النعمان : أخبريني بحالكم .

قالت : إن شئتُ أجملتُ وإن شئتُ فسرتُ . فقال لها : أجملِي ، فقالت : «
بتنا نحسد ، وأصبحنا نرحم » . فخطبها زيادُ وكانت في دبرٍ لها فكشفتُ عن
رأسها ، فإذا رأسٌ مخلوق ، فقالت : رأسُ عروس كما ترى يا زياد ؟ وأعطأها
دنائير فأخذتها وقالت : جزتك يدُ افتقرتُ بعد غنى ، ولا جزتك يدُ استغنتُ
بعد فقر !

ولا نعلم الحسدَ جاء فيه شيءٌ أكثر من حديث روى عن النبي صلى الله

عليه وسلم : « لا حَسَدَ إلا في اثنتين : رجل آتاه الله حفظ القرآن فهو يقوم به
آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه في وجوه البر آناء الليل
وآناء النهار » .

فهذا الحسدُ إنما هو في طاعة الله عزَّ وجلَّ ، وطاعة رسوله صلى الله
عليه وسلم .

وقال بعض الأشراف :

احسُدْ على نَيْلِ المكارمِ والعلَى إذ لم تكن في حالة المحسودِ
حَسَدُ الفتى بالمكرمات لغيره كرمٌ ولكن ليس بالمعدودِ

فهذا ما انتهى إلينا من أخبار الحسد ، وزادك الله شرفاً وفضلاً ، وعلماً
ومعرفة ، ولا زلتَ بالمكان الذي يُهدى إليك [فيه] الكتبُ ، وتتحف بنوادِر
العلوم وفرائد الآداب ، إنه قريبٌ مجيبٌ .



تم الكتاب بِاللهِ المنة ، وبِيدِهِ الحول والقوة
تتلوه رسالة من كلام أبي عثمان أيضاً في ذم القواد
والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وسلامه .

١٧ - هامش فصل ما بين العداوة والحسد .

- (١) كتاب فضل الوعد ربما كان كتاب استنجاز الوعد الذي وصل إلينا قسم منه . ولم يصلنا شيء غيره حول موضوع الوعد . كما لم يصلنا شيء من كتاب اخلاق الوزراء .
- (٢) الحكمة : الفلسفة . بعض افكار هذه الفقرة وبعض تعابيرها يحتمل ان تكون مدسوسة على الجاحظ .
- (٣) « إن لم يكن أخاها فابن عمها » يراد به شبيهها .
- (٤) الطاعنون على كتب الجاحظ من جهة اللفظ ومن جهة المعنى .
- (٥) بشر المريسي : احد شيوخ المعتزلة ، توفي سنة ٢١٨ هـ .
- لاحظ مناصرة المأمون للمعتزلة ومكانة هؤلاء عنده امثال بشر المريسي والجاحظ .
- الرجز : « يا لك من قبره بمعمر . . . » للشاعر الجاهلي طرفة بن العبد نظمه وهو حدث يصطاد القبر .
- (٦) القدح : السهم .
- يعاث : يعيث .
- لاحظ كثرة الاستشهاد بالشعر والامثال والاقوال المأثورة .
- (٧) قارن بين آراء الجاحظ في الحسد هنا وآرائه في كتاب الحاسد والمحسود : الحسد موكل بالأدنى فالأدنى والأخص فالأخص . سبب الحسد النعمة لدى المحسود .
- مسلم بن الوليد الانصاري الشاعر عرف بصريع العنواني لأنه كان متبياً بحبه

عاصر الجاحظ وتوفي عام ٢٠٨ هـ وتولى بريد جرحان حيث مات .
- اسماعيل بن صبيح كاتب يحيى بن خالد البرمكي في عهد الرشيد وتولى ديوان
الشام .

(٨) التحرير : جمع نحارير ، الحاذق ، الفطن .

التقرير : الطبيب الماهر المدقق .

(٩) ابن المقفع والخليل بن احمد الفراهيدي وسلم صاحب بيت الحكمة التي اسسها
المأمون سنة ٨٣٠ م ويحيى بن خالد والعتابي . عاشوا جميعاً في صدر الدولة
العباسية .

(١٠) الكتاب الغفل : الذي لم يذكر اسم مؤلفه .

الكتاب المحصف : المحكم الخالي من الخلل .

(١١) الرعة : الورع .

* الخطاء = الخطأ .

- ابو برزة الاسلمي ، هو نضلة بن عبيد الاسلمي ، نزل البصرة وشهد وقعة

النهروان ، وهو صحابي جليل ، مات بالبصرة سنة ٦٠ هـ .

- الشاعر الجاهلي الذي قال : « صفحنا عن بني ذهل . . . » . هو الفند

الزمانى ، شهل بن شيبان ، شهد حرب البسوس .

(١٢) الجاحظ يشكو كثرة الحساد الذين لم يكتفوا بالاغارة على كتبه سرقة وطعناً

وتشويهاً ، بل طلبوا ان يشاركهم فيما تدره عليه من مال .

- « تتابعوا علي تتابع الدبر على مشتار العسل » : تهافتوا عليه مثل جماعة النحل

على العسل .

- أناسية : جمع انسي او اناس .

يبدولي ان قصة الكتاب العشرة الذين دخلوا على الجاحظ مقحمة على كتاب

الجاحظ . كما ان كثيراً مما ورد في هذا الكتاب قد أضيف عليه .

- ١٨ -

رسالة الى ابي الفرج
مركز تحقيقات كميوتور علوم ارسدي

[١ - المدخل التقليدي]

جُعِلْتُ فداك ، وأطال الله بقاءك ، وأعزك وأكرمك ، وأتم نعمته عليك
وأيدك .

مرکز تحقیقات کتب و تاریخ علوم اسلامی

[٢ - اسماء من كني بابي عثمان]

قد نسخت لك - أعز الله - في صدر هذا الكتاب قصيدة قيلت في أبي
الفرج أدام الله عزه ، ذكروا أن قائلها رجل يكنى أبا عثمان ، ولا أدري أهو أبو
عثمان هشام بن المغيرة ، أم أبو عثمان عفان بن أبي العاص .

ولا أدري أهو أبو عثمان عنيسة بن أبي سفيان ، أم أبو عثمان سعيد ابن
عثمان ، ولا أدري أهو أبو عثمان النهدي عبد الرحمن بن مِلِّ ، أم أبو عثمان
ربيعة الرأي بن أبي عبد الرحمن .

ولا أدري أهو أبو عثمان سعيد بن خالد بن أسيد ، أم أبو عثمان إسحاق
ابن الأشعث بن قيس .

ولا أدري أهو أبو عثمان المنذر بن الزبير بن العوام ، أم أبو عثمان عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك .

ولا أدري أهو أبو عثمان عبد الله بن خالد بن أسيد ، أم أبو عثمان أبو العاص بن [بشر بن] عبد دُهمان ، وهو اسمه .

ولا أدري أهو أبو عثمان عبد الله بن عبد الرحمن بن سُمرة بن حبيب بن عبد شمس ، أم أبو عثمان عبد الله بن عامر بن كُرَيْز .

ولا أدري أهو أبو عثمان سعيد بن أسعد بن إمام المسجد الجامع الأعظم ، أم أبو عثمان عمرو بن عبيد بن باب .

ولا أدري أهو أبو عثمان فيروز حُصَيْنِ العنبري ، أم أبو عثمان بن عُمَرُ ابن أبي عثمان الشُّمري .

ولا أدري أهو أبو عثمان خالد بن الحارث بن سليمان الهُجَيْمي ، أم أبو عثمان أبو العاص بن عبد الوهاب الثقفي .

ولا أدري أهو أبو عثمان سَعِيد بن وهب الشاعر ، أم أبو عثمان عمرو الأَعور الخاركي .

ولا أدري أهو أبو عثمان الحكم بن صخر الثقيفي ، أم أبو عثمان عمرو ابن بكر المازني .

ولا أدري أهو أبو عثمان الأَعور النحوي ، أم أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ .

والذي لا أشك فيه أنه لم يقرضها أبو عثمان عمرو بن حَزْرَة ، ولا أبو عثمان عمرو المخلخل ، ولا أبو عثمان إبراهيم بن يزيد المتطَّب ، ولا أبو عثمان سعيد بن حيان البزاز .

وقد بلغني عن أبي عثمان هذا المجهول موضعهُ ، المغمور نسيه ، أنه قال : ما راكبُ الأسد الأسود ، والبحر الأخضر ، والمصبور على السيف الحسام ، بأحقَّ بجهد البلاء وشماتة الأعداء ، ممَّن تعرَّض للمتصفِّحين ، وتحكَّك بالعيابين ، وحكَّم في عرض الحسدة المغتابين .

فإن سليم فبحسن النية ، ولأنه مدح كريماً ، ووصف حليماً ، والكريم ضفوح ، والحليم متغافل . وإن ابتلي فبذنب ، وما عفا الله عنه أكبر .

وقال : اللهم اجعل هذا القول حسناً في عينه ، خفيفاً على سمعه ، وألهمه حسن الظن به ، وبسط العذر له ، إنك سميع الدعاء ، رحيم بالضعفاء .



[٣ - وصف جال الجاحظ]

والقصيدة هي قوله :

أقام بدار الخفض راضٍ بحظِّه
 يظنُّ الرضا بالقسم شيئاً مهوناً
 جزعت فلم أعيب فلو كنتُ ذا ججاً
 أظنُّ غبي القوم أرغد عيشة
 تمرُّ به الأحداث تُرعدُ مرة
 سواء على الأيام صاحب حنكة
 فلو شاء ربِّي لم أكن ذا حفيظة
 خضعت لبعض القوم أرجو نواله
 فلما رأيت المرة يبذل بشره
 ربعتُ على ظلمي وراجعتُ منزلي
 وشاورت إخواني فقال حكيمهم
 وذو الحرص يسري حين لا أحد يسري
 ودون الرضا كأس أمر من الصبر
 لقتعت نفسي بالقليل من الوفر
 وأجذل في حال اليسارة والغسر
 وتبرق أخرى بالخطوب وما يدري
 وآخر كاب لا يرش ولا يسري
 طلبوا لغايات المكارم والفخر
 وقد كنتُ لا أعطي الدنية بالقسر
 ويجعلُ حسن البشر واقية التبر
 فصرت حليفاً للدراسة والفكر
 عليك الفتى المرئي ذا الخلق الغمر

فتى لم يقف في الدهر موقف ظنة فيحتاج فيه للتئصل والعذر

[٤ - الجاحظ يطلب إجراء الرزق عليه]

أعيذك بالرحمن من قول شامت
ولو كان فيه راغباً لرأيتَه
أترضى - فدتك اليوم نفسي وأسرتي -
أبو الفرج المأمول يزهد في عمرو
كما كان دهرأ في الرخاء وفي اليسر
بتأخير أرزاقني وأنت تلي أمري

[٥ - مدح أبي الفرج]

ألا يا فتى الكتاب والعسكر الذي
أخاف عليك العين أو نفس وامي
وعهدي به والله يرشد أمره
مُطلاً على التدبير ما يستقره
برأي يزيل الطود من مستقره
وعزم كغرب المشرفي مصممه
فيا ابن نجاح أنجح الله سعيكم
فعدت فلم أطلب وجلت فلم أصب
وإن أخفقت كفي وقد علقتم
أعيذك بالرحمن أن تُشمت العدى
فإن ترع ودّي بالقبول فاهله
وحسبك بي إن شئت ودأ وخلة
ألا رب شكر دائر الرسم دارس
تأزر بالحسنى وأيد بالنصر
وذو الوؤد منخوب الفؤاد من الدعر
ويحفظه في القاطنين وفي السفر
مكاييد محتال عقاربته تسري
وأوضح عند الخصم من وضح الفجر
وقلب ربيط الجأش مثلج الصدر
وأيدكم بالنصر والعدد الدثر
خليلاً يواسيني ويرغب في شكري
فقد قال رأيي واستنمت إلى شعري
فللفقر خير من شماتة ذي الغمر
ولا يعرف الأقدار غير ذوي القدر
وحسبك بي يوم النزاهة والصبر
وشكر كنفش الحميرية في الصخر

[٦ - الاعتذار عن التقصير في المديح]

قال أبو عثمان المجهول : إذا كان الممدوح ظاهر المحاسن كثير المناقب

فلم يُجدِ الشاعرَ [إن] كان ألوم .

ونعوذ بالله أن يكون فيكم ما يستدعي الألفاظ الشريفة والمعاني النفيسة ،
ويكون التقصيرُ مني .

وكيفما تصرّفتُ بي الحالُ فإنني لم أخرج من جهد المجتهدين الراغبين
المخلصين . فإن وقعتْ هذه القصيدة والتي قدّمتنا قبلها بالذوايقة فالحمد لله .
وإن خالفت فنستغفر الله . وإن شيعتم ضعفتُ بقوة كرمكم ، وقومتتم أودها
بفضل حلمكم ، كان في ذلك بلاغٌ لما أملنا . والله الموفق .

* * *

تمت الرسالة بعون الله وتوفيقه ، والله الموفق للصواب برحمته والحمد لله
أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيِّ وآله الطيبين الطاهرين وسلامه .



مركز تحقيقات كميّات علوم إسلامي

١٨ - هامش رسالة الى ابي الفرج

- (١) هذه قصيدة يمدح فيها الجاحظ ابا الفرج بن نجاح الكاتب . ولكنه قدم لها بمقدمة تقليدية « جعلت فداك ، واطال الله بقاءك الخ . . . » .
- (٢) لائحة بالذين يحملون كنية ابي عثمان تدل على ثقافة الجاحظ الواسعة المحيطة بالأدب والانساب والاحبار والكلام . ولئن تعرفنا بأصحابها ونحيل القارىء الى كتاب جمهره انساب العرب وغيره .
- (٣) مطلع القصيدة يذكرنا بقصيدة الحطيئة : وطاوي ثلاث عاصب البطن مرمل
البيتان السابع والثامن نجد معانها تقريباً عند المتنبي في تعبيره عن طموحه
ونخبة امله في الممدوحين .
- (٤) لم يفصح الجاحظ عن ارزاقه التي أخرت عنه من قبل ذوي الأمر . وربما كانت الدولة تدفع له راتباً ايام عز المعترلة وسيطرتهم على زمام السلطة . فلما دالت دولتهم منذ عهد المتوكل قطعت عنه .
- (٥) مديح ابي الفرج : تجد المعاني ذاتها التي اضمأها على الممدوح في رسالتي
استنجاز الوعد ، والمودة والخلطة .
- (٦) عودة الى الشريدل على غلبة الأدب عنده على الشعر . ومن ثم ندر شعره وهم
بصلنامته سوى النزر القليل بينما غزر النثر فبلغ مئات الكتب . وربما دلنا ذلك
على خوف الجاحظ من الافصاح عن نسبة القصيدة اليه .



[١ - المديح الخادع ليس من بضاعة الجاحظ]

فصل منه : أطال الله بقاءك ، وأعزك وأكرمك ، وأتم نعمته عليك .

زعم - أبقاك الله - كثير ممن يقرض الشعر ويروي معانيه ، ويتكلف الأدب ويحنيه ، أنه قد يمدح المرجو المأمول ، والمغشى المزور بأن يكون مخدوعاً ، وعمي الطرف مغفلاً ، وسليم الصدر للراغبين وحسن الظن بالطالين ، قليل الفطنة لأبواب الاعتذار ، عاجزاً عن التخلص إلى معاني الاعتلال ، قليل الحدق برد الشفعاء ، شديد الخوف من مياسم الشعراء ، حصراً عند الاحتجاج للمنع ، سلس القياد إذا نبهته للبذل ، واحتجوا بقول الشاعر :

إيت الخليفة فاحدغه بمسألةٍ إن الخليفة للسؤال ينخدع

فانتحال المأمول للغفلة التي تعتري الكرام ، وانخداع الجواد لخدع الطالين ومخاريق المستمحين ، باب من التكرم ، ومن استدعاء الراغب ، والتعرض للمجتدي ، والتلطف لاستخراج الأموال ، والاحتتيال لحل عقد الأشحاء ، وتهيج طبائع الكرام .

وأنا أزعم - أبقاك الله - أن إقرار المسؤول بما يتحل من ذلك نوك ،

وإضماره لئوم ، حتى تصح القسمة ، ويعتدل الوزن .

وأنا أعودُ بالله من تذكيرٍ يُناسبُ الاقتضاء ، ومن اقتضاءٍ يُضارعُ الإلحاح .
ومن جِرْصٍ يعودُ إلى الجِرْمان ، ومن رسالةٍ ظاهرها زُهد ، وباطنُها رغبة . فإنَّ
أسقطَ الكلامِ وأوغَدَه ، وأبعَدَه من السَّعادةِ وأنكَدَه ، ما أظهرَ النَّزاهةَ وأضمَرَ
الجِرْصَ ، وتجلَّى للعيونِ بَعينِ القناعةِ ، واستشعرَ ذلَّةَ الافتقارِ .

وأشنعُ من ذلك ، وأقبحُ منه وأفحشُ ، أن يُظنَّ صاحبه أنَّ معناه خفيٌّ
وهو ظاهرٌ ، وتأويله بعيدُ الغورِ وهو قريبُ القعرِ .

فنسألُ الله تعالى السَّلامَةَ فإنَّها أصلُ النُّعمةِ عليكم ، ونحمده على
اتِّصالِ نعمتنا بنعمتكم ، وما ألهمنا الله من وَصفِ محاسنكم .

والحمدُ لله الذي جعلَ الحمدَ مُستفتحَ كتابه ، وآخرَ دعوى أهلِ جَنَّتِه .
ولو أنَّ رجلاً اجتهدَ في عِبادةِ رَبِّه ، واستفرغَ مَجْهُودَه في طاعةِ سيِّده ،
ليَهَبَ له الإخلاصَ في الدُّعاءِ لمن أنعمَ عليه ، وأحسنَ إليه ، لكانَ حزيناً بذلك
أن يُدركَ أقصى غايةِ الكَرَمِ في العاجلِ ، وأرفعَ درجاتِ الكرامةِ في الأجلِ .

[٢ - واجبات المداح والممدوح]

وعلى أني لا أعرف معنى أجمَع لخصال الشُّكر ، ولا أدلُّ على جَماعِ
الفضلِ ، من سَخاوةِ النَّفسِ بأداءِ الواجبِ .

ونحن وإن لم نكن أعطينا الإخلاصَ جميعَ حقِّه ، فإنَّ المرءَ مع من
أحبَّ ، وله ما احتسَبَ .

ولا أعلم شيئاً أزيَدَ في السيِّئةِ من استصغارها ، ولا أحبطُ للحسنةِ من
العُجبِ بها .

ومما يستديم الخطأ لبث التَّقصير وإهمال النَّفس ، وترك التَّوقُّف ، وقلةُ
المحاسبة ، وبعُدُ العهد بالتَّثبت . ومَهْمَا رجعنا إليه من ضَعْفٍ في عَزْمٍ ، وهان
علينا ما نَفَقِد من مناقل الجِلْم ، فَإِنَّا لا نجمع بين التَّقصير والإنكار .

ونعوذُ بالله أن نقصُر في ثناءِ على مُحسِنٍ ، أو دعاءٍ لمُنعمٍ . ولئن اعتذرنا
لأنفسنا بصدق المَوَدَّة - وبجميل الذِّكر ، فلمَّا يَعُدُّ لكم ، مِن تحقُّق الآمال ،
والنُّهوضِ بالأثقالِ أكثر .

على أنكم لم تحملونا، إلاَّ الخِفِّ ، وقد حمَّلناكم الثُّقل . ولم تسألونا
الجزاءَ على إحسانكم ، وقد سألناكم الجزاءَ على ما سألناكم . ولم تكلفونا ما
يَجِبُ لكم ، وكلفناكم ما لا يجب .

ومن إفراطِ الجَهْل أن نتذكَّر حقنا في حُسْنِ الظَّنِّ ، ولا نتذكَّر حقكم في
تصديق ذلك الظَّنِّ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما عَظُمَت نعمةُ
الله على أحدٍ إلاَّ عَظُمَت عليه مؤونةُ النَّاسِ » .

وأنا أسأل الله الذي ألزَمكم المَوْنُ الثُّقال ، ووصل بكم آمال الرُّجال ،
وامتحنكم بالصُّبر على تجرُّع المرار ، وكلفكم مُفارقةَ المحبوب من الأموال ،
أن يُسهِّلها عليكم ، ويُحِبِّبها إليكم ، حتَّى يكون شغفكم بالإحسان الداعيِ -
إليه ، وصيابتكم بالمعروف الحاملِ عليه ، وحتَّى يكون حبُّ التفضُّلِ
والمحبَّةِ لاعتقاد المِنِّ الغايةَ التي تستدعي المدبِّر ، والنهائيةَ التي تُعذِّرُ
المقصر ، وحتَّى تُكرهوا إلى الخير من أخطأ حظه ، وتفتحوا بابَ الطُّلبِ لمن
قصر به العجز .

ثم اعلم - أصلحك الله - أن الذي وُجِدَ في العبرة ، وجرت عليه
التَّجربة ، وأتسق به النظم ، وقام عليه وزُنُ الحكم ، وأطرد منه النَّسق ، وأثبتته
الفحص ، وشهدت له العقول ، أن من أوَّلِ أسباب الخُلطة ، والدُّواعي إلى
المحبَّة ، ما يُوجدُ إلى بعضِ النَّاسِ من القبولِ عند أوَّلِ وهلةٍ وقلةِ انقباضِ

النُّفوس مع أوّل لحظة ، ثم اتَّفاق الأسباب التي تقع بالموافقة عند أوّل المجالسة ، وتلاقِي النفوس بالمشاكلة عند أوّل الخلطة .

[٣ - أصول المديح والطلب]

والأدب أدبان : أدبُ خُلُقٍ ، وأدبُ رِوايةٍ ولا تكْمُلُ أمورُ صاحب الأدبِ إلّا بهما ، ولا يجتمع له أسبابُ التَّمَامِ إلّا من أجلبهما ، ولا يُعَدُّ في الرؤساءِ ، ولا يُثنى به الخِصَرُ في الأدباءِ ، حتّى يكون عَقْلُهُ المتأَمَّرَ عليهما ، والسائسَ لهُما .

فصل منه : فإن تَمَّتْ بعد ذلك أسبابُ الملاقاةِ تمت المصافاةُ ، وحنُّ الإلفِ إلى سَكَنِهِ . والشُّانُ قبل ذلك لِمَا يَسْبِقُ إلى القلبِ ، ويخفُّ على النَّفْسِ ، ولذلك احترس الحازمُ المستغذى عليه من السَّابِقِ إلى قلبِ الحاكمِ عليه .

وكذلك التمسوا الرِّفْقَ والتَّوْفِيقَ ، والإيجازَ وحسن الاختصارِ ، وانخفاضِ الصَّوتِ ، وأن يُخرجَ الظالمُ كلامَهُ مُخْرِجَ لَفْظِ المَظْلُومِ :

نَعَمْ ، وحتّى يترك اللُّحْنَ بحجته بَعْدُ ، ويخلفَ الدَّاهِيَةَ كثيراً من أدبِهِ ، وَيَغْضُ من محاسنِ مَنْطِقِهِ ، التماساً لمواساةِ خِصَمِهِ في ضعفِ الحيلةِ ، والتشبهُ به في قَلَّةِ الفطنةِ .

نَعَمْ ، وحتّى يكتبَ كتابَ سِعايةٍ ومَحَلِّ وإغراقٍ وتحدُّ ، فيلحن في إعرابه ، ويستخفُّ في ألفاظه ، ويتجنَّبُ القصدَ ، ويهربُ من اللَّفْظِ المُعْجَبِ لِيُخْفِيَ مكانَ جِدْقِهِ ، وَيَسْتَرِ موضعَ رِفْقِهِ ، حتّى لا يحترسَ منه الخِصَمُ ، ولا يتحفَّظَ منه صاحبُ الحكمِ ، بعد أن لا يَضُرُّ بعينِ معناه ، ولا يقصُرُ في الإفصاحِ عن تفسيرِ معناه ، وهذا هو الموضعُ الذي يكونُ العَيُّ فيه أَيْبَنَ ، وذو

الغباوة أظن ، والردي أجود ، والأثوك أحزم ، والمضيح أحكم . إذ كان غرضه الذي إياه يرمي ، وغايته التي إليها يجري ، الانتفاع بالمعنى المتخير دون المباهاة باللفظ ، وإنما كان غايته إيصال المعنى إلى القلب دون نصيب السمع من اللفظ . الموثق أو المعنى المتخير ، بل ربما لم يرخص باللفظ السليم حتى يُسقمه ليقع العجزُ موقع القوة ، ويُعرض العي في محلّ البلاغة . إذا كان حق ذلك المكان اللفظُ الدون ، والمعنى الغفل .

هذا إذا كان صاحب القصة ومؤلف لفظ المحل والسعاية ، ممن يتصرف قلمه ، ويعلل لسانه ، ويلتزم في مذاهبه ، ويكون في سعة وجل لأن يحط نفسه إلى طبقة الدل وهو عزيز ، ومحلّ العي وهو بليغ ، ويتحول في هيئة المظلوم وهو ظالم ، ويمكنه تصوير الباطل في صورة الحق ، وسرّ العيوب بزخرف القول ، وإذا شاء طفا ، وإذا شاء رسب ، وإذا شاء أخرجَه عُفلاً صحيحاً .

وما أكثر من لا يُحسّن إلاّ الجيد ، فإن طلب الرديّ جاوزه . كما أنه ما أكثر من لا يستطيع إلاّ الرديّ ، فإن طلب الجيد قصر عنه .

وليس كلّ بليغ يكون بذلك الطباع ، وميسر الأداة ، وموسعاً عليه في تصريف اللسان ، وممنوناً عليه في تحويل القلم .

وما أكثر من البصراء من يحكي العُميان ، ويُحوّل لسانه إلى صورة لفظ الفأفأ بما لا يبلغه الفأفأ ولا يُحسّنه التمام . وقد نجد من هو أبسط لساناً وأبلغ قلماً ، لا يستطيع مجاوزة ما يشركه ، والخروج مما قصر عنه .

فصل منه : ولولا الحدودُ المحصّلة والأقسام المعدّلة ، لكانت الأمور سُدىً ، والتدابير مُهَمّلة ، ولكانت عورة الحكيم بادية ، ولاختلطت السافلة بالعالية .

[٤ - لا خير في صاحب لا يساعد صاحبه اذا خلصت المودة]

وأنا أقول بعد هذا كله : لو لم أضمر لكم محبة قديمة ، ولم أضربكم بشفيح من المشاكلة ، ولا سبب الأديب إلى الأديب ، ولم يكن عليّ قبول ، ولا عليّ حلاوة عند المحصول ، ولم أكن إلا رجلاً من عرض المعارف ، ومن جمهور الأتباع - لكان في إحسانكم إلينا ، وإنعامكم علينا ، دليل على أنا قد أخلصنا المحبة ، وأصفينا لكم المودة .

وإذا عرفتم ذلك بالدليل النير الذي أنتم سببه ، والبُرهان الواضح الذي إليكم مرجعه ، لم يكن لنا عند الناس إلا توقع ثمرة الحب ، ونتيجة جميل الرأي ، وانتظار ما عليه مجازاة القلوب .

وبقدر الإنعام تجود النفوس بالمودة ، وبقدر المودة تنطلق الألسن بالمدحة .

وهذه الوسيلة أكثر الوسائل وأقواها في نفسي : أنني لم أصِل بي بمُحرم غمّر ولا بمبخل غفل ، ولا بضيق العطن حديث الغنى ولا بزمر المرأة مُستنبط الثرى ، بل وصلته بحمال أثقال ومقارع أبطال ، وبمن وُلد في اليسر وربّي فيه ، وجرى منه على عرق ونزع إليه .

فصل منه : ولا خير في سمين لا يحتمل هزال أخيه ، وصحيح لا يجبر كسر صاحبه .

فصل منه : وقد تنقسم المودة إلى ثلاث منازل :

منها : ما يكون على اهتزاز الأريحية وطبع الحرية .

ومنها : ما يكون على قدر فرط وسائل الفاقة .

ومنها : ما يحسنُ موقعه على قدر طباع الجرحى وجشع النفس .

فأرفعها منازل حب المشغوف شكر النعمة . وهو الذي يدوم شكره ،
ويبقى على الأيام وده . والثاني هو الذي إنما اشتد حبه على قدر موضع المال
من قلب الحريص الجشع ، واللئيم الطمع . فهذا الذي لا يشكر ، وإن شكر
لم يشكر إلا لئستزيد ، ولم يمدح إلا لئستمد . وعلى أنه لا يأتي الحمد إلا
رَحْفًا ، ولا يفعله إلا تكلفًا .

وأنا أسأل الله الذي قسم له أفضل الحظوظ في الإنعام ، أن يقسم لنا
أفضل الحظوظ في الشكر . وما غاية قولنا هذا ومدار أمرنا إلا على طاعة
توجب الدعاء ، وحرية توجب الشاء ، شاكرين كنا أو منعمين ، وراجين كنا أو
مرجوين .

ومن صرف الله حاجته إلى الكرام ، وعدل به عن اللثام فلا يعدن نفسه
في الراغبين ولا في الطالبين المؤمنين ، لأن من لم يجرع مرارة المطال ، ولم
يمد للرحيل التسويف ، ويقطع عنقه بطول الانتظار ، ويحميل مكروه ذل
السؤال ، ويحمل على طمع يحته يأس ، كان خارجاً من حدود المؤمنين .

ومن استولى على طمعه الثقة بالإنجاز ، وعلى طليته اليقين بسرعة
الظفر ، وعلى ظفره الجزيل من الإفضال ، وعلى إفضاله العلم بقلّة الشريب ،
وبالسلامة من التنغيص بالتماس الشكر ، وبالبكور وبالرواح وبالحضوع إذا
دخل ، والاستكانة إذا جلس . ثم مع ذلك لم يكن ما أنعم به عليه ثواباً
لسالف يد ، ولا تعويضاً من كد ، كانت النعمة محضة خالصة ، ومهدبة
صافية ، وهي نعمتكم التي ابتدأتمونا بها .

ولا تكون النعمة سابعة ولا الأيدي شامقة ولا الستر كثيفاً ذيالاً ، وكثير
العرض مطبقاً ، ودون الفقر حاجزاً ، وعلى الغنى ملتجفاً ، حتى يخرج من
عندكم ، ثم يحتسب إلى شاكر حر .

[٥ - مزايا ابي الفرج]

فصل منها : وأنتم قومٌ تقدّمتم بابتناء المكارم في حال المهلة ، وأخذتم لأنفسكم فيها بالثقة على مقادير ما مكنتم الأواحي ، ومددتم الأطناب ، وثبتتم القواعد . ولذلك قال الأوّل :

عزمتُ على إقامة ذي صباحٍ لأمرٍ ما يُسوّد من يسوّد

وأبو الفرج - أعزّه الله - فتى العسكرين ، وأديبُ المصريين ، جمع أريحية الشباب ، ونجابة الكهول ، ومحبة السادة ، وبهاء القادة وأخلاق الأدباء ، ورشاقة عقول الكتّاب والتغلغل إلى دقائق الصواب ، والحلاوة في الصدور ، والمهابة في العيون ، والتقدم في الصناعة ، والسبق عند المحاورة ، شقيق أبيه وشبه جدّه ، خذو النعل بالنعل ، والفذة بالقذة لم يتأخر عنهما إلا فيما لا يجوز أن يتقدّمهما فيه ، ولم يقصّر عن شأوهما إلا بقدر ما قصّرا عن سنخهما وهم وإن قصّروا عن مدى آبائهم ، وعن غايات أوائلهم ، فلم يقصّروا عن جنة الرؤساء ، وأهل السوابق من الكبراء ، ولست ترى تاليهم إلا سابقاً ، ومضليهم إلا للغاية مجاوزاً . ليس فيهم سيكيت ولا مبهور ولا منقطع ، قد نقّحت أعرافهم من الإقراف والهجنة ، ومن الشوب ولؤم العجمة .

ومتى عاينت أبا الفرج وكماله ، ورأيت ديباجته وجماله ، علمت أنه لم يكن في ضرائبهم وقديم نجلهم ، خارجي النسب ، ولا مجهول المركب ، ولا بهيم مضمت ، ولا كثير الأوصاح مغرب ، بل لا ترى إلا كل أغر محجل ، وكل ضخم المحزّم هيكل .

إنّي لمستُ أخير عن الموتى ولا استشهد الغيب ، ولا أستبدل بالمختلف فيه ولا الغامض الذي تعظم المؤونة في تعرفه ، والشاهد لقولي يلوح في

وَجُوهِهِمْ ، وَالْبُرْهَانَ عَلَى دَعْوَايَ ظَاهِرٌ فِي شِمَائِلِهِمْ ، وَالْأَخْبَارَ مُسْتَفِيضَةً ،
وَالشُّهُودَ مُتَعَاوِنَةً .

وَأَنْتَ حِينَ تَرَى عِثْقَ تِلْكَ الدِّيَابِجَةِ ، وَرَوْنَقَ ذَلِكَ الْمَنْظَرِ ، عَلِمْتَ أَنَّ
التَّالِدَ هُوَ قِيَادُ هَذَا الطَّارِفِ .

أَمَا أَنَا فَلَمْ أَرِ لِأَبِي الْفَرْجِ - أَدَامَ اللَّهُ كِرَامَتَهُ - ذَامًا وَلَا شَانئًا وَلَا عَائِبًا وَلَا
هَاجِيًا ، بَلْ لَمْ أَجِدْ مَادِحًا قَطُّ إِلَّا وَمَنْ سَمِعَ تَسَابِقَ إِلَيَّ تِلْكَ الْمَعَانِي ، وَلَا
رَأَيْتُ وَاصِفًا لَهُ قَطُّ إِلَّا وَكُلُّ مَنْ حَضَرَ يَهْشُ لَهُ وَيِرْتَاخُ لِقَوْلِهِ . قَالَ الطَّرْمَاحُ :

هَلِ الْمَجْدُ إِلَّا السُّودُّدُ الْعَوْدُ وَالنَّدَى وَرَأْبُ الشَّأَى وَالصُّبْرُ عِنْدَ الْمَوَاطِنِ

وَلَكِنْ هَلِ الْمَجْدُ إِلَّا كَرَمُ الْأُرُومَةِ وَالْحَسَبُ وَبُعْدُ الْهَمَّةِ ، وَكَثْرَةُ
الْأَدَبِ ، وَالثَّبَاتُ عَلَى الْعَهْدِ إِذَا زَلَّتِ الْأَقْدَامُ ، وَتَوَكِيدُ الْعَقْدِ إِذَا انْحَلَّتْ مَعَاقِدُ
الْكَرَامِ ، وَإِلَّا التَّوَاضُّعُ عِنْدَ حَدُوثِ النِّعْمَةِ ، وَاحْتِمَالُ كُلِّ الْعَثْرَةِ ، وَالنَّفَازُ فِي
الْكِتَابَةِ ، وَالْإِشْرَافُ عَلَى الصَّنَاعَةِ .

وَالْكِتَابُ هُوَ الْقَطْبُ الَّذِي عَلَيْهِ مَدَارُ عِلْمٍ مَا فِي الْعَالَمِ وَأَدَابِ الْمُلُوكِ ،
وَتَلْخِيصُ الْأَلْفَاظِ ، وَالغَوْصُ عَلَى الْمَعَانِي السَّدَادِ ، وَالتَّخْلِصُ إِلَى إِظْهَارِ مَا
فِي الضَّمَائِرِ بِأَسْهَلِ الْقَوْلِ ، وَالتَّمْيِيزُ بَيْنَ الْحُجَّةِ وَالشُّبْهَةِ وَبَيْنَ الْمُفْرَدِ
وَالْمُشْتَرَكِ ، وَبَيْنَ الْمَقْصُورِ وَالْمَبْسُوطِ ، وَبَيْنَ مَا يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ مِمَّا لَا
يَحْتَمِلُهُ ، وَبَيْنَ السُّلِيمِ وَالْمَعْتَلِّ .

فَبَارِكْ اللَّهُ لَهُمْ فِيمَا أَعْطَاهُمْ وَرَزَقَهُمُ الشُّكْرَ عَلَى مَا خَوَّلَهُمْ ، وَجَعَلَ ذَلِكَ
مَوْصُولًا بِالسَّلَامَةِ ، وَبِمَا نَخَطُّ لَهُمْ مِنَ السَّعَادَةِ ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ، فَعَالَ لِمَا
يُرِيدُ .

١٩ - هامش رسالة في المودة والخلطة .

- (١) يتكلف الادب ويجتنيه : يتصنعه ويحصله .
- الاعتلال : بيان العلة او السبب .
- مياسم الشعراء : هجاؤهم اللاسع . والميسم هو المكواة في الاصل .
- النوك : الحمق .
(٢) مناقل الحلم : مراحلها .
- لاحظ جهره بالسؤال .
(٣) الادب اديان : ادب خلق وادب روايت ورد هذا القول في رسالة المعلمين .
للادب معنيان : المعنى الخلقى والمعنى الفني .
- اللحن : الخطأ في حركات الالفاظ النحوية .
- القصة : الخبر والقضية .
- الجاحظ يردد هنا مفهوم البلاغة الذي اعتمده في اماكن عدة من كتبه :
الحيوان ، البيان والتبيين ، رسالة المعلمين الخ .
(٤) المحرم الغمر : البدوي الذي لم يخالط الحضرة .
- ثمرة الحب : هي العطاء .
- أقسام المودة : انواعها او البواعث اليها وهي ثلاثة : الاريجية او الحرية ،
والغافة ، الجشع . تقسيم يدل على قدرة الجاحظ على التحليل النفسي .
(٥) الاواخي جمع أخية : طنب البيت .
- الأول ، يراد به الشاعر انس بن مدركة الخثعمي ، انظر الحيوان ج ١ ، ص

- العسكرين : يريد بهما باب البصرة الذي بناه المنصور في بغداد، والرصافة الواقعة في الجانب الشرقي منها .
- المصران : الكوفة والبصرة .
- الهجنة والمعجمة : الهجين هو الذي يكون والده عربياً وامه اعجمية .
- والمعجمة : الاصل الاعجمي .
- خارجي النسب : لا يعني نسبه الى الخوارج بل الاصل الاعجمي الغريب الخارج عن العروبة .
- أغر محجل : فيه بقع بيضاء على رأسه (أغر) وعلى قوائمه (محجل) .
- المخرم ، هيكل : الجواد الضخم .
- الشانيء : المبغض .



مركز تحقيقات كليات علوم إيسدي

- ۲۰ -



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

[١ - الجاحظ يسأل ويمدح] :

فصل منه : قد شاع الخبر وسار المثل بقولهم : « اطلبوا الحاجات من

حسان الوجوه » .

فإن كان الوجه إنما وقع على الوجه الذي فيه الناظر والسامع ، والشام
والذائق ، إذا كان حسناً جميلاً ، وعميقاً بهياً ، فوجهك الذي لا يُخيل على
أحد كماله ، لا يُخطيء جواله .

وإن كان ذكر الوجه : إنما يقع على حسن وجه المطلب وجماله على
جهة الرغبة ، وإن كان ذلك على طريق المثل ، وعلى سبيل اللفظ المشتق من
اللفظ ، والفرع المأخوذ من الأصل ، فوجه المطلب إليك أفضل الوجوه
وأسنها ، وأصونها وأرضاها . وهو المنهج الفسيح والمتجر الربيع ، وجماله
ظاهر ، ونفعه حاضر ، وخيره غامر ، إلا أن الله تعالى قرنه مع ذلك باليمن ،
وسهله بالبشر ، وحببه بالبشر الحسن ، ودعا إليه بلبين الخطاب ، وأظهر في
أسمائكم وأسماء آبائكم وفي كناكم وكنى إخوانكم ، من برهان الفأل الحسن
ونفى الطيرة السيئة ما جمع لكم به صنوف الأمل ، وصرف إليكم وجوه

المطالب ، فاجتمع فيكم تمام القوام وبراعة الجمال ، والبشر عند اللقاء ، ولين الخطاب والكنف للخلطاء ، وقلة البذخ بالمرتبة الرفيعة ، والزيادة في الإنصاف عند النعمة الحادثة . فجعل الناس وعدكم من أكرم الوعد ، وعقدكم من أوثق العقد ، وإطماعكم من أصح الإنجاز . وعلموا أنكم تؤيسون في مواضع اليأس ، وتطمعون في مواضع الضمان ، وأن الأمور عندكم موزونة معدلة ، والأسباب مقدرة محصلة .

هذا مع الصولة والتصميم في موضع التصميم .

والتقية أحزم ، والصفح إذا كان الصفح أكرم ، والرحمة لمن استرحم ، والعقاب لمن صمم .

ثم المعرفة بفرق ما بين اعتزام الغم واعتزام المستبصر ، وفضل ما بين اعتزام الشجاع والبطل ، وبين إقدام الجاهل المتهور .

وقد علم الناس بما شاهدوه منكم ، وعابنوه من تدبير ، وعرفوه من تصرف حالاتكم ، أنني لم أتزيد لكم ، ولم أتكلف فيكم ما ليس عندكم . وخير المديح ما وافق جمال الممدوح ، وأصدق الصفات ما شاكل مذهب الموصوف ، وشهد له أهل العيان الظاهر ، والخير المتظاهر . ومتى خالف هذه القضية وجانب الحقيقة ، ضار المادح ولم ينفع الممدوح .

هذا إلى الثبات على العهد ، وإحكام العقد ، مع الوفاء العجيب ، والرأي المصيب ، وتمام ذلك وكماله ، وسناء ذلك وبهائه ، وكثرة الشهود لكم ، وإجماع الناس على ذلك فيكم .

[٢ - ذم المديح الكاذب]

ومن قبل نفسه مديحاً لا يُعرف [به] كان كمداح نفسه . ومن أتاب

الكذابين على كذبهم كان شريكهم في إثمهم ، وشقيقهم في سُخْفهم ، بل كان المحتقِبَ لكبره ، المحتمل لوزره ، إذ كان المثيبَ عليه والداعي إليه .

معاذَ الله أن نقول إلا معروفاً غير مجهول ، ونصِفَ إلا صحيحاً غير مدخول ، أو نكون ممن يتوَدَّد بالملق ، ويتقحَّم على أهل الأقدارِ شرهاً إلى مال ، أو جِرساً على تقريب . وأبعدَ الله الحرصَ وأخزى الشرهَ والطَّمع !

فإن شكَّ شاكٌ أو توقَّفَ مرتابٌ فليعترضِ العامة . وليتصنَّح ما عند الخاصة حتى يتبين الصُّبح .

[٣ - الممدوح يجمع الطارف والتلبد]

وقالوا في تأديب الولاية وتقديم تدبير الكفاة : « إذا أبردتُم البريدَ فاجعلوه حَسَنَ الوجه ، حَسَنَ الاسم » . فكيف إذا قارن حَسَنَ الوجهِ وحَسَنَ الاسمِ كرمُ الضريبة ، وشرفُ العرق .

وأعيانُ الأعراقِ الكريمةِ ، والأخلاقِ الشريفةِ ، إذا استجمعت هذا الاستجماع ، واقترنت هذا الاقتران ، كان أتمُّ للنعمة ، وأبرعٌ للفضيلة وكانت الوسيلةُ إليها أسهل ، والمأخذُ نحوها أقرب ، والأسبابُ أمتن .

فإذا انتظمت في هذا السُّلكِ ، وجمعتها هذا النُظمُ ، كان الذي يُبرِدُ البريدَ أولى بها من البريد ، وكان مقومُ البلادِ أحقُّ بها من حاشيته الكفاة ، إذ التأميلُ لا يجمع أوجهَ الصُّوابِ ، ولا يُحصي مخارجَ الأسبابِ ، ولا يظهر بُرهانه ويَقْوَى سُلطانه ، حتى يصيبَ المعدن . ولن يكون موضعُ الرُّغبةِ معدناً إلا بعد اشتماله على ترادفِ خصالِ الشرفِ وبعد أن يتوافى إليه معاني الكرمِ بالأعراقِ الكريمةِ ، والعاداتِ الحسنةِ ، على حادثٍ يشهد لمتقادم ، وطارفٍ يدلُّ على تالد .

فإذا كان الأمل يخبر بالحسب فالحسب ثاقب ، والمجد راسخ . وإن كان الشأن في صناعة الكلام وفي القدم والرياسة ، وفي خلف يائره عن سلف ، وآخر يلقاه عن أول ، فلکم ما لا يذهب عنه جاحد ، ولا يستطيع جحده معاند .

فصل منه : وأسماؤكم وكناكم بين فرج ونجح ، وبين سلامة وفضل ، ووجوهكم وفق أسمائكم ، وأخلاقكم وفق أعراقكم ، لم يضرب التفاوت فيكم بنصيب .

وبعد هذا فإنني أستغفر الله من تفرطي في حقوقكم ، وأستوهبه طول رقتي عما فرضته لكم .

ولا ضير إن كان هذا الذي قلنا على إخلاص وصحة عهد ، وعلى صدق سيرة وثبات عقد . ينسب السيف وهو حسام ، ويكبو الطرف وهو جواد ، وينسى الذكور ، ويغفل القطب .
ونعوذ بالله تعالى من العمى بعد البصيرة ، والحيرة بعد لزوم الجادة .

[٤ - والد المدوح يشبهه]

كان أبو الفضل - أعزه الله - على ما قد بلغك من التبرع بالوعد وسرعة الإنجاز وتمام الضمان وعلى الله تمام النعمة والعافية .

وكان - أيده الله - في حاجتي ، كما وصف زيد الخيل نفسه حين يقول :

وموعدي حق كأن قد فعلتها متى ما أعد شيئاً فإنني لغارم

وتقول العرب : « من أشبه أباه فما ظلم » ، تقول : لم يضع الشبه إلا في موضعه ، لأنه لا شاهد أصدق على غيب نسيبه وخفي نجله من الشبه

القائم فيه ، الظاهر عليه .

وقد ثقِلت - أبقاك الله - شيخك : خَلَقَهُ وَخَلَقَهُ ، وَفَعَلَهُ وَعَزَّمَهُ ، وَعِزُّ الشَّهَامَةِ ، وَالنَّفْسُ النَّامَةُ .

ومرجع الأفعال إلى الطبائع ، ومدار الطبائع على جودة اليقين وقوة المنة ، وبهما تتم العزيمة ، وتنفذ البصيرة .

هذا مع ما قسم الله لك من المحبة ومنحك من المقمة ، وسلمك عنه من المذمة .

والله لو لم يكن فيكم من خصال الحرية وخلال النفوس الأبية إلا أنكم لا تدينون بالنفاق ، ولا تعدون الكذب ولا تستعملون المواربة في موضع الاستقامة ، وحيث تجب الثقة .

ولا يكون حظ الأحرار بالمواعيد صرفاً ، ولا تتكلمون على ملالة الطالب ، ولا عجز الراغب ، إذا استنفدت أيامه ، وعجزت نفقته ، وماتت أسبابه ، بل تعجلون لهم الراحة عند تعذر الأمور إليكم بالإيأس ، وتحققون أطماعهم عند إمكان الأمور لكم بالإنجاح .

[٥ - الممدوح لا يستحق الشكر الا اذا انعم وانجز ما وعد]

فصل منه : وإنك والله - أيها الكريم المأمول ، والمستعطب المسؤول - لا تزرع المحبة إلا وتحصد الشكر ، ولا تكثير المودات إلا إذا أكثر الناس الأموال ، ولا يشيع لك طيب الأحذوثة وجمال الحال في العشيرة ، إلا لتجرع مرار المكروه . ولن تنهض بأعباء المكارم التي توجبها النعمة وتفرضها المرتبة حتى تستشعر التفكير في التخلص إلى إغنائهم ، والقيام بحسن ظنهم ، وحتى ترحمهم من طول الانتظار ، وترق عليهم من موت الأمل وإحياء القنوط ،

وحتى تتغلغل ذلك بالجميل اللطيفة ، والعناية الشديدة الشريفة ، وحتى تتوخى
الساعات وتنتهز الفرص في الحالات ، وتتخير من الألفاظ أرقها مسلكاً
وأحسنها قبولاً ، وأجودها وقوعاً .



مركز بحوث الكمبيوتر علوم إرسدي

٢٠ - هامش استنجاز الوعد .

- (١) حواله : طالبه .
- « واطهر في اسمائكم واسماء آبائكم وفي كناكم وكنى اخوانكم من برهان الفأل الحسن ونفي الطيرة السيئة ما جمع لكم فيه صنوف الأمل » . يشير الجاحظ الى اسماء عائلة الممدوح التي تدل على اليمن : نجاح ، سلمة ، ابو الفرج ، ابو الفضل (لقب والده) الخ . . وهذا ما اوضحه بعد قليل بقوله : « واسماؤكم وكناكم بين فرج ونجح ، وبين سلامة وفضل . . الخ » .
- (٢) المحتقّب لكبره : الجامع والحامل ومنها الحقيقية .
- (٣) الطارف والتلبد : الحديث والقديم .
- (٤) « من اشبه اياه فما ظلم ، مثل يضرب في شدة الشبه بين الأب والابن . راجع مجمع الامثال للميداني .
- الحرية : ضد العبودية - كرم الأصل .
- خلال : جمع خلة : الصفة .
- (٥) الاحدوثة : السيرة .
- التخلص الى اغنائهم : سد حاجتهم .

- ٢١ -

كتاب التربيع والتدوير



مركز بحوث الحاسب والعلوم الحديثة

قال ابو عثمان :

[- التعريف باحمد بن عبد الوهاب وذكر موضوع الرسالة]

كان أحمد بن عبد الوهاب مفروط القصر ويدعي أنه مفروط الطول . وكان مربعاً وتحسبه لسعة جفرتة واستفاضة خاصرته مدوراً . وكان جعد الأطراف قصير الأصابع ، وهو في ذلك يدعي السباطة والرشاقة ، وأنه عتيق الوجه أحمص البطن معتدل القامة تام العظم . وكان طويل الظهر قصير عظم الفخذ ، وهو مع قصر عظم ساقه يدعي أنه طويل الباد رفيع العماد عادي القامة عظيم الهامة ، قد أعطي البسطة في الجسم والسعة في العلم . وكان كبير السن متقادم الميلاد ، وهو يدعي أنه معتدل الشباب حديث الميلاد . وكان أدعاؤه لأصناف العلم على قدر جهله بها ، وتكلفه للإنبابة عنها على قدر غباوته فيها . وكان كثير الاعتراض ، لهجاً بالمراء ، شديد الخلاف ، كلفاً بالمجازبة ، متتابعاً في العنود ، مؤثراً للمغالبة ، مع إضلال الحجة والجهل بموضع الشبهة ، والخطرفة عند قصر الزاد ، والمعجز عند التوقف ، والمحاكمة مع الجهل بثمره المراء [ومحنة] فساد القلوب ونكد الخلاف ، وما في الخوف من

اللغو الداعي إلى السهو ، وما في المعاندة من الاثم الداعي إلى النار ، وما في المجاذبة من النكد ، وما في المغالبة من فقدان الصواب . وكان قليل السماع غمراً وصحيفاً غفلاً لا ينطق عن فكر ويثق بأول خاطر ولا يفصل بين اعتزام الغمر واستبصار المحق . يعد أسماء الكتب ولا يفهم معانيها ، ويحسد العلماء من غير أن يتعلق منهم بسبب ، وليس في يده من جميع الآداب إلا الإنتحال لاسم الأدب .

فلما طال اصطبارنا حتى بلغ المجهود منا ، وكدنا نعتاد مذهبه ونألف سبيله ، رأيت أن أكتشف قناعه ، وأبدي صفحته للحاضر والبادي وسكان كل ثغر وكل مصر ، بأن أسأله عن مائة مسألة أهزأ فيها وأعرف الناس مقدار جهله ، وليسأله عنها كل من كان في مكة ليكفوا عنا من غربه ، وليردوه بذلك إلى ما هو أولى به . كأنه لم يسمع بقول النبي صلى الله عليه وسلم في السائب بن صيفي : « هذا شريكى الذى لا يشارى ولا يمارى » . ولا بقول عثمان : إذا كان لك صديق فلا تماره ولا تشاره ، ولا بقول ابن أبي ليلى : لا أمارى أخى إماماً أن أكذبه وإماماً أن أغضبه ، ولا بقول ابن عمر : لا يصيب الرجل حقيقة الايمان حتى يترك المرء وهو محق . وكأنه لم يسمع بقول الشاعر :

خِلَافاً عَلَيْنَا مِنْ قِيَالَةِ رَأْيِهِ كَمَا قَبِلَ قَبْلَ الْيَوْمِ خَالَفَ فَتَذَكَّرَا

ولم يسمع بقول الأول : رَأَهُ مُعَدَّاً لِلْخِلَافِ . البيت . ولا بقول الآخر :

لَنَا حَاجِبٌ مُوَلَّعٌ بِالْخِلَافِ كَثِيرُ الْمِرَاءِ قَلِيلُ الصُّوَابِ
الْحُجُّ لَجَاجاً مِنَ الْخُنْفُسَاءِ وَأَرْهَى إِذَا مَا مَشَى مِنْ غُرَابِ

وقالوا : فلان أخلف من بول الجمل . ولذلك قال الشاعر :

وَأَخْلَفُ مِنْ بَوْلِ الْبَعِيرِ فَإِنَّهُ إِذَا قَبِلَ لِلْإِقْبَالِ أَقْبَلَ أَدْبَرَا

قال رجل لزهير البياي : أين نبت المرء ؟ قال : عند أصحاب الأهواء .
 وقال عمر بن عبد العزيز : من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل . وكان
 عمر بن هبيرة يقول : اللهم إني أعوذ بك من المرء وقلة خيره ، ومن اللجاج
 وتندم أهله . وقال بعض المذكورين : اللهم إنا نعوذ بك من المرء وقلة خيره
 وسوء أثره على أهله ، فانه يهلك المرءة ويذهب المحبة ويفسد الصداقة
 ويورث القسوة ويضري على القحة ، حتى يصير الموجز حطلا والحليم نزقاً
 والعتوقى خبوطاً ، والصدوق كذباً . والمرء من أسباب النضب ، وأقرب ما
 يكون الرجل من غضب الله إذا غضب كما أنه أقرب ما يكره من رحمة الله إذا
 سجد . لقول الله عز وجل : ﴿ واسجد واقترب ﴾ .

وقال لقمان لابنه : إياك والمرء فإنه لا تعقل حكمته ولا تؤمن لهجته .
 وقال آخر : المرء غصبة والصمت حكمة ، ولو كان المرء فحلاً والفخر أما ما
 ألقها إلا الشر . وقال الشعبي : إني لاستحيي من الحق أن أعرفه ثم لا أرجع
 إليه . وقال ابن عيينة قال الحسن : ما رأيت فقيها قط يداري ولا يماري ، إنما
 ينشر حكمته فان قبلت حمد الله وإن ردت حمد الله . عن ابراهيم بن
 إسماعيل بن عائذ بن المبارك بن سعيد قال : قال مجاهد : صحبت رجلاً من
 قريش ونحن نريد الحج فقلت له يوماً : هلم نتفاح الرأي ؟ فقال : دع الود
 كما هو . فعلمت والله أن القرشي قد غلبني . وقال إسحاق الموصلي : كثرة
 الخلاف حرب ، وكثرة المتابعة غش .

[٢ - وصف ساخر لجسم أحمد بن عبد الوهاب المريخ المدور]

بسم الله الرحمن الرحيم : أطال الله بقاءك وأتم نعمته عليك وكرامته
 لك . قد علمت حفظك الله أنك لا تحسد على شيء ، حسدك على حسن
 القامة ، وضخم الهامة ، وعلى حور العين ، وجودة القد ، وعلى طيب

الأحدوثة ، والصنيعة المشكورة ، وأن هذه الأمور هي خصائصك التي بها تكلف ، ومعانيك التي بها تلتهج ، وإنما يحسد أبقاك الله المرء شقيقه في النسب ، وشفيعه في الصناعة ، ونظيره في الجوار ، على طارف قدره أوتالد حظه ، أو على كرم في أصل تركيبه ومجاري أعراقه وأنت تزعم أن هذه المعاني خالصة لك مقصورة عليك ، وأنها لا تليق إلا بك ولا تحسن إلا فيك ، وأن لك الكل وللناس البعض ، وأن لك الصافي ولهم المشوب . هذا سوى الغريب الذي لا نعرفه ، والبديع الذي لا نبلغه . فما هذا الغيظ الذي أنضجك ، وما هذا الحسد الذي أكمذك ، وما هذا الإطراق الذي قد اعتراك ، وما هذا الهم الذي قد أضناك ؟ وهل رأيت أخسر صفقة ولا أوهن قوة ممن يُجري العتاق مع الكوادر ، والروائع مع الحواسر ، وممن حاكم من يسالمة ، وجاذب من يقلده ؟ وهل رأيت مكيناً يقلق ومصنوعاً له يسخط ، وهل زدت على أن أطمعت في نفسك ومكنت للشبهة في أمرك ، وأنشأت للخامل ذكراً وللوضيع قدراً ؟ إنك لا تعرف الأمور ما لم تعرف أشباهها ، ولا عواقبها ما لم تعرف أقدارها ولن يعرف الحق من يجهل الباطل ، ولا يعرف الخطأ من يجهل الصواب ، ولا يعرف الموارد من يجهل المصادر ! فانظر لم تسالمت النفوس مع تفاوت منازلها ، ولم تجاذبت عند تقارب مراتبها ، ولم اختلف الكثير واتفق القليل ، ولم كانت الكثرة علة للتخاذل والقلّة سبباً للتناصر . وما فرق ما بين المجارة والتحاسد وبين المنافسة والتغالب ؟ فإنك متى عرفت ذلك استرحت منا ورجونا أن نستريح منك ، وكيف يعرف السبب من يجهل المسبب ، وكيف يعرف الوصل من يجهل الفصل وكيف يعرف الحدود من لم يسمع الفصول ، وكيف يعرف الحجة من الشبهة والعذر من الحيلة والواجب من الممكن والعقل من الموسوم والمعقول من الموهوم ، والمحال من الصحيح والأسرار المجهولة من ذوات الدلائل الخفية ، وما يعلم ما لا يعلم وما يعلم باللفظ دون الإشارة مما لا يعلم إلا بالإشارة دون اللفظ ، وما يعلم معتقداً مما لا يعلم مكيناً وما

يعلم مكينا مما لا يعلم معتقداً ، وما المستغلق الذي يجوز أن يفارقه استغلاقه
والمستبهم الذي لا يفارقه استبهامه ، ومن هو طائر مع العوام حيث طارت
وساقط معها حيث سقطت مع الزراية عليها والرغبة عنها ، قد ظلمها بفضل
ظلمه لنفسه وجرى معها بقدر مناسبتها القدرة . فاعرف الجنس من الصنف
والقسم من النصف ، وفرق ما بين الظم واللوم ، وفصل ما بين الحمد والشكر
وحد الاختيار من الإمكان والاضطرار من الإيجاب . وسنعرفك من جملة ما
ذكرنا باباً أنت إليه أحوج وهو علينا أرد .

إعلم أن الحسد اسم لما فضل عن المنافسة ، كما أن الجبن اسم لما
فضل عن التوقي والبخل اسم لما قصر عن الإقتصاد ، والسرف ما جاوز
الجود . وأنت جعلت فداك لا تعرف هذا ولو أدخلتك الكبر ونفخت عليك إلى
يوم ينفخ في الصور . وهل في الأرض إقرار أثبت أو دليل أوضح أو شاهد
أصدق من شاهدي على ما ادعيت لنفسك من الرفعة مع ما ظهر من حسدك
لأهل الضعة ؟ وهل تكون بعد ذلك إلا فاسد الحسن ظاهر العنود أو جاهلاً
بالمحال . . ؟!

مركز تحقيقات كويت علوم إسلامي

وبعد فأنت أبقاك الله في يدك قياس لا ينكسر ، وجواب لا ينقطع ، ولك
حد لا يفل ، وغرب لا ينثني . وهو قياسك الذي إليه تنسب ومذهبك الذي
إليه تذهب ، أن تقول : وما علي أن يراني الناس عريضاً وأكون في حكمهم
غليظاً وأنا عند الله طويل جميل وفي الحقيقة مقدود رشيق ! فقد علموا حفظك
الله أن لك مع طول الباد ركباً طول الظهر جالساً ، ولكن بينهم فيك اذا قمت
اختلاف ، وعليك لهم إذا اضطجعت مسائل . ومن غريب ما أعطيت وبديع ما
أوتيت أنا لم نر مقدوداً واسع الجفيرة غيرك ، ولا رشيقاً مستفي الخاصرة
سواك ! فأنت المديد ، وأنت البسيط ، وأنت الطويل ، وأنت المتقارب .
فيا شعرا جمع الأعاريض ويا شخصاً جمع الاستدارة والطول ! بل ما يهملك

من أقاويلهم ويتعاضمك من اختلافهم والراسخون في العلم والناطقون بالفهم يعلمون أن استفاضة عرضك قد أدخلت الضيم على ارتفاع سمكك ، وأن ما ذهب منك عرضاً قد استغرق ما ذهب منك طولاً . ولئن اختلفوا في طولك لقد اتفقوا في عرضك . وإذا قد سلّموا لك بالرغم شطراً ومنعوك بالظلم شطراً فقد حصلت ما سلّموا وأنت على دعواك فيما لم يسلموا . ولعمري إن العيون لتخطيء ، وإن الحواس لتكذب ، وما الحكم القاطع إلا للذهن ، وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل إذ كان زماماً على الأعضاء وعياراً على الحواس . ومما يثبت أيضاً أن ظاهر عرضك مانع من إدراك حقيقة طولك قول أبي ذؤاد الإيادي في إبله :

سَمِنْتُ وَاسْتَحَشُّ أَكْرَعُهَا لَا النَّيُّ نِيٌّ وَلَا السَّنَامُ سَنَامٌ

وقول رافع بن هريم :

أَدَقُّ شَوَاهَا عِنْدَ بُهْرَةَ جَوْفِهَا سَنَامٌ كَقَصْرِ الْهَاجِرِيِّ مُقَرَّمَدٌ

مركز تقيت كويتية للدراسات والبحوث

ولو لم يكن من العجب إلا أنك أول من تعبدته الله تعالى بالصبر على خطأ الحس وبالشكر على صواب الذهن ، لقد كنت في طولك آية للسابليين ، وفي عرضك منارا للضالين : وقد تظلم المربع مثلي من الطويل مثل محمد ومن القصير مثل أحمد إذ زعم محمد أنه إنما أفرط في الرشاقة ونسب إلى القضاة لأن إفراط طوله غمر الاعتدال من عرضه . وزعم أحمد أنه إنما أفرط في العرض ونسب إلى الغلظ لأن إفراط عرضه غمر الاعتدال من طوله . وكلاهما يحتاج إلى الاعتذار ويفتقر إلى الاعتلال . والمربع بحمد الله قد اعتدلت أجزاءه في الحقيقة كما اعتدلت في المنظر ! فقد استغنى بعز الحقيقة عن الاعتذار وبحكم الظاهر عن الاعتلال . وقد سمعنا من يذم الطوال كما سمعنا من يزري

على القصار ، ولم نسمع أحداً ذم المربعوع ولا أزرى عليه ولا وقف عنده ولا .
شك فيه ، ومن يذمه إلا من ذم الاعتدال ، ومن يُزري عليه إلا من أزرى على
الاقتصاد ، ومن يُنصب للصواب الظاهر إلا المعاند ، ومن يماري في العيان إلا
الجاهل ! بل من يُزري على أحد بتفاهم التركيب وبسوء التنضيد مع قول الله
جل ثناؤه « مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ » .

وبعد ، فاي قد أردى وأي نظام أفسد من عرض مجاوز للقدر وطول
مجاوز للقصد ؟ ومتى لم يضرب العرض بسهمه على قدر حقه ويأخذ الطول
من نصيبه على مثل وزنه خرج الجسد من التقدير وجاوز التعديل . وإذا خرج
من التقدير تفساد ، وإذا جاوز التعديل تباين ! ولكن جاز هذا الوصف وحسن
هذا النعت كان لقياس التُّمار من الفضيلة ما ليس لأحمد بن عبد الوهاب .
وهذا كله بعد أن يصدقك على ما ادعيت لطولك في الحقيقة واحتججت
لعرضك في الحكومة . على أنك باعتلالك لما ينفيه العيان واستشهادك لما
تنكره الأذهان متعرض للصدق من المتكرم ومتحكك بالحكم من المتغافل !
وأي صامت لا ينطقه هذا المذهب ، وأي ناطق لا يعزبه هذا القول ! وإذا كان
هذا ناقضا لعزم المتسلم فما ظنك بعادة المتكلف ! فأنشدك الله أن تغري بك
السفهاء أو تنقض عزائم الحكماء ! وما أدري حفظك الله في أي الأمرين أنت
أعظم إثما ، وفي أيهما أنت أفحش ظلما ، أبتعرضك للعوام ، أم بافسادك
حكم الخواص .

وبعد ، فما يحوجك إلى هذا وما يدعوك إليه ، وأشباهك من القصار
كثير ، ومن ينصرك منهم غير قليل . وقد رأيتك زمانا تحتج بالنعمان بن
المنذر ، وبضمرة بن ضمرة ، وبمُجاعة بن مُرارة وبمُجاعة بن سِعر ، وبأوفى بن
زُرارة ، وبعبد الله بن الجارود ، وبعلباء بن الهيثم ، وبسعيد بن قيس ، وبأيي
اليسر كعب بن عمرو ، وبِحَسَكَة بن عَتَاب ، وبمخارق بن غفار ، وبعمران بن

حِطَّان ، وبيوسف بن عمر ، وبأياس بن معاوية ، وبمعن بن زائدة ، وبعقبة بن سلم ، وبرجال ناهيك بهم رجالاً وبأعلام كفاك بهم أعلاماً .

ورأيتك تقول : إن كان الفضل في النكايه وفي الشدة والصلابة فقصار كل شيء أشد ضرراً وأدق مدخلاً وأظهر قوة وجلداً ، كالحجارة أصلها الحصى ، وكالحيات أقتلها الأفعى ، وكالبعوض أضرها القرقس وكالعقارب أقتلها الجرارات وكذلك أحرار الطير وبغائها وصغار البراغيث وكبارها .

وقلت : إن كان الفضل في العدد فمننا يأجوج ومأجوج ، ومنا الذر والفراش ، ومنا الدعاميص والبعوض ، ومنا الرمل والتراب وقطر السحاب . واحتججت بأن الحسن والفضل لصغار ما في الإنسان كالناظرين والانشيين وحبه القلب وأم الدماغ . وزعمت أن الإنسان إذا طال جسمه وامتد شخصه أسرع الإهدام إلى بدنه والإنحاء إلى ظهره ، وأن القصير لا يتقوس ظهره ولا يميل عنقه ولا يضطرب شخصه ولا تعوج عظامه ، ويسعه كل باب ويقطعه كل ثوب ولا تخرج رجلاه من النعش ولا تفضلا عن الفراش ، وهو بعد أخف على القلوب وأخلط بالنفوس وأبعد من السماجة وأدخل في كل باب ملاحه .

وقلت : وتقول الناس : ما هو إلا فلفلة ، وما هو إلا زنبقة ، وما هو إلا شرارة ، وما لسانه إلا لسان ضبة . ولم أزل أراك تقدم العرض على الطول وتزعم أن الأرض لم توصف بالعرض دون الطول إلا لفضيلة العرض على الطول . وذلك كقول الشعراء ووصف العلماء ، وقال الشاعر :

كَأَنَّ بِلَادَ اللَّهِ وَهِيَ عَرِيضَةٌ عَلَى الْخَائِفِ الْمَطْلُوبِ كِفَّةُ حَابِلِ

ولم يقل : كأن بلاد الله وهي طويلة . وقال آخر :

وَفِي الْأَرْضِ لِلْمَرْءِ الْعَرِيضَةِ مَذْهَبٌ

ولم يقل : الطويلة . وقال :

وَلَا تُحْسِدَانِي بِسَارِكِ اللَّهِ فِيكُمْ عَلَى الْأَرْضِ ذَاتِ الْعُرْضِ أَنْ تُوسِعَا

وقال الراجز :

تَقْطَعُ أَرْضاً وَتُلَاقِي أَرْضاً إِنَّ الْبِلَادَ غَلَبَتْنِي عَرْضاً

ولم يقل : طويلاً . وقلت : لولا فضيلة العرض على الطول لما وصف الله الجنة بالعرض دون الطول حيث يقول جل ثناؤه : ﴿ وَجَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ . فهذه براهينك الواضحة ودلائلك الظاهرة ، ولو لم يكن فيك من الرضا والتسليم ومن القناعة والإخلاص إلا أنك ترى أن ما عند الله خير لك مما عند الناس ، وأن الطول الخفي أحب إليك من الطول الظاهر ، لكان في ذلك ما يقضي لك بالإنصاف ويحكم لك بالتوفيق .

وأنا أبقاك الله أتعشق إنصافك كما أتعشق المرأة الحسنة ، وأتعلم خضوعك للحق كما أتعلم التفقه في الدين ، ولربما ظننت أن جورك إنصاف قوم آخرين ، وأن تعقدك سماح رجال منصفين ، وما أظنك صرت إلى معارضة الحجة بالشبهة ومقابلة الإختيار بالاضطرار واليقين بالشك واليقظة بالحلم ، إلا للذي خصصت به من إشار الحق وألهمته من فضيلة الإنصاف ، حتى صرت أحوج ما تكون إلى الإنكار أذعن ما تكون بالإقرار ، وأشد ما تكون إلى الحيلة فقراً أشد ما تكون للحجة طلباً ، إلا أن ذلك بطرف ساكن وصوت خافض وقلب جامع وجأش رابط وبنية حسنة وإرادة تامة مع غفلة كريم وفطنة عليم ! إن انقطع خصمك تغافلت ، وإن خرق ترفقت ، غير منخوب ولا متشعب ولا مدخول ولا مشترك ولا ناقص النفس ولا واهن العزم ولا حسود ولا منافس ولا مغالب ولا معاقب ، تفل الحز وتصيب المفصل وتقرب البعيد وتظهر الخفي وتميز الملتبس وتخلص المشكل ، وتعطي المعنى حقه من اللفظ كما تعطي

اللفظ حقه من المعنى ، وتحب المعنى إذا كان حياً يلوح وظاهراً يصيح ،
وتبغضه إذا كان مستهلكاً بالتعقيد ومستوراً بالتغريب . وتزعم أن شر الألفاظ ما
أغرق المعاني وأخفاها وأسرها وعمّأها وإن راققت سمع الغمر واستمالت قلب
الريض . واعجب الألفاظ عندك مارق وعذب وخف وسهل وكان موقوفاً على
معناه ومقصوراً عليه دون ما سواه ، لا فاضل ولا مقصر ولا مشترك ولا
مستغلق ، قد جمع خصال البلاغة واستوفى خلال المعرفة . فإذا كان الكلام
على هذه الصفة وألف على هذه الشريطة لم يكن اللفظ أسرع إلى السمع من
المعنى إلى القلب ، وصار السامع كالقائل والمتعلم كالمعلم ، وخفت المؤونة
واستغني عن الفكرة وماتت الشبهة وظهرت الحجة ، واستبدلوا بالخلاف وفاقوا
وبالمجازبة موادعة، وتهنؤوا بالعلم وتشفوا ببرد اليقين واطمأنوا بثلج الصدور، وبان
المنصف من المعاند وتميز الناقص من الوافر وذل المخطل وعز المحصل
وبدت عورة المبطل وظهرت براءة المحقق .

وقلت : والناس وإن قالوا في الحسن : كأنه طاقة ريحان ، وكأنه خوط
بان ، وكأنه قضيب خيزران ، وكأنه غصن بان ، وكأنه رمح رديني ، وكأنه
صفحة يمانية ، وكأنه سيف هندواني ، وكأنها جان ، وكأنها جدل عنان : فقد
قالوا : وكأنه المشتري ، وكان وجهه دينار هرقلي ، وما هو إلا البحر ، وما هو
إلا الغيث وكأنه الشمس ، وكأنها دارة قمر ، وكأنها الزهرة ، وكأنها درة ،
وكانها غمامة ، وكأنها مهابة . فقد تراهم وصفوا المستدير والعريض بأكثر مما
وصفوا به القضيف والطويل :

وقلت : وجدنا الأفلاك وما فيها والأرض وما عليها على التدوير دون
التطوير ، وكذلك الورق والتمر والحب والتمر والشجر .

وقلت : والرمح وإن طال فإن التدوير عليه أغلب ، لأن التدوير قائم فيه
موصولاً ومفصلاً ، والطول لا يوجد فيه إلا موصولاً . وكذلك الإنسان وجميع

وقلت : ولا يوجد التربيع إلا في المصنوع دون المخلوق ، وفيما أكره
على تركيبه دون ما(خلي وسوم طبيعته ، وعلى أن كل مربع ففي جوفه مدور .
فقد بان المدور بفضله وشارك المطول في حصته . ومن العجب أنك تزعم
انك طويل في الحقيقة ثم تحتج للإستدارة والعرض ، فقد أضربت عما عند
الله صفحاً ، ولهجت بما عند الناس . فأما حور العين فقد انفردت بحسنه
وذهبت ببهجته وملحه ، إلى ما أبانك الله به من الشكلة فانها لا تكون في اللثام
ولا تفارق الكرام . وقال الشاعر :

وَلَا عَيْبَ فِيهَا غَيْرَ شُكْلَةٍ عَيْنِهَا كَذَاكَ عِتَاقُ الطُّيْرِ شُكْلٌ عِيُونُهَا

وقال آخر :

وَشُكْلَةٌ سَيْنٍ لَسُو حَيْثَ يَبْغُضُهَا لَكُنْتَ مَكَانَ النُّجْمِ مَرَأَى وَمَسْمَعَا

فأما سواد الناظر وحسن المحاجر وهذب الأشفار ورقة حواشي الأجفان ،
فعلى أصل عنصرك ومجاري أعراقك . وأما إدراكك الشخص البعيد وقراءتك
الكتاب الدقيق ونقش الخاتم قبل الطبع وفهم المشكل قبل التأمل ، مع وهن
الكبر وتقدم الميلاد ، ومع تخون الأيام وتنقص الأزمان ، فمن توتياء الهند
وترك الجماع ، ومن الحمية الشديدة وطول استقبال الخضرة . فأنت يا عم
حين تصلح ما أفسد الدهر وتسترجع ما أخذت منك الأيام ، لكما قال الشاعر :

عَجُوزٌ تُرَجِّي أَنْ تَكُونَ فِتِيَّةً وَقَدْ لِحَبَّ الْجَنَّبَانِ وَاحْدُودَبَ الظُّهْرِ
تَدَسُّ إِلَى الْعَطَارِ مِيسِرَةَ أَهْلِهَا وَهَلْ يُصْلِحُ الْعَطَارُ مَا أَفْسَدَ الدَّهْرُ

[٣ - مرء احمد بن عبد الوهاب]

وكيف أطمع في نزوعك عن اللجاج وقد سقيته قبل المجاج ، وكيف

أرجو إقرارك جهراً وقد أبيت سرّاً ، وكيف تجود به صحيحاً مطمعا وقد بخلت به مريضاً مؤيساً ، وكيف يرجو خيرك من يراك تطاول أبا جعفر وتخاشنه وتنأفره وتراهنه ، ثم لا تفعل ذلك إلا في المحافل العظام وبحضرة كبار الحكام ، ثم تستغرب ضحكا من طمعه فيك وتعجب الناس من مجاراته لك ، وأشهد لك بعد هذا أنك ستخاشن عمرو بن بحر وتعاقله ثم تظارفه وتطاوله ، وتغني مع مخارق وتنكر فضل زُرزور ، وتستجهل النظم وتستبرد الأصمعي ، وتستغبي قيس بن زهير ، وتستخف الأحنف ابن قيس ، وتبارز أبا الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه . ثم تخرج من حد الغلبة إلى حد المراء ، ومن حد الأحياء إلى حدود الموتى ! هذا وليس لك مساعد ولا معك شاهد واحد ولا رأيت أحداً يقف في الحكم عليك أو ينتظر تحقيق دعواك ، ولا رأيت مبصراً يخليك من التأنيب ، ولا مؤنباً يخليك من الوعيد ، ولا متوعداً يخليك من الإيقاع ، ولا موقعاً يرثي لك ، ولا شافعا يشفع فيك .

[٤ - الهزء من كبر سن احمد بن عبد الوهاب]

يا عم لم تحملنا على الصدق ، ولم تجر عنا مرارة الحق ، ولم تعرضنا لأداء الواجب ، ولم تستكثر من الشهود عليك ، ولم تحمل الاخوان على خلاف محبتهم لك ؟ إجعل بدل ما تجني على نفسك أن تجني على عدوك ، وبدل ما تضطر الناس إلى أن يصدقوا فيك أن تضطرهم إلى أن يمسكوا عنك . ولا بد يرحمك الله لمن فاته الطول من أن يلقي بيده أو من أن يقول بخلاف ما يجد في نفسه . فوالله إنك لجيد الهامة ، وفي ذلك خلف من حسن القامة ، وإنك لحسن الحظ ، وفي ذلك عوض من حسن اللفظ ، وإنك لقليل الشيب لليل البول ، وإنك لتجد مقالا ، وإنك لتعد خصالا . فقل معروفنا من أعوانك ، واقتصد فإننا من أنصارك ، وهات فانك لو أسرفت لقلنا قد اقتصدت ، ولو جرت لقلنا قد اهتديت . ولكنك تجيء بشيء : ﴿ تَكَاذُ

السَّمَوَاتُ يَتَقَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ﴿١٠﴾ ولو غششناك لساعدناك ، ولو نافقناك لأغريناك ، ولربما عذرتك ولان جانبي لك فأقول :
 خرف الشيخ إذا كان جاداً ، وعبث إن كان هازلاً . وقد يعجل الخرف إلى أحدث منك سنأً ويطيء عن أطول منك عمراً . بل من هذا الذي يعد من السنين ما تعد وبلغ من الكبر ما بلغت ؟ وعند من يدرك هذا العلم إلا عند النجوم أو عند إبليس الرجيم ، بل من يعرف ذلك إلا فاطر السموات والأرض . لو عرفت عقبان خطفة ونسور السراة وأحناش الرمل وغير العانة وورشان الغابة وشيوخ اليمامة وهرمي فرغانة ، إنك لا تعد عمر نوح عمراً ولا النجوم يوماً ، وإنك قد فت التاريخات وجزت حساب الباورات واستقللت الأحقاب وخرجت من خطوط الهند لما استطالت بأعمارها ولا فرحت بطول أيامها ! فيا فعيد الفلك كيف أمسيت ، ويا قوة الهيولي كيف أصبحت ، ويا نسر لقمان كيف ظهرت ، ويا أقدم من دوس ويا أسن من بُد ويا صفى المشقر ويا صاحب المسند .

مرکز تحقیقات کتب و تاریخ علوم اسلامی

[٥ - أسئلة على الطوفان]

حدثني كيف رأيت الطوفان ، ومتى كان سيل العرم ، ومذكم مات عوج ، ومتى تلبلت الألسن ، وما حبس غراب نوح ، وكم لبثتم في السفينة ، ومذكم كان زمان الخُنان ويوم السلان ويوم خزاز ووقعة البيداء . هيهات ! أين عاد وشمود ، وأين طُسم وجديس ، وأين أميم ووبار ، وأين جُرههم وجاسم ، أيام كانت الحجارة رطبة وإذ كل شيء ينطق ، ومذكم ظهرت الجبال ونضب الماء عن اللحف ، وأي هذه الأودية أقدم ، أنهر بلخ أم النيل أم الفرات أم دجلة أم جيحان أم سيحان أم مكران ، وأين تراب هذه الأودية ، وأين طين ما بين سفوح الجبال إلى أعاليها ، في أي بحر كبست وفي أي هبطة شحنت ، وكم نشأ لذلك من أرض وحدث من عين ؟

[٦ - اسئلة تاريخية]

جعلت فداك ، من أبو جُرحم ، ومن رهط الدجال ، وهل تعرف له شبيهاً ؟ أين طُوس ، وما قصة ابن صائد ، ومن سوشى المنتظر . وخبرني عن هَرمس أهو إندريس ؟ وعن أرميا أهو الخضر ؟ وعن يحيى بن زكريا أهو إيليا ؟ وعن ذي القرنين أهو الإسكندر ؟ ومن أبوه ومن أمه ، ومن قيرى وعيرى ، ومن جُلندى ، ومن أولاد الناس من السعالي ، وما الحوش من الأبل ، وخبرني عن قحطان ، العابر هو أم لإسماعيل . وعن قضاة ، أَلعدُّ بن عدنان أم لمالك بن حمير . ومتى تخزعت خُزاعة ، ومتى طوت المناهل طيء ، ومن ابن بنصر ، وما تلك السبيل ، وما قصة الزهرة ، وما شأن سهيل ، وما القول في هاروت وماروت ، وما شأن الإريانة ، وما قصة الفارة وجرم الوزغة ، وما إحسان الحمامة ، وما تفريط العظاية ، وما خصب الضفادع ، وما تسبيح الصرد ، وما عداوة ما بين الديك والغراب ، وما صداقة ما بين الجن والأروية ، ومن أين لها الماء ، وما بلغ من عقل الهدهد ، وأين قبر أمه ، ولم تنت ربحه .

وخبرني عن الأمة التي مسخت ثم فقدت ، ممن كانت وإلى أي شيء صارت ! أخذت براً أم بحراً ؟ فإن كانت بحريّة أفهي الجريّ ، وإن كانت برية أفهي الضباب ؟ وما آوى ، وما حُبين ، وما عُرس ، وما أوبر ، وما وردان ، وما قصة الطرائث ، وما سبب كون السنابير ، وما علة خلق الخنزير ، وكيف اجتمع في الذبابة سم وشفاء ؟ وكيف لم يقتل الأفعى سمها ، وكيف لم يحرق الشمس ما عند قرصها .

وخبرني عن الأبدال ، أهم اليوم بالعرج أم ببيسان أم كما كانوا متفرقين ، وخبرني أكلهم موال أم كلهم عرب أم هم أخلاط ، وما فعل صاحب إنطاكية

ولم أقيم سلمان بعد بلال ، ومن جعل بعد سلمان ، ومن عشاثرهم وأين دورهم وأين أهلهم ، وكيف لم يتقدموهم ويتفقدوهم ، وكيف صارت بئسان لسان الأرض يوم القيامة ! وكيف صارت كبد الحوت أول طعام أهل الجنة ، ولم تسمى نونا ، وهل الرجفة من حركته ، وهل الزلزلة من تنقله ، وما الخسف ، وكيف شاهدت المسخ على طول الأيام ، أنقلبت خلقتهم أم صار ذلك ضربة واحدة ، وهل عاشوا أم أبلسوا أم تركوا ثلاثاً ثم أبطلوا ، وهل كانوا يتعارفون بعد المسخ ويعرفون بعض ما قد نزل بهم بعد القلب .

وخبرني عن بحار بنطس ، وعن قبيس وعن الأصم وعن المظلم ، وعن جبل الماس ، وعن الباكي ، وعن قاف ، وأين كنت عام الجحاف ، ومذ كم كان زمن الفطحل ، وأين كان ملك الأزدي ، وأين كان من ملك الإشكان ، وأين كان من ملك بني ماسان ، وأين كان خره أردشير من استاشف ، وأين كان أبرويز من أنو شروان ، وأين جزيمة من تبغ ، وأين الفتيجب من بلهره ، وأين بغبور من قيصر . وخبرني عن الفراعنة ، أهم من نسل العمالقة ؟ وعن العمالقة أهم من قوم عاد . وخبرني أهم من عاد الأولى أو من عاد الأخرى ؟ وخبرني عن عطاردي الهندي وجوابه لعطاردي السماوي حين هبط إليه من فلكه ، وهل جرى بينهما إلا ما سمعنا ومذ كم كان ذلك .

وخبرني : كيف كان أصل الماء في ابتدائه في أول ما أفرغ في إنائه ، أكان بحراً أجاجاً استحال عذباً زلالاً ، أم كان زلالاً عذباً استحال أجاجاً بحراً ؟

خبرني : كيف صار الماء أبعد من الفلك ولا يكون إلا في بطن الأرض ، وهو أشبه بالهواء كما أن الهواء أشبه بالنار ، وكيف يكون أحق بالوسط والأرض أبعد من سية الفلك ، وكيف طمع جعلت فداك الدهري في مسألة العلاة والمطرقة وفي البيضة والدجاجة ، مع تقادم ميلادك ومرور الأشياء

على بدنك ، وكيف كان بدء أمر البُدِّ في الهند ، وعبادة الأصنام في الأمم ،
وقصة عمرو بن لُحي في العرب .

وخبرني عن عَنَاق بنت آدم ، وعن ميسرة ومسرة ، وعن مهنة ومهينة ،
وعن بهيا وطبوحيا ، ومد كم عمرت جزيرة العرب ، ومد كم بادت يونان ، وعن
فصل ما بين السند والهند ، والهند والميد ، وعن جميع من هلك بالرُعاف ،
وعن من أفناهم النمل ، وعن من أجحف بهم السيل ، وعن أصحاب النعمان
كم صنفهم ، وما تقول في الرجم السماوي أكان من عظام البَرَد أم كحجارة
الطير الأبايل التي خلقت من سجيل ؟

[٧ - اسئلة طبيعية]

وخبرني : عن معنى الفرائد على حقه وصدقه ، وعن نضوب البحر ،
وعن تنقص الأرض ، ولم عمل الفلك في هذا العالم وليس بينهما شبه ! وهلا
عمل فيه بقدره منه ، وهل يجوز أن يعمل شيء في شيء إلا والآخر يعمل
فيه . وخبرني : مذ كم كان الناس أمة واحدة ولغاتهم متساوية ، وبعد كم بطن
أسود الزنجي وبيض الصقلي ، ولم صار اللون أسرع تنقصاً من الجمود ، ولم
كان الولد يجيء على شبه ما في أبيه من الأمور الحادثة في بدنه غير القديمة
في أصل تركيبه ، ومع ذلك لم يولد صبي قط في العرب مجنوناً ، وما هذه
الخاصية التي منعت من هذا المعنى ؟ . وفي كم تمت لكل فرقة بعد التبليبل
لغتها واستفاض لسانها .

[٨ - اسئلة على علم الحياة]

خبرني : جعلت فداك ، أيما أطول عمرا : الناس أم غير العانة أم الحية

أم الضب ، ومتى تستغني الحية عن الغذاء ، ومتى يتتفع الضب بالنسيم ، ومتى ينقطع النسر عن السفاد ، وكيف صار البغل لا ينسل وهو ولد الرمكة من العير ، وكذلك السَّمْعُ لا ينسل وهو ولد الضبع من الذئب ، والراعي ينسل وهو ولد الحمام من الورشان ، والبُخْتِي ينسل وهو من ولد [الغراب] من الفوالج ، ولم يسمع في الظلف إذا اختلفت ولم يسمع في الحافر ولا في الخف إذا اختلف . وخبرني عن الزرافة أمن ولد الناقة أم من الضبع ، وعن الشبوط أمن ولد البني من الزجر . وخبرني : ما عنقاء مُغرب وما أبوها وما أمها ، وهل خلقت وحدها أم من ذكر وأنثى ، ولم جعلوها عقيما وجعلوها أنثى ، ومتى تمهد لذلك الصبي ، ومتى تظل بجناحها شيعة الإمام ، ومتى يلقي في فيها اللجام ، ومتى يباع له الكبريت الأحمر ويساق إليه جبل الماس .

وخبرني عن بناء سور الأبلّة وعمن حير الحيرة ، ومن أنشأ بنيان مصر ، ومن صاحب كربنداذ ومدينة سمرقند . وخبرني : عن البناء الذي يضاف بالمداثن إلى سام ، أهو لسام ؟ وعن تدمير أهو لسليمان ! وأين ملك أخاذ بن عمري من ملك نمروود الخاطيء ، وأين وقع ملك ذي القسرين من ملك سليمان .

وقد كنت أطل الله بقاءك في الطول زاهداً وعن القصر راغباً ، وكنت أمدح المربوع وأحمد الاعتدال ، ولا والله أن يقوم خير الاعتدال بشر قصر العمر ، ولا جمال المربوع بما يفوت من منفعة العلم ، فأما اليوم فيا ليتني كنت أقصر منك وأضوى ، وأقل منك وأقمى ، وليس دعائي لك بطول البقاء طلباً للزيادة ، ولكن على جهة التبعيد والاستكانة ، فإذا سمعتني أقول أطل الله بقاءك ، فهذا المعنى أريد ، وإذا رأيتني أقول لا أخلى الله مكانك ، فإلى هذا المعنى أذهب . وقد زعموا جعلت فداك أن كل ما طال عمره من الحيوان زائد في شدة الأركان وفي طول العمر وصحة الأبدان ، كالورشان ، والضباب ، وحمر

الوحش ، وكلحم النسر لمن أكله ، ولحم الحية لمن استحله ، فإن كان هذا الأمر حقاً وكان هذا العلاج نافعا وكنت له مستعملا وفيه متقدما وتراه رأيا وإن كنت عنه غنيا ، أخذنا منه بنصيب وتعلقنا منه بسبب . وكيف لي بذلك وأنا صغير الأذن وأذنك أذن أبي سهيل ، وأنا دقيق العنق وعنقك عنق قاسم التمار ، وأنا صغير الرأس ورأسك رأس جالسوت ، وفيك أمران غريبان وشاهدان بديعان : جواز الكون والفساد عليك ، وتعاور النقصان والزيادة إياك . جوهرك فلكي وتركيبك أرضي ، ففبك طول البقاء ومعك دليل الفناء . فأنت علة للمتض . وسبب للمتنافي . وما ظنك بخلق لا تضره الإحالة ولا يفسده التناقض . . ؟!

جعلت فداك ما لقي منك الذهب ، وأي بلاء دخل بك على الخمر ، كانا يتيهان بطول العمر ويبهجان ببقاء الحسن وبأن الدهر يحدث لهما الجدة . إذا أحدث لجميع الأشياء الخلوقة ، فلما أرى حسنك على حسنهما وعمر طول عمرك أعمارهما ذلا بعد العز وهاتنا بعد الكرامة ، ومالي فيك قول إلا قول الاعرابي حين ضل الطريق في الظلمة فلما عرف قصده عند طلوع القمر رفع رأسه شاكراً وهو يقول : ما أقول ! أقول رفعتك الله وقد رفعتك ، أم أقول جملك الله وقد جملك ، أم أقول عمرك الله وقد عمرك ؟ . . ولكن أقول : وهل أنطق إن نطقنا إلا رجيعاً ، وأقول ما قلت إلا لغواً . وقد زعم ناس ممن يتحلل الاعتبار ويتعاطى الحكمة ويطلب أسرار الأمور أنه ليس شيء مما يساكن الانسان في منزله وربعه وفي داره وموضع منقلبه إلا والانسان يفضله في طول العمر وفي البقاء على وجه الدهر ، كالحمام والدجاج والسنائير والكلاب والبقر والغنم والحمير والخيول والجواميس والابل . وزعموا أن أقصرها أعماراً العصافير ، وأن أطولها أعماراً البغال ، وأن العلة في طول بقاء البغل قلة السفاد ، وفي قصر عمر العصافير كثرة السفاد . وأن مما يقضي بهذه العلة ويثبت هذه القضية ما يعم الخصيان من طول العمر ، ويعم الفحولة من قصر

العمر . وما أرى حفظك الله بهذا القياس بأساً في ظاهر الرأي وما أجده بعيداً في أغلب الظن ، ولو كنت أقتل ذلك علماً وأعلمه يقيناً لكان أحب الأمور إلي أن يكون لي فيه سلف صدق وإمام لا يغلط ، وأن أحكيه عن معدل وأسنده إلى مَنع ! فقل نسمع وأشر نتبع !

يعجبني - جعلت فداك - منك بغض الشهرة ودبيبك في غمار الحشوية استغناء بنفسك ، وصونا لقدرك ، ومعرفة بما أعطيت ، وثقة بالذي أوتيت . وما أقل بحمد الله ما سبقك به إبليس ، وما أيسر ما فاتك به آدم . فزاد الله شاكرك نعمة وناصرك عزة . وقد ذكرت الرواة في المعمرين وصنعت في ذلك أخباراً ، ولم نجد على ذلك شهادة قاطعة ولا دلالة قائمة ، ولا نقدر على ردها بجواز معناها ، ولا على تثبيتها إذ لم يكن معها دليل يثبتها ، وقد تعرف ما في الشك من الحيرة ، وما في الحيرة من القلق ، وما في القلق من النصب ، وما في النصب من طول الفكرة وما في طول الفكرة من الوحشة ، وما في طول الوحشة من التعرض للوساوس والخفقة وما في إتعاب القلب وإنضاء النفس من كلال الحد ، وما في الإلحاح من دواعي الضجر ، وما في الجهل من النقص ، وما في نزاع النفس من الكد . فافتح لبيتك باباً نشترح إليه ، وأقم له علماً نقف عنده . فقد علمت ما ذكروا من عمر نابغة بني جعدة ، ومالك ذي الرقبة ، ونصر بن دهمان ، وابن ببيعة الغساني ، والربيع بن ضبيح ، ودؤيد بن نهد . وأنت أبقاك الله تعرف ميلاد آبائهم وأجدادهم وقبائلهم وعمائهم وأصولهم وأجدامهم ، فخيرني أكذبوا أم صدقوا ، أم اقتصدوا أم أسرفوا .

فأما ما رووا لأجسام الناس من الطول والعرض ، وثبتوا لهم من السمن والعظم والضحخ سوى ما نطق به الكتاب عن أجسام عاد ، فالشاهد على كذبهم حاضر ، والدليل على فساد عقولهم ظاهر ، كالذي رأينا من أقدار سيوف الأشراف وأزجة رماح الفرسان ، وكتيجان الملوك التي في الكعبة ، وكضيق أوابهم وقصر سمك عتب درجهم في قصورهم العادية ومدنهم

العُدْمِيَّة ، ويدل على ذلك الجُرون التي كانت مقابرهم وأبواب مدافنهم في بطون أرضيهم وشعف جبالهم ومطاميرهم ومواضع قناديل كنائسهم ومجالسهم وبيوت عباداتهم وملاعبهم من قمم رؤوسهم . ولو حضرنا من الشواهد على ما ادعوا من أعمارهم مثل الذي حضرنا من الشواهد على تكذيبهم في طول قاماتهم إذاً لما عينناك ولا ابتدناك ، وعلى أنه لو كان السبب في طول قاماتهم وضخم أبدانهم تقادم ميلادهم وحدة قوة الأرض قبل أن تخلق وشبابها قبل أن تهزم ، لكان ينبغي لمن كان قبلهم أن يكون أعظم منهم ، ولكان نقصان من بعدهم ممن يلي عصرهم ومن يلي أولئك على حساب ذلك .

[٩ - اسئلة على الآثار القديمة]

وخبرني أبقاك الله من كان باني ريام ، ومن أنشأ كعبة نجران ، ومن صاحب غمدان ، ومن باني تدمر ، ومن صاحب الهيرمين ، ومنذكم بنيت مأرب ، وأين كان الأبلق الفرد من المشقر ، وأين قصر التوبهار من قصر سنداد ، ومن صاحب عقرقوف ولم قضيت جعلت فداك لخمعة الإيادية على بنت الخس ولابن شرية على شقي وللنخار على ابن النطاح ، ولابن الكيس على ابن لسان الحمرة ؛ وأين كانت الزباء من ملكة سبأ ، وأين خاتون من بوران ، وأين جلندي من أسباد ، وأين حذيم من أفعى ، وأين كان لقيم من لقمان ، وأين كان كرز بن علقمة من مجرّز المدلجي . وأين كان رافع المخش من دميمص الرمل ؟ .

[١٠ - اسئلة على الاقاليم والسكان]

وخبرني عن عظمة أقاليم الخراب وعن خلاء شق الجنوب ، أذلك قائم مذ دار الفلك وكان النمو ، أو الدول بينهما مقسومة والأيام عليهما موقوفة ! ولم

قدمت إقليم دوس على إقليم بابل . وخبرني عن الشهب أتكون نهراً أم تكون ليلاً ، ولم قدمت الروم في الصنعة على أهل الصين ، ولم قدمت تبت على الزابج ، ولم فضلت السكون على الحركة ، ولم جعلت السكون فساداً والافتراق اجتماعاً . ؟ قد وجدتك جعلت فذاك خفت أن تكون ابن صائد ، ورجوت أن تكون الدجال ، ولعلك دابة الأرض ، وما أدري لعلك سوشي ! ولست بحمد الله الخضر . والذي لا أشك فيه أنك غير المسيح ، وأظن روحك روح شيقرة بل روح بلعذبون ، بل روح دلالة ، وأنتك الأركون المنتظر .

[١١ - اسئلة على الأوثان]

واحتمل لي مسألة واحدة ولا أعود وسأجعلها طويلة ولا لزيد . : كم بين ود وسواع ويفوث ويعوق ، وبين مناة والعزى والغبغب وعائم ، وبين مناف ونهم وسعد ومنهب ، ومد كم نكح أساف نائلة ، ومد كم مسخا في الكعبة ؟ وخبرني عن برهوت وبلهوت ، وعن الحامية وموضع الطاغية ، وعن سيف الصاعقة ، ومن ألقى ذلك إلى الرافضة ، وما كان مال قارون ، وما كان كثر النطف ، ولن كانت البليهة ، وما قرط مارية ، وما أصل مال ابن جُدعان وكيف كان مشورة أمه . وخبرني عن ذلك المال الذي من أخذ منه ندم ومن تركه ندم .

[١٢ - اسئلة على الفراسة ومعرفة الغيب والرئي]

جعلت فذاك قد شاهدت الإنس مذ خلقوا ، ورأيت الجن قبل أن يحجبوا ، ووجدت الأشياء بنفسك خالصة وممزوجة وأغفالا وموسومة وسالمة ومدخولة ، فما تخفى عليك الحجة من الشبهة ، ولا السقم من الصحة ، ولا الممكن من الممتنع ، ولا المستغلق من المستبهم ، ولا النادر من البديع ، ولا

شبه الدليل من الدليل . وعرفت علامة الثقة من علامة الريبة ، حتى صارت الأقسام عندك محصورة ، والحدود محفوظة ، والطبقات معلومة ، والدنيا بحذافيرها مصورة ، ووجدت السبب كما وجدت المسبب ، وعرفت الاعتلال كما عرفت الإحتجاج ، وشاهدت العلل وهي تولد والأسباب وهي تصنع ، فعرفت المصنوع من المخلوق ، والحقيقة من التمويه . فما تقول في الرئي وما تقول في الرؤيا ، وما تقول في أكسير الكيمياء ، وما تقول في كيموس الصنعة وما تقول في الزجر ، وما تقول في الفراسة ، وما تقول في الفأل ، وما تقول في الطيرة وما تقول في نمت الظلم ؟ وما تقول في معنى البركة ، وما تقول في النجوم ، وما تقول في الخيلان ، وما تقول في أسرار الكف ، وما تقول في النظر في الأكتاف ، وما تقول في قرض الفأرة ، وما تقول في إلحاح الخنفساء ، وما تقول في دوائر الرأس ، وفي أوضاع الخيل ، وفي النمس والسنور ، وفي الديك الأفرق والسنور الأسود ، وفي البول في النفق ، وفي الإطلاح في عادي الأبار ، وفي النوم بين البابين ، وما تقول في التيممة وفي الرتيممة وفي تعليق كعب الأرنب ، وفي حلئ السليم ، وفي السلايا والولايا ، وما تقول في الهام والاستمطار بالسَّلْعِ وَالْعُشْرِ ، وما تقول في شق البرقع ، وفي بدر الرداء ، وفي كي الصحيح عن ذي العُر ، وفي فقاء العين للسواف وفي نزع المسر للعار ، وما تقول في الأمر والناهي والمتربص ، وفي النطيح والقعيد والسانح والبارح ، وما تقول في وطء المقلات للقتلى ، وفي دماء الملوك للكلبي ، وما تقول في صرع الشيطان ، وفي تلون الغيلان ، وفي عزيز الجنان ، وفي ظهور العُمار ، وفي طاعتهم للعزائم ، وفي رئي المأمور الحارثي وعتيبة بن الحارث اليربوعي وما فصل ما بين العراف والكاهن والحازي والمتبوع ، وما تقول في تحول إبليس في صورة سراق المدلجي وفي صورة الشيخ النجدي ؟ وخبرني عن شنقناق وشيصبان . وعن سملقة وزوبعة ، وعن المذهب والسعلاة وعن بركوير ودر كاذاب ، وأين كان مسحل شيطان الأعشى من عمرو شيطان المنخل . ؟!

قد والله عافانا الله بك وابتلى ، وأنعم بك وانتقم ، فمدحاً لمن زهد فيك
وسقياً لمن رغب إليك وويل لمن جهل فضلك ، بل الويل لمن أنكروا فضلك .
إنك جعلت فداك كما لم تكن فكنت فكذا لا تكون بعد أن كنت ، وكما زدت
في الدهر الطويل فكذا تنقص في الدهر الطويل ، إذ كل طويل فهو قصير ،
وكل متناه فهو قليل ، فإياك أن تظن أنك قديم فتكفر ، وإياك أن تنكر أنك
محدث فتشرك ، فإن للشيطان في مثلك أطماعاً لا يصيها في سواك ، ويجد
فيك عللاً لا يجدها في غيرك .

ولست جعلت فداك كإبليس وقد تقدم الخبر في بقائه إلى انقضاء أمر
العالم وفنائه ، ولولا الخسر لما قدمته عليك ولا ساويته بك ، وأنت أحق من
عذر وأولى من ستر ، ولرظهر لي لما سألتك كسؤالي إياك ، ولما ناقلته الكلام
كمناقلتي لك ، وإن كان في التجاذب مثلك فهو في النصيحة على خلافك ،
ولأنك إن منعت شيئاً فمن طريق التأديب أو التقويم ، وهو إن منع منع بالغش
والإرصاد ، وأنت على حال أشكل ، ونحن نرجع إلى أصل وملتقى إلى أب
ويجمع بيننا دين .

مركز تحقيقات كويتية للدراسات والبحوث

[١٣ - اسئلة على معتقدات الشيعة]

وخبرني عن الشق ، وعن واقواق ، وعن النسناس ، وعن دوابي ، وعن
الكركدن ، وعن عنقاء مغرب ، وعن الكبريت الأحمر ، وعن ثور الله في
الأرض ؟ وحدثني عن شعب رضوى ، وعن جبال حسمى ومتى ترى الماء
الأسود والجو الأكلف والطين الأزرق ، وكيف ذلك النمر ، وهل يظلم ذلك
الأسد ، وهل باض الخفاش ، وهل أمنت الحباري ، ومتى تتعلم ما في الجفر
وتحكم ما في الزبر ، وما فعل فحل وبار ، ونعاج أبي المرقال ، وما الحجة
في الرجعة ، والقول في المناسخة ، ومن أين قلم بالبداء ، ومن أين جعلتم

العلا فعلا والزيادة فلنا ، وما القول في النفس ؟

وخبرني ما السحر وما الطلسم ، وما الدهش وما الخلقطير ، وما الهيكل ، وما الطوائق ، وما قولهم في اللبان الذكر ، وفي مراعاة المشتري ، ولم توحشوا من الناس ولم باتوا بالبراح وأقاموا بالخراب واغتسلوا بالماء القراح ، ولم قدموا التصديق وأخرجوا الصرة ، ولم أجابوا وأكرموا ، ولم منعوا وقتلوا .؟!

[١٤ - أسئلة على الجن]

وخبرني من خائق الغريض وقاتل سعد يوم النفق ، ومن الذي استهوى عمرو بن عدي ، ومن صاحب عمارة بن الوليد ، ومن يصرع منهم الأصحاء ، ومن يبريء المرضى ويستوهي العقلاء ، وعن فصل ما بين الشيطان والجنبي وما بين الجن والجن ومن طعامه الخدق . وخبرني عن أشعار الهاتف وما يسمع بالليل من جوائب الأخبار . وخبرني عن النميري صاحب الورقة ، وعن تميم الداري صاحب الردم . وخبرني عن شقلون ، وعن أمرمن ، وعن كان وكان ، ومرة ، وايددش ، وافردش ، وابرشارش ، وابرشارش ، وخونرت بام ، وكيف صارت خونرت هذه أعمار العوالم ، وأيما أكثر يا جوج أم مأجوج ، وأيما أقصر وأيما أطول عماراً ، وأيما أفضل منكراً أم نكيسر ، وأيما أخبث هاروت أم ماروت ، وأي حوت ابتلع يونس ، وأي حية ابتلعت المهلب ، ومن أي حية كانت سفينة نوح ، ولم ملح الحمض ، ولم طوقت الحمامة !

[١٥ - أسئلة على الكيمياء]

وما فرق بين الطاس والكاس ، وما كان سبب اتخاذ الأقيية ، وما سبب صنعة الزجاج ، وما قصة الرخام أكيمياء أم مخلوق ، ولم امتنع عمل الذهب والزجاج أعجب منه ، ومن صاحب المينا وتودين الحجارة ، ومن صاحب التلطف ، ومن صاحب النوشاذر ، وما تقول في التين وما فرانقت الاسد ، وما

صداقة ما بين الخنفساء والعقرب ، وما بال السواد يصبغ ولا ينصبغ وما بال
البياض ينصبغ ولا يصبغ ، ومن صاحب الاصططلاب ، ومن صاحب القرسطون .
ولم أسألك عن الحداد وإنما سألتك عن الفيلسوف وعن علته في المد والجزر .

وخبرني عن جوهر الأرض وعن جميع الفلز أشياء مفروغ من خلقه أم
أرض يستحيل إليه ، ولم عمل بعض السم في العصب وبعضه في الدم وبعضه
فيهما جميعا ، ولم كان بعضه سم نجاز وبعضه سم جهاز ، ولم صار لا يقتل
مع العادة وقتل قبل العادة ، لأن الطبائع تنكر الشيء الغريب أم لأنه ضد في
نفسه ، وكيف صار مع ريق الأفعى ريق بعض الناس في القتل وفي أيهما
سم ، ولم خالف البيش في العصب والدم ، ولم يقتل العقرب إنساناً ويقتله
آخر ، ولم صارت الأفعى قاتلة وتأكلها القنافذ ولا تضرها وتأكلها الأروى فلا
تتأذى بها ، ولم صارت الهندية تقتل كل شيء ولا يقتلها شيء ولا يستمرئها
شيء ، ولم خالف النيل جميع الأودية في النقصان والزيادة ، ولم بلغت جريته
الشمال ، ولم صار أقصاه كأدناه ، ومتى يدال منه ومتى يحوله الامام . . . !؟

مركزية كويتية علوم إسلامية

وقد علمت جعلت فداك أن الخبر إذا صح أصله وكان للناس علة في
نشره وكان في الدلالة على الحق كالعيان وفي الشفاء كالسماع ، على أن الخبر
لا يعرف به تكيف الأمور لكن يعرف به جمل الأشياء إلا خبرك فإنك لا تحتاج
إلى إشارة ولا إلى إعادة ولا إلى [علة ولا إلى] تفسير حتى يقوم خبرك في
الشفاء وفي كيفية الشيء مقام العيان . وقد كنت أتعجب من محمد بن عبد
الملك وأقول : ما تقولون في رجل لم يقل قط بعد انقضاء خصومته وذهاب
خصمه : لو كنت قلت كذا كان أفضل ، أو كنت لم أقل كذا كان أمثل ، فما
بال عفوه أكثر من جهدكم وبديته أبعده من أقصى فكرتكم ؟ فلما رأيتك علمت
أنك عذاب صبه الله على كل رفيع ، ورحمة أنشأها لكل وضع .

[١٦ - اسئلة على الفلسفة]

فخبرني ما كان بينك وبين هرمس في طبيعة الفلك ، وعن سماعك من أفلاطون وما دار في ذلك بينك وبين أرسطاطاليس ، وأي نوع اعتقدت ، وأي شيء اخترت فقد أبت نفسي غيرك وأبت أن تشتفي إلا بخبرك ، ولولا أنني كاف برواية الأقاويل ومغرم بمعرفة الاختلاف ، وأني أستجير مسألتك عن كل شيء وابتذالك في كل أمر ، لما سمعت من أحد سواك ، ولما انقطعت إلى أحد غيرك .

[١٧ - مساويء المزاح]

واعلم جعلت فداك أنني لم أورد بمزاحك إلا ضحك سنك ، ولا كانت غايتي فيك إلا لأنفق عندك ، وقد كنت خفت ألا أكون وقفت على حده وأشفتت من المجاوزة لقدره . والمزاح باب ليس المخوف فيه التقصير ، ولا يكون الخطأ فيه من جهة النقصان . وهو باب متى فتحه فاتح وطرق له مطرق لم يملك من سده مثل الذي يملك من فتحه ، ولا يخرج منه بقدر ما كان قدم من نفسه ، لأنه باب أصل بنائه على الخطأ ، ولا يخالطه من الأخلاق إلا ما سخف ، ومن شأنه التزويد وأن يكون صاحبه قليل التحفظ ، ولم نر شيئاً أبعد من شر ولا أطول له صحبة ولا أشد خلافاً ولا أكثر خلطاً من الجحد والمزاح والمناظرة والمراء . قال القعقاع بن شور : ليس لمزاح مروءة ولا لمار خلة . وقال معاوية : المزاح هو الشنار الأصغر . وقال الحسن بن حي : المزاح استدراج من الشيطان واختداع من الهوى . وعاب عمر بعض العظماء فقال : ذلك رجل فيه دُعاة . وقال الشاعر : « وجد القول يقدمه المزاح » وقال الآخر « رب كبير ساقه صغير » وقال الآخر « رب جد ساقه اللعب » .

فإن كنت لم أقصر عن الغاية ، ولم أتجاوز حد النهاية ، فيما أعرف من
يمن مكالمتك وبركة مكاتبتك ، ومن حسن تقويمك وجودة تثقيفك . وإن كنت
قد أخطأت الطريق ، وجاوزت حد المقدار ، فما كان ذلك عن جهل بفضلك
ولا إنكار لحقك ، ولكن حدود الأشياء إذا خفيت ومقاديرها إذا أشكلت ، ولم
يكن مع الناظر فيها مثل تمامك ، ولا مع المتكلف لها مثل كمالك ، دخل
عليه من الخلل بقدر عجزه ، وسلم منه بقدر نفاذه ، نعم ولو كان من العلماء
الموصوفين والأدباء المذكورين .

ومن المُمزاح جعلت فذاك باب مكر وجنس خدع يتكل المرء في إساءته
إلى جليسه وإسماعه لصديقه على أن يقول : مزحت ، وعلى أن يقول عند
المحاكمة : عبثت ، وعلى أن يقول : من يغضب من الممزاح إلا كز الخلق ،
ومن يرغب عن المفاكهة إلا ضيق العطن . وبعد فمتى أعدت النفس عذراً كانت
إلى القبيح أسرع ومتى لم تجده كانت عنه أبطأ . ومن أسباب الغلط فيه ومن
دواعي الخطأ إليه أن كثيراً ممن تمازحه يضحك وإن كنت قد أغضبتة ،
ولا يقطع مزاحك وإن كنت قد أوجعته ، فإن حقد ففي الحقد الداء ، وإن عجل
فذلك البلاء .

فإن قلت : فما أدخلك في شيء هذا سبيله وهكذا جوهره وطريقه ؟
قلت : لأنني حين أمنت عقاب الإساءة ووثقت بثواب الإحسان وعلمت أنك لا
تقص إلا على العمد ، ولا تعذب إلا على القصد ، صار الأمن سائقاً والأمل
قائداً . وأي عمل أردّ وأي متجر أربح مما جمع السلامة والغنيمة والأمن
والمثوبة . ولو كان هذا ذنباً لكنت شريكى فيه ، ولو كان تقصيراً لكنت سببي
إليه ، لأن دوام التغافل شبيه بالإهمال ، وترك التعريف يورث الإغفال ، والعضو
المتتابع واليشر الدائم يؤمنان من المكافأة ويذهبان بالتحفظ . ولذلك قال
عينة بن حصن لعثمان بن عفان رضي الله عنه : عمر كان خيراً لي منك ،

رهبني فاتقاني وأعطاني فأغناني . فإن كنت اجتراءت عليك فلم أجتريء عليك إلا بك ، وإن كنت أخطأت فلم أخطيء عليك إلا لك ، لأن حسن الظن بك والثقة بعفوك سبب في قلة التحفظ وداعية إلى ترك التحرز .

[١٨ - طلب العفو من احمد بن عبد الوهاب على مزاح الجاحظ

وسخريته]

وبعد ، فمن وهب الكبير فكيف يقف عند الصغير ، ومن لم يزل يعنو عن العمد كيف يعاقب على السهو ؟ ولو كان عظم قدرتي هو الذي عظم ذنبي لكان عظم قدرك هو الذي شفّع لي ، ولو استحققت عقابك بأقدامي عليك مع خوفاً لك لاستوجبت عفوكم عن إقدامي عليك بحسن ظني بك . على أنني متى أوجبت لك العفو فقد أوجبت لك الفضل ، ومتى أضفت إليك العقاب فقد وصفتك بالانصاف ، ولا أعلم حال الفضل إلا أشرف من حال العدل ، ولا الحال التي توجب لك الشكر إلا أرفع من الحال التي توجب لك الصبر . وإن كنت لا تهيب عقابي لحرمتي فهبه لأبياديك عندي ، فإن النعمة تشفع في النعمة ، فإن لم تفعل ذلك للحرمة فافعله لحسن الأحدثنة ، وإن لم تفعل ذلك لحسن الأحدثنة فعد إلى حسن العادة وإن لم تفعله لحسن العادة فأنت ما أنت أهله . واعلم أنني وإياك متى تحاكمنا إلى كرمك قضى لي عليك ومتى ارتفعنا إلى عقلك حسن العفو عني عندك . وفصل ما بيننا وبينك وفرق ما بين أقدارنا وقدرك أنا نسيء وتغفر ، ونذنب وتستتر ، ونعوج وتقوم ، ونجهل وتحلم ، وإن عليك الانعام وعلينا الشكر ، ومن صفاتك أن تفعل ومن صفاتنا أن نصف ، فإذا فعلت ما تقدر عليه من العقاب كنت كمن فعل ما يقدر عليه من التعرض ، وصرت ترغب عن الشكر كما رغبتنا عن السلم ، وصار التعرض لعفوك بالأمن باطلاً ، والتعرض لعقابك بالخوف حقاً ، ورغبت عن النبيل والبهاء وعن السؤدد

والسنة ، وصرت كمن يشفي غيظاً أو يداوي حقداً أو يظهر القدرة أو يحب أن يذكر بالصولة . ولم نجدهم أبداً الله يحمدون القدرة إلا عند استعمالها في الخير ، ولا يذمون العجز إلا لما يفوت به من إتيان الجميل . وأنى لك بالعقاب وأنت خير كلك ، ومن أين اعتراك المنع وأنت أنهجت الجود لأهله ، وهل عندك إلا ما في طبعك ، وكيف لك بخلاف عادتك ، ولم تستكره نفسك على المكافأة وطباعها الصفيح ، ولم تكدها بالمنافسة ومذهبها المسامحة؟! فسبحان من جعل أخلاقك وفق أعراقك وقولك وفق عملك ، ومن جعل ظنك أكثر من يقيننا ، وفراستك أثبت من عياننا ، وعفوك أرجح من جهدنا ، وبداهتك أجود من تفكرنا ، وفعلك أرفع من وصفنا ، وغيبتك أهيب من حضور السادة ، وعتبك أشد من عقاب الظلمة . وسبحان من جعلك تعفو عن المنعم ، وتتجافى عن عقاب المصّر ، وتتغافل عن المباديء ، وتصفح عن المتهاون ، حتى إذا صرت إلى من ذنبه نسياناً وتوبته إخلاصاً وهفوته بكر وشفيعه الحرمة ، ومن لا يعرف الشكر إلا لك ، ولا الأنعام إلا منك ، ولا العلم إلا من تأديبك ، ولا الأخلاق إلا من تقويمك ، لم يقصر في بعض طاعتك إلا لما رأى من احتمالك ، ولا نسي بعض ما يجب لك إلا لما داخله من تعظيمك ، صرت تتوعد بالصرم وهو دليل كل بلية ، وتستعمل الإعراض وهو قائد كل هلكة . وقد علمت أن عتابك أشد من الصريمة ، وأن تأنيك أغلظ من العقوبة ، وأن منعك إذا منعت في وزن إعطائك إذا أعطيت ، وأن عقابك على حسب ثوابك ، وأن جزعي من حرمانك في وزن سروري بفوائذك ، وأن شين غضبك كزين رضاك ، وأن موت ذكري بانقطاع سببي منك كحياة ذكري مع اتصال سببي بك ، ومالي اليوم عمل أنا إليه أسكن ولا شفيع أنا به أوثق من شدة جزعي من عتابك وإفراط هلمي من خوفك ، ولست ممن إذا جاد بالصفح ومن بالعضو لم يكن لصاحبه منه إلا السلامة وإلا النجاة من الهلكة ، بل تُشفع ذلك بالمراتب الرفيعة والعطايا الجزيلة والعز في العشيرة

والهيبية في الخاصة والعامة ، مع طيب الذكر وشرف العقب ومجبة الناس .

[١٩ - محاسن المزاح]

وأما ذكري القدر والخرط والطول والعرض وما بيننا وبينك في ذلك من التنازع والتشاجر والتحاكم والتنافر ، فإن الكلام قد يكون في لفظ الجد ومعناه معنى الهزل ، كما يكون في لفظ الهزل ومعناه معنى الجد . ولو استعمل الناس الدُعابة في كل حال والجد في كل مقال وتركوا التسمح والتسهيل وعقدوا في كل دقيق وجليل لكان السفه صراحاً خيراً لهم ، والباطل محضاً أَرَدَ عليهم . ولكن لكل شيء قدر ولكل حال شكل . فالضحك في موضعه كالبكاء في موضعه . والتبسم في موضعه كالقطوب في موضعه ، وكذلك المنع والبذل والعقاب والعفو وجميع القبض والبسط . فإن ذمنا المزاح ففيه لعمري ما يذم ، وإن حمدناه ففيه ما يحمد . وفصل ما بينه وبين الجد أن الخطأ إلى المزاح أسرع وحاله بحال السخف أشبه ، فأما أن يذم حتى يكون كالظلم وينفى حتى يصير كالغدر ، فلا لأن المزاح مما يكون مرة قبيحاً ومرة حسناً ، والظلم لا يكون مرة قبيحاً ومرة حسناً .

[٢٠ - مديح احمد بن عبد الوهاب الساخر]

فاذا ملنا إلى الجد ورغبنا عن الهزل وتركنا المُزاح وجلسنا للحكمة فقد اغناك الله عن الحجة كما سلمك من الشبهة ، ولم يكلفك الاحتجاج كما رغب بك عن الإعتلال ، فأصبحت لا محتجاً ولا محجوجاً ، ولا عُفلاً ولا موسوماً ولا ملوماً ولا معذوراً ، ولا فيك اختلاف ولا بك حاجة إلى إئتلاف ، وليس مع العيان وحشة ولا مع الضرورة وجمة ولا دون اليقين وقفة . وهل في تمامك

ريب حتى تعالج بالحجة ؟ وهل رد فضلك جاحد حتى يثبت بالبينة ، وهل لك
 خصم في العلم أو ند في الفهم أو مجار في الحكم أو ضد في العزم ؟ وهل
 يبلغك الحسد ، أو تضررك العين ، أو تسمو إليك المنى ، أو يطمع فيك
 طامع ، أو يتعاطى شأوك باغ ؟ وهل يطمع فاضل أن يفوقك ، أو يأنف شريف
 أن يقصر دونك ، أو يخشع عالم أن يأخذ عنك ؟ وهل غاية الجميل إلا
 وصفك ؟ وهل زين البليغ إلا مدحك ، وهل يأمل الشريف إلا اصطناعك ؟
 وهل يقدر الملهوف إلا غيائك ؟ وهل لطلاب غرض سواك ؟ وهل للغواني
 مثل غيرك ؟ وهل للمادح رجز إلا فيك وهل يحدو الحادي إلا بذكرك ؟ فلولا
 أن يأخذ الواصف بنصيبه منك ويحصته من الصديق فيك ، وبسهمه من الشكر
 لك ، لكان الإطناب عندهم في وصفك لغوا ، وكان تشقيق الكلام عجزاً ،
 ولكان تكلفه فضلاً ، ومن هذا الذي يضعه أن يكون دونك ، أو يمتحن
 بالتسليم لك ، أو يعد إقراره إحساناً وخصومة إنصافاً ؟ وهل تقع الأبصار إلا
 عليك ؟ وهل تصرف الإشارة إلا إليك ؟ أم من الشيء لك في منزلتك ؟ ألسنت
 خلف الأخيار وبقية الأبرار ؟ وأي أمرك ليس بغاية ، وأي شيء منك ليس في
 النهاية ؟ وهل فيك شيء يفوق شيئاً أو يفوقه شيء أو يقال لو لم يكن كذا لكان
 أحسن أو لو كان كذا لكان أتم ؟ وأين الحسن الخالص والجمال الفائق والملح
 المحض والحلاوة التي لا تستحيل والتمام الذي لا يحيل إلا فيك أو عندك أو
 لك أو معك ، خالصة لك ومقصورة عليك ، لا تليق إلا بك ولا تحسن إلا
 فيك ، فلك منه الكل وللناس البعض ، ولك الصافي وللناس المشوب ؟! هذا
 سوى الغريب الذي لا نعرفه ، والبديع الذي لا نبلغه ، لا بل أين الحسن
 المصمت ، والجمال المفرد ، والقصد العجيب ، والكمال الغريب ، والملح
 المنشور ، والفضل المشهور إلا لك وفيك ؟ وهل على ظهرها جميل حسيب
 أو عالم أريب إلا وظلك أكبر من شخصه ، وظنك أكثر من علمه ، وإسمك
 أفضل من معناه ، وحكمك أثبت من نجواه ، وصمتك أفضل من فحواه ؟ وهل

في الأرض حليم سواك ، وهل أظلت الخضراء ذا لهجة أصدق منك ، وهل
حملت النساء أجل منك !

[٢١ - جمال احمد بن عبد الوهاب المعكوس]

ولربما رأيت الرجل حسناً جميلاً وحلوا مليحاً وعتيقاً رشيقاً وفخماً نبيلاً
ثم لا يكون موزون الأعضاء ولا مقدور الأجزاء ، وقد تكون أيضاً الأقدار
متساوية غير متقاربة ولا متفاوتة ، ويكون قصداً ومقداراً عدلاً ، وإن كانت هناك
دقائق خفية لا يراها إلا الأعمى ، ولطائف غامضة لا يعرفها إلا الذكي . فأما
الوزن المحقق والتعديل المصحح والتركيب الذي لا يفضحه التفرس ولا
يحصره التعنت ولا يتبطل جاذبه ولا يطمع في التمويه ناعته ، فهو الذي
خصصت به دون الأنام ودام لك على الأيام . وكذا الحسن إذا كان حراً مرسلأ
وعتيقاً مطبقاً لا يتحكم عليه الدهر ولا يذيله الزمان ولا يحتاج إلى تعليق
التمائم ولا إلى الصون والسكن ولا إلى المناقش والكحل ، ولو لم يكن لحسن
وجهك إلا أنه قد سهل في العيون تسهلاً وحبب إلى القلوب تحبباً وقرب
إلى النفوس تقريباً ، حتى امتزج بالأرواح وخالط الدماء وجرى في العروق
وتمشى في العظم بحيث لا يبلغه السم ولا السوهم ولا السرور الشديد ولا
الشراب الرقيق ، لكان في ذلك المزية الظاهرة والفضيلة البينة . ولو لم يكن
لك إلا أنا لا نستطيع أن نقول في الجملة وعند الوصف والمدحة : هو أحسن
من القمر وأضوأ من الشمس وأبهى من الغيث، وهو أحسن من يوم الحلبه، وأنا
لا نستطيع أن نقول في التفاريق ؛ كأن عنقه إبريق فضة ، وكأن قدمه لسان
حية ، وكان وجهه ماوية ، وكان بطنه قبطية ، وكان ساقه بردية ، وكان لسانه
ورقة ، وكان أنفه حد سيف ، وكان حاجبه خط بقلم ، وكان لونه الذهب ،
وكان عوارضه البرد وكان فاه خاتم ، وكان جبينه هلال ، وهو أطهر من الماء

وأرق طباعاً من الهواء ، ولهو أمضى من السيل وأهدى من النجم ، لكان في ذلك البرهان النير والدليل البين . وكيف لا تكون كذلك وأنت الغاية في كل فضل ، والنهية في كل شكل . وأما قول الشاعر :

يَزِيدُكَ وَجْهَهُ حُسْنًا إِذَا مَا زِدْتَهُ نَظْرًا

وقول الدمشقيين : ما تأملنا قط تأليف مسجدنا وتركيب محرابنا وقبة مصلانا إلا أثار لنا التأمل واستخرج لنا التفرس غرائب حسن لم نعرفها وعجائب صنعة لم نقف عليها ، وما ندري أجواهر مقطعاته أكرم في الجواهر أم تنضيد أجزائه في تنضيد الأجزاء . فان ذلك معنى مسروق مني في وصفك ومأخوذ من كتبي في مدحك . والجملة التي تنفي الجدال وتقطع القيل والقال أني لم أرك قط إلا ذكرت الجنة ، ولا رأيت أجهل الناس في عقب رؤيتك إلا ذكرت النار . والعجب أيها السامع أني مقصر ، وإذا رأيتك علمت أني فيما يجب له مفرط ، وهو رجل طينته حرة وعرقه كريم ومغرسه طيب ومنشؤه محمود ، غذي بالنعمة وعاش في الغبطة وأرهفه التأديب ولطفه طول التفكير وخامره الأدب وجرى فيه ماء الحياء وأحكمته التجارب وعرف العواقب ، فأفعاله كأخلاقه ، وأخلاقه كأعراقه ، وعاداته كطبيعته وآخره كأوله . تحكي اختياراته التوفيق ومذاهبه التسديد . لا يعرف التكلف ويرغب عن التجوز وينبل عن ترك الإنصاف ، ولا يمتنع عليه معرفة المبهم ولا يلتجج باستبانة المشكل ، يتخير من الألفاظ أرقها مخرجاً ومن المعاني أدقها مسلماً ، وأحسنها قبولاً ، وأجودها وقوعاً وأتمها إطماعاً ، بأقوى الكلام وأوجزه وأعدبه وأحسنه ، يقلل عدد حروفه ويكثر عدد معانيه . ومن الفعل بعد ذلك أكمله تحقيقاً إذا أقبل هبناه ، وإذا أدبر اغتبناه ، مع تمكنه وعقله وسعة صدره . وبعد [نظره] ولا يعرف الشك إلا في غيره ولا العي إلا سماعاً . فمن يطمع في عيبك بل من يطمع في قدرك ؟ وكيف وقد أصبحت وما على ظهرها خَوْدٌ إلا وهي تعثر باسمك ، ولا قينة إلا وهي تغني

بمدحك ، ولا فتاة إلا وتشكو تباريح حبك ، ولا محجوبة إلا وهي تُثقب
الخروق لممرك ، ولا عجوز إلا وهي تدعولك ، ولا غيور إلا وقد شقي بك ،
فكم من كبد حرى منضجة ، ومصدوعة مفرثة ، وكم من حشا خافق ، وقلب
هائم ، وكم عين ساهرة وأخرى جامدة وأخرى باكية ، وكم عبّرى مولهة ، وفتاة
معذبة ، قد أفرح قلبها الحزن وأجمد عينها الكمد ، قد استبدلت بالحلّي
العُظلة ، وبالأنس الوحشة ، وبالكحيل المره ، فأصبحت والهة مبهوتة ،
وهائمة مجهودة ، بعد طرف ناصع ، وسن ضاحك ، وغنج ساحر ، وبعد أن
كانت ناراً تتوقد ، وشعلة تنوهج ؟

وليس حسنك أبقاك الله الحسن الذي تبقى معه توبة ، أو تصح معه
عقيدة ، أو يدوم معه عهد ، أو يثبت معه عزم ، أو يمهل صاحبه للثبث ، أو
يتسع للتخير ، أو ينهه زجر ، أو يهذبه خوف . هو أعزك الله شيء ينقض
العادة ، ويفسخ المنة ، ويعجل عن الروية ، ويطرح بالعرا ، وتنسى معه
العواقب ، ولو أدركك عمر بن الخطاب لصنع بك أعظم مما صنع بنصر بن
النجاشي ، ولركبك بأعظم مما ركب به جعدة السلمي ، بل لدعاه الشغل بك
إلى ترك التشاغل بهما ، والغيط عليك إلى الرحمة لهما . فمن كان عيب
حسنه الإفراط عليه من جهة الزيادة ، كيف يرومه عاقل أو ينتقصه عالم . فلا
تعجب إن كنت نهاية الهمة وغاية الأمنية ، فإن حسن الوجه إذا وافق حسن
القوام ، وجودة الرأي ، وكثرة العلم ، وسعة الخلق ، والمغرس الطيب ،
والنصاب الكريم ، والطرف الناصع ، واللسان البين ، والنعمة البهجة والمخرج
السهل ، والحديث المونق ، مع الإشارة الحسنة ، والنبل في الجلسة ،
والحركة الرشيقة ، واللهجة الفصيحة ، والتمهل في المحاورة ، والهدء عند
المناقلة والبديع البديع ، والفكر الصحيح ، والمعنى الشريف ، واللفظ
المحذوف ، والإيجاز يوم الإيجاز ، والإطناب يوم الاطناب ، يفل الحز ،
ويصيب المفصل ، ويبلغ بالعمو ما يقصر عنه الجهد ، كان أكثر لتضاعف

الحسن ، وأحق بالكمال والحمد . والتاج بهي ، وهو على رأس الملك أبهى ،
والياقوت كريم حسن ، وهو على جيد المرأة الحسناء أحسن ، والشعر الفاخر
حسن ، وهو من فم المنشد أحسن ، وإن كان قول المنشد فريضة من نَجْثِه
ومختبره فقد بلغ الغاية وقام على النهاية .

وما ندري في أي الحالين أنت أجمل ، وفي أي المنزلتين أنت أكمل ،
إذا فرقناك أم إذا جمعناك ، وإذا ذكرنا كلك أم إذا تأملنا بعضك ؟ فأما كفاك
فهي التي لم تخلق إلا للتقبيل والتوقيع ، وهي التي يحسن بحسنها كل ما
اتصل بها ، ويختال بها كل ما صار فيها ، كما أصبحنا وما ندري : الكأس في
يدك احسن أم القلم أم الرمح الذي تحمله ، أم المخرصة أم العنان الذي
تمسكه ، أم السوط الذي تعلقه ، وكما أصبحنا وما ندري أي الأمور المتصلة برأيك
أحسن واياها اجمل وأشكل اللمة أم نخط اللحية ، أم الإكليل أم العصا أم
التاج ، أم العمامة ، أم القناع ، أم القنطرة أم الفأس التي يعلم
الجاهل كما يعلم العالم ويعلم البعيد الأقصى كما يعلم القريب الأدنى ، انها لم
تخلق إلا لمنبر نغر عظيم ، أو ركاب طرّف كريم . أما فوك فهو الذي لا ندري
أي الذي تنفوه به أحسن ، وأي الذي يبدأ به أجمل : الحديث ، أم الشعر ، أم
الاحتجاج ، أم الأمر والنهي ، أم التعليم والوصف . وعلى أننا ما ندري أي
السنك أبلغ ، وأي بيانك أشفى ، أقلمك أم خطك ، أم لفظك ، أم
إشارتك ، أم عقدك . وهل البيان إلا لفظ أو خط أو إشارة أو عقد ؟ وأنت في
ذلك فوقهم والحمد لله ، وواحدهم وأعيذك بالله ، وأنت تجوز الغاية ، وتفوق
النهاية .

وقد علمنا أن القمر هو الذي تضرب به الأمثال ، ويشبه به أهل الجمال
وهو مع ذلك يبدو ضئيلاً نضواً ، ويظهر معوجاً شخناً وأنت أبدأ قمر بدر وفخم
عمر . ثم مع ذلك يحترق في السرار ويتشام به في المحاق ، ويكون نحساً

كما يكون سعداً ، ويكون نفعاً كما يكون ضراً ، ويقترض الكتان ، ويشحب
الألوان ، ويختم فيه اللحم . وأنت دائم اليمن ، ظاهر السعادة ، ثابت
الكمال ، شائع النفع ، تكسو من أعراه ، وتكن من أشجبه ، وعلى أنه قد
محق حسنه المحاق وشانه الكلف ، وليس بذى توقد واشتعال ولا خالص
البياض ولا متلالي ، ويعلوه برد ويكسوه ظل الأرض . ثم لا يعتربه ذلك إلا
عند كماله وليلة فخره واحتفاله ، وكثيراً ما يعتربه الصفار من بخار البحار .
وأنت ظاهر التمام ، دائم الكمال ، سليم الجوهر ، كريم العنصر ، ناري
التوقد ، هوائي الذهن ، دري اللون ، روحاني البدن . وإن احتجوا عليك
بالجزر والمد ، احتججت عليهم بالعلم والحلم ، وبأن طاعتك اختيار
واعتماد ، وطاعته طباع واضطرار ، وبأن له سيرة قد قصر عليها ، ومنازل لا
يجاوزها ، ولا تمكنه البدوات ، وليس في قواه فضل للتصرف ، وعلى أن
ضياؤه مستعار من الشمس ، وضياؤك عارية عند جميع الخلق . فكم بين المعير
والمستعير ، والمتبين والمتحير ، وبين العالم وما لا حس فيه . ولا زالت
الأرض بك مشرقة ، والدنيا معمورة ، ومجالس الخير مأهولة ، ونسيم الهواء
طيباً ، وتراب الأرض عبقاً . إن تفتيت فالرشاقة والملح ، وإن تمسكنت
فالرهبانية والأخلاص ، وإن ترزنت « فتهلان ذو الهضبات ما يتحلحل » .

وطباعك جعلت فذاك طباع الخمر إلا أنك حلال كلك ، وجوهرك جوهر
الذهب إلا أنك روح كما أنت . وقد حوت خصال الياقوت إلا ما زادك الله
عليه ، وأخذت خصال المشتري إلا ما فضلك الله به ، وجمعت خلال الدر إلا
ما خصصت به دونه . فلك من كل شيء صفوته ولبابه وشرفه وبهاؤه . وهل
يضر القمر نباح الكلب ، وهل يزعزع النخلة سقوط البعوضة عليها ؟

[٢٢ - عودة الى قيمة المزاح والجد]

فأما القول في المزاح فقد بقي أكثره ومضى أقله . وقد ذهب الناس في

المزاح إلى مذاهب متضادة ، وسلكوا منه في طرق مختلفة . فزعم بعضهم أن جميع المزاح خير من جميع الجسد . وزعم آخرون أن الخير والشر عليهما مقسومان ، وأن الحمد والذم بينهما نصفان .

وسنأتي على هذه الأقاويل ثم نذكر ما نقول إن شاء الله .

فأما المحامي على الهزل والمفضل للمزح فإنه قال : أول ما أذكر من خصال الهزل ومن فضائل المزح أنه دليل على حسن الحال وفراغ البال ، وأن الجسد لا يكون إلا من فضل الحاجة ، والمزح لا يكون إلا من فضل الغنى . وأن الجسد غضب والمزح جسام . والجسد مبغضة والمزح محبة . وصاحب الجسد في بلاء ما كان فيه وصاحب المزح في رخاء إلى أن يخرج منه . والجسد مؤلم وربما عرضك لأشد منه ، والمزح ملذ وربما عرضك لألذ منه . فقد شاركه في التعريض للخير والشر ، وبأينه بتعجيل الخير دون الشر . وإنما تشاغل الناس ليفرغوا ، وجدوا ليهزلوا ، كما تذللوا ليعزوا وكدوا ليستربحوا . وإن كان المزاح إنما صار معيباً ، والهزل إنما صار مذموماً لأن صاحبه لا يكون معرضاً لمجاوزة القدر ومخاطراً بمودة الصديق . فالجسد داعية إلى الإفراط كما أن المزاح داعية إلى مجاوزة القدر . والتجاوز للحد قاطع بين القرينين في جميع النوعين . فقد ساواه المزاح فيما هو له وبأينه فيما ليس له . وإن كان المزح قبيحاً لأنه يورث الجسد ، فأقبح من المزح ما صير المزح قبيحاً ، لأن الذي يكون بعده الجسد ، ولم يصير الجسد قبيحاً لأن الذي بعده المزح ، كان الجسد في هذا الوزن أقبح من المزح ، وكان المزح على هذا التقدير أحسن من الجسد ، لأن ما جعل الشيء قبيحاً أقبح من الشيء ، كما أن ما جعل الشيء حسناً أحسن من الشيء .

وأما الذي عدل بينهما فإنه زعم أن المزح في موضعه كالجسد في موضعه ، كما أن المنع في حقه كالبدل في حقه . قال : ولكل شيء موضع

وليس شيء يصلح في كل موضع . وقد قسم الله الخير على المعدلة ، وأجرى جميع الأمور إلى غاية المصلحة ، وقسط أجزاء المشوبة على العزيمة والرخصة وعلى الإعلان والتقية ، فأمر بالمداراة كما أمر بالمباداة ، وجوز المعاريض كما أمر بالإفصاح ، وسوغ في المباح كما شدد في المفروض ، وجعل المباح جماما للقلوب وراحة للأبدان وعونا على معاودة الأعمال . فصار الإطلاق كالحظر والصبر كالشكر . وليس للإنسان من الخيرة في الذكر شيء إلا وله في النسيان مثله ، ولا في الفطنة شيء إلا وله في الغفلة مثله ، ولا في السراء شيء إلا وله في الضراء مثله ، ولو لم يرزق الله العباد إلا بالصواب محضاً وبالصدق صرفاً وبمر الحق صفحاً ، لهلك العوام وانتقض أمر الخواص . ولو ذكر الإنسان كل ما أنسيه لشقي ، ولو وجد في كل شيء لانتكت . وقد يكون الذكر إلى الهلكة سلماً كما يكون النسيان للسلامة سبباً . وسبيل المزاح والجد كسبيل المنع والبذل . وعلى ذلك مجرى جميع القبض والبسط . فهذا وما قبله جمل أقاويل القوم .

ونحن نعوذ بالله أن نجعل المزح في الجملة كالجد في الجملة ، بل نزعم أن بعض المزح خير من بعض الجد ، وعمامة الجد خير من عمامة المزح ، والحق أن ينضح عن بعض المزح ويحتج لجمهور الجد ، وكيف لنا بدم جميع المزح مع ما نحن ذاكرون قال الشاعر :

« وَذُو بَاطِلٍ إِنْ شِئْتَ أَلْهَاكَ بِاطِلُهُ »

وقال آخر :

أخو الجدِّ إن يجِدِّدَ فما منْ وِيرةٍ لَدِيهِ وإنْ يَهزُلْ يُعَلِّمُكَ بِاطِلُهُ
وإن كانوا قد تسموا بعباس وعباس وشتيم وكالح وقاطب وحرب ومرة
وصخر وحنظلة وحزن وحجر وقرود وخنزير ، فقد تسموا بالضحاك والبطال وبسام

وهزال ونشيط . وقد مزح رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولا يقال كان فيه
 مُزاح ، وكذلك لا يقال مُزَّاح . وكذلك الأئمة ومن هزل في بعض الحالات من
 أهل الحلم والوقار . فما روي عنه صلى الله عليه وسلم قوله : « يا أبا عمير ما
 فعل النُّغير » وقوله : « لا تدخل الجنة عجوز » وقوله : « زوجك الذي في عينيه
 بياض » وقد كان علي رضي الله عنه يمزح . وقال عمر : إنا إذا خلونا كنا
 كأحدكم . وقد كان عمر عبوساً قطوباً . وقد كان زياد مع كلوحه وقطوبه يمازح
 أهله في الخلا كما يجد في الملا . وكان الحجاج مع عتوه وطغيانه وتمرده
 وشدة سلطانه يمازح أزواجه ويرقص صبيانَه . وقال له قائل : أيمازح الأمير
 أهله ؟ فقال : والله إن تروني إلا شيطاناً ، والله لربما رأيتني وإني أقبل رجل
 إحداهن ! فقد ذكرنا خير العالمين وجلة من خيار المسلمين وجباراً عنيداً وكافراً
 لعينا .

وبعد ، فمن حرم المُزاح وهو شعبة من شعب السهولة وفرع من فروع
 الطلاقة ! وقد أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحنيفية السمحة ولم يأتنا
 بالانقباض والقسوة وقد أمرنا بإفشاء السلام وبالبشر عند التلاقي وأمرنا بالتوادد
 والتصافح والتهادي . قالوا : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك
 تبسماً . وقالوا : كان لا يستغرق ضحكاً . وقال : « دفتوا على صاحبكم » .
 وقال : « هذه أيام أكل وشرب وتعلل » وسمع جوارِي تضرب الكُبر عند عائشة
 فلم ينكره وضحك في قيافة مجزز المدلجي ومن الاعرابي صاحب الدجال .

قد اعتذرنا من معصيتك والخلاف على محبتك مرة بالمزح ومرة بالنسيان
 ومرة بالاتكالم على عفوك وعلى ما هو أولى بك . على اني لم ارد بمزاحك الا
 ضحك سنك ، انظر هل هرمتُ إلا في طاعتك ، وهل أخلقتني إلا معاناة
 خدمتك ؟ وفي الجملة إنا لو تعمدنا ثم أصررنا ثم أنكرنا لكان في فضلك ما
 يتغمدنا ، وفي كرمك ما يوجب التغافل عنا . فكيف وإنما سهونا ثم تذكرنا ثم
 اعتذرنا ثم أظننا ، فإن تقبل فحظك أصبت ولنفسك نظرت ، وإن لم تقبل

فاجهل جهدك ثم أجهد جهدك ، ولا أبقى الله عليك إن أبقيت ، ولا عفا عنك إن عفوت ، وأقول كما قال أخو بني منقر :

فما ببقيا علي تركتُماني ولكن خفتُما صردَ النبال

والله لئن رميتني ببجيلة لأرمينك بكنانة ، ولئن نهضت بصالح بن علي لأنهضن بأحمد بن خلف وباسماعيل بن علي ، ولئن صلت علي بسليمان بن وهب لأدمغتك بالحسن بن وهب ، ولئن تهت علي بمنادمة جعفر الخياط لأتيهن عليك بحسة وهب الدلال ! وأنا أرى لك أن تقبل العافية وترغب الى الله تعالى في طول السلامة ، واحذر البغي فان مصرعه وخيم ، واتق الظلم فان مرعاه وبيل ، وإياك أن تتعرض لجريير إذا هجا ، وللفرزدق إذا فخر ، ولهرثمة إذا دبر ولقيس بن زهير إذا مكر ، وللأغلب إذا كر . ولطاهر إذا صال ، ومن عرف قدره عرف قدر خصمه ، ومن جهل قدر نفسه لم يعرف قدر غيره .

وقد رعيت لك حق نبيذك وحسن شرابك وإن كان فوق العيوق ودونه بيض الأنوق ، وحق تونياك وإن بعثت به ممزوجا فكيف لو بعثت به خالصا .
وعليك بالجد فانه خير لك ، ودع البيات فانه أمثل بك ، فأنت والله يا أخي تعلم علم الاضطرار وعلم الاختيار وعلم الإخبار أني أشد منك عقلا ، وأظهر منك حزما وألطف كيذا ، وأكثر علما ، وأوزن حلما وأخف روحا ، وأكرم عينا ، وأقل غشا ، وأجل قدا وأبعد غورا ، وأجمل وجها ، وأنصح ظرفا ، وأكثر ملحا ، وأنطق لسانا ، وأحسن بيانا وأجهر جهارة ، وأحسن إشارة . وأنت رجل تشدو من العلم وتنتف من الأخبار ، وتموه نفسك ، وتغر من قدرك ، وتتهيا بالثياب ، وتتنبل بالمراكب ، وتتجب بحسن اللقاء . ليس عندك إلا ذلك . فلم تراحم البحار بالجداول ، والأجسام بالأعراض ، وما لا يتناهى بالجزء الذي لا يتجزأ . . . ؟!

[٢٣ - شروط التمثيل وانواع الخطأ]

فأما الباد والقامة فمن يعدل بين القنأة والكُرة ، ومن يمثل بين النخلة والدكان وبين رحي الطحان وسيف يمان ! وإنما يكون التمثيل بين أئم الخيرين وأنقص الشرين ، وبين المتقاربين دون المتفاوتين ، فأما الخل والعسل ، والحصاة والجبل ، والسّم والغذاء ، والفقر والغنى ، فهذا ما لا يخطيء فيه الدهن ولا يكذب فيه الحس ، والخطأ ثلاث : خطأ الحس ، وخطأ الوهم ، وخطأ الرأي ، كل ذلك سبيله التنبيه والتذكير والتقويم والتأنيب ، والعمد نوع واحد وسبيله القمع والحظر والضرب والقتل ، وأول ذلك أن يهجره صاحب الحكمة ولا يطعمه في وعظ ولا مجالسة . وقد رأيت من يعاند الحق إذا كانت المعرفة به استنباطاً ، ولم أر من يعاند الحق إذا كانت المعرفة به عياناً . وأنت لا ترضى بجحد العيان حتى تدعو إليه ، ولا ترضى بالدعاء إليه حتى تعادي فيه ، ولا ترضى بالعداوة فيه حتى تكون لك فيه الرئاسة ، ولا ترضى بالرئاسة دون السابقة ، ولا بالطارف دون التالذ ، ولا بالتالذ دون الأعراق التي تسري والمواليد التي تنمى ، ولا ترضى أن تكون أولاً حتى تكون آخراً ، ولا بالمداراة دون المباداة ، ولا بالجدال دون القتال . وحتى ترى أن التقية حرام ، وأن التقصير كفر .

[٢٤ - الامام عند الشيعة]

وحتى لو كنت إمام الرافضة لقتلت في طرفة ، ولو قتلت في طرفة لهلكت الأمة . لأنك رجل لا عقب لك ، والإمامة اليوم لا تصلح في الأخوة ولو صلحت في الأخوة كانت تصلح في ابن العم ، ثم إنها دنت من الأرحام بعد ذلك فصارت لا تصلح إلا في الولد ، وفي هذا القياس إنها بعد أعوام لا

تصلح إلا ببقاء الإمام نفسه آخر الأبد . وهذا هو علة أصحاب التناسخ وأنت رافضي ، ولم يكن هذا عندك . فاهد اليّ الآن من خالص التوتياء كما أهديت اليك باب التناسخ . وأنت ترى القتل في حق المعاندة شهادة ، وترى أن مباينة المنصفين في تعظيم العنود سعادة ، وأن الرئاسة في دفع الحقائق مرتبة ، وأن الإقرار بما يظهر للعيون ضعة ، وأن الشهرة بالمبالغة رفعة . أظهر القوم عندك حجة أرفعهم صوتاً ، وأخلفهم للمشوية أصلبهم وجهاً ، وأحسنهم تقية أقلهم حرجاً ، وأكثرهم عندك إنصافاً أشدهم شغباً . تعشق المتهور وتكلف بالجموح وتصافي الوقاح . والأديب عندك من عاب أحاديث الجلساء ، واعترض على نوادر الإخوان ، وغمز في قضا النديم ، ونصب للعالم ، وأبغض العاقل ، واستثقل الظريف ، وحسد على كل نعمة ، وأنكر كل حقيقة .

[٢٥ - علة الاستطراد]

جعلت فداك ، إنما أخرجك من شيء إلى شيء ، وأورد عليك الباب بعد الباب ، لأن من شأن الناس ملالة الكثير واستثقال الطويل وإن كثرت محاسنه وجمت فوائده ، وإنما أردت أن يكون استطرافك للاثي قبل أن ينقضي استطرافك للماضي ، لأنك متى كنت للشيء منتظراً وله متوقفاً كان أحظى لما يرد عليك واشهى لما يهدى إليك ، وكل منتظر معظم ، وكل مأمول مكرم . كل ذلك رغبة في الفائدة ، وصباية بالعلم ، وكلفا بالاقتباس ، وشحا على نصيبي منك ، وضنا بما أومله عندك ، ومداراة لطباعك ، واستزادة من نشاطك . ولأنك على كل حال بشر ، ولأنك متناهي القوة مدبر .

[٢٦ - اسئلة على الأنبياء والمنتبئين]

خبرني : كيف كانت خدائع المنتبئين ، ومخاريق الكذابين ممن قد كان

ترشح للتنبوء ، ومن لم يظهر دعوته ، ومن دعا واجتهد ، ومن أجيب ، ومن لم يجب . وصف لي أبواب مصايدهم وأجناس كيدهم وحيلهم ، وعن اعتمادهم على المواطأة ، وعن تقدمهم في الحججة ، وعن ذهب في طريق التفهم ، وعن أصحاب الزجر والتنجيم ، وعن أصحاب الاسترحام ، وعن إظهار الزهد وتحريم الاستمتاع ، ومن وافق صورته وحاله بعض ما في البشارات المتقدمة وما في الكتب الصحيحة ، ومن اتفق له غير ذلك من الشبهة . فقل في شيث بن آدم ، وقل في زرادشت ، وفي مساني ، وفي فولس ، وفيما ادَّعي لمقرس ومثى ولوقا ويوحنا . وخبرني عن الأسود العنسي ، ومُسَيْلَمَةَ الحنفي ، وطليحة الأسدي ، وبت عُقْفَان ، وربيعي ، وأسية بن أبي الصلت ، وما قصة الطائرين الاخضرين ، وما كان شأن الرماح . وخبرني عن سلمى بن جندل ، وما قال الهند في نزول البَدِّ ، وقصة ابن ديسان ، وما قول عبدة الكيان وعباد قوة الهول وأصحاب البيضة ، ومن عبد النجوم وثبت لها الحس والعلم والنفع والضر ، ومن جعل كل داع إلى الله بالصواب والعدل وصلة الرحم ونفي الجهل نبياً ، ومن أنكر أصل النبوة البتة ، وما تقول في حنظلة بن صفوان ، وخالد بن سنان ؟ وقل في الذي أتاه الله آياته فأسلخ منها ، وهل يجوز أن يكفر نبي أو يشرك أو يضل بعد هدايته ، ويصير عدواً بعد ولايته ، ويدل الله على كذبه كما دل على صدقه ؟ وكيف صار النبي عندكم يعصي ويخطيء والإمام لا يعصي ولا يخطيء ؟ وكيف ساغ ذلك في جميع النبيين وأمكن في جميع المرسلين ، على كثرة عدد النبيين والمرسلين ، ولم يجز ذلك في إمام واحد مع قلة عدد الأئمة مذ كانوا ؟

[٢٧ - اسئلة على الاديان]

وخبرني لِمَ تنصر النعمان ويزيد بن الحارث ، وتهود ذو نواس ،

وتمجست ملوك سبأ؟ وكيف صارت العرب فرقا بين مجلٍ ومُحرم وأحمسي ،
سوى تفرقهم في الملل ، وكيف لم نر أمة قط دهرية وقد علمنا أنه لا يجوز أن
يتنبأ دهري؟ وكيف لم يتدهر ملك ، وكيف لم نجد قول الدهرية إلا في
الخاص والشاذ والرجل النادر؟ ولم كان لجميع أهل الأديان مملكة وملوك إلا
الزنادقة ولم قتلهم جميع الأمم السالفة؟ ولم قضيت بهذا وقد رأينا المصدقية
والديناورية والتغززية! فإن قلت: لأن من لم يكن من دينه القتال ولا من
غريزته البأس فهو مسلوب أو مُسْتَرْق ، فما بال الروم تمنع أن تسترق وأن
تسلب وليس في دينهم قتال ولا جدال ولا مكافأة ولا دفع .

[٢٨ - اسئلة على العرافة والسحر]

جعلت فداك، أين كان عبد الله بن هلال الحميري صديق إبليس من
كردباش الهندي ، وأين كان يقع منهما صالح المدير ، وأين عبيد مَج من
البطيحي ، وأين عبد السوارث من الهُجيمي ، وأين كان أبو منصور
المخاريقي من جرمي ، وأين يامونية من خندف ، وأين قشة اليهودي من كُشة ،
وما فصل ما بين الكهانة والشعبذة ، وما فصل ما بين الحازي والعراف ، وأين
كان عزي سلمة من سطيع الدثبي ، وأين كان الأبلق الأسدي من رياح بن
كهيلة ، وأين كاهن سعد هذيم من حُليس الخطاط . وحدثني عن ساحرة
حفصة وساحرة عائشة [أقتلتا] باقرار منهما بكيفية السحر؟ . وحدثني عن
صاحب جُنْدَب بن زهير باقرار قتله أم عن معرفة منه بمعنى السحر؟ . وهل
ثبت جعلت فداك أن النبي صلى الله عليه وسلم سُحر في جُف طلعة ووضع
تحت راعوفة البشر أم لا؟

وخبرني : ما البحر باي ، وما البارباي ، وما الكروريات ، وما
الخواثيم ، وما المناديل والسعي والأمر الذي كان في خاتم سليمان ، وما

السكينة التي كانت في التابوت ، فقد اختلف المفسرون فيها وزعموا أنها كانت رأس هر . وما سعنسف ياسينية ، وما الفتل ، وما التوجيه ؟ وخبرني : ما تأويل الزمزمة ، وما فعل المال الذي من أخذ منه ندم ومن لم يأخذ منه ندم . وخبرني عن قول الخليل في الوهم القديم ؟

[٢٩ - اسئلة على التذكر والنسيان]

وخبرني جعلت فداك عن قولك في الشعر الذي نشده في المنام مما لم نسمع بأجود منه في اليقظة ، وعن الشعر الذي نخترعه عن مناقلة الكلام وموازنة الأمور وحال النوم ، وحال الأفة والنقص وصاحبه مغمور أم شبيه بالمغمور ولا يجري عليه قلم ولا يلام ولا يشكر ، ولم صرنا نتذكر الشيء المهم فلا نقدر عليه حتى ندعه فأيسنا منه أجمع ما نكون أنفساً وأحسن ما نكون تذكراً ، ثم يعارضنا ويخطر على بالنا في حال سهر أو في حال نوم وأغنى ما نكون عنه وأقل ما نكون احتفالاً به ، ولم صرنا ننسى من القصيدة بيتاً أو آية من جميع السورة أو كلمة من جميع كلام الخطبة ، ولم صار البلغم بالبلاء أولى منه بالتاء ، ولم كانت البرة السوداء بالجيم أولى منها بالحاء ، وكذلك القلب المانع من الحفظ . وهل بد للحقيقة من خصائص أسباب وأعيان علل ؟ وإلا فقد يجوز أن تنسى هذه القصيدة بدل تلك ، ولم صار بعض الناس أحفظ للنسب وبعضهم أحفظ للاسناد ، وبعضهم أحفظ للمعاني ، وبعضهم أحفظ للالفاظ . ولم صرنا لا ننسى السباحة وبالاكتساب عرفناها والعادة أن المكتسب قد ينسى ويجهل ، وأن الضروريات لا تجهل . وقل لي لم لم تضرب السامري ، ولم لم تعض ماني وتمضه ، ولم لم تبرزق في وجه فرعون . أم إن الطبيعة التي هيتك من هشام بن خلف بن قوالة الكناني حين قال على رأس النعمان وأنت رجل يمان هي التي منعتك من أن تبرزق في وجه

فرعون وأنت سمعته يقول : « وما رب العالمين » ؟ ولم أزعم أنك رجل يمان
لولادة لك في قحطان ، كيف وأنت أقدم من قحطان ومعد بن عدنان ، ومن
القرون التي خبر الله عن كثرتها وعن آبائها وأجدادها ! ولكنك منهم بالهوى
والنصرة ، ولأنهم كانوا لك أحشاماً وصنيعة .

وقل لم صار جميع الحيوان يسبح إلا الانسان والفرد والعقرب والفرس
الأعسر ؟ وأي شيء عندك في أصف ، وفي سفر آدم ، وفي جراب موسى ،
وفي درسب ، وفي شنلة ، وفي كتاب الأسماء ، وفي قولهم دعا فلان باسم الله
الاعظم ، وما تقول في ابن عقيب ، وفي أشج بن عمرو ، وفي شعيب
وصالح ، وفي السفياي ، وفي الأصفر القحطاني .

[٣٠ - اسئلة على الرياضيات]

وخبرني جعلت فداك مدكم صنعت حساب الهسمرح ، ومن صاحب
خطوط الهند ، وأين كتب قوم صنعة السند هند والأركند وحساب كلا سفر ؟
ومدكم عمل الباب الجامع ، ومدكم عمل الارتماطقي ، ومن سمى الجبر
بالجبر ، والجذر بالجذر ، والنشاذر بالبارود ، والأكدرية من أي شيء اشتقت ،
وما تأويل الدحال ، وما تأويل الجمل ، ومن أول من عد إلى عشرة وجعل
العشرة منتهى وغاية ، ثم ضاعفها وجعل غايات الأعداد عشر العشرات
وعشرات عشرات العشرات أبداً ، ثم كسر على العشرة مما دون أعدادها ، لأن
الأصابع عشرة ، وكيف لم يجعل الغاية ما له نصف وثلث وربع وسدس
وثمان ، أم رأى أن التضعيف أبداً لا يكون إلا للعشرات ، فقد نجد في عشر
العشرات ، أم القول الأول الأشياء كلها عشرات ، ولست أعرف جعلت فداك
قوله إن الانسان عشرة أشياء ، كما لم أعرف قول الفزاري أن العقل كربي ،
وقد علمت أن القلب كربي ، وأن الرأس الذي جمع الحواس كربي . فأما

العلم والقول وما أشبههما فإننا لا نعرف هذه الأمور إلا على خلاف الأجرام
الموصولة والمقطوعة ، وقد شدوت من الموسيقى ولم أبلغ منه شهوتي .

[٣١ - أسئلة على الموسيقى وبعض الكتب المعربة]

فخبرني أين كان أقليدس وميرسطوس من فيثاغورس ، وأين تلامذتهما من
تلامذته ، وهلا قدمتم أقليدس مع صنعة البرابط والمعازف ؟ وأين أرشخانس
من مورسطس ، وأين ريوشت من فلهوذ ، ولم قتله وهو فوقه في الإطراب
والصنعة وفي الرواية والرئاسة ، ولم عفا سابور عن قتله بعد إقراره بقتله وبعد
أن سحب إلى الفيلة وعزم على إمضاء الحكم . وأين كانت هر وفرتنا من
الجرادتين ، وأبو طيبة والرباب من السردان والمهراس ، وأين حياة من سلامة
صاحبتي يزيد ، وأين عزة الميلاء من جميلة الحدباء ، وأين حية من الميلاء .
وخبرني عن غناء الركبانية للمصطلق أخذته منه الركبان أم للركبان وهل رجعه
بخسر المصطلق ، وزعمت أن الأهراج لليمن ، وأن النصب للقيينات ، فلمن
السناد ؟ فخبرني أين كان ضبيس بن حرام من المصطلق بن سعيدة ، ولم جعل
المعلم النغم يعد لليوناني ست عشرة نغمة ؟ لأنه لم يدرك أكثر منها أم لأنه
ليس في الحلقة إلا ما أدرك ، ولم جعل الرعب للسوداء ، والحزن للبلغم ،
والجرأة للصفراء ، والسرور للدم . ولم فسر الأوتار على ذلك فجعل الزير
للصفراء ، والمثنى للدم ، والمثلث للبلغم ، واليم للسوداء ! وقال : الزير
لطيف ناري خفيف ، والمثنى هوائي بين طبيعة النار وهو دون النار في الخفة
وبين طبيعة الماء وهو فوق الماء في الخفة ، والمثلث كالماء ، واليم
كالأرض ، وفي المثنى ضعف وزن الزير ، وفي المثلث ضعفا وزن الزير ،
وفي اليم ثلاثة أضعاف . ولم زعم أن من اللحون ما يقلق ويفرق فإن زيد فيه
نقض وإن قوي قتل . وأن فيها ما يغير فإن زيد فيه غشى وإن قوي أجمد فإن

قوي قتل . فجعل لحناً مطلقاً يقتل بالإذابة ، وجعل لحناً يقتل بالاجماد . ولم وصف اللحون بالاجماد والاضاعة كما توصف السموم القاتلة ؟ . خبرني عن صنعة البربط ، للمك أم لرفائيل أم لأقليدس ؟ وما تقول في قولهم إن لمكا عمل العود على صورة فخذ ابنه ساقها وقدمها وأصابعها وأنه جعل الصدر الفخذ ، والساق الإبريق ، والقدم المشط ، والأصابع الملاوي ، والأوتار العصب والعروق .

جعلت فداك كيف حفظك لكتاب كاوريد ، وقد خبرني بعض المتكلمين أنه رأى بسيراف مجوسياً يحفظه وهو في ألف جلد بخط مقارب . وكيف حفظك لكتاب الطرف وهل لقيت واضعه أيام أدخلك بلاد الروم نزول عطارذ ؟ وخبرني عن أسرار الهند الرجل بعينه أم لشورى ؟ ولم زعموا أن العقوق يورث البرص ، وهذا مما لا يعرف في الطب . ومن صاحب الشطرنج ، ومن صاحب كليلة ودمنة ، ومن واضع الكوكلة ، ومن طبع القلعة ، ولم صار الهندي والرومي لا يحفلان بالسندي في حال الأسر ويرغبان عنه في حال القتال . وقد اختلفوا علينا في النعال السندية فزعم قوم أن صاحب كتاب الباه كان قصيراً منكراً وكان بالنساء مستهتراً وأنه احتال بها لجسمه حتى وصلها برجله ليكون ثخنها زائداً في طوله فلما طالت الأيام ومضت الدهور ظن من لا علم له أنها اتخذت للزينة أو لضرب من المرفق . وقال آخرون : بل اتخذت للعقارب ليلا وللطين نهاراً ، فلما طال عليها نسي السبب ، وذلك أن أكثر الرداغ لا تستغرق ثخنها وابرة العقرب لا تكاد تجاوزها وقال آخرون : بل إنما اتخذتها ملوكها لمكان أصواتها وصريرها استئذاناً على أزواجها وأمهات أولادها وعلى جميع محارمها لحالات تكن عليها وأمور تكن فيها ، فصار صريرها تدناً واستئذاناً . وزعم إسماعيل بن علي أنك أنت الذي كنت أمرت باتخاذها وأشرت بصنعها ، وأنت تكتم السر الذي فيه ، وأنت الذي علمتهم مضغ التانبول ودبغ تحمير الاسنان ، وتطيب النكهة ، وأكل السعيد لما أنت أعلم به ، والتصنيد لما لا

يجوز المكاتبه فيه ، وأنك أول من احتبى هناك واستاك وفرق شعره وعلم الخضاب أهله . وكيف وقد زعمت أن الاحتباء إنما صار فيهم وفي العرب لأن نازلة العمد والصحاري وسكان الفيافي والبراري وكل من ليس لشماله مرفقة ولا لظهره مسندة ولا لفخذه جنة لا بد أن يشتكي ظهره إذا طال انتصابه وكثر جلوسه ، ومن احتاج احتال ، ومن استغنى تبلى . فأخرجت لهم الحبكة للحبوة حتى قامت لهم مكان المتكأ والمسند . فقد قال لك كسرى : فما بال الترك والخزر وجميع أهل الصحاري والعمد لا يعرفون الاحتباء ، والحاجة واحدة والعقول سليمة ، فلم أمسكت يومئذ عن الجواب ؟ لأنه استفهم استفهام الراد أو نفست به على من شهد ذلك المشهد ؟

[٣٢ - اسئلة على المعرفة وطرقها]

وأنا جعلت فداك أعلم أنني أسمع ولا أعقل كيفية السمع ، وأعلم أنني أبصر ولا أعقل كيفية البصر ، ولا أدري أمدن العقل الدماغ والقلب بابه وطريقه ، كما أن معدن اللون جميع النفس والعين بابه وطريقه ، أم معدن العقل القلب دون الدماغ أو لعلهما موصولان غير مقطوعين . وقد اعتل قوم للدماغ بأن جميع الحواس في الرأس . واعتل قوم بالحس وبما يجدون في قلوبهم من الرعب والإضطراب وغير ذلك . فكيف القول فيه وعلام عذمت منه . وكيف صار الناظر يتدي من جهة وإن كان يعرف الله فكيف عرفه ، أباضطرار أم باكتساب . وكيف جهل سليمان موضع ملكة سبأ ، وهو ملك وشأنه عظيم والجن له مسخرة والظير له برد والريح له أداة ، وكيف جهل يوسف مكان أبيه وحاله في الحزن عليه حاله وهو ملك نبي ، وكيف جهل أبوه مكانه وهو نبي ، وليس أنه من نبي ، وملك هذا بالشام والآخر بمصر . وما تقول في أهل التيه وعن ترددهم أربعين عاما في مكان واحد وعقولهم معهم ،

وإنما يجولون ليقفوا على الطريق ، فكيف أضل الجميع الطريق مع ارتفاع الذكر وشدة الطلب . وخبرني عن كلام عيسى في بطن أمه ثم في المهيد ، وعن عقل يحيى في حال الصبا ، أكانا في حالهما يتعقلان ما لا يعلمان أم ينطقان بما يعلمان ؟ وكيف علما ، أبتجربة واستنباط وعن تمام أداة وكمال آلة ، أم من طريق الإلهام والإخراج من العادة .

وقد تعجب ناس من إطالتي ومن كثرة مسألتي ، وتعجبي من تعجبهم أشد والذي كان من إنكارهم أعظم ولو رغبوا في العلم رغبتى ورأوا فيه مثل رأيي وكانوا قرأوا كتابي إليك في شيتي وأيام شباب رغبتى لاستقلوا من ذلك ما استكثروا ولا استقصروا منه ما استطالوا . فإن أذنت لي أظهرته ، وإن تجد علي أعلته .

وسنقول : ما دعاك إلى التثوية بذكري وتعريف الناس مكاني ، وقد تعرف حشمتي وانقباضي ونفوري واستبحاشي ! ولولا أنك جعلت فداك مسؤول في كل زمان والغاية في كل دهر لما تفردت بهذا الكتاب ، ولما أطمعت نفسي في الجواب . ولكنك قد كتبت أذنت في مثلها لهرمس ، ثم لافلاطون ، ثم لأرسطاطاليس ، ثم أحييت معبد الجهني ، وغيلان الدمشقي ، وعمرو بن عبيد ، وواصل بن عطاء ، وإبراهيم بن سيار ، وعلي بن خالد الاسواري ، فتربية كفك والناشي تحت جناحك أحق بذلك وأولى ، وقد كان يجب أن تكون علي ذلك أحرص وبه أعنى .

[٣٣ - اسئلة على المرائي والابصار]

وخبرني عن المرائي كيف صارت ترى الوجوه ويبصر فيها المخلوق وكذلك كل أملس صقيل وصاف ساكن ، كالسيف ، والوذيلة ، والقوارير ، والماء الراكد ، حتى الحبر البراق ، والحدقة السوداء إذا كان الناظر في الحدقة أبيض

والحدقة المغربة إذا كان الناظر فيها أسود . وكيف صار الماء الجاري والنار
 الملتهبة والشمس ذات الشعاع لا تقبل الصورة ولا يثبت فيها الخلق . وعن
 قول من زعم أنه ليس في القمر محق ثابت ، ولا كمد جامد ، ولا سواد
 واكد ، وإنما ذلك شيء رآه الناس فيه إذ كان أملس صقيلا بمقابلة الأرض وما
 فيها كما يرى من قابل الحدقة صورة إنسان ، وليس هناك صورة ، وإنما هو
 شيء يوجد عند المقابلة . ولم صار بعض المرآئي يرى الوجه والقفا ويرى
 الرأس منكساً ، ولم كنت لا تجد كتاب الستور والمطارح فيها أبداً إلا مقلوباً ،
 وما تلك الصورة الثابتة في المرآة أعرض أم جوهر أم أي شيء ، وحقيقة أم
 تخيل ، والذي نرى أهو وجهك أو غير وجهك فإن كان عرضاً فما الذي ولده
 وما الذي أوجبه والوجه لم يماسه ولم يعمل فيه . وهل أبطلت تلك الصورة
 المرئية صورة مكانها في المرآة ، ولم وأنت لست تراها في نفس صفيحة
 المرآة ، ولم وكأنك تراها في هواء خلف جوفها ، وهل أبطل ذلك اللون الذي
 هو في مثال لونك لون المرآة ؟ فإن لم يكن أبطله فهناك إذا صورتان في جسم
 في حال واحد ، أو لونان في جوهر واحد . وإن كان قد أبطل لون الحديد
 فكيف أبطله من غير أن يكون عمل فيه ، وكيف يعمل فيه وحيزه غير حيزه وهو
 لا مماس ولا متصل ولا مصادم . وسواء ذكرنا صفيحة الحديد أم ما خلفها من
 الهواء وما قدامها من الفرجة ، كل ذلك جسم ذو لون . فإن اعتلت بالشعاع
 الفاصل والشعاع يخالف في الحس ، كذلك الحساس وكذلك المحسوس ،
 وكيف نرى المخالف وكيف والشعاع لون وبياض والنفس الحساسة لا تدرك
 بشيء من الحواس وما الفرق بين الأثعبان والاحللان وعن قول ما بين السمون
 والحفرة .

وخبرني عن القرسطون كيف أخرج أحد رأسيه ثلثمائة رطل زاد ذلك أم
 نقص ووزن جميعه ثلاثون رطلاً زاد ذلك أم نقص . وما تقول في السراب ،
 وما تقول في الصدى ، وما تقول في القوس ، وما تقول في طريقة الحمرة ،

وفي طريقة الخضرة ، وكيف اختلفتا والهواء واحد وما يقابلهما واحد ، وهل ذلك اللون حقيقة أم تخيل .

[٣٤ - اسئلة على الالوان]

وخبرني عن لون ذنب الطاووس ما هو ، أتقول بأنه لا حقيقة له وإنما يتلون بقدر المقابلة أم تقول إن هناك لوناً بعينه والباقي تخيل ! وما تقول في عس الماء كيف اشتد صوته بلا باب والصوت لا بد له من هواء ، وإذا اشتد فلا بد له من باب ، وما تقول في خضر السماء ، أهو خضر جلدها كما تقول ، أم ذلك لحر الهواء كما يقول خصمنا ؟ وهل تزعم أن الأفلاك ذات لون ؟ فإن كان لها لون فقد احتملت جميع الأشكال ، وهذا خلاف ما يقولون . وإن لم تكن ذات لون فالسما إذا غير الفلك فهذا هذا . ونقول أيضاً إن كنا لا نرى القُرى المستطيلة البنيان المختلفة من البعد إلا مستديرة فلعل الشمس مصلبة والكواكب مربعة . وما تقول في المد والجزر ، أمن ملك يضع رجلا ويرفع رجلا ، فإن كان كذلك فلعل مدير الفلك ملك ولعل صوت الرعد صوت زجر ملك ، فنذع الفلسفة ونأخذ بقول الجماعة ، أم تزعم أن المد والجزر من نفس الجواذب إذا جذب وإذا رفع ! وما تقول في قول من زعم أن القمر مائي وأشبه الكواكب بطبيعة الأرض ، فانما يكون الجزر والمد على مقادير جذبه للماء وإرساله له ، ذلك معروف في منازلهم ومجاريه يعرف ذلك أهل الجزر والمد .

[٣٥ - اسئلة على القيافة والظلام]

وخبرني كيف صارت القيافة في النسبة وفي الماء والجو والتربة ، وليست القيافة تكلفاً وصنعة ، ولا عرفت بالاستنباط والفكرة ، فتكون لمن تعلم دون

من يتعلم ، نجدها في بني مدلج ، ثم في خاص من خثعم ، وكذلك خزاعة ، وهي في قريش أقل . وهي في بني أسد أقل ، وليس هؤلاء لأب ولا يجمعهم بلد ، وليس فيما بين البلدين قافة وهي فيهم على هذه الصفة . وكيف لم يختلفوا في لغتهم فينطق بعضهم بالزنجية وبعضهم بالنيطية وبعضهم بالفارسية . فان قلت فارقهم المعجم والشاعر والبكي والغريير ، فان الشاعر وإن كان القريض عليه اسهل وهو على القوافي أقدر فإنه يتروى الشعر ويصنعه ويتفرد له ويفكر فيه ، وكيف صار الانسان يعيش حيث تعيش النار ويموت حيث تموت النار ، يصاب علم ذلك في الحجاب وفي الغيران ، ولم صار يبصر النجوم من قعر البشرا العميقة ولا يبصرها أبداً إلا وهو خالص الظلمة . وخبرني عن الظلام أجسم موجود عند زوال الضوء ، أم تأويل قولنا ظلام إنما نريد به دفع الضوء ! فإن كان الظلام معنى أفتراه انقمع في الأرض وكمن عند انبساط الضوء وردع الشعاع ، أم الأرض قريص للضلام كما أن عين الشمس قرص للضياء ، وإن كان قائماً فكيف لم يتأقبا . وإن كانا قد تداخلا فكيف لم نجدهما على منظر الأعين ، ولو كان الأمر كذلك فنحن إذا لم نر ضياء قط ولا ظلاماً .

[٣٦ - اسئلة على نقص الاعضاء الداخلية]

وخبرني جعلت فداك لم زعمت أن الحس للعصب ، وأن الشر عصب جامد وأن الرثة لا حس لها ، وأن من أدام سف اللبان لم يؤلمه المؤلم وألذه الملد ، وكيف يلذ من لا يألم ، ولو جاز ذلك لعرف الصواب من يجهل الخطأ ، ولعرف الصدق من يجهل الكذب . هذا ما عندي من العلم البراني وأنت أبصر بالعلم الجواني .

وزعم بعض تلاميذك أنك تعلم لم كان الفرس لا طحال له ، ولم صار

البعير لا مرارة له ، ولم كانت السمكة لا رثة لها ، ولم كانت حيتان البحر لا السنة لها ، ولم حاضت الأرنب ولم اجترت ، ولم كان قضيبه من عظام ولم كانت علائق أجواف السبع أفراداً إلا الكلية . وزعمت أنك تعرف في الخفاش سبعين أعجوبة ، ونحن لا نعرف إلا سبعاً ، وأنت تعرف في الذهب مائة خصلة كريمة ، والناس لا يعرفون إلا عشراً ، وأنت تعرف في البعير ألف داء ودواء والأعراب لا تدعي إلا مائة داء غير دواء .

[٣٧ - اسئلة على السحر والشيطان]

جعلت فداك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كاد البيان أن يكون سحراً » وقال : « إن من البيان لسحراً » وقال عمر بن عبد العزيز وسمع رجلاً يتكلم بكلام بليغ عجيب لطيف رقيق : هذا والله السحر الحلال . وقال الناس لذي المكر والخلافة ولذي الرفق والتأني : ما هو إلا ساحر ، وقد سحر بكلامه . وقالوا للمرأة : ساحرة العينين . وقد ذكر الله السحرة في القرآن وأخبر عن هاروت وماروت وخبر عن النفثات في العقد . وقال الناس : لهو أقيح من السحر . إذا أرادوا نفس المعنى المشبه به والمعنى المحمول عليه والسحر نفسه . وما الذي اشتقت منه هذه الأمثال ؟ ولم تجدهم أبداً الله سموا كهان العرب سحرة ، ولا العرّاف ساحراً ، ولا الحازي ، ولا صاحب الطُرق ، ولا من كان معه رثي ، ولا من ادعى تابعة من لدن عمرو بن لحي إلى يومنا هذا . وما قاله [الساحر] إذا عقد عقداً أو دفن صورة بالأندلس لرجل بفرغانة وإذا صور شمعتين وخرطهما على مثال إنسانين ودفنهما وخبأ مكانهما وقابل بين وجوههما تقابلاً بالمودة ، وإن دابر بينهما تدابراً بالعداوة . وقل لي من يتولى هذا له ومن يقوم له به ومن يتطوع به عليه ، فإن قلت الشيطان ، فلم فعل هذا له وأول شيطنته أن لا يطيع من هو فوقه ، فإن قلت : بالعزائم التي لا ترد

والإيمان التي لا تدفع ، فقد عزم الله عليه بالقرآن والتوراة والانجيل فلم يجده يحفل بذلك ولا يرى له قدراً ولا يكثر له ولا يراه سبياً . وأخبرني ما هذه العزيمة التي إذا سمع بها أجاب ، وإذا ظهرت له أناب ، ومن أين عرف الإنسان هذه العزيمة ، ومن أين وقع عليها ، ومن له بها ، أهو صنعها أم صنعت له فإن يكن الشيطان هو الذي ابتداء بها فقد ابتداءه إذا بتعريف العزيمة قبل أن يعزم عليه ، وقد تطوع بأعظم الأمور ، فما الذي يحوجه الى العزيمة في أصغرهما ، فقل في هذا . وإن زعمت أن العازم صاحبه دون الشيطان ، والعازم مسلم وإن كان مسلماً ولذلك أجاب العزيمة وعظم الإخلاف ، فلم يخبل له الأصحاء ويقتل المرضى ولم يحبب ويغض ، ولم يفرق بين المرء وأهله ، وبين الولد البار وأمه ، ولم يجتلب العفائف إلى الزناة ، ولم يعذب ويقتل ؟ وهذا متناقض .



[٣٨ - اسئلة على بعض عجائب الحيوانات]

ولم قيل أعق من ضب وأبر من هرة ، وهما جميعا يأكلان أولادهما ، ولم عال الذئب أولاد الضبع إذا قتلت أو ماتت حتى قال الشاعر : « حتى عال أوس عيالها » وهل يفهم الضبع قولهم : خامري أم عامر؟ وما بال الظبي لا يدخل كناسه إلا مستدبراً وهل يجوز قولهم في نوم الذئب قال الشاعر :

يَنَامُ بِإِحْدَى مُقْلَتَيْهِ وَيَتَّقِي الْمَنَايَا بِأُخْرَى فَهُوَ يَقْظَانُ هَاجِعُ

ولم نامت الأرنب مفتوحة العينين ، ولم أكل الذئب صاحبه إذا رأى به دماً ، وما بال الجن والثيران ، وما بال الشياطين والورشان ، وهل في الحيات جنان . وما معنى قولهم : كأنما كسر فجير . وما تأويل الحديث : يؤخذ للجماء من القرناء . ويكلف أن يعقد بين شعيرتين .

[٣٩ - الجواب على هذه الأسئلة موجود في كتب الجاحظ]

ولم زعمت أن عمر نوح أطول الأعمار مع قولك أن جميع الأنبياء قد
حذرت من الدجال ، وأن الدجال إنسان . وقد سألتك وإن كنت أعلم أنك لا
تحسن من هذا قليلا ولا كثيراً ، فإن أردت أن تعرف حق هذه المسائل وباطلها
وما فيها خرافة وما فيها محال وما فيها صحيح وما فيها فاسد ، فالزم نفسك
قراءة كتبي ولزوم بابي وابتدئ بنفي التشبيه والقول بالبداء واستبدل بالرفض
الاعتزال ، وأن أتذكر منك بعد التمكين واليدل وبعد التقرير والشحن فلا يبعد
الله إلا من ظلم .

[٤٠ - مجموعة من حكم الفلاسفة]

وقد بقيت لي عليك مسائل وهي خاتمة الكتاب ومنتهى المسائل : أيهما
أحسن قول بقراط مفسراً : العمر قصير والصناعة طويلة والزمان جديد والتجربة
خطأ والقضاء عسر ، أم قول أفلاطون مجملاً : لولا أن في قلبي أنني لا أعلم
تثبيتاً لأنني أعلم لقلت إنني لا أعلم ، أم تواضع أرشخانس حيث يقول : ليس
معي من فضيلة العلوم إلا علمي بأنني لست بعالم . فانظر في آخر هؤلاء ثم
انظر في قول ديمقراط : عالم معاند خير من عالم منصف جاهل ، وفي قول
تلميذه الأول : الجاهل لا يكون منصفاً والعالم لا يكون معانداً وقد يكون
العالم معانداً . ثم انظر في قول ريسموس : لولا العمل لم يطلب علم ، ولولا
العلم لم يطلب عمل ، ولأن أدع الحق جهلاً به أحب إلي من أن أدعه زهداً
فيه ، وإن كان الجهل لا يكون إلا من نقصان في آلة الحس فإن المعاندة [هي]
زيادة في آلة الشر ، ولأن أترك جميع الخير أحب إلي من أن أفعل بعض
الشر ، ثم انظر في قول تومقراط : العلم روح والعمل بدن ، والعلم أصل

والعمل فرع ، والعلم والد العمل مولود ، وكان العمل لمكان العلم ولم يكن العلم لمكان العمل . فالسبب الجالب خير من السبب المجلوب ، والغالب خير من المجلوب . وانظر في قوله اقليمون : ألعلم كان من العمل والعمل غاية ، والعلم رائد والعمل مرشد . ثم انظر في قول ارسطاطاليس : ليس طلبي العلم طمعا في بلوغ قاصيته ولا سبيلا إلى غايته ولكن التمس ما لا يسع جهله ولا يحسن بالعاقل خلافه . ثم انظر في قوله : قد عرفت الارتباطيقي ، وأيقنت معرفة الموسيقى ، وعرفت المساحة ، فلم يبق إلا علم الألهي ومعرفة الاصلاح . ثم انظر في قول مورسطوس : عرفت أكثر المقصود وأقل ما يوقف عليه من المبسوط ، وقليل الكثير كثير ، وكثير القليل كثير .

ثم انظر في قول اقليمون : ما أقل منفعة كثير المعرفة مع شرف الطبيعة واقتصاد الشهوة . ثم انظر في قول تلميذه الأول : غلبة الطبيعة تبطل المعرفة وتنسى العاقبة ولو كانت المعرفة ثابتة لكانت هي الغالبة . ثم انظر في قول تلميذه الثاني : ليس بعلم ما كان مغلوباً وليس بفهم ما كان مغموراً بل لا يكون مغلوباً إلا بالنقص والخبال ولا مغموراً إلا بالغلظة والانتقاض . ثم انظر في قول ما سرجس : من قصر عن طلب العلم لرغبة أو رهبة أو منافسة أو شهرة . كان حظه من الرغبة وحظه من الرهبة على مقدار حق الرهبة . ومن طلب العلم ذكرم العلم والتمسه لفضل الإستبانة كان حظه منه بقدر كرمه وقدره ، وانتفاعه به على حسب استحقاقه في نفسه .

وقد اختلفوا في العقل بأكثر من اختلافهم في العلم ، فمنعني من ذكره لك غموضه عليك واستتاره عنك ، وعلمت أنني لا أقدر أن أصوره لك دون دهر طويل ، ولا أضمنك معناه دون تريب كثير .

[٤١ - فوائد هذا الكتاب]

هذا الكتاب مُرَضُّ مع ما فيه من الأخلاط من أشكال وأضداد ، ومن

الجد والهزل ، ومن الحظر والإطلاق ، ومن الاستئناف والقطع ، ومن التحفظ والتضييع ، ومن التثبيت والتهاون ، إذا أريد به تقريع معجب أو تكشيف مموه ، أو امتحان مشكل ، أو تخجيل وقاح ، أو قمع ممار ، أو ممازحة ظريف ، أو مساءلة عالم ، أو مدارسة حافظ ، أو تنبيهاً على الطريق ، أو تجديداً للذهن .

[٤٢ - حاجة العقل الى الشحد]

والعقل حفظك الله أطول رقدة من العين ، وأحوج الى الشحد من السيف ، وأفقر الى التعهد ، وأسرع الى التغير ، وأدواؤه أقتل ، وأطباؤه أقل ، وعلاجه أعضل . فمن تداركه قبل التفاقم أدرك أكثر حاجته ، ومن رآه بعد التفاقم لم يدرك شيئاً من حاجته . ومن أكبر أسباب العلم كثرة الخواطر ثم معرفة وجوه المطالب ، ثم في الخواطر الغث والسمين ، والفساد والصحيح والمسرع إليك والبطيء عنك ، والدقيق الذي لا يكاد يفهم ، والجليل الذي لا يلقي الفهم . ثم هي على طبقاتها في التقديم والتأخير ، وعلى منازلها في التباين والتمييز . والمطالب طرق ، وللدرك الحقائق أبواب ، فمن أخطأها وانتظر كان أسوأ حالا ممن لم يخطئها ولم ينتظر . وعلى قدر صحة العقل يصح خاطر ، وعلى قدر الفراغ يكون التنبه - هذا جماع هذا الباب وجمهوره وأقسامه وجملته . ثم من أنفع أسبابه الحفظ لما قد حصل والتقييد لما ورد والانتظار لما يرد أن لا تخلي نفسك من الفكرة إلا بقدر جسام الطبيعة ، وأن تعلم أن مكان الدرس من الحفظ كمكان الحفظ من العلم ، وأن تعرف فضل ما بين طلب العلم للمنافسة والشهرة وبين طلبه للرغبة والرغبة ، وأن تعلم أن العلم لا وجود لمكنونه ولا يسمع بسره ومخزونه إلا لمن رغب فيه لكرم عنصره ، وفضله لحقيقة جوهره ، ورفعته عن التكسب وصانته عن التبذل ، وأنه لا يعطيك خالص الحكمة حتى تعطيه خالص المحبة . وكان يقال : من شاب

شيب له وخصلة ينبغي ان تعرفها وتصطنعها وتذكرها وتقف عندها وهي ان تبدأ من العلوم بالمهم ، وان تختار من صنوفه ما انت له انشط والطبيعة به اعني ، فإن القبول على قدر النشاط ، والبلوغ فيه على قدر العناية . ثم من أفضل أسبابه تخليص أخلاطه وتمييز أجناسه والمعرفة باقداره حتى تعطي كل معنى حقه من التقريب والرفعة ، وقسطه من الإبعاد والضعة وحتى لا تتشاغل إلا بالسامين الثمين وبالخطير النفيس ، ولا تلقى إلا الغث الخسيس والحقير السخيف ، فانك متى كنت كذلك لم تميز فضل ما بين النظرين ولا فرق ما بين النعتين . والكيس كل الكيس والحذق كل الحذق أن لا تعجل ولا تبطيء وأن تعلم أن السرعة غير العجلة ، وأن تعلم أن الأناة خلاف الإبطاء ، وأن تكون على يقين من درك الحق إذا وفيتته شرطه ، وعلى ثقة من ثواب النظر إذا أعطيته حقه .



[٤٣ - الخاتمة !

هذا جملة العذر في هذه الرسالة ، وجملة الحجة فيما قدمنا من الافتنان والإطالة . فان كنا أصبنا فالصواب أردنا وإلى غاية أجرينا ، وإن كنا قد أخطأنا فما ذلك عن فساد من الضمير ولا عن قلة احتفال بالتقصير . ولعل طبيعة خانت ، أو لعل علة حدثت ، أو لعل سهواً اعترض ، أو لعل شغلا منع .

خفض عليك أيها السامع فان الخطأ كثير غامر ومستول غالب ، والصواب قليل خاص ومقموع مستخف . فوجه اللائمة الى أهلها وألزمها من هو أحق بها ، فإنهم كثير ومكانهم مشهور . كنت أتعجب من كل فعل خرج من العادة فلما خرجت الأفعال بأسرها من العادة صارت بأسرها عجبا ، فبدخول كلها في باب التعجب خرجت بأجمعها من باب العجب . وقد ذكر الله تعالى التعجب في كتابه ، وقد تعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم في زمانه ، وفي الناس يومئذ

الناقص والوافر والمشوب والخالص والمستقيم والمعوج . قال الله تبارك وتعالى لنبيه
﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ وقال ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ واعلم أنه لم يبق
من المتعجب القائل إلا نصيب اللسان ، ولا من المستمع القائل إلا حصة
السمع . وأما القلوب فخاوية قاسية وراكدة جامدة ، لا تسمع داعياً ولا تحيب
سائلاً قد أغفلها سوء العادة واستولى عليها سلطان السكر . فدع عنك ما لست
منه فإن أورده عليك شغلا وهما داخلا .

إعلم أن الله تعالى قد مسخ الدنيا بحدافيرها ، وسلخها من جميع
معانيها ، ولو مسخها كما مسخ بعض المشركين قرده ، أو كما مسخ بعض
الأمم خنازير ، لكان قد بقي بعض أمورها وحبس عليها بعض أعراضها ، كبقية
ما مع القرود في ظاهره من شبه الأدمي ، وبقية ما مع الخنزير في باطنه من شبه
البشري ، لكنه جل ذكره مسخ الدنيا مسخاً متبعاً ومستقصي مستفرغاً ، فبين
حاليهما جميع التضاد ، وبين معنيهما غاية الخلاف . فالصواب اليوم غريب
وصاحبه مجهول . فالعجب ممن يصيب وهو مغمور ، ويقول وهو ممنوع ، فإن
صرت عوناً عليه مع الزمان قتله ، وإن أمسكت عنه فقد رقدته ، ولسنا نريد
منك النصر ولا المعونة ولا التأييد ولا التعزية ، وكيف أطلب منك ما قد
انقطع سببه وأجتث أصله . وقد كان يقال : من طلب عيباً وجدته . هذا في
الدهر الصالح دون الفاسد . فإن أنصفت فقد أغربت ، وإن جرت فلم تعد ما
عليه الزمان . وهب الله لنا ولك الإنصاف وأعاذنا وإياك من الظلم .

والحمد لله كما هو أهله ، ولا حول ولا قوة إلا به ، وهو حسبنا ونعم
الوكيل .

٢١ - هامش كتاب التريبع والتدوير

- (١) لم يبدأ الكتاب بالمقدمة التقليدية التي عهدناها في كتب الجاحظ . هذا يدل على انها حذفت ، وان قسماً من الكتاب بتر . ومطلع الكتاب المتعلق بالتعريف باحمد بن عبد الوهاب المثبت هنا (حوالي اربع صفحات ساقط من طبعة عبد السلام هارون وموجود في طبعة السندوبي) .
- (٢) نجد مقدمة مبسرة هنا : « بسم الله الرحمن الرحيم : اطال الله بقاءك واتم نعمته عليك وكرامته لك » . هذه المقدمة ارجح انها مقحمة من قبل الناسخ وليست للجاحظ .
- (٣) قوله ان احمد بن عبد الوهاب لا يتورع عن مطاولة ابي جعفر ابي محمد بن عبد الملك الزيات ومخاشسته ومنافرته في المجالس الحافلة بكبار الحكام ، ولا تحدي الجاحظ والتطاول عليه ، يبين لنا الدافع الذي حفزه على كتابة هذه الرسالة . لقد ضاق ذرعاً من تطاول هذا الكاتب المعتد بنفسه فشن عليه هذه الحملة من السخرية والاستهزاء والتقييع والتشنيع .
- (٤) لاحظ كيف يهزأ من كبر سن احمد بن عبد الوهاب فيتهمه بالخرف ويقارن عمره المديد باعمار الهبولي (المادة الأولى للعالم عند ارسطو والمشائين وهي قديمة وليست حادثة) وضر لقمان .
- (٥) الطوفان كما جاء في الكتاب المقدس والقرآن . وسيل العرم الذي نتج عن انهيار سد مأرب في اليمن . وقد القى الجاحظ اضواء على ما يتعلق بالطوفان مثل سفينة نوح وغرابه ، والقبائل التي بادت بسببه .
- (٦) معلومات تاريخية قديمة تتعلق بجرهم وطويس وهرمس وارميا او الخضر ويحيى

ابن زكريا وسوس المنتظر ، وقير وعيرى ، واوولاد السعالى ، وقحطان وعدنان
وقضاة وحمير وطبيء وهاروت وماروت .

(٧) في الطبيعة يطرح اسئلة محيرة مثل الماء وتكونه ونضوبه ، وعمل الفلك في عالم
الارض ، وكيف تفرق الناس الى اعراق مختلفة الالوان ، وسر الوراثة والشبه بين
الاب والابن .

(٨) علم الحياة بطرقه باب الجاحظ فيتساءل عن أطول المخلوقات عمراً : الانسان ام
الحية ام الضب . ومتى يتوقف النسر عن السفاد والتناسل ، ولم لا ينسل البغل .

(٩) وعلم الآثار يحتل مركزه من اهتمام الجاحظ ، فيسأل عن باقى كعبة نجران ،
وغمدان ، وتدمر ، والهرمين ، ومأرب ، والابلق الفرد في الحيرة . . .

(١٠) اثر الأقليم في البشر ، وعلى اى اساس قسمت الارض الى اقاليم ، وما هو
السبب في اختصاص سكان اقليم بمهنة دون أخرى .

(١١) الاوثان ومكانها وزمانها مثل ود وسواع ويغوث ويعوق ومناة والعزى والغبغب
وعائم واساف ونائلة الخ . .

(١٢) الفراسة والفأل والشجم او معرفة الغيب تشغل بال الجاحظ ايضاً . فيسأل عن
اسرار الكيمياء ، والزجر ، واسرار الكف ، والنظر في الاكتاف ، وقرص الفأرة ،
ودوائر الرأس ، والتنجيم ، والسباح والبارح ، ودماء الملوك للكلبي ، وصرع
السيطان ، وتلوث الغيلان الخ .

(١٣) الاسئلة حول معتقدات الشيعة تدل على شك الجاحظ فيها مثل عنفاء مغرب
والشق الاحمر وثور الله في الارض وشعب رضوى ويض الخفاش والجفر
والرجعة والمناسخة والبداء .

(١٤) الجن وطبيعتهم وعملهم بالناس او علاقتهم بهم وبعض اسمائهم مثل شقلون
واهرمن وافردش وابر شارش الخ . .

(١٥) الكيمياء ومسائلها وادواتها وعناصرها يلزم بها الجاحظ امثال الفرق بين الطاس
والكأس ، والاقبية ، وصنعة الزجاج ، والرخام ، وصنع الذهب ، والنوشاذر ،
والاصباغ الخ .

(١٦) هرمس الحكيم واهتمامه بالفلك ، وافلاطون ومخالفته ارسطو اسئلة تدل على اطلاع
الجاحظ عليهم .

(١٧) مساوىء المزاح كثيرة : السخف ، التزيد ، المكر ، الخداع الخ .

(١٨) الجاحظ يطلب العفو من احمد بن عبد الوهاب لأنه مزح معه او سخر منه .

(١٩) للمزاح محاسن الى جانب المساوىء . لاحظ جدل الجاحظ .

(٢٠) الجاحظ يعمد الى مديح احمد بن عبد الوهاب ليكفر عن اساءته اليه بسخريته ، ولكن مديحه جاء ساخرأ او مقلوباً مثل مديح المتنبي . لكافور الاخشيدي .

(٢١) لاحظ جمال احمد بن عبد الوهاب وتطبيق مفهوم الجاحظ الجمالي عليه « الاعضاء الموزونة والاجزاء المقدودة مع عدم التفاوت في الاحجام . (راجع نظرية الجاحظ الجمالية في كتابنا « نحو رؤية جديدة لفلسفة الفن) ولكن السخرية تبدو واضحة في قوله مثلاً « وما ندرى في اي الحالين انت أجمل ، وفي اي المنزليين انت اكمل ، اذا فرقناك ام اذا جمعناك ، اذا ذكرنا كلك ام اذا تأملنا بعضك ؟ فاما كلك فهي التي لم تخلق الا للتقيل والتوقيع ، وهي التي يحسن بحسنا كل ما اتصل بها ويختال بها كل ما صار فيها . . . » .

(٢٢) العودة الى حديث المزاح والجد برهان على خاصية الجاحظ الاستطراذية التي اتسمت بها آثاره الادبية خاصة .

(٢٣) من شروط التمثيل ان يكون الشيطان متقاربين .

وانواع الخطأ ثلاثة : خطأ الحس وخطأ الوهم وخطأ الرأي . والمعرفة نوعان : استنباطية وعيانية . (راجع نظريته في المعرفة وشروطها في كتابنا (المناحي الفلسفية عند الجاحظ ، نظرية المعرفة) .

(٢٤) الامامة عند الشيعة : يعود الجاحظ الى هذا الموضوع مرة ثانية لأن احمد بن عبد الوهاب كان شيعياً . وتجدد الإشارة هنا الى نبوءة الجاحظ بما آلت اليه الامامة عندهم وهي غيبة الامام الثاني عشر وهو المهدي المنتظر .

(٢٥) يحتج الجاحظ لخاصة الاستطراذ في أدبه بقوله ان الناس يملون الشيء الكثير ويستثقلون الطويل وان كثرت محاسنه وفوائده .

(٢٦) الاسئلة حول المتنبي والنبى ودلائل النبوة بحثها الجاحظ وأجاب عليها في كتاب حجج النبوة . فليراجع في كتاب رسائل الجاحظ الكلامية .

(٢٧) انتشار الاديان بين الشعوب والقبائل مثل تنصر النعمان ملك الحيرة ، وتهود ذي نواس ملك اليمن ، وتمجس ملوك سبأ في اليمن .

(٢٨) عودة الى الحديث عن العرافة والسحر عملاً بالاستطراذ الجاحظي .

(٢٩) الاسئلة حول الذاكرة وعوامل النسيان تدل على اهتمام ابي عثمان بعلم النفس وقضاياها . وينبغي ان يكون قد بحث هذا الموضوع في بعض كتبه الضائعة .

(٣٠) علم الرياضة لم يهمله الجاحظ وينبغي ان يكون قد الف فيه كما نستشف من اسماء كتبه الضائعة . وفي كلامه اشارة الى مصادر هذا العلم : الحساب اخذ عن

- الهند ، والجير ساهم به العرب لأن اسمه عربي .
- (٣١) فن الموسيقى احبه الجاحظ ولكن لم يبلغ شهوته منه لماذا ؟ ومن اعلامه فيثاغورس واقليدس وغيرهم . وممن اشتهر في الطرب والموسيقى الجرادتان وابو طيبة والسرياب وحبابة وسلامة وعزة الميلاء وجميلة الحدباء الخ . .
- يذكر الجاحظ اسماء عدد من الكتب المعربة التي لم يعرف اصحابها امثال كتاب كلوريد الضخم (الف مجلد) المجوسي الاصل ، وكتاب السطرق الرومي الاصل ، وكتاب اسرار الهند ، ولعبة الشطرنج ، وكتاب كليلة ودمنة .
- (٣٢) موضوع المعرفة حظي باهتمام الجاحظ كموضوع مستقل . ويبدو الجاحظ حائراً في تحديد مركز العقل هل هو الدماغ او القلب . ودور الحواس في المعرفة . (راجع رسالة الجوابات في المعرفة ، ضمن رسائل الجاحظ الكلامية) .
- (٣٣) علم البصريات والمرائي (جمع مرآة) لم ينس الجاحظ . وهو يسأل عن طبيعة الصورة الثابتة في المرآة ، هل هي عرض او جوهر وحقيقة او تخيل .
- (٣٤) الالوان وحقيقتها بحثها الجاحظ في كتاب الحيوان . وهو يسأل عن الوان الكواكب ، وعلاقة الاشكال بالالوان . والوان القمر وشبهه بالأرض .
- (٣٥) القيافة او علم تتبع الأثر ، في التبرات والجو والماء ، ومن اشتهر بها من بني مدلج وخثعم وخزاعة وقريش .
- ويطرح اسئلة على طبيعة الظلام .
- (٣٦) أسئلة فزيولوجية حول وجود وعدم وجود بعض الاعضاء الداخلية في اجسام حيوانات معينة كالفرس الذي لا طحال له ، والبعير بلا مرارة ، والسمكة بلا رئة الخ . وقد وردت هذه المسائل في كتاب الحيوان للجاحظ .
- (٣٧) عودة الى الشيطان والسحر مرة ثالثة دليل على شك الجاحظ في الموضوع ، وعلى نهجه الاستطراذي .
- (٣٨) الاسئلة التي يطرحها هنا على عجائب الحيوانات شكلت الغرض الاساسي في كتابه الحيوان . وقد كان كلفاً باستقصاء تلك العجائب لظهار حكمة الله في خلقه .
- (٣٩) يخبرنا الجاحظ ان جميع هذه المسائل قد بحثها في كتبه المختلفة ومن يقرأها يعثر على الاجوبة المطلوبة . ويحث على قراءتها .
- (٤٠) هذه المجموعة من حكم الفلاسفة تبرهن على اهتمام الجاحظ بالفلسفة اليونانية وموضوعاتها .
- (٤١) لا ينسى الجاحظ ان يمدح كتابه ويبين فوائده بايجاز . فهو على الرغم مما فيه

من اخلاط واَضداد وسخرية واستطراد يَنفع في مساءلة العالم وممازحة الظريف
ومدارسة المتعلم ، ثم هو يشحذ الذهن .
(٤٢) ان العقل بحاجة الى شحذ اكثر من السيف . هذا الرأي ابداه الجاحظ اكثر من
مرة في كتبه ، راجع حجج النبوة ، والمعرفة الخ . . .
(٤٣) في الخاتمة يعتذر الجاحظ من الاطالة والافتنان والجدل والخطأ بسبب علة
حدثت او سهو اعترض او شغل منع .



مركز تحقيقات كميبيوتر علوم إسلامي

فهرس الاعلام

- ابى الصلت : ابن : ٤٣١ .
 ابى طالب : على ابن ١٥٥ ، ١٥٦ ،
 ، ٤٠٠ ، ٣٢٦ ، ١٩٠ ، ١٦١
 . ٤٢٧
 ابى ليلى ، ابن : ٣٩٠ .
 ابى ، ابن : ١١٦ .
 آبيه ، زياد ابن : ٣٥٦ .
 الأحنف : ١٣٠ ، ١٣٦ ، ٢٨٦ ،
 . ٤٠٠
 أدريس : ٤٠٢ .
 الأردوان : ٢١٨ .
 ارسطاطاليس : ٤٤٥ .
 ارشخانس : ٤٣٥ ، ٤٤٤ .
 الأركون : ٤٠٩ .
 أرميا : ٤٠٢ .
 الأزد : ١٣٧ ، ١٧٣ .
 أساف : ٤٠٩ .
 اسباد : ٤٠٨ .

- أ -

- آدم : ٣١٧ ، ٤٣١ .
 آدم ، عناق بنت : ٤٠٤ .
 آل ساسان : ١٣٦ .
 الأبدال : ٤٠٢ .
 ابراهيم (المغني) : ٢٦٣ .
 ابراهيم (الموصلي) : ٢٠٦ .
 ابراهيم (النبي) : ٢٧٦ .
 ابربارش : ٤١٢ .
 ابرشارش : ٤١٢ .
 الأبله : ٢٠٠ ، ٤٠٥ .
 الأبلق الأسدي : ٤٣٢ .
 الأبلق الفرد : ٤٠٨ .
 إيليس : ١٣٤ ، ١٣٥ ، ٣٢٢ ،
 . ٤١٠ ، ٤١١ .
 الأبرد : سفيان بن : ٣١٤ .
 ابى صالح ، ابن : ٢٠٩ .
 ابى صفرة ، ابن : ٣٣٨ .

. الاندلس : ٤٤٢ .

. انس : ١٦٢ .

. انطاكية : ٤٠٢ .

. انوشروان* : ١٣٦ .

. اهرمن : ٤١٢ .

. اوس : ١٠٩ .

. اويس القرني : ١٧٣ .

. الايادي : ٣٩٤ .

. ايدرش : ٤١٢ .

. ايليا : ٤٠٢ .

- ب -

. باب ، عمرو بن عبيد بن : ٣٦٢ .

. بابل : ٤٠٨ ، ٣١٤ .

. بابك ، ازدشيرين : ١٣٦ ، ٢١٨ .

. البابي : زهير : ٣٩١ .

. باقل : ١٢١ .

. بام : ٤١٢ .

. ابا مونة : ٤٣٢ .

. بجيلة : ٤٢٨ .

. بخثيشوع : ٢٨٧ .

. بلر ، حارثة بن : ٣١٦ .

. بلر ، حديفة بن : ١٣٧ .

. بنديل ، ورقاء بن : ١٥٦ .

. برزه ، ابو : ٣٥٢ .

. بركوبر : ٤١٠ .

. برهوت : ٤٠٩ .

. البسوس : ٣٠٣ .

. اسعد ، بنو : ٤٤١ .

. الاسكندر : ٤٠٢ .

. اسماعيل : ٤٠٢ .

. الاسود العنسي : ٤٣١ .

. أسيد ، خالد بن : ٣٦١ .

. الأشكات : ٢١٨ .

. اشيم ، صلة بن : ١٧٣ .

. الاصمعي : ٤٠٠ .

. الاصم : ٤٠٣ .

. الاعتزال : ٤٤٤ .

. الاعشى : ١٧٠ ، ٤١٠ .

. الاعمش : ٩٢ ، ١١٨ .

. الاعور ، ابو عثمان : ٣٦٢ .

. افعى : ٤٠٨ .

. افلاطون : ٤٤٤ .

. اقليدس : ٤٣٥ .

. اقليمون : ٤٤٥ .

. الله : ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٤ .

. ١٠٨ ، ١١٤ ، ١٢١ ، ١٣١ .

. ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥٨ ، ١٦٠ .

. ١٩٥ ، ٢٠٢ ، ٢١٦ ، ٢٢٦ .

. ٢٣٩ ، ٢٦٥ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ .

. ٣٩١ ، ٣٩٥ ، ٤٤٨ .

. امرؤ القيس : ٩٢ ، ١١٨ .

. امام المسجد ، سعيد بن اسعد بن :

. ٣٦٢ .

. ام سلمة : ١٦٢ .

. اميم : ٤٠١ .

ثمود : ٤٠١ .

- ج -

الجاحظ : ٣٦٢ ، ٢٨٥ ، ٣٢٢ ،

٣٦٢ .

جاسم : ٤٠١ .

جالينوس : ٢٨٨ .

جامع : بن : ٢٦٣ .

جبل ، معاذ بن : ١٠٨ .

جبل الماس : ٤٠٣ .

جبير ، سعيد بن : ١١٨ .

جدعان ، بن : ٤٠٩ .

جريس : ٤٠١ .

الجرادقان : ٤٣٥ .

جري : ٤٣٢ .

جرهم : ٤٠١ .

جزي : ١٧٠ ، ٤٢٨ .

جعفر ، أبو : ٤٠٠ .

جميلة : ٤٣٥ .

الجنة : ١٢١ .

جندل ، ابن : ٤٣ .

- ح -

حاتم الريش : ٣٠٠ .

الحارث ، النعمان بن : ٤٣١ .

الحارثي : ٤١٠ .

حازم ، ابن : ١٥٧ .

حاب ، صالح بن : ١١٨ .

الحباب ، وايبة بن : ١٥٨ ، ١٥٩ .

بشر المريسي ٢٣٦ .

البطيحي : ٤٣٢ .

بعث : ٣٠٣ .

بغاد : ٢١٨ ، ٢٧٩ .

بقراط : ٤٤٤ .

بكر ، قبيلة : ١٢٩ ، ١٣٧ ، ٣٢٠ .

بكر ، أبو : ١٥٦ ، ١٦١ .

بلال : ٤٠٣ .

بلخ : ٣٤٠ ، ٤٠١ .

بلقينون : ٤٠٩ .

نصر ، ابن ، ٤٠٢ .

بنطس : ٤٠٣ .

شهرام : ١٠٧ .

نهبيا : ٤٠٤ .

بوران : ٤٠٨ .

- ت -

تبت : ٤٠٩ .

تلمر : ٤٠٥ ، ٤٠٨ .

التشيه : ٤٤٤ .

التغززية : ٤٣٢ .

تغلب ، قبيلة : ١٠٩ .

التمار ، قاسم : ٣٩٥ .

تميم ، قبيلة : ٣٢٠ .

توقراط : ٤٤٤ .

- ث -

الثقفي ، ابو العاص : ٣٦٢ .

الثقفي ، الحكم بن صخر : ٣٦ .

الحضر : ٤٠٢ ، ٤٠٩ .
الخطاب ، عمر بن : ٩٧ ، ١١٨ ،
١٥٠ ، ١٦٣ ، ١٧٣ ، ٤٢٢ ،
٤٢٨ .

الخليل البصري : ٢٠٦ ، ٣٤٢ .
خلف ، احمد بن : ٤٢٨ .
خمعة : ٤٠٨ .
خيثم ، الربيع بن : ١٧٣ .

- د -

دارا : ٣١٤ .
الدارمي ، مسكين : ٩٦ .
داود ، سليمان بن : ٩٥ .
داود : ١٦٠ .
الدجال : ٤٠٢ ، ٤٠٩ .
دجلة : ٢١٨ ، ٤٠١ .
دحان : ٢٦٣ .

الدرداء ، ابو : ١٥٥ .
دركاذب : ٤١٠ .
دعيميص الرمل : ٤٠٨ .
دلالا : ٤٠٩ .
دمقراط : ٤٤٤ .
الديناورية : ٤٣٢ .
الدهرية : ٤٣٢ .
دوالباي : ٤١١ .
دوس : ٤٠٩ ، ٤٠١٠ .
ديصان ، ابن : ٤٣١ ، ٣٩٦ .
ديك : ١٨٥ .
دينار ، ابو : ٣٠٠ .

حباية : ٤٣٥ .
حثة ، ابو : ٣٠٠ .
الحجاج : ٩٥ ، ١٩٥ ، ٤٢٧ ،
احزام ، قبيس بن : ٤٣٥ .
الحراة : ٢٠٠ .
حذيفة ، حصن ابن : ٣١٤ .
حذيم : ٤٠٨ .
حزام القائد : ٢٨٧ .
حسله : ٤٣٢ .

الحسن : ١١٤ ، ٢٨٥ ، ٣١٩ ،
٣٩١ .

حطان ، عمران بن : ٣٩٥ .
حفصة : ٤٣٢ .
حنيفة ، ابو : ٩٩ .
حنين ، صالح ابن : ٣٠٠ .
حية : ٤٣٥ .

- غ -

الخاركي ، عمرو الأعور : ٣٦٢ .
خاتون : ٤٠٨ .
ابن خاقان ، الاشيم : ٣١٦ .
ابن خاقان ، يحيى : ٣٢٤ .
خشعم : ٤٤١ .
خراسان : ١٣٧ ، ٣٤٠ .
الخزاز : ١٦٧ .
الخريمي : ١٩٤ .
خزاعة : ٤٠٢ ، ٤٤١ .
خزرج ، قبيلة : ١٠٩ ، ٢٨٠ .
الحسن : ٤٠٨ .

الزبير ، ابن : ١١٧ ، ١١٨ .

زرادشت : ٤٣١ .

زرارة ، أوفى بن : ٣٩٥ .

زرزور : ٤٠٠ .

زكريا ، يحيى بن : ٤٠٢ .

زكزل : ٢٤٥ .

زهرة ، بنو : ٢٨٠ .

الزهرة : ٤٠٢ .

الزهري : ١٥٧ ، ١٦١ .

زهير ، جنذب بن : ٤٣٢ .

زهير ، قيس بن : ٣١٤ ، ٤٢٨ .

زياد : ٣١٦ ، ٢٨٦ ، ٤٢٧ .

- س -

سام : ٤٠٥ .

السامري : ٤٣٠ .

ساموره : ٤٣٥ .

سبا : ٤٠٨ ، ٤٣٢ .

السختياني ، ايوب : ٢٢٦ ، ٣٩١ .

السروان : ٤٣٥ .

سعد ، بنو : ٢٨٠ .

سعد : ٤٠٩ ، ٤١٢ .

السعدي : ٣٣٨ .

سعر ، مجاعة بن : ٣٩٥ .

السعلاة : ٤١٠ .

سفيان ، أبو ، ١٣٧ .

سفيان ، عنبة بن ابي : ٣٦١ .

سطيح : ٤٣٢ .

ديوست المغني : ٣١٥ .

- ذ -

ذؤيب : ابو : ٢٢٥ .

ذبيان : ١٠٩ .

ذونواس : ٤٣١ .

- ر -

الرافضة : ٤٠٩ ، ٤٢٩ .

الرياب : ٤٣٥ .

ربيعي : ٤٣١ .

ربيعة الرأي : ٣٦١ .

رسول الله : ٩٦ ، ٩٩ ، ١٠٣ ،

١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٨ ، ١٦٠ ،

٢٣٠ ، ٣١٥ ، ٤٢٧ ، ٤٤٤ .

رضوي : ٤١١ .

الرفض : ٤٤٤ .

الرقاش : ١٦٩ .

الرقاع : ٤٣١ .

رملة ، أبو : ٣٠٠ .

روم : ١٣٦ ، ٤٠٩ ، ٤٣٢ .

ايام : ٤٠٨ .

ريوس : ٤٤ .

- ز -

زائدة ، عمر بن : ١١٧ ، ١١٨ ،

١٠٧ .

الزابع : ٤٠٩ .

الزباء : ٤٠٨ .

شبية ، ابن : ٢٨٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨
شور ، ابن : ٤١٤
شيصبان : ٤١٠
شيقرة : ٤٠٩

- ص -

صائد ، ابن : ٤٣١
صالح : ٢٠٩
صبيح ، ابن : ٣٤١
صفوان ، خالد بن : ٢٨٦ ، ٣٤٧
صفوان : حنظلة بن : ٤٣١
صيفي ، السائب بن : ٣٩٠
الصين ، ٤٠٩

- ض -

ضمرة ، ضمرة بن : ٣٩٥

- ط -

الطائف : ١٦٢
طاهر : ٤٢٨
طبيحا : ٤٠٤
الطرماح : ٣٧٧
طسم : ٤٠١
الطفيل ، عامر بن : ١٣٧
طلحة : ٤٣١
الطوسي : ٣٧٧
طويس : ٤٠٢
طيء : ٤٠٢
طيبة ، ابن : ٤٣٥

سلام ، أحمد بن : ٢٠٩
سلامة : ٤٣٥
سلم ، عقبة بن : ٣٩٦
سلم : ٣٤٢
سلمان : ٤٠٢

سمرقند : ٤٠٥
سنان ، خالد بن : ٤٣٠
سنداد ، ٤٠٨
سهل ، الفضل بن : ٤٣١
سواع : ٤٠٩
سوشي : ٤٠٢ ، ٤٠٩
سياه : ١٨٥
سيمان : ٤٠١
سيرين ، محمد بن : ٤٣٠
سيل العرم : ٤٠١

- ش -

شبرمة ، بن : ٣٤٨
شبره ، بن : ٤٠٨
شريك : ٢٦٣
شعبة ، بن : ٣٣٩
الشعبي : ١٥٦ ، ٣٤٧ ، ٣٥٠ ، ٣٩١
شق : ٤٠٨
شقلون : ٤١٢
الشماع ، ابو : ٣٠٠
الشمري ، عمر بن ابي عثمان : ٣٦٢
شئناق : ٤١٠

-ع-

- عائشة : ١٥٧ ، ٤٣٢ .
عائمه : ٤٠٩ .
عاد : ٤٠١ .
العاص ، عمرو بن : ٩٢ .
العاص ، عفان بن ابي : ٣٦١ .
عابر : ٤٠٢ .
عباس ، ابن : ١١٨ ، ١٥٦ .
عبد الله اسد بن : ٣٠٥ .
عبد دهمان ، بشر بن : ٣٦٢ .
عبد شمس : ٨٨ .
عبد شمس ، عبد الله بن : ٣٦٢ .
عبد العزيز ، عمر بن : ٢٨٦ ، ٣٣٨ ، ٣٩١ ، ٤٤٢ .
عبد القيس ، ابن : ١٧٣ .
عبد المطلب ، حمزة بن : ١٥٦ .
عبد الملك ، مسلمة بن : ٢٨٦ .
عبد الملك ، هشام بن : ١٠٥ ، ١٦١ .
عبد الملك ، عبد الواحد بن سليمان بن : ٣٦٢ .
عبدة ، علقمة بن : ١٦٠ .
عبد الوارث : ٤٣٢ .
عبد الوهاب ، أحمد : ٣٩٥ .
عبس : ١٠٩ .
عبيد ، عمرو بن : ١٠٤ ، ٣١٧ .
عبيد ، يونس بن : ٢٢٦ .
عتاب ، حسكة بن : ٣٩٥ .
- العتابي : ٣٤٢ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩ .
عثمان ، سعيد بن : ٢٦١ .
العجم : ١٠٩ ، ١٤٠ ، ٣٥٣ ، ٢٦٩ .
علي ، عمرو بن : ٤١٢ .
العرق : ١٨١ ، ٣٤٠ .
العرب : ١٩ ، ١٤٠ ، ٢٠٠ ، ٢٠٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧٩ ، ٣٥٣ ، ٣٨٤ ، ٤٠٤ ، ٤٣٢ ، ٤٤٢ .
عرج : ٤٠٢ .
عروة : ١٦٤ .
عزة الميلاء : ٤٣٥ .
عري سلمة : ٤٣٢ .
العري : ٤٠٩ .
عقرمون : ٤٠٨ .
عقنان : ٤٣٢ .
العلاء ، ابو عمرو بن : ١٣٧ .
علقمة ، كرز بن : ٤٠٨ .
علي ، اسماعيل بن : ٤٢٨ .
علي ، صالح بن : ٤٢٨ .
عمر : ٤١٤ ، ٤٢٧ .
عمر ، كعب بن : ٣٢٩٥ .
عمر ، يوسف بن : ١٣٦ ، ١٥٠ ، ٣٩٠ ، ٣٩٦ .
عمران ، موسى بن : ٢١٧ .
عمرو : ٤١٠ .
عمري : احاد بن : ٤٠٥ .

العوام ، المنذر بن الزبير بن : ٣٦٢ .

عوج : ٤٠١ .

عيري : ٤٠٢ .

العنبري ، فيروز حصين : ٣٦٢ .

- غ -

غبث : ٤٠٩ .

غراب نوح : ٤٠١ .

الغريض : ٢٦٣ ، ٤١٢ .

الغز ، ابن : ٣١٦ .

غطفان : ٣٠٣ .

غفار ، نمارق بن : ٣٩٥ .

غمدان : ٤٠٨ .

- ف -

فارس : ٢١٨ .

الفجار ، حرب : ١٠٩ .

فرتنا : ٤٣٥ .

الفرات : ٤٠١ ، ٤٠٤ .

الفرزدق : ٤٢٨ .

الفرس : ١٣٦ .

فرعون : ٢١٦ ، ٤٢٢ ، ٤٤٢ .

فرغانة : ٤٠١ ، ٤٤٢ .

الفزاري : ٤٣٤ .

القطحل : ٤٠٣ .

فيثاغورس : ٤٣٥ .

- ق -

قارون : ٤٠٩ .

قاف : ٤٠٣ .

قيس : ٤٠٣ .

قتادة : ٣١٧ .

قحطان : ٤٠٢ ، ٤٣٤ .

قرسطون : ٤٣ .

قريش : ١٧٣ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ،

٢٢٥ ، ٢٨٠ ، ذظ؟ ، ٤٤١ .

قشة : ٤٣٢ .

قضاة : ٤٠٢ .

القطامي : ١٧٠ .

قيس ، سعيد بن : ٣٩٥ .

قيس : ١٦٤ .

قيس ، اسحق بن الاشعث بن :

٣٦١ .

قيري : ٤٠٢ .

- ك -

كثير : ١٦٤ .

كريز ، عبد الله بن عامر بن : ٣٦٢ .

الكعبة : ٢٠٠ .

كهيلة ، رباح بن : ٤٣٢ .

الكيس ، ابن : ٤٠٨ .

- ل -

لبد : ٤٠١ .

لحي ، عمرو بن : ٤٠٢ ، ٤٤٢ .

لسان الحمرة ، ابن : ٤٠٨ .

لقمان : ٣١٤ ، ٣٩١ ، ٤٠٨ .

- لوقا : ٤٣١ .
 مروان ، عبد الملك بن : ٣٥٠ .
 مريم ، عيسى بن : ١٠٣ ، ١٠٤ ،
 ١٠٨ .
 المزني ، بكر بن عبد الله : ٢٤١ .
 مسحل : ٤١٠ .
 مسعود ، ابن : ٦٣ .
 مسلم ، قتيبة بن : ٣٣٩ ، ١٣٧ .
 مسهر : ١١٨ .
 المسيب ، سعيد بن : ٢٢٦ .
 المسيح : ٤٩ .
 المشقر : ٤٠٨ .
 مصر : ٢٧٧ .
 المصدقية : ٤٣٢ .
 المصطلق : ٤٣٥ .
 معاذ : ١٦٣ .
 معاوية ، اياس بن : ٣٩٦ .
 معاوية : ٩٢ ، ١٠٥ ، ١٧٣ ، ٤١٤ .

- ن -

- نائلة : ٤٠٩ .
 النابغة الجعدي : ٣٥١ .
 النبي : ١١٣ ، ١١٦ ، ١١٧ ،
 ١٣١ ، ١٦٢ ، ٢١٧ ، ١٤٩ ،
 ٢٢٥ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٦ ،
 ٤٣٢ .
 نجاح ، ابو الفرج بن : ٣٧٦ ،
 ٣٧٧ .
 نجاح : ابو الفضل بن : ٣٨٤ .
 نجران : ٤٠٨ .

- م -

- ماروت : ٤٠٢ ، ٤١٢ .
 مارية : ٤٠٩ .
 المازني ، عمرو بن بكر : ٣٦٢ .
 ما سرجس : ٤٤٥ .
 مانوية : ٣٠٠ .
 ماني : ٤٣٣ ، ٤٣١ .
 ماجوج : ٤١٢ .
 مارب : ٤٠٨ .
 المأمون : ٣٣٧ .
 متى : ٤٣١ .
 مج ، عبيد : ٤٣٢ .
 مجاهد : ٣٩١ ، ١٦٤ .
 مجزز المدلجي : ٤٠٨ .
 مجنون بن غافر : ١٦٤ .
 محرز ، ابن : ٢٦٣ .
 مخارق : ٢٤٥ ، ٢٦٣ ، ٤٠٠ .
 المخاريقي : ٤٣٢ .
 المخش ، رافع : ٤٠٨ .
 مخنف : ١٧٢ .
 المدائن : ٤٠٥ .
 مدلج : ٤٤١ .
 المدلجي ، سراقه : ٤٠٩ .
 المديرى : ٤٣٢ .
 المدنية : ٢٦٢ .
 مرارة ، مجاعة : ٣٩٥ .
 مرقس : ٤٣١ .

- و -

- . واقواق : ٤١١ .
- . وبارا : ٤٠١ .
- . ود : ٤٠٩ .
- . وكيع : ٢٦٣ ، ١٣٧ .
- . الوليد ، عمارة بن : ٤١٢ .
- . الوليد ، مسلم بن : ٣٥٣ .
- . وهب : الحسن بن : ٤٢٨ .
- . وهب : سليمان بن : ٤٢٨ .
- . وهب بن ، سعيد بن : ٣٦٢ .

. السناس : ٤١١ .

. النظام : ١٦٦ ، ٤٠٠ .

. النعمان : ٤٣١ ، ٤٣٣ .

. ثمرود : ٤٠٥ .

. نهر بابل : ٣١٦ .

. نهر المبارك : ٣١٦ .

. نواس ، ابو : ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ،

. ١٦٩ ، ١٧٠ .

. نوح : ٤٠١ .

. النيل : : ٤٠١ .

- ه -

- ي -

- . ياجوج : ٤١٢ .
- . اليربوعي : ٤١٠ .
- . يزدجرد ، فيروز بن : ٢١٨ .
- . يسار ، مسلم بن : ٢٢٦ .
- . يعوق : ٤٠٩ .
- . يغوث : ٤٠٩ .
- . اليمامة : ٤٠١ .
- . يونان : ٤٠٤ .
- . اليهود : ٣٣٩ .
- . يوحنا : ٤٣١ .
- . يوسف : ١١٨ ، ١١٩ ، ٢١٦ ،
- . ٢٧٧ ،
- . يوسف لقوة : ١٦٨ .

. هاروت : ٤٠٢ ، ٤١٢ .

. هاشم ، بنو : ١١٨ ، ١٣٧ .

. هبيرة ، عمر بن : ٣٩١ .

. الهجمي ، خالد بن الحارث : ٣٦٢ .

. هذيم ، سعد : ٤٣٢ .

. هر : ٤٣٥ .

. هرثمة : ٤٢٨ ، ٣١٤ .

. هرم : ١٢١ .

. هرمة ، ابن : ٢١٥ .

. هرمس : ٤٠٢ .

. هريم ، رافع بن : ٣٩٤ .

. هلال ، عبد الله بن : ٤٣٢ .

. هيسث : ١٦٢ .

. الهيثم ، عليا بن : ٣٩٥ .

فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمات عامة
١١	مقدمة كتمان السر وحفظ اللسان
١٥	مقدمة الحاسد والمحسود
١٧	مقدمة النبل والتنبل وذم الكبر
٢١	مقدمة مفاخرة الجوارى والغلمان
٢٥	مقدمة تفضيل البطن على الظهر
٢٧	مقدمة كتاب المعلمين
٣١	مقدمة طبقات المغنين
٣٥	مقدمة الوكلاء
٣٩	مقدمة مدح التجار وذم السلطان
٤١	مقدمة رسالة الفتيا
٤٥	مقدمة مدح النيذ وصفة اصحابه
٤٩	مقدمة الشارب والمشروب
٥٣	مقدمة البلاغة والايجاز
٥٥	مقدمة تفضيل النطق على الصمت
٥٩	مقدمة رسالة في صناعة القواد
٦٣	مقدمة رسالة الجد والهزل
٦٧	مقدمة فصل ما بين العداوة والحسد
٧١	مقدمة رسالة في استنجاز الوعد

الموضوع الصفحة

٧٣	مقدمة رسالة الى ابي الفرج بن نجاح الكاتب
٧٧	مقدمة رسالة في المودة والمخلطة
٧٩	مقدمة التربيع والتدوير

رسالة كتمان السر وحفظ اللسان [٨٧ - ١١٠]

٨٧	١ - موضوع الكتاب
٨٨	٢ - العقل واللسان
٩٠	٣ - حب الاخبار
٩٢	٤ - مساويء افشاء السر
٩٥	٥ - من يذيع الاخبار
٩٧	٦ - كل ممنوع مرغوب
١٠٠	٧ - اكثر الامور عرضة لافشاء السر
١٠١	٨ - الغيبة
١٠٢	٩ - العدل
١٠٤	١٠ - الفضول
١٠٥	١١ - عودة الى الغيبة
١٠٧	١٢ - حفظ اللسان

رسالة الحاسد والمحسود [١١١ - ١٢٣]

١١٣	١ - موضوع الكتاب
١١٣	٢ - تعريف الحسد
١١٤	٣ - اسباب الحسد
١١٤	٤ - عواقب الحسد
١١٥	٥ - رأي الحاسد في المحسود
١١٧	٦ - حسد الجيران
١١٧	٧ - الحسود لا يستطيع كتمان سره

الموضوع	الصفحة
٨ - معاملة الصديق الحسود	١١٩
٩ - لا خير يرتجى من الحسود	١٢٠
١٠ - العجنة حيث لا حسد	١٢١
١١ - السلامة في الابتعاد عن الحسود	١١٢
[١٢٥ - ١٤٠] رسالة النبل والتنبل ودم الكبر	
١ - مقدمة يحرض فيها على مخاطبة اناس تكبروا عليه	١٢٧
٢ - شروط النبل	١٢٨
٣ - نبل السيد	١٢٩
٤ - صفات النبل	١٣٠
٥ - التكبر قبيح في الانسان	١٣٠
٦ - مواضع استحسان الكبر	١٣٢
٧ - صفات اللثيم	١٣٢
٨ - عواقب الكبر	١٣٣
٩ - الكبر رذيلة تعترى مختلف طبقات الناس	١٣٥
١٠ - الكبر ليس من سياسة الملوك	١٣٦
[١٤١ - ١٥٢] ٣ - رسالة تفضيل البطن على الظهر	
١ - مناسبة الرسالة	١٤٣
٢ - الجاحظ يرجو الهداية لصاحب الكتاب	١٤٤
٣ - الشريعة تنهى عن الظهور	١٤٥
٤ - فضائل البطون في القرآن والسنة والحكم	١٤٦
٥ - حرم الله اتيان النساء من دبرهن	١٤٨
٦ - محاسن المرأة من جهة البطن لا الظهر	١٤٩
٧ - حد الزاني واللوطي	١٤٩
٨ - تفضيل الظهر على البطن يثير الشك	١٥٠
٩ - فصل في دم اللواط	١٥٢

الصفحة	الموضوع
[١٨٧ - ١٥٣]	رسالة مفاخرة الجوارى والغلمان
١٥٥	١ - موضوع الكتاب ومبررات مزج الجد بالهزل
١٥٨	٢ - ذكر الولدان والجوارى فى القرآن
١٦٠	٣ - ذكر الغلمان والجوارى فى الحديث النبوى
١٦٠	٤ - حد الزنى واللواط
١٦٢	٥ - النبى يحت على الزواج والانجاب
١٦٣	٦ - عيوب الزنا
١٦٤	٧ - حب النساء يتيم صاحبه بعكس حب الغلمان
١٦٥	٨ - اشعار فى الغلمان والجوارى
١٧١	٩ - صفات المرأة الجميلة
١٧٢	١٠ - مفاخرة اهل البصرة والكوفة
١٧٤	١١ - فضل الجارية على الغلام
١٧٥	١٢ - الخصيان
١٧٧	١٣ - مقطعات فى احاديث البطالين

مركز تحقيقات كويتى للدراسات والبحوث

الصفحة	الموضوع
[٢٠٨ - ١٨٧]	رسالة المعلمين
١٨٩	١ - مدخل
١٨٩	٢ - فضل المعلم
١٩٠	٣ - الحفظ والاستنباط
١٩١	٤ - اكثر العظماء كانوا معلمين
١٩٢	٥ - لجميع اصناف العلوم معلمون
١٩٣	٦ - الانسان عالم صغير
١٩٤	٧ - معنى المعلم والمؤدب
١٩٤	٨ - فقر الأدباء
١٩٤	٩ - المعلم يراعى مستوى الصبى العقلى
١٩٥	١٠ - تعليم النحو والرياضة
١٩٦	١١ - تعليم صناعة الكتابة

الموضوع	الصفحة
١٢ - عبد الله بن المقفع المعلم	١٩٨
١٣ - تعليم التجارة والصيرفة افضل من عمل السلطان	١٩٩
رسالة طبقات المغني	
[٢٠٣ - ٢٠٨]	
١ - تصنيف العلوم	٢٠٥
٢ - الخليل يضع علمي الغناء والعروض	٢٠٦
٣ - ابراهيم الموصلي يتم علم الغناء	٢٠٦
٤ - طبقات المغنين في عصر الجاحظ	٢٠٧
٥ - طريقة تأليف الكتاب	٢٠٨
٦ - الاحتياط من العيب	٢٠٨
رسالة الوكلاء	
[٢١١ - ٢١٩]	
١ - مقدمة	٢١٣
٢ - يجب الثبوت في الأمور	٢١٣
٣ - ينبغي عدم الانقياد مع الهوى	٢١٣
٤ - ينبغي الاحتراز من اصدار الآراء الفطيرة	٢١٤
٥ - لا ينبغي تعميم الحكم على جميع الوكلاء	٢١٦
٦ - لا بد من صحة الفراسة في معرفة الرجال	٢١٨
٧ - خطر قول : « ما ترك الاول للآخر شيئاً »	٢١٨
رسالة مدح التجار واذم عمل السلطان	
[٢٢١ - ٢٢٧]	
١ - مقدمة	٢٢٣
٢ - فضيلة التجار	٢٢٤
٣ - ذل رجال السلطان	٢٢٤
٤ - شهرة تجار قریش	٢٢٥
٥ - التجار لا تعدوهم العلوم	٢٢٦

الموضوع

الصفحة

[٢٣٤ - ٢٢٧]	رسالة الفتيا
٢٢٩	١ - مدح في مدح أحمد بن أبي دؤاد
٢٣٠	٢ - صناعة الجاحظ
٢٣٠	٣ - التعريف بكتاب اصول الفتيا
٢٣١	٤ - الكتاب أفضل من صاحبه
٢٣٢	٥ - يجب على العالم اظهار ما عنده
٢٣٢	٦ - غرض الجاحظ في هذه الرسالة مساعدة القاضي وثوابه
٢٣٤	٧ - لدى الجاحظ كتب أخرى
[٢٤٩ - ٢٣٧]	رسالة مدح النبيذ وصفة أصحابه
٢٣٩	١ - وصف النبيذ لا يفیه حقه
٢٤٠	٢ - النبيذ دواء يشفي من الامراض
٢٤٠	٣ - النبيذ شقيقك الذي شغلت عنه
٢٤٢	٤ - الجاحظ يطلب النبيذ ويخشى ان يرد طلبه
٢٤٣	٥ - النبيذ غنى لمالكه وفقير لفاقدته
ذذط	٦ - النبيذ يطرد الهم ويعيد الشباب
٢٤٤	٧ - النبيذ يبعث على الظرف والضحك في كل وقت
٢٤٥	٨ - النبيذ يسبب السرور ويحث على الجود
٢٤٦	٩ - النبيذ يجمع الندماء ويرفق بالسكرارى
٢٤٧	١٠ - مديح الحسن بن وهب
٢٤٨	١١ - اهداء النبيذ دليل على المودة والتقدير
[٢٦٥ - ٢٥١]	رسالة الشارب والمشروب

الموضوع	الصفحة
١ - موضوع الكتاب	٢٥٣
٢ - منافع النبيذ	٢٥٤
٣ - مساوىء النبيذ	٢٥٦
٤ - انواع النبيذ	٢٥٧
٥ - الرد على اسئلة السائل	٢٦٠
٦ - هناك فرق بين الخمر والنبيذ	٢٦٠
٧ - الصحابة ميزوا بين الفرائض والمسكرات	٢٦١
٨ - حرم الله اشياء وحلل سائر اجناسها	٢٦٢
٩ - اهل المدينة حرموا النبيذ ولكنهم ليسوا حجة	٢٦٢
١٠ - مغنوا المدينة شربوا الخمر ولم يحدهم اهلها	٢٦٣
١١ - غرض الكتاب الاساسي	٢٦٤
رسالة البلاغة والايجاز	[٢٦٧ - ٢٧٠]
رسالة تفضيل النطق على الصمت	[٢٧١ - ٢٨١]
١ - مدخل : كتاب تلقاه يمدح الصمت ويذم الكلام	٢٧٣
٢ - الكلام اداة التعبير عن الحاجات	٢٧٥
٣ - الكلام يميز الانسان عن الحيوانات والجمادات	٢٧٥
٤ - الكلام ينجي صاحبه	٢٧٦
٥ - الكلام يبين فضل صاحبه	٢٧٧
٦ - الكلام دليل على الايمان والشرعية	٢٧٧
٧ - الكلام آلة الشكر	٢٧٨
٨ - فضيلة الخطباء قائمة على بيانهم	٢٧٩

الموضوع

الصفحة

- ٩ - انزال القرآن بلسان عربي مبين ٢٧٩
- ١٠ - النبي أفصح العرب ٢٧٩
- ١١ - علم الكلام جليل لأنه يثبت وجود الله ويبين صفاته ٢٨١
- رسالة صناعة القواد [٢٢٩٣ - ٢٨٣]
- ١ - حسنات اللسان ٢٨٥
- ٢ - قول القائد في الحرب والغزل ٢٨٧
- ٣ - قول الطبيب في الحرب والغزل ٢٨٧
- ٤ - قول الخياط في الحرب والغزل ٢٨٨
- ٥ - قول الزارع في الحرب والغزل ٢٨٨
- ٦ - قول الخباز في الحرب والغزل ٢٨٩
- ٧ - قول المؤدب في الحرب والغزل ٢٨٩
- ٨ - قول صاحب الحمام في الحرب والغزل ٢٩٠
- ٩ - قول الكناس في الحرب والغزل ٢٩١
- ١٠ - قول الشرايبي في الحرب والغزل ٢٩١
- ١١ - قول الطباخ في الحرب والغزل ٢٩٢
- ١٢ - قول الفراش في الحرب والغزل ٢٩٢
- رسالة الجد والهزل [٣٢٩ - ٢٩٥]
- ١ - اسباب معاقبة ابن الزيات للجاحظ وعدم العقوبة ٢٩٧
- ٢ - ذم الغيظ والاشرار ٢٩٨
- ٣ - يجب التمييز بين الاخيار والاشرار والمحبين والمبغضين ٣٠٠
- ٤ - تفضيل النخل على الزرع سبب سخيف للمداوة ٣٠٣

- ٥ - ذم العجلة ٣٠٤
- ٦ - ابن الزيات يعرض بالجاحظ لأهماله تجليد كتبه ونظمها ٣٠٦
- ٧ - ابن الزيات يكيّد للجاحظ ٣١٠
- ٨ - ابن الزيات يعيب ورق كتب الجاحظ ٣١١
- ٩ - ابن الزيات يشمت بعدم انجاب الجاحظ ٣١٢
- ١٠ - ابن الزيات يتمنى موت الجاحظ ٣١٤
- ١١ - ذم الغضب ٣١٦
- ١٢ - علاقة الاسماء بالمعاني ٣١٧
- ١٣ - اسباب التعادي غير متوافرة بين الجاحظ وابن الزيات ٣٢٠
- ١٤ - ابن الزيات استضعف الجاحظ فوصفه ٣٢٢
- ١٥ - ما يصيب الانسان يصيب صديقه ٣٢٤
- ١٦ - الجاحظ يستعطف ابن الزيات بشيخوخته وافضاله ٣٢٥
- ١٧ - عليك بمن احتجن اموال الدولة ٣٢٩
- رسالة فصل ما بين العداوة والحسد [٣٣١ - ٣٥٧]
- ١ - فضل هذا الكتاب ٣٣٣
- ٢ - حساد المؤلفين ٣٣٤
- ٣ - متحلو كتب الجاحظ ٣٣٥
- ٤ - الطاعنون على كتب الجاحظ ٣٣٦
- ٥ - ابناء النعم محسودون ٣٣٧
- ٦ - فصل ما بين العداوة والحسد ٣٣٨
- ٧ - بعض الكتاب يسرقون كتب الجاحظ أو قسماً منها ٣٤٢
- ٨ - الجاحظ ينحل كتبه غيره لتروج ٣٤٢

الموضوع الصفحة

- ٩ - الجاحظ يترك بعض الكتب غفلاً اشفاقاً من الطعن عليها ٣٤٣
١٠ - عودة الى الحسد والعداوة ٣٤٣
١١ - الكتاب يطلبون من الجاحظ ان يشاطروه في كتبه ٣٥٣

رسالة الى ابي الفرج [٣٥٩ - ٣٦٥]

- ١ - المدخل التقليدي ٣٦١
٢ - اسماء من كني بابي عثمان ٣٦١
٣ - وصف حال الجاحظ ٣٦٣
٤ - الجاحظ يطلب اجراء الرزق عليه ٣٦٤
٥ - مدح ابي الفرج ٣٦٤
٦ - الاعتذار عن التقصير في المديح ٣٦٤



رسالة المودة والخلطة [٣٦٧ - ٣٧٧]

- ١ - المديح الخادع ليس من بضاعة الجاحظ ٣٦٩
٢ - واجبات المداح والممدوح ٣٧٠
٣ - اصول المديح والطلب ٣٧٢
٤ - لا خير في صاحب لا يساعد صاحبه ٣٧٤
٥ - مزايا ابي الفرج ٣٧٦

رسالة استعجاز الوعد [٣٧٩ - ٣٧٦]

- ١ - الجاحظ يسأل ويمدح ٣٨١
٢ - ذم المديح الكاذب ٣٨٢
٣ - الممدوح يجمع الطارف والتلذذ ٣٨٣

الموضوع	الصفحة
٤ - والد الممدوح يشبهه	٣٨٤
٥ - الممدوح لا يستحق الشكر الا اذا نعم وانجز ما وعد	٣٨٥
رسالة التربيع والتدوير	[٤٤٨ - ٣٨٧]
١ - التعريف باحمد بن عبد الوهاب وذكر موضوع الرسالة	٣٨٩
٢ - وصف ساحر لجسم احمد بن عبد الوهاب المربع المدور	٣٩١
٣ - مرآة احمد بن عبد الوهاب	٣٩٩
٤ - الهزء من كبر سن احمد بن عبد الوهاب	٤٠٠
٥ - اسئلة على الطوفان	٤٠١
٦ - اسئلة تاريخية	٤٠٢
٧ - اسئلة طبيعية	٤٠٤
٨ - اسئلة على علم الحياة	٤٠٤
٩ - اسئلة على الآثار القديمة	٤٠٨
١٠ - اسئلة على الاقاليم والسكان	٤٠٨
١١ - اسئلة على الاوثان	٤٠٩
١٢ - اسئلة على الفراسة ومعرفة الغيب والرئي	٤٠٩
١٣ - اسئلة على معتقدات الشيعة	٤١١
١٤ - اسئلة على الجن	٤١٢
١٥ - اسئلة على الكيمياء	٤١٢
١٦ - اسئلة على الفلسفة	٤١٤
١٧ - مساويء المزاح	٤١٤
١٨ - طلب العفو على مزاح الجاحظ وسخريته	٣١٦
١٩ - محاسن المزاح	٣١٨

الموضوع	الصفحة
٢٠ - مديح احمد بن عبد الوهاب المعكوس	٣٢٠
٢٢ - عودة الى قيمة المزاج والجد	٤٢٤
٢٣ - شروط التمثيل وانواع الخطأ	٤٢٩
٢٤ - الامام عند الشيعة	٤٢٩
٢٥ - علة الاستطراد	٤٣٠
٢٦ - اسئلة على الانبياء والمنتبين	٤٣٠
٢٧ - اسئلة على الاديان	٤٣١
٢٨ - اسئلة على العرافة والسحر	٤٣٢
٢٩ - اسئلة على التذكر والنسيان	٤٣٣
٣٠ - اسئلة على الرياضيات	٤٣٤
٣١ - اسئلة على الموسيقى وبعض الكتب المعربة	٤٣٥
٣٢ - اسئلة على المعرفة وطرقها	٤٣٧
٣٣ - اسئلة على المراتبي والابصار	٤٣٨
٣٤ - اسئلة على الالوان	٤٤٠
٣٥ - اسئلة على القيافة والظلام	٤٤٠
٣٦ - اسئلة على نقص الاعضاء الداخلية	٤٤١
٣٧ - اسئلة على السحر والشيطان	٤٤٢
٣٨ - اسئلة على بعض عجائب الحيوانات	٤٤٣
٣٩ - الجواب على هذه الاسئلة موجود في كتب الجاحظ	٤٤٤
٤٠ - مجموعة من حكم الفلاسفة	٤٤٤
٤١ - فوائد هذا الكتاب	٤٤٥
٤٢ - حاجة العقل الى الشهد	٤٤٦

الموضوع	الصفحة
٤٣ - الخاتمة	٤٤٧
فهرس الاعلام.....	[٥٠٧ - ٤٩٨]
فهرس المحتويات	[٥٢٠ - ٥٠٨]



مركز تحقيقات كميوتير علوم رسدي

سَائِلُ الْجَاهِلِيَّةِ

الرسائل الكلامية - كشاف آثار الجاهل



مركز تحقيق وتوثيق علوم الحديث

قدّم لها وأوتيتها وشرحها
الدكتور علي أبو مسلم

منشورات

دار وكتبة الهادي

سَيِّدُ الْبَشَرِ مُحَمَّدٌ

جميع الحقوق محفوظة للناشر
الطبعة الأخيرة

2002 م

مركز تحقيقات الكمبيوتر علوم إلكترونية

تطلب منشورنا من :

دكتور و مكتبة الهلال الطباعة والنشر

بدر النجد - شارع مكهيل - بنهاية برج الضاحية - مكة حار و مكتبة الهلال
الهاتف: ٨٢٠٧٧٧ / ٨٢٠٧٧٧ - الفاكس: ٨٢٠٧٧٧ / ٨٢٠٧٧٧ - البريد الإلكتروني: ٨٢٠٧٧٧ / ٨٢٠٧٧٧
٨٢٠٧٧٧ / ٨٢٠٧٧٧ - رقم ٢١٦





مقدمات عامة

هذه إحدى عشرة رسالة من تراث الجاحظ الضخم الذي نعرف منه أسماء نحو مائتي مؤلف ، وصلنا منها ثلاثون كتاباً وحفظت أجزاء من خمسين ، وضاع سائره .

واخترنا هذه الرسائل لأسباب مختلفة : منها إصطباؤها بصيغة كلامية لافتة وقد عقدنا النية على تبيان هذه الناحية عند الجاحظ ، وفي هذا السبيل ألفنا كتابنا « المناحي الفلسفية عند الجاحظ » وتتمه لتحقيق تلك النية رأينا من المناسب نشر آثاره الكلامية . ومن المؤسف حقاً ضياع القسم الأكبر من مؤلفات الجاحظ الكلامية . وربما هزونا ذلك إلى مهاربتها من قبل خصومه الكثيرين من أهل السنة والجماعة والشيعية والخوارج والمرجئة الخ . . . لأنه في كتبه تلك يتقدمهم ويهاجم آراءهم مهاجمة لا هوادة فيها . لقد امتدت إليها أيديهم تمزيقاً وإتلافاً ، كما تناولتها سنتهم نقداً وتبخيساً وتشنيعاً .

ومنها الحاجة إلى نشرها بشكل سهل المتناول ، ووضح الأقسام . وفي هذا السبيل أهدنا النظر بتقسيم فقرها ، لأن الطبقات السابقة لم يراع فيها دائماً توزيع الفقر حسب المعاني ، وربما رأينا الفقرة تنتهي وينتقل إلى الفقرة التالية قبل انتهاء المعنى مما يسبب تشويش الكار القاريء . ثم أننا قمنا بعمل آخر في هذا السياق هو

وضع عناوين لاقسام النص ، هذه العناوين لم يضعها الجاحظ ، ولم نجد مثلها في أية طبعة سلفت . وقد فعلنا ذلك لنسهل على المطالع فهم النص والإحاطة به وملاحقة حركة أفكار الكاتب .

وثمة مهمة أخرى انجزناها في طبعتنا هذه ، هي شرح العبارات والافكار شرحاً فلسفياً لا لغوياً . والسبب هو ان هذه النصوص الجاحظية ليست بحاجة الى شرح لغوي لأن لغتها سهلة وعبارتها مشرقة واضحة، ويندر ان ترد فيها كلمة صعبة ، وإذا عثرنا على واحدة منها امكننا استقراء المعجم ، اما التعابير الدقيقة والمصطلحات الكلامية والفلسفية فتحتاج الى التوضيح والشرح ، وهذا ما فعلناه .

هذه الرسائل هي التالية : (١) صناعة الكلام . (٢) القيان . (٣) النساء . (٤) المسائل والجوابات في المعرفة . (٥) حجج النبوة . (٦) خلق القرآن . (٧) استحقاق الإمامة . (٨) رسالة في نفي التشبيه (٩) الرد على المشبهة . (١٠) بنو أمية او النابتة . (١١) الرد على النصارى

لقد نشر حسن السندوي رسائل منها هي النساء ، حجج النبوة ، خلق القرآن ، استحقاق الإمامة، النابتة ، مع رسائل اخرى تحت عنوان « رسائل الجاحظ » ، وقد تم طبعها في المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٩٣٣ ، دون ذكر المخطوطات التي اعتمد عليها .

وحقق شارل بلا ، المستشرق الفرنسي رسالة المسائل والجوابات في المعرفة ونشرها في مجلة المشرق سنة ١٩٦٩ من صفحة ٣١٦ الى صفحة ٣٢٥ . واعتمد على نسخة المتحف البريطاني رقم ١١٢٩ ونسخة استنبول رقم ١٣٥٨ .

وحقق عبد السلام هارون جميع هذه الرسائل مع رسائل اخرى معتمداً في قسم منها على مخطوطة داماد في استنبول ، وفي القسم الآخر على مختارات عبيد الله ابن حسان الموجودة على هامش كتاب الكامل للمبرد ، نشر القسم الاول بعنوان رسائل الجاحظ في جزأين هما الاول والثاني في مصر، مكتبة الخانجي سنة

١٩٦٥ . ونشر القسم الثاني في جزأين هما الثالث والرابع في مصر ، مكتبة الخانجي
سنة ١٩٧٩ . واعتمد في تحقيق كتاب «المسائل والجوابات في المعرفة» على نسخة
المتحف البريطاني والنسخة التيمورية .

والرسائل تدور حول ستة موضوعات هي : علم الكلام . المرأة والجمال ،
المعرفة ، النبوة ، الإمامة ، موقف الجاحظ من بعض الفرق والنصارى واليهود .

وسمينا هذه الرسائل بالكلامية ، واخترنا لها عنوان «الرسائل الكلامية»
- مع العلم أن الجاحظ خلف رسائل كلامية أخرى ضاعت - لأنه كان يعني
بعلم الكلام جميع الأبحاث التي تجمع الدين والفلسفة ، والمتكلم بنظره هو الذي
يحسن من كلام الدين على قدر ما يحسن من كلام الفلسفة ، وسوف نلقي هذا
الجمع بين الدين والفلسفة في جميع هذه الرسائل .



مركز تحقيق تكملة علوم إسلامي



١ - مقدمة كتاب صناعة الكلام

يذكر الجاحظ في مستهل الكتاب المناسبة التي وضع فيها مؤلفه ، وهي رسالة وردته من متكلم سني يفضل علم الكلام ويعجب بمذهب النظام ويسدي شغفه بالنظر ويصبر الى تهذيب النحيل ، ويعلم موقفه من الفرق : فهو يناصر الشيعة العدا ، ويتعد عن المرجئة والناطقة والجبرية والمشبهة .

ويعرفه الجاحظ بأنه « متكلم جماعي ، ومتفقه سني ، ونظار معتزلي » .

اي انه يجمع بين مذهبي أهل السنة والعتزلة أو بتوسطهما : فيجيز علم الكلام ويرتفع عن العامة والخشوية الذين عطلوا العقل واخذوا بالتقليد والجبر ، وبذلك يمكن اعتباره رائداً من رواد الأشعرية سبق أبا الحسن الأشعري بقرن من الزمان .

ثم يعدد الجاحظ فضائل علم الكلام فيراه كنزاً ثميناً ينبغي الحرص عليه والضم (به) . وفي هذا رد على الذين بخسوه فضله واستصغروا شأنه وزعموا انه ليس بعلم ، وانه ضار لا نفع منه . من هؤلاء المحدثون الذين تزعمهم الإمام أحمد بن حنبل ، وحرموا علم الكلام ، واعتبروه بدعة من البدع .

ان علم الكلام يشبه الميزان الذي نزن به الأمور فنعرف نقصانها او رجحانها ، صحتها او غلطها . انه بمثابة الآلة التي يستخدمها كل علم لقياس الحق

وتبنيه من الباطل . وهو بذلك يشبه علم المنطق عند الفلاسفة .

وعلم الكلام يعرفنا ما احل الله لنا وحرم في تنزيله أوفي القرآن، وثبت وجود الله ، ويقدم الحجج على النبوة .

لهذه الاسباب كان علم الكلام جديراً بالتعظيم والذب عنه وافتدائه بكل غال وثمين ، إذ به يعرف الصغير والكبير ، والحقير والخطير . وبه يستدل على الخير من الشر . وهو يصنع في العقول صنيع العقل في الروح ، وصنيع الروح في الجسد .

وإذا كان علم الكلام ذا فضائل عظيمة الشأن فإنه لا يخلو من الآفات الكثيرة وهذه الآفات قسمان ظاهر وخفي ، والخفي لا يدرك الا بالعقول السليمة وادمان الفكر ودراسة الكتب وممارسة المناظرة .

من تلك الآفات الفرور ، والمغتر يرى انه احسن جميع الصناعات في حين لم يحسن الا بعضها ، ويرى نفسه فوق من خصمه وانه على حق بينما غيره على بطل ، وانه اذكى من خصمه ، ولهذا يكثر في صناعة الكلام الدخلاء والادعياء .

ومن تلك الآفات الخصومة بين المتكلمين ، فهم يتجادلون ويتشاجرون في المحافل فيرفعون اصواتهم ويحركون أياديهم ، ويروم كل واحد منهم التغلب على الآخر ، وحب الغلبة يفسد النية ويمنع من درك الحقيقة ويخرج بصاحبه عن الاعتدال ويحيد عن القصد .

ويستطرد الجاحظ من تعداد آفات علم الكلام الى عداوة الناس لهذا العلم وربما اعتبر هذه العداوة من أهم آفات صناعة الكلام . انه يلقى الظلم من معظم الناس الذين يبخسونه حقه ويزدرونه ويعرضون عنه . من هؤلاء جمهور الأدباء وذوو العقول الضعيفة والقصيرة النظر ، والعوام وخواصهم ، والملوك ومن اليهم .

ومن اعداء علم الكلام اصحاب الصناعات ، فاصحاب الحساب والهندسة يزعمون ان علم الكلام ليس علماً حقيقياً لأنه يقوم على الاجتهاد والحدس والتمويه

بينما العلم الحقيقي يقوم على الضرورة والطبيعة . ان هؤلاء لم يفهموا علم الكلام على حقيقته وقد بنوا حكمهم على الهوى لا على صحة العقل والعناية بالموضوع .

ومنم اعداء علم الكلام اصحاب الفتيا والاحكام ، لقد اجمع الحكام والرعية على تفضيل المفتي على المتكلم ومحضوه ثقتهم واغدقوا عليه المال ، على الرغم من أن علم الكلام هو الاصل وعلم الفتيا فرع منه والاصل اشرف من الفرع . ثم ان آلة المتكلمين أتم وأدابهم اكمل ونظرهم اثقب وحفظهم أحضر .

وفي نهاية الرسالة يذكر الجاحظ معنى المتكلم ، وإن كلمة متكلم تشمل الخوارج والشيعة والمعتزلة والمرجئة واهل المذاهب الشاذة ، ولم يضع الجاحظ اهل السنة والجماعة في عداد الفرق الكلامية ، وربما كان السبب إحجامهم عن الاشتغال بعلم الكلام في عصر الجاحظ . لقد كان الإمام احمد بن حنبل معاصراً للجاحظ وزعيماً لاهل السنة والجماعة وكان موقفه من علم الكلام موقف الرفض والتبديع . ولم يقبلوا على علم الكلام الا مع ابي الحسن الاشعري (٩٣٥ م) الذي عاش بعد الجاحظ وكان في اول عهده معتزلياً ثم انشق عنهم وانحاز الى اهل السنة والجماعة وتأثر بخطاه من بعده أتباعه امثال الباقلاني (١٠١٣م) والجهوني (١٠٨٦م) والغزالي (١١١١م) .

ان موقف اهل السنة والجماعة المعادي لعلم الكلام هو الذي حمل الجاحظ على الدفاع عنه وتبيان فضائله واهميته في رسالته هذه . ولتكون رسالته اشد أثراً اشار في مطلعها الى شخص جماعي سني يجذب علم الكلام ويميل الى مذهب النظام احد شيوخ المعتزلة واستاذ الجاحظ نفسه ويلهج بفوائد هذا العلم وقيمته . ولم يسم الجاحظ هذا الشخص المتكلم الذي خالف اهل جماعته وتبنى موقفاً يعتبر ثورة او انقلاباً في داخل الجماعة ، وليته فعل ذلك ، اذاً لدلنا على تقدم متكلم سني رائد سبق الاشعري ، ولا زال الشك الذي قد يخالجننا بصحة وجوده .



٢ - مقدمة كتاب القيان

- في كتاب القيان، يعالج الجاحظ موضوع حجاب المرأة وسفورها من الناحيتين الدينية والفلسفية . من الناحية الدينية يرى ان الاسلام لم يمنع المرأة من الظهور للرجل ولم يحرم على الرجل النظر الى المرأة ، وفي سبيل ذلك يقدم أدلة عديدة وشواهد مختلفة يستقيها من القرآن والصحابة ورجالات الاسلام . ومن الناحية الفلسفية يقول ان استمتاع الرجل بجمال المرأة امر طبيعي ، لأن جميع ما يحويه العالم خول ومتاع له ، وأقرب ما سخر له المرأة ، فإنها خلقت له ليسكن اليها . والنساء حمرث للرجال كالنبات للحيوان ، ولولا المحنة وتخليص المواليذ لكانت القاحدة هي مشاعة النساء بين الرجال . واذا كان الشرع قد حرم المشاهدة للأسباب المذكورة ، فإنه لم يحرم النظر الى النساء ، وكل شيء لم يوجد محرماً في كتاب الله وسنة رسوله ، مباح مطلق .

وتطرق الجاحظ الى مسألة فلسفية محضة هي الجمال ، فحدد الجمال بأنه التمام والاعتدال وحاول تطبيق هذا التحديد على المرأة خاصة ، وفي هذا يتفق مع أرسطو الذي حدد الجمال بأنه المقدار والتوازن ، ولكنه يختلف عنه في كيفية إدراكه ، إن النظر والاحساس لا يكفيان لإدراك جمال الاشياء ، فلا بد من تدخل العقل الذي يصدر الحكم .

ان الاستمتاع بالجمال ليس محرماً ، هذا هو المبدأ العام الذي ينطلق منه الجاحظ . لقد أبيع الجمال للانسان أن وجدته : في المرأة او الطبيعة او في الفنون المختلفة . ويتوقف الجاحظ عند فن الغناء ليبين ان لا وجه لتحريمه لا في الكتاب ولا في سنة الرسول ولا في العقل . ان الغناء شعر مكسوف نغمياً . والشعر كلام موزون ، والكلام غير محرم ، وإذا كان الكلام غير محرم ، فإن وزنه وتقفيته لا يوجبان تحريمه لعلته من العلل . وان الترجيع له لا يخرج به الى حرام ، وان وزن الشعر وكتاب العروض من كتاب الموسيقى فلا وجه لتحريمه ، ولا أصل لذلك في كتاب الله تعالى ، ولا في سنة نبيه عليه الصلاة والسلام .

ان دفاع الجاحظ عن الجمال والفن والدعوة للإقبال عليهما ، كانا رداً على موقف المتزمتين الذين اعتقدوا ان الاسلام لم يكن راضياً على الفن ، ولم يشجع عليه ، سواء كان شعراً او تصويراً او موسيقى او نحتاً . ان النبي لم يكن راضياً عن الفن الذي يسيء الى الدين ، او الذي يصطبغ بصبغة وثنية ، فالنحت يصنع التماثيل والاصنام والتصوير يرسم مخلوقات وآلهة ، والغناء يصد عن ذكر الله ، ويلهي الانسان ، والشاعر يهيم في كل واحد . ولكن النبي لم يحرم الفن الذي يخدم الدين او يتفق مع تعاليمه مهما كان نوعه ، وقد رد الجاحظ هذه الحجج قائلاً : ان الله سخر للانسان كل ما في العالم ، بما في ذلك الاستمتاع بالجمال المتمثل في المرأة ، والطبيعة والفنون . وإذا كان الفن محرماً لأنه يلهي عن ذكر الله فقد نجد كثيراً من الاحاديث ، والمطاعم والمشارب ، والنظر الى الجنان والرياحين ، واقتناص الصيد ، والتشاغل بالجماع ، وسائر اللذات ، تصد وتلهي عن ذكر الله تعالى

ونعلم ان قطع الدهر بذكر الله من أمكنه ذلك أفضل ، إلا أنه إذا أدى الرجل الفرض ، فهذه الامور كلها له مباحة ، وإذا قصر عنه يلزمه المأثم .



٣ - مقدمة كتاب النساء

كتاب النساء يمت بصلة وثيقة الى كتاب القيان ، لأنه يعالج الموضوع ذاته تقريباً أي المرأة ، واذا كان الجاحظ في كتاب القيان ينظر الى المرأة كمصدر للذة الرجل ، يحق له الاستمتاع بجمالها دون حواجز وحجب ، فإنه في كتاب النساء يكرر الفكرة ذاتها ، ولكن مع نظرة اكثر تقديراً للمرأة وإعلاء لشأنها .

للمرأة بنظره أرفع من الرجل في عدة أمور : منها ان الرجل يخطب يدها ويطلبها ويحبها ويفديها . ومنها ان الرجل قد يستحلف بالله والبيت الحرام وبماله ورقيقه ، فيسهل عليه ذلك ، فإذا استحلف بطلاق زوجته ، تربد وجهه ، وطار الغضب في دماغه . ومنها « ان الله خلق من للمرأة ولداً من غير ذكر ولم يخلق من الرجل ولداً من غير أنثى » . يشير بذلك الى خلق المسيح .

والرجل ارفع من المرأة في أمور عدة ، وينبغي ان يكون الجاحظ قد ذكرها في كتابه ، ولكنها سقطت . وهذا ما يفهم من كلامه : « ونحن وإن رأينا أن فضل الرجل على المرأة في جملة القول في الرجال والنساء أكثر وأظهر ، فليس ينبغي لنا ان نقصر في حقوق المرأة ، وليس ينبغي لمن عظم حقوق الأبناء ان يصغر حقوق الامهات ، وكذلك الأخوة والاخوات والبنون والبنات » .

ويتهي الجاحظ الى التسوية بين الرجل والمرأة ويقول : « ولسنا نقول ولا

يقول أحد ان النساء فوق الرجال او دونهم بطبقة او طبقتين او بأكثر .

وينتقد الجاحظ أولئك الذين يحتقرون المرأة ويبخسونها حقوقها ، ويعلمن أنه ألف كتابه هذا للدفاع عن المرأة ومهاجمة من يزررون عليها . وبهذا يكون أقدم مفكر عربي نادى بمنح المرأة حريتها ، واعطائها حقوقها ورفع شأنها ويقول : « ولكننا رأينا ناساً يزررون عليهن اشد الزرابة ، ويحتقروهن اشد احتقار ، ويبخسونهن أكثر حقوقهن ، وان من العجز ان يكون الرجل لا يستطيع توفير حقوق الالباء والاعمام ، إلا بأن ينكر حقوق الامهات والاحوال ، ولولا أن أناساً يفخرون بالجلد وقوة المنة وإنصراف النفس عن حب النساء ، حتى جعلوا شدة حب الرجل لامته وزوجته وولده دليلاً على الضعف وباباً من الخور ، لما تكلفنا كثيراً مما شرطناه في هذا الكتاب . »

وما تبقى من الكتاب يدور حول ما توفره المرأة من لذة للرجل ، لا تضارعها لذة أخرى يقول « تأملنا شأن الدنيا فرجدنا أكبر نعيمها وأكمل لذاتها ظفر المحب بحبيبه والعاشق بطلبته ، ثم إن الرجل يضحى بكل ما يملك من مال ونفيس ولا يضحى بمعشوقه ، ويمجد للمرأة بكل شيء حتى كأن المطر والصبغ ، والخضاب والكحل ، والتنف والقص ، والتحفيف ، وتجويد الثياب وقف عليهن . ولم نر الرجال يموتون من عشق أولادهم أو والديهم او مراكبهم ومنازلهم كما نراهم يموتون من عشق النساء . »

ويرى الجاحظ ان المرأة أشهى عند الرجل من الغناء : « وإذا خلا بمعشوقه لا يظن ان لذة الغناء تشغله بمقدار العشر من لذته ، بل ربما لم يخطر له ذلك الغناء على بال » وإذا صدر الغناء عن المرأة إزداد حسناً ، لأنها تمنحه جمالاً فوق جماله .

ويتطرق الجاحظ الى موضوع الحب فيرى انه على انواع ودرجات . فهناك حب القرابة ، وحب الاموال ، وحب المراتب الرفيعة ، وحب الرعية للائمة ، وحب المعروف ، وهناك حب المرأة الذي يمثل المرتبة الاولى ، ودرجات الحب أولاها

الحب وثانيتها الهوى وثالثتها العشق . ولم يتوسع الجاحظ في الحب ودرجاته كما توسع في كتاب القيان .

ويعود الجاحظ ثانية الى موضوع جمال المرأة . وإذا كان في كتاب القيان قد حدد الجمال ووضع فلسفته ، فإنه يحاول هنا ان يقدم تطبيقات له . إن جمال المرأة يعرف بتشبيهها بالشمس والقمر والغزاة . . . ولكن هذه الاشياء تقصر عن جمال المرأة ، لأن جمال المرأة أكمل . يقول في ذلك : « وقد علم الشاعر وعرف الواصف ان الجارية الفائقة الحسن احسن من الظبية واحسن من البقرة، واحسن من أي شيء تشبه ، ولكنهم اذا ارادوا القول شبهوها باحسن ما يجدون . ويقول بعضهم كأنها الشمس وكأنها القمر ، والشمس وان كانت هبة فالما هي شيء واحد . وهي وجه الجارية الحسناء وخلقها ضروب من الحسن الغريب والتركيب المعجيب . . . » .

ويرى الجاحظ ان الرجال ابصر بجمال المرأة من النساء ، لأن المرأة « تعرف من المرأة ظاهر الصفة ، واما الخصال التي تقع بموافقة الرجال ، فانها لا تعرف ذلك » .

مركز تحقيقات كويتية للدراسات والبحوث

ويقدم لنا الجاحظ وصفاً للمرأة الجميلة . إنها المرأة المجدولة ، والمجدولة هي المرأة التي تكون وسطاً بين السمينة والمشوقة مع جودة القد واعتدال المنكبين واستواء الظهر . . . » .

وفي الختام يخبرنا الجاحظ بأنه ألف هذا الكتاب في شيخوخته ، عندما اشتدت عليه العلة ، وضعفت قواه ، فاضطر الى اختصاره ، وقصر الكلام على ما بين الرجل والمرأة ، والتخلي عن بعض ابوابه مثل القول في الذكور والإناث في عامة أصناف الحيوان ، وراعى في تأليفه ما راعاه في سائر كتبه من الاقتصاد وعدم التطويل لكي لا يضجر القاريء ، ومن مزج الجهد بالهزل ، ليوفر له الفائدة واللذة معاً . ولا بد من الملاحظة هنا أن هذا الكتاب لم يصلنا كاملاً ، فقد سقط منه الكثير وعثت به يد الناسخين والمختارين ، فقدمت وأخرت فيه . ويبدو ان اقرب طبعته

الى الصحة طبعة السندويي . اما طبعة عبد السلام هارون فقد جمعت قائمة الكتاب
في وسطه . ولم تخل الطبعتان من أخطاء حاولنا اصلاحها قدر الإمكان .



مركز تحقيقات كميوتير علوم إسلامي

٤ - مقدمة المسائل والجوابات في المعرفة

هذه الرسالة نشرها المستشرق الفرنسي شارل بلأبي مجلة المشرق ، وأورد في محاولة كشف انتاج الجاحظ « اسماها اربعة كتب أخرى هي : « كتاب المعارف » ، « كتاب المعرفة » ، « كتاب مسائل المعرفة » ، « كتاب المسائل » ، ولم يصلنا منها سوى هذا الجزء من الرسالة التي نشرها الآن ولكن كثرة كتبه حول المعرفة يدل على مدى إهتمامه بهذا الموضوع الذي تبوأ مقاماً رفيعاً وهاماً في الفلسفة الحديثة .

نجد في الكتاب عرضاً لنظريات ثلاث في المعرفة تشغل القسم الأول منه هي نظرية بشر بن المعتز (٨٢٥م) المعتزلي الذي يذهب الى ان جميع المعارف تقريباً مكتسبة وليست إضطرارية إلا ما « وجدته الحواس بغنة وورد على النفوس في حال عجز او غفلة ، فكان هو القاهر للحاسة والمتولي على القوة من غير ان يكون من البصر فتح ومن السمع اصغاء ومن الأنف شم ومن الفم ذوق ومن البشرة مس ، فإن ذلك الوجود فعل الله دون الانسان على ما طبع عليه البشر وركب في الخلق » . ولكن إذا وافق عمل الحواس قصد جاءت المعرفة الحسية اكتساباً لا اضطراراً . يلي نظرية بشر بن المعتز نظرية النظام (٨٤٥م) وهو شيخ آخر من شيوخ المعتزلة واستاذ للجاحظ . يقول النظام : ان المعارف ثمانية انواع ، سبعة منها باضطرار تشمل المعارف المتعلقة بالحواس الخمس ، والإخبار ، وقصد المخاطب . وواحد منها إكتساب هو الذي سبيله النظر والفكرة ، كالعلم بالله ورسوله وتأويل كتابه ، وعلم

الفتيا . . . والنظرية التالية هي نظرية معمر بن عباد السلمي (معاصر للنظام)
الذي توسع في تفريع المعرفة فجعلها عشرة انواع وذكر فيها نوعاً هاماً جديداً هو
معرفة الذات المباشرة دون الاستعانة بالحواس والعقل ، وهذه المعرفة أفاد منها ابن
سينا كثيراً فيما بعد .

وبعد هذا العرض لنظريات المعتزلة الذين سبقوا الجاحظ او عاصروه ، يعلن
الجاحظ موقفه ، فيرى ان آراءهم فاسدة ، ويتوقف عند قولهم ان معرفة الله مكتسبة
ليثبت انها كسائر ضروب المعرفة اضطرار . ويعني بالاضطرار عدم تدخل الارادة في
معرفة الاشياء ، ويستدل على ذلك بتعرف الطفل على الاشياء المحيطة به بفضل
التجارب المتتالية التي يمر بها منذ ولادته وحتى يبلغ ويميز .

ان هذه التجارب برأيه غير قصدية ، أي انها تختلف عن تجارب البالغ التي
يرافقها التصميم والقصد أي الارادة . ان البالغ مذ سقط من بطن امه ، الى ان
يلبغ ، مقلب في الامور المختلفة ، ومصرف من خلال الحالات المعروفة التي تلقمه
الدنيا بما تقرر عليه من عجائبها . ويزداد في كل ساعة معرفة ، وتفيده الايام في كل
يوم م تجربة ، كما يزداد لسانه قوة وعظمه صلابة ، ولحمه شدة ، من أم تناغبه ،
وظئر تلهيه ، وطفل يلاهبه ، وطبيب يعالجه ، ونفس تدعوه ، وطبيعة تعينه او شهوة
تبعثه ، ووجع يقلقه ، كما يزداد الزمان من قوته ويشد من عظمه ولحمه ، ويزيده
الغذاء عظماً ، وكثرة الغضب والتقليب جلدأ ، فإذا درج وحبا وضحك وبكى وامكنه
ان يكر اناء او يكبه او يسود ثوباً ، او يضرب صبيأ ، فضرب دبره الخادم وانتهره
القيم فلا يزال ذلك دأبه ودأبهم حتى يفهم الاغراء والزجر والتعديبة والانتهار ، كما
يعرف الكلب اسمه اذا ألح عليه الكلاب به ، وكما يعرف المجنون لقبه ، وكما
يحضر الفرس من وقع السوط لكثرة وقعه بعد رفعه عليه .

هذا الوصف الجميل ، لعملية تعلم الانسان بالتجارب اللارادية ، يوضح
لنا ماذا يعني الجاحظ بقوله ان المعرفة اضطرار او طباع . ان المعرفة تتم بالطبع او
الغريزة لأن الجاحظ يعتبر عقل الانسان غريزة كسائر الغرائز ، تعمل دون ان تخضع

لإرادة صاحبها . أي ان الانسان لا يستطيع ان يسيطر على عمليات فكره ، وليس
للارادة سوى حصر الانتباه في الموضوع ، اما كيفية عمل العقل فخارجة عن نطاق
الارادة ، هذا ما يفسر لنا تشبيه الطفل بالكلب والمجنون ، والفرس الذين تسيرهم
الغرائز . ويتصرفون دون عقل او ارادة .

لقد ناقش المعتزلة الذين عاشوا بعد الجاحظ نظريته حول المعرفة ونجددهم
يوجهون اليها نقداً عنيفاً . كما يتضح في كتاب المغني الذي وضعه القاضي عبد
الجبار (١٠٢٥م) .

وفي الكتاب الذي نحن بصدده كلام حول موضوع آخر هو الحرية ، وهو
موضوع يضارع موضوع المعرفة في الامة ، وقد شغل بال الفلاسفة واحتل
حيزاً واسعاً في أبحاثهم . وهنا نلقي الجاحظ بصنع نظرية أصيلة وقيمة . ان
الانسان لا يكون حراً ومكلفاً ، إلا إذا كان مستطعاً ، والإستطاعة تفترض شروطاً
هي صحة الجسم واعتدال المزاج ، والمعرفة بالأمور موضوع الفعل ، وفي الانسان
قوتان تتصارعان هما العقل والشهوة ، وهو لا يكون حراً إلا إذا تساوت قوتها العقل
والشهوة ، وإذا غلبت عليه الشهوات فقد حرته ، وإذا سيطر العقل على الشهوة
فقد أيضاً حرته ، لأنه يصبح ملزماً بتنفيذ ما يمليه عليه المنطق والفكر .



٥ - مقدمة كتاب حجج النبوة

في حجج النبوة نجد الجاحظ يعالج « موضوعاً كلامياً طريفاً وعماماً : إنه يحاول أن يحمي الحجج التي تدل على النبوة . ويهد لذلك بتعريف الحجج وأنواعها . فالحجة هي الدليل وهي نوعان ، عيان ظاهر وخبر قاهر . والعيان والخبر أصلاً الإستدلال ، والعقل هو المستدل ، فلا بد إذاً في كل إستدلال من عقل يستدل ومن عيان أو خبر يكونان حجة للإستدلال أو أصلاً له .

ويأسف الجاحظ لإغفال السلف هذا الموضوع . ان هذا الإغفال هو الذي ادى الى الشك في الدين والنبوة من قبل الزنادقة ، والدهريين ، والمجان ، وضعاف العقول ، والاحداث المغرورين .

ويرى الجاحظ ان الناس بحاجة ماسة الى الاخبار ، كما هم بحاجة الى الإبصار ، لأن الخبر أصل الإستدلال كما ان العيان أصل الاستدلال . والعقل الذي هو آلة المعرفة بدون الاخبار والعيان لا يدرك من العلم الا اليسير ، وفي مسألة النبوة ، تشتد حاجة الناس الى الاخبار ، لأن الاجيال اللاحقة لعصر النبي لم يهاينوا حجج النبوة ، فكان لا بد من ان يخبرهم بها الذين عاينوها .

ويتوقف الجاحظ عند قضية صحة الخبر ، ان الناس يكذبون كثيراً ، فكيف

نركن الى الاخبار التي يسوقونها عن النبي ؟ يجيب الجاحظ ، إن اختلاف طبائع الناس هو سندا ، في صحة الاخبار . ذلك أنه يستحيل أن يتفق الناس المختلفوا الطباع على تخرص الخبر الواحد ، ة ان الانسان يعلم ، انه اذا لقي البصريين ، فأخبروه أنهم قد عاينوا بمكة شيئاً ثم لقي الكوفيين فأخبروه بمثل ذلك ، أنهم صدقوا ، اذ كان مثلهم لا يتواطأ على مثل خبرهم ، على جهلهم بالغيب ، وعلى اختلاف طبائعهم ، وهمهم ، واسبابهم .

ويورد الجاحظ ثلاث حجج أخرى على النبوة ، هي الدعاء المستجاب ، وعجز العرب عن معارضة القرآن ، واجتماع محامد الاخلاق والأفعال في النبي ، لقد دعا النبي الله ان يجذب بلاد العرب ، عندما إشتد أذاهم عليه ، فحبس الله المطر حتى يبس العشب ، والشجر ، وماتت الماشية ، واشتد الجوع . ودعا الله ايضاً ان يمزيق ملك كسرى كما مزيق كتاب النبي ، فاستجاب الله ايضاً وقضى على دولة الفرس بعد زمن ، قصير ، على ايدي المسلمين .

أما عجز العرب عن معارضة القرآن ، رغم إتصافهم بالبلاغة ، واجتهادهم في تكذيب النبي وتحمديه ، فهو أهم معجزات النبي محمد وأكبر حجج نبوته . لقد قال لهم النبي : إن عارضتموني بسورة واحدة ، فقد كذبت في دعواي وصدقتم في تكذبي . فلم يستطيعوا ان يأتوا بسورة واحدة يعارضون فيها القرآن . ويتطرق الجاحظ الى سبب اختلاف معجزات الانبياء ، فيرجعه الى اختلاف اوضاع المجتمعات التي يظهر فيها الانبياء . ان قوم فرعون كانوا يعظمون السحر وكان السحر مستحكماً فيهم ، فأرسل الله موسى لیسفه سحرهم بعصاه السحرية التي تنقلب أفعى ساعة يشاء ، أي تحداهم في الأمر الذي به يعجبون ويزهون ويعتدون .

وكان الناس في عهد المسيح يهتمون بالطب ويقدرون الاطباء ، ويثقون بهم فتحداهم المسيح في ذلك إذ أبرأ المرضى وأحيا الموتى . وكان العرب ، قوم النبي محمد ، يجلون البيان ويتباهون بالبلاغة والفصاحة ، فتحداهم النبي محمد بالقرآن

معجزة البلاغة والبيان ليسين ضعفهم إزاءه . وهكذا كان السحر معجزة موسى ،
وكان الطب معجزة عيسى ، وكان القرآن معجزة محمد .

وأخيراً ثمة آية أخرى يعرفها جميع البشر وهي : « الاخلاق والافعال التي لم
تجتمع لبشري قط قبله ، ولا تجتمع لبشري بعده ، من حلم ووفاء ، وزهد وجود
ونجدة وصدق وتواضع وعلم وعفو وشجاعة ... »



مركز تحقيقات علوم إسلامی



٦ - مقدمة كتاب خلق القرآن

كانت مسألة خلق القرآن من أشد المسائل إثارة للجدل بين المعتزلة وخصومهم . لقد ذهب المعتزلة الى أن القرآن مخلوق حادث بينما قال المحدثون أنه قديم . وحجة المعتزلة هي ان القرآن شيء من الأشياء وكل شيء عدا الله مخلوق ، ثم ان المعتزلة رفضوا القول بقديم صفات الله بما فيها صفة الكلام وتميزها عن الله ، لأن ذلك يؤدي الى القول بجواهر قديمة مع الله تشاركه في الوجود والقدم، مما يتعارض مع مبدأ التوحيد الذي يشكل صلب عقيدتهم .

اما المحدثون في عصر الجاحظ فكان يتزعمهم الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ، وكانوا يناصبون المعتزلة العداة ويؤلبون عليهم العامة ، فاستعان المعتزلة في نزاعهم مع المحدثين بالسلطة القائمة المتمثلة بالخليفة العباسي المأمون ثم بالعتصم فالوائق . وكان هؤلاء الخلفاء قد قربوا المعتزلة واتخذوهم مستشارين في قصورهم وقضاة . فاقدم المأمون على ما سمي بحنة خلق القرآن . واصدر أمره بأن يستجوب المحدثون حول رأيهم في خلق القرآن . . فمن قال انه مخلوق خلي عنه وكرم ، ومن قال انه قديم تعرض للضرب والحبس والاهانة .

وفي هذه الرسالة بمالج الجاحظ هذه المسألة ويملو لنا صورة عن حنة خلق

القرآن . ويستهلها بمقتطفات من رسالة تلقاها من شخص لم يذكر اسمه يسأله ان يكتب كتاباً « يقصد فيه الى حاجات النفوس وصلاح القلوب ومعتلجات الشكوك وخواطر الشبهات » ، ويبدو من كلام الجاحظ ان ذلك الشخص تواق الى الحق ميال للانصاف ، راغب عن التقليد ، قاصد الى محو الشكوك والشبهات من نفوس الناس حول مسألة خلق القرآن .

ويخبرنا الجاحظ انه الف كتاباً في نظم القرآن رداً على الرسالة التي تلقاها احتج فيها للقرآن ورد على الرافضة والحديثيين والحشوية والنظام ومن جاء بعده « ممن يزعم ان القرآن حق وليس تأليفه بحجة وانه تنزيل وليس بمرهان ولا دلالة » . ويفهم من هذا الكلام ان النظام والشيعية والحشوية يقولون ان نظم القرآن او تأليفه ليس معجزة او حجة على النبوة ، وان معجزته تكمن فيما انطوى عليه من معان واخبار بالغيب وانصراف الناس عن معارضته ، ولو ارادوا معارضته لافلحوا . والجاحظ يخالف النظام ومن يذهب مذهبه ويقول ان تأليف القرآن او بلاغته معجزة ولا يمكن معارضته . وقد بسط رأيه في كتاب حجج النبوة الذي نشره مع مجموعة رسائل الجاحظ الكلامية . أما كتاب نظم القرآن فلم يصل الينا مع الأسف .

وكما انتقد الجاحظ النظام وفرقته إنتقد بعض شيوخ المعتزلة الآخرين أمثال معمر بن عباد وأبي كلدة وعبد الحميد وثمامة بن أشرس لقولهم بأن القرآن مخلوق على المجاز لا على الحقيقة . ان هؤلاء المتكلمين تركوا اصول مذهبهم او اغفلوها وعجزوا عن استخلاص النتائج الضرورية من المقدمات . وهذا لا يطعن في صحة اصول المعتزلة ولا يمكن أن نعزو خطأهم الى اصل مقالاتهم . فعلى اصل مقالاتهم يجب ان يقولوا ان القرآن جسم من الاجسام ، والجسم لا يكون الا من جسم ومن مخترع الاجسام ولا يحدث الا اختياراً وابتداعاً ، ويلزمهم ذلك القول بان القرآن مخلوق على الحقيقة . ولكنهم قالوا ان القرآن صوت وتقطيع ونظم وتأليف وليس جسماً ، والصوت عرض يتولد عن علة موجبة ولا يحدث الا من اجرمين كاصطكاك الحجرين وكقرع اللسان باطن الاسنان ومن هواء يضغط ، ولا يقوم بذاته . وما

كان هذا شأنه لا يكون مخلوقاً على الحقيقة بل على المجاز .

والقرآن في رأي الجاحظ على غير ما يقول به هؤلاء المتكلمون . انه جسم وصوت ودفو تأليف ودفو نظم وتقطيع ، وخلق قائم بنفسه مستغن عن غيره ، ومسموع في الهواء ومرئي في الورق ، ومفصل وموصل ، ذو اجتماع وافتراق ، ويحتمل الزيادة والنقصان والفناء والبقاء ، وكل ما احتملته الاجسام ووصفت به الاجرام . وكل ما كان كذلك فمخلوق في الحقيقة دون المجاز وتوسع اهل اللغة .

والقسم الثاني من الرسالة مخصص لعرض محاكمة الامام احمد بن حنبل : لقد جمع المعتصم الفقهاء والمتكلمين والقضاة والمحصلين ، ولما حضر الامام احمد بن حنبل ليسأله عن رأيه في خلق القرآن احتج الامام احمد قائلاً : امتحنتني وأنت تعرف المحنة وما فيها من الفتنة ، ثم امتحنتني من جميع هذه الأمة . فاجابه المعتصم : اخطأت بل كذبت . فسؤالي لك ليس من المحنة ، بل خوفاً على الاسلام . ولولا ذلك لم يقيدك قبل الخليفة المأمون وبجسك . ثم قال له مهدداً لأن استحييك بحق احب الي من ان اقتلك بحق . ولكن الامام أحمد ظل يماند وينكر الحق . وسأله احمد بن ابي دؤاد رئيس القضاة : اليس لا شيء الا قديم او حديث ؟ اجاب نعم . قال : اوليس القرآن شيئاً ؟ قال : نعم . قال اوليس لا قديم الا الله ؟ قال : نعم . قال : فالقرآن اذا حديث ! قال ليس انا متكلم . فقال الخليفة : أف لهذا الجاهل مرة والمعاند مرة .

ثم قال احمد بن ابي دؤاد : اتزعم ان الله تعالى رب القرآن ؟ قال : لو سمعت احداً يقول ذلك لقلت ا قال : أما سمعت ذلك قط من حالف ولا سائل ولا من قاص ولا في شعر ولا في حديث ؟ وعندئذ ضربه الخليفة .

وقال الإمام احمد بن حنبل أن حكم كلام الله كحكم علمه . فكما لا يجوز ان يكون علمه محدثاً ومخلوقاً فكذلك لا يجوز ان يكون كلامه مخلوقاً ومحدثاً . فأجابه احمد بن ابي دؤاد : هذا غير صحيح لأن علم الله غير كلامه . فهو يستطيع ان يبدل

آية بآية ، وينسخ آية باخرى ، ، وان يذهب بالقرآن ويأتى بغيره ولكنه لا يجوز أن يبدل الله علمه . وفي القرآن آيات تبين ذلك .

وفهم من كلام الجاحظ التالي ان احمد بن حنبل اقر أخيراً بخلق القرآن . ولذا يوجه الجاحظ كلامه الى أتباع الإمام قائلًا : « لقد كان صاحبكم هذا يقول : لا تقية الا في دار الشرك . فلو كان ما أقر به من خلق القرآن كان منه على وجه التقية فقد اصملها في دار الاسلام ، وقد اكذب نفسه . وان كان ما أقر به على الصحة والحقيقة فلستم منه وليس منكم . على انه لم ير سيفاً مشهوراً ولا ضرب ضرباً كثيراً ولا ضرب الا بثلاثين سوط مقطوعة الثمار مشعبة الاطراف حتى افصح بالاقرار مراراً . . . » .

يعني ان الإمام احمد بن حنبل عندما اقر بخلق القرآن لم يكن مكرها على ذلك وكان بوسعه تحمل الحبس والضرب .

وتجدر الاشارة هنا الى أن بعض الذين ترجعوا للإمام احمد بن حنبل او تحدثوا على محنته كابن الجوزي وابن تيمية يخالفون الجاحظ في مسألة إقراره بخلق القرآن ويقولون انه لم يغير موقفه نتيجة الضرب والحبس وأصر على قدم القرآن .



٧ - مقدمة كتاب إستحقاق الإمامة

يبحث الجاحظ في كتاب إستحقاق الإمامة نظرية الإمامة وشرح رأي الشيعة والخوارج ثم يبدي رأيه الخاص . ونجد في لائحة كتبه عناوين عدة رسائل حول هذا الموضوع ، منها « كتاب حكاية قول أصناف الزيدية » ، « وكتاب ذكر ما بين الزيدية والرافضة » ، « ورسالة في بيان مذاهب الشيعة » ومنتخبات من رسائل عدة . وقد نشرها السندوي في رسالة واحدة ، ونشرها عبد السلام هارون في ثلاث رسائل ، نقلاً عن هامش الكامل للمبرد ، تحت العناوين التالية : « من كتابه في مقالة الزيدية والرافضة » ، « من كتابه في إستحقاق الإمامة » ، « من كتابه في الجوابات واستحقاق الامامة » .

وقد آثرنا طبعة السندوي الموحدة ، على طبعة عبد السلام هارون المجزأة ، لأن تجهزة عبد السلام هارون إعتباطية ، إن مقالة « الزيدية والرافضة » و« إستحقاق الامامة » تتمم الواحدة منها الأخرى ، وترتبطان ارتباطاً وثيقاً ، من حيث الموضوع والمعاني ، ومن الخطأ اعتبارهما رسالتين مختلفتين . أما كتاب الجوابات واستحقاق الامامة ، فيعالج موضوع الامامة ، من وجهة نظر الخوارج والشيعة والجاحظ ، ومن العسير معرفة بدء الرسالة ونهايتها ، لأنها تخلو من المقدمة التي نعدها في كتب

الجاحظ .

- ينقسم الشيعة في رأي الجاحظ الى فرقتين اساسيتين هما الزيدية والرافضة .

إن علماء الزيدية يقدمون علياً على سائر الناس بصفات أربع توافرت فيه جميعاً ، هي القدم في الاسلام ، والزهد في الدنيا ، والفقہ في الدين ، والجهاد في سبيل الإسلام .

هذه الصفات اجتمعت في علي ولم تجتمع في غيره من أصحاب المراتب اي الصحابة ، وإن تفرقت في سواه ، « وأخذ كل واحد منها بنصيب فإنه لن يبلغ مبلغ من قد اجتمع له جميع الخير وصنوفه » .

ولم يتسلم علي الخلافة بعد موت النبي مباشرة لاسباب يذكرها الزيدية ، منها كره كثير من الناس اياه لأنه وترهم بقتل أقربائهم ، ومنها حداثة سنه بالنسبة الى أبي بكر وعمر وعثمان ، والعرب يحترمون الاكبر سناً ، ومنها كره البعض ان تجتمع النبوة والملك في بني عبد مناف ، ومنها جهل معظم الناس لفضل علي . ومنها ذر قرن الردة عن الإسلام ، ومنها مطالبة الانصار بأن يكون منهم الامام . خاف علي إذا طالب بالامامة ، ان يحدث انشقاق بين المسلمين يهدد الدين ويقضي عليه ، فسكت وقبل بأبي بكر حرصاً على وحدة المسلمين وبقاء الإسلام .

وتقر هذه الطبقة من الزيدية إمامة المفضول مع وجود الافضل أي تقبل بإمامة أبي بكر وعمر وعثمان ، رغم أفضلية علي عليهم ، وذلك لمصلحة الإسلام وللانشقاق من الفتنة .

ولكن طبقة أخرى من الزيدية لا تسلم بهذا المبدأ ، لم يتحدث عنها الجاحظ في هذه الرسالة ، ونحن نجد رأياً في رسالة أخرى كتبها أحد اعلامها . وهو صاحب بن عباد (٣٢٦ - ٣٨٥ هـ) بعد نحو قرن من وفاة الجاحظ . وهو يشدد على ان الإمامة لا يستحقها إلا الافضل ، ولا يجوز العدول فيها الى المفضول لعله من العلل . وبما ان الإمام علي أفضل الصحابة للخصال التي توافرت فيه دون غيره

لذا وجب ان يخلف النبي مباشرة .

وهذه الفرقة تحاول ان توفق بين الزيدية والامامية ، فهي تقول مع الإمامية ، ان النبي أوصى بالخلافة لعلي بن أبي طالب ، وتقول مع الزيدية أن إقامة الامام تكون ، إما بالنص كما هو الحال بالنسبة لخلافة علي والحسن والحسين ، وإما بالدعوة والخروج بالسيف ، كما هو الحال بالنسبة ، لزيد بن علي ، انهم يخالفون الإمامية في عدم افتراض النص الجلي ، والعصمة في الإمام . ويخالفون معظم المعتزلة في عدم القول بالاختيار لإقامة الإمام .

وإذا كان القسم الأول من الرسالة مخصصاً لعرض آراء الزيدية في الإمامة ، فان القسم الثاني يعرض آراء الرافضة والخوارج ويناقشها . يرفض الجاحظ رأي الشيعة القائل أن إمامة علي بن أبي طالب كانت بنص وصية من النبي وحجته في ذلك هي : أن الأنصار لو علموا ان النبي أوصى بالخلافة لعلي لم يقولوا منا أمير ومنكم أمير ، وهم اكثرية الناس ، واشدهم امانة على دين الله ، وعلماً بالكتاب والسنة ، ولو كان قد سبق من رسول الله في ذلك أمرها ما كان أحد أعلم به منهم ، ولا اخلق للاقرار والعمل بما يلزم الصبر عليه منهم .

إن إقامة الإمام بنظر الجاحظ لا تتركز الى نص او وصية او شرع . بل الى طبع الناس ، ان طبائع الناس وشهواتهم ، تدفعهم الى الشرور والهلاك ، ولا يقوى العقل على ردها . ومن ثم مست الحاجة الى قوة تخيف الناس تتمثل بالامام الذي يعاقب ويتوعد وينتقم ويحبس وينفي ، وفي ذلك يخالف الشيعة الذين يقولون ، ان الإمامة لا تبني على الإكراه والترهيب بل على الهداية والارشاد .

ويخالف الجاحظ الزيدية أيضاً ، في صفات الإمام ، أهم صفات الإمام ثلاث هي الذكاء والعلم والحزم ، وقد رأينا الزيدية يقولون بأربع هي القدم في الاسلام ، والزهد والفقه والجهاد . ان الإمام برأي الجاحظ يجب أن يشبه النبي قدر الامكان ، أي يأخذ بسيرته .

ويرفض الجاحظ رأي الحوارج القائل ان الإمامة يمكن الاستغناء عنها
وتعددتها : فقد يقيم الناس إماماً واحداً أو اكثر وقد لا يقيمون اي إمام ، ويقول لا
بد من امام يجمع طباع الشر الموجودة لدى الناس ، ولا ينبغي ان يقام اكثر من امام
واحد ، درءاً للخلاف والمنافسة بينهم .

هذه بعض آراء الجاحظ حول الامامة . وله آراء اخرى هامة . نجدها في
العثمانية والحكمين وغيرها . تكون مجتمعة نظرية أصيلة تسترعي الاهتمام .



مركز تحقيقات كميوتير علوم إيسوي



٨ و ٩ مقدمة رسالة في نفي التشبيه وكتاب الرد على المشبهة

الف الجاحظ كتاب الرد على المشبهة في عهد المعتصم ، ثم كتب رسالة الى القاضي محمد بن أبي دؤاد يطلب منه المساعدة على نشر الكتاب ، وشرح له الغرض من تأليفه ، وينوه ببعض خصائصه . لذا اعتبرنا الرسالة بمثابة مقدمة لكتاب الرد على المشبهة .

مركز تحقيق التراث بدار العلوم بدمشق

في المقدمة - الرسالة - يحمل الجاحظ على العامة حملة شعواء وينعتهم بصفات قبيحة مثل السفلة والطفام والاراذل والاعمار والحشو . وسبب هذه الحملة هو قولهم بالتشبيه وعداؤهم للمتلذمين المعتزلة حتى أنهم اخافوهم واسقطوا شهادتهم . وهنا يذكر الجاحظ بفضيلة علم الكلام التي بسطها في كتابه « صناعة الكلام » ويردد بعض الجمل والافكار التي تضمنها ذلك الكتاب مثل « ولولا الكلام لم يقم لله دين ولم ينب عن الملحدين ولم يكن بين الباطل والحق فرق ، ولا بين النبي والمنتبي فضل ، ولا بانث الحجة من الخيلة ، والدليل من الشبهة . . . الخ » .

ان موقف العامة هذا من المعتزلة وما ينطوي عليه من ضغينة وتهجم هو الذي حدا القاضي أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي على محاربتهم وامتحان قادتهم وأئمتهم . والجاحظ يشير هنا الى حنة خلق القرآن التي استجوب فيها الأئمة والفقهاء

والمحدثون ، وعلى رأسهم الامام احمد بن حنبل رئيس المحدثين في عصره وكان يسأل الواحد منهم : هل القرآن قديم أو مخلوق ؟ فمن قال انه مخلوق رضي عنه وكرم . ومن قال انه قديم أهين وأبعد وربما سجن وعذب . وقد عرض الجاحظ شيئاً عن هذه المحاكمة المحنة في رسالة خلق القرآن .

وكانت نتيجة هذه المحنة ان تحول بعض قادة العامة الى الاعتزال ، بينما نافق آخرون ، وظلوا رغم تظاهرهم بالرضوخ على حالهم من الحق على المعتزلة والقول بالثبوت ، وهؤلاء هم الغالية . وهؤلاء المنافقون لجأوا الى حيلة جديدة عندما اعوزتهم القوة والبطش وهي الجدل والكلام « فصاروا بعد السب يحفون ، وبعد تحريم الكلام يجالسون ، وبعد التصام يستمعون ، وبعد التجليح يدارون . . . » .

وهذا هو السبب الذي دفع الجاحظ الى تأليف كتاب الرد على المشبهة . انه يهدف الى كشف حجج هؤلاء المشبهة وتبيان مبادئها وتساقطها لكي لا يخدع باضاليهم أحد . وهم يعتمدون في حججهم على أي بحرفونها وروايات يحولونها عن معانيها . اما سلاح الجاحظ فكان يعتمد على فضح تلك الحجج « بالدلالات المختصرة والاشعار الصحيحة والأمثال السائرة ، والاستشهاد بالكلام المعروف والقياس على الموجود » .

وثمة صفة أخرى لذلك الكتاب هو انه جاء معتدل الطول « لم يفضل عن الحاجة ولم يقصر عن مقدار البغية » والسبب هو دره الملل عن نفس القاريء لأن الكتاب إن طال لا بد أن يسبب الضجر والسأم لمن يقرأه .

ويرجو الجاحظ القاضي الشاب ان يقرأ الكتاب ويحث على قراءته وبثه بين الناس لينتفع به العامة والخاصة . لقد كان باستطاعة الجاحظ الترويج لكتابه والدعاهة له ولكنه أثار أن تكون للقاضي اليد في ذلك والثواب على هذا الصنيع . ثم ان منزلة القاضي الرفيعة ترفع من شأن الكتاب في عيون الناس كافة .

وقبل كل هذا فان الكتاب يعبر عن الاعتزال وينصره ، والاعتزال هو مذهب

القاضي ، فيجب عليه نصرته مذهباً وهذا ما عناه الجاحظ بقوله مخاطباً القاضي
« وقد أغنيتم من العيلة وأنتم من الوحشة ، وجعتم الشمل ، واعدتم الالفه ،
ورددتم الظلامه ، واحييتم السنة ، وبرزتم التوحيد بعد اكتشاف ، وظهرتموه بعد
استخفاله ، واحتملتم عداوة الجميع ، ووترتم المطاعين في تقويتنا . »

ويبرر الجاحظ توجهه الى محمد دون والده احمد بن ابي دؤاد لتأييد الكتاب
ونصرة الاعتزال والضرب على ايدي المشبهة ، بقوله انه شاب ممتليء قوة وطموحاً
واكثر فراغاً من أبيه .

كما يبرر عدم توجهه الى المعتصم بقوله ان الثناء على القاضي يرجع على امير
المؤمنين ومديح الوزير يعود الى من اختاره .



اما كتاب الرد على المشبهة فقد جاء أقصر من الرسالة التي قدمت له .
لسبين :

الأول : هو ان الرسالة لم يسقط منها شيء على ما يبدو بينما سقطت اجزاء من
الكتاب لا ندري مقدارها .

والثاني : هو أن الجاحظ اعترف في الرسالة ان الكتاب جاء معتدل الطول ،
لم يشأ ان يطيله لكي لا يسأم منه القاريء .

والكتاب يبدأ بتحديد معنى التوحيد . التوحيد يعني ان الله الواحد ليس ذا
اجزاء ، ولا يشبه شيئاً ذا اجزاء . وكل من قال بتجزئة الواحد الحق او شبهه بشيء
ذي اجزاء لا يكون موحداً وان انتحل اسم التوحيد . ان التوحيد هو أهم مبادئ
المعتزلة الخمسة اعني التوحيد والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر . وقد ركزوا على هذا المبدأ أبحاثهم .

ويحاول الجاحظ أن يسلط الضوء على أهم مقولات التوحيد من خلال رده على

المشبهة . فالتشبيه هو نقيض التوحيد برأيه وقد فشا بين أهل الحشو من العامة كما يستفاد من الرسالة التي قدم فيها للكتاب .

اهم مقولات المشبهة اثنتان هما (١) أن الله يرى بالعيون (٢) أن الله جسم .

وهم يعتمدون في المقولة الاولى على الآية التالية : ﴿ وجوه يومئذ ناظرة الى ربها ناظرة ﴾ (القيامة ٢٢ - ٢٣) التي تفيد ان الله يرى . ويجعلون هذه الآية تنسخ الآية التي تفيد عدم الرؤية ﴿ لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار ﴾ (سورة الانعام الآية ١٠٣) . وهي تنسخها برأيهم لأن هذه الاخيرة عامة والآية الاولى خاصة والخاص ينسخ العام .

وكان رد الجاحظ يعتمد على تفسير مغاير للآية الاولى ﴿ وجوه يومئذ ناظرة الى ربها ناظرة ﴾ . هذا التفسير الذي تبناه المتقدمون من المفسرين أمثال مجاهد وأبي صالح والقائل ان معنى ناظرة هو انتظار ثواب الله .

كما يعتمد على آيات تنكر الرؤية مثل الآية : ﴿ يسألك اهل الكتاب ان تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى اكبر من ذلك فقالوا ارنا الله جهرة فالخدمهم الصاحفة ﴾ . (النساء ١٥٣) ، فلو كانت الرؤية ممكنة لما استعظم الله طلب القوم .

ويعتمد ثالثاً على دليل عقلي . ان العقل يقول ان الله لا يشبه الخلق بوجه من الوجوه ، فإذا كان مرثياً فقد أشبهه في اكثر الوجوه .

ويلخص الجاحظ رده المثلث على الشكل التالي : « واذا كان قولهم في النظر يحتمل ما قلتم (اي المشبهة) وما قال خصمكم ، مع موافقة ابي صالح ومجاهد في التأويل ، وكان ذلك اولى بنفي التشبيه الذي دل عليه العقل ، ثم القرآن : ﴿ ليس كمثل شيء ﴾ (الشورى ، ١١) ، كان التأويل ما قال خصمكم دون ما قلتم .

أما مقولة المشبهة الثانية : ان الله جسم ، فهي تعتمد على آية قرآنية ودليل عقلي . الآية القرآنية هي التالية : ﴿ وجاء ربك والملك صفاً صفاً ﴾ (الفجر ، ٢٢) . التي تعني انه والملائكة في مكان محدود . والمحدود هو الجسم .

أما الدليل العقلي فيقوم على الزعم بان الله جسم لأنه معقول ، ومتى اخبرنا عن شيء فقد جعلناه معقولاً ولا معقول إلا الجسم .

وجاء رد الجاحظ معتمداً على الحقيقة والمجاز في اللغة العربية . ان بعض الالفاظ ذات معنى حقيقي ومعنى مجازي . وهي تستعمل تارة في المعنى الحقيقي . وتارة في المعنى المجازي وهذه الآية : ﴿ وجاء ربك والملك صفاً صفاً ﴾ استعملت في المعنى المجازي ولا ينبغي الأخذ بمعناها الحقيقي الدال على المكان والمحدودية كما يدعي اهل التشبيه .

لقد كان الجاحظ رائداً في التأويل ، وتبعه كبار المفكرين أمثال الغزالي وابن رشد . وقد لجأ اليه ابن رشد ليوفق بين الفلسفة والدين في الأماكن التي يتعارضان فيها . وقد فسر التأويل بأنه اخراج الكلام من المعنى الحقيقي الى المعنى المجازي .



١٠ - مقدمة كتاب النابتة

عنوانها النابتة في طبعة عبد السلام هارون ، ورسالة في بني امية في طبعة السندوبي . ويعني بالنابتة فئة من الناس ظهرت في عصر الجاحظ (نبتت) وأعلنت تأييدها لبني امية . وقالت انه لا يجوز سب معاوية لان له صحبة مع النبي ، وسبه بدعة ، وبغضه مخالفة للسنة .

مرکز تحقیقات کتب و تاریخ علوم اسلامی

وعدا تأييد معاوية وتحريم سبه قالت النابتة بأراء أهمها بنظر الجاحظ : التجوير والتشبيه وقدم القرآن . ومن باب التجوير زعمهم أن الله يعذب الابناء ليغيب الآباء وان الكفر والايمان مخلوقان في الانسان مثل العمى والبصر ، وان كل شيء بقضاء الله وقدره ، وان الانسان مجبر على اعماله لان اعماله كلها الصالح والطالح منها من خلق الله .

ومن باب التشبيه زعم النابتة ان الله جسماً وصورة وحداً ، وان الله يرى على هيئة الجسم والصورة ، ومن باب قدم القرآن ، زعم النابتة ان القرآن غير مخلوق من الله ويشير الى احمد بن حنبل دون ان يذكر اسمه كامام للنابتة ، وكرافض لفكرة خلق القرآن التي قال بها المعتزلة : « والعجب ان الذي منعه بزعمه أن يقول انه مخلوق ، انه لم يسمع ذلك من سلفه ، وهو يعلم أنه غير مخلوق » . والدليل على انه

يعني به الإمام أحمد بن حنبل هو تفصيله لمحاكمة أحمد بن حنبل على يد المعتصم والقاضي أحمد بن أبي دؤاد في « كتاب خلق القرآن » .

يحمل الجاحظ حملة شعواء على النابتة من منطلق اعتزالي فهؤلاء بنظر المعتزلة يرتكبون أخطاء فادحة لقولهم بالجبر والتشبيه وقدم القرآن وتأيد معاوية او تحريم سبه بينما يقول المعتزلة بحرية الانسان في افعاله . وبأن الله لا يشبه شيئاً، وبأن القرآن مخلوق وبأن معاوية ارتكب آثاماً عديدة ذكرها الجاحظ في رسالته .

إن رسالة النابتة تقدم لنا صورة عن صراع مرير كان يدور بين المعتزلة تؤيدهم السلطة الحاكمة ، وبين اتباع الإمام أحمد بن حنبل الذين يسميهم الجاحظ الحشوية والنابتة والمحدثين والمشبهة والعامية . . .

وفي الرسالة كلام مقتضب على صراع من نوع آخر يحدث بين العرب والعجم والموالي ، تمثل بالحركة الشعوبية . ان الشعوبية دهوة سياسية عنصرية ، تنادي بأفضلية العجم على العرب ، وتهدد للقضاء على حكمهم . والجاحظ يقف في وجه هذه الدهوة ، ويدعو الى الانحاء بين الشعوب التي تتكون منها الامبراطورية العباسية ، ونبد العصبية والاحقاد ، لأن التعصب العنصري يؤدي الى الشرور . وقد هاد مراراً الى معالجة هذا الموضوع في أماكن أخرى من مؤلفاته ولا سيما في البيان والتبين ومناقب الترك وجامعة جند الخلافة .

هذا انتقاد آراء النابتة ، تنطوي الرسالة على تقويم للاحداث التاريخية التي مرت على الأمة في صدر الاسلام والعصر الأموي . ويعتبر الجاحظ عصر النبي وأبي بكر وعمر وست سنين من خلافة عثمان عهد الالفه واجتماع الكلمة والتوحيد الصحيح ولم يحدث بدعة ، « ولا نزع يد من طاعة ولا حسد ولا غل ولا تأول » .

والفترة الثانية من خلافة عثمان كانت زمن الفتنة والتمرد والثورة والخلاف بين المسلمين . لقد اهتمه فريق منهم بالتفريط في اموال المسلمين وسوء اختيار العمال من أقربائه فثاروا عليه وحاصروه في منزله ومنعوا عنه الماء والقوت ثم اقتحموا المنزل

وقتلوه . ولم يجد من يدافع عنه لأن انصاره خذلوه ولم يبادروا للذب عنه .

وقد شجب الجاحظ قتل عثمان لأن دم الفاسق حرام كدم المؤمن ولا يحل قتل الا من ارتد بعد اسلام او زن بعد احصان ، او قتل مؤمناً على عمد ، او عدا على الناس بسيفه . . وعثمان لم يقدم على أي فعل من هذا القبيل ، واذا كان قد فسق لارتكابه بعض الخطايا او الاخطاء فالفسق لا يحل القتل . هذه الاحكام الشرعية عرفها الثوار وذكرهم بها عثمان واحتج بها عليهم ، ورغم ذلك هجموا عليه وعلى ازواجه وحرمه وهو جالس في محرابه ومصحفه يلوح في حجره ، لا يرى ان واحداً يقدم على قتل من كان في مثل صفته وحاله ، وكان بوسعهم محاكمته والاقتصاص منه ومصادرة امواله .

هذا هو رأي الجاحظ في مصرع عثمان : اذا كان عثمان قد اترف بعض الخطايا فإن ذلك لا يجعله كافراً يستحق القتل . ثم ان مصرعه أحدث فتناً دامية بين المسلمين وعبر عن ذلك بقوله : « لا جرم لقد احتلبوا به دماً لا تطير رغبته ولا تسكن فورته ولا يموت ثائره ولا يكمل طالبه وكيف يضيع الله دم وليه والمنتقم له ؟ » .

مركز تحقيقات كويتية للعلوم الإسلامية

هذه الفتن ورثها الخليفة الذي ولي بعد عثمان ، أي الإمام علي بن ابي طالب . ففي عهده « ما زالت الفتن متصلة والحروب مترادفة كحرب الجمل وكوقائع صفين وكيوم النهروان وقبل ذلك يوم الزابوقة » حتى قتل الخليفة علي يد الشقي عبد الرحمن بن ملجم الخارجي .

بعد مصرع علي احتزل الحسن بن علي الحرب وتخلل لمعاوية عن الخلافة لتفرق اصحابه عنه ، فاستبد معاوية بالملك ، وخالف الشورى وحول الخلافة ملكاً كسروياً وارتكب من المعاصي ما خرج به الى الكفر . فقد قتل حجر بن عدي واطعم عمرو بن العاص خراج مصر ، وباع يزيد الخليل ، واستأثر بالفيء واختار الولاية على الهوى ، وعطل الحدود بالشفاعة والقرابة .

واربت مخازي يزيد الذي ولي بعد معاوية على جرائم والده ، فقد « غزا مكة ورمى الكعبة واستباح المدينة ، وقتل الحسين بن علي في اكثر اهل بيته مصابح الظلام واوتاد الاسلام » ، ومثل برأسه ، ان هذه الاعمال تدل على القسوة والحقد والنصب والنفاق واليقين المدخول والايمان المخروج وعدم الاخلاص للنبي .

وكرر عبد الملك بن مروان وابنه الوليد وعاملهما الخجاج جرائم يزيد فعاودوا هدم الكعبة وغزوا المدينة واستباحوا الحرمات وحولوا قبلة واسط وأخروا صلاة الجمعة الى مغربان الشمس وزجروا الوعاظ ومنعوه من الارشاد والنهي عن الفساد في الأرض . وشرب ولائمهم الشراب على المنابر ايام الجمع .

وقد توقف الجاحظ في تصفحه للتاريخ الاسلامي عند هذا الحد في رسالة الغنابة ، وتابع سرد وقائع العصر العباسي حتى زمنه - أي القرن التاسع الميلادي - في كتاب البيان والتبيين وغيره (انظر كتابنا : كشاف آثار الجاحظ) .



مركز تحقيقات وپژوهش‌های اسلامی



١١ - مقدمة كتاب الرد على النصارى

في هذا الكتاب يوسع الجاحظ ميدان بحثه ، ليشمل أديانا أخرى غير الاسلام . فهو يتناول الدين المسيحي ، وينتقل الى الدين اليهودي ، والى المجوسية في سياق رده على النصارى .

بيد أن نقطة انطلاقه لم تتغير ، فهي ذاتها سواء رد على الفرق الاسلامية أو رد على النصارى . هذه النقطة هي الاعتزال . وهذا ما يتضح من مقدمة الكتاب ونهايته . ففي المقدمة يحمّد الله على مبدأ التوحيد الذي اهتدى اليه مع فرقته ، وكذلك مبدأ العدل . وهذان هما المبدأان الرئيسيان من مبادئ المعتزلة الخمسة ، حتى اطلق عليهم اسم اصحاب العدل والتوحيد . وفي النهاية يضع النصارى جنباً الى جنب مع اليهود والفرق الاسلامية المختلفة من شيعة وحشوية وناطقة ويرميهم بالتشبيه ويقبح مذاهبهم جميعاً .

والكتاب حسن التبريد لا تشوبه فوضى التأليف التي وسمت كتب الجاحظ الادبية . وهذه الخاصة نلّفها في هذا الكتاب كما نلّفها في سائر كتبه الفكرية الكلامية ، مثل صناعة الكلام والرد على المشبهة واستحقاق الامامة الخ . . . انها مقسمة تقسيماً جيداً واضح الاجزاء . وعلاوة على ذلك نرى الجاحظ يحافظ في هذه

الكتب على أسلوبه الأدبي الفصيح اللفظ المترادف العبارات ، المشرق المعاني .

نجد الكتاب مقسماً أقساماً ثلاثة : في القسم الأول يسرد مآخذ النصارى على المسلمين . في القسم الثاني يسرد الاسباب التي بوأت النصارى منزلة ارفع من منزلة اليهود لدى المسلمين . في القسم الثالث يرد على دعاوى النصارى او مآخذهم .

ان مآخذ النصارى على المسلمين عديدة ، وهي ترجع الى شيء واحد هو ادعاء المسلمين على النصارى اموراً لا يعرفونها فيما بينهم ولا يعرفونها من اسلافهم . وهذا الادعاء متمثل بآيات وردت في القرآن تتضمن معلومات عن النصرانية يخلو منها الكتاب المقدس ولا علم للنصارى بها .

فثمة آية تشير الى اعتقاد النصارى بالروحية هيسى وأمه مريم ﴿ وإذ قال الله يا هيسى بن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله ﴾ (المائدة ، ١١٦) والنصارى لم يدعوا ابدأ ان مريم اله .

وهناك آيات قرآنية عن اليهود تدل على أنهم قالوا ﴿ بأن حُزْبًا مِنْ آلِ مَرْيَمَ ﴾ (التوبة ، ٣٠) وان ﴿ يد الله مفلوكة ﴾ (المائدة ، ٦٤) ، وان ﴿ الله فقير ونحن اغنياء ﴾ (عمران ، ١٨١) . واليهود لا يعرفون هذا وهم على العكس ابعدوا عزيزاً عن دينهم وانكروا نبوته .

وورد في القرآن أن فرعون طلب من هامان ان يبني له صرحاً (الآية ٣٦ من سورة غافر) . وهذا خطأ كبير في الاخبار يدل على أخذ النبي العلم عن غير الثقات لان هامان لم يعش في زمن فرعون ، ولأن فرعون لم يكن مجنوناً او ناقص العقل ليطلب بناء صرح يصعد فيه الى السماء .

وجاء في القرآن أن يحيى بن زكريا لم يكن له سمي من قبل . وهذا ما يعتبره النصارى غير صحيح لأنهم وجدوا في كتبهم اكثر من واحد يحمل هذا الاسم .

وتفيد بعض آيات القرآن ان الله لم يرسل نبياً من النساء ﴿ وما ارسلنا من

قبلك الا رجلاً نوحى اليهم ، فاسألوا اهل الذكر ان كتتم لا تعلمون ﴿ (النحل ، ٤٣ ، الأنبياء ، ٧) . اما اهل الذكر يعني اليهود والنصارى فيقولون ان هذا غير صحيح ، لأن الله بعث النساء بينات ، منهم مريم بنت عمران ، وحنة ، وسارة ، ورفقى .

ويقول القرآن ان عيسى تكلم في المهدي ، والنصارى لا تدعي ذلك رغم تقديرها لعيسى ، ولا تعرف عن سلف أو يهود او مجوس او صابئة او هندوس . ولو كان ذلك صحيحاً لكان اعجوبة تفوق سائر اعاجيب عيسى ولا يعقل ان ينسأها النصارى او يهملوها .

ويركز الجاحظ في رده على مسألتين هما كلام عيسى في المهدي ، ونبوته ونبوة عزيز ، ويختصر في رده على المسائل الباقية .

اما مسألة كلام عيسى في المهدي فينبغي الاقرار بها نظراً لورودها في القرآن بشكل واضح لا لبس فيه . ودليل النصارى على عدم صحتها لانهم لا يعرفونها من كتبهم ولم يعرفها اليهود والمجوس والهنود والخزر والديلم باطل ، لان الاناجيل الاربعة التي انتهت الى النصارى على ايدي يوحنا وبنى ومرقس ولوقا ليست صحيحة ولا تخلو من النسيان والتناقض ، ولان من استشهدوا بهم كاليهود والمجوس والهنود والديلم ، الخ . . . لا ينبغي التمويل عليهم اذ ان شهادتهم مجروحة . فاليهود لا يعترفون بنبوة عيسى وينكرون جميع معجزاته فكيف يقرون بكلامه في المهدي . وهو ليس في نظرهم سوى صاحب رقى ومداوي مجانين ومتطبب وصاحب حيل . وكان قبل اذعائه النبوة صياد سمك عاجزاً ، وكذلك القول في المجوس والهنود وسواهم : انهم لا يقرون بادل اعجوبة لعيسى .

اما مسألة نبوة المسيح فيرفضها الجاحظ رفضاً جازماً ولا يقبل تاويل النصارى او بعض المتكلمين المعتزلة كالنظام . لقد اجاز النظام ذلك قائلاً له : ليس في القياس فرق بين اتخاذ الولد على التبي والتربية وبين اتخاذ الخليل على الولاية

والمحبة . وعلى هذا الاساس قبل دعوى التوراة بأن اسرائيل بكر الله ونبوة اولاده ،
وقول المسيح في الانجيل : « انا اذهب الى ابي وابيكم واهلي واهلكم » ...

اما الجاحظ فيعلن موقفه قائلاً : « اما نحن - رحمك الله - فبانا لا نجيز ان
يكون لله ولد ، لا من جهة الولادة ولا من جهة التبني ، ونرى ان تجوز ذلك جهل
عظيم واثم كبير ، لانه لو جاز ان يكون اباً ليعقوب لجاز ان يكون جداً ليوسف ،
ولو جاز ان يكون جداً و اباً ، وكان ذلك لا يوجب نسباً ولا يوهم مشاكلة في بعض
الوجوه ولا ينقص من عظم ، ولا يحط من بهاء ، لجاز أيضاً ان يكون عمّاً
وخالاً ، لانه ان جاز ان يسميه من اجل المرجحة والمحنة والتأديب اباً ، جاز ان
يسميه آخر من جهة التعظيم والتفضيل والتسويد الخ ، ولجاز ان يجد له صاحباً
وصديقاً ، وهذا ما لا يجوزه الا من لا يعرف عظمة الله وصغر قدر الانسان » .

ويستفاد من كلام الجاحظ هذا ان القول ببنوة المسيح او ابوة الله يقود الى
التشبيه الذي يعتبر بنظره ضلالاً واثماً ، ويحط من قدر الله وعظمته .

ويعزو الجاحظ خطأ النصارى واليهود الى سوء الترجمة وقلة معرفتهم بوجوه
الكلام في العربية . وهو يعني بذلك ان ترجمة التوراة والانجيل الى العربية ليست
دقيقة ، ولو كان النصارى واليهود متضلعين في العربية تضلعهم بالعبرانية « لوجدوا
لذلك الكلام وسواء تاويلاً حسناً وخرجاً سهلاً ووجهاً قوياً » .

وهذا مبدأ ينطبق على اليهود والنصارى كما ينطبق على المسلمين ، فلو حاولوا
ترجمة القرآن بالعبرانية لأخرجوه على معانيه .

ومن جهة أخرى ينحى الجاحظ باللائمة على التفسير والتاويل الذي يطلع به
المتكلمون والفقهاء . هذا التفسير كثيراً ما يجمد عن جادة الصواب سواء قام به
النصارى او المسلمون ، « فهذا باب قد غلظت فيه العرب انفسها وفصحاء اهل
اللغة اذا غلظت قلوبها ، وانحطت عقولها ، فكيف بغيرهم ممن لا يعلم
كعلمها ؟ » . ويضرب مثلاً على ذلك النظام الذي فسر كلمة خليل الله بمعنى

حبيبه ووليه . اما الجاحظ ففسرها بمعنى المحتاج اليه والمفتقر له . فابراهيم خليل الرحمن أي المحتاج اليه والمفتقر الى رحمته ، وهذا ينطبق على ابراهيم لأنه تعرض للمحن الكثيرة من قذف بالنار وذبح ابنه ، وعداوة قومه وفقد ماله الخ . . .

وثمة فرق بين خليل بمعنى الخلطة والصداقة و خليل بمعنى الخلطة والفقير ، ان تفسير الكلمة بالمعنى الأول يؤدي برأي الجاحظ الى ايجاد علاقة مشابهة بين الله والانسان ينتهي الى القول بالتشبيه ، والى الخط من قدر الله .

ويتابع الجاحظ مسألة بنوة المسيح فيرد تأويل من ذهب الى ان المسيح صار ابن الله لأن الله خلقه من غير ذكر قائلاً أن آدم وحواء اللذين خلقهما الله من غير ذكر وانثى احق بذلك .

كما يرد تأويل من يقول ان المسيح هو ابن الله لأنه رباه قائلاً : لقد رباه كما ربى موسى وداود وجميع الأنبياء فلم لا نقول عنهم انهم ابناء الله ؟ .

أما مسألة فقر الله التي ينكرها اليهود ويقولون نحن لا نعتقد بها أبداً فيرد عليهم الجاحظ بقوله انهم اساؤوا تفسير الآية القرآنية : لقد أراد الله ان يقول لليهود : آسوا فقراءكم واعطوا في الحق أقرباءكم من المال الذي اعطيتكم بامرئ اياكم وضمانكم فاعتده منكم قرصاً . . .

وكذلك الحال بالنسبة للآية ﴿ يد الله مغلولة ﴾ فهي لا تفيد ان يده مشدودة الى عنقه كما فهمها اليهود . ان اليد تعني هنا النعمة والافضال . وتتمها الآية التالية : ﴿ بل يدها مبسوطتان ينفق كما يشاء ﴾ (المائدة ، ٦٤) .

بقيت مسألة القول بأن عزيراً ابن الله يؤكد الجاحظ قول بعض اليهود بها على أثر اعادته التوراة عليهم بعد دروسها وفريق من هؤلاء موجودون باليمن والشام وبلاد الروم .

وفي النهاية يتوقف الجاحظ عند مسألتين هامتين : احدهما قول النصراني : ان

المسلمين اذ يقولون ان المسيح روح الله وكلمته ملزمون بالقول بالوحيته ونبوته .
وجواب الجاحظ هو ان القول بان المسيح روح الله وكلمته لا يعني انه ذاته او انه إله
او انه ابنه . فلقد ورد في القرآن ايضاً ان جبريل الروح الأمين من روح الله ، كما
ورد ان آدم نفخ فيه من روحه الخ . . . وكذلك سمي الله القرآن روحاً تبعاً للآية
الكريمة ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ (الشورى ، ٥٣) .

والمسألة الاخيرة هي طبيعة المسيح . وفيها ينتقل الجاحظ من الدفاع الى
المهجوم فيطرح هذا السؤال على النصارى .

من هو المسيح : هل هو إله او انسان ، او إله وانسان معاً ؟

فان قالوا انه إله بادر الجاحظ الى الاعتراض قائلاً : كيف يكون إلهاً وهو
الموصوف بجميع صفات البشر فقد كان صغيراً ثم كبر وشب ، وكان يأكل ويشرب
وينجو ويبول الخ .

وان قالوا انه إنسان حمل به اللاهوت ، اجاب الجاحظ : اذن اصبح
اللاهوت جسماً . ان الغموض يكتنف حقيقة المسيح ، ولذا اختلف النصارى فيما
بينهم حول هذه المسألة وتشعبت بهم الطرق والمذاهب .

ولم يكتف الجاحظ بإيراد دعاوي النصارى واليهود والرد عليها ، بل عالج
ناحية هامة أخرى تسترعي الانتباه وتستحق التوقف عندها هي العلاقة بين المسلمين
واليهود والنصارى في العصر العباسي ، ووضاهم الاجتماعية .

يقرر الجاحظ ان النصارى كانوا أحب الى عامة المسلمين من المجوس ،
واسلم قلوباً من اليهود ، واقل خطراً من الجميع . ويبحث الجاحظ عن اسباب
ذلك فيرى ان ثمة عداوة متأصلة بين المسلمين واليهود منذ عهد النبي محمد في
يثرب دعاها عداوة الجيران وهي « شبيهة بعداوة الاقارب في شدة التمكن وثبات
الحقد » . وذلك أن اليهود في يثرب حسدوا المهاجرين والانصار وكادوا لهم بينما
قدم نصارى الحبشة للمهاجرين المسلمين المساعدة عندما اشتدت عليهم وطأة

المشركين في مكة .

وقد ساعد على التقارب بين المسلمين والمسيحيين الآية الكريمة : ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى . . ﴾ (المائدة ، ٨٢) .

وهناك سبب ثالث يذكره الجاحظ هو تنصر بعض ملوك العرب قبل الاسلام . لقد اعتنق الغساسنة والمناذرة ملوك الشام والعراق العرب النصرانية ، فكانت العرب تعظم ملوكها وتعظم دينهم .

يضاف الى ذلك العلاقات التجارية المزدهرة بين العرب ونصارى الروم والحبشة قبل الاسلام . لقد كانت للعرب رحلتان الى الشام في سبيل الاتجار رحلة الشتاء ورحلة الصيف ، كما كانت لهم رحلات الى الحبشة . وفي الحبشة كان النجاشي يحسن وفادتهم ويكرمهم وكذلك كان يفعل قيصر الروم .

عدا ذلك كانت النصرانية متفشية بين قبائل العرب عدا مضر ، لقد غلبت النصرانية على لخم وغمسان والحارث بن كعب في نجران وقضاة وطى وربيعة ولا سيما تغلب وعبد القيس وابناء بكر وآل ذي الجدين خاصة .

بينما لم تغلب اليهودية على قبيلة عربية عدا اناساً من اليمانية وبعض اباد وربيعة ، ومعظم اليهود كانوا في يثرب وحبر وتبعا .

وهناك سبب آخر حجب النصارى الى المسلمين هو اعتقاد عامتهم ان النصارى اصحاب علم وفلسفة وطب وتنجيم . بينما حرم اليهود الفلسفة والكلام في الدين لأن ذلك يورث الشقاق والشبهة ، كما اعتبروا الايمان بالطب وتصديق المنجمين من أسباب الزندقة .

ويلاحظ الجاحظ بهذا الصدد امرين : الاول هو ان اصحاب الفلسفة والعلم كانوا من اليونان امثال افلاطون وارسطو وبطليموس واقليدس وديمقراط وبقرراط ولم

يكونوا نصارى . وقد أخذ النصارى العلم والفلسفة عن هؤلاء ولم ينبغ منهم أحد يستحق الذكر . والثاني ان النصارى عندما تعاطوا هذه العلوم كثروا فيهم الزنادقة .

واخيراً يذكر الجاحظ سبباً هاماً عظم النصارى في قلوب العوام هو المراتب الرفيعة التي احتلوها لدى الحكام . لقد اتخذهم هؤلاء كتاباً واطباء مقربين . بينما لا تهمد اليهودي الا صبغاً او دباغاً او حجاماً او قصاباً او شعاباً .

ويحاول الجاحظ ان يعلل النجاسة في النصارى دون اليهود تعليلاً طبيعياً بيولوجياً . فاليهود على خلاف النصارى لا يتزوجون ولا يزوجون في الاقوام الأخرى ، ومناكحهم مقصورة عليهم ولهذا كانت « فحولة الاجناس لا تضرب ولا تضرب فيهم ، فلم ينجبوا في عقل ولا اسر ولا ملح ، وانك لتعرف ذلك في الخيل والابل والحمير والحمام » .

بعد تعداد الاسباب التي حبيت النصارى الى المسلمين دون اليهود يلقي الجاحظ الضوء على جوانب من اوضاع النصارى الاجتماعية في عصره . فيقول انهم يتمتعون بحياة عزيزة وكرامة . فيركبون البراذين والخيول ويمسحون انفسهم بالخدم والحرس ، ويرتدون الثياب المختلفة الفاخرة ، « ويتسمون بالحسن والحسين والعباس والفضل وعلي ، ويمتنع كبارهم عن اعطاء الجزية ، ويسبون من يسبهم ويضربون من يضربهم » .

وكان القضاة يتساعون معهم في الاحكام التي يصدرونها بحقهم .

والنصارى يحثون على العفو والتسامح ، والزهد في اكل اللحوم ، وتفضيل الحبوب عليها ، كما يحثون على الرهينة بما فيها من تحريم النكاح وترك الولد .

ويشير الجاحظ الى تمسك النصارى بوحدة الزواج وعدم الطلاق ، ويعرفون بكثرة الانجاب حتى انهم « غلبوا الامم بالعدد وكثرة الولد » .

كما يشير الى تفشي الحضاه بين النصارى في بلاد الروم والحيشة .

وبلاحظ انهم على الرغم من عنايتهم بنظافة ثيابهم وحسن مظهرهم فهم
يأكلون لحم الخنزير ولا يفتسلون من الجنابة الخ

ان رسالة الجاحظ هذه تعتبر وثيقة هامة توضح العلاقات التي كانت تسود
المسلمين والمسيحيين واليهود في القرن التاسع الميلادي ، عصر الجاحظ ، لقد كانت
تلك العلاقة حسنة بين المسلمين والمسيحيين ، وسيئة بين المسلمين واليهود على
الصعيدين التاريخي والاجتماعي ، شرحها الجاحظ بأسهاب . وعلى الصعيد
العقائدي ، تسلط الرسالة الضوء على الجدل الكلامي الذي كان يحدث بين
اصحاب الاديان السماوية الثلاثة ، ذلك الجدل الذي يدور حول ما تضمنه القرآن
والانجيل والتوراة من معلومات متناقضة او اعتبرها كل فريق مناقضة لما جاء في
كتابه .



مركز تحقيقات الكمبيوتر علوم إسلامي



مرکز تحقیقات کلامی و علوم اسلامی



[١ - رغبة متكلم سني في علم الكلام]

ذكرت - حفظك الله - تفضيلك صناعة الكلام ، والذي خصصت به مذهب النظام ، وشغفك بالمبالغة في النظر ، وصبايتك - بتهذيب النحل ، مع أنيسك بالجماعة ، ووحشتك من الفرقة ، والذي تم عليه هزمك من إدامة البحث والتنقيب ومن حمل النفس على مكروهاها من التفكير ، ومن الانتساب اليهم والتعرف بهم . والذي عمها لك من الاحتساب في الأجر والرغبة في صالح الذكر ، والذي رأيت من النصب للرافضة والمارقة ، وطول مفارقة المرجئة والناطقة ، ولكل من اعترض عليهم ، وانحرف عنهم . والذي يخص به الجبرية وهم به المشبهة .

[٢ - فضيلة علم الكلام]

فيا أيها المتكلم الجماعي ، والمتفقه السني ، والنظار المعتزلي ، الذي سمت همته الى صناعة الكلام مع إدار الدنيا عنها ، واحتمل ما في التعرض للصوام من الثواب عليها ، ولم يقنعه من الأديان إلا الخالص الممتحن ولا من النحل الا الإبريز المهذب ، ولا من التمييز الا المحض المصفى . والذي رغب بنفسه عن تقليد الاغمار ، كما رغب عن إدهاء الإلهام والضرورة ، ورغب في ظلم القياس بقدر رغبته في شرف اليقين . إن صناعة الكلام علق نفيس ، وجوهري ثمين ، وهو الكنز الذي لا يفنى ولا يبل ، والصاحب الذي لا يمل ولا يغفل ، وهو

العيار على كل صناعة ، والزماد على كل عبارة ، والقسطاس الذي به يستبان نقصان كل شيء ورجحانه ، والراوق الذي يعرف صفاء كل شيء وكدره ، والذي كل أهل علم عليه عيال ، وهو لكل تحصيل آلة ومثال .

إلا أنه ثغر والثغر محروس ، وحى المحمى ممنوع . والحرم مصون ، ولن تصونه إلا بإبتدال نفسك دونه ، ولن تمنعه إلا بأن تجود بمهجتك ومجهودك ، ولن تحرسه إلا بالمخاطرة فيه . والثواب على قدر المشقة ، والتوفيق على مقدار حسن النية .

وكيف لا يكون حرماً وبه عرفنا حرمة الشهر الحرام والحلال المنزل ، والحرام
المفصل ١٢

وكيف لا يكون ثغراً وكل الناس لأهله عدو ، وكل الأمم له مطالب .

وأحق الشيء بالتعظيم ، وأولاه بأن يحتل فيه كل عظيم ما كان مسلماً إلى معرفة الصغير والكبير ، والخير والخطير ، وأداة لإظهار الغامض ، وآلة لتخليص الغاشية ، وسبباً للإيجاز يوم الإيجاز والإطناب يوم الإطناب .

وبه يستدل على صرف ما بين الشرين من النقصان ، وعلى فضل ما بين الخيرين من الرجحان ، والذي يصنع في العقول من العبارة وإعطاء الآلة مثل صنيع العقل في الروح ، ومثل صنيع الروح في البدن .

وأي شيء أعظم من شيء لولا مكانه لم يثبت للرب ربوبية ، ولا شيء حجة ، ولم يفصل بين حجة وشبهة ، وبين الدليل وما يتخيل في صورة الدليل . وبه يعرف الجماعة من الفرقة ، والسنة من البدعة ، والشذوذ من الاستفاضة .

[٣ - آفات علم الكلام]

لصل منه : واعلم ان لصناعة الكلام آفات كثيرة، وضروباً من المكروه عجيبة،

منها ما هو ظاهر للعيون والعقول، ومنها ما يدرك بالعقول ولا يظهر للعيون، وبعضها وإن لم يظهر للعيون وكان مما يظهر للعقول فإنه لا يظهر إلا لكل عقل سليم جيد التركيب ، وذهن صحيح خالص الجوهر ، ثم لا يدركه أيضاً إلا بعد إدمان الفكر ، وإلا بعد دراسة الكتب ، وإلا بعد مناظرة الشكل الباهر ، والمعلم الصابر . فإن أراد المبالغة وبلغ أقصى النهاية ، فلا بد من شهوة قوية ، ومن تفضيله [على] كل صناعة ، مع اليقين بأنه متى اجتهد أنجح ، ومتى أدمن قرع الباب ولج .

فإذا أعطى العلم حقه [من الرغبة فيه ، أعطاه حقه] من الثواب عليه .

[الفرور]

فصل منه : ومن آفات صناعة الكلام أن يرى من أحسن بعضها انه قد أحسنها كلها ، وكل من خاصم فيها ظن أنه فوق من خاصمه حتى يرى المبتدئ انه كالمتهى ويخيل الى الغي أنه فوق الذكي . وأيضاً أنه يعرض عن أهله وينصب لأصحابه من لم ينظر في علم قط ، ولم ينحس في أدب منذ كان ، ولم يدبر ما التمثيل ولا التحصيل ، ولا فرق ما بين الأهمال والتفكير .

وهذه الآفات لا تعترى الحساب ولا الكتاب ، ولا أصحاب النحو والعروض ، ولا أصحاب الخبر وحال السير ، ولا حفاظ الآثار ولا رواة الأشعار ، ولا أصحاب الفرائض ، ولا الخطباء ولا الشعراء ، ولا أصحاب الأحكام ومن يفتي في الحلال والحرام ، ولا أصحاب التأويل ، ولا الأطباء ولا المنجمين ولا المهندسين ، ولا لذي صناعة ولا لذي تجارة ، ولا لذي حلة ولا لذي مسألة .

[الخصومة]

فهم هذه البلية مخصوصون ، وعليها مقصرون ، فللصابر منهم من الاجر حسب ما خص به من الصبر . وهي الصناعة لا تكاد تظهر قوتها ولا يبلغ أقصاها الا مع حضور الخصم .

ولا يكاد الخصم يبلغ محبته منها إلا يرفع الصوت وحركة اليد ، ولا يكاد اجتماعهما يكون إلا في المحفل العظيم والاحتشاد من الخصوم ، ولا تحتفل نفوسهما ، ولا تجتمع قوتها ، ولا تجرد القوة بمكنونها وتعطي أقصى ذخيرتها ، التي استخزنت ليوم فقرها وحاجتها ، إلا يوم جمع وساعة حفل . وهذه الحال داعية الى حب الغلبة .

وليس شيء أدمى إلى التغلب من حب الغلبة وطول رفع الصوت مع التغلب ، وإفساد التغلب طباع المفسد ، يوجبان فساد النية ، ويمنعان من درك الحقيقة . ومتى خرجا من حد الاعتدال أخطأ جهة القصد .

[عداوة الناس]

وعلم الكلام بعد ملقى من الظلم ، متاح له الهضم . فهو أبداً محمول عليه وميخوس حظه وباب الظلم اليه مفتوح ، لا مانع له دونه . والعلم بما فيه من الدرر يخفي على أكثر العقلاء ، ويغضب على جمهور الأدباء . وإذا كان ملقى من أكبر العقلاء ، ومخدولاً عند أكثر الأدباء ، فما ظنك بمن كان عقله ضعيفاً ونظره قصيراً ؟ بل ما ظنك بالظلم الغادر ، والغمر الجاسر ؟ فهذا سبيل العوام فيه ، وجهل عوام الخواص به ، وانحرافهم عنه ، وميل الملوك عليه ، وعداوة بعض لبعض فيه .

[ادعاء علم الكلام]

وصناعة الكلام كثيرة الدخلاء والادعياء ، قليلة الخالص والأصفياء والنجابة فيها غريبة ، والشروط التي تستحكم بها الصناعة بعيدة سحيقة ، ولدعي القوم من العجز ما ليس لصحيحهم ولردي الطباع في صناعة الكلام من ادعاء المعرفة ما ليس للمطبوع عليهم منهم ، بل لا تكاد تجده إلا مغموراً بالحشوة مقصوداً بمخاتل السفلة .

[٤ - مزاعم اصحاب الرياضة في علم الكلام]

ومن مظام صناعة الكلام عند اصحاب الصناعات أن اصحاب الحساب والهندسة يزعمون أن سبيل الكلام سبيل اجتهاد الرأي ، وسبيل صواب الحدس ، وفي طريق التقريب والتمويه ، وأنه ليس العلم إلا ما كان طبيعياً واضطرابياً لا تأويل له ، ولا يحتمل معناه الوجوه المشتركة ، ولا يتنازع ألفاظه الحدود المتشابهة ، يزعمون أنه ليس بين علمهم بالشيء الواحد أنه شيء واحد وأنه غير صاحبه فرق في معنى الإثقان والاستبانة ، وثلج الصدور والحكم بغاية الثقة .

فصل منه : فلو كان هذا المهندس الذي أبرم قضيته ، وهذا الحاسب الذي قد شهر حكومته ، نظر في الكلام بعقل صحيح وقريحة جيدة ، وطبيعة مناسبة ، وعناية تامة ، وأعاون صدق وقلة شواغل ، وشهوة للعلم ، ويقين بالاصابة ، لكان تهيّب الحكم أزين به ، والتوفى أولى به . فكيف بمن لا يكون عرف من صناعة الكلام ما يعرفه المقتصد فيه ، والمتوسط له .

عل أنا ما وجدنا مهندساً قط ولا رأينا حاسباً يقول ذلك إلا وهو ممن لا يتوفى سرف القول ، ولا يشفق من لائمة المحصلين ، وقضيته قضية من قد عرف الحقائق ، واستبان العواقب ، ووزن الأمور كلها وعجم المعاني بأسرها ، وعلم من أين وثق كل واثق ، ومن أين خر كل مغرور .

عل أنهم يقرون أن في الحساب ما لا يعلم ، وأن في الهندسة ما لا يدرك ولا يفهم . والمتكلمون لا يقرون بذلك العجز في صناعتهم ، وبذلك النقص في غرائزهم .

[٥ - فصل الكلام على الفتيا]

وأقول : إنه لو لم يكن في المتكلمين من الفضل إلا أنهم قد رأوا إديبار الدنيا عن علم الكلام ، وإقبالها الى الفتيا والاحكام ، واجماع الرعية والراعي على

إغناء المفتي ، وعلم الفتوى فرع ، وإطباقهم على حرمان المتكلم ، وعلم الكلام أصل ، فلم يتركوا مع ذلك تكلفه ، وشحت نفوسهم عن ذلك الخط ، مخافة إدخال الضيم على علم الأصل ، وإشفاقاً من أن لا تسع طبائعهم اجتماع الأصل والفرع ، فكان الفقر والقلة أثر عندهم مع احكام الأصول ، من الغنى والكثرة مع حفظ الفروع ، فتركوا أن يكونوا قضاة ، وتركوا القضاة وتعديلهم وتركوا أن يكونوا حكاماً وقنعوا بأن يحكم عليهم ، مع معرفتهم بأن آلتهم أتم ، وآدابهم أكمل ، وألسنتهم أهدى ، ونظرهم أنقى ، وحفظهم أحضر ، وموضع حفظهم أحسن .

[٦ - علم الكلام يشتمل على جميع الفرق]

والتكلم اسم يشتمل على ما بين الأزرقى والغالى وعلى ما دونها من الخارجى والرافضى ، بل على جميع الشيعة وأصناف المعتزلة ، بل على جميع المرجئة وأهل المذاهب الشاذة .



مركز تحقيقات علوم وادب اسلامی

هامش كتاب صناعة الكلام

- (١) يعني بصناعة الكلام علم الكلام ، وهو علم يبحث برأي الجاحظ في الدين والفلسفة (راجع حول معنى الكلام : كتاب المناحي الفلسفية عند الجاحظ ، الباب الثالث ، الفصل الأول) . والمتكلم هو الذي يبحث في مسائل علم الكلام . ومذهب النظام هو مذهب ابراهيم بن سيار النظام استاذ الجاحظ واحد شيوخ المعتزلة الكبار ، قال بالكمون والظفرة ، والجزء الذي يتجزأ إلى ما لا نهاية الخ . . .
- النظر : التفكير ، هو اعمال العقل في المسائل الدينية ، وهدم الاكتفاء بالنقل كما يقول المحدثون .
- النحل : جمع نحلة اي المذهب الديني كالشعبة والخوارج والمرجئة الخ . . .
- الجماعة : اهل السنة والجماعة .
- الرافضة : احدى فرق الشيعة التي رفضت خلافة ابي بكر وعمر وعثمان ، وعرفت ايضا باسم الامامية .
- المرجئة : فرقة اسلامية تقول بارجاء الحكم على مرتكب الكبيرة .
- النابتة : فرقة من المسلمين اهدت معاوية الخليفة الأموي الأول ودالعت عن سياسته .
- الجهرية : مذهب القائلين ان الإنسان جهر في أعماله . يعتبر الجهم بن صفوان مؤسس هذا المذهب (توفي عام ١٢٥ هـ) ولكن الجاحظ يعتبر نعاصره عبد الله بن الحسن (١٤٥ هـ) اعظم القائلين به (انظر المناحي الفلسفية عند الجاحظ ، صفحة ٤٩ طبعة أول) .
- المشبهة : مذهب الذين شبهوا الله بالاجسام المادية وبامكانية رؤيته في الدنيا . ويقول الجاحظ ان التشبيه فشا بين اهل السنة والجماعة والشيعة والنصارى الخ .
- الخشوية : العامة ، ويطلق الجاحظ اسم الخشوية على فريق من أهل السنة والجماعة .
- الالهام : الاتصال بالله كما يقول المتصوفة .
- الضرورة : مذهب الطبيعيين القائلين بالتحتمية والسببية في الطبيعة

- القياس : مذهب الفلاسفة الاخذين بالمنطق الارسطي .

(٢) الجوهر : المعدن ، ولا يعني هنا الجوهر الفرد والذرة ، ولا ما يقوم بذاته .

- الحلال المنزل والحرام المفصل : ما ورد في القرآن من آيات اوحى بها الى النبي او نزلت

عليه من لدن الله ، وبينت ما يحل للانسان وما يحرم عليه من الأمور .

- خبير وخير ، شر وشر : ان الخير والشر موجودان على درجات متفاوتة ونسب مختلفة .

- يميز الملاحظ بين العقل والروح والبدن . العقل يؤثر في الروح ، والروح تؤثر في البدن .

- الربوبية : وجود ذات الله .

- الحججة : الدليل على وجود الله .

- السنة : ما أثر عن النبي من قول او فعل او تقرير .

- البدعة : كل ما لم يرد في السنة .

(٣) يعدد الجاحظ آفات علم الكلام أي الآفات التي تصيب المتكلمين فتفسد علمهم او تهلكه او

تشكل خطراً عليه . وهي الغرور ، والرغبة في التغلب على الخصوم ، وعداوة الناس

لأصحابه ، وأدعاء العلم .

- الحساب والكتاب : الموظفون الذين يشرفون على حسابات الدولة ودواوينها .

- اصحاب النحو والعروض : علماء النحو والشعر ، والعروض : علم الاوزان الشعرية وعللها .

- اصحاب الخبر وحال السير : المؤرخون الذين يسردون الاخبار عن الحوادث السالفة ويتمون

سير او تراجم الرجال الذين خطوا التاريخ او اثروا في احداثه .

- اصحاب الفرائض : علماء المواريث من الحنفيين والفقهاء .

- اصحاب التأويل : المفسرون الذين يشرحون آيات القرآن .

- ذو العلة : الفيلسوف الذي يهتم بمعرفة العلة الأولى للكون . ومن الخطأ قراءتها ذي علة

كما وردت في طبعة عبد السلام هارون .

(٤) اصحاب الصناعات : اصحاب العلوم المختلفة او العلماء . ان رأيهم في علم الكلام خطير

جداً . فهم لا يعتبرونه علماً حقيقياً لأنه يفتقر الى الضرورة الطبيعية ويعتمد على الاجتهاد

والحدس والتسوية والتأويل . والجاحظ لا يوافقهم على هذا الرأي الذي يصدر عن جهل

بحقيقة علم الكلام كما يقول .

- الحدس : المعرفة المباشرة للشيء التي تتم دون تحليل عقلي .

- الحكومة : الحكم الصادر عن القاضي . واجراءات المحاكمة او المقاضاة .



[١ - مقدمة]

من أبي موسى بن إسحاق بن موسى ، ومحمد بن خالد خذار خذاه ، وعبد الله بن أيوب أبي سمير ، ومحمد بن حماد كاتب راشد ، والحسن بن إبراهيم ابن رباح ، وأبي الخيار ، وأبي الرنال ، وخاقان بن حامد ، وعبد الله بن الهيثم بن خالد اليزيدي المعروف بمشرطة ، وعلك بن الحسن ، ومحمد بن هارون كبة ، وإخوانهم المستمتعين بالنعمة ، والمؤثرين للذة ، المتمتعين بالقيان وبالأخوان ، المعدين لوظائف الأطعمة وصنوف الأشربة ، والراغبين بأنفسهم عن قبول شيء من الناس ، أصحاب الستر والستارات ، والسرور والمروءات .

إلى أهل الجهالة والجفاء ، وغلظ الطبع ، وفساد الحس .

سلام على من وفق لرشده ، وآثر حظ نفسه ، وهرف قدر النعمة ، فإنه لا يشكر النعمة من لم يعرفها ويعرف قدرها ، ولا يزداد فيها من لم يشكرها ، ولا بقاء لها على من أساء حملها .

وقد كان يقال : حمل الغنى أشد من حمل الفقر ، ومؤونة الشكر أضعف من مشقة الصبر . جعلنا الله وإياكم من الشاكرين .

[٢ - القضاء العادل]

أما بعد ، فإنه ليس كل صامت عن حاجته مبطلاً في اعتقاده ، ولا كل ناطق بها لا

برهان له محققاً في انتحاله . والحاكم العادل من لم يعجل بفصل القضاء دون استقصاء حجج الخصماء ، [و] دون أن يحول القول فيمن حضر من الخصماء والاستماع منه ، وأن تبلغ الحجة مداها من البيان ، ويشرك القاضي الخصمين في فهم ما اختصها فيه ، حتى لا يكون بظاهر ما يقع عليه من حكمه أعلم منه بباطنه ، ولا بعلائية ما يفلج الخصام منه أطب منه بسره . ولذلك ما استعمل أهل الحزم والروية من القضاة طول الصمت ، وإنعام التفهم والتأمل ، ليكون الاختيار بعد الاختبار ، والحكم بعد التبين .

[٣ - موضوع الكتاب]

وقد كنا ممسكين عن القول بحجبتنا فيما تضمنه كتابنا هذا اقتصاراً على أن الحق مكثف بظهوره ، مبين عن نفسه ، مستغن عن أن يستدل عليه بغيره ، إذ كان إنما يستدل بظاهر على باطن ، وعلى الجوهر بالعرض ، ولا يحتاج أن يستدل بباطن على ظاهر .

وعلمنا أن خصماءنا وإن موهوا وزخرفوا ، خير بالغبين للفلج والغلبة عند ذوي العدل دون الاستماع منا ، وأن كل دعوى لا يفلج صاحبها بمنزلة ما لم يكن ، بل هي على المدعي كل وكرب حتى تؤديه إلى مسرة النجاح أو راحة اليأس .

إلى أن تفاقم الأمر وعيل الصبر ، وانتهى الينا عيب عصابة لو أمسكنا عن الإجابة عنها والاحتجاج فيها ، علماً بأن من شأن الحاسد تهجين ما يحسد عليه ، ومن خلق المحروم ذم ما حرم وتصغيره والظعن على أهله - كان لنا في الإمساك سعة . فإن الحسد عقوبة موجبة للحاسد بما يناله منه ويشينه ، من عصيان ربه واستصغار نعمته ، والسخط لقدره ، مع الكرب اللازم والحزن الدائم ، والتنفس صعداً ، والتشاغل بما لا يدرك ولا يحصى . وأن الذي يشكر فعل أمر محدود يكون شكره ، والذي يحسد فعل ما لا حد له يكون حسده . فحسده متسع بقدر تغير إتساع ما حسد عليه . لانا خفنا أن يظن جاهل أن إمساكنا عن الإجابة إقرار بصدق العضية ، وإن إغضاءنا لذي الغيبة عجز عن دفعها .

فوضعنا في كتابنا هذا حججاً على من هابنا بملك القبان ، وسبنا بمنادمة الإخوان ،

ونقم علينا إظهار النعم والحدث بها . ورجونا النصر إذ قد بدينا والبادي أظلم ، وكاتب الحق فصيح - ويروى « ولسان الحق فصيح » - ونفس المحرج لا يقام لها ، وصوله الحلیم المثالي لا بقاء بعدها .

فبينا الحجة في اطراح الغيرة في غير محرم ولا ريبة ، ثم وصفنا فضل النعمة علينا ، ونقضنا أقوال خصمائنا بقول موجز جامع لما قصدنا . فمهما أظننا فيه فللشرح والإفهام ، ومهما أدمجنا وطوينا فليخف حمله . واعتمدنا على أن المطول يقصر ، والمخلص يختصر ، والمطوي ينشر ، والأصول تنفرع ، وبالله الكفاية والعون .

[٤ - قانون السببية في الطبيعة]

إن الفروع محالة راجعة إلى أصولها ، والأعجاز لاحقة بصدورها ، والموالي تبع لأوليائها ، وأمور العالم ممزوجة بالمشاكلة ومنفردة بالمضادة ، وبعضها علة لبعض ، كالغيث علة السحاب والسحاب علة الماء والرطوبة ، وكالحب علة الزرع ، والزرع علة الحب ، والدجاجة علتها البيضة ، والبيضة علتها الدجاجة ، والإنسان علة الإنسان .

مركز تقيت كويت مركز علوم إسلامي

[٥ - كل ما في العالم مسخر للإنسان]

والفلك وجميع ما تحويه أقطار الأرض ، وكل ما ثقله أكتافها للإنسان خول ومتاع إلى حين . إلا أن أقرب ما سخر له من روحه وألطفه عند نفسه « الأني » ؟ فإنها خلقت له ليسكن إليها ، وجعلت بينه وبينها مودة ورحمة .

ووجب أن تكون كذلك وأن يكون أحق وأولى بها ، من سائر ما خول إذ كانت مخلوقة منه . وكانت بعضاً له وجزءاً من أجزائه ، وكان بعض الشيء أشكل ببعض وأقرب به قرباً من بعضه ببعض غيره . فالنساء حرث للرجال ، كما النبات رزق لما جعل رزقاً له من الحيوان .

[٦ - كل ما لم يجرمه الشرع محلل]

ولولا المحنة والبلوى في تحريم ما حرم وتحليل ما أحل ، وتخليص المواليد من

شبهات الاشتراك فيها ، وحصول المواريث في أيدي الأعتاب ، لم يكن واحد أحق
بواحدة منهم من الآخر ، كما ليس بعض السوام أحق برعي مواقع السحاب من بعض ،
ولكان الأمر كما قالت المجوس : إن للرجل الأقرب فالأقرب إليه رحماً وسبباً منهم . إلا
أن الفرض وقع بالامتحان فخص المطلق ، كما فعل بالزرع فإنه مرعى لولد آدم ولسائر
الحيوان إلا ما منع منه التحريم .

وكل شيء لم يوجد محرماً في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فمباح مطلق . وليس
على استباح الناس واستحسانهم قياس ما لم نخرج من التحريم دليلاً على حسنه ،
وداعياً إلى حلاله .

ولم نعلم للغيرة في غير الحرام وجهاً ، ولولا وقوع التحريم لزالَت الغيرة ولزمتنا
قياس من أحق بالنساء ، فإنه كان يقال : ليس أحد أولى بهن من أحد ، وإنما هن بمنزلة
المشام والتفاح الذي يتهداه الناس بينهم . ولذلك اقتصر من له العدة على الواحدة
منهن ، وفرق الباقي منهن على المقرين . غير أنه لما عزم الفريضة بالفرق بين الحلال
والحرام ، اقتصر المؤمنون على الحد المضروب لهم ، ورخصوه فيها تجاوزه .

مركز تفتيش كويت برعاية
مركز تفتيش كويت برعاية

[٧ - لم يعرف العرب الحجاب]

فلم يكن بين رجال العرب ونسائها حجاب ، ولا كانوا يرضون مع سقوط
الحجاب بنظرة الفتنة ولا لحظة الخلسة ، دون أن يجتمعوا على الحديث والمسامرة ،
ويزدوجوا في المناسمة والمثافنة ، ويسمى المولع بذلك من الرجال الزير ، المشتق من
الزيارة . وكل ذلك بأعين الأولياء وحضور الأزواج ، لا ينكرون ما ليس بمنكر إذا أمنوا
المنكر ، حتى لقد حسك في صدر أخي بثينة من جميل ما حسك من استعظام المؤانسة ،
وخروج العذر عن المخالطة ، وشكا ذلك إلى زوجها وهزه ما حشمه ، فكنا لجميل عند
إتيانه بثينة ليقتلاه ، فلما دنا لحديثه وحديثها سمعاه يقول ممتحناً لها : هل لك فيها يكون
بين الرجال والنساء ، فيها يشفي غليل العشق ويطفىء نائرة الشوق ؟ قالت : لا .
قال : ولم ؟ قالت : إن الحب إذا نكح فسد ! فأخرج سيفاً قد كان أخفاه تحت ثوبه ،
فقال : أما والله لو أنعمت لي لملاته منك ! فلما سمعا بذلك وثقا بغيبه وركنا إلى عفاه ،

وانصرفا عن قتله ، وأباحاه النظر والمحادثة .

فلم يزل الرجال يتحدثون مع النساء ، في الجاهلية والإسلام ، حتى ضرب
الحجاب على أزواج النبي ﷺ خاصة .

وتلك المحادثة كانت سبب الوصلة بين جميل وبثينة ، وعفراء وعروة ، وكثير
وعزة ، وقيس ولبنى ، وأسما ومرفش ، وعبد الله بن عجلان وهند .

[٨ - طواف النساء بالكعبة هاربات]

ثم كانت ضباة ، من بني عامر بن قرط بن عامر بن صعصعة ، نمت عبد الله
ابن جدعان زماناً لا تلد ، فأرسل إليها هشام بن المغيرة المخزومي : ما تصنعين بهذا
الشيخ الكبير الذي لا يولد له ، قولي له حتى يطلقك . فقالت لعبد الله ذلك ، فقال
لها : إن أخاف عليك أن تتزوجي هشام بن المغيرة . قالت : لا أتزوجه . قال : فإن
فعلت فعليك مائة من الإبل تنحرمها في الجزيرة وتنسجين لي ثوباً يقطع ما بين
الأخشين ، والطواف بالبيت هريانة . قالت : لا أطيقه . وأرسلت إلى هشام فأخبرته
الخبر فأرسل إليها : ما أسر ما سألك ، وما بكرشك ، وأنا أسر قريش في المال ،
ونسائي أكثر نساء رجل من قريش ، وأنت أجمل النساء فلا تأتي عليه . فقالت لأبن
جدعان : طلقني فإن تزوجت هشاماً فعل ما قلت ، فطلقها بعد استيثاقه منها ، فتزوجها
هشام فنحر عنها مائة من الجزر ، وجمع نساءه فنسجن ثوباً يسع ما بين الأخشين ، ثم
طافت بالبيت هريانة ، فقال المطلب ابن أبي وداعة : لقد أبصرتها وهي هريانة تطوف
بالبيت وإني لفلان أتبعها إذا أدبرت ، وأستقبلها إذا أقبلت ، فما رأيت شيئاً مما خلق الله
أحسن منها ، واضعة يدها على ركبها وهي تقول :

اليوم يبدو بمضه أو كله فما بدا منه فلا أحله
كم ناظر فيه فما يله أخشم مثل المعقب باد ظله

قال : ثم إن النساء إلى اليوم من بنات الخلفاء وأمهاهن ، فمن دونهن يظفن
بالبيت مكشفات الوجوه ، ونحو ذلك لا يكمل حج إلا به .

[٩ - عمر بن الخطاب لم يحرم السفور]

وأعرس عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعاتكة ابنة زيد [بن عمرو] ابن نفيل ، وكانت قبله عند عبد الله بن أبي بكر ، فمات عنها بعد أن اشترط عليها ألا تتزوج بعده أبداً ، على أن نحلها قطعة من ماله سوى الإرث ، فخطبها عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وأفتاها بأن يعطيها مثل ذلك من المال فتصدق به عن عبد الله بن أبي بكر ، فقالت في مراثيته :

فأقسمت لا تنفك عيني سخينة عليك ولا ينفك جلدي أغبراً
فخجلت فأطرقت ، وساء عمر رضي الله عنه ما رأى من خجلها وتشورها عند
تعمير علي إياها بنقض ما فارقت عليه زوجها ، فقال : يا أبا الحسن ، رحمك الله ، ما
أردت إلى هذا ؟ فقال : حاجة من نفسي قضيتها .

هذا . وأنتم تروون أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان أغبر الناس ، وأن
النبي ﷺ قال له : « إني رأيت قصراً في الجنة فسألت : لمن هذا القصر ؟ فقيل : لعمر
ابن الخطاب . فلم ينعني من دحوه إلا لعروقي بغيرتك » . فقال عمر رضي الله عنه :
وعليك يغار يا نبي الله !

فلو كان النظر والحديث والدعابة يغار منها ، لكان عمر المقدم في إنكاره ، لتقدمه
في شدة الغيرة . ولو كان حراماً لمنع منه ، إذ لا شك في زهده وورعه وعلمه وتفقهه .

[١٠ - الحسن بن علي لم يحرم النظر إلى النساء]

وكان الحسن بن علي عليها السلام تزوج حفصة ابنة عبد الرحمن ، وكان المنذر
ابن الزبير يهواها ، فبلغ الحسن عنها شيء فطلقها ، فخطبها المنذر فأبت أن تتزوجه
وقالت : شهرني . . . وخطبها عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنها فتزوجها ،
فرقى المنذر عنها شيئاً فطلقها ، وخطبها المنذر فقيل لها : تزوجيه ليعلم الناس أنه كان
بعضهك . فتزوجته فعلم الناس أنه كذب عليها ، فقال الحسن لعاصم : لنستأذن عليها
المنذر فندخل إليها فنتحدث عندها ، فاستأذناه ، فشاور أخاه عبد الله بن الزبير فقال :

دهها بدخلان . فدخلا فكانت إلى عاصم أكثر نظراً منها إلى الحسن ، وكان أبسط للحديث . فقال الحسن للمنذر : خذ بيد امرأتك . فأخذ بيدها وقام الحسن وعاصم فخرجا . وكان الحسن يهواها وإنما طلقها لما رقي إليه المنذر .

وقال الحسن يوماً لابن أبي عتيق : هل لك في العتيق ؟ فخرجا فعدل الحسن إلى منزل حفصة فدخل إليها فتحدثا طويلاً ثم خرج ، ثم قال لابن أبي عتيق : هل لك في العتيق ؟ قال : نعم . فنزل بمنزل حفصة ودخل ، فقال له مرة أخرى : هل لك في العتيق ؟ فقال : يا ابن أم ، ألا تقول : هل لك في حفصة !!

وكان الحسن في ذلك العصر أفضل أهل دهره . فلو كانت محادثة النساء والنظر إليهن حراماً وعاراً لم يفعله ولم يأذن فيه المنذر بن الزبير ، ولم يشر به عبد الله بن الزبير .

[١١ - الحشوية ليسوا على حق في تحريم النظر إلى المرأة]

وهذا الحديث وما قبله يبطلان ما روت الحشوية من أن النظر الأول حرام والثاني حرام ، لأنه لا تكون محادثة إلا ومعها ما لا يجهى حده من النظر . إلا أن يكون حتى بالنظرة المحرمة النظر إلى الشعر والجاسد . وما تخفيه الجلابيب مما يحل للزوج والولي ويحرم على غيرهما .

[١٢ - الشعبي لم يحرم النظر إلى النساء]

ودعا مصعب بن الزبير الشعبي ، وهو في قبة له مجللة بوشي ، معه فيها امرأته ، فقال : يا شعبي ، من معي في هذه القبة ؟ فقال : لا أعلم أصلح الله الأمير ! فرفع السجف ، فإذا هو بعائشة ابنة طلحة .

والشعبي فقيه أهل العراق وعالمهم ، ولم يكن يستحل أن ينظر إن كان النظر حراماً .

[١٣ - معاوية لم يحرم النظر إلى النساء]

ورأى معاوية كاتباً له يكلم جارية لامرأته فاختة بنت قرظة ، في بعض طرق

داره ، ثم خطب ذلك الكاتب تلك الجارية فزوجها منه ، فدخل معاوية الى فاخنة وهي متحشدة في تعبئة عطر لعرس جاريتها ، فقال : هوني عليك يا ابنة قرظة ، فلاني احسب الأبتناء قد كان منذ حين .

ومعاوية أحد الأئمة ، فلما لم يقع عنده ما رأى من الكلام موقع يقين ، وإنما حل محل ظن وحسبان ، ولم يقض به ولم يوجبه ، ولو أوجبه لحد عليه .

وكان معاوية يؤتى بالجارية فيجردها من ثيابها بحضرة جلسائه ، ويضع القضيبي على ركبها ، ثم يقول : إنه لمتاع لو وجد متاعاً ! ثم يقول لصعصعة بن صوحان : خذها لبعض ولدك ، فإنها لا تحمل ليزيد بعد أن فعلت بها ما فعلت .

ولم يكن يعدم من الخليفة ومن بمنزلة في القدرة والثاني أن تقف على رأسه جارية تذب عنه وتروحه ، وتعاطيه أخرى في مجلس عام بحضرة الرجال .

[١٤ - أخبار عبد الملك بن مروان وسواه مع الجوارى]

فمن ذلك حديث الوصيفة التي أظلمت في كتاب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج وكان يسره ، فلما فشا ما فيه رجع على الحجاج باللوم ومثل :

ألم تر أن وشاة الرجا ل لا يتركون أديمأ صحيحاً
فلا نفس سرك إلا إلبك فإن لكل نصيح نصيحاً
ثم نظر فوجد الجارية كانت تقرأ فنمت عليه .

ومن ذلك حديثه حين نعت فقال للفرزدق وجرير والأخطل : من وصف نعاساً بشعر ويمثل يصيب فيه ويمسح التمثيل ، فهذه الوصيفة له . فقال الفرزدق :

رماه الكرى في الرأس حتى كأنه أميم جلاميد تركن به وقرا
فقال : شدختني ويلك يا فرزدق ! فقال جرير :

رماه الكرى في الرأس حتى كأنه يبرى في سواد الليل قنبرة سقرا

فقال : ويلك تركتني مجنوناً ! ثم قال يا أخطل فقل . قال :

رماء الكرى في الرأس حتى كأنه نديهم تسروى بين ندمائه حمرا
ثم لم يزل للملوك والأشراف إماء مختلفن في الحوائج ، ويدخلن في الدواوين ،
ونساء يجلسن للناس ، مثل خالصة جارية الخيزران ، وعتبة جارية ربيعة ابنة أبي
العباس ، وسكر وتركية جارية أم جعفر ، ودقاق جارية العباسية ، وظلوم وقسطنطينية
جارية أم حبيب ، وامرأة هارون بن جعبويه ، وحدونة أمة نصر بن السندي بن
شاهك . ثم كن يبرزن للناس أحسن ما كن وأشبه ما يتزين به ، ما أنكر ذلك منكر
ولا عابه عائب .

[١٥ - موقف المأمون من المرأة]

ولقد نظر المأمون الى سكر فقال : أحررة أنت أم مملوكة ؟ قالت : لا أدري ، إذا
غضبت عليّ أم جعفر قالت : أنت مملوكة ، وإذا رضيت قتلت : أنت حرة . قال :
فاكتبي اليها الساعة فاسألها عن ذلك . فكتبت كتاباً وصلته بهجناح طائر من الهدى كان
معها ، أرسلته تعلم أم جعفر ذلك ، فعلمت أم جعفر ما أراد فكتبت إليها : أنت
حرة . فتزوجها على عشرة آلاف درهم ، ثم خلا بها من ساعتها فواقعها وحمل
سبيلها ، وأمر بدفع المال إليها .

[١٦ - الإفراط في الغيرة على المرأة وذيلة] .

والدليل على أن النظر الى النساء كلهن ليس بحرام ، أن المرأة المعنسة تبرز للرجال
فلا محتشم من ذلك . فلو كان حراماً وهي شابة لم يحل إذا عنست ، ولكنه أمر أفرط فيه
المتعدون حد الغيرة الى سوء الخلق وضيق الفطن ، فصار عندهم كالحق الواجب .

[١٧ - من الخطأ التفريق بين الحرة والجارية]

وكذلك كانوا لا يرون بأساً أن تنتقل المرأة الى عدة أزواج لا ينقلها عن ذلك إلا
الموت ما دام الرجال يريدونها . وهم اليوم يكرهون هذا ويستسمجونه في بعض ،

ويعاقبون المرأة الحرة إذا كانت قد نكحت زوجاً واحداً ، ويلزمون من خطبها العار ويلحقون به اللوم ، ويميرونها بذلك ، ويتحفظون الأمة وقد تداوها من لا يحصى عنده من الموالي . فمن حسن هذا في الإماء وقبحه في الخرائر ولم يغاروا في الإماء وهن أمهات الأولاد وحظايا الملوك ، وغاروا على الخرائر . ألا ترى أن الغيرة إذا تجاوزت ما حرم الله فهي باطل ، وأنها بالنساء لضعفهن أولع ، حتى يغرن على الظن والحلم في النوم . وتغار المرأة على أبيها ، وتعادي امرأته وسريته .

[١٨ - الغناء]

ولم تزل القيان عند الملوك من العرب والعجم على وجه الدهر . وكانت فارس تعد الغناء أدباً والروم فلسفة .

وكانت في الجاهلية الجرادتان لعبد الله بن جدعان .

وكان لعبد الله بن جعفر الطيار جواريتان ، وغلّام يقال له « بديع » يتغنى ، فعابه بذلك الحكم بن مروان ، قال : وما عليّ أن آخذ الجهد من أشعار العرب وألقيه إلى الجوّاري فيترنن به وينشدنه بجلوقهن ونغمهن !
وسمع يزيد بن معاوية الغناء .

وإنخذ يزيد بن عبد الملك حيازة وسلامة ، وأدخل الرجال عليهن للسمع ، فقال الشاهر في حيازة :

إذا ما حن مزهرها إليها وحننت دونه أذن الكرام
واصفوا نحوه الأذان حتى كأنهم وما ناموا نيام
وقال في سلامة :

ألم ترها ، والله يكفيك شرها ، إذا طربت في صوتها كيف تصنع
ترد نظام القول حتى ترده إلى صلصل من حلقها يترجع

وكان يسمع فإذا طرب شق برده ثم يقول : أطيرا فتقول حباة : لا تطير ، فإن بنا إليك حاجة .

ثم كان الوليد بن يزيد المتقدم في اللهو والغزل ، والملوك بعد ذلك يسلكون على هذا المنهاج وعلى هذا السبيل الأول .

وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، قبل أن تناله الخلافة يتغنى . فما يعرف من غنائه .

أما صاحبي نزر سماداً لقرب مزارها ودها البعمادا
وله :

عاود القلب سماداً فقلا الطرف السهادا

[١٩ - عناصر الغناء]

ولا نرى بالغناء بأساً إذا كان أصله شعراً مكسواً نغمياً : فما كان منه صدقاً
فحسن ، وما كان منه كذباً فقيح .

وقد قال النبي عليه السلام : « إن من الشعر لحكمة » .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « الشعر كلام ، فحسنه حسن ،
وقبيحه قبيح » .

ولا نرى وزن الشعر أزال الكلام عن جهته ، فقد يوجد ولا يضره ذلك ،
ولا يزيل منزلته من الحكمة .

لهذا وجب أن الكلام غير محرم فإن وزنه وتقفيته لا يوجبان تحريماً لعله من
العلل . وإن الترجيح له أيضاً لا يخرج إلى حرام . وإن وزن الشعر من جنس وزن
الغناء ، وكتاب العروض من كتاب الموسيقى ، وهو من كتاب حد النفوس ، تحده

الألسن بحد مقنع ، وقد يعرف بالهاجس كما يعرف بالإحصاء والوزن . فلا وجه
لتحريمه ، ولا أصل لذلك في كتاب الله تعالى ولا سنة نبيه عليه السلام .

[٢٠ - الغناء غير محرم]

فإن كان إنما يحرمه لأنه يلهمي عن ذكر الله فقد نجد كثيراً من الأحاديث
والمطاعم والمشارب والنظر الى الجنان والرياحين ، واقتناص الصيد ، والتشاغل
بالجماع وسائر اللذات ، تصد وتلهي عن ذكر الله . ونعلم أن قطع الدهر بذكر الله
لمن أمكنه أفضل ، إلا أنه إذا أدى الرجل الفرض فهذه الأمور كلها له مباحة ، وإذا
قصر عنه لزمه المأثم .

ولو سلم من اللهو عن ذكر الله أحد لسلم الأنبياء عليهم السلام . هذا
سليمان بن داود عليهما السلام ، الهاء عرض الخيل عن الصلاة حتى غابت
الشمس ، فعرقها وقطع رقابها .



[٢١ - الحكم الجمالي]

وبعد فإن الرقيق نجارة من التجارات تقع عليه المساومات والمشاركة
بالثمن ، ويحتاج البائع والمبتاع إلى أن يستشفا العلق : ويتأملاه تأملاً بيناً يجب فيه
خيار الرؤية المشترط في جميع البياعات . وإن كان لا يعرف مبلغه بكيل ولا وزن
ولا عدد ولا مساحة ، فقد يعرف بالحسن والقبح . ولا يقف على ذلك أيضاً إلا
الثاقب في نظره ، الماهر في بصره ، الطب بصناعته ، فإن أمر الحسن أدق وأرق من
أن يدركه كل من أبصره .

وكذلك الأمور الوهمية ، لا يقضى عليها بشهادة إبصار العين ، ولو قضى
عليها بها كان كل من رآها يقضي ، حتى النعم والحمير ، يحكم فيها لكل بصير
العين يكون فيها شاهداً وبصيراً للقلب ، ومؤدياً إلى العقل ، ثم يقع الحكم من
العقل عليها .

وأنا مبين لك الحسن . هو التمام والاعتدال . ولست اعني بالتمام تجاوز مقدار الاعتدال كالتزايده في طول القامة ، وكثافة الجسم أو عظم الجارحة من الجوارح ، أو سعة العين أو الفم ، مما يتجاوز مثله من الناس المعتدلين في الخلق ، فإن هذه الزيادة متى كانت فهي نقصان من الحسن، وإن عدت زيادة في الجسم .

والحدود حاصرة لأمر العالم ، ومحيطة بمقاديرها الموقونة لها ، فكل شيء خرج عن الحد في خلق ، حتى في الدين والحكمة اللذين هما أفضل الأمور ، فهو قبيح مذموم .

وأما الاعتدال فهو وزن الشيء لا الكمية ، والكون كون الأرض لا استواؤها .

ووزن النفوس في أشباه أقسامها . فوزن خلقه الإنسان اعتدال محاسنه وألا يفوت شيء منها شيئاً ، كالعين الواسعة لصاحب الأنف الصغير الأفتس ، والأنف العظيم لصاحب العين الضيقة ، والذقن الناقص والرأس الضخم والوجه الفخم لصاحب البدن المجدع النضوء، والظهر الطويل لصاحب القطنين القصيرتين، والظهر القصير لصاحب القطنين الطويلتين ، وكسعة الجبين بأكثر من مقدار أسفل الوجه .

ثم هذا أيضاً وزن الأنية وأصناف الفرش والوشى واللباس ، ووزن القنوات التي تجري فيها المياه .

وإنما نعني بالوزن الاستواء في الحرط والتركيب .

فلا بد مما لا يمنع الناظر من النظر إلى الزرع والغروس والتضرع في خضرته والاستنشاق من روائحه . ويسمى ذلك كله له حلاً ما لم يمد له يداً . فإذا مد يداً إلى مثقال حبة من خردل بغير حقها فعل ما لا يحل ، وأكل ما يحرم

عليه .

وكذلك مكالة القيان ومفاكتهن ، ومغازلتهن ومصافحتهن للسلام ، ووضع اليد عليهن للتقليب والنظر ، حلال ما لم يشب ذلك ما يحرم .

وقد استثنى الله تبارك وتعالى اللمم فقال : ﴿ الذين يمتنعون كبائر الاثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة ﴾ . قال عبد الله بن مسعود ، وسئل عن تأويل هذه الآية فقال : إذا دنا الرجل من المرأة فإن تقدم ففاحشة ، وإن تأخر فلمم . وقال غيره من الصحابة : القبلة واللمس ، وقال آخرون : الإتيان لهما دون الفرج .

وكذلك قال الأعرابي حين سئل عما نال من عشيقته ، فقال : ما أقرب ما أحل الله مما حرم الله !

[٢٤ - الحكم على الظاهر لا الباطن]

فإن قال قائل : فيما روي من الحديث : « فارقوا بين أنفاس الرجال والنساء » ، وقال : « لا يخل رجل بامرأة في بيت وإن قيل حموها ، ألا إن حموها الموت » وإن في الجمع بين الرجال والقيان ما دعا إلى الفسق والارتباط والعشق ، مع ما ينزل بصاحبه من الغلظة التي تضطر إلى الفجور وتحمل على الفاحشة ، وأن أكثر من يحضر منازل القيان إنما يحضر لذلك لا لسماع ولا ابتياع .

قلنا : إن الأحكام إنما تقع على ظاهر الأمور ، ولم يكلف الله العباد الحكم على الباطن ، والعمل على النيات ، فيقضى للرجل بالإسلام بما يظهر منه ولعله ملحد فيه ، ويقضى أنه لأبيه ولعله لم يلد له الأب الذي ادعى إليه قط ، إلا أنه مولود على فراشه ، مشهور بالانتماء إليه . ولو كلف من يشهد لرجل بواحد من هذين المعنيين على الحقيقة لم تقم عليه شهادة . ومن يحضر مجالسنا لا يظهر نسباً عما ينسبونه إليه ، ولو أظهر ثم أخضينا له عليه لم يلحقنا في ذلك إثم .

والحسب والنسب الذي بلغ به القيان الأثمان الرغبية إنما هو الهوى . ولو اشترى على مثل شرى الرقيق لم تجاوز الواحدة منهن ثمن الرأس الساذج . فأكثر من بالغ في ثمن جارية فبالعشق ولعله كان ينوي في أمرها الريبة ، ويجد هذا أسهل سبيلا إلى شفاء غليله ثم تعذر ذلك عليه فصار إلى الحلال وإن لم ينوه ويعرف فضله ، فباع المتاع وحل العقد وأثقل ظهره بالعيبة حتى ابتاع الجارية .

ولا يعمل عملاً ينتج خيراً غير إغرائه بالقيان وقيادته عليهن ، فإنه لا ينجم الأمر إلا وغايته فيهن العشق ، فيموق عن ذلك ضبط الموالي ومراعاة الرقباء وشدة الحجاب ، فيضطر العاشق إلى الشراء ، ويحصل منه الفرج ، ويكون الشيطان المدحور .

والعشق داء لا يملك دفعه ، كما لا يستطاع دفع عوارض الأدواء إلا بالحمية ، ولا يكاد ينتفع بالحمية مع ما تولد الأغذية وتزيد في الطباع بالازدياد في الطعم .

ولو امكن أحداً أن يجتني من كل ضرر ويقف عن كل هذاء ، للزم ذلك المتطبيب في آفات صحته ، ونحل جسمه وضوى لحمه ، حتى يؤمر بالتخليط ، ويشار عليه بالعناية في الطيبات . ولو ملك أيضاً صرف الأغذية واحترس بالحمية ، لم يملك ضرر تغير الهواء ولا اختلاف الماء .

وأنا واصل لك حد العشق لتعرف حده :

هو داء يهيب الروح ويشتمل على الجسم بالمجاورة ، كما ينال الروح الضعف في البطش والوهن في المرء يهيكه . وداء العشق وعمومه في جميع البدن بحسب منزلة القلب من أعضاء الجسم . وصعوبة دوائه تأتي من قبل اختلاف علته ، وأنه يتركب من وجوه شتى ، كالحصى التي تعرض مركبة من البرد والبلغم . فمن قصد لعلاج أحد الخلطين كان ناقصاً من دائه زائداً في داء الخلط الأخر ، وعلى حسب قوة أركانه يكون ثبوته وإبطاؤه في الانحلال . فالعشق يتركب من الحب والهوى ،

والمشاكلة والإلف ، وله ابتداء في المساعدة ، ووقوف على غاية ، وهبوط في التوليد
الى غاية الإنحلال ووقف الملل .

والحب اسم واقع على المعنى الذي رسم به ، لا تفسير له غيره ؛ لأنه قد
يقال : إن المرء يحب الله ، وإن الله جل وعز يحب المؤمن ، وإن الرجل
يحب ولده ، والولد يحب والده ويحب صديقه وبلده وقومه ، ويجب على أي جهة
يريد ولا يسمى ذلك عشقاً . فيعلم حينئذ أن اسم الحب لا يكتفى به في معنى
العشق حتى تضاف إليه العلل الأخر إلا أنه ابتداء العشق ، ثم يتبعه حب
الهوى فرجما وافق الحق والاختيار ، وربما عدل عنهما . وهذه سبيل الهوى في
الأديان والبلدان وسائر الأمور . ولا يميل صاحبه عن حجته واختياره فيما يهوى .
ولذلك قيل : « عين الهوى لا تصدق » ، وقيل : « حبك الشيء يعمي ويصم » -
يتخذون أديانهم أرباباً لأهوائهم . وذلك أن العاشق كثيراً ما يعشق غير النهاية في
الجمال ، ولا الغاية في الكمال ، ولا الموصوف بالبراعة والرشاقة ، ثم إن سئل عن
حجته في ذلك لم تقم له حجة .

ثم قد يجتمع الحب والهوى ولا يسمىان عشقاً ، فيكون ذلك في الولد
والصديق والبلد ، والصنف من اللباس والفرش والدواب . فلم نر أحداً منهم
يسقم بدنه ولا تتلف روحه من حب بلده ولا ولده ، وإن كان قد يصيبه عند
الفراق لوحة واحتراق .

وقد رأينا وبلغنا عن كثير ممن قد تلف وطال جهده وضناه بداء العشق .

فعلم أنه إذا أضيف الى الحب والهوى المشاكلة ، أعني مشاكلة الطبيعة ،
أي حب الرجال النساء وحب النساء الرجال ، المركب في جميع الفحول والإناث
من الحيوان ، صار ذلك عشقاً صحيحاً . وإن كان ذلك عشقاً من ذكر لذكر
فليس إلا مشتقاً من هذه الشهوة ، وإلا لم يسم عشقاً إذا فارقت الشهوة .

ثم لم نره ليكون مستحكماً عند أول لقياه حتى يعقد ذلك الإلف ، وتغرسه

المواظبة في القلب ، فينبت كما تنبت الحبة في الأرض حتى تستحکم وتشتد وتثمر ، وربما صار لها كالجذع السحوق والعمود الصلب الشديد وربما انعقد فصار فيه بوار الأصل . فإذا اشتمل على هذه العلة صار عشقاً تاماً .

ثم صارت قلة العيان تزيد فيه وتوقد ناره ، والانقطاع يسمره حتى يذهل العقل ويهتك البدن ، ويشغل القلب عن كل نافعة ، ويكون خيال المشوق نصب عين العاشق والغالب على فكرته ، والباطل في كل حالة على قلبه .

وإذا طال العهد واستمرت الأيام نقص على الفرقة ، واضمحل على المطاولة ، وإن كانت كلومه وندوبه لا تكاد تعرف آثارها ولا تدرس رسومها .

فكذلك الظفر بالمشوق يسرع في حل عشقه . والعلة في ذلك أن بعض الناس أسرع إلى العشق من بعض ، لاختلاف طبائع القلوب من الرقة والقسوة ، وسرعة الإلف وإبطائه ، وقلة الشهوة وضعفها .

وقل ما يظهر المشوق عشقاً إلا عداً بدائه ، ونكت في صدره وشغف فؤاده . وذلك من المشاكلة ، وإجابة بعض الطبائع بعضاً ، وتوقان بعض الأنفس إلى بعض ، وتقارب الأرواح . كالنائم يرى آخر بنام ولا نوم به فينم ، وكالمتائب يراه من لا تتأوب به فيفعل مثل فعله ، قسراً من الطبيعة .

وقل ما يكون عشق بين اثنين يتساويان فيه إلا عن مناسبة بينهما في الشبه في الخلق والخلق وفي الظرف ، أو في الهوى أو الطباع . ولذلك ما نرى الحسن يعشق القبيح ، والقبيح يحب الحسن ويختار المختار الأقبح على الأحسن ، وليس يرى الاختيار في غير ذلك فيتوهم الغلط عليه ، لكنه لتعارف الأرواح وازدواج القلوب .

[٢٦ - اللذات التي توفرها القينة]

ومن الأفة عشق القيان على كثرة فضائلهن ، وسكون النفوس إليهن ، وأنهن يجتمعن للإنسان من اللذات ما لا يجتمع في شيء على وجه الأرض .

واللذات كلها إنما تكون بالحواس ، والمأكول والمشروب حظ لحاسة الذوق لا يشركها فيه غيرها . فلو أكل الإنسان المسك الذي هو حظ الأنف وجدته بشما واستقذره ، إذ كان دماً جامداً . ولو تنسم أرواح الأطعمة الطيبة كالقواكه وما أشبهها عند انقطاع الشهوة ، أو ألح بالنظر الى شيء من ذلك ، عاد ضرراً . ولو أدل من سمعه كل طيب وطيب لم يجد له لذة .

فإذا جاء باب القيان اشترك فيه ثلاثة من الحواس ، وصار القلب لها رابعاً . فللعين النظر الى القينة الحسنة والمشهية إذ كان الحدق والجمال لا يكادان يجتمعان لمستمتع ومرتع ، وللسمع منها حظ الذي لا مؤونة عليه ، ولا تطرب آتته إلا إليه .

وللمس فيها الشهوة والحنين إلى الباه . والحواس كلها رواد للقلب ، وشهود عنده .

وإذا رفعت القينة عقيرة حلقها تفني حدق إليها الطرف ، واصفى نحوها السمع ، وألقى القلب إليها الملك ، فاستبق السمع والبصر أيهما يؤدي الى القلب ما أفاد منها قبل صاحبه ، فيتوافيان عند حبة القلب فيفرغان ما وعياه ، فيتولد منه مع السرور حاسة اللمس ، فيجتمع له في وقت واحد ثلاث لذات لا تجتمع له في شيء قط ، ولم تؤد إليه الحواس مثلها . فيكون في مجالسته للقينة أعظم الفتنة ، لأنه روي في الأثر : « إياكم والنظرة فإنها تزرع في القلب الشهوة » . وكفى بها لصاحبها فتنة ، فكيف بالنظر والشهوة إذا صاحبها السماع ، وتكافئتها المغازلة .

[٢٧ - القينة لا تخلص الحب]

إن القينة لا تكاد تخلص في عشقها ، ولا تناصح في ودعها ، لأنها مكتسبة ومجسولة على نصب الحبال والشرك للمتربطين ، ليقتمموا في أنشطتها ، فإذا شاهدها المشاهد رامت باللحظ ، وداعبته بالتبسم ، وضالته في أشعار الغناء ، ولمجت باقتراحاته ، ونشطت للشرب عند شربه ، وأظهرت الشوق الى طول مكثه ،

والصباية لسرعة هودته ، والحزن لفراقه . فإذا أحست بأن سحرها قد نفذ فيه ، وأنه قد تعقل في الشرك ، تزيهدت فيما كانت قد شرعت فيه ، وأوهمت أن الذي بها أكثر مما به منها ، ثم كاتبت تشكو إليه هواء ، وتقسم له أنها مدت الدواة بدمعتها ، وبلت السحابة بريقها ، وأنه شجبها وشجوها في فكرتها وضميرها ، في ليلها ونهارها ، وأنها لا ترهد سواه ، ولا تؤثر أحداً على هواء ، ولا تنوي انحرافاً عنه ، ولا ترهد له بل لنفسه ، ثم جعلت الكتاب في سلس طومار ، وختمته بزعفران ، وشدته بقطعة زهر ، وأظهرت ستره عن موالها ، ليكون المغرور أوثق بها . وألحت في اقتضاء جوابه ، فإن أجبت عنه ادعت أنها قد صيرت الجواب سلوتها ، وأقامت الكتاب مقام رثيته ، وأنشدت :

وصحيفة تحكي الضمير م مليحة نغماتها
جاءت وقد فرح الفؤاد بطول ما استبطناتها
لمضحكت حين رأيتهما وبكيت حين قرأتهما
عيني رأيت ما أنكرت فتبادرت هجرتهما
أظلم ، نفسي في يديك كبريتك حياها وولاهها
ثم تغنت حيثل :

بات كتاب الحبيب ندماني محدثي تارة وريحاني
أضحكني في الكتاب أوله ثم حمادي به فأبتكاني

ثم تمجنت عليه الذنوب ، وتغايرت على أهله ، وحمته النظر إلى صواحبها ، وسقته أنصاف أقداحها ، وجمشته بفضوض تفاحها ، ونحية من ريحانها ، وزودته عند انصرافه خصلة من شعرها ، وقطعة من مرطها ، وشظية من مضرايبها ، وأهدت إليه في النيروز تكة وسكراً ، وفي المهرجان خاتماً وتفاحة ، ونقشت على خاتمها اسمه ، وأبدت عند العثرة رسمه ، وخطته إذا رأته :

نظر المحب إلى الحبيب نعيم وصدوده خطر عليك عظيم

ثم أخبرته أنها لا تنام شوقاً إليه ، ولا تتهنأ بالطعام جداً به ، ولا تحمل - إذا غاب - الدموع فيه ، ولا ذكرته إلا تنفست ، ولا هتفت باسمه إلا ارتاحت ، وأنها قد جمعت قنينة من دموعها من البكاء عليه ، وتنشد عند موافاة اسمه بيت المجنون :

وأهوى من الاسماء ما وافق اسمها وأشبهه ، أو كان منه مدانيا
وعند الدعاء به قوله :

وداع دعا إذ نحن بالخيف من منى
فهيج أحزان الفؤاد وما يدري
دعا باسم ليل غيرها فكأنما
أطار ليل طائراً كان في صدري

وربما قادها التمويه الى التصحيح ، وربما شاركت صاحبها في البلوى حتى تأتي الى بيته فتمكنه من القبلة فما فوقها ، وتفرشه نفسها ان استحس ذلك منها ، وربما جمعدت الصناعة لترخص عليه ، وأظهرت العلة والتأثت على الموالى ، واستباحت من السادة ، وادعت الحرية احتيالاً لأن يملكها ، وإشفاقاً ان يحتاجه كثرة ثمنها ، ولا سيما اذا صادفته حلو الشائل ، رشيقي الإشارة ، عذب اللفظ ، دقيق الفهم ، لطيف الحس ، خفيف الروح . فإن كان يقول الشعر ويتمثل به أو يترنم كان أحلى له عندها .

وأكثر أمرها قلة المناصحة ، واستعمال الصدر والحيلة في استعطاف ما يحويه المربوط والانتقال عنه . وربما اجتمع عندها من مربوطيها ثلاثة أو أربعة على أنهم يتحامون من الاجتماع ، ويتغابرون عند الالتقاء ، فتبكي لواحد بعين ، وتضحك للآخر بالآخرى ، وتغمز هذا بذلك ، وتعطي واحداً سرها والآخر حلايتها ، وتوهمه أنها له دون الآخر ، وأن الذي تظهر خلاف ضميرها . وتكتب اليهم عند الانصراف كتباً على نسخة واحدة ، تذكر لكل واحد منهم تبرمها بالباقيين وحرصها على الحلوة

به دونهم .

فلو لم يكن لإبليس شرك يقتل به ، ولا علم يدعو اليه ، ولا فتنة يستهوي بها
إلا القيان ، لكفاه .

وليس هذا بدم لمن ، ولكنه من فرط المدح . وقد جاء في الأثر : وخير
نساءكم السواحر الخلابات .

وليس يحسن هاروت وماروت ، وعصا موسى ، وسحرة فرعون ، إلا دون ما
يحسنه القيان .

ثم إذا منعهم الزنى غلبه عليهم مخارج بيوت الكشاشنة ترميهم في حجور
الزناة . ثم من أمهات أولاد من قد بلغ بالحب لمن أن غفروا لمن كل ذنب ،
وأغضوا ممن على كل عيب .

وإذا كن في منزل رجل من السوقه هذرمن ، وإذا انتقلن الى منازل الملوك
زال العذر . والسبب فيه واحد ، والعلة سواء .

[٢٨ - اسباب مهتك القيان]

وكيف تسلم القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفة ، وإنما تكتسب
الأهواء ، وتتعلم بالألسن والأخلاق بالمنشأ ، وهي تنشأ من لذن مولدها إلى أوان
وفاتها بما يصد عن ذكر الله من هو الحديث ، وصنوف اللعب والاخانيث ، وبين
الخلعاء والمجان ، ومن لا يسمع منه كلمة جد ولا يرجع منه الى ثقة ولا دين ولا
صيانة مروة .

وتروي الحاذقة ممن أربعة آلاف صوت فصاعداً ، يكون الصوت فيما بين
البيتين إلى أربعة أبيات ، عدد ما يدخل في ذلك من الشعر إذا ضرب بعضه
ببعض هشرة آلاف بيت ، ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة ولا ترهب [من]
عقاب ، ولا ترهب في ثواب ، وإنما بنيت كلها على ذكر الزنى والقيادة ، والعشق

والصبوة ، والشوق والغلظة .

ثم لا تنفك من الدراسة لصناعتها منكبة عليها ، تأخذ من المطارحين الذين طرحهم كله تجميش وانشادهم مراودة . وهي مضطرة الى ذلك في صناعتها ، لأنها ان جفتها تفلتت ، وإن أهملتها نقصت ، وإن لم تستغد منها وقفت . وكل واقف فالى نقصان أقرب . وإنما فرق بين أصحاب الصناعات وبين من لا يحسنها التزيد فيها ، والمواظبة عليها . فهي لو أرادت الهدى لم تعرفه ، ولو بغت الغفلة لم تقدر عليها ، وإن ثبتت حجة أبي الهذيل فيها يجب على المتفكر زالت عنها خاصته ، لأن فكرها وقلبها ولسانها وبدنها ، مشاغيل بما هي فيه ، وعلى حسن ما اجتمع عليها من ذلك في نفسها لمن يلى مجالستها عليه وعليها .

[٢٩ - المقين]

ومن فضائل الرجل منا أن الناس يقصدونه في رحله بالرغبة كما يقصد بها للخلفاء والعظماء فيزار ولا يكلف الزيارة ، ويوصل ولا يحمل على الصلة ، ويهدى له ولا تقتضى منه الهدية ، وتبيت العيون ساهرة والعيون ساجدة ، والقلوب واجفة ، والأكباد متصدعة ، والأمان واقفة ، على ما يحويه ملكه وتضمه يده ، مما ليس في جميع ما يباع ويشترى ، ويستفاد ويقتنى ، بعد العقد النفيسة . فمن يبلغ شيئاً من الثمن ما بلغت حبشية جارية عون ، مائة ألف دينار وعشرون ألف دينار .

ويرسلون الى بيت مالها بصنوف الهدايا من الأطعمة والأشربة ، فإذا جاءوا حصلوا على النصر وانصرفوا بالحسرة ، ويحتني مولاها ثمرة ما غرسوا ، ويتمل به دونهم ، ويكفي مؤونة جواريه .

فالذي يقاسيه الناس من عيلة العيال ، ويفكرون فيه من كثرة عددهم وعظيم مؤونتهم ، وصعوبة خدمتهم ، [هو] عنه بمنزل : لا يهتم بغلاء الدقيق ، ولا عوز السوق ، ولا عزة الزيت ، ولا فساد النيذ ، قد كفي حسرته إذا نزر ، والمصيبة فيه إذا حمض ، والفجيمة به إذا انكسر .

ثم يستقرض إذا أسر ولا يرد ، ويسأل الحوائج فلا يمنع ، ويلقى أهدأ
بالإعظام ، ويكفي إذا نودي ، ويفدى إذا أدهى ، ويحيا بطرائف الأخبار ، ويطلع
على مكنون الأسرار ، ويتغايير الربطاء عليه ، ويتبادرون في بره ، ويتشاحون في
وده ، ويتفاخرون بإيثاره .

ولا نعلم هذه الصفة إلا للخلفاء : يعطون فوق ما يأخذون ، وتحصل بهم
الرهائب ، ويدرك منهم الغنى .

والمقين يأخذ الجوهر ويعطي العرض ، ويفوز بالعين ويعطي الأثر ، ويبيع
الريح الهابة بالذهب الجامد ، وפלذ اللجين والمسجد . وبين المرابطين وبين ما
يريدون منه خرط القتاد ، لأن صاحب القيان لو لم يترك إعطاء المرهوط سؤله عفة
ونزاهة ، لتركه حلقاً واختياراً ، وشحا على صناعته ، ودفعاً عن حریم ضيعته ، لأن
العاشق متى ظفر بالمعشوق مرة واحدة نقص تسعة أعشار عشقته ، ونقص من بره
ورفده بقدر ما نقص من عشقه . فما الذي يحمل المقين على أن يبیک جاريتيه ،
ويكسر وجهه ويصرف الرهبة عنه .

مركز تحقيقات كويتية علوم إسلامية

ولولا أنه مثل في هذه الصناعة الكريمة الشريفة لم يسقط الغيرة عن جواربه
ويعنى بأخبار الرقباء ، ويأخذ أجرة المبيت ويتادم قبل العشاء ، ويعرض عن
الغمزة ، ويغفر القبلة ، ويتخالف عن الإشارة ، ويتعاضى عن المكاتبه ، ويتناسى
الجارية يوم الزياره ، ولا يعاتبها على المبيت ، ولا يفض ختام سرها ، ولا يسألها
عن خبرها في ليلها ، ولا يعبا بأن تقفل الأبواب ، ويشدد الحجاب ، ويعد لكل
مرهوط حدة على حدة ، ويعرف ما يصلح لكل واحد منهم ، كما يهيز التاجر
أصناف تجارته فيسعرها على مقاديرها . ويعرف صاحب الضياع أراضيه لمزارع
الخصر والحنطة والشعير . فمن كان ذا جاه من الربطاء اعتمد على جاهه وسأله
الحوائج . ومن كان ذا مال ولا جاه له استقرض منه بلا هيسنة . ومن كان من
السلطان بسبب كفت به عادية الشرط والأهوان ، وأعلنت في زيارته الطبول
والسراني ، مثل سلمة الفقامي ، وحمدون الصحنائي ، وهلي الفامي ، وحجر

الثور ، وفقحة ، وابن دجاجة ، وحفصويه ، وأحمد شعرة ، وابن المجوسي ،
وابراهيم الغلام .

فأي صناعة في الأرض أشرف منها !

ولو يعلم هؤلاء المسمون فرق ما بين الحلال والحرام لم ينسبوا إلى الكشخ
أهلها ، لأنه قد يجوز أن تباع الجارية من المملوء فيصيب منها وهو في ذلك ثقة ، ثم
يرتجعها صاحبها بأقل مما باعها به فيحصل له الربح ، أو تزوج ممن يثق به ويكون
قصده للمتعة .

فهل على مزوجة من حرج ، وهل يفر أحد من سعة الحلال إلا الحائض
الجاهل ، وهل قامت الشهادة بزناه قط في الإسلام على هذه الجهة .

هذه الرسالة التي كتبناها من الرواة منسوبة إلى من سميناها في صدرها . فإن
كانت صحيحة فقد أدينا منها حق الرواية ، والذين كتبوها أولى بما قد تقلدوا من
الحجة منها . وإن كانت منحولة فمن قبل الطفيليين ، إذ كانوا قد أقاموا الحجة في
أطراح الحشمة ، المرتبطين ليسهلوا على المقينين ما صنعه المقترفون .

فإن قال قائل : إن لها في كل صنف من هذه الثلاثة الأصناف حظاً وسيباً فقد
صدق . وبالله سبحانه التوفيق .



هامش رسالة القيان

- (١) يذكر الجاحظ أسماء عدد من طلاب اللذة المشهورين في عصره الذين ينحلهم هذه الرسالة . وهو يفعل ذلك كعادته في كثير من رسائله . ويبدو أن الدافع الذي حمله على النحل هنا هو رغبته في عدم تحمل مسؤولية الآراء التي سيوردها في تضاعيف الرسالة لأنه يدرك أنها تلقى معارضة عنيفة من جانب اصحاب الحديث وهؤلاء كانوا يناصبونه العداوة ويضيقون عليه وعلى سائر المعتزلة المعروفين بمهولهم العقلانية والتحررية . وهو ينعتهم هنا بالجهل وغلظ الطبع وفساد الحس . بينما ينعت اصحاب اللذة بالمرودة والعمى وطلب المتعة بالقيان والاطعمة والاشربة . ولنتلاحظ هذه الديباجة التي نلغها في كثير من آثار الجاحظ ، وما بها من تقطيع جميل .
- (٢) يلخص الجاحظ شروط القضية العاقل وهي عدم التصريح في إصدار الاحكام ، وسماع حجج الخصمين ، واشراك الخصمين في فهم ما اختصاصاً ليه . وهو يوجه كلامه الى القارئ الذي يطلب منه أن يكون قاضياً عادلاً يحكم في الخصومة بين الجاحظ ومعارضيه في القضية التي سوف يعرضها .
- (٣) الاسباب التي حدثت الجاحظ على كتابة هذه الرسالة هي تهجم خصومه عليه ورميهم اياه بملك القيان ومنادمة الاخوان والتحدث عن النعم . ويشير عدة مسائل فلسفية منها استثناء الحق عن الدليل لأنه مبین بنفسه ، والاستدلال على الباطن بالظاهر وعلى الجوهر بالعرض ، والتفريق بين الحجة والبرهان .
- (٤) القرار السببية في الطبيعة يجعل الجاحظ فيلسوفاً طبيعياً . وقد عرض هنا مفهومه الواسع للسببية ولعلاقة الكائنات بعضها ببعض .
- (٥) كل ما في العالم مسخر للإنسان . والانشى هي متاع الرجل إذ خلقت له ليسكن اليها لأنها جزء منه (يشير الجاحظ هنا الى قصة خلق حواء من آدم الواردة في القرآن) .
- (٦) الأصل هو الإباحة والشروع في غيرات الطبيعة ثم كان التحريم والتخصيص (او انه صفة

الخاصة) في الشرع وهذا ينطبق على المراعي كما ينطبق على النساء « وكل » شيء لم يوجد محرماً في كتاب الله تعالى وسنة رسول الله « مباح مطلق » . ان شيوخ النساء يذكروننا باللاطون وشيوخ الأرض والرزق يذكروننا بماركس .

(٧) يشير الجاحظ مسألة الحجاب ويسبق دهاة السفور بأكثر من ألف سنة . ويكفي أن نعلم كيف ألبرت هذه المسألة مجدداً في العالم العربي مع قاسم أمين وغيره في النصف الأول من القرن العشرين . ولا تزال ، لنذكر مدى تحرر الجاحظ .

(٨) يربط الجاحظ طواف النساء بالبيت في موسم الحج مكشفات الوجوه بخبر ضباة بنت هاجر زوجة عبد الله بن جدعان ثم زوجة هشام بن عبد الملك . وهو امر غريب حقاً .

(٩) عمر بن الخطاب المشهور بغيرته على النساء المبحر السفور ٢٢ .

(١٠) الحسن بن علي لم يجرم النظر الى النساء ومهادنتهن .

(١١) الخشوية ليست حل حق في تحريمها النظر الى النساء . والخشوية احدى فرق اهل السنة والجماعة .

(١٢) الشعبي لم يجرم النظر الى النساء .

(١٣) لإباحة معاوية واحتجاج الجاحظ بها لراهه بثران الدهشة لأن ابا عثمان كان يكره معاوية ويرميه بالضلال والفساد (انظر رسالة الثابتة) .

(١٤) اخبار عبد الملك بن مروان والجاحظ والفرزدق وجريرو والاختل دليل على ثقافة الجاحظ الأدبية الواسعة .

(١٥) خبر المأمون وسكر الجارية يبين مكانة الجوارى في المجتمع العباسي وتصور الخلفاء وطريقة عتقهن .

(١٦) التماذي في الغيرة على المرأة والافراط له يؤدي الى سوء الخلق وضيق الفطنة . فأية لظنة ومنطق في السماح للمرأة المغنية بالبروز للرجال وتحريم ذلك على غيرها .

(١٧) وانعدام المنطق يتضح ايضاً في استباح الناس للمرأة الحرة اذا انتقلت الى اكثر من زوج بينما لا يرون الأمر قبيحاً اذا صدر عن الأمة على الرغم من ان الاماء اصبحن امهات الاولاد والملوك .

(١٨) الغناء من علوم الفلسفة والادب . واخبار القيان التي يسردها الجاحظ تدل على منزلة الموسيقى وتأثيرها . لنلاحظ هنا اطلاع الجاحظ على علوم الفرس واليونان والعرب .

(١٩) الغناء مؤلف من شعر ونغم او هو الشعر المكسور نغماً . ولذا ينطبق على الغناء ما ينطبق على الشعر من احكام . واذا كان الشعر غير محرم فينبغي ان يكون الغناء غير محرم ايضاً .

(٢٠) الحجة التي تقول ان الفناء محرم لأنه يلهي عن ذكر الله ساقطة ، لأن كثيراً من الأعمال والاطعمة ، والجنان والجماع يلهي عن ذكر الله فلم لم محرم ٢ .-

(٢١) الحكم على جمال المرأة صعب ، وهو لا يقوم على شهادة العين ، ولا بد من اشتراك القلب والعقل أيضاً في ادراك الجمال ثم يتولى العقل اصدار الحكم . وهذه نظرية اصيلة في علم الجمال .

(٢٢) محمد الحسن بالتمام والاعتدال ذكرنا بتحديد ارسطو

(٢٣) النظر الى المرأة حلال اما ما سوى ذلك من مد الأيدي لحرام ، ويلحق بالنظر الحديث والمفاكحة والمغازلة والمصالحة للسلام . ويلحق بالأيدي اللمس : القبلة واللمس .

(٢٤) الاحكام تقع على ظواهر الأمور لا على بواطنها . هذا مبدأ خطير اذا اخذ به في مسائل الدين والاخلاق . وقد ضرب الجاحظ تطبيقاً له مثلين : الحكم على ايمان المرء وحسب نسيبه . فنحن نحكم في هاتين المسألتين على الظاهر لا على الباطن لاننا لا ندرى ما في قلب الانسان وما اذا كان من صلب والده ام لا . وحسب هذا الأساس لا ينبغي أن نحكم على سوء نية الرجل اذا ما رأيناه مجتمعاً بامرأة .

(٢٥) العشق داء لا يمكن دفعه بصيب الروح . ويؤثر به الجسم ويتركب من اربعة اشياء هي الحب والهوى والمشاكلة والالفة . الحب هو اول درجات العشق ، والهوى يحتل الدرجة التي تلي الحب ويتصف بعدم موافقة الحق احياناً ، ويكون الحب والهوى في الصديق والبلد واللباس والمقتنيات وغيرها . ولكي يصبح الحب والهوى عشقاً يلزم ان يضاف اليهما المشاكلة أي الجنس ، وهوى العشق يعدل بالالفة . ولكنه يضعف في حالتين الأولى طول العهد والثانية الظفر بالمشوق . والعشق يقوم على المناسبة بين الرجل والمرأة في الخلق أو الخلق أو الطبع . ونلاحظ مهارة الجاحظ في التحليل النفسي لعاطفة العشق .

(٢٦) اللذات التي توفرها القينة ثلاث : لذة النظر الى جمالها ولذة سماع غنائها ولذة الجنس .

(٢٧) القينة لا تخلص في حبها ، وتمارس الوان الخداع لاستمالة الرجل اليها واصطفاه وقد برع الجاحظ في وصف تصرفاتها لبلوغ غايتها تلك .

(٢٨) الاسباب التي تؤدي الى فساد اخلاق القيان او عدم هفتن هي التربية السيئة في الصغر ، نشأتهن بين الخلفاء وحفظهن آلاف الاشعار في الزنا والصبوة الخ .

(٢٩) أوضاع القينين الممتازة في عصر الجاحظ يحاول أن يصفها ويحللها . انهم يبيعون القيان بالائتمان المربحة (١٢٠ الف دينار للواحدة) وهم من اصحاب الجاه يقصدتهم الناس لقطبها حاجاتهم وينزلون اليهم ويقدمون لهم الهدايا الخ . .



[١ - الحب والنواحه]

قال أبو عثمان :

إنما لما ذكرنا في كتابنا هذا الحب الذي هو أصل الهوى ، والهوى الذي يتفرع منه العشق ، والعشق الذي يبيم له الانسان هل وجهه أو يموت كمداً الى فراشه ، وأول ذلك إدخال الضيم على مروءته واستشعار الدلة لمن أطاف بمشيقته ، ولم نطنب مع ذلك في ذكر ما يتشعب من أصل الحب من الرحمة والبرقة وحب الأموال النفيسة والمراتب الرفيعة وحب الرعية للأئمة وحب المصطنع لصاحب الصنيعة مع اختلاف مواقع ذلك من النفوس ومع تفاوت طبقاته في العواقب ، احتجنا الى الاعتذار من ذكر العشق المعروف بالصباية والمخالفة على قوة العزيمة ، ليجعل ذلك القدر جنة دون من حاول العطن على هذا الكتاب وسخف الرأي الذي دعا الى تأليفه والاشادة بذكره ، إذ كانت الدنيا لا تنفك من حاسد باغ ، ومن قائل متكلف ومن سامع طاعن ، ومن منافس مقصر ، كما أنها لا تنفك من ذوي سلامة متسلم ومن عالم متعلم ، ومن عظيم الخطر حسن المحضر شديد المحاماة عن حقوق الأدباء قليل التسرع الى أعراض العلماء . وإنما العشق إسم لما فضل عن المقدار الذي اسمه حب ، وليس كل حب يسمى عشقاً . وإنما العشق إسم للفاضل عن ذلك المقدار كما ان السرف اسم لما زاد على المقدار الذي يسمى جوداً والبخل إسم لما ينقص عن المقدار الذي يسمى اقتصاداً ، والجبن إسم لما قصر عن المقدار الذي يسمى

شجاعة .

وهذا القول ظاهر على السنة الأدباء مستعمل في بيان الحكماء وقد قال عمرو ابن الزبير : والله إني لأعشق الشرف كما تعشق المرأة الحسناء . وذكر به عن الناس رجلاً كان مدفوعاً محروماً ومنحوس الحظ ممنوعاً فقال : ما رأيت أحداً عشق الرزق عشقه ولا أبغضه الرزق بغضه . فذكر الأول عشق الشرف وليس الشرف بامرأة ، وذكر الآخر عشق الرزق والرزق اسم جامع لجميع الحاجات . وقد يستعمل الناس كناية وربما وضعوا الكلمة بدل الكلمة يريدون ان يظهروا المعنى بالبين اللفظ إما تنويهاً وإما تفصيلاً ، كما سمو المعزول عن ولايته مصروفاً ، والمنهزم عن عدوه منحازاً ، نعم حتى سمي بعضهم البخيل مقتصداً ومصلحاً ، وسمى عامل الخراج المتعدي بحق السلطان مستقصياً .

[٢] - المرأة أهم موضوعات الحب

ولما رأينا الحب من أكبر أسباب جماع الخير ورأينا البغض من أكبر أسباب الشر ، اجتنبنا ان نذكر أبواب السبب الجالب للخير ليفرق بينه وبين أبواب السبب الجالب للشر ، حتى نذكر أصولها وعللها الداعية إليهما والموجة لكونها . فتأملنا شأن الدنيا فوجدنا أكبر نعيمها وأكمل لذاتها ظفر المحب بحبيبه والعاشق بطليبه ، ووجدنا شقوة الطالب المكدي وغمه في وزن سمادة الطالب المنجح وسروره ، ووجدنا العشق كلما كان أرسخ وصاحبه به أكلف كان موقع لذة الظفر منه أرسخ وسروره بذلك أبهج .

فان زعم زاعم أن موقع لذة الظفر بالعدو المرصد أحسن من موقع لذة الظفر من العاشق الهائم بعشيقته ! قلنا : إنا قد رأينا الكرام والحلماء وأهل السؤدد والعظماء ربما جادوا بفضلهم من لذة شفاء الفيظ ويعدون ذلك زيادة من نبل النفس وبعد الهمة وعلو القدر ، ويجودون بالنفيس من الصامت والناطق وبالشمين من العروض ، وربما خرج من جميع

ماله وأثر طيب الذكر على الغني واليسر ، ولم نر نفس العاشق تسخو بمشوقه ولا يهود لشقيق نفسه ولا لوالد ولا لولد بار ولا لذي نعمة سابقة بخاف سلبها وصرف إحسانه عنه بسببها ، ولم نر الرجال يهبون للرجال إلا مالا بال له في جنب ما يهبون للنساء ، حتى كان العطر والصبغ والخضاب والكحل والتف والقص والتحذيف والحلق ونحوه الثياب وتنظيفها والقيام عليها وتعهدتها مما لم يتكلفوه إلا هن ، ولم يتقدموا فيه إلا من أجلهن ، وحتى كأن الحيطان الرفيعة والأبواب الوثيقة والستور الكثيفة والخصيان والظؤورة والحشوة والحواضن لم تتخذ إلا للهن والاحتفاظ بما يجب من حفظ النعمة فيهن .

فصل منه: وباب آخر وهو أنا لم نجد أحداً من الناس عشق والديه لا ولده، ولا من عشق مراكبه ومنزله، كما رأيناهم يموتون من عشق النساء الحرام. قال الله تعالى: ﴿ هُوَ زِينٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ﴾ فقد دل تبارك وتعالى على جملة أصناف ما خوهم من كرامته ومن عليهم من نعمته ، ولم نر الناس وجدوا بشيء من هذه الأصناف وجدهم بالنساء ، ولقد قدم ذكرهن في هذه الآية على قدر تقدمهن في قلوبهم .

[٣ - المرأة احب من الغناء]

فان قال قائل : فقد نجد الرجل الحليم والشيخ الركين يسمع الصوت المطرب من المغني المصيب فينقله ذلك إلى طبع الصبيان وإلى أعمال المجانين فيشق جيبه وينقض حبوته ويفدي غيره ويرقص كما يرقص الحدث الغرير والشاب السفيه ، ولم نجد أحداً فعل ذلك عند رؤية معشوقه ؟

قلنا : أما واحدة فإنه لم يكن ليدع التشاغل بشمها وبرشفتها وباحتضانها وتقبيل قدميها والمواضع التي وطئت عليها ويتشاغل بالرقص المبين لها والصراخ الشاغل عنها . فأما حل الحبوة والصراخ عند رؤية الحبيبة فإن هذا ما لا يحتاج إلى

ذكره ، لوجوده وكثرة استعمالهم له ، فكيف وهو إن خلا بمعشوقه لا يظن أن لذة الغناء تشغله بمقدار العشر من لذته ، بل ربما لم يخطر له ذلك الغناء على بال . وعلى أن ذلك الطرب مجتاز غير لابت وظاعن غير مقيم ، ولذة المتعاشقين راكدة أبداً ومقيمة غير ظاعنة . وعلى أن الغناء الحسن من الوجه الحسن والبدن الحسن أحسن ، والغناء الشهي من الوجه الشهي والبدن الشهي اشهى ، وكذلك الصوت الناعم الرخيم من الجارية الناعمة الرخيمة . وكم بين أن تفدي إذا شاع فيك الطرب مملوكك وبين أن تفدي أمتك ؟ وكم بين أن تسمع الغناء من فم تشتهي أن تقبله وبين أن تسمعه من فم تشتهي أن تصرف وجهك عنه ! وعلى أن الرجال دخلاء على النساء في الغناء ، كما رأينا رجالاً ينوحون فصاروا دخلاء على النوائح . وبعد ، فأما أحسن وأملح وأشهى وأغنج ! أن يغنيك فحل ملتف اللحية كثر العارضين أو شيخ متخلع الأسنان مغضن الوجه ثم يغنيك إذا هو تغنى بشعر ورقاء بن زهير :

رأيت زهيراً تحت كل كل خالداً فاقبلت أسمى كالعجول أبادر
 أم تغنيك جارية كأنها ياقبة نرجس أو كأنها ياسمينه أو كأنها خرطت
 من باقوته أو من فضة مجلوة بشعر هكاشة بن محسن :

من كف جارية كأن بناها من فضة قد طرقت هنا
 وكان بناها إذا نطقت به ألت على يدها الشمال حسابا

فصل منه : فأما الغناء المطرب في الشعر الغزل فلإنما ذلك من حقوق النساء وإنما ينبغي أن تغني بأشعار الغزل والتشبيب والعشق والصبابة بالنساء اللواتي فيهن نطقت تلك الأشعار وبين شيب الرجال ومن أجلهن تكلفوا القول في التشبيب . وبعد فكل شيء وطبقه وشكله ولفقه حتى تخرج الأمور موزونة معتدلة ومتساوية مخلصه . ولو أن رجلاً من أدمت الناس وأشدهم تخليصاً لكلامه ومحاسنه لنفسه ثم جلس مع امرأة لا تزن بمنطق ولا تعرف بحسن حديث ثم كان يعشقها بما كان الناتج بينهما من الأحاديث والمتلاحح بينهما من المعاني والألفاظ إلا ما كان يجري بين دغفل بن حنظلة

ويبين ابن لسان الحمرة ، وإنما هذا على قدر تمكن الغزل في الرجل .

[٤ - فضل المرأة على الرجل]

فصل منه : والمرأة أيضاً أرفع حالاً من الرجل في أمور ، منها : أنها التي تخطب وتراد وتمشق وتطلب ، وهي التي تفدى وتحمى . قال عنبسة بن سعيد للحجاج بن يوسف : أبغدي الأمير أهله ؟ قال : والله إن تعدوني إلا شيطاناً والله لربما رأيتني أقبل رجل إحداهن .

[٥ - حب السلطان]

فصل منه : وإنما يملك المولى من عبده بدنه ، فأما قلبه فليس له عليه سلطان . والسلطان نفسه وإن ملك رقاب الأمة فالتناس يختلفون في جهة الطاعة فمنهم من يطيع بالرغبة ، ومنهم من يطيع بالرهبة ، ومنهم من يطيع بالمحبة ، ومنهم من يطيع بالديانة . وهذه الأصناف وإن كان أفضلها طاعة الديانة فإن تلك المحبة ما لم يمازجها هوى لم يقو صاحبها على قوة العشق . وفي الأثر المستفيض والمثل السائر : إن كان الهوى يعمي ويصم . فالعشق يقتل .

[٦ - حب الزوجة]

فصل منه : وما يستدل به على تعظيم شأن النساء أن الرجل يستحلف بالله الذي لا شيء أعظم منه وبالمشي إلى بيت الله وبصدقة ماله وعتق رقيقه فيسهل عليه ولا يأنف منه ، فإن استحلف بطلاق امرأته تبرد وجهه وطار الغضب في دماغه ويمنع ويعصي ويغضب وبأى وإن كان المحلف سلطاناً مهيباً وإن لم يكن يجبهها ولا يستكثر منها وكانت نفسها نبيحة المنظر دقيقة الحسب خفيفة الصداق قليلة النشب ، وليس ذلك إلا لما قد عظم الله تعالى من شأن الزوجات في صدور الأزواج .

[٧ - حب الولد]

فصل منه في ذكر الولد : وباب آخر وهو أنا لو خيرنا رجلاً بين الغنى أيام

حياته ، وبين أن يكون ممتعا بالبهاء أيام حياته ، لاختار الفقر الدائم مع التمتع الدائم . وليس شيء مما يحدث الله لعباده من أصناف نعمه وضروب فوائده أبقى ذكرا ولا أجل خطراً من أن يكون للرجل ابن يكون ولي بناته وسائر صورة حرمه وقاضي دينه ومحبي ذكره ، مخلصاً في الدعاء له بعد موته وقائماً بعده في كل ما خلفه مقام نفسه ، فمن أقل أسفا على ما فارق ممن خلف كافيا مجربا وحائطا من وراء المال موفورا ومن وراء الحزم حاميا ولسلفه في الناس محييا . وقال رجل لعبد الملك بن مروان وذكر ولدأ له : أراك الله في بنيك ما أرى أباك فيك ، وأرى بنيك فيك ما أراك في أبيك . ونظر شيخ وهو عند المهلب إلى بنيه قد أقبلوا فقال : أنس الله بكم الاسلام فوالله إن لم تكونوا أسباط نبوة إنكم لاسباط ملحمة . وليست النعمة في الولد المحيي والخلف الكافي بصغيرة .

فصل منه : وباب آخر ، وهو أن الله تعالى خلق من المرأة ولدا من غير ذكر ولم يخلق من الرجل ولداً من غير أنثى ، فانحصر بالآية العجيبة والبرهان المنير المرأة دون الرجل ، كما خلق المسيح في بطن مريم من غير ذكر .

مركز تحقيقات كميونير علوم إسلامي

[٨ - حب القرابة]

فصل منه في ذكر القرابات : وأما أنا فإني أقول : إن تباغض الأقرباء عارض دخيل ونحائبهم واحد أصيل ، والسلامة من ذلك أعم والتناصر أظهر والتصديق في المودة أكثر ، فلذلك القبيلة تنزل معاً وترحل معاً وتحارب من ناوأها معاً ، إلا الشاذ النادر ، كخروج غني وباهلة من هظفان ، وكنزول عبس في بني عامر . وما أشبه ذلك . وإلا فإن القرابة يد واحدة على من ناوأهم وسيف واحد على من عاداهم ، وما صلاح شأن العشائر إلا بتقارب ساداتهم في القدر وإن تفاوتوا في الرياسة والفضل ، كما قال في الأثر المستفيض : لا يزال الناس بخير ما تفاوتوا فإذا تقاربوا هلكوا . وحال العامة في ذلك كحال الخاصة .

[٩ - الحاجة الطبيعية الى الرئيس]

فصل منه : وقضية واجبة إن الناس لا يصلحهم إلا رئيس واحد يجمع شملهم ويكفيهم ويحميهم من عدوهم ويمنع قلوبهم عن ضعيفهم ، وقليل لهم نظام أقوى من كثير لا نظام لهم ولا رئيس عليهم ، إذ قد علم الله سبحانه وتعالى أن صلاح عامة البهائم في أن يجعل لكل جنس منها فحلاً يوردها الماء ويصيدها وتتبعه إلى الكلا ، كالعير في العانة والفحل في الأبل والمجمة ، وكذلك النحل العسالة والكرامي ، وما يجمي الحجور في المروج إلا الحصان ، فجعل منها رؤساء متبوعة وأذنانا تابعة ، ولو لم يقم الله للناس التوزعة من السلطان والحماة من الملوك وأهل الحيطة عليهم من الأئمة لعادوا نشراً لا نظام لهم ومستكبين لا زاجر لهم ، ولكان من هزبوا من قدر قهرهم ، ولما زال الشر راكداً والمهرج ظاهراً حتى يكون التغابن والبوار ، وحتى تنطمس منهم الآثار ، ولكانت الأنعام طعاماً للسباع وكانت عاجزة عن حماية أنفسها جاهله بكثير من مصالح شأنها ، فوصل الله تعالى عجزها بقوة من أحوجها إلى الاستمتاع بها ووصل جهلها بمعرفة من عرف كيف وجه الحيلة في صونها والدفاع عنها . وكذلك فرض على الأئمة أن يحوطوها بالحراسة لها والذبياد عنها ويرد قلوبها عن ضعيفها وجاهلها عن عالمها وظالمها عن مظلومها وسفيعها عن حلِيمها ، فلولا السائس ضاع المسوس ولولا قوة الراعي هلكت الرعية .

فصل منه : وانفراد السيد بالسيادة كانفراد الإمام بالامامة ، وبالسلمة من تنازع الرؤساء تجتمع الكلمة وتكون الألفة ويصلح شأن الجماعة ، وإذا كانت الجماعة انتهت الأعداء وانقطعت الأهواء .

[١٠ - المساواة بين الرجل والمرأة]

فصل منه : ولسنا نقول ولا يقول أحد ممن يعقل أن النساء فوق الرجال أو دونهم بطبقة أو طبقتين أو بأكثر ، ولكننا رأينا ناساً يزرون عليهن أشد الزرابة ويحتقروهن أشد الاحتقار ويبخسونهن أكثر حقوقهن ، وإن من المعجز أن يكون الرجل لا يستطيع توفير حقوق الآباء والاعمام إلا بأن ينكر حقوق الامهات

والأحوال ، فلذلك ذكرنا جملة ما للنساء من المحاسن ، ولولا أن ناساً يفخرون بالجلد وقوة المنة وانصراف النفس عن حب النساء حتى جعلوا شدة حب الرجل لأمته وزوجته وولده دليلاً على الضعف وباباً من الخور لما تكلفنا كثيراً مما شرطناه في هذا الكتاب .

[١١ - درجات العشق ودوامه]

فصل منه في ذكر العشق : ورجلان من الناس لا يعشقان عشق الأعراب : أحدهما الفقير المدقع فإن قلبه يشغل عن التوغل فيه وبلوغ أقصاه ، والملك الضخم الشأن لأن في الرياسة الكبرى وفي جواز الأمر والنهي وفي ملك رقاب الأمم ما يشغل شطر قوي العقل عن التوغل في الحب والاحترق في العشق

فصل منه : كثيراً ما يعتري العشق المحبين غير المحترفين كالرجل تكون له جارية وقد حلت من قلبه محلاً وتمكنت منه تمكناً ولا يبحث أصل ذلك الحب الغضبية تعرض وكثرة التأذي بالخلاف يكون منها فيجد الفترة عنها لبعض هذه الحالات التي تعرض فيظن أنه قد سلا أو يظن أنه في عزائه عنها على فقدتها محتملاً بيها إن كانت أمة أو طلاقها إن كانت زوجة ، فلا ينشب ذلك الغضب أن يزول وذلك الأذى أن ينسى ، فتتحرك له الدفائن ويشمر ذلك الغرس فيتبعها قلبه ، فإما أن يسترجع الأمة من مبتاعها بأضعاف ثمنها أو يسترجع الزوجة بعد أن نكحت ، فإن تصبر وأمكنه الصبر لم يزل معذباً ، وإن أطاع هواه واحتمل المكروه فهذا هو العقاب والنكس . فليحذر الحازم الفترة يجدها في حب حبيبه والغضبية التي تنسيه عواقب أمره .

فصل منه : قال إبراهيم بن السندي : حدثني عبد الملك بن صالح قال : بينما عيسى بن موسى قد خلا بنفسه ، وهو قد كان استكثر من النساء حتى انقطع إذمرت به جارية كأنها جان وكأنها جدل عنان وكأنها جارية وكأنها قضيب فضة ، فتحركات نفسه وخاف أن تحذله قوته ثم طمع في القوة لطول الترك واجتماع الماء فلما صرعها وجلس منها ذلك المجلس خطر على باله : لو عجز كيف يكون حاله ؟ فلما فكر

فتر ، فأقبل كالمخاطب لنفسه فقال : إنك لتجلسيني هذا المجلس وتحمليني على هذا المركب ثم تحذليني هذا الخدلان وتغشيبي مثل هذا الذل ا ولولا حيرة الخجل لاستعمل ما يقتل ، وذلك أنه حين رأى ان أبلغ الخجل في توهيمها أن العجز لم يكن من قبله أن يقول لها : تعرضين لي وأنت تفلت ثم لا تروجين بأدبك ولا تستهدفين لسيدك ولا تعينين على نفسك حتى كأنك عند عبد يشبهك أو سوقة لا يقدر إلا على مثلك ، أما لو كنت من بنات ملوك العجم لالفاك سيدك على أجود صنعة وعلى أحسن طاعة ، إذ كل رجل ينسبط للتمتع مع التفل .

فصل منه : ولم أسمع ولم أقرأ في الأحاديث المولدة في شأن العشاق وما صنع العشق في القلوب والأكباد والأحشاء والزفرات والحنين وفي التدليه والتوليه ، ومتى تسعد الدمعة ومتى يعترى العين الجمود .

[١٢ - فضل الرجل على المرأة]

فصل منه : ونحن وإن رأينا أن فضل الرجل على المرأة في جملة القول في الرجال والنساء أكثر وأظهر فليس ينبغي لنا أن نقصر في حقوق المرأة ، وليس ينبغي لمن عظم حقوق الآباء أن يصغر حقوق الأمهات ، وكذلك الأخوة والأخوات والبنون والبنات ، وأنا وإن كنت أرى أن حق هذا أعظم فإن هذه أرحم .

[١٣ - الاماء احب من الحرائر]

فصل من احتجاجه للإماء : قال بعض من احتج لليلة التي من أجلها صار أكثر الإماء أحظى عند الرجال من أكثر المهيبرات أن الرجل قبل أن يملك الأمة قد تأمل كل شيء منها وعرفه ما خلا حظوة الخلوة ، فأقدم على ابتياعها بعد وقوعها بالموافقة ، والحررة إنما يستشار في جمالها النساء ، والنساء لا يبصرن من جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهم قليلا ولا كثيراً ، والرجال بالنساء أبصر ، وإنما تعرف المرأة من المرأة ظاهر الصفة ، وأما الخصائص التي تقع بموافقة الرجال فإنها لا تعرف ذلك ، وقد تحسن المرأة أن تقول كأن أنفها السيف وكأن عيناها عين غزال وكان

عنقها ابريق فضة وكان ساقها جمارة وكان شعرها العناقيد وكان أطرافها المداري ،
وما أشبه ذلك . وهناك أسباب أخر بها يكون الحب والبغض .

[١٤ - صفات المرأة الجميلة]

فصل منه : وقد علم الشاعر وعرف الواصف أن الجارية الفاتحة الحسن
أحسن من الظبية وأحسن من البقرة وأحسن من كل شيء تشبه به ، ولكنهم إذا
أرادوا القول شبهوها بأحسن ما يجدون ، ويقول بعضهم : كأنها الشمس وكأنها
القمر والشمس وإن كانت هببة فلئما هي شيء واحد ، وفي وجه الجارية الحسناء
وخلقها ضروب من الحسن الغريب والتركيب العجيب ، ومن يشك أن عين المرأة
الحسنة أحسن من عين البقرة، وأن جيدها أحسن من جيد الظبية ، والأمر فيها بينهما
متفاوت ، ولكنهم لو لم يفعلوا هذا وشبهه لم تظهر بلاغتهم وفطنتهم .

فصل منه : ورأيت أكثر الناس من البصراء بجواهر النساء الذين هم جهابذة
هذا الأمر يقدمون المجدولة . والمجدولة من النساء تكون في منزلة بين السمينة
والممشوقة ، ولا بد من جودة القدم وحسن الخطر واعتدال المنكبين واستواء الظهر ،
ولا بد من أن تكون كاسية العظام بين الممتلئة والقضيصة ، وإنما يريدون بقولهم
مجدولة : جودة العصب وقلة الاسترخاء وأن تكون سليمة من الزوائد والفضول .
ولذلك قالوا : خصانة وسيفانة وكأنها جان وكأنها جدل عنان وكأنها قضيب
خيزران . والثني في مشيها أحسن ما فيها ، ولا يمكن ذلك الضخمة والسمينة
وذاات الفضول والزوائد ، على أن النحافة في المجدولة أعم ، وهي بهذا المعنى
أعرف ، وهي بهذا المعنى تحب على السمان الضخام وعلى المشقوقات والقضاف ،
كما تحب هذه الأصناف على المجدولات . وقد وصفوا المجدولة بالكلام المنشور
فقالوا : اعلاها قضيب وأسفلها كتيب .

[١٥ - عيوب الكتاب]

فصل منه : كنا نحب أن يخرج هذا الكتاب تاماً ويكون للاشكال الداخلة فيه

جامعا ، وهو القول فيها للذكور والإناث في هامة أصناف الحيوان وما أمكن من ذلك حتى يحصل ما لكل جنس من الخصال المحسوسة والمذمومة ، ثم يجمع بين المحاسن منها والمساويء حتى يستبين لقاريء الكتاب نقصان المقبول من رجحان الفاضل بما جاء في ذلك من الكتاب الناطق والخبر الصادق والشاهد العدل والمثل السائر ، حتى يكون الكتاب هريبا أعرابيا وسنياً جامعياً ، وحتى يجتنب فيه العويص والطرق المتوعرة والألفاظ المستنكرة وتلزيق المتكلمين وتلفيق أصحاب الأهواء من المتكلمين وحتى ينظر من لا يعلم مقادير ما استخزنها الله من المنافع وخشاها من البراهين وألزمها من الدلالة عليه وأنطقها به من الحججة له فممنع من ذلك فرط الكبرية وإفراط العلة وضعف المنة وانحلال القوة ، فلما وافق هذا الكتاب منا هذه الحال وألقى قلوبنا على هذه الأشغال ، اجتنبنا أن نقصد من جميع ذلك الى فرق ما بين الرجل والمرأة ، فلما اهتمنا على ما ابتدأنا به وجدناه قد اشتمل على أبواب يكثر حدها وتبعد غايتها ، فرأينا والله الموفق ان نقتصر منه على ما لا يبلغ بالمستمع الى السامة وبالمألوف الى مجاوزة القدر . وليس ينبغي لكتب الآداب والرياضات أن يحمل أصحابها على الجد الصرف وعلى العقل المحض وعلى الحق المر وعلى المعاني الصعبة التي تستكد النفوس وتستفرغ المجهود ، وللصبر غاية وللإحتمال نهاية ، ولا بأس بأن يكون الكتاب موشحاً ببعض الهزل . على أن الكتاب إذا كثر هزله سخط كما أنه إذا كثر جدده ثقل ، ولا بد للكتاب من أن يكون فيه بعض ما ينشط القاريء وينفي النعاس عن المستمع . فمن وجد في كتابنا هذا بعض ما ذكرنا فليعلم أن قصدنا في ذلك إنما كان على جهة الاستدعاء لقلبه والاستمالة لسمعه وبصره . والله تعالى نسأل التوفيق .

- (١) موضوع الكتاب هو الحب ودرجاته وانواعه ولا سيما حب النساء . وقد تقيد الجاحظ بهذا الموضوع فتكلم على حب النساء القوي المسمى عشقاً كما تكلم على حب الاقرباء ، وحب الزوجة والولد، وحب السلطان، من الرحمة، ويبدو مشوجساً من النقد الذي يتظره بسبب معالجته العشق فيبادر الى القول ان مثل هذا النقد لن يصدر الا عن حاسد باغ وقائل متكلف وسامع طاعن ومنافس مقصر . ويحدد العشق محديداً موجزاً بقوله إنه اسم لما فضل عن المقدر الذي اسمه حب وليس كل حب يسمى عشقاً . وقد حدد الجاحظ العشق في كتاب القيان بصورة أوسع وأدق .
- (٢) المرأة اهم موضوعات الحب لأنها توفر للرجل اكبر قسط من اللذة . فلذة الظهر بالمدى مثلاً ليست باحسن من لذة الظهر بالمحسوب . وحب الآباء للاولاد او الوالدين لا يميم الرجل كحب المرأة الخ . . . وما بلغت الانتباه ذكر الجاحظ لاساليب التجميل التي عرفتھا المرأة في عصره وهي : العطر والصبغ والحضاب والكحل والتضاربفص والتحذيف والحلق وتجهيد الثياب وتنظيفها . . ثم ذكر الوسائل المستعملة للمحافظة على المرأة وخدمتها : الحيطان الربيعية والابواب الوثيفة والستور الكثيفة والحضبان ، والظفورة والحشوة والحواضن .
- (٣) المرأة والغناء ما تناول الشعر الغزلي ، والرجال دخلاء هل النساء في الغناء يعني أن المرأة اقدر على الغناء من الرجل واكثر موافقة له .
- (٤) من الامور التي تكون فيها المرأة ارفع من الرجل انها تخطب وتراد وتعشق وتطلب وتفسدى ومحسى . يعني ان الرجل هو الذي يخطبها ويطلب يدها ويقديها ويحميها .
- (٥) من انواع الحب حب الرحمة للامام او السلطان . والجاحظ لا ينسى الاسباب الاخرى التي تحمل الرحمة على طاعة السلطان وهي الرهبة والرغبة والرهبة والديانة . ولكنه يفضل عليها المحبة . وهي نظرة صحيحة تستحق الانتباه والتنويه .
- (٦) من انواع الحب : الحب المتبادل بين الرجل الزوج وزوجته . وهذا الحب هو الذي يحمل

الرجل على عدم الاقدام على طلاق زوجته او التخلي عنها .

(٧) من الوان الحب حب الولد : فمن اكبر النعم على الرجل ان يرزق ولدأ يقضي دينه ويحيي ذكوره ويقوم بعده في كل ما خلفه مقام نفسه . وهو حب قوي يستولي على النفس .

(٨) ويذكر الجاحظ لونا آخر من الحب هو الذي يقوم بين الاقرباء . وهو حب اصيل وطيد ، وعليه يبنى النظام القبلي . إن رأي الجاحظ هذا هام جداً من الوجهتين الاجتماعية والسياسية .

(٩) الكلام على الرئيس يبدو خارجاً عن الموضوع ، ولكنه قد يكون استطراداً للكلام على حب الاقرباء . إن السبب الذي يجر القبائل الى النزاع والاحقاد هو اختلاف ساداتها وتعدد هم ومن ثم مست الحاجة الى رئيس واحد يجمع الشمل ويكفي الرعية ويحميها من عدوها ويمنع قوتهم عن ضمهم . وضرورة وجود الرئيس سنة طبيعية فصلاح عامة البهائم ان يكون لها فحل يوردها الماء ويصدرها وتتبعه الى الكلا كالعير في العانة والفحل في الابل والنحل والكراكي الخ . . وينبغي الملاحظة كيف يرجع الجاحظ كل شيء الى المبدأ الطبيعي الذي انطلق منه في جميع آرائه الفلسفية . وقد عالج الجاحظ مسألة الامام او الرئيس والضرورة الطبيعية لاقامته في كتاب استحقاق الامامة .

(١٠) ليست المرأة ارفع من الرجل ولا الرجل ارفع من المرأة ، إيهما متساويان . هذه خلاصة رأي الجاحظ . وكل من يزرى على المرأة او يخنقها او يهينها حقها يرتكب خطأ فادحاً .

(١١) عودة الى العشق ودوافعه . اثنان يكون عشقهما ضعيفاً هما الفقير والمملك لانها يكونان مشغولين عن المرأة الأولى بالركض وراء الرزق ، والاخر بشؤون الحكم . واذا تمكّن العشق من قلب احدهم فلن يزول ابداً . وكان ينبغي ان يوضع هذا الفصل بعد الفصل الأول لأنه تنمة له . وهذا ما يدفعنا الى القول ان أقسام الكتاب . تقدم لها واخر هل خلاف الأصل .

(١٢) يشير الجاحظ الى كلام له على تفضيل الرجل على المرأة ، ولكن هذا الكلام غير مثبت في هذا الكتاب ويبدو انه سقط .

(١٣) يعود الجاحظ الى موضوع جمال المرأة الذي طرقة في رسالة القهتان . أن هذا الجمال يصعب تحديده لما ينطوي عليه خلفها من الحس الغريب والتركيب العجيب . والرجال ادري بجمال المرأة من النساء .

(١٤) يقدم الجاحظ مثالا للمرأة الجميلة التي يدعوها المجدولة . والمجدولة هي المرأة المعتدلة الجسم والتي ليست سمينة ولا محشوفة مع اعتدال المنكبين واستواء الظهر الخ . . . وهذا

تطبيقاً للتحديد العام الذي اعطاه للجمال بانه التمام والاعتدال .
(١٥) في الختام يذكر الجاحظ حسنات الكتاب ومساوئه . ويمتدح من المساويء او التخصير
بالمرض الذي يعان منه ، وضعف قواه في سن الشيخوخة . وهذا دليل على انه الف الكتاب في
الشيخوخة .



مركز بحوث كميبيوتر علوم إسدري



بالله نستعين وعليه نتوكل وما توفيقنا إلا بالله .

[١ - رأي بشر بن المعتمر : المعرفة إرادة]

اختلف الناس في المعرفة اختلافاً شديداً ، وتباينوا فيها تبايناً مفرطاً ، فزعم قوم أن المعارف كلها فعل الفاعلين ، إلا معرفة لم يتقدمها سبب منهم ولم توجبها علة من أفعالهم ، ولم يرجعوا إلى معرفة الله ورسوله والعلم بشرائعه ولا إلى كل ما فيه الاختلاف والمنازعة وما لا تعرف حقائقه إلا بالتفكر والمناظرة دون درك الحواس الخمس ، فزعموا أن ذلك أجمع فعلهم على الأسباب الموجبة والعلل المتقدمة ، وجعلوا مع ذلك سبيل المعرفة بصدق الأخبار كالعلم بالأمصار النائية والأيام الماضية كبدر وأحد والخنق وغير ذلك من الوقائع والأيام ، وكالعلم بفرغانة والأندلس والصين والحبشة ، وغير ذلك من القرى والأمصار ، سبيل الاكتساب والاختيار ، إذ كانوا هم الذين نظروا حتى عرفوا فصل ما بين المجيء الذي لا يكذب [فيه] مثله والمجيء الذي يمكن الكذب في مثله ، فزعموا أن جميع المعارف سبيلها سبيل واحد ووجوه دلائلها وعللها متساوية ، إلا ما وجدت الحواس بقتة وورد على النفوس في حال عجز أو غفلة ، فكان هو القاهر للحاسة والمستولي على القوة ، من غير أن يكون من البصر فتح ومن السمع إصغاء ومن الأنف شم ومن الفم ذوق ومن البشرة مس ، فإن ذلك الوجود فعل الله دون الإنسان على ما طبع عليه البشر وركب عليه

الخلق .

[٢ - جميع العلوم من فعل الانسان وكسبه]

قالوا : فإذا كان درك الحواس الخمس ، إذا تقدمته الأسباب وأوجبتة العلة ، فعل المتقدم فيه والموجب له ، ودرك الحواس أصل المعرفة وهو المستشهد على الغالب والدليل على الخفي ، وبعد صحته تصح المعارف وبعد فساده تفسد ، فالذي تستخرجه الأذهان منه وتستشهد عليه كعلم التوحيد والتعميد والتجوير وغامض التأويل وكل ما أظهرته العقول بالبحث وأدركته النفوس بالفكر من كل علم وصناعة ، كالحساب والهندسة والصبغة والفلاحة ، أجدر أن يكون فعله والمنسوب الى كسبه .

[٣ - المعرفة الحسية من فعل الانسان وإرادته]

قالوا : فالدليل على [أن] درك الحواس فعل الإنسان على ما وصفنا واشتراط [نا] من إيجاب الأسباب وتقدم العلة أن الفاتح بصره لو لم يفتح لم

يدرك ، فلما كان البصر قد يوجد مع عدم الإدراك ولا بعدم الإدراك مع وجود الفتح ، كان ذلك دليلاً على أن الإدراك إنما كان لعللة الفتح ولم يكن لعللة البصر ، لأنه لو كان لعللة صحة البصر كانت الصحة لا توجد أبداً إلا والإدراك موجود ، فإذا كانت الصحة قد توجد مع عدم الإدراك ولا بعدم الإدراك مع وجود الفتح ، كان ذلك شاهداً على أنه إنما كان لعللة الفتح دون صحة البصر .

وقالوا : ولأن طبيعة البصر قد كانت غير عاملة حتى جعلها الفاتح بالفتح

حاملة ، ولأن الفتح علة الإدراك ومقدمة بين يديه وتوطئة له ، وليس الإدراك علة للفتح ولا مقدمة بين يديه ولا توطئة له ، فواجب أن يكون فعل الفاتح لأن السبب إذا كان موجبا فالمسبب تبع له .

[٤ - معرفة الله من فعل الانسان وليست اضطرارية]

... ثم قالوا بعد الفراغ من درك الحواس في معرفة الله ورسله وكل ما فيه الاختلاف والتنازع : إن ذلك أجمع لا يخلو من أحد أمرين : إما أن يكون يحدث من الإنسان لعله النظر المتقدم ، أو يكون يحدث على الابتداء لا عن علة موجبة وسبب متقدم ، فإن كانوا أحدثوه على الابتداء فلا فعل أولى بالاختيار ولا أهدى من الاضطرار منه ، وإن كان إنما كان لعله النظر المتقدم كما قد دللنا في صدر الكلام على أن درك الحواس لفعل الإنسان إذا تقدم منه سببه ، فالعلم بالله وكتبه ورسله أجدر أن يكون فعله ، إذ كان من أجل نظره علم ومن جهة بحثه أدرك ، فهذا جمل دلائل هؤلاء القوم ورئيسهم بشر بن المعتز .

ثم هم بعد ذلك مختلفون في درك الحواس إلا ما اعتمد إدراكه بعينه وقصد إليه بالفتح والارادة ، لأن الفتح نفسه لو لم يكن معه قصد وإرادة ما كان فعل الفاتح ، فكيف يجوز أن يكون الإدراك فعله من غير قصد ؟ ولو جاز أن يكون الفتح فعل الإنسان من غير أن يكون أراده وقصد إليه ، ما كان بين فعل الإنسان وبين فعل غيره فرق ، لأنه كان لا يجوز أن يكون ذهب الحجر إذا لم يدفعه ولم يقصد إليه ولم يخطر له على بال ، فعله ، فكذلك الإدراك إذا لم يخطر على باله ولم يقصد إليه ولم يتعمده ، لا يكون فعله .

[...] وليس على المخبر عن خصمه والواصف مذهب غيره أن يجعل باطلهم حقاً وفاسدهم صحيحاً ، ولكن عليه أن يقول بقدر ما تحتمله النحلة وتتسع له المقالة ، وعليه أن لا يحكي عن خصمه ويخبر عن مخالفه إلا وأدل منازله أن لا يعجز عما بلغوه ولا يعيا عما أدركوه .

[٥ - رأي النظام]

[...] وقد زعم آخرون أن المعارف ثمانية أجناس ، واحد منها اختيارٌ وسبعة منها اضطرار ، فخمسة منها درك الحواس الخمس ، ثم المعرفة بصدق الاخبار كالعلم بالقري والأمصار والسير والأثار ، ثم معرفة الإنسان اذا خاطبه صاحبه أنه موجه بكلامه إليه وقاصد به نحوه ، وأما الاختيار فكالعلم بالله ورسله وتأويل كتابه والمستنبط من علم الفتيا وأحكامه وكل ما كان فيه الاختلاف والمنازعة وكان سبيل علمه بالنظر والفكرة . ورئيس هؤلاء أبو اسحق .

[٦ - رأي معمر]

وزعم معمر أن العلم عشرة أجناس ، خمسة منها درك الحواس ، والعلم السادس كالسير الماضية والبلدان النائية ، والسابع علمك بقصد المخاطب إليك وإرادته إليك عند المحاوراة والمنازعة ، وقبل ذلك وجود الإنسان لنفسه ، وكان يجعله أول العلوم ويقدمه على درك الحواس وكان يقول : « ينبغي أن يقدم وجود الانسان لنفسه على وجوده لغيره » وكان يجعله علماً خارجاً من درك الحواس لأن الإنسان لو كان أعمى لأحس نفسه ولم يحس [صورته] ولو كان أصم لأحس نفسه ولم يحس صوته ولو كان أخشم لأحس نفسه ولم يحس رائحته ، وكذلك سبيل المذاقات والملامس ، فلما كان المعنى كذلك وجب أن يفرد من درك الحواس ويجعل علماً ثامناً

على حاله وقائماً بنفسه ، ثم جعل العلم التاسع علم الانسان بأنه لا يخلو من أن يكون قديماً أو حديثاً ، وجعل العلم العاشر علمه بأنه محدث وليس بقديم .

[٧ - فساد هذه الآراء]

[...] ولست ألو بهذا الكلام والإيجاز في الإدخال على بشر بن المعتمر في درك الخواس ثم على أبي إسحاق في ذلك وفي غيره مما ذكرت من مذاهبه وتركه قياس ما بنى عليه إن شاء الله لتصير إلى الكلام في المعرفة فإني إليه أجريت وإياه اعتضدت ، ولكنني أحببت أن أبدي فساد أصولهم قبل فروجهم ، فإن ذلك أقبل للداء وأبلغ في الشفاء وأحسم للعرق وأقطع للمادة وأخف في الموزنة على من قرأ الكتاب وتدبر المسألة والجواب ، وبالله ذي المن والطول نستعين .



مركز تحقيقات كويتيون علوم إسلامية

[٨ - الرد على النظام]

فصل منه : يقال لهم : حدثونا عن العلم بالله ورسله ، وتأويل كتبه وعن علم القدر وعلم المشيئة والأسماء والأحكام ، أباكتساب هو أم باضطرار ؟

فإن زعموا أنه باكتساب ، قيل لهم : أوليس اعتقاد خلاف ذلك أجمع باكتساب ؟

فإن قالوا : نعم ، قيل لهم : فإذا كان اعتقاد الحق واعتقاد الباطل باكتساب ، [أ] فليس كل واحد من المكتسبين عند نفسه على الصواب ؟

فإن قالوا : نعم ، قيل لهم : أوليس كل واحد منهما ساكن القلب إلى مذهبه واختياره

فإن قالوا : نعم ، قيل لهم : فما يؤمن المحق من الخطأ وليس سكون

القلب وثقته علامة للحق لأن ذلك لو كان علامة لكان المبطل محقاً إذ كان فيه قد يجهد من السكون والثقة ما لا يجهد المحق ؟ قلنا : وما معنى خلافه إلا أن يكون المبطل شاكاً أو يكون عارفاً بتقصيره أو يكون مكثراً لوهم بجده ؟ فإذا لم يكن كذلك فلا فرق بين المعقودين .

فإن قالوا : إن فرق ما بينهما أن سكون قلب المحق حق في عينه وسكون قلب المبطل باطل في عينه ، قلنا : أوليس ذلك غير محول لسكون المبطل عن الثقة الى الاضطراب ولا مغيره الى الاكتراث ؟

فإن قالوا ذلك ، قيل لهم : فما يؤمن المحق أن يكون سكونه أيضاً باطلاً في عينه إذ كان سكونه لا ينفصل من سكون المبطل ، ولئن كان الفرق بينهما ظاهر الاجتهاد والعبارة ، فمن أظهر اجتهاداً من الرهبان في الصوامع والخوارج في بذل النفوس

فإن قالوا : الفرق بينهما أن المحق قد استشهد الضرورات والمبطل لم يستشهدها ، قلنا : فهل يجوز أن يكون عنده نفسه قد استشهد الضرورات أو لم يستشهدها ، حتى لو سأل سائل فقال : « ما يؤمنك من الخطأ ؟ » - لقال : « استشهادي الضرورات ؟

فإن زعموا أن المبطل لا يجوز أن يكون عند نفسه قد استشهد الضرورات لأن ذلك هو علامة الحق والفيصل بينه وبين الباطل ، قلنا : وهل رأيتم أحداً اكتسب علماً قط أو نظر في شيء إلا وأول نظره إنما هو هل أصل الاضطراب ؟ لأن المفكر لا يبلغ من جهله أن يستشهد الخفي ، بل من شأن الناس أن يستدلوا بالظاهر على الباطن إذا أرادوا النظر والقياس ، ثم هم بعد ذلك يخطئون أو يصيبون ، قلنا : فينبغي أن يكون كل مبطل في الأرض قد علم حين يقال له : « ما يؤمنك أن تكون مبطلاً ؟ » أنه لم يستشهد الضرورات وأنكر أصله الذي قاس عليه واستنبط منه ضرورة ، وأنه إنما قال بالعسف أو

بالتقليد ، وإذا كانوا كذلك فهل يخلو أمرهم من أن يكونوا قد علموا أنهم على خطأ أو يكونوا شكاكاً أو يكونوا عند أنفسهم مستشهادين للضرورات وإن كانوا قد تركوا ذلك عند بعض المقدمات ، فإن كانوا قد علموا أنهم لم يستشهدوا للضرورات وإن كانوا شكاكاً فيها فليس على ظهر الأرض مغطىء إلا وهو عالم بموضع خطئه أو شك فيه ، أو كانوا عند أنفسهم مستشهادين للضرورات ، فما يؤمنكم أن تكونوا كذلك ؟

فإن قالوا : « ليس أحد يعرف أن علامة الحق استشهاد الضرورات غيرنا ، قلنا : أو لستم - معشر أبي إسحق النظام - تختلفون في أمور كثيرة وقد كنتم يؤمنكم أن تكونوا على باطل ؟ » ، أن تقولوا : « إستشهادنا للضرورات » ، على باطل ؟ - قال : « لآي مستشهد للضرورات » ، فهل يخلو أمركم من أحد وجهين : إما أن تكونوا صادقين على أنفسكم أو كاذبين عليها ، فإن كنتم صادقين فقد صار قلب المحق كقلب المبطل إذ كان كل واحد [منهما] عند نفسه مستشهداً للضرورات ، وإن كنتم كاذبين فهل منكم حق إلا وهو يلقى الخصم بمثل دعواه في استشهاد الضرورات ؟ وهل منكم واحد على حباله محقاً [كان] أو مبطلاً إلا وجوابه لنا مثل جواب صاحبه ؟ فإذا كانت القلوب قد تكون عند أنفسنا مستشهادة للضرورات وهي غير مستشهادة لها وكون القلب كذلك هو علامة الحق . فما الفرق بين قلب المحق والمبطل ؟ ومع ذلك إنا وجدنا صاحبكم قبلكم ووجدناكم بعده قد رجعتن عن أقاويل كثيرة بعد أن كان جوابكم لمن سألكم : « ما يؤمنكم أن تكونوا على باطل ؟ » أن تقولوا : « إستشهادنا للضرورات » ، ونحن لو سألناكم عما رجعتن عنه ، فقلنا لكم : « لعلكم على خطأ ولعلكم من هذه الأقاويل على غير » لم يعد جوابكم استشهاد الضرورات .



[٩ - الحرية] والاستطاعة

[...] ثم إنى واصف قولي في المعرفة ومجيب خصمي في معنى الاستطاعة وفي

أي أوجهها يحسن التكليف وتثبت الحججة ومع أيها يسمح التكليف وتسقط الحججة .

فاول ما أقول في ذلك أن الله - جل ذكره - لا يكلف أحداً فعل شيء ولا تركه إلا وهو مقطوع العذر زائل الحججة ولن يكون العبد كذلك إلا وهو صحيح البنية معتدل المزاج وافر الأسباب مخلى السرب عالم بكيفية الفعل حاضر النوازع ومعدل الخواطر عارف بما عليه وله ، ولن يكون العبد مستطيعاً في الحقيقة دون هذه الخصال المعدودة والحالات المعروفة التي عليها مجاري الأفعال ومن أجلها يكون الاختيار ولها يحسن التكليف ويجب الفرض ويجوز العقاب ويحسن الثواب ، ولو كان الإنسان متى كان صحيحاً كان مستطيعاً لكان من لا سلم له للصعود مستطيعاً ، ولن يكون أيضاً مع ذلك كله للفعل مختاراً وله في الحقيقة دون المجاز مستطيعاً إلا وجميع أوامره في وزن جميع زواجره ، حتى إذا قابلت بين مرجوئها وخوفئها ، وبين تقديم اللذة وخوف الأخرى وبين تعجيل المكروه وتأجيل العاقبة وجدئها في الجذب والدفع وفي القبض والبسط سواء ، ولا يكون أيضاً كذلك إلا وبفاؤه في الحال الثانية معلوم لأن الفعل حارس والطباع محروسة والنفس عليها موقوفة ، فإن كان الحارس أقوى من طباعها كان ميل النفس معه طباعاً ، لأن من شأن النفس الميل إلى أقوى الحارسين وأمتن السيين ، ومتى كانت القوتان متكافئتين كان الفعل اختياراً ومن حد الغلبة خارجاً ، وإن كانت الغلبة تختلف في اللين والشدة وبعضها أخفى وبعضها أظهر - كفسار الإنسان من وهج السموم إذا لم يحضره دواهي الصبر وأسباب المكث وهو من لب الحريق أشد نفرة وأبعد وثبة وأسرع حركة ، ومتى قويت الطبيعة على العقل أوهنته وغيرته ، ومتى توهم وتغير تغيرت المعاني في وهمه وتمثلت له على غير حقيقتها ، ومتى كان كذلك كان عن إدراك ما عليه في العاقبة [أبعد] وزينت له الشهوات ركوب ما في العاجلة ، ومتى أيضاً فضلت قوى عقله على قوى طباعه أوهنت طباعه ، ومتى كانت كذلك أثر الحزم والأجلة على

اللذة العاجلة طبعاً لا يمتنع منه وواجباً لا يستطيع غيره ، وإنما تكون النفس مختارة في الحقيقة ومجانبة لفعل الطبيعة إذا كانت أخلطها معتدلة وأسبابها متساوية وهللها متكافئة ، فإذا عدل الله تركيبه وسوى أسبابه وعرفه ما عليه وله ، كان الإنسان للفعل مستطيعاً في الحقيقة وكان التكليف لازماً له بالحجة .

ولولا أنك محتاج الى التعريف بأن الأمور المنهي لا بد له من التسوية والتعديل لما قال الله تعالى ﴿ والأرض وما طحاها ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ﴾ ، ولو جاز أن يعلم موضع غيرها ورشدها من غير أن يسويها ويبيئها لكان ذكر التسوية فضلاً من القول ، والله يتعالى عن هذا وشبيهه علواً كبيراً .

[١٠ - معرفة الله تتم بواسطة الرسل]

[. . .] فصل في جواب من يسأل عن المعرفة بأضطرار هي أم باكتساب :

قلنا : إن الناس لم يعرفوا الله إلا من قبل الرسل ولم يعرفوه من قبل الحركة والسكون والاجتماع والافتراق والزيادة والنقصان ، على أنا لا نشك أن رجالاً من الموحدين قد عرفوا وجوهاً من الدلالة على الله بعد أن عرفوه من الرسل ، فتكلفوا من ذلك ما لم يجب عليهم وأصابوا من غامض العلم ما لا يقدر عليه عوامهم ، ومن غير أن يكونوا تكلفوا ذلك لشك وجدوه أو حيرة خالفوها ، لأن أهلام الرسل مقنعة ودلائلها واضحة وشواهدا متجلية وسلطانها قاهر وبرهانها ظاهر .

[١١ - العلم بصدق الرسل اضطراري]

فإن قالوا : أبأكتساب علموا بصدق الرسل أم بإضطرار ؟ قلنا : بإضطرار .

فإن قالوا : فخيرونا على من هابن النبي ﷺ وحجته والنتهي وحيلته كيف

يعلم صدق النبي من كذب المتنبى وهو لم ينظر ولم يفكر ؟ فان قلت انه نظر وفكر فقد رجعت الى الاكتساب ، وان قلت انه لم ينظر ولم يفكر ، فلم عرف الفصل بينهما دون أن يجهله ، وكيف علم ذلك وهو لا يعرف الحجة من الحيلة ؟ وما يؤمنه ان يكون مبطلاً إذ كان لم ينظر في أمور الدنيا ولم يختبر معانيها حتى يعرف الممتنع من الممكن وما لا يزال يكون بالاتفاق مما لا يمكن ذلك فيه ، وكيف ولم يعرف العادة ومجرى الطبيعة ، وإلى أين تبلغ الحيلة وأين تعجز الحيلولة ، وعند أي ضرب تسقطان وعلى أي ضرب تقومان ، ولم عرف صدق النبي حين عاين شاهده وأبصر أعاجيبه من غير امتحان وتعقب لمعانيها دون أن يعقد صدق المتنبى إذا أورد عليه أعاجيبه وخدعه وحيلته ؟ بل كيف لم يعرف الله حين وقع بصره على الدنيا من غير فكره فيها وتقليب لأمرها ، والدنيا بأسرها دلالة عما عرف صدق النبي حين أبصر دلالتها من غير تفكير فيها وتقليب لأمرها ، وقد علمنا أن الدنيا دالة كما أن شواهد النبي دالة ، ومتى كان ظاهر أحدهما يغني عن التفكير كان الآخر مثله ، إذ لم يكن في القياس بينهما فرق ولا في المقبول فصل ؟ قلنا : إن تجارب البالغ قبل أن يهجم على دلالات الرسل تأتي على جميع ذلك ، ولعمري لو كان هجومه عليها قبل المعرفة بمجاري [الأمور] وتصريف الدهور وعلقات الدنيا والتجربة لتصريف أمورها ، لما وصل الى معرفة صدق النبي إلا بعد مقدمات كثيرة وترتيبات منزلة لأن مشاهد الشواهد إنما يضطره المشاهدة لها إذا كان قد جرب الدنيا وعرف تصرفها وعادتها قبل ذلك ، ولو لم يكن جربها قبل ذلك حتى عرف منتهى قوة بطش الإنسان وحيلته وعرف الممكن من الممتنع وما يمكن كونه بالاتفاق مما لا يمكن ، لما عرف ذلك .

[١٢ - تجارب الطفل غير قصدية]

فإن قالوا : وكيف جرب ذلك وعقله وأتقنه وحفظه ، وهو طفل خريبر وحدث صغير ، لأن غير البالغ طفل إلى أن يبلغ وحين بلغ فقد هجم على النبي

وشواهدة أو هجم عليه النبي بشواهدة إما بخبر مفتح أو بعيان شاف ، ففي آية
الحالين جرب وعرف وميز وحفظ : أقسى حال الطفولة والغرارة - وهذا غير معروف
في التجربة والعادة ، والذي عليه ركبت الطبيعة - أم في حال البلوغ والتمام - وحال
البلوغ هي الحال التي [فيها] أبلغه الله الرسالة وقاده الى رؤية الحجة واستماع
البرهان ومخرج الرسالة ؟ فإن كان الأمر كما تقولون فقد كان ينبغي أن لا يصل
إلى العلم بصدق النبي وقد أراه برهانه وأسمعه حجته ، حتى تمكث بعد
ذلك دهرأ يمتحن الدنيا ويتعقب أمورها ويعمل التجربة فيها ، فإن كان ذلك
كذلك فلم سميتوه بالفأ وليس في طاقته بعد العلم بفصل ما بين النبي
والمتنبي ؟ - قلنا : إن التجربة على ضربين : أحدهما [أن] يقصد الرجل إلى
امتحان شيء ليعرف خبره كما عرف منظره ، والأخر أن يهجم على علم ذلك من
غير قصد ، وقد يسمى الانسان مجرباً قاصداً أو هاجماً ، فيزعم أن البالغ مذ
سقط من بطن أمه الى أن يبلغ مقلب في الأمور المختلفة ومصرف في خلال
الحالات المعروفة التي تلقه الدنيا بما تورد عليه من عجائبها ، ويزداد في كل
ساعة معرفة وتفسيده الأيام في كل يوم تجربة ، كما يزداد لسانه قوة وعظمه صلابة
ولحمه شدة ، من أم تناغيه وظئر تلهيه وطفل يلاعبه وطبيب يعالجه ونفس تدعوه
وطبيعة تعينه وشهوة تبعثه ووجع يقلقه ، كما يزيد الزمان في قوته ويشد من عظمه
ولحمه ويزيده الغذاء عظماً وكثرة الغضب والتقلب جلدأ ، فإذا درج وحبا وضحك
وبكى وأمكته أن يكسر إناه أو يكبته أو يسود ثوباً أو يضرب صبيأ [فضرب] دبره
الحادم وانتهره القيم ، فلا يزال ذلك دأبه ودأبهم حتى يفهم الإغراء والزجر
والتعديبة والانتهار ، كما يعرف الكلب اسمه إذا ألح عليه الكلام به وكما يعرف
المجنون لقبه وكما يحضر الفرس من وقع السوط لكثرة وقعه بعد رفعه عليه .

[١٣ - البالغ يعرف النبوة ضرورة لأنه استحكم عنده العلم بأسس التمييز

بين الرسول الصادق والمتنبي الكاذب]

[. . .] فإذا استحكمت هذه الأمور في قلبه وثبتت في عقله وصحت في معرفته فهو حيث يشاء بالغ محتمل وعند ذلك يستخر الله سمعه للخبر المثلج أو بصره لمعاينة الشاهد المقنع هل يهدي الرسول الصادق ، ولا يتركه مهلاً ولا يدهه مغفلاً ، وقد عدل طبعه وأحكم صنعه ووفر أسبابه ، فلا يحتاج عند معاينته رسولاً يجي الموق ويبرىء الأكمه والأبرص ويفلق البحر ، إلى تفكير ولا تمثيل ولا امتحان ولا تجربة ، لأنه قد فرغ من ذلك أجمع ، واستحكم عنده العلم الذي أدب به وهىء له وأورد عليه ، فإن كان لم يكن لذلك عامداً ولا إليه قاصداً ولا به معنياً ، وإنما هو عبد عباه سيده ورشحه مولاه وهىءه مخالفه لأمر لا يشعر به من مصلحته ولا يخطر على باله من الصنع له حين هذا به وقاده إليه وهىءه له ، فإذا وردت عليه دعوى رسوله ، وأتمه تشهد له بإحياء الموق وخلق البحر وبكل شيء قد عرف عجز البشر عن فعله والقوة عليه ، علم بتجاربه المتقدمة لعادة الدنيا أن ذلك [ليس] من صنع البشر وأن مثله لا يقع اتفاقاً وأن الحيل لا تبلغه ، فلا يمتنع من رؤية البرهان وفهم الدعوى أن يعلم أن الرسول صادق وأن الراد عليه كاذب .

مرکز تحقیقات کتب و تاریخ علوم اسلامی

[. . .] ولولا أن هذا كلام لم يكن من ذكره بد لأنه تأسيس لما بعده ومقدمة لما بين يديه وتوطئة له ، لاقتضبت الكلام في المعرفة اقتضاباً ، ولكن بمنعني عجز أكثر الناس عن فهم غايقي فيه إلا تنزيله وترتيبه ، وكل كلام أتيت على فرعه ولم تخبر عن أصله فهو خداج لا غناء عنده وواهن لا ثبات له .

هامش المسائل والجوابات في المعرفة

- (١) يبدو ان الديباجة القصيرة « بالله نستعين وعليه نتوكل وما توليقنا الا بالله » ليست للجاحظ ، وهي من صنع الناسخ على الأرجح . والدليل على ذلك اختلافها الشديد عن أسلوب الجاحظ وتعبيره .
- والفقرة الاولى يعرض فيها رأي بشر بن المعتز واتباعه في المعرفة . وبشر بن المعتز احد شيوخ المعتزلة (٢٢٦ هـ) من الطبقة السادسة ، كان شاعراً ومتكلماً شديد النقد للمشوية والشيعية . وخلاصة رأيه ان المعرفة في معظمها اكتساب من فعل الانسان سواء كان مصدرها الحواس أو الاخبار او معرفة الله ورسوله . الوجوه الإدراك الحسي
- (٢) يذهب بشر بن المعتز أيضاً الى أن جميع العلوم الفلسفية والكلامية كالنوحيد والتعديل والتجويز والتأويل ، والعقلية كالحساب والهندسة والصياغة والفلاحة مكتسبة ، والسبب في ذلك هو ان اصلها الادراك الحسي .
- (٣) البرهان على ان المعرفة الحسية مكتسبة هو انها تتم بفعل ارادي . ففتح الجفن مثلاً حركة ارادية لولاء لم يحدث الابصار . وهذا رأي لا يقره الجاحظ ولا الحقيقة العلمية .
- (٤) ان معرفة الله مكتسبة ايضاً بنظر بشر بن المعتز والدليل على ذلك هو ان تلك المعرفة تتم بعد التفكير والنظر او ابتداء ، فلذا كانت تتم بعد التفكير تكون مكتسبة ومن فعل الانسان اذ هي نتيجة ارادته وبحثه ، واذا كانت تتم ابتداء فهي أولى بالاختيار وابتداء من الاضطرار . يذكر الجاحظ مبداً ينبغي أن يعتمد المرء في موقفه من آراء الذين يخالفونه . يجب ان يحكي الرأي المخالف كما هو دون ان يجعل الباطل حقاً والحق باطلاً .
- (٥) في هذه الفقرة يلخص مذهب استاذهم ابراهيم بن سيار النظام (١٦٠ - ٢٣١ هـ) في المعرفة . ومع احترامه اياه نراه يخالفه في كثير من آرائه كاهجاز القرآن والاجماع والامامة بينما يجعل سائر المعارف وهددها سبعة اضطرارية . اما الجاحظ فيجعلها كلها اضطرارية او طبعياً .
- (٦) يسرد الجاحظ أنواع المعارف عند شيخ ثالث من شيوخ المعتزلة هو المعتز بن عباد السلمي (٢٢٠ هـ) وهي عشرة اجناس خمسة منها راجعة الى الحواس الخمس ،

(٧) المشبهة ما زالوا كثيراً ، وهم يسمرون عقيدتهم وينافقون ولا ينبغي ان يثق بهم القاضي ليتوقف عن ملاحظتهم .

(٨) المشبهة تحولوا الى الكلام بمدحهم للدفاع عن عقيدتهم ، كما لجأوا الى الاقناع والجدل بدل البطش والصولة عندما يتسوا من نصرة الحشوة العامة والولاية الفسفة .

(٩) يهمل الجاحظ الى غرضه من هذه المقدمة . فيعلن انه وضع كتاباً في الرد على المشبهة ويعني ذلك انه الف الكتاب قبل كتابة الرسالة والهدف من الكتاب الرد على أقوال المشبهة وتبيان مبالغتهم . وخرج المشبهة تعتمد على تحريف أي من القرآن ، أو تغيير بعض الروايات .

(١٠) يحاول الجاحظ أن يبرر صغر الكتاب . ان الكتاب جاء معتدل الطول لكي يخف على القاريء فلا يمل منه . و في سبيل تزيين حجته هذه يستشهد بأقوال عدد من المفكرين والأئمة امثال علي بن ابي طالب وعمر بن الخطاب وواصل بن عطاء وغيرهم .

(١١) يطلب الجاحظ من محمد بن ابي دؤاد قراءة الكتاب ثم نشره بين الناس ليتفهموا به ، وليزيد الكتاب شرفاً ورفعة .

(١٢) يذكر الجاحظ مبدأ هام من مبادئ المعتزلة ، هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المتمثل بقوله : « حرام على كل متكلم عالم وفقه مطاع ، وخطيب مفوه ان كان عنده من الأمر شيء الا ان يأتيكم به ويذكركم بما عنده » لأن ذلك من عندكم انفق والناس اليه أسرع والقلوب اليه اسكن وهو في العيون أعظم .

(١٣) لم توجه الجاحظ الى محمد بن ابي دؤاد دون والده ؟ لأنه شاب طموح وقوي ولأنه أكثر فراهياً من والده . ولا ينبغي الاعتراض على ذلك بأنه حدث تنقصه التجربة . فان حدة ذهنه ووفرة ارادته تعوضه عن التجارب الكثيرة في الزمن الطويل . وتأييد رأيه هذا يعتمد كعادته الى سوق الامثال العديدة عن التاريخ العربي والشواهد الشعرية التي فضلت الشباب على الشيوخ .

(١٤) يذكر الجاحظ الرابطة التي تربط الجاحظ بالقاضي وهي الاعتزال ونفي التشبيه .

(١٥) يشير الجاحظ الى الزمن الذي كشفت فيه الرسالة وهو عهد الخليفة العباسي المعتصم ويشير عليه .

(١٦) معنى التوحيد : يشير الجاحظ الى اختلاف الناس في معنى التوحيد . ولكنه يفهم بالتوحيد نفي التجزئة عن الواحد أي الله ، وعدم تشبيهه بشيء ذي اجزاء . لم يشرح الجاحظ ما يعني بالتجزئة ، وربما كان يريد الوحدة المطلقة على نحو ما شرحها معاصره الفيلسوف الكندي في رسالته « الفلسفة الأولى » .

(١٧) لا يمكن أن نسمي موحداً من يقول ان الله يرى بالعين . وقوله يوجد ببعض الحواس يعني انه يدرك ببعض الحواس . ويشير الجاحظ هنا الى العلاقة بين الشيء والاسماء الدالة عليه . لقد يكون الشيء واحداً وتكون الالفاظ الدالة عليه كثيرة . والمهم هو المعنى او الشيء لا

الاسم .

(١٨) لا يمكن أن ندعو موحداً من يقول ان الله جسم . لأنه اذا قال أنه جسم كان حادثاً ومخلوقاً ومتحركاً وساكناً ، وحاجزاً وقسواً ، وبالياً وفانياً ، وزائداً وناقصاً . فهذه الصفات جميعاً هي قوام الجسمية ولوازمتها .

(١٩) يرفض الجاحظ تعليل المشبهة لقولهم بان الله جسم . لقد جمعوا الله جسماً ليخرجوه من باب العدم وليكون معقولاً لأنه في نظرهم لا معقول سوى الجسم ، ويسخر من قولهم انه جسم لفظ أي بلا شكل لأنه لا جسم بلا شكل طويل أو عريض أو مدور أو مثلث أو مربع الخ . . .

(٢٠) الجدل حول معنى الآية : ﴿ لا تدركه الابصار وهو يدرك الا بصار ﴾ والآية ﴿ وجوه يومئذ ناظرة ﴾ ، الى ربها ناظرة ﴿ المشبهة بقولون ان الاولى عامة والثانية خاصة والخاص ينسخ العام . وهذه الآية الاخيرة تفيد ان الله يرى بالعين .

(٢١) رد الجاحظ على تأويل هاتين الآيتين : ينفي فهم كلمة ناظرة بمعنى المنتظرة ثواب الله ، كما شرحها كبار المفسرين ، وانسجماً مع الآيات العديدة التي تنفي امكانية الرؤية بالعين ، وأخذاً بالمنطق العقلي الذي ينفي التشبيه عن الله ، أي ان الله لا يشبه بشيء .

(٢٢) ينفي اتخاذ القرآن قاصداً وحكماً في جسم الخلف في الشؤون الدينية . هذا المبدأ خطير جداً ، ولكنه ينطوي على مخاطر . وقد نوهي به عندما اشتد الخلاف بين الإمام علي بن أبي طالب ومعاوية في معركة صفين إذ ربح انصار معاوية المصاحف على الرماح وقالوا : لنحكم كتاب الله فيها بيننا . فأجاب علي : كلمة حق أريد بها باطل . ان كتاب الله وحده لا يكفي للحكم فلا بد من العقل الذي يفهم معاني التنزيل ويحكم على ضوءها .

(٢٣) الجدل حول الآية ﴿ وجاء ربك والملك صفاً صفاً ﴾ والآية ﴿ والله في السماوات والأرض ﴾ . . . المشبهة فهموا معها انه في مكان وكل ما هو في مكان محدود وكل محدود جسم .

(٢٤) رد الجاحظ على المشبهة في تفسير الآيتين السابقتين اصلاً : للكلام معنى حقيقي ومعنى مجازي . وينبغي هنا الأخذ بالمعنى المجازي لا الحقيقي . والمعنى المجازي لا يعني ان الله جسم او محصور في مكان .



[١ - موضوع الكتاب]

الحمد لله الذي هرفنا نفسه وعلمنا دينه وجعلنا من الدعاء إليه والمحتجين له ، فنحن نسأله تمام النعمة والعون على أداء شكره وأن يوفقنا للحق برحمته إنه ولي ذلك والقادر عليه والمرغوب إليه فيه ، وصلى الله على محمد وسلم .

ثم إننا قائلون في الأخبار ومخبرون عن الآثار ، ومفرقون بين أسباب الشبهة وأسباب الحجة ، ثم مفرقون بين الحجة التي تلزم الخاصة دون العامة ، ومخبرون عن الضرب الذي يكون الخاصة فيه حجة على العامة ، وعن الموضوع الذي يكون القليل فيه أحق بالحجة من الكثير ، ولم شاع الخبر وأصله ضعيف ، ولم خفي وأصله قوي ، وما الذي يؤمن من فساده وتبديله مع تقادم عصره وكثرة الطاعنين فيه ، وعن الحاجة إلى رواية الآثار وإلى سماع الأخبار ، وعن أخلاق الناس وآبائهم ومذاهب أسلافهم ، وعن سير الملوك قبلهم وما صنعت الأيام بهم ، وعن شرائع أنبيائهم وأعلام رسلهم ، وعن أدب حكمائهم وأقوال أئمتهم وفقهائهم ، وعن حالات من غاب عن أبصارهم في دهرهم ، ولم كان الإخبار على الناس أخف من الكتمان ، ولم كان الصمت أثقل عليهم من الكلام ، وما الضرب الذي يقدرون على كتمانهم وطيه والضرب الذي لا يقدرون إلا على إذاعته ونشره ، ولم اجتمعت الأمم على الصدق في أمور واختلفت في غيرها ، ولم حفظت أموراً ونسيت سواها ، ولم كان الصدق أكثر من الكذب ، ولم كان الصمت أثقل والقول أفضل . والمعجب

من ترك الفقهاء تمييز الآثار وترك المتكلمين القول في تصحيح الأخبار ، وبالأخبار يعرف الناس النبي من المتنبى والصادق من الكاذب ، وبها يعرفون الشريعة من السنة والفريضة من النافلة والمحظر من الإباحة والاجتماع من الفرقة والشلوذ من الاستفاضة والرد من المعارضة والنار من الجنة وعامة المفسدة والمصلحة . فإذا نزلت الأخبار منازلها وقسمتها ذكرت حجج الرسول ﷺ ودلائله وشرائعه وسننه ، ثم جنست الآثار على أقدارها ورتبتها في مراتبها وقربت ذلك واختصرت وأوضحت عنه وبينته ، حتى يستوى في معرفتها من قل سماعه وساء حفظه ، ومن كثر سماعه وجاد حفظه ، بالوجوه الجلية والأدلة الاضطرارية .

ولم أرد في هذا الكتاب جمع حجج الرسول عليه السلام وتفصيلها والقول فيها لنقص مسها أو لوهم كان في أصلها من ناقلها والمخبرين عنها ، أو لأن طعن الملحدين نهكها وفرق جماعتها ونقض قواها ؛ ولكن لأمر سأذكرها وأحتج لها . وكيف تقصر الحججة عن بلوغ الغاية وتنقص عن التمام والله تعالى المتوكل بها ومسخر أصناف البرية لها ومهيج النفوس على إبلاغها ؛ وقد أخبر بذلك عن نفسه في محكم كتابه عن ذكره حيث قال : ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ وأدى منازل الإظهار إظهار الحججة على من ضاده وخالف عليه . وقال عز ذكره ﴿ يريدون ليطفنوا نور الله بألوانهم والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾ وأخبر أنه أمر الأحمر والأسود ، ولم يكن ليأمر الأفي كما يأمر الأذن ويأمر الغائب على الحاضر ، قال الله تعالى لنبيه عليه السلام : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً أو نذيراً ﴾ .

[٢ - معنى الحججة]

فأقول : إن كل منطبق معجوج ، والحججة حجتان : عيان ظاهر ، وخبر قاهر . فإذا تكلمنا في العيان وما يفرع منه فلا بد من التعارف في أصله وفرعه منه ، ولا بد من التصديق في أصله والتعارف في فرعه ، فالعقل هو المستدل ، والعيان والخبر هما علة الاستدلال وأصله ، وعيان كون الفرع مع عدم الأصل ،

وكون الاستدلال مع عدم الدليل . والعقل مضمن بالدليل والدليل مضمن بالعقل ، ولا بد لكل واحد منهما من صاحب ، وليس لإبطال أحدهما وجه مع إيجاب الآخر . والعقل نوع واحد والدليل نوعان : أحدهما شاهد عيان يدل على غائب ، والآخر يجيء خبر يدل على صدق .

[٣ - أسباب الخفاف حجج النبوة]

ثم رجع الكلام الى الاخبار عن دلائل النبي ﷺ وأعلامه والاحتجاج لشواهد وبرهاناته فأقول : إن السلف الذين جمعوا القرآن في المصاحف بعد أن كان متفرقا في الصدور ، والذين جمعوا الناس على قراءة زيد بعد أن كان غيرها مطلقاً غير محظور ، والذين حصنوه ومنعوه الزيادة والنقصان ، لو كانوا جمعوا علامات النبي ﷺ وبرهاناته ودلائله وآياته وصنوف بدائعه وأنواع عجائبه في مقامه وطمعنه وعند دعائه واحتجاجه في الجمع العظيم وبحضرة العدد الكثير الذين لا يستطيع الشك في خبرهم إلا الغبي الجاهل والعدو المائل ، لما استطاع اليوم أن يدفع كونها وصحة مجيئها لا زنديق جاحد ولا دهرى معاند ولا متطرف ما جن ولا ضعيف مخدوع ولا حدث مغرور ، ولكان مشهوراً في حوامنا كشهرته في خواصنا ، ولكن استبصار جميع أعياننا في حقهم كاستبصارهم في باطل نصارهم ومجوسهم ، ولما وجد الملحد موضع طمع في غبي يستمليه وفي حدث يمويه له ، ولولا كثرة ضعفائنا مع كثرة الدخلاء فينا الذين نطقوا بألستنا واستعانوا بعقولنا على أغيائنا وأغمارنا لما تكلفنا كشف الظاهر وإظهار البارز والاحتجاج للواضح .

[٤ - ظهور الحجج صرف عن جمعها]

إلا أن الذي دعا سلفنا إلى ذلك الاتكال على ظهورها واستفاضة أمرها ، وإذا كان ذلك كذلك فلم يؤت من أتى من جهالنا وأحداثنا وسفهاننا وخلعائنا إلا من قبل ضعف العناية وقلة المبالاة ، ومن قبل الحداثة والغرارة أو من قبل أنهم حملوا على عقولهم من دقيق الكلام قبل العلم بجليله ما لم تبلغه قواهم وتوسع له صدورهم وتحمله أقدارهم ، فذهبوا عن الحق يميناً وشمالاً . لأن من لم يلزم الجادة تحبط ،

ومن تناول الفرع قبل إحكام الأصل سقط ، ومن خرق بنفسه وكلفها فوق طاقتها ولم ينل ما لا يقدر عليه تفلت منه ما كان يقدر عليه .

[٥ - صرف الله الأسلاف عن جمع الحجج ليمتحن الابناء]

فإذا كانوا كذلك فأنما أتوا من قبل أنفسهم ولم يؤثروا من سلفهم ، أو لأن الله تبارك وتعالى صرف أسلافنا بنسيان أو غيره ليمتحن بذلك غيرهم في آخر الزمان ، وليعرضهم لطاعته بالذب عن دينه والاحتجاج لنبيه ﷺ ، وليجري هذا الخير على أيديهم كما أجرى أكثر منه على أيدي أسلافهم ، لئلا يبغض أحد خليقته من العلماء والفقهاء ، ولأن يجعل فضله مقسما بين جميع الأولياء ، وإن كان الأول أحق بالتقديم والآخر أحق بالتأخير للذي قدموا من الاحتمال وأعطوا من المجهود ، ولأنهم أصل هذا الأمر ونحن فرعه ، والأصل أحق بالقوة من الفرع ، وهم السابقون ونحن التابعون ، وهم الذين وطأوا لنا وكلفونا ما لم نكن لنكلفه أنفسنا ، فتجرعوا دوننا المرار ومنحونا روح الكفاية ، ولأن الله تعالى اختارهم لصحبة نبيه ﷺ ، ولأن القرآن نطق بفضيلتهم والله تعالى أعلم بمن بعدهم .

[٦ - الاهتمام بضبط القراءات دون جمع الحجج]

والذي جمع أسلافنا الذين جمعوا الناس على قراءة زيد دون أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود ، والذين رأوا من قول عبد الله في المعوذتين وقول أبي في سورتى العرب ومن تعلق الناس بالاختلاف فكانوا لا يزالون قد رأوا الرجل يروي الحرف الشاذ ويقرأ بالحرف الذي لا يعرفونه ، فرأوا ان تحصيله لا يتم إلا بحمل الناس على المقروه عندهم المشهور فيما بينهم ، وأنهم إن لم يشددوا في ذلك لم ينقطع الطمع ولم ينزجر الطير . لأن رجلا من العرب لو قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة طويلة أو قصيرة لتبين له في نظامها ومخرجها وفي لفظها وطبعها أنه عاجز عن مثلها ، ولو تحدى بها أبلغ العرب لظهر عجزه عنها ، وليس ذلك في الحرف والحرفين والكلمة والكلمتين إلا ترى أن الناس قد كان يتهاون في طبائهم ويجري على ألسنتهم أن يقول رجل منهم : الحمد لله وإنا لله وعلى الله توكلنا وربنا

الله وحسبنا الله ونعم الوكيل . وهذا كله في القرآن غير أنه متفرق غير مجتمع . ولو أراد أنطق الناس أن يؤلف من هذا الضرب سورة واحدة طويلة أو قصيرة على نظم القرآن وطبعه وتأليفه ومخرجه لما قدر عليه ، ولو استعان بجميع قحطان ومعد بن عدنان . ورأوا بفهمهم وتوفيق الله تعالى لهم أن يحصنوه مما يشكّل ويمكن أن يفتعل مثله من الحرف والحرفين والكلمة والكلمتين . وقد كانوا عرفوا الابتداع الكثير على البلغاء والشعراء وخالفوا إن هم لم يتقدموا في ذلك أن يتطرقوا عليه كما تطرقوا على الرواية ، لأنهم حين رأوا كثرة الرواية في غير ذوي السابقة ورأوا كثرة اختلافها والغرائب التي لا يعرفونها لم يكن لهم إلا تحصين الشيء الذي عليه مدار الأمر وإن كانوا يعلمون أن الله بالغ أمره .

[٧ - ينهي جمع حجج النبوة كما جمعت القراءات]

فعل الأئمة أن تحوط هذه الأمة كما حاط السلف أولها ، وأن يعملوا بظواهر الحيلة إذ كان على الناس الاجتهاد ، وليس عليهم علم الغيوب ، وإنما ذلك كنحو رجل أبصر نبياً يجيئ الموقف يعرف صدقه ، فلما انصرف سأله عنه بعض من لم ير ذلك ولا صح عنده فعليه أن لا يكتنه وإن كان يعلم أن الله تعالى سيعلمه ذلك من قبل غيره وأنه عز ذكره سيسمعه صحته على حبه وكرهه . ورأوا أن قراءة زيد أحق بذلك إذ كانت آخر العرض ، ولأن الجمع الذين سمعوا آخر العرض أكثر ممن سمع أوله . فحملوا الناس على قراءة زيد دون أبي وعبد الله ، وإن كان الكل حقاً . إذ كان ربّ حق في بعض الزمان أقطع للقيّل والقال وأجدر أن يهت الخلاف ويمسح الطمع ، فتركوا حقاً إلى حق العمل به أحق . ولو أن فقيهاً رأى إطباق العلماء على صوم يوم عرفة واستنكارهم الإفطار فيه فأفطر وأظهر ذلك ليعلمهم موضع الفريضة من النافلة ، أو خاف أن يلحق الفرض على تطاول الأيام ما ليس فيه كان مصيباً ، ولكان قد ترك حقاً إلى أحق منه . وللحق درجات وللخلاف درجات وللحرام درجات . ألا ترى أن لولئ المقتول أن يقتل أو يصفح وأنه إن قتل قتل بحق وإن صفح صفح بحق ، والصفح أفضل من القتل . ولو أن رجلاً أخرج ساكناً بيتاً له أو

اقتضى ديننا له عند حلول أجله أو طلق زوجته وما دخل بها لكان ذلك له والحق فعل . وغير ذلك الحق أولى به . وكيف لا يكون أولى به وهو احسن والثواب فيه أعظم وإلى سلامة الصدور أقرب ؟ وقد يكون الأمران حسنين وأحدهما أقبح . وبعد فعلى الناس طاعة الأئمة في كل ما أمروا به إلا فيما تبين أنه معصية ، فأما غير ذلك فإنه واجب مفروض ولازم غير مدفوع . وعلموا أيضا أنهم لا يبقون إلى آخر الزمان وأن من يجهل بعدهم لا يقوم مقامهم ولا يفصل الأمور تفصيلهم ، ولو عرفوا كمعرفتهم وأرادوا ذلك كإرادتهم لما أطعموا كطاعتهم . وعلموا أن الأكاذيب والبدع ستكثر وأن الفتن ستفتح ، وأن الفساد سيفشو فكرهوا أن يجعلوا للمتطرفين علة ولاهل الزيف حجة ، بل لا شك أنهم لو تركوا الناس عامة يقرؤون على حرف فلان وكلما أجاز فيه فلان عن فلان لألحق قوم في آخر الزمان بهم من ليس منهم ولا يجري مجراهم ولا يجوز مجازهم .

فصل منه: ولو كان زيد من آل أبي العاص أو من عرض بني أمية لوجد ابن مسعود متعلقا، ولو كان بدل زيد عبد الرحمن بن عوف لوجد إلى القول سيلا، ولو كان [غير] ابن مسعود رجلا من بني هاشم لوجد للطعن موضعا ، ولو كان عثمان رضي الله تعالى عنه استبد بذلك الرأي على علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وسعد وطلحة والزبير رحمهم الله وجميع المهاجرين والأنصار لوجد للتهمة مساعا . فأما والأمر كما وصفنا وبيننا فما الطاعن على عثمان إلا رجل أخطأ خطة الحق وهجل على صاحبه ، ولكل بني آدم من الخطأ نصيب والله عز ذكره يَغْفِرُ له ويرحمه . والذي يخطيء عثمان في ذلك فقد خطأ عليا وعبد الرحمن وسعدا والزبير وطلحة وما عليه الصحابة . ولو لم يكن ذلك رأي علي لغيره ، ولو لم يمكنه التغيير لقال فيه ، ولو لم يمكنه في زمن عثمان لأمكنه في زمن نفسه ، وكان لا أقل من إظهار الحججة إن لم يملك تحويل الأمة ، وكان لا أقل من التجربة إن لم يكن من النجاح على ثقة ، بل لم يكن لعثمان في ذلك ما لم يكن لجميع الصحابة وأهل القدم والقعدة . ومع أن الوجه فيما صنعوا واضح بل لا نجد لما صنعوا وجها غير الإصابة والاحتياط والاشفاق والنظر للمواقب وحسم طعن الطاعن . ولو لم يكن ما صنعوا لله تعالى فيه

رضاً لما اجتمع عليه أول هذه الأمة وآخرها . وإن أمرا اجتمعت عليه المعتزلة
والشعبة والخوارج والمرجئة لظاهر الصواب واضح البرهان على اختلاف أهوائهم
وبغيتهم لكل ما ورد عليهم . فإن قال قائل : هذه الروايات بأسرها تأييد ذلك
وتنكيره وتطعن فيه وترى تغييره ؟ قلنا : إن الروايات ليست منا بسبيل ، لأن من
كان أذانه غير أذانتنا وصلاته غير صلالتنا وطلاقه غير طلاقنا وعتقه غير عتقنا وحجته
غير حجتنا وفقهاؤه غير فقهاءنا وإمامه غير إمامنا وقراءته غير قراءتنا وحلاله غير
حلالنا وحرامه غير حرامنا فلا نحن منه ولا هو منا . ولأي شيء جانب عن قراءة
ابن مسعود ؟ فوالله ما كان أحد أفرط في العمرية منه ولا أشد على الشيعة منه !
ولقد بلغ من حبه لعمر رضي الله تعالى عنه أن قال : لقد خشيت الله تعالى في
حبي لعمر ! فلم يمامون عنه وهو كان شجاعهم لو أدركهم ؟

فصل منه : فأمن الله رجلا فارلقهم ولزم الجماعة ، فإن فيها الانس والحجة ،
وترك الفرقة فإن فيها الوحشة والشبهة . والحمد لله الذي جعلنا لا نفرق بين أئمتنا
كما جعلنا لا نفرق بين أنبيائنا .

مركز تحقيقات كويتية علوم إسلامية

[٨ - الغرض من جمع الحجج]

فصل منه : والذي دعانا إلى تأليف حجج الرسول ونظمها وجمع وجوهها
وتدوينها إنما متى كانت مجموعة منظومة نشط لحفظها وتفهمها من كان عسى أن لا
ينشط لجمعها ولا يقدر على نظمها وجمع متفرقاتها ، وعلى اللفظ المؤثر عنها ، ومن
كان عسى أن لا يعرف وجه مطلبها والوقوف عليها ، ولعل بعض الناس يعرف
بعضها ويجهل بعضها ، ولعل بعضهم وإن كان قد عرفها بحقها وصدقها فلم يعرفها
من أسهل طرقها وأقرب وجوهها ، ولعل بعضهم أن يكون قد كان عرف فئسي أو
تجاوز بها فعمي ، بل لا نشك أنها إذا كانت مجموعة مبررة مستقصاة مفصلة إنها
ستزيد في بصيرة العالم ، ويجمع الكل لمن كان لا يعرف إلا البعض ويذكر الناس
ويكون عدة على الطامع ، ولعل بعض من أهدى في دينه وعمي عن رشده وأخطأ
موضع حظه أن يدعو العجب بنفسه والثقة بما عنده إلى أن يلتبس قراءتها ليتقدم في

نقضها وإفسادها فإذا قرأها فهمها وإذا فهمها انتبه من رقدته وأفاق من سكرته لعز الحق وذل الباطل ولإشراف الحجة على الشبهة ، ولأن من تفرد بكتاب فقراه ليس كمن نازع صاحبه وجافاه ، لأن الانسان لا يباهي بنفسه والحق بعد قاهر له ، ومع التلاقي يحدث التباهي وفي المحافل يقل الخضوع ويشتد النزوع .

[٩ - حاجة الناس الى الاخبار]

ثم رجع الكلام إلى حاجة الناس إلى استماع الأخبار والتفقه في تصحيح الآثار فأقول : إن الناس قد استغنوا عن التكرير وكفوا مؤونة البحث والتنقيب لقلّة اعتبارهم ، ومن قلّ اعتباره قلّ علمه ، ومن قلّ علمه قلّ فضله ، ومن قلّ فضله كثر نقصه ، ومن قلّ علمه وفضله وكثر نقصه لم يحمد على خير أناه ولم يذم على شر جناه ولم يجهد طعم العز ولا سرور الظفر ولا روح الرجاء ولا برد اليقين ولا راحة الأمن . وكيف يشكر من لا يقصد ، وكيف يلام من لا يتعمد ، وكيف يقصد من لا يعلم ، وما عسى أن يبلغ قدر سرور من لا يحس من السرور إلا بما سرت به حواسه ومسه جلده ، وكيف يأتي أرباح الأفعال وأبعد الشرين من ركب شراسة السباع وضباوة البهائم ثم لم يعط الآلة التي بها يستطيع التفرقة بين ما عليه وله والعلم بمصالحه ومفاسده فيقوى بها على عصيان طبائعه ومخالفة شهواته ، وبها يعرف عواقب الأمور وما تأتي به الدهور ، وفضل لذة القلب على لذة البدن ، وأن سرور الجاهل لا يحسن في جنب سرور العالم ، وأن لذة البهائم لا تعادل لذة الحكيم العالم ، وأي سرور كسرور العز والرياسة واتساع المعرفة وكثرة صواب الرأي والنجاح الذي لا سبب له إلا حسن النظر والتقدم في التدبير ثم العلم بالله وحده وأنتك بعرض ولايته والجاه عنده وأنه الذي يرهاك ويكفيك وأنتك إذا عملت اليسير أعطاك الكثير ومتى تركت له القاني أعطاك الباقي ومتى أدبرت عنه دهاك ومتى رجعت إليه اجتباك ، ويمدك على حقك ويعطيك على نظرك لنفسك ولا يفنيك إلا ليقيك ولا يميتك إلا ليحييك ولا يمنعك إلا ليعطيك ، وأنه المبدئ بالنعمة قبل السؤال والناظر لك في كل حال ، وهذا كله لا ينال إلا بغريزة العقل ، هل أن

الغريزة لا تنال ذلك بنفسها [بل] بما باشرته حواسها دون النظر والتفكر والبحث والتصنع ، ولن ينظر ناظر ولا يفكر مفكر دون الحاجة التي تبعث على الفكرة وعلى طلب الحيلة . ولذلك وضع الله تعالى في الانسان طبيعة الغضب وطبيعة الرضا والبخل والسخاء والجزع والصبر والرياء والاخلاص والكبر والتواضع والسخط والقناعة ، فجعلها هروفا ، ولن تنفي قوة غريزة العقل لجميع قوى طبائعه وشهواته حتى يقيم ما اخرج منها ويسكن ما تحرك دون النظر الطويل الذي يشدها والبحث الشديد الذي يشدها والتجارب التي تمنحها والفوائد التي تزيد فيها .

ولن يكثر النظر حتى تكثر الخواطر ، ولن تكثر الخواطر حتى تكثر الخواج ، ولن تبعد الروية إلا لبعدها غاية وشدة الحاجة .

[١٠ - العقل وحده لا يكفي في تحصيل المعرفة]

ولو ان الناس تركوا وقدر قوى غير الزهم ولم يياجوا بالحاجة على طلب مصلحتهم والتفكير في معاشهم وعواقب أمورهم وأجشوا إلى قدر خواطرهم التي تولدها مباشرة حواسهم دون أن يستمعهم الله خواطر الأولين وأدب السلف المتقدمين وكتب رب العالمين لما أدركوا من العلم إلا اليسير ولما ميزوا من الأمور إلا القليل ، ولولا ان الله تعالى أراد تشريف العالم وتربيته وتسويد العاقل ورفع قدره وأن يجعله حكيماً وبالعواقب عليها لما سخر له كل شيء ولم يسخره لشيء ولما طبعه الطبع الذي يميء منه أريب حكيم وعالم حلیم ، كما أنه هز ذكره لو أراد ان يكون الطفل عاقلاً والمجنون عالماً لطبعهم طبع العاقل ولسواهم تسوية العالم ، كما أراد أن يكون السبع وثاباً والحديد قاطعاً والسم قاتلاً والغذاء مقبلاً ، فكذلك أراد أن يكون المطبوع على المعرفة عالماً والمهتأ للحكمة حكيماً وذو الدليل مستدلاً وذو النعمة مستنفعاً بها ، فلما علم الله تبارك وتعالى أن الناس لا يدركون مصالحهم بأنفسهم ولا يشعرون بعواقب أمورهم بغير الزهم دون أن يرد عليهم آداب المرسلين وكتب الأولين والإخبار عن القرون والجبايرة الماضين طبع كل قرن من الناس على إخبار من يليه ووضع القرن الثاني دليلاً يعلم به صدق خبر الأول ، لأن كثرة السماع للإخبار العجيبة والمعالي

الغريبة مشحذة للاذهان ومادة للقلوب وسبب للتفكير وعلة للتغير عن الأمور ،
وأكثر الناس سماعاً أكثرهم خواطر ، وأكثرهم خواطر أكثرهم تفكراً ، وأكثرهم
تفكراً أكثرهم علماً ، وأكثرهم علماً أرجحهم عملاً ، كما أن أكثر البصراء رؤية
للاعاجيب أكثرهم تجارباً ، ولذلك صار البصير أكثر خواطر من الأعمى ، وصار
البصير السميع أكثر خواطر من البصير الأصم . وعلى قدر شدة الحاجة تكون
الحركة ، وعلى قدر ضعف الحاجة يكون السكون . كما أن الراجي والخائف
دائبان ، والأيس والأمن وادعان .

[١١ - سبب ارسال الرسل]

وإذا كان الله تعالى لم يخلق عباده في طبع عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا وآدم
أبي البشر صلوات الله عليهم أجمعين ، وخلقهم ناقصين وعن درك مصالحهم
عاجزين وأراد منهم العبادة ركلفتهم الطاعة وترك العيان للأمل البعيد وأرسل اليهم
رسله وبعث فيهم أنبياءه وقال : ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾
ولم يشهد أكثر عباده حجج رسله عليهم السلام ولا أحضرهم عجائب أنبيائه ولا
أسمعهم احتجاجهم ولا أراهم تدبيرهم ، لم يكن بد من أن يطلع المعانين على
أخبار الغائبين ، وأن يسخر أسماع الغائبين لأخبار المعاندين ، وأن يخالف بين طبائع
المخبرين وعلل الناقلين ليدل السامعين ومن يجيب من الناس على أن العدد الكثير
المختلفي العلل المتضادي الأسباب المتفاوتي المهم لا يتفقون على تخرص الخبر في
المعنى الواحد ، وكما لا يتفقون على تخرص الخبر في المعنى الواحد على غير التلاقي
والتراسل إلا وهو حق فكذلك لا يمكن مثلهم في مثل هللهم التلاقي عليه والتراسل
فيه ، ولو كان تلاقيهم ممكناً وتراسلهم جائزاً لظهر ذلك وفشا واستفاض وبدا ، ولو
كان ذلك أيضاً ممكناً وكان قولاً متوهماً لبطلت الحجة ولنقضت العادة وفسدت
العبرة ولعادت النفس بعملة الإخبار جاهلة ، ولكان للناس على الله أعظم الحجة ،
وقد قال الله عز وجل ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ اذاكلهم
طاعة رسله وتصديق أنبيائه ورسله وكتبه والايمان بجنته وناره ولم يضع لهم دليلاً على

صدق الاخبار وامتناع الغلط في الآثار ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

[١٢ - اختلاف طبائع الناس سبب تنوع المهنة]

واعلم أن الله تعالى إنما خالف بين طبائع الناس ليوفق بينهم ، ولم يجب أن يوفق بينهم فيها يخالف مصلحتهم ، لأن الناس لو لم يكونوا مسخرين بالأسباب المختلفة وكانوا مجبرين في الأمور المتفقة والمختلفة لجاز أن يختاروا بأجمعهم الملك والسياسة ، وفي هذا ذهب العيش وبطلان المصلحة والبوار والثواء ، ولو لم يكونوا مسخرين بالأسباب مرعنين بالعلل لربحوا عن الحجامة أجمعين وعن البيطرة والقصابة والدباغة ، ولكن لكل صنف من الناس مزين عندهم ما هم فيه ومسهل ذلك عليهم . فالحائك إذا رأى تقصيراً من صاحبه أو سوء حلق أو خرقاً قال له يا حجام ، والحجام إذا رأى تقصيراً من صاحبه قال له يا حائك . ولذلك لم يجمعوا على إسلام أبنائهم في غير الحياكة والحجامة والبيطرة والقصابة ، ولولا أن الله تعالى أراد أن يجعل الاختلاف سبباً للاتفاق والاتلاف لما جعل واحداً قصيراً وآخر طويلاً ، وواحداً حسناً والآخر قبيحاً ، وواحداً غنياً وآخر فقيراً ، وواحداً عاقلاً وآخر مجنوناً ، وواحداً ذكياً وآخر غيباً ، ولكن خالف بينهم ليختبرهم ، وبالاختبار يطيعون وبالطاعة يسعدون ، ففرق بينهم ليجمعهم وأحب أن يجمعهم على الطاعة ليجمعهم على المثوبة . فسبحانه وتعالى ما أحسن ما أبلى وأولى وأحكم ما صنع وأتقن ما دبر . لأن الناس لو رغبوا كلهم عن عار الحياكة لبقينا عراة ، ولو رغبوا بأجمعهم عن كد البناء لبقينا بالعراء ، ولو رغبوا عن الفلاحة لذهبت الأقوات ولبطل أصل المعاش . فسخرهم على غير إكراه ورغبهم من غير دعاء .

[١٣ - سبب الرضا بالوطن]

ولولا اختلاف طبائع الناس وعللهم لما اختاروا من الأشياء إلا أحسنها ومن البلاد إلا أحدها ومن الأمصار إلا أوسطها ، ولو كان كذلك لتناجزوا على طلب الوسط وتناجزوا على البلاد العليا ولما رسعهم بلد ولما تم بينهم صلح ، فقد صار بهم التسخير إلى غاية القناعة . وكيف لا يكون كذلك وأنت لو حولت ساكني

الأجام إلى الفيافي وساكني السهل إلى الجبال وساكني الجبال إلى البحار وساكني الوبر إلى المدر لأذاب قلوبهم لهم ولأن عليهم فرط النزاع ، وقد قيل : عمر الله البلدان بحب الأوطان . وقال عبد الله بن الزبير رحمه الله تعالى : ليس الناس بشيء من أقسامهم أفنع منهم بأوطانهم . وقال معاوية في قوم من اليمن رجعوا إلى بلادهم بعد أن أنزلهم من الشام منزلاً خصيباً وفرض لهم في شؤون العطاء : يصلون أوطانهم بقطيعة أنفسهم . وقال الله جل وعز : ﴿ ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ﴾ فقرن الضن بالأوطان إلى الضن بهج النفوس وليس على ظهرها إنسان إلا وهو معجب بعقله لا يسره أن له بجميع ماله ما لغيره ، ولولا ذلك لما اتوا كمداً ولذابوا حسداً . ولكن كل إنسان وإن كان يرى أنه حاسد في شيء فهو يرى أنه محسود في شيء .

[١٤ - سبب اختلاف الاسماء]

ولولا اختلاف الأسباب لتنازحوا بلدة واحدة واسماً واحداً وكنية واحدة . فقد صاروا كما ترى مع اختيار الأشياء المختلفة إلى الأسماء الفبيحة والألقاب السمحة . والأسماء مبدولة والصناعات متباحة والتاجر مطلقه ووجوه الطرق مخلاة ، ولكنها مطلقه في الظاهر مقسمة في الباطن ، وإن كانوا لا يشعرون بالذي دبره الحكيم من ذلك ولا بالمصلحة فيه ، فسبحان من حجب إلى واحد أن يسمى ابنه محمداً وحجب إلى آخر أن يسميه شيطاناً وحجب إلى آخر أن يسميه عبد الله وحجب إلى آخر أن يسميه هماراً ، لأن الناس لو لم يخالف بين علمهم في اختيار الأسماء وجزاء أن يهتموا على شيء واحد كان في ذلك بطلان العلامات وفساد المعاملات .

[١٥ - الإنسان مجبر وحر]

وأنت إذا رأيت ألوانهم وشمائلهم واختلاف صورهم وسمعت لغاتهم ونغمهم علمت أن طبائعهم وعلمهم المحجوبة الباطنة على حسب أمورهم الظاهرة . وبعض الناس وإن كانوا مسخرين للحياكة فليس بمسخر للفسق والخيانة والأحكام والصدق

والأمانة . وقد يسخر الملك لقوم بأسباب قديمة وأسباب حديثة فلا يزال ذلك الملك مقصوراً عليهم ما دامت تلك الأسباب قائمة ، فليس إذا كانوا للملك مسخرين وكان الناس هم مسخرين بالجبرية والنخوة والفظاظة والقسوة ولطول الاحتجاب والاستتار وسوء اللقاء والتضييع ، وقد يكون الانسان مسخراً لأمر وخيراً في آخر ولولا الأمر والنهي لجاز التسخير في دقيق الأمور وجليلها وخفيها وظاهرها ، لأن بني الانسان لما سخروا له إرادة العائدة عليهم ولم يسخروا للمعصية كما لم يسخروا للمفسدة . وقد نستوي الأسباب في مواضع وتتفاوت في مواضع ، كل ذلك ليجمع الله تعالى لهم مصالح الدنيا ومرشد الدين ، ألا ترى أن أمة قد اجتمعت على أن عيسى عليه السلام هو الله ، وأمة قد اجتمعت على أنه ابن الله ، وأمة اجتمعت على أن الألهة ثلاثة عيسى أحدها ، ومنهم من يتذبذب ، ومنهم من يتدهر ، ومنهم من يتحول نسطوريا بعد أن كان يعقوبياً ، ومنهم من أسلم بعد أن كان نصرانياً . ولست واجداً هذه الأمة مع اختلاف مذاهبها وكثرة تنقلها انتقلت مرة واختلفت مرة متعمدة أو ناسية في يوم واحد فجعلته وهو الجمعة يوم السبت . ولم تخطب في يوم جمعة بخطبة يوم خميس ، ولا خلطت في كانون الأول لجعلته كانون الآخر ، ولا بين الصوم والافطار ، لأن الباب الأول في باب الامكان وتعديل الأسباب والامتحان ، والباب الثاني داخل في باب الامتناع وتسخير النفوس وطرح الامتحان .

وقد زعم ناس من الجهال ونفر من الشكاك ممن يزعم أن الشك واجب على كل شيء إلا في العيان أن أهل المنصورة وانوا مصلاهم يوم خميس على أنه يوم الجمعة في زمن منصوري ، وأن أهل البحرين جلسوا عن مصلاهم يوم الجمعة على أنه يوم خميس في زمن أبي جعفر فبعث اليهم وقومهم . وهذا لا يجوز ولا يمكن في أهل الامصار ولا في العدد الكثير من أهل القرى ، لأن الناس من بين صانع لا يأخذ أجرته ولا راحة له دون الجمعة ، وبين تجار قد اعتادوا الدعة في الجمع والجلوس عن الأسواق ، ومن بين معلم كتاب لا يصرف غلمانه إلا في الجمع ، ومن بين معي بالجمع يتلاني هناك ومع المعارف والاخوان والجلساء ، وبين معي بالجمع حرصاً على الصلاة ورغبة في الثواب ، ومن رجل عليه موعد ينتظره ، ومن

صير في مصرف ذلك اليوم سفاحه وكتب أصحابه ، ومن جندي فهو يعرف بذلك نوبته ، وبعض كالسؤال والمساكين والقصاص الذين يمدون أعناقهم للجمعة انتظاراً للصدقة والفائدة ، في أمور كثيرة وأسباب مشهورة . ولو جاز ذلك في أهل البحرين والمنصورة لجاز ذلك على أهل البصرة والكوفة ، ولو جاز ذلك في الأيام لكان في الشهور أجوز ، ولو جاز ذلك في الشهور لكان في السنين أجوز ، وفي ذلك فساد الحج والصوم والصلاة والزكاة والأعياد . ولو كان ذلك جائزاً لجاز أن يتفق الشعراء على قصيدة واحدة ، والخطباء على خطبة واحدة ، والكتاب على رسالة واحدة ، بل جميع الناس على لفظة واحدة .

ولما نزلت لك حالات الناس وخبرتك عن طبائعهم وفسرت لك عللهم لتعلم أن العدد الكثير لا يتفقون على تخرص الخبر الواحد في المعنى الواحد في الزمن الواحد على غير التشاهر فيكون باطلاً وسابغ لك موضع اختلافهم واتفاقهم وأنه لم يخالف بينهم في بعض الوجوه إلا إرهاباً لمصلحتهم ولتصح أخبارهم .

[١٦ - سبب البيع والشراء]

ألا ترى أن أحداً لم يبع قط سلعة بدرهم إلا وهو يرى أن ذلك الدرهم خير له من سلعته ، ولم يشتر أحد قط سلعة بدرهم إلا وهو يرى أن تلك السلعة خير له من درهمه ، ولو كان صاحب السلعة يرى في سلعته ما يرى فيها صاحب الدرهم وكان صاحب الدرهم يرى في الدرهم ما يرى فيه صاحب السلعة ما اتفق بينهما شراء أبداً ولا بيع أبداً ، وفي هذا جميع المفسدة وغاية الهلكة . فسبحان الذي حجب إلينا ما في أيدي غيرنا وحبب إلينا ما في أيدينا ليقع التبايع ، وإذا وقع التبايع وقع الترابيح ، وإذا وقع الترابيح وقع التعايش .

[١٧ - سبب تنوع الأذواق في الطعام]

ويدلك أيضاً على اختلاف طبائعهم وأسبابهم أنك تجد الجماعة وبين أيديهم الفاكهة والرطب فلا تجد يدين تلتقيان على رطبة بعينها وكل واحد من الجميع يرى

ما حواه الطباق غير أن شهوته وقعت على واحدة غير التي آثرها صاحبه ، ولربما سبق الرجل إلى الواحدة وقد كان صاحبه يريدها في نفسه غير أن ذلك لا يكون إلا في الفرط ، ولو كانت شهواتهم ودواعيهم تتفق على واحدة بعينها لكان في ذلك التمانع والتجاذب والمبادرة وسوء المخالطة والمؤاكلة . وكذلك هو في شهوة النساء والإماء والمراكب والكساء . وهذا كثير والعلم به قليل ، وبأقل مما قلنا يعرف العاقل صواب مذهبنا ، والله تعالى نسأل التوفيق .

[١٨ - سبب عدم تواطؤ الناس الكثيرين على منحصر الخبر الواحد]

وهو الذي خالف بين طبائعهم وأسبابهم حتى لا يتفق على منحصر خبر واحد ، لأن في اتفاق طبائعهم وأسبابهم في جهة الأخبار فساد أمورهم وقلة فوائدهم واعتبارهم ، وفي فساد أخبارهم فساد متاجرهم والعلم بما غاب عن أبصارهم وبطلان المعرفة بأنبيائهم ورسولهم عليهم السلام ووعدهم ووعيدهم وأمرهم ونهيهم وزجرهم ورجبتهم وحدودهم وقصاصهم الذي هو حياتهم ، والذي يعدل طبائعهم ويسوي أخلاقهم ويقوي أسبابهم والذي به يتمنعون من توائب السباع وقلة احتراس البهائم وإضاعة الأعمار ، وبه تكثر خواطيرهم وتفكيرهم وتحسن معرفتهم .

[١٩ - تكذيب الخبر لا يعني نفيه]

ولم نقل إن العدد الكثير لا يجتمعون على الخبر الباطل كالتكذيب والتصديق ، ونحن قد نجد اليهود والنصارى والمجوس والزنادقة والدةهرية وعباد البددة يكذبون النبي ﷺ وينكرون آياته وأعلامه ، ويقولون لم يأت بشيء ولا بان شيء . وإنما قلنا إن العدد الكثير لا يتفقون على نفي مثل أخبارهم أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب النهمي الأبطحي عليه السلام خرج بمكة ودعا إلى كذا وأمر بكذا ونهى عن كذا وأباح كذا ، وجاء بهذا الكتاب الذي نقرؤه فوجب العمل بما فيه وأنه تحدى البلغاء والخطباء والشعراء بنظمه وتأليفه في المواضع الكثيرة والمحافل العظيمة فلم

يرم ذلك أحد ولا تكلفه ولا أتى ببعضه ولا شبيهه منه ولا ادهى أنه قد فعل ،
فيكون ذلك الخبر باطلا ، وليس قول جمعهم أنه كان كاذباً معارضة لهذا الخبر إلا
أن يسموا الانكار معارضة ، وإنما المعارضة مثل الموازنة والمكايلة ، فمضى قائلونا
بأنخبار في وزن أخبارنا ومخرجها ومجيئها فقد عارضونا ووازنونا وكايلونا وقد تكافينا
وتدافعنا . فأما الانكار فليس بحجة كما أن الاقرار ليس بحجة ، ولا تصديقنا النبي
ﷺ حجة على غيرنا ولا تكذيب غيرنا له حجة علينا ، وإنما الحجة في المجيء الذي
لا يمكن في الباطل مثله .

فان قلت : وأي مجيء أثبت [من] خبر النصارى عن عيسى بن مريم عليه
السلام ! وذلك أنك لو سألت النصارى مجتمعين ومتفرقين لخبروك عن أسلافهم أن
عيسى قد قال إني إله ؟

قلنا : قد علمنا أن نصارى عصرنا لم يكذبوا على القرن الذي كان قبلهم
والذين كانوا يلونهم ، ولكن الدليل على أن أصل خبرهم ليس كفره أن عيسى عليه
السلام لو قال إني إله لما أعطاه الله تعالى إحياء الموت والمشى على الماء ! على أن في
عيسى عليه السلام دلالة في نفسه أنه ليس بإله وأنه عبد مدبر ومقهور ميسر . وليس
خبرهم هذا إلا كإخبار النصارى عن آبائهم والقرن الذي يليهم أن بولس قد كان
جاء بالآيات والعلامات . وكإخبار المانوية عن القرن الذي كان يليهم من أن ماني
قد كان جاءهم بالآيات والعلامات ، وكإخبارهم المجوس عن آبائهم والذين كانوا
يلونهم أن زرادشت قد جاءهم بالآيات والعلامات . وقد علمنا أن هؤلاء النصارى
لم يكذبوا على القرن الذي كان يليهم ولا الزنادقة ولا المجوس ، ولكن الدليل على
أصل خبرهم ليس كفره . لأن الله تعالى جل وعز لا يعطي العلامات من لا
يعرفه . لأن بولس إن كان عنده أن عيسى عليه السلام إله فهو لا يعرف الله تعالى
بل لا يعرف الربوبية من العبودية والبشرية من الإلهية .

فصل منه : وللنصارى خاصة رياء عجيب وظاهر زهد ، والشاس أبطأ شيء
عن التصنع وأسرع شيء إلى تقليد صاحب السن والسمت ، وظاهر العمل أدهى

لهم من العلم .

فصل منه على ذكرهم - وكل قوم بنوا على حب الاشكال والشغف بالرجال يشتد وجدهم به وحبهم له حتى ينقلب الحب عشقا والوجد صبابة ، للمشاكلة التي بين النفوس ، وعلى قدر ذلك يكون البغض والحقد ، لأن النصارى حين جعلوا ربهم إنسانا مثلهم ابخلت نفوسهم بالاهيتهم له لتوهمهم الربوبية ، وسمحت بالمودة لتوهمهم البشرية . فلذلك قدروا من العبادة على ما لم يقدر عليه سواهم ، وبمثل هذا السبب صارت المشبهة منا أعبد ممن ينفي التشبيه ، حتى ربما رأيت المشبه يتنفس من الشوق إليه ويشهق عند ذكر الزيارة ويبكي عند ذكر الرؤية ويغشى عليه عند ذكر رفع الحجب ! وما ظنك بشوق من طمع في مجالسة ربه جل جلاله ومحادثة خالقه عز ذكره ؟! ولقد غالت القوم غول ودعاهم أمر فانظر ما هو ؟ وإن سألتني عنه خبرتك ألما هو نتيجة أحد أمرين : إما تقليد الرجال ، وإما طلب تعظيمهم . ولذلك السبب لم ترض اليهود من إنكار حق عيسى بتكذيبه حتى طلبت قتله وصلبه والمثلة به ، ثم لم ترض بذلك حتى زعمت أنه لغير رشدة . فلو كانت دون هذه المنزلة منزلة لما انتهت اليهود دون بلوغها ، ولو كانت فوق ما قالت النصارى منزلة لما انتهت دون غايتها . وبذلك السبب صارت الرافضة أشد صبابة وتحرقا وأفرط غضبا وأدوم حقدأ وأحسن تواملا من غيرهم أيضا . ورب خبر قد كان فاشيا فدخل عليه من العلل ما منعه من الشهرة ، ورب خبر ضعيف الأصل واهن المخرج قد تميا له من الاسباب ما يوجب الشهرة .

فصل منه : واعلم ان لأكثر الشعر ظعنا وحفظا ، كالبيت يحظى ويسير حتى يحظى صاحبه بحظه ، وغيره من الشعر أجود منه . وكالمثل يحظى ويسير وغيره من الأمثال أجود . وما ضاع من كلام الناس وفضل أكثر مما حفظ وحكي . واعتبر ذلك من نفسك وصديقك وجليسك . وأمر الاسباب عجيب . ومن ذلك قتل علي بن أبي طالب من السادة والقادة والحماة ما عسى لو ذكرته لاستكبرته واستعظمته . فأضرب الناس عن ذكرهم وجهلت العوام مواضعهم وأخذوا في ذكر عمرو بن عبد ود فرفعوه

فوق كل فارس مشهور وقائد مذكور . وقد قرأت على العلماء كتاب الفجار الأول والثاني والثالث وأمر المطيبين والاحلاف ومقتل أبي أزيهر ومجيء الفيل وكل يوم جمع كان لقريش فما سمعت لعمر و هذا في شيء من ذلك ذكراً .

فإن قلت : إن نبل القاتل زيادة في نبل المقتول فكل من قتله علي بن أبي طالب رضوان الله تعالى عليه أنبل منه وأحق بالشهرة ، ولكن أشعار ابن ود ومناقلة الصبيان في الكتاب هما اللتان أورثتنا ما ترى وتسمع .

فصل منه في أسر الأخبار - وإنما ذكرت هذا لتعلم أن الخبر قد يكون أصله ضعيفاً ثم يعود قويا ويكون أصله قويا فيعود ضعيفاً ، للذي يعتره من الأسباب ويحل به من الاعراض من لدن مخرجه وحصوله إلى أن يبلغ مدته ومنتهى أجله وضاية التدبير فيه والمصلحة عليه ، فلما كان هذا مخوفاً وكان غير مأمون على المتقادم منه وضع الله تعالى لنا على رأس كل فترة علامة وعلى غاية كل مدة أمانة ليعينه قوة الخبر ويمجد ما قد هم بالدروس من أنبياء المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين ، لأن نوحا عليه السلام هو الذي جدد الأخبار التي كانت في الدهر الذي بينه وبين آدم عليه السلام حتى منعها الخلل وهما النقصان بالشواهد الصادقة والامارات القائمة . وليس أن أخبارهم وحججهم قد كانت درست وأفلت ! بل حين همت بذلك وكادت بعثه الله عز وجل بآياته لثلا تخلو الأرض من حججه ، ولذلك سماوا آخر الدهر الفترة ، وبين الفترة والقطعة فرق . فاهرف ذلك . ثم بعث الله عز وجل إبراهيم عليه السلام على رأس الفترة الثانية التي كانت بينه وبين دهر نوح ، وإنما جعلها الله تعالى أطول فترة كانت في الأرض لأن نوحا كان لبث في قومه محتج ويخبر ويؤكد ويبين ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ولأن آخر آياته كانت أعظم الآيات وهي الطوفان الذي أغرق الله تعالى به جميع أهل الأرض ، غيره وغير شيعته ، وإنما فار الماء من جوف تنور ليكون أعجب للآية وأشهر للقصة وأثبت للحجة . ثم ما زالت الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بعضهم على أثر بعض في الدهر الذي بين إبراهيم وبين عيسى عليها السلام فترادف حججهم وتظاهر أعلامهم وكثرة

أخبارهم واستفاضة أمورهم ولشدته ما تأكد ذلك في القلوب ورسخ في النفوس
 وظهر على الألسنة لم يدخلها الخلل والنقص والفساد في الدر الذي كان بين النبي
 عليه الصلاة والسلام وبين عيسى عليه السلام ، فحين همت بالضعف وكادت تنقص
 عن التمام وانتهت قومها بعث الله تعالى محمداً ﷺ فجدد أقاصيص آدم ونوح
 وموسى وهارون وعيسى ويحيى عليهم السلام ، وأموراً بين ذلك ، وهو الصادق
 بالشواهد الصادقة وأن الساعة آتية وأنه ختم الرسل عليهم السلام به ، فعلمنا عند
 ذلك أن حجته ستبقى إلى مدعها وبلوغ أمر الله عز وجل فيها .

[٢٠ - ولع الناس بالأخبار الغريبة]

فصل منه : ثم رجع الكلام إلى القول في الأخبار فأقول : إن الناس موكلون
 بحكاية كل عجيب وميسرون للأخبار عن كل عظيم ، وليسوا للحسن أحكى منهم
 للقيح ، ولا لما ينفع أحكى منهم لما يضر ، وهل قدر كبر الشيخ تكون حكايتهم له
 واستماعهم منه ، ألا ترى أن رجلاً من الخلفاء لو ضرب عنق رجل من العظماء لما
 أمسى وفي مسكره أو بلدته جاهل ولا هناك إلا وقد استقر ذلك عنده وثبت في قلبه ،
 لأن الناس بين حاسد فهو يحكي ذلك الذي دخل عليه من الشكل وقلة العدد ،
 وبين واجد بمحبب الناس ، وبين واعظ معتبر ، وبين قوم شائهم الأراجيف بالفساد
 والصالح ، ولو كان ضرب عنقه في يوم عيد أو حلبة أو استمطار أو موسم لكان
 أشد لاستفاضته وأسرع لظهوره ، ولو جاز أن يكتم الناس هذا وشبهه على الأبطال
 للكتمان وهل جهة النسيان لكننا لا ندري لعله قد كان في زمن صفين والجمل
 والنهروان حرب مثلها أو أشد منها ، ولكن الناس آثروا الكتمان وانفقوا على
 النسيان ، فإذا كان قتل الملك للرجل من العظماء بهذه المنزلة من قلوب الأعداء ومن
 قلوب الحكماء والفوهاء ، فما ظنك بمن لو أبصروا رجلاً قد أحياه بعد أن ضرب
 عنقه وأبان رأسه من جسده ! أليس يكون تعجبهم من إحيائه أشد من تعجبهم من
 قتله ؟! وكان يكون إخبارهم من خلفوا في منازلهم ومن ورد عليهم عن القتل

ليكون سبباً للاخبار عن الاحياء ، إذ كان الأول صغيراً في جنب الثاني ! فهذا يدل على أن اعلام الرسل عليهم الصلاة والسلام وآياتهم أحق بالظهور والشهرة والقهر للقلوب والأسماع من مخارجهم وشرائعهم ، بل قد نعلم أن موسى عليه السلام لم يذكر ولم يشهر إلا لأعاجيبه وآياته ، وكذلك عيسى عليه السلام . ولولا ذلك لما كانا إلا كغيرهما ممن لا يشعر بموته ولا مولده . وكيف تتقدم المعرفة بهما المعرفة بأعلامهما وأعاجيبهما وأنت لم تسمع بذكرهما قط دون ما ذكر من أعلامهما ! فإذا كان شأن الناس الاخبار عن كل عجب وحكاية كل عظيم والإطراف بكل طريف وإيراد كل غريب من أمور دنياهم فما لا يمتنع في طبائعهم ولا يخرج من قوى الخليفة في البطش والحيلة أحق بالاخبار والاذاعة وبالأظهار والافاضة . هذا على أن يترك الطبع وما تولد عليه والنفوس وما تنتج والعلل وما يسخر ، فكيف إن كان الله عز وجل قد خص اعلام أنبيائه وآيات رسله عليهم السلام من تبيين الناس على الاخبار عنها ومن تسخير الاسماع لحفظها بخاصة لم يجعلها لغيرها .

[٢١ - اعتراض على اعتبار الأخبار حجة]

فصل منه : فإن قال قائل : إن الحجة لا تكون حجة حتى تعجز الخليفة وتخرج من حد الطاقة لإحياء الموتى والمشي على الماء وكفلق البحر وكاطعام الثمار في غير أوان الثمار وكانطاق السباع واشباع الكثير من القليل ، وكل ما كان جسماً مخترعاً وجرمًا مبتدعاً ، وكالذي لا يجوز أن يتولاه إلا الخالق ولا يقدر عليه إلا الله عز وجل ذكره ، فأما الاخبار التي هي أفعال العباد وهم تولوها وبهم كانت ويقوم حدث فلا يجوز أن يكون حجة إذ كان لا حجة إلا ما لا يقدر عليه الخليفة وما لا يتوهم من جميع البرية ؟

قلنا : إننا لم نزهم أن الاخبار حجة فيحتجوا علينا بها ، وإنما زعمنا أن مجيئها حجة ، والمجيء ليس هو أمر يتكلفه الناس ويختارونه على غيره ، ولو كان كذلك لكانوا متى أرادوه فعلوه ومهيشوا له ، ولفعلوه في الباطل كما يجيء لهم في الحق . والمجيء أيضاً ليس هو فعلاً قائماً فيستطيعونه أو يعجزوا عنه ، وإنما هو أن الانسان

يعلم أنه إذا لقي البصريين فأخبروه أنهم قد صابروا بمكة شيئاً ثم لقي الكوفيين فأخبروه بمثل ذلك ، أنهم قد صدقوا ، إذ كان مثلهم لا يتواطأ على مثل خبرهم على جهلهم بالغيب وعلى اختلاف طبائعهم وهممهم وأسبابهم . فليس بين هذا وبين إحياء الموتى والمشي على الماء فرق ، إذ كان الناس لا يقدرون عليه ولا يطمعون فيه . والمجيء إنما هو معنى معقول وشيء موهوم إذا كان وكيف يكون ، ومعلوم أن الناس لا يمكنهم أن يقدروا عليه ولا يستطيعون فعله ، وإنما مدار أمر الحجة على عجز الخليفة ، فمضى ووجدت أمراً ووجدت الخليفة عاجزة عنه فهو حجة ، ثم لا عليك جوهرأ كان أو عرضاً أو موجوداً أو متوهماً أو معقولاً ، ألا ترى أن فلق البحر ليس من جنس اختراع الثمار ؟ لأن الفلق هو انفراج أجزاء والثمار أجرام حادثة ا وكذلك لو أدهى رجل أن الله عز وجل أرسله فجعل حجته علينا الإخبار بما أكلنا وادخرنه وأضمرنا لكان قد احتج علينا .

[٢٢ -] اعتراض آخر : المنجم كالنبي يخبر بالغيب .

فإن قلت : إن المنجمين ربما أخبروا بالضمير وبالامر المستور وبعض ما يكون ؟ قلنا : هناك فرق ، فإن خطأ المنجمين كثير وحواجيم قليل ، بل هو أقل من القليل . أنتم لا تقدرتون أن تقفوا من إخبار المرسلين عليهم السلام في كثير إخبارهم على خطأ واحد . والذي سهل قليل المنجمين طرافة ذلك منهم ، لأنهم لو قالوا فأخطأوا أبداً لما كان عجبا ، لأنه ليس بعجب أن يكون الناس لا يعلمون ما يكون قبل أن يكون ، ومن اعجب العجب أن يوافق قلوبهم بعض ما يكون ، وقد نجد المنجمين يختلفون في القضية الواحدة ويخطئون في أكثرها . وقد نجد الرسول يخبرهم عما يأكلون وشربون ويدخرون ويضمرون في الأمور الكثيرة المعاني والمختلفة في الوجوه حتى لا يخطيء في شيء من ذلك . وليس في الأرض منجم ذكر شيئاً أو وافق ضميراً إلا وأنت واجد بعض من يزجر قد يجيء بمثله وأكثر منه .

فإن قلت : إن الناس يكذبون في الإخبار عن الأعصاب والكهان من كل

جيل !

قلنا : فهم في إخبارهم عن المنجمين أكذب . وبعد ، فالناس غير مستمظمين
نكثرة كذب المنجمين وخطئهم وخذعهم ، والناس يستمظمون اليسير من المرسلين
عليهم السلام . وكلما كان الرجل في عينك أعظم وكان عن الكذب أزجر كان كذبه
عندك أعظم . وإنما المنجم عند العوام كالطبيب الذي إن قتل المريض علاجه كان
عندهم أن القضاء هو الذي قتله ، وإن برأ كان هو أبراه . على أن صوابهم أكثر
ودليلهم أظهر . وقد صار الناس لا يقتصرون للمنجمين على قدر ما يسمعون منهم
دون أن يولدوا لهم ويضعوا الأعاجيب على السنتهم ، وكل ملحد في الأرض
[مبغض] للرسول طامن عليه عائب له ، يرى أن يصدق عليه كل كذاب يريد
ذمه ، وأن يكذب كل صادق يريد مدحه .

وبعد فلو كان خبر المنجمين في الصواب كخبر الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة
والسلام الذي هو حجة لما كان خبر المنجمين حجة .

فان قلت : ولم ذاك ؟ قلت لأن من كثر صوابه على غير استدلال ومقايسة
وعلى غير حساب ونجربة أو على نظر ومعينة ، لم يكن الأمر من قبل الوحي ، لأنك
لو قلت قصيدة في نفسك فحدثك بها رجل وأنت تعلم أنه ليس بمنجم وأنشدكها
كلها لعلمت أن ذلك لا يكون إلا بوحي ، ومثل ذلك رجل اشتد وجع عينه فعالجه
طبيب فبريء فلو جعل الطبيب ذلك حجة على نبوته لوجب علينا تكذيبه . ولو قال
رجل من غير أن يمسه أو يدنو إليه : اللهم إن كنت صادقا عليك فاشفه الساعة ا
فبريء من ساعته ، لعلمنا أنه صادق . فان قالوا : وما علمنا أن محمدا عليه
الصلاة والسلام لم يكن منجماً ؟ قلنا : إن علمنا بذلك كعلمنا بأن العباس وحمزة
وعليا وأبا بكر وعمر رضوان الله عليهم أجمعين لم يكونوا منجمين ولا أطباء
متكهنين . وكيف يجوز أن يصير إنسان عالماً بالنجوم من غير أن يختلف إلى المنجمين
أو يختلفوا إليه أو يكون علم النجوم فاشيا في أهل بلاده أو يكون في أهله واحد
معروف به ، ولو بلغ إنسان في علم النجوم وليست معه علة من هذه العلة وكان
ذلك يخفى لكان ذلك كبعض الآيات والعلامات ا ومتى رأينا حاذقاً بالكلام أو
بالطب أو بالحساب أو بالغناء أو بالنجوم أو بالعروض خفي على الناس موضعه

وسببه وجميع ما ذكرنا فعناية الناس به وهداوتهم له وشهرته في نفسه دون محمد ﷺ . وهل نسب أحد قط لأحد إلا دون ما نسب له رهطه وأداني أهله ومن معه في بيته وربعه ؟؟ وما أعرف يرحمك الله المعاند والمسترشد والمصدق والمكذب ينكر أن محمدا ﷺ لم يكن منجما ولا طبيا ، وإذا قال الجاهل إنه قد كان يعلم الخط فخفى له ذلك ، وتعلم الأسباب والقضاء في النجوم فخفى له ذلك ، وتعلم البيان وقدر منه على ما يعجز أمثاله عنه وخفى ذلك ، أليس مع قوله ما يعلم خلافه يعلم أنه قد سلم له أعجوبة كأعجوبة إبراء الأكمة والأبرص والمشي على الماء ؟ إذ كان ذلك لا يجوز ولا يمكن في الطبائع والعقل والتجربة .

وافهم يرحمك الله ما أنا واصف لك ، هل يجد التارك لصديقه أنه لا يدري بزعمه لعله كان أعلم الخلق بالنجوم ناظراً لنفسه غير معاند لحجة عقله ، وهو لم يجد أحداً قط برع في صناعة واحدة فخفى على الناس موضعه بكل ما حكينا وفسرنا ؟ وأنت كيف تعلم أنه ليس في إخوانك من ليس بمنجم وأن فيهم من ليس بطبيب إلا بمثل ما يعرف به رهط النبي صلى الله عليه وسلم وآله منه وكيف لم يشتهر ذلك ، ولم لم يحتج به عليه ؟ ولقد بلغ من إسرائفهم في شتمه وإفراطهم عليه أن نافقوا وأحالوا لأنهم كانوا يقولون له أنت ساحر وأنت مجنون . وإنما يقال للرجل ساحر لخلافته وحسن بيانه ولطف مكائده وجودة مداراته وتحببه ، ويقال مجنون لصد ذلك كله .

لفصل منه - وليس ينتفع الناس بالكلام في الأخبار إلا مع التصديق ، ولا تصادق إلا مع كثرة السماع والعلم بالأصول ، لأن رجلاً لو نازع في الأخبار وفي الوعد والوعيد والخاص والعام والناسخ والمنسوخ والفريضة والنافلة والسنة والشريعة والاجتماع والفرقة ، ثم حسنت نيته وناصرع عن نفسه ، لما عرف حقائق باطل دون أن يكون قد عرف الوجوه وسمع الجمل وعرف الموازنة وما كان في الطبائع وما يمتنع فيها ، وكيف أيضا يقول في التأويل من لم يسمع بالتنزيل ، وكيف يعرف صدق الخبر من لم يعرف سبب الصدق ؟

واعلم أن من عود قلبه التشكك اعتراه الضعف ، والنفس عزوف فما صودتها من شيء جرت عليه ، والمتخير إلى تقوية قلبه ورد قوته عليه وإفهامه موضع رأيه وتوقيفه على الأمر الذي شغل صدره أخرج منه إلى المنازعة في فرق ما بين المجيء الذي يكذب مثله والمجيء الذي لا يكذب مثله . وستكلف من علاج دائه وترتيب إفهامه إن أعان على نفسه بما لا يبغي سببا للشك ولا علة للضعف والله تعالى المعين على ذلك والمحمود عليه .

فصل منه - ومتى سمعنا نبي الله عليه السلام اتكل على عدالته وعلى معرفة قومه بتقديم طهارته وقلة كذبه دون أن جاءهم بالعلامات والبرهانات ؟ ولعمري لو لم نجد الحافظ بنسي والصادق يكذب والمؤمن يبدل لقد كان ما ذهبوا إليه وجها .

[٢٣ - الدعاء المستجاب حجة على النبوة]

فصل منه في ذكر دلائل النبي ﷺ ، وباب آخر يعرف به صدقه وهو إخباره عما يكون وإخباره عن ضمائر الناس وما يأكلون وما يدخرون ، ولدعائه المستجاب الذي لا تأخير فيه ولا خلف له ، وذلك أن النبي ﷺ حين لقي من فريش والعرب ما لقي من شدة أذاهم له وتكذيبهم إياه واستعانتهم عليه بالأموال والرجال دعا الله عز وجل أن يجذب بلادهم وأن يدخل الفقر في بيوتهم فقال ﷺ : اللهم سنين كسبي يوسف اللهم أشدد وطأتك على مضر . فأمسك الله عز وجل عنهم المطر حتى مات الشجر وذهب الثمر وقلت المزارع وماتت المواشي وحتى اشتروا القد والعلهز ، فعند ذلك وفد حاجب بن زرارة على كسرى يشكو إليه الجهد والأزل ويستأذنه في رعي السواد ، وهو حين ضمنه عن قومه أرهنه قوسه . فلما أصاب مضر خاصة الجهد ونهكهم الأزل وبلغت الحجة مبلغها وانتهت الموعظة منها عاد بفضلته ﷺ على الذي بدأهم به فسأل ربه الخصب وإدرار الغيث ، فأتاهم منه ما هدم بيوتهم ومنعهم حوائجهم ، فكلموه في ذلك فقال : اللهم حوالينا ولا علينا . فأمطر الله عز وجل ما حولهم وأمسك عنهم . وكتب إلى كسرى يدعوه إلى نجاته وتخليصه من كفره فبدأ باسمه على اسم فأنف من ذلك كسرى لشقوته وأمر بتمزيق الكتاب .

فلما بلغه ﷺ قال : اللهم مزق ملكه كل ممزق . فمزق الله جل وعز ملكه وجدأ أصله وقطع دابره . لأن كل ملك في الأرض وإن كان قد أخرج من معظم ملكه فهو مقيم على بقية منه ، وذلك أن الإسلام لم يترك ملكا بحيث تناله الحوافر والأخفاف والأقدام إلا أزاله عنه وأخرجه منه إلى عقاب يعتصم بها ومعاقبل يأوي إليها أو طرده إلى خليج منيع لا يقطعه إلا السفن . فهم من بين هارب قد دخل في وجار أو اختفى في غيضة أو مقيم على فم شعب ورأس مضيق ، قد سخت نفسه عن كل سهل وأسلم كل مرج ، أو ملك لاقرار له وليس بلذي مدر فيؤق وإنما أصحابه أكراد يطلبون النجعة أو كخوارج يطلبون الغرة . فأما أن يكون ملك يصمد لهم ويقوم بازائهم ويهاديهم الحرب ويمسيهم ويساجلهم الظفر ويناھضهم ، كما كانت ملوك الطوائف ، وكالذي كان بين فارس والروم فلا ، وذلك لقوله تعالى : ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ .

فلم يرض أن أظهر دينه حتى جعل أهله الغالين بالقدره والظاهرين بالمنعة والأخذين الإتاوة . وكتب كسرى إلى فيروز الديلمي وهو من بقية أصحاب سيف بن ذي يزن : أن احمل الي هذا العبد الذي بدأ بأسمه قبل اسمي واجترأ علي ودعاني إلى غير ديني . فأتاه فيروز فقال : إن ربي أمرني أن أملكك إليه . فقال ﷺ : إن ربي أخبرني أنه قد قتل ربك البارحة ، فأمسك على ريث ما يأتيك الخبر فإن تبين لك صدقي وإلا فأنت على أمرك . فراع ذلك فيروز وهاله وكره الإقدام عليه والاستخفاف به . فإذا الخبر قد أتاه أن شيرويه قد وثب عليه في تلك الليلة فقتله . فأسلم وأخلص ودعا من معه من بقية الفرس إلى الله عن ذكره فأسلموا .

فصل منه - في ذكر النبي ﷺ : ثم إن الذي تقدمه ﷺ من البشارات من الكتب المتقدمة في الأزمان المتباعدة والبلدان الموجودة بكل مكان ، على شدة عداوة أهلها وتعصب حاملها ومع قوة حسدهم وشدة بغيتهم ، وما ذلك ببديع منهم ومن آبائهم ، على أنهم أشبه بأبائهم ، منهم بأزمانهم ، وكل الناس

أشبه بأزمانهم منهم بأبائهم ، وآبائهم الذين قتلوا أنبياءهم عليهم السلام
وتعتوا رسلهم غضب الله عليهم حتى خلاهم الله عز وجل من يده وأفقدهم عصمته
وتوفيقه ، ولم أستدل على ذكره في التوراة والأنجيل والزبور وعلى صفته والبشارة به
في الكتب إلا لأنك متى وجدت النصراني واليهودي يسلم بأرض الشام وجدته يعتل
بأمور ويحتج بأشياء مثل الأمور التي يحتج بها من أسلم بالعراق ، وكذلك من أسلم
بالحجاز ومن أسلم باليمن من غير تلاق ولا تعارف ولا تشاعر ، وكيف يتلاقون
ويتراسلون وهم غير متعارفين ولا متشاعرين ! ولو كانوا كذلك لظهر ذلك ولم
ينكتم ، كما حكينا قبل هذا ، ولو قابلت بين أخبارهم واحتجاجهم مع كثرة الألفاظ
واختلاف المعاني لوجدتها متساوية .

فصل منه - فإن قال قائل : لم كانت أعلام موسى عليه السلام في كثرتها مع
غى بني اسرائيل ونقصان أعلام القبط في وزن أعلام محمد ﷺ وفي قدرها مع أعلام
قريش وعقول العرب ؟ ومتى أحبت أن تعرف غى بني اسرائيل ونقص أعلام القبط
ورجحان عقول العرب وأعلام كنانة فانظر بواديهم ورباعهم وانظر إلى بنهيم
وبقايهم كما نظرت إلى غى بني اسرائيل ونقص بني من مضي من القبط تعتبر ذلك
وتعرف ما أقول . ثم انظر في الأشعار الصحيحة والخطب المعروفة والأمثال المضروبة
والألفاظ المشهورة والمعاني المذكورة مما نقلته الجماعات عن الجماعات وكلام العرب
ومعانيهم في الجاهلية ، ثم تفقد وسيل أهل العلم والخبرة عن بني اسرائيل فإن
وجدت لهم مثلاً سائراً كما تسمع للقبط والفرس فضلاً عن العرب فقد أبطلنا فيما
قلنا . وقد كان الرجل من العرب يقف المواقف وينشئ عدة أمثال كل واحد منها
ركن يبنى عليه وأصل يتفرع منه . أو هل تسمع لهم بكلام شريف أو معنى
يستحسنه أهل التجربة وأصحاب التدبير والسياسة أو حكم أو حكمة أو حلق في
صناعة مع ترادف الملك فيهم وتظاهر الرسالة في رجالهم ، وكيف لا تقضي عليهم
بالغنى والجهل ولم تسمع لهم بكلمة فاخرة أو معنى نبه لا بمن كان في المبدأ ولا بمن
كان في المحضر ولا من قاطني السواد ولا من نازلي الشام ، ثم انظر إلى اولادهم
مع طول لبثهم فينا وكونهم معنا هل غير ذلك من أخلاقهم وشمائلهم وعقولهم

وأحلامهم وآدابهم وفطنهم ؟ فقد صلح بنا كثير من أمور النصارى وغيرهم ، وليس النصارى كاليهود ، لأن اليهود كلهم من بني إسرائيل إلا القليل . وبعد فلم يضرب فيهم غيرهم لأن مناكحهم مقصورة فيهم وهبوسة عليهم قصورا ولم يؤداة إلى آخره ، وظنوا أسلافهم مردودة على أخلافهم ثم اعتبر بقولهم لنبيهم عليه السلام : ﴿ اجعل لنا إلهاً كما لهم إلهة ﴾ حين مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم يعبدونها وكقولهم ﴿ أرنا الله جهرة ﴾ وكعكوفهم على عجل صنع من حلبيهم يعبدونه من دون الله بعد أن أراه من الآيات ما أراهم ، وكقولهم ﴿ إذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ﴾ فكان الذي جاء به موسى عليه السلام مع نقص بني إسرائيل والقبط مثل الذي جاء به محمد مع رجحان قريش والعرب . وكذلك وعد محمد عليه الصلاة والسلام بنار الأبد كوعيد موسى بني إسرائيل بالقاء الهلاس على زروعهم والهم على أفئدتهم وتسليط الموتان على ماشيتهم وباخراجهم من ديارهم وأن يظفر بهم عدوهم ، فكان تعجيل العذاب الأدنى في استدعائهم واستمالتهم وردعهم عما يريد بهم وتعديل طبائعهم ، كتأخير العذاب الشديد على غيرهم ، لأن الشديد المؤخر لا يزعج إلا أصحاب النظر في المواقب أصحاب العقول التي تذهب في المذاهب فسبحان من خالف بين طبائعهم وشرائعهم ليتفقوا على مصالحهم في دنياهم ومرآشدهم في دينهم .

[٢٤ - حيز العرب عن معارضة القرآن حجة]

مع أن محمداً ﷺ هصوص بعلامة لها في العقل موقع كموقع فلق البحر من العين ، وذلك قوله لقريش خاصة وللعرب عامة مع ما فيها من الشعراء والخطباء والبلغاء والدهاة والهلهاء وأصحاب الرأي والمكينة والتجارب والنظر في العاقبة : إن عارضتموني بسورة واحدة فقد كذبت في دعواي وصدقتم في تكذبي . ولا يجوز أن يكون مثل العرب في كثرة عددهم واختلاف عليلهم والكلام كلامهم وهو سيد عملهم قد فاض بياهم وجاشت به صدورهم وغلبتهم قوتهم عليه عند أنفسهم حتى قالوا في الحيات والعقارب والذئاب والكلاب والحنافس والجعلان والحمير والحمام

وكلما دب ودرج ولاح لعين وخطر على قلب ، ولهم بعد أصناف النظم وضروب
التأليف كالقصيد والرجز والمزدوج والمجانس والاسجاع والمنثور ، وبعد فقد هجوه
من كل جانب ، وهاجى أصحابه شعراءهم ، ونازعوا خطباءهم ، وحاجوه في
المواقف ، وخاصموه في المواسم ، وبادروه العداوة ، وناصبوه الحرب ، فقتل منهم
وقتلوا منه وهم أثبت الناس حقدا وأبعدهم مطلبا وأذكرهم لخير أو لشر وأنفاهم له
وأهجاهم بالمعجز وأمدحهم بالقوة ثم لا يعارضه معارض ولم يتكلف ذلك خطيب
ولا شاعر ! . ومحال في التعارف منكر في التصديق أن يكون الكلام أخصر عندهم
وأيسر مؤنة عليهم ، وهو أبلغ في تكذيبهم وأنقض لقوله وأجدر أن يعرف ذلك
أصحابه فيجتمعوا على ترك استعماله والاستغناء به وهم يبذلون مهجهم وأموالهم
ويخرجون من ديارهم ، في إطفاء أمره وفي توهين ما جاء به ولا يقولون بل لا يقول
واحد من جماعتهم : لم تقتلون أنفسكم وتستهلكون أموالكم وتخرجون من دياركم
والخيلة في أمره يسيرة والمأخذ في أمره قريب ؟ ليؤلف واحد من شعرائكم وخطبائكم
كلما في نظم كلامه كأقصر سورة مجدلكم بها وكأقصر آية دعاكم إلى معارضتها ،
بل لو نسوا ما تركهم حتى يذكروهم ، ولو تغافلوا ما ترك أن ينبههم ، بل لم يرض
بالتنبيه دون التوقيف ، فدل ذلك العاقل على أن أمرهم في ذلك لا يخلو من أحد
أمرين : إما أن يكونوا عرفوا عجزهم وأن مثل ذلك لا يتهيأ لهم فرأوا أن الإضراب
عن ذكره والتغافل عنه في هذا الباب وإن قرعهم به أمثل لهم في التدبير وأجدر أن
لا ينكشف أمرهم للجاهل والضعيف وأجدر أن يجذوا إلى الدعوى سيلا وإلى
اختداع الأنبياء سببا ، فقد ادعوا القدرة بعد المعرفة بعجزهم عنه وهو قوله عز ذكره
﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ وهل يذعن
الأعراب وأصحاب الجاهلية للتقريع بالمعجز والتوقيف على النقص ثم لا يبذلون
مجهودهم ولا يخرجون مكنونهم وهم أشد خلق الله أنفة وأفرط حمية وأطلبه بطائلة ،
وقد سمعوه في كل منهل وموقف ! . والناس موكلون بالخطابات مولعون بالبلاغات ،
فمن كان شاهدا فقد سمعه ومن كان غائبا فقد أتاه به من لم يزوده ، وإما أن يكون
غير ذلك ولا يجوز أن يطبقوا على ترك المعارضة وهم يقدرون عليها ، لأنه لا يجوز

على العدد الكثير من العقلاء والدهاة والحكماء مع اختلاف عقولهم وبعد همهم
وشدة عداوتهم على بذل الكثير وصون اليسير ، وهذا من ظاهر التدبير ومن جليل
الأمور التي لا تخفى على الجهال فكيف على العقلاء وأهل المعارف ، فكيف على
الأعداء ؟ لأن تحبير الكلام أهون من القتال ومن إخراج المال ، ولم يقل إن القوم قد
تركوا مسألتهم في القرآن والظعن فيه بعد أن كثرت خصومتهم في غيره ، وبذلك على
ذلك قوله عز وجل ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ وقوله
عز ذكره : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا لئن أتت بقرآن
غير هذا أو بدله ﴾ وقوله تعالى ذكره : ﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه
وأحانه عليه قوم آخرون ﴾ ، وبذلك كثرة هذه المراجعة وطول هذه المناقلة على أن
التقريع لهم بالعجز كان فاشياً ، وأن عجزهم كان ظاهراً ، ولم يكن النبي ﷺ
تحداهم بالنظم والتأليف ولم يكن أيهاً أزاح علتهم حتى قال تعالى : ﴿ قل فأتوا
بمشر سور مثله مفتريات ﴾ وعارضوني بالكذب لقد كان في تفصيله له وتركيبه
وتقديمه له واحتجاجه ما يدعو إلى معارضته ومغالبة وطلب مساويه ، ولو لم يكن
تحداهم في كل ما قلنا وقومهم بالعجز عما وصفنا ، وهل هذا إلا تمديحه له واكثاره
فيه لكان ذلك سبباً موجباً لمعارضته ومغالبة وطلب تكذيبه ، إذ كان كلامهم وهو
سيد عملهم والمؤونة فيه أخف عليهم وقد بدلوا النفوس والأموال ، وكيف ضاع منهم
وسقط على جماعتهم نيفا وعشرين سنة مع كثرة عددهم وشدة عقولهم واجتماع
كلمتهم ، وهذا أمر جليل الرأي ظاهر التدبير .

فصل منه - في كراهة امتناعهم عن معارضة القرآن لعجزهم عنها - : والذي
منعهم من ذلك هو الذي منع ابن أبي العوجاء وإسحق بن طالت والنعمان بن
المنذر وأشباههم من الأرجاس الذين استبدلوا بالعز ذلاً وبالإيمان كفراً وبالسعادة
شقوة وبالحجة شبهة ، بل لا شبهة في الزندقة خاصة ، فقد كانوا يصنعون الآثار
ويولدون الأخبار ويشؤونها في الأمصار ويطعنون في القرآن ويسألون عن متشابهه وعن
خاصه وعامه ويضعون الكتب على أهله . وليس شيء مما ذكرنا يستطيع دفعه جاهل
غبي ولا معاند ذكي .

فصل منه - ولما كان أعجب الأمور عند قوم فرعون السحر ولم يكن أصحابه قط في زمان أشد استحكاماً فيه منهم في زمانه ، بعث الله موسى عليه السلام على إبطاله وتوهينه وكشف ضعفه وإظهاره ونقض أصله لردع الأغبياء من القوم ولمن نشأ على ذلك من السفلة والطغام ، لأنه لو كان أتاهم بكل شيء ولم يأثمهم بمعارضة السحر حتى يفصل بين الحججة والحيلة لكانت نفوسهم إلى ذلك متطلعة ولاعتل به أصحاب الأشغال ولشغلوا به بالضعيف ، ولكن الله تعالى مجده أراد حسم الداء وقطع المادة وأن لا يجد المبطلون متعلقاً ولا إلى اختداع الضعفاء سبيلاً ، مع ما أعطى الله موسى عليه السلام من سائر البرهانات وضروب العلامات . وكذلك زمن عيسى عليه السلام كان الأغلب على أهله وعلى خاصة علمائه الطب ، وكانت عوامهم تعظمهم على خواصهم ، فأرسله الله عز وجل باحياء الموتى ، إذ كانت غايتهم علاج المرضى وإبراء الأكف ، وإذ كانت غايتهم علاج الرمد . مع ما أعطاه الله تعالى عز وجل من سائر العلامات وضروب الآيات . لأن الخاصة إذا نجعت بالطاعة وقهرتها الحججة وعرفت موضع العجز والقوة وفصل ما بين الآية والحيلة ، كان أنجع للعامة وأجدر أن لا يبقى في أنفسهم بقية . وكذلك دهر محمد ﷺ كان أغلب الأمور عليهم وأحسنها عندهم وأجلها في صدورهم حسن البيان ونظم ضروب الكلام مع علمهم له وانفرادهم به ، فحين استحكمت لغتهم وشاعت البلاغة فيهم وكثر شعراؤهم وفاق الناس خطباؤهم ، بعثه الله عز وجل فتحدهم بما كانوا لا يشكون أنهم يقدرون على أكثر منه ، فلم يزل يقرعهم بمجزهم وينقصهم على نقصهم حتى تبين ذلك لضعفائهم وعوامهم ، كما تبين لأقويائهم وخواصهم ، وكان ذلك من أعجب ما آتاه الله نبياً قط ، مع سائر ما جاء به من الآيات ومن ضروب البرهانات . ولكل شيء باب ومأتى واختصار وتقريب ، فمن أحكم الحكمة إرسال كل نبي بما يفهم أعجب الأمور عندهم ويبطل أقوى الأشياء في ظنهم .

[٢٥ - اجتماع محامد الأخلاق في النبي حجة]

فصل منه : في ذكر أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام - وآية أخرى لا

يعرفها إلا الخاصة ، ومعى ذكرت الخاصة فالعامية في ذلك مثل الخاصة . وهي الأخلاق والأفعال التي لم تجتمع لبشرى قط قبله ، ولا تجتمع لبشرى بعده ، وذلك أنا لم نرو ولم نسمع لأحد قط كصبره ولا كعلمه ولا كوفائه ولا كزهده ولا كجوده ولا كنجده ولا كصدق لهجته وكرم عشرته ، ولا كتواضعه ولا كعلمه ولا كحفظه ولا كصمته إذا صمت ولا كقوله إذا قال ولا كعجيب منشئه ولا كقلة تلونه ولا كغفوه ولا كدوام طريقتة وقلة امتنائه . ولم نجد شجاعاً قط إلا وقد جال جولة وفرفرة وانحاز مرة من معدودي شجعان الإسلام ومشهوري فرسان الجاهلية كفلان وفلان . وبعد فقد نصر النبي ﷺ وهاجر معه قوم ولم نر كنجدهم نجدة ولا كصبرهم صبراً ، وقد كانت لهم الجولة والفررة ، كما قد بلغك عن يوم أحد وعن يوم حنين وغير ذلك من الوقائع والأيام ، فلا يستطيع منافق ولا زنديق ولا دهري أن يحدث ان محمداً ﷺ جال جولة قط أو فرفرة قط أو خار عن غزوة أو هاب حرب من كثره .



مركز تحقيقات علوم و تاریخ اسلامی

هامش حجج النبوة

(١) في المقدمة يعدد الجاحظ المسائل التي سيعالجها في الرسالة أهمها التفرقة بين الحجة والشبهة وحجج النبوة وأنواع الاخبار والحاجة إليها وأخلاق الناس وشرايع الأنبياء وأسباب اذاعة الاخبار ويعد بأنه سيقسم الاخبار ويجعلها مراتب ثم يذكر حجج الرسول ثم يبحث في اجناس الآثار ومنازلها . ولم يف الجاحظ بكل ما وعد ، فلا نجد في رسالته كلاماً في الآثار واجناسها ومراتبها ، وربما بحث هذا الموضوع ولكن آفة الضياع أتت عليه وهذا هو الأرجح لأن الرسالة لم تصلنا كاملة .

(٢) يعرف الحجة ويبين أنواعها . الحجة هي الدليل ، وهي نوعان : العميان والخبر . فهناك إذاً مستدل ودليل ، المستدل هو العقل والدليل يكون عياناً أو خبراً ، والعميان والخبر أصلاً الاستدلال والاستدلال هو الفرع . ودلائل النبوة هي علامات النبي وبراهينه وآياته وصنوف بدائعه وأنواع عجائبه .

(٣) لم أهمل السلف جمع حجج النبوة ؟ مسألة تقلق الجاحظ فيحاول معرفة أسباب ذلك الإهمال والاهتفال . ويبنّي عدم رضاه عن ذلك الإهمال ويقول : لو أن السلف جمعوا حجج النبوة كما جمعوا القرآن لما استطاع اليوم دفعها أو الطعن فيها أو الشك فيها الزنادقة والدهريون والمجان وضعفاء العقول والاحداث المفرورون . ويشير الجاحظ الى الفئات التي تثير الشكوك حول الدين في نفوس الجهال والعامة والاحداث وتمثل بالمشركين والمجوس « والدخلاء الذين نطقوا بالستنا » يعني بهم الاعاجم أو غير العرب .

(٤) لم يجمع السلف الحجج لظهورها واستفاضة أمرها . وإذا كان الأمر كذلك أي إذا كانت الحجج ظاهرة واضحة فلم شك فيها الجهال والاحداث والسفهاء والخلفاء ؟ يمزو الجاحظ ذلك الى قلة مبالاة هؤلاء وحدائتهم كما يمزوه الى اهتمامهم بدقيق الكلام قبل علمهم بجليله فعجزت عقولهم عن فهمه وضلوا السبيل . وهو يعني بدقيق الكلام المسائل الفلسفية وبجليل الكلام المسائل الدينية .

(٥) وربما كان سبب عدم جمع الحجج هو صرف الله الأسلاف عن هذا العمل « ليمتنع غيرهم

في آخر الزمان وليعرضهم لطاعته بالذب عن دينه .

(٦) إن السلف اهتموا ببطب القراءات وجمع القرآن لشدة الاختلاف في القراءات او لكثرتها وتفشيها ثم لأنه يمكن تناول كلمة من هنا وكلمة من هناك وتأليفها في آية والقول أنها كلها مأخوذة من القرآن .

(٧) ينبغي جمع حجج النبوة من قبل العلماء اليوم كما جمعت القراءات والآيات من قبل السلف بالامس درءاً للاختلاف بين المسلمين . وكما حمل الناس على قراءة زيد لأنها أحق من غيرها وأن كانت سائر القراءات حق ، كذلك يجب حمل الناس على اعتماد حجج النبوة المجموعة على اعتبارها أحق من غيرها . وينطلق الجاحظ في رأيه هذا من مبدأ يقول ان للحق درجات وللخلاف درجات وللحرام درجات وللحسن درجات ويعطي مثل ولي المقبول الذي له حق قتل الجاني وله حق الصنح ، والصنح أفضل .

(٨) الاسباب التي حملت الجاحظ على تأليف حجج النبوة : ليسهل حفظها على من يجهلها ، وليزداد بصيرة بها من يعلمها ، وليكتمل علم من يعرف بعضها فقط ، ولإزالة الشبهة في نفس الشاك والملحد .

(٩) حاجة الناس الى الاخبار تفسر بأمر هدة : يحتاج الناس الى الاخبار للاعتبار بها وفي الاعتبار علم وفي العلم فضل . ويحتاج الاعتبار الى آلة ، هذه الآلة هي العقل ، والعقل حريزة تحتاج في عملها الى معونة الحواس ، والى توافر الحوائج التي تهيئها للعمل .

(١٠) ويحتاج الناس الى الاخبار لأنهم لا يتركرون مصالحهم بأنفسهم وبالاعتماد على عقولهم فقط ان الاخبار عن القرون الماضية ، وآداب المرسلين وكتب الأولين تشحن الأذهان وتدعو الى التفكير .

(١١) ويحتاج الناس الى الاخبار لأن الدين لم يشهدوا حجج الرسل وعجائب الانبياء ولم يعيشوا في الأزمنة التي ظهر فيها هؤلاء لا بد لهم من أن يطلعوا عليها من شاهدها عن طريق الرواية او الاخبار او كما يقول الجاحظ لا بد من ان يطلع الغائبون على اخبار المعاصرين . وهؤلاء المعاصرون المخبرون لا يمكن كثرتهم ان تتفق على تفرص الخبر الواحد لاختلاف طبائعهم .

(١٢) ان اختلاف طبائع الناس هو سر توافقتهم ، وفي توافقتهم مصلحتهم . ولو كان الناس خسريرين في الأمور المتضقة والمختلفة لاختراروا جميعاً الملك وذهبوا عن سائر المهن كالبيطرة والقصابية والديباجة والحجامة وفي ذلك بطلان المصلحة والهلاك .

ثم إن اختلاف الناس في مهولهم المهنية يفسر برأي الجاحظ باختلاف طبائعهم . مثل إنسان يميل بطبعه الى عمل من الأعمال يتلاءم مع استعداد طبيعي يحملة بالفطرة .

(١٣) وحب الوطن والتعلق بالبلاد التي ينشأ فيها القوم مهما كانت احوالها المناخية من السوء او

الطبية يفسر بنظر الجاحظ باختلاف طبائع الناس .

(١٤) وكذلك يفسر الجاحظ اختلاف الاسماء باختلاف الطبائع ، وفي اختلاف الاسماء يمكن التمييز بين الناس والتفريق بين المعاملات .

(١٥) واذا كان الناس مسخرين في مهولهم المهنية وافواقهم الجمالية فانهم غير مسخرين في الأمور الخلقية ، وبعض الناس وان كانوا مسخرين للحياكة فليس بمسخر للفسق والحياثة والصدق والامانة . وهذا رأي يحتاج الى نقاش لان الجاحظ يمكن ان يكون قد وقع بالتناقض .

(١٦) ومن نتائج اختلاف الطبائع امكانية البيع والشراء بين الناس . فلو كان المشتري يتفق رأيه في السلعة مع البائع لما أقدم على الشراء ولما أقدم البائع على البيع ولتمسك المشتري بتقوده وتمسك البائع بسلعته .

(١٧) ومن نتائج اختلاف الطبائع تنوع الاذواق في الاطعمة .

(١٨) واختلاف الطبائع هو سبب هدم اتفاق الناس الكثيرين على تخرص الخبر الواحد . ولو اتفقت طبائعهم في جهة الاخبار لفسدت اخبارهم وفي فساد اخبارهم فساد علمهم وبطلان المعرفة بانبيائهم .

(١٩) يميز الجاحظ بين صحة الخبر ووجوده . ان العدد الكثير من الناس قد يجتمعون على تكذيب الخبر او تصديقه ولكنهم لا يجتمعون على وجوده . فهم يجتمعون على تكذيب محمد كما فعل اليهود ولكنهم لا يجتمعون على وجود محمد او ظهوره في زمن معين وفي بلاد معينة .

(٢٠) اسباب الاهتمام بالاخبار العجيبة او ذات الموضوعات المشهورة .

(٢١) اعتراض هل كون الاخبار حجة على النبوة : ان الحجة على النبوة ينبغي ان تتخذ شكل المعجزة وتخرج عن طاقة البشر . والاخبار من صنع البشر فلا يمكن ان تعتبر حجة . وجاء رد الجاحظ كما يلي : انا لا أزعم أن الاخبار حجة وانما أزعم ان مجيئها حجة ، والمجيء ليس امراً يتكلفه الناس لتوضيح فكرته يعطي مثل الانسان الذي لقي البصريين لدى اوتهم من الحج فيخبرونه أنهم هابوا شيئاً في مكة ، ثم يلقى الكوفيين فيخبرونه بمثل ذلك فيعلم انهم صدقوا اذ ان مثلهم لا يتواطأ على خير واحد بسبب اختلاف طبائعهم وهمم واسبابهم .

(٢٢) اعتراض آخر هل كون الاخبار حجة : ان المنجم كالنبي يجبر بالغيب فلم لا تصدقه . وكان جواب الجاحظ ان ثمة فرقاً بين النبي والمنجم : ان المنجمين خطاهم كثير وصوابهم قليل بعكس النبي الذي يجبر الناس عما يأكلون ويشربون ويدخرون ويضمرون في الأمور الكثيرة ولا يخطيء في شيء من ذلك . واذا قيل لم لم يكن محمد منجماً اجاب الجاحظ : كيف يكون محمد منجماً وهو لم يختلف الى المنجمين ولم يكن علم التنجيم يتشراً في مكة ، ولم يدع أحد أنه كان منجماً .

(٢٣) الدهاء المستجاب آية من آيات النبوة . ويذكر الجاحظ بعض الادوية التي استجاب الله لها .

لمنها طلب النبي من الله ان يجبس المطر عن بلاد العرب ، ومنها طلبه اليه ان يمزيق ملك كسرى كل ممزق .

(٢٤) إعجاز القرآن من حجج النبوة . لقد تحدى النبي العرب وهم معدن الفصاحة ان يمارضوا القرآن فلم يفلحوا . والمعجزات تختلف باختلاف أوضاع الناس في مدى الدهور. ان العرب في عصر النبي كانوا يجلون البهائم ويتفوقون في البلاغة فيتحداهم النبي في الأمر الذي تفوقوا به . بينما كانت معجزة موسى السحر لأن السحر كان غالباً على قومه . وكانت معجزة عيسى الطب وشفاء المرضى لأن أهل عصره كان الطب غالباً عليهم .

(٢٥) اجتماع مآسن الاخلاق حجة تدل على نبوة محمد . لقد عرف النبي بالشجاعة والحلم والعلم والكرم وجميع الصفات الجليلة .



مركز تحقيقات كميوتير علوم اسلامی



[١ - مقدمة]

ثبتك الله بالحجة ، وحصن دينك من كل شبهة ، وتوفناك مسلماً ، وجعلك من الشاكرين : قد أعجبتني حفظك الله استهداؤك العلم وفهمك له ، وشغفك بالانصاف وميلك إليه ، وتمظيمك الحق وموالاةك فيه ، ورغبتك عن التقليد وزرايتك عليه ، ومواترة كتبك على بعد دارك وتقطع أسبابك وصبرك إلى أوان الامكان ، واتساعك عند تضايق العذر .

[٢ - مقتطفات من الرسالة التي تلقاها الجاحظ]

وفهمت حفظك الله كتابك الأول وما حثت عليه من تبادل العلم والتعاون على البحث والتحاب في الدين والنصيحة لجميع المسلمين . وقلت : اكتب الي كتابا تقصد فيه إلى حاجات النفوس وإلى صلاح القلوب وإلى معتلجات الشكوك وخواطر الشبهات ، دون الذي عليه أكثر المتكلمين من التطول ومن التعمق والتعقيد ، ومن تكلف ما لا يجب وإضاعة ما لا يجب ، وقلت : كن كالمعلم الرفيق والمعالج الشفيق الذي يعرف الداء وسببه والدواء وموقعه ويصبر على طول العلاج ولا يسأم كثرة الترداد . وقلت : اجعل لمهارتك التي إياها تؤمل وصناعتك التي إياها تعتمد إصلاح الفاسد ورد الشارد . وقلت : ولا بد من استجماع الأصول ومن استيفاء الفروع ومن حسم كل خاطر وقمع كل ناجم وصرف كل هاجس ودفع كل شاغل حتى

تتمكن من الحججة وتتهنأ بالنعمة وتحمد راحة الكفاية وتثلج ببرد اليقين وتفضي الى حقيقة الأمر . وإن كان لا بد من عوارض العجز ولواحق التقصير ، فالبر لها أجمل والضرر علينا في ذلك أيسر ، وقلت : إبدأ بالأخف فالأخف وبكل ما كان أتق في السمع وأحلى في الصدور . وبالباب الذي منه يؤق المريض المتكلف والجسور المتعجرف وبكل ما كان أكثر علماً وأنفذ كيداً ، وسألتي بتفتيح الاستداد والعجلة الى الاعتقاد وصفة الأناة ومقدارها ومقدمات العلوم ومتهاها ، وزعمت أن من اللفظ ما لا يفهم معناه دون الإشارة ودون معرفة السبب والهيشة دون إعارته وركته وتحديدته واحتيازه . وقلت : فإن أنت لم تصور ذلك كله صورة تغنى عن المشافهة ويكتفى بظاها عن المراسلة أحوجتنا الى لقائك على بعد دارك وكثرة أشغالك وصل ما تخاف من الضيحة وفساد المعيشة .

[٣ - كتاب نظم القرآن]

فكتبت لك كتاباً أجهدت فيه نفسي وبلغت منه أقصى ما يمكن مثلي في الاحتجاج للقرآن والرد على طعان ، فلم أدر فيه مسألة لرافضي ولا لحدشي ولا لحشوي ، ولا لكافر مباد ولا لمنافق مفسوع ولا لأصحاب النظام ولن نجم بعد النظام ممن يزعم أن القرآن حق وليس تأليفه بحجة وأنه تنزيل وليس ببرهان ولا دلالة ، فلما ظننت أني قد بلغت أقصى محبتك وأتيت على معنى صفتك أتاني كتابك تذكر أنك لم ترد الاحتجاج لنظم القرآن ، وإنما أردت الاحتجاج لخلق القرآن وكانت مسألتك مبهمة ولم أك أن أحدث لك فيها تأليفة ، فكتبت لك أشق الكتابين وأثقلها وأغمضها معنى وأطولها طولاً .

[٤ - الأسباب التي حفزته على تأليف كتاب خلق القرآن]

ولولا ما اهتملت به من اعتراض الرافضة واحتجاج القوم علينا بمذهب معمر وأبي كلدة وعبد الحميد وثمامة وكل من زعم أن أفعال الطبيعة مخلوقة على المجاز دون الحقيقة ، وأن متكلمي الحشوية والناطقة قد صار لهم مناظرة أصحابنا وبقرأة كتبنا بعض الفطنة ، لما كتبت لك رغبة بك عن أقدارهم وضنا بالحكمة عن

أشارهم ، وإنما يكتب على الخصوم الاكتفاء وللأولياء على الأهداء ، ولن يرى للنظر حقاً ولنلعم قدرأ وله في الانصاف مذهب وإلى المعرفة سبب . وزعمت أنك لم تر في كتب أصحابنا إلا كتابا لا تفهمه أو كتابا وجدت الحجة على واضح الكتاب فيه أثبت . وقلت : وإياك أن تتكل على مقدار ما عندهم دون أن تعصر قوى باطلهم وتوفيهم جميع حقوقهم وإذا تقلدت الأخبار عن خصمك لحظة كحياطتك لنفسك ، فإن ذلك أبلغ في التعليم وآيس للخصوم . وقلت : وزعموا أنه يلزمك أن تزعم أن القرآن ليس بمخلوق إلا على المجاز كما ألزم ذلك نفسه معمر وأبو كلدة وعبد الحميد وثمامة وكل من ذهب مذهبهم وقاس قياسهم . فتتهم فهمك الله تعالى ما أنا واصفه لك ومورده عليك .

[٥ - نقد من يقول ان القرآن مخلوق على المجاز]

إعلم أن القوم يلزمهم ما ألزموه أنفسهم ، وليس ذلك إلا لعجزهم عن التخلص بحقهم وإلا لذهابهم عن قواعد قوتهم وفروع أصولهم ، فليس لك أن تضيف العجز الذي كان منهم إلى أصل مقالاتهم وتحمل ذلك الخطأ على غيرهم ، فرب قول شريف الحسب جيد التركيب وافر العرض بريء من العيوب سليم من الألفن قد ضيحه أهله وهجنه المفترون عليه ، فالزموه ما لا يلزمه وأضافوا إليه ما لا يجوز عليه . ولوزعم القوم على أصل مقالاتهم أن القرآن هو الجسم دون الصوت والتقطيع والنظم والتأليف وأنه ليس بصوت ولا تقطيع ولا تأليف ، إذ كان الصوت عندهم لا يخترع كماخترع الاجسام المصورة ولا يحتمل التقطيع كاحتمال الاجرام المتجسدة ، والصوت عرض لا يحدث من جوهر إلا بدخول جوهر آخر عليه ، ومحال أن يحدث إلا وهناك جسمان قد صك أحدهما صاحبه ، ولا بد من مكانين مكان زال عنه ومكان زال إليه ، ولا بد من هواء بين المصطكين . والجسم قد يحدث وحده ولا شيء غيره ، والصوت على خلاف ذلك . والعرض لا يقوم بنفسه ولا بد من أن يقوم بغيره ، والاعراض من أعمال الاجسام لا تكون إلا منها ولا توجد إلا بها ولها ، والجسم لا يكون إلا من جسم ولا يكون إلا من مخترع

الاجسام وليست لكون الجسم له علة توجبه ، ولا يحدث إذا حدث إلا اختياراً ، إلا ابتداءً واختراعاً ، والصوت لا يكون إلا عن علة موجبة ولا يكون إلا توليداً ونتيجة ، ولا يحدث إلا من جرمين كاصطكاك الحجرين وكقرع اللسان باطن الاسنان ، وإلا من هواء يتضاغط وريح تفتحق ونار تلتهب ، والريح عندهم هواء محرك ، والنار عندهم ريح حارة ، هكذا الأمر عندهم . فلو قالوا لا يكون الشيء مخلوقاً في الحقيقة دون المجاز على مجازي اللغة إلا وقد بان الله عز وجل باختراعه وتولاه بابتداعه ، وكان منه على اختيار . والابتداع الذي يمكن تركه وإنشاء عقبة بدلا منه على ما كان تولده ونتيجته من أجسام يستحيل أن يخلق من أفعالها ويحلها الله منها . والقرآن على غير ذلك جسم وصوت ، وذو تأليف وذو نظم وتقطيع ، وخلق قائم بنفسه مستغن عن غيره ، ومسموع في الهواء ومرئي في الورق ومفصل وموصل ، ذو اجتماع وافتراق ، ويحتمل الزيادة والنقصان والفناء والبقاء . وكلما احتملته الاجسام ووصفت به الاجرام ، كل ما كان كذلك لمخلوق في الحقيقة دون المجاز وتوسع أهل اللغة ، فلو كانوا قالوا ذلك لكانوا أصابوا في القياس ووافقوا أهل الحق وكانوا مع الجماعة ولم يضاهاها أهل الخلاف والفرقة ولم يفهموا أنفسهم بقول المشبهة ، إذ كان ظاهر قولهم على التشبيه أدل وبه أشبه . ولا يجوز أن أذكر موضع موافقتي لهم ومخالفتي عليهم في صدر هذا الكتاب ، لأن التدبير في وضع الكتاب والسياسة في تعليم الجهال أن يبدأ بالأوضح فالأوضح والأقرب وبالاصول قبل الفروع حتى يكون آخر الكتاب لآخر القياس ، وآخر الكلام لا يفهم أرشدك الله تعالى ولا يتوهم إلا على ترتيب الأمور وتقديم الاصول ، فإذا رتبنا الأمور وقدمنا الاصول صارت أواخر المعاني في الفهم كأوائلها ودقيقها كجليلها ، وقد علمنا أن بعض ما فيه الاختلاف بين من ينتحل الاسلام أعظم فرية وأشد بلية وأشنع كفراً وأكبر إثماً من كثير مما أجمعوا على أنه كفر .

[٦ - عنة خلق القرآن]

فصل منه : وبعد فنحن لا نكفر إلا من أوسعناه حجة ، ولم نمتحن إلا أهل

التهمة ، وليس كشف المتهم من التجسس ولا امتحان الفئتين من هتك الستار ، ولو كان كل كشف هتكا وكل امتحان تمسأ لكان القاضي أهتك الناس لستر وأشد الناس كشفاً لعورة .

والذين خالفوا في العرش إنما أرادوا نفي التشبيه فغلطوا ، والذين أنكروا أمر الميزان إنما كرهوا أن تكون الأعمال أجساماً وأجراما غلاظاً . فإن كانوا قد أصابوا فلا سبيل عليهم ، وإن كانوا قد أخطأوا فإن خطاهم لا يتجاوز بهم الى الكفر ، وقولهم وخلافهم بعد ظهور الحجة تشبيه للخالف بالمخلوق ، فبين المذهبين أبين الفرق . وقد قال صاحبكم للخليفة المعتصم يوم جمع الفقهاء والمتكلمين والقضاة والمحصلين إحدارا وانذاراً : إمتحتني وأنت تعرف المحنة وما فيها من الفتنة ، ثم إمتحتني من بين جميع هذه الأمة ؟ قال المعتصم : أخطأت ، بل كذبت . . . وجدت الخليفة قبلي قد حبسك وقيدك ، ولو لم يكن حبسك على مهمة لأضى الحكم فيك ، ولو لم يخفك على الاسلام ما عرض لك ا فسؤالي إياك عن نفسك ليس من المحنة ولا من طريق الاعتساف ولا من طريق كشف العورة ، إذ كانت حالك هذه الحال وسبيلك هذه السبيل . وقيل للمعتصم في ذلك المجلس : ألا تبعث إلى أصحابه حتى يشهدوا إقراره ويحاربوا انقطاعه لينقض ذلك استبصارهم فلا يمكنه جحد ما أقربه عندهم ؟ فأبى أن يقبل ذلك وأنكره عليهم وقال : لا أريد أن أوتي بقوم إن أهمتهم سرت فيهم يسرون فيه ، وإن بان لي أمرهم أنفذت حكم الله فيهم ، وهم ما لم أوت بهم كسائر الرحمة وكغيرهم من عوام الأمة ، وما شيء أحب إلي من الستر ، ولا شيء أولى بي من الأناة والرفق . وما زال به رفيقاً واليه رفيقاً . ويقول : لأن استحييتك بحق أحب إلي من أن أقتلك بحق . حتى رآه يحاند الحجة ويكذب صراحاً عند الجواب ، وكان آخر ما عاند فيه وأنكر الحق وهو يراه أن أحمد بن أبي داود قال له : أليس لا شيء إلا قديم أو حديث ؟ قال : نعم . قال : أليس القرآن شيئاً ؟ قال : نعم قال : أليس لا قديم إلا الله ؟ قال : نعم . قال : فالقرآن إذا حديث ! قال : ليس أنا متكلم . وكذلك كان يصنع في جميع مسائله

حين كان يجيبه في كل ما سأل عنه حتى إذا بلغ المخفق والموضع الذي إن قال فيه كلمة واحدة يرى منه أصحابه قال : ليس أنا متكلم . فلا هو قال في أول الأمر لا علم لي بالكلام ولا هو حين تكلم فبلغ موضع ظهور الحججة خضع للحق . فمقته الخليفة وقال عند ذلك : أف لهذا الجاهل مرة والمعاند مرة . وأما الموضع الذي فيه واجه الخليفة بالكذب والجماعة بالقحة وقلة الاكتراث وشدة التصميم فهو حين قال له أحمد بن أبي داود : أتزعم أن الله تعالى رب القرآن ؟ قال : لو سمعت أحداً يقول ذلك لقلت ! قال : أفما سمعت ذلك قط من حالف ولا سائل ولا من قاص ولا في شعر ولا في حديث ؟ قال : لا لعرف الخليفة كذبه عند المسألة كما أحرف عناده عند الحججة . وأحمد بن أبي داود، حفظك الله تعالى أعلم بهذا الكلام وبغيره من أجناس العلم من أن يجعل هذا استفهام مسألة ويعتمد عليها في مثل تلك الجماعة ، ولكنه أراد أن يكشف لهم جرأته على الكذب كما كشف لهم جرأته في المعاندة . فعند ذلك ضربه الخليفة . وأية حجة لكم في امتحاننا إياكم وفي إكفارنا لكم وزعم يومئذ أن حكم كلام الله تعالى كحكم علمه ، فكما لا يجوز أن يكون علمه محدثاً ومخلوقاً فكذلك لا يجوز أن يكون كلامه مخلوقاً ومحدثاً ، فقال له : اليس قد كان الله يقدر أن يبدل آية مكان آية وينسخ آية بآية وأن يذهب بهذا القرآن ويأتي بغيره ، وكل ذلك في الكتاب مسطور ؟ قال : نعم . قال : فهل كان يجوز هذا في العلم وهل كان جائزاً أن يبدل الله علمه ويذهب به ويأتي بغيره ؟ قال : لا . وقال له : روينا في تثبيت ما نقول الأثار وتلونا عليك الآية من الكتاب وأريناك الشاهد من العقول التي بها لزم الناس الفرائض وبها يفصلون بين الحق والباطل ! فعارضنا أنت الآن بواحدة من الثلاث ؟ فلم يكن ذلك عنده ولا استخزي من الكذب في هذا المجلس ، لأن عدة من حضره أكثر من أن يطمع أحد أن يكون الكذب يجوز عليه ، وقد كان صاحبكم هذا يقول : لا تقية إلا في دار الشرك . فلو كان ما أقر به من خلق القرآن كان منه على وجه التقية فقد أعملها في دار الإسلام وقد أكذب نفسه ، وإن كان ما أقر به على الصحة والحقيقة فلستم منه وليس منكم . هل أنه لم ير شيئاً مشهوراً ولا ضرب ضرباً كثيراً ولا ضرب إلا بثلاثين سوط مقطوعة الثمار

مشعبة الأطراف حتى أفصح بالاقرار مراراً ، ولا كان في مجلس ضيق ولا كانت حاله حالة مؤبسة ولا كان مثقلاً بالحديد ولا ملغح قلبه بشدة الوعيد ، ولقد كان ينازع بالين الكلام ويحيب بأهله الجواب ، ويرزنون ويخف ويحلمون ويطيش .

[٧ - الفرق بين خطأ المعتزلة وخطأ النابتة والرافضة]

وعبتم علينا إكفارنا إياكم واحتجاجنا عليكم بالقرآن والحديث . وقتلتم تكفرونا على إنكار شيء يحتمل التأويل ويثبت بالأحاديث ؟ لقد ينبغي لكم ان لا تحتجوا في شيء من القدر والتوحيد بشيء من القرآن والحديث وأن لا تكفروا واحداً خالفكم في شيء وأنتم أسرع الناس إلى إكفارنا وإلى عداوتنا والنصب لنا .

فصل : وأصحابنا حفظك الله إذا قاسوا خطاهم ومروا على خلعتهم فاشمأ يتفضون به شيئاً من العرض والجواهر وشيئاً من قولهم في المعلوم والمجهول فقط ، وهم قوم يكفهم من التنبيه أقله ، ومن القول أسره . وخطأ النابتة وقول الرافضة تشبيه مصرح ، وكفر مملح . فليس هذا الجنس من ذلك الجنس والحمد لله .

[٨ - موقف المحدثين والمعتزلة من العامة]

وأما إخبارهم عن عيبنا إياهم حين لم يقولوا إن الله تبارك وتعالى رب القرآن وفينا من لا يقول إن الله تعالى رب الكفر والإيمان ، فإننا لم نسألهم عن ذلك من جهة ما يتوهمون ، وإنما سألناهم عنه بجحدهم ما يرون بأبصارهم ويسمعون بأذانهم في الأشعار المعروفة ، وفي الخطب المشهورة ، وفي الابتهاج عند الدعاء ، وفي السنة العوام ، وعند اليهود والإيمان ، وعند تعظيم القرآن ، وما يسمعون من السؤال في الطرقات ، ومن القصاص في المساجد ، لا يرون عائباً ولا يسمعون زارياً . وليس أنا جعلنا هذا مسألة على من أنكر خلق القرآن . ولكننا أردنا أن نبين للضعفاء معاندتهم وفرارهم من البهت ومكابرتهم إذا سمعوا أنهم لم يسمعوا الناس يقولون : ورب القرآن ، ورب يس ، ورب طه ، وأشبه ذلك ولعمري أن لو سمعوا الناس

يقولون عند إيمانهم وابتهاهم إلى ربهم على غير قصد إلى خلاف ولا وفاق : ورب الزنا والسرقة ، ورب الكفر والكذب . كما سموهم وهم يقولون : ورب القرآن ، ورب يس ، ورب طه : ثم ألزماهم خلق القرآن بمثل ما لهم علينا في خلق الزنا لقد كان ذلك معارضة صحيحة وموازنة معروفة . وأما قولهم : إن معنا العامة والعباد والفقهاء وأصحاب الحديث ، وليس معهم إلا أصحاب الأهواء ومن يأخذ دينه من أول الرجال ؟ فأبي صاحب تقوى برحمتك الله أبعد من الجماصة من الراضية ، وهم في هذا المعنى أشقياءهم وأولياؤهم ، لأن ما خالفهم فيه صغير في جنب ما وافقهم عليه . والذين سموهم أصحاب أهوائهم المتكلمون والمصلحون والمستصلحون وأصحاب الحديث ، والعموم هم الذين يقلدون ولا يحصلون ولا يتخيرون . والتقليد مرغوب عنه في حجة العقل منهي عنه في القرآن قد عكسوا الأمور كما ترى ونقضوا المعادات ، وذلك أنا لا نشك أن من نظر وبحث وقابل ووزن أحق بالتيين وأولى بالحجة . وأما قولهم منا النساك والعباد ! فعباد الخوارج وحدهم أكثر عدداً من عبادهم ، هل قلة عدد الخوارج في جنب عددهم . هل أنهم أصحاب نية وأطعم طعمة وأبعد من التكسب وأصدق ورعاً وأقل زياً وأدوم طريقة وأبذل للمهجة وأقل جمعاً وتمتعاً وأظهر زهداً وجهداً . ولعل عبادة عمرو بن عبيد نفي بعبادة عامة عبادهم . وأما قولهم إن للقرآن قلباً وسناماً ولساناً وشفقتين وأنه مقدس ويشفع ويمحل . فإن هذا كله قد يجوز أن يكون مثلاً ويجوز أن يجعله الله كذلك إذا كان جسماً والله على ذلك قادر وهو له غير معجز ومنه غير مستحيل ، وكل فعل لا يكون عيباً ولا ظملاً ولا بخلاً ولا كذباً ولا خطأ في التدبير فهو جائز والتمعجب منه غير جائز .

فصل منه : وما أكثر من يجيب في المسائل ويؤلف الكتب على قدر ما يسبح له في وهمه وعلى قدر ما يتصور له في حاله تلك لا يعمل على أصله ولا يشعر بالذي انبنى عليه ذلك الأصل ، وإن كان ممن يعمل على أصل ، وإنما صار علماءنا إلى ما صاروا إليه لأنهم لا يفنون عن القول في خلق القرآن على جواب مهذب ومذهب مصفى ، وعلى قول مفروغ منه وعلى جوابات بأصابعها ، فقد رددوا فيها النظر

وامتحنوها بأغلظ المحن وقلبوها وتبطنوا معانيها بأبلغ التفكير وتعرفوا كل ما فيها واعتصروا جميع نواها وسهلوا سبلها وذبوا العناد عنها احتقارا منهم لمن خالفهم واتكالا على طول السلامة منهم وثقة بطول الظفر بهم . ومن تمام أمر صاحب الحق أن لا يتكل على عجز الخصم وأن لا يعجب بظهوره على من لاحظ له في العلم . وعلى العلماء أن يخافوا دول العلم كما يخاف الملوك دول الملك . وقد رأيت البكرية والجبرية والفضيلية والشمرية وإنهم لأحقر عند المعتزلة من جعل ، وما زالوا يستقون من علمائهم ويستمدون من كبرائهم ويُدرسون كتبهم ويأخذون ألفاظهم في جميع أمورهم حتى رأيت شبيهم ونابتيهم يدعون أنهم أكفأ ويجمع بينهم في البلاء ، والنابئة اليوم في التشبيه به مع الرافضة وهم دائبون في التألم من المعتزلة ، عددهم كثير ونصبهم شديد والعوام معهم والحشو ، يطعمهم الآن معك أمران السلطان وميلهم إليه وخوفهم منه . والعاقبة للمتقين .



مركز تحقيقات كچو پوز علوم اسلامی

هامش كتاب خلق القرآن

(١) المقدمة تقليدية نجدتها في مطالع كتب الجاحظ ، وتتألف من دعاء للهداية والحض على العلم وطلب الحق . ويشيد الجاحظ بالشخص الذي وجه رسالة اليه يسأله تأليف كتاب حول خلق القرآن لأنه رغب عن التقليد وازرى عليه . وربما كان هذا الشخص قد تحول عن المحدثين الى الاعتزال لأن المحدثين هم اصحاب التقليد . وما يدل على ذلك ما ورد في الكتاب بعد عرض محاكمة الامام أحمد بن حنبل من ان الإمام أحمد هو صاحب كتاب الرسالة : « وقد كان صاحبكم هذا يقول : لا تقية الا في دار الشرك » .

(٢) يسرد الجاحظ مقتطفات من الرسالة المزهومة التي تلقاها . نقول الرسالة المزهومة لأن أسلوبها لا يختلف عن أسلوب الجاحظ ، وطريق تركيب جملها هي طريقة الجاحظ وتعابيرها هي تعابير الجاحظ مثل : حتى تتمكن من الحجة وتنهأ بالنعمة وتحمد رائحة الكفاية وتلجج ببرد اليقين وتفضي الى حقيقة الأمر . . . الخ .

(٣) يجبرنا الجاحظ انه الف كتابا في نظم القرآن ، وفيه يرد على من ينكر كون نظم القرآن معجزة وحجة على النبوة . ويحشر في جملة المنكرين الشيعة (الروالض) واهل السنة والجماعة (الحديثيون ، والحشوية) والكفار ، وبعض المعتزلة (النظام واتباعه)

(٤) السبب الذي دفع الجاحظ الى تأليف كتاب خلق القرآن هو اعتراض الشيعة (الرالضية) والحشوية والناطقة (لفرقتان من اهل السنة والجماعة) على موقف بعض شيوخ المعتزلة المتردد من خلق القرآن امثال معمر بن عباد وابي كلدة وعبد الحميد وثمامة بن اشرس من معاصري الجاحظ . وهؤلاء ذهبوا الى ان الفعال الطبيعية مخلوقة على المجاز لا على الحقيقة .

(٥) النقد الذي يوجهه الجاحظ الى معمر بن عباد وثمامة بن اشرس وسواهما يتناول مبادئ الطبع والتولد والخلق . لقد قال هؤلاء ان الاجسام مخلوقة (خلقها الله) اما ما يصدر عن الاجسام فانما يصدر بطريق الطبع والتولد والضرورة ولا نستطيع ان نقول ان الاجسام مخلوقة ما يصدر عنها او ان الله خلقه ، لان الخلق يقتضي الاختيار والابداع ، والفعال الطبيعية نتيجة التولد

والضرورة . هذا هو اصل مقالتهم . وفي مسألة خلق القرآن يتهمهم الجاحظ بالخروج عن هذا الأصل أو إهماله . والحق ان هؤلاء لم يخرجوا عن هذا الأصل . لقد قالوا ان القرآن عبارة عن اصوات وتقطع والصوت ليس جسماً إذا فالقرآن ليس مخلوقاً لأن الاجسام وحدها هي المخلوقة اما ما يصدر عنها من الفعال كما لاصوات النافخة عن اصطكاك اللسان بالخلق ، او اصطكاك حجرين فهي من فعل الطبع وتتولد عنها بالضرورة .

(٦) أشرف الخليفة المعتصم العباسي على هنة خلق القرآن . ينهي الاشارة هنا الى موقف الجاحظ المتشدد من المحاكمة فهو على الرغم من اهانة الخليفة للامام الوريح احمد بن حنبل ومبديه بالقتل عندما يقول له : انحطت وكذبت . . او يقول له : لان استحييت بحق احب الي من ان اقتلك بحق الخ . . على الرغم من كل هذا يزعم الجاحظ ان المعتصم كان به رفيقاً وعليه رفيقاً . وانه لم يجلته سوى ثلاثين سوياً الخ . . .

(٧) على الرغم من انتقاد الجاحظ لبعض شيوخ المعتزلة فهو يفسر لهم عظامهم لان آراءهم ينظره لا تنتهي الى الكفر . اما الرفض والنايئة فأراؤهم تشبه مصرح او كافر مخلص . وفي هذا الموقف صورة جليلة عن التعصب الذي لم ينج منه المعتزلة أنفسهم . هذا التعصب الذي ادى بهم الى هنة خلق القرآن التي لا مبرر لها ، والتي اقتصروا فيها السياسة على الدين .

(٨) عداء المعتزلة لجميع الفرق الدينية من اهل الجماعة والشعبة والحوارج والبكرية والجهرية والشمرية والفضيلية والنايئة والحشوية ، الى جانب العلوان الذين لا يحكمون العقل ويعتمدون على التقليد .



[١ - أهم فرق الشيعة]

قال أبو عثمان :

بعون الله تعالى نقول وإليه نقصد وإياه ندهو وعلى الله قصد السبيل :

إعلم رحمة الله تعالى وإيماءك أن الشيعة رجلان : زيدي ورافضي . وبقيتهم
بدد لا نظام لهم . وفي الأخبار عنها حتى عمن سواهما .

[٢ - أسس تفضيل علي عند الزيدية]

قال علماء الزيدية : وجدنا الفضل في الفعل دون غيره . ووجدنا الفضل كله
على أربعة أقسام ، أولها : القدم في الاسلام حيث لا رغبة ولا رهبة إلا من الله
تعالى وإليه ، ثم الزهد في الدنيا فإن أزهق الناس في الدنيا أرهبهم في الآخرة وآمنهم
على نفائس الأموال ومقاتل النساء وإراقة الدماء ، ثم الفقه الذي به يعرف الناس
مصالح دنياهم ومراشد دينهم ، ثم المشي بالسيف كفاحاً في الذب عن الاسلام
وتأسيس الدين وقتل عدوه وإحياء وليه . فليس وراء ذلك المهجة واستخراج القوة
غاية يطلبها طالب أو يرنمها راغب . ولم نجد فعلاً خامساً فنذكره . فمضى رأينا هذه
الخصال مجتمعة في رجل دون الناس كلهم وجب علينا تفضيله عليهم وتقديمه
دونهم . وذلك أنا سألنا العلماء والفقهاء وأصحاب الأخبار وحال الآثار عن أول
الناس إسلاماً ، فقال فريق منهم : علي . وقال فريق منهم : أبو بكر . وقال

آخرون : زيد بن حارثة . وقال قوم : خباب . ولم نجد قول كل واحد من هذه
 الفرق قطعاً لعذر صاحبه ولا ناقلاً له عن مذهبه . وإن كانت الرواية في تقديم عليٍّ
 أشهر واللفظ به أكثر وأظهر . وكذلك إذا سألناهم عن الذابين عن الاسلام بمهجم
 والماشين إلى الأقران بسيفهم وجدناهم مختلفين ، فمن قائل : علي . ومن قائل :
 إبناعفراء . ومن قائل : أبو دجانة . ومن قائل : محمد بن مسلمة . ومن قائل :
 طلحة . ومن قائل : البراء بن مالك . على أن لعلي من قتل الأقران والفرسان
 والأكفاء ما ليس لهم . فلا أقل من أن يكون عليٌّ في طبقتهم . وإن سألناهم عن
 الفقهاء والعلماء رأيناهم يعدون علياً وعمر وعبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت وأبي
 ابن كعب . على أن علياً كان أفقهم ، لأنه كان يُسأل ولا يسأل ويفتي ولا يستفتي
 ويحتاج إليه ولا يحتاج إليهم . ولكن لا أقل من أن نجعله في طبقتهم وكأحدهم .
 وإن سألناهم عن أهل الزهادة وأصحاب التقشف والمعروفين برفض الدنيا وخلعها
 والزهديتها قالوا : علي وأبو الدرداء ومعاذ بن جبل وأبو ذر وعمار وبلال
 وعثمان بن مظعون . على أن علياً أزهدهم ، لأنه شاركهم في خشونة اللبس
 وجشوبة المآكل والرضا باليسير والتباعد بالحقير وظلف النفس عن الفضول ومخالفة
 الشهوات ، وفارقهم بأن ملك بيوت الأموال ورقاب العرب والعجم ، فكان ينضح
 بيت المال في كل جمعة ويصلي فيه ركعتين ، ورقع سراويله بأدم ، وقطع ما فضل
 من ردايه عن أطراف أصابعه بالشفرة ، في أمور كثيرة . مع أن زهده أفضل من
 زهدهم لأنه أعلم منهم ، وعبادة العالم ليست كعبادة غيره كما أن زلته ليست كزلة
 غيره . فلا أقل من أن نعهده في طبقتهم . ولم نجدهم ذكروا لأبي بكر وزيد وخباب
 مثل الذي ذكروا له من بذل النفس والغناء والذب عن الاسلام بالسيف . ولم
 نجدهم ذكروا للزبير وأبي عفراء وأبي دجانة والبراء بن مالك مثل الذي ذكروا له
 من التقدم في الاسلام والزهدي والفق . ولم نجدهم ذكروا أبا بكر وزيداً وخباباً في
 طبقة ابن مسعود وأبي بن كعب كما ذكروا علياً في طبقتهم ، ولا ذكروا (أبا) بكر وزيداً
 وخباباً في طبقة معاذ بن جبل وأبي الدرداء وأبي بن كعب وعمار وبلال وعثمان بن
 مظعون كما ذكروا علياً في طبقتهم . فلما رأينا هذه الأمور مجتمعة فيه متفرقة في

غيره من أصحاب هذه المراتب وأهل هذه الطبقات الذين هم الغايات علمنا أنه أفضلهم ، وإن كان كل واحد منهم قد أخذ من كل خير بنصيب فإنه لن يبلغ مبلغ من قد اجتمع له جميع الخير وصنوفه .

[٣ - أسباب عدم تولي علي الخلافة عند موت النبي]

فهذا دليل هذه الطبقة من الزيدية على تفضيل علي رضي الله تعالى عنه وتقديمه على غيره . وزعموا أن عليا كان أولاهم بالخلافة إلا أنهم كانوا على غيره أقل فسادا واضطرابا وأقل طعنا وخلافا ، وذلك أن العرب وقريشا كانوا في أمره على طبقات . فمن رجل قد قتل علي أباه أو ابنه أو أخاه أو ابن عمه أو حميه أو صفيه أو سيده أو فارسه ، فهو بين مضطرب قد دام على حفره ينتظر الفرصة ويشرب الدائرة قد كشف قناعه وأبدى صفحته . ومن رجل قد زمل هيظه وأكمن ضغنه يرى سترهما في نفسه ومداراة عدوه أبلغ في التدبير وأقرب من الظفر ، فلئما يميزه أدنى علة تحدث وأول تأويل يعرض أو فتنة تنجم ، فهو يرصد الفرقة ويشرب الفتنة حتى يصل صولة الأسد ويروغ روغان الثعلب فيشفي غليله ويبرد ناره ، وإذا كان العدو كذلك كان غير مأمون عليه سرف الغضب وأن يموه له الشيطان الوثوب ويزين له الطلب ، لأنه قد عرف مآثاه وكيف يجتله من طرق هواه ، فإذا كان القلب كذلك اشتدت حفيظته ولم يقو احتراسه وكان يعرض هلكة وعلى جناح تفرير ، لأنه منقسم الرأي متفرق النفس قد اعتلج على قلبه غيظ الثار على قرب عهده بأخلاق الجاهلية وعادة العرب من الثار وتذكر الأحقاد والإحن القديمة وشدة التصميم . ومن رجل ضمت حدائمه وأنف أن يلي عليه أصغر منه . ومن رجل عرف شدته في أمره وقلة اغتفاره في دينه وخشونة مذهبه . ومن رجل كره أن يكون الملك والنبوة يثبتان في نصاب واحد وينبتان في مفرس واحد ، لأن ذلك أقطع لأطماع قريش أن يعود الملك دولة في قبائلها ، ومن قريش خاصة في بني عبد مناف الأقرب فالأقرب والأدنى فالأدنى ، لأن الرحم كلما كانت أمس والجوار أقرب والصناعة أشكل كان الحسد أشد والغيظ أفرط . فكان أقرب الأمور إلى محبتهم إخراج الخلافة من ذلك المعدن ،

ترفها عن أنفسهم من ألم الغيظ وكمد الحسد .

فصل منها : وضرب آخر من الناس همج هامج ورعاع منتشر لا نظام لهم ولا اختبار عندهم ، أعراب أجلاف وأشابه الأعراب يفترقون لا تدفع صولتهم إذا هاجوا ولا يؤمن هيجهم إذا سكنوا ، إن أخصبوا طفوا في البلاد وإن أجذبوا آثروا العناد ، وهم موكلون ببغض القادة وأهل الثراء والنعمة ، يتمنون الغلبة ويشتمون بالعثرة ، ويسرون بالجولة ويترقبون الدائرة . وهم كما وصفوا : الطغام والسفلة ، وفيهم قال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه في دعائه : نعوذ بالله من قوم إذا اجتمعوا لم يملكوا وإذا افترقوا لم يعرفوا . فهؤلاء هؤلاء . وضرب آخر قد فقهوا في الدين وعرفوا سبب الإمامة قد قمعهم الحق فانقادوا له بطاعة الربوبية بوطاعة المحبة وعرفوا المحنة وعرفوا العدل ولكنهم قليل في كثير ، ومختار كل زمان وإن كثروا فهم أقل عددا وإن كانوا أكثر فقها .



[٤ - حرص علي على وحدة المسلمين]

فلما كان الناس عند علي وأبي بكر وعمر وأبي عبيدة وأهل السابقة من المهاجرين والأنصار على الطبقات التي ذكرنا والمنازل التي نزلنا والمراتب التي رتبنا وبالمدينة منافقون يعضون عليهم الأنامل من الغيظ ، وفيها بطانة لا يألونهم خبالا ، لا يخفى عليهم موضع الشدة وانتهاز الفرصة وهم في ذلك على تقية . وافق ذلك ارتداد من حول المدينة من العرب وتوعدهم بذلك في شكاة النبي ﷺ وصح به الخبر ، ثم الذي كان من اجتماع الأنصار حيث انحازوا من المهاجرين وصاروا أحزابا وقالوا منا أمير ومنكم أمير . أشفق على أن يظهر إرادة القيام بأمر الناس مخافة أن يتكلم متكلم أو يشغب مشاغب ممن وصفنا حاله وبيننا طريقته فيحدث بينهم فرقة ، والقلوب على ما وصفنا والمنافقون على ما ذكرنا وأهل الردة على ما أخبرنا ومذهب الأنصار على ما حكينا ، فدعاه النظر للدين إلى الكف عن الإظهار والتجافي عن الأمر ، وعلم أن فضل ما بينه وبين أبي بكر في صلاحهم لو كانوا أقاموه لا يعادل التفرير بالدين ولا يفي بالخطار بالأنفس ، لأن في التهيج البائقة وفي فساد

الدين فساد العاجلة والأجله ، فاغتفر الخمول ضنا بالدين وإشاراً للعاجلة هل العاجلة ، فدل ذلك هل رجاحة حلمه وقلة حرصه وسعة صدره وشدة زهده وفرط سماحه وأصالة رأيه . ومضى سخط نفس امريء عن هذا الخطب الجليل والأمر الجزيل ينزل من الله تعالى بغاية منازل الدين وإنما كانت غايته في أمرهم أربح الحالين لهم وأعوذ القصدين عليهم ، وعلم أن هلكتهم لا تقوم بازاء فرق ما بين حاله وحال أبي بكر في مصلحتهم ، وقد علم بعد ذلك أن مسيلمة قد أطبق عليه أهل اليمامة ومن حولها من أهل البادية ، وهم القوم الذين لا يصطل بناهم ولا يطمع في ضعفهم وقلة عددهم ، فكان الصواب ما رآه علي من الكف عن تحريك الهرج إذا أبصر أسباب الفتن شائعة وشواكل الفساد بادية ، ولو هرج القوم هرجة أو حدثت بينهم فرقة كان حرب بوارهم أغلب من الطمع في سلامتهم . وقد كان أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وفضلاء أصحابه يعرفون من تلك الآراء شبيها بما يعرفه علي ، فعلموا أن أول أحكام الدين المبادرة إلى إقامة إمام المسلمين لئلا يكونوا نشراً ولئلا يجعلوا للمفسدين علة وسبباً ، فكان أبو بكر أصح الناس لما بعد علي فأصاب في قيامه والمسلمون في إقامته وعلية في تسويغته والرضاء بولايته منة على الإسلام وأهله . فلما قمع الله تعالى أهل الردة بسيف النعمة وأباد النفاق وقتل مسيلمة وأسر طليحة ومات أصحاب الأوتار ونهت الضغائن راح الحق إلى أهله وعاد الأمر إلى صاحبه .

[٥ - الفرق بين الزيدية والرافضة]

فصل منه : وإنما ذكرت لك مذهب من لا يجعل القرابة والحسب سبباً إلى الإمامة دون من يجعل القرابة سبباً من أسبابها وعلة من عللها ، لأن قد حكيت في كتاب الرافضة ، وكان ثم أوقع وبه أليق ، وكرهت المعاد من الكلام والتكرار لأن ذلك يخفي عن ذكره في هذا الكتاب ، وهو مسلك واحد وسبيل واحد ، وإنما قصدت إلى هذا المذهب دون مذهب سائر الزيدية في دلائلهم وحججهم لأنه أحسن شيء رأيتهم لهم . وإنما أحكي لك من كل نحلة قول حذاقهم وذوي أحلامهم لأن فيه دلالة على غيره وغنى عما سواه .

[٦ - الزيدية لمجيز امامة المفضول مع وجود الافضل]

قالوا : وقد يكون الرجل أفضل الناس ويبي عليه من هو دونه في الفضل حتى يكلفه الله تعالى طاعته وتقديمه إما للمصلحة ، وإما للاشفاق من الفتنة كما ذكرنا وفسرنا ، وإما للتغليظ في المحنة وتشديد البلوى والكلفة كما قال الله تعالى للملائكة ﴿ اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس أبى ﴾ والملائكة أفضل من آدم فقد كلفهم الله تعالى أغلظ المحن وأشد البلوى إذ ليس في الخضوع أشد من السجود على الساجد والملائكة أفضل من آدم لأن جبريل وميكائيل وإسرافيل عند الله تعالى من المقربين قبل خلق آدم بدهر طويل لما قدمت من العبادة واحتلمت من ثقل الطاعة ، وكما ملك الله تعالى طالوت على بني إسرائيل وفيهم يومئذ داود عليه السلام وهو نبهم الذي أخبر الله عنه كما في القرآن بقوله تعالى : ﴿ وقال لهم نبهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ﴾ ، ثم صيغ النبي ﷺ حين ولى زيد بن حارثة على جعفر الطيار يوم مؤتة ، وولى أسامة على أكثر المهاجرين وفيهم أبو بكر وعمر وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وسعد بن أبي وقاص ، ذوو أخطار وأقدار من البدرين والمهاجرين والسابقين الأولين .

[٧ - الحاجة الى الامام]

فصل منه : ولو ترك الناس وقوى عقولهم وجماح طبائعهم ورجبة شهواتهم وكثرة جهلهم وشدة نزاعهم الى ما يريدون ويطلبون حتى يكونوا هم الذين يحتجزون من كل ما أفسدهم بقدر قواهم وحتى يبقوا على حد الضر والنافع ويعرفوا فضل ما بين الداء والدواء والأغذية والسموم ، كان قد كلفهم شططا وأسلمهم إلى عدوهم وشغلهم عن طاعته التي هي أجدى الأمور عليهم وأنفعها لهم ومن أجلها عدل التركيب وسوي البنية وأخرجهم من حد الطفولة والجهل الى حد البلوغ والاعتدال والصحة وتمام الأداة والآلة ، ولذلك قال عز ذكره : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ ولو ان الناس تركهم الله تعالى والتجربة وخلاهم وسبر الأمور وامتحان السموم واختبار الأغذية ، وهم على ما ذكرنا من ضعف الحيلة وقلة المعرفة وغلبة

الشهوة وتسلط الطبيعة مع كثرة الحاجة والجهل بالعاقبة ، لاثرت فيهم السموم
ولأنهم الخلط ولأجهز عليهم الخبط ولتولدت الأدواء وترادفت الأسقام حتى تصير
منايا قاتلة وحتوفا متلفة ، إذ لم يكن عندهم إلا أخذها والجهل بحدودها ومنتها ما
يجوز منها والزيادة فيها وقلة الاحتراس من توليدها . فلما كان ذلك كذلك علمنا أن
الله تعالى حيث خلق العالم وسكانه لم يخلقهم إلا لصالحهم ولا يجوز صلاحهم إلا
بتنقيتهم ، ولولا الأمر والنهي ما كان للتنقية وتعديل الفطرة معنى .

ولما أن كان لا بد للعباد من أن يكونوا مأمورين منبهين بين عدو عاص ومطيع
ولي ، علمنا ان الناس لا يستطيعون مدافعة طبائهم وبمخالفة أهوائهم إلا بالزجر
الشديد والتوعيد بالعقاب الأليم في الأجل بعد التنكيل في العاجل . إذ كان لا بد
من أن يكون لكونهم مأمورين منبهين من العمل معجلا والجزاء الأكبر مؤجلا ، وكان
شأنهم إظهار الأدل وتسويق الأقصى . وإذا كانت عقول الناس لا تبلغ جميع
مصالحهم في دنياهم فهم عن مصالح دينهم أعجز إذ كان علم الدين مستنبطاً من
علم الدنيا وإذا كان العلم مباشرة أو سبباً بالمباشرة ، وعلم الدين غامض لا يتخلص
إلى معرفته إلا بالطبيعة الفائقة والعناية الشديدة مع تلقين الأئمة ، ولأن الناس لو كانوا
يبلغون بأنفسهم غاية مصالحهم في دينهم ودنياهم لكان إرسال الرسل قليل النفع
يسير الفضل . وإذا كان الناس مع منفعتهم بالعاجل وحبهم للبقاء ورغبتهم في النماء
وحاجتهم إلى الكفاية ومعرفتهم بما فيها من السلامة لا يبلغون بأنفسهم معرفة ذلك
وإصلاحه ، وعلم ذلك جلي ظاهر سببه متصل ببعضه ببعض كدرك الحواس وما
لاقاها ، فهم عن التعديل والتجويز وتفصيل التأويل والكلام في مجيء الأخبار
وأصول الأدهان أعجز وأجدر أن لا يبلغوا منه الغاية ولا ينالوا منه الحاجة . لأن
علم الدنيا أمران : إما شيء يلي الحواس ، وإما شيء يلي علم الحواس . وليس
كذلك الدين .

[٨ - درجات الامام]

فلما كان ذلك كذلك علمنا أنه لا بد للناس من إمام يعرفهم جميع مصالحهم ،

ووجدنا الأئمة ثلاثة : رسول ، ونبي وإمام . فالرسول نبي وإمام ، والنبي إمام وليس برسول ، والإمام ليس برسول ولا نبي . وإنما اختلفت أسماؤهم ومراتبهم لاختلاف المقومات والطبائع ، وعلى قدر ارتفاع بعضهم عن درجة بعض في العزم والتركيب ، وبتغير الزمان يتغير الغرض وتتبدل الشريعة ، فأفضل الناس الرسول ، ثم النبي ، ثم الإمام . فالرسول هو الذي يشرع الشريعة ويبتدئ الملة ويقوم الناس على جهل مرآشدهم إذ كانت طبائعهم لا تحتمل في ابتداء الأمر أكثر من الجمل ، ولولا أن في طاقة الناس قبول التلقين وفهم الاشارة لكانوا هملا ولتركوا نشراً وحشراً ولسقط عنهم الأمر والنهي ، ولكنهم قد يفضلون بين الأمور إذا أوردت عليهم وكفوا مؤونة التجربة وعلاج الاستنباط ، ولن يبلغوا بذلك القدر قدر المستغني بنفسه المستبد برأيه المكتفي بفطنته عن إرشاد الرسل وتلقين الأئمة .

[٩ - نسب الرسول]

وإنما جاز أن يكون الرسول مرة عربياً ومرة عجمياً وليس له بيت يخطره ولا شرف يشهر موضعه لأنه حيث كان مبتدئ الملة ومخرج الشريعة كان ذلك أشهر من شرف الحسب المذكور وأنبه من البيت المقدم ، ولأنه يحتاج من الأعلام والآيات والأعاجيب إلى الظاهر المعقول والواضح الذي لا يخيل أن يشتهر مثله في الأفاق ويستفيض في الأطراف حتى يصدع عقل الغبي ويضعف طبع العاقل وينقض عزم المعاند وينبه من طول الرقدة ويخضع الرقاب ويضرع الخدود حتى يتواضع له كل شرف وينحل له كل أنف ، فلا يحتاج حاله معه إلى مال ولا قدرة إلى حسب .

[١٠ - آيات الرسول]

و على قدر جهل الأمة وغباء عقولها وسوء رغبتها وخبت عاداتها وغلظ محتها وشدة حيرتها تكون الآيات : كفلق البحر والمشي على الماء وإحياء الموتى وقصر الشمس عن جريها ، ولأن النبي ليس برسول ولا مبتدئ ملة ولا منشيء شريعة ، إنما هو للتأكيد والبشارة كبشارة النبي بالرسول الكائن على غابر الأيام وطول الدهر ،

وتوكيد المبشر يحتاج من الأعلام الى دون ما يحتاج إليه المبتدئ لأصل الملة والمظهر لغرض الشريعة الناقل للناس عن الضلال القديم والعادة السيئة والجهل الراسخ ، فلذلك اكتفى بشهرة أعلامه وشرائعه من شهرة بيته وشرف حسبه ، لأنه لا ذكر إلا وهو شامل عند ذكره ، ولا شرف إلا وهو وضع عند شرفه .

[١١ - رأي يقول بتعدد الأئمة]

فصل منه يحكي فيه قول من يميز أكثر من امام واحد :

زعم قوم أن الإمامة لا تجب لرجل واحد بعينه من رهط واحد ، ولا لواحد من عرض الناس وإن كان أكثرهم فضلا وأعظمهم عن المسلمين غناء بعد أن يكون فردا في الإمامة لا ثاني له . وأن الناس إن تركوا أن يقيموا إماما واحدا جاز لهم ذلك ، ولم يكونوا بتزكه ضالين ولا عاصين ولا كافرين . فإن أقاموه كان ذلك رأيا رأوه وغير مضيق عليهم تركه ، ولم أن يقيموا اثنين ، وجائز لهم أن يقيموا أكثر من ذلك ، ولا بأس أن يكونوا عجبا وموالي ، ولكن لا بد من حاكم واحداً كان أو أكثر على [كل] حال . ولا يجوز أن يكون الرجل حاكماً على نفسه وقائماً عليها بالحدود . ولم يقل أحد البتة أن من الحكم والحاكم بدا ، ولكنهم اختلفوا في جهاتهم ومعانيهم وقالوا : وأي ذلك كان من إقامة الواحد والاثنين أو أكثر من ذلك فعل الناس الكف عن محارمهم وترك الأصل والتناجي فيما بينهم والتخاذل عند الحادثة تنويعهم من عدو يدهمهم من غيرهم أو خارب يخيف سبلهم من أهل دعوتهم ، وعليهم فيما شجر بينهم إعطاء النصفة من أنفسهم بالغنا ما بلغ في عسر الأمر ويسره ، وعلى كل رجل في داره وبيته وقبيلته وناحيته ومصره إذا كان مأمونا ذا صلاح إذا ثبت عنده على أخيه أو صاحبه أو جاره أو حاشيته من خدمه حد أو حكم جناه جان عليهم على نفسه أو ظلم ركب من غيره إقامة ذلك الحكم أو الحد عليه إذا أمكنه مستحقه ، إلا أن يكون فوقه كاف قد أجزى عليه ، وعلى المجترح للذنب الموجب على نفسه الحد والمستحق له إمضاء الحكم في بدنه وماله والإمكان من نفسه ، وأن لا يموذ بقوة ولا يروغ بحيلة ولا يسخط حكم التنزيل فيها نزل به وفيها هو بسبيله

من مال أو غيره ، وإنما يجب ذلك إذا كان على الفريقين من القيم والجاني يمكنه ماكلفه الله من ذلك ، فإن أبي القيم إقامة الحق والحد على الجاني بعد استيجابه والإمكان من نفسه لإقامة الحد عليه فقد عصى الله تعالى ، ولم يؤت في ذلك الأمر نفسه ، لأن الله تعالى قد بينه له وأوجه عليه وقرره حين أوضح له الحجة وقرب له الدلالة وطوقه المعرفة ومكنه من الفعل .

وقد بسطنا العذر لذوي العجز في صدر الكلام . وإن أبي الجاني المستحق للحكم والحد الإمكان من نفسه وماله وما هو بسبيله فقد عصى الله تعالى في ذلك كما عصاه في ركوبه ما أوجب عليه الحد ، ولم يؤت من ربه لما ذكرنا من إيضاح الحجة وإثبات القدرة .

[١٢ - رأي يقول ان الامامة لا تقوم على الارهاب والوعيد]

فصل منه : وقد علمنا أن من شأن الناس الهرب إذا خافوا نزول المكروه والامتناع من إمضاء الحدود بعد وجوبها عليهم ما وجدوا السبيل إلى ذلك . وهذا سبب إسقاط الأحكام والتفاسد . وقد أمرنا أن نترك أسباب الفساد ما استطعنا وبالنظر للرعية ما أمكننا ، فوجب علينا عند الذي قلنا أننا لو لم نقم إماماً واحداً كان الناس على ما وصفنا من التسرع إلى الشر إذا طمعوا والهرب إذا خافوا . وهذا الأمر قد جرت به عادة المعرفة وفتحت عندنا فيه التجربة . قلنا عند ذلك إن الإمامة لا تجب على الناس من طريق الظنون وإشفاق النفوس ، وقد رأينا أعظم منها خطراً قدرا ونفعاً في كل جهة على خلاف ذلك وهو رسول الله ﷺ بعثه الله إلى أمة وقد علم أنهم يزدادون من كفرهم من قبل ذلك الرسول كفرةً بجحدهم له وإخراجهم إياه وقصدتهم قتله ثم لا يكون ذلك مانعاً له من الإرسال إليهم والاحتجاج به عليهم لمكان علمه أنهم يزدادون فساداً وبغياً ، إذ كان قدم لهم ما به ينالون مصالح دينهم ودنياهم ، وإنما على الحكيم أن يأتي الأمر الحكيم عرف ذلك عارف أم جهله جاهل . وعلى الجواد ذي الرحمة في جوده ورحمته أن يفعل ما هو أفضل في الجود وأبلغ في الإحسان والطف في الإنعام ، من إيضاح الحجة وتسهيل الطرق والإبلاغ

في الموعظة مع ضمان الوعد بالغاية من الثواب والدوام واللذة ، والتوعد بغاية العقاب في الدوام والمكره ، إلى عباده الذين كلفهم طاعته وأهل الفاقة إلى عائدته ونظيره وإحسانه ، فإن قبل ذلك قابل فقد أصاب حظه ، وإن أبى ذلك فلنفسه ظلم . وقد صنع الله به ما هو أصلح وإن لم يستصلح العبد نفسه .

قالوا : فإذا كان الله تبارك وتعالى عالماً بأن القوم يزادون فساداً عند إرسال الرسل وكان غير صارف لهم عن الإرسال إليهم إذ كان قد عدل خلقهم ومكنهم من مصلحتهم فما بال الظن والحسبان بأن الناس يتفاسدون ويتنازعون إذا لم يقيموا إماماً واحداً يوجب فرضاً لم ينطق به كتاب ولم يؤكد خبر وقد رأينا العلم بأن الناس يتفاسدون ولا يرد به فرض ! .

[١٣ - رأي يقول بوجود اعتماد الناس على أنفسهم في رعاية شؤونهم]

فصل منه : وقالوا : قد رأينا أهل الصلاح والقدر عند انتشار أمر السلطان وغلبة السفلة والدهار وهيج العوام يقوم منهم العدد اليسير في الناحية والقبيلة والدرب والمحلة ليقوم لهم حد المستطيل ويقمع شذوذ الدهار حتى يستريح الضعيف ويأمن الخائف ويتشر التاجر ويكبر جانبهم الدهار ، وإنما صلاح الناس بقدر تعاونهم وتخاضهم ، مع أن الناس لو تركهم المتسلطون عليهم وأجثوا إلى أنفسهم حتى يتحقق عندهم أن لا كافي إلا بطشهم وحيلهم ، وحتى تكون الحاجة إلى الذب والحراسة والعلم بالملكيدة هي التي تحملهم على منع أنفسهم لذهبت عادة الكفاية وضعف الاتكال ولتعودوا اليقظة ولدربوا بالحراسة واستشاروا ذفين الرأي ، لأن الحاجة تفتق الحيلة وتبعث على الروية ، وكان بالحرى أن يصلح أمر الجميع لأن طمع الراعي إذا عاد بأساً صرفه في البغي وكان ذلك منبهاً للنائم ومشحداً لليقظان وضراوة للمواكل ومزجراً للبلغاة حتى ينبت عليه الصغير ويتفحل معه الكبير .

[١٤ - رأي من يقول ان الامامة وصية]

فصل منه : وزعم قوم أن الإمامة لا تلج إلا بأحد وجوه ثلاثة : إما عقل

يدل على سببها ، أو خبر لا يكذب مثله ، أو أنه لا يحتمل شيئاً من التأويل إلا
وجهاً واحداً . قالوا : فوجدنا الأخبار مختلفة والمختلف متدافع وليس في المتدافع
والمتكافئ بيان ولا فضل ، فمن ذلك قول الأنصار ، وهم شطر الناس أو أكثرهم ،
مع أمانتهم على دين الله تعالى وعلمهم بالكتاب والسنة حيث قالوا عند وفاة النبي
ﷺ : منا أمير ومنكم أمير . فلو كان قد سبق من رسول الله ﷺ في ذلك أمر ما
كان أحد أعلم به منهم ، ولا أخلق للاقرار والعمل بما يلزم الصبر عليه منهم ، بعد
الذي ظهر من احتمالهم في جنب الله تعالى والجهاد في سبيله والنصرة لنبه ﷺ ، مع
الإيواء والإيثار بعد المواساة ومحاربة القريب والبعيد والعرب قاطبة وقريش خاصة .
ثم الذي نطق القرآن به من تزكيتهم وتفضيلهم بحب رسول الله ﷺ لهم ولقبه لهم
وثنائه عليهم ، وهو يقول : « أما والله ما علمتكم إلا لتقلون عند الطمع وتكثرون
عند الفزع » : في أمور كثيرة . ثم لم يكن قولهم : منا أمير ومنكم أمير . من سفيه
من سفهائهم ضرى إليه أمثاله منهم ، فإن لكل قوم حسدة وجهالا وأحداثا وسرعانا
من حدث تبعته الغرارة والأشر ، أو رجل يحب الجاه والفتنة ، أو مغفل مخدوع ، أو
غرزي حمية يؤثر حسبه ونسبه على دين الله تعالى وطاعة نبيه ﷺ . ولا كان ذلك
القول إذ كان من عليتهم في الواحد الشياخ القليل ، بل كان في ذوي أحلامهم والقدم
منهم ، ثم كان المرشح والمأمول عندهم سعد بن عباداً سيداً مطاعاً ذا سابقة وفضل
وحلم ونجدة وجاء عند رسول الله ﷺ واستعانة به في الحوادث والمهم من أمره ، ثم
كان في الدهم من الأنصار والوجوه والجمهور من الأوس والخزرج ، فكيف يكون
سبق من النبي ﷺ في هذا أمر يقطع عهدا ويوجب رضا وهؤلاء الأمناء على الدين
والقوام به قد قاموا هذا المقام وقالوا هذا المقال . قالوا : فإن قال قائل : فإن القوم
كانوا على طبقات ، من ذاكر متعمد ، أو ناس قد كان سقط عن ذكره وحفظه ، ومن
رجل كان غالباً عن ذلك القول التأكيد الذي كان من النبي ﷺ في إقامة إمام يقدم في
أيام وفاته ، ومن رجل قدم في الإسلام لم يكن من حال العلم ، فاذا ذكرهم أبو بكر
وعمر فذكروا ، ووعظاهم فاتعظوا ، فقد كان فيهم الناشيء الفاضل الذي يزرجه
الذكر وينزع إذا بُصر ، والمعتمد الذي لم يبلغ من لجأه وتأييمه وركوب ردهه ما

تؤثر معه التصميم على حسن الرجوع عند الموهظة الحسنة والتخريف بفساد
 العاجل ، في كثير ممن لم يكن له في الإسلام القدر النبوي إما للغفلة وإما للإبطاء عنه
 وإما للخمول في قومه مع إسلامه وصحة عقده ، فداواهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة
 يوم السقيفة حين قالوا : نحن الأئمة وأنتم الوزراء ، وحيث رووا لهم أن النبي ﷺ
 قال : الأئمة من قريش . فلما استرجعوا رجعوا . قلنا : الدليل على أن القوم لم
 يروا في كلام أبي بكر وعمر حجة عليهم وأن انصرافهم عما اجتمعوا له لم يكن لأنهم
 رأوا أن ذلك القول من أبي بكر وعمر وأبي عبيدة بن الجراح حجة ، غضب رئيسهم
 وخرج من بين أظهرهم مراغماً في رجال من رهطه مع تركه بيعة أبي بكر رضي
 الله عنه وتشنيعه عليهم بالشام ، وقد قال فيس بن سعد بن عبادة وهو يذكر خذلان
 الأنصار لسعد بن عبادة واستبداد الرهط من قريش عليهم بالأمر .

وخبّرتمونا أمّا الأمر فيكم بخلاف رسول الله يوم التشاجر
 وأن وزرات الخلفاء دونكم كما جاءكم فو العرش دون العشائر
 فهلا وزيراً واحداً تحبونه بخير وداد منكم وأواصر
 سقى الله سعداً يوم ذاك ولا سقى هواجته هابت صدور الغوابر

وقال رجل من الأنصار ودعا علي رضي الله عنه إلى عونه ونصرته إما يوم
 الجمل أو يوم صفين :

عدنا عدواً وكنا قبل أنصارا	ما لي أقاتل عن قوم إذا قدروا
يتلو الكتاب ويخشي النار والعارا	ويل لها أمة لو أن قائدها
غدرأ وأهجب في الإسلام آثارا	أما قريش فلم نسمع بمثلهم
بالعرف عرفاً وبالإنكار إنكارا	إلا تكن عصبة جازوا نبيهم
في يوم مؤتة لا ينفك طيارا	أبا عمارة والشاوي ببلقعة

أبو عمارة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه وقد كان يكنى أبا يعلى والشاوي
 في يوم مؤتة جعفر بن أبي طالب . وقال رجال من الأنصار من ولد أبي زيد

القاري . وذكر أمر الأنصار وأمر قريش - :

دعاها إلى استبدادها وحقوقها
هنالك قتل لا تؤدى ديانتهم
تذكر قتل في القلب تكبكبوا
وليس لباكيها سوى الصبر مذهب
فإن تغضب الأبناء من قتل من مفي
فوالله ما جننا قبيحاً فتعتبوا

[١٥ - الفرض من الكتاب وفالذته]

فصل منه : قد حكينا قول من خالفنا في وجوب الامامة وتمظيم الخلافة ،
وفسرنا وجوه اختلافهم واستقصينا جميع حججهم إذ كان على عذر لمن غاب عنه
خصمه وقد تكفل بالإخبار عنه في ترك الحيلة له والقيام بحجته ، كما أنه لا عذر له
في التقصير عن إفساد ما يخالفه وكشف خطأ من يضاده عند من قرأ كتابه وتفهم
حجته ، لأن أقل ما يزيل عذره ويبيح علته أن يكون قول خصمه قد استهدف
لعقله وأضجر لسانه وقد مكنه من نفسه وسلطه على إظهار عورته ، فإذا استراح من
شغب المنازع ومدارة المستمع لم يبق إلا أن يقوى على خلافه أو يعجز عنه ، ومن
شكر المعرفة بمعايب الناس ~~ومرآشدهم ومضارهم~~ ومنافعهم أن يحتمل ثقل مؤنتهم
وتقريرهم وأن يتوخى إرشادهم وإن جهلوا فضل من يسدي إليهم ، ولن يهوان
العلم بمثل بذله ، ولن تستبقى النعمة فيه بمثل نشره .

واعلم أن قراءة الكتب أبلغ في إرشادهم من تلاقيهم إذ كان مع التلاقي
يقوى التصنع ويكثر التظالم وتفرط المضرة وتنبعث الحمية ، وعند المزاومة تشتد الغلبة
وشهوة المباهاة والاستحياء من الرجوع والأنفة من الخضوع ، وعن جميع ذلك تحدث
الضغائن ويظهر التباين .

وإذا كانت القلوب على هذه الصفة وبهذه الحالة امتنعت من المعرفة وعميت
عن الدلالة ، وليست في الكتب علة تمنع من درك البغية وإصابة الحجة لأن المتوحد
بقراءتها والمتفرد بفهم معانيها لا يساهي نفسه ولا يغالب عقله ولا يعز خصمه .
والكتاب قد يفضل ويرجح على واضعه بأمور: منها أن الكتاب يقرأ بكل مكان وفي

كل زمان على تفاوت الأعصار وبعد ما بين الأعصار ، وذلك أمر يستحيل في الواضع ولا يطمع فيه مع التنازع ، وقد يذهب العالم وتبقى كتبه ويفنى ويبقى أثره ، ولولا ما رسمت لنا الأوائل في كتبها وخلقت من عجب حكمها ودونت من أنواع سيرها حتى شاهدنا بها ما غاب عنا وفتحنا بها المستغلق علينا فجمعنا إلى قلوبنا كثيرهم وأدركنا ما لم نكن ندركه إلا بهم ، لقد خس حظنا في الحكمة وانقطع سبيلنا إلى المعرفة ، ولو أجلسنا إلى قدر قوتنا ومبلغ خواطرنا ومنتهى تجاربنا بما أدركته حواسنا وشاهدته نفوسنا لقلت المعرفة وقصرت الهمة وضعفت المنة ، فاعتقم الرأي ومات الخاطر وتبلد العقل واستبد بنا سوء العادة . وأكثر من كتبهم نفعاً وأحسن مما تكلفوا موقعاً كتاب الله تعالى الذي فيه الهدى والرحمة والإخبار عن كل عبرة وتعريف كل سيئة وحسنة . فينبغي أن يكون سبيلنا في من بعدنا سبيل من قبلنا فينا ، مع أننا قد وجدنا من العبرة أكثر ما وجدوا كما أن من بعدنا يجد من العبرة أكثر مما وجدنا . فما ينتظره الفقيه بفقهه والمحتج لدينه والذاب عن مذهبه ومواسي الناس في معرفته وقد أمكن القول وأطرق السامع ونجا من التقيّة وهبت ريح العلماء ؟!

فصل منه : واعلم أن قصد العبد بنعم الله تعالى إلى مخالفته غير مخرج إنعام الله عليه ولا محول إحسانه إليه إلى غير معناه وحقيقته ، ولم يكن إحسان الله في إعطائه الأداة وتبيين الحجمة لينقلبا إفسادا وإساءة ، لأن المعان على الطاعة عصى بالمعونة وأفسد بالإنعام وأساء بالإحسان . وفرق بين المنعم والمنعم عليه ، لأن المنعم عليه يجب أن يكون شكوراً ولحق النعمة راعياً ، والمنعم منفرد بحسن الإنعام وشريك في جميع الشكر ، ولأن المنعم أيضاً هو الذي حجب الشكر إلى فاعله بالذي قدم إليه من إحسانه وتولى من مساره ، ولذلك جعلوا النعمة لقاحاً والشكر ولاداً . وإنما مثل إعطاء الآلة والتكليف لفعل الخير مثل رجل تصدق على فقير ليستر عورته ويقوم من أود صلبه وليصرف في منفعه ولا يكون إنفاق الفقير ذلك الشيء في الفساد والخلاف والفواحش لينقلب إحسان المتصدق إساءة ، وإنما هذا بصواب الرأي الذي لا ينقلب وإن انجع صاحبه ، وقد يؤذي الرجل مع حزمه ولا يكون مذموماً وبخطيء ، بالأضاعة ولا يكون محموداً .

فصل منه : ولم يكن الله تعالى ليضع العدل ميزاناً بين خلقه وعياراً على عباده في نظر عقولهم في ظاهر ما فرض عليهم ويسر خلافه ويستخفي بضده ، ويعلم أن قضاءه فيهم غير الذي فطرهم على استحسانه وتحبب إليهم به في ظاهر دينه ، والذي استوجب به الشكر على جميع خلقه .

[١٦ - لا بد من امام يجمع طباع الشر]

فصل منه : وإن لم يكن العبد على ما وصفنا من الاستطاعة والقدرة والحال التي هي أدعى إلى المصلحة ما كان متروكاً على طباعه ودواعي شهواته دون تعديل طبعه وتسوية تركيبه . ولذلك أسباب نحن ذاكسروها وجاعلوها حجة في إقامة الإمامة وأن عليها مدار المصلحة وأن طبع البشر يمتنع من الاخبار إلا على ما نحن ذاكروه فنقول : إننا لما رأينا طبائع الناس وشهواتهم من شأنها التقلب إلى هلكتهم وفساد دينهم وذهاب دنياهم وإن كانت العامة أسرع إلى ذلك من الخاصة إذ لا تنفك طبائعهم من حملهم على ما يريدون ما لم يردوا بالقمع الشديد في العاجل ومن القصاص من العادل ، ثم التنكيل في العقوبة على شر الخيانة وإسقاط القدر وإزالة العدالة مع الاسماء القبيحة والألقاب المهجينة ، ثم بالاخافة الشديدة والحبس الطويل والتغريب عن الوطن ، ثم الوعيد بنار الأبد مع فوت الجنة ، وإنما وضع الله تعالى هذه الخصال لتكون لقوة العقل مادة ولتعديل الطبائع معونة ، لأن العبد إذا فضلت قوى طباعه وشهواته على عقله ورأيه ألغى بصيراً بالرشد غير قادر عليه ، فإذا احتوشته المخاوف كانت مواد لزواجر عقله وأوامر رأيه ، فإذا لم يكن في حوادث الطبائع ودواعي الشهوات وحب العاجل فضل على زواجر العقل وأوامر الغي كان العبد ممنوعاً من الغي قادراً عليه ، لأن الغضب والحسد والبخل والجبن والغيرة وحب الشهوات والثناء والمكاثرة والعجب والخيلاء وأنواع هذه إذا قويت دواعيها لأهلها واشتدت جوازبها لصاحبها ثم لم يعلم أن فوقه ناقماً عليه وأن له منتقماً لنفسه من نفسه أو مقتضياً منه لغيره ، كان ميله وذهابه مع جوازب الطبيعة ودواعي الشهوة طباعاً لا يمتنع معه وواجباً لا يستطيع غيره . أو ما رأيت كيف يخرق في ماله ويسرع

فيها أثلت له رجاله وشدت له أوائله من غير أن يرى للمروض وجهها وللخلف سببا في عاجل دينه. ولا آجل دنياه حتى يكون والي المسلمين هو الذي يجبر عليه ليكون مضطر الحجر وذل الحظر وغلظة الجفوة واللقب القبيح وتسليط الأشكال مادة للذي معه من معرفته وبقية عقله |

فصل منه : وقد يكون الرجل معروفا بالترق مذكورا بالطيش مستهاما بإظهار الصولة ، حتى يتحامي كلامه الصديق ويداربه الجليس ويترك مجازاته الكريم ، للذي يعرفون من شدته وبوادر حدته وشدة تسمره وأتتهابه وكثرة فلتاته ، ثم لا يثبت ان يحضر الوالي الصليب والرجل المنيع فيلقي ذليلا خاضعا أو حلييا وقورا أو أديبا رفيقا أو صبورا محتسبا ، وقد نجده يجهل على خصمه . ويستطيل على منازعه ويهم بتناوله والغدر به فاذا عرف له حماة تكفيه ورجالا تحميه وجاها يمنعه وما لا يصلح به ، طامن له من شخصه وألان له من جانبه وسكن من حركته وأطفأ نار غضبه ، أو ما علمت أن الخوف يطرد السكر ويميت الشهوة ويطفئ الغضب ويحط الكبر ويذكر بالعاقبة ويساعد العقل ويعاون الرأي وينبت الحيلة ويبعث على الروية حتى يعتدل به تركيب من كان مغلوبا على عقله ممنوعا من رأيه بسكر الشباب وبسكر الغنى وإهمال الأمر وثقة العز وبأو القدرة . . ؟!

فصل منه : وإنما أطنبت لك في تفسير هذه الأحوال التي عليها الوجود والعبرة لتعلم أن الناس لو تركوا شهواتهم وخلوا أهواءهم ، وليس معهم من عقولهم إلا حصة الغريزة ونصيب التركيب ثم أخلوا من المرشدين والمؤدبين والمعترضين بين النفوس وأهوائها وبين الطباع وغلبتها من الأنبياء وخلفائهم لم يكن في قوى عقولهم ما يداوون به أدواءهم ويجهرون به من أهوائهم ويقوون به لمحاربة طبائعهم ويعرفون به من جميع مصالحهم ، وأي داء هو أردى من طبيعة تردى وشهوة تطفئ ، ومن كان لا يعد الداء إلا ما كان مؤلما في وقته ضاربا على صاحبه في سواد ليله وبياض نهاره فقد جهل معنى الداء . وجاهل الداء جاهل بالدواء .

فصل منه : ولكننا نقول : لا يجوز ان يلي أمر المسلمين على ظاهر الرأي والحزم والحيلة أكثر من واحد ، لأن الحكام والسادة إذا تقاربت أقدارهم وتساوت غايتهم قويت دواعيهم إلى طلب الإستعلاء واشتدت منافستهم في الغلبة . وهكذا جرب الناس من أنفسهم في جيرانهم الأذنين ، في الأصهار وبين الأعمام والمتقربين في الصناعات كالكلام والنجوم والطب والفتيا والشعر والنحو والعروض والتجارة والصناعة والفلاحة أنهم إذا تدانوا في الأقدار وتقاربوا في الطبقات قويت دواعيهم إلى طلب الغلبة واشتدت جواذبههم في حب المباينة والإستيلاء على الرياسة . ومضى كانت الدواعي أقوى كانت النفس إلى الفساد أميل والعزم أضعف وموضع الروية أشغل والشيطان فيهم أطمع ، وكان الخوف عليهم أشد وكانوا بموافقة المفسد أخرى وإليه أقرب . وإذا كان ذلك كذلك فأصلح الأمور للحكام والقادة إذا كانت النفوس ودواعيها ومجرى أفعالها على ما وصفنا أن ترفع عنهم أسباب التحاسد والتغالب والمباهاة والمنافسة ، وأن ذلك أدعى إلى صلاح ذات البين وأمن البيضة وحفظ الأطراف . وإذا كان الله تبارك وتعالى قد كلف الناس النظر لأنفسهم واستيفاء النعمة عليهم وترك الخطر بالمملكة والتفرير بالأمة ، وليس عليهم مما يمكنهم أكثر من الحيلة والتباعد من التفرير ، ولا حال أدعى إلى ذلك أكثر مما وصفنا ، لأنه أشبه الوجوه بتمام المصلحة والتمتع بالأمن والنعمة .

فصل منه : فلما كان ذلك كذلك علمنا أنه إذا كان القائم بأمر المسلمين بائن الأمر متفرداً بالغاية من الفضل ، كانت دواعي الناس إلى مسابقتة ومجاراته أقل ، ولم يكن الله ليطلع الدنيا وأهلها على هذه الطبيعة ويركب أهلها هذا التركيب حتى تكون إمامة الواحد من الناس أصلح لهم إلا وذلك الواحد موجود عند إرادتهم له وقصدتهم إليه ، لأن الله لا يلزم الناس في ظاهر الرأي والحيلة إقامة المعدوم وتشبيد المجهول ، لأن على الناس التسليم وعلى الله تعالى قصد السبيل . وهل رأيت ملكين أو سيدين في جاهلية أو إسلام من العرب جميعاً أو من الهجم لا يتحيف

أحدهما من سلطان صاحبه ولا يهتك أطرافه ولا يساجله المحروب ، إذ كل واحد منها يطمع في حد صاحبه وطرفه لتقارب الحال واستواء القوى ، كما جاءت الأخبار عن ملوك الطوائف كيف كانت المحروب راكدة وأمرهم مريح ، والناس نهب ليس لهم ثغر إلا معطل ولا طرف إلا منكشف ، والناس فيما بينهم مشغولون بأنفسهم عن ملوكهم من عزبز مع إنفاق المال وشغل البال وشدة الخطر بالجمع والتفرير بالكل .

[١٨ - صفات الإمام]

فصل منه : فإن قالوا : فما صفة أفضلهم ؟ قلنا : أن يكون أقوى طباعه عقله ، ثم يصل قوة عقله بشدة الفحص وكثرة السماع ، ثم يصل شدة فحصه وكثرة سماحه بحسن العادة ، فإذا جمع إلى عقله علما وإلى علمه حزما وإلى حزمه عزماً فذلك الذي لا بعده ، وقد يكون الرجل دونه في أمور وهو يستحق مرتبة الإمامة ومنزلة الخلافة ، غير أنه على حال لا بد من أن يكون أفضل أهل دهره . لأن من التعظيم لمقام رسول الله ﷺ أن لا يقام فيه إلا أشبه الناس به في كل عصر ، ومن الإستهانة به أن يقام فيه من لا يشبهه وليس في طريقته ، وإنما يشبه الإمام الرسول بأن يكون آخذاً بسيرته منه ، فأما أن يقاربه أو يدانيه فهذا ما لا يجوز ولا يسع ثمنه والدعاء به .

فصل منه : وإذا كان قول المهاجرين والأنصار والذين جرى بينهم التنافس والمشاحنة على ما وصفنا في يوم السقيفة ، ثم صنع أبي بكر وقوله لطلحة في عمر ، وصنع عمر في وضع الشورى وتوعدده لهم بالقتل إن هم لم يقيموا رجلاً قبل إنقضاء المدة ونجوم الفتنة ، ثم صنع عثمان وقوله وصبره حتى قتل دونها ولم يخلعها ، وأقوال طلحة والزبير وعائشة وعلي رضي الله تعالى عنهم ، ليست بحجة على ما قلنا . فليست في الأرض دلالة ولا حجة قاطعة . وفي هذا الباب الذي وصفنا من حالاتهم وبيننا دليل على أنهم كانوا يرون أن إقامة الإمام لمريضة واجبة ، وأن الشركة عنها منفية ، وإن الإمامة تجمع صلاح الدين وإيثار خير الآخرة والأولى .

فصل منه : وأي مذهب هو أشنع وأي قول هو أفحش من قول من قال : لا
بد للشاهد من أن يكون ظاهراً عدلاً مأموناً ، ولا يأمن أن يكون القاضي جائراً
قطعاً فاجراً ؟ وهذا لا يشبه حكم الحكيم وصفة الحلیم ونظر المرشد وترتيب العالم .



مرکز تحقیقات کتب و علوم اسلامی

هامش استحقاق الامامة

- (١) الشيعة فرقتان هما الزيدية والرافضة . يعني بالزيدية الشيعة الذين قالوا بامامة زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب بعد والده علي بن الحسين بينما ساقها الرافضة بأخيه محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب بعد والده علي بن الحسين . والارجح انه يعني بالرافضة الامامية الذين رفضوا خلافة ابي بكر وعمر وعثمان ولا ينبغي ان نفهم من كلام الجاحظ انه يهصر الشيعة في هاتين الفرقتين فقط لانه لم يكن هالفاً . سائر فرقهم العديدة وقد ذكرها في بعض كتبه كالسبئية والمنصورية والكميلية والشميطية ('سوان' ، ج ٢ ص ٢٦٦ - ٢٧٢) والجملة الاخيرة ، وفي الاخبار عنها علي همن سواهما ، بل يد م تذهب اليه وتفيد ان غالبية الشيعة تنتمي الى هاتين الفرقتين .
- (٢) الزيدية يفضلون علياً على من سواه لتولي الخلافة بعد النبي بخصال اربع اجتمعت فيه ولم تجتمع في غيره هي القدم في الإسلام والزهد في الدنيا والفقه والجهاد . والرجال الذين ذكرهم الجاحظ وشاطروا علياً بعض هذه الخصال كأبي بكر وزيد بن حارثة وخباب وطلحة واهي دجانة ومحمد بن مسلمة وعبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت ، واهي بن كعب واهي الدرداء واهي فر الغفاري وبلال كانوا من صحابة الرسول او لرسائه او لفقهاء الاسلام او زهاده وقد عاشوا جميعاً في صدر الاسلام .
- (٣) قول الجاحظ : وان الزيدية زعموا ان علياً كان اولاهم بالخلافة ، يعني انه لا يزيدهم في رأيهم هذا . ومع ذلك يورد حججهم التي يحاولون بها تبرير عدم تولي علي الخلافة بعد النبي ويلخصها بما يلي : (١) ان بعض الناس كانوا يفضدون علي بن علي ويتحينون الفرض للثأر منه لانه وترهم باحد اقاربهم . (٢) وبعضهم الآخر يراه صغير السن . (٣) وبعضهم يضاف من شدته في دينه وعدم تسامحه في ، اوامر الشرع . (٤) وبعضهم يكره ان تكون النبوة والملك في بيت واحد . (٥) ومعظم اناس رهاق لا اعتبار عندهم ولا يفرقون بين الصالح والظالم . (٦) وبعضهم جاهر بالردة بقيادة مسيلمة . في الهامة . (٧) وقسم منهم منافق يضر غير ما

- يظهر (٨) مطالبة الأنصار بأن يكون منهم أمير لدى اجتماعهم في سقيفة بني ساعدة .
- (٤) لو أقدم علي على المطالبة بالخلافة إثر موت النبي لانقسم المسلمون على أنفسهم ولتعرض الاسلام للخطر ، وكان علي يعرف عدم اجتماع المسلمين عليه وخلافهم حوله فسارع الى تأييد أبي بكر واقامة إمامته .
- (٥) الفرق بين الزيدية والامامية هو ان الزيدية لا تبني الامامة على القرابة بل على الفضل ، بينما تبنيها الامامية على قرابة الرسول افعلي احق بالامامة لانه القرب الناس الى الرسول . ويبنّي الجاحظ ميله الى احترام مذهب الزيدية وإنكماره للمذهب الإمامية .
- (٦) الزيدية تقر خلافة أبي بكر وعمر وعثمان رغم افضلية علي عليهم على عكس الامامية او الرافضة الذين رفضوا خلافة أبي بكر وعمر وعثمان ، وذلك في سبيل مصلحة الدين . ويؤيدون موقفهم بشواهد من عصر النبي ، فقد ولي النبي من هو أقل فضلاً على من هو أكثر فضلاً : ولي زيد بن حارثة على جعفر الطيار في موقعة مؤتة التي جرت بين المسلمين والروم ، وولي أسامة على أبي بكر وعمر وسعد بن أبي وقاص وغيرهم من اوائل المسلمين والمهاجرين والبدويين .
- (٧) حاجة الناس الى الإمام عند الشيعة ترجع الى أنهم حاجزون عن ادراك امور دينهم وديناهم فلا بد لهم من مصلح يرشدهم الى مصالحهم في دينهم وديناهم . ، واذا كانت عقول الناس لا تبلغ جميع مصالحهم في دنيائهم فهم عن مصالح دينهم اعجز ، هذا المعلم هو الامام .
- (٨) الأئمة ثلاثة : رسول ونبي وامام . الرسول يحتل المرتبة الاولى لأنه يأتي بالشرعية ، والنبي يحتل المرتبة الثانية ، لا يأتي بالشرعية وانما يؤكد لها . اما الإمام فيأتي في المرتبة الاخيرة بعد الرسول والنبي ومهمته ارشاد الناس الى الشرعية التي أتى بها الرسول . واختلاف مراتب الأئمة يعود الى اختلاف طبائعهم ، وتغير الغرض الذي يرمي اليه كل منهم . وينبغي الاشارة الى أهمية الفكرة التي اوردها الجاحظ وهي تبدل الشرعية بتغير الزمان ، ثم الفكرة القائلة بان عقول الناس لا تستغني عن ارشاد الرسل وتلقين الأئمة ، اي أن العقل لا يستطيع بنفسه معرفة الأمور الدينية التي يأتي بها الرسول وان كان باستطاعته فهمها وتعلمها من الرسول .
- (٩) الرسول لا ينتمي الى أمة معينة ، فقد يكون عربياً وقد يكون عجمياً . وهو لا يتحد من عائلة شريفة بالضرورة ، لأنه اشرف من الحسب ، ولكنه يحتاج إلى آيات واحاجيب يأتي بها .
- (١٠) آيات الرسول او الاحاجيب التي يأتي بها تختلف باختلاف حالة الناس العقلية . وسوف تراه يفصل هذه الفكرة في رسالة أخرى (حجج النبوة) ، والنبي لا يحتاج الى الآيات والمعجزات كالرسول لأن الرسول يهد له الطريق .

(١١) يشير الجاحظ الى الخوارج الذين لم يقتصروا الامامة في قرين كما فعل اهل السنة والجماعة ولا في علي وابنائهم كما فعل الشيعة ، وجوزوا ان يكون هريماً او اصمياً ، كما جوزوا عدم اقامة الإمام او اقامة عدة أئمة .

يرفض الجاحظ رأي الخوارج ويقول انه لا بد من اقامة الإمام ، ويجب على الناس الكف عن المحارم واعطاء النصف من انفسهم سواء وجد الامام ام لم يوجد لأن الشرع بين لهم الحدود واذا تمردوا على الامام يكونون قد عصوا الله .

(١٢) يعرض الجاحظ رأياً يذهب إلى أنه لا حاجة إلى الامام الذي يخيف الناس فيقول ان الامامة لا تتركز على التخويف . فالرسول عندما بعث إلى العرب لم يرهبهم بل قد رأيناهم يتجرأون عليه وينكلون به ويتابعوه ويحاولون قتله . ليست مهمة الرسول التخويف بل الابلاغ بالموعظة سواء صدقوا او كذبوا . وما ينطبق على الرسول ينطبق على الامام .

(١٣) وثمة رأي آخر يذهب إلى أن عدم اقامة الامام احسن للناس لانهم حينئذ يعتمدون على انفسهم في حل مشاكلهم والدفاع عن مصالحهم ، ويتمردون على التعاون ومنع انفسهم .

(١٤) ويرفض الجاحظ دعوى الشيعة الذين يقيمون الامامة على وصية الرسول لعلي . ويقول ان خبر الوصية او العهد تختلف فيه والمختلف متدافع ، ولو كان الرسول عهد إلى علي بالخلافة لما قال الانصار منا امير ومنكم امير ، والانصار معروفون بصلى امامهم وتصديقتهم للرسول وطاعتهم اياه ، ويورد حجج الشيعة والشواهد الشعرية التي تدعها . كما يسلط الضوء على ما جرى من مداوات بشأن الخلافة اثر وفاة الرسول .

(١٥) يبرر الجاحظ كتابته لرسائله في استحقاق الامامة قائلاً ان واجبه هو كشف خطأ من يضاهيه وارشاده ، ونشر العلم بين الناس لأن نعمة العلم لا تتم الا بنشره وخبر وسيلة لنشره هي الكتب ، وقراءة الكتب أفضل من المشاهدة لأن المشاهدة تؤدي إلى الجدال والخصام والمباهاة ، ولأن الكتاب يقرأ في كل مكان وزمان ، وخبر الكتب كتاب الله أي القرآن الذي ينطوي على الهدى والرحمة والعبرة وتعريف كل حسنة وسيرة . معظم هذه الرسالة مسلوخ من رسالة الفتيا .

(١٦) الامامة تتركز على طباع البشر . هذا هو رأي الجاحظ الشخصي وبذا يربط نظريته في الامامة بفلسفته العامة أي الفلسفة الطبيعية التي يفسر بها الاخلاق والمعرفة والاجتماع والسياسة والدين أيضاً ، ان طباع الناس وشهواتهم تدفعهم إلى الفساد والهلكة ولا يستطيع العقل في الغالب التغلب عليها وكبحها ، ومن هنا سبب الحاجة وجود قوة محاسب وتعاقب وتتوعد بالقصاص العادل تتمثل بالانبياء وخلفائهم من الأئمة .

(١٧) لا يجوز ان يلى الحكم سوى امام واحد ، والسبب برأى الجاحظ هو انه اذا وجد اكثر من امام واحد وقعت المنافسة بينهم واشتدت المغالبة والخصام ، وكل هذا يؤدي الى التضاسد والشرور واختلال امر الناس . ويرجع الجاحظ المنافسة الى طباع البشر سواء كانوا أئمة أو أصحاب حرف وصناعات . ويستشهد على فكرته بالتاريخ ويفسر الحروب التي جرت في مختلف العهود بهذا الطبع اي المنافسة .

(١٨) صفات الإمام الافضل هي العقل والعلم والحزم والعزم ، وبكلمة أخرى يجب ان يكون الامام افضل اهل عصره ، وأن يكون اشبه الناس بالرسول ، واشبه الناس بالرسول هو من يأخذ بسيرته .

(١٩) الخلاصة التي ينتهي اليها الجاحظ من بحثه هي التالية : إقامة الإمام فريضة واجبة ، لا يجوز الاشتراك في الامامة او تعدد الائمة ، غرض الامام صلاح امر الرعية والدين . . . ويقول انه توصل الى هذه النتائج من الرجوع الى ما جرى للمسلمين منذ وفاة الرسول ومواقف المهاجرين والانصار وابي بكر و عمر وعثمان وعائشة وعلي وطلحة والزبير الخ
والواقع هو أن هذه المواقف والحوادث يتخذها الجاحظ ادلة على آرائه ، اما المبادئ التي يسند آراءه اليها فهي مبادئ التي اعتمدها في الفلسفة عامة وهي طباع البشر .



مركز تحقيقات كميوتير علوم اسلامي



[١ - العامة تقول بالتشبيه]

أطال الله بقاءك وحفظك ، وأتم نعمته عليك ، وكرامته لك .

قد عرفت - أكرمك الله - ما كان الناس فيه من القول بالتشبيه والتعاون عليه والمعادة فيه ، وما كان في ذلك من الإثم الكبير والفرية الفاحشة ، وما كان لأهله من الجماعات الكثيرة والقوة الظاهرة ، والسلطان المكين ، مع تقليد العوام وميل السفلة والطغام .

وليست للخاصة قوة بالعام ، ولا للعلية قوة على الأراذل ، فقد قالت الأوائل فيهم ، وفي الاستعانة بالله منهم :

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : نعوذ بالله من قوم إذا اجتمعوا لم يملكوا ، وإذا تفرقوا لم يعرفوا

وقال واصل بن عطاء : « ما اجتمعوا إلا ضروا ، ولا تفرقوا إلا نفعوا » قيل له : قد عرفنا مضرة الاجتماع ، فما منفعة الافتراق ؟ قال : يرجع الطيبان إلى طبيته ، والحائث إلى حياكته ، والملاح إلى ملاحته ، والصائغ إلى صياغته ، وكل إنسان إلى صناعته . وكل ذلك مرفق للمسلمين ، ومعونة المحتاجين .

وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إذا نظر إلى الطغام والحشوق قال :

« قبح الله هذه الوجوه لا تعرف إلا عند الشر » .

وقال الحريري عند ذكره إياهم ، في شعره بالتعاون مع المخلوع :

من البواري ترأسها ومن الـ حصوص إذا أستلأمت مغافرها
لا الرزق تبني ولا العطاء ولا يحشرها بالفناء حاشرها

وقال شبيب بن شيبة : قاربوا هذه السفلة وباعدوها ، وكونوا معها
وفارقوها ، واعلموا أن الغلبة لمن كانت معه ، وأن المقهور من صارت عليه .

وقد وصفهم بعض العلماء فقال : يجتمعون من حيث يفترقون ، ويفترقون من
حيث يجتمعون ، لا يفل غربهم إذا صالوا ، ولا تنجع لهم الحيلة إذا هاجوا .

[٢ - للعامة متكلمون بوجهوهم]

والعوام - أبقاك الله - إذا كانت نشرأ فأمرها أيسر ، ومدة هيجها أقصر .
فإذا كان لها رئيس حاذق ومطاع مدبر ، وإمام مقلد ، فعند ذلك ينقطع الطمع ،
ويموت الحق ويقتل المحق ~~مرقولا~~ أن لهم متكلمين ، وقصاصا متفقيين ، وقوماً
باينوهم في المعرفة بعض المباينة ، لم يلحقوا بالخاصة ، ولا بأهل المعرفة التامة .
ولكننا كما نخافهم نرجوهم ، وكما نشفق منهم نطمع فيهم .

[٣ - العامة تسقط شهادة الموحدين]

ثم قد علمت ما كنا فيه من إسقاط شهادات الموحدين وإخافة علماء
المتكلمين . ولولا الكلام لم يقم لله دين ، ولم نبين من الملحدين ، ولم يكن بين
الباطل والحق فرق ، ولا بين النبي والمنتبي فصل ، ولا بانة الحجة من الحيلة ،
والدليل من الشبهة .

ثم لصناعة الكلام مع ذلك فضيلة على كل صناعة ، ومزية على كل أدب .
ولذلك جعلوا الكلام عياراً على كل نظر ، زماماً على كل قياس . وإنما جعلوا له
الأمور وخصوه بالفضيلة لحاجة كل عالم إليه ، و [عدم] استغنائه عنه .

[٤ - محنة العامة وقادتهم]

فلم يزل - أكرمك الله - كذلك حتى وضع الله من عزهم ، ونقص من قوتهم . وليس لأمر الله مرد ، ولا لقضائه مدفع ، وحتى تحول إلينا رجال من قاداتهم ومن أعلامهم ، والمطاعين فيهم ، وارتاب قوم وناق آخرون . وحتى تحولت المحنة عليهم ، والتقية فيهم . وذلك كله على يد شيخك وشيخنا بعدك - أعزه الله - بما بذل من جهده ، وعرض من نفسه ، وتفرد بمكروهه ، وغرغر مراره ، صابراً على جسيمه ، يرى الكثير في ذلك قليلاً ، والإغراق تقصيراً ، وبذل النفس يسيراً . على حين خار كل بطل ، وحاد كل مقدم ، وعرد كل رئيس ، وأضاف كل مستبصر ، وطاح كل نجاج ، واستخفى كل مرء . وحتى صاروا هم الذين يشيرون عليه بالملاينة ، ويحسنون عنده المقاربة ، ويخوفونه العاقبة ، ويزعمون أن لكل زمان تدبيراً ومصلحة ، وأن إبعادهم أثقى لطبائعهم ، وإن إطلاقهم أنجع فيما يراد منهم وحتى سمو المداينة مداراة ، وإعطاء الرضا ثقية ، والشدة عند الفرصة خرقاً ، والانحياز مع صواب الأقدام رفقا ، وموالاته المخالف مخالفة ، والمصافاة معاشرة ، والمهانة حلماً ، والضعف في الدين احتمالاً . كما سمي قوم الفرار انحيازاً ، والبخل اقتصاداً ، والجائر مستقصياً ، والبلاء عارضاً ، والخطل بلاغة . فكذلك كانوا وكان وعلى هذا افترق أمرهم ، وذلك مشهور عنهم .

[٥ - المشبهة بضمون الاحاديث او يؤولونها على هواهم]

ثم يصول أحدهم على من شتمه ، ويسالم من شتم ربه ، ويغضب على من شبه أباه بعبده ، ولا يغضب على من شبه الله بخلقه ، ويزعم أن [في] أحاديث المشبهة تأويلًا ومجازاً ومخارج ، وأنها حقٌ وصدق . فإذا قيس طلب لهذا المجاز ظلم ، وقال ما يليق بلفظ الحديث ، فيكون بشهادته لصحة أحاديثهم مقراً ، فيصير فيما يدعي من خلاف تأويلهم مدعياً . ولو كانت هذه الاحاديث كلها حقاً كان قول النبي ﷺ : « سيفشو الكذب بعدي ، فما جاءكم من الحديث فاعرضوه على كتاب الله » باطلاً .

وهذا المذهب لمن يتحلل طريقتنا ، ويدعي زعمه سيئنا ، جور شديد ،
ومذاهب قبيحة ، وتقرب فاحش .

[٦ - يجب محاربة المشبهة نصرته للدين]

وليس ينبغي لديان أن يواد من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم
أو إخوانهم أو عشيرتهم .

فمضى إذن تزول الثقة ، ويجب إظهار الحق والنصرة للدين ، والمباينة للمخالفين ١٩
أحين يموت الخصم ويبعد أثره ويهلك عقبه ويقل ناصره ، ويزول جميع الخوف ويكون
على يقين من السلامة . وكيف يكون القائم منا بالحق مطيعاً ، والله معظماً ١٩

فقد سقطت المحنة وزالت البلوى والمشقة . وهل المعصية إلا ما مزجه الهوى
والشهوة ، وهل الطاعة إلا ما شابه المكروه والكلفة ، وكيف يكلف مالا مؤونة
فيه ، وكيف يحمى مالا مرزئة عليه . وكيف يكون مصير من أقدم في الأمن ،
وتكمن في الخوف ، أوليست النار محفوفة بالشهوات ، أوليست الجنة محفوفة
بالمكاره . وكيف صاروا في باطلهم أيام مضرتهم أقوى منا في حقنا أيام قدرتنا .

[٧ - أهل التشبيه ما زالوا كثيراً]

وقد علمت - أرشد الله أمرك - أن التشبيه وإن كان أهله مقموعين ومهانين
وممتحنين ، فإن عند الجماجم على حاله ، وضمير أكثرهم على ما كان عليه ،
والذين ماتوا قليل من كثير . ونحن لا ننتفع بالمنافق ، ولا نستعين بالمرتاب ولا نثق
بالجانح ، وإن كانت المبادأة قد نقصت فإن القلوب أفسد ما كانت .

[٨ - أهل التشبيه يلجأون إلى الجدل عندما يشوا من القهر بالعوام والولاة]

وقد كانوا يتكلمون على السلطان والقدرة ، وعلى العمد والثروة ، وعلى طاعة
الرعاع والسفلة ، فقد صاروا اليوم إلى المنازعة أميل ، وبها أكلف ، لأنهم حينما
يشوا من القهر بالحشوة والسفلة ، وبالباعة ، وبالولاة الفسقة ، وقلوبهم ممتلئة

ونفوسهم هائجة . كان لا بد لمن كانت هذه صفته ، وهذا نعته ، من أن يستعمل
الحيلة والحجة ، إذا أعجزه البطش والصولة . وكل من كان غيظه يفضل عن
حلمه ، وحاجته تفضل عن قناعته ، فواجب أن ينكشف قناعه ، ويظهر سره ،
ويبدو مكنونه .

وقد أطمعني فيهم مناظرهم لنا ، ومقايستهم لأصحابنا ، وقد صاروا بعد
السب يحفون ، وبعد تحريم الكلام يبالسون ، وبعد التصام يستمعون ، وبعد
التجريح يدارون ، والعمامة لا تفتن لتأويل كفيها ، ولا تعرف مقاربتها . فقد
مالت إلينا على قدر ما ظهر من ميلها ، وأصغت لما ترى من استماعها .

[٩ - كتاب الرد على المشبهة بين فساد آرائهم]

وقد كتبت - مد الله في عمرك - في الرد على المشبهة كتاباً لا يرتفع عنه الخافق
المستغني ، ولا يرتفع عن الرهض المتدي . وأكثر ما يعتمد عليه العامة ودهماء أهل
التشبيه من هذه الأمور ويشتمل عليه الفضل من خشية الناس ، ويختدع به
المحدثون من الجمهور الأعظم ، تحريف أي كثيرة إلى غير تأويلها ، وروايات كثيرة
إلى غير معانيها . وقد بينت ذلك بالوجوه القريبة ، والدلالات المختصرة ، وبالأشعار
الصحيحة والأمثال السائرة ، واستشهدت الكلام المعروف ، والقياس على الموجود .

[١٠ - جاء الكتاب مختصراً لكي لا يمله القراء]

وهو مع ذلك كله كتاب قصد ، ومقدار عدل ، لم يفضل عن الحاجة ، ولم
يقصر عن مقدار البغية . على أن الكلام لا ينبغي أن يكثر وإن كان حسناً كله ، إذا
كان السامع لا ينشط له ، وجاز قدر احتماله ، لأن غاية المتكلم انتفاع المستمع .
وقد قال الأولون : « قليل الموهظة مع نشاط الموهوظ ، خير من كثير وافق من
الاسماع نبوة ، ومن القلوب ملالة » .

قال بكر بن عبد الله المزني : ليس الواعظ من جهل أقدار السامعين ،
وإنابة المرتدين ، وملالة المستطرفين .

وقال علي بن أبي طالب ، رضوان الله عليه : « إن هذه القلوب تحمل كما تحمل الأبدان ، فابتغوا لها طرف الحكمة » .

وقد كان يقال : إن للقلوب شهوة وإقبالا ، وفترة وإدباراً ، فأتوها من حيث شهوتها وإقبالها .

وكان يقال : إذا أكره القلب عمي .

وقال واصل بن عطاء : طول التحديق يكل الناظر ، وناظر القلب أضعف منه .

وزعم عمران بن حدير قال : قال قدامة بن زهير : روحوا هذه القلوب مع الذكر .

وقال عبد الملك بن قسرب : قال أبو الدرداء : إني لاستجم نفسي ببعض الباطل كراهة أن أحمل عليها من الحق فأملها .

وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص ، رضي الله عنهما ، وهو بالقادسية : ان جنبهم حديث الجاهلية ، فإنه يذكر الأحقاد . وعظهم بأيام الله ما نشطوا لاستماعها .

وقالوا : كان رسول الله ﷺ يتخولنا بالموعظة

ولذلك امروا بالجمام وزيارة الغب .

وروا أن شر السير الحفحة .

ولأن ينقص الكتاب عن مقدار الحاجة أحب إلي من أن يفضل عن مقدار القوة ، لأن الملالة تبغض [في] الجميع ، وتزهده في الكل .

[١١ - الطلب من أبي الوليد قراءة الكتاب ونشره بين الناس]

فأنا أسألك - أكرمك الله - أن تقرأ هذا الكتاب وتقرأ ما خف عليك منه .
فإن يصلح الكلام [و] كان كما وصفت وكما ضمنت ، حثت على قراءته وعلى
التخافه ، وعلى تحليده وعلى تدوينه ، وأمرت من يحتاج الى المادة ، وإلى حسن المعونة
من الموافقين والإخوان الصالحين ، أن ينظروا فيه ، وأن يثبوه ويشيروه .

وقد كنت أنا على ذلك قادراً ، وبه مستوصياً ، ولكن الرجل الرفيع إذا رفع
الشيء ارتفع ، كما أنه إذا وضع الشيء اتضع .

وإن كنت فيه غلقاً أو لعلته مستكثراً ، كان لك بحسن نيتك وصلاح
مذهبك ، والذي رجوت عنده من المنفعة وصلاح مذهبك ، والذي رجوت عنده
من المنفعة وصلاح قلوب العامة ، الأجر الكبير ، والثواب العظيم ، مع ما تقضي
بذلك من فمाम المتحرم بك ، والمتحلي من بيتك ، ومع اليد البيضاء والصنيع
المشكور .

[١٢ - يجب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر]

وحرام على كل متكلم عالم ، ونقيه ~~مطاع~~ ، وخطيب مفوه إن كان عنده من
الامر شيء ، إلا أن يأتيكم به ، ويذكركم بما عنده ، قل ذلك أو كثر ، وصادف
منكم شغلاً أو فراغاً ، لأن ذلك من عندكم أنفق ، والناس إليه أسرع والقلوب إليه
أسكن ، وهو في العيون أعظم ، لما جعل الله عندكم من حسن الاختيار ، والعلم
بمنافع العباد ، ومصالح البلاد ، إذ كتتم المنزوع والمقنع ، والأئمة والمنزوع . ولولا ما
قلدتم من أمر الجماعة ، والقيام بشأن الخاصة والعامة ، وأن الشغل برعاية حقها
والدفاع عنها ، لم يبق في قواكم فضلاً للدهاء والمنازعة ، ولوضع الكتب بالجواب
والمسألة - لبدأ بكم الفرض ، ولكتتم أحق بهذا الامر .

هل أننا لم ننتقل إلا بالاستتكم ، ولم نحتد إلا على مشالككم ، ولم نقول إلا بما
أمرتمونا من فضل قوتكم . وهل الرواة من الأدباء ، وهل أهل اللسان من
الخطباء ، معاونتكم ومكاتفتكم ، والجلوس بين أيديكم والاستماع منكم ، وهل أن

يطيعوا أمركم ، وأن ينفذوا لطاعتكم ، وأن يخلصوا في الدماء ، وأن يحضوا
النصيحة ، وأن يضمروا غاية المحبة ، وأن يعملوا في كف الغل والحسد ، وأن لا
يرضوا من أنفسهم بالنفاق ، وأن يعلموا أن الحسد لا يقع إلا بين الأشكال ، وأن
التنافس لا يكون إلا مع تقارب الحال .

وقد كان يقال : لا يزال الناس بخير ما تفاوتوا ، فإذا تقاربوا هلكوا .

وكان يقال : ثلاثة توجب الضغن وتكثر من الغل : المجاورة في المنزل ،
والاستواء في النسب ، والمشاكلة في الصناعة .

ولذلك قال شبيب بن شيبه لرجل ادعى محبته ونصيحته : وكيف لا يكون
كما وصفت وكما ذكرت ، ولست بخطيب ، ولا جار قريب ، ولا ابن عم نسبي .

وقال بعض الحكماء : لو لم تعرفوا من لؤم الحسد إلا أنه موكل بالأذى
فالأذى . وليس يقع ذلك بين المتباينين ، ولا يجوز في المتقاربين .

ولا يكون الطلب إلا بالطمع ، ولا يكون الطمع إلا بالسبب . فإذا انقطع
السبب انقطع الطمع ، وفي عدم الطمع [عدم] الطلب . وكيف يتكلف الطيران
من لا جناح له ، وكيف يرجو صلاح أمر العامة وترتيب الخاصة من هجر عن تدبير
بيته ، وقصر عن تدبير عبده ١٩ .

وإنصاف اللسان قليل ، وإنصاف القلب أقل منه .

ونحن نرغب إلى الله في صلاحهم ، فإن في صلاح قلوبنا لهم .

وقد جعل الله الشكر موصولاً بالمزيد ، ومن الشكر على نعمة الله علينا بكم
أن نعظم ما عظم الله من أمركم . ومن صغر ما عظم الله فقد عظم ما صغر الله .
ولا يفعل ذلك إلا الصغير القدر ، والحامل الذكر ، والجاهل بالأمر .

وكيف لا تكونون على ما خبرت وكما وصفت ، وقد أغنيتم من العيلة ،
وأنستم من الوحشة ، وجمعتم الشمل ، وأهدتكم الألفة ، ورددتم الغلامه ، وأحييتم

السنة ، وأبرزتم التوحيد بعد اكتثامه ، وأظهرتموه بعد استخفائه واحتملتكم عداوة الجميع ، ووترتم المطاهنين في تقويتنا .

ونحن لا نطالب ما كنتم قياماً ، ولا نذكر ما كنتم شهوداً . ونحن مع قلة علمنا لا نجد أبداً عملنا إلا مقصراً عن علمنا . وأنتم مع اتساع قلوبكم ، أعمالكم وفق علومكم ، لأن كل من بذل كل جهوده ، وخاطر بجميع نعمته ، وكانت الواحدة من نعمه كالجميع من نعم غيره ، مع خذلان الموافق ونكوص المؤازر ، ثم لم تزد الشدائد إلا شدة ، والوحدة [إلا] أنسة - حقيق بالفضل والتعظيم ، والإنابة له بالتقديم .

[١٣ - الجاحظ توجه الى أبي الوليد دون والده أحمد ابن أبي ذؤاد لأنه شاب محتلي طموحاً وصولاً ، وأكثر فراها من أبيه]

ولعل قائلاً أن يقول : أدخله في جملة صفات أبيه ، وأجلة مشيخته وأقربيه ، حيث خصهم بالتقديم ، وأباهم بالتعظيم . بل كيف يقدم من صغرت سنه وقلت تجربته على من تقاربت سنه وكثرت تجربته . وكيف تمكن الطاعة الكثيرة في الأيام القصيرة والشهور اليسيرة ؟ وهل يقول ذلك صاحب تحصيل ومقايسة ، واليعيد من الملق والمخادعة .

وما قلت ذلك - حفظك الله - ولا انتحلته ، إلا وبرهان حاضر ، وشاهدي شاهد . وذلك أن للشباب سكرة وطامحاً ، وقراعاً وصولاً . والمهرم داخل على جميع الأعضاء ، وأخذ بقسطه من جميع الأجزاء . ألا ترى كيف يكل ناظره وسامعه ، وذائقه وشامه ، وهاشمه وهامله ، وكيف تنقص على مرور الأيام قوته ، وكذلك قلبه وكل ما بطن من أمره ، على قدر ما نقص من قوى جسمه وتنقص من قوى شهوته . [و] يخف عليه مخالفة هواه ، ومحاربة نوازعه . ومن حمل على نفسه في كمال شبابه وأيام سكرته ، وفي سلطان حدته وكمال قوته ، فظلفها مرة وكبحها أخرى ، وعاین تلك التكاليف ، وغلب تلك الريح كان أبرز طاعة ، إذ كان

أحمل للمشقة .

وعلى قدر المشقة تكون المشوية ، وتعظم عند الله المنزلة ، وتقع له في قلوب الناس المحبة . ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لسعد ابن أبي وقاص ، حين وجهه الى العراق : « يا سعد بني وهيب ، إن الله إذا أحب عبداً حبه الى خلقه . فاعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس ، واعلم أن مالك عند الله مثل ما لله عندك . ونحن نعتبر حالك عند الله بالذي نجد لك في قلوب عباده . وقد ملك الله بعض الناس أبدان بعض ، ولم يملك القلوب أحداً غيره » .

وأما قولهم : إن الفرارة مقرونة بالحدائثة ، والحنكة موصولة بطول التجربة ، فإن الذهن الحديد والطبع الصحيح ، والإرادة الوافرة ، ينال في الأيام اليسيرة ، ويدرك في الدهور القصيرة ، ما لا تدركه العقول المخدوجة ، ولا الطبائع المدخولة ، والإرادة الناقصة ، في الأيام الكثيرة ، والدهور الطويلة . وربما صادف القائل مع ذكائه وكثرة قراءته وجودة اعتباره ، زماناً أكثر عجباً ، وأكثر معتبراً ، وإن كانت شهوره أقل ، وأيامه أقصر ، فينال مع قلة الأيام ما لا ينال سواه مع كثرتها ، ولا سيما إذا أعين بحفظ ، وأحسن من نفسه بفضيل بيان .

وليس من نظر في العلم على الرغبة والشهوة له كمن نظر فيه على المكسبة به والهرب إليه ، لأن النفس لا تسمح بكل قواها إلا مع النشاط والشهوة ، وهي في ذلك لنفسها مستكرهة ولها مكابدة . والسامة إلى من كانت هذه صفته أقرب ، وله ألزم . ولولا ذلك لما ولى رسول الله ﷺ معاذ بن جبل اليمن ، وجعل إليه قبض الصدقات ، ومحاسبة العمال ، وقلده الأحكام وتعليم الناس الإسلام ، وهو ابن ثمانين عشرة سنة . ولا يدفع ذلك صاحب خبر ولا حامل أثر .

وعلى مثل ذلك عقد لأسامة بن زيد الإمرة ، وأبانه بالتقدمة على أجلة الأنصار وكبار المهاجرين ، وخيار السلف المتقدمين .

وعلى مثل ذلك ولي عتاب بن أسيد مكة ، وبها عظماء قريش وكبراء العرب
وذوو الاخطار من كل قبيلة ، وذوو الأسنان من كل جيل . ومكة فتح الفتوح ، وأم
القرى ، وخاتمة الهجرة وقبلة العرب ، وموضع الحرم والموسم الأهمم والحج
الأكبر ، والأصل والمفخر .

وقد رأيتم ما بلغ بخالد بن يزيد في السؤدد والمحبة ، وقود الجيوش والهيبة ،
وهو ابن خمس عشرة سنة . وقد ذكر ذلك الكميث بن زيد فقال :

قائد الجيوش لخمس عشرة حجة ولداته عن ذاك في أشغال
تعدت بهم هماتهم وسما به هم الملوك وسورة الأبطال
فأما ابن بيضر فقال :

بلغت لعشر مضت من سنك ما يبلغ السيد الأشهب
لهمك فيها جسام الأمور وهم لداتك أن يلعبوا

وعلى مثل ذلك قال الفرزدق في يزيد بن المهلب :

ما زال مذ عقدت بداه إزاره ودنا وكان الخمسة الأشبار
وإذا الرجال رأوا يزيد رأيهم خضع الرقاب نواكس الأبصار

وعلى هذا المجري مدح الشاعر من مدح فقال :

ما زلت على عقل الكعبه ر وأنت في سن الصغير

وقد رأيتم ما بلغ محمد بن القاسم من الفتوح العظام والأيام الجسام ،
والقهر للأعداء ، وبلوغ المحبة في الأولياء ، وهو ابن خمس عشرة سنة . وقد ذكر
ذلك زياد الأصم فقال :

ما إن سمعت ولا رأيت عجيبة كمحمد بن القاسم بن محمد
قائد الجيوش لخمس عشرة حجة يا قرب ذلك سؤدداً من مولد

وقال الآخر :

إذا المرء أهيته المروءة ناشئاً فمطلبها كهلاً عليه سير

وقال آخر :

إذا ما ترهع فينا الغلام فليس يقال له من هو
إذا لم يسد قبل شد الإزار فذلك فينا الذي لا هو
ولي صاحب من بني الشيبان فطوراً أقول وطوراً هو

وزعموا أن عمرو بن سعيد قال له معاوية - وذلك قبل أن يبلغ ويحتلم - إلى من أوصى بك أبوك ؟ قال : إن أبي أوصى إلي ولم يوص بى . قال : فيم أوصاك ؟ قال : أوصاني ألا يفقد إخوانه منه إلا وجهه .

ولو لم يعرف ذلك إلا بعبد الله بن العباس وحده كان ذلك كافياً ، وبرهاناً شافياً ، فإن الأعجوبة فيه أربت على كل عجب ، وقطعت كل سبب . وقد رأيت حاجة عمر إليه ، واستشارته إياه ، وتقريبه لعثمان رضي الله عنهما وتغييره عليه . ولو لم يكن للفضيلة من بين أقرانه مستحقاً ، وبها مخصوصاً ، ما خصه الرسول صلى الله عليه وسلم بالدعوة المستجابة ، ولما خصه بعلم الكتاب والسنة وهما أرفع العلم ، وأشرف الفكر . وبدلك على تقديمه للغاية ، وإثارة للتعليم والاستبانة ، قوله حين قيل له في حدائثه وقبل البلوغ في سنه : ما الذي آتاك هذا العلم وهذا البيان والفهم ؟ قال : « قلب عقول » ولسان سؤول » .

وقد عرفتم محاكم العرب في الجاهلية في النفورة ، وفي غير ذلك من المخايرة والمشاورة ، إلى أبي جهل بن هشام في أيام حدائثه وفتائه ، ولذلك أدخلوه دار الندوة ، ودفع [مع] ذوي الاسنان والحنكة من بين جميع الشبان ، ومن بين جميع الفتيان .

ولذلك قال قطبة بن سيار حكيم فزارة حين تنافر إليه عامر ابن الطفيل

وعلقمة بن علاثة : عليكم بالحديد الذهن ، الحديث السن : يعني أبا جهل .

فهذا كله دليل واضح ، وبرهان بين .

ولعل قائلًا أن يقول : إنما الفضل في خشونة الملابس ، وليس ذلك لمن

مدحت ، ولا هذه صفة من وصفت .

وهذا باب - أبقاك الله - قد يغلط فيه العاقل ما لم يكن بارعاً ، والفظن ما لم يكن ثاقباً ، والأريب ما لم يكن كاملاً . ولو كان الفضل والرياسة والقدر والنباهة على قدر قشف الجلدة وبداثة الهيئة ، وكثرة الصوم ، وإيثار الوحشة والسياحة - لكان عثمان بن مظعون متقدماً لأبي بكر الصديق رضوان الله عليه ، ولكان بلال بن رباح غامراً لعثمان بن عفان رضي الله عنهما .

وقد قال ابن شهاب الزهري : ليس الناسك إلا من غلب الحرام صبره ،

والحلال شكره .

فهذا ما حضرنا من القول ، وأمكثنا من الاحتجاج . وما أشك أن من خبر أمرك أكثر من اختباري كان عنده أكثر من علمي . وعلى أن منظر - أسعدك الله - يعني من المخبر ، والفراسة فيك تكفي مؤونة التجربة لك . وقد ثقيلت بحمد الله أخلاق شيخك ، واحتذيت على مثاله كما احتذى على مثال من كان قبله . ولو لم يتعقبوا أمرك ، ويتصفحوا سيرتك في نفسك ثم في خاصتك وعامتك ، لكان في صدق الفراسة وظهور المحبة ما تقضي به النفوس ، ويستدل به المجرب .

وظن العاقل كيقين غيره .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إنك لن تنتفع بعقله حتى تنتفع بظنه .

وقال أوس بن حجر :

الأمي الذي يظن لك الظن من كأن قد رأى وقد سمعا

وقال وهو يمدح ابن كلدة بصدق الحس ، وصواب الحدس ، وجودة الفطن :

جريب أديب أخو مازق نقاباً يخبر بالفائب

وقال آخر يمدح بمثل ذلك عبد الملك بن مروان :

رأيت أبا الوليد غداة جمع به شيب وما فقد الشبايا

ولكن تحت ذاك الشيب حزم إذا ما ظن أمرض أو أصابا

وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه ﴾ . وقال :

﴿ إن بعض الظن إثم ﴾ . وفي ذكره البعض دليل على أن سائر ذلك صواب وطاعة .

وكان من أسباب دفعي إليك هذا الكتاب - أبقاك الله - دون أبي عبد الله أكرمه الله ، أنكما قد تهربان في بعض الأمور مجرى واحداً ، ولأنك وإن كنت كثير الشغل فهو أقل فراغاً منك على كثرة شغلك ، وفرط عنايتك بما استكفأك واسترعاك . وإن جعلت لي قسماً من وقت فراغك ، ونصيباً من ساعة نشاطك ، رجوت أن يصير إلى ما أملناه عندك من الإنعام علي ، والاسترهان لشكري ، فإن العرب لم تعظم شيئاً قط كتعظيمها موقع الإنعام والشكر والاحدوثة الحسنة ، والذكر والتميز ، والاستمداد للنعم ، والكفر حائل بين العود والبدء .

قال عترة :

نبئت بشراً غير شاكري نعمتي والكفر مخبئة لنفس المنعم

وقال السندي :

فلم أجز بالحسنى وهادت مشاربي بلاقع بقروها الحمام المقرقر

تبدلت بالإحسان سوءاً وربما تنكر للمعروف من كان يكفر

ويدل على حبهم لثناء وجميل الذكر قول الأسدي :

فإني أحب الخلد لو أستطيعه وكالخلد عندي أن أموت ولم ألم
وقال :

فأثروا علينا لا أبأ لآبيكم بسماتنا إن الثناء هو الخلد
وقال الغنوي :

فإذا بلغتكم أهلكم فتحدثوا إن الحديث مهالك وحلود
فجعلوا الذكر بالجميل مثل الخلود في النعيم .

وعلى هذا المعنى قال في درك الثار :

فقتلاً بتقتيل وعقراً كعقركم جزاء العطاس لا يموت من آثار
وقال حكيم الفرس حين بلغه موت الإسكندر ، وهو قاتل دارا بن دارا : ما
ظننت أن قاتل دارا يموت ا
وهذا القول هو أمدح منه لقائله . ولم أسمع للعجم كلمة قط أمدح منها .
فأما العرب فقد أصبت لهم من هذا الضرب كلاماً كثيراً .

ومما يدل على قدر عظم الشكر عند الشاكر والمشكور له من العرب ، قول
أوس بن حجر في حليلة :

سنجزيك أو يجزيك عنا [مشوب] وحسبك أن يثنى عليك ويحمدي
وقال بعض الشعراء :

فلم أجزه إلا التشكر جاهداً وحسبك مني أن أقول فأحمدا
وكانوا يرون للذنب ما لا يراه غيرهم . وقال امرؤ القيس بن حجر :

• وجرح اللسان كجرح اليد •

وقال جرير :

● وللسيف أشوى رقعة من لسانيا ●

في أشعار كثيرة .

[١٤ - الرباط الذي يربط الجاحظ بابن أبي ذؤاد هو التوحيد ونفي التشبيه]

ولست أمت إليك - أكرمك الله - بعد التوحيد ونفي التشبيه ، ونصرتي للدين ، بأمر أنا به أوثق من رغبتك في شكر الكرام والأحدوث الحسنة . قال الله عز وجل : ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ وقال : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ . فلو كان حب الذكر خطيئة لما رغبهم فيه ، ولا عد في نعمه .

[١٥ - الثناء على القاضي يرجع على المعتصم]

ولعل قائلاً أن يقول : وكيف لم تذكر أمير المؤمنين ، والمعتصم برب العالمين ، الذي حقق الله به الدين وسدد به الثغور ، ورد به المظالم ، وحسم به عرق البغي ونواجم الفتنة ، الذي لم يزل الله يزيده في كل طرفة محبة ، ومع كل محبة هيبة ، ومع كل نعمة شكراً ، ومع كل شكر فضلاً . وهو المبتديء بهذا الأمر والقائم به ، والقطب الذي عليه تدور الرحى ، وعلى مثاله احتذى من احتذى ، وبلسانه نطق ، وعن رأيه صدر . وبيمين نقيته ظهر ، وبفضل قوته نهض . وهو أول هذا الأمر ووسطه ، به يتم إن شاء الله تعالى .

قلنا : إن عقل الرسول يدل على مرسله ، واعتدال القناة يدل على حدق المثقف ، ومديحك الوزير راجع الى من اختاره ، وإن تصويب ظن المتفرس فيه ومديحنا له غير راجع الى وزيره والمحتذى على مثاله ، بل قد علم الناس أن الحظ الأكبر للأمر دون المطيع ، وللمعلم دون القائل ، ولأن المسبب في عداله وعند النظر والتحصيل ، فاضل من المسبب ، والمتبوع خير من التابع ، ألا ترى أن من مدح الأنصار فهو للنبي ﷺ والمهاجرين أمدح ، وإن لم يظهر ذكرهم في

الوصف .

قال جرير :

• نلکم قریشی والانصار أنصاری •

وقال رؤبة :

• ومرع علی المنبر لی والمنبر •

وربما كانت الكناية أبلغ في التعظيم ، وأدعى إلى التقديم ، من الإفصاح والشرح . وربما أتى من السكوت بما يعجز القول عنه وقد بلغ أقصى حاجته وغاية أمنيته بالإيماء والاشارة ، حتى يكون تكلف القول فصلاً ، والكلام خطلاً .

وما عسى أن أقول ليهن قد قوي عقله بطبيعته ، وانتصف عزمه من شهوته ، وكان عمله وفق علمه ، وعمله غامراً لخصمه .

وقد يجري الملك على عرق صالح ومنشأ سوء ، فيقدح ذلك في عرقه وإن لم يستأصله ، وقد يكون له عرق صالح ومنشأ صدق ، وتكون أذاته تامة ويكون مؤثراً لهواه ، فيكون في الاسم وفي ظاهر الحكم كمن لسد عرقه وخبث منشأه .

وقد جمع الله لأمير المؤمنين مع كرم المروق وصلاح المنشأ ، البعد من إيثار الهوى . وهل رأيت أفعالاً أشبه بأخلاق ، ولا أخلاقاً أشبه بأعراق ، من أفعال بأخلاقه ، وأخلاقه بأعراقه .

فنسأل الله الذي أسندنا بخلافته ، أن يمن علينا بطول بقائه ، وأن يخلصنا بحسن نظره كما خصنا بمعرفة حقه ، والاحتجاج لملكه ، والذب عن سلطانه .

ولربما كان اللسان أنفذ من السنان ، وأقطع من السيف اليمان .

أطال الله بقاءك وحفظك ، وأتم نعمته عليك ، وكرامته لك .

• • •

تمت الرسالة بعون الله تعالى ومنه وتوفيقه وتأييده . والحمد لله أولاً وآخراً
وصلواته على سيدنا محمد نبيه ، وآله وصحبه ، وسلامه .



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

هامش رسالة في نفي التشبيه ، وكتاب في الرد على المشبهة

- (١) يوجه الكلام الى القاضي محمد بن أحمد بن أبي دؤاد الذي خلف والده على القضاء في عهد المعتصم وكان ميالاً الى المعتزلة ناصراً لهم في صراحتهم ضد اهل السنة والجماعة . يوغر صدره على العامة الذين قالوا بالتشبيه ويستشهد بأقوال علي بن أبي طالب وواصل بن عطاء أحد مؤسسي المعتزلة ، وعمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي الثاني وهي أقوال تحمل على العامة وتتهمها بالغباء والطغيان والشر ، كما يستشهد بيوتن للشاعر اسحاق بن حسان الحرابي الذي حاصر الجاحظ ، يذم فيها العامة الذين ابتدوا الخليفة المخلوع الامين والمخلوع من الحصار تروساً ومن الخوص دروعاً ويصر لم شملهم . اما قول شبيب بن شيبه فيشير الى كيفية معاملة العامة . وهذه الاقوال التي استشهد بها الجاحظ تدل على منعة اطلاقه وقوة حافظته وهي ميزة أمدهه بقدرة على تأييد آرائه .
- (٢) خطر العامة يتفاقم اذا كان لها رئيس حافظ او امام مقلد فعندئذ يصعب التغلب عليها . وهذا ما حدث فعلاً ، فقد اتخذت العوام متكلمين وقصاصاً تقلدهم وتسترشدهم .
- (٣) ان العامة صالت على المتكلمين وأرهبتهم ، واسقطت شهادة الموحدين اي المعتزلة وكلام الجاحظ يشير الى ان علماء المعتزلة كانوا يمثلون المتكلمين في عصره . وهؤلاء فضل كبير على الاسلام فهم الذين ناصرته وحاربوا اللاحاد ، وبيتوا الحق من الباطل ، وفضلوا المتني والني أي ميزوا بين النبي الحق ومدعي النبوة ، وللجاحظ كتاب حول هذا الموضوع .
- (٤) هنة العامة وقادهم : يشير الجاحظ الى المعركة التي خاضها المعتزلة ضد اهل السنة والجماعة اي العامة والتي عرفت بما سمي هنة خلق القرآن وكان القاضي احمد بن أبي دؤاد يتولى محاكمة الامة اهل الجماعة وعلى رأسهم الامام أحمد بن حنبل .
- (٥) يتهم الجاحظ اهل الجماعة بالقول بالتشبيه ووضع الاحاديث . والتشبيه بنظر المعتزلة الذين يتحلون طريقة الجاحظ جور وفحش .
- (٦) يجب محاربة هؤلاء المشبهة دون هوانة او تأخر وهون مهانة او تواد والا تقصوا على المعتزلة .

وواحد يتضمن إدراك المرء المباشر لذاته ، وواحد يتعلق بالأخبار ، وواحد يتعلق بتوجيه الخطاب ، واثنان يتعلقان بالقدم والحدوث . وقد أهمل ما يتعلق بالعلوم الدينية والعقلية .

(٧) جميع آراء المعتزلة التي ذكرها الجاحظ حول المعرفة فاسدة . وبعد بقول الحقيقة في سياق كلامه على المعربة .

(٨) يناقش الجاحظ رأي النظام القائل أن العلم بالله يكتسبه الإنسان اكتساباً ، إن الذين يعتقدون خلاف ذلك هم على حق أو على باطل . فإن كانوا على حق كان رأي النظام باطلاً وإن كانوا على بطل فكيف نميز اعتقادهم عن اعتقاد خصومهم ؟

(٩) يعلن الجاحظ فكرة هامة وهي : إن اطمئنان القلب وسكونه ليسا علامة الحق وهذه الفكرة سيقول الغزالي بعكسها فيما بعد عندما يحدد العلم اليقيني بأنه العلم الذي لا يخالطه الشك .

(١٠) كذلك ليس استشهاد الضرورات علامة للحق ، لأن المبطل يدهي كالحق أنه استشهاد الضرورات لأن « من شأن الناس أن يستدلوا على الباطن بالظاهر إذا أرادوا النظر والقياس ، ثم هم بعد ذلك يخطئون ويصيبون » . وسرى الغزالي مرة أخرى بلجاً إلى مفهوم الضرورة في رده على الفلاسفة حول مسألة قدم العالم .

(١١) الدليل على فساد المبدأ المذكور أهلاه أي استشهاد الضرورات كعلامة للحق هو اختلاف أصحاب النظام ذاتهم حول المسألة الواحدة وكل منهم يدهي أنه على حق لأنه استشهاد الضرورات . ينبغي أن نلاحظ أن المعتزلة على الرغم من انتمائهم إلى مدرسة فكرية واحدة وإجماعهم على الأصول الخمسة ، العدل والتوحيد والمنزلة بين المنزلتين والوحد والوحد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كانوا يختلفون في مسائل كثيرة ويتقد بعضهم بعضاً نقداً شديداً . فالجاحظ مثلاً ينتقد من سبقوه أو عاصروه حول نظرية المعرفة كما نرى في هذه الرسالة ، والذين جاؤوا بعده انتقدوه بدورهم لقوله أن المعرفة طباع كما يتضح من رد الجبالي والقاضي عبد الجبار عليه في كتاب المغني الذي ألفه هذا الأخير .

(١٢) يعلن الجاحظ أنه بعد مناقشة آراء بشر بن المعتمر والنظام وسواهما سيقول رأيه الخاص حول المعرفة والإستطاعة والتكليف .

(١٣) إن الله لا يكلف الإنسان شيئاً إلا إذا كان مستطيعاً لفعل ذلك الشيء . ولا يكون مستطيعاً إلا إذا توافرت فيه شروط هي صحة الجسم واعتدال المزاج والمعرفة بكيفية الفعل .

(١٤) الحرية تعني بنظر الجاحظ القدرة على اختيار الشيء أو استطاعة فعله . ولا يكون

الإنسان حراً إلا إذا تعادلت فيه قوتنا العقل والشهوة . فمضى كانت القوتان متكافئتين كان الفعل اختياراً وإذا تغلبت إحداهما على الأخرى حدث الفعل اضطراراً . وهذه نظرية أصيلة وهامة ابتدئها الجاحظ تستحق الإعجاب . راجع حول هذا الموضوع كتابنا « المناحي الفلسفية عند الجاحظ فصل الجاحظية » .

(١٥) معرفة الله تتم بواسطة الأنبياء . وينفي الجاحظ معرفة الله بأدلة أخرى بالحركة والسكون والاجتماع والافتراق والزيادة والنقصان . والمعروف أن أرسطو أقدم من قال بدليل الحركة وتناهمه فيه الفلاسفة العرب . ويدهي أن بعض الموحدين أنكروا بأدلة تكلفوها ولم يكونوا بحاجة إليها . وينبغي أن نتساءل هنا : ألم يبحث الجاحظ نفسه عن أدلة أخرى عدا حجج النبوة ، على وجود الخالق كما فعل في كتاب « الحيوان » عندما اعتبر الحيوانات دليلاً على حكمة الخالق ؟

(١٦) معرفة صدق الرسل اضطرارية وليست مكتسبة ، لأن تجارب الطفل تجعله قادراً على التمييز بين الصدق والكذب .

(١٧) تجارب الطفل ليست إرادية أو قصدية كتجارب البالغين وإنما هي تجارب عفوية اضطرارية تتم طبعاً دون وعي وإرادة في الطفل . « إن التجربة على ضربين : أحدهما أن يقصد الرجل إلى امتحان شيء ليحرف مظهره كما عرف منظره ، والأخر أن يهجم على علم ذلك من غير قصد » .

(١٨) البلوغ معناه استحكام المعارف عند الطفل وحياسة القدرة على التمييز بما في ذلك التمييز بين الصدق والكذب ، لقد عدل الله طبعه وأحكم صنعه وولر أسبابه فلا يحتاج عند معابته رسولاً يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص ويفلق البحر إلى تفكير ولا تمثل ولا إمتحان ولا تجربة

أنظر حول نظرية المعرفة عند الجاحظ كتابنا « المناحي الفلسفية عند الجاحظ » (دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ١٣٩ - ١٦٧) .



[١٦ - معنى التوحيد عدم تجزئة الواحد وعدم تشبيهه بشيء ذي اجزاء]

أما بعد ، فقد اختلف أهل الصلاة في معنى التوحيد ، وإن كانوا قد أجمعوا على انتحال اسمه . فليس يكون كل من انتحل اسم التوحيد موحداً إذا جعل الواحد ذا اجزاء ، وشبهه بشيء ذي اجزاء .

[١٧ - ليس موحداً من يزعم رزية الله بالعين]

ولو أن زاهماً زعم أن أحداً لا يكون مشبهاً وإن زعم أن الله يرى بالعين ، ويوجد ببعض الحواس ، حتى يزعم أنه يرى كما يرى الإنسان ، ويدرك كما تدرك الألوان كان كمن قال : لا يكون العبد لله مكذباً ، وإن زعم أنه يقول ما لا يفعل ، حتى يزعم أنه يكذب . ولا يكون العبد لله مجوراً ، وإن زعم أنه يعذب من لم يعطه السبب الذي به ينال طاعته ، حتى يزعم أنه يجور .

ولو أن رجلاً قال لفلان : عندي جدر مائة ، كان عندنا كقوله : لفلان عشرة . وكذلك إذا قال : فلان قد ناقض في كلامه ، فهو عندنا كقوله : فلان قد أحال في كلامه .

ولو قال : ناقض ولم يجل ، له عندي جدر مائة وليس له عندي عشرة ، كان كالذي يقول : ركبت عيراً ولم أركب حماراً ، وشربت المدامة ، ولم أشرب حمراً .

وللمعاني دلالات وأسماء ، فمن دل على المعنى بواحدة منها ، وباسم من
أسمائها ، لم نسأله أن يوفينا الجميع ، وأن يأتي على الكل ، ولم يلتفت الى منع ما
منع ، إذا كان الذي منع مثل الذي أعطى .

[١٨ - وليس موحداً من يقول ان الله جسم]

وقد أنبا الله عن نفسه ، على لسان نبيه ﷺ ، فقال ﴿ ليس كمثله شيء ﴾
فأقر القوم بظاهر هذا الكلام ، ثم جعلوه في المعنى [جسماً] يشبه كل شيء ،
وإذ جعلوه جسماً ، فقد جعلوه محدثاً ومخلوقاً ، لأن دلالة الحدوث ، والشهادة على
التدبير ، ثابتان في الأجسام ، وإنما لزمها ذلك لأنها أجسام لا لغير ذلك ، لأن
الجسم إذا تحرك وسكن ، وعجز وقوي ، وبقي وفقى ، وزاد ونقص ، وممازج
الأجسام وتخلص لأنه جسم ، ولولا أنه جسم لاستحال ذلك منه ، ولما جاز عليه
هذه الأمور التي أوجبتها الجسمية ، [و] هي الدالة على حدوث الأجسام .
فواجب أن يكون كل جسم كذلك ، إذا كانت الأجسام مستوية في الجسمية وإذا
كان كل جسم منها أيضاً لزمه ذلك .

[١٩ - بعض المشبهة قالوا ان الله جسم ليخرجوه من العدم ، وليعقل إذا لا

يعقل سوى الجسم]

وقد اختلف أصحاب التشبيه في مذاهب التشبيه .

فقال بعضهم : نقول : إنه جسم ، وكل جسم طويل .

وقال آخرون : نقول : إنه جسم ، ولا نقول إنه طويل ، لأننا إنما
جعلناه جسماً لنخرجه من باب العدم ، إذ كنا متى أخبرنا عن شيء ، فقد جعلناه
معقولا متوهماً ، ولا معقول ولا متوهم إلا الجسم . وليست بنا حاجة الى أن نجعله
طويلاً ، وليس في كونه جسماً إيجاب لأن يكون طويلاً . لأن الجسم يكون طويلاً
وغير طويل ، كالدور ، والمثلث ، والمربع ، وغير ذلك ، ولا يكون الشيء إلا
معقولا ، ولا المعقول إلا جسماً . فلذلك جعلناه جسماً ، ولم نجعله طويلاً .

فينبغي - يرحمك الله - لصاحب هذه المقالة ، إن لم يجعله طويلاً أن يجعله
عريضاً ، وإن لم يجعله عريضاً أن يجعله مدوراً ، وإن لم يجعله مدوراً أن يجعله
مثلاً ، وإن لم يجعله مثلاً أن يجعله مربعاً . وإن أقر بيئته من الهيئات فقد دخل فيها
كره .

ولا أعلم المدور ، والمثلث ، والمربع ، والمخمس ، والمصلب ، والمزوي ،
وغير ذلك من الهيئات ، إلا أشنع في اللفظ . وأحقر في الوهم .

[٢٠ - تأويل اصحاب التشبيه لآيات القرآن بصدد الرؤية : الآية ﴿ لا
تدركه الأبصار ﴾ تنسخها الآية ﴿ اعيون يومئذ ناظرة الى ربهنا ناضرة ﴾]

فصل منه : وقال اصحاب الرؤية : اذا احتلتم علينا بقول الله تعالى : ﴿ لا
تدركه الابصار وهو يدرك الابصار ﴾ وقتلتم : هذه الآية مبهمة ، وخرجت مخرج
العموم ، والعام غير الخاص .

وقد صدقتم ، كذلك العام إلى أن يخصه الله بآية أخرى ، وذلك أن الله تعالى
لو كان قال : ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾ ثم لم يقل : ﴿ وجوه
يومئذ ناظرة . إلى ربهنا ناظرة ﴾ لعلمنا أنه قد استثنى اخرة من جميع
الأبصار .

قالوا : وإنما ذلك مثل قوله : ﴿ قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب
إلا الله ﴾ ومثل قوله : ﴿ وما كان الله ليظلمكم على الغيب ﴾ وهذه الأخبار
مبهمة عامة ، فلما قال : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت
ولا قومك من قبل هذا ﴾ ولما قال ، أيضاً : ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا
بما شاء ﴾ علمنا أن القول الثاني قد خص القول الأول . وكذلك أيضاً قوله :
﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ .

[٢١ - رد الجاحظ : كبار المفسرين يفسرون الآية ﴿ وجوه يومئذ ناظرة الى
ربهنا ناظرة ﴾ بمعنى الانتظار]

قلنا للقوم : إن الله تعالى لما قال : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ﴾ . بعد أن قال : ﴿ وما كان الله ليظلمكم على الغيب ﴾ . علمنا أن ذلك استثناء لبعض ما قال إني لا أظلمكم على الغيب . وهذا الاستثناء لا اختلاف في لفظه ولا في معناه ، ولا يحتمل ظاهر لفظه غير معناه عندنا .

وعند خصومنا فيه أشد الاختلاف . وظاهر لفظه يحتمل وجهاً آخر غير ما ذهبوا إليه . والفقهاء وأصحاب التفسير يختلفون في تأويله وهم لا يختلفون في تناول قوله : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ﴾ .

قال : ذكر ابن مهدي عن سفيان ، عن منصور ، عن مجاهد ، في قوله ﴿ وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة ﴾ قال : تنتظر ثواب ربها .

وذكر أبو معاوية عن إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح مثل ذلك . وأبو صالح ومجاهد من كبار أصحاب ابن عباس ، ومن العاملة ، ومن المتقدمين في التفسير .

مركز تحقيقات كويتيون علوم إسلامية . فهذا فرق بين .

وبعد ، ففي حجج العقول أن الله لا يشبه الخلق بوجه من الوجوه ، فإذا كان مرثياً فقد أشبهه في أكثر الوجوه .

وإذا كان قولهم في النظر يحتمل ما قلتم ، وما قال خصمكم ، مع موافقة أبي صالح ومجاهد في التأويل ، وكان ذلك أولى بنفي التشبيه الذي قد دل عليه العقل ، ثم القرآن : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ - كان التأويل ما قال خصمكم دون ما قلتم .

[٢٢ - القرآن هو الحكم وقد استعظم الرؤية في الآية ﴿ يسألك أهل الكتاب ﴾ - نقاش حولها]

فصل منه : ثم رجع الكلام إلى أول المسألة ، حيث جعلنا القرآن بهننا قاضياً ، واتخذناه حاكماً ، فقلنا :

قد رأينا الله استعظم الرؤية استعظماً شديداً ، و غضب على من طلب ذلك وأراده ، ثم عذب عليه ، وعجب عباده من سأل ذلك ، وحذرهم أن يسلكوا سبيل الماضين ، فقال في كتابه لنبيه ﷺ : ﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذهم الصاعقة ﴾ .

فإن كان الله تعالى - في الحقيقة - يجوز أن يكون مرثياً ، وبعض الحواس مدركاً ، وكان ذلك عليه جائزاً ، فالقوم إنما سألوا أمراً ممكناً ، وقد طمعوا في مطمع ، فلم غضب هذا الغضب ، واستعظم سؤلهم هذا الاستعظام ، وضرب به هذا المثل ، وجعله غاية في الجرأة وفي الاستخفاف بالربوبية .

فإن قالوا : لأن ذلك كان لا يجوز في الدنيا ، فقدره الله تعالى على ذلك في الدنيا كقدرته عليه في الآخرة .

فإن قالوا : ليس لذلك استعظم سؤلهم ، ولكن لأنهم تقدموا بين يديه .

قلنا : لم صار هذا السؤال تقدماً عليه واستخفافاً به ، والشيء الذي طلبوه هو يجوز في عقولهم ، وقد أطمعهم فيه أن جوزوه عندهم ، والقوم لم يسألوا ظلماً ولا عبثاً ولا محالاً . ومن عادة المسؤل التفضل ، وأنه فاعل ذلك بهم يوماً .

فإن قالوا : إنما صار ذلك الطلب كفراً وذنوباً عظيماً لأنه قد كان قال لهم : إني لا أتجمل لأحد في الدنيا .

قلنا : فإن كان الأمر على ما قلتم لكان في تفسير إنكاره لطلبهم دليل على ما يقولون ، ولذكر تقدمهم بعد البيان ، بل قال : ﴿ لقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة ﴾ لا غير ذلك .

فإن قالوا : إنما غضب الله عليهم لأنه ليس لأحد أن يظن أن الله تعالى يرى جهرة .

قلنا : وأي شيء تأويل قول القائل : رأيت الله جهرة إلا المعاينة ، أو إعلان
المعاينة ، قال الله عز ذكره : ﴿ لا يحب الله الجهر بالسوء من القول ﴾ .
والجهر هو الإعلان والرفع والإشاعة ، فهل يراه أهل الجنة - إذا رفع عنهم
الحجب ، ودخلوا عليه وجلسوا على الكرسي عنده - إلا جهرة ؟ كما تأولتم الحديث
الذي روئتموه عن النبي ﷺ : « لا تضامون في رؤيته كما لا تضامون في القمر
ليلة البدر » ، إلا أن يزعموا أنهم يرون ربهم سرّاً لأنه ليس إلا السر والجهر ،
وليس إلا الإعلان والإخفاء ، وليس إلا المعاينة .

فإن قالوا : نحن لا نقول بالمعاينة ، ونقول : نراه ، ولا نقول نعاينه .

قلنا : ولم ، وأنتم ترونه بأعينكم ؟ فمن جعل لكم أن تقولوا نراه بالعين ،
ومنعكم أن تقولوا نعاينه بالعين ؟ وهل اشتقت المعاينة إلا من العين ؟

فإن قالوا : لا يجوز أن يلفظ بالمعاينة إلا في الشيء الذي تقع عينه علي ،
وتقع عيني عليه . فإما إذا كان أحدهما ذا عين ، والآخر [ليس] ذا عين ، فغير
جائز أن تسمى الرؤية معاينة ، وإنما المعاينة مثل الخاصمة ، ولا يجوز أن أقول :
خاصمت إلا وهناك من يخاصمني .

قلنا : قد يقول الناس أسلم فلان حين عابن السيف ، وليس للسيف عين ،
وليس هناك من يقائله . هل أنكم قد تزعمون أن لله عيناً لا كالعيون وبدأ
لا كالأيدي ، أوله عين بلا كيف ، وسمع بلا كيف .

[٢٣ - دليل المشبهة على ان الله جسم الآية ﴿ وجاء ربك والملك صفاً
صفاً ﴾]

لصل منه : وقالت - أيضاً - المشبهة :

الدليل على أنه جسم قوله عز ذكره : ﴿ وجاء ربك والملك صفاً صفاً ﴾
قالوا : فلا يجيء إلا إلى مكان هو فيه ، ولو جاز أن يجيء إلى مكان هو فيه جاز

أن يخرج منه وهو فيه . فإذا أخبر الله أنه في السموات والأرض ، وقتلتم ان الدنيا كلها لا تخلو منه ، وإنه فيها ، فإذا كان الأمر كذلك ، وكانت الدنيا محدودة ، كان الذي يكون في بعضها أو في كلها محدوداً ، إذا كان لم يجاوزها . ولو جاوزها لخرج إلى مكان ، ولا يجوز أن يخرج منها إلا إلى مكان .

وقالوا : قد أخبر الله أنه في السموات والأرض ، والله لا يخاطب عباده إلا بما يعقلون ، ولو خاطبهم بما لا يعقلون لكان قد كلفهم ما لا يطيقون ، ومن خاطب من لا يفهم بالفهم عنه فقد وضع المخاطبة في غير موضعها . فهذا ما قال القوم .

[٢٤ - رد الجاحظ على دليل المشبهة الأعمى : يجب الأخذ بالمعنى المجازي لا

الأصل]

ونحن نقول : إن الشيء قد يكسب في الشيء على وجوه ، وسنذكر لك الوجوه ، ونلحق كل واحد منها بشكله وبما يجوز فيه ، إن شاء الله تعالى .

قلنا للقوم : ألمس قد خاطب الله الصم البكم الذين لا يعقلون ، والذين خبر أنهم لا يستطيعون سمعاً ؟

فإن قالوا : إن العرب قد تسمى المتعامي أعمى ، والمتصامم أصم ، ويقولون لمن عمل عمل من لا يعقل ، وإنما الكلام محمول على كلام . وذلك أن المتعامي إذا تعامى ، صار في الجهل كالأعمى ، فلما أشبهه من وجه سمي باسمه .

قلنا : قد صدقتم ، ولكن ليس الأصل . والمستعمل في تسميتهم بالعمى إنما هو الذي لا ناظر له . فإذا قالوا ذلك ، قلنا : فلم زعمتم أن له ناظراً ، وأغلتم بالمجاز والتشبيه ، وتركتم الأصل الذي هذا الاسم محمول عليه ؟

فإن قالوا : إنما قلنا من أجل أن الأول لا يجوز هل الله تعالى ، والثاني جائز عليه ، والله لا يتكلم بكلام إلا ولذلك الكلام وجه إما أن يكون هو الأصل والمحمول عليه ، وإما أن يكون هو الفرع والاشتقاق الذي تسميه العرب مجازاً .

فإذا نظرنا في كلام الله - وهو عندنا عادل غير جائر، وهو جل جلاله يقول : ﴿ صم بكم عمي فهم لا يعقلون ﴾ علمنا أنهم لو كانوا منقوصين غير وافرين ، كانوا قد كلفوا ما لا يطيقون ، والمكلف لعباده ما لا يطيقون جائر ظالم . فإذا كان لا يليق ذلك به علمنا أنهم قد كانوا وافرين غير عاجزين ولا منقوصين . وإذا كانوا كذلك ، صار الواجب أن نحكم بالفرع والمجاز ، ونُدع الأصل والمحمول عليه وقلنا : هم عمي وصم ولا يعقلون على أنهم تعاموا وتصاموا وعملوا عمل من لا يعقل .

فإذا قالوا ذلك قلنا هم : فإننا لم نعد هذا المذهب في قوله : ﴿ ناضرة ﴾ ، ﴿ وجاء ربك والملك صفاً صفاً ﴾ وفي قوله : ﴿ وهو الله في السموات وفي الأرض ﴾ .

وقد يقولون : جاءنا فلان بنفسه ، ويقولون : جاءنا بولده ، وجاءنا بخير كثير . وذلك على معان مختلفة .

ويقولون : جاءتنا السماء بأمر عظيم ، والسياء في مكانها .

وقد يقولون - أيضاً - : جاءتنا السماء ، وهم إنما يريدون الغيم الذي يكون به المطر من شق السماء وناحيتها ووجهها .



[١ - مقدمة]

قال أبو عثمان :

أطال الله بقاءك وأتم نعمته عليك وكرامته لك . إعلم أرشد الله أمرك أن هذه الأمة قد صارت بعد إسلامها والخروج من جاهليتها إلى طبقات متفاوتة ، ومنازل مختلفة :

[٢ - عصر النبي وأبي بكر وعمر وبعض عهد عثمان عهد اجتماع الكلمة]

فإن الطبقة الأولى عصر النبي ﷺ ، وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وست سنين من خلافة عثمان رضي الله عنه . كانوا على التوحيد الصحيح والإخلاص المحض ، مع الألفة واجتماع الكلمة على الكتاب والسنة ، وليس هناك عمل قبيح ، ولا بدعة فاشية ، ولا نزع يد من طاعة ، ولا حسد ولا غل ولا تناول ، حتى كان الذي كان من قتل عثمان رضي الله عنه وما انتهك منه ومن خبطهم إياه بالسلاح وببج بطنه بالحرايب وفري أوداجه بالمشاقص وشدخ هامته بالعمد ، مع كفه البسط ونهيه عن الامتناع ، مع تعريفه لهم قبل ذلك من كم وجه يجوز قتل من شهد الشهادة وصل القبله وأكل الذبيحة ، ومع ضرب نساك بحضرته وإقحام الرجال على حرمة ، مع اتقاء نائلة بنت الفرافصة عنه بيدها حتى أظنوا إصبعين من أصابعها ، وقد كشفت عن قناعها ورفعت عن ذيلها ليكون ذلك رادعا لهم وكاسرا

من غريهم . مع وطئهم في أضلاعه بعد موته وإلقائهم على المذبذبة جسده مجردا بعد سحبه . وهي الجريسة التي جعلها رسول الله ﷺ كفاً لبناته وأياماه وعقائله ، بعد السب والتعطيش والحصر الشديد والمنع من القوت ، مع احتجاجه عليهم وإفحامه لهم ، ومع اجتماعهم على أن دم الفاسق حرام كدم المؤمن إلا من ارتد بعد إسلام ، أو زنى بعد إحصان ، أو قتل مؤمناً على عمد ، أو رجل عدا على الناس بسيفه فكان في امتناعهم منه عطية ، ومع اجتماعهم على ألا يقتل من هذه الأمة ولا يجهز منها على جريح . ثم مع ذلك كله ذمروا عليه وعلى أزواجه وحرمه وهو جالس في محرابه ومصحفه يلوح في حجره لا يرى أن موحدًا يقدم على قتل من كان في مثل صفته وحاله .

[٣ - ذبول مقتل عثمان]

لا جرم لقد احتلبوا به دما لا تطير رغوته ولا تسكن فورته ولا يموت نائره ولا يكل طالبه ، وكيف يضيع الله دم وليه والمنتقم له ؟ وما سمعنا بدم بعد دم يحيى ابن زكريا عليهما السلام ، غلا غليانه وقتل سافحه وأدرك بطائلته وبلغ كل محبة كدمه رحمة الله عليه .

[٤ - كان بوسع الثائرين تجنب مقتل عثمان]

ولقد كان لهم في أخذه وفي إقامته للناس والاعتصاص منه وفي بيع ما ظهر من رباعه وحدائقه وسائر أمواله وفي حبسه بما بقي عليه وفي طمره حتى لا يحس بذكره ما يغنيهم عن قتله إن كان قد ركب كل ما قذفوه به وادعوه عليه . وهذا كله بحضرة أجلة المهاجرين والسلف المقدمين والأنصار والتابعين .

[٥ - مواقف الناس تجاه عثمان]

ولكن الناس كانوا على طبقات مختلفة ومراتب متباينة : فمن قاتل ، ومن شاد على عضده ، ومن خاذل عن نصرته ، والعاجز ناصر بارادته ومضيق بحسن نيته . وإنما الشك منافيه وفي خاذليه ومن أراد عزله والاستبدال به . فأما قاتله والمعين على

دمه والمريد لذلك منه ، فضلال لا شك فيهم ، ومراق لا امتراء في حكمهم . هل
أن هذا لم يعد منهم الفجور : إما هل سوء تأويل ، وإما هل تعمد للشقاء .

[٦ - عهد علي بن أبي طالب]

ثم ما زالت الفتنة متصلة والحروب مترادفة ، كحرب الجمل وكوقائع صفين
وكيوم النهروان ، وقبل ذلك يوم الزابوقة ، وفيه أسر ابن حنيف وقتل حكيم بن
جبله ، إلى أن قتل أشقاها علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ، فأسمده الله
بالشهادة وأوجب لقاتله النار واللعة .

[٧ - أسباب اعتزال الحسن بن علي]

إلى أن كان من اعتزال الحسن رضي الله عنه الحرب وتخليته الأمور عند انتشار
أصحابه وما رأى من الخلل في عسكره وما حارب من اختلافهم هل أبيه وكثرة تلونهم
عليه .

[٨ - معاوية يحول الملك إلى كسروية]

فعمدها استوى معاوية هل الملك واستبد هل بقية الشورى وعلى جماعة
المسلمين من الانصار والمهاجرين في العام الذي سموه « عام الجماعة » وما كان عام
جماعة بل كان عام فرقة وقهر وجبرية وغلبة ، والعام الذي تحولت فيه الإمامة ملكاً
كسروياً والخلافة منصباً قبضياً ، ولم يعد ذلك أجمع الضلال والفسق ، ثم ما زالت
معاصيه من جنس ما حكينا وعلى منازل ما رتبنا حتى رد قضية رسول الله ﷺ رداً
مكشوفاً وجحد حكمه جحداً ظاهراً في ولد الفراش وما يجب للعاهر ، مع اجماع
الامة هل أن سمية لم تكن لأبي سفيان فراشاً ، وأنه إنما كان بها عاهراً . فخرج
بذلك من حكم الفجار إلى حكم الكفار .

[٩ - اخطاء معاوية]

وليس قتل حجر بن عدي ، وإطعام عمرو بن العاص خراج مصر ، وبيعة يزيد

الخليفة ، والاستتار بالفيء ، واختيار الولاة على الهوى ، وتعطيل الحدود بالشفاعة والقرابة ، من جنس جحد الأحكام المنصوصة والشرائع المشهورة والسنن المنصوبة . وسواء في باب ما يستحق من الكفار جحد الكتاب ورد السنة إذا كانت السنة في شهرة الكتاب وظهوره ، إلا أن أحدهما أعظم وعقاب الآخرة عليه أشد .

[١٠ - ادعاء معاوية الخلافة كفر]

فهذه أول كفره كانت من الأمة ، ثم لم تكن إلا فيمن يدعي إمامتها والخلافة عليها . على أن كثيراً من أهل ذلك العصر قد كفروا بترك إكفاره . وقد أربت عليهم نابتة عصرنا ومبتدعة دهرنا فقالت : لا تسبوه فإن له صحبة ، وسب معاوية بدعة ، ومن يبغضه فقد خالف السنة . فزعمت أن من السنة ترك البراءة عن جحد السنة . . ؟

[١١ - جرائم يزيد بن معاوية]

ثم الذي كان من يزيد ابنه ومن عماله وأهل نصرته ، ثم غزو مكة ورمي الكعبة واستباحة المدينة ، وقتل الحسين رضي الله عنه في أكثر أهل بيته مصابيح الظلام وأوتاد الإسلام ، بعد الذي أعطى من نفسه ومن تفريق أتباعه والرجوع إلى داره وحرمه أو الذهاب في الأرض حتى لا يحس به أو المقام حيث أمر به ، فأبوا إلا قتله والنزول على حكمهم . وسواء قتل نفسه بيده أو أسلمها إلى عدوه وخير فيها من لا يبرد غليله إلا بشرب دمه . فاحسبوا قتله ليس بكفر ، وإباحة المدينة وهتك الحرمة ليس بجحد ، كي تقولون في رمي الكعبة وهدم البيت الحرام وقبلة المسلمين ؟ فإن قلتم ليس ذلك أرادوا بل إنما أرادوا التحرز به والمتحصن بحيطانه ! أمها كان في حق البيت وحرمة أن يحصره فيه إلى أن يعطي بيده ! وأي شيء بقي من رجل قد أخذت عليه الأرض إلا موضع قدمه ! وأحسبوا ما رووا عليه من الأشعار التي قولها شرك والتمثل بها كفر ، شيئاً مصنوعاً . كيف نصنع بنقر القضيب بين ثنيتي الحسين رضي الله عنه ! وحمل بنات رسول الله ﷺ حواسر على الاقتاب .

العارية ، والإبل الصعاب ، والكشف عن هورة علي بن الحسين عند الشك في بلوغه ؟ علي أنهم إن وجدوه وقد أنبت قتلوه وإن لم يكن أنبت حملوه ، كما يصنع أمير جيش المسلمين بذراري المشركين ؟! وكيف تقولون في قول عبيد الله بن زياد لإخوته وخاصته : دعوني أقتله فإنه بقية هذا النسل فأحسم به هذا القرن وأميت به هذا الداء وأقطع به هذه المادة . . ١١

١٢ - يزيد يستحق اللعنة [

خبرنا : علام تدل هذه القسوة وهذا الغلظ بعد أن شفوا أنفسهم بقتلهم ونالوا ما أحبوا فيهم ؟ أتدل على نصب وسوء رأي وحقد وبغضاء ونفاق ، وعلى يقين مدخول وإيمان خروج أم تدل على الاخلاص وعلى حب النبي ﷺ والحفظ له وعلى براءة الساحة وصحة السريرة !! فإن كان علي ما وصفنا لا يعدو الفسق والضلال ، وذلك أدنى منزله . فالفاسق ملعون ومن نهي عن شتم الملعون فملعون .

[١٣ - مزاعم النابتة]

وزعمت نابتة عصرنا ومبتدعة دهرنا أن سب ولادة السوء فتنة ، ولعن الجورة بدعة ، وإن كانوا يأخذون السمي بالسمي والولي بالولي والقريب بالقريب ، وأخافوا الأولياء ، وأمنوا الأعداء ، وحكموا بالشفاعة والهوى ، وإظهار القدرة والتهاون بالامة ، والقمع للرحمة ، والتهم في غير مداراة ولا تقية ، وإن عدا ذلك إلى الكفر وجاوز الضلال إلى الجحد فذاك أضل ممن كذب عن شتمهم والبراعة منهم . على أنه ليس من استحق اسم الكفر بالقتل كمن استحق برد السنة وهم الكعبة . وليس من استحق اسم الكفر بذلك كمن شبه الله بخلقه ، وليس من استحق الكفر بالتشبيه كمن استحقه بالتجوهر . والنابتة في هذا الوجه أكفر من يزيد وأبيه وابن زياد وأبيه . ولو ثبت أيضا على يزيد أنه تمثل بقول ابن الزبيرى :

لبت أشياخي ببدر شهدوا جنح الخزرج من وقع الأسل
لاستطاروا واستهلوا فرحاً ثم قالوا بما يزيد لا تسل

قد قتلنا الغر من ساداتهم وعدلناهم ببدر فاعتدل

[١٤ - تناقض النابتة]

كان تجوير النابتي لربه وتشبيهه بخلفه أعظم من ذلك وأفظع . على أنهم
مجمعون على أنه ملعون من قتل مؤمنا ، متعمدا أو متأولا . فإذا كان القاتل سلطانا
جائراً أو أميراً عاصياً لم يستحلوا سبه ولا خلعه ولا نفيه ولا عيبه ، وإن أخاف
الصلحاء وقتل الفقهاء وأجاع الفقير وظلم الضعيف وعطل الحدود والثغور وشرب
الخمور وأظهر الفجور . . . ؟!

[١٥ - مخازي عبد الملك بن مروان]

ثم ما زال الناس يتسكعون مرة ويداهنونهم مرة ، ويقاربونهم مرة ويشاركونهم
مرة ، إلا بقية ممن عصمه الله تعالى ذكره ، حتى قام عبد الملك بن مروان وابنه
الوليد وعاملهما الحجاج بن يوسف ومولاه يزيد بن أبي مسلم . فأعادوا على البيت
بالهدم وعلى حرم المدينة بالغزو ، فهدموا الكعبة ، واستباحوا الحرمه ، وحولوا قبلة
واسط ، وأخروا صلاة الجمعة إلى مغربان الشمس ، فإن قال رجل لأحدهم :
اتق الله فقد أخرت الصلاة عن وقتها ؟ قتله على هذا القول جهاراً غير ختم ،
وعلانية غير سر . ولا يعلم القتل على ذلك إلا أقبح من إنكاره . فكيف يكفر العبد
بشيء ولا يكفر بأعظم منه !

[١٦ - بطش عبد الملك بالوفاظ]

وقد كان بعض الصالحين ربما وعظ الجبابرة وخوفهم العواقب وأراهم أن في
الناس بقية ينهون عن الفساد في الأرض ، حتى قام عبد الملك بن مروان والحجاج
ابن يوسف فزجرا عن ذلك وعاقبا عليه وقتلا فيه ، فصاروا لا يتناهون عن منكر
فعلوه . فاحسب تحويل القبلة كان غلطاً ، وهدم البيت كان تأولاً ، واحسب ما رواوا
من كل وجه أنهم كانوا يزعمون أن خليفة المرء في أهله أرفع عنده من رسوله
إليهم ، باطلاً ومسموعاً مولداً ، واحسب وسم أيدي المسلمين ونقش أيدي

المسلمات وردهم بعد الهجرة الى قراهم ، وقتل الفقهاء وسب أمة الهدى والنصب
 لعتره رسول الله ﷺ ، لا يكون كفرا ، كيف تقول في جمع ثلاث صلوات فيهن
 الجمعة ، ولا يصلون أولاهن حتى تصير الشمس على أهالي الجدران كالملاء
 المعصفر ؟ فإن نطق مسلم بخط بالسيف وأخذته العمدة وشك بالرمح . ٢١ وإن قال
 قائل : اتق الله ! أخذته العزة بالإثم ، ثم لم يرض إلا بشئ دماغه على صدره
 ويصلبه حيث تراه عياله .

[١٧ - بعض آثام الامويين]

ومما يدل على أن القوم لم يكونوا إلا في طريق التمرد على الله عز وجل ،
 والاستخفاف بالدين والتهاون بالمسلمين والابتذال لأهل الحق ، أكل أمرائهم الطعام
 وشربهم الشراب على منابرهم أيام جمعهم وجموعهم . فعل ذلك حبيش بن دلجة ،
 وطارق مولى عثمان ، والحجاج بن يوسف ، وغيرهم . وذلك إن كان كفرا كله فلم
 يبلغ كفر نابتة عصرنا وروافض دهرنا ، لأن جنس كفر هؤلاء غير كفر أولئك .

[١٨ - النابتة تقول بالجبر والتشبيه]

كان اختلاف الناس في القدر على أن طائفة تقول : كل شيء بقضاء وقدر .
 وتقول طائفة أخرى : كل شيء بقضاء وقدر إلا المعاصي . ولم يكن أحد يقول : إن
 الله يعذب الأبناء ليغيظ الأباء ، وإن الكفر والإيمان مخلوقان في الإنسان مثل العمى
 والبصر . وكانت طائفة منهم تقول : إن الله يرى . لا تزيد على ذلك . فإن خافت
 أن يظن بها التشبيه قالت : يرى بلا كيف . تفززا من التجسيم والتصوير . حتى
 نبت هذه النابتة وتكلمت هذه الرافضة فقالت جسيما ، وجعلت له صورة وحدا ،
 وأكفرت من قال بالرؤية على غير التجسيم والتصوير .

[١٩ - النابتة تقول ان القرآن غير مخلوق]

ثم زعم أكثرهم ان كلام الله - سن وبين وحجة وبرهان ، وان التوراة غير
 الزبور ، والزبور غير الانجيل ، والانجيل غير القرآن ، والبقرة غير آل عمران ،

وأن الله تولى تأليفه وجعله برهانه على صدق رسوله ، وأنه لو شاء أن يزيد فيه زاد ، ولو شاء أن ينقص منه نقص ، ولو شاء أن يبدله بدله ، ولو شاء أن ينسخه كله بغيره نسخه ، وأنه أنزله تنزيلا ، وأنه فصله تفصيلا ، وأنه بالله كان دون غيره ، ولا يقدر عليه إلا هو ، غير أن الله مع ذلك كله لم يخلق . فأعطوا جميع صفات الخلق ومنعوا اسم الخلق .

والعجب أن الخلق عند العرب إنما هو التقدير نفسه . فلذا قالوا : خلق كذا وكذا . ولذلك قال ﴿ أحسن الخالقين ﴾ وقال ﴿ ومخلقون إلكاً ﴾ وقال : ﴿ وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير ﴾ قالوا : صنعه ، وقدره ، وأنزله ، وفصله ، وأحدثه ، ومنعوا : خلقه . وليس تأويل خلقه أكثر من قدره . ولو قالوا بدل قوهم : قدره ولم يخلقه : خلقه ولم يقدره ، ما كانت المسألة عليهم إلا من وجه واحد .

[٢٠ - النابتة يتابعون الامام أحمد بن حنبل في مسألة خلق القرآن]

والعجب أن الذي منعه بزعمه أن يزعم أنه مخلوق ، أنه لم يسمع ذلك من سلفه ، وهو يعلم أنه ليس بمخلوق . وليس ذلك بهم ، ولكن لما كان الكلام من الله تعالى عندهم على مثل خروج الصوت من الجوف وعلى جهة تقطيع الحروف وإعمال اللسان والشفيتين ، ولما كان على غير هذه الصورة والصفة فليس بكلام ، ولما كنا عندهم على غير هذه الصفة ، وكنا لكلامنا غير خالقين : وجب أن الله عز وجل لكلامه غير خالق ، إذ كنا غير خالقين لكلامنا . فأنما قالوا ذلك لأنهم لم يجدوا بين كلامنا وكلامه فرقا ، وإن لم يقرؤا بذلك بألسنتهم فذلك معناهم وقصدتهم .

[٢١ - كفر النابتة]

وقد كانت هذه الأمة لا تجاوز معاصيها الإثم والضلال ، إلا ما حكيت لك عن بني أمية وبني مروان وعماهم ، ومن لم يدن باكفارهم ، حتى نجمت [هذه] النوابت وتابعتها هذه العوام . فصار الغالب على هذا القرن الكفر . وهو التشبيه والجبر . فصار كفرهم أعظم من كفر من مضى في الأعمال التي هي الفسق

[وكانوا] شركاء من كفر منهم بشوليتهم وترك إكفارهم . قال الله عز وجل من قائل : ﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾ .

[٢٢ - الشعوية ودهواها]

وأرجو أن يكون الله قد أخاث المحققين ورحمهم وقوى ضعفهم وكثر قتلهم حتى صار ولاية أمورنا في هذا الدهر الصعب والزمن الفاسد أشد استبصاراً في التشبيه من عليتنا وأعلم بما يلزم فيه منا وأكشف للقناع من رؤسائنا ، وصادفوا الناس وقد انتظموا معاني الفساد أجمع وبلغوا غايات البدع ، ثم قرنوا بذلك العصبية التي هلك بها عالم بعد عالم ، والحمية التي لا تبقى ديناً إلا أفسدته ، ولا دنياً إلا أهلكتها . وهو ما صارت إليه العجم من مذهب الشعوية ، وما قد صار إليه الموالي من الفخر على العجم والعرب . وقد نجمت من الموالي ناجة ونبتت منهم نابتة تزعم أن المولى بولائه قد صار عربياً ، لقول النبي ﷺ : « مولى القوم منهم » . وقوله : « الولاء لحمة كلحمة النسب لا يباع ولا يوهب » .

قال : فقد علمنا أن العجم حين كان فيهم الملك والنبوة كانوا أشرف من العرب ، ولما حول ذلك إلى العرب صارت العرب أشرف منهم .

قالوا : فنحن معاشر الموالي بقديمتنا في العجم أشرف من العرب ، وبالحدِيث الذي صار لنا في العرب أشرف من العجم ، وللعرب القديم دون الحديث ، ولنا خصلتان وافتتان فينا جميعاً ، وصاحب الخصلتين أفضل من صاحب الخصلة . وقد جعل الله المولى بعد أن كان عجمياً عربياً بولائه ، كما جعل حليف قريش من العرب قرشياً بحلفه ، وجعل اسماعيل بعد أن كان أعجمياً عربياً . ولولا قول النبي ﷺ : « إن اسماعيل كان عربياً » . ما كان عندنا إلا أعجمياً . لأن الأعجمي لا يصير عربياً كما أن العربي لا يصير أعجمياً . فلما علمنا أن اسماعيل صيره الله عربياً بعد أن كان أعجمياً ، بقول النبي ﷺ . فكذلك حكم قوله : مولى القوم منهم . وقوله : الولاء لحمة .

قالوا : وقد جعل الله ابراهيم عليه السلام اباً لمن لم يلد ، كما جعله اباً لمن ولد . وجعل أزواج النبي أمهات المؤمنين ، ولم يلدن منهم أحداً . وجعل الجار والد من لم يلد . في قول غير هذا كثير قد أتينا عليه في موضعه .

وليس ادعى إلى الفساد ولا أجلب للشر من المفاخرة ، وليس على ظهرها إلا فخور - إلا قليل - وأي شيء أغيظ من أن يكون عبدك يزعم أنه أشرف منك ! وهو مقر بأنه صار شريفاً بعثتك إياه ؟

وقد كتبت - مد الله في عمرك - كتباً في مفاخرة قحطان وفي تفضيل عدنان ، وفي رد الموالي إلى مكانهم في الفضل والنقص وإلى قدر ما جعل الله تعالى لهم بالعرب من الشرف ، وأرجو أن يكون عدلاً بينهم وداعية إلى صلاحهم ومنبهة عليهم وهم . وقد أردت أن أرسل بالجزء الأول إليك ثم رأيت ألا يكون إلا بعد استئذانك واستثمارك والانتهاه في ذلك إلى رغبتك ، فرأيت فيه موفق إن شاء الله عز وجل وبه الثقة .



مركز تحقيقات كچو پوز علوم اسلامی

مقدمة رسالة الثابتة

- (١) يعني الجاحظ بالامة هنا المسلمين ويعني بالطبقة المعصر او المرحلة الزمنية ، كما يعني بها الفئة (انظر رقم ٥) .
- (٢) المعصر الاول او الطبقة الاولى يمتد من ظهور الاسلام حتى مقتل عثمان . كان الناس فيه مجتمعين الكلمة على الكتاب اي القرآن وعلى السنة أي أقوال الرسول والفعاله وتقريراته ، وليس فيهم بدعة اي الفكار جديدها وهربية ، ولا تأول أي تفسير وتعليل لكلام الله .
- ويعني بالفاسق مرتكب الكبيرة ، والفاسق برأي المعتزلة هو في منزلة بين المؤمن والكافر وهذا هو احد اصول المعتزلة الخمسة الذي سمي بالمنزلة بين المنزلتين ، وضعه واصل بن عطاء على الأرجح مؤسس الاعتزال لدى مناقشته هذه المسألة مع الحسن البصري . ويريد الجاحظ ان يقول ان عثمان لا يحمل قتله بتهمة ارتكاب بعض الكبائر فالكبائر التي حدها القتل لم يقترفها عثمان وهي الردة والزنا بعد احصان ، وقتل المؤمن عمداً والاهتداء على الناس بالسيف ، وقتل الجريح .
- (٣) مقتل عثمان آثار الفتن وأرث العداوات بين المسلمين وادى الى سفك الدماء الغزيرة .
- (٤) كان بوسع الثوار الذين قتلوا عثمان أن يتجنبوا قتله والاقصاء على حبسه ومصادرة أمواله اذا كان قد اقترف ما ادعوه عليه . نفهم من كلام الجاحظ انه يميل الى القول بارتكاب عثمان بعض الاخطاء وان كان لا يؤكد ذلك صراحة .
- (٥) يحدد الجاحظ مواقف الناس من عثمان إبان محنته . لقد كانوا فئات مختلفة ، فئة قتله ، وفئة حرصتهم على قتله وفئة خذلته ، وفئة هجرت عن نصرته . ثم يحكم على كل فئة : فيشك في موقف عثمان ، وخافله (معاوية) ومن اراد عزله والاستبدال به ويرمي قتله ومن اراد ذلك واهان عليه بالضلال والمروق .
- (٦) يعتبر الجاحظ عليا بن ابي طالب شهيداً أما قتاله عبد الرحمن بن ملجم فانفي الناس واحرامهم باللعة والنار ، وقد خلف عثمان وكانت خلافته سلسلة فتن وحروب .
- (٧) الحسن بن علي تنازل لمعاوية عن : لأسباب هي برأي الجاحظ تفرق اصحابه عنه

وتلونهم في الولاية له .

(٨) اما معاوية فقد اختصب الخلافة وحوّلها الى ملك كسروى والغى مبدأ الشورى ، ولا يزيد الجاحظ الخطوة التي خطاها الحسن في التنازل عن الخلافة لمعاوية بغية جمع كلمة الأمة .

(٩) يعدد الجاحظ مأخذه على معاوية وهي الحاقه زياداً بنسبه اذ جعله أخاً له من والده سفيان وهذا برأيه مخالف للشرع لأن ابا سفيان لم يتزوج سمية والدة زياد على سنة الله ورسوله ، ثم قتله حجر بن عدي ، ثم اطعم عمرو بن العاص خراج مصر ، ثم بيعة يزيد الخليع ، ثم الاستشارة بالفقيه ، ثم اختيار الولاية على الهدي ، ثم تعطيل الحدود بالشفاعة ثم جحد الاحكام المنصوصة والشرايع المشهورة .

(١٠) ان ادعاء معاوية الامامة كفر ، وكذلك تأييده فيها كفر . والنايبة الذين يدعون ان سب معاوية بدعة لأنه له صحبة مع النبي هم مبتدعة عصر الجاحظ ، فالنايبة هم فئة ظهرت في عصر الجاحظ واهدت معاوية .

(١١) اما يزيد بن معاوية فقد تمادى في حبه اذ رمى الكعبة واباح المدينة وقتل الحسين بن علي ومثل برأسه وكشف عن هرة علي بن الحسين .

(١٢) ان قسوة يزيد بن معاوية دليل على الحقد والتفاني والايمان المخروج واقل ما توصف به الفسق والضلال والفاسق يجب ان يلعن .

(١٣) النايبة تزعم ان سب ولاية السوء فتنه ولعن الجورة بدعة وهذا ضلال .

(١٤) النايبة يناقضون انفسهم فهم يجمعون من جهة على ان قاتل المؤمن متممداً او متاولاً يستحق اللعنة ومن جهة ثانية لا يستحلون سب القاتل هذا اذا كان سلطاناً او اميراً وان قتل الفقهاء وظلم الضعيف وعطل الحدود وشرب الخمر وفجر .

(١٥) عبد الملك بن مروان اذى في كفره على يزيد ومعاوية اذ رمى الكعبة وهدمها وحول القبلة واخر صلاة الجمعة الى مغرب الشمس .

(١٦) بطش عبد الملك والحجاج بالوفاظ الذين يتهون عن الفساد .

(١٧) من آثام الامويين اكل امرئهم الطعام وشربهم الشراب على منابر المساجد امام الجموع . وايام الجمع .

(١٨) النايبة تقول بان الايمان والكفر مخلوقان لله كالعمى والبصر وتقول ان الله يفعل الجور فيعذب الابناء ليغيظ الابهاء ، وتقول ان الله جسماً وصورة يمكن رؤيتها ، وقالوا ان القرآن غير مخلوق .

(١٩) مناقشة رأي النايبة في خلق القرآن . لانهم يناقضون انفسهم فهم من جهة يقولون ان الله صنع القرآن وقدره وانزله وفصله واحده ومن جهة ثانية يقولون انه لم يخلق . والخلق معناه في اللغة التقدير .

(٢٠) النابتة يتابعون في رأيهم بعدم خلق القرآن الإمام ابن حنبل وحجته في ذلك هو انه لم يسمع من سلفه من يقول انه مخلوق وسيعود الى تفصيل ذلك في رسالته الخاصة بخلق القرآن . اهم شبهوا الله بالانسان وكلامه بكلامهم اذ الكلام معناه خروج الصوت من الجوف ، وبما ان الانسان غير خالق لاهماله وكلامه ، كذلك الله ليس بخالق لكلامه اي القرآن .

(٢١) ان النابتة ومن تابعهم من العوام كفروا لقولهم بالتشبيه والجبر ، وكفروا ايضاً لتركهم إكفار الكافرين ، ويقصد بهم خلفاء بني امية الذين سبق ذكرهم .

(٢٢) هذا النابتة يوجد بدعة أخرى لا تقل عنها خطراً هي الشعوبية حمل لسوءها المعجم والموالي . وتقوم على تفضيل سائر الشعوب على العرب . وحجتهم هي ان المعجم كانوا اشرف من العرب قبل الاسلام لان الملك والنبوة كانا فيهم : ولما جاء الاسلام سوى بينهم وبين العرب تبعاً للمحدث الشريف : مولى القوم منهم . فاجتمع للموالي شرف المعجم القديم وشرف العرب التليد .

وقد وقف الجاحظ ضد الدعوة الشعوبية ورد حججها . إن تلك الدعوة بنظره تعتمد على المفاخرة على العرب والخط من شأنهم وتبخسهم قدرهم ، وكل هذا فساد وشر . وقد عاد الجاحظ الى بحث مسألة الشعوبية في أماكن أخرى من كتبه ولا سيما في البيان والتبيين ، ومناقب الترك ، حيث أسهب في تفنيد آرائهم والرد عليها .

وقارن بين ما جاء في هذه الفقرة (٢٢) وما جاء في رسالة مناقب الترك حول ادعاءات الموالي .



فصل من صدر كتابه في
الرد على النصارى

[١ - بعض مبادئ المعتزلة]

الحمد لله الذي من علينا بتوحيده ، وجعلنا ممن ينفي شبهة خلقه وسياسة
عباده ، وجعلنا لا نفرق بين أحد من رسله ، ولا نجحد كتاباً أوجب علينا
الإقرار به ، ولا نضيف إليه ما ليس منه ، إنه حميد مجيد ، فعال لما يريد .

[٢ - ما أخذ النصارى على المسلمين]

أما بعد فقد قرأت كتابكم ، وفهمت ما ذكرتم فيه من مسائل النصارى
قبلكم ، وما دخل على قلوب أجدانكم وضعفائكم من اللبس ، والذي خفتموه على
جواباتهم من العجز ، وما سألتهم من إقرارهم بالمسائل ، ومن حسن معونتهم
بالجواب .

[٣ - القول ان مريم وعيسى إلهين]

وذكرتم أنهم قالوا : إن الدليل على أن كتابنا باطل ، وأمرنا فاسد ، أننا
ندعي عليهم ما لا يعرفونه فيما بينهم ، ولا يعرفونه من أسلافهم ، لانا نزعم أن الله
جل وعز قال في كتابه على لسان نبيه محمد ﷺ : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى بن مريم
أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ﴾ ، وأهم زعموا أنهم لم

يدبنوا قط بأن مريم إله في سرهم ، ولا ادعوا ذلك قط في علانيتهم . وأبهم زعموا
أنا ادعينا عليهم ما لا يعرفون ، كما ادعينا على اليهود ما لا يعرفون ، حين نطق
كتابنا ، وشهد نبينا : أن اليهود قالوا : إن عزيراً ابن الله ، وإن يد الله
مغلولة ، وإن الله فقير وهم أغنياء . وهذا ما لا يتكلم به إنسان ، ولا يعرف
في شيء من الأديان .

[٤ - القول أن عزيراً ابن الله]

ولو كانوا يقولون في عزير ما نحلتموه وادعيتموه ، لما جحدوه من دينهم ،
ولما أنكروا أن يكون من قولهم ، ولما كانوا بإنكار بنوة عزير أحق منا بإنكار بنوة
المسيح ، ولما كان علينا منكم بأس بعد عقد الدمة ، وأخذ الجزية .

[٥ - القول أن فرعون طلب من هامان أن يبي له صرحاً]

وذكرتم أنهم قالوا : وما يدل على غلطكم في الاخبار ، وأخذكم العلم عن
غير الثقات ، أن كتابكم ينطق : أن فرعون قال لهامان : ﴿ ابن لي
صرحاً ﴾ . وهامان لم يكن إلا في زمن الفرس ، وبعد زمن فرعون بدهر طويل ،
وإن ذلك معروف عند أصحاب الكتب ، مشهور عند أهل العلم . وإنما اتخذ
صرحاً ليكون إذا علاه أشرف على الله .

وفرعون لا يخلو من أن يكون جاحداً لله تعالى ، أو مقراً به . فإن كان دينه
عند نفسه وأهل مملكته نفى الله وجحدته ، فما وجه اتخاذ الصرح وطلب الإشراف ،
وليس هناك شيء ولا إله ؟

وإن كان مقراً بالله عارفاً به ، فلا يخلو من أن يكون مشبهاً أو نافياً للتشبيه .
فإن كان ممن ينفي الطول والعرض والعمق والحدود والجهات ، فما وجه طلبه له في
مكان بعينه ، وهو عنده بكل مكان ؟ وإن كان مشبهاً فقد علم أنه ليس في طاقة بني
آدم أن يبنوا بيتاً ، أو يرفعوا صرحاً يخرق سبع سموات بأعماقهن ، والأجزاء التي
بينهن ، حتى يحاذي العرش ثم يعلوه . .

وفرعون وإن كان كافراً فلم يكن مجنوناً ، ولا كان إلى نقص العقل من بين الملوك منسوباً . على أن الحكم قد يقوم بعقول الملوك بالفضيلة على عقول الرعية .

[٦ - القول أن يحيى بن زكريا ليس له سمي]

وذكرتم أنهم قالوا : تزعمون أن الله تعالى ذكر يحيى بن زكريا بخبر أنه : ﴿ لم يجعل له من قبل سمياً ﴾ ، وأنهم يحددون في كتبهم وفيها لا يختلف فيه خاصتهم وعامتهم أنه كان من قبل يحيى بن زكريا غير واحد يقال له يحيى ، منهم : يوحنا بن فرح .

[٧ - القول أن الله لم يرسل انبياء الا من الرجال]

وزعمتم أنهم قالوا لكم : إنكم ذكرتم أن الله قال في كتابه لنبيكم : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم ، فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون ﴾ ، وإنما عني بقوله : ﴿ أهل الذكر ﴾ : أهل التوراة ، وأصحاب الكتب يقولون : إن الله قد بعث من النساء نبيات ، منهن مريم بنت عمران ، وبعث منهن حنة ، وسارة ، ورفقى .

[٨ - القول أن عيسى تكلم في المهدي]

وذكرتم أنهم قالوا : زعمتم أن عيسى تكلم في المهدي ، ونحن على تقديمنا له ، وتقريبنا لأمره ، وإفراطنا بزعمكم فيه ، على كثرة عددنا ، وتفاوت بلادنا ، واختلافنا فيما بيننا ، لا نعرف ذلك ولا ندعيه ، وكيف ندعيه ولم نسمعه عن سلف ، ولا ادعاه منا مدع .

ثم هذه اليهود لا تعرف ذلك ، وتزعم أنها لم تسمع به إلا منكم ، ولا تعرفه المجوس ، ولا الصابئون ، ولا عباد البددة من الهند وغيرهم ، ولا الترك والحزر ، ولا بلغنا ذلك عن أحد من الأمم السالفة ، والقرون الماضية ، ولا في

الانجيل ، ولا في ذكر صفات المسيح في الكتب والبشارات به على السنة الرسل .

ومثل هذا لا يجوز أن يجهله الوالي والعدو ، وغير الوالي وغير العدو ، ولا يضرب به مثل ، ولا يروح به الناس ، ثم يجمع النصارى على رده ، مع حبهم لتقوية امره . ولم يكونوا ليضادوكم فيما يرجع عليهم نفعه . وكيف لم يكذبوكم في إحيائه الموت ، ومشيه على الماء ، وإبراء الأكمة والأبرص ١٩ بل لم يكونوا ليتفقوا على إظهار خلاف دينهم ، وإنكار أعظم حجة كانت لصاحبهم ، ومثل هذا لا ينكتم ولا ينفك ممن يخالف وينم .

والكلام في المهد أعجب من كل عجب ، وأغرب من كل غريب ، وأبدع من كل بديع ، لأن إحياء الموت والمشي على الماء ، وإقامة المقعد ، وإبراء الأعمى ، وإبراء الأكمة قد أنت به الأنبياء ، وهرفه الرسل ، ودار في أسماهم . ولم يتكلم صبي قط ، ولا مولود في المهد .

وكيف ضاعت هذه الآية ، وسقطت حجة هذه العلامة من بين كل علامة ١٩

وبعد ، فكل أهجوبة يأتي بها الرجال ، والمعروفون بالبيان ، والمنسوبون إلى صواب الرأي ، تكون الحيلة في الظن إليها أقرب ، وخوف الخدعة عليها أغلب . والصبي المولود عاجز في الفطرة ، ممتنع من كل حيلة ، لا يحتاج فيه إلى نظر ، ولا يشبهه من شاهده بدخل .

[٩ - لحظة الجاحظ في الرد على النصارى]

فصل منه : وسنقول في جميع ما ورد علينا من مساللكم ، وفيها لا يقع إليكم من مساللكم ، بالشواهد الظاهرة ، والحجج القوية ، والأدلة الأضرارية ، ثم نسألهم بعد جوابنا إياهم عن وجوه يعرفون بها انتقاض قولهم ، وانتشار مذهبهم ، وتهافت دينهم .

ونحن نعوذ بالله من التكلف وانتحال ما لا نحسن ، ونسأله القصد في القول والعمل ، وأن يكون ذلك لوجهه ، ولنصرة دينه ، إنه قريب مجيب .

[١٠ - الأسباب التي قربت النصارى من المسلمين دون اليهود]

فأنا مبتدئ في ذكر الأسباب التي لها صارت النصارى أحب الى العوام من المجوس ، وأسلم صدوراً عندهم من اليهود ، وأقرب مودة ، وأقل غائلة ، وأصغر كفراً ، وأهون عذاباً .

ولذلك أسباب كثيرة ، ووجوه واضحة ، يعرفها من نظر ، ويجهلها من لم ينظر .

[١١ - نزاع الجوار بين المسلمين واليهود في يثرب]

أول ذلك أن اليهود كانوا جيران المسلمين بيثرب وغيرها ، وعداوة الجيران شبيهة بعداوة الأقارب في شدة التمكن وثبات الحقد ، وإنما يعادي الإنسان من يعرف ، ويميل على من يرى ، ويناقض من يشاكل ، ويبدو له عيوب من يخالط . وعلى قدر الحب والقرب يكون البغض والبعد ، ولذلك كانت حروب الجيران وبني الأعمام من سائر الناس وسائر العرب أطول ، وعداوتهم أشد .

فلما صار المهاجرون لليهود جيراناً ، وقد كانت الأنصار متقدمة الجوار ، مشاركة في الدار ، حسدتهم اليهود على النعمة في الدين ، والاجتماع بعد الافتراق ، والتواصل بعد التقاطع ، وشبهوا على العوام ، واستمالوا الضعفة ، ومالؤوا الأعداء والحسدة ، ثم جاوزوا الطعن وإدخال الشبهة ، إلى المناجزة والمناجزة بالعداوة ، فجمعوا كيدهم ، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في قتالهم ، وإخراجهم من ديارهم ، وطال ذلك واستفاض فيهم وظهر ، وترادف لذلك الغيظ ، وتضاعف البغض ، وتمكن الحقد .

وكانت النصارى لبعدي ديارهم ، من مبعث النبي ﷺ ومهاجره ، لا

يتكفون طعنا ، ولا يثيرون كيداً ، ولا يجمعون على حرب . فكان هذا أول أسباب ما غلظ القلوب على اليهود ، ولينها على النصارى .

[١٢ - إيهاء نصارى الحبشة لمهاجري المسلمين]

ثم كان من أمر المهاجرين إلى الحبشة ، واعتمادهم على تلك الجنبية ما حبيبهم إلى صوام المسلمين . وكلما لانت القلوب لقوم غلظت على أعدائهم ، ويقدر ما نقص من بغض النصارى زاد في بغض اليهود .

ومن شأن الناس حب من اصطنع إليهم خيراً أو جرى على يديه ، أراد الله بذلك أو لم يرد ، ويقصد كان أم باتفاق .

[١٣ - تأويل الآية : لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود . . .]

وأمر آخر ، وهو من أمتن أسبابهم وأقوى أمورهم ، وهو تأويل آية غلظت فيها العامة حتى نازعت الخاصة ، وحفظتها النصارى واحتجت ، واستمالت قلوب الرعاع والسفلة ، وهو قول الله تعالى : ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ﴾ . إلى قوله : ﴿ وفلك جزاء المحسنين ﴾ . وفي نفس الآية أعظم الدليل على أن الله تعالى لم يمن هؤلاء النصارى ولا أشباههم : الملكانية واليعقوبية ، وإنما على ضرب بحيرا ، وضرب الرهبان الذين كان يخدمهم سلمان .

وبين حمل قوله : ﴿ الذين قالوا إنا نصارى ﴾ على الغلط منهم في الأسماء ، وبين أن نجزم عليهم لأنهم نصارى - فرق .

[١٤ - تنصر بعض ملوك العرب]

كما ذكر اليهود أنه جاء الإسلام وملوك العرب رجلاً : غسانى ولخمي ، وهما نصرانيان ، وقد كانت العرب تدين لهما ، وتؤدي الإتاوة إليهما ، فكان تعظيم قلوبهم لهما

راجعاً إلى تعظيم دينها . وكانت تهامة ، وإن كانت لقاحاً لا تدين الدين ، ولا تؤدي الإتاوة ، ولا تدين للملوك ، فإنها كانت لا تمنع من تعظيم ما عظم الناس ، وتصغير ما صغروا .

ونصرانية النعمان وملوك غسان مشهورة في العرب ، معروفة عند أهل النسب ، ولولا ذلك لدلت عليها بالأشعار المعروفة ، والأخبار الصحيحة .

[١٥ - العلاقات التجارية بين العرب ونصارى الروم والحبشة]

وقد كانت تتجر إلى الشام ، وينفذ رجالها إلى ملوك الروم ، ولها رحلة في الشتاء والصيف ، في تجارة مرة إلى الحبشة ، ومرة قبل الشام ، ومرة يشرب ، ومصيفها بالطائف ، ومرة ميمنين مستأنفاً بحمده ، فكانوا أصحاب نعمة ، وذلك مشهور مذكور في القرآن ، وعند أهل المعرفة .

وقد كانت تهاجر إلى الحبشة ، وتأتي باب النجاشي والهدنة ، فيحبوهم بالجزيل ، ويعرف لهم الأقدار ، ولم تكن تعرف كسرى ، ولا تأنس بهم ، وقبصر والنجاشي نصرانيان ، فكان ذلك أيضاً للنصارى دون اليهود .

والآخر من الناس تبع للأول في تعظيم من عظم ، وتصغير من صغر .

[١٦ - تفشي النصرانية بين قبائل العرب]

وأخرى : أن العرب كانت النصرانية فيها فاشية ، وعليها غالبية ، إلا مضر ، فلم تغلب عليها يهودية ولا مجوسية ، ولم تفش فيها النصرانية ، إلا ما كان من قوم منهم نزلوا الحيرة يسمون : العباد ، فإنهم كانوا نصارى ، وهم مغمورون مع نبد يسير في بعض القبائل . ولم تعرف مضر إلا دين العرب ، ثم الإسلام .

وغلبت النصرانية على ملوك العرب وقبائلها : على لحم ، وغسان ، والحارث بن كعب بنجران ، وقضاة ، وطى ، في قبائل كثيرة ، وأحياء معروفة .

ثم ظهرت في ربيعة فغلبت على تغلب وعبد القيس وأفناء بكر ، ثم في آل ذي
الجلدين خاصة .

وجاء الإسلام وليست اليهودية بغالبة على قبيلة ، إلا ما كان من ناس من
اليمانية ، ونبذ يسير من جميع إباد وربيعة . ومعظم اليهودية إنما كانت يشرب
وحير وثيحاء ووادي القرى ، في ولد هارون ، دون العرب .

فعطف قلوب دهماء العرب على النصارى الملك الذي كان فيهم ، والقراية
التي كانت لهم . ثم رأت هوامنا أن فيها ملكاً قائماً ، وأن فيهم عرباً كثيراً ، وأن
بنات الروم ولدن لملوك الإسلام ، وأن في النصارى متكلمين وأطباء ومنجمين ،
فصاروا بذلك عندهم عقلاء وفلاسفة حكماء ، ولم يروا ذلك في اليهود .

[١٧ - ظن العرب أن النصارى أصحاب علم وفلسفة]

وإنما اختلفت أحوال اليهود والنصارى في ذلك لأن اليهود ترى أن النظر في
الفلسفة كفر ، والكلام في الدين بدعة ، وأنه مجلبة لكل شبهة ، وأنه لا علم إلا
ما كان في التوراة وكتب الأنبياء ، وأن الإيمان بالطب ، وتصديق المنجمين من أسباب
الزندقة والخروج إلى الدهرية ، والخلاف على الأسلاف وأهل القدوة ، حتى أنهم
ليهرجون المشهور بذلك ، ويحرمون كلام من سلك سبيل أولئك .

ولو علمت العوام أن النصارى والروم ليست لهم حكمة ولا بيان ، ولا بعد
روية ، إلا حكمة الكف ، من الخسر والنجر والتصوير ، وحماسة البيزون
لاخرجتهم من حدود الأدباء ، ولحنتهم من ديوان الفلاسفة والحكماء ، لأن كتاب
المنطق والكون والفساد ، وكتاب العلوي ، وغير ذلك ، لأرسطاطاليس ، وليس
برومي ولا نصراني .

وكتاب المجسطي لبطليموس ، وليس برومي ولا نصراني .

وكتاب إقليدس لإقليدس ، وليس برومي ولا نصراني .

وكتاب الطب لجالينوس ، ولم يكن رومياً ولا نصرانياً .

وكذلك كتب ديمقراط وبقراط وأفلاطون ، وفلان وفلان .

وهؤلاء ناس من أمة قد بادوا وبقيت آثار عقولهم ، وهم اليونانيون ، ودينهم غير دينهم ، وأديبهم غير أديبهم ، أولئك علماء ، وهؤلاء سناع أخذوا كتبهم لقرب الجوار ، وتداني الدار ، فمنها ما أضافوه إلى أنفسهم ، ومنها ما حولوه إلى ملتهم . إلا ما كان من مشهور كتبهم ، ومعروف حكمهم ، فلأنهم حين لم يقدرُوا على تغيير أسمائها زعموا أن اليونانيين قبيل من قبائل الروم ، ففخروا بأديابهم على اليهود ، واستطالوا بها على العرب ، وبلغوا بها على الهند ، حتى زعموا أن حكماءنا أتباع حكمائهم ، وأن فلاسفتنا اقتدوا على مثالمهم ، فهذا هذا .

ودينهم يرحمك الله - يضاهي الزندقة ، ويناسب في بعض وجوهه قول

الدهرية ، وهم من أسباب كل حيرة وشبهة .

والدليل على ذلك أنا لم نر أهل ملة قط أكثر زندقة من النصارى ، ولا أكثر متحيراً أو مترنحاً منهم .

مركز تحقيق تكملة تكملة علوم إسلامية

وكذلك شأن كل من نظر في الأمور الغامضة بالمعقول الضعيفة : ألا ترى أن أكثر من قتل في الزندقة ممن كان يتحمل الإسلام ويظهره ، هم الذين آباؤهم وأمهاتهم نصارى .

[١٨ - المراتب الرفيعة التي تبوأها النصارى لدى الخلفاء]

على أنك لو عددت اليوم أهل الظنة ومواضع التهمة لم تجد أكثرهم إلا كذلك .

ومما عظمهم في قلوب الموم ، وحببهم إلى السطام ، أن منهم كتاب السلاطين ، وفراشي الملوك ، وأطباء الاشراف ، والعطارين والصيداغة . ولا تجد اليهودي إلا صباغاً ، أو دباغاً ، أو حجاماً ، أو قصاباً ، أو شعباً .

فلما رأَت العوام اليهود والنصارى توهمت أن دين اليهود في الأديان كصناعتهم
في الصناعات ، وأن كفرهم أقل الكفر ، إذ كانوا هم أقل الأمم .

وإنما صارت النصارى أقل مساختة من اليهود ، على شدة مساختة
النصارى ، لأن الأسرائيلي لا يزوج إلا الأسرائيلي ، وكل مناكحهم مردودة
فيهم ومقصورة عليهم ، وكانت الغرائب لا تشوبهم ، وفحولة الأجناس لا
تضرب ولا تضرب فيهم ، لم ينجبوا في عقل ولا أسر ولا ملح . وإنك لتعرف
ذلك في الخيل والإبل ، والحمير والحمام .

ونحن - رحمك الله - لم نخالف العوام في كثرة أموال النصارى ، وأن فيهم
ملكاً قائماً ، وأن ثيابهم أنظف ، وأن صناعتهم أحسن .

وإنما خالفنا في فرق ما بين الكافرين والفرقتين ، في شدة المعاندة واللجاجة ،
والإرصاد لأهل الإسلام بكل مكيدة ، مع لزوم الأصول وخبث الأعراف .

[١٩ - التسامح مع النصارى]

فأما الملك والصناعة والهبة ، فقد علمنا أنهم اتخذوا البراذين الشهرية ،
والخيل العتاق ، واتخذوا الجوقات ، وضربوا بالصواجحة ، وتحذفوا المديني ، ولبسوا
الملحم والمطبعة ، واتخذوا الشاكرية ، وتسموا بالحسن والحسين ، والعباس والفضل
وعلي ، واكتنوا بذلك أجمع ، ولم يبق إلا أن يتسموا بمحمد ، ويكتنوا بأبي القاسم .
فرغب إليهم المسلمون ، وترك كثير منهم عقد الزنابير ، وعقدتها آخرون دون
ثيابهم ، وامتنع كثير من كبرائهم من إعطاء الجزية ، وأنفوا مع أقدارهم من دفعها
وسبوا من سبهم ، وضربوا من ضربهم .

وما لهم لا يفعلون ذلك وأكثر منه ، وفضائنا أو صامتهم يرون أن دم
الجالليق والمطران والأسقف وفاء بدم جعفر وعلي والعباس وحمزة .

ويرون أن النصارى إذا قذف أم النبي ﷺ بالغواية أنه ليس عليه إلا

التميز والتأديب ، ثم يحتجون أنهم إنما قالوا ذلك لأن أم النبي ﷺ لم تكن مسلمة . فسبحان الله العظيم ! ما أعجب هذا القول وأبين انتشاره !

ومن حكم النبي ﷺ : أن لا يساونا في المجلس ومن قوله : « وإن سبوكم فاضربوهم ، وإن ضربوكم فاقتلوهم » .

وهم إذا قذفوا أم النبي عليه السلام بالفاحشة لم يكن له عند أمته إلا التمييز والتأديب . وزعموا أن افتراءهم على النبي ليس بنكث للعهد ، ولا بنقض للعقد .

وقد أمر النبي عليه السلام أن يعطونا الضريبة عن يد منا عالية في قبولنا منهم ، وعقدنا لدمتهم ، دون إراقة دمهم . وقد حكم الله تعالى عليهم بالذلة والمسكنة .

أو ما ينبغي للجاهل أن يعلم أن الأئمة الراشدين ، والسلف المتقدمين لم يشترطوا عند أخذ الجزية ، وعقد الذمة عدم الافتراء على النبي ﷺ وأمه ، إلا لأن ذلك عندهم أعظم في العيون ، وأجل في الصدور من أن يحتاجوا إلى تخليده في الكتب ، وإلى إظهار ذكره بالشرط ، وإلى تشيئه بالبينات ، بل لو فعلوا ذلك لكان فيه الوهن عليهم ، والمظنعة فيهم ، ولظنوا أنهم في القدر الذي يحتاج فيه إلى هذا وشبهه .

وإنما يتواثق الناس في شروطهم ، ويفسرون في عهودهم ما يمكن فيه الشبهة ، أو يقع فيه الغلط ، أو يفتى عنه الحاكم ، وينسأه الشاهد ، ويتعلق به الخصم ، فأما الواضح الجلي ، والظاهر الذي لا يجيل فما وجه اشتراطه ، والتشافل بذكره .

وأما ما احتاجوا إلى ذكره في الشروط ، وكان مما يجوز أن يظهر في العهد فقد فعلوه ، وهو كالدلة والصغارة ، وإعطاء الجزية ، ومقاسمة الكنائس ، وأن لا يعينوا بعض المسلمين على بعض ، وأشبه ذلك . فأما أن يقولوا لمن هو أذل من الذليل ، وأقل من القليل ، وهو الطالب الراغب في أخذ فديته ، والإنعام عليه

بقبض جزيته وحقن دمه : نعامه ذلك على أن لا نفتري على أمة رسول رب
العالمين ، وخاتم النبيين ، وسيد الأولين والآخرين فهذا ما لا يجوز في تدبير
أوساط الناس ، فكيف بالجملة والعلية ، وأئمة الخليقة ، ومصاييح الدجى ، ومنار
الهدى ، مع أنفة العرب ، وبأس السلطان ، وغلبة الدولة ، وعز الإسلام ، وظهور
الحجة ، والوعد بالنصرة .

[٢٠ - دور النصارى في نشر الزندقة والتشكيك بالدين]

على أن هذه الأمة لم تتبل باليهود ولا المجوس ، ولا الصابئين كما ابتليت
بالنصارى . وذلك أنهم يتبعون المتناقض من أحاديثنا ، والضعيف بالأسناد من
روايتنا ، والمتشابه من أي كتابنا ، ثم يخلون بضعفائنا ، ويسألون عنها عوامنا ، مع
ما قد يعلمون من مسائل الملحدين ، والزنادقة الملاحين ، وحتى مع ذلك ربما
تسراوا إلى علمائنا ، وأهل الأقدار منا ، ويشغبون على القوي ، ويلبسون على
الضعيف .

ومنم البلاء أن كل إنسان من المسلمين يرى أنه متكلم ، وأنه ليس أحد أحق
بحاجة الملحدين من أحد .

وبعد ، فلولا متكلمو النصارى وأطباؤهم ومنجموهم ما صار إلى أغيائنا
وظرفائنا ، ومجاننا وأحدائنا شيء من كتب المنانسة ، والديصانية والمرقونية ،
والفلانية ، ولما عرفوا غير كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه ﷺ ، ولكانت تلك
الكتب مستورة عند أهلها ، ومخلاة في أيدي ورثتها . فكل سخنة عين رأيناها
في أحدائنا وأغيائنا فمن قبلهم كان أولها .

[٢١ - بعض عقائد النصارى]

وأنت إذا سمعت كلامهم في العفو والصفح ، وذكرهم للسياحة ، ووزرايتهم
على كل من أكل اللحمان ، ورغبتهم في أكل الحبوب ، وترك الحيوان ،
وتزهيدهم في النكاح ، وتركهم لطلب الولد ، ومدبجهم للجائليق والمطران والأسقف

والرهبان ، بترك النكاح وطلب النسل ، وتعظيمهم الرؤساء - علمت أن بين ديهم وبين الزندقة نسباً ، وأنهم يحنون إلى ذلك المذهب .

والمعجب أن كل جائلق لا ينكح ، ولا يطلب الولد . وكذلك كل مطران ، وكل أسقف . وكذلك كل أصحاب الصوامع من اليعقوبية ، والمقيمين في الديارات والبيوت من النسطورية . وكل راهب في الأرض وراهبة ، مع كثرة الرهبان والرواهب ، ومع تشبه أكثر القسيسين بهم في ذلك ، ومع ما فيهم من كثرة الغزاة ، وما يكون فيهم مما يكون في الناس ، من المرأة العاقر ، والرجل العقيم .

على أن من تزوج منهم امرأة لم يقدر على الاستبدال بها ، ولا على أن يتزوج أخرى معها ، ولا على التسري عليها . وهم مع هذا قد طبقوا الأرض ، وملأوا الأفاق ، وغلّبوا الأمم بالعدد ، وبكثرة الولد . وذلك مما زاد في مصائبنا ، وعظمت به محتنا .

ومما زاد فيهم ، وأثمن عددهم ، أنهم يأخذون من سائر الأمم ، ولا يعطونهم ، لأن كل دين جاء بعد دين ، أخذ منه الكثير ، وأعطاه القليل .

[٢٢ - تفشي الخصاء بين النصارى]

فصل منه : ومما يدل على قلة رحمتهم وفساد قلوبهم أنهم أصحاب الخصاء من بين جميع الأمم ، والخصاء أشد المثلة ، وأعظم ما ركب به انسان ثم يفعلون بأطفال لا ذنب لهم ، ولا دفع عندهم .

ولا نعرف قوماً يعرفون بخصاء الناس حيث ما كانوا إلا ببلاد الروم والحبشة ، وهم في غيرها قليل ، وأقل قليل .

على أنهم لم يتعلموا إلا منهم ، ولا كان السبب في ذلك غيرهم ، ثم خصوا أبناءهم وأسلموهم في بيهم . وليس الخصاء إلا في دين الصابئين ، فإن العابد ربما

نحى نفسه ، ولا يستحل خصاء ابنه . فلو تمت إرادتهم في خصاء أولادهم في ترك النكاح وطلب النسل كما حكيت لك قبل هذا - لانقطع النسل ، وذهب الدين ، وفتن الخلق .

[٢٣ - بعض عادات النصارى]

والنصراني وإن كان أنظف ثوباً ، وأحسن صناعة ، وأقل مساختة ، فإن باطنه الأم وأقذر وأسمج ، لأنه ألقف ، ولا يغتسل من الجنابة ، ويأكل لحم الخنزير ، وامراته جنب لا تطهر من الحيض ، ولا من النفاس ، ويغشاها في الطمث ، وهي مع ذلك غير محتونة .

وهم مع شرارة طبائعهم ، وغلبة شهواتهم ليس في دينهم مزاجر كنار الأبد في الآخرة ، وكالحدود والقود والقصاص في الدنيا ، فكيف يجانب ما يفسده ، ويؤثر ما يصلحه من كانت حاله كذلك . وهل يصلح الدنيا من هو كما قلنا ؟ وهل يبيع حل الفساد إلا من وصفنا ؟

[٢٤ - الغموض حول حقيقة النصرانية]

ولو جهدت بكل جهدك ، وجمعت كل عقلك أن تفهم قولهم في المسيح ، لما قدرت عليه ، حتى تعرف به حد النصرانية ، وخاصة قولهم في الإلهية .

وكيف تقدر حل ذلك وأنت لو خلوت ونصراني نسطوري فسألته عن قولهم في المسيح لقال قولاً ، ثم إن خلوت بأخيه لأمه وأبيه وهو نسطوري مثله فسألته عن قولهم في المسيح لأتاك بخلاف أخيه وصنوه . وكذلك جميع الملكانية واليهودية . ولذلك صرنا لا نعقل حقيقة النصرانية ، كما نعرف جميع الأديان .

حل أنهم يزعمون أن الدين لا يخرج في القياس ، ولا يقوم حل المسائل ، ولا يثبت في الامتحان ، وإنما هو بالتسليم لما في الكتب ، والتقليد للأسلاف . ولعمري ، إن من كان دينه دينهم ليجب عليه أن يعتذر بمثل عذرهم .

وزعموا أن كل من اعتقد خلاف النصرانية من المجوس والصابئين والزنادقة فهو معذور ، ما لم يتعمد الباطل ، ويعاند الحق . فإذا صاروا إلى اليهود قضوا عليهم بالمعاندة ، وأخرجوهم من طريق الغلط والشبهة .

[٢٥ - الرد على النصراني حول مسألة كلام عيسى في المهد]

فصل منه : فأما مسألتهم في كلام عيسى في المهد : ان النصراني مع حبه لتقوية أمره لا يثبتونه ، وقولهم : إنا نقولناه ورويناه عن غير الثقات ، وأن الدليل على أن عيسى لم يتكلم في المهد أن اليهود لا يعرفونه ، وكذلك المجوس ، وكذلك الهند والخزر والديلم . فنقول في جواب مسألتهم عند إنكارهم كلام المسيح في المهد مولوداً .

يقال لهم : إنكم حين سويتم المسألة وموهمتوها ، ونظمتم ألفاظها ، ظنتم أنكم قد أنجحتهم ، وبلغتم غايتكم . ولعمري لئن حسن ظاهرها ، وراع الأسماع مخرجها ، انها لقبحة الفتش ، سيئة المعري .

ولعمري أن لو كانت اليهود تقر لكم بإحياء الأربعة الذين تزعمون ، وإقامة المقعد الذي تدعون ، وإطعام الجمع الكثير من الأرخفة اليسيرة ، وتصيير الماء جداً ، والمشي على الماء ، ثم أنكرت الكلام في المهد من بين جميع آياته وبراهينه لكان لكم في ذلك مقال ، وإلى الطعن سبيل . فأما وهم يحددون ذلك أجمع ، فمرة يضحكون ، ومرة يفتاظلون ويقولون : إنه صاحب رقى ونيرجات ، ومداوي مجانين ، ومتطيب ، وصاحب حيل وتربص خدع ، وقراءة كتب ، وكان لسناً مسكيناً ، ومفتولاً مرحوماً ، ولقد كان قبل ذلك صياد سمك ، وصاحب شبك ، وكذلك أصحابه . وأنه خرج على مواطأة منهم له ، وأنه لم يكن لرشدة .

وأحسنهم قولاً ، وألينهم مذهباً من زعم أنه ابن يوسف النجار .

وأنه قد كان واطاً ذلك المقعد قبل إقامته بسنين ، حتى إذا شهره بالقعدة ، وحرف موضعه في الزمنى ، مر به في جمع من الناس كأنه لا يريد ، فشكا إليه

الزمانة وقلة الحيلة ، وشدة الحاجة ، فقال : ناولني يدك . فناوله يده ، فاجتذبه فأقامه ، فكان تجمع لطول القعود ، حتى استمر بعد ذلك .

وإنه لم يحي ميتاً قط ، وإنما كان داوى رجلاً يقال له « لاهازار » إذ أهمني عليه يوماً وليلة ، وكانت أمه ضعيفة العقل ، قليلة المعرفة ، فمر بها ، فإذا هي تصرخ وتبكي ، فدخل إليها ليسكنها ويعزيها ، وجس عرقه فرأى فيه علامة الحياة ، فداواه حتى أقامه ، فكانت لقلة معرفتها ، لا تشك أنه قدم مات ، ولفرحها بحياته تشي عليه بذلك ، وتتحدث به .

فكيف تستشهدون قوماً هذا قولهم في صاحبكم ، حين قالوا : كيف يجوز أن يتكلم صبي في المهدي مولوداً فيجعله الأولياء والأعداء .

ولو كانت المجوس تفر لعيسى بعلامة واحدة ، وبأدنى أعجوبة ، لكان لكم أن تنكروا علينا بهم ، وتستمينوا بإنكارهم . فأما وحال عيسى في جميع أمره عند المجوس كحال زرادشت في جميع أمره عند النصارى فما احتلهم بهم ، وتعلقهم في إنكارهم ؟

مركز تحقيقات كويتية للدراسات والبحوث الإسلامية

وأما قولكم : وكيف لم تعرف الهند والخزر والترك ذلك ؟ لمقى أقرت الهند لموسى بأعجوبة واحدة ، ففضلا عن عيسى ؟ ومقى أقرت لنبي بآية ، أורות له سيرة ، حتى تستشهدوا الهند على كلام عيسى في المهدي .

ومقى كانت الترك والديلم والخزر والبيسر والطيلسان مذكورة في شيء من هذا الجنس ، محتجاً بها على هذا الضرب ؟

فإن سألونا عن أنفسهم فقالوا : ما لنا لا نعرف ذلك ولم يبلغنا عن أحد بشة ؟ أجبتناهم بعد إسقاط نكيرهم وتشنيعهم ، وتزوير شهودهم .

وجوابنا : أنهم إنما قبلوا دينهم عن أربعة أنفس : اثنتان منهم من الحواريين بزعمهم : يوحنا ، ومقى . والثنتان من المستجيبة وهما : مارقش ونوقش ، وهؤلاء

الأربعة لا يؤمن عليهم الغلط ولا النسيان ، ولا تعتمد الكذب ، ولا التواطؤ على الأمور ، والاصطلاح على اقتسام الرياسة ، وتسليم كل واحد منهم لصاحبه حصته التي شرطها له .

فإن قالوا : إنهم كانوا أفضل من أن يتعمدوا كذباً ، واحفظ من أن ينسوا شيئاً ، وأعلى من أن يغلطوا في دين الله تعالى ، أو يضيعوا عهداً .

قلنا : إن اختلاف رواياتهم في الإنجيل ، وتضادها في كتبهم ، واختلافهم في نفس المسيح ، مع اختلاف شرائعهم ، دليل على صحة قولنا لهم ، وغفلتكم عنهم .

وما ينكر من مثل لوقس أن يقول باطلاً ، وليس من الحواريين ، وقد كان يهودياً قبل ذلك بأهلام يسيرة ، ومن هو عندكم من الحواريين خير من لوقس عند المسيح في ظاهر الحكم بالطهارة ، والطباغ الشريفة ، وبراعة الساحة .

[٢٦ - الرد على النصارى حولاً بنوثة المسيح]

فصل منه : وسألتكم عن قولهم : إذا كان تعالى قد اتخذ عبداً من عباده خليلاً ، فهل يجوز أن يتخذ عبداً من عباده ولداً ، يريد بذلك إظهار رحمته له ، وإياه ، وحسن تربيته وتأديبه له ، ولطف منزلته منه ، كما سمي عبداً من عباده خليلاً ، وهو يريد تشريفه وتعظيمه ، والدلالة على خاص حاله عنده .

وقد رأيت من المتكلمين من يميز ذلك ولا ينكره ، إذا كان ذلك على التبي والتربية والإبانة له بلطف المنزلة ، والاختصاص له بالمرحمة والمحبة ، لا على جهة الولادة ، واتخاذ الصاحبة . ويقول : ليس في القياس فرق بين اتخاذ الولد على التبي والتربية وبين اتخاذ الخليل على الولاية والمحبة .

وزعم أن الله تعالى يحكم في الأسماء بما أحب ، كما أن له أن يحكم في المعاني بما أحب .

وكان يجوز دعوى أهل الكتاب على التوراة والإنجيل والزبور ، وكتب الأنبياء صلوات الله عليهم في قولهم : إن الله قال : « إسرائيل بكري » . أي هو أول من تبنت من خلقي . وأنه قال : « إسرائيل بكري » ، وبنوه أولادي » . وأنه قال لداود : « سيولد لك غلام ، ويسمى لي ابناً ، وأسمى له أباً » . وأن المسيح قال في الإنجيل : « أنا أذهب إلى أبي وأبيكم ، وإلهي وإلهكم » ، وأن المسيح أمر الحواريين أن يقولوا في صلواتهم : « يا أبانا في السماء ، تقدس اسمك » . في أمور عجيبة ، ومذاهب شنيعة ، يدل على سوء عبادة اليهود ، وسوء تأويل أصحاب الكتب ، وجهلهم مجازات الكلام ، وتصريف اللغات ، ونقل لغة إلى لغة ، وما يجوز على الله ، وما لا يجوز . وسبب هذا التأويل كله العمى والتقليد ، واعتقاد التشبيه .

وكان يقول : وإنما وضعت الأسماء على أقدار المصلحة ، وعلى قدر ما يقابل من طبائع الأمم . فربما كان أصلح الأمور وأمتها أن يتبناه الله أو يتخلده خليلاً ، أو يخاطبه بلا ترجمان ، أو يخلق من غير ذكر ، أو يخرج من بين هاجر وعقيم . وربما كانت المصلحة غير ذلك كله . وكما تعبدنا أن نسميه جواداً وبهنا أن نسميه سخياً أو سرياً وأمرنا أن نسميه مؤمناً وبهنا أن نسميه مسلماً ، وأمرنا أن نسميه رحيماً وبهنا نسميه رقيقاً .

وقياس هذا كله واحد ، وإنما يتسع ويسهل على قدر العادة وكثرتها . ولعل ذلك كله قد كان شائعاً في دين هود وصالح وشعيب واسماعيل ، إذ كان شائعاً في كلام العرب في إثبات ذلك وإنكاره .

وأما نحن - رحمك الله - فإننا لا نجيز أن يكون لله ولد ، لا من جهة الولادة ، ولا من جهة التبني ، ونرى أن تجوز ذلك جهل عظيم ، وإثم كبير ، لأنه لو جاز أن يكون أباً ليعقوب لجاز أن يكون جداً ليوسف ، ولو جاز أن يكون جداً وأباً ، وكان ذلك لا يسوجب نسبا ، ولا يهضم مشاكلة في بعض الوجوه ، ولا ينقص من عظم ، ولا يحط من بهاء ، لجاز أيضاً أن يكون عمياً وخالاً ، لأنه إن جاز أن

يسميه من أجل المرحمة والمحبة والتأديب - أباً ، جاز أن يسميه آخر من جهة التعظيم والتفضيل والتسويد أخاً ، ولجاز أن يجد له صاحباً وصديقاً ، وهذا ما لا يجوزه إلا من لا يعرف عظمة الله ، وصغر قدر الإنسان .

وليس بحكيم من ابتذل نفسه في توقير عبده ، ووضع من قدره في التوفر على غيره . وليس من الحكمة أن تحسن إلى عبدك بأن تسيء إلى نفسك ، وتأتي من الفضل ما لا يجب بتضييع ما يجب . وكثير الحمد لا يقوم بقليل الذم ، ولم يحمد الله ولم يعرف إنهيته من جوز عليه صفات البشر ، ومناسبة الخلق ، ومقاربة العباد .

وبعد ، فلا يخلو المولى من رفع عبده وإكرامه من أحد أمرين :

إما أن يكون لا يقدر على كرامته إلا بهوان نفسه ، ويكون على ذلك قادراً ، مع وفارة العظمة ، وتمام البهاء .

وإن كان لا يقدر على رفع قدر غيره إلا بأن ينقص من قدر نفسه فهذا هو المعجز ، وضيق الذرع .

وإن كان على ذلك قادراً فآثر ابتذال نفسه والحط من شرفه فهذا هو الجهل الذي لا يحتمل .

والوجهان عن الله جل جلاله منفيان .

ووجه آخر يعرفون به صحة قولي ، وصواب مذهبي ، وذلك أن الله تبارك وتعالى لو علم أنه قد كان فيما أنزل من كتبه على بني إسرائيل : إن أباكم كان بكري وابني ، وإنكم أبناء بكري - لما كان تغضب عليهم إذ قالوا : نحن أبناء الله ، فكيف لا يكون ابن ابن الله ابنة ، وهذا من تمام الإكرام ، وكمال المحبة ، ولا سيما إن كان قال في التوراة : بنو إسرائيل أبناء بكري .

وأنت تعلم أن العرب حين زعمت أن الملائكة بنات الله كيف استعظم الله تعالى ذلك وأكبره ، وغضب على أهله ، وإن كان يعلم أن العرب لم تحمل الملائكة

بنائه على الولادة واتخاذ صاحبة ، فكيف يجوز مع ذلك أن يكون الله قد كان يخبر عباده قبل ذلك بأن يعقوب ابنه ، وأن سليمان ابنه ، وأن عزيزاً ابنه ، وأن عيسى ابنه ؟ .

فإنه تعالى أعظم من أن يكون له أبوة من صفاته ، والإنسان أحقر من أن يكون بنوة الله من أنسابه .

والقول بأن الله يكون أباً وجداً وأخاً وصياً ، للنصارى ألزم ، وإن كان للآخرين لازماً ، لأن النصارى تزعم أن الله هو المسيح بن مريم ، وأن المسيح قال للحواريين : « إخوتي » . فلو كان للحواريين أولاد لجاز أن يكون الله عنهم أبا ،

بل قد يزعمون أن مرقس هو ابن شمعون الصفا ، وأن زوزري ابنته ، وأن النصارى تقرر أن في إنجيل مرقس : « ما زاد أمك وأخوتك على الباب » وتفسيرها : ما زاد : معلم . فهم لا يمتنعون من أن يكون الله تبارك وتعالى أباً وجداً وصياً .

ولولا أن الله قد حكى عن اليهود أنهم قالوا : « إن عزيزاً ابن الله » ، « وبهد الله مفلوكة » ، « إن الله فقير ونحن أغنياء » وحكى عن النصارى أنهم قالوا : « المسيح ابن الله » وقال : « قالت النصارى المسيح ابن الله » . وقال : « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة » . لكنك لأن آخر من السماء أحب إلي من أن ألفظ بحرف مما يقولون . ولكني لا أصل إلى إظهار جميع مخازيمهم ، وما يسرون من فضائلهم ، إلا بالإخبار عنهم ، والحكاية منهم .

فإن قالوا : خبرونا عن الله ، وعن التوراة ، أليست حقاً ؟ قلنا : نعم . قالوا : فإن فيها « إسرائيل بكري » وجميع ما ذكرتم هنا معروف في الكتب .

قلنا : إن القوم إنما اتوا من قلة المعرفة بوجوه الكلام ، ومن سوء الترجمة ، مع الحكم بما يسبق إلى القلوب . ولعمري أن لو كانت لهم عقول المسلمين ومعرفتهم بما يجوز في كلام العرب ، وما يجوز على الله ، مع فصاحتهم بالعبرانية ،

لوجدوا لذلك الكلام تأويلاً حسناً ، ومخرجاً سهلاً ، ووجهاً قريباً . ولو كانوا أيضاً لم يعطلوا في سائر ما ترجموا لكان لقاتل مقال ، ولطاعن مدخل ، ولكنهم يجبرون أن الله تبارك وتعالى قال في العشر الآيات التي كتبها أصابع الله : « إني أنا الله الشديد ، وإني أنا الله الثقف ، وأنا النار التي تأكل النيران ، آخذ الأبناء بحوب الأباء ، القرن الأول والثاني والثالث إلى السابع » . وأن داود قال في الزبور : « افتح عينك يا رب » و « قم يا رب » ، و « أصغ إلي سمعك يا رب » . وأن داود خبر أيضاً في مكان آخر عن الله تعالى : « وانتبه الله كما ينتبه السكران الذي قد شرب الخمر » . وأن موسى قال في التوراة : « خلق الله الأشياء بكلمته ، وبروح نفسه » . وأن الله قال في التوراة لبني إسرائيل : « بذراعي الشديدة أخرجتكم من أهل مصر » . وأنه قال في كتاب إشعيا : « حمد الله حمداً جديداً ، حمده في أقاصي الأرض ، بملا الجزائر وسكانها ، والبحور والقفار وما فيها ، ويكون بنو قيدار في القصور ، وسكان الجبال - يعني قيدار بن إسماعيل - ليصبحوا ويصيروا لله الفخر والكرامة ، ويسبحوا بحمد الله في الجزائر »

وأنه قال على إثر ذلك : « ويخرج الرب كالجبار ، وكالرجل الشجاع المجرى ، ويزجر ويصرخ ، ويبج الحرب والحمية ، ويقتل أهداه ، يفرح السباه والأرض » .

وأن الله قال أيضاً في كتاب إشعيا : « سكت . قال : هو منى أسكت ، مثل المرأة التي قد أخذها الطلق للولادة أتلهف ، وإن ترابي أريد أحرث الجبال والشعب ، وأخذ بالعرب في طريق لا يعرفونه » .

وكلهم على هذا اللفظ العربي مجمع . ومعنى هذا لا يجوزه أحد من أهل العلم ، ومثل هذا كثير تركته لمعرفةكم به .

وأنت تعلم أن اليهود لو أخذوا القرآن فترجموه بالعبرانية لأخرجوه من معانيه ، ولحولوه عن وجوهه ، وما ظنك بهم إذا ترجموا : « فلما آسفونا انتقمنا منهم » ،

﴿ لتصنع على عيني ﴾ ، ﴿ والسماوات مطويات بيمينه ﴾ ، ﴿ على المرش
استوى ﴾ ، ﴿ ناضرة ، إلى ربها ناظرة ﴾ ، وقوله : ﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله
دكاً ﴾ ، ﴿ كلم الله موسى تكليماً ﴾ ، ﴿ جاء ربك والملك صفاً صفاً ﴾ .

وقد يعلم أن مفسري كتابنا وأصحاب التأويل منا أحسن معرفة ، وأعلم
بوجوه الكلام من اليهود ، ومتأولي الكتب ، ونحن قد نجد في تفسيرهم ما لا يجوز
على الله في صفته ، ولا عند المتكلمين في مقاييسهم ، ولا عند النحويين في
حريتهم . فما ظنك باليهود مع غباوتهم وغيرهم ، وقلة نظرهم وتقليدهم ؟

وهذا باب قد خلطت فيه العرب أنفسها ، وفصحاء أهل اللغة إذا خلطت
قلوبها ، وأخطأت قلوبها ، وأخطأت عقولها ، فكيف بغيرهم من لا يعلم كعلمها ؟

سمع بعض العرب قول جميع العرب : « القلوب بيد الله » ، وقولهم في
الدهاء : « نواصينا بيد الله » وقوله جل ذكره : ﴿ بل يدها مبسوطتان ﴾ ،
وقولهم : « هذا من أيادي الله ونعمه عندنا » وقد كان من لغتهم أن الكف أيضاً يد ، كما
أن النعمة يد ، والقدرة يد ، فغلط الشاعر فقال :

هون عليك فإن الأمور بكف الإله مقاديرها

وقد كان إبراهيم بن سيار النظام يجيب بجواب ، وأنا ذاكره إن شاء الله . وعليه
كانت علماء المعتزلة ، ولا أراه مقنعاً ولا شافياً .

وذلك أنه كان يجعل الخليل مثل الحبيب ، مثل الولي ، وكان يقول : خليل
الرحمن مثل حبيبه ووليه وناصره . وكانت الخلة والولاية والمحبة سواء .

قالوا : ولما كانت كلها عنده سواء جاز أن يسمى عبداً له ولداً ، لمكان التربية التي
ليست بحضانة ، ولمكان الرحمة التي لا تشتق من الرحم ، لأن إنساناً لو رحم جرو كلب
فرباه لم يجوز أن يسميه ولداً ويسمي نفسه أباً . ولو التقط صبياً فرباه جاز أن يسميه ولداً

ويسمى نفسه له أباً ، لأنه شبيه ولده ، وقد يولد لمثله مثله . وليس بين الكلاب والبشر أرحام ، فإذا كان شبه الإنسان أبعد من الله تعالى من شبه الجرو وبالإنسان ، كان الله أحق بالأب يجعله ولده ، وينسبه إلى نفسه .

قلنا لإبراهيم النظام عند جوابه هذا وقياسه الذي قاس عليه ، في المعارضة والموازنة بين قياسنا وقياسه : رأيت كلباً ألف كلابه ، وحامى وأحمى دونه ، هل يجوز أن يتخذ بذلك كله خليلاً ، مع بعد التشابه والتناسب ؟

فإذا قلنا : لا . قلنا : فالعبد الصالح أبعد شبيهاً من الله من ذلك الكلب المحسن إلى كلابه ، فكيف جاز في قياسك أن يكون الله خليل من لا يشاكره لمكان إحسانه ، ولا يجوز للكلاب أن يسمى كلبه خليلاً أو ولداً لمكان حسن تربيته له ، وتأديبه إياه ، ولمكان حسن الكلب وكسبه عليه ، وقيامه مقام الولد الكاسب والأخ ، والبار .

والعبد الصالح لا يشبه الله في وجهه من الوجوه ، والكلب قد يشبه كلابه لوجوه كثيرة ، بل ما أشبهه به مما خالفه فيه ، وإن كانت العلة التي منعت من تسمية الكلب خليلاً وولداً أبعد شبيهاً من الإنسان .
فلو قلتم : فما الجواب الذي أجبتم فيه ، والوجه الذي ارتضيته ؟

قلنا : إن إبراهيم صلوات الله عليه ، وإن كان خليلاً ، فلم يكن خليله بخلة كانت بينه وبين الله تعالى ، لأن الخلة والإخاء والصدقة والتصافي والخلطلا وأشباه ذلك منفية عن الله تعالى عز ذكره ، فيها بينه وبين عباده ، على أن الإخاء والصدقة داخلتان في الخلة ، والخلة أهم الأسمين ، وأخص الحالين . ويجوز أن يكون إبراهيم خليلاً بالخلة التي أدخلها الله على نفسه وماله ، وبين أن يكون خليلاً [بالخلة وأن يكون خليلاً] بخلة بينه وبين ربه - فرق ظاهر - وبون واضح . وذلك أن إبراهيم عليه السلام اختل في الله تعالى اختلا لا لم يختلله أحد قبله . لقد فهم إياه في النار ، وذبحه ابنه ، وحمله على ماله في الضيافة والمواساة والأثرة . وبعداوة قومه ، والبراءة من أبويه في حياتهما ، وبعد موتهما ، وترك وطنه ، والهجرة إلى غير داره ومسقط رأسه . فصار لهذه الشدائد اختلاً في الله ،

وخليلاً في الله . والخليل والمختل سواء في كلام العرب . والدليل على أن يكون الخليل من الخلّة كما يكون من الخلّة قول زهير بن أبي سلمى ، وهو يمدح هرمياً :

وإن أتاه خليل يوم مسغبة يقول لا عاجز مالي ولا حرم
وقال آخر :

وإني إلى أن تسعفاني بحاجة إلى آل ليل مرة لخليل
وهو لا يمدحه بأن خليله وصديقه يكون فقيراً سائلاً ، يأتي يوم المسألة ويبسط يده للصدقة والمطية ، وإنما الخليل في هذا الموضع من الخلّة والاختلال ، لا من الخلّة والخلال .

وكأن إبراهيم عليه السلام حين صار في الله مختلاً أضافه الله إلى نفسه ، وأبانه بذلك عن سائر أوليائه ، فسماه خليل الله من بين الأنبياء ، كما سمي الكعبة : بيت الله من بين جميع البيوت ، وأهل مكة : أهل الله من بين جميع البلدان . وسمى ناقة صالح عليه السلام : ناقة الله من بين جميع النوق . وهكذا كل شيء عظمه الله تعالى ، من خير وشر ، وثواب وعقاب . كما قالوا : دعه في لعنة الله ، وفي نار الله وفي حرقه . وكما قال للقرآن : كتاب الله ، وللمحرم : شهر الله . وعلى هذا المثال قيل لحمزة رحمة الله ورضوانه عز ذكره عليه : أسد الله ، ولخالد رحمة الله عليه : سيف الله تعالى .

وفي قياسنا هذا لا يجوز : أن الله خليل إبراهيم ، كما يقال : أن إبراهيم خليل الله .

فإن قال قائل : فكيف لم يقدموه على جميع الأنبياء ، إذ كان الله قدمه بهذا الاسم الذي ليس لأحد مثله ؟

قلنا : إن هذا الاسم اشتق له من عمله وحاله وصفته ، وقد قيل لموسى عليه

السلام : كلیم الله ، وقيل لعيسى : روح الله ، ولم يقل ذلك لإبراهيم ، ولا لمحمد عليهما السلام ، وإن كان محمد ﷺ أرفع درجة منهن لأن الله تعالى كلم الأنبياء عليهم السلام على السنة الملائكة ، وكلم موسى كما كلم الملائكة ، فلهذه العلة قيل : كلیم الله . وخلق في نطف الرجال أن قذفها في أرحام النساء على ما أجرى عليه تركيب العالم ، وطباع الدنيا وخلق في رحم مريم روحاً وجسداً ، على غير مجرى العادة ، وما عليه المناكحة . هذه الخاصة قيل له : روح الله .

وقد يجوز أن يكون في نبي من الأنبياء خصلة شريفة ، ولا تكون تلك الخصلة بعينها في نبي أرفع درجة منه ، ويكون في ذلك النبي خصال شريفة ليست في الآخر . وكذلك جميع الناس ، كالرجل يكون له أبوان ، فيحسن برهما وتعاهدهما ، والصبر عليهما ، وهو أعرج لا يقدر على الجهاد ، وفقير لا يقدر على الإنفاق . ويكون آخر لا أب له ولا أم له ، وهو ذو مال كثير ، وخلق سوى ، وجلد طاهر ، فاطاع هذا بالجهاد والإنفاق ، وأطاع ذلك ببر والديه والصبر عليهما .

والكلام إذا حرك تشعب ، وإذا ثبت أصله كثرت فنونه ، واتسعت طرقه . ولولا ملالة القاريء ، ومداراة المستمع لكان بسط القول في جميع ما يعرض أتم للدليل ، وأجمع للكتاب ، ولكننا إنما ابتدأنا الكتاب لنقتصر به على كسر النصرانية فقط .

قلنا في جواب آخر : إن كان المسيح إنما صار ابن الله لأن الله خلقه من غير ذكر ، فأدم وحواء إذ كانا من غير ذكر وأنثى أحق بذلك ، إن كانت العلة في اتخاذ ولد أنه خلقه من غير ذكر . وإن كان ذلك لمكان التربية فهل رباه إلا كما ربه موسى ، وداود ، وجميع الأنبياء . وهل تأويل : « رباه » إلا غذاه ورزقه واطعمه وسقاه فقد فعل ذلك بجميع الناس ، ولم سميتم سقيه لهم واطعامه إياهم تربية ، ولم رباه وانتم لا تريدون إلا غذاه ورزقه وهو لم يرضه ، ولم يباشر تغليبه ، ولم يتول بنفسه سقيه واطعامه ، فيكون ذلك سبباً له دون غيره ، وإنما سقاه لبن أمه في صغره ، وغذاه بالحبوب والماء في كبره .

فصل منه: والاعجوبة في آدم عليه السلام أهدع، وتربيته أكرم، ومنقلبه أهل وأشرف إذ كانت السماء داره، والجنة منزله، والملائكة خدامه. بل هو المقدم بالسجود، والسجود أشد الخضوع. وإن كان بحسن التعليم والتثقيف، فمن كان الله تعالى يخاطبه، ويتولى مناجاته دون أن يرسل إليه ملائكته ويبحث إليه رسله، أقرب منزلة، وأشرف مرتبة، وأحق بشرف التأديب وفضيلة التعليم.

وكان الله تعالى يكلم آدم كما كان يكلم ملائكته، ثم علمه الأسماء كلها، ولم يكن ليعلمه الأسماء كلها إلا بالمعاني كلها، فإذا [كان] ذلك كذلك فقد علمه جميع مصالحه ومصالح ولده، وتلك نهاية طباع الأدميين، ومبلغ قوى المخلوقين.

[٢٧ - الرد على النصارى حول فقر الله]

فصل منه: فأما قولهم إنا نقول على الناس ما لا يعرفونه، ولا يجوز أن يدينوا به، وهو قولنا إن اليهود قالت: إن الله تعالى فقير ونحن أغنياء. وأنها قالت: إن يد الله مغلولة، وأنها قالت: إن عزيزاً ابن الله، وهم مع اختلافهم وكثرة عددهم، ينكرون ذلك ويأبونه أشد الإباء.

قلنا لهم: إن اليهود لعنهم الله تعالى كانت تطعن على القرآن، وتلتبس نقضه، وتطلب عيبه، وتخطيء فيه صاحبه وتأتيه من كل وجه، وترصده بكل حيلة، ليلتبس على الضعفاء، وتستميل قلوب الأغبياء.

فلما سمعت قول الله تعالى لعباده الذين أعطاهم، قرضاً وسأهم قرضاً على التضعيف، فقال عز من قائل: ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له ﴾. قالت اليهود على وجه الطعن والعيب والتخطئة والتعننت: تزعم أن الله يستقرض منا، وما استقرض منا إلا لقره وغنانا! فكفرت بذلك القول إذ كان على وجه التكذيب والتخطئة، لا على وجه أن دينها كان في الأصل أن الله فقير، وأن عباده أغنياء. وكيف يعتقد إنسان أن الله عاجز عما يقدر عليه، مع إقراره بأنه الذي خلقه ورزقه، وإن شاء حرمه، وإن شاء هدبه، إن شاء عفا

عنه ، وقدرته على جميع ذلك كقدرته على واحد .

ومجاز الآية في اللغة واضح ، وتأويلها بين ؟ وذلك أن الرجل منهم كان يفرض صاحبه لإرفاقه ، ليعود إليه مع أصل ماله اليسير من ربحه ، ثم هو خاطر به إلى أن يعود في ملكه . فقال لهم - بحسن عاداته ومنتته : أسوأ فقراءكم ، وأعطوا في الحق أقرباءكم ، من المال الذي أعطيتكم ، والنعمة التي خولتكم ، بأمرى إياكم وضمان لكم ، فأعتده منكم قرضاً وإن كنت أولى به منكم ، فأنا موفيكم حقوقكم إلى ما لا ترتقي إليه همة ولا تبلغه أمنية . على أنكم قد أمتتم من الخطار ، وسلمتم من التفرير .

والرجل يقول لعبده : أسلفني درهماً ، عند الحاجة تعرض له ، وهو يعلم أن عبده وماله له . وإنما هذا كلام وفعال يدل على حسن الملكة ، والتفضل على العبد والأمة ، وإخبار منه لعبده أنه سيعيد عليه ما كانت سخط به نفسه .

وهذا ليس بغلط في الكلام ولا بضيق فيه ولكن المتعنت يتعلق بكل سبب ، ويتشبث بكل ما وجدته في كلامه .

وأما إخباره عن اليهود أنها قالت : ﴿ يد الله مغلولة ﴾ ، فلم يذهب إلى أن اليهود ترى أن ساعده مشدودة إلى عنقه بغل . وكيف يذهب إلى هذا ذاهب ، ويدين به دائن ؟ لأنه لا بد أن يكون يذهب إلى أنه غل نفسه أو غله غيره ، وأبيها كان ، فإنه منفي عن وهم كل بالغ يحتمل التكليف ، وعاقل يحتمل الثقيف ، ولكن اليهود قوم جبرية ، والجبرية تبخل الله مرة ، وتظلمه مرة ، وإن لم تقر بلسانها وتشهد على إقرارها ، بقولهم : ﴿ يد الله مغلولة ﴾ يمنون به وإحسانه . وقولهم : مغلولة ، لا [يعني] أن غيره حبسه ومنعه ، ولكن إذا كان عندهم أنه الذي منع أياديه ، وحبس نعمه ، فهي محبوسة بحبسه ، ومنوعة بمنعه .

والذي يدل على أنهم أرادوا باليدين النعمة والإفضال ، دون الساعد

والذراع ، جواب كلامهم حين قال : ﴿ هل يبداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ﴾
دليلاً على ما قلنا ، وشاهداً على ما وصفنا .

فإن قالوا : فكيف لم نقل إن اليهود بخلت الله وجحدت إحسانه ، دون أن
يقال إن يد الله مغلولة ؟

قلنا : إن أراد الله الإخبار عن كفر قوم وسخط عليهم ، فليس لهم عليه
أن يعبر عن دينهم وعبوديتهم بأحسن المخارج ، ويحليها بأحسن الألفاظ . وكيف
وهو يريد التنفير عن قولهم ، وأن يبغضهم إلى من سمع ذلك عنهم .

ولو أراد الله تعالى تليين الأمر وتصغيره وتسهيله ، لقال قولاً غير هذا .
وكل صدق جائز في الكلام . فهذا مجاز مسألته في اللغة ، وهو معروف عند
أهل البيان والفصاحة .

[٢٨ - الرد على النصارى حول نبوة عزير]

وأما قولهم : إن اليهود لا تقول إن عزيراً ابن الله . فإن اليهود في ذلك على
قولين : أحدهما خاص ، والآخر عام في جماعتهم .

فأما الخاص ، فإن ناساً منهم لما رأوا عزيراً أعاد عليهم التوراة من تلقاء
نفسه ، بعد دروسها وشتات أمرها خلوا فيه ، وقالوا ذلك ، وهو مشهور من
أمرهم . وإن فريقاً من بقاياهم لباليمن والشام ودخل بلاد الروم . وهؤلاء بأعيانهم
يقولون : إن إسرائيل الله ابنه ، وإذا كان ذلك على خلاف تناسب الناس ،
وصار ذلك الاسم لعزير بالطاعة والعلامة ، والمرتبة لأنه من ولد إسرائيل .

والقول الذي هو عام فيهم ، أن كل يهودي ولده إسرائيل ، فهو ابن
الله ، إذ لم يجدوا ابن ابن قط إلا وهو ابن .

[٢٩ - الرد على النصارى حول كون المسيح روح الله]

فصل منه : فإن قالوا : ليس المسيح روح الله وكلمته ، كما قال عز ذكره :

﴿ وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ أو ليس قد أخبر عن نفسه حين ذكر أمه أنه نفخ فيها من روحه ؟ أو ليس مع ذلك قد أخبر عن حصانة فرجها وطهارتها ؟ أو ليس مع ذلك قد أخبر أنه لا أب له ، وأنه كان خالقاً ، إذ كان يخلق من العطين كهيشة الطير ، فيكون حياً طائراً ؟ فأي شيء بقي من الدلالات على مخالفته لمشاكلة جميع الخلق ، ومباينة جميع البشر ؟

قلنا لهم : إنكم إنما سألتمونا عن كتابنا ، وما يجوز في لغتنا وكلامنا ، ولم تسألونا عما يجوز في لغتكم وكلامكم . ولو أننا جوزنا ما في لغتنا ما لا يجوز ، وقلنا على الله تعالى ما لا نعرف ، كنا بذلك عند الله والسامعين في حد المكائيرين ، وأسوأ حالاً من المنافقين ، وكنا قد أعطيناكم أكثر مما سألتكم ، وجزنا بكم فوق أمنيته .

ولو كنا إذا قلنا : عيسى روح الله وكلمته ، وجب علينا في لغتنا أن يجعله ولداً ، ونجعل مع الله تعالى آلهاً ، ونقول : إن روحاً كانت في الله فانفصلت منه إلى بدن عيسى وبعثن مريم . فكنا إذا قلنا : إن الله سمى جبريل روح الله وروح القدس ، وجب علينا أن نقول فيه ما يقولون في عيسى . وقد علمتم أن ذلك ليس في ديننا ، ولا يجوز ذلك بوجه من الوجوه عندنا ، فكيف نظهر للناس قولاً لا نقوله ، وديناً لا نرتضيه .

ولو كان قوله جل ذكره : ﴿ فنفخنا فيه من روحنا ﴾ يوجب نفخاً كنفخ الزق ، أو كنفخ الصائغ في المنضاج ، وأن بعض الروح التي كانت فيه انفصلت فاصلة إلى بطنه وبعثن أمه ، لكان قوله في آدم يوجب له ذلك ، لأنه قال : ﴿ وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله ﴾ . . . إلى قوله : ﴿ ونفخ فيه من روحه ﴾ وكذلك قوله : ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ .

والنفخ يكون من وجوه ، والروح يكون من وجوه :

فمنها ما أضافه إلى نفسه ، ومنها ما لم يضيفه إلى نفسه . وإنما يكون ذلك على

قدر ما عظم من الأمور ، فما سمي روحاً وأضافه الى نفسه ، جبريل الروح الأمين ، وعيسى بن مريم . والتوفيق كقول موسى حين قال : إن بني فلان أجابوا فلاناً النبي ولم يجيبوك . فقال له : « إن روح الله مع كل أحد » .

وأما القرآن فإن الله سماه روحاً ، وجعله يقيم للناس مصالحهم في دنياهم وأبدانهم ، فلما اشتبهوا من هذا الوجه ألزماه اسمها فقال لنبيه ﷺ : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ وقال : ﴿ تنزل الملائكة والروح ﴾ .

[٣٠ - خلاف النصارى حول طبيعة المسيح وميلهم الى التشبيه]

لفصل منه : قد جعلنا في جواباتهم وقدمنا مسائلهم ، بما لم يكونوا ليبلغوه لأنفسهم ، ليكون الدليل تاماً ، والجواب جامعاً ، وليعلم من قرأ هذا الكتاب ، وتدبر هذا الجواب ، أننا لم نغتنم عجزهم ، ولم ننتهز غرمتهم ، وأن الإدلال بالحجة ، والثقة بالفالج والنصرة ، هو الذي دعانا الى أن نخبر عنهم بما ليس عندهم ، وألا نقول في مسألتهم بمعنى لم يتببه له منتبه ، أو يشر إليه مشير ، وألا يوردوا فيما يستقبلون ، على ضعفائنا ومن قصر نظره منا ، شيئاً إلا والجواب قد سلف فيه ، وألستهم قد مدلت به .

وسنسالهم إن شاء الله ، ونجيب عنهم ، ونستقصي لهم في جواباتهم ، كما سألناهم أنفسنا ، واستقصينا لهم في مسائلهم .

فيقال لهم : هل يخلو المسيح أن يكون إنساناً بلا إله ، أو إنهما بلا إنسان ؟ أو أن يكون إلهاً وإنساناً ؟

فإن زعموا أنه كان إنهما بلا إنسان ، قلنا لهم : فهو الذي كان صغيراً فشب والتحق ، والذي كان يأكل ويشرب ، وينجو ويبول ، وقتل بزعمكم وصلب ، وولده مريم وأرضعته ، أم غيره هو الذي كان يأكل ويشرب على ما وصفنا ؟ فأى شيء معنى الإنسان إلا ما وصفنا وعدنا ؟

وكيف يكون آلهاً بلا إنسان ، وهو الموصوف بجميع صفات الإنسان . وليس
القول في غيره عن صفته كصفته إلا كالقول فيه كاشتمالها على غيره ؟

وإن زعموا أنه لم ينقلب عن الإنسانية ولم يتحول عن جوهر البشرية ، ولكن
لما كان اللاهوت فيه ، صار خالقاً وسمي إلهاً . قلنا لهم : خبرونا عن اللاهوت .
أكان فيه وفي غيره ، أم كان فيه دون غيره ؟

فإن زعموا أنه كان فيه وفي غيره ، فليس هو أولى بأن يكون خالقاً ويتسمى
إلهاً من غيره . وإن كان فيه دون غيره ، فقد صار اللاهوت جسماً .

وسنقول في الكسر عليهم إذا صرنا إلى القول في التشبيه ، وهو قول
معظمهم ، والذي كان عليه جماعتهم ، إلا من خالفهم من متكلميهم
ومتفلسفيهم ، فإنهم يقولون بالتشبيه والتجسيم ، فراراً من كثرة الشناعة ، وعجزاً
عن الجواب . وكفى بالتشبيه قبحاً ، وهو قول يعم اليهود وإخوانهم من الرافضة ،
وشياطينهم من المشبهة والحشوية والناطقة ، وهو بعد متفرق في الناس . والله
تعالى المستعان .

مركز تحقيقات كميونر علوم اسلامی

هامش كتاب الرد على النصارى

- (١) يذكر الجاحظ بعض مبادئ المعتزلة وهي التوحيد او نفي التشبيه ، والعدل الذي يستتبع حرية الانسان ، والاقرار بالرسول والكتب المنزلة .
- (٢) موضوع الكتاب هو المسائل التي اثارها النصارى والجاحظ يزعم ان شخصاً ارسل اليه كتاباً يسأله فيه الرد على تلك المسائل . ونعتقد ان ذلك الشخص وهي ، وان الجاحظ يفترض وجوده او يتوهمه هل عادته في كتبه للفت الانتباه وليكون اسلوبه خطيباً .
- (٣) الطعن في القرآن من قبل النصارى يقوم على دليل يتلخص في تضمنه معلومات عن النصارى غير صحيحة ولا عهد لهم بها . مثل اعتقاد النصارى بان مريم امة .
- (٤) اليهود لا يعتقدون ان عزيراً هو ابن الله على خلاف ما ورد في القرآن والدليل هو انهم جحدوه من دينهم .
- (٥) اتهام النبي بانه اخذ علمه الذي اودعه القرآن عن غير الثقات . وهذا يعني ان النصارى لا يؤمنون بالوحي كمصدر للقرآن ، ويقولون ان القرآن من صنع محمد . والشاهد الذي اقر به النصارى هو ما ورد في القرآن من ان لرهون طلب من هامان ان يبني له صرحاً . وهذا لا يتفق مع الحقيقة التاريخية ، لأن لرهون لم يمش في زمن هامان . ولم يرد في كتاب الجاحظ او فيها انتهى اليقظة رد على هذه المسألة .
- (٦) النصارى لا يجارون القرآن في قوله ان يحيى بن زكريا لم يكن له سمي من قبل . وان كتبهم تذكر عدة اشخاص يحملون هذا الاسم . ولن نجد للجاحظ رداً على هذه المسألة .
- (٧) النصارى لا يقررون القرآن في قوله ان الله لم يرسل انبياء الا من الرجال . ويقولون انه ارسل عدداً من النساء مثل مريم بنت عمران ، وحنة وسارة ورفقى . وقد وردت اخبارهن في التوراة والانجيل . وسارة هي امرأة ابراهيم ، ورفقى هي امرأة اسحاق .
- (٨) النصارى لا يعرفون ان عيسى تكلم في المهدي كما ورد في القرآن . وكذلك لا يعرفه المجوس (اتباع زرادشت) والصابئون (عبدة النجوم في حران) . ويورد الجاحظ عدداً من الاعاجيب التي يؤمن بها النصارى وينسبونها الى المسيح كاحياء الموت والمشي على الماء ، والقامة المقعد ،

وابراء الأعمى والأكمه .

(٩) خطة الجاحظ في الرد على النصارى هي : (١) القول في جميع ما ورد من مسائلهم . (٢) وفيما لم يقع في مسائلهم . (٣) ثم يسألهم بعد جوابه إياهم عن وجوه يعرفون بها انتقاص قولهم وانتشار مذهبهم ، وتهافت دينهم . وهذه الردود تدعمها الشواهد الظاهرة ، والحجج القوية ، والأدلة الاضطرارية مع الابتعاد عن التكلف او انشغال ما لا يحسن . وهو يقوم بهذا العمل في سبيل نصره الدين الاسلامي .

ولم يف الجاحظ بكل ما وعد به . لم يرد على جميع المسائل كما ذكرنا ، وهو لم يتقيد بأحد المبادئ التي اعلنها في مطلع الكتاب ، وهي الاقرار بالكتب الدينية التي ورد ذكرها في القرآن . فهو يشك في صحة الاناجيل الاربعة التي يقدسها المسيحيون ويسمي دينهم بالتهافت .

(١٠) يعالج الجاحظ موضوعاً جانبياً الى جانب الموضوع الاساسي اي مسائل النصارى والرد عليها ، هو الاسباب التي جعلت النصارى اقرب الى المسلمين من اليهود والمجوس وغيرهم . ويعتمد الجاحظ على المعارف التاريخية والطبيعية . مما يجعل بحثه ذا قيمة رفيعة .

(١١) المدينة المنورة أو يثرب التي هاجر اليها النبي كانت موطناً لبعض قبائل اليهود . وقد نظر هؤلاء الى المسلمين نظرة ريبة ، ولم يلبثوا ان اصطدموا بهم وتواصلت العداوة منذ فجر الاسلام بين اتباع الديانتين . وتعليل الجاحظ لهذه العداوة غير كاف : ان سبها بنظره الجوار ، بينما سبها الحقيقي اختلاف العقيدة الدينية .

(١٢) يشير الجاحظ الى سبب آخر حجب النصارى الى المسلمين هو ايواء الاحباش النصارى لمهاجري الاسلام عندما اشتدت عليهم وطأة المشركين ، وهذا امر طبيعي لان الانسان يحب من يسدي اليه معروفاً او يصطنع اليه خيراً .

(١٣) من أقوى أسباب المودة بين المسلمين والنصارى الآية القرآنية ﴿ لتجدن لأشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين اشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ﴾ . وموقف الجاحظ من هذه الآية ليس صائباً . فهو يزعم ان النصارى الذين ورد ذكرهم في الآية هم اتباع بحيرا (الراهب الذي التقاه النبي في الشام قبل بعثته) وليسوا نصارى الملكانية واليعقوبية (انقسم النصارى اثر مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ م ثلاث فرق : الملكانية اتباع ملك الروم القائلون بالطبيعة البشرية للمسيح ، واليعقوبية اتباع مار يعقوب البرذهاني القائلون بالطبيعة الإلهية للمسيح ، والنسطورية اتباع ما نسطوروس القائلون بالتحاد الطبيعتين الإلهية والبشرية في المسيح) .

(١٤) يجعل الجاحظ اعتناق ملوك الغساسنة والمناذرة للنصرانية قبل الاسلام من أسباب التقارب بين

ابناء الديانتين . والسبب بنظره هو أن تعظيم العرب لملوكهم انسحب على تعظيم دينهم وكان المناصرة يحكمون العراق ومركزهم الحيرة في العراق ، وكان الفساسنة يحكمون سوريا وعاصمتهم دمشق .

(١٥) يشير الجاحظ الى الحركة التجارية قبل الاسلام التي اضطلع بها العرب بين الشمال في الشام والجنوب في اليمن والحبشة . ويستند على ما جاء في القرآن حول هذا الموضوع ، ولبته توسع فيه . ويذكر ان العلاقات التجارية كانت ضعيفة بين العرب والفرس لأن كسرى لم يأنس بالعرب على عكس نجاشي الحبشة ولبصر الروم النصرانيين اللذين حبروا العرب بالجزيل وعرفا أقدارهم على حد تعبير الجاحظ .

(١٦) يقدم الجاحظ معلومات قيمة عن انتشار النصرانية بين العرب في العصر الجاهلي ، فيذكر القبائل التي تسربت اليها المسيحية والقبائل التي ظلت في منأى عنها . او كان اثر اليهودية اضعف واقتصرت على بعض القبائل والاماكن المحصورة .

(١٧) تقدير المسلمين لعلوم النصارى ، كان النصارى متفلسفين واطباء ومنجمين على عكس اليهود . والسبب في نظر الجاحظ هو ان اليهود ترى في النظر الى الفلسفة كفسراً والكلام في الدين بدعة ، ومحصيل الطب والتنجيم زندقة . ولكن الجاحظ لا يوافق عامة المسلمين على تقدير النصارى باعتبارهم أهل علم وفلسفة لأنهم اخذوا علمهم وفلسفتهم عن اليونان الذين لم يكونوا مسيحيين امثال الفلاطون وأرسطو وبقرات .

(١٨) يعكس كتاب الجاحظ المكانة الاجتماعية الرفيعة التي تسواها النصارى في عصره مما تسترعي الانتباه ويناقض المعلومات التي اشارت الى تدني منزلتهم واحتقارهم والتضييق عليهم . لقد كان منهم الكتاب والاطباء والمطارون والصيارفة . في حين تدنت منزلة اليهود ومهتهم . وكان النصارى احسن خلقاً وانظف ثوباً من اليهود . وتجدد الانتباه الى ملاحظة الجاحظ حول تعليل ذلك . فاليهود لا يتزاورجون الا فيما بينهم على عكس النصارى ، وهذا يؤدي الى الانفلاق والمساخة بينهم .

(١٩) يشير الجاحظ الى تمتع النصارى بالحرية والمساواة مع المسلمين وإلى حياة العز والكرامة التي توافرت لهم . لقد ركبوا الخيول وتحلوا الحرس والحدم ، وارتدوا الثياب الفاخرة وتسموا باسماء المسلمين ولم يناموا على ضيم .

ويشير الجاحظ الى عقد الذمة الذي أبرمه المسلمون مع المسيحيين لصيانة حقوقهم وإلى احترام المسلمين لنبوده والتوسع فيها حتى استحال الى امتيازات لهم .

(٢٠) يتهم الجاحظ النصارى بنشر الزندقة بين المسلمين بترويج كتب المنانية والديصانية والمرقونية وهي ثلاثة مذاهب مجوسية تنسب الى مؤسسها ماني وديصان ومرقون وجميعها تقول باصليين للعالم هما النور والظلمة ويختلف في كيفية امتزاجهما . وقد ظهرت هذه المذاهب بعد مؤسس

المجوسية زرادشت الذي عاش في القرن السادس قبل الميلاد وقبل ظهور الاسلام .

(٢١) وينبغي التساؤل عن السبب الذي دفع النصارى الى نشر مذاهب الزنادقة بين المسلمين على الرغم من انها تخالف دينهم . ولكن الجاحظ يجيب على التساؤل بقوله ان بين دين الزنادقة ودين النصارى نسباً ويمثل هذا الاتفاق او النسب بين المسيحية والزنادقة في نظر الجاحظ بما يلي : الدعوة الى الصبح او التسامح ، ذكر السياحة ، الرغبة في اكل الحبوب وعن اكل اللحوم ، التزهيد في النكاح ، الرهبة وتعظيم رؤساء الدين . وواضح ان الجاحظ يهمل الفرق الكبير بين جوهر المسيحية والمجوسية ، ويولي اهمية للتقاليد .

(٢٢) الخصاص الذي شاع في العصر العباسي وبعده يردده الجاحظ الى نصارى الروم والخبشة فهم مصدره وهنهم اخذه الآخرون . وكان ينبغي على الجاحظ ان يتعمق في أسبابه الاجتماعية . وقد توسع في طرقه وانعكاساته النفسية والاجتماعية في كتاب الحيوان ، ووقف منه موقفاً انسانياً رائعاً وبين مساوئه . ولكن حكمه بأن النصارى هم اصحاب الخصاص من بين جميع الأمم لا تليده المصادر التاريخية ، لأنه عرف عند معظم الأمم ، ولم ينحصر في النصارى .

(٢٣) يصدر الجاحظ احكاماً تتسم بالتعصب وتنصب على امور تافهة لا تتعلق بجوهر العقيدة الدينية مثل عدم الاختسال من الجنابة واكل لحم الخنزير وجماعة الرجل زوجته في الطمث .

(٢٤) اختلاف النصارى حول طبيعة المسيح والفرقهم الى مذاهب كثيرة كالملكانية واليعقوبية والنسطورية بحيث يصعب علينا معرفة حقيقة النصرانية .

وتجدر الاشارة الى قول الجاحظ ان النصارى يزعمون ان الدين لا يخضع للقياس المنطقي ، ويقوم على التسليم بما في الكتب والتقليد للاسلاف ، وهذا لا يتفق مع وصفهم فيها سبق من الكتاب بالاهتمام بالفلسفة والعلوم والكلام .

(٢٥) مسألة كلام عيسى في المهد التي ورد ذكرها في القرآن وخلت منها الاناجيل يحملها الجاحظ بقوله ان كتاب الاناجيل الاربعة نبيوا أن يذكروها . ويسترعي انتباهنا موقف اليهود من المسيح الذين ينكرون جميع احاجيه ، ولا يرون فيه سوى ساحر ومتطبب وصياد سمك مختال .

- كما ينبغي التوقف عند شك الجاحظ بالاناجيل ، والاشارة الى ما فيها من اختلاف وتضاد .

(٢٦) مسألة نبوة المسيح المتمثل بقول النصارى : المسيح هو ابن الله يرفضها الجاحظ سواء قصدوا بها التعبير عن محبة الله اياه او حسن تربيته او لطف منزلته ، او قصدوا بها تعليل كونه لم يولد من ذكر ، كما يرفض تفسير بعض المتكلمين المسلمين ومنهم النظام تفسير ما ورد في القرآن من ان ابراهيم هو خليل الرحمن بمعنى صاحبه ، لان ذلك يؤدي الى ايجاد علاقة شبه بين الله والانسان وهذا يقود الى التشبيه ، والتشبيه ينقض مبدأ التوحيد الذي تمسكت به المعتزلة ودالمت عنه واعتبرته اساس الدين .

(٢٧) مسألة فسر الله التي ينكرها اليهود يحملها الجاحظ بسوء فهم الآية القرآنية من قبل اليهود .
فالآية " تعني ان الله فقير او يده مفلولة بل تعني ان من يحسن الى الفقير كأنه أقرض الله ،
والله سبحانه اليه ما انفق هل المحتاجون . ويحمل الجاحظ المفسرين تبعاً للاخطاء الكثيرة التي
يرتكبونها في تفسيرهم .

(٢٨) مسألة نبوة هزير يؤكدها الجاحظ على الرغم من إنكار اليهود ايهاا بقوله ان فرهاً من اليهود
يقولون ان هزيراً هو ابن الله ويوجد بعضهم في اليمن والشام وبلاد الروم ويحيط الجاحظ
اللائم عن شخصية هزير هذا فيقول انه ظهر في زمن متأخر عن مجيء موسى بالتوراة ، فوجد
ان التوراة ضاعت او درست ، فجمعها واحياها واهادها الى اليهود ، فمظموا امره وجعلوه ابن
الله تكريماً له .

(٢٩) مسألة كون عيسى روح الله وكلمته كما ورد في القرآن (النساء ، ١٧١) التي ينكرها
النصارى ، ولكنهم يقولون انها تلزم المسلمين تأييد النصارى في قولهم انه الله او ابن الله .
ويحمل الجاحظ المسألة بتفسير الروح لا بمعنى النفس او الذات ، او ان قسماً من روح الله
انفصل عنه وحل في بطن مريم ولكن بمعنى العقل هل نحو ما جاء في الآية : ﴿ وكذلك
اوحينا اليك روحاً من امرنا ﴾ يعني القرآن .

(٣٠) يكرر الجاحظ مسألة خلاف النصارى حول طبيعة المسيح ويناقش قول بعضهم بالسوية
المسيح ، وقول آخرين باجتماع الطبيعتين الإلهية والبشرية فيه .
ويهي باتهم النصارى بالقول بالتشبيه ، واستنكار هذا القول ، مع الإشارة الى ان هذا المذهب
في التشبيه لم يقتصر على النصارى ، بل فشا بين مذاهب المسلمين كالشيعة والحشوية ، كما
عم اليهود .

٥

فهرس الأعلام والفرق والأماكن

- أ
- آدم : ١٢٧ ، ١٦٩ ، ٢٥٤ .
 ابن أبي العوجاء : ١٤٦
 ابننا عفراء : ١٦٥
 ابن بفض : ١٩٧
 ابن لسان الحمراء : ٩٣
 إبراهيم : ٢٥٢ ، ٢٥١ ، ٢٢٦
 إبراهيم السندي : ٩٦
 أبوبكر : ١٦٩ ، ١٦٤ ، ١٢٩ ،
 ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٢ ،
 ١٩٩ ، ٢١٧ .
 أبو جهل بن هشام : ١٩٨
 أبو دجانة : ١٦٥
 أبو الرداء : ١٦٥ ، ١٩٢ .
 أبو ذر : ١٦٥ .
 أبو سفیان : ٢١٩
- أبو هبنة : ١٦٧
 أبو كلبة : ١٥٣
 أبو الهذيل : ٨٣
 أبي بن كعب : ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٦٥
 أرسطو : ٢٣٦
 أحد : ١٠٣
 أحمد بن أبي داود : ١٥٦ ، ١٥٧
 الأخطل : ٦٩ ، ٧٠ .
 الأزرقى : ٥٩
 أسامة : ١٦٩ ، ١٩٦
 اسحق بن طالتوت : ١٤٦
 الأسدي : ٢٠٠
 إسرائيل : ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٦٩ .
 الاسكندر : ٢٤٦ ، ٢٤٩
 إسلام : ١٤٢ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ،

البكرية : ١٦٠
 بلال : ١٦٥
 بلال بن رباح : ١٩٩
 بولس : ١٣٣

ت

الترك : ٢٤٤
 تركية : ٦٩
 تغلب : ٢٣٦
 تهامة : ٢٣٤
 التوراة : ١٤٣
 تيماء : ٢٣٦

ث

أفلاطون : ٢٣٦
 أقليدس : ٢٣٦
 أكراد : ١٤٢
 امرؤ القيس : ٢٠١
 أمية : ١٢٣
 انجيل : ١٤٣
 الاندلس : ١١٣
 الأنصار : ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٢ ، ٢٣٣ ، ١٦٧
 أوس : ١٧٥
 أياد : ٢٣٤

مركز تحقيق وتصوير علوم جامعة كركوك ١٥٣

ب

ج

باهلة : ٩٤
 بشينة : ٦٥
 البحرين : ١٣٠ ، ١٣١
 بددة : ١٣٢
 بدد : ١٠٣
 البراء بن مالك : ١٦٥
 بشر بن المعتمر : ١٠٥
 البصرة : ١٣١
 بطليموس : ٢٣٦
 بقراط : ٢٣٦
 بكر : ٢٣٤
 بكر بن عبد الله المزني : ١٩١

جالينوس : ٢٣٤
 الجبرية : ٥٤ ، ١٦٠ ، ٢٥٥
 جبريل : ١٦٩ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨
 الجرادتان : ٧١
 جرير : ٦٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣
 جعفر الطيار : ١٦٩ ، ١٧٦
 الجماعة : ٥٤ ، ١٢٤
 الجمل : ١٣٦ ، ٢١٧
 جميل (بشينة) : ٦٥ ، ٦٦

الخوارج : ٥٩ ، ١٢٤ ، ١٤٢ ،
١٥٩ .

د

داود : ١٦٩ ، ٢٤٦ ، ٢٥٣

دغفل بن حنظلة : ٩٢

دقاق : ٧٠

الدمرية : ١٣٢ ، ١٤٨ ، ٢٣٦ ،
٢٣٧ .

الديصانية : ٢٤٠

دمقراط : ٢٣٦ .

الديلم : ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

ذ

ذو الجدين : ٢٣٦

ر

مرکز تحقیقات کتب و اسناد

الرافضة : ٥٤ ، ٥٩ ، ١٢٤ ، ١٣٤ ،

١٥٣ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ،

١٦٠ ، ٢٥٩ .

ربيعة : ٢٣٦ .

رفقى : ٢٢٩ .

الروم : ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٥٦ .

ز

الزابوقة : ٢٠٩

ح

الحارث بن كعب : ٢٣٥

حباة : ٧١

الحبشة : ١٠٣

حبشية : ٨٣

الحجاج : ٦٩ ، ٩٣

حجر بن عدي : ٢١٩

حديثي : ١٥٣

الحسن بن رباح : ٦٢

الحسن بن علي : ٦٧ ، ٦٨ ، ٢١٧

حشوي : ١٥٣

حشوية : ٦٨ ، ١٥٣ ، ٢٥٩

حفصة ابنة عبد الرحمن : ٦٧

الحكم بن مروان : ٧١

حدونة أم نصر : ٧٠

حزة : ١٣٩ ، ١٧٦

حنة : ٢٣١ .

حير : ٢٣٦ .

خ

خالد بن يزيد : ١٩٧

خالصة : ٧٠

خاقان بن حامد : ٦٢

خباب : ١٦٤

الخرومي : ١٨٨

الخزرج : ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

الخزرج : ١٧٥

الخنلق : ١٠٣ .

ش

- الشام : ١٢٩ ، ١٤٣ ، ٢٣٣ ، ٢٥٦
شبيب بن شيبه : ١٨٨ ، ١٩٤ .
الشعبي : ٦٨ .
الشعوية : ٢٢٥ .
شعيب : ٢٤٦ .
الشمرية : ١٦٠ .
شمعون الصفا : ٢٤٨ .
شبرويه : ١٤٢ .
الشيعة : ٥٩ ، ١٢٤ ، ١٦٤ .

ص

- الصابثون : ٢٣١ ، ٢٤٣ .
صالح : ٢٤٦ ، ٢٥٢ .
صفيين : ١٣٦ ، ٢١٧ .
الصين : ١٠٣ .

ض

- ضباة بن صمصمة : ٦٦

ط

- الطائف : ٢٣٥ .
طالوت : ١٦٩ .
طلحة : ١٢٣ ، ١٦٥ .
طي : ٢٣٣ .
طليحة : ١٦٧ ، ١٨٢ .

الزبيري : ٢٠٩

- الزبور : ١٤٣ ، ٢٤٩ .
الزبير : ١٢٣ ، ١٨٢ .
زرادشت : ١٣٣ ، ٢٤٤ .
الزندقة : ١٣٢ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ،
٢٣٦ ، ٢٤٣ ، ١٣٧ ، ٢٤١ .
الزهري : ١٩٩ .
زهير بن أبي سلمى : ٢٥٢ .
ذوزرى : ٢٤٨ .
زياد الأعجم : ١٩٧ .
زيد : ١٢١ ، ١٢ ، ١٢٣ .
زيد بن ثابت : ١٦٥ .
زيد بن حارثة : ١٦٥ ، ١٦٩ .
الزيدية : ١٦٤ ، ١٦٧ .

س

- سارة : ٢٣١ .
سعد بن أبي وقاص : ١٢٣ ، ١٦٩ ،
١٩٢ .
سعد بن عباد : ١٧٥ ، ١٧٦ .
سعيد بن نفيل : ١٦٩ .
سكر : ٧٠ .
سلامة : ٧١ .
سليمان بن داود : ٧٣ ، ٢٤٨ .
سمية : ٢١٩ .
السندي : ٢٠٠ .
السني : ٥٤ .
سيف بن ذي يزن : ١٤٢ .

ظ

ظلم : ٧٠

ع

عائشة : ١٨٢

عائشة ابنة طلحة : ٦٨

عاتكة ابنة نفيل : ٦٧

عاصم بن عمر بن الخطاب : ٦٧

عبس : ٩٤

العباس : ١٦٩

عبد الله بن أبي بكر : ٦٧

عبد الله بن أيوب : ٦٢

عبد الله بن جدعان : ٦٦ ، ٧١

عبد الله بن جعفر الطيار : ٧١

عبد الله بن خالد الزبيدي : ٦٢

عبد الله بن الزبير : ٦٧ ، ١٢٩

عبد الله بن العباس : ١٩٩

عبد الله بن عجلان : ٦٦

عبد الله بن مسعود : ١٢١ ، ١٢٢

١٢٣ ، ١٦٥

عبد الحميد : ١٥٣

عبد الرحمن بن عوف : ١٢٣

عبد القيس : ٢٣٦

عبد الملك بن صالح : ٩٦

عبد الملك بن قريش : ١٩٢

عبد الملك بن مروان : ٦٩ ، ٩٤

عبد مناف (بنو) : ١٦٦

عبد الله بن زياد : ١٧٦

عبيدة بن الجراح : ١٧٦

عتاب بن أسيد : ١٩٧

عثمان (بن عفان) : ١٢٣ ، ١٨٢

١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢١٧

عثمان بن مظعون : ١٦٥ ، ١٩٩

العجم : ٢٢٥

المغرب : ١٤٤ ، ١٦٦ ، ١٧٥

٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٢٥

٢٣٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧

٢٥٠

العراق : ١٤

هريرة : ٦٦

هريرة بن الزبير : ٩٠

هزة : ٦٦

هزير : ٢٣٠ ، ٢٤٨ ، ٢٥٤

علي بن أبي طالب : ٦٧ ، ١٢٣

١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٦٤

علي بن الحسين : ١٦٥ ، ١٦٧

١٨٢ ، ١٨٧ ، ١٩٢ ، ٢١٩ ، ٢١

عفراء : ٦٦

عكاشة بن محصن : ٩٢

عمارة : ١٦٥

عمران بن حدير : ١٩٢

عمر بن الخطاب : ٦٧ ، ١٦٥

١٦٧ ، ١٦٩

١٧٥ ، ١٧٦

١٨٢ ، ١٩٢

ف

، ٢١٧، ١٩٩

فاخته بن قرطة : ٦٨

. ٢٥٢

الفجار : ١٣٥ .

عمر بن عبد العزيز : ٧١ ، ١٨٧ .

الفرزدق : ٦٩ ، ١٩٧ .

عمرو بن سعيد : ١٩٨ .

الفرس : ١٤٢ ، ٢٠١ ، ٢٢٠ .

عمرو بن العاص : ٢٠٧ .

فرعون : ١٤٧ ، ٢٣٠ .

عمرو بن عبيد : ١٥٩ .

فرغانة : ١٠٣ .

عمرو بن ود : ١٣٤ ، ١٣٥ .

الفضلية : ١٦٠ .

العمرية : ١٢٤ .

الفلانية : ٢٤٠ .

عنبر بن سعيد : ٩٣ .

فيروز الديلمي : ١٤٢ .

عترة : ٢٠٠ .

الفيل : ١٣٥ .

عيسى بن مريم : ١٢٧ ، ١٣٠ .

ق

، ١٣٤ ، ١٣٣

، ١٣٦ ، ١٣٥

القادسية : ١٩٢

، ١٤٧ ، ١٣٧

القبط : ١٤٣

، ١٩٨ ، ١٩٦

قحطان : ١٢٢

، ٢٣١ ، ٢٢٩

قريش : ١٤٣ ، ١٦٦ ، ١٧٥ ، ٢٢٣

، ٢٤٤ ، ٢٤٣

قسامة بن زهير : ١٩٢

، ٢٥٧ ، ٢٤٨

قسطنطينة : ٧٠

. ٢٥٨

قضاة : ٢٣٥

قيدار بن اسماعيل : ٢٤٩

غ

قيس : ٦٦

الغالي : ٥٩

قيصر : ٢٣٥ .

غسان : ٢٣٤ ، ٢٣٥ .

ك

خطمان : ٩٤ .

كثير : ٦٩ .

الغنوي : ٢٠٠

- كسرى : ١٤٢ ، ٢٣٥
الكلام (صناعة) : ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ،
٥٨ ، ٥٩ ، ١٢٠ .
الكلام (متكلم) : ٥٤ ، ٥٨ ، ٥٩ ،
٩٩ ، ١٥٢ .
الكميت بن زيد : ١٩٧ .
الكوفة : ١٣١ .
- ل
- لاهازار : ٢٤٤
لبنى : ٦٦
لحمي : ٢٣٢ ، ٢٣٣
لوقش : ٢٤٤ ، ٢٤٥ .
- م
- مؤتة : ١٦٩
المأمون : ٧٠
مارقش : ٢٤٤ ، ٢٤٨ .
المارقة : ٥٤ .
المانوية : ١٣٣ .
مق : ٢٤٤ .
مجنون ليل : ٨١ .
المجوس : ١٢٠ ، ١٣٢ ، ٢٣١ ،
٢٤٣ ، ٢٤٤ .
محمد بن حماد : ٦٢ .
محمد بن خالد : ٦٢ .
محمد بن سلمة : ١٦٥
محمد بن القاسم : ١٩٧ .
- محمد بن هارون كبة : ٦٢
المدمية : ٢٢٠
المرجفة : ٥٤ ، ٥٩ ، ١٢٤
مرقش : ٦٦
المرقونية : ٢٤٠
مروم : ٢٥٣ ، ٢٥٧ .
مريم بنت عمران : ٢٣١ .
المسيح : ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ،
٢٥٣ ، ٢٥٨
مسيلمة : ١٦٧ .
المشبهة : ٥٤ ، ١٣٤ ، ١٨٩ ، ٢٠٧ ،
٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢٥٩ .
مضر : ٢١٩
مصعب بن الزبير : ٦٨
المطلب بن أبي وداعة : ٦٦
المطيين : ١٣٥
معاذ بن جبل : ١٦٥ ، ١٩٦ .
معاوية (بن أبي سفيان) : ٦٨ ، ٦٩ ،
١٢٩ ، ٢١٧ .
المتزلة : ٥٤ ، ٥٩ ، ١٦٠ ، ١٢٤ ،
٢٥٠ .
المتصم : ١٥٦ ، ٢٠٢ .
معد بن عدنان : ١٢٢ .
مكة : ١٩٧ ، ٢٢٠ ، ٢٥٢ .
الملكانية : ٢٣٤ ، ٢٤٢ .
المنانية : ٢٤٠ .
المنذر بن الزبير : ٦٧ .
المنصورة (أهل) : ١٣٠ ، ١٣١ .

المهلب : ١٩٤ .

المهاجرون : ١٨٢ ، ٢٠٢ .

الموالي : ٢٢٥ .

موسى : ١٣٧ ، ١٤٧ ، ٢٤٤ ، ٢٥٢ ،
٢٥٣ .

هـ

هامان : ٢٣٠

هشام بن المغيرة المخزومي : ٦٦

هند : ٦٦

الهند : ٢٤٣ ، ٢٤٤

هود : ٢٤٦

ن

نائلة بنت الفرافصة : ٢١٥ .

النابتة : ٥٤ ، ١٥٣ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ،
٢١٠ ، ٢٢٢ ، ٢٥٩ .

النبي (محمد) : ٦٧ ، ٧٢ ، ١٤٣ ،

١٤٤ ، ١٤٧

١٤٨ ، ٢٠٧

٢٢٩ ، ٢٥٣

و

وادي القرى : ٦

واصل بن عطاء : ١٨٧

ورقاء بن زهير : ٩٢

الوليد بن يزيد : ٧٢

ي

يثراب : ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦

يحيى بن زكريا : ١٢٧ ، ٢١٥ ، ٢٢٩

يزيد بن عبد الملك : ٧١

يزيد بن معاوية : ٧١

يزيد بن المهلب : ١٩٧

يعقوب : ٢٤٦ ، ٢٤٨

اليقطينية : ١٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٤١ ،

٢٤٢

اليمامة : ١٦٧

اليمن : ٢٥٦

اليهود : ١٣٢ ، ١٣٤ ، ٢٣٠ ،

٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ،

٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ،

٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ .

النجاحشي : ٢٣٥ .

نجران : ٢٣٥ .

نسطوري : ١٣٠ ، ٢٤١ .

النصارى : ١٢٠ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ،

١٣٤ ، ١٤٣ ، ٢٢٧ ،

٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ،

٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ،

٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ،

٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ،

٢٤٨ ، ٢٥٣ .

النظام : ٥٤ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ،

١٥٣ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ .

النعمان بن المنذر : ١٤٦ .

النهروان : ١٣٦ ، ٢١٧ .

نوح : ١٣٥ .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة عامة	٥
مقدمة كتاب صناعة الكلام	٨
مقدمة كتاب القيان	١١
مقدمة كتاب النساء	١٣
مقدمة كتاب المسائل والجوابات في المعرفة	١٧
مقدمة كتاب حجج النبوة	٢٠
مقدمة كتاب خلق القرآن	٢٣
مقدمة كتاب إستحقاق الإمامة	٢٧
مقدمة كتابي نفي التشبيه، والرد على المشبهة	٣١
مقدمة كتاب النابتة	٣٦
مقدمة كتاب الرد على النصارى	٤٠



الرسائل الكلامية	٤٩
١ - رسالة صناعة الكلام	٥١
١ - رغبة متكلم سني في علم الكلام	٥٣
٢ - فضيلة علم الكلام	٥٣
٣ - آفات علم الكلام	٥٤
٤ - مزاعم اصحاب الرياضة في علم الكلام	٥٧

٥٧	٥ - فضل الكلام على الفتيا
٥٨	٦ - علم الكلام يشتمل على جميع الفرق
٥٩	هامش صناعة الكلام
٦١	٢ - كتاب القيان
٦٣	١ - مقدمة
٦٣	٢ - القضاء العادل
٦٤	٣ - موضوع الكتاب
٦٥	٤ - قانون السببية في الطبيعة
٦٥	٥ - كل ما في العالم مسخر للانسان
٦٥	٦ - كل ما لم يحرمه الشرع محلل
٦٦	٧ - لم يعرف العرب الحجاب
٦٧	٨ - طواف النساء بالكعبة عاريات
٦٨	٩ - عمر بن الخطاب لم يحرم السفور
٦٨	١٠ - الحسن بن علي لم يحرم النظر الى النساء
٦٩	١١ - الحشوية ليسوا على حق في تحريم النظر الى المرأة
٦٩	١٢ - الشعبي لم يحرم النظر الى النساء
٦٩	١٣ - معاوية لم يحرم النظر الى النساء
٧٠	١٤ - اخبار عبد الملك بن مروان وسواه مع الجوارى
٧١	١٥ - موقف المأمون من المرأة
٧١	١٦ - الافراط في الغيرة على المرأة رذيلة
٧١	١٧ - من الخطأ التفريق بين الحرة والجاهلة
٧٢	١٨ - الغناء
٧٣	١٩ - عناصر الغناء
٧٤	٢٠ - الغناء غير محرم
٧٤	٢١ - الحكم الجمالي
٧٥	٢٢ - تحديد الجمال

٧٥	٢٣ - النظر الى المرأة حلال وما سوى ذلك حرام
٧٦	٢٤ - المحكم على الظاهر لا على الباطن
٧٧	٢٥ - الحب والهوى والعشق
٧٨	٢٦ - اللذات التي توفرها القينة
٨٠	٢٧ - القينة لا تخلص الحب
٨٣	٢٨ - أسباب تهتك القيان
٨٤	٢٩ - المقين
٨٧	هامش رسالة القيان
٩١	٣ - كتاب النساء
٩٣	١ - الحب وأنواعه
٩٤	٢ - المرأة أهم موضوعات الحب
٩٥	٣ - المرأة أحب من الغناء
٩٧	٤ - فضل المرأة على الرجل
٩٧	٥ - حب السلطان
٩٧	٦ - حب الزوجة
٩٧	٧ - حب الولد
٩٨	٨ - حب القرابة
٩٩	٩ - الحاجة الطبيعية إلى الرئيس
٩٩	١٠ - المساواة بين الرجل والمرأة
١٠٠	١١ - درجات العشق ودوامه
١٠١	١٢ - فضل الرجل على المرأة
١٠١	١٣ - الإمام أحب من الحرائر
١٠٢	١٤ - صفات المرأة الجميلة
١٠٢	١٥ - عيوب الكتاب
١٠٤	هامش كتاب النساء

- ٤ - المسائل والجوابات في المعرفة ١٠٧
- ١ - رأي بشر بن المعتمر : المعرفة ارادية ١٠٩
- ٢ - جميع العلوم من فعل الانسان وكسبه ١١٠
- ٣ - المعرفة الحسية من فعل الانسان وإرادته ١١٠
- ٤ - معرفة الله من فعل الانسان وليست إرادية ١١١
- ٥ - رأي النظام ١١٢
- ٦ - رأي معمر ١١٢
- ٧ - فساد هذه الآراء ١١٣
- ٨ - الرد على النظام ١١٣
- ٩ - الاستطاعة والحرية ١١٥
- ١٠ - معرفة الله تتم بواسطة الرسل ١١٧
- ١١ - العلم بصدق الرسل اضطراري ١١٧
- ١٢ - تجارب الطفل غير قصدية ١١٨
- ١٣ - البالغ يعرف النبوة ضرورة ١١٩
- هامش المسائل والجوابات في المعرفة ١٢١
- ٥ - كتاب حجج النبوة ١٢٥
- ١ - موضوع الكتاب ١٢٧
- ٢ - معنى الحججة ١٢٨
- ٣ - أسباب إغفال حجج النبوة ١٢٩
- ٤ - ظهور الحجج صرف عن جمعها ١٢٩
- ٥ - صرف الله الأسلاف عن جمع الحجج ليتمتعن الأبناء ١٢٩
- ٦ - الاهتمام بضبط القراءات دون جمع الحجج ١٣٠
- ٧ - ينبغي جمع حجج النبوة كما جمعت القراءات ١٣١
- ٨ - الغرض من جمع الحجج ١٣٣
- ٩ - حاجة الناس الى الأخبار ١٣٤
- ١٠ - العقل وحده لا يكفي في تحليل المعرفة ١٣٥
- ١١ - سبب ارسال الرسل ١٣٦

١٣٧	١٢ - اختلاف طبائع الناس بسبب تنوع المهن
١٣٧	١٣ - سبب الرضا بالأوطان
١٣٨	١٤ - سبب اختلاف الأسماء
١٣٨	١٥ - الانسان مجبر وحر
١٤٠	١٦ - سبب البيم والشراء
١٤٠	١٧ - سبب تنوع الأذواق في الطعام
١٤١	١٨ - سبب عدم تواطؤ الناس الكثيرين على تخرص الخبير الواحد
١٤١	١٩ - تكذيب الخبير لا يعني نفيه
١٤٥	٢٠ - ولع الناس بالأخبار الغربية
١٤٦	٢١ - اعتراض على اعتبار الأخبار حجة
١٤٧	٢٢ - اعتراض آخر : المنجم كالنبي يخبر بالغيب
١٥٠	٢٣ - الدهاء المستجاب حجة على النبوة
١٥٣	٢٤ - عجز العرب عن معارضة القرآن حجة
١٥٦	٢٥ - اجتماع محامد الأخلاق في النبي حجة
١٥٨	هامش حجج النبوة
٢٦٣	٦ - كتاب خلق القرآن
١٦٥	١ - مقدمة
١٦٧	٢ - مقتطفات من رسالة تلقاها الجاحظ
١٦٨	٣ - كتاب نظم القرآن
١٦٨	٤ - الأسباب التي حفزته على تأليف الكتاب
١٦٩	٥ - نقد من يقول أن القرآن مخلوق على المجاز
١٧٠	٦ - محنة خلق القرآن
١٧٣	٧ - الفرق بين خطأ المعتزلة وخطأ النابتة والرافضة
١٧٣	٨ - موقف المحدثين والمعتزلة من العامة
١٧٤	هامش كتاب خلق القرآن
١٧٧	٧ - كتاب استحقاق الامامة
١٧٩	١ - أهم فرق الشيعة

- ٢ - أسس تفضيل علي عند الزيدية ١٧٩
- ٣ - أسباب عدم تولي علي الخلافة عند موت النبي ﷺ ١٨١
- ٤ - حرص علي على وحدة المسلمين ١٨٢
- ٥ - الفرق بين الزيدية والرافضة ١٧٣
- ٦ - الزيدية تميز امامة المفضول مع وجود الأفضل ١٨٤
- ٧ - الحاجة الى الإمام ١٨٤
- ٨ - درجات الامام ١٨٥
- ٩ - نسب الرسول ١٨٦
- ١٠ - آيات الرسول ١٨٦
- ١١ - رأي يقول بتعدد الأئمة ١٨٧
- ١٢ - رأي يقول أن الامامة لا تقوم على الارهاب والوهد ١٨٨
- ١٣ - رأي يقول بوجود اعتماد الناس على أنفسهم ١٨٩
- ١٤ - رأي من يقول أن الامامة وصية ١٨٩
- ١٥ - الغرض من الكتاب وفائدته ١٩٢
- ١٦ - لا بد من إمام يجمع طماع الشر ١٩٤
- ١٧ - يجب أن يكون الامام واحداً ١٩٦
- ١٨ - صفات الإمام ١٩٧
- هامش استحقاق الامامة ١٩٩
- ٨ - رسالة في نفي التشبيه ٢٠٣
- ١ - العامة تقول بالتشبيه ٢٠٥
- ٢ - للعامة متكلمون بوجهونهم ٢٠٦
- ٣ - العامة تسقط شهادة الموحدين ٢٠٦
- ٤ - محنة العامة وقادتهم ٢٠٧
- ٥ - المشبهة يضمنون الأحاديث أو يؤولونها على هواهم ٢٠٧
- ٦ - يجب محاربة المشبهة نصره للمدين ٢٠٨
- ٧ - أهل التشبيه ما زالوا كثيراً ٢٠٨

- ٢٠٨ ٨ - أهل التشبيه يلجأون إلى الجدل عندما
يشسوا من القهر بالعوام والولاة
- ٢٠٩ ٩ - كتاب الرد على المشبهة يبين فساد آرائهم
- ٢٠٩ ١٠ - جاء الكتاب مختصراً لكي لا يمله القراء
- ٢١٠ ١١ - الطلب من أبي الوليد قراءة الكتاب ونشره بين الناس
- ٢١١ ١٢ - يجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- ٢١٣ ١٣ - أسباب توجه الجاحظ إلى أبي الوليد دون والده
- ٢٢٠ ١٤ - الرباط الذي يربط الجاحظ بابن أبي دؤاد هو التوحيد
- ٢٢٠ ١٥ - الثناء على القاضي يرجع على المعتصم
- ٢٢٢ هامش رسالة نفي التشبيه ، وكتاب الرد على المشبهة
- ٢٢٧ ٩ - كتاب الرد على المشبهة
- ٢٢٩ ١٦ - معنى التوحيد عدم تجزئة الواحد
- ٢٢٩ ١٧ - ليس موحداً من يزعم رؤية الله بالعين
- ٢٣٠ ١٨ - ليس موحداً من يقول ان الله جسم
- ٢٣٠ ١٩ - بعض المشبهة قالوا ان الله جسم ليخرجوه من العدم
- ٢٣١ ٢٠ - تأويل أصحاب التشبيه لآيات القرآن بصدد الرؤية
- ٢٣١ ٢١ - رد الجاحظ : كبار المفسرين يفسرون الآية
- ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ بمعنى الانتظار .
- ٢٣٤ ٢٢ - القرآن هو الحكم وقد استعظم الرؤية
- ٢٣٥ ٢٣ - دليل المشبهة على ان الله جسم
- ٢٥٧ ٢٤ - رد الجاحظ على دليل المشبهة الأخير



- ٢٣٩ ١٠ - رسالة النابتة
- ٢٣٩ ١ - مقدمة
- ٢٣٩ ٢ - عصر النبي وأبي بكر وعمر وبعض عهد عثمان عهد اجتماع الكلمة
- ٢٤٠ ٣ - ذبول مقتل عثمان
- ٢٤٠ ٤ - كان بوسع الثائرين تجنب مقتل عثمان

- ٢٤٠ ٥ - مواقف الناس من عثمان
- ٢٤١ ٦ - عهد علي بن أبي طالب
- ٢٤١ ٧ - اسباب اعتزال الحسن بن علي
- ٢٤١ ٨ - معاوية يحول الملك الى كسروية
- ٢٤١ ٩ - أخطاء معاوية
- ٢٤٢ ١٠ - إدعاء معاوية الخلافة كفر
- ٢٤٢ ١١ - جرائم يزيد بن معاوية
- ٢٤٣ ١٢ - يزيد يستحق اللعنة
- ٢٤٣ ١٣ - مزاعم النابتة
- ٢٤٤ ١٤ - تناقض النابتة
- ٢٤٤ ١٥ - مخازي عبد الملك بن مروان
- ٢٤٤ ١٦ - بطش عبد الملك بالوفاظ
- ٢٤٥ ١٧ - بعض آنام الأمويين
- ٢٤٥ ١٨ - النابتة تقول بالجبر والتشبيه
- ٢٤٥ ١٩ - النابتة تقول ان القرآن غير مخلوق
- ٢٤٦ ٢٠ - النابتة يتابعون الامام احمد بن حنبل في مسألة خلق القرآن
- ٢٤٦ ٢١ - كفر النابتة
- ٢٤٧ ٢٢ - الشعوبية ودعواها
- ٢٤٩ هامش رسالة النابتة
- ٢٥٣ ١١ - رسالة الرد على النصارى
- ٢٥٥ ١ - بعض مبادئ المعتزلة
- ٢٥٥ ٢ - مأخذ النصارى على المسلمين
- ٢٥٥ ٣ - القول أن مريم وعيسى إلهين
- ٢٥٦ ٤ - القول أن عزيزاً ابن الله
- ٢٥٦ ٥ - القول ان فرعون طلب من هامان أن يبني له صرحاً
- ٢٥٧ ٦ - القول أن يحيى بن زكريا ليس له سمي

٢٥٧	٧ - القول أن الله لم يرسل انبياء إلا من الرجال
٢٥٧	٨ - القول أن عيسى تكلم في المهدي
٢٥٨	٩ - خطة الجاحظ في الرد على النصارى
٢٥٩	١٠ - الأسباب التي قربت النصارى من المسلمين دون اليهود
٢٥٩	١١ - نزاع الجوار بين المسلمين واليهود في يثرب
٢٦٠	١٢ - إهواء نصارى الحبشة لمهاجري المسلمين
٢٦٠	١٣ - تأويل الآية : ﴿لنجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود﴾
٢٦٠	١٤ - تنصر بعض ملوك العرب
٢٦١	١٥ - العلاقات التجارية بين العرب ونصارى الروم والحبشة
٢٦١	١٦ - تفشي النصرانية بين قبائل العرب
٢٦٢	١٧ - ظن العرب أن النصارى أصحاب علم وفلسفة
٢٦٣	١٨ - المراتب الرفيعة التي تبوأها النصارى لدى الخلفاء
٢٦٤	١٩ - التسامح مع النصارى
٢٦٦	٢٠ - دور النصارى في نشر الزندقة والتشكيك بالدين
٢٦٦	٢١ - بعض عقائد النصارى
٢٦٧	- تفشي الخصاص بين النصارى
٢٦٨	٢٢ - بعض عادات النصارى
٢٦٨	٢٤ - الغموض حول حقيقة النصرانية
٢٦٩	٢٥ - الرد على النصارى حول مسألة كلام عيسى في المهدي
٢٧١	٢٦ - الرد على النصارى حول بنوة المسيح
٢٨٠	٢٧ - الرد على النصارى حول فقر الله
٢٨٢	٢٨ - الرد على النصارى حول بنوة حمير
٢٨٢	٢٩ - الرد على النصارى حول كون المسيح روح الله
٢٨٤	٣٠ - خلاف النصارى حول طبيعة المسيح وميلهم الى التشبيه
٢٨٦	هامش كتاب الرد على النصارى
٢٩١	فهرس الاعلام والفرق والأماكن

كشاف آثار الجاهظ



قَدْ مَرَّ لَهَا وَقُبُوبُهَا وَشَرَحَهَا
الدكتور علي أبو مسلم

منشورات
دار و مكتبة أهل البيت



تمهيد

يضم هذا الكتاب فصلين إثنيين : الأول يتناول علاقة آثار الجاحظ بشخصه وعصره ، والثاني يحصي تلك الآثار .

ويشكل الفصل الأول مقدمة عامة ، حرصت فيها على الاستفادة من آراء الجاحظ ذاته حول عصره ومعاصريه . لقد أدلى الجاحظ بآرائه تلك في تضاهيف كتبه ، وهي آراء ذات قيمة كبيرة لأنها شهادة صادقة على ما عاينه وعاناه من أحداث حركت قلبه وحفزته على تأليف العديد من كتبه .

مركز تقيت كويت بر علوم ودراسات

أما الفصل الثاني فهو تعريب لمقالة ضافية كتبها أحد المستشرقين الذين اهتموا بدراسة الجاحظ اهتماماً عظيماً ، عنيت به المستشرق الفرنسي المعاصر شارل بلا صاحب كتاب « الجاحظ ومجتمع البصرة » و مترجم العديد من كتب الجاحظ الى اللغة الفرنسية . بيد ان هذه المقالة - على أهميتها - غدت بعد مرور سبع وعشرين سنة على نشرها ، بحاجة الى إكمال ، لان العديد من كتب الجاحظ طبع وحقق بعد ذلك التاريخ .

وأرجو ان اكون بعلمي هذا قد اسديت خدمة للباحثين والقراء .

الفصل الاول

علاقة آثار الجاحظ

بشخصه وعصره

مركز تقيت كميوتير علوم اسدي



علاقة آثار الجاحظ بشخصه وعصره

ان الزمان كالمكان من العوامل المؤثرة في شخصية الانسان وتفكيره . لقد عمر الجاحظ طويلا ، اذ امتدت حياته على مدى قرن من الزمان ، حفل بالاحداث العظام ، واتخذ منها ابو عثمان مدرسة تلقى فيها الدروس والعبر ، وتحرك قلمه ليسجل انطباعاتها في نفسه وخارجها .

لم تعرف بالضبط سنة ولادته ، قيل انه ابصر النور في البصرة سنة ١٥٠ هـ وقيل سنة ١٥٥ هـ ، وجعلها بعضهم سنة ١٥٩ هـ . وارتقى آخرون الى سنة ١٦٣ هـ أو ١٦٤ هـ أو ١٦٥ هـ . والارجح ان يكون عام ١٦٠ هـ هو تاريخ ميلاده الصحيح (١) .

واذا اختلف الدارسون في سنة الولادة ، فانهم متفقون على سنة الوفاة . لقد اجمعوا على ان الجاحظ توفي عام ٢٥٥ هـ في المدينة التي ولد فيها أي البصرة .

يلاحظ أن الجاحظ جاء الى الوجود بعهد قيام الدولة العباسية ، وأن

(١) بنلا ، الجاحظ ومجتمع البصرة ، ص ٩١ ، ونسب ياقوت الى الجاحظ قوله : انا اسن من ابي نواس بسنة ، ولدت في اول سنة خمسين ومائة ، وولد في آخرها . انظر ياقوت ، معجم الادباء ، ج ١٦ ، ص ٧٤ .

حياته امتدت سحابة العصر العباسي الاول ومطلع العصر العباسي الثاني . هذه الحقبة من تاريخ العرب هي ازهى الحقب واخصبها عطاء ، لانهم استطاعوا فيها ان يقطعوا اشواطاً بعيدة في مضمار الرقي ، وان ينشؤا حضارة عريقة ، وان ينجبوا نوابغ في العلوم والآداب والفلسفة .

تأسست الدولة العباسية على انقاض الدولة الاموية . واسهم الفرس اسهاماً فعالاً في بنائها ، وصبغوها بصبغتهم المميزة من الوجهتين السياسية والاجتماعية . وقد ادرك الجاحظ هذه الحقيقة وعبر عنها بقوله : « وقد يجب ان نذكر بعض ما انتهى اليها من كلام خلفائنا من ولد العباس ، ولو ان دولتهم عجمية خراسانية ودولة بني مروان عربية اعرابية ، وفي اجناد شامية »^(١)

وارتقى سدة الخلافة اثر سقوط الامويين ابو العباس السفاح ، ولكن خلافته لم تدم سوى اربع سنوات ، اذ توفي عام ١٣٦ هـ ، فبريع أخبوه ابو جعفر المنصور ، فاسس بغداد وجعلها عاصمة الدولة سنة ١٤٥ هـ ، ثم بنى مدينة الرصافة لآبنة المهدي على الجانب الآخر من النهر بعد وثوب الجند عليه ، ليأمن شرهم . ويعتبر المنصور المؤسس الحقيقي للدولة العباسية ، كان حازماً ، عاقلاً ، عالماً ، مقتصداً ، حسن التدبير ، راغباً عن اللهو ، ماكرأ ، يقظاً ، إنقض على مناوئيه ، فاحمد ثورة الراوندية الذين الهوه ، وتخلص من محمد بن عبدالله بن الحسن بن علي بن ابي طالب الملقب بالنفس الزكية ، وكان هذا قد اعتصم بالمدينة واعلن نفسه خليفة . وكذلك قضى على عمه عبدالله بن علي الذي طمع الى الخلافة ودعا الى مبايعته بالشام ، فوجه المنصور اليه ابا مسلم الخراساني فحاربه حتى هزمه . واخيراً جاء دور ابي مسلم ذاته ، وكان المنصور يخاف من سطوته ونفوذه . ويروي الجاحظ حكاية المكيدة التي

(١) البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٦٤ .

دبرها المنصور للايقاع بأبي مسلم : دها المنصور بأبي مسلم فلما نظر
اليه داخلاً قال :

فَدِ اَكْتَفَنُكَ خَلَاتُ ثَلَاثُ جَلْبَنُ اَلِهَيْكُ مَحْدُورِ الْجِمَامِ
خَلَاؤُكَ وَاْمْتَاؤُكَ تَرْتَمِينِي وَقُوْدُكَ لَلْجِمَاهِيْرِ الْعِظَامِ

ثم وثب اليه ، ووثب معه بعض حشمه بالسيف ، فلما رأهم
وثب ، فبدره المنصور بضربه ضربة طوحه فيها ثم قال :

إِشْرَبُ بِكَاسٍ كُنْتُ تَسْقِي بِهَا أَمْرٌ فِي الْحَلْقِ مِنَ الْعَلَقِ
زَعَمْتَ اَنْ السَّيِّدِيْنَ لَا يُقْتَضَى كَذَّبْتَ فَاسْتَوْفِ اَبَا مَجْرَمِ

ثم امر فحز رأسه ، وبعث به الى أهل خراسان وهم يبابه ، فجالوا
حوله ساعة ، ثم رد من شغبهم انقطاعهم عن بلادهم ، واحاطة الاعداء
لهم ، فذلوا وسلموا له (١)

وعلى الرغم من استبداد المنصور وبطشه وغدره فان الجاحظ يراه
داهياً ، أريباً ، مصيباً في رأيه سديداً ، مقدماً في علم الكلام ، ومكثراً
من كتب الآثار ، وله كتاب في الكلام يدور في ايدي الوراقين ، (٢)

وكان المنصور بعيد النظر خبيراً بالشؤون السياسية ، إختط نهجاً
سار عليه والتزمه التزاماً دقيقاً . واذا شئنا معرفة ذلك النهج السياسي
الحكيم ، اعفانا هو مؤونة البحث عنه في كلامه الذي خاطب به بعض
انسبائه من ولد العباس ، اذ اجتمعوا عنده ، فذكروا خلفاء بني امية
وسيرتهم وتدبيرهم ، والسبب الذي به سلبوا عزهم ، فقال المنصور :

(١) البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٦٥ - ٦٧ .

(٢) البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٦٥ .

« اما عبد الملك فكان جباراً لا يبالي ما صنع ، واما سليمان فكانت همته بطنه وفرجه ، واما عمر بن عبد العزيز فكان اصور بين عميان ، وكان فتى القوم هشام ، ولم تزل بنو امية ضابطين لما مهد لهم من السلطان ، يحوطونه ويحفظونه ، ويصونون ما وهب الله لهم ، مع تساميهم معالي الامور ورفضهم ادانيها ، حتى افضى امرهم الى ابنائهم المترفين ، فكانت همتهم قصد الشهوات وركوب اللذات من معاصي الله عز وجل - جهلاً منهم باستدراجه ، وامنأ منهم لمكره ، مع اطراحهم صيانة الخلافة ، واستخفافهم بحق الله تعالى ، وحق الرياسة، وضعفهم عن السياسة . فسلبهم الله العز ، والبسهم الذل ، ونفى عنهم النعمة »^(١) .

غير ان المنصور كان يصانع كل من لا يجد فيه خطراً على دولته ، كما كان يعفو عن كل مسيء اذا توسم فيه الفائلة لملكه ، نظير صنيعة بمعن بن زائدة الذي كان يطلبه ، فلما احاط به الراوندية وهموا بقتله ، بادر معن الى نجدة المنصور ، وابلى بلاء حسناً في الدفاع عنه . وكان المنصور لا يعرفه ، فقال له : من انت ؟ اجاب معن : طلبتك يا امير المؤمنين معن بن زائدة . فقال : قد أمنك الله على نفسك واهلك ومالك ، ومثلك يصطنع . ثم انه احسن اليه وولاه اليمن^(٢) .

وخلف المهدي ابيه المنصور سنة ١٥٨ هـ . وكان يشبهه في الفطنة ، وكان حازماً في الدفاع عن الدين ، ولهذا حارب الملحدين والزنادقة حرباً لا هوادة فيها ، وكان يجلس في كل يوم لرد المظالم ، يحيط به القضاة . وفي ايامه خرج المقنع الخراساني فارسل اليه المهدي جيشاً حصره في قلعة بخراسان مدة طويلة حتى قضى عليه . وقد اشار الجاحظ الى خروج المقنع في خراسان ، وادعائه الربوبية ، وقوله

(١) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ١٣٠ - ١٣١ .

(٢) البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٧٠ .

بالتناسخ « وكان المقنع الذي خرج بخراسان يدعى الربوبية ، لا يدع
القناع في حال من الحالات . وجهل بإدعاء الربوبية من طريق
المناسخة ، فادعاهما من الوجه الذي لا يختلف فيه الأحمر والأسود ،
والمؤمن والكافر ، ان باطله مكشوف كالنهار ، ولا يهرف في شيء من
الملل والنحل القول بالتناسخ الا في هذه الفرقة من الغالية . وهذا
المقنع كان قصاراً من اهل مرو ، وكان اصور ، الكن ، فما أدري ايهما
اعجب : ادعواه بانه رب ، او ايمان من آمن به وقائل فونه ؟ . وكان
اسمه عطاء (١) .

ومع ذلك كان المهدي مولعاً بالقيان وسماع الغناء ، وكان معجباً
بجارية يقال لها جوهر اشترها من مروان الشامي ، ودخل عليه هذا
الاخير يوماً وجوهر تغنيه فقال مروان :

انت يا جوهرٌ هندي جوهرة في بياض الدرّة المشتهرة
فاذا هنت فناراً أضمرت قدحت في كل عين شررة

فدبت الغيرة في قلب المهدي ، وامر بمروان فدع (*) في عنقه
الى ان اخرج ثم قال لجوهر : اطربيني ، وعندما انتهت من الانشاد قال
المهدي الابيات التالية التي تدل على شاعريته (٢) :

الا يا جوهر القلب لقد زدت على الجوهر
وقد اكملك الله بحسن الدل والمنظر
اذا ما صلت يا احسن خلقي الله بالمزهر
وغنيت ففاح السبب من ريحك بالعنبر

(١) البيان والتبيين ، ج ٣ ، ص ٩٨ - ٩٩ .

(٢) المصدر عينه ، ج ٤ ، ص ٦٨ .

(*) دع : دفع (ابن منظور ، لسان العرب) .

فلا والله ما المهديّ اولى منك بالمنبر
فان شئت ففي كفك خلع ابن ابي جعفر^(١)

وخلف الهادي ابا المهدي سنة ١٦٩ هـ ، ولكنه قتل بعد سنة من ولايته بمؤامرة دبرتها امه الخيزران بسبب تضييقه عليها ، فتولى اخوه هارون الرشيد الحكم سنة ١٧٠ هـ . وكان هذا الخليفة فاضلاً عالماً ، كريماً يجزل العطاء للعلماء والفنانين ، وقد استوزر يحيى البرمكي ، ثم استعان بولديه الفضل وجعفر ، وقلدهما الوزارة ، ولكن الرشيد نكهما واستوزر بدلهما الفضل بن الربيع . وقبل موته اوصى بالخلافة لابنه الامين وبولاية العهد لابنه المأمون ، فنشب الخلاف بين الاخوين ، ووقعت الفتنة في بغداد ، وانتهت بزحف المأمون من خراسان على بغداد واحتلالها بعد معارك عنيفة ، وبمصرع الامين وبمبايعة المأمون بالخلافة سنة ١٩٨ هـ^(٢) .

كان المأمون الخليفة العباسي الاول الذي اتصل به الجاحظ ، والارجح ان يكون اتصاله به قد تم بعد اعتلائه سدة الخلافة وانتقاله الى بغداد اي في بداية القرن الثالث الهجري . وقبل هذا التاريخ كان الجاحظ بعيداً عن قصر الخلافة في بغداد ، يعيش في البصرة منصرفاً الى تحصيل العلم ، وكسب الرزق ، مغموراً يحاول شق طريقه في عالم التأليف والفكر والادب ، دون ان تلقى مؤلفاته رواجاً كما يخبرنا . واتصال الجاحظ بالمأمون يعتبر حدثاً بالنسبة للجاحظ ، اذ به ينتهي عهده الاول في البصرة : عهد التحصيل ، والفاقة ، وخمول الذكر ، ويبدأ

(١) البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٦٨ .

(٢) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك (دار المعارف بمصر ، ١٩٧٦ ، ط ٢) ، ج ٩ ، ص ١٢٧ .

عهد في بغداد ، عهد العطاء ، والغنى والشهرة . في هذا العهد الذي استمر نحو نصف قرن من الزمان عاش الجاحظ مقرباً من قصر الخلافة ، حائزاً على رضا اصحاب السلطان يخدمهم بقلمه ويحظى منهم بالرعاية والمعطف والاموال والهبات .

ويخبرنا الجاحظ ان المأمون امر بتأليف كتب تعالج موضوع الخلافة فاستجاب له أبو عثمان وصنف كتباً في الامامة ، فكلف المأمون اليزيدي (٢٥٥ هـ) بالنظر فيها وتقديم تقرير عنها . ويستفاد من كلام الجاحظ ان الخليفة وجد هذه الكتب على ما امر به عندما اطلع عليها ، ويبدو ان هذه الكتب كانت السبب في اتصال الجاحظ بالمأمون . وعندما صار اليه قال له مفرطاً مصنفاته تلك : وقد كان من يرتضي عقله ويصدق خبره خبرنا عن هذه الكتب باحكام الصنعة وكثرة الفائدة فقلنا له : قد تربى الصفة على العيان فلما رأيتها رأيت العيان قد اربى على الصفة (١) .

لم يقنع المؤرخون برواية الجاحظ التي تشير الى سبب اتصاله بالمأمون ، فذهبوا الى ان معتزلة كشيامة بن اشرس وغيره هم الذين مهدوا الطريق له الى البلاط . وكانوا ذوي حظوة عند المأمون اتخذهم مستشارين له واعواناً . وقالوا ان المأمون لم يقتصر على ابداء اعجابه بكتب الجاحظ وانما عينه رئيساً لديوان الرسائل ، غير ان الجاحظ لم يمكث في منصبه الهام هذا سوى ثلاثة ايام ، اذ استعفى منه (٢) .

اصبح الجاحظ في عهد المأمون من الرجال المقربين يتردد الى اولي الامر ويجتمع بهم ويطلع عن كتب على ما يجري في اروقة الخلافة من مناظرات ولقاءات واحاديث . وقد رسم في كتبه صورة دقيقة عن ذلك الخليفة العظيم . فهو عالم متفلسف واسع الثقافة عميق المعرفة قوي

(١) البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٧٢ .

(٢) بالقوت ، معجم الادباء ، ج ١٦ ، ص ٧٨ - ٧٩ .

الحجة بارع الجدل يناظر الادباء والفلاسفة ويفوقهم علماً وقدره على
الافتقار . انه مثلاً يخطيء سهل بن هارون الذي سمعه يقول : « ان من
اصناف العلم ما لا ينبغي للمسلمين ان يرغبوا فيه ، وانه قد يرغب عن
بعض العلم كما يرغب عن بعض الحلال ، فيجيبه قائلاً : « قد يسمى
بعض الشيء علماً وليس بعلم . فان كنت هذا اردت فوجهه الذي
ذكرناه . ولو قلت : العلم لا يدرك غوره ولا يسبر قعره ذلك كان عدلاً
وقولا صدقاً ، وقد قال بعض العلماء : اقصد من اصناف العلم ما هو
اشهى على نفسك واخف على قلبك ، فان نفاذك فيه على حسب
شهوتك له وسهولته عليك . وقال ايضاً بعض الحكماء : لست اطلب
العلم في بلوغ غايته والوقوف على نهايته ، ولكن التماس ما لا يسع
جهله ولا يمس بالمعاقل اغفاله . وقال آخرون : « علم الملوك النسب
والخبر وحمل العفة ، وعلم التجار الحساب والكتاب ، وعلم اصحاب
الحرب درس كتب المغازي وكتب السير ، فاما ان تسمي الشيء علماً
وتنهي عنه من غير ان يكون يشغل عما هو انفع منه ، بل تنهي نهياً جزماً
وتأمر امرأ حتماً فلا ! والعلم بصير وخلافه العمى ، والاستبانة للشر ناهية
عنه ، والاستبانة للخير آمرة به » (١) .

يتضح من كلام المأمون مذهبه الفكري الحر . فهو يدعو الى العلم
مهما كان نوعه وموضوعه لانه بمثابة البصر ، يميز به الانسان الخير من
الشر ، ولا ينبغي ان يحرم منه احد . وهو مع ذلك يعترف بأن ادراك
غايته شيء عسير لانه بحر لا يعرف غوره . ولهذا ينبغي ان يهتم المرء
بما هو شهى على قلبه من العلوم ، كما يشير الى ضرورة التخصص في
العلم . ولا شك في ان رد المأمون على سهل بن هارون قد بلغ غاية
البلاغة . وقد اعترف ابن النديم بعلم المأمون فقال عنه « اعلم الخلفاء

(١) البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٧١ .

بالفقه والكلام . . . له في الكتب كتاب الاسلام والتوحيد ، وكتاب اعلام النبوة (١) .

ثم ان المأمون خليفة المسلمين حقاً يدافع عن الاسلام ، وقد اثبت الجاحظ مناظرة طريفة جرت بينه وبين احد المرتدين ، اسلم ثم ارتد الى النصرانية. وعندما سأل المأمون عن سبب ارتداده قال : اوحشني كثرة ما رأيت الاختلاف فيكم ا فرد المأمون قائلاً : ولنا اختلافان : احدهما الاختلاف في الأذان وتكبير الجنائز ، والاختلاف في التشهيد ، وصلاة الاعياد ، وتكبير التشريق ، ووجوه القراءات ، واختلاف وجوه الفتيا وما اشبه ذلك . وليس هذا باختلاف ، انما هو تخيير وتوسعة وتخفيف من المحنة والاختلاف الاخر كنحو اختلافنا في تأويل الآية من كتابنا ، وتأويل الحديث عن نبينا مع اجماعنا على اصل التنزيل ، واتفاقنا على عين الخبر . فاذا كان الذي اوحشك هذا حتى انكرت من اجله هذا الكتاب ، فقد ينبغي ان يكون اللفظ بجميع التوراة والانجيل متفقاً على تأويله ، كما يكون متفقاً على تنزيهه ، والا يكون بين النصارى واليهود اختلاف في شيء من التأويلات . وينبغي لك ان لا ترجع الا الى لغة لا اختلاف في تأويل الفاظها . . . (٢) .

نستدل من كلام المأمون على سعة صدره وتبحره بامور الفقه والكلام ونظرة المتسامحة الى مظاهر الاختلاف بين المسلمين . لقد عزا الاختلافات الكثيرة الى سببين : الاول هو الشكل كالقراءات والتشهاد والاذان وتكبير الجنائز وصلاة الاعياد . والاخر هو التأويل الذي اعتبره ظاهرة طبيعية هائدة الى طبيعة اللغات التي لا تخلو من الفاظ مبهمة

(١) ابن النديم ، الفهرست (المطبعة الرحمانية بمصر ، ١٣٤٨ ، د . ط .) ص

(٢) اثبت تلك المناظرة في البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٧٢ - ٧٤ .

تحتاج الى شرح وتفسير . وهو يرى ان هذا الاختلاف ليس ذا خطر لانه لا يتناول وجود الكتاب والسنة وانما يتعلق بفهمهما . هذا المفهوم للتأويل لا يختلف عن المفهوم الذي سنجده عند المتأخرين امثال ابن رشد^(١) .

ان سياسة المأمون القائمة على الحرية والاقناع والحوار وفرت للناس الاسباب التي أدت الى التعبير عن آرائهم مما ادى الى كثرة الفرق وسفور الزنادقة عن وجوههم والتقلب بين المذاهب . يؤكد ذلك الحوار الذي اجراه المأمون مع احد الزنادقة واثبته الجاحظ^(٢) .

قدم المأمون اهل العلم ورجال الفكر والادب امثال الجاحظ وثمامة ابن اشرس المتكلم المعتزلي ، وبختيشوع بن جبريل وسلمويه وابن ماسويه اشهر اطباء العصر ، وسهل بن هارون وأبي العتاهية وغيرهما من الادباء والشعراء . وكان يناقشهم في المسائل العويصة وكثيراً ما يخالفهم الرأي ، ويتسامح معهم فيما يصدر عنهم من اختلاف عن رأيه ! . لقد هجاه دعبل الخزاعي فاخبره احدهم بذلك فاجابه : « من اقدم على هجاء ابي عباد كيف لا يهجونني ؟ ومعنى ذلك ان من اقدم على هجاء ابي عباد المعروف بحدته ونزقه ، كيف لا يقدم على هجاء المأمون بحلمه ومحبته للصفح^(٣) .

والخلاصة ان المأمون كان عالماً فطناً كريماً تميز عهده الذي استمر عشرين سنة بالأمور التالية : اهتم بالفلسفة والعلوم ، وأمر بنقل

(١) يقول ابن رشد : « ومعنى التأويل هو اخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية الى الدلالة المجازية . فصل المقال (دار المعارف بمصر ، تحقيق محمد عمارة ، ١٩٧٢ ، د . ط .) ص ٣٢ .

(٢) الحيوان ، ج ٤ ، ص ٤٤٢ .

(٣) ابن العلقمي ، تاريخ الدول الاسلامية ، ص ٢٢٦ .

الكتب الأجنبية إلى العربية ، وأرسل من أجل ذلك البعثات للتفتيش عنها في مظاهها ، وأسس بيت الحكمة وجعله مركزاً للترجمة والبحث .

٢ - مال إلى المعتزلة ، وايدهم بقولهم في خلق القرآن ، وامتنح الناس في ذلك ، فاشخص الفقهاء وطلب منهم ان يعلنوا موقفهم من هذه المسألة ، واكفر من قال منهم ان القرآن غير مخلوق ، ومنهم احمد ابن حنبل .

٣ - نقل الدولة من بني العباس الى اولاد علي بن ابي طالب وامر الناس بتغيير لباس السواد بلباس الخضرة . وبرر عمله هذا بانه نظر الى اعيان البيتين المذكورين ، فلم ير فيهم اصلح ولا افضل ولا اورع من علي بن موسى الرضا ، فعهد اليه بذلك ، كتب كتاباً بخطه والزم الرضا ، فامتنع هذا ثم قبل ووقع الكتاب امثالاً للامر^(١) .

ولما توفي المأمون سنة ٢١٨ هـ خلفه اخوه المعتصم ، فسار سيرته في تكريم رجال الفكر والادب ، وفي تقريب المعتزلة ، ولكنه بالغ في محنة خلق القرآن حتى انه اقدم على تجلد الامام احمد بن حنبل لرفضه القول بخلق القرآن .

كان المعتصم رجل شدة وحرب ومروءة . جرت بينه وبين الروم معارك طاحنة حالفه فيها النصر ، اشهرها معركة عمورية . واقدم على عمل كان له اخطر الاثر على مستقبل الدولة العباسية هو الاكثار من العنصر التركي في جيشه ، والاعتماد عليه دون سائر العناصر ، مما ادى الى غلبة الاثراك على العسكر واستبدادهم بالحلفاء وعيبتهم بمقدرات السلطة والشعب منذ عهد المتوكل حتى قيام الدولة البويهية عام

(١) السعدي ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٣٢٤ .

٣٣٢ هـ . وهو الذي بنى سامراء ونقل اليها الجند الاتراك بعدما ضج الناس من أذاهم في بغداد . ويروي المؤرخون خبراً طريفاً عن بنائها^(١) .

هذه المدينة التي اتخذها المعتصم مقره الثاني بعد بغداد لم تستهوَ الجاحظ فلم يذكرها الا نادراً وربما قدمها بزيارات .

اهم ما يلفت النظر في عهد المعتصم بالنسبة للجاحظ علاقته باحد الوزراء المدعو محمد بن عبد الملك الزيات الذي ترك اثراً عظيماً بتاجه . كان ابن الزيات اديباً متضلماً باللغة ، وقد رفعه اديه الى كرسي الوزارة حسب رواية ابن الطقطقي صاحب تاريخ الدولة الاسلامية . اتخذ المعتصم الفضل بن مروان وزيراً له ، ولكن جهله ورداءة سيرته حملت المعتصم على مصادرة ماله وعزله ، واستوزر مكانه احمد بن عمار الذي كان طحاناً جاهلاً بأداب الوزارة . وقيل ان المعتصم سأله معنى كلمة كلاً الواردة في بعض الرسائل فلم يدر ، فدعا محمد بن عبد الملك الزيات الذي كان احد خواصه واتباعه فسأله عن الكلاً فقال : اول النبات يسمى بقلأ ، فاذا طال قليلاً فهو الكلاً ، فاذا يبس وجف فهو

(١) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٥٥ ، ابن الطقطقي ، تاريخ الدول الاسلامية ، ص ٢٣١ ، الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٩ ، ص ١٨ - ٢٢ : (لما استكثر المعتصم من المال يك ضاقت بهم بغداد وتآذى بهم الناس وزاحمهم في دورهم وتعرضوا للنساء ، فكان في كل يوم ربما قتل منهم جماعة ، فركب المعتصم يوماً فلقبه رجل شيخ ، فقال المعتصم : يا ابا اسحق ! فاراد الجند ضربه ، فمنعهم المعتصم وقال له : ما لك يا شيخ ؟ فقال : لا جزاك الله خيراً عن الجوار ا جاورتنا مدة فرأيناك شر جار ، جثتنا بهؤلاء العلوج من غلمانك الاتراك فأسكتهم بيننا ، فايتمت بهم صبياننا ، وارملت نساءنا . واللهم لنقاتلنك بسهام السحر ، يعني الدعاء ، والمعتصم يسمع ذلك ، فدخل منزله ، ولم يبر ركباً الا في يوم مثل ذلك اليوم ، فركب وصل بالناس العيد ، وسار الى موضع سامراء فبناها ، وكان ذلك في سنة ٢٢١ هـ .

الحشيش . فقال المعتصم لاحمد بن عمار : انظر انت في الدواوين ، وهذا يعرض علي الكتب . ثم استوزره وصرف ابن عمار صرفاً جميلاً^(١) . وبقي ابن الزيات في الوزارة حتى وفاة المعتصم فلما تولى الواثق الحكم اقره في منصبه ، فلما خلف المتوكل قبض عليه وقتله بسبب سوء معاملته اياه زمن الواثق^(٢) .

اتصل الجاحظ بابن الزيات فقربه وتوثقت علاقته به ، واقطعه اربع مائة جريب في الاعالي^(٣) ، وهي مساحة تدر عليه مالاً وفيراً ، وتؤمن له عيشاً رغيداً ، هذا عدا الجوائز التي كان ينالها من الوزير علي الكتب التي كان يهديه اياها . لقد اهداه كتاب الحيوان او جزءاً منه فاجازه بخمسة آلاف دينار^(٤) .

بيد ان علاقة الجاحظ بابن الزيات لم تكن دائماً علاقة مودة وصفاء ، وانما كان يتخللها الجفاء والشحناء . بدلنا على ذلك رسالة وجهها الجاحظ الى ابن الزيات يعاتبه فيها على جفائه ، ويتهمه بتدبير حبسه وقتله ، ويسأله الرفق به . ونحن لا نعرف سبب هذه العداوة التي اظهرها الوزير للجاحظ ، والجاحظ نفسه يتجاهل سرها وان كان يلمح الى ان ابن الزيات غضب عليه لتفضيله النخل على الزرع وعدم دفع الاتاوة او تحمل الجزية . ويرفض الجاحظ ان يكون مثل هذا الذنب يستحق مثل هذه الموجدة من الوزير ، ويدعو صاحبه الى التزام جانب العدالة في احكامه والتثبت من ادلة الاتهام ، والتمييز بين الهفوة والاصرار والخطأ والعمد . ويطلب منه العفو لان العفو امثل من الانتقام ، ولان

(١) ابن الطقطقي ، تاريخ الدول الاسلامية ، ص ٢٣٣ .

(٢) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٩ ، ص ١٥٤ .

(٣) ابن المرتضى ، طبقات المعتزلة ، (المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٦١ ، ص ٥٠ ط) ، ص ٦٩ .

(٤) معجم الادباء ، ج ١٦ ، ص ١٠٦ .

الجاحظ وابن الزيات من اصحاب نحلة واحدة هي الاعتزال ، وللجوار ،
ولكبر سنه ، وللخدمات الكثيرة التي اداها الجاحظ لابن الزيات في
الماضي^(١) .

ويعتبر عهد الواثق الذي خلف المعتصم سنة ٢٢٧ هـ ، عهد عز
وخير بالنسبة للجاحظ وسائر المعتزلة ، اذ كانت مكانتهم عالية وعقيدتهم
محترمة ، لقد غلب عليه القاضي احمد بن أبي دؤاد قاضي القضاة ،
ومحمد بن عبد الملك الزيات الوزير ، وكلاهما معتزليان . فكان لا
يصدر إلا عن رأيهما ولا يخالفهما فيما رأياه^(٢) . وتابع والده في محنة خلق
القرآن .

ولكن الحال تغيرت بعد موت الواثق وتسلم المتوكل سدة العرش
سنة ٢٣٢ هـ . ولقد احدث المتوكل انقلاباً في سياسة الدولة ، فغضب
على الشيعة ، وضيق عليهم ، وامر بحرق قبر الحسين^(٣) . كما ابعد
المعتزلة وقرب اهل السنة الجماعة ، ونهى عن الكلام في القرآن ،
واطلق من كان مسجوناً بسبب هذه التهمة ، وكساهم « وكتب الى الأفاق
كتباً ينهي عن المناظرة والجدل فأمسك الناس »^(٤) ، وغضب على أهل الذمة
وضيق عليهم^(٥) .

عملاً بهذه السياسة الجديدة نكب المتوكل ابن الزيات كما نكب
محمد بن أبي دؤاد ، فعزل القاضي من منصبه وصادر ضياعه وامواله

(١) رسالة في الجدل والهزل (ضمن رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٢٣١ - ٢٧٨) .

(٢) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٣٦٤ .

(٣) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٩ ، ص ٢٣٠ .

(٤) اليعقوبي ، التاريخ ، (دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٠ ، د . ط) ج ٢ ، ص

٤٨٥ .

(٥) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٩ ص ١٧٣ .

واحضره الى بغداد فلم يقم الا قليلاً ومات وعين مكانه اكثم التميمي المتعصب لاهل السنة^(١) .

اتصل الجاحظ بالمتوكل ، وكان سبب ذلك الاتصال انه ذكر لتأديب بعض اولاده ، فاستدعاه الى القصر ، فلما رآه استبشع منظره فامر له بعشرة آلاف درهم وصرفه^(٢) . ومعنى ذلك أن اتصال الجاحظ بالخليفة كان عابراً ، فلم تثبت علاقته به كما تثبتت باسلافه ، اي المأمون والمعتصم والواثق . لم يبال المتوكل بالجاحظ ، بل كرهه واشمأز من بشاعته وامر بإبعاده . ولا نظن ان بشاعته وحدها كانت السبب في اقصائه من قصر الخلافة ، فلا بد من اسباب اخرى أهم منها دفعت المتوكل الى ذلك الموقف من الجاحظ .

واذا لم يحالفه الحظ في التقرب من الخليفة ، فقد وفق إلى كسب ود المقرين اليه او اصحاب السلطة امثال احمد بن ابي دؤاد (٢٣٩ هـ) وابنه محمد (٢٣٩ هـ) والفتح بن خاقان (٢٤٧ هـ) وابراهيم بن عباس الصولي (٢٤٣ هـ) .

اما احمد بن ابي دؤاد فقد كان يشغل منصب قاضي القضاة منذ عهد المعتصم ، ولم يكن الجاحظ على علاقة حميمة به لانه كان منقطعاً الى ابن الزيات ، مما أوجز صدر القاضي ، فلما فتك المتوكل بابن الزيات خاف الجاحظ وهرب الى البصرة متوارياً عن انظار القاضي احمد ابن ابي دؤاد . فلاحقه رجال القاضي حتى قبضوا عليه وساقوه مكبلاً الى سيدهم في قميص سمل وفي عنقه سلسلة . فلما مثل بين يديه قال القاضي : وما علمتك الا متناسياً للنعمة كفوراً للصنعة ، معدنا

(١) اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٢ ، ص ٤٨٧ .

(٢) ابن خلكان ، وفيات الاعيان (النهضة المصرية القاهرة ، ١٩٤٨ ، ط) ج ٣ ، ص

للمساويء ، وما فتني باستصلاحي لك ولكن الايام لا تصلح منك لفساد
طوبتك ورداءة طبيعتك وسوء اختيارك وغالب ضعفك ، فقال الجاحظ :
خفض عليك ايدك الله ، فوالله لان يكون لك الامر علي خير لي من
يكون لي عليك ، ولان اسيء وتحسن احسن في الاحدوثة عنك من ان
احسن فتسيء ، ولان تعفو عني في حال قدرتك اجمل لك من الانتقام
مني ، فقال : احمد الله ما علمتك الا كثير تزويق الكلام ، فحل عنه
الغل والقيد واحسن اليه وصدره في المجلس وقال : هات الان يا ابا
عثمان حديثك^(١) .

وانقطع الجاحظ الى القاضي منذ ذلك الحين وقدم اليه كتاب البيان
والتبيين فاجازه بخمسة آلاف دينار^(٢) . والراجح انه قدم اليه جزءاً من
هذا الكتاب الذي انتهى من تصنيفه بعد كتاب الحيوان ، وجاء بحثاً في
فلسفة اللغة والادب ولم يتعرض للمسائل الكلامية والسياسية .

غير ان القاضي اصيب بالفالج وتخلي عن منصبه لابنه محمد
فقرب الجاحظ وحظي لديه وكتب له عدة رسائل منها : رسالة « المعاد
والمعاش » ورسالة في نفي التشبيه ورسالة الفتيا .

اما الرسالة الاولى فتدور حول الآداب او الاخلاق التي اجمعت
الامم على محاسنها والتي تنفع المرء في معاشه ومعاده ، اي في دنياه
وآخريته . كتبها بأسلوب جعل من نفسه مرشداً يعظ القاضي ويدله على
معامد الاخلاق .

ولم يقف الجاحظ عند ذكر الخلال الحميدة التي ينبغي ان يتحلى

(١) ابن المرتضى ، طبقات المعتزلة ، ص ٦٩ - ٧٠ ، ياقوت ، معجم الادباء ، ج
١٦ ، ص ٧٩ . المرتضى ، الامالي (دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٦٧ ، د .
ط .) ج ١ ، ص ١٩٥ .
(٢) ياقوت ، معجم الادباء ، ج ٦ ، ص ١٠٦ .

بها المرء وانما ذهب ابعد من ذلك محاولاً سبر اغوار النفس الانسانية التي اعتبرها منبع الاخلاق . وهو يقول انسجاماً مع فلسفته العامة ان الاخلاق طباع ، كما قال ان المعارف طباع . وذهب الى ان سلوك الانسان يرد الى طابعين هما الرغبة والرغبة وعنهما تصدر جميع الصفات كالايشار والعدل والاقتصاد والصدافة والشجاعة ، التي يتكلم عنها بتوسع (١) .

واما الرسالة الثانية « في نفي التشبيه » فتتضمن تحريضاً على المشبهة وذماً لهم ، وتصدر عن رغبة في الكسب والتزلف . ونرى الجاحظ كثير التذمر من العوام الذين اشتد اذاهم على المتكلمين والخاصة ، وهؤلاء قالوا بالتشبيه فوقعوا في الائم والفحش ، وهم يتألفون من المقلدين والسفلة والطغام والذين ينطبق عليهم قول واصل ابن عطاء : « ما اجتمعوا الا ضروا ولا تفرقوا الا نفعوا » وقول علي بن ابي طالب « نعوذ بالله من قوم اذا اجتمعوا لم يملكوا (*) واذا تفرقوا لم يعرفوا » (٢) .

وربما عنى بهؤلاء العوام الحشوية الذين حرّموا الكلام واعتبروه بدعة حتى انهم اسقطوا شهادة المعتزلة واخافوا علماء الكلام . وبما ان التشبيه يخالف عقيدة المعتزلة الذين شددوا على التوحيد المنزه ، لهذا يدعو الجاحظ القاضي الى الضرب على ايديهم قائلاً : « وهذا المذهب ينتحل طريقنا ويسلك سبيلنا جور شديد ومذاهب قبيحة وتقرب فاحش . وليس ينبغي لديان ان يواد من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم وابناءهم او اخوانهم او عشيرتهم . فمتى اذن تزول التقية ويجب اظهار الحق

(١) رسالة المعاد والمعاش (ضمن رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٩٥) .

(٢) رسالة في التشبيه (رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٢٨٣) .

* لم يملكوا : لم يجمعوا على رئيس .

والنصرة للدين والمباينة للمخالفين ؟ احين يموت الخصم ويبعد اثره ويهلك عقبه ويقل ناصره ويزول جميع الخوف ويكون على يقين من السلام ، وكيف يكون القائم حينئذ بالحق مطيعاً ولله معظماً^(١) .

ويرى الجاحظ ان واجبه كرجل فكر وصاحب عقيدة ان ينشر ما عنده من الافكار بغية اصلاح الناس وهدايتهم الى الحق : « حرام على كل متكلم عالم وفقه مطاع وخطيب مفوه ان كان عنده من الامر شيء الا ان يأتيهم به ويذكرهم بما عنده قل ذلك او اكثر . . . »^(٢) .

وبهذا الدافع ، اي بصفته ملتزماً بمبدأ ، صنف الجاحظ كتابه في التشبيه سائلاً القاضي ان ينشره بين الناس ليفيدوا منه وليطلعوا عليه . ان هذه الرسالة خطيرة الشأن تبين لنا جملة حقائق اهمها :

- ١ - اشتداد الصراع بين المعتزلة من جهة واهل السنة من جهة ثانية .
- ٢ - التزام الجاحظ بالاعتزال واندفاعه لنشره والدفاع عنه والنضال في سبيله ، واللجوء الى مختلف الوسائل لبلوغ غايته بما في ذلك تحريض السلطة على الخصوم .

واما رسالة الفتيا فليست سوى كلمة اهداء يقدم بها القاضي محمد ابن ابي دؤاد كتاباً صنفه في موضوع الفتيا لم يصل اليها . وموضوعه كما يقول الجاحظ ليس كلاماً في الطفرة والمداخلة ولا في الجوهر ، بل هو بحث في الكتاب والسنة . وهو يرى ان اكثر الكتب نفعاً واحسنها موقعاً كتب الله ، التي تنطوي على الرحمة والهدى والاخبار عن كل عبرة ، والتعريف لكل حسنة وسيئة^(٣) .

بعد وفاة القاضي محمد بن ابي دؤاد سنة ٢٣٩ هـ ، راح الجاحظ

(١) المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٢٨٧ .

(٢) رسالة في التشبيه (رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٢٩١ - ٢٩٢) .

(٣) رسالة في الفتيا (رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٢١٦) .

يفتش عن سند آخر من أولي الامر يفيء الى ظله ويساوي اليه في الملمات ، فوجد ذلك السند متمثلاً بشخص الفتح بن خاقان الذي وزر للمتوكل وقتل معه سنة ٢٤٧ هـ . كان الفتح اديباً شاعراً ذكياً مهتماً كالجاحظ بجمع الكتب شغوفاً بمطالعتها^(١) ، وكان له مكتبة عامرة ، وترك مصنفات عديدة اهمها كتاب اختلاف الملوك وكتاب الروضة والزهر وكتاب الصيد والجراح .

اهدى الجاحظ الفتح بن قاقان كتاب « مناقب الترك وجماعة جنود الخلافة » . وهو يرمي ، كعادته من اهداء الكتب الى التقرب من الفتح ونيل انعامه باعتباره من اصل تركي . الرسالة تدور كما يتضح من عنوانها حول مناقب الترك ، ولكنه لم يبخص سائر العناصر التي يتكون منها المجتمع العباسي من خراسانيين وعرب وبنويين حقوقهم . فاثبت مناقب كل عنصر منهم ، وركز على الخلة التي اشتهر بها الاتراك وهي الفروسية التي اسهب في شرحها والتنويه بها . وقد زعم ان عنايته في تصنيف هذا الكتاب هي التأليف بين قلوب هذه الشعوب ان كانت مختلفة ، وزيادة اللفة بينهم ان كانت مؤتلفة ، والاخبار عن اتفاق اسبابهم لتجتمع كلمتهم^(٢) .

ويصرح انه لا يريد ان يببالغ في المديح او يسرف في الهجاء لان الكتاب اذا شابه الكذب والتزيد بدا عليه التكلف واضحى كلامه ممجوجاً مستكراً . ويرى ان انفع المدح للمدح والممدوح واحسنها هي تلك التي تباعد عن الكذب وتوافق الواقع . وفي هذا المبدأ خالف الجاحظ سنة الشعراء المداحين الذين اسرفوا في التملق والكذب .

ويخبرنا انه كتب هذه الرسالة ايام المعتصم ولكنها لم تصل الى

(١) المرتضى ، الامالي ، ج ١ ، ص ١٩٤

(٢) مناقب الترك (رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٢٩) .

الخليفة لاسباب لم يذكرها بطول شرحها بزعمه . فرأى مناسباً ان يهديها الى الفتح بن خاقان لان الحاجة اليها لا تزال ماسة . والجاحظ في ذلك يصدر عن منهجه السياسي الذي اعتمده طيلة حياته ولم يحد عنه ، وهو يقضي بالتقرب الى الدولة ورجالها وعدم الابتعاد عنهم او مهاجرتهم . وبما ان المعتصم هو الذي قدم العنصر التركي واكثر منه في جيشه فقد ألف الجاحظ هذا الكتاب الذي يرضي نزعة المعتصم ويؤيد سياسته ، وبما ان الفتح بن خاقان تركي الاصل فقد وجد صاحبنا من الملائم اهداءه هذا الكتاب ايضاً .

ونستطيع بناء على هذا ان نفسر الدافع الذي حمله على تصنيف رسالتين هامتين اخريين في هذا العهد هما : « رسالة في ذم الكتاب » و « رسالة في الرد على النصارى » . فالمؤرخون يخبروننا ان المتوكل قد سخط على الكتاب ونكبهم وراح يستبدل الواحد منهم بالآخر . وقال لاسحق بن ابراهيم : انظر لي رجلين ، احدهما لديوان الخراج والآخر لديوان الضياع فقال : هما عندي : يحيى بن خاقان وموسى بن عبد الملك بن هشام . وكان يحيى محتبوساً مثل اسحق باموال كان يطلب بها في ولاية فارس ، وموسى محتبوساً ايضاً . فاحضرهما فولى يحيى بن خاقان ديوان الخراج وموسى ديوان الضياع . وعندما سخط المتوكل على محمد بن الفضل كاتب ديوان التوقيع عين مكانه عبيد الله بن يحيى بن خاقان (٢٤٧ هـ) ، وكذلك سخط على نجاح بن سلمة الكاتب لانه كان يتنسخ باموال الناس فقبض عليه وسلمه الى موسى بن عبد الملك بن هشام صاحب ديوان الخراج والى الحسن بن مخلد بن الجراح صاحب ديوان الضياع فعذبه الاول اياماً حتى توفي وصودرت ضياعه ودوره وامواله (١) .

(١) (اليقطيني ، التاريخ ، ج ٢ ، ص ٤٨٥ - ٤٩٢ .

ومجارة لسخط الخليفة الف الجاحظ رسالته الشهيرة في ذم اخلاق الكتاب . وفيها يشن عليهم حملة لا تترك لهم محمداً ولا تستر عيباً . يستعرض تاريخهم فيجده حافلاً بالمخازي . منهم اول مرتد في الاسلام عبدالله بن سعد بن ابي سرح . ومنهم معاوية بن ابي سفيان الذي استكتبه النبي خلفاً لعبد الله المذكور فكان اول من غدر في الاسلام بامامه وقضى على الايمان بآثامه . ومنهم زياد ابن ابيه الذي كان شر ناشئ . في الاسلام اذ نقضت في دعوته السنة وظهرت في عهده الجبرية . ثم استكتب الخليفة عثمان بن عفان مروان بن الحكم فخانه في خاتمه واشعل الرعية حرباً عليه . وكتب سالم لهشام بن عبد الملك فكان اشد الناس غلظاً واضعفهم رأياً ، وكتب عبد الحميد لبني مروان فتعامل على نصر بن سيار حتى ثارت به خراسان وزالت دولة الامويين . وكتب عبدالله ابن المقفع لبني العباس فاخرى بهم عبدالله بن علي فظن له وقتل وهدم البيت على صاحبه . (١)

بعد هذه الصفحة التاريخية السوداء يتقل الجاحظ الى صفحة اخلاق الكتاب فيجد طبائعهم لثيمة ، فهم ييغضون بعضهم البعض ، وهم قاصرو الثقافة ضيقوا افق التفكير بحيث ان احدهم « اذا صارت الدواة امامه وحفظ من الكلام فتيقه ، ومن العلم ملحه ، وروى لبزرجمهر ولاردشير عهده ولعبد الحميد رسائله ، ولابن المقفع اديه وصير كتاب مزدك معدن علمه ، ودفتر كلية ودمنة كنز حكمته ، ظن انه الفاروق (*) الاكبر في التدبير ، وابن عباس في العلم والتأويل ، ومعاذ بن جبل في العلم بالحلال والحرام ، وعلي بن ابي طالب في الجرأة على القضاء والاحكام ، وابو الهذيل العلاف في الجزء والطفرة ، وابراهيم بن سيار

(١) رسالة في ذم اخلاق الكتاب (رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ص ١٨٩ وما بعدها) .

(*) الفاروق : لقب الخليفة عمر بن الخطاب .

النظام في المكائنت والمجانسات ، وحسين النجار في العبادات والقول
بالاثبات ، والاصمعي وابو عبيدة في معرفة اللغات والعلم
بالانساب . . .» (١) .

وهو يرميهم بتهمة خطيرة هي الزندقة فهم يطعنون على القرآن في
تأليفه ، ويزرون عليه تناقضه ، ويكذبون الاخبار ، ويهجنون ناقلها « ولم
ير كاتب قط جعل القرآن سميره ولا علمه تفسيره ولا التقية في الدين
شعاره ولا الحفظ للسنن والاثار عماده » (٢) .

والغريب هو ان المعتزلة يشاطرون الجاحظ رأيه في الكتاب . فهو
يخبرنا ان ثمامة بن اشرس سئل يوماً عن عمرو بن مسعدة فأجاب : « ما
رأيت قوماً نفرت طبائهم عن قبول العلوم وصغرت هممهم عن لطائف
التمييز ، فصار العلم سبب جهلهم ، والبيان علم ضلالتهم ، والفحص
والنظر قائد عينهم ، والحكمة معدن شبههم اكثر من الكتاب » .

ثم يذكر الجاحظ رأي احد شيوخ المعتزلة ، ابي بكر بن
الاصم (٢٣٧ هـ) ، في ابن المقفع حيث يقول : ما رأيت شيئاً الا
وقليله اخف من كثيره الا العلم ، فانه كلما كثر خف محمله . وقد رأيت
عبد الله بن المقفع في غزارة علمه وكثرة روايته كما قال الله عز وجل
ذكره : ﴿ كمثل الحمار يحمل أسفارا ﴾ قد اوهنه علمه واذهله حلمه وأصمت
حيرته بصيرته (٣) . ويعقد شيوخ المعتزلة اجتماعاً يضم بشر بن المعتمر
والمردار وثمامة والعلاف وآخرين ، فيتذاكرون العوام واستحواذ الفتنة
عليهم في التقليد ، وعدم اقرارهم بالحقيقة ، وتعلقهم بالظواهر ،

(١) رسالة في ذم اخلاق الكتاب (رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ص ١٩١ - ١٩٢) .

(٢) المصدر عينه ، ج ٢ ، ص ١٩٣ - ١٩٤ .

(٣) المصدر عينه ، ج ٢ ، ص ١٩٥ .

ويتهون الى الاجماع على القول ان الدليل على ندالة طبع العوام هو اكبارهم للكتاب^(١).

ويبلغ من حقد الجاحظ على الكتاب انه ألف رسالة ثانية طويلة في واحد منهم هو احمد بن عبد الوهاب اسمها « رسالة التربيع والتدوير » ويهزأ فيها منه ويصوره تصويراً كاريكاتورياً . فهو مربع مدور ولكنه جاهل احمق لا يفهم شيئاً ويدعي معرفة كل شيء ثم يطرح عليه مائة مسألة في الفلسفة والطبيعيات والتاريخ واللغة فلا يجد جواباً .

وهكذا يمكن ان نعزو نقمة الجاحظ على الكتاب الى الاسباب التالية :

- ١ - مجازاة المتوكل في سخفه على الكتاب .
- ٢ - التأثير بموقف المعتزلة وظنهم السيء بهم .
- ٣ - عامل شخصي يعود الى تجربة الجاحظ في مطلع حياته مع الكتابة في الديوان . لقد جعله المأمون رئيس الديوان ، ولكنه استعفى من منصبه بعد ثلاثة ايام لانه على الأرجح لم يطق حياة الدواوين وما تفرض من رصانة ووقار ومهابة وهو الانسان القبيح المنظر الضاحك المزاج .

اما رسالة الجاحظ في الرد على النصارى فتعكس ايضاً سياسة الدولة في عهد المتوكل . لقد غضب هذا الخليفة على اهل الذمة فضيق عليهم وامر النصارى سنة ٢٣٥ هـ بان يلبسوا ثياباً مميزة عسلية اللون ، ومنعهم من ركوب الخيل والبراذين والاقنصار على ركوب البغال والحمير بركب^(*) الخشب والسروج ذات الأكر ، كما امر بان يضعوا على ابوابهم

(١) المصدر عينه ، ج ٢ ، ص ١٩٦ - ١٩٧ .

(*) الركب جمع ركاب وهو ما يعلق بالسرج الذي يوضع على ظهر الدابة لتجعل فيه الرجل (ابن منظور ، لسان العرب) .

خشباً فيها صور الشياطين^(١) .

لم يكن المتوكل اول من اصدر تعليمات خاصة بشأن لباس اهل الذمة وركوبهم . فلقد سبقه هارون الرشيد الذي امر بأن يؤخذ اهل الذمة في مدينة السلام بمخالفة هيتهم هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم ، فأخذوا بأن يجعلوا في اوساطهم الزنارات مثل الخيط ، وبأن تكون فلانسهم مضربة ، وان يجعلوا شركاء نعالهم متينة ، وان يتخذوا على سروجهم في موضع القرايس مثل الرمانة من خشب ، وتمنع نساؤهم من ركوب الرحائل ، ولا يركبن نصراني ولا يهودي على سرج بل على اكاف^(٢) .

ويشير الجاحظ الى ان العادة هي ان يلبس الذمي ثياباً مرقطة ويعطى براءة ذمة لدفعه الضريبة المفروضة عليه تعلق في عنقه او تختم بها عنقه ، وان يحمل اسماً مميزاً مثل ميشا او شلوما او آذين^(٣) .

بيد ان هذه الاوامر المتشككة لم تشرع الا قليلاً كما يقول آدم منز ، وقد كان اهل الذمة يابون الخضوع لها بشجاعة^(٤) .

غير ان حرية العقيدة كانت مصانة ، فلم يكره المسلمون اهل الذمة على التخلي عن عقيدتهم او على اعتناق الاسلام . وقد كرس ذلك بعدة عهود صدرت عن الخلفاء اولها العهد الذي قطعه عمر بن الخطاب لاهل القدس الذميين .

(١) اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٢ ، ص ٤٨٧ ، تاريخ الطبري ، ج ٩ ، ص ١٧٣ .

(٢) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ، ص ٧١٣ .

(٣) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٤١ .

(٤) آدم منز ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري (دار الكتاب العربي ، بيروت ،

١٩٦٧ ، د . ط . ص .) ج ١ ، ص ١٠٣ .

يهاجم الجاحظ النصارى ويعتبرهم خطراً على الاسلام لاسباب عدة ، منها قولهم ان القرآن باطل وامر المسلمين فاسد ، وحثهم في ذلك هي ان القرآن تضمن معلومات عن النصرانية غير صحيحة ككلام المسيح في المهد ، وقول المسيح للناس اتخذوني وامي من دون الله إلهين^(١) .

ومنها ترويجهم كتب الزندقة بين المسلمين ، ويتم ذلك على ايدي اطباء النصارى ومنجميهم ومتكلميهم الذين يغترون اغنياء المسلمين وظرفاءهم ومجانهم بمطالعتها والنظر فيها^(٢) . وقد اصبح النصارى منبت الزندقة لان اكثر من قتل في الزندقة ممن كان يتحلل الاسلام ويظهره هم الذين اباؤهم وامهاتهم نصارى^(٣) .

ويعتبرهم ، فوق ذلك ، اشد خطراً على الاسلام من اليهود والمجوس والصابئين ، وذلك لانهم يعمدون الى المتناقض من احاديث المسلمين والضعيف الاسناد عن الروايات والمتشابه من الآيات ثم يسألون عنها عوام المسلمين وضعفاءهم^(٤) .

ويهزأ الجاحظ من بعض عقائد النصارى التي يشبهون فيها الزنادقة . ويركز على تضارب آرائهم حول طبيعة المسيح على نحو ما نرى عند طوائف الملكانية واليعقوبية والنسطورية . ويتهمهم بالقول بالتشبيه والتجسيم ، ويساويهم في ذلك باليهود والرافضة والحشوية

(١) رسالة في الرد على النصارى ، ص ١٠ .

(٢) المصدر عينه ، ص ٢٠ .

(٣) المصدر عينه ، ص ١٧ .

(٤) المصدر عينه ، ص ١٩ .

واذا رد النصارى على الجاحظ واتهاماته قائلين له : السنا نحن اصحاب الكتاب الذي ذكره القرآن وتحدث عنا وعن معتقداتنا ، فلم لا تؤمن بكتابنا وما جاء فيه ؟ اجاب الجاحظ : ان هذا حق ، ولكن القوم - اي النصارى - اتوا من قلة المعرفة بالكلام ومن سوء الترجمة . والمشكلة في رايه انما نتجت عن التفسير والتأويل لآيات القرآن . ويقول ان النصارى لم يفهموا اللغة العربية جيداً وبالتالي لم يفسروا القرآن تفسيراً صحيحاً ، وينهي بحثه قائلاً : « وقد تعلم ان مفسري كتابنا واصحاب التأويل منا احسن معرفة واعلم بوجوه الكلام من اليهود ومتأولي الكتب ، ونحن قد نجد في تفسيرهم ما لا يجوز على الله في صنعه ولا عند المتكلمين في مقاييسهم ولا عند النحويين في عربيتهم . . . » (٢).

ويورد أبو عثمان مثلاً على خطأ التفسير ، وهو تفسير ابراهيم بن سيار النظام لكلمة خليل الرحمن الواردة في القرآن . لقد فسر النظام وسائر المعتزة هذه الكلمة بالحبيب والولي والناصر . اما الجاحظ فيرى التفسير خاطئاً ، ويعتقد أن الخليل في هذا الموضع من الخلة والاختلال لا من الخلة والاختلال . وان ابراهيم الخليل حين صار في الله مختلاً اضافه الله الى نفسه وابانه بذلك عن سائر اوليائه . . . » (٣).

وهناك شخصية ثالثة اتصل بها الجاحظ في هذا العهد هو ابراهيم بن العباس الصولي الذي اهدى اليه الجاحظ كتاب الزرع والنخل (٤) ونال جائزة سنية عليه .

(١) المصدر عينه ، ص ٣٨ .

(٢) رسالة في الرد على النصارى ، ص ٢٩ .

(٣) المصدر عينه ، ص ٣١ .

(٤) ياقوت ، معجم الادباء ، ج ١٦ ، ص ١٠٦ .

وكان الصولي كاتباً بليغاً ومجيداً كما يقول المسعودي تكسب في باديء الامر بالشعر وكان يميل الى آل علي ويراهم احق بالخلافة من غيرهم ، وانتهى الى ان ولي ديوان الضياع ، وتوفي في خلافة المتوكل سنة ٢٤٣ هـ (١) .

على اثر مصرع المتوكل سنة ٢٤٧ هـ تولى الخلافة ابنه محمد المنتصر الذي عرف بعقوبه وقسوته . لقد اشترك في المؤامرة التي اودت بوالده وكان سفاكاً للدماء ، غير ان خلافته لم تستمر سوى ستة اشهر اذ قتله القواد الاتراك بالسسم ونصبوا مكانه احمد بن محمد بن المعتصم الملقب بالمستعين ، وكان هذا ضعيف الرأي والتدبير .

فكثرت الفتن في ايامه واغتاله الجند بعد اربع سنوات من توليه الحكم ، فخلفه المعتز بالله الذي كان احكم رأياً . ولكن القواد الاتراك اصبحوا منذ عهد المتوكل الحكام الحقيقيين واغتصبوا السلطة من الخليفة فكان في يدهم كالاسير ان شاؤوا ابقوه في الحكم وان شاؤوا خلعوه وان شاؤوا قتلوه . ويروي المؤرخون خبراً طريفاً يدل على ما انتهت اليه الخلافة من وهن فيقولون ان المعتز « عندما جلس على سرير الخلافة قعد خواصه واحضروا المنجمين وقالوا لهم : انظروا كم يعيش وكم يبقى في الخلافة ؟ وكنان بالمجلس بعض الظرفاء فقال : انا اعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته ! فقالوا له : فكم تقول انه يعيش ، وكم يملك ؟ قال : مهما اراد الاتراك . فلم يبق في المجلس الا من ضحك . وصدق ما توقعه هذا الظريف بشأن المعتز اذ سرعان ما ثار به الاتراك وطلبوا منه مالاً فاعتذر اليهم وقال : ليس في الخزائن شيء . فانفقوا على خلعهم وقتله ، فحضروا الي بابيه وقالوا له : اخرج الينا . فاعتذر بأنه شرب دواء ، فهجموا عليه وضربوه بالدبابيس وحرقوا قميصه

(١) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٤١٦ .

واقاموه في الشمس فكان يرفع رجلاً ويضع الاخرى لشدة الحر ، وكان بعضهم يلطمه وهو يتقي بيده ثم جعلوه في بيت وسد عليه حتى مات بعد ان اشهدوا عليه انه خلع نفسه وذلك سنة ٢٥٥ هـ (١) .

هذه صورة واضحة عن حالة الخلفاء العباسيين منذ عهد المتوكل ، انهم العوبة بيد القواد الاتراك ، معظمهم خلع او قتل ، لا يملكون من الامر شيئاً . ونشير هنا ان صاحبنا الجاحظ مات في السنة التي قتل فيها المعتز وخلف المهدي اي سنة ٢٥٥ هـ . وبذلك يكون قد عاصر اثني عشر خليفة اولهم المهدي وآخرهم المهدي .

غير ان الجاحظ الذي شهد شباب الدولة العباسية وعنفوانها او عهد الخلفاء الاقوياء كالرشيد والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل ، عندما رأى نجم الخلافة يميل الى الاولون واحس بسواد الضعف تسري في عروقها أثر ان يتعد عن العاصمة بغداد ، فتركها قبل مقتل المتوكل سنة ٢٤٧ هـ وعاد الى مسقط رأسه البصرة حيث قضى السنوات القليلة الباقية من عمره منصرفاً الى التأليف . وقد تمكن خلالها من اكمال كتاب الحيوان الذي كان قد بدأه ببغداد في عهد المعتصم واتم تصنيف كتاب البيان والتبيين بعد فراغه من كتاب الحيوان وكان قد بدأه في عهد المتوكل .

ومما يلفت النظر طبيعة هذه المؤلفات . لقد غلب عليها الطابع العلمي والادبي وضعف فيها الكلامي . وكان الجاحظ تعب من الجدل والخصومات المذهبية فاوى الى بيته في موطنه الاول بالبصرة مبتعداً عن السياسة والمباحكات الكلامية منصرفاً الى الابحاث العلمية ، وقد المح الى ذلك في مطلع الجزء السابع من كتاب الحيوان (٢) .

(١) ابن الطقطقي ، تاريخ الدول الاسلامية ، ص ٢٤٣ .

(٢) الحيوان ، ج ٧ ، ص ١٠ .

وقد بأخذنا المعجب من نشاط الجاحظ ومشايرته على الانتاج رغم شيخوخته ومرضه ، واذا كان كتابا الحيوان والبيان والتبيين يعتبران قمة نتاجه حرنا بشأن هذا الانسان الذي اعطى خيرا ما عنده في سن الهرم والضعف . ولكن هجنا وحيرتنا يتبددان اذا ما علمنا انه الف القسم الاوفر من هذين الكتابين في بغداد قبل اصابته بالمرض ، وان ما انجزه في البصره او في السنوات الاخيرة من عمره الطويل يشكل القسم الاصغر المتبقي .

لقد مات الجاحظ مصاباً بمرضين هما الفالج والنقرس اللذان الما به . ولا ندري بالضبط تاريخ اصابته بهما . ويورد صاحب كتاب عيون الانبياء في طبقات الاطباء خبر اصابته بالفالج ويعزو ذلك الى جمعه بين اللبن والسّمك . وقد يكون من المفيد ايراد الخبر : « ونقلت من خط المختار بن حسن بن بطلان ان ابا عثمان الجاحظ ويوحنا بن ماسويه قد اجتمعا بغالب ظني على مائدة اسماهيل بن بلبل الوزير ، وكان في جملة ما قدم مضيرة بعد سمك . فامتنع يوحنا من الجمع بينهما . قال له ابو عثمان : ايها الشيخ لا يخلو ان يكون السمك من طبع اللبن او مضاداً له . فان كان احدهما ضد الاخر فهو دواء له ، وان كانا من طبع واحد فلنحسب انا قد اكلنا من احدهما الى ان اكتفينا . فقال يوحنا : والله ما لي خبرة بالكلام ولكن كل يا ابا عثمان وانظر ما يكون في غد . فاكل ابو عثمان نصرة لدعواه ففلج في ليلته ، فقال : هذه والله نتيجة القياس المحال . والذي ضلل ابا عثمان اعتقاده ان السمك من طبع اللبن . ولو حسبناهما من طبع واحد لكان لامتزاجهما قوة ليست لاحدهما »^(١) .

ان الذين ترجموا للجاحظ اشاروا الى مرضه . ويذهب ابن خلكان

(١) ابن ابي اصيمة ، هيون الانبياء في طبقات الاطباء (مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦٥ ، د . ط .) ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .

الى ان اصابته بالفالج حدثت في آخر عمره ، وهذا مخالف لرواية ابن ابي اصيبعة السالفة الذكر ولرواية المسعودي^(١) . ونقل عنه قوله في مرضه : « اصطلحت على جسدي الاضداد ، ان اكلت بارداً اخذ برجلي ، وان اكلت حاراً اخذ براسي » وكان يقول : « أنا من جانبي الايسر مفلوج فلو قرص ما علمت به ، ومن جانبي الايسر منقرس فلو مر به الذباب لالمت ، ولي حصاة لا ينسرح لي البول معها ، واشد ما علي ست وتسعون سنة »^(٢) .

وهذا الكلام يدل على مرض ثالث عانى منه ابو عثمان هو الرمل او تجمع الحصى في المجاري البولية الى جانب المرضين الاخرين اعني الفالج والنقرس . فاذا اجتمعت هذه الامراض مع ثقل السنين الست والتسمين ، كما يقول ، اعطتنا شيخاً ضعيف الجسم مسترخي العضلات ، شاحب اللون ، سائل اللعاب ، مائل الشدق ، عاجزاً عن الافصاح عن افكاره متخاذل الاعضاء فاسد الاخلاط كما وصف نفسه في مقدمة كتاب البغال الذي ألفه في اخريات ايامه^(٣) وفي الحالة التي اصطلاح على تسميتها بارذل العمر . وكان هذه الامراض لم تكن كافية لاماتته ، وانما لقي حتفه من انهيار اكداس الكتف عليه وهو جالس بينها^(٤) .

(١) نقل المسعودي عن لسان يموت بن المزرع ابن اخذ الجاحظ قوله : انا في هذه العلة المتناقضة التي يتخوف من بعضها التلف ، واعظمتها نيف وسبعون سنة ، يعني عمره . انظر المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٤٧١ .

(٢) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٣ ، ص ١٤٣ ، المرتضى ، الامالي ، ج ١ ، ص ١٩٩ .

(٣) البغال ، (رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ص ٢١٥) .

(٤) آدم متر ، الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ص ٣٢٤ ؛ ابن النديم ، الفهرس ، ص ١٦٩ .

الفصل الثاني

محاولة كشف نتاج الجاحظ

Essai d'inventaire de
l'œuvre Guhizienne

ان كثرة مؤلفات الجاحظ دفعت الباحثين الى محاولة احصائها .
وقد قام ابو عثمان ذاته بوضع اللائحة الاولى بها في مقدمة كتابه
« الحيوان » ، ضمت نحو ٣٦ كتاباً .

ثم عقبه ابن النديم فوضع ثانياً بها يناهز ١٢١ كتاباً . واورد له
ياقوت الحموي في كتابه معجم الادباء نحو ١٢٣ كتاباً .

وفي العصر الحديث اهتم السندوي بهذه الناحية فوضع قائمة
بمؤلفات الجاحظ اعتمد فيها بصورة اساسية على ياقوت الحموي . وضمن
تلك القائمة كتابه « ادب الجاحظ » .

وعقبه بروكلمان في كتابه « تاريخ الادب العربي » فاورد حوالي
١٧٦ كتاباً . اعتمد فيها على الذين سبقوه كياقوت والسندوي .

وكانت المحاولة الاخيرة بهذا الصدد تلك التي اضطلع بها شارل
پلا بعنوان « محاولة كشف نتاج الجاحظ » وهي مقالة نشرها في مجلة
« ارايكا » العدد الثالث سنة ١٩٥٦ . وقد استفاد فيها من المحاولات
السابقة - عدا فهرست ابن النديم - وبشكل خاص من بروكلمان كما
يعترف هو ذاته .

اما الكشف الذي نضمه الآن فهو تعريب لعمل پلا مضافاً عليه ابن

النديم^(١) والطبعات الجديدة لكتب الجاحظ ، وقد جعله فهرساً مرتباً حسب الحروف الابجدية يضم نحو ١٩٣ كتاباً . وقد اورد بعد اسم الكتاب المعلومات التالية :

أ - تاريخ تأليف الكتاب .

ب - الكتب القديمة التي اشارت الى عنوانه .

ج - الكتب الحديثة التي اشارت الى عنوانه .

د - حجم الكتاب كاملاً او ناقصاً .

هـ - الطبعات الكاملة .

و - الطبعات الجزئية او المنتخبات الواردة في كتب مطبوعة .

ز - الترجمات الكاملة او الناقصة للكتاب .

ح - الابحاث المختلفة حوله .

ط - ملاحظات .

اذا وضعت نجمة واحدة امام اسم الكتاب ففي ذلك دلالة على ان قسماً من الكتاب حفظ فقط . واذا وضعت نجمتان امامه فهذا يعني ان الكتاب حفظ كله .

وقد اعتمد المصادر التالية :

ابو الفداء : مختصر تعريف البصرة ، القاهرة ، ١٣٢٥ هـ ، ٤ مجلدات .

البغدادي ، الفرق : كتاب الفرق بين الفرق ، طبعة م . بدر ، القاهرة ، ١٣٢٨ هـ / ١٩١٠ م .

البغدادي ، الخزانة : خزانة الادب ، القاهرة ، ١٣٤٧ هـ ، اربع مجلدات .

(١) ابن النديم ، الفهرست ، مطبعة دانشگاه ، طهران ، ١٩٧١ ، ص ٢١١ -

البيان : الجاحظ ، كتاب البيان والتبيين ، طبعة عبد السلام هارون ،
القاهرة ١٣٦٧ - ١٣٦٨ / ١٩٤٨ - ١٩٥٠ في جزأين .
برلين : المختار من كلام ابي عثمان الجاحظ مخطوطة برلين (اهلورت
٥٠٣٢ ، لامبرج ، ٨٢٨) ...

م . ب ١١٢٩ (١) : مختارات فصول الجاحظ ، مخطوطة المتحف
البريطاني ، ١١٢٩ . والمخطوطة نسخة عن مخطوطة القاهرة التي
اعتمد عليها ناشر المنتخبات المثبتة على هامش الكامل للمبرد
وهي : الحاسد ، المعلمين ، اللواط ، الرد على النظام ،
التربيع ، مدح النبيذ ، المغنين ، النساء ، الترك ، النبوة ، خلق
القرآن ، النصارى ، العثمانية ، مسائل وجوابات ، المعاد ،
الجد ، الوكلاء ، البلدان ، البلاغة ، الظن ، النبل ، المودة ،
استحقاق الإمامة ، الوعد ، النطق ، فضيلة الكلام ، التجار ،
الشارب ، جوابات في الامامة ، الزيدية ، أثبتت عناوين
الكتب ، ولكن تسيطر الفوضى على المنتخبات ، ولذا يجب
اخضاع النصوص لنقد صارم .

داماد (٢) : مجموعة من رسائل الجاحظ ، مخطوطة داماد ابراهيم باشا
٩٤٩ . وقد اوردت النصوص كاملة وهي : الترك ، الاخلاق
المحمودة ، السر ، المعاد ، السودان ، الجد ، التشبيه ،

(١) طبعتها عبد السلام هارون بعنوان «رسائل الجاحظ» في جزأين ، مكتبة الخانجي ،
القاهرة سنة ١٩٧٩ .

(٢) طبعتها عبد السلام هارون بعنوان «رسائل الجاحظ» ، القاهرة وبغداد ، ١٩٦٥ في
جزأين .

رسالة في الفتيا ، رسالة الى أبي الفرج ، العداوة ، القواد ،
النابتة ، الحجاب ، الجوارى ، القيان ، الكتاب ، البغال ،
الحنين الى الاوطان .

(٣) رسائل : ج . فنكل ، ثلاث رسائل لابي عثمان بن بحر الجاحظ
(١٨٦٩) القاهرة ١٩٢٦ هذه الرسائل تضم : النصارى ،
الكتاب ، القيان .

منتخبات : أوريشر ، منتخبات من الجاحظ ، ستوتغارت ، ١٩٣١ ، هذا
المؤلف يضم ترجمات لعدد كبير من كتابات الجاحظ .

الجمهرة : احمد زكي صفوت ، جمهرة رسائل العرب ، ٤ ، القاهرة ،
١٩٣٧/١٣٥٦ ينشر الكاتب مقتطفات مختلفة مستقاة من
العقد ، والحصري وابن نباتة ، ورسالتين مقتبستين من
البخلاء .

الغزولي : مطالع البدور في منازل السرور ، القاهرة ١٢٩٩ - ١٣٠٠ ،
جزآن .

مركز تحقيقات كويت علوم ودراسات

الحيوان : الجاحظ ، كتاب الحيوان ، طبعة عبد السلام هارون ،
القاهرة ، طبعة ثانية ، ٧ أجزاء يقدم الجاحظ في بداية الجزء
الاول قائمة بالمؤلفات التي صنفها قبل كتاب الحيوان ،
وتصنيف هذا الكتاب الاخير سبق موت ابن الزيات
٢٣٢/٨٤٧ (١) .

(١) ان الجاحظ بدأ تصنيف « الحيوان » قبل موت ابن الزيات وقد اهداه بعض اجزاء
منه ونال جائزته ، ولكنه اكمل تأليف الكتاب بعد موت ابن الزيات اي بعد
اعتلاله وانتقاله الى البصرة . وقد صرح هو في اماكن من الحيوان بانه كتب قسماً
ابان مرضه . وفي المقدمة اشارة الى انها كتبت بعد نشر الكتاب او قسم منه : فهو
يقول لمن انتقد كتبه : انه قد عابه في كتاب الحيوان بكذا وكذا . . وهذا دليل على
ان الكتاب كان معروفاً ومتداولاً عندما كتبت المقدمة . وعلى هذا الاساس لا يمكن

- الخياط : كتاب الانتصار ، طبعة نيبرج ، القاهرة ، ١٩٢٥ .
- العقد : ابن عبد ربه ، العقد ، القاهرة ، ١٣٤٦/١٩٢٨ ، ٤
اجزاء .
- الاربلي : كشف الغمة (لم يره) .
- الارشاد : ياقوت ، ارشاد الارب الى معرفة الاديب ، طبعة
مرغليوت ، لندن . يقدم ياقوت واحدة من اللائحتين
الاكثر اكتمالاً لمؤلفات الجاحظ .
- الكامل : المبرد ، الكامل ، القاهرة ١٣٢٤ ، مع منتخبات من الجاحظ
مبثثة على الهامش .
- الكتبي : عيون التواريخ ، مخطوطة رقم ١٥٨٨ في المكتبة الوطنية
بباريس . تتضمن ترجمة الجاحظ لائحة شبيهة بلائحة ياقوت .
- مجموع : ب . كراوس ومحمد طه الحاجري ، مجموع رسائل
الجاحظ ، القاهرة ، ١٩٤٣ هذه المجموعة تحتوي على :
المعاد ، السر ، العدوأة ، تكوير علوم سدي
- الموصل : داود جليبي الموصل ، كتاب مخطوطات الموصل ، بغداد ،
١٩٢٧/١٣٤٦ . بعض المخطوطات الهامة كانت محفوظة في
الموصل ، ولكن اهمها بقي ضائعاً بسبب موت صاحبها الذي
بعثت مكتبته .
- النهج : ابن ابي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، القاهرة ١٣٢٩ ، ٤
اجزاء . ينشر المؤلف بعض صفحات كتب الجاحظ ، ولا سيما
من كتاب العثمانية ، وقد نشرها السندوي دون ذكر المصدر .
- النصوص : شارل هلا ، نصوص جاحظية غير منشورة . مجموعة من

- اعتبار المقدمة قد كتبت كما يقول هلا قبل موت ابن الزيات ، وبالتالي لا يمكن
اعتبار اللائحة التي اثبتت في المقدمة تتضمن فقط الكتب التي ألفها قبل موت ابن
الزيات .

الرسائل الصغيرة والمقتطفات غير المنشورة .

الرسائل^(١) : حسن السندوبي ، رسائل الجاحظ ، القاهرة ،
١٩٣٣/١٣٥٢ . هذه المجموعة تحتوي على : العثمانية
(مع نقض الاسكافي) ، هاشم ، النبوة ، الحجاب ،
التربيع ، استحقاق الامامة ، النساء ، مدح النبيذ ، بنو
امية (الذبثة) العباسية ، المودة ، النظام ، ورسائل
خاصة ، يصرح السندوبي ان هذه النصوص مستخرجة من
كتب الجاحظ وكتب اخرى . ولكنه ، تبعاً لعاداته ، لا
يشير الى المصادر ، وسنشير الى بعضها عرضاً .

١١ رسالة : إحدى عشرة رسالة ، القاهرة ، ١٩٠٦/١٣٢٤ . هذه
المجموعة تحوي : الحاسد ، الترك ، السودان ، التربيع ،
التجار ، العشق ، الوكلاء ، الشيعة ، المغنين .

السندوبي : حسن السندوبي ، ادب الجاحظ ، القاهرة ،
١٩٣١/١٣٥٠ . يقدم الكاتب لائحة بكتب الجاحظ
مطابقة للائحة ياقوت .

سرح : ابن نباتة ، سرح العيون ، بولاق . دون تاريخ .
صفدي : الوافي ، مدريد ١٩١٤ .

١ x x - رسالة الى ابي الفرج ابن نجاح الكاتب : (٢)

د (داماد ، ٩٤٩)

هـ (طبع داود جليبي ، في لغة العرب ، ٨ ، ٣٢ - ٣٥ .

ط (انظر رقم ٨٧ .

(١) هذه الرسائل - عدا العثمانية ، والتربيع ، والعباسية ، والنبيذ ، وبإضافة الفيان -
نشرها عمر ابو النصر في بيروت ، مطبعة النجوى ، سنة ١٩٧٩ ، تحت عنوان
« آثار الجاحظ » .

(٢) ابن النديم ، ٢١١ : « رسالة الى ابي الفرج بن نجاح في امتحان عقول الاولياء »

- ٢٠ - رسالة الى ابي حاتم السجستاني .
 ب (العقد ، ٢ ، ١٩٩ .
 و) العقد ، ٢ ، ١٩٩ ، نشر في الجمهرة ، ٤ ، ٥٧ ،
 (سطران) .
- ٢١ - رسالة الى ابي النجم وجوابه (١)
 ب (الارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٩ ، الكتيبي ، ١٥٤ ب .
 ج) بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ٩٥ ، سندوبي ، رقم ٤ .
 ط) يعني بابي النجم هلالا الانباري ، مولى بني سليم ، كاتب
 بغدادي .
- ٢٢ - ابناء السراري والمهرات .
 ا) قبل ٢٤٠ هـ .
 ب) البيان ، ١ ، ٣٤ .
 ط) يبدو ان الكاتب يبحث في الاسماء والشهرة .
- ٢٣ - كتاب الادب .
 ب (العقد ، ٢ ، ٣٨ (٢)
 و) العقد ، ٢ ، ٣٨ (طبعة ١٩٤٠ ، ٢ ، ٣٣٦) .
 ط) يضم عناصر الادب .
- ٢٤ - اديان العرب .
 ب) فخر الدين الرازي ، المناظرات ، كمصدر للشهرستاني (هامش
 فصل ابن حزم) ٣ ، ٢١٥ ، في الفصل الذي عنوانه : آراء العرب
 في الجاهلية) .
- ٢٥ - افعال الطبائع :
 ب (الخياط ، ٩٢ .
-
- (١) ابن النديم ، ٢١١ .
 (٢) عنه ، ٢١١ (عناصر الادب) .

ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ، ١٦ ، السندويي رقم ٢٤ .

٨ x - كتاب الاخبار وكيف تصح .

أ) قبل ٢٣٢ هـ .

ب) الحيوان ، ١ ، ٩ ، ، الارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٧ ،

١٠٨ ، الكتبي ١٥٤ ب) الخياط ، ٢٢ ، ١٥٥ (تصحيح مجيء

الاجبار) ، صفدي ، ١٣٤ (١)

ج) بروكلمان ، ٢٤٢ ، رقم ١٤ ، السندويي رقم ٨ .

و) احمد بن يحيى ، المنية والامل ، ٢ ، ١٨٧ ، نشر من جديد

في مجلة لغة العرب ٩ ، ١٧٤ - ١٨٠ .

ز) منتخبات ريشر ، ٥٥٢ - ٥٦٢ .

اخلاق ، انظر الكتاب ، التاج ، الوزراء .

رسالة في الاخلاق المحمودة والاخلاق المذمومة . انظر المعاد .

كتاب اخلاق الملوك ، انظر التاج (٢) .

xx كتاب تهذيب الاخلاق

هـ) طبعة كرد علي في مجمع اللغة العربية ، ٤ ، ١٣٤٢/١٩٢٤ .

ط) هذه النسبة خطأ صححه كرد علي جزئياً في ملحق (عدد ٥٩ -

٦٠) ثم في تعريف حكماء الاسلام للييهقي (٩٧ ، رقم ١) ،

والكتاب ينسب الى ابي زكريا يحيى بن عدي .

و) منتخبات ريشر ٢٥٧ - ٢٦٢ .

٩ - كتاب الاخطار والمراتب والصناعات :

ب) الارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٨ ، الكتبي ١٥٤ أ . (٣) .

ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٦٤ ، السندويي رقم ٩ .

(١) ابن النديم ، ٢١٠ .

(٢) عينه ، ٢١١ .

(٣) عينه ، ٢١١ .

ط (يتساءل بروكلمان عما إذا لم يكن هو عينه الكتاب الذي يحمل عنوان
غش انصناعات .

١٠ - كتاب الرد على من الحد في كتاب الله عز وجل .

ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٨ الكتبي ١٥٤ ، الصفدي ، ١٣٤ (١) .

ج (بروكلمان ، ٢٤٧ ، رقم ٢٢ ، السندوي ، رقم ٧٧ .

١١ × - رسالة في الأمل والمأمول .

ب (الارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٨ ، ١٠٩ ، الكتبي ، ١١٥٥ (٢) .

ج (بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٣٨ ، السندوي ، رقم ٣٢ .

كتاب الامصار وعجائب البلدان ، انظر : بلدان .

١٢ - كتاب الامثال .

ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٩ ، الكتبي ١٥٥ أ (٣) .

ج (بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ٨٥ ، السندوي ، رقم ٣٠ .

ط (انظر الكتاب التالي :

مائة من امثال علي .

ج (بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٩٢ ، السندوي ، رقم ٣٠ .

د (برلين ، ٨٤٢٢ ، ٨٦٥٦ .

هـ (صيدا ١٣٤١ ، نصوص .

هناك شك ينجم على نسبة هذه المجموعة . هذا ما تدل عليه

مقارنة سريعة بين الحكم التي جمعت والكلام المنسوب الى علي والذي

يرده الجاحظ في كتبه .

(١) هـ ، ٢١١ .

(٢) ابن النديم ، ٢١١ . طبعته دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ١٩٦٨ م ، تحقيق

شحن . الأرجح أنه منحول

(٣) هـ ، ٢١ .

اقسام فضول الصناعات ، انظر الصناعات .

١٣ - كتاب الاسد والذيب .

(ب) ارشاد ٦ ، ١٦/٧٨ ، ١١٠ ، الكتبي ١٥٥ (١) .

(ج) بروكلمان ٢٤٦ ، رقم ٧٨ ، السندويي ، رقم ١٨ .

١٤ - كتاب الاسماء والكنى والالقب والانباء .

(أ) قبل ٢٤٠ هـ .

(ب) البيان ، ١ ، ٣٤ .

١٥ - كتاب الاصنام .

(أ) قبل ٢٣٢ هـ .

(ب) الحيوان ، ١ ، ٥ ، ارشاد ٦ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٧ ، الكتبي ٥٤

(ب) ، الصفدي ، ١٣٤ (٢) .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ١ ، السندويي رقم ٢٠ ، الالوسي ،

البلاغ ، ٢ ، ٢١٢ .

(ط) الحيوان ، ١ ، ٥ .

« وهبني بكتاب الاصنام وبذكر اعتلالات الهند لها وسبب عبادة العرب إياها ،

وكيف اختلفا في جهة العلة مع إتفاقهما على جملة الديانة ، وكيف

صار عباد البداوة والتمسكون بعبادة الاوثان المنحوتة والاصنام

المنجورة اشد الديانين الفأ لما دانوا به وشغفاً بما تعبدوا له واظهرهم

جداً » .

رسالة في فضائل الاتراك . انظر الترك .

١٦ - كتاب اطعمة العرب .

(ب) الميداني ، ٢ ، ٧٣ .

(١) هينه ، ٢١٢ .

(٢) هينه ، ٢١٠ .

ج) بروكلمان، ٢٤٥، رقم ٤٨ .

ط) من الممكن ان يكون الميداني قد اعطى هذا العنوان للفصل
الاخير من كتاب البخلاء الذي كرسه الجاحظ للكلام عن اطعمة
العرب القدامى .

١٧ - كتاب الاوقاف والرياضات .

أ) قبل ٢٣٢ . هـ .

ب) الحيوان ، ١ ، ٧ .

ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٣٦ ، السنديوي ، ٣٥ .

ط) الحيوان ، ١ ، ٧ ، وعبتي بكتاب الاوقاف والرياضات .

١٨ - كتاب حكاية قول الاباضية والصفرية والازارقة والنجدية .

أ) قبل ٢٣٢ . هـ .

ب) الحيوان ، ١ ، ٢ . وقد حكينا في كتابنا قول الاباضية

والصفرية كما حكينا قول الازارقة والزيدية (اقرأ النجدية) ولكن لا

نعرف اذا كان ذلك يعني مؤلفاً مستقلاً .

ط) نص الحيوان هو التالي :

وعلى هذه الاركان الاربعة بنيت الخارجية الخ ...

كتاب الابل .

ب) ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٥ ، ١٠٨ .

ج) بروكلمان ، ٢٤٧ ، رقم ٨ ، السنديوي ص ١٤٥ .

ط) ذكر ياقوت انه منقول .

كتاب في الاحتجاج لنظم القرآن ، انظر قرآن .

كتابه احالة القدرة على الظلم ، انظر قدرة .

١٩ - كتاب الاخوان :

ب) ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٨ ، الكتبي ، ١٥٤ ، أ . (١)

(١) ابن النديم ، ٢١١ .

ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٤٩ ، السندوبي ، رقم ١٣ .
٢٠ - الاخوانيات

ب) الحيوان ، ١ ، ٧ : وعبثي برسائلي وبكل ما كتبت له الى
اخواني وخلطائي من مزح وجد ، ومن افصح وتعميرض ، ومن
تغافل وتوقيف ، ومن هجاه لا يزال ميسمه باقياً ، ومديح لا
يزال اثره نامياً ، ومن ملح تضحك ومواعظ تبكي .
و) رسائل ، ٣٠٣ - ٣١٦ .

ط) من الممكن وجوب التمييز بين كتاب الاخوان وبين
المراسلات الخاصة التي نشر السندوبي نماذج منها .
٢١ - كتاب اصحاب الالهام .
أ) قبل ٢٣٢ هـ .

ب) الحيوان ، ١ ، ٩ ، الخياط ، ١٧٢ ، ارشاد ، ١٠٧/٧٦/٦
(الرد على اصحاب الالهام ، الكتبي ، ١٥٣ ب (١))
ج) بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٥٩ ، رقم ١٠٩ .
يستفاد من البيان والتبيين ، ٣ ، ٣٧٤ ، ان الجاحظ كتب في مطلع حياته
الادبية (حوالي ٨١٦/٢٠٠) ابحاثاً حول الامامة . هذه هي العناوين
التي حفظت :

٢٢ x - اثبات امامة امير المؤمنين علي بن ابي طالب .

ب) اربلي ، الكشف .

ج) اربلي ، نبذ . جلبي ، في لغة العرب ، ٩ ، ٤٩٧ - ٥٠٠ .
ط) مع تصويب علي ، ليس عجيباً ان يكتب الجاحظ كتباً في
نصرة الخليفة علي ، في زمن لم يكن العباسيون قد انسلخوا

(١) عينه ، ٢١٠ ، (الرد على اصحاب الالهام .) .

عن العلويين ، وحيث ينبني التركيز على فساد الامويين (١)

٢٣ - امامة ولد بني العباس .

(ب) ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٧ ، الكتبي ، ١٥٣ ب ،

المسعودي ، مروج الذهب ، ٦ ، ٥٤ (٢) .

(ح) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٣٢ ، السندوبي ، رقم ٢٨ .

(ط) يعتقد السندوبي ان هذا الكتاب هو كتاب العباسية ذاته . وعلى

كل حال يهم الكاتب ان يبرر وصول العباسيين الى الحكم .

٢٤ x - امامة معاوية بن ابي سفيان .

(ب) ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٧ ، الكتبي ، ١٥٣ ب ،

المسعودي ، مروج الذهب ، ٦ ، ٥٧ (٣) .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٢ ، رقم ٩ ، السندوبي ، رقم ٢٧ .

(ط) كتب . جويدي في R.S.O. ١٣ ، ٢٣٣ . « انه ورد في

مروج الذهب اسم كتاب امامة امير المؤمنين معاوية بن ابي

سفيان ، وانه يؤيد فيه بني امية ضد الشيعة » . ونحن يمكننا

ان نكون فكرة عن موقف الجاحظ تجاه الامويين من قسم من

الناطقة . وقد وصلتنا رسالة للجاحظ من يد السيد م . عبد

الوهاب (تونس) ، يمكن ان تكون قسماً من كتاب امامة

معاوية ، يمدد فيه المؤلف حجج انصار معاوية ويبدأ بنقضها

في المنتخبات الباقية . وسيظهر هذا القسم في المشرق (انظر

رقم ١٥) .

(١) هذه الفكرة بحاجة الى ايضاح ذلك ان العلاقة بين العباسيين والعلويين مرت

بفترات مختلفة ففي بدء الثورة العباسية كان ثمة امتزاج تام بين العباسيين

والعلويين ، ثم انفرد العباسيون بالحكم وحاربوا العلويين حتى عهد المأمون الذي

قرب العلويين وفي عهد المتوكل عاد الخلاف بينهم الى سابق عهده .

(٢) ابن النديم ، ٢١٠ ، (امامة بني العباس) .

(٣) هينه ، ٢١٠ .

أ) المسعودي : « كتاب امامة امير المؤمنين معاوية بن ابي سفيان
في الانتصار له من علي بن ابي طالب (ارضه) وشيعته
الرافضة ، يذكر فيه رجال المروانية ويؤيد فيه امامة بني امية
وغيرهم » .

٢٥ - كتاب الدلالة على ان الامامة فرض .

ب) الارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٨ ، الكتبي ، ١٥٤ (١)

ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٢٠ ، السندوي ، رقم ٦٧ .

ح) ضمن وجوب الامامة .

٢٦ - كتاب الامامة على مذاهب الشيعة .

ب) ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٧ ، الكتبي ، ٥٣ ، الصفدي ،

١٣٤ (٢)

ج) بروكلمان ، السندوي ، رقم ٢٦ .

ح) يمكن التساؤل مع السندوي عما اذا لم يكن هذا الكتاب هو

عين الكتيب المعروف بعنوان بيان مذاهب الشيعة .

٢٧ X - كتاب الجوابات في الامامة .

ج) بروكلمان ، ٢٤٢ ، رقم ١٢ .

د) المتحف البريطاني ، ١١٢٩ .

و) النصوص .

ح) ضمن رقم ٤٦ .

كتاب استحقاق الامامة ، انظر شيعة ، .

٢٨ - كتاب وجوب الامامة .

ب) الحيوان ، ١ ، ١٢ ، ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٧ ،

الكتبي ، ١٥٤ ، الصفدي ، ١٣٤ .

(١) حنه ، ٢١٠ .

(٢) ابن النديم ، ٢١٠ ، (الامامة على مذهب الشيعة) .

ج) السندوي رقم ١٥٦ (١).

ح) النصوص تميز كتاب الدلالة على ان الامامة فرض وكتاب وجوب الامامة ، هذا ما يقوله الجاحظ بهذا الصدد : « فهلا عبتني بحكاية مقالة من ابي وجوب الامامة ومن يرى الامتناع من طاعة الأئمة الذي زعموا ان ترك الناس سدى بلا راع عليهم وهملا بلا رادع لهم ، واجدر ان يجمع لهم ذلك بين سلامة العاجل وغنيمة الأجل ، وان تركهم نشرا لانظام لهم ابعده من المفاسد واجمع لهم على المرشد » .

رسالة في امتحان عقول الاولياء ، انظر عقول .

٢٩ - كتاب الانسان .

أ) قبل عام ٢٤٠ هـ .

ب) البيان ، ١ ، ١٨٦ .

٣٠ - كتاب الرد على من زعم ان الانسان جزء لا يتجزأ .

ب) ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ٩ . بالكتبي ، ١٥٤ ، (٢).

ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٢٣ ، السندوي ، رقم ٧٨ .

٣١ - كتاب الاسم والحكم .

أ) قبل عام ٢٣٢ هـ .

ب) الحيوان ، ١ ، ٣٠٦ .

ج) بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ٨٣ .

ح) ضمن كتاب الاسماء ، لكن يجري الكلام هنا عن نعوت

حكيمية .

٣٢ - كتاب الاستبداد والمشاورّة في الحرب .

أ) ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٩ ، ١١٠ ، الكتبي ، ١٥٥ ، (٣).

(١) عنه ، ٢١٠ (وجوب الامامة) .

(٢) عنه ، ٢١١ .

(٣) ابن النديم ، ٢١١ .

- ج (بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ٩٦ ، السندوبي ، رقم ١٤ .
 كتاب استحقاق الوعد ، انظر وعد .
 ٣٣ - كتاب الاستطاعة وخلق الافعال .
 ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٨ ، الكتبي ١١٥٤ ^(١))
 ج (بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ١٦ ، السندوبي ، رقم ١٥ .
 xx ٣٤ - رسالة في الاستعطاف .
 ب (سرح العيون ، ١٧٦ .
 و (جمهرة ، ٦ ، ٥٢-٥٠ .
 ٣٥ - كتاب استطالة الفهم على العجز .
 ب (الخفاجي ، الطراز ، ١٠٨ .
 ج (بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ٩٧ ، السندوبي ، رقم ١٦ .
 د (برلين ، ٨٧٢٧ ، الموصل ، ٣٠ .
 و (الحصري ، الجمع ، ٩١ .
 ح (مؤلف معروف لابن مسكويه الذي اكتشف وجوده جاود ان هيرد
 الذي قرظ الجاحظ ، انظر *الجمهرة* ، ١٩٢٩ ، ١٢٩ .
 كتاب الاعتزال وفضله (عن الفضيلة) .
 ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٨ ، الكتبي ١٥٤ ب ^(٢)) .
 ج (السندوبي ، رقم ٢٢ .
 ط (انه كتاب آخر عنوانه فضيلة المعتزلة .
 ٣٦ - كتاب احدوثة العالم .
 ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٩ ، الكتبي ، ١٥٤ ا ^(٣))
 ج (بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ١٤ ، السندوبي ، رقم ٧ .

(١) عينه ، ٢١١ .

(٢) ابن النديم ، ٢١١ .

(٣) عينه ، ٢١١ .

- ح) يجب قراءته هكذا : حدوث .
رسالة في بني امية ، انظر نابغة .
٣٧ - كتاب امهات الاولاد .
- ب) ارشاد ، ٦ ، ٧٧ / ١٦ ، ١٠٨ ، الكتبي ، ١٥٤ ، أ .
ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٥١ ، السندوي ، رقم ٣٣ .
٣٨) كتاب الانس والسلوك .
- ب) ارشاد ، ٦ ، ٧٧ / ١٦ ، ١٠٩ ، الكتبي ١٥٤ ب (٢) .
ج) بروكلمان ، ٢٥٤ ، رقم ٣٩ ، السندوي ، رقم ٣٤ .
٣٩ - مقالات في اصول الدين .
- ب) ابن خلكان ، ٢ ، ١٠٨ ، اليافعي ، الجنان ، ٢ ، ١٦٢ .
٤٠ x - رسالة في البلاغة والايجاز .



- ج بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٥٨ .
د) المتحف البريطاني ، ١١٢٩ ، (٣) .
و) نصوص .
- رسالة في بني امية ، انظر النابغة ، نسخة مخطوطة
كتاب بصيرة غنام المرتد ، انظر غنام .
٤١ x - رسالة في تفضيل البطن على الظهر .
ج) بروكلمان ، ٢٤٣ ، رقم ٢٧ .
د) المتحف البريطاني ، ١١٢٩ .
و) نصوص .
- رسالة في بيان مذاهب الشيعة ، انظر شيعة .
٤٢ xx - كتاب البيان والتبيين .
أ) قبل ٢٤٠ هـ .

(١) ص ٢١١ .

(٢) ص ٢١١ .

(٣) طبعة عبد السلام هارون ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ ، ص ١٥١ - ١٥٢ .

ب) ارشاد، ٦، ١٦/٧٦، ١٠٦ العسكري : الصناعتين ،
٥ . البغدادي ، الخزانة ، ١ ، ٣٤ ، نهج البلاغة ، ٣ ،
١٨٤ .

ج) بروكلمان ، ٢٤١ ، ١٥٩ ، السندوي ، رقم ٣٩ .
د) انظر بروكلمان .

هـ) طبعة م . افندي الفاكهاني ، القاهرة ، ١٣١١ -
١٨٩٣/١٣١٣ - ١٨٩٥ . جزآن ، طبعة محب الخطيب ،
القاهرة ، ١٩١٤/١٣٣٢ ، رقم ٣ ، اجزاء .

طبعة حسن السندوي ، القاهرة ، ١٩٢٦ - ٢٧ ، ٣ اجزاء
(طبعة ثالثة ١٩٤٧/١٣٦٦) .

طبعة ع . س . هارون ، القاهرة ١٣٦٧ - ١٩٤٨/٦٠ - ٥٠ ، ٤
اجزاء (١) .

و) منتخبات البيان والتبيين ، القسطنطينية ، ١٨٨٣/١٣٠١ ،
القاهرة ، ١٩١٠ .
ز) منتخبات ريشتر ، ٢٢ - ٤٠ .

xx ٤٣ - كتاب القول في البغال (ومنافعها)

ج) بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٥٦ .

د) داماد ، ٩٤٩ ، موصل ٢٦٥ .

هـ) طبعة هلا ، القاهرة ، ١٣٧٥/١٩٥٥ (٢)

xx ٤٤ - كتاب البخلاء .

أ) حوالي ٢٤٥ - ٢٥٠ هـ . على الرغم من ذكره في الحيوان ،
٤ ، ١ .

(١) ابن النديم ، ٢١٠ . طبعة دار الفكر للجميع ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ٤ اجزاء .

(٢) طبعة عبد السلام هارون (ضمن رسائل الجاحظ) الجزء الثاني ، ٢١٥ - ٣٧٨ .

ب) ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٧ (١) .

ج) بروكلمان ٢٤٢ ، السندوي ، رقم ٣٦ .

د) انظر بروكلمان

هـ) طبعة فان فلوتن ، ليدن ، ١٩٠٠ ، طبعة القاهرة ، ١٣٢٣ ،

طبعة القاهرة ، ١٣٢٥ ، طبعة دمشق ١٣٥٧/١٩٣٨ ، طبعة

على عبد الكريم واحمد العوامري ، القاهرة ، ١٣٥٧ -

١٩٣٨/٥٨ - ٣٩ في جزاين ، طبعة طه الحاجري ،

القاهرة ، ١٩٤٨ ، (٢) ، طبعة بيروت ، ١٩٥٥ ، في

جزاين ، طبعة دمشق ١٩٥٥ .

و) الجمهرة ، ٤ ، ٧٥ - ٩٨ (رسالة أبي العاص) ، ٩٨ - ١٣٧

(رسالة ابن التوام) ، طه حسين ، من حديث الشعر والنثر ،

١٠٩ - ١٢٤ .

ز) منتخبات ريشر ، ٢٦٦ - ٤٨٤ ، ترجمة بيلا الفرنسية ،

باريس ١٩٥١ ، وارايبكا ، ٢/١٩٥٥ ، وترجمة ايطالية

جزئية بقلم ف . كبريالي في ر . ل أيسار - حزيران ،

١٩٥١ .

ح) و . مارسيه ، تأملات ، في Melanges رينه ماسيه ، ٢ ،

باريس ، ١٩٢٥ ، ٤٣١ - ٦١ ، م . مبارك ، فن القصص

في كتاب البخلاء ، دمشق ١٣٥٨/١٩٤٠ .

× ٤٥ - كتاب البلدان .

ب) ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٨ ، الكتبي ، ١٥٤ ب ،

ياقوت ، البلدان ، ٢ ، ٥٩٣ . المسعودي ، التنبه ، طبعة

الصاوي ، ٤٩ ، نفسه ، مروج الذهب ، ١ ، ٢٠٦ - ٢٠٧ ،

(١) ابن النديم ، ٢١١ .

(٢) طبعة الحاجري الرابعة ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧١ .

المقدسي ، ٢٤١/٣^(١) .

ج (بروكلمان ، رقم ٩٠ ، ٢٤٤ ، رقم ٥٩ ، ٢ ، ١٥٨ ،

السندويي رقم ٣١ ورقم ٣٨ .

د (المتحف البريطاني ، ١١٢٩ .

و (نصوص ، اعتماداً على المتحف البريطاني ، ١١٢٩ ،

وياقوت ، المعجم الخ . .^(٢)

ط (عنوان الكتاب يطرح موضوعاً لا يبدو من الصعب معالجته .

يميز بروكلمان بين كتاب البلدان وكتاب الامصار وعجائب

البلدان ، وعبد الوهاب يلجأ الى التمييز ذاته في طبعة كتاب

التبصر بالتجارة ، ٣٢٤ ، بينما يعتبر السندويي ان الجاحظ لم

يكتب سوى بحث واحد تحت هذا العنوان عن خصائص

المدن والبلدان . ونأمل في نشر الصفحات التي استطعنا

جمعها بالاضافة الى منتخبات المتحف البريطاني قريباً .^(٣)

٤٦ - كتاب البرهان . مركز تحقيق التراث والدراسات الإسلامية

ب (ابن حزم ، الفصل ، ٤ ، ١٩٥ .

ط (هذا ما يقوله ابن حزم : (ورأيت للجاحظ في كتابه البرهان :

لو ان سائلاً سأله وقال : ايقدر الله على ان يخلق الدنيا دنيا

اخرى ، فجوابه : نعم ، بمعنى انه يخلق تلك الدنيا حين خلق

هذه فتكون مثل هذه .

كتاب تعبير الرؤيا .

ب (حاجي خليفة ، ١ ، ٢٢٢ .

ط (يوجد هنا التباس ، او نسبة خاطئة .

(١) ابن النديم ، ٢١١ .

(٢) طبع في مطبعة الحكومة ، بغداد ، ١٩٧٠ م .

(٣) طبعة عبد السلام هارون ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ ، ص ١٠٩ - ١٤٧ . (الاولطان

والبلدان)

٤٧ - كتاب التفكير والاعتبار .

ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٨ ، الكتبي ، ١٥٤)^(١) .

ج (السندوبي ، رقم ٤٧ .

ط (على عكس الدلائل والاعتبار ، يبدو هذا العنوان حقيقياً . وذكر
الكتبي كتاب التفكير وكتاباً آخر هو الاعتبار .

xx - كتاب التاج في اخلاق الملوك .

ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٧ ، الكتبي ، ١٥٤ ، الصفدي
١٣٤ .

ج (بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ١ ، السندوبي ، ص ١٤٥ - ١٥٢ .

د (انظر بروكلمان والطبعات .

هـ (طبعة احمد زكي باشا ، القاهرة ، ١٩١٤)^(٢) .

ز (ترجمة فرنسية ، هلا ، باريس ، ١٩٥٤ .

ح (منتخبات ريشر ، ٢٦٣ - ٦٦ ، ف . كبريالي ، في ر . س .

أ ، ١١ ، ٢٩٢ - ٣٠٥ .

ط (رغم حجج الناشر ، النص مزور بالتأكيد .

كتاب تهذيب الاخلاق ، انظر اخلاق .

٤٨ - كتاب تخزين (تخزين ٩) الاموال .

ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦ / ٧٧ ، ١٩ ، ١٠٩ ، الكتبي ، ١٥٥ ، أ .

ج (بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٤٠ ، السندوبي ، رقم ٤١ .

هـ . كتاب التمثيل .

ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٨ ، الكتبي ، ١٥٤)^(٣) .

ج (بروكلمان ، ٢٤٧ ، رقم ٣ ، السندوبي ، رقم ٤٨ .

(١) ابن النديم ، ٢١١ .

(٢) وطبعة فوزي عطوي ، بيروت ، ١٩٧٠ .

(٣) ابن النديم ، ٢١١ .

- كتاب تنبيه الملوك والمكائد .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٧ ، رقم ٣ ، السندوي ، ص ١٥٢ .

(د) كوبرلي ، ١٠٦٥ .

(ح) ر . أ . أ . د . ٩ ، ٢٤١ ، بين احمد زكي باشا ٢٢١ - ٢٢٦ في

طبعة التاج ان هذا الكتاب منسوب للجاحظ^(١) .

xx ٤٩ - كتاب التبريع والتدوير .

(أ) بين ستي ٢٢٧ - ٢٣٠ .

(ب) ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٧ ، الكتبي ١٥٤ ب ،

الصفدي ، ١٣٤^(٢) .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٦٤ ، السندوي ، رقم ٤٢ .

(د) الزاهرية ، ١٢٥ .

(هـ) طبع على هامش الكامل للمبرد ، ١ ، ٤٠ - ٩٧ ، اوسكولا

(فلوتن) ٨٦ - ١٥٧ ، رسالة ، ٨٢ - ١٤٧ ، طبعة م .

مسعود ، القاهرة ، ١٣٢٤ ، رسائل ، ١٨٧ - ٢٤٠ طبعة هلا

دمشق^(٣) .

(و) طه حسين ، من حديث الشعر والنثر ، ٨٨ - ٩٩ .

(ز) منتخبات ريش ، ٢١٢ - ٢٣٥ .

(ح) م . بهنني ، في الثقافة المغربية ، ايلول ، ١٩٤١ .

x رسالة في الترجيح والتفضيل .

(ب) الاربلي ، الكشف .

(١) تبين لي من قراءة المخطوطة المصورة في الجامعة الامريكية ببيروت ان الكتاب منحول

لان اسلوبه يختلف عن اسلوب الجاحظ ، ولانه يتحدث عن رجال عاشوا بعد

عصر الجاحظ .

(٢) ابن النديم ، ٢١١ .

(٣) وطبعة فوزي عطوي ، دار الشركة اللبنانية للكتاب ، بيروت ١٩٦٩ .

(و) نفسه .

ظ (النص نفسه المعروف بعنوان فضل هاشم علي عبد شمس ، انظر لغة العرب ، ٩ ، ٦٣٣ (١) .

٥٠ - رسالة في نفي التشبيه الى ابي الوليد محمد بن احمد بن ابي دؤاد .

(أ) نحو سنة ٢٢٠ هـ .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٢ ، رقم ٦ .

(د) داماد ، ٩٤٩ ، موصل ، ٢٦٥ .

(و) طبعة بلا في المشرق ، ١٩٥٣ (٢) .

(ط) انظر مشبهة .

كتاب في تفصيل حيل لصوص النهار وفي تفصيل حيل لصوص الليل .

(ب) البخلاء ، ١ .

(ط) انظر كتاب اللصوص .

كتاب تصويب علي ، انظر علي .

٥١ - كتاب المخاطبات (الخطاب) في التوحيد .

(ب) ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٧ ب ، الصفدي ، ١٣٤ (٣) .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٢٥ ، السندوبي ، رقم ١٢٤ .

XX ٥٢ - كتاب التبصر بالتجارة (٤) .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٥٤ ، ٢ ، ١٥٩ .

(هـ) طبعة . ح . ح . عبد الوهاب ، في ر . أ . أ . د . ،

١٢ ، ٣٢٦ - ٣٥٧ .

(١) ونشرت في آثار الجاحظ ص ١٩٣ - ٢٤٠ ، بيروت ، ١٩٦٩ ، طبعة عمر ابرو

النصر ، بعنوان فضل هاشم علي عبد شمس .

(٢) في رسائل الجاحظ ، الجزء الاول ص ٢٨٣ - ٣٠٨ .

(٣) ابن النديم ، ٢١٠ .

(٤) الأرجح انه منحول .

ز) ترجمة فرنسية، بلا في ارايكا ، ١٩٥٤ / ٢ ، ١٥٣ - ١٦٥ .
ح) ر . أ . د . ، ١٣ ، ٢٨ - ٩٥ ، ١٤ ، ٢٣ - ٢٥ .
٥٣ - كتاب التفاح .

ب) ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٩ ، الكتبي ، ١٥٤ ب^(١) .

ج) بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ٨١ ، السندوبي رقم ٤٤ .

٥٤ x - رسالة في مدح التجار (التجارة) وذم عمل السلطان .

ج) بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٤٧ ، السندوبي ، رقم ١٢٥ .

د) المتحف البريطاني ١١٢٩ .

و) طبع على هامش الكامل ، ٢ ، ٢٤٦ - ٢٥١ ، ١١ رسالة ،

١٥٥ - ١٦١ .

ز) منتخبات ريشر ، ١٨٦ - ١٨٨ .

ط) في الطبعة ، نجد النص مقطوعاً وممزوجاً برسالة في المعلمين

ضمن السلطان .

xx ٥٥ - رسالة في مناقب الترك (فضائل الاتراك) وعامة جند الخلافة ،

الى الفتح بن حياقان .

أ) بين ٢١٨ - ٢٢٧ .

ب) ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٨^(٢) .

بروكلمان ، ٢٤٣ ، رقم ١٨ ، السندوبي ، رقم ١٤٥ .

د) باريس ٦٠١٣ ، داماد ، ٩٤٩ ، المتحف البريطاني

١١٢٩ ، الموصل ، ٢٦٤ .

ه) طبع على هامش الكامل ، ٢ ، ١٦٦ - ٢٧٥ ، اوبسكولا

(فلوتن) ١ - ٥٦ ، طبعة ابراهيم مويحي ، القاهرة ،

١٨٩٨ ، ١١ رسالة ٢ - ٥٣ ، طبعة جديدة بدور

التحضير^(٣) .

(٢) عينه ، ٢١١ .

(١) ابن النديم ، ٢١١ .

(٣) طبعة عبد السلام هارون ضمن رسائل الجاحظ الجزء الاول ، ص ٨٦ - ٥ .

(ز) منتخبات (ريشر) ، ٢٠٧ - ٢١٠ ، ترجمة تركية في ترك
بردي ، ١٣٢٩ ، ٣ ، ٨١٤ ، ترجمة انكليزية ، ت ،
هرلي - ولكر ، في ، ١٩١٥ ، ٦٣ - ٩٧ ، ترجمة المانية
ار - ريشر في اوريان فركن ، ١٩٢٥ ، ترجمة فرنسية
بطور الاعداد .

(ج) ريشر ، في عالم الشرق ، ١٩٢٥ ، ١٣٤ ، ملانج بيروت ،
٥٢٩ ، ٥ .

٥٦ - كتاب الرد على الجهمية (في الادراك) .

(أ) قبل عام ٢٣٢ . هـ .

(ب) الحيوان ، ١ ، ١٠ .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٨ ، السندوبي ، رقم ٧٣ .

٥٧ - كتاب جمهرة (جمهرة) الملاك .

(ب) ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٨ بالكتبي ، ١٥٤ (١) .

(ج) بروكلمان ، رقم ٣٣ ، السندوبي ، رقم ٤٩ .

٥٨ - كتاب الجوابات .

(أ) قبل ٢٣٢ . هـ .

(ب) الحيوان ، ١ ، ٩ .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ٩٢ ، السندوبي ، رقم ٥٠ .

(ط) ضمن المعرفة ، يمكن ان يكون كتاب الجوابات في المعرفة .

كتاب جوابات كتاب المعرفة ، انظر معرفة .

xx ٥٩ - كتاب مفاخرة الجوارى والغلمان .

(ب) ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٧ ، الكتبي ، ١٥٤ ، ابو

الفداء ، تاريخ ، ٢ ، ٥١ (٢) ، الغزولي ، مطامع ، ١ ،

(١) ابن النديم ، ٢١١ (جمهرة الملوك) .

(٢) عينه ، ١٢٠ (الجوارى) .

ج) بروكلمان ، ٢٤٣ ، رقم ٢٢ ، السندوبي ، رقم ٥٢ .

د) داماد ، ٩٤٩ ، موصل ، ٢٦٥ .

هـ) نصوص^(١) .

٦٠ - كتاب الجوارح .

أ) بعد كتاب البيان الذي الف قبل ٢٤٠ هـ .

ب) البيان ، ١ ، ٩٤ . ط) من الممكن تقريب هذا العنوان من

ذوي العاهات وكتاب العرجان . وهذا هو النص الوارد في

البيان : « وهذا الباب (صغر الرأس وصغر الكف) يقع في

كتاب الجوارح مع ذكر البرص والعرج والعسر والادر والصلع

والجدب والقرع وغير ذلك من علل الجوارح . وهو وارد عليكم

ان شاء الله بعد هذا الكتاب .



xx ٦١ - رسالة في الجد والهزل .

أ) قبل ٢٣٢ هـ .

ب) ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٨ ، الكتيبي ، ١٥٤ أ^(٢) .

ج) بروكلمان ، ٢٤٣ ، رقم ٣٩ ، السندوبي ، رقم ١٢٩ .

د) الموصل ، ٢٦٥ ، داماد ، ٩٤٩ ، برلين ، ٣٢ ، ٥ (انظر

اوريان ، ١٩٥٤ ، ٨٦) المتحف البريطاني ١١٢٩ .

هـ) مجموع ، ٦١ - ٩٨^(٣) .

ط) رسالة معروفة ايضاً بعنوان المزح والجد .

(١) وطبعة عبد السلام هارون ضمن رسائل الجاحظ الجزء الثاني ، ص ٩١ - ١٣٧ .

(٢) ابن النديم ، ٢١١ (المزاح والجد) .

(٣) وطبعها عبد السلام هارون ، ضمن رسائل الجاحظ ، الجزء الاول ، ص ٢٣١ -

٢٧٨ . وطبعها محمد علي الزهبي بعنوان فلسفة الجد والهزل مع المعاد والمعاش ،

وكتمان السر وحفظ اللسان ، ولصل ما بين العداوة والحسد ، بيروت ،

منشورات حمد ، دون تاريخ .

كتاب نوادر الجن .

ب (الكتبي ، ١٥٤ ب .

ط (يمكن ان يكون الاسم ناتجاً عن قراءة خاطئة ، انظر نوادر
الحسن .

٦٢ - فرق ما بين الجن والانس .

أ (قبل ٢٣٢ هـ .

ب (الحيوان ، ١ ، ٦ .

ج (بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٢ ، السندوبي ، رقم ١٠٤ .

ط (الحيوان ، ٦ ، ٤٩٦ ينص على فضل الانس على الجن ،
الحيوان ، ١ ، ٦ : « وكتاب فرق ما بين الجن والانس وفرق ما
بين الملائكة والجن ، وكيف القول في معرفة الهدهد واستطاعة
الغريب . وفي الذي كان عنده علم من الكتاب ، وما ذلك
العلم ، وما تأويل قولهم كان عنده اسم الله الاعظم » .

انظر أيضاً فضيلة الملاك على الانسان .

رسالة الى المعتصم (المتوكل) في الحث على تعليم اولاده ضروب
العلوم وانواع الادب ، انظر القواد .

كتاب الحجر والبنوة .

ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٨ ، الكتبي ١٥٤ أ (والفتوة) .

ج (السندوبي ، رقم ٥٧

ح (من الممكن ان تكون تقريباً « الرسالة ذات العنوان » « حجج
النبوة » .

رسالة الحلبة ، انظر الحلبة

٦٣ XX - رسالة الحنين الى الاوطان .

ج (بروكلمان ، ٢٤٣ ، رقم ٢٩ السندوبي ، ص ١٥٣ .

د (الموصل ، ١٣٦ ، ٢٦٥ ، داماد ، ٩٤٩ .

هـ (طبعة طاهر الجزائري ، القاهرة ١٣٣٣ (١)) .

ز (منتخبات (ريشر) ٤٨٨ - ٤٩٧ .

ط (يشك السندوي في هذه الرسالة . ولكن ينبغي اعتبارها

صحيحة حتى يثبت العكس .

٦٤ - حانوت عطار .

ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٨ ، الكتيبي ١٥٤ (٢)) .

ج (بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٦٨ ، السندوي ، رقم ٥٤ .

٦٥ - كتاب نوادر الحسن .

ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٧ ، الكتيبي ، ١٥٤ ب (نوادر

الجن) (٣) .

ح (بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ١٠ ، السندوي رقم ١٥٤ .

ط (من المسموح به التساؤل اذا كان هذا العنوان صحيحاً ، اذا كان

ينطبق على الحسن البصري .

٦٦ - رسالة في الحاسد والمحتود .

ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٨ ، بالكتيبي ، ١٥٤ ب ، الصفدي

١٣٤ (٤) .

ج (بروكلمان ، ٢٤٣ ، رقم ٣٠ ، السندوي ، رقم ٥٣ .

د (ازهار ، ادب ، ١٠٤٦ ، متحف بريطاني ١١٢٩ .

هـ (هامش الكامل ، ١ ، ٢ - ١٧ ، ١١ رسالة ، ١ - ١٣ .

ز (منتخبات (ريشر) ١٨٠ - ١٨٢ .

(١) وطبعة عبد السلام هارون ، ضمن رسائل الجاحظ ، الجزء الثاني ٣٨٣ - ٤١٢ .

ط/الارجح انه منحول

(٢) ابن النديم ، ٢١١ ،

(٣) عينه ، ٢١١ .

(٤) عينه ، ٢١١ .

xx ٦٧ - كتاب الحيوان .

(١) قبل ٢٣٢ هـ .^(١)

(ب) ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٥ ، ١٠٦ ، البغدادي ، الفرق ، ١٦٢ ،
الخ . .^(٢)

(ج) بروكلمان ، ٢٤١ - ٢٤٢ ، نفسه ، ١٥٩ ، السندوبي ، رقم
٦٣ .

(د) انظر بروكلمان .

(هـ) طبعة القاهرة ، ١٣٢٣ - ١٣٢٥/١٩٠٥ - ١٩٠٧ ، ٧ ،
اجزاء ، طبعة ع . س . هارون ، القاهرة ، طبعة ثانية ، ٧ ،
اجزاء .

(و) الروائع ، رقم ١٨ - ٢٠ ، الرفاعي ، عصر المأمون ، ٣ ،
٨٤ - ١٢٧ .

(ح) انظر بروكلمان ، اصف مدام دي لاسال ، الجاحظ ،
القزويني والدميري في كتبهما حول الحيوانات ، في الثريا ،
رقم ١ ، كانون الاول ، ١٩٤٣ .

(ط) عدل عبد اللطيف البغدادي خلاصات عن هذا الكتاب
(انظر ابن ابي اصيبعة ، ٢ ، ٢١٢) وابن سناء الملك
(ارشاد ، ٧ ، ٢٣٦) .

(١) بدأ تأليفه قبل ٢٣٢ هـ . ولكنه لم يكمله إلا حوالي سنة ٢٥٠ هـ .

(٢) ابن النديم ، : والحيوان في سبعة اجزاء ، اضاف اليه كتاب النساء او الفرق بين
الذكر والانثى وكتاب البغال ، ورأيت هذين الكتابين بخط زكريا بن يحيى بن
سليمان ويكنى ابا يحيى وراق الجاحظ ، وقد اضيف اليه كتاب الابل وهو ليس من
كلام الجاحظ (ص ٢٠٩) . وذكر الجاحظ في صدر كتاب البغال أنه عمل نسق سائر
اجزاء الحيوان . ولهذا ينبغي بنظري ان يضم الى كتاب الحيوان ليشكل الجزء الثامن
منه .

ان نص الطبعة الاخيرة قيم في مجمله ، ويمكن ان يحسن
بفضل المخطوطة المشهورة (تاريخها ١٠٢٤هـ) التي اشار
اليها أو . اوفقرين . . . ، اوبسيلا لينبرغ ١٩٤٦ .

٦٨ - كتاب الحزم والعزم .

ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٩ ، الكتبي ، ١٥٤ ب (١) .

ج (بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٤١ ، السندويي ، رقم ٥٨ .

٦٩ x - كتاب الحجاب وذمه .

ج (بروكلمان ، ٢٤٣ ، رقم ٤٢ ، السندويي ، رقم ٥٥ .

ب (الخفاجي ، الطراز ، ٧٢ - ٩٧ .

د (الموصل ، ٢٦٥ ، داماد ، ٩٤٩ .

و (الخفاجي ، اعلاه ، رسائل ، ١٥٥ - ١٨٦ .

ز (منتخبات ، ٥٣٣ - ٥٥٠ .

ط (يشك السندويي في حقيقته (٢) .

٧٠ - رسالة في الحلبة .

ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٨ ، ١٠٩ ، الكتبي ، ١٥٥ أ

(الحلبة) (٣) .

ج (بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ٧٦ ، السندويي ، رقم ٦٠

(الحلبة) .

ح (لا نعرف اذا كان يجب ان نقرأ حلبة او حلية .

كتاب ما بين الحيل والمخارق . انظر نبي .

٧١ - كتاب الحجفة في تثبيت النبوة ، انظر نبوة .

٧٢ - كتاب خصومه (خصام) العول (الحول) والعود (الاعور) .

(١) عينه ، ٢١١ .

(٢) وطبعة عبد السلام هارون ضمن رسائل الجاحظ ، الجزء الثاني ، ص ٢٩ - ٨٥ .

ولا داع للشك في نسبه للجاحظ .

(٣) ابن النديم ، ٢١٢ .

- ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٨ ، ١١٠ ، الكتيبي ، ١٥٥ ب^(١)) .
- ج (بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ٨٧ (اورد خطأ القول والمور) ،
السندوبي ، رقم ٦٥ .
- ٧٣ - كتاب خبر الواحد .
- ب (الباقلاني ، ٢ ، ١٤٤ .
- ٧٤ - رسالة في الخراج الى ابي النجم .
- أ (قبل ٢٣٢ هـ .
- ب (الجد والهزل ، ٦١ ، ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٩ ب^(٢)) .
- ج (بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ١٩ ، السندوبي ، رقم ٦٤ .
- ح (مجموع ، ٦١ .
- ٧٥ - كتاب الموازنة بين حق الخوذة والعمومة .
- أ (قبل ٢٣٢ هـ .
- ب (الحيوان ، ١ ، ٥٢ .
- ج (بروكلمان ، رقم ٦١ .
- xx - كتاب الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير .
- ج (بروكلمان ، ٢٤٧ ، رقم ٥ ، ٢ ، ١٥٩ ، السندوبي ، ص ،
١٥٣ .
- د (المتحف البريطاني ، ٦٨٤ .
- هـ (طبعة م . راغب الطبايع ، حلب ، ١٩٢٨/١٣٤٦ .
- ح (كرنكوفي ر . أ . أ . د ، ٩ ، ٥٥٨ - ٥٦٢ .
- ط (هذا الكتاب واضح النحل ، ويعتقد السندوبي انه ينبغي نسبته
الى المحاسبي ، انظر العبر .
- كتاب الدلالة على ان الامامة فرض ، انظر الامامة .

(١) عينه ، ٢١٢ .

(٢) عينه ، ٢١١ .

٧٦ x - كتاب فصل ما بين الرجال والنساء ، وفرق ما بين الذكور
والاناث^(١) .

(أ) قبل ٢٣٢ هـ .

(ب) الحيوان ، ١ ، ٤ .

(ج) بروكلمان ٢٤٥ ، رقم ٤٦ ، السندوبي ، رقم ١٠٨ .

(د) المتحف البريطاني ، ١١٢٩ .

(هـ) رسائل ، ٢٦٦ - ٢٧٥ (النساء)^(٢) .

(ح) من المحتمل ان الصفحات المطبوعة مع رسالة في العشق
بعنوان العشق والنساء تنتمي الى هذا الكتاب الذي قال عنه
الجاحظ (الحيوان ، ١ ، ٤) :

« وعبثني بكتاب فصل ما بين الرجال والنساء ، وفرق ما بين الذكور
والاناث وفي اي موضع يغلبن ويفضلن ، وفي اي موضع يكن
المغلوبات والمفضولات ، ونصيب ايهما في الولد اوفر ، وفي
اي موضع يكون حقهن اوجب ، واي عمل هو بهن اليق ، واي
صناعة هن فيها ابلغ^(٣) »

٧٧ - كتاب الزرع والنخل والزيتون والاعناب .

(أ) قبل ٢٣٢ هـ .

(ب) الحيوان ، ١ ، ٤ ، البيان ، ١ ، ٢٣٠ ، ارشاد ، ٦ ،

١٦/٧٦ ، ١٠٦ ، الجد ، ٦١ .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ٨٠ ، السندوبي ، رقم ٨٢ .

(١) آثار الجاحظ ، ص ١٠٠ - ١٠٦ .

(٢) يقول ابن النديم ص ٢٠٩ ، ان كتاب النساء هو نفسه كتاب الفرق بين الذكر
والانثى .

(٣) ابن النديم ، ٢١٠ .

ح) اهدى هذا الكتاب الى ابراهيم بن عباس الصولي الذي اجاز
الجاحظ بخمسة آلاف دينار .

٧٨ - كتاب في ذم الزمان .

ب) العقد ، ١ ، ٣١٦ (طبعة ١٩٤٠ ، ٢ ، ١٧٥) .

و) العقد ، اعلاه ، رسائل ، ٣١٠ - ٣١١ ، الجمهرة ، ٤ ، ٥٣ -

٥٥ الرفاعي ، عصر المأمون ، ٣ ، ٨٠ - ٨٢^(١) .

ز) ترجمة فرنسية في ت أم ، الجزائر ، ١٩٤٧ .

معارضات الزيدية .

ب) الحيوان ، ١ ، ٩ .

ج) السندوبي ، رقم ١٣٧ .

ح) الحيوان ، ١ ، ٩ ، يشير الى موقف سياسي ديني ، لا الى

عنوان كتاب :

« وعبت معارضتي للزيدية وتفضيلي الاعتزال على كل نحلة » .



٧٩ - كتاب حكاية قول اصناف الزيدية .

أ) قبل ٢٣٢ .

ب) ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٧ ، بالكاتب ١٥٣ ب ، الصفدي

١٣٤^(٢) .

ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ١٨ ، السندوبي ، رقم ٥٩ .

٨٠ x - كتاب ذكر ما بين الزيدية والرافضة .

أ) قبل ٢٣٢ .

ب) الحيوان ، ١ ، ٢ ، ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٧ ،

الكاتب ، ١٥٣ ب ، الصفدي ١٣٤^(٣) .

(١) وآثار الجاحظ ، ص ١٦٩ - ١٧ .

(٢) ابن النديم ، ٢١٠ .

(٣) عينه ، ٢١٠ .

ج) بروكلمان ، ٢٤٢ ، رقم ٥ ، السندوبي ، رقم ٦٨ .
د) المتحف البريطاني ، ١١٢٩ .
و) طبع على هامش الكامل ، ٢ ، ٢٩١ - ٣٠١ .
٨١ - كتاب ذم الزنا .

ب) ارشاد ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٨ ، الكتيبي ١٥٦ (١) .
ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٤٢ ، السندوبي ، رقم ٧٠ .
سلوة الخريف في المناظرة بين الربيع والخريف .
ب) الصفدي ، ١٣٤ .

ج) بروكلمان ، ٢٤٧ ، ٤ ، السندوبي ، ص ١٥٣ - ١٥٥ .
د) انظر بروكلمان .

هـ) طبعة القسطنطينية ، ١٣٠٢/١٨٨٤ ، طبعة بيروت ١٣٢٠ .
و) شيخو ، علم الادب ، ١ ، ١٩١٤ ، ٢٤٤ - ٢٤٦ .
ط) بما ان الجاحظ كتب مناظرة بين الصيف والشتاء (انظر شتاء) .
فهذه يمكن بسهولة ان تنسب اليه . ان العنوان وحده يكفي ،
بقافيته ليظهر صفة التحل .
كتاب سر البيان .

ج) بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٦٠ .
د) كوبرلي ، ١٢٨٤ .
ط) هذا النص هو عمل الجاحظ الصغير .

XX ٨٢ - كتاب كتمان السر وحفظ اللسان .

ب) ارشاد ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٩ ، الكتيبي ، ١٥٥ (٢) .
ج) بروكلمان ٢٤٣ ، رقم ٣٧ ، السندوبي ، رقم ١٢٠ .
د) داماد ، ٩٤٩ ، الموصل ، برلين ٥٠٣٢ (انظر اوريان
١٩٥٤ ، ٨٥)

(١) بن النديم ، ٢١١

(٢) عينه ٢١١ . (رسالة في كتمان السر)

هـ) مجموع ، ٣٧ - ٦٠ (١)

xx ٨٣ - كتاب فخر السودان على البيضان .

ب) ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٨ ، الكتبي ، ١٥٤ ، ب ،

الصفدي ١٣٤ ؛ المسعودي ، مروج ، ١ ، ١١ (٢)

ج) بروكلمان ، ٢٤٣ ، رقم ١٩ ، السندوبي ، رقم ١٠٠ .

د) داماد ، ٩٤٩ ، الموصل ٢٦٥ ، هـ .

هـ) اوبسكولا (فلوتن) ٥٧ - ٨٥ ، ١١ رسالة ، ٥٤ - ٨١ (٣)

ز) منتخبات (ريشر) ٢١٠ - ٢١٢ ، ترجمة المانية بقلم أو .

ريشر في اوريان مجلن ، ٢ ، ١٤٦ - ١٨٦ .

مفاخرة السودان والحمران .

ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٥٦ ، السندوبي ، رقم ١٤١ .

ط) يستنتج من الصفحة المثبتة ادناه (انظر الصرحاء) انه لا

ينبغي ان نرى هناك مؤلفاً مستقلاً .

رسالة في اثم السكر

ب) ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٨ ، ١٠٩ ، الكتبي ١٥٥ (٤)

ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٤٤ ، السندوبي رقم ٣ .

٨٥ - كتاب السلطان واعمال اخلاق اهله .

ب) ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٨ ، الكتبي ، ١٥٤ (٥)

ج) بروكلمان ٢٤٥ ، رقم ٥٧ ، السندوبي ، رقم ٨٣ .

٨٦ - كتاب شرائع المروة .

ج) الالوسي ، البلوغ ، ٢ ، ١٨٧ .

(١) رسائل الجاحظ ، الجزء الاول ص ١٣٥ - ١٧٢ .

(٢) ابن النديم ، ٢١١ ، (فضل السودان على البيضان) .

(٣) المصدر عينه ، ٢١١ ، رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ١٧٣

(٤) عينه ، ٢١١ .

(٥) عينه ، ٢١١ .

- ٨٧ × - رسالة في الشارب والمشروب .
- ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٧ ، الكتبي ، ١٥٤ ب^(١) .
- ج (بروكلمان ، ٢٤٣ ، رقم ٣٥ ، السندويي ، رقم ٨٤ .
- د (المتحف البريطاني ، ١١٢٩ .
- و (طبع على هامش الكامل ، ٢ ، ٢٥١ - ٢٦٩ ، رسائل ، ٢٧٦ - ٢٨٤^(٢) .
- ز (متخبات (ريشر) ١٦٣ - ١٦٨ .
- ٨٨ × - رسالة في بيان مذاهب الشيعة .
- ب (العقد ، ١ ، ٣٥٤ .
- ج (بروكلمان ، ٢٤٢ ، السندويي ، رقم ٤٠ .
- د (المتحف البريطاني ، ١١٢٩ .
- و (١١ رسالة ، ١٧٨ ، ١٨٥ .
- ط (ان قسم الرسالة المطبوع تحت هذا العنوان يوجد في مخطوطة المتحف البريطاني مع العناوين : استحقاق الامامة ومقالة الزيدية . وهذا يعني التأكيد ان الكتاب واحد .
- الشهاب في الشيب والشباب .
- هـ (طبعة اسطنبول ، ١٣٠٢ .
- ز (متخبات (ريشر) ٤٩٨ - ٥٢٧ .
- ط (العنوان وحده يظهر ان الكتاب مزيف .
- كتاب الشعر والشعراء .
- ب (البغدادي ، الخزانة ، ١ ، ٣٤ .

(١) عينه ، ٢١٠ .

(٢) آثار الجاحظ ، ص ١١٤ - ١٢٤ .

ط (يذكر البغدادي في عداد مصادره البيان وكتاب المحاسن
وكتاب الشعر والشعراء للجاحظ ، ولكن من المحتمل انه يريد
الكلام على كتاب ابن قتيبة .

٨٩ - كتاب افتخار الشتاء والصيف .

ب (الجوارى (١٦٤ ب = ٦ من طبعتنا التي هي قيد
التحضير)^(١) . ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٧ ، الكتيبي ، ١٥٤ ،

ب .

ج (السندوبي ، رقم ٢٣ .

٩٠ - كتاب اخلاق الشطار .

ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٨ ، ١١٠ ، الكتيبي ، ١٥٥)^(٢) .

ج (بروكلمان ، ٢٥٤ ، رقم ٦٧ السندوبي ، رقم ١٠ .

٩١ - كتاب الشعبية .

ب (البخلاء (اريكيا ، ٢/١٩٥٥ ، ٣٢٣) .

٩٢ - كتاب الصوالة . مركز تحقيق وتوثيق علوم اسلامی

ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٨ ، الكتيبي ، ١٥٤)^(٣) .

ج (بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ٧٤ ، السندوبي ، رقم ٨٧ .

القول في الفرق بين الصدق والكذب .

أ (قبل ٢٣٢ .

ب (الحيوان ، ١ ، ٤ .

ط (الحيوان : والقول في الفرق بين الصدق اذا كان ضاراً في

العاجل والكذب اذا كان نافعاً في الاجل ، ولم جعل الصدق

ابداً محموداً والكذب ابداً مذموماً .

(١) ابن النديم ، ٢١٠ .

(٢) ابن النديم ، ٢١٢ .

(٣) عينه ، ٢١١ .

من المحتمل انه لا يعني مؤلفاً مستقلاً ، بل يعني الاشارة فقط الى
صفحة من كتاب البخلاء حول الصدق والكذب .

٩٣ - كتاب غش الصناعات .

(أ) قبل ٢٣٢ هـ .

(ب) الحيوان ، ١ ، ٢ ، ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٨ ، ١١٠ ، الكتبي ،
١٥٥ أ ، البغدادي ، الفرق ، ٦٣ ، الاسفراييني ، ٩٩ (١) .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٦٣ ، السندوبي ، رقم ٩٩ .

(ط) هذا ما قاله عنه الاسفراييني : « ومن كتبه ما صنفه في غش
الصناعات افسد بذلك على المفجدين (التجار) اموالهم وحث
بذلك الناس على الغش والخيانة » .

كتاب صناعة الكلام ، انظر كلام .

٩٤ - اقسام فضول الصناعات ومراتب التجارات .

(أ) قبل ٢٣٢ هـ .

(ب) الحيوان ، ١ ، ٤ ، ٤ ، ارشاد ، ٥٧ ، السودان ، ٥١٠ ، ٣ ، ٤ ، ١ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٨ ، الكتبي ، ١٥٤ (٢) .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٦٢ ، السندوبي ، رقم ٢٥ .

(ط) انظر الزرع .

٩٥ - كتاب الصرحاء والهجناء .

(أ) قبل ٢٣٢ هـ .

(ب) الحيوان ، ١ ، ٤ ، ٤ ، ١ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٨ ، الكتبي ، ١٥٤ (٢) .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٤٥ ، السندوبي ، رقم ٨٥ .

(ج) الحيوان ، ٣ ، ٥١٠ : « فاما الهجناء والمدح ومفاخرة السودان

(١) عينه ، ٢١٢ .

(٢) ابن النديم ، ٢١١ .

والحمران فان ذلك كله مجموع في كتاب الهجاء والصرحاء .

٩٦ - نقض الطب

- ب) ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٨ ، الكتبي ، ١٥٤ ب ، ابن
ابي اصيعة ، ١ ، ٣١٦ ، ٢ ، ٢٢ ، ابن القفطي ، ٤٣٨^(١) .
ج) بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ٧٢ ، السندوي ، رقم ١٥٣ .
ح) هيرشفلد ، ٢٠٢ ، وستنفلد ، ارتز ، ٤٥ ، رقم ٦٠ .
ط) نقض من قبل ابي بكر الرازي وابن مندويه (ابن أبي اصيعة
وابن القفطي ، اعلاه) .

٩٧ - كتاب الطفيليين .

- ب) ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٧ ، الصفدي ١٥٤^(٢) .
ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٥٤ ، السندوي ، رقم ٨٩ .
٩٨ × - كتاب العباسية .
أ) قبل ٢٣٢ هـ .
ب) الحيوان ، ١ ، ١٢ ، الخياط ، ١٧٢ ، الخياط ،
النهج ، ٤ ، ٩٧ - ٩٨ .
ج) بروكلمان ، ٢٤٣ ، رقم ١٧ ، السندوي ، رقم ٩١ .
و) النهج ، ٤ ، ٩٨ - ٩٩ ، رسائل ، ٣٠٠ - ٣٠٣ .
ط) من المحتمل ان يكون مؤلفاً يحمل عنوان امامة ولد (بني)
العباس .

الحيوان ، ١ ، ١٢ : « عتني بكتاب العباسية ، فهلا عتني
بحكاية مقالة من أبي وجوب الامامة الخ » . . .

(١) عينه ، ٢١١ .

(٢) عينه ، ٢١١ .

- ×× ٩٩ - كتاب فضل ما بين عبد شمس وبني هاشم .
 أ) قبل . ب . ارشاد ، ٦ ، ٧٦ / ١٦ ، ١٠٧ الكتبي
 . ب . ١٥٤ .
- ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٣ ، السندوي رقم ١٠١^(١) .
 ×× ١٠٠ - رسالة في فصل ما بين العداوة والحسد .
 ج) بروكلمان ، ٢٤٣ ، رقم ٤١ .
 د) الموصل ، ٢٦٥ ، داماد ، ٩٤٩ .
 هـ) مجموع ، ٩٩ - ١٢٤^(٢) .
- ١٠١ - رسالة في العفو والصفح .
 ب) ارشاد ، ٦ ، ٧٨ (١٦ ناقصة) ، الكتبي ، ١٥٥ أ^(٣) .
 ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٥٨ ، السندوي ، رقم ٩٧ .
 ١٠٢ - كتاب ذوي العاهات .
 ب) ارشاد ، ٦ ، ٧٨ / ١٦ ، ١١٠ ، الكتبي ، ١٥٥ أ^(٤) .
 ط) ضمن الجوارح والعرجان .
 عالم ، انظر احذوثة العالم .
- ×× ١٠٣ - كتاب تصويب علي في تحكيم الحكيم .
 ب) ارشاد ، ٦ ، ٧٦ / ١٦ ، ١٠٧ ، الكتبي ، ١٥٣ ب
 (تصويب علي في امر . .)^(٥) .
 ج) بروكلمان ، ٢٤٢ ، رقم ١٥ ، السندوي ، رقم ٤٣ ،
 ZDMG ، ١١٤ ، ٧٧ .
 د) انظر سنتاريو امري ، ١ ، ٤٠٣ - ٤٠٤ .

(١) نشر في « آثار الجاحظ » ، ص ١٩٣ - ٢٤٠ .

(٢) رسائل الجاحظ ، الجزء الاول ، ص ٣٣٧ - ٣٧٣ .

(٣) ابن النديم ، ٢١٢ .

(٤) هينه ، ٢١١ .

(٥) ابن النديم ، ٢١٠ .

هـ (نصوص^(١)) .

و (السندويي ، ص ١٢٨ (عشرة اسطر) .

ح (غريفيي ، في سنتاريو ميشال امري ، ١ ، ٤٠٣ - ٤٠٤
(في الحكمين وتصويب امير المؤمنين علي بن ابي
طالب) ، لغة العرب ، ٩ ، ٤٩٧ - ٥٠١ (في اثبات امير
المؤمنين ...) .

ط (قدم السندويي ، ١٢٨ ، منتخبات دون ذكر المصدر ،
ومن الممكن ان تكون المخطوطة المذكورة تحت رقم ٧٠
التي تحوي قسماً من كتاب امامة معاوية ، منتخبات من
تصويب علي ، انا نتوخى بهذا الصدد التفتيش عن اوسع
الايضاحات .

١٠٤ - كتاب العالم والجاهل .

ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٨ ، ١١٠ ، الكتبي ، ١٥٥^(٢)) .

ج (بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٥٢ ، السندويي ، رقم ٩٠ .
ذم عمل السلطان ، انظر كتاب السلطان .

١٠٥ - رسالة في من يسمي من الشعراء عمرا .

ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٨ ، ١٠٩ ، الكتبي ، ١٥٥^(٣)) .

ج (بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ٨٩ ، السندويي ، رقم ١٤٦ .

ط (يعتقد بروكلمان انه يوجد التباس مع الكتاب الحامل للعنوان
ذاته لصاحبه م . بن داود بن الجراح (انظر بروكلمان ، ١ ،
٢٢٥) ولكن ليس من المستحيل ان يكون الجاحظ الذي
يسمى عمراً قد الف هذا الكتاب .

(١) نشرت في مجلة المشرق ، ١٩٥٨ ، تحقيق شارل بلا .

(٢) ابن النديم ، ٢١١ .

(٣) عينه ، ٢١١ .

١٠٦ - كتاب التسوية بين العرب والمعجم .

(أ) قبل ٢٣٢ .

(ب) الحيوان ، ١ ، ٥ ، ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٨ ،
الكتبي ، ١٥٤ ب^(١) .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٢٩ ، السندويي ، رقم ٩٣ .

(ط) النص الوارد في الحيوان ، ١ ، ٥ ، يظهر ان هذا الكتاب
يختلف عن التالي : « وعبتي بكتاب العرب والمعجم ،
وزعمت ان القول في فرق ما بين العرب والمعجم هو القول في
فرق ما بين الموالي والعرب ، ونسبتي الى التكرار والترداد ،
والى التكثير والجهل بما في المعاد من الخطل وحمل الناس
المؤن » .



١٠٧ - كتاب العرب والموالي .

(أ) قبل ٢٣٢ هـ .

(ب) الحيوان ، ١ ، ٥ ، العقد ، ٢ ، ٢٦٢ ، البغدادي ،
الفرق ، ١٦٢ (فضل العرب على الموالي) .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٢٨ ، السندويي ، رقم ٩٤ .

(و) العقد ، ٢ ، ٢٦٢ .

(ط) الحيوان ، ١ ، ٥ : « وعبتي بكتاب العرب والموالي وزعمت
اني بخست الموالي حقوقهم كما اني اعطيت العرب ما ليس
لهم .

وفي النابتة : « كتبت كتباً في رد الموالي الى مكانهم من الفضل
والنقص ، والى قدر ما جعل الله تعالى لهم بالعرب من
الشرف ، وارجو ان يكون عدلاً بينهم وداعية الى صلاحهم .

(١) ابن النديم ، ٢١١ .

- ١٠٨ - رسالة في وصف العوام .
- ب (الخفاجي ، الطراز ، ٢ ، ١٧٥ - ١٧٦ .
- و (الخفاجي ، الطراز ، ٢ ، ١٧٥ - ١٧٦ .
- و (نفسه .
- ز (منتخبات (ريشر) ٥٥٠ - ٥٥٢ .
- xx كتاب العبر والاعتبار .
- ج (بروكلمان ، ٢٤٢ ، رقم ١١ .
- ح (انه عنوان آخر للكتاب المنحول المدعو بالدلائل والاعتبار ، ولكن بروكلمان يميز بينهما تمييزاً لا مبرر له^(١) .
- ١٠٩ - كتاب فضل العلم .
- ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٨ ، الكتيبي ١٥٤ ب^(٢) .
- ج (بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٥٩ ، السندوبي ، رقم ١٠٩ .
- xx باب العرافة والزجر والفراسة على مذهب الفرس .
- ج (بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٤٥ .
- د (ليد ١٢١٠ .
- هـ (طبع ك . انستراتسف ، في زايشي الفرع الشرقي سنأرسبول ١٨ ، سان بترسبورغ ، ١٩٠٧ .
- ز (ترجمة روسية ، نفسه .
- ط (هذا المؤلف واضح النحل .
- ١١٠ - كتاب العرس والعروس .
- ج (بروكلمان ، ٢٤٣ ، رقم ٢١ .
- x ١١١ - رسالة في العشق .

(١) ابن النديم ، ٢١١ (التفكير والاعتبار) .

(٢) عينه ، ٢١١ .

ب) ارشاد ، ٦ ، ٧٥ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٨ ، الكتبي ، ١٥٤ ،
الصفدي ، ١٣٤ .

ج) بروكلمان ، ٢٤٣ ، رقم ٢٠ ، السندوبي ، رقم ٩٦ .

د) المتحف البريطاني ١١٢٩ .

و) هامش الكامل ، ١ ، ٣٠ - ١٦٦ ، ١١ رسالة ، ١٦١ -

١٦٩ ، رسائل ، ٢٦٦ - ٢٧٥ (كتاب في النساء) ،

المستطرف ، ٢ ، ٢١٧ .

ز) منتخبات (ريشر) ، ١٨٨ - ١٩٤ .

ط) ان كاتب الاصل المعتمد من قبل مختلف الناشرين مزج

بوضوح عدة رسائل ، وبصورة خاصة الرسالة في العشق

والرسالة في النساء اللتين كانتا مستقلتين (انظر رقم

١٤٦) .

كتاب عصام المرید (انظر غنام المرتد) .

ذم العلوم ومدخلها .

ج) بروكلمان ، ٢٤٣ ، رقم ٢٤ .

د) الفاتح ، ٣٨٩٨ .

هـ) طبعة بلا في المشرق ١٩٥٦ .

ط) الامر بكل تأكيد نسبة خاطئة .

١١٢ - رسالة الى ابي الفرج بن نجاح في امتحان عقول الاولياء .

ب) ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٩ ، الكتبي ١٥٥ .

ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٥٠ ، السندوبي ، رقم ٢٩ .

١١٣ x - كتاب المرجان والبرصان والقرعان .

أ) قبل ٢٤٠ .

ب) البيان ، ٣ ، ٧٤ ، ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ، ٢٠٧ ،

- السيوطي ، البغية ، ٣٦٥ (١) .
- ج (بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٥٣ ، السندوبي ، رقم ٩٥ .
- ط (ضمن الجوارح (٢) .
- ×× ١١٤ - كتاب (مقالات) العثمانية .
- أ (قبل ٢٣٢ هـ .
- ب (الحيوان ، ١ ، ٢ ، وارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٧ ،
- الكتبي ، ١٥٣ ب ، ابن قتيبة ، مختلف ، ٧١ ، النهج ، ٣ ،
- ٢٥٣ ، المسعودي ، مروج ، ٤ ، ٥٦ ، (٣) .
- ج (بروكلمان ، ٢٤٢ ، رقم ٨ ، السندوبي ، رقم ٩٢ .
- د (المتحف البريطاني ، ١١٢٩ ، كوبرلي ، ٨١٥ .
- هـ (طبعة ع . س . هارون ، القاهرة ، ١٣٧٤/١٩٥٥ .
- و (النهج ، اعلاه ، رسائل ، ١ - ١٢ (مع نقض الاسكافي
- المستخرج من النهج) .
- ط (انظر ارابيكا ٣/١٩٥٦ - اثر نقدي .
- ١١٥ - كتاب مسائل العثمانية .
- ب (المسعودي ، مروج ، ٦ ، ٥٧ .
- ج (السندوبي ، رقم ١٣١ .
- ط (انه تمة للكتاب السابق . يقول المسعودي : « يذكر فيه ما
- فاته ذكره ونقضه عند نفسه من فضائل امير المؤمنين علي
- ومناقبه فيما ذكرنا (اقرأ : كما ذكرنا) .
- ١١٦ - كتاب الرد على العثمانية .
- ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٧ ، الكتبي ، ١٥٣ ب ،

(١) ابن النديم ، ٢١٠ (المرجان والبرصان) .

(٢) طبع في دار الاعتصام للنشر ، القاهرة ١٩٤٥ .

(٣) ابن النديم ، ٢١٠ (العثمانية) .

الصفدي ١٣٤ (١)

ج (السندوبي ، رقم ٧٩ .

١١٧ - كتاب بصيرة غنام المرتد .

أ (قبل ٢٣٢ هـ .

ب (الحيوان ، ١ ، ٩ ، ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٧ (عصام

المريد) ، الكتبي ، ١٥٣ ب (عصام المرتد) (٢)

ج (بروكلمان ٢٤٥ ، رقم ١٧ ، السندوبي ، رقم ٣٧ .

ط (انه مرتد حرق في عام ٨٣٩/٢٢٤ ، انظر R. S. O. ، ١٣ ،

١٤٤ ، الحيوان ١ ، ٩ ، ثم عبت انكاري بصيرة غنام

المرتد وبصيرة كل جاحد وملحد وتفرقي بين اعتراض الغنم

وبين استبصار الحق .

١١٨ - القول في الفرق بين الغيرة واضاعة الحرمة .

ب (الحيوان ، ١ ، ٤ .

ط (ان نص الحيوان الذي ذكرت فيه هذه الدراسة حول الغيرة ورد

بعد ذكر كتاب البخلاء حيث يعالج بالتأكيد هذا الموضوع

ولكن دون ان يعطيه التوسيع الذي يفترضه ما يلي : « الفرق

بين الغيرة واضاعة الحرمة وبين الافراط في الحمية والانفة

وبين التخصير في حفظ حق الحرمة وقلة الاكتراث لسؤ القلة ،

وهل الغيرة اكتساب وعادة الخ » . ويمكن ان نفكر بوجود

مؤلف مستقل .

كتاب مفاخرة الغلمان والجواري ، (انظر الجواري) .

كتاب غش الصناعات ، انظر صناعات .

(١) ابن النديم ، ٢١٠ .

(٢) عينه ، ٢١٠ (غنام المرتد) .

١١٩ - كتاب فضل الفرس على الهملاج .

ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٩ ، الكتيبي ، ١٥٥^(١)) .

ج (بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ٧٧ ، السنديوي ، رقم ١١٠) .

ط (في الارشاد ، الذي اورد . كتاب فضل الفرس . كتاب على

الهملاج ، يجب ان نقرأ الفرس ونحذف كلمة كتاب .

كتاب فرط جهل الكندي (انظر كندي) .

١٢٠ - كتاب في الفرق الاسلامية .

ب (ابو الفداء ، التاريخ ، ١١ ، ٥٠) .

١٢١ - كتاب الفتيان .

ب (الارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٧ ، الكتيبي ١٥٤) .

ج (بروكلمان ، ٢٤٦ ، السنديوي ، رقم ١١) .

ط (في كتاب التاج ، انظر ترجمة بلا ، ١٣ ، ٢٨ ، اشارة الى كتاب

اخلاق الفتيان وفضائل البطالة ، وهو لا يزال موضع شك .

١٢٢ × - رسالة في فنون شتى مستحسنة .

ج (بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٦١) .

د (انظر بروكلمان) .

١٢٣ - كتاب اصول الفتيا (والاحكام)

أ (قبل ٢٣٢ هـ) .

ب (الحيوان ، ١ ، ٩ ، ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٧ ،

الكتيبي ، ١٥٤ ب . البغدادي ، الفرق ، ١٦٢^(٢)) .

ج (بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٤٤ ، السنديوي ، رقم ٢١) .

ط (الحيوان ، ١ ، ٩ : وعبثي كتابي في القول في اصول

(١) ابن النديم ، ٢١٢ .

(٢) عنه ، ٢١١ (الفتيا) .

الفتيا والاحكام « البغدادي ، ١٦٢ : « وهو مشحون بطعن
استاذ النظام على اعلام الصحابة » .

× × ١٢٤ - رسالة الى ابي عبدالله احمد بن ابي دؤاد الايادي ، يخبره فيها
بكتاب الفتيا .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٣ ، رقم ٤٠ .

(د) داماد ، ٩٤٩ ، الموصل ، ٢٦٥ .

(هـ) طبعة د . جليبي ، في لغة العرب ، ٨ ، ٦٨٦ - ٦٩٠ (١) .

× ١٢٥ - كتاب القحطانية والمدنانية .

(أ) قبل ٢٣٢ .

(ب) الحيوان ، ١ ، ٤ ، النابتة ، ترجمة پلا ، ٣٢٥ ، ارشاد ، ٦ ، ٧٦ /

١٦ ، ١٠٧ ، الكتبي ، ١٥٤ ، البغدادي ، الفرق ، ١٦٢ .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٢٧ ، السندوي ، رقم ١١٤ .

(ط) السودان ، ٨٥ ، أوردت العنوان التالي : كتاب مفاخر القحطانية

والكنانية وسائر المدنانية . ونقرأ في الحيوان ١ ، ٤ - ٥ : « وهبني

بكتاب القحطانية (وكتاب) المدنانية في الرد على القحطانية ، وزعمت

أني تجاوزت فيه حد الحمية الى حد العصبية ، وإني لم أصل الى تفضيل

المدنانية إلا بنقص القحطانية » .

وجاء في كتاب النابتة : « كتبت كتاباً في مفاخرة قحطان وفي تفضيل

عدنان » . وهذا ما يشير افتراضاً بأن الجاحظ هو مؤلف عدة كتب حول

هذا الموضوع (٢) .

١٢٦ - رسالة في الرد على القولية .

(١) رسائل الجاحظ ، الجزء الاول ، ص ٣٠٩ - ٣١٩ وهي رسالة الى احمد بن ابي دؤاد
يخبره فيها بكتاب الفتيا .

(٢) بن النديم ، ٢١١ (فخر القحطانية والمدنانية)

- (ب) ارشاد ، ٦ ، ١٦ / ٧٨ ، ١١٠ (١) .
- (ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٢١ ، السنديوي ، رقم ٧٤ .
- ١٢٧ - كتاب في القحاب .
- (ب) البغدادي ، الفرق ، ١٦٢ ، اسفراييني ، ٤٩ ب .
- (ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٤٧ ، السنديوي ، رقم ١١٣ .
- (ط) انظر كتاب .
- ١٢٨ x - رسالة القيان (٢) .
- (ج) بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٥١ ، السنديوي ، رقم ١١٨ .
- (د) داماد ، ٩٤٩ ، الموصل ، ٢٦٥ .
- (هـ) ٣ رسائل (فنكل) ٥٣ - ٧٥ (٣) .
- (ز) منتخبات (ريشر) ، ٧٨ - ١٠٠ ، ترجمة فرنسية قيد الاعداد .
- ١٢٩ - كتاب احالة القدرة على الظلم .
- (ب) ارشاد ، ٦ ، ١٦ / ٧٧ ، ١٠٨ ، الكتيبي ، ١٥٤ (١) .
- ١٣٠ - كتاب في القضاة والوزراء والولاة .
- (ب) ارشاد ، ٦ ، ١٦ / ٧٨ ، ١١٠ ، الكتيبي ، ١٥٥ (٥) .
- (ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٥٥ ، السنديوي ، رقم ١١٥ .
- (ط) ضمن اخلاق الوزراء .
- ١٣١ - كتاب القرآن .
- (ج) السنديوي ، رقم ١٣٣ .
- (ط) انظر مسائل القرآن .
- ١٣٢ - كتاب آي القرآن .

(١) ابن النديم ، ٢١١ .

(٢) ابن النديم ، ٢١٠ .

(٣) رسائل الجاحظ ، ١٤٣ - ١٨١ ، آثار الجاحظ ، ٦٦ - ٩٤ .

(٤) ابن النديم ، ٢١١ .

(٥) عينه ، ٢١٢ .

(أ) قبل ٢٣٢ .

(ب) ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٨ ، الكتبي ١٥٤^(١) .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ١٢ ، السندويي ، رقم ١٢ .

(ط) الحيوان ، ٣ ، ٨٦ : وولي كتاب جمعت فيه آياً من القرآن لتعرف بها فصل ما بين الایجاز والحذف وبين الزوائد والفضول والاستعارات ، فإذا قرأتها رأيت فضلها في الایجاز والجمع للمعاني الخ

× ١٣٣ - كتاب خلق القرآن .

(أ) قبل ٢٣٢ هـ .

(ب) الحيوان ، ١ ، ٩ .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٤ ، ٢ ، ١٥٩ ، السندويي ، رقم ٦٦ .

(د) المتحف البريطاني ، ١١٢٩ .

(و) نصوص^(٢) .



١٣٤ - كتاب مسائل القرآن^(٣) .

(ب) ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٧ ، الكتبي ، ١٥٣ ب .

(ط) يمكن ان يكون كتاب المسائل . انظر اعلاه .

١٣٥ - كتاب في الاحتجاج لنظم القرآن .

(هـ) (أ) قبل ٢٣٢ .

(ب) الحيوان ، ١ ، ٩ ، ارشاد ، ٦ ، ١٦ / ٧٦ ، ١٠٧ ، فهرست ٥٧ ،

الباقلاني ، ٦ ، ٦ ، الكتبي ١٥٣ ، ب ، الخياط ، ٢٢ ، ١٥٤ ،

(٤) .

(١) عينه ، ٢١١ (الفضاة والولة) .

(٢) آثار الجاحظ ، ٢٧١ - ٢٧٤ .

(٣) ابن النديم ، ٢١٠ (كتاب المسائل في القرآن) .

(٤) ابن النديم ، ٢١٠ (نظم القرآن) .

ج) بروكلمان ٢٤٤ ، رقم ٥ ، السندويي رقم ٦ .
ط) أنظر ما قاله الباقلاني : « وقد صنف الجاحظ في نظم القرآن كتاباً لم
يزد فيه على مقاله المتكلمون قبله ، ولم يكتشف عما يلبس في أكثر هذا
المعنى » .

وجاء في الحيوان ١ ، ٩ : « عبت كتابي في الاحتجاج لنظم القرآن
وغريب تأليفه وبديع تركيبه ^(١) »

١٣٦ - كتاب مفاخرات قریش .

ب) النهج ، ٣ ، ٢٣ .

و) نفسه .

ط) من المحتمل أن يكون هو المؤلف ذو العنوان : كتاب فضل هاشم على
عبد شمس .



xx ١٣٧ - رسالة في صناعة القواد .

أ) قبل ٢٢٢ و ٢٢٧ .

ب) ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٧ ، الحصري ، الجمع ، ١٤٢ -
١٤٨ ^(٢) .

ج) بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٥٣ ، السندويي ، رقم ١١٧ .

د) داماد ، ٩٤٩ .

(١) في آثار الجاحظ ، ص ٢٦٤ - ٢٧٠ . نجد بعض أفكار الجاحظ حول الاحتجاج
لنظم القرآن ، وهو يعتبر نظم القرآن معجزة ودلالة على النبوة . كما نجد الجاحظ
يذكر هذا الكتاب في سياق كتاب « خلق القرآن » : « فلم ادع له مسألة لرافضي
ولا لحدیثي ولا لحشوي ولا لكافر مباد ولا لمنافق مفسوع ولا لاصحاب النظام ولن
نجم بعد النظام ومن يزعم ان القرآن حق وليس تأليفه بحجة وانه تنزيل وليس
ببرهان ولا دلالة » .

(٢) ابن السديم ، ٢١٠ (القواد) ، اورد الحصري رسالة الجاحظ الى المتصم في
الحظ على تعليم اولاده ضرور العلم وانواع الاداب في ذيل زهر الاداب
(المطبعة الرحمانية بمصر ، ١٣٥٣ هـ) ص ١١٦ - ١٢٠ .

(و) الحصري ، أعلاه ، رسائل ، ٢٦٠ - ٢٦٥ ، د . جلي ، في لغة العرب ، ٩ ، ٢٦ - ٢٨ .

(ز) منتخبات (ريشر) ، ٥٢٧ - ٥٣٣ .

(ط) الكتيب نفسه يحمل العناوين التالية : ذم القواد ، طبائع القواد ، ورسالة الى المعتصم في الحض على تعليم أولاده ضروب العلوم وأنواع الأدب (أنظر بروكلمان ، ٢ ، ١٥٩) .

١٣٨ - كتاب فضيلة (فضل) الكلام .

(ب) الصفدي ، ١٣٤ ، ابن أبي أصيبعة ، ١ ، ٣١٦ ، ابن القفطي ، ٢٧٤ (١) .

(ج) السندوبي ، رقم ١١٢ .

(ح) نقض من قبل أبي بكر الرازي كما أشار ابن أبي أصيبعة وابن القفطي .

١٣٩ - كتاب صناعة (صياغة) الكلام .

(ب) ارشاد ، ٦ ، ٧٦ / ١٦ ، ١٠٧ ، الكتيب ، ١٥٤ ، ١ ، المسعودي ، مروج ، ٨ ، ٤٣١ .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٢ ، السندوبي ، رقم ٤٥ ، ورقم ٨٦ .

(د) المتحف البريطاني ١١٢٩ .

(و) هامش الكامل ، ٢ ، ٢٣٨ - ٢٤٦ .

(ز) منتخبات (ريشر) ١٥٩ - ١٦٣ .

(ط) ان الحيوان ، ١ ، ٧ ، يذكر الرسائل الهاشمية دون أن يتمكن من

تثبيت محتواها . بينما يعلن المسعودي ، ٨ ، ٤٣١ ، أن كتاب الجاحظ

في تفصيل صناعة الكلام معروف باسم الرسائل الهاشمية .

(١) عينه ، ٢١٠ (صناعة الكلام) .

١٤٠ - رسالة في الكرم الى ابي الفرج بن نجاح .

ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٨ ، ١٠٩ (١)) .

ج (بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٤٣ ، السندوي ، رقم ١٢١ .

في R.S.O. ، ١٢ ، ٤٤٥ - ٤٥١ ، إن الرسالة المطبوعة تحت هذا الإسم

ليست رسالة في الكرم وإنما هي طلب جوائز (أنظر رقم ٣ أعلاه) .

١٤١ - كتاب الكبر المستحسن والمستفيع .

ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٩ ، الكتيبي ، ١٥٤ ب (٢)) .

ج (بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٤ ، السندوي ، رقم ١١٩

ط) من المحتمل ان يكون هذا عنواناً آخر للكتيب المشار اليه في

الرقم ١٢٨ .

١٤٢ - كتاب الكلاب

ب (البغدادي ، الفرق ١٦٢ ، الإسفراني ، التبصير ، ٤٩ ب .

ج (السندوي ، رقم ١٢٢ .

ط (البغدادي يقول : « كتبه في القحاب والكلاب واللاطة » .

١٤٣ - كتاب (كتمان) الكيمياء

ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٨ ، ١١٠ ، الكتيبي ، ١٥٥ أ ، الصفدي ،

١٣٤ (٣)) .

ج (بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٧١ ، السندوي ، رقم ١٢٣ .

١٤٤ - رسالة في فرط جهل يعقوب بين اسحق الكندي .

ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٨ ، ١٠٩ ، الكتيبي ، ١٥٥ أ ، الصفدي ، ١٣٤ (٤)) .

(١) ابن النديم ، ٢١١ .

(٢) هينه ، ٢١١ .

(٣) هينه ، ٢١١ (رسالة في كميات الكيمياء) .

(٤) هينه ، ٢١١ .

ج) بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ١٠٢ ، السندويي رقم ١٠٣ .
ط) يعني الفيلسوف الكندي .

انظر رسالة في كتمان السر ، انظر سر .

١٤٥ - رسالة في ذم اخلاق الكتاب .

ب) ارشاد ، ٦ ، ٧٨ / ١٦ ، ١٠٩ . الكتبي ، ١٥٥ أ ، عبدالله
البغدادي الحجاب كتاب الحجاب ، طبعة سورول ، في B.E.O ، دمشق
١٤ ، ١٩٥٢ - ١٩٥٤ (١٢٤) .

ج) بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٥٠ ، السندويي ، رقم ٦٩ .

د) داماد ، ٩٤٩ ، الموصل ٢٦٥ .

هـ) هامش الكامل ، ٣ رسائل (فنكل) ٤٠ - ٥٢ (٣) .

ز) منتخبات (ريشر) ٦٧ - ٧٧ ، ترجمة فرنسية ، يلا ،
في هسبري ، ١٩٥٦ ، ٢٩ - ٥٠ .

ح) لغة العرب ، ٩ ، ٦٢٠ - ٦٢١ .

ط) النص الذي انتهى الينا لا يمثل الرسالة الأصلية ، إنه مقتطفات لا يوجد
منها سوى بضع صفحات للجاحظ .
١٤٦ - رسالة في مدح الكتاب :

ب) ارشاد ، ٦ ، ٧٨ / ١٦ ، ١٠٩ ، الكتبي ، ١٥٥ أ (٣) .

ج) السندويي ، رقم ١٢٦ .

رسالة في فضل اتخاذ (مدح) الكتب .

(١) ابن النديم ، ٢١١ .

(٢) رسائل الجاحظ ، ٢ ، ١٨٣ - ٢٠٩ .

(٣) ابن النديم ، ٢١١ .

- ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٩)^(١) .
- ج (بروكلمان ، ٢٤٣ ، رقم ٢٥ ، السندويي ، رقم ١٠٧)
- د (افكاف ، ٣٤٤٨ .
- ط (انه مجرد منتخبات من كتاب الحيوان ، ١ ، ٣٨ .
- ١٤٧ - رسالة في الكلام .
- ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٩ .
- ج (بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٧ ، السندويي ، رقم ١١٦ .
- ١٤٨ - رسالة الى كليب المغربي .
- ب (سرح ، ١٧٥ .
- و (نفسه ، الجمهرة ، ٤ ، ٥٧ - ٥٨ (٤ اسطر) .
- ١٤٩x - رسالة في ذم اللواط .
- ب (البغدادي ، الفرق ، ١٦٢ .
- ج (بروكلمان ، ٢٤٣ ، رقم ٣٣ .
- د (المتحف البريطاني ، ١١٢٩ .
- ه (هامش الكامل ، ١ ، ٣١ - ٣٢ ، نصوص) .
- ز (منتخبات (بشر) ١٠٨ - ١١١)^(٢) .
- كتاب الفرق في اللغة .
- ج (بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٥٧ .
- د (قرويين ، ١٢٦١ .
- ط (يوجد خطأ ، الكاتب هو ثابت بن ابي ثابت .
- ١٥٠x - كتاب حيل اللصوص
- أ (قبل ٢٣٢ هـ .
- ب (الحيوان ، ٢ ، ١٥٦ ، البخلاء (في تصنيف حيل لصوص

(١) عنه ، ٢١١ ، (رسالة في فضل إيهاد الكتب) .

(٢) يوجد صفحة من هذه الرسالة ضمن رسالة المعلمين التي نشرها عبد السلام هارون (رسائل الجاحظ ج٣) .

النهار وفي تفصيل حيل سراق الليل) ، ارشاد ، ٦ ،
١٦/٧٦ ، ١٠٧ ، الكتبي ، ١٥٣ ب ، البغدادي ، الفرق ،
١٦٢ ، الإسفراييني ٤٩ أ ، ياقوت ، البلدان ، ٤ ،
٢٣١ (١) .

ح) بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٥٥ ، السندوبي ، رقم ٦١ .

د) الموصل (حكاية عثمان الخياط في اللصوص ووصاياه) .

و) البيهقي ، المحاسن ، ٥٢١ - ٥٢٣ ، ياقوت ، البلدان ،
٢ ، ٦٨٠ .

هذا ما يقوله الاسفراييني : « كتاب حيل اللصوص يعلم
اللصوص فيه الحيل التي يتوصلون بها الى الفساد ،
يمدحهم بالشطارة ويزعم انها من مروتهم ، ويمدحهم
باختبارهم الغلمان على النسوان وبانهم يلعبون بالنرد
والشطرنج ، ويحثهم على القمار ويزعم انه من المروءة ومن
الآداب المرضية ومن عدة الرغادة والشطارة في المروءة وزينها
وحت عليها ، فقد خالفنا الشريعة والمروءة لان المسلمين
اطبقوا على ان من كانت هذه طريقته كان مذموماً في
الشريعة والمروءة » .

xx ١٥١ - رسالة المعاد والمعاش في الادب وتدبير الناس ومعاملاتهم .

أ) التحرير الاول بعنوان في الاخلاق المحموده ، قبل ٢٣٢ هـ ،

التحرير الثاني بعنوان المعاد والمعاش بعد هذا التاريخ .

ب) ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٨ ، الكتبي ١٥٤ أ (٢) .

ج) بروكلمان ، ٢٤٣ ، رقم ٣٦ ورقم ٣٨ ، السندوبي ، رقم

١٣٥ .

(١) ابن النديم ، ٢١٠ (اللصوص) .

(٢) ابن النديم ، ٢١١ ، (المعاد والمعاش) .

(د) الموصل ، ٢٦٥ ، داماد ، ٩٤٩ ، برلين ٥٠٣٢ (انظر
اوريان ١٩٥٤ ، ٨٥) ، المتحف البريطاني ١١٢٩ .

(هـ) مجموع ، ١ - ٣٦ (١)

١٥٢ - كتاب المعادن .

(ا) قبل ٢٣٢ هـ .

(ب) الحيوان ، ١ ، ٦ ، .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٦ رقم ٧٩ ، السندوبي ، رقم ١٣٦ .

(ط) الحيوان ، ١ ، ٦ ، : وعبثي بكتاب المعادن والقول في
جواهر الارض وفي اختلاف اجناس الفلز والابخار عن ذائبها
وجامدها ومخلوقها ومصنوعها وكيف يسرع الانقلاب الى بعضها
ويبطيء عن بعضها وكيف صار بعض الالوان يصبغ ولا
ينصبغ . وبعضها لا يصبغ وينصبغ وما القول في الاكسير
والتلطيف .

١٥٣ - كتاب المعارف .

(ب) البغدادي ، الفرق ، ١٣٣ ، ١٨٢ .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ٩٤ .

١٥٤ - كتاب المضاحك

(ب) البغدادي ، الفرق ، ١٥٨ .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ٩٩ ، السندوبي ، رقم ١٣٤ .

xx - كتاب المحاسن والاضداد والمعائب والفرائب .

(ب) البغدادي ، الخزانة ، ١ ، ٣٤ .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ٢ ، السندوبي ، ص ١٥٥ - ١٥٨ .

(د) المتحف البريطاني ١١٢٨ ، مراد ملا ، ١٨٤٢ .

(١) رسائل الجاحظ ، الجزء الأول ص ٨٧ - ١٣٤ ، (بعنوان المعاش والمعاد) .

ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٧ ، الكتبي ، ١٥٣ ، ب ،
الصفدي ، ١٣٤ .
ج (السندوبي ، رقم ٥١ .
د (المتحف البريطاني ١١٢٩ .
و (نصوص .
١٥٨ - كتاب المسائل .
أ (قبل ٢٣٢ هـ .

ب (الحيوان ، ١ ، ٩ ، البخلاء ، ٤ .
ج (بروكلمان ٢٤٦ ، رقم ٩٣ ، السندوبي ، رقم ١٣٠ .
ط (من الممكن ان يكون الجاحظ قد كتب كتاب المسائل
والجوابات في المعرفة بعد كتاب المعرفة ، وان يكون ثمة
كتابان بدل اربعة . ولكن نقرأ في الحيوان ، ١ ، ٩ : « عبث

جملة كتبي في المعرفة »
كتاب الموالي والعرب ، انظر : العرب والموالي .
كتاب في فضل الموالي على العرب .
ب (البغدادي ، الفرق ١٦٢ .
ط (تحقيق واحد ، عند محقق لا يجب الجاحظ ، لعنوان غير
معقول .

رسالة في المودة والخلافة .
ج (بروكلمان ، ٢٤٣ ، رقم ٢٨ .
د (المتحف البريطاني ، ١١٢٩ .
و (هامش الكامل ، ٢ ، ١٩٩ - ٢٢١ . رسائل ٣٠٣ - ٣١٠ (١)
١٦٠ - رسالة في موت ابي حرب الصفار البصري .

ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٨ ، ١١٠ ، الكتبي ، ١٥٥ ، (٢)
ج (بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٣٤ ، السندوبي ، رقم ١٤٧ .

(١) طبعة عبد السلام هارون ، رسائل الجاحظ ، ج ، ص ١٩١ - ٣٠٤
(٢) ابن النديم ، ٢١١ .

(د) برلين ٣٢ ، ٥ (ادار اوريان ، ١٩٥٤ ، ٨٥) .
(هـ) طبعة الحاجري ، في الكاتب المصري ، ٣ ، ٩ ، حزيان
١٩٤٦ ، ٣٨ - ٤٤ .

كتاب احتجاج صاحب المعز والضأن .

(ب) الجوارى ، ٦ .

(ط) بدون شك ، انه تلميح بسيط لنص وارد في الحيوان ، وليس
كتاباً مستقلاً .

١٦١ - رسالة في الميراث .

(ب) ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٨ ، ١١٠ ، الكتبي ، ١٥٥ (١) .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٢٦ ، السندوبي ، رقم ١٤٨ .

١٦٢ - رسالة في مفاخرة المسك والرماد .

(ب) الصفدي ، شرح لامية المعجم .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ٨٢ ، السندوبي ، رقم ١٤٢ .

١٦٣ × - كتاب المعلمين .

(ب) ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٧ ، الكتبي ، ١٥٤ ، ب ،

الابشيهي ، ٢ ، ٣١٨ (٢) .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٥٢ ، السندوبي ، رقم ١٣٩ .

(د) المتحف البريطاني ١١٢٩ .

(و) هامش الكامل ، ١ ، ١٧ - ٣١ ، نصوص .

(ز) منتخبات (ريشر) ١٠١ - ١٠٨ .

(ح) هيرشغلو ٢٠٢ ، ٢٠٩ ، ر . ر . بشه ، ١٠٠١ حكاية ، ٢ ،

١٥٩ - ١٦٠ ، بلا الوسط البصري ، ٦٢ (٣) .

١٦٤ × - رسالة في طبقات المغنين .

(أ) في بغداد عام ٢١٥ .

(١) ابن النديم ، ٢١١ .

(٢) عينه ، ٢١٠ .

(٣) طبعة عبد السلام هارون ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ ، ص ٢٧ - ٥١ .

- ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٨ ، ١١٠ ، الكتبي ، ١٥٥ ، أ ،
اسفرايني ، ٤٩ ب^(١))
- ج (بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٤٩ ، السندويي ، رقم ٨٨ .
د) المتحف البريطاني ١١٢٩ .
- و (هامش الكامل ، ١ ، ١٢٠ - ١٣٠ ، ١١ رسالة ، ١٨٦ -
١٨٩ .
- ز (منتخبات (ريشر) ٢٠٤ - ٢٠٦ ^(٢)) .
- × ١٦٥ - (هجاء) محمد بن الجهم البرمكي .
د (برلين ٥٠٣٢ (ادار اوريان ، ١٩٥٤ ، ٨٥) .
هـ (طبعة الحاجري في الكاتب المصري ، شباط ١٩٤٧ ، ٥٥ -
٦٢ .
- ١٦٦ - كتاب حويل المكدين .
ب (البغدادي ، الفرق ، ١٦٢ ، الاسفرايني ، ٤٩ ب .
ج (بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٦٦ ، السندويي ، رقم ٦٢ .
ط (يمكن ان يكون فصلاً مخصصاً للمجتالين في البخلاء ، ضمن
البيهقي ، المحاسن ، ٦٢٢ - ٦٢٧ .
- ١٦٧ - كتاب إلى ابراهيم بن المدبر في المكاتبه .
ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٨ ، الكتبي ، ١٥٤ ب^(٣)) .
ج (بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ٨٤ ، السندويي ، رقم ١ .
١٦٨ - كتاب الملح والطرف .
أ (قبل ٢٣٢ .
ب (الحيوان ، ١ ، ٣ .
ج (بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ١٠٠ ، السندويي ، رقم ١٤٣ .

(١) عنه ، ٢١٢ ، (المغنين) .

(٢) طبعة عبد السلام هارون ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ ، ص ١٣١ - ١٣٦ .

(٣) ابن النديم ، ٢١١ .

ط (الحيوان ، ١ ، ٣ - ٤ : « وعبثني بكتاب الملح والطرف وما
حر من النوادر وبرد ، وما عاد حاراً لفرط برده حتى امتع باكثر
من امتاع الحار .

١٦٩ - الملوك والامم السالفة والباقية .

ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٨ ، ١١٠ ، الكتبي ، ١٥٥)^(١) .

ج ، بروكلمان ٢٤٥ ، رقم ٣٥ ، السندوبي رقم ١٤٤ .

كتاب أخلاق الملوك . انظر تاج .

١٧٠ - كتاب المغنين والغناء والصفة .

ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٨ ، الكتبي ١٥٤)^(٢) .

ط (بما ان ياقوت والكتبي يذكران بعد قليل كتاب طبقات المغنين

يبدو من الضروري عدم تصحيح المقينين بالمغنين ، واعتبار

الجاحظ مؤلف كتاب حول ملاك العبيد المغنين (المقينين)

الغناء والموسيقى .

١٧١ - كتاب الرد على المشبهة .

(أ) نحو ٢٢٠ هـ . مركز تحقيق التراث ، بيروت

ب (الحيوان ، ١ ، ٤ ، ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٧ ،

الكتبي ، ١٥٣ ، ب ، الخياط ، ٢٢ ، الصفدي ، ١٣٤)^(٣) .

ج (بروكلمان ، ٢٤ ، ٢ ، ١٥٩ ، السندوبي ، رقم ٨٠ .

ط (انظر تشبيه .

١٧٢ - كتاب فضيلة المعتزلة .

(أ) قبل ٢٣٢ هـ .

ب (الحيوان ، ١ ، ٩ ، ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٧ ،

(١) هـ ، ٢١٢ .

(٢) هـ ، ٢١١ .

(٣) ابن النديم ، ٢١٠ .

الكتبي ، ١٥٣ ب ، الخياط ، ١٠٣ (١) .

ج) بروكلمان ، السندوبي ، رقم (الاعتزال وفضله) ، رقم
١١١ .

ط) كتب نيسرج في مقدمة طبعة الخياط (٢٣-٢٤) : « ويظهر ان مثل
هذه التجارب مما دعا عمرو بن بحر الجاحظ احد رؤسائهم
واعيانهم الى وضع كتابه الذي اسماه فضيلة المعتزلة ، فان
الفرض الذي رمى اليه الجاحظ بتأليفه لم يكن الثناء على
المعتزلة وحد فضائلها فقط ، بل قصد ايضاً الى الرد على
الرافضة والسطعن فيهم ووصف فضائلهم كما هو مبين من
جدول ابواب الكتاب الذي نقله الخياط في كتاب الانتصار .
ضمن كلام ابن الراوندي وكما يلوح من القطع الباقية منه لفظاً
او معنى الواردة في المناقشة بين الخياط وابن الراوندي ، وكان
السطعن في الرافضة من اهم ما كلفت المعتزلة نفسها به منذ
ابتداء امرها . . . وكان الجاحظ عالماً كبيراً وكاتباً بليغاً مليحاً
اديباً ، فلا بد وان يكون كتابه هذا توجهت اليه ابصار الخاصة
والعامه وصار له بلا شك نفوذ وتأثير في الرأي العام ، فكان
من المحتم ظهور ردود عليه من جهة الرافضة ، ولقد ظهر
جواب ذلك ، وهذا الجواب هو كتاب فضيحة المعتزلة لاحمد
ابن يحيى الراوندي الذي كان قد انتسب الى المعتزلة وتعرف
بمذاهبهم ثم انتقل الى الرافضة وصار من انصارهم .

رسالة في المزاح والجد ، انظر جد .

١٧٣ - كتاب فرق (فصل) ما بين النبي والمتنبي .

أ) قبل ٢٣٢ هـ .

ب) الحيوان ، ١ ، ١٠ ، ٤ ، ٣٧٨ ، ارشاد ، ٦ ، ٧٣ ،

(١) حنه ، ٢١٠ .

١٦/٧٥ ، ١٠١ ، ١٠٦ ، الكتبي ، ١٥٣ ، ب ، الصفدي ،
١٣٤ (١) .

ج (بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٩ ، السندوبي ، رقم ١٠٦ .
ط) لا مجال لتمييز هذا الكتاب عن كتيب آخر عنوانه فرق ما بين
الحيل والمخاريق وهذا ما يظهر في النص التالي (الحيوان ،
١ ، ١٠) : « وكتاب فرق ما بين النبي والمتنبي والفرق ما بين
الحيل والمخارق وبين الحقائق الظاهرة والاعلام الباهرة ، ثم
قصدت الى كتابي هذا بالتصغير لقدره والتهجين لنظمه
والاعتراض على لفظه والتحقيق لمعانيه ، فزريت علي نحته
وسبكه كما زريت على معناه ولفظه ، ثم طعنت في الغرض
الذي اليه نزعنا والغاية التي اليها قصدنا على انه كتاب معناه
أنه من اسمه وحقيقته أتق من لفظه الخ . » ويظهر ذلك بشكل
خاص من هذه السطور القليلة (الحيوان ٤ ، ٣٧٨) : « وقد
كتبنا قصة (اي قصة مسيلمة) وقصة ابن النواحة في كتابنا
الذي ذكرنا فيه فصل ما بين النبي والمتنبي ، وذكرنا جميع
المتنبيين وشأن كل واحد منهم على حدته ، وبأي ضرب كان
يحتال ، وذكرنا جملة احتمالاتهم والابواب التي تدور عليها
مخاريقهم ، فان اردت ان تعرف هذا الباب فاطلب هذا
الكتاب فانه موجود . »

١٧٤ - كتاب في ذم النبيل .

ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٩ ، الكتبي ١٥٥ (٢) .

ج (بروكلمان ، ٢٤٣ ، السندوبي ، رقم ٧١ .

(١) عنه ، ٢١٠ .

(٢) ابن النديم ، ٢١١ .

١٧٥ - رسالة في مدح النبيذ وصفة اصحابه .

(أ) قبل ٢٣٥ .

(ب) ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٩ ، الكتبي ، ١٥٥ ، أ ،
الفهرست ، ٢٢ ، (١) .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٣ ، رقم ٣٤ ، السندوي ، رقم ١٢٧ .

(د) المتحف البريطاني ، ١١٢٩ ، برلين ٥٠٣٢ (انظر اوربان ،
١٩٥٤ ، ٨٦) .

(و) طبع على هامش الكامل ، ١ ، ٩٧ - ١٢٠ ، رسائل ، ٢٨٥ -
٢٩١ .

(ز) منتخبات (ريشر) ، ١١١ - ١١٢ .

١٧٦ × رسالة في النابتة .

(أ) نحو ٢٢٥ .

(ب) ابن قتيبة ، مختلف الحديث ، ٩٥ ، تاج العروس .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٢ ، رقم ٧ ، السندوي (في بني امية) .

(د) داماد ، ٩٤٩ . *مركز تحقيق وتصحيح*

(هـ) طبعة ج . فان فلوتن ، المجلد ١١ من باريس ١٨٩٩ ،

١١٥ - ١٢٣ ، طبعة د . جلي في لغة العرب ، ٨ ، ٩٢ -

٣٩ ، طبعة الرفاعي ، في عصر المأمون ، ٣ ، ٧٢ - ٨٠ ،

الجمهرة ، ٤ ، ٦٠ - ٧٥ ، رسائل ، ٢٩٢ - ٢٩٩ (٢) .

(ز) ترجمة فرنسية ، هلا ، في AIEO الجزائر ، ١٩٥٢ ، ٣٠٢ -

٣٢٥ .

(ح) فان فلوتن ٩٩ - ١١٥ ، ج ليفي دلا فيدا ، في RSO ، ٨ ،

٢٩٦ - ٢٩١

(١) هينه ، ٢١١ . (رسالة في مدح النبيذ) .

(٢) ورسائل الجاحظ ، الجزء الثاني ، ص ٧ - ٢٣ .

ط (ان جميع الطبقات الشرقية تحمل عنوان : في بني امية .
رسالة في نفي التشبيه . انظر تشبيه .
١٧٧ - كتاب النعل .

ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٥ ، ١٠٦ .

ج (بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ٧٣ ، السندوبي ، رقم ١٥٢ .
١٧٨ - كتاب الرد والشطرنج .

ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٨ ، ١١٠ ، الكتبي ، ١٥٥ (١) .

ج (بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٧٥ ، السندوبي ، رقم ١٥٠ .
١٧٩ - كتاب الناشر والمتلاشي .

ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٨ ، الكتبي ، ١٥٤ (٢) .

ج (بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٦٦ ، السندوبي ، رقم ١٤٩ .
١٨٠ xx - كتاب الرد على النصارى واليهود .

أ (قبل ٢٣٢ .

ب (الحيوان ، ١ ، ٩ ، ٤ ، ٢٨ ، ارشاد ، ٤ ، ٧٢ ،

١٦/٧٦ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، الباقلاني ، ٢ ، ١٤٤ (٣) .

ج (بروكلمان ، ٢٤٢ ، رقم ١٣ ، السندوبي ، رقم ٧٥ .

د (المتحف البريطاني ١١٢٩ .

ه (طبع على هامش الكامل ، ٢ ، ١٤٨ - ١٩٩ ، ٣ رسائل

(فنكل) ١٠ - ٣٨ .

ز (منتخبات (ريشر) ٤٠ - ٦٧ ، ترجمة انكليزية بقلم فنكل

في (١٩٢٧) ، ٣١١ | ٣٣٤ ، ترجمة فرنسية بقلم ا .

س . ألونش في اسبري ١٩٣٩ ، ١٢٩ - ١٥٥ (٤) .

(١) ابن النديم ، ٢١٢ .

(٢) عنه ، ٢١١ (العاشق الناشر والمتلاشي) .

(٣) ابن النديم ، ٢١٠ ، (الرد على النصارى) .

(٤) طبعة عبد السلام هارون ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ ، ص ٣٠٣ - ٣٥١ .

ط (يدوانه لا يجب ان نعتبر آخر اسمه كتاب على النصارى
واليهود ، كما فعل بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٥ ،
والسندويي ، رقم ١٥١ .

١٨١ - كتاب النواميس .

ب (البغدادي ، الفرق ، ١٦٢ .

ج (بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٦٥ ، السندويي ، رقم ١٥٥ .

ط (اليك ما يقوله البغدادي : « وهي فرقة للمحتالين يمتلبون بها
ودائع الناس وأموالهم » .

- كتاب في نظم القرآن . انظر القرآن .

١٨٢ - كتاب الرد على ابي اسحق النظام .

ج (بروكلمان ، ٢ ، ١٥٩ .

د (المتحف البريطاني ، ١١٢٩ .

ح (هيرشفلد ، ٢٠٠ .

و (نصوص .

رسالة في النساء . انظر رجال *مركز تحقيقات علوم وادب*

١٨٣ - كتاب في النبيل والتنبيل ودم الكبر .

ج (بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٤٦ .

د (المتحف البريطاني ، ١١٢٩ .

و (نصوص .

ط (ان النصر يدهو الى الظن بانه الكتيب الذي يحمل العنوان :

الكبر المستحسن والمستقبح (اعلاه ، رقم ٨٨) (١) .

١٨٤ x - كتاب الحجة في تثبيت النبوة .

أ (قبل ٢٣٢ .

ب (الحيوان ، ١ ، ٩ ، ٤ ، ٢٠٠ ، ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٣ ،

(١) طبعة عبد السلام هارون ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ ، ص ١٦٩ - ١٨٨ بعنوان

« النبيل والتنبيل ودم الكبر » والعنوان ينطبق على المحتوى . وظن بلا ليس في محله .

٢١٠١ (دلائل النبوة) ٤ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٨ (الحجر والنبوة) (١) .

ج (بروكلمان ، ٢٤٢ ، السندويي ، رقم ٥٦ .

د (المتحف البريطاني ، ١١٢٩ ، برلين ٥٠٣٢ (انظر اوريان ، ١٩٥٤-٨٦) .

و (طبع على هامش الكامل ، ١ ، ٢٧٥-٢٠٦ ، ٢ ، ١ - ٤٨ ، رسائل ١١٧-١٥٤ (٣) .

ز (منتخبات (ريشر) ١١٢-١٥٩ .
كتاب النبوات .

أ (قبل ٢٣٢ هـ .

ب (الحيوان ، ٤ ، ١٦٤ .

ط (يبدو انه الكتاب السابق او الكتاب المسمى فرق ما بين النبي والمتنبي .

١٨٥ x - رسالة في تفضيل النطق على الصمت .

ج (بروكلمان ، ٢٤٣ ، رقم ٣١ ، السندويي ، رقم ٤٦ .

د (المتحف البريطاني ١١٢٩ .

و (طبع على هامش الكامل ، ٢ ، ٢٢٧-٢٣٨ ، ١١ رسالة ، ١٤٨-١٥٤ .

ز (منتخبات (ريشر) ١٨٢-١٨٦ (٣)

كتاب الهدايا .

ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٨ ، الكتبي ١٥٤ ب (١) .

(١) ابن النديم ، ٢١١ .

(٢) آثار الجاحظ ، ص ٢٤١-٢٧٥ ، بعنوان « حجج النبوة » .

(٣) ابن النديم ، ٢١١ ، (منحول) .

(٤) طبعة عبد السلام هارون ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ ، ص ٢٢١-٢٤٠ .

ج) السنديوي ، ص ١٥٨ .
ط) اشار ياقوت الى انه منحول .

١٨٦ - كتاب فضل هاشم على عبد شمس (لفرق ما بين هاشم وعبد
شمس) .

أ) قبل ٢٣٢ هـ .

ب) الحيوان ، ١ ، ٦ ، النهج ، ٣ ، ٢٥٢ - ٢٩٩ .

ج) بروكلمان ، ٢٤٢ ، رقم ١٠ ، السنديوي ، رقم ١٠٢ .

و) طبعة د . جلبي في لغة العرب ، ٩ ، ٤١٤ - ٤٢٠ ، رسائل ،

٦٧ - ١١٦ ، محتمل انه اعتمد على النهج ، ويمدان ابن ابي

الحديد اكمل نص الجاحظ ، فان السنديوي لم يحذف

الاشارات الى الاعمال اللاحقة .

الرسائل الهاشميات . انظر كلام .

كتاب الهجاء والصرحاء ، انظر صرحاء .

١٨٧ × - رسالة في استحقاق الوعد .

ج) بروكلمان ، ٢٤٣ ، رقم ٣٢ ، السنديوي ، رقم ١٧ .

د) المتحف البريطاني ١١٢٩ ، برلين ، ٥٠٣٢ (انظر اوريان ،

١٩٥٤ ، ٨٥) .

و) طبع على هامش الكامل ، ٢ ، ٢٢٠ - ٢٢٧ ، ١١ رسالة ،

١٧٣ - ١٧٧ .

ز) منتخبات (ريشر) ١٩٥ - ١٩٧ .

١٨٨ - كتاب الوعد والوعد .

أ) قبل ٢٣٢ هـ .

ب) الحيوان ، ١ ، ٩ ، العداوة ، ٩ (فصل الوعد) ، ارشاد ،

(١) وفي آثار الجاحظ ، ص ١٩٣ - ٢٤٠ .

- ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٨ ، الكتبي ، ١٥٤ أ^(١) .
- ج (بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٣٧ ، السندوبي رقم ١٥٧ .
- ١٨٩ - رسالة في مدح الوراق (والوراقة) .
- ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٨ ، ١٠٩ ، الكتبي ، ١٥٥ أ^(٢) .
- ج (بروكلمان ، السندوبي ، رقم ١٢٨ .
- هـ - رسالة في ذم الوراق (الوراقة) .
- ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٨ ، ١٠٩ ، الكتبي ، ١٥٥ أ .
- ج (بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٦٩ ، السندوبي ، رقم ٧٢ .
- ١٩٠ × - رسالة في الوكلاء والموكلين .
- ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٧ ، الكتبي ، ١٥٤ أ^(٣) .
- ج (بروكلمان ، ٢٤٤ ، السندوبي ، رقم ١٥٨ .
- د (المتحف البريطاني ١١٢٩ .
- و (طبع على هامش الكامل ، ٢ ، ٢٢٠ - ٢٢٧ ، ١١ رسالة ، ١٧٠ - ١٧٢ .
- ز (منتخبات (ريشر) ١٩٤ - ١٩٥ .
- ١٩١ - كتاب اخلاق الوزراء .
- ب (العداوة ، ٩٩ .
- د (برلين ، ٥٠٣٢ ، (انظر اوريان ، ١٩٥٤ ، ٨٦) .
- ١٩٢ - كتاب الرد على اليهود .
- ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٧ ، الكتبي ، ١٥٤ أ ،
- الصفدي ، ١٣٤ أ^(٤) .

(١) ابن النديم ، ٢١١ (الوعيد) .

(٢) عنه ، ٢١١ ، (رسالة في مدح الوراقين) .

(٣) ابن النديم ، ٢١١ ورسائل الجاحظ ، ج ٤ ، ص ٩٥ - ١٠٥ .

((٤)) عنه ، ٢١١ .

ج (بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٢٤ ، السندوبي ، رقم ٨١ .
ط) ضمن الرد على النصارى التي بشكل معها بدون شك كتاباً واحداً ،
ونقرأ مع ذلك في الحيوان ، ١ ، ٩ ، ١٠ ، كتابي على
النصارى واليهود .

١٩٣ - الرسالة اليتيمة .

ب (ارشاد ، ٦ ، ١٦/٧٨ ، ١٠٩ ، الكتيبي ، ١٥٥ أ .
ج (بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ٩٨ ، السندوبي ، رقم ١٥٩ .

حاولنا في الصفحات السابقة تنظيم كشف كامل حسب الامكان
بآثار الجاحظ ، ولكن لائحتنا تشمل ايضاً على اخطاء وثرغرات (وتكرار
بدون شك) ، لانه يستحيل معرفة جميع مصنفات كاتبنا الخصب بشكل
صحيح . ومن بين مايتي عنوان مرقمة اعتماداً على تحقيقات ليست اكيدة
ابداً - اذ نجد المؤلف الواحد يذكر مرات عديدة تحت عناوين مختارة
بصورة اعتباطية - ثلاثون منها فقط تنطبق على مؤلفات او رسائل محفوظة
بمجمليها وخمسون منها كتابات حفظت جزئياً ، وما بقي منها يعطي فكرة
عامة عن محتواها ، اما الباقي كله فيسندهي منا دراية عظيمة طالما ان
مخطوطات جديدة لم تكتشف بعد .